



جامعة ابن خلدون
تيارت

العلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية



العدد السابع
ديسمبر 2014

اليداع القانوني: 2005 / 718 ر.م.د. 5896 / 1112

الخدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة ابن خلدون - تيارت

العدد السابع 2014

Dépôt légal 718-2005 الإيداع القانوني

ISSN1112-5896: ردمك

بسم الله الرحمن الرحيم

□ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ □.

صدق الله العظيم

سورة آل عمران، الآية 140

الخدمونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن خلدون - تيارت العدد السابع 2014

الرئيس الشرفي للمجلة:

الأستاذ الدكتور مدربل خلادي، مدير جامعة ابن خلدون تيارت

مدير المجلة:

الدكتور تاج محمد

رئيس التحرير:

الدكتور شرف عبد الحق

هيئة التحرير:

د. بليل محمد، د. حيمي عبد الحفيظ، د. قريصات زهرة، د. كمال بن صحراوي، د. مارييف منور، د. فوزية لزغم، د. حياش فاطمة، د. ملوكي جميلة، د. دويالي خديجة، د. لكحل فيصل، د. كلاخي ياقوت، أ. مرزوقي محمد، أ. موهوب مراد، أ. رمضان حسين، أ. سعادة ياسين، أ. علي محمد، أ. بوخاري عمر، أ. الطيب بوجمعة نعيمة، أ. كرتالي نورالدين.

هيئة الاستشارة:

من جامعة وهران: أ.د. بن نعمة عبد المجيد، أ.د. جيلالي سلطاني، أ.د. فغورور دحو، أ.د. غازي مهدي جاسم الشمري، أ.د. مهديد إبراهيم، أ.د. عبد القادر بوعرفة، أ.د. مزيان محمد، د. بوعصبانة سليمان عمر، د. الحمدي أحمد، د. بوركبة محمد، د. بن سادات نصر الدين، د. بحري أحمد. من جامعة تلمسان: أ.د. عباس محمد، أ.د. عبد الجليل مرتاض، د. وهراني قدور، د. بن لباد غالي. من جامعة معسكر: أ.د. طيبي غماري، أ.د. بوداود عبيد، أ.د. ودان بوغافلة، د. جيلالي معاشو كويبيو، د. عدة بن داهة. من جامعة بلعباس: د. عسال نور الدين، د. شخوم سعدي. من جامعة مستغانم: د. سيكوك فويدر. من جامعة تيارت: أ.د. شريط عابد، أ.د. مدني بن شهرة، د. زروقي عبد القادر، د. بن جامعة الطيب. من جامعة المدية: أ.د. بوخلوة حسين. من جامعة خميس مليانة: أ.د. تلمساني بن يوسف. من جامعة البويرة: د. عائشة حسيني، أ.د. أوكيل مصطفى باديس. من جامعة الأغواط: د. باهي سلامي، أ.د. قفاف عبد الرحمن. من جامعة الجلفة: أ.د. بن حاج ميلود. من جامعة سطيف 2: أ.د. سفاري ميلود، أ.د. جوهاري سمير. من جامعة الجزائر: أ.د. جمال يحيوي. أ.د. حساني مختار. من جامعة الوادي: أ.د. لشهب أبو بكر من جامعة غرداية: أ.د. إبراهيم بكير بحاز، أ.د. أمانة أحمد. من جامعة بلعباس: د. شخوم سعدي من جامعة أدرار: د. لعل بوكميش. من جامعة المسيلة: أ.د. بركات عبد الحق. من المغرب: أ.د. حسن الصادقي، د. إدريس بوهليلة، د. لحسن تاوشخت، أ.د. أحمد الشكري. من سلطنة عمان: أ.د. بن معمر محمد، أ.د. بوعلام بلقاسمي.

قواعد النشر بالمجلة

إن صفحات مجلة الخلدونية مفتوحة للباحثين من داخل الوطن وخارجه. ومن أجل تسهيل عمل المجلة يرجى من الراغبين في نشر بحوثهم الالتزام بالقواعد التالية:

- 1- أن يكون العمل العلمي أصيلاً لم يسبق نشره.
 - 2- ينبغي أن تتميز الأعمال المقدمة بالجدة والعمق في الطرح وبأسلوب السليم والمنهجية العلمية، ولا تقبل المجلة المواد المنشورة أو المقدمة للنشر في جهات أخرى.
 - 3- أن لا تزيد عدد صفحات المقال عن 15 صفحة.
 - 4- أن تكون اللغة العربية مكتوبة بخط Traditional Arabic بحجم 16 واللغة الأجنبية بحجم 12 خط Times New Roman، وأن يرفق المقال بملخصين مع الكلمات المفتاحية باللغتين العربية والإنجليزية.
 - 5- لا يقبل أي مقال بعد انتهاء الأجل، والمجلة غير ملزمة بإعادة الأصول المرسلة إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.
 - 6- كل الأعمال العلمية المقدمة تخضع للتحكيم السري؛ العلمي النوعي والمتخصص قبل النشر، وتُخطر المجلة الباحثين بقرار صلاحية المواد أو عدمها. كما أن البحوث والدراسات التي يرى المحكمون تعديلها تُردُّ إلى أصحابها لإجراء التعديلات لكي تأخذ طريقها إلى النشر. وتحتفظ المجلة بحقوقها في إدخال تعديلات، أو تأخير النشر إلى عدد قادم حسب إمكانياتها،
 - 7- يجب الالتزام بالطرق العلمية المقدمة في النشر، على أن تكون الهوامش يدوياً وفي آخر المقال.
 - 8- تكون المقالات مصحوبة بملخصين إحداهما بلغة المقال والثاني بإحدى اللغتين (فرنسية أو إنجليزية).
- وسائل الإيضاح:**
- يجب أن تقدم الجداول الإحصائية والرسوم البيانية والخرائط والصور الأصلية مستقلة عن النص في (A4) بشكل فردي أو جماعي مع ذكر رقم الجدول أو الشكل. ويجب أن تتسم وسائل الإيضاح بالوضوح.
- كل المراسلات توجه إلى البريد الإلكتروني للمجلة: alkhaldonia.fsh@gmail.com

ما تنشره المجلة لا يعبر سوى عن رأي صاحب المقال، ولا يعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة التحرير

الفهرست العام للموضوعات

8	تقديم.....مدير المجلة
9	افتتاحية العدد.....رئيس التحرير
ملف التاريخ والآثار	
12	المتحفون الفرنسيون والتعذيب / د/ عسال نور الدين
21	مسألة اندلاع الثورة الجزائرية في الخطاب الديني / د/ بشير بلمهدي عمر (1954- 1956)
30	الرواية الشفوية وأثرها في نقل التراث العربي / د/ عبد الغفار بن نعمة
49	الرسائل الإخوانية بين متصوفة مغرب القرن التاسع عشر رسالة العربي بن عطية الله الونشريسي إلى أبي زيان الغريسي أنموذجا / د/ عبد الحق شرف
52	قضايا الجزائريين التعليمية في مداولات المجالس العامة بالجزائر ما بين 1945- 1954 / د/ محمد بليل
65	الشعر البديعي في عصر الدويلات بين تعليمية البلاغة وتربية الذوق / د/ زروقي عبد القادر
87	نظرة عن العيون والجواسيس في بلاد المغرب الإسلامي من ق 3- 5هـ / 10- 12م / د/ حيمي عبد الحفيظ
96	الحصار الفرنسي على الشرق الجزائري من خلال وثائق أرشيفية (1242.1246هـ / 1827.1830م) / د/ خديجة دويالي
102	انتفاضة سكان الظهرة 1845.1847 / د/ حباش فاطمة
111	اندلاع الثورة في المنطقة الثالثة ومظاهر من التأزر الثوري بينها وبين المناطق الأخرى / د/ عائشة حسيني
121	إطلالة على فن التصوير القاجاري / د/ إيمان محمد العابد ياسين
139	البربر في جيش الخلافة الاموية في الاندلس 350- 392هـ / 961- 1003م / أ/ عمر بوخاري
150	موقف رجال الحركة الوطنية من الكيان الصهيوني بفلسطين 1936/1948. / د/ ياقوت كلاخي
161	الرحلة العلمية ودورها في حركة التعليم بالاندلس بين عصري الإمارة وملوك الطوائف (138- 479 / 756 - 1086م) / أ/ بن حاج ميلود
172	دور العامل الاجتماعي في الحركة العلمية لعلماء الجزائر خلال العهد العثماني / أ/ الحبيب خنفار

179	أ / إلياس زلماط	صور من رد المظالم في الإسلام من عهد النبوة إلى عهد نور الدين محمود
199	أ / محمد عليلي	الدولة الرستمية إشكالية الإمامة بين النظرية السياسية والممارسة العملية
215	أ / عامر عنان	نشاط جيش التحرير الوطني في منطقة تيسمسيلت سنة 1959 من خلال تقارير الدرك الفرنسي
233	أ / بغداد غربي	أضواء على خطة الكتابة على عهد الموحدين
253	أ / عبد القادر طويلب	النظام المالي الجبائي عند المرابطين وأثره السياسي نظام القبالات نموذجا
267	أ / قندوز عبد القادر	الوضع الصحي لسكان الجزائر في العهد العثماني
286	أ / موساوي مجدوب	فهرسة لمؤلفات الفقيه أحمد ابن أبي محلي المخطوطة
301	أ / سهام ميلودي	المواقف العربية و الدولية من تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية خلال الثورة التحريرية 1958-1960
314	أ / الطاهر موساوي	الصحراء الجزائرية من الاستكشاف إلى التوغل والاحتلال 1828-1934
ملف الفلسفة، علم الاجتماع، علم النفس		
332	د / لكل فيصل	مشروع الحداثة في الفكر العربي والإسلامي المعاصر "قراءة تحليلية نقدية
350	أ / بن سليمان عمر	مفهوم التسامح في الإسلام
360	أ / خليفة داود	الفكر الكلاسيكي وميلاد منظومة التبسيط والاختزال
372	أ / عبد القادر مصطفى	ابستمولوجيا العلاقات النسبية اللسانية حديث عن منطق اللغويات الاستقرائية
384	د / محمد تاج	تعليم النحو لغير الناطقين باللغة العربية "كتاب الأستاذ صوالح محمد أنموذجا
390	د / بن جامعة الطيب	أثر الصورة في تنوع مصادر ثقافة الطفل
398	د / لعل بوكيمش	تنمية الموارد البشرية لتحقيق التنمية
409	د / قريصات زهرة، أ / جمال وليد	تمثيلات القيم في العلاقة أستاذ - طالب في الوسط الجامعي- دراسة ميدانية
423	د / بن لباد الغالي، د / ملوكي جميلة	العولمة الثقافية بين القبول والرفض
432	د / منور مارييف	العامل والمؤسسة- رؤية وقائية صحية-
442	د / الصديق تياقة	نمط المسكن وتطوره بالجنوب الغربي

		الجزائري في بلاد "القصور" - ادرار-
459	أ/ تواتي عبد الغني، د/ بشلاغم يحي	دور التكوين في علم النفس في تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي دراسة على طلبة علم النفس ببعض جامعات الغرب الجزائري
478	د/ سمير بن موسى	الرضا الوظيفي بين أساتذة الجامعة - دراسة تطبيقية بأقسام علم النفس و علوم التربية في الجامعات الجزائرية
489	أ/ براخية عبد الغني	الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها تلاميذ السنة الثالثة ثانوي - دراسة ميدانية ببعض ثانويات ولاية المسيلة -
513	أ/ بركات عبد الحق	الشعور بالوحدة النفسية وعلاقته بتقدير الذات لدى عينة من الطلبة بجامعة الجزائر
535	أ/ فريد بونخلة	دور القيادة التنظيمية كمدخل إستراتيجي لتنمية الموارد البشرية في المؤسسة الجزائرية
553	سمير جوهاري	تحديد الاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات
576	د/ بن زيان إيمان أ/ بوطبة نور الهدى	ممارسة عملية المرافقة في الجامعة الجزائرية
590	أ/ بن سادة شامي	تكوين المكونين ودوره في الكفاءة التدريسية لأساتذة المرحلة الثانوية
604	أ/ زهواني عمر	كروولوجيا الهوية الاثنية في الجزائر
626	أ/ حليس سمير	التنظيم بين الحتمية التكنولوجية والنموذج الثقافي في الإدارة والتسيير
641	أ/ سعد الحاج	أثر اضطرابات التصور الجسدي على الديسغرافيا
660	أ/ بريقل الهاشمي	التحضر والأسرة الجزائرية

تقديم:

بقلم الدكتور تاج محمد، مدير الخلدونية

في عددها السابع الذي تطل به مجلة الخلدونية، تكون قد وفّت بعهد قطعته على نفسها، وإضافة تضيفها لصرحها، وسيرورة يسجلها التاريخ لها وللعاملين من أجل استمرارها. فهي تأبى أن تختفي، وترفض المغادرة، وهي بهذا الظهور وهذا الزخم من المقالات المتخصصة، تجمع السيادة والقيادة في ميدانها.

فقد غاص أبنائها في عمق التاريخ لاستخراج درر من أعماقه بمراحله القديمة والوسيلة والحاضرة والمعاصرة. كما أن روادها من أهل الفلسفة أهدوا قراء الخلدونية باقة من ألوان الفكر و المعرفة. وشرح أهل المجتمع بمناهجهم الاجتماعية، وتلمسوا الأسباب ورصدوا النتائج واقترحوا الحلول. ثم إن المختصين في علم النفس وعلوم التربية؛ لامسوا جزءا كبيرا من قضايا الإنسان النفسية والتربوية.

هذه الطبعة صدرت انطلاقا من مسؤوليتها العلمية، لأنها الحاضنة لمسارات المجتمع من حوادثه وتخميناته الاجتماعية، وومعالجاته النفسية، واستشرافاته الفلسفية.

تصدر هذه الطبعة؛ ولا زالت كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - أساتذتها - طلبتها - عمالها - أقسامها - جذرانها، يتذكرون طيف زميلتهم ورفيقة دربهم الأستاذة الشهيذة بقبق الزهرة، التي اختارت أن ترحل عن عالم الحقيقة وتجاور ربها إلى جانب الأنبياء والصدقين وحسن أولئك رفيقا. ذهبت ولا زالت أصواتها تدوي هنا وهناك، تسجل بأحرف ذهبية عمق التاريخ الذي كانت تدرسه، وماتت وهي قادمة لتدريسه، فلك أيتها الشهيذة عبق هذه الباقية، وأريج هذه الزهور المختارات، في كل كلمة حسنة بل وفي كل حرف، لروحك الطاهرة هذه المقالات.

افتتاحية العدد :

بقلم الدكتور عبد الحق شرف، رئيس تحرير الخلدونية

كم كان العمل شاقا ومضنيا في ملمة شمل هذا العدد ، والانطلاق في رحلة جديدة مع الأبحاث الجادة لقراء الخلدونية الأوفياء. وكم كان الهدف أسمى في المضي قدما بهذه الأبحاث من مرحلة القراءة والتحكيم إلى مرحلة النشر والتدوين.

ولم يكن العمل على هذه النسق؛ بالأمر السهل الهين كما يخيّل إلى البعض. إلا أنني أقول وبكل فخر واعتزاز، أنني لمست تجاوبا وحرصا شديدين من جمهورنا الأكاديمي الباحث - التواق إلى كل جديد في شتى مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية- ففتح لنا قلبه، وجدّد ثقته فينا وفي طاقم الخلدونية بصفة عامة، فاحتضناه بين جنباتها، وعلى ضفاف جامعة ابن خلدون الكريمة المعطاءة كان اللقاء مفعما بكل معاني النبل والقيم الإنسانية الراقية.

نعم؛ لقد استطاعت الخلدونية بعد توقفها عن الصدور لمدة معينة، ولأسباب يدركها الكثير؛ أن تُجدد اللقاء، وأن تضرب موعدا آخر لمحبيها في هاته الإطلالة السابعة، التي جاءت في اعتقادي متميزة عن سابقتها، لا من حيث مستوى الطرح فحسب؛ بل من حيث وصول صداها إلى خارج الجزائر كذلك، حتى أصبح الباحثون من كل حذب وصوب على اختلاف أجناسهم وأعراقهم، وتنوع مشاربهم وثقافتهم، يسعون لئن تدوّن أبحاثهم بين طيّ الخلدونية. حيث تلقت هيئة التحرير أكثر من ستين مقالا، قدّم أصحابها أحسن ما جادت به قرائحهم من أعمال علمية جادة، وتم اختيار جزء منها -على حسب الإمكانيات المتوفرة والمتاحة- نقدمها اليوم عربون وفاء إلى قرائنا الأفاضل.

وإنني على يقين أن المسيرة في هذا العدد، كانت طويلة وشاقة، ومحفوفة بالعقبات والصعاب، ولم يتأتّ تذليلها إلا بتضافر جهود الكل؛ سواء من هيئة التحرير، أو الأساتذة الباحثين، أو هيئة التحكيم. وأغتتم الفرصة هاهنا بأن أقدم بأسمى عبارات الشكر والتقدير والاحترام لأساتذتنا الأجلاء؛ أعضاء هيئة التحكيم على صبرهم وأناتهم ومثابرتهم، من أجل تحكيم مقالات هذا العدد، الذي ودون شك رقى بمستوى الأبحاث إلى مستويات تحسد عليها الخلدونية.

وفي ختام هاته الكلمة المقتضبة، أجدد شكري لكل من مدّ لنا يد العون وشجعنا، من أجل إتمام مسيرتنا ونحن على رأس هيئة التحرير، وأخص بالذكر السيد عميد الكلية المحترم، الذي فتح لنا قلبه، بل وفتح لنا الباب على مصراعيه، وساعدنا على العمل في أحسن الظروف وفي أريحية تامة.

وأخيرا وليس بآخر؛ أضرب لأساتذتنا وباحثينا الأجلاء موعدا آخر؛ لإثراء مقالات العدد القادم، بأبحاثهم وآرائهم الجادة والسديدة، التي ستثور درب الخلدونية، وتجعله نبراسا يهتدي به كل من تتوق نفسه الأخاذة إلى أن تغرف من بحور العلم والمعرفة غُرْفَةً تُطْفئ ظمأها، وتحيي مواتها.

ملف التاريخ والآثار

المثقفون الفرنسيون والتعذيب

د. عسال نور الدين، جامعة جيلالي ليابس، بلعباس

شكلت ثورة الجزائر منعطفا هاما في التاريخ المعاصر لمثقفي فرنسا الذين تجاهلوا تماما أن فرنسا في حرب ضد الجزائر ولا يعيرون لحركات التحرر أي أهمية، فسياسة التعذيب التي مارسها الجيش الفرنسي ضد الشعب الجزائري لم تجد أي ردة فعل فعلية، فكان لا بد من انتظار سنة 1955 حتى تحتل أخبار الجزائر صفحات الجرائد، ومساحات للنقاش ولتلفت الطبقة المثقفة الفرنسية إلى حقيقة الأمور، فقد كان هاجس شريحة واسعة من المفكرين بعد الحرب العالمية الثانية القضاء على الخطر النازي، وفهم العلاقات بين الشرق والغرب.

فحقيقة أن بعض المثقفين الفرنسيين ساندوا نضال الشعب الجزائري، لكن ظهرت فئة أخرى لم تكتف بعدم المساندة بل أعلنت عن حقيقة أفكارها وفلسفتها المتمثلة في معاداة الاستقلال والحرية فهذا الأديب أندري مارلو André marlo وهو أحد أصدقاء ديغول الذي عبر عن أفكاره الأدبية وتجربته في الحرب العالمية الثانية في كتابه " الشرط الإنساني " La condition humaine وعانى من المعاملة الوحشية للألمان وأصبح وزيرا للثقافة في عهد الجمهورية الخامسة، يتنازل عن أفكاره ومواقفه التي كان يؤمن بها كالحرية الإنسانية، ورفض التصريح بأن الحكومة الفرنسية أمرت السلطات العسكرية في الجزائر بتطبيق أوامرهم بممارسة التعذيب، وعندما طلب منه في سنة 1958 المشاركة ضمن مجموعة من المثقفين الفرنسيين الذين ندوا بالاستعمار رفض ذلك معتبرا أن فرنسا ليست دولة استعمارية في الجزائر، ولابد من ترك الأشياء تأخذ مجراها الطبيعي، ولو إلى حد التعذيب.¹

كما عبر ألبار كامو Albert camus المفكر والأديب والفيلسوف الفرنسي عن مناهضته للثورة الجزائرية، وتأييده لفكرة " الجزائر فرنسية " ويमानه بحل فيدرالي حتى ولو كان بالتعذيب وقتل الآلاف من السكان المسلمين، فقد أيد مجيء " مندريس فرانس " في 1955 إلى الجزائر، وذلك لإعادة النظام والقانون الفرنسي لمجرأه الطبيعي على أرض الجزائر.

كان موقف " كامو " سلبيا برفضه الاعتراف بتاريخ و أصالة الشعب الجزائري، وشجع الجيش الفرنسي على استعمال شتى الأساليب لحماية الأوروبيين بالجزائر حيث قال في سنة 1955: " عندما يعلن عن استقلال الجزائر، سيقوم بنشاطات مكثفة ودعاية ضد تقرير المصير للشعب الجزائري."²

ومن ستوكهولم حيث تسلم "البير كامو" جائزة نوبل للأدب، وردا على أسئلة الطلبة السويديين حول الأوضاع الجارية في الجزائر، صرح بأنه يدين الإرهاب الأعمى الذي يمارس في شوارع الجزائر العاصمة والذي يمكن أن يضرب أمه ذات يوم أو عائلته، وأنه يؤمن بشدة بالعدالة، ولكنني مستعد للدفاع عن أمي قبل العدالة . لكن جول روي Jules roy يرد عليه إن السؤال المطروح هنا، لم يكن في تفضيل أمك على العدالة، بل السؤال هو أن تحب العدالة مثل ما تحب أمك³ واعتبر أحمد طالب الإبراهيمي أن كامو بالرغم من أن الجزائريين خولوا له لقب كامو الجزائري فإنه لا يستحق هذه الجائزة.⁴

في الوقت نفسه اختار الكثير من المثقفين الفرنسيين مواقفهم بكل شجاعة، فقد قام العديد من المثقفين، بتشكيل لجنة في نوفمبر 1954 من أجل إطلاق سراح ميصالي الحاج، وكل ضحايا القمع، وضمت

هذه اللجنة: جون كاسو Jean cassou ، مارسو بيفار Marceau pivert ، اندري برتون André breton ، ايف ديشزال Yves dechezelles ، الكسندر ايبير Alexandre hebert ، ايف جوفاف Yves jouffaf. وفي 09 ديسمبر 1954 ظهرت لجنة مكافحة القمع الاستعماري، نشطها دنيال غيران Daniel guerrin ، ثم لجنة من أجل الدفاع عن الحريات الديمقراطية في أوت 1955 من قبل كلود بوردي Claude bourdet ، وجورج فونتيس Georges fontenis ، ولجنة ضد تنفيذ حكم الإعدام على مصطفى بن بولعيد في جويلية 1955 بمبادرة روبر شارمي Robert charmy ، روبر بارارات Robert barrat ، وتوقيع جيلبار جيبسون Gilbert gibson ، فرانسوا مورياس François maurias ، جون ماري دوميناك Jean marie domenach ، ولجنة عمل المثقفين ضد استئناف الحرب في الشمال الإفريقي، ولجنة العفو عن المساجين السياسيين ما وراء البحر، نشطها ماسينيو Massignon الذي طالب من رئيس الجمهورية الفرنسية، بتعليق تنفيذ أحكام الإعدام، والحركة للعدالة والحرية ما وراء البحر، نشطها جون روس Jean rous ، لويس ايدوفيل Louis houdeville ومارسو بيفار Marceau pivert⁵.

وتتضح مواقف المثقفين تجاه الثورة الجزائرية في انطلاقتها الأولى رغم أنها ارتبطت بالمسألة الكولونيالية، ذلك أننا نلاحظ كثير من التردد والالتزام لصالح استقلال الجزائر، ففي خريف 1955 ولأول مرة نشرت على صفحات جريدة "لوموند" عريضة جماعية لعدة أسماء ثقافية وفكرية معروفة توضح موقفها من الثورة وضمت هذه العريضة جون بول سارتر Jean paul sartre ، جون لوي بارو Jean louis barrot ، وروجي مارتن دي غارا Rogert martin de gara ، والأسقف بيار Pierre وفي السابع من نوفمبر من العام نفسه، اجتمع مثقفون من أجل السلم في الجزائر، قرروا العمل بكل الطرق لوضع حد للحرب الدائرة في الجزائر.⁶

كما ساهم فرنسيس جونسون Francis jeanson ، في دعم الثورة الجزائرية فقد أصدر في سنة 1955 كتابه الأول بالاشتراك مع زوجته كولت جونسون Colette jeanson بعنوان الجزائر خارجة عن القانون L'Algérie hors la loi الذي انتقد فيه بشدة سياسة الاستعمار الفرنسي ودافع عن حقوق وحرية الشعب الجزائري وأيد جبهة التحرير الوطني حيث ذكر: "إن استمرارية القمع في الجزائر سيكلف الوطنيين الفرنسيين حريتهم المدنية، والعمال الفرنسيين سيقبضون محل صفقات السلطة".⁷

وفي 1956 شكل منظمة سرية لتقديم يد المساعدة للمهاجرين الجزائريين في فرنسا، وهي شكل من أشكال التعبير السياسي والتمرد والعصيان على السلطة الحاكمة، وكان عملها هو جمع الاشتراكات والأموال والألبسة والأدوية وتهريبها إلى الدول الأوروبية لمساعدة اللاجئين، ووقف موقفا شجاعا ضد سياسة فرنسا الاستعمارية مستكرا جميع مظاهر التعذيب المطلقة على الشعب الجزائري فلا للتعذيب المستمر والطويل للمناضلين والمشبوهين، لا للتجميع المستمرة للشعب الجزائري، محملا الشعب الفرنسي تبعات هذه السياسة لأنه وقف عاجزا أمام سلطته وانحيازه الأعمى لطائفة معينة أو لحزب.⁸

لقد بدأت الأصداة المؤيدة للثورة الجزائرية تظهر في سنة 1956 التي شكلت منعطفا حاسما، إذ ازدادت تنظيما وتصعيدا ووضوحا في الوصول إلى الاستقلال، ففي 27 جانفي 1956 نظمت لجنة العمل تجمعا بقاعة واغرام Wagram تحت رئاسة مايوكس Mayoux ودنيال غيران، وجون روخس Jean roux واندري ماندوز André mandouz وجون بول سارتر، وايمي سيزار Aime cesaire وروبار يارات وكانت القاعة

مكتظة بثلاث أرباع من الجزائريين أعلنوا صراحة عن تأييدهم لجبهة التحرير الوطني، وجاء في كلمة ل سارتر: "إن الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نقوم به اليوم، هو المقاومة إلى جانب الشعب الجزائري، من أجل تخليص في نفس الوقت الجزائريين والفرنسيين من الديكتاتورية الكولونيالية"⁹ واجتمعت اللجنة من جديد في مارس بعد أيام من التصويت على قانون السلطات الخاصة في حكومة غي مولي مطالبة بوقف القتال مع المحاربين الجزائريين.

وفي 05 أبريل 1956 نشر هنري مارون Henry Marron أستاذ التاريخ القديم بجامعة السوربون مقالا في جريدة لوموند بعنوان فرنسا بلدي يحذر فيه الحكومة الفرنسية والرأي العام الفرنسي من مخاطر الوسائل المستعملة التي منحت في إطار قانون السلطات الخاصة، فهناك خطورة كبيرة على الصحافة والراديو، وأصبحنا نستمع إلى راديو سويسرا ونقرأ من الصحافة الأجنبية، وأكد على وجود مخاطر للتعذيب في كامل الجزائر واستحالة الدفاع عن قضية نبيلة بوسائل قمعية، فالشرف الفرنسي ينهار، والوطن في خطر.¹⁰

واستذكر الكاتب الفرنسي جول روي Jules roy أعمال التعذيب الوحشية الممارسة ضد الجزائريين في العديد من كتاباته خاصة أنه كان على دراية بالممارسات التي ارتكبتها الجيش الفرنسي في الهند الصينية، وقد أشار في كتابه: "أني اتهم الجنرال الفرنسي ماسو بسبب التعذيب الذي مورس في الهند الصينية. تركت الجيش الفرنسي... لم يبق عندنا غير الجزائريين... أنتم إلا أكذوبة وما زلتم تصفعون ضحاياكم بالدم".¹¹

وعبر الأستاذ الفرنسي "ماشينو" على أن الوقت قد حان لرفض الوضع الراهن فيجب على فرنسا أن تبطل أمام جميع الأمم حرب الإبادة في الجزائر لأن الرجال الأحرار يتألمون في ضمائرهم أمام جرائم الحكومة الاشتراكية، وطالب من محكمة العدل الدولية بمحاكمة مجرمي الحرب الفرنسيين وتعيين لجنة بحث في الجرائم التي ترتكب ضد الإنسانية.¹²

كما وجه أستاذ في الحقوق بباريس "رينيه كابتان" René capitaine رسالة إلى وزير المعارف الفرنسية على إثر سماعة" انتحار المناضل الجزائري " علي بومنجل "يوم 25 مارس 1957 مستذكرا فيها رسائل الإرهاب والتعذيب التي تمارسها السلطات الفرنسية في الجزائر، وإن هذه الأساليب التي لم تستعمل حتى ضد الأسرى الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية، والتي سمحت الحكومة الفرنسية بتطبيقها على الجزائريين، لهذا قرر التوقف عن التدريس في كلية الحقوق الفرنسية.¹³

ومن بين المثقفين الفرنسيين الذي حارب الفكر الكولونيالي نجد فرانز فانون Franz fanon الذي قدم استقالته إلى الحاكم العام من منصبه كطبيب في مستشفى الأمراض العقلية بالبلدية في نهاية 1956 والتحق بصفوف جبهة التحرير الوطني، واكتشف في هذه الأثناء حقيقة بنية الأوربي عامة والمجتمع الفرنسي خاصة، وأدرك حقيقة وجوده كأسود اللون في المجتمع الأبيض، فالملاحظة التي سجلها "فانون" بشأن العنف الاستعماري بأن الاستعمار ليس آلة مفكرة ليس جسما مزودا بعقل، وإنما عنف هائج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوى، فالوجه التخريبي الإرادي المطلق الذي ظهر بوضوح في حرب الجزائر لا يعني أن الاستعمار آلة صماء، لقد كان يفعل ذلك بقصد تحطيم إرادة الشعب، وحمله على أن يركع، ويتخلى نهائيا عن مطلب الاستقلال ولذلك يجب مواجهته، إلى جانب العنف الأقوى بالعقل والتفكير، وضبط الخطط.¹⁴

وفي كتابه "معذبوا الأرض" ذكر أن الدولة الاستعمارية ترتكب خطأ فادحا وتقترب ظلما لا يوصف

إذ هي اكتفت بأن تسحب من أرضنا قواها العسكرية وأجهزتها الإدارية، والاقتصادية... إن التعويض بأن المعنوي الذي يحققه لنا الاستقلال لا يعمينا عن الحقيقة، إنه لا يطعمنا من جوع".¹⁵

وكانت "لفانون" نظرة خاصة تجاه المثقفين الفرنسيين فهم لا يختلفون كثيرا عن المواطنين الفرنسيين العاديين، فلقد تشبعوا بواقع استعماري يجعل الجزائر قطعة من فرنسا، ومجرد التفكير في إمكانية فصل تلك القطعة عن الوطن تكون بمثابة خيانة لا تغتفر. وحسبه دائما فإن الجزائر ليست فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا يمنعها من ذلك التاريخ والجغرافيا، والثقافة والحضارة، والدين، والأوروبيون ليسوا جزائريون لأن الموانع كثيرة، وكان عليهم أن يشرحوا لمواطنيهم أن ما يجري في الجزائر إنما هو ثورة، تهدف إلى استرجاع السيادة المغتصبة وتحرير الأرض والإنسان معا.¹⁶

وبعد محاكمة "جميلة بو حيدر" كتب "فانون" في جريدة المجاهد إن دفاع "فرجيس" و"أرنو" هو شرف لهما، لكنهما أهملتا القضية الأساسية، فالشعب الجزائري يعرف أن هناك جميلات أخريات ويعرفا كذلك بأن الاستعمار يأمل أن يززع الإرادة الوطنية بمضاعفة الإعدامات¹⁷ وعابا عنهما أنها حاولا من خلال دفاعهما أن يقدموا للشعب الفرنسي مناضلة جزائرية مؤمنة بقضية و وقعت أسيرة في قبضة العدو كفتاة غرر بها وهي في حاجة إلى تعاطف الجمهور الفرنسي لإنقاذها من الموت. هذه الطريقة في المحاماة ليست طريقة للنضال من أجل مناصرة القضايا العادلة، ويرى أن أسلوب "فرجيس" و"أرنو" دليل قاطع على شلل الضمير الفرنسي وتخلفه التاريخي.¹⁸

كما ندد "جاك بياريف" Jacques Peyrega " عميد كلية حقوق الإنسان بالجزائر العاصمة في رسالة بعثها إلى وزير الدفاع "بورجيس مينوري" بعمليات القتل العشوائي في حق المواطنين الأبرياء، ثم أرسل نسخة من هذه الرسالة إلى جريدة لوموند في 05 أبريل 1957، لكن مجموعة من الطلبة الفرنسيين رفضت هذه الرسالة ملقبة إياه "بعميد الفلاقة" وقرروا قتله، مما دفعه إلى الفرار إلى فرنسا في 09 أبريل 1957.¹⁹

وبعد مقتل موريس أودان تشكلت الرابطة لحقوق الإنسان، ولجنة "موريس أودان التي قررت في 30 مايو 1958 تتظم هذه اللجنة وأربع جمعيات أخرى اجتماعا بفندق لوتيليا Lutelia حضره جيلبار علاق Gilbert Alleg، دانيال مايارد Daniel Mayer، الجنرال بيلوت Billotte، سارتر، فرانسوا مورياس، حيث نددوا بالتعذيب وطالبوا من الجنرال ديغول بوضع حد لهذه التجاوزات وأنجزوا ملفا حول القمع بالجزائر أرسل إليه في ديسمبر 1958 بهدف إطلاع السلطات العليا بعدم احترام حقوق الإنسان بالجزائر، وطالبوا بالعدالة وتسليط العقوبات على كل المسؤولين الذين تسببوا في هذه المأساة.²⁰

وبعد نشر كتاب التعفن La gangrène في 10 جانفي 1959 ظهرت مجموعة من المثقفين الفرنسيين ضمت ألبار شاتولي Albert chatelet، لوران شوارتز Laurent schwartz وهنري مارو Henry marou، جون دراخ Jean drech الذين نددوا بالتعذيب الذي لا يشرف الذين يقتربون هذه الجرائم و يأمرهم ويقبلون بها يعملون على نفيها وهم على علم بذلك، فالتعذيب بالنسبة إليهم هو جريمة ضد الإنسانية و الحرية، فلقد اختفى منذ قرنين وعليه أن يختفي إلى الأبد، وفي 15 جانفي من نفس السنة نشر مركز الإعلام ولجنة أودين تصريحاً مشتركاً رحبت فيه بإجراءات العفو التي اتخذها الجنرال ديغول لكنها تبقى غير كافية لحل مشكلة التعذيب بالجزائر وفرنسا طالما بقي الجلادون المعروفون يتمتعون بالحصانة، وبقاء شكاوى الضحايا بدون رد وحبسية الإجراءات البيروقراطية.²¹

ولعل من أبرز المثقفين الفرنسيين الذين تبنا موقفا جريئا ضد التعذيب هو جون بول سارتر الذي كان يرى أن الإنسان إذا تنازل عن حريته يعني تنازله عن صفته إنسانا وعن حقوق الإنسانية وحتى عن واجباته، وليس هناك من تعويض ممكن لمن يتنازل عن كل شيء، و هذا يناقض طبيعة الإنسان، ونزع كل حرية من إرادة الإنسان، هو نزع كل قيمة روحية لأعماله، وإذا كانت الحرب لا تخول الغالب حق إيقاع مذبحه في الشعوب المغلوبة، فإن هذا الحق الذي حرمة لا يصلح لأن يكون أساسا لحق استعباد لتلك الشعوب.²²

فهل كان موقفه تجاه الثورة الجزائرية نابعا من إنسانيته، وفلسفته وإيمانه بالحرية كقيمة تشدها هذه الثورة؟ وهل كان هذا الموقف محاولة مع غيره من المثقفين إنقاذ شرف فرنسا الذي لطخته زمرة من الساسة والعسكريين؟

إن التعذيب عند سارتر أثناء الثورة التحريرية ليس التعذيب مدنيا أو عسكريا ولا فرنسا على وجه التخصيص، بل إنه وباء يكتسح العصر كله، ولكنه يطبق بانتظام خلف ستار المشروع الديمقراطية ويمكن تعريفه بأنه مؤسسة نصف سرية، فهل أسبابه واحدة في كل مكان؟²³

في بداية الثورة التحريرية كان سارتر جاهلا بمسألة تعذيب الجزائريين الذين قاوموا مختلف الأساليب الوحشية وعانوا من كثرة التشرد، وتدرجيا أصبح يعي ويدرك حقيقة في الجزائر وهذا عندما قامت قوات ماسو بتعذيب هنري علاق، حيث رأى بأن هذا الرجل جعله يكتشف وينبهر من هول التعذيب لكن من هؤلاء الجلادون؟ أهم ساديون؟ أو هم ملائكة غاضبون؟ أهم أسياد ذوا أهواء مرعبة؟ أسئلة أجاب عنها علاق في أنهم يودون أن يقنعوا أنفسهم ويقنعوا الصحية بسيادتهم المطلقة، فهم أحيانا بشر يمسون أناسا تحت رحمتهم وأحيانا أخرى هم رجال قساة أقوياء، أوكل إليهم ترويض أصعب البهائم وأشدها وحشية.²⁴

وبذلك أدرك هنري علاق الذي قاوم بشجاعة أساليب التعذيب المطبقة من قبل الجيش الفرنسي في الجزائر وحقيقة التعذيب المفروضة وندد بهذه الطرق البشعة التي تقلل من قيمة الإنسان وتجعله مثل الحيوان إذ كتب قائلا: "لقد فرض التعذيب نفسه تلقائيا وأصبح روتينيا قبل أن يلاحظ الناس ذلك غير أن الحقد البشري الذي يتمثل فيه، إنما يعبر عن العنصرية، لأنه يراد تهديم الإنسان نفسه، بكل صفاته الإنسانية، الشجاعة، الإرادة والذكاء، الأمانة، الصفات نفسها التي يطالب بها الاستعمار، لكن إذا استخلف الغضب الأوروبي، إلى درجة أن يحتقر صورته نفسها، فذلك لأن عربيا عكس هذه الصورة".²⁵

وفي سنة 1959 كتب سارتر مسرحية روائية "سجناء الطونا" التي عالجت أساليب التعذيب وقدمت هذه المسرحية بأحد مسارح باريس وركزت في مضمونها على طرق التعذيب التي مارسها الجيش الفرنسي، وعن الجرائم التي ارتكبتها النازية وإسقاطها على الفرنسيين الذين يعذبون الجزائريين، وأن ما عاناه الفرنسيون أثناء الحرب العالمية هو نفسه الذي عانى منه الشعب الجزائري خلال هذه الفترة.²⁶

لقد تطور موقف "سارتر" تجاه الثورة الجزائرية في بداية الستينات إذ دعم فكرة الحرية التي كان ينادي بها، ففي فيفري 1960 قام بزيارة إلى كوبا مع سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir وتقابلا مع كاسترو، وفي هافانا التقى ببعض المثقفين البرازيليين أين ألقى محاضرة، ندد فيها بالسياسة الفرنسية، وفي نوفمبر 1961 شارك في مظاهرة سلمية احتجاجا على القمع والتقتيل للعمال الجزائريين المتظاهرين في 17 أكتوبر بباريس، وفي 13 ديسمبر 1961 حضر في جمعية نظمها ممثل جبهة التحرير الوطني الطيب بولحروف، وممثلين عن اليسار الإيطالي حول استقلال الجزائر، هذه النشاطات سمحت له بالحصول على جائزة أميغا في

استطاعت مواقف وأفكار سارتر أن تجد لها صدى في الوسط الثقافي الفرنسي فمع بداية سبتمبر 1960 قام 121 مثقف فرنسي بإمضاء بيان بعنوان إعلان الحق بعدم الخضوع أثناء حرب الجزائر، ونشر هذا البيان في جريدة الحرية والحقيقة Liberté، Vérité، في سبتمبر، وأكتوبر 1960، وحسب الموقعين فإن هناك الكثير من الفرنسيين يتعرضون للمتابعة والسجن، والمحاكمة، لأنهم رفضوا المشاركة في هذه الحرب. بالنسبة للجزائريين فإن الصراع سيتواصل بوسائل عسكرية أو دبلوماسية إنها حرب الاستقلال، لكن بالنسبة للفرنسيين ما هي طبيعتها؟ إنها ليست حرب خارجية إنها حرب ضد رجال تعتبرهم الدولة مثل الفرنسيين، إنها حرب إمبريالية، استعمارية. في هذه الظروف فإن الكثير من الفرنسيين جاءوا لإعادة النظر في معنى القيم التقليدية، ما هو التحضر؟ أعلن الموقعون:

-إننا نحترم ونحكم مبررين رفضنا لحمل السلاح ضد الشعب الجزائري.
-إننا نحترم ونحكم مبررين سلوك وتصرفات الفرنسيين الذين يرغبون ويرون أن من واجبهم مد يد العون وحماية الجزائريين المقيمين باسم الشعب الفرنسي.
-إن قضية الشعب الجزائري التي تساهم بطريقة حاسمة في تدمير النظام الاستعماري هي قضية كل الأفراد الأحرار.²⁸

ينتمي معظم الموقعين على البيان إلى المثقفين العاملين بمجلة الأزمنة الحديثة التي يديرها، سارتر سيمون دي بوفوار، والروائي ميشال بوتور Michel Botour وعالم الاجتماع ماكسيم روديسون Maxim Rodinson، والزوجة السابقة لوزير أندري مارلو كلارا.

كان لهذا البيان وقعا خاصا على الساحة الفرنسية فالفتة التي وقعت عليه هي الفتة المثقفة لها مكانتها في المشهد الثقافي الفرنسي والدولي، لذا كان من الضروري الرد بنفس الأسلوب للتشكيك في مصداقية هذا البيان، والتقليل إلى حد كبير، من تأثيره، ففي شهر أكتوبر 1960 أمضى ثلاثمائة مثقف فرنسي بيانا بيان المثقفين الفرنسيين Le manifeste des intellectuels يتهمون فيه على تلك التصريحات الخطيرة التي تهدد فرنسا ووحدتها الترابية، واعتبروا هؤلاء مجرد شرذمة تهاجم فرنسا والغرب. فحرب الجزائر في نظرهم مجرد كفاح مفروض على فرنسا من طرف أقلية متطرفة وإرهابية، وعنصرية خاصة وأن الجيش الفرنسي يقوم منذ سنوات بمهمة حضارية، واجتماعية، وإنسانية، واعتبر الأمين العام لهذه الحركة بيار غروس Pierre gros claude، والقاضي هنري مازود Henry mazeaud والمؤرخ جيلبار بيكار Gilbert picard إن هذا البيان ما هو إلا دعاية مغرضة ويشكل خطرا على الشباب الفرنسي، بينما وصف غابريال مارسال Gabriel marcel التوقيع على بيان مجموعة 121 بالخيانة العظمى، وحث جوزيف هورس Joseph Hours الدولة الفرنسية على محاربة هذه المجموعة وعدم التنازل والخضوع لجبهة التحرير الوطني.

ضمنت هذه الحركة عدة شخصيات ثقافية أبرزها:

هنري بوردو Henry bordeaux

رولاند دورجال Roland dorgeles

اندري فرانسوا André françois

بيار كاكوتست Pierre caxotte

غابريال مارسال Gabriel marcel

هنري ماسيس Henri massis

بيار نور Pierre nord

الكولونيل ريمي Remy

ينتمي أصحاب هذا البيان الذين يتشكلون من أساتذة جامعيين إلى حركة تأسست في أكتوبر 1958 وتوسعت على مدى السنين، حيث وصل عدد أعضائها إلى 1500 شخص مثقف، وشنت حرب البيانات والبيانات المضادة.²⁹

وأعلنت الحكومة الفرنسية الحرب ضد هؤلاء المثقفين، فقد صرح الوزير الأول الفرنسي ميشال دوبري Michel Debré بأن الحكومة ستتخذ الإجراءات الصارمة ضد الذين يدعون إلى التمرد والعصيان ومساعدة الذين يرفضون واجب الخدمة العسكرية، لتوظيفهم في نشاطاتهم السياسية، وأصدر بيانا يمنع المثقفين المؤيدين والمتعاطفين مع الثورة الجزائرية خاصة الذين وقعوا على البيان 121، بعدم ظهورهم في التلفزيون والراديو والمسرح، كما قامت الحكومة بسجن خمسة صحفيين، وفتشت مقرات الجرائد والمجلات منها:

Le temps-L'express- Vérité- Liberté- Esprit- France observateur.

فأين هي الديمقراطية؟ أليس هذا من سلوكات الأنظمة الديكتاتورية المتهمة من طرف فرنسا بعدم احترام حقوق الإنسان المتمثلة في حرية الصحافة.

ونتيجة لذلك أصبح هؤلاء المثقفون محل كره من المنظمة السرية OAS ومن شباب اليمين المتطرف وقام أنصار **الجزائر فرنسية** بتنظيم مظاهرة عارمة بباريس شارك فيها الآلاف من أعضاء الجمعيات والمنظمات السياسية مرددين شعارات **اقتلوا سارتر**، غير أن الجنرال ديغول كان يرد عليهم لا نسجن فولتير فرنسا.³⁰

كما قامت المنظمة السرية بقتل عدة شخصيات ثقافية في الجزائر أو في باريس حيث انفجرت قنبلة في الحي الذي يقيم فيه سارتر، وفي 07 مايو 1961 انفجرت قنبلة يدوية بشارع بونابرت في الطابق الأعلى التي يوجد فيه، وبعد شهرين من هذا الحادث انفجرت عدة قنابل يدوية بباريس واحدة منها كانت موجهة لـ أندري مالرو نتيجة إمضاء زوجته السابقة وابنته على بيان 121، وكان سارتر يسكن في شارع سان رمان متخفيا خشية تعرضه للقتل، وتحول في نهاية السنة إلى شارع رسييل رقم 222 في الطابق العاشر حتى سنة 1973.³¹

وبعد إعلان جبهة التحرير الوطني عن الإضراب في جانفي- فيفري 1957 وبداية معركة الجزائر أين استعمل التعذيب بشكل واسع، وبعد مقتل علي بومنجل، وقضية أودان، وشكوى هنري علاق، أصدر المكتب الوطني للاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين في 05 أبريل 1957 بلاغا، ندد فيه باستعمال فرنسا طرق منافية للقوانين الإنسانية والشرف الفرنسي والتعذيب والقتل العشوائي والقمع الجماعي، وعبر عن تأثره العميق أمام هذه السلوكات، التي أصابت شرف الأمة، وطالبوا من وزير التعليم العالي الفرنسي، بالتدخل، وفرض احترام حقوق الإنسان.³²

وقررت أربع نقابات فرنسية: الفيدرالية الوطنية للطلبة FNE والاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين UNEF والكونفيدرالية العامة للعمال CGT والكونفيدرالية الفرنسية للعمال CFT تنظيم إضراب ضد المنظمة السرية الفرنسية، ومن أجل السلم في الجزائر، وذلك بالتوقف لمدة خمسة عشرة دقيقة عن العمل من

الساعة الحادية عشرة صباحا إلى الحادية عشرة والربع، وقامت كل نقابة بنشر بلاغ نص على أن حرب الجزائر تتواصل رغم أن السلم ممكن. إن هذا الصراع أدى إلى تدهور الحريات والديمقراطية ويغذي الفاشية، لذا قررت الفيدرالية الوطنية للتعليم، جعل يوم الثلاثاء 19 ديسمبر 1961 يوم المظاهرات الوطنية ضد المنظمة السرية الفرنسية من أجل عودة السلم في الجزائر³³، واستنكرت الحركة العمالية الفرنسية الجرائم الفرنسية معتبرة أن الطبقة البرجوازية استطاعت لمدة طويلة أن تخلط الأوراق وتوصلت إلى خداع طبقات هامة من الشعب الفرنسي حول الأهداف الحقيقية لمشروعهم، وأن التقاليد الثورية للشعب الفرنسي ما زالت حية الأمر الذي ساعده على إيقاظ ضميره.³⁴

لقد اعتبرت المواقف المختلفة للطبقة المثقفة الفرنسية تجاه الثورة الجزائرية بصفة عامة وأساليب التعذيب بصفة خاصة انتصارا للقضية الجزائرية أمام الرأي العام الفرنسي والدولي الذي تعرض إلى تعقيم إعلامي كبير من قبل السلطات الاستعمارية التي حاولت بكل الوسائل إخفاء حقيقة ما يجري في الجزائر.

الهوامش:

- 1- عمراني (عبد المجيد)، جون بول سارتر والثورة الجزائرية، مكتبة مدبولي، باتنة بدون تاريخ، ص 73.
- 2- عمراني (عبد المجيد)، النخبة الفرنسية المثقفة والثورة الجزائرية 1954-1962 مطبعة دار الشهاب، باتنة، 1995، ص 78.
- 3-Roy (jules), **La guerre d'Algérie**, Editions, Guillard, paris, 1960, p 207.
- 4-Ibrahimi (ahmed taleb). **De la décolonisation à la révolution culturelle 1962-1972** Editions S.N.E.D, Alger, 1981, p 184.
- 5-Stora (benjamin). **Ils venaient d'Algérie, l'immigration Algérienne en France 1912-1992** Éditions, librairie Arkhtene fayard, 1992.
- 6- فلاح(أمال). "حرب المثقفين"، مجلة الحدث الدولي، العدد 24، نوفمبر 2002، ص ص 92- 93.
- 7-Janson (Francis) et Colette (Janson), **L'Algérie hors la loi**, Editions, ENAG, 1993, p 17.
- Jean (San Francis), **Notre guerre**, Editions de minuit, paris, 1960, pp 59-60. 8-
- 9-Stora (benjamin). **Ils venaient...** Op cit, p 196.
- 10-Evno (Patrick) et Planchais (jean), **La guerre d'Algérie**, Editions laphomic, Alger, 1990, pp 99-101.
- 11-Roy (jules), **J'accuse le général Massu**, éditions du seuil, paris, 1972, p 32.
- 12-المقاومة، العدد 11، 01 أبريل 1957.
- 13-المصدر نفسه.
- 14-الميلي (محمد)، فرانز فانون والثورة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت 1973، ص 184.
- 15- المرجع نفسه، ص 186.
- 16- الزبيري (محمد العربي) المرجع السابق، ص 147.
- 17-El Moudjahid N° 12, 15 Novembre 1957.
- 18- الزبيري (العربي)، المرجع السابق، ص 144.
- 19-Aussaresse (Paul), **service spéciaux en Algérie 1955-1957**.Éditions, Perrin, 2001, P110.
- 20- Thenault (Sylvie), **Une drôle de justice, les magistrats dans la guerre d'Algérie**. Editions la découverte, paris, 2001, P170.
- 21-Haroun (Ali), **La 7^{ème} Wilaya la guerre du FLN en France 1954-1962**. Éditions du seuil, paris, 1986, p 418.

- 22-سارتر (جون بول)، العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون الأساسي (ترجمة، بولس غانم)، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، 1972، ص ص 18 21.
- 23-سارتر (جون بول)، عارنا في الجزائر، (ترجمة، عابدة وسهيل إدريس)، دار الأدب، بيروت، 1975، ص ص 56-57.
- 24-شطاطة (أحمد). "عارنا في الجزائر" مجلة الحشيش، العدد 432، جويلية 1999، ص ص 29-31.
- 25- سارتر (جون بول). عارنا...المصدر السابق، ص ص 63- 64.
- 26-سارتر جون بول. سجناء الطونا، (ترجمة عبد المنعم الحفني) (عالم الكتب القاهرة 1960، ص ص 264 - 265.
- 27- عمراني (عبد المجيد)، سارتر...، المرجع السابق، ص 145.
- 28-Maspero (François), Le droit a l'un soumission Les dossiers des 121, Editions, François, Paris, 1951, P18, et Barrat (robert), Les maquis de la liberté : un journaliste au cœur de la guerre d'Algérie, Editions témoignage chrétien, entreprise Algérienne de presse, 1987, pp 190-191.
- 29-Rioux (jean pierre), La guerre d'Algérie et les français. Editions librairie arthenne fayard, 1990, pp 125-126.
- 30- هن (خديجة "سارتر والثورة الجزائرية"، مجلة القلم الفكرية والإنسانية في الثورة الجزائرية 1954-1962، دار الهدى للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 150- 137
- 31-عمراني (عبد المجيد) . النخبة المثقفة...المرجع السابق، ص 223
- 32- Stora (Benjamin). Ils venaient...op cit, p 254.
- 33-Le monde, n° 5258, 13 décembre 1961.
- 34- Egretaud (Marcel). Réalité de la nation algérienne, éditions social, paris, 1961, p 301.

مسألة اندلاع الثورة الجزائرية قي الخطاب الديني (1954-1956)

د/ بشير بلمهدي علي، جامعة معسكر

تمهيد:

في حقيقة الأمر لم يكن الخطاب الديني متحدا حول فكرة واحدة، تدين الاستعمار وتقف في صف الثورة التحريرية الكبرى، بل اختلف باختلاف منابعه ومصادره، لأن الظروف الداخلية للجزائر هي غير ظروف العالم، وبعض المستعمرات، خصوصا المغرب وتونس، بالإضافة إلى المشرق العربي أو " الشرق الأوسط".

1- فتوى الأزهر حول الحركات التحررية:

فعلى مستوى العالم العربي كان الخطاب الديني مهيباً، إبتداء من جوان 1949 حين أصدرت "لجنة الفتوى للأزهر الشريف" نصا لفتوى متعلقة بصرف الزكاة للحركات التحريرية،⁽¹⁾ إذ تفيد بأنها قد سبق لها أن بينت في فتوى سابقة أن قول الله تعالى في مصاريق الزكاة (في سبيل الله)⁽²⁾ عام يتناول جميع طرق الخير والبر، فيتناول بناء المساجد، وشراء آلات الجهاد، وإقامة المستشفيات، وما إلى ذلك...وإذ بين ذلك نص الفتوى الحري في الآتي :

" اللجنة ترى وجوب صرف الزكاة في هذا الوجه إذا مست حاجة المسلمين في الدفاع عن دينهم وأوطانهم، بل ترى اللجنة أن الأوقاف التي وقفها واقفوها على جهات من جهات البر والخير، إذا مست حاجة المسلمين إلى غلاتها في هذا الدفاع جاز صرف هذه الغلات في ذلك، عملا بما قاله شيخ الإسلام "ابن تيمية" من جواز تغيير الواقف إلى ما هو أصلح وأحب إلى الله تعالى، حتى ولو وقف شخص على الفقهاء والصوفية، و احتاج الناس إلى الجند، وحرّم منهم الفقهاء والصوفية، وهو الصرف الذي عيّنه الواقف، ومثل الصرف إلى الجند الصرف في سائر ما يحتاج إليه في الدفاع عن الوطن و الدين.

و اللجنة تدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين إلى ما فيه صلاحهم واستعادة مجدهم وعزهم، وأن يمدّهم بمعونته، ويؤيدهم بروح منه أنه سميع الدعاء".⁽³⁾

وتجددت هذه الفتوى على يد جامع الأزهر الشريف وشملت الزكاة والثورة والجيوش في 13 فبراير 1953، و بالتالي فإن الخطاب الديني قد قطع خطوة نحو أفاق تحرير الشعوب العربية والإسلامية.

بينما نجد الخطاب الديني في الجزائر متريثا، وإن كان مسائرا لأحداث الجزائر والعالم الإسلامي معا، إذ جسد هذا كل من: نشاط الشيخ "محمد العربي التبسي" (1895- 1957) نائب رئيس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، و"إبراهيم مزهودي" (1922- 2010)، اللذان قاما بزيارة تفقدية وتفتيشية للمدارس الإصلاحية بمقاطعة وهران، فألقيا بالمناسبة مجموعة من الخطب في شكل محاضرات ركزا فيها على:

بتاريخ 8 جويلية 1954، حل الشيخ "العربي التبسي"، نائب رئيس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" مع مرافقة الشيخ "أحمد بوشمال" (1899- 1958)، الأمين العام للجمعية بالقاهرة، مقبلين من الجزائر العاصمة لأجل حضور لقاء مع الأخوان المسلمين و"الماجور" "صالح سالم" وزير التوجيه الوطني لدى الحكومة المصرية.⁽⁴⁾

إن هذه الجولة أكدت بأن الخطاب الديني كان متهياً على مستوى الشرق الأوسط، لأجل هذا شرعت كل الأطراف العربية والإسلامية تساهم في مساعدة القضية الجزائرية من قريب، أو من بعيد.

2- غلاة الاستعمار والهروب من اليقين:

في 14 جويلية 1954 صدرت فتوى عن المكتب التونسي التابع لوزارة العدل التونسية، كان محركها أحد خصوم الحركة الإصلاحية في مدينة قسنطينة المدعو: الشيخ "عبد العالي الأخضرى"، مدير المدرسة الكتانية، وإمام رسمي، إذ كانت طبيعة سؤاله عبارة عن فتوى تجاوزها الزمن، إلا أنه من باب الفضول، أردنا أن نبيّنها لمعرفة غرض هذا الأخير من وراء هذا السؤال الخطير الذي هو جزء منه باعتباره موظف رسمي عند إدارة الاستعمار أو إدارة الكافر. فهذا نص السؤال والفتوى معا:

" الحمد لله و الصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه المتقين هديه ورشده، وبعد: فقد سألتني العالم السري الشيخ "عبد العالي الأخضرى" عن حال الولايات الشرعية في المملكة الجزائرية بعد احتلالها سنة 1830، وصيرورة هذه الولايات تصدر من الوالي العام عليها، فهل تنفذ أحكام القضاة المولّين منه وتتعقد ولاياتهم، وهل تصح الصلاة بإمامة المتولّين للإمامة منه؟

والجواب والله الهادي وعليه معولي واعتمادي أن الذي ينبغي اعتماده في القضاة انعقاد ولايتهم ونفوذ أحكامهم فقد قال "المازري" من أئمة المالكية وأما تولية الكافر للقضاة والأمناء وغيرهم لحجز الناس بعضهم عن بعض الواجب حتى أدعى بعض أهل المذاهب أنه واجب عقلا وإن كان باطلا فتوليه الكافر لهذا القاضي العدل، أما الضرورة إلى ذلك أو لطلب الرعية لا يقبح في حكمة وتنفيذ أحكامه كما لو ولاه سلطان من جوان له طويل نقله الشيخ "عظوم" في تأليفه المسمى "بالدكانه".

و نقل "المواق" أن الشيخ "عزالدين بن عبد السلام" من أئمة الشافعية استظهر في توليه الكفار المستوليين على البلدان الإسلامية قاضيا إنفاذ ذلك جلبا لمصلحة العامة ودرءا للمفسدة التامة. أ هـ.

و قال "حولو" في اختصار نوازل "البرزلي" إذا ولاه الكافر أم لطلب الرعية له أو إقامته لهم للضرورة إلى ذلك فلا يقدح في حكمه فإن أهل المكان يقومون مقام السلطان عند فقده.

و أفتى "العبدوسي" بأن القاضي إذا قدمه جماعة المسلمين الذين هنالك جاز حكمه لأن الجماعة تقوم مقام السلطان عند تعذره في كل شيء وأما إذا قدمه سلطان النصارى فلا يجوز تقديمه ولا حكمه إلا أن ترضى به جماعة المسلمين طوعا. أ هـ. نقل هذه الفتاوى الشيخ "المهدي" في نوازله الجزء الثالث الصفحة 21 الطبعة الفاسية.

و أما صحة الصلاة وراء الأئمة المتولّين من غير مسلم فلا إشكال فيها لأن الصحة منوطة باستيفاء الإمام لشروط صحة الإمامة المعروفة المشهورة في الكتب الفقهية ولا تتوقف صحة الإمامة في الصلاة على ولاية من السلطان على المعروف المذهب المالكي. أفتينا السائل بذلك وأنا الفقير إلى ربه "محمد العزيز جعيط" نسخ الإسلام المالكي أخذ الله بيده تحريرا في 12 ذي القعدة 1373 هـ، وفي 14 جويلية 1954 م⁽⁵⁾.

هذا السؤال من قبل المعني "عبد العالي الأخضرى" يجرنا إلى أن الأحداث تجاوزته، لأنه بالرغم من اقتناع الجميع بتحرير الأرض والعباد، فنجد ما زال يعيش في جدلية العشرية الأولى من القرن العشرين، ولهذا سيدفع بحياته للهلاك نتيجة غروره أثناء الثورة التحريرية خصوصا لما سيزور القاهرة في محاولة يائسة منه لشد الخناق على الشيخ "البشير الإبراهيمي".

3- فتوى الأزهر حول الإرهاب والفساد: و بعد ثمانية عشر(18) يوما من اندلاع الثورة، أصدر جامع الأزهر فتوى سؤالها: ما هو رأي كبار علماء الإسلام من الإرهاب والفساد؟⁽⁶⁾ فكان جوابه كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.

أما بعد، فهذا نداء من جامعة كبار علماء الأزهر الشريف، يتوجهون به إلى الشعب المصري، وإلى سائر المسلمين.

أيها المسلمون.

إن الدين الإسلامي دين توحيد ووحدة وسلام وأمان، وهو لذلك رباط وثيق بين الناس وربهم، وبين المسلمين بعضهم وبعض، وبينهم وبين مواطنيهم ومن ولاهم من أهل الكتاب، فليس منه تغيير وتغليل، وليس منه تفريق ولا إفساد، وليس منه تأمر على الشر والعدوان.

وقد ابتلي المسلمون في عصورهم المخلفة بمن أخذوا تلك المبادئ عن غير وجهها، أو لعبت بعقولهم الأهواء، فجعلوا منها باسم الدين مسائل يجتذبون بها الوصول إلى غاياتهم ومطامعهم، والتاريخ الإسلامي حافل بأبناء تلك الطوائف التي شبت في ضلاله، وزعمت أنها جنود له، ثم كانت حربا عليه أشد من خصومه وأعدائه. فكان منهم تأمر على قتل الأبرياء، وترويع الأمنين، وترصد لاغتيال المجاهدين المخلصين، وإعداد العدة لفتنة طائشة، لا يعلم مداها في الأمة إلا الله.

وجماعة كبار العلماء في الوقت الذي تستنكر فيه هذا الانحراف عن منهج القرآن في الدعوة، تعلن الخروج عن منهج الدعوة الذي رسمه القرآن، وسلوكك سبيل العنف بالإرهاب والعدوان، والتضليل والخداع مشاقة لله ورسوله، وأفتيات على الإسلام، بما ينكره الإسلام ويأباه، ويعتبر صاحبه في صفوف المتعدين لحدود الله..ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون..."⁽⁷⁾

وجماعة كبار العلماء تنصح المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يتجهوا إلى الدين، فتنبهوا(والصحيح:فينتبهون إلى) مبادئه العالية وإرشاداته على وجهها الصحيح. ويلتزموها في حياتهم الخاصة، فتسلم الأسرة، وفي حياتهم العامة فتسلم(الصحيح: تسلم) الأمة والاعتصام بحبل الله فيهدي (الصحيح:يهدي) إلى صراط مستقيم.

وقد وقع على هذا النداء كل من صاحب الفضيلة الشيخ الكبير"عبد الرحمن تاج" وأعضاء الجامع، منهم:"الحسيني سلطان"، و"صالح شارف" و"محمد الشافعي" و"عيسى منون" و"محمد عبد اللطيف الطنيجي" ومحمد شلوط وغيرهم والسلام.

نشرت هذه الفتوى الكريمة في جريدة "الأهرام" بالقاهرة، بتاريخ 18 نوفمبر 1954.

وفي يوم الجمعة المصادف لـ 17 ديسمبر 1954: صرح الشيخ "عبد القادر الياجوري"⁽⁸⁾ (1912- 1991)، مدير مدرسة "جمعية الفلاح" بوهران بأن الخطاب الإصلاحي مازال وفيها لهويته، منتفضا دوما ضد الحواجز التي تضعها الحكومة في حريها ضد التعليم العربي فقال: "إن فرنسا ضدنا دائما، لأننا أصبحنا نطالب بحريتنا، لا تقبوا غير واعين بما سيصيبنا".⁽⁹⁾

ويظهر جليا أن الجمعية أصبحت حذرة بعد اندلاع الثورة، نلاحظ ذلك من خلال ما تصفها به التقارير الأمنية الاستعمارية وصفا خلاصته بأنه: "أثناء سنة 1954، سنة اندلاع الثورة (التمرد) في الجزائر، أخذ الشيوخ

الرئيسيون للجمعية على عاتقهم مهمة حماسية للنفوس الجزائرية، من خلال خطاب مضاد للاستعمار والفرنسيين، معا وفي بعض الحالات الدعوة إلى الثورة، وحمل السلاح".⁽¹⁰⁾

بطبيعة الحال لم يبق الخطاب الديني في الجزائر منقسما مثلما كان عليه في اندلاع الثورة، ولكن سيحاول البعض من الفاعلين في الحقل الديني التعامل مع الثورة، وإنما يحذر من السلطات الاستعمارية، إذ يمكن أن نسميها "إيمان بالثورة" أو "تقية دينية" جديدة، خصوصا لما تصدر الثورة أوامر شديدة اللهجة إلى الخطاب الديني (ونعني هنا الخطاب الديني الرسمي الذي يمثل الأئمة الرسميين لدى السلطات الاستعمارية، والخطاب الديني الصوفي الذي يمثل شيوخ الزوايا، والخطاب الدين الإصلاحي الذي يمثل علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) والسياسي والنقابي تدعوهم فيه للانضمام إلى الثورة، وأن عدم تلبية هذه الدعوة أو (الأوامر) يعني الوقوف ضد الثورة. فكانت النتيجة، أن وجد الخطاب الديني نفسه في الجزائر أمام خيارين: - إما اختيار العدو والسير في مشروع ضد الثورة أو حتمية الخطاب الديني الواحد، هذا ما سنلاحظه عبر العنصر الموالي الذي يحمل عنوان: حتمية الموقف الواحد للخطاب الديني تجاه الثورة التحريرية.

4- حتمية الموقف الواحد للخطاب الديني تجاه الثورة.

مثلما تداخل الخطاب السياسي بالخطاب الثوري، وأصبح هذا الأخير هو الجازم في الأمور المصيرية، فإن الخطاب الديني أصبح هو الآخر يجازف دخول معترك السياسة والثورة أو الوقوف ضد تدخل السياسة في الدين والثورة معا.

فرغم عدم ممارسة العلماء للسياسة رسميا واقتصار نشاطهم على التربية والتعليم والتوعية، فقد كانت لهم كلمتهم بالنظر إلى نفوذهم الكبير في الأوساط الشعبية، ويحكم شعورهم بمسؤولية الدفاع عن شخصية البلاد وهويته في ظل الصراعات الحزبية والاتجاهات الثقافية المتباينة، لأجل ذلك كان شعورهم معتدلا وموقفهم وسطا، فهم على العموم مع "حركة انتصار للحريات الديمقراطية" في الأهداف ومع "الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري" في الطرق والأساليب.⁽¹¹⁾

إن هذه الصفة كانت قبل الثورة، لكن كيف سيعمل هؤلاء العلماء قبل انضمامهم لجبهة التحرير الوطني وحل جمعيتهم؟ وهذا عبر التركيز على العلماء الرئيسيين سواء كانوا بالخارج، أو الداخل، كما أنه في نفس الوقت سنحاول الحديث عن بعض شيوخ الزوايا، ورجال الدين الرسميين، خصوصا مرحلة (1954 - 1956) أي الثورة في سنتيها الأولتين.

لقد كانت "لجنة تحرير المغرب العربي"، التي كان يرأسها زعيم مقاومة الريف المغربية: "عبد الكريم الخطابي" (1882 - 1963) منذ سنة 1949، تعمل على تحرير أقطار المغرب العربي الثلاثة، ومن هذا التاريخ وهي تعمل على مناوئة الاستعمار سواء كان فرنسا أو إسبانيا، فلقد نشرت في 26 يناير 1955 نشرة، تفضح فيها "المشروع الإمبريالي الفرنسي" الذي حول منطقة شمال إفريقيا، من خلال الهجرة الأوروبية إلى دولة أوروبية مثلما وقع في إفريقيا الجنوبية".

فهذا البيان لا شك أنه يكشف مدى استنزاف فرنسا لثروات المنطقة، وأن غرض زيارة وزير الخارجية الفرنسي لألمانيا وإيطاليا ما كان إلا لتشجيع الهجرة الأوروبية إلى الشمال الإفريقي بعد أحداث الثورات التي شهدتها تونس، والمغرب، وأخيرا الجزائر.⁽¹²⁾

كما سعى "الصالح بن يوسف" (1907-1961) قائد جيش التحرير التونسي إلى دفع "حزب الاستقلال" المغربي ، الذي كان بزعامة "محمد علال الفاسي" (1910-1974) بأن يتفاوض مع "القلاوي" حول الإعلان عن قيام ثلاثة دول في الشمال الإفريقي على شكل "نظام الدومينيون" (dominions) فقبل "القلاوي" الفكرة وعمل من أجل هذا بالتقرب إلى الإنجليز،⁽¹³⁾ وإن كان "القلاوي" مدعوما من قبل الشيخ "عبد الحى الكتاني" (1884-1962): شيخ زاوية فاس، رغم أن "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" كانت قد أصدرت فتوى تقضي بوجوب وإبعاد "القلاوي" عن العرش وإعادة السلطان "محمد بن يوسف" المدعو: "محمد الخامس" (1927-1957) إليه.

أما على المستوى الوطني، فإن نشاط الثورة قد شمل كل المنطقة الشمالية، وأصبحت المدارس القرآنية محل اجتماعات الثورة التحريرية، وهذا بالالتقاء مع أفراد الشعب الجزائري، بغية تنظيمهم... فمدرسة "دوار بن رحمون" بالجزائر العاصمة، أصبحت مكانا مشبوها لدى السلطات الاستعمارية، خصوصا المناضل "بن تركية بن سعيد" ومعلم القرآن الكريم: "علي بن محمد"، حيث يذكر التقرير أن الأول: ينتمي إلى عائلة كثيرة العدد، معروفة بالنشاط السياسي، ومحل ريب ومراقبة، قدمت مساعدات مالية لبعض المواطنين لم يسجل هذا التقرير اسمه صراحة، وإنما وصفه ب: س (X)، وأن هذه العائلة تنتمي للتيار الوطني.

أما الثاني أي معلم القرآن: فإنه ما استقر إلا حديثا في منطقة العاصمة، أي منذ ثلاث سنوات، بعد طرده من بلدية "أبو" (Abbo)، لأنه أصبح يناقش مواضيع سياسية بعد أحداث الهند الصينية، بالإضافة إلى الوضعين السياسيين بالمغرب وتونس، كما كان يقوم برحلات إلى العاصمة، حتى صار أولياء التلاميذ يحضرون اجتماعاته بقسم المدرسة.⁽¹⁴⁾

لقد عبر الخطاب الديني الإصلاحي عن معاناة الجزائريين من سياسة الجنرال "جاك سوستيل" (Général Jacques Soustelle) (1912-1990)، في ظل حالة الحصار، التي أصبحت سارية المفعول في عدة نواحي، وما صاحبها من الحالات الاستثنائية، وتضييق الخناق، ووضع أغلال لا تطاق.⁽¹⁵⁾

وأثناء خطبة الجمعة بتلمسان الموافقة ليوم 23 مارس 1955، ركز الشيخ "بابا احمد محمد" (16) في خطبته على ثلاثة محاور.

- المحور الأول: تطرق فيه إلى المحتاجين، والبؤساء.
- المحور الثاني: أثار مسألة زيارة الوالدين، وصلة الرحم.
- المحور الثالث: عالج من خلاله مسألة إطلاق سراح المعتقلين السياسيين.⁽¹⁷⁾

إن كل هذه المحاور تم تأويلها من قبل محلي الإدارة الاستعمارية بما يلي: أنه عالج مسألة الأيتام وضحايا العنف الاستعماري، فيما يخص المحور الأول، وهدف إلى التضامن والتلاحم بين أبناء الشعب الجزائري ضد مصالح الاستعمار بالنسبة للمحور الثاني.

ودعا لمساندة الثورة التحريرية، وتبرير الأعمال الثورية، وإعطائها صبغة سياسية بخصوص المحور الثالث والأخير، لكن رغم الرقابة الأمنية المشددة على علماء الجمعية، إلا أنهم أبوا إلا مواصلة المسيرة الإصلاحية، وهذا من خلال مضاعفة عدد الوعاظ في السنة الأولى للثورة، رغم الظروف الاستثنائية، حتى أصبح عددهم سنة 1955، (233) عالما أو واعظا، مقابل: (200) عالما سنة 1954، و(143) عالما سنة 1953.

لقد كان النشاط كثيفا أثناء ليالي رمضان عبر مدن القطر الجزائري، وبالأخص مدينة قسنطينة، إذ كثرت عنها التقارير الأمنية في هذه الفترة بالذات، حتى فسر بأن هذا العدد الهائل من الوعاظ جاء لينافس أئمة ومفتيي قسنطينة الرسميين، وهكذا اعتبرت مثل هذه السلوكيات منذ ليلة أول نوفمبر 1954، تعبيرا وعملا على خدمة حركة العصيان والتمرد، وسعيا نحو الاستقلال.⁽¹⁸⁾

لكن في الواقع لاحظنا أن "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" تقاسمت المساجد الرسمية في مدينة قسنطينة مع رجال الدين الرسميين: بمعدل عشرة (10) وعاظ رسميين مقابل ثمانية (08) وعاظ إصلاحيين، وأن إدارة الاحتلال راحت تنقل كل تفاصيل خطب الإصلاحيين، عكس خطب الرسميين، كما دلت على ذلك التقارير الأمنية.

فخطب الشيخ "عباس بن الشيخ الحسين" (1912- 1989) في المسجد الكبير بقسنطينة، تم تسجيلها بكل دقة، لتقرأ بعد ذلك، وتحلل، وتعلل، ويعلق عليها، ومثله في ذلك الشيخ "أحمد حماني" (1915- 1998)، الذي كان مداوما على خطبه في مسجد سيدي لخضر.

وفي 29 أبريل 1955: صدرت فتوى من طلبة المعهد الباديسي بقسنطينة تعتبر الثوار "مجاهدين" من أجل الدين الإسلامي، وثوابهم الجنة، والترخيص لهم بالإفطار في شهر رمضان، ما داموا كذلك.⁽¹⁹⁾

في حين نجد الشيخ "القاسمي مصطفى" شيخ الزاوية الرحمانية بالهامل، يهتم بأمور ثانوية يمكن الاستغناء عنها في ظروف الثورة التحريرية و يقدم شكوى إلى إدارة الاحتلال، مفادها: أن الشيخ "الحبيب" أشاع أفكار مخربة ومضللة، من خلال دعوة الناس إلى عدم الانتماء إلى الطريقة الرحمانية.⁽²⁰⁾

أما على المستوى الخارجي، فكان الخطاب الديني الإصلاحي ينشط من أجل تدعيم القضية الجزائرية بين الإخوة العرب والمسلمين، فلقد حاول الشيخ "الفضيل الورثلاني" (1900- 1959) مؤازرة "الإخوان المسلمين المصريين" الذين لجأوا إلى سوريا، حيث متن علاقته بهم لدعم مسار الجمعية.

كما كانت للشيخ المذكور اتصالات مثمرة مع تنظيم "عباد الرحمن" بلبنان، من أجل القضية الجزائرية، انتهت بتوجه السيد "خليل أبو الخلود"، عضو تنظيم "عباد الرحمن" إلى القاهرة من أجل دعم القضية الجزائرية.

إضافة إلى الشيخ "عبد السلام بوعزة الجزائري"، الذي كان يرأس مكتب المغرب العربي ببيروت، إذ توجه هو الآخر إلى القاهرة لحضور جلسة "لجنة المغرب العربي" بالقاهرة، وقدم محاضرة في هذا الشأن.

كما نظم حفلا بمناسبة الذكرى الثانية للثورة، وهذا بتأسيس مخيم جديد للشمال الإفريقي بالقطر الليبي، مع العلم أن هذا المخيم بدأ نشاطه السري منذ شهر جانفي 1955.⁽²¹⁾

في هذه الظروف إذن، بدأ الحراك السياسي يتوحد على المستوى الخارجي، وهذا من خلال التقارب الذي وقع بين: "جبهة التحرير الوطني" (Front de Libération National) و"الحزب الشيوعي الجزائري" (Parti Communiste Algérien): بالإضافة إلى "الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري" (Union Démocrate du Manifeste Algérien) الذي بدأ نشاطه هو الآخر من أجل القضية الجزائرية، كما أفادت التقارير أن العلماء على المستوى الخارجي قد باشروا نشاطهم السياسي.⁽²²⁾

أصبح للجمعية مجلة هي بمثابة لسان حالها لكن هذه المرة خاص: بشباب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تحت اسم "الشباب المسلم" (Le Jeune Musulman)، التي صدرت بالجزائر العاصمة مديرتها المسير: "عطاء الله سوفري"، وهي نصف شهرية، تصدر باللغة الفرنسية، طاقمها شباب عدت أعلامهم على سبيل الحصر لا التمثيلة: "عبو جميل"، "عبد الرحمن بن الحفاف"، "محمد الشريف الساحلي" (1906-1989)، "سليمة خالدي"، "يوسف الغفاري"، "علي الحمامي" (1902-1949)، "ابن الحكيم" "مصطفى كاتب"، "أحمد أحمدتوفيق المدني" (1899-1986)، "مالك بن نابي" (1905-1973)، "عبد القادر محداد"، "ابن عبد الله"، "الدكتور: "بفوس" (pfaus)، "أحمد أوزقان"، "الدكتور "الخالدي" و"عمر زغيش".⁽²³⁾

كما نشرت شعبة الجزائر "للجنة تحرير الجزائر" بالقاهرة، التابعة "لجبهة التحرير الوطني" بيانا يخص موضوع المسألة المغربية، كي تعطي تقدما ودفعاً قويا "لحزب الاستقلال"، بقيادة "علال الفاسي"، وتوضح بأن الشعب الجزائري قد برهن على تلاحمه مع الشعب المغربي وملكه من خلال هجومات الشمال القسنطيني التي قادها العقيد "زيغود يوسف".

زد على ذلك قام "يوسف روسي" رئيس مكتب المغرب العربي بدمشق بجمع الأموال، وموافقة "الصالح بن يوسف" على توحيد القيادة بتونس، والعودة إلى المعركة.⁽²⁴⁾

5- فتوى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

هذا التضامن الجزائري - المغربي - التونسي ستدعمه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بإصدار، فتوى، مفادها: "وجوب مقاطعة الاقتصاد والثقافة الفرنسية" تحت مسؤولية وإمضاء كل من الشيخ "محمد بدر الدين غلاوي" ومجموعة من الشيوخ، نذكر منهم: الشيخ "أحمد الذكر"، الشيخ "محمد رابح الجزائري"، الشيخ "أحمد التلمساني"، والشيخ "ناجي الطنطاوي"، والشيخ "بدر الدين عابدين" والشيخ "عبد القادر قويدر"، والشيخ "ياسين عراق" والشيخ "عارف جودي"، وهذا بتاريخ 30 سبتمبر 1955.⁽²⁵⁾

خاتمة: يدخل هذا المقال في إطار التأريخ للثورة التحريرية الجزائرية من وجهة نظر الخطاب الديني الذي تفاعل هو الآخر مع الثورة التحريرية، إذ أردت من خلاله توجيه الدارسين للاهتمام بهذا الكم الهائل من النصوص الموجودة على مستوى دور الأرشيف.

الملحق رقم: 01

نص الفتوى التي أصدرتها لجنة الفتوى: للأزهر الشريف إجابة عن سؤال ورد عليها فيما يخص صرف الزكاة للحركات التحريرية.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال وتفيد بأنها قد سبق لها أن بينت في فتوى سابقة أن قول الله تعالى في مصارف الزكاة (في سبيل الله) عام يتناول بناء المساجد وشراء آلات الجهاد وإقامة المستشفيات وما إلى ذلك بينت ذلك بما نصه:

اللجنة ترى وجوب صرف الزكاة في هذا الوجه إذا مست حاجة المسلمين في الدفاع عن دينهم وأوطانهم بل ترى اللجنة أن الأوقاف اليت وقفها واقفوها على جهات من جهات البر والخير إذا مست حاجة المسلمين إلى غلاتها في هذا الدفاع جاز صرف هذه الفلات في ذلك عملاً بما قاله شيخ الإسلام بن تيمية من جواز تغيير شرط الواقف إلى

ما هو أصلح وأحب إلى الله تعالى حتى ولو وقف شخص على الفقهاء والصوفية واحتج الناس على إلى الجند وحرّم منهم الصرف في سائر ما يحتج إليه في الدغاع عن الوطن والدين.

واللجنة دعوا الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين إلى ما فيه صلاحهم واستعادة مجدهم وغرهم وأن يمدّهم لهونته ويؤيدهم بروح منه إنه سميع الدعاء. 29 شعبان 1368 هـ / 26 يونيو 1949 م. رئيس لجنة الفتوى - عبد المجيد سليم

الهوامش:

(1) - انظر الملحق رقم: 01 نص الفتوى التي أصدرتها لجنة الفتوى: للأزهر الشريف إجابة عن سؤال ورد عليها فيما يخص صرف الزكاة للحركات التحريرية.

(2) - صدرت الفتوى في 29 من شعبان 1369 هـ الموافق لـ 26 يونيو 1949م، رئيس لجنة الفتوى الشيخ "عبد المجيد سليم"، هذا النص متعلق بالمصرف السابغ، وهو المصرف ما قبل الأخير من مصاريف الزكاة الثمانية في قوله تعالى: "...وفي سبيل الله... الآية: 60 من سورة التوبة، برواية ورش عن نافع.

(3) - Centre des Archives d'Outre-mer : Série : 93 / 4474 (service des liaisons nord-africaines)

- fatwa d'el-Azhar .concernant les mouvements rebelles (révolutionnaires). (1949).
- les prières du vendredi (1951 – 1958)
- les fatwas (au sujet du culte).

(4) - C.A.O.M : Série : 81 F 2416.2417.2418. (Ministère des Affaires Algériennes). (Service de Documentation et de Contre Espionnages).

-Algérie (OULEMAS, P.P.A ,M.T.L.D ,U.D.M.A, P.C.A, Syndicats) Activités des pays étrangers en Algérie .Activités des Nationalistes Algériens en Egypte et dans d'autres pays étrangers , Attitude du Gouvernement Egyptien ,Moyen -Orient ,Libye, Tunisie, Maroc, Ligue Arabe et divers sujet(1954-1956).

(5) - C.A.O.M: Série : 93/ 4474.Op.cit. - نص الفتوى مكتوبة بالآلة الرقطة و قد وضعتها دون تصحيح أو تنقيح.

(6) - Ibid.

(7) - السورة: البقرة ، الآية: 229 ، برواية ورش عن نافع.

(8) - ولد الياجوري عبد القادر بن الحاج عمار في 1912 بقمّار (ملحقة الوادي) ، يعد من الشخصيات الإصلاحية التي شكلت خطرا على الاستعمار بمواقفه المتصلبة تجاه إدارة الاستعمارية ، فكانت أغلب خطبه تدعو إلى العصيان والتمرد. يميل إلى حزب الشعب الجزائري في أفكاره، ناشط قديم في حزب الدستور التونسي، مثل العلماء في قمار من 1935 إلى 1938 ، كان أحد أعمدة الإصلاح ضد الطرقية وبالتحديد الطريقة التيجانية ، إذ عمل مع الشيخ الهاشمي شيخ الزاوية القادرية بوادي سوف الذي تضامن مع الحركة الإصلاحية وأصبح أحد روادها في المنطقة والذي تعرض هو الآخر إلى السجن في سنة 1938. مما أدى بالسلطات الاستعمارية بتسليط أنواع كثيرة من الاعتقالات، إذ عرف ونزل في كل المعتقلات الاستعمارية(سجن الكدية بقسنطينة في 16/01/1940 ، الإقامة الجبرية بمليانة من 22/04/1940 إلى 17/08/1944 ، ثم ببني عباس ، منع عليه التجول في المنطقة العسكرية في الجنوب الجزائري ، أعتقل ببسكرة عشية أحداث 08 ماي 1945 ، كما تعرض للاعتقال أثناء الثورة وبقي معتقلا بآفلو ثم أركول فبوسوي بجنوب مدينة سيدي بلعباس ، أطلق سراحه يوم 19 مارس 1962 المصادف لتاريخ وقف إطلاق النار كرس حياته للعلم والتعليم أثناء الحقبة الاستعمارية وحقبة الاستقلال.أنظر: موسوعة أعلام الجزائر (1954 - 1962) ، تحت إشراف: بلقاسمي بوعلام ، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 الجزائر 2007 ص 69- 70.

(9) - C.A.O.M: Préfecture d'Oran. Série : 92/51135 (Service des Liaisons Nord-Africaines).

-Rapport mensuel sur l'activité politique musulmane dans le Département d'Oran (janvier 1953 au décembre 1954).

(10) - C.A.O.M: Série: 91/4 I14 (Préfecture d'Alger – Service des Liaisons Nord-Africaines).

- Oulémas réformistes, Activités: Synthèse de renseignements généraux – Notes de renseignements- Coupures de presse (1940-1948).

(11) - عبد الحميد زوزو، محطات في تاريخ الجزائر، دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية، (على ضوء وثائق

جديدة)، دار هومة،

(طبعة خاصة من وزارة المجاهدين)، الجزائر، 2005، ص:302.

(12) - C.A.O.M: 81F 2416.2417.2418.op.cit.

(13) – ibid.

(14) - C.A.O.M: Serie: 1K 502.

- enseignement musulman (écoles coraniques, zaouïas, medersas) (1945-1955). Culte musulman (1944-1953).

(15) - الاعتراف الخطير، البصائر، السلسلة الثانية، العدد: 311، الجزائر في 25 مارس 1955، ص:01.

(16) - تخلف "محمد شريف الساحلي" عن خطبة الجمعة بالمسجد الإصلاح (دار الحديث) بتلمسان فخلفه الإمام "بابا

احمد بن محمد".

(17)-Archives Wilaya D'Oran – Répertoire des Fonds Administration Générale (1832-1962).

- affaires musulmanes (1857-1962).

- carton n° 6787. Série I: 12

- Nationalisme Algérien :les oulémas réformistes(1944-1946).

- Activités Politico-religieuses (1955-1961).

(18)-C.A.O.M: Série: 93/4499 (Préfecture de Constantine. Service des liaisons Nord-Africaines).

- Oulémas – Diverses – Activités des Professeurs Réformistes Constantine (1946 – 1955).

(19) - A .w. D'Oran .6787. I: 12. Op.cit.

(20) - C.A.O.M: Série: 91/4 I 75 .76 (Préfecture d'Alger – Service des Liaisons Nord-Africaines).

- Culte Musulman .Confréries Musulmanes, Surveillance (1937-1961).

- Dossier Individuel des Confréries (1937-1961).

- Confrérie des Ammarias, Activités (1913-1914) (1939-1961).

(21) - C.A.O.M: 81F 2416.2417.2418.Op.cit.

(22) - C.A. O.M: 5I135.Op.cit.

(23) - C.A.O.M: 81F 767. (Ministère des Affaires Algériennes). (Service de Documentation et de Contre Espionnages).

- Association des Oulémas Réformistes, surveillance (1933-1958).

-Activités en Algérie et dans le monde arabe (1951-1958).

-Activités en Métropole (1952-1955).

-Poursuites judiciaires de l'administration contre les publications: notes, correspondances, exemplaires des journaux (1949-1953).

(24) - C.A.O.M:81F 2416.2417.2418.Op.cit.

(25) - C.A.O.M:81F767.opcit.

الرواية الشفوية وأثرها في نقل التراث العربي

د/ بن نعمة عبد الغفار، جامعة وهران

تعتبر المعرفة العربية والإسلامية من أغنى أنواع المعارف العالمية ثراءً، ومن أشرفها نمطاً، وأكثرها تنوعاً، اعتمدت في جزء مهم منها على الكتابة والتدوين كوسيلة للتبيين في الكتب، ونقل المعرفة عبر الزمان والمكان، وكانت الرواية الشفوية إحدى أشرف وسائلها، وعامل مهم في ربط الماضي بالحاضر، وربط هذا الأخير بالمستقبل.

ربما تجتمع مختلف الشعوب في نقل المعرفة عبر الرواية الشفوية، لكن التميز صاحبها حين ارتبطت بالمعرفة والتراث العربيين والإسلاميين، ونعتقد بجزم أن وصول هذه المعارف بطريقة أو بأخرى تعكس قيمة الجيل المسؤول، فرغم اشتراك الشعوب في مقوم شفوية المعرفة إلا أنها في التراث العربي كانت أكثر دقة، لارتباطها في جانب واضح بالعقيدة الإسلامية.

إن الحديث عن نظرية الرواية الشفوية ظهرت في السبعينيات حين رُبطت بالشعر الجاهلي، وهي نظرية تهدف إلى إخضاع الشعر الجاهلي إلى معطيات البحث العلمي، ودراسة ما يقدمه من نتائج، إذ أم يحفظ التاريخ شيئاً غيره يمكن الحديث عنه في القبائل الجاهلية، وهو الذاكرة الأولى التي كفت عن العقلية العربية قبل الإسلام.

تجنح بعض الكتابات إلى استغراب وتحليل جذور هذه النظرية بإرجاعها إلى أعمال المستشرقين الذين جعلوا التاريخ العربي الجاهلي على المحك، وحديث بعضهم عن الشعر الجاهلي لم يكن موضوعياً بالقدر الذي يكفي لإثباته، بل عمل على نسف فترة زمنية معتبرة تحاكي تاريخ المجتمع الذي كانت أغلب يومياته تعتمد على الشعر كمادة أساسية في التعامل اليومي، مثلت كلماته وقوافيه وأوزانه في ما بعد امتحانا صعبا للفكر العربي، بسبب البحث عن دليل ثبوته، فالحاضر الثابت هو روايات شفوية مجتمعة أحيانا ومتفرقة أحيانا أخرى تشهد على واقع عربي فريد قبل الإسلام وبعده، ربما دفعت الرواية الشفوية لهذا التراث أقطاب الفكر العربي كمحمود شاكر في مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية إلى اعتبار دراسة هذا الشعر محنة حقيقية للعقل الحديث في العالم الإسلامي¹ لم يسلم منها إلا القليل، وكل ذلك كان على يد أمضى الأسلحة في تهديم جوانب الثقافة وهو سلاح الاستشراق.

كثيرا ما أشارت الدراسات الأدبية حول أعمال الاستشراق إلى خطورة قصدها ونيتها رغم كثرتها وأهميتها، وقد عبر مالك بن نبي عن هذه الأهمية في قوله: "إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت في الواقع درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها"²، ومثل هذه العبارات كانت دافعا مهما أمام اجتهادات علمية راقية في استجلاء واستخراج مكامن هذا الإشعاع.

وعليه فإن الرواية الشفوية كغيرها من القضايا والمسائل الأدبية الخطيرة والمهمة في آن واحد قد تناولها المستشرقون بالدراسة والبيان والتحليل، ولأن أعمال الاستشراق كانت المدخل الأساس في تنامي المعرفة الأدبية النقدية التي أتت على كل حقول المعرفة الاستشراقية بالبيان والتوضيح، فقد بينت هذه الدراسات أن الرواية الشفوية كانت معروفة عند المستشرقين الأوائل خاصة ولیم ألواردت الذي كان يشير إلى التشابه بين الشعرين الهومري والجاهلي³

تعريف الرواية الشفوية: تعتبر الرواية الشفوية أهم الوسائل التي ساعدت العرب على حفظ تراثهم الأدبي واللغوي، ضمنت هذه الوسيلة إلى حد بعيد وصوله إلى الأجيال المتعاقبة، تعدى مدلولها من مجرد الحفاظ إلى السماع والاستظهار والنقل لمختلف مدونات العرب كالشعر والأنساب والأخبار، وتسجيل الوقائع التي كان الرواة يحرصون على تلقيها لمن يصغرهم، أو لأبنائهم، أو لمن يقوم بهذه المهمة في العصر التالية، وعليه فإن مسألة التواتر أهم ما تبني عليه الرواية الشفوية، تظهر أهميتها حين الوقوف على قصور عملية النقل إذ الاعتماد عليه مفردا لا يمنع في كثير من الأحيان التصحيف، وهي مسألة أشار إليها ابن خلدون في مقدمته حال حديثه عن علم التاريخ قائلا: "الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين ومن أنتم النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط".⁴

فابن خلدون يجعل مسألة الرواية الشفوية لا تتعلق بالشعر الجاهلي فحسب بل بكل تراث العربي والإسلامي على حد سواء، ولأنها أساس وصول التراث العربي، فقد دفعت بأرباب اللغة والأدب إلى تأسيس قواعد البحث عن مصدر الرواية، وأسانيدها، ومنتها، وأصبحت في ما بعد هاجسا علميا عند المصنفين، فلا تخلو مقدماتهم من الحديث عن مصادر الأخبار الواردة في الكتاب، في إشارة واضحة إلى استبعاد التجني أو الزيادة، كما هو الشأن في المصنفات الإسلامية في علوم الحديث فجعلت منه علم الجرح والتعديل في الرجال والرواة بناء على مقومات التوثيق والتضعيف، كمسلك واضح في النقد، وقسمت التفسير إلى دراية ورواية، وهذا المنهج في رجال الحديث كان دافعا لفحص رواة اللغة والأدب منذ القرن الثاني للهجرة، وكاشفا عن كذب حماد وابن الكلبي وجناد فرُفضت روايتهم، وفاضحا لوضع خلف الأحمر للأشعار، وكذبه في روايته، ومشيدا بثقة العدول من الرواة، كالفضل الضبي، وابن الأعرابي، والأصمعي وغيرهم.

سبقت الإشارة أن المستشرقين تناولوا الحديث عن الرواية الشفوية من جهة كونها عاملا مشتركا بين الشعرين العربي والجاهلي والهومري، وبصفة أساسية بين امرؤ القيس وهومر، وأساس الاشتراك يكمن في التواتر الشفوي الذي أصبح مدخلا للشك في الشعر الجاهلي عند طه حسين ومن نحى منحاه، وقد شكلت هذه القضية محنة حقيقية في الفكر والعقل العربيين، حتى أطلق عليها "محنة الشعر الجاهلي"، إن القراءات المتعددة للتراث الأدبي للعرب تدل في عمقها على قيمته، لكن اهتمام المستشرقين كان قائما على نفس الفكرة الإسلامية أساسا، فالقول بالانتحال ورفض القول برواية الشعر شفاها وانتقاله توترا بين الأجيال والعمل على تعميق القول

بصياغته في الفترة الإسلامية ليس له دلالة غير الطعن في الثوابت العربية، وأهمها القضاء على شخصية الرجل العربي وعلى استقلاله وقدرته على العطاء، وهذه النظرة القاصرة لم تفرق بين الثابت والمنتحل من شعر الجاهلية، ومن أهم القراءات التي تناولت هذه القضية كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الذي أرجع أساس المشكلة إلى تزايد القبائل في أشعارها، ثم إلى حركة الوضع في الشعر، فيقول: "فَلَمَّا رَاجَعَتِ الْعَرَبُ رِوَايَةَ الشَّعْرِ وَذَكَرَ أَيَّامَهَا وَمَآثِرَهَا اسْتَقْبَلَ بَعْضُ الْعَشَائِرِ شِعْرَ شِعْرَائِهِمْ وَمَا ذَهَبَ مِنْ ذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَكَانَ قَوْمٌ قَلَّتْ وَقَائِعُهُمْ وَأَشْعَارُهُمْ فَأَرَادُوا أَنْ يُلْحَقُوا بِمَنْ لَهُ الْوَقَائِعُ وَالْأَشْعَارُ فَقَالُوا عَلَى أَلْسِنَةِ شِعْرَائِهِمْ ثُمَّ كَانَتْ الرِّوَاةُ بَعْدَ فِرَادُوا فِي الْأَشْعَارِ الَّتِي قِيلَتْ وَلَيْسَ يَشْكُلُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ زِيَادَةُ الرِّوَاةِ وَلَكِنْ مَا وَضَعُوا وَلَكِنْ مَا وَضَعَ الْمَوْلِدُونَ وَإِنَّمَا عَضِلَ بِهِمْ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ مِنَ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مَنْ وَلَدَ الشُّعْرَاءُ أَوْ الرَّجُلُ لَيْسَ مِنْ وَلَدِهِمْ فَيَشْكُلُ ذَلِكَ بَعْضُ الْإِشْكَالِ".⁵

الشعر الجاهلي والمشكلة الهومرية: يظهر إذا أن الرواية الشفوية عامل رئيسي في تناقل مختلف العلوم والمعارف، حازت في الدراسات المختصة جانبا وافرا من الاهتمام، وارتبط الحديث عنها في باب التراث الأدبي واللغوي لما روج له المستشرقون إزاء الشك في الشعر الجاهلي، وتشبيهه بالشعر الهومري أو ما يسمى بالمشكلة الهومرية التي ألقت بظلالها على الفكر العربي لتعمل وبدقة على نفس تراث جلي وواضح وثابت، ولأن طه حسين قد استفرغ جهده في نفس الشعر الجاهلي فقد كان يدينه في ذلك دراسة الشعر الإغريقي الهومري الذي قاربت طريقة روايته الشعر العربي الجاهلي.

ليس سهلا الحديث عن المشكلة الهومرية فالذين أرخوا للمسألة اجتهدوا في وضع أوجه التشابه بينها وبين الشعر الجاهلي مما يفتح مجالا واضحا للطعن في ثبوت الشعر الجاهلي والقول بانتحاله، لعل الدراسات التي قارنت بين النمطين أكدت هذا التشابه الذي لا يجب أن يُضفي إلى نفس الثابت بل إلى إثبات الوارد شفاها، إذ بين ناصر الدين الأسد في كتابه حول مصادر الشعر الجاهلي ثلاثة نقاط مهمة في المسألة قائلا⁶:

أولا:

أن الشعر الجاهلي وشعر هومر هما أقدم شعر وصل إلينا من العرب والإغريق، وهما - على ذلك- ليسا أول شعر قالتها هاتان الأمتان؛ بل لقد سبقتهما مراحل تطور فيها الشعر حتى استوى في هذه الصورة التي وصلت إلينا. غير أن هذا الشعر المبكر عند العرب واليونان معاً قد ضاع ولم يحفظ لنا منه شيء قائم بنفسه منفصل عن غيره. ومع ذلك فإننا نستطيع أن نعرف وجود هذه المراحل السابقة من أمرين، أولهما: أن هذه الصور الشعرية التي وصلت إلينا صور فنية كاملة، متسقة، تامة التكوين، سوية البناء، ثابتة الأسس، حتى لقد أصبحت، بعد، نماذج فنية تحاكي وتحتذى ويتخذ منها عمود للشعر يحرص على التزامه شعراء العصور التالية في البيئات المتعددة التي صارت أزهى حضارة وأرقى ثقافة وأغزر معرفة. وليس يصح في الأفهام أن تنبت هذه الصورة الكاملة السوية من العدم، أو تقوم من الفراغ، أو تولد فجأة يافعة تامة التكوين. وثانيهما: أن في كلا الشعرين إشارات واضحة حيّاً ومبهمه أحياناً إلى شعراء سابقين لا نكاد نعرف عنهم شيئاً

ثانياً:

الشبه كبير بين الشعرين العربي الجاهلي والهومري في الصفات العامة للتعبير الشعري، فهما يتسمان بالنضارة والغضارة والبساطة، وبالفتنة التي نعزوها إلى "طفولة العالم" عند اليونان، و"سذاجة البداوة" عند العرب. ومع ذلك فما أشبه الشعر الجاهلي العربي بالشعر الهومري الذي "تعالى عن خشونة الشكل، وتجنب الصراع الناشب بين المعنى واللفظ، وارتفع عن الحوشي المبتذل من أساليب القول، واستطاع أن يحتفظ بمستواه الرفيع حفظاً متزناً

ثالثاً:

اختلف العلماء من دارسي الأدب في تدوين هذين الشعرين: الجاهلي العربي والهومري الإغريقي. فذهب فريق منهم إلى أنهما لم يكتبتا منذ أن نُظما، بل بقيا محفوظين في صدور الرجال ترويهما الأجيال المتعاقبة وينشدهما الأفراد في المجالس والمحافل قروناً طويلاً قاربت الثلاثة عند العرب وأربت على ذلك عند الإغريق. وذهب فريق آخر منهم إلى أن هذا الشعر قد كتب منذ أن قاله شعراء العرب في الجاهلية وهومر عند اليونان.

رابعاً:

الشعران الجاهلي العربي والهومري مصدران تاريخيان من مصادر الحياة الجاهلية عند هاتين الأمتين؛ بل ربما كانا - حتى الآن - المصدرين الأساسيين اللذين يعتمد الدارس عليهما في فهم هذه الحياة - في كثير من جوانبها - فهماً متصلاً متسقاً. وجل الأخبار التاريخية والأدبية التي نقلها الرواة إنما كانت تدور حول هذا الشعر: تفسره وتشرح ما يتضمنه من حوادث، وتترجم لمن يشير إليه من أشخاص. وقد لجأ القدامى أنفسهم إلى الشعر العربي الجاهلي يستنطقونه ويستنبطون منه توضيح بعض جوانب الحياة في الجاهلية، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما فعله ابن قتيبة في كتابه "الميسر والقдах"، وما فعله أبو طالب المفضل بن سلمة في كتابه "الملاهي وأسماءها". وأما الشعر الهومري فهو أيضاً سجل يعرض صورة واضحة نابضة بالحياة للحضارة الآرية، ولقد كادت فترة طويلة من الحياة الهيلينية المبكرة تكون لولاه نسياً منسياً، ولكنها الآن بفضل تبادله متصلة بالعصر الهيليني التالي في نصف متدرج مستمر.

رغم هذه النتائج إلا أن الشعر الجاهلي ظل يتسم بمزايا خاصة لم يتسم بها شعر آخر، وتظل الرواية الشفوية شاهدة على مدة زمنية معتبرة امتدت من العصر الجاهلي قبل الإسلام إلى عصر التدوين بعد الإسلام، تشهد لهما آثار الاعتبار والاهتمام، فإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصف الشعر الجاهلي بقوله: "الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه" فقد وصف أوجست شبرنجر الرواية بقوله: "علم الرواية الشفوية خاصة اختص بها الإسلام. بيد أن القليلين جداً من المستشرقين قدروها حق قدرها، وفهموها كما ينبغي"⁷.

إنّ تقصير بعض أصحاب الدراسات الاستشراقية في تقدير واحترام ظاهرة الرواية الشفوية خصوصاً، فوتت عليهم فهم قضايا الأدب العربي عموماً، كقضية الشعر الجاهلي، المحنة الحقيقية للعقل العربي الحديث.

ثم إن الأهمية التي تكتسيها الرواية تتعدى الجانب النظري في نقل التراث إلى جانب المصادقية المتعلقة بهذا التراث، وهي المربط الذي يجعل أخبار العرب وتراثهم على المحك بين القبول أو الرفض، لقد خضعت الرواية الشفوية لتحاليل أدبية مختلفة، والاعتماد عليها في النقل سيكون عند البعض حتماً عامل طعن في صحة الأخبار،

لولا أن استيثاق الطرق أثبت تميزا في العقلية العربية التي دفعت أقلام المستشرقين إلى تدوين عبارات تنهم الشعر الجاهلي بالانتحال بسبب الرواية الشفوية، وهي ذاتها أجبرتهم في ما بعد على اعتبارها قضية فكرية شاغلة، تتعدى الظاهرة إلى العلم كما ذكر أوجست سابقا.

لكن المتتبع للأخبار والآثار الأدبية سيجد مدونات واسعة من النقل الشفوي، لم تقتصر على الشعر فقط، بل الأمثال أيضا والتي شغلت حيزا وافرا في المصنفات، ولعلّ العلماء الذين اهتموا برواية الشعر هو ذاتهم الذين جمعوا هذه الأمثال، وعلى سبيل المثال لا الحصر تحفظ المصادر الأدبية أسماء كثيرة للأعلام مع مؤلفاتهم في هذا الشأن، كأمثال المفضل الضبي "ت180هـ"، وأمثال أبي فيد السدوسي "ت198هـ"، وأمثال أبي القاسم بن سلام "ت224هـ"، وأمثال أبي عكرمة الضبي "ت250هـ"، والزاهر لابن الأنباري "ت328هـ"، وجمهرة الأمثال للعسكري "ت395هـ"، وأمثال الطالقاني "ت421هـ"، وأمثال الميكالي "ت436هـ"، وأمثال أبي عبيد للبكري "ت487هـ"، ومجمع الأمثال للميداني "ت510هـ"، والمستقصى للزمخشري "ت538هـ"، وتمثال الأمثال للعبدري "ت837هـ".

هذه المنقولات السابقة والمذكورة على سبيل المثال لا الحصر كانت مما تمكّن نشرها وطبعها وهي في متناول الباحثين، ومع ذلك بعض الدراسات النقدية تشير إلى أن كمّا هائلا إلى جانب هذا لا يزال في حكم المفقود أو الغير منشور يربو عددها عن الأربعين مصنفاً⁸، وجميعها في باب الأمثال التي كانت الرواية الشفوية مصدر وصولها وتوثيقها.

الرواية الشفوية وحفظ التراث العربي الجاهلي:

الحق أن الرواية الشفوية كانت بالنسبة للعرب خيارا لا اختيارا على سبيل التجربة، إذ لم تكن لهم وسيلة حفظ أخرى، لكنها أصبحت مع مرور الوقت الوسيلة الأنجع حتى في عصور التدوين وما بعدها، فرغم اعتماد وظهور الكتابة كإحدى وسائل حفظ التراث، إلا أنّ مكانة الرواية الشفوية لم تُمحَ من الذاكرة العربية عبر العصور، والحديث عنها في العصر الجاهلي هو حديث عن الشعراء بوجه أو بآخر، فقد اشتهر عندهم أن الشعر يحفظه الشاعر ويرويه الشاعر أيضا، لذا فرض هذا الاشتهار والأهمية أن يكون الحديث عن الرواة في العصر الجاهلي هو حديث عن الطبقات التي حدّدها المتخصصون للرواية، على النحو التالي:

الطبقة الأولى: وهم الشعراء الرواة المحترفون أو الفحول الذين تجمع بينهم حرفة الفن والموهبة الشعرية، تسلسلوا في مراتب الشعر حتى أصبحوا بمجموعهم مدرسة شعرية⁹، وهؤلاء يلزمون شاعرا بعينه يروون عنه، حتى يصلون إلى مرتبة الفن والإبداع والأداء، تبدأ هذه المدرسة بأوس بن حجر¹⁰، رغم أنّ ابن سلام الجمحي يدرجه في الطبقة الثانية، وتنتهي بكثير¹¹، وتتمينا للتسلسل المذكور فإن المصادر تحفظ أن زهير كان راوية لأوس وتلميذا له¹² وحين وصل زهير إلى مرتبة الإتقان الشعري أصبح الحطيئة راوية له¹³، ويفيد صاحب الحيوان في ترجمته لهده أنه كان راوية للحطيئة¹⁴

إن الميزات البيانية والفنية التي اشتهرت بها هذه المدرسة عديدة جدا، أشهرها التقارب الفني في صناعة الشعر، لكن سير الموضوع يفرض تحديد خاصية فريدة تتماشى مع قضية الرواية الشفوية وهي المحاولات المتواصلة لتتقيح الشعر والتأني في نظمه قبل أن يُروى عنه، دفعت هذه الخاصية بالأصمعي إلى وصف الحطيئة

وزهير وأشباههما ب: "عبيد الشعر، لأنهم نَحَّوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين"¹⁵، ونعتقد أن هذا التآني سيرتبط فيما بعد بصحة الرواية ودقتها، وسيدفع الباحثين المتأخرين إلى وصف هذا المنحى "بمذهب الصنعة"¹⁶. لا تختص هذه المدرسة بالانتماء والتقارب الفني فحسب، بل قد يجتمع الشعراء في النسب والرحم أيضا، فأوس كان زوج أم زهير"¹⁷، كما تحفظ الروايات أن الأعشى¹⁸ كان يروي شعر خاله¹⁹ المسيب بن علس²⁰، وكذلك كان أبو ذؤيب الهذلي راوية لساعدة بن جؤية الهذلي"²¹، وغيرهم كثير. هاتان الخاصيتان: التقارب الفني والتقارب النسبي ليسا كل ما يتميز به شعراء هذه الطبقة من جهة الرواية، بل قد يجتمعون في غير هذا كالسلوكيات الاجتماعية المختلفة أو الميولات، وتكون هذه الرابطة كافية للرواية والنقل بينهم كالشعراء الصعاليك.

الطبقة الثانية: تنتقل الرواية الشفوية بموجب هذه الطبقة إلى مرحلة أخرى أكثر عمقا، و"هم الشعراء الذين لم يختصوا برواية شعر شاعر بذاته يتلمذون له، وإنما يروون لشعراء كثيرين يتلمذون لهم جميعاً، حتى يستقيم عودهم، ويشقوا طريقهم الشعري الذي يتفردون به ويتميزون، وأكثرهم من شعراء القرن الأول الهجري، وهم جميعاً قد رَووا الشعر الجاهلي وحفظوه وتمثلوا به، بل لقد نقدوه وحكموا عليه وفاضلوا بين الشعراء الجاهليين. وقد اعتمد الرواة من علماء القرن الثاني أحكام هؤلاء الشعراء الرواة وروايتهم للشعر الجاهلي وأخذوا عنهم"²²

وهذه الطبقة هي التي تؤكد اتصال الرواية الشفوية للشعر الجاهلي من عصرها الجاهلي إلى علماء القرن الثاني، ومن رواتها الشعراء الكميّ بن زيد:²³، الذي مكّنته دقة رواياته من تخصص له المصادر التاريخية مقولة حصرية: "ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميّ فمن صحح نسبه الكميّ صح ومن طعن فيه وهن"²⁴ ومنهم رؤبة بن العجاج²⁵، وذو الرمة²⁶ وغيرهم كثير.

الطبقة الثالثة: هي طبقة الحفظ: من جهود القبائل المنفردة في حفظ تراثهم الأدبي، ولا زالت المصادر تحفظ أن القبيلة كانت تحتفي بشعرائها في المحافل والمناسبات، فالشاعر هو الممثل الشرعي للقبيلة وعليه يجب حفظ شعره ونقله بين الأجيال.

تحسن الإشارة أن هذه الطبقات ليست هي الشعر كله، لكنها بعض منه فحسب، ذكرت هنا في محل التدليل على أنواع الرواة، "فعنهم كانت تنتشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه. ولهذا لم يمكن التحرز عن السقوط والتحريف، وإن لاحظنا أن ذاكرة العرب الغضة في الزمن القديم كانت أقدر قدرة لا تحد على الحفظ والاستيعاب من ذاكرة العالم الحديث"²⁷

الرواية الشفوية أداة لحفظ التراث العربي الإسلامي:

ستستمر الرواية الشفوية عاملاً ومصدراً هاماً بعد انتشار الإسلام، وتعدّت كونها مقصورة على نقل وحفظ الشعر فحسب، بل تعدّت إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فكلاهما كان يُحفظُ ويُنقلُ شفاهاً، حتى إذا وصلنا إلى العهد الأموي نجد القوم يجتهدون في التثبت من الروايات دون النظر إلى المسافات،

فالقبطي في تاريخ النحاة يؤكد أنّ الرّجلان من بني أمية يختلفان في البيت من الشعر، فيبردان بريداً إلى قتادة بن دعامة، فيسألانه عن ذلك²⁸ والمعروف أنّ قتادة²⁹ كان بالعراق آنذاك.

لم يختلف بنو العباس عن سابقيهم في الاهتمام بالأخبار العربية، إذ قدّم أعلامهم أمثالا تُحتدى في هذا الشأن، فقد اشتهر أنّ حمادا الراوية³⁰ وخلف الأحمر³¹ والمفضل الضبي³² وغيرهم كانوا يرحلون إلى القبائل والأعراب في البادية وإلى نجد أحياناً؛ ليأخذوا الأشعار والأخبار من ينابيعها الصحيحة، وكانت هذه الطبقة هي الانطلاقة في نشوء مدرستين عريقتين هما مدرسة الكوفة والبصرة، وبهذه الكيفية كانت الرواية الشفوية عاملاً أساساً في انتقال المعرفة الأدبية والإسلامية العربية إلى الأجيال المتعاقبة.

أهمية الرواية الشفوية في الكتابات التاريخية:

الحق أنّ الرواية الشفوية لم تتميز في أحد المجالين عن الآخر، فكلّهما تُعدّ مصدرًا له، وهما عالية عليها، والنظر إلى مسار الأحداث التاريخية سيكشف أنّ التأسيس للرواية الشفوية ينطلق أساساً من تاريخ الأدب العربي، ونصادف في قراءتنا للمصادر التاريخية هذا التقريب بوضوح، في ثنانيا الإعلان عن انتهاء صلاحية الرواية الشفوية في ظل ظهور الكتابة، ولا تزال كتابات مرجليوث وطه حسين تحمل ذلك الصراع والتجني على الشعر الجاهلي بتهمة الانتحال، والسبب هو الرواية الشفوية، التي يجنح الدكتور العماري في كتابه حولها إلى الحديث عن القوالب الصياغية كأهم ما تركز عليه، وهذه الدعوى هي الطريق إلى ربط الرواية بالعمومية ومجهولية القائل أو اختلاطه³³.

لكن المصادر التاريخية ذاتها تعتمد على المصادر الأدبية في الانتصار للرواية الشفوية التي كانت سبباً في الوضع والانتحال، فبروكلمن أشار إلى موضوع التدوين وعدم وجوده في الجاهلية، وأثره في فقدانه على انتحال الشعر، ثم قال: "ومن ثم يعد خطأ من مرجليوث وطه حسين أن أنكروا استعمال الكتابة في شمالي الجزيرة العربية قبل الإسلام بالكلية، ورتبوا على ذلك ما ذهبوا إليه من أن جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم، ومنحولة لأسمائهم. ولكن بديهياً أنّ الكتابة لم تقض قضاء كلياً على الرواية الشفوية. فقد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية يصحبه، يروي عنه أشعاره، وينشرها بين الناس، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده، وزاد عليها من عنده"³⁴.

تحفظ لنا المصادر التاريخية ككتب السير والمغازي والشمائل أخباراً عن العرب الجاهليين والأنبياء السابقين، ويجدون في الشعر الجاهلي شاهداً قائماً على أخبار العرب، وبالرجوع إلى أوائل كتب السير والمغازي سنجد كتاب ابن هشام في الصدارة، عمل فيه مؤرخاً وجامعاً لأخبار النبي صلى الله عليه وسلم، ولتاريخ العرب قبل الإسلام، وكان مصدره الأول هو الرواية الشفوية³⁵.

لسنا في هذا المجال بصدد الإقلال من قيمة الكتابة، فأهميتها كمصدر من مصادر التوثيق والنقل ثابتة، لكن ظهورها المتأخر فرض تقديم الأسبق، إذ لم تكن لدى العرب وسيلة أخرى آنذاك غير الرواية، لكن تعاقب الأزمنة والعصور سيفرض فيما بعد تعاضداً بينهما في الأخبار والأحوال، ولازلنا نقرأ في كتب التراجم والطبقات أنّ الذهبي في كتاباته التاريخية «استطاع استيعاب عصور التاريخ الإسلامي من أول ظهوره حتى زمانه

الذي كتب فيه مؤلفاته، وهي فترة تزيد على السبعة قرون، فألف في كل هذه العصور بعد أن درسها دراسة عميقة قامت على دعائمين رئيسيتين هما: الرواية الشفوية والكتب³⁶، كما نصادف في كتب الحديث أنّ العناية قد اتجهت إلى جمع الأحاديث وتدوينها عن طريق الرواية الشفوية التي اعتمد عليها الحديث فترة من الزمن، ثم كان أصحاب الكتب يعتمدون أيضا على الرواية الشفوية ويهتمون بالنقل عن حفاظ الحديث ونقلته بعد التدوين وقد استدعى ذلك البحث عن الوسائل التي تضمن سلامة وصول الأحاديث إليهم³⁷

خاتمة: ختاماً لا يعتمد هذا المقال إلى تفنيد الادعاءات التي تتهم الرواية الشفوية بتحريف بعض الأخبار، أو الوضع، فهذا من الثابت الذي لا يُنكر، لكنها كانت الأساس والمصدر الأول في نقل المعارف الأدبية والتاريخية والحديثية، والإسلامية، وكانت تسري في مواطن عدة من صفحات هذا التاريخ وهذا التراث مع الكتابة جنباً إلى جنب، وكلاهما أسهم بشكله وطريقته في خدمة هذا التراث.

الهوامش:

¹ - الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ط4، 1420هـ، 2000م، ص 21

² - المرجع نفسه، ص 54

³ - فضل بن عمار العمري، الشعر والغناء في ضوء نظرية الرواية الشفوية، مكتبة التوبة، الرياض، ص 7

⁴ - ابن خلدون عبد الرحمان، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408هـ، 1988م، ص 13

⁵ - بن سلام محمد الجمحي، طبقات فحول الشعراء، محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ج1، ص 46

⁶ - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط7، 1988، ص ص 289، 292

⁷ - عفيف عبد الرحمان، الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، دار الفكر، ط1، 1987م، ص 44

⁸ - عفيف عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 23

⁹ - ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص 222

¹⁰ - توفي سنة 620هـ، هو أوس بن حجر بن عتاب بن عبد الله بن عدى بن نمير بن أسيد شاعر تميم من شعراء الجاهلية وفحولها يجيد في شعره/ الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق، محمد محمود شاكر، دار المدني، جدة، ج1، ص 6.

¹¹ - (000 - 105 هـ = 723 - 000 م) كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر: شاعر، متيم مشهور. من أهل المدينة. أكثر إقامته بمصر. وفد على عبد الملك بن مروان، فازدري منظره، ولما عرف أدبه رفع مجلسه، فاخص به وبيني مروان، يعظمونه ويكرمونه. وكان مفرط القصر دميماً، في نفسه شمم وترفع. يقال له "ابن أبي جمعة" و "كثير عزة" و "الملحي" نسبة إلى بني مليح، وهم قبيلته، قال المرزباني: كان شاعر أهل الحجاز في الإسلام، لا يقدمون عليه أحداً. وفي المؤرخين من يذكر أنه من غلاة الشيعة، وينسبون إليه القول بالتناسخ، قيل: كان يرى أنه "يونس ابن متى" أخباره مع عزة بنت حميل الضمرية كثيرة. وكان عفيفاً في حبه قيل له: هل نلت من عزة شيئاً طول مدتلك؟ فقال: لا والله، إنما كنت إذا اشتد بي الأمر أخذت يدها فإذا وضعتها على جبيني وجدت لذلك راحة. توفي بالمدينة. له "ديوان شعر - ط" وللزبير ابن بكار "أخبار كثير" / الزكلي، خير الدين، الاعلام، دار العلم للملايين، ط15، ج5، ص 219

- ¹² . الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسام، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، ج1، ص 137
- ¹³ . الجمحي، المصدر السابق، ج1، ص 104
- ¹⁴ . الجاحظ، عثمان بن بحر، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ، ج7، ص 483
- ¹⁵ . الديتوري، المصدر السابق، ج1، ص 78
- ¹⁶ . شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، ط12، ص 25
- ¹⁷ . الأسد ناصر الدين، المرجع السابق، ص 222
- ¹⁸ . الأعشى الكبير أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة وهو حصن بن عكابة بن صعب ابن علي بن بكر بن وائل ويلقب الصناجة وأمه بنت علس أخت المسيب بن علي من بني خماعة ثم من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار ولد الأعشى بقرية باليمامة يقال لها منفوحة وفيها داره وبها قبره. ويقال إنه كان نصرانياً وهو أول من سأل بشعره ووفد إلى مكة يريد النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه بقصيدته التي أولها:
- ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليم مسهدا / المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، معجم الشعراء، تصحيح فؤاد كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1402هـ، 1982م، ج1، ص 401
- ¹⁹ . الدينوري، المصدر السابق، ج1، ص 173
- ²⁰ . المسيب بن علس بن مالك بن عمرو ابن قمامة، من ربيعة بن نزار: شاعر جاهلي. كان أحد المقلين المفضلين في الجاهلية. وهو خال الأعشى ميمون، وكان الأعشى راويته وقيل: اسمه زهير، وكنيته أبو فضة. له (ديوان شعر) شرحه الأمدي/ الزركلي، خير الدين، المصدر السابق، ج7، ص 225
- ²¹ . الأسد ناصر الدين، المرجع السابق، ص 222
- ²² . المرجع نفسه، ص 225
- ²³ . الكُمَيْت بن زيد الأسدي الشاعر الكوفي شاعر زمانه يُقال إن شعره بلغ أكثر من خمسة آلاف بيت روى عن الفرزدق وأبي جعفر الباقر وروى عنه والبة بن الحباب وغيره ووفد على الخلفيتين يزيد وهشام قال أبو عبيد الله لم يكن لبني أسد منقبة غير الكُمَيْت لكفاهم، ولد سنة ستين وتوفي سنة ست وعشرين ومائة / الصفدي، خليل الدين بن أبيك، الوافي بالوفيات، تحقيق، أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث بيروت، 1420هـ، 2000م، ج24، ص 276.
- ²⁴ . ابن عساكر أبو القاسم بن علي، تاريخ دمشق، تحقيق، عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، 1415هـ، 1995م، ج50، ص 243 / الذهبي، شمس الدين بن قايماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م، ج3، ص 486
- ²⁵ . (000 - 145 هـ = 762 - 000 م) رؤية بن عبد الله العجاج بن رؤية التميمي السعدي، أبو الجحّاف، أو أبو محمد: راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. مات في البادية، وقد أسنّ. وله (ديوان رجز - ط) وفي الوفيات: لما مات رؤية قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة / الزركلي، المصدر السابق، ج3، ص 34
- ²⁶ . (77 - 117 هـ = 696 - 735 م)، غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث، **ذو الرمة**: شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بإمرئ القيس وختم بذئ الرمة. وكان شديد القصر، دميما، يضرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيما بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيرا / المصدر نفسه، ج5، ص 124
- ²⁷ . جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، ط4، 1422هـ، 2001م، ج17، ص 267
- ²⁸ . القفطلي، جمال الدين أبو الحسن، إنباء الرواة أنباء النحاة، المكتبة العصرية، بيروت، 1424هـ، ج3، ص 35

²⁹ . أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث ابن سدوس، السدوسي البصري، كان تابعيا وعالما كبيرا، وكان قتادة أجمع الناس وكانت ولادته سنة 60هـ. وتوفي سنة 117هـ بواسط وقيل ثمانى عشرة، رضي الله عنه / ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المصدر السابق، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج4، ص 85

³⁰ . (95 - 155 هـ = 714 - 772 م) حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم: أول من لقب بالراوية. وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها. أصله من الديلم، ومولده في الكوفة. جال في البادية ورحل إلى الشام. وتقدم عند بني أمية، فكانوا يستزيرونه ويسألونه عن أيام العرب وعلومها، ويجزلون صلته. وهو الذي جمع السبع الطوال (المعلقات) / الزركلي، المصدر السابق، ج2، ص 271

³¹ . خلف الأحمر الشاعر صاحب البراعة في الأدب يكنى أبا محرز مولى بلال بن أبي بردة حمل عنه ديوانه أبو نواس وتوفي في حدود الثمانين ومائة وكان رواية ثقة علامة يسلك الأصمعي طريقه ويحذو حذوه حتى قيل هو معلم الأصمعي، ولم يكن فيه ما يعاب به إلا أنه كان يعمل القصيدة يسلك فيها ألفاظ العرب القدماء وينحلها أعيان الشعراء كأبي داود والإبدي وتبسط شرا وغيرهم / الصفدي، المصدر السابق، ج13، ص 219

³² . أبو عبد الرحمن الضبي الراوية الأديب النحوي اللغوي: كان من أكابر علماء الكوفة، عالما بالأخبار والشعر والعربية، أخذ عنه أبو عبد الله ابن الأعرابي وأبو زيد الأنصاري وخلف الأحمر وغيرهم، وكان ثقة ثباتا. من تصانيفه: كتاب الاختيارات. كتاب معاني الشعر. كتاب الأمثال. كتاب الألفاظ. كتاب العروض. المفضليات وهي أشعار مختارة جمعها للمهدي / الحموي ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1414هـ، 1993م، ج6، ص 2710

³³ . العمري، المرجع السابق، ص 8

³⁴ . المرجع نفسه، ج17، ص 267

³⁵ . محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، ط2، ص 40

³⁶ . الذهبي، سير أعلام النبلاء، شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ، 1985م، ج1، ص 57

³⁷ . طاهر سليمان حمودة، جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1410هـ، 1989م، ص 234

الرسائل الإخوانية بين منصوفة مغرب القرن التاسع عشر

رسالة العربي بن عطية الله الونشريسي

إلى أبي زيان الفريسي أنموذجا

د/عبد الحق شرف، جامعة تيارت

مقدمة:

الرسائل الإخوانية* في اللسان العربي القديم؛ هي مما يكتب به الرئيس إلى المرؤوس، والمرؤوس إلى الرئيس، والنظير إلى النظير. وذلك ضمن أغراض معينة، ومضامين شعورية ساحرة، وأهداف فردية خاصة، تخلوا تماما من القيود الرسمية، أو الأهداف السياسية والإدارية المتخذة في الرسائل الرسمية أو الديوانية. والرسائل الإخوانية كذلك؛ هي ضرب من الرسائل الذاتية المتبادلة بين الإخوان، ومنها سميت بالرسائل الإخوانية أو الإخوانيات.

وعلى هذا المنوال نسجل إحدى الرسائل الإخوانية المهمة بين منصوفة القرن التاسع عشر؛ وهي رسالة العربي بن عطية الله الطويل الونشريسي إلى أبي زيان الفريسي، موضوع هذه الورقة العلمية. وعلى الرغم من أهمية الرسالة ومُرسلها، والمرسلة إليها؛ فإنها لم تحظ بالعناية اللازمة الكافية، من نشر أو تحقيق. بل إن الأهم في ذلك هو طرفا الرسالة؛ المرسل والمرسل إليه، حيث إن المتاح عنهما من معلومات لهو قليل جدا.

وكثيرا ما يصطدم الباحث وهو بصدد الترجمة لهم ولأعلام التصوف بمغرب القرن التاسع عشر بقلّة المعلومات، بل وندرتها أحيانا؛ حيث لا يكاد يجد ما يشفي غليل البحث في هذا الإطار.

التعريف بالعربي بن عطية الله الطويل:

لا يكاد الباحث يجد شيئا مهما؛ وهو بصدد التقيب عن تفاصيل وافية بل وحتى قليلة عن حياة العربي بن عطية الله الونشريسي. حيث إن أغلب المصادر أهملت ذكره بشكل لافت للانتباه، خاصة لما يتعلق الأمر بعلم من أعلام التصوف المغاربة خلال التاسع عشر، الذين انبروا للدفاع عن حياض الحضرة الدرقاوية بالجزائر وتونس. ويعدّ كتاب "الاستمدادات الربانية فيما منّ الله عليّ من بحر الوحدانية" للعربي بن عطية الله الونشريسي؛ الملاذ الآمن للباحث عن بعض تفاصيل حياته. حيث أودع بين طيّه بعض الإشارات المهمة والتي قد تضي بعض الغرض في هذا الإطار.

والشيخ العربي بن عطية؛ هو مولاي العربي بن عطية الله الملقب بالطويل؛ العمّاري البوعبدلي نسباً؛ الشلفي مولداً ومنشأً، الورسنيسي داراً وقراراً، التونسي ضريحاً ومدفنّاً؛ المتوفى سنة 1272هـ/1855م¹.

عاش الشيخ العربي بن عطية أيام الباي حسن² بوهرا. وقد حفظ القرآن الكريم وهو في سنّ الثالثة والعشرين، كما أشار إلى ذلك هو بنفسه قائلاً: "جمعت القرآن وأنا ابن ثلاث وعشرين سنة"³. واجتمع عليه خلق كثير من أهل الصحو والمجدوبين، وجعل لكلّ منهما محلاً. كما نزل ببني يندل وأسّس هناك مسجداً بقرية مّتجة قريبة من جبل ورسنيس أو جبل الزبيب⁴.

وقد ذكر العربي بن عطية في كتابه الاستمدادات الربانية أنه زار شيخه العربي الدرقاوي بسجنه في فاس⁵ ومكث معه خمسة أيام⁶، ثم هاجر بعدها إلى تونس عن طريق البحر. حيث نجده يصف مشهد الهجرة

قائلاً: "وقد كنا بأرض الصحراء بنية الهجرة إلى المشرق؛ واجتهدنا غاية فلم يتيسر لنا. فإذا بالروم حاكم المدينة - دمره الله - بعث بالأمان ليُركبنا في البحر بلا أجر ولا زاد، من تونس إلى الجزائر، فقدمت إليه فاتفق ما قاله لنا".⁷

وقد أشار إليه العربي المشرف في حسامه؛ إشارة مقتضبة حينما أورد رسالته إلى أبي زيان الغريسي قائلاً: "وكان بجبل ونشريس⁸ متصدياً للتربية، ولي الله العارف بالله. شيخ الوقت والطريقة، ومعدن السلوك والحقيقة، يلقي الأوراد في زاويته المعمورة؛ بسفح الجبل مبنية، سيدي العربي بن عطية. وله رسائل في علم التصوف تفوق رسائل ابن عباد، فمن وقف عليها يعرف قدره، إذ المرء يُعرف من كلامه".⁹

التعريف بأبي زيان الغريسي:

لم يكن الشيخ أبي زيان الغريسي بمنأى عن عزوف المصادر التاريخية المعاصرة له وحتى اللاحقة في تناول تفاصيل حياته. ولئن كان الأمر كذلك؛ فإن ما أمكننا أن نجمله من مادة نحسبها كافية لتتبع بعض مراحل حياته؛ تتمثل في ما كتبه عنه العالم الجزائري العربي المشرف المعسكري دفين مادة فاس؛ والكتاني الفاسي في سلوة الأنفاس. حيث أمكننا أن نقف من خلالها على بعض تفاصيل حياة هذا العالم الذي قضى أغلب فترات حياته في خدمة شيخه العربي الدرقاوي والدرقاوية.

والشيخ أبي زيان الغريسي؛ هو العارف المحقق الصوفي المدقق. كان رحمه الله من أجلة أصحاب العربي الدرقاوي وكبرائهم. له أصحاب وأتباع أخذوا عنه وانتسبوا إليه. له "طبقات" في مناقب شيخه العربي الدرقاوي وبعض أصحابه، توفي قبل إكمالها سنة 1854¹⁰.

اشتهر بورعه وتواضعه مع الناس، ملازماً للمساجد وحلق الذكر. وصفه معاصره المشرف قائلاً: "ومن صفاته السنية وشماله المحصية بالله تعالى، أنه كان ملازماً للجلوس بمسجد جامع القرويين، معتكفا على الصلاة فيه، بحيث لا تفوته صلاة من الصلوات الخمس يوماً ما، ولا يترك زيارة إخوانه وأولاد شيخه وأحفاده مع كبر سنّه. وكان متواضعاً لسائر عباد الله، خاشعاً ذاكرة لله تعالى سرّاً وعلانية. له أخلاق حسنة انفرد بها في وقته وعن أبناء جنسه، وعَاطَظَ مَنْ خالطه، لا يحبّ إلا في الله ولا يبغض إلا في الله، لا يخشى سطوة ظالم ولا تأخذه في الله لومة لائم".¹¹

كما حلّاه المشرف في موضع آخر قائلاً: "ومنهم الولي الناسك العارف السالك، الذي حباه بصحبة هذا الشيخ المبارك الملك الديان، سيدي محمد بوزيان بن أحمد الغريسي...له فضيلة الصحبة، وإمامة الحضرة العلية الجنب، الفسيحة الرحبة. حسنُ السيرة، صفي القصد والسريرة، ميمون الناقبة محمود العاقبة؛ عليّ القدر كبير الشأن والخطر. شفاء القلوب من الأحزان والهموم، وبقية الخصوص والعموم، ثابت القدم وافر العلم المفيد، سواء صمّت أو تكلم. المبجل المعظم عند مَنْ تأخّر ومنْ تقدّم، خاتمة أهل التصوف والعرفان، من الطبقة العلية القدر والشأن عند الله وعند الشيخ وكافة الإخوان، يجيب ويُجاب، وحاجبٌ وحجاب".¹² ارتضاه الشيخ¹³ رضي الله عنه كاتباً عليه ونائباً عنه، في كل الأسئلة الواردة والأمور التي تستند إليه. إن حدث الشيخ فهو راويه، وإن ربّى باللحظة فهو حبرٌ يساويه. أُلّف في وفاة شيخه تأليفاً حسناً¹⁴، وضمّنه من المعارف والعارف ما يعجز عن مثله صاحب المباحث الأصلية¹⁵16.

مات الغريسي رحمه الله بوباء ضرب حاضرة فاس سنة 1854م. وقد كتب المشرف عنه وعن الوباء الذي أودى بحياته، واصفاً لتشييع جنازته في جو مهيب قائلاً: "مات فجأةً صبيحة يوم الجمعة".¹⁷ وكان في حاضرة

فاس إذ ذاك وباء¹⁸ تمكّن منه بعد صلاة الظهر¹⁹، في مسجد جامعها الأعظم الكائن بعدوة القرويين. وأحسّ من نفسه ضرراً كبيراً، فراودوه بعض الحاضرين من إخوانه في الله، أن يحملوه لداره فأبى إلا أن يُصلّي العصر، فأغمي عليه قُربُ صلاتها. ولم يشعر أن حملوه فمات في تلك الليلة - أي صباحها - ودفن خارج باب الفتوح، وما أظنّ أحداً تخلّف عن جنازته من أهل فاس، إلّا عاجزاً القُدرة عن المشي رأساً. حُملَ قبره بالذكر صفوفاً محفوفةً بجنازته، وأقيمت الحضرة على قبره بعد دفنه ساعة فلكية، وتمزّقت قلوب العارفين وأهل العلم على فقده²⁰.

كما ضمّن المشرّف كتابه "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين" كلاماً وافياً عن وفاته؛ ونص ما جاء فيه: "ومات بهذا الوباء، أبو البركات العارف بالله الواقف عند حدود الله، المتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلميذ القطب الرياني والفرد الصمداني، شذولي الزمان المري، سيدي ومولاي العربي الدرقاوي، ألا وهو سيدي أبو زيان الحمدي الغريسي. فاجتمع في جنازته خلق كثير وجمّ غفير، وأقيمت الحضرة على قبره أياماً²¹. "طعن يوم الخميس قبل صلاة العصر بشيء قليل، وأرادوا حمله لبيته فأبى إلا إذا صلى العصر، فلما غُشي عليه حُمل ومات صباح يوم الجمعة"²².

رسالة ابن عطية إلى الغريسي وجواب الأخير عليها:

يعود تاريخ اهتمامنا برسالة العربي بن عطية الله الطويل إلى أيام تحقيقنا لمخطوط الحسام المشرّف للعالم الجزائري العربي المشرّف دفين مدينة فاس²³. حيث لفتت رسالته التي أرسلها إلى أبي زيان الغريسي وجواب الأخير عليها؛ عنايتنا وانتباهنا.

وتقع الرسالة ضمن مخطوط "الحسام المشرّف" من الورقة 142 تظهر إلى الورقة 149 وجهه. ويدور موضوعها حول رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، أيهما أفضل حسّاً أم معنى؟ وقد استفسر ابن عطية من أبي زيان حول كلام سمعه من شيخه العربي الدرقاوي حول رؤية المصطفى صلى الله عليه وسلم في المنام ولم يفهمه وقتها. وعن قول التهامي الوزاني: كنا نستغرب في قول أبي العباس المرسي "لو غاب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه عين، ما عدت نفسي من المسلمين".

وقد منعه إذّاك من سؤال شيخه حول الموضوع؛ الحياء والهيبة. فأعاد طرح السؤال على الشيخ الغريسي، فجاء جواب الأخير ردّاً كافياً وافياً حول موضوع الرؤية من كل جوانبه، مستدلاً بكلام كبار المتصوفة.

نص رسالة العربي بن عطية الله الطويل إلى أبي زيان الغريسي:

الحمد لله وحده، من عبد الله سبحانه العربي بن عطية الله المكنى بالطويل، إلى كافة إخواننا في الله، وأحبائنا من أجلّة الحضرة المنوّرة والأمداد الروحانية، والمعاني الرائقة والعلوم الفائقة، والأذواق التي هي عن شهود وعيان، لا عن دليل وبرهان، خصوصاً ولي الله تعالى سيدي أحمد بن زرغيل الأغزاوي²⁴، وولي الله تعالى أبو العباس سيدي أحمد البداوي الفاسي²⁵، وولي الله تعالى سيدي الحاج أحمد الغماري²⁶، وولي الله تعالى سيدي محمد الحراق التطواني²⁷، وولي الله تعالى سيدي أبي زيان الغريسي بن أحمد، وولي الله تعالى سيدي محمد بن قدور الزواق²⁸، وغيرهم من إخواننا أهل المغرب جميعاً خصوصاً وعموماً.

السلام على ساداتنا وقرّة أعيننا، والرحمة والبركة تعمّكم في السكون والحركة وبعد: فإن سألتم عنّا فنحن بخير كبير، ولا خير إلّا خيركم، ولا سرّ إلّا سرّكم، ولا برّكّة إلّا برّكتكم. وذلك ما نال من نال خيراً، ولا سرّاً ولا برّكة منّا ومن غيرنا إلّا على ידיكم ومنّ منّ فضلكم وعطاياكم، والله ما رأينا على وجه

الأرض مَنْ هو أَكْرَمَ منكم ولا أجود منكم، فالمنة لله ولكم، ونطلب منكم الزيادة والترقي دائماً بفضلكم، ومَنْ عطاياكم في الأسرار الأزلية التي لا نهاية لها أبداً سرمداً²⁹، والدعاء الصالح منكم دائماً سرمداً، بأن نحفظنا الله من شياطين الإنس والجن، لأننا بأرض خبيثة تكيئة³⁰، لا خير فيها ولا في ملوكها ولا في حكامها. ونحن في غاية الشوق إلى لقاءكم، والله يجمع بيننا وبينكم قريباً غير بعيد، إذ هو على جمع الأحبة إذا يشاء قدير، سبحانه لا إله إلا هو، ونحبكم أحبكم الله ألا تقطعوا رسائلكم عنا ولو **بالتريال**، لأن كل ما يأتي من المليح مليح.

وقد سمعتُ يا ساداتنا فيما مضى من أستاذنا الشريف³¹ رحمه الله، كلاماً في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم فلم أفهمه، وقد منعنا في التفنن معه في ذلك الوقت الحياء منه والهيبة. والآن أذكره لكم إن شاء الله لتكاتبونا فيه بما ظهر لكم، وهو قوله رحمه الله حين ذكر حكاية عن مولاي التهامي صاحب وزان وذلك: قال مولاي التهامي رحمه الله كنا نستغرب في قول أبي العباس المرسى "لو غاب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه عين، ما عدت نفسي من المسلمين"³²، فإذا بنا وجدنا الأمر أقرب من ذلك؛ قال إقبيح³³ صار هو؛ هو. والشيخ أبو العباس³⁴ يا ساداتنا ما قال هذه الكلمات حتى صار هو؛ هو. فأني امرئ يكون أقرب من هذا؟ وأيضا سمعت الفقراء³⁵ يتكلمون مع سيدي بن علي القرافي رحمه الله، في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم حساً ومعناً أيها أفضل؟ فالفقراء قالوا: رؤية المعاني أفضل. والقرافي قال بخلاف ذلك؛ يعني رؤيته صلى الله عليه وسلم حساً أفضل. وأيضا قد وجدتُ كلاماً عند القيصري في تعليقه على «تائية ابن الفارض»: قد انختمت الولاية المحمدية بابن العربي الحاتمي، ولم تبق الولاية المطلقة³⁶. "يعني بالولاية المطلقة؛ أن من الأولياء مَنْ هو قدمه على قدم سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، ومنهم من هو قدمه على قدم سيدنا موسى عليه السلام، ومنهم من هو قدمه على قدم سيدنا نوح عليه السلام وهكذا. وأما مَنْ كان قدمه على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد انقطع من زمن ابن العربي الحاتمي"³⁷، ونسب هذا الكلام إلى شيخه ابن العربي والسلام.

جواب بوزيان الغريسي على رسالة العربي بن عطية الله:

الأخ في الله والحب في ذات الله، صادق العهد والأخوة، وخالص الودّ والفتوة³⁸، السيد العظيم الخطى الكريم القدر، المرشد المعين، المنهل العذب الصافي المعين، السالك المجذوب الحبيب المحبوب، الطالب المطلوب، الراغب وفيه مرغوب، الصوفي المحقق المتدارك الموفق، المقام الأوفى والمشرّب الصافي الأصفى، الشيخ البركة المحفوف بالعناية في السكون والحركة. أبو عبد الله سيدي محمد العربي بن عطية الله، أبقاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وعلى جميع مَنْ لاذ بكم وكان منكم وإليكم وبعد:

لازلنا على عهدكم ومحبتكم إلى لقاء الله، إن شاء الله متعلقين القلب بكم، راغبين بالإلحاح في الدعاء لكم، قد أورتنا رؤيتنا إياكم، الاشتياق إليكم والاهتمام بأمركم، وقد وجدناكم على أحسن حال، ولا نسمع عنكم إلا ما يسرّ البال، والله حسبنا ونعم الوكيل. قد أثنى على جميعكم الثناء الجميل سيدي عبد القادر الاغزاوي، ونحبكم ألا تقطعوا عنا مراسلاتكم ولو ببسم الله، إذ هي من العارف بالله بمنزلة "كن" من الله، لأنها اسم الله العظيم الأعظم، ولا تُقبّحوا منزلاً، ولا تسبّوا محلاً، عوض ما نقول الريبة نقول الشقير³⁹. وأنتم ببلدة طيبة ورب غفور، وقد كتبنا لكم مراتب لا ندرها، ولا نعلم هل وصلكم منها شيء أم لا، لأننا بمحلّ ليس بطريق تاجر ولا حاجّ، ولا صادر ولا وارد، إلا مَنْ سمع⁴⁰ محبة في الله وتقرباً إلى الله. يريد: من نظر في وجه مغفور غفر له، [الحديث]⁴¹. ومَنْ نظر في وجه أخ له على غبّ، أفضل ممّن اعتكف في مسجدي هذا

أربعين سنة⁴²، الحديث. أيضا ولو وجدنا مع مَنْ نبعث لكم، لكتبنا لكم كل يوم محبةً وتعظيمًا وتعرضًا للنفحات، واستنزالا لمطر الرحمة من قلوبكم وألسنتكم الصالحة.

هذا، ولتعلم سيدي أننا وصلنا كتاباً بخطكم فما قرأناه حتى قبلناه، وأتانا من عند الأخ الصالح ولي الله تعالى، الشيخ الأجلّ البركة المجلّ أبي العباس سيدي أحمد البداوي الفاسي رضي الله عنه. والله أعلم إذ أتونا به الخطار⁴³ من يدٍ إلى يدٍ، وسلّمَتْ فيه على السادات الأجلّة من إخواننا أهل هذه الناحية قواهم الله، وسلّمَتْ علينا من جملتهم وذكرَتْ فيه مسائل سنذكر ما ظهر لنا إن شاء الله فيها. ووجدني مَنْ مكّنني فيه بجنب الأستاذ الأكبر، العارف المحقق الأشهر، ولي الله تعالى سيدي أحمد بن زرغيل الاغزواوي، وولد أستاذنا الفقيه النبيه سيدي مولاي محمد وبعض الإخوان، فقرأته عليهم مرّة وفهموا معناه والله أعلم.

ونحن على نية إرساله للمكتوب إليهم، لكن نقول ما ظهر لنا فيه وانتقش عن صحيفة قلوبنا من معانيه، لئلا ينسونه ولم يجاوبوك أو يجاوبونك، ويحصل البعض بيدك دون البعض دون الجميع، فتأخذ من كل واحد ما يوافق الحقّ، ونعلم هو مشربك وتترك الباقي، وإن لم نصادف شيئاً فادع الله لنا أن يحقّقنا الله بحق على الوجه الأحق، فأقول:

لما قرأت الكتاب قبل ختمه، انتقش في قول الشيخ رضي الله عنه: لقبيح⁴⁴ صار هو؛ هو. لما ذكر بحضرته قول الشيخ الجليل، الشريف الأصيل مولاي التهامي الوزاني رحمه الله ورضي عنه، كنا نستبعد قول الشيخ المرسى رضي الله عنه: لو حُجِب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، منذ أربعين سنة طرفة عين، ما عدت نفسي من المسلمين⁴⁵، فإذا بنا وجدنا الأمر أقرب من ذلك. أن مراد أستاذنا رضي الله عنه: أي صار مولاي التهامي المذكور هو الشيخ المرسى على وجه الاستبعاد له والله أعلم، لكونه ليس هو من خيل هذا الميدان، ولا ممّن بسطت له في هذا الشأن اليَدان، وسكنت حين فهمت ما فهمت حتى ختمت الكتاب.

قال الأستاذ المذكور⁴⁶: ما قلت وتفنّن معنا في ذلك مرات، وأنت رحمك الله ورضي عنك تعلم يقينا، أن هذه المرتبة الثانية السامية السانية، التي هي رؤية خير البرية صلى الله عليه وسلم أربعين سنة وأكثر أو أقل على الحال الموصوفة، رؤية واحدة متصلة متّحدة حتى لو غاب عن صاحبها طرفة عين، في هذه المدة المديدة والسنين العديدة، ما عدّ نفسه من المسلمين. ولو خطر على قلبه غيره لقضى على نفسه بالردة لم تكن لأهل المجاهدة الكبيرة من أهل الصيام والقيام والتلاوة وكثرة الأذكار بالليل والنهار، وتوزيعها الذين يرونه صلى الله عليه وسلم مناما أو يقظة، أو تحصيل لهم في بعض الأوقات مشاهدة نوره في الأشياء لكثرة صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم وامتلاء الباطن بحبه.

بل هذه حال عبدٍ اصطفاه مولاه، ولحضرته اجتباها، وبمشاهدة ذاته حيّاه، فغنه وعن الكائنات أفناه وأذهب اسمَه باسمه، ووَصَفَه بوصفه وذاته بذاته، فكان: هو؛ هو. كما كان سبحانه وهو كائن على ما كان، ولكن الوهم أثبت شيئا لم يكن، فإن أراد الله للكمال وشهود الجلال والجمال، وإثبات ما لم يكن شيئا مذكورا، ولا هو كتابا مسطورا، ردّه نحو عالم التحويل، وعبروا عن ذلك بالنزول: حتى إذا ردّ عليه منه أدرك فرقاً حيث لم يكنه، كما قال الشيخ ابن البنا رضي الله عنه⁴⁷.

فيستسع حينئذ علمه في الكنز المدفون، والسرّ المصون والغيب المكنون، العزّ الأحمى وأحادية العمى وواحدية المرتبة العظمى، عين المسميات والأسماء، مولانا محمد الشاهد المشهود وبيت القاصد من المقصود. فرآه صلى الله عليه وسلم حساً ومعنى ظاهرا وباطنا، ذاتا وصفاتا، اسما ورسمًا، وعلمًا وحُكْمًا، فكانت هذه

مشاهدة له دما ولحما وعروقا وشعرا وعظما. فهذا يدل على سبيل الترقّي والتدلي على طريقة أيضا، فهذا اعتقاده وبه أدين ربي وعليه، أشهد أحبتي، إذ هم أحق وأولى بالشهادة. وقد أشهد سيدنا هود عليه السلام الأعداء، فأحرى الأعباء كما حكى الله عنه **قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ**⁴⁸. ومولاي التهامي⁴⁹ لا يُحكّم له بهذا الحكم والله أعلم، ربما عبر عن المقام من وصل إليه أو استشرف عليه، وذلك ملتبس إلا على صاحب بصيرة، كما قال في «الحكم»⁵⁰، فلذلك قال الشيخ تلك المقالة، وهي بلسان البربر وعنى بها الاستبعاد، وهيئات هيهات شتان ما بينهما، ولو جعلناها على بابها كما فهمت فلا غرابة في ذلك، إذ القرب والمعرفة لا نهاية لهما. فالأولياء يترقون فيهما كلّ حين أبد الأبد، بلا انتهاء ولا نفذ، لأنّ منازل العارفين في هذا المقام متفاوتة، وفضيلة البعض على البعض، قال تعالى: **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**⁵¹. وقد سمعت ما حكم به أستاذنا في فضل أستاذه على سيدي المرسى المذكور رضي الله عنه، في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لاستغراقه في العبودية، ونعته له نعتا بيانيا في جميع أوقاته، ولا شك أنّ التفاوت بين العارفين لا يكون إلا في العبودية، فمن كانت عبوديته أتمّ كان أمكن تحقّقا في رسول الله صلى الله عليه وسلم. إذ هو جلال الظاهر، كما أنه جمالي الباطن صلى الله عليه وسلم. وقد أشار الشيخ المرسى رضي الله عنه لهذا في قوله تعالى: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**⁵²، قال: كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كمال العبودية، فأسري بروحه وجسده، والأولياء لهم قسّم من ذلك، فيُسرى بأرواحهم دون أجسادهم.

وأما قول سيدي محمد القرافي رضي الله عنه: رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم حسّا، أفضل من رؤيته معنى. يعني به والله أعلم الحسّ الملازم للمعنى. وأما هو فليس بجاهل بهذا المعنى، إذ هو رجل كبير القدر جليل الخطر، ملامتي لا يُظهر للناس وفاقا كما تعلم ذلك منه، وليس مراده والله أعلم رؤية حسية منفردة محصورة مقيّدة غير مطلقة، وهذا هو الظن به. وقد كانت هذه المذاكرة بحضورك مع الشيخ⁵³، وسيدي محمد بوزيد وسيدي بن علي⁵⁴ المذكور، وغيرهم من أهل طريقتنا رضي الله عنهم وشرفنا بذكرهم.

وقال الشيخ⁵⁵ رضي الله عنه، في وصف هذه الحسية المتقدمة الذكر: إنّما هي ياقوتة من الكنز. وأما الكنز فهو ما ذكرناه من رؤيته صلى الله عليه وسلم حسّا ومعنى، ذاتا وصفاتا، وقال الفرد الجليل، سيدي محمد البوزيدي صاحب هذا المقام: إنّ أراد النبي صلى الله عليه وسلم فلا يرى إلّا هو، وإن أراد سيدنا جبريل عليه السلام، فلا يرى إلّا هو وهكذا، إذ الذات واحدة والصفة متحدة، وإن كانت الأسماء متعددة.

وأما قول الفقراء لسيدي بن علي⁵⁶: رؤيته معنى أفضل من رؤيته حسّا، أرادوا بهذا المعنى المطلق والمشرّب المحقّق، يعني المعنى عين الحسّ، فتبارك الله ولا مشاحنة في الألفاظ. وقولهم حقّ وصدق، وإن أرادوا به معنى خلاف الحسّ كما يُتخيّل لكثير من الناس في رؤيته صلى الله عليه وسلم في الوجود، من نور البصر والسمع والكلام، وإشراق الآفاق وغير ذلك وصفا واحدا. والوصف لا يقوم بنفسه والصفة لا تُعقل بدون الذات، فهو لا يُقبل من قائله لكنه أفضل من رؤيته شخصا مقيّدا حسّا في بعض الأحيان.

قال شيخ أشياخنا سيدي محمد بن عبد الله مَعْن⁵⁷، لشيخه سيدي عبد الرحمن - الشهير بالعارف بالله - بن محمد الفاسي⁵⁸ رضي الله عنهم: يا سيدي، إنّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يغيّب عني. فقال له: ما الذي تشاهد؛ روحانيته أو جسمانيته؟ فسكت. ثم بعد مدة كرّر مقالته عليه فأعاد الشيخ سؤاله فقال يا سيدي: الصفة لا تفارق الموصوف؛ أو كما قال.

لختم الولاية المحمدية والولاية العامة⁵⁹: وأما قول الشيخ الحاتمي رضي الله عنه، الذي حكاه عنه تلميذه القيصري الرومي رضي الله عنه، قد رأيناه عنده مستوفيا على شرح «تائية الشيخ ابن الفارض» رضي الله عنه حاصله: أن الشيخ محي الدين الحاتمي، قال في أجوبته الحافظ الترمذي⁶⁰ رضي الله عنه: «الختم ختمان، ختم يختم الله به الولاية مطلقا، وختم يختم به الولاية المحمدية. فأما ختم الولاية على الإطلاق: فهو لروح الله سيدنا عيسى عليه السلام، وأنه ينزل في آخر الزمان وارثا خاتما لا ولي بعده، فكان أول هذا الأمر نبي وهو آدم عليه السلام، وآخره نبي وهو عيسى عليه السلام؛ أعني نبوءة الاختصاص⁶¹».

"وأما ختم الولاية المحمدية: فهو لرجل من العرب أكرمها أصلا، وهذا في زماننا اليوم موجود عرفت به سنة خمسة وتسعين وخمسائة⁶². رأيت العلامة التي أخفاها الحق فيه عن عيون عباده وكشفها لي بمدينة فاس، حتى رأيت خاتم الولاية، وهو خاتم النبوءة المطلقة لا يعلم به كثير من الناس، وقد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق سبحانه في سيره. وكما أن الله ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم نبوءة التشريع، كذلك ختم الله بالختم المحمدي الولاية التي تحصل من الإرث المحمدي، لا التي تحصل من سائر الأنبياء. هذا معنى خاتم الولاية المحمدية. وأما خاتم الولاية العامة الذي لا يوجد بعده ولي فهو عيسى عليه السلام⁶³. هذا محصل كلامه رضي الله عنه والله أعلم.

وابن العربي الحاتمي كما علمت، رجل كبير القدر عظيم الخطر، صدر المشايخ جبل راسخ، غامض الكلام بين المرام ملامتي حقيقة، وعند مضغ كلامه يجد المجد لذة طعامه، دُونت الكتب بمقالاته، ومُلئت الدفاتر بغريب منازلته.

وانظر رحمك الله قول دائرة الأولياء: الولاية أفضل وأوسع من دائرة النبوءة. فَفَهَمَ منه بعض الناس أنه يفضل الولي على النبي، وعلم العارفون بالله مراده، وصرح به هو في بعض المواضع أيضا أن كل نبي ولي، ودائرة ولايته التي هي الدهش في شهود كبرياء عظيمة ذات الله، أفضل وأوسع من دائرة نبوءته التي تتعلق بالتشريع والإخبار عن الله. إذ العلم بالله أعظم من العلم بأمر الله، إذ العلم فضيلته على حسب معلومه، والتبليغ والإخبار عن الله ينقطع بانقطاع أجله. وولاية باطنه لا ينقطع مددها أبد الآباد، في البقاء الطويل الأخروي، فما بالك بعمر الدنيا ومع ما فيه من التناهي والقصر بتفتير، وينقطع بعض الأحيان الخبر، والمعرفة لا تحول ولا تزول.

فهكذا: إن كان مراده رضي الله عنه، ختم الولاية المحمدية بشيخه رضي الله عنه، بلوغه الدرجة العلية في سلم الولاية، إذ للولاية ذروة وسنام وانتهاء وختام، وهو الخلافة للنبي صلى الله عليه وسلم. فإن كان وارثا تلك المرتبة الشريفة والمنزلة العظيمة المنيفة، خصوصية له دون أولياء زمانه، من غير حصر لها بعده يُمكن. لأن الوارث الغوث الكامل، واحدا بعد واحد من غير تعدد، لأن ذلك المقام لا يتعدّد وغيره من الأولياء رضي الله عنهم، وورثة الأنبياء عليهم السلام يتعددون، وكل وارث على قدم موروثه من الأنبياء في مرتبته ومكانته عند الله، كما قال الشيخ الجليل سيدي عمر ابن الفارض رضي الله عنه في «تائيته»⁶⁴: [الطويل]

فعالنا منهم نبي ومن دعا ♦♦ إلى الله منا قام بالرُسُلِية
وعارفنا في وقتنا الأحمدي من ♦♦ أولي العزم منهم آخذ بالعزيمة

إلى آخره. ووارث الرسول صلى الله عليه وسلم، مولانا محمد هو الذي يمدّ الجميع، فعظموه وقدموه بالاتفاق، فأمهم واخترق بهم السبع الطباق، حتى زاد فوق السدرة التي إليها ينتهون، وختم السلم الذي إليه

يعرجون ويصعدون، ولو زاد أحدهم قدر أنملة لاحترق جملة. فإن انتقل هذا الوارث استخلف أقربهم إليهم البكري الصديقي، وأما إن أراد ذلك المقام ينقطع ولا يبلغه أحد من أولياء الله، فهيهات هيهات حتى تطلُع يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ⁶⁵، والظن به رضي الله عنه ما قدّمناه.

وتأمل هذا اللفظ وهو ختم "الولاية المحمدية"، تجده يترجمون أشياخهم به كما قال محي الدين في شيخه، وبه ترجم القيصري أيضا شيخه محي الدين. وقد ذكر الشيخ سيدي مصطفى البكري الصديقي المصري⁶⁶ وغيره رضي الله عنهم، وإن كان قال تلك المقالة في حال البداية، غلو⁶⁷ في تعظيم الشيخ ومدحه، كما يقع لكثير من المريدين، فيسلم للمريد غلو في شيخه ما لم ينسبه لمحدور، كأن يخرج عن دائرة البشرية ويقول باللاهوت⁶⁸ دون الناسوت⁶⁹، كقول النصاري في المسيح عليه السلام، أو يزعم نزول كتابه وتشريع عليه، أو خروج من غير تفصيل، أو بلوغ مرتبة ينقص بها المشايخ ونحو ذلك. فهذا لا وجه له، على أنه كل كلام يؤخذ منه ويرد إلا كلام خير البشر صلى الله عليه وسلم.

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: ما أتانا عن الله وعن الرسول قبلناه، وعلى الرأس والعين جعلناه، وما أتانا عن الصحابة نأخذ ونترك، وما أتانا عن التابعين هم رجال ونحن رجال. قالوا: ونقولوا إلى آخره. لكن إن وقعت من الرجال المعتبرين، كهذا الإمام الصدر الهمام الشيخ ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه، ينبغي تأويلها أو تسليمها إلى أهلها، هم أدري بكنهها رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم.

هذا ونسلم أضعافا مضاعفة وآفا على كافة إخوتي، وبيت القصيد من أهلي وأحبتي، ويسلم عليكم بسلامنا من هنا من الأحبة في الله جملة، ويسلم على جملتكم الشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، الشرفاء ساداتنا أولوا القدر العالي، مولاي محمد ومولاي علي ومولاي الطيب. ولا ينبغي لكم أن تتركوهم سدى، لأنهم مجدّون في الروضة الشريفة المباركة، وأسأل منكم صالح الدعاء لله والسلام، انتهى. مُجَلُّ قدركم محمد بوزيان بن أحمد الغريسي العسكري خرطه الله في زمرة الشهداء والعيان؛ آمين بمنه وكرمه يا رب العالمين.

الهوامش:

* - عن موضوع الرسائل الإخوانية راجع:

- القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1922، ص: 4.

- صفية بنت ناشي بن رضيان العتيبي، توظيف الشعر في الرسائل الإخوانية من بداية العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 2010، ص: 42- 48.

1. بوغاني مختار: "الشيخ مولاي العربي بن عطية الملقب بالطويل سيرته ومؤلفاته"، مقال ألقى بملتقى في جامعة شلف يومي 2- 3 فبراير 2009، ص: 2.

2. الباي حسن: بن موسى المعروف بأهج حسن؛ ثامن ببايات وهران وآخرهم، تولى في منتصف ذي الحجة سنة 1232هـ/1817م. ينظر: المازاري الآغا بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، دراسة وتحقيق: يحي بوعزيز، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990، ج1، ص: 34.

3. الاستمدادات الربانية، ص: 3.

4. بوغاني مختار، الشيخ مولاي العربي، ص: 2.

5. الاستمدادات الربانية، نسخة موجودة بمكتبة ناسخها أبو عبد الله شراك؛ إمام بمسجد الشريفة بوهران، ص: 31.

6. المصدر نفسه، 51.

7. نفسه، ص: 16.
8. **جبل ونشريس**: جبل شاهق من جبال مملكة تلمسان؛ كانت تسكنه قبيلة بنو توجين التي حاربت ملوك تلمسان عدة مرات ودامت هذه الحروب أكثر من ستين عاما. ينظر: ليون الإفريقي الحسن ابن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط2، 1983م، ج2، ص: 45.
9. العربي المشرفي، الحسام المشرفي لقطع لسان السابّ الجعري في الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس، دراسة وتحقيق إلى نهاية الترجمة الرابعة: عبد الحق شرف، رسالة دكتوراه، نوقشت بقسم الحضارة الإسلامية جامعة وهران، جوان 2012، ص: 397.
10. العربي المشرفي، أقوال المطاعين، دراسة وتحقيق: الحسين الفرقان، دكتوراه، الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003ص: 231. الحسام المشرفي لقطع لسان السابّ الجعري في الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن الكنسوس، مخطوط بالمكتبة الوطنية المغربية، رقم: 1207ك، و149و- و150و. الكتاني جعفر بن إدريس، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، الدار البيضاء: دار الثقافة، 2004، ج2، ص: 405.
11. العربي المشرفي، أقوال المطاعين، ص: 231.
12. العربي المشرفي، الحسام المشرفي، ص: 407- 408.
13. يقصد العربي الدرقاوي.
14. التأليف هو: "كنز الأسرار في مناقب مولانا العربي الدرقاوي وبعض أصحابه الأخيار". والمخطوط يقع ضمن مجموع بالخزانة الحسنية بالمغرب، رقم: 12813 (100ص). ومنه نسخة أخرى بالمكتبة الوطنية المغربية رقم: 2339 (103ص).
15. المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي، والكتاب شرحه ابن عجيبة أحمد بن محمد في كتاب وسمه ب: الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية. وقد حققه عبد الرحمن حسن محمود ونشر في مصر بمكتبة عالم الفكر.
16. العربي المشرفي، الحسام المشرفي 2012، ص: 407- 408.
17. يوم الجمعة 5 ربيع الأول عام نيف وسبعين وألفين/حوالي 1854م.
18. توفي أبو زيان الغريسي بوباء الكوليرا الذي ضرب المغرب ما بين سنتي 1854- 1855م والذي توفي فيه ما بين 300 و400 ضحية في اليوم الواحد. ينظر: العربي المشرفي، أقوال المطاعين، ص: 231.
19. جاء على هامش المخطوط: "قف: على سيدي بوزيان المعسكري كاتب الشيخ، مات بوباء كان بمحروسة فاس".
20. العربي المشرفي، الحسام المشرفي، ص: 408.
21. العربي المشرفي، أقوال المطاعين، ص: 231.
22. المصدر نفسه، ص: 231.
23. عن تفاصيل واقية عن حياة هذا العالم راجع كتابنا: العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المتوفى 1895 حياته وآثاره، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط1، 2011.
24. أحمد بن زرغيل الأغزاوي: توفي يوم الأربعاء 3 ذي الحجة 1245هـ/26 ماي 1830م بزاوية العربي الدرقاوي. ينظر: الغريسي، كنز الأسرار، ص: 75 (نسخة الخزانة العامة).
25. أحمد البداوي الفاسي: المتوفى سنة 1275هـ/1859م. ينظر: ابن سودة، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، ضمن موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1996، ج7، ص: 2612.

26. **الحاج أحمد الغماري**: الفقيه الصوفي الشيخ الجليل القدر محمد بن أحمد بوزيد الغماري السليمان الحسني، من كبار أصحاب العربي الدرقاوي؛ من آثاره: الآداب المرضية. توفي 10 محرم 1229هـ/ 2 جانفي 1814. ينظر: الغريسي، كنز الأسرار، ص: 88- 93.
27. **محمد الحراق التطواني**: العلامة الصوفي، محمد بن محمد بن عبد الواحد الحراق الحسني العلمي دفين مدينة تطوان. أخذ طريق التصوف عن العربي الدرقاوي، وصار من أكبر تلامذته. توفي سنة 1261هـ/ 1845م. ينظر: ابن سودة، إتحاف المطالع، ج 7، ص: 2574- 2575.
28. **محمد بن قدور الزواق**: محمد بن عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن علي بن موسى الصبيحي الزرهوني؛ عُرف بابن قدّور وبالزواق. له نظم في العقائد. توفي في منتصف ذي الحجة 1231هـ/ نوفمبر 1815م. ينظر: ابن سودة، إتحاف المطالع، ج 7، ص: 2498.
29. **سرمدا**: الدائم الذي لا ينقطع. ينظر: الزيات أحمد وآخرون: المعجم الوسيط، إشراف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص: 428.
30. **تكنينة**: مژلة. ينظر: ابن منظور الأفرقي محمد بن مكرم: لسان العرب، القاهرة: دار المعارف، ص: 3790.
31. يقصد العربي الدرقاوي.
32. ورد القول في كنز الأسرار والفتوحات الإلهية. ينظر: الغريسي، كنز الأسرار، ص: 25. ابن عجيبة أحمد بن محمد: الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود، مصر: عالم الفكر، ص: 6.
33. كلمة غامضة.
34. يقصد أبي العباس المرسى.
35. **الفقير**: عند أهل التصوف "هو الذي افتقر ما سوى الله، ورفض كل ما يشغله عن الله". ينظر: أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تقديم وتحقيق: عبد المجيد خيالي، الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي، ص: 78.
36. **القيصري الرومي**، تعليق على تائية ابن الفارض، مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية، بدون رقم، ص ص: 98- 99.
37. **القيصري**، تعليق على تائية ابن الفارض، ص: 99.
38. **الفتوة**: يقصد بها مرحلة الشباب. ينظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر وفريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، مصر: عالم الكتب، ط1، 2008، ص: 1967.
39. **الشقيز**: ضرب من الحرابي أو الجنادب. ينظر: الزيات، المعجم الوسيط، ص: 488.
40. ليس بحديث وإنما ينسب لبعض الصالحين أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال: يا رسول الله أنت قلت وذكره: قال: نعم ومن نظر إلى مغفور غفر له. ينظر: العامري أحمد بن عبد الكريم الغزي، الجدّ الحثيث في بيان ما ليس بحديث، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1997، ص: 220.
41. كلمة غامضة.
42. لم نجد له أثرا في الكثير من مظان الحديث والتخريج.
43. **الخطار**: يقصد به المسافرين. وهي من الألفاظ التي لا زالت شائعة عندنا بالناحية الغربية للجزائر كقولهم: أنا خاطر؛ أي مسافر.
44. كلمة غامضة.
45. **الفاسي المهدي** أبو عبد الله: تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية من أهل الطريق، مخطوط بمركز آل سعود بالمغرب، رقم: 299، و2ظ.
46. يقصد العربي الدرقاوي.

47. يشير إلى قول ابن البنا في المباحث الأصلية: حتى إذا رُدُّوا عليه منه ❖❖ أدرك فرقا حيث لم يَكُنْهُ. ينظر: ابن البنا أبو عبد الله محمد بن محمد التجيبي، المباحث الأصلية عن جملة الطريقة الصوفية، مخطوط بمركز آل سعود، الدار البيضاء: المغرب، رقم: 146، ص: 24. ابن عجيبة أحمد بن محمد، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، راجعه وحققه وقدم له: عبد الرحمن حسن محمود، القاهرة: عالم الفكر، ص: 258.
48. سورة هود، الآية 54 – 55.
49. يقصد التهامي الوزاني.
50. ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح متن الحكم، تقديم ومراجعة: محمد أحمد حسب الله، القاهرة: دار المعارف، ص: 410.
51. البقرة، الآية 253.
52. الإسراء، الآية 1.
53. يقصد العربي الدرقاوي.
54. يقصد القرافي.
55. يقصد العربي الدرقاوي.
56. يقصد القرافي.
57. محمد بن عبد الله معن: أبو عبد الله محمد بن عبد الله معن، كان رجلا زكيا خيرا مرضيا. توفي رحمه الله في 1010هـ/1601م، ودفن بروضة داخل باب الجيسة. ينظر: الكتاني (جعفر بن إدريس)، سلوة الأنفاس، ج1، ص: 222-223.
58. عبد الرحمن بن محمد الفاسي: المشهور بالعارف، المحقق الصوفي. ولد بالقصر الكبير يوم الأحد 19 محرم 972هـ/27 أوت 1564م. من تأليفه: حاشية البخاري والجلالين. توفي يوم 27 ربيع الأول سنة 1036هـ/1626م. ينظر: القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ضمن موسوعة أعلام المغرب، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، القسم الأول، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996، ج3، ص: 1273-1275. الكتاني (جعفر بن إدريس)، سلوة الأنفاس، ج2، ص: 341-345. الفاسي الفهري أبو حامد محمد العربي بن يوسف: مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب، دراسة وتحقيق: الشريف محمد بن حمزة بن علي الكتاني، ص: 196.
59. هذا العنوان ليس أصلا في الرسالة وإنما هو من وضعنا. وعنه راجع: الحكيم الترمذي أبو عبد الله محمد بن علي، ختم الأولياء، وضع حواشيه: عبد الوارث محمد علي، بيروت: دار الكتب العلمية، ص: 28-31. عبد الرحمن الوكيل، هذه هي الصوفية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1979، ص: 127.
60. الحكيم الترمذي ت(حوالي 320هـ/932م): محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، صوفي عالم بالحديث وأصول الدين. من أهل ترمذ التي نفي منها بسبب تصنيفه كتابا خالف فيه ما عليه أهلها فشهدوا عليه بالكفر. من تصانيفه: نواذر الأصول في أحاديث الرسول، والمحاجة والمجادلة. ينظر: السبكي تاج الدين عبد الوهاب: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ج2، ص: 245. السلمي أبو عبد الرحمن: الطبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، مطبعة: كتاب الشعب، ط2، 1998، ص: 70.
61. القيصري، التعليق على تائية ابن الفارض، ص: 99.
62. الموافق ل1199م.
63. القيصري، التعليق على تائية ابن الفارض، ص: 99-100.

64. ابن الفارض عمر، الديوان، مصر: المطبعة الميمنية، 1322هـ/1904، ص: 73. خليل سلمان، السيل العارض في نقض تائيه ابن الفارض، بيروت: المكتب الإسلامي، ط1، 1998، ص: 185.
65. الأنعام، الآية 158.
66. البكري الصديقي (1048هـ/1638م): أحمد بن زين العابدين بن محمد بن علي البكري الصديقي المصري الشافعي؛ صوفي أديب شاعر، من آثاره: روضة المشتاق وبهجة العشاق، حسن الوصف في تفسير سورة الصف. ينظر: كحالة عمر رضا: معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1993، ج1، ص: 143.
67. جاء على هامش المخطوط: "قف: قائل الولاية انختمت بابن عربي، عظم بها وسلم للمريد غلوه في شيخه ما لم ينسبه لمحدور".
68. اللاهوت: عبارة عن أسرار المعاني، ومرجعه للملكوت. ينظر: ابن عجيبة، التشوف، ص: 63.
69. الناسوت: عبارة عن حسّ الأواني، ومرجعه للملك. ينظر: ابن عجيبة، التشوف، ص: 63.

قضايا الجزائريين التعليمية في مداولات المجالس العامة بالجزائر

ما بين 1945 - 1954*

د. بليل محمد، جامعة تيارت

مقدمة:

لقد تتبعنا العديد من جلسات مداولات المجالس العامة، المرتبطة بالشأن التعليمي، فوجدنا كما هائلا من التدخلات، والتقارير المرفوعة من اللجان المختصة بالتعليم الفرنسي بالجزائر، إضافة إلى العرض الذي كان يقوم به عميد التعليم ومفتش أكاديمية العمالات الثلاثة بإلقائه أمام أعضاء المجالس العامة¹، والجمعية الجزائرية إضافة لما كان يدور بالمجالس المتربوية، حول مناقشة الأوضاع التعليمية بالجزائر.

باعتبار أن هذه المؤسسة الجهوية كانت نظريا تمثل الجزائريين والأوربيين على السواء، انطلاقا من انتخابات يشارك فيها كل سكان المستعمرة الفرنسية في الجزائر، وفق إطار ديمقراطية فرض إرادة الغالب على المغلوب واقعا منذ مرسوم سبتمبر 1875 الذي أنشأت بموجبه هذه المجالس على النمط الفرنسي مع بعض الاستثناءات التي كانت تخص انتخاب الجزائريين في إطار المنظومة الانتخابية الخاصة بالجزائريين، بتواجد تمثيل قوي للأقلية الأوربية مقابل تمثيل محدود للأغلبية المسلمة، وكانت هذه المجالس تناقش العديد من مشاكل الجزائريين، ويتدخل العديد من أعضائها المسلمين في طرح اشغالات السكان الجزائريين، وكانت مشاكل التعليم تثار بشكل حساس من قبل المتدخلين في جلسات المداولات، نظرا للسياسة الاستعمارية المتبعة في هذا القطاع؛ وتحفظها على فتح أبواب مدارسها بشكل متساوي بين الجزائريين والأوربيين.

لذلك سنحاول الإجابة على مجموعة من الأسئلة تخص هذا الموضوع، ومنها: كيف تطور التعليم في هذه الفترة بالمستعمرة؟ وما هي السياسة الفرنسية المتبعة في المجال التعليمي؟ وما هي أبرز تدخلات أعضاء المجالس العامة في طرح المشاكل واقتراح الحلول للمسألة التعليمية المتعلقة بالسكان الجزائريين؟ بالإضافة إلى ذلك سوف نتناول مواقف الإدارة الاستعمارية من هذه القضايا المطروحة بمؤسستها الاستعمارية على المستوى الجهوي.

1 - تطور التعليم الفرنسي في الجزائر بعد 1945:

لقد اهتمت الحكومة الفرنسية بتعليم الأهالي منذ مدة في إطار نظريتها الداعية إلى إدماج المسلمين ضمن الثقافة الفرنسية، وقامت بطرح المشاريع المختلفة، لكنها كانت تصطدم باللوبي الاستيطاني الذي كان يعرقل التعليم للأهالي من خلال مجالسه المنتخبة التي يسيطر عليها الأوربيون إضافة إلى نقص الإمكانيات المالية والمادية.

تطلب ذلك بذل بعض المجهود لتطوير تعليم الأهالي المسلمين حسب الإمكانيات والظروف المتاحة من خلال البرنامج الإصلاحي الخاص لتطوير التعليم، وحسب العديد من الدراسات، فإن التعليم الفرنسي عرف قفزة نوعية بعد الحرب العالمية الثانية، حيث تقاربت الأرقام والمؤشرات التي وردت في العديد من التقارير الحكومية² ولدى العديد من الباحثين المختصين³.

فحسب العديد من الدراسات السابقة الذكر، فإن سنة 1944 عرفت الانطلاقة الحقيقية للبرنامج العام للإصلاحات في مجال التعليم، حيث ازداد عدد الأقسام سنة 1946 إلى 931 وحدة بزيادة 131 وحدة، فعمالة الجزائر، أحصيت بها 232 قسم أكثر مما كان في سنة 1944 أما بعمالة قسنطينة فارتفع العدد إلى 327 قسم وبعمالة وهران إلى 278، أما عدد التلاميذ فارتفع هو بدوره من 110.686 إلى 175.601⁴.

ومقارنة ما بين الإحصائيات الواردة لدى المجالس العامة، خلال مناقشتها لموضوع التعليم وبين الوثائق الرسمية الأخرى المنشورة، فنجد عدد التلاميذ المسلمين يزداد ببطء عكس التلاميذ الأوروبيين؛ ذلك ما ورد في إحدى الوثائق المنشورة ضمن السلسلة الوثائقية الخاصة بزيارة رئيس الفرنسي أوربول إلى الجزائر بتطرقها إلى بعض الإحصائيات حول تطور هذا التعليم كالآتي⁵:

- مدارس تحضيرية بها 22661 تلميذ فرنسي مسلم وغير مسلم
- مدارس ابتدائية بها 309041
- ثانوية وكوليجات 25000
- جامعة الجزائر: 4518 طالب فرنسي مسلم وغير مسلم

وكان مدراء ومفتشو أكاديميات التعليم، يقومون بعرض حوصلة عن التطور التعليم في الجزائر ويقدمون جداول عن الأقسام ونوع التلاميذ الموجودين في مقاطعاتهم الإدارية، حيث قدم مفتش أكاديمية التعليم بوههران المزيد من الإيضاحات حول عدد التلاميذ والأقسام الموجودة، وللإجابة على استفسارات أعضاء المجالس العامة، المنشغلين بموضوع التعليم وقال: "إن الجداول الإحصائية المقدمة لكم، تنطق بنفسها عن وجود أماكن للدراسة بدليل تطور عدد التلاميذ الثانويين..."⁶.

فعمالة الجزائر ناقش مجلسها العام، هذا الموضوع المرتبط بتطور التعليم الفرنسي، وقدمت اللجنة المختصة جداول خاصة بتطور عدد التلاميذ والطلبة موضحة بعض النقائص الموجودة، بسبب الارتفاع السكاني الذي بات يهدد المنظومة المدرسية في الجزائر⁷، وإذا ما رجعنا إلى تطور عدد التلاميذ، فإننا نأخذ نموذج عمالة وهران⁸ التي تدخل مقرر التربية والتعليم فيها، السيد: بن خلفه العضو المسلم مقدما الإحصائيات حول التعليم أمام الحاكم العام، السيد ليونارد Léonard ومفتش أكاديمية التعليم كالآتي:

إحصائيات خاصة بالتعليم الدرجة الأولى: كان العدد في 5 نوفمبر 1950، 124065، تلميذ وتلميذة وارتفع حاليا (1951) إلى 130565، بزيادة 6500 تلميذ في 3620 قسم وتطرق لواقع التعليم بمدينة وهران التي

بها 32500 تلميذ و 800 قسم منها 80 قسم تزاوّل التعليم النصف الوقتي وقارنها بدوائر من نفس العمالة كتلمسان وسيدي بلعباس ومعسكر ومستغانم في آخر تقريره إلى المشاريع المستقبلية.

إن هذا التطور الحاصل في التعليم بالجزائر من خلال العديد من الوثائق الرسمية، يجعلنا نكتشف تركيزها على أهمية التعليم الفرنسي لدى المسلمين وضرورة إدماجهم في المنظومة الثقافية الفرنسية وإلغاء النظام التمييزي بين التعليم عند الأوروبيين المصنف "أ" وعند المسلمين المصنف "ب" حسب ما تطرق له المؤرخ الفرنسي أجرون Agéran⁹، بأن إدماج هذا التعليم أصبح واقعا منذ سنة 1949، بأن تطور التعليم ثلاثة مرات في العشرية ما بين 1943-1952، في جميع أطوار التعليم، خاصة التعليم العالي الذي بقي حكرا على الأوروبيين، نظرا للفرق الشاسع للناجحين في شهادة البكالوريا ما بين التلاميذ المسلمين والأوروبيين.

ورغم هذه الجهود التي حاولت الوثائق الرسمية من إحصائيات وتدخلات مسؤولي التعليم والتربية لدى المجالس العامة وتشير تقارير لجان العمالات الخاصة بالموضوع، فإن التعليم يبقى ضعيفا في نظرنا من خلال هذه الدراسات نفسها، إذا ما قارنا عدد التلاميذ المسلمين بنظرائهم الأوروبيين فإننا نجد تلميذ أوروبي يقابله سبعة تلاميذ مسلمين بمعنى آخر، فإنه في أحسن الأحوال حسب ما تطرق لها الباحث الفرنسي ستورا¹⁰ Stora، فإن عدد التلاميذ ارتفع ما بين سنتي 1945-1954 من 11% إلى 18%. ولهذا الأمر سعت المجالس المنتخبة من خلال الجمعية الجزائرية والمجالس الجهوية والبلدية إلى وضع إطار لخريطة مدرسية واضحة، تحدد برنامجا يتناسب مع حجم زيادة السكان الجزائريين.

2 - الخريطة المدرسية الفرنسية المقترحة في الجزائر بين 1945-1954:

كانت السياسة التعليمية تدار من قبل الحكومة الفرنسية من خلال تشريعات مجالسها المنتخبة، حيث وصل العديد من منتخبي المجالس العامة إلى قمة هذه المجالس وطرحوا مشاكل الجزائر التعليمية، وساهموا في إعداد الخرائط المدرسية الخاصة بالتعليم في الجزائر. وبعد أن صادق البرلمان الفرنسي على مشروع القانون الخاص في الجزائر أصبحت مسألة إعداد الخريطة المدرسية من قبل الجمعية الجزائرية، بالتنسيق مع المجالس العامة الجزائرية

وسبق أن طرحت لجنة الإصلاحات الإسلامية عدّة مشاريع لتطوير التعليم منذ سنة 1944 من خلال مرسوم 27 نوفمبر 1944 الذي يقضي بفتح 20 ألف قسم على امتداد 20 سنة¹¹ ويسمح هذا المشروع نظريا، بتمدرس مليون تلميذ مسلم حينها يلغي التمييز المدرسي مثل ما سبق لإشارة إليه، وفي سنة 1946 ثم طرح المخطط الثلاثي الذي يقضي بتحسين أطوار التعليم والذي لم يطبق إلا في حدود سنة 1950.

والمعروف أن نواب الجمعية الجزائرية كانوا يناقشون موضوع التعليم بالاعتماد على تقارير المجالس العامة المرسلة إلى المحاكم العام وتقارير وزير تربية الوطنية، الذي يعتمد هو الآخر على مراسلات مفتشي أكاديميات العمالات الثلاثة وعميد جامعة الجزائر.

والهدف من إعداد الخريطة المدرسية تحضير جيد للدخول المدرسي، ولكن في أغلب الأحوال كانت هذه الخريطة المدرسية تنتقد من قبل نواب الجمعية الجزائرية أمثال بن شنتوف و"لموان" lemoine اللذان أقرا بفشل المخطط الثلاثي¹²، وعدم نجاح الخريطة المدرسية لسنة 1951 التي لم تلب مطالب الأطفال المسلمين، وانتقد نواب الجمعية الجزائرية أعضاء المجالس العامة في تهاونهم في عدم قدرتهم على دراسة موضوع الخريطة المدرسية بشكل جيد. وخلال المخطط الرباعي الخاص بتدعيم الإنجازات المدرسية، ناقشت المؤسسات الخاصة بهذا الموضوع من مجالس منتخبة ولجان برلمانية بعثت من قبل المتربول، لدراسة أوضاع التعليم بالجزائر وطرحت عدة مشاريع ما بين سنتي 1953- 1956، ودعت إلى ضرورة مواصلة الإنجازات السابقة على مستوى المخطط التعليمي في مجال بناء الأقسام كالاتي¹³: إنجاز 600 قسم وعدد 300 ألف تلميذ سنة 1953 إنجاز 600 قسم وعدد 300 ألف تلميذ سنة 1954.

ولهذه الغاية وضعت تقارير بمجلس عام للجزائر¹⁴، في جداول خاصة تطور التعليم بمختلف أطواره في جلسات عديدة لإبراز دور المجالس العامة في مجال التعليم، وقد عثرنا على ملف خاص بالخريطة المدرسية عند قيامنا بمسح علب الأرشيف فيما وراء البحر، سنحاول أن تقتصر في دراستنا على الخريطة المدرسية لسنة 1954، حتى نستطيع أن نشخص محاولات المجالس المنتخبة في تحسين معالم سياسية الفرنسية، ففي تقرير **للجمعية الجزائرية، رقم 26**، تم شرح الخريطة المدرسية، و بعد إطلاعها على المعطيات العامة لتطور التعليم في الجزائر، خاصة ما تعلق منها بالجانب المالي الخاص بالبناءات وتحديد الإطار البشري للتعليم تمّ التطرق للنقاط الآتية¹⁵:

- تحديد الحاجيات الضرورية المسلمين
 - تحديد الاحتياجات المالية
 - دراسة الحلول الممكنة لتنفيذ جيد للبرامج التعليمية في المدن والأرياف
 - الاعتماد على جهود المجالس العامة في تنفيذ برامج بناء الأقسام وتوفير القطع الأرضية لها.
- وتم تحديد أهم خصائص الخريطة المدرسية من خلال برنامج المقترح لسنتي 1953- 1954 في بناء الأقسام كالاتي¹⁶:

- عمالة الجزائر بناء 142 قسم و91 مسكن
- عمالة وهران بناء 158 قسم و107 مسكن
- عمالة قسنطينة بناء 239 قسم و 156 مسكن

من خلال هذه الإحصائيات يتأكد لدينا اهتمام نواب الجمعية الجزائرية بالخريطة المدرسية والتعليم عموما، مركزين على تدعيم أعضاء المجالس العامة لهم، وكان لتقرير اللجنة الخاصة بالخريطة المدرسية السيد لوهرور¹⁷ Lehuroux صدق واسع، نظرا للمعطيات المقدمة عن الموضوع ومطالبته بضرورة بناء 12 ألف قسم

و800 مسكن وتوفير مبلغ 2.500.000 ف من مجموع المصاريف الخاصة بالمخطط الرباعي المقدرة ب50 مليار، من أجل تحدي النمو الديمغرافي المتزايد وتوفير المقاعد الدراسية للأطفال المسلمين الجزائريين.

ونعتقد من جهتنا أن المجالس المنتخبة قد أولت اهتماما بموضوع التعليم وقد تمثل في العديد من المداولات لجميع المجالس الجهوية والبلدية؛ بطلب احتياجاتها من الجمعية الجزائرية.

وقد تطرق أعضاء المجالس العامة بإسهاب لمشاكل قطاع التعليم في الجزائر ونقائصه ومطالبة الحكومة والمسؤولين في قطاع التعليم¹⁸، من وزير التربية الوطنية ومفتشي أكاديميات العمالات الثلاث و عميد جامعة الجزائر بضرورة الاهتمام بهذا القطاع.

ذلك ما سوف نتطرق له في العنصر المقبل المتعلق بتدخلات أعضاء المجالس العامة حول مشاكل قطاع التعليم والحلول المقترحة لعلاجها.

3- تدخلات أعضاء المجالس العامة في طرح مشاكل التعليم لدى المسلمين ما بين 1945 - 1954:

من بين المسائل الكبرى التي كانت تطرح في مداولات المجالس العامة قضايا التعليم الخاصة بالسكان المسلمين. وبعد مرور أكثر من قرن على الاحتلال الفرنسي للجزائر، فشلت السياسة الفرنسية في تحقيق مقولة نقل المظاهر الحضارية للسكان المسلمين حسب ما أوردت جريدة الإتحاد الديمقراطي، لارويبوليك أليجيريان في إحدى مقالاتها للصحفي أحمد ابن زادي¹⁹، أن الكذب لا يثمن ردا على أكاذيب إحدى الجرائد اليمينية المعروفة بجورنال دالجي مفندة أكذوبة فرنسا حول الرسالة التعليمية لفرنسا، بأنها غير حقيقية، وأيضا المشاكل التي بات يتخبط فيها قطاع التعليم من خلال الإحصائيات الرسمية نفسها التي تقول بوجود 1.700.000 طفل مسلم غير متمدرس، وكذلك مشكلة اكتظاظ الأقسام ونقص المعلمين وغير ما من المشاكل الأخرى التي طرحها ممثلو السكان على المستوى الجهوي حيث سنحاول تتبع تدخلاتهم خلال فترتين زمنيةتين وهما²⁰ فترة 1947- 1950، وفترة 1951- 1954.

أ- تدخلات أعضاء المجالس العامة فيما بينها 1947- 1950:

لقد رفعت بعض اللجان الخاصة بدراسة أوضاع التعليم في الجزائر تقاريرها إلى الهيئات التنفيذية بالجزائر وباريس إلى الجمعية الجزائرية²¹، باعتبارها برلمانا محليا يناقش جميع قضايا الجزائريين، وكانت أهم مشكلة أثارت انتباه هذه اللجان، مشكلة الأمية وكيفية محاربتها خاصة مع التزايد السكاني الملحوظ، حيث ظلت مشاكل التعليم تطرح على مستوى المجالس المنتخبة منذ سنة 1947، بسبب عدة عراقيل كانت تواجه تـمدرس الأطفال المسلمين.

ولهذه الغاية سوف نتطرق لأهم المشاكل التي طرحها ممثلو السكان على المستوى الجهوي للعمالات الثلاث الجزائرية، وسنحاول أن نركز على المشاكل المشتركة بينهم. وحسب العديد من تدخلات أعضاء المجالس العامة الثلاثة، يمكننا أن نلخص فيها أهم المشاكل التي طرحت على النقاش ومنها:

- **مشكلة نقص المعلمين في معظم العمالات** بدرجات متفاوتة، فبعمالة الجزائر²² نوقش الموضوع بإسهاب وطرح العديد من الأعضاء هذا المشكل خاصة بمنطقة "تيزي وزو"، حيث تدخل كلا من النائبين المسلمين آيت علي، وعبد السلام، حول وجود أقسام بدون معلمين حيث يضطر العديد منهم إلى الذهاب إلى الجزائر ومليانة. أما بعمالة وهران فالمشكل قائم بالنسبة للعديد من أعضاء المجالس الذين اشتكوا من عدم وجود معلمين بالمناطق النائية، بتدخل النائبين مكي وعبد الهادي في هذا الموضوع²³.

- **مشكلة نقص الأقسام ومرافقها**، حيث تعرض العديد من أعضاء المجالس إلى هذا المشكل، واعتبر بناء الأقسام جد بطيء في بعض المناطق ومنعدم في المناطق النائية حيث تدخل النائب المسلم عن حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بمجلس عمالة وهران، السيد صلاح موضحا وجود هذا المشكل بمجلس وهران معترفا بوجود نقائص بالمناطق الريفية²⁴، أما بمجلس عمالة الجزائر²⁵ فقد تطرق المتدخلون إلى إهمال العمائر الخاصة بالتعليم وعدم ترميمها منذ أربعة سنوات ونقص المرافق الصحية للتلاميذ، أما بالعمالة قسنطينة²⁶ فنناقش مجلسها مرارا هذا المشكل القائم الخاص بانعدام المدارس العمومية بالمناطق النائية، فتدخل العديد من النواب أمثال بن العقون وطالب وبن جلول وغيرهم؛ موضحين أن التعليم الحر بهذه المناطق قد استوعب بعض التلاميذ.

- **مشكل الأقسام المكتظة وطبيعة التعليم** التمييزي بين المجموعتين، إضافة إلى عمل هذه الأقسام بنظام نصف الوقتي الدراسي، وفي هذا الصدد ناقش أعضاء المجالس العامة هذا الموضوع وأوله اهتماما بالغا، فبعمالة الجزائر اضطرت العديد من المدارس إلى تبني نظام النصف الوقتي كالجزائر والبلدية وتيزي وزو بسبب عدد التلاميذ المتزايد الذي وصل عددهم في سنة 1947 إلى 46.740 تلميذ مسجل²⁷، أما بعمالة وهران فالمشكل أكبر بالمناطق الريفية ذات الأغلبية المسلمة، باكتظاظ كبير حيث وصل عدد التلاميذ بالقسم الواحد ببلدية بني صاف إلى 70 تلميذ مما شكل عبئا ثقيلا إضافة لنقص المستوى التعليمي وعدم اندماج التلاميذ المسلمين في المنظومة المدرسية الفرنسية.

ونعتقد أن هذا المشكل مطروح منذ بداية الاحتلال، حيث لم تحاول السلطات المحلية علاج هذا المشكل وكانت تعرقل تدرس الأطفال المسلمين وزاد عددهم في الحرب العالمية الثانية، بسبب قيام الأولياء المسلمين إلى إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية، حيث تدخل في جلسة أكتوبر 1949 العديد من المتدخلين أبرزهم السادة الأعضاء "خالد ابن علي" و"مكي" و"فلار" و"شيفان" موضحين بطيء فتح أقسام جديدة وقلة التعليم الثانوي الخاص بالتلاميذ المسلمين.

ونقلت التقارير المرسلة إلى وزير التربية والحاكم العام، تدخلات النواب المسلمين أمثال بن خلفه حول موضوع البناءات المدرسية التي لازالت حبيسة الإمكانيات المالية²⁸.

- **مشكلة قلة الاعتمادات المالية:** هذا المشكل طرحه أعضاء المجالس العامة على اللجان المالية لمجالسهم، وطرحوا عليهم الأسئلة مستفسرين عن نقص الاعتمادات المالية لبناء المدارس حيث تدخل الموضوع بمجلس وهران⁽²⁹⁾ العديد من النواب أمثال "فلنوا Flinoi" و"بن خلفه" و"وسي علي"، هذا الأخير الذي تدخل موضحا بأن

200 طفل مسلم لم يتمكنوا من التسجيل وأقصى 500 تلميذ في السنة الخامسة ليجدوا أنفسهم في الشارع وتطرق أيضا إلى نقص الإمكانيات المالية.

- **مشكلة الخدمات الاجتماعية للتلاميذ والمعلمين** فمعظم التلاميذ لم يحصلوا على منح مدرسية بسبب نقص الإمكانيات المالية وكذلك نقص سكنات المعلمين بالمناطق النائية، حيث يزداد هذه المشاكل حدة في الفترة الثانية لهذه الدراسة³⁰، حيث تسبب هذه المشاكل في نقص التحاق المعلمين وعدم مواصلة التلاميذ لدروسهم.

لذلك تضح أمامنا صعوبة مناقشة موضوع التعليم في كامل العملات الجزائرية، نظرا لحجم هذه المشاكل التي باتت تهدد رسالة فرنسا الحضارية، حسب اعتقاد المشرع الفرنسي وعرقلة اللوبي الاستيطاني لإدماج الأطفال المسلمين في الحضارة الفرنسية، ومشكلة النمو الديمغرافي، فعدد الأطفال أصبح يتزايد بشكل ملحوظ أكثر ما هو موجود بفرنسا، وسبق لنا طرح أبرز المشاكل التي كانت تعيق تطور التعليم الفرنسي العمومي وأيضا عدم مواكبة السلطات المحلية خصوصيات الأطفال المسلمين في تعليم لغتهم، رغم أن القانون الخاص اعتبرها لغة رسمية ثانية بعد اللغة الفرنسية.

وسنحاول أن نستفسر في الفترة الثانية حول مداخلات أعضاء المجالس، من المشاكل التي ظلت عالقة رغم تحذيرات أعضاء المجالس العامة، من التمييز المطروح على الساحة التعليمية في الجزائر، وعدم المساواة في هذا القطاع بين الأطفال الأوروبيين والمسلمين.

ب- تدخلات أعضاء المجالس العامة في ما بين 1951 و1954:

لقد ارتفع عدد السكان في الجزائر بشكل كبير وازدادت حاجاته للتعليم، حسب ما وضحت الوثائق الإحصائية الرسمية نفسها ومختصون في الدراسات السكانية أمثال "ابريل" Breil الذي جاء في إحدى تقاريره³¹، بأن ارتفاع عدد السكان يؤدي إلى ارتفاع عدد المتدربين، وفي نظره فقد وصل عدد السكان المسلمين في سنة 1952 إلى 9.525.726 نسمة وغير المسلمين إلى 1042409 نسمة.

وكذلك ورد في تقارير السلطات المحلية في نشرة الجزائر "نصف قرن" من خلال نماذج منها كالآتي³²:

- فإذا كانت المدارس كثيرة في المدن والبلديات المختلطة فإنها قليلة بالمراكز البلدية الصغرى التابعة للبلديات الكاملة الصلاحيات لانخفاض مواردها المالية، وقد شككت بعض التقارير في مدى تأثير التعليم الفرنسي على الأطفال المسلمين.

- يبحث سكان الأرياف عن فرص للتأقلم مع الحياة العامة للتعليم، فيقوم لأهالي بدفع أبنائهم نحو المدارس الفرنسية مثل ما ورد في تقرير الحاكم المدني السكاني.

- انتشار الأمية بقصر الشلالة حيث تجاوزت نسبة 97% في سكان الأرياف و الطفل لا يدخل المدرسة أبدا، إلا بعد السن السابعة.

- أما التعليم الحر فتبقى المدارس القرآنية ضعيفة من حيث البرامج والتأطير حسب تقرير بلدية سعيدة المختلطة.

حاولنا أن نقدم هذه النماذج لنوضح أن المشاكل السابقة، التي تم التطرق لها من قبل أعضاء المجالس العامة لا زالت مستمرة، وذلك ما سوف نتعرض له من خلال بعض نماذج المداخلات التي تعكس استمرار هذه المشاكل، بشكل أصبح يهدد المنظومة التعليمية الاستعمارية في الجزائر.

فالجهاز التنفيذي في الجزائر، كان يسعى لمواكبة هذه المشاكل ومناقشتها داخل جهازه التشريعي بالجمعية الجزائرية³³ من خلال البطاقات المدرسية ومعاينة المشاكل السابقة الذكر، كنقص المعلمين والسكنات واكتظاظ الأقسام والمشاكل البيداغوجية والاجتماعية للتلاميذ المسلمين.

ولهذه الغاية اجتمعت نقابة المعلمين بقيادة **علال سعدون**³⁴، متطرفة لمختلف المشاكل التي كانت تعترض العملية التعليمية في هذه الفترة، بعمالة وهران بمدينة، في شهر جويلية 1953 بعين تموشنت، وأهم مشكلة تعرضت لها هي تدرس الأطفال المسلمين ومقارنته بالتعليم المتربولي، وفي نفس السياق اجتمعت المجموعة الخاصة بدراسة مخططات البنية التحتية بإشراف عميد أكاديمية الجزائر السيد "قو" Gau بحضور "شكال دحو" وفارس " بمناقشة المشاكل المالية التي تفترض إنجاز المدارس. ومن أهم المشاكل التي تم مواصلة مناقشتها تمثلت في نقص الأقسام المعلمين، حيث أثرت هذه المشكلة على نقص تدرس الأطفال المسلمين حيث طرحت نقابة المعلمين التي عقدت مؤتمرها بعين تموشنت إلى وجود 1700.000 طفل غير متمدرس مما يتطلب بناء 34000 قسم إضافية³⁵. وقد واصلت المجالس العامة مناقشة هذا المشكل في العديد من جلساتها مصنفة مشاكل التعليم في هذه الفترة إلى³⁶:

مشاكل التعليم العام: فعند متابعتنا لمداولات المجالس الثلاثة خلال سنوات 1952، 1953، 1954، لاحظنا تدخلات قوية لنواب أوروبيين ومسلمين في هذا الموضوع، فبمجلس عمالة وهران خلال مناقشات سنة 1952، تم توضيح مشكل تطور التلاميذ في التعليم العام للعمالة ونقص المعلمين حسب وجهة نظر مسؤول التعليم، وفق الجدول، الذي يوضح توقعات الهيئة التنفيذية الاستعمارية لتطور العليم لعشرين سنة القبله كالآتي³⁷:

السنة	عدد الأقسام	عدد التلاميذ الجدد
1945	400	20.000
1948	500	25.000
1951	600	30.000
1956	800	40.000
1958	1000	50.000

125.000	2500	1965

المصدر: C.Gdepar d'Oran, séance 16/10/1952, p120

وهي مؤشرات لم تتحقق حسب تدخلات أعضاء مجلس وهران، رداً على مفتش أكاديمية وهران الذي قدم هذه الأرقام والمؤشرات لوضعية التعليم العام بالعمالة، وتدخل النائب بلعائد في جلسة مداوات لسنة 1953، موضعاً مشاكل الهياكل القاعدية في العمالة وانعدامها في الأرياف.

وفي نفس الجلسة لاحظنا إجماع على مشكل **نقص الأقسام والمعلمين** حسب وجهات نظر المواطنين وجمعيات أولياء التلاميذ والنقابات التعليمية، وما لاحظناه أيضاً في هذه التدخلات تباين مواقف أعضاء المجالس ما بين المسلمين والأوربيين حيث يوجد تمييز واضح في المدارس الأطفال المسلمين والأوربيين.

وبعمالة قسنطينة تم التطرق لنفس هذه المشاكل التي باتت تعترض الأطفال المسلمين خاصة تدخل النائب "براكروك عبد القادر" مقرر للجنة التعليمية، مقدماً الأوضاع العامة للتعليم العمومي في عمالة قسنطينة ونقص الإطار البشري وهياكل التعليم خاصة التعليم الثانوي³⁸.

- **مشكلة انتشار الأمية** وهي نتيجة للمشاكل السابقة، حيث تطرق العديد من النواب لها ومدى تأثيرها على اندماج الأطفال المسلمين في الثقافة الفرنسية ذلك ما أشار إليه مفتش الأكاديمية للجزائر³⁹، ونشرت جريدة **روبوليك ألجريان** مقالا لها عن انتشار الأمية في الجزائر، حيث تطرقت لمختلف المشاكل التي بات يعاني منها الأطفال المسلمون وتناولت أيضاً السياسة العدائية للوبي الاستعماري المعادي لتعليم الجزائريين⁴⁰.

- **مشكلة التعليم المهني والتقني**، حاول ممثلو المستوطنين التركيز في العديد من مداواتهم على توجيه الأطفال المسلمين نحو هذا التعليم، باعتباره يخدم مصالحهم الرأسمالية، بتكوين يد عاملة متخصصة تعمل عندهم، بأبخس الأثمان، ذلك ما تطرق له رئيس لجنة التعليم لمجلس عمالة وهران في تقريره عن تدهور أحوال التعليم المهني، الذي ينبغي للسلطات المحلية الاهتمام به والتركيز عليه لامتصاص أطفال المسلمين⁴¹.

- **مشكلة المدارس الحرة**، والتي ناقشها مجلس عمالة قسنطينة في العديد من جلساته، باعتبار أن التعليم بهذه العمالة الخاصة بالأطفال المسلمين قليلاً، إذا ما قورن بعمالتي وهران والجزائر، لذلك انتشرت المدارس الحرة خاصة التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتي قامت بتأسيس معهد ابن باديس للتعليم العالي لأكثر من 700 طالب في سنة 1954 بهدف تدارك النقائص في هذا المجال⁴²، ونفس هذا السياق طالب أعضاء مجلس قسنطينة السلطات المحلية بإلزام مدراء المدارس بتدريس اللغة العربية بناءً على القانون الخاص من المادة 87 رقم 47- 1863 المؤرخة بتاريخ 20 سبتمبر 1947⁴³.

4- الاقتراحات والحلول المقدمة لعلاج مشاكل التعليم:

لقد بات مشكل التعليم، يهدد المنظومة التعليمية الاستعمارية، بسبب نقص تكييف الأطفال المسلمين مع هذا التعليم خاصة مع تزايد مطالب ممثلي السكان الجزائريين الحكومة العامة بتوفير المرافق والامكانيات

الضرورية لدمج التلاميذ الجزائريين في المدرسة الفرنسية، ذلك ما ناقشه منتخبو المجالس العامة في مداولاتهم وحاولوا الضغط على الهيئة التنفيذية في الجزائر ورفعوا أصواتهم بالمجالس المنتخبة في المتربول لدى حكومة باريس الوصية على مستعمرتها في الجزائر .

أ- مناقشة المخطط المدرسي و عملية الإصلاح التعليمي:

إن المخطط المدرس الذي تم إثارته للمناقشة من قبل أعضاء المجالس العامة، الذي تم تطبيقه في عهد الحاكم العام "شاتينو" تنفيذًا لمرسوم 27 نوفمبر 1944، والذي قضى ببناء 20 ألف قسم وقبول مليون طفل مسلم، حسب تدخل النائب "فالار" vallar من مجلس وهران لمناقشة تطبيق هذا البرنامج بمشاركة نقابة المعلمين⁴⁴، ولكن هذه الخطة حسب نفس المتحدث، قد فشلت بسبب النمو الديمغرافي ومشاكل أخرى، وتدخل في نفس الموضوع النائب "زنتاسي" موضحاً أنه ينبغي توفير ما بين 16 إلى 18 مليار فرنك، بهدف توفير المقرات للتلاميذ وتدخل النائب دموري Demeré هو الآخر في نفس الموضوع موضحاً صعوبة تطبيق هذه الخطة المدرسية⁴⁵.

ودفع هذا الفشل للخطة المدرسية السابقة الذكر، إلى قيام بعض أعضاء المجلس العام لوهران، لمطالبة مجلس الإتحاد الفرنسي للضغط على الحكومة لكي تتبنى خطة مدرسية جديدة في الجزائر، بسبب العدد الكبير للتلاميذ غير المتمدرسين وارتفاع عدد السكان. حيث تطرق مفتش أكاديمية وهران في تقرير له، بأن ينبغي توفير المدارس والمعلمين لـ 15 ألف تلميذ جديد ويتطلب من المتربول تدعيم الجزائر بـ 5 مليار سنوياً، من أجل إكمال الخطة المدرسية الجديدة لغاية سنة 1965⁴⁶.

وما نستشفه من ذلك أن الحكومة العامة لا تريد صرف المزيد من الأموال على تعليم المسلمين، لأن اللوبي الاستيطاني المتحكم في المجالس المنتخبة ذوي المصالح الاقتصادية الكبرى، يريد صرف تلك الأموال على مشاريعه الضخمة. وتدخل العديد من أعضاء المجالس⁴⁷ في هذا المجال مطالبين بالإسراع في إنجاز بناء المدارس بمختلف المناطق، رداً على تبريرات ممثلي الحكومة المسؤول على قطاع التعليم؛ الذي تمّ ذكره في العديد من تدخلاته أمام مجلس عمالة وهران في ما يلي⁴⁸:

"تمثلت مجهودات الحكومة في بناء ثانويات، بمستغانم ومعسكر وسيدي بلعباس وتيارت ووهران، وأن الحكومة وفرت 66 مليون فرنك لإصلاح المدارس وتحصلت وهران وحدها على 27 مليون فرنك، أما الحلول المقدمة في مجال البناء من خلال الخطة الثلاثية تم اقتراح:

- 1379 قسم بعمالة الجزائر
- 867 قسم بعمالة وهران لأنها لا تعاني كثيراً في هذا المجال
- 1300 قسم بقسنطينة"
- أما بمجلس عمالة الجزائر⁴⁹، فطالب العديد من المتدخلين بضرورة توفير المدارس للأطفال المسلمين حيث تدخل ممثل منطقة القبائل النائب ولد عودية بفتح المدارس أمام البنات.

وما نستخلصه من هذه التدخلات لأعضاء المجالس العامة في مواقفهم من الخطة المدرسية ومشاريع الإصلاح التعليمي، فهي لا ترق لتطلعات جماهير المسلمين التي تبقى تعاني من مشاكل أخرى .

ب- **الدعوة إلى المساواة في التعليم بين الأطفال المسلمين والأوروبيين:** تدخل العديد من النواب المسلمين لشرح وجهات نظرهم في مسألة المساواة في التعليم لجميع المواطنين الفرنسيين حسب النائب "بن خلوة" من مجلس وهران⁵⁰، الذي اعتبر أن التمدرس من بين المسائل الهامة في البلاد، لأنه إذا كان الشعب متعلما فهو سيكون مثقفا و أضاف هذا العضو أن الفرق واضح في مجال التمدرس، وقدم مقارنة في مجال بناء الأقسام للنمطين التعليميين أ و ب، ففي سنة 1944 كان يوجد 1734 قسم للأوروبيين و 566 قسم للمسلمين، وفي سنة 1948، كان يوجد 2040 قسم للأوروبيين، مقابل 1011 قسم للمسلمين، ورغم هذا التحسن إلا أن التباين واضح وبالتالي فالخطة المدرسية قد فشلت في تطبيق المساواة بين الأطفال المسلمين و الأوروبيين.

وطالب أعضاء آخرون بتحسين المستوى التعليمي للأطفال المسلمين، وذلك بتحسين نسبة النجاح في الشهادات الابتدائية والبيكالوريا، وطالبوا أيضا بضرورة توفير الشروط الضرورية للممتحنين، حيث طالب أحد الأعضاء الأوروبيين من مجلس وهران السيد "فلنوا" مخاطبا الحاكم العام: "نريد التعليم للجميع دون استثناء ومساواتهم مع أطفال المتربول..."، واستطرد قائلا: "لا أعتقد بأنه توجد دولتين في فرنسا، فرنسا بالقطاع الوهراني وفرنسا المتربولية".⁵¹ وتدخل أيضا الأعضاء المسلمون، أمثال "صالح" و"بن علي خالد" في هذا الموضوع، موضحين وجهة نظرهم من المسألة التعليمية وضرورة إتاحة الفرص لجميع تلاميذ سكان الجزائر. وبذلك فأعضاء المجالس العامة، قد ناقشوا موضوع التعليم بشكل مكثف وقد قمنا من جهتنا بمسح عام لجميع المداولات من سنة 1945 إلى 1954⁵².

خلاصة: ونخلص في الأخير بأن أعضاء المجالس العامة في الجزائر قد ناقشوا قضايا التعليم ومشاكله المختلفة خلال مختلف الجلسات والمداولات المبرمجة للمسألة التعليمية، ولاحظنا من خلالها بأنهم قد ركزوا على الحلول الواقعية والقابلة للتنفيذ على أرض الواقع، مثل محاربة الأمية وتشجيع التعليم المهني ومساعدة التعليم الحر للتخفيف من الأعباء المالية لخزانة الجزائر والعمالات.

في حين كان موقف الحكومة العامة في الجزائر بطيئا، ولم تستجيب لتطلعات السكان الجزائريين، الذين باتوا أكثر حرصا على تعليم أبنائهم وإبعادهم عن ظاهرة الأمية، لكن ممثلهم بالمجالس العامة لم يستطيعوا فرض اقتراحاتهم على الهيئات التنفيذية لعمالاتهم، بسبب انشغال ولاية العمالات بمصالح فرنسا الاستعمارية و الخضوع للوبي استعماري، يسيطر عليه مجموعة من السكان الأوروبيين، الذين كانوا يطالبون بيد عاملة جزائرية قليلة التكلفة ومستغلة لمصالح الاقتصاد الكولونيالي؛ فراضين وجهة نظرهم القائلة بخطورة وجود جزائريين متعلمين و مثقفين.

المختصرات

- C.G depar = Conseil Général du département

- Arch. NAT de France = Archives nationale de France
- CAOM B N°= Centre d'Archive d'outre Mer , Boite Numéro
- A.U.F= Assemblée d'Union Française

الهوامش:

1-GG depar d'Oran Rapport du préfet session extraordinaire 1947, des Rapports sur l'enseignement. CF ,GG d'Alger 1^{er} session, Avril 1951 Rapport du préfet
2-Arch. NAT. de France, B,N° 4 AG/ 284 l'évolution de l'enseignement a partir du 1944 au 1948 3112 .

3- شارل روبر أجيرون، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954، المجلد الثاني ، دار الأمة، 2005 ، ص ص: 871- 875. حيث تطرق أجيرون إلى تطور مراحل التعليم في الجزائر مقدما إحصائيات تعبر عن التفاوت بين التمدن عند التلاميذ المسلمين والأوروبيين.

4 -Document Algérien, Octobre 1945 Décembre 1946
5-Arch. NAT. de France, B,N° 4 AGI/ 284 ,op cit
6-Cf,C.G. depar d'Oran séance 26 décembre 1949 l, débat sur l'enseignement, PP 405-406
7-C.G depar d'Alger, 2em séance Novembre 1950

8 -GG depar d'Oran séance 14 Novembre 1951pp, 500- 522
9- أجيرون ،تاريخ الجزائر المعاصرة ج2 مرجع سابق ص172-174 **قارن**: 11Avril 1953 Oran république 26 Mai 1953 تطرقت هذه الجريدة في العديد من أعدادها إلى السياسة التعليمية الفرنسية وحاولت نقل مجريات مداولات المجالس العامة والمناقشات الجارية حول إصلاح التعليم الفرنسي خلال فترة دراستنا للموضوع
10- شارل روبر أجرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة ج 2 ، مرجع سابق ص871

11-Stora(B) Histoire d'Algérie contemporaine de 1830-1998 , casbah, Alger2004 , P109
2- CAOM boite N°= 81/f1711 fond ministériel la carte scolaire, d'Algérie 1951 1
13- CAOM B N°= 81f/1712 l'équipement scolaire de travaux de la commission d'étude sur l'Algérie , 1 4- GG Alger 60 1^{er} séance 5 Novembre 1951
15- CAOM, B, N°81f/1711Carte Scolaire , Assemblée Algérienne le 27/03/1954
16-Ibid
17- ibid
18-A.U.F N°215, Année 1952

حيث تكونت لجنة مشكلة من أعضاء المجالس المندوبين لدى مجلس الإتحاد الفرنسي، وهم بلقايد وبلعابد وشكال ولفاني

19- CF , dépêche quotidienne d'Alger, 4 Mars 1952 et république Algérienne 5juin 1953 République Algérienne le 30/10/1952
20- CAOM, B, N°81F/1712 Op cit, et B, N° 81F/1711 op cit **علب أرشيفية حول هذا الموضوع، منها:**
21- CAOM B,N°81F/1711, 02 notes concernant le problème de l'enseignement publique en Algérie présenté par le comite de scolarisation et de lutte contre l'Analphabétisme, Alger entre 1945 et 1950 22-C.G dep Alger d'Octobre 1948 p43, et le 13 Octobre 1948 PP 225-228
23 -C.G.depar Oran 4 Novembre 1947, P51

- 24- GG depar Oran ,séance ,26 octobre 1949 PP366-367
- 25-GG dep Alger ,session octobre 1947 3^{eme} Partie ,p295 2 6- GG dep de Constantine octobre 1947 PP 193-197
- 27- GG dep Alger octobre 1947 PP 235-296, CF, séance du 19 Octobre 1948, PP, 225- 227
- 28-CAOM, B,N° 5I/167, Rapport du préfet au Ministre de l'Education nationale, et C.G. depar d'Oran session octobre 1949, d'après L'Echo D'Oran le 27/10/1949
- 29- C.Gdepar d'Oran, session ,ctobre1950, pp 93 -99 30- Ibid
- 31-CAOM, B,N°81F/1667, service des statistiques générales et étude de démographie quantitative, par , Breil(J), rapporteur
- 32-CAOM,B ,N°CAB/66, l'Algérie du demi siècle , vue par les Autorités locales
- 33- ركزت إحدى التقارير الموجودة في هذه العلية على أوضاع التعليم العمومي والمهني للأهالي المسلمين حيث وضحت أن عدد الأطفال المتمدرسين ارتفع من 241 ألف تلميذ سنة 1945 إلى 390 ألف تلميذ سنة 1951 أما التعليم المهني فقد ارتفع عددهم إلى 900 تلميذ سنة 1945 وإلى 2216 تلميذ في 1 جانفي 1951 أما المهني فقد ارتفع من 2035 إلى 5915 تلميذ في نفس الفترة ،المصدر نفسه.
- 34-Oran(L) républicain le 21/05/1953
- 35- CAOM, B,N° 81F/1711, Carte Scolaire, op cit
- 36-Ibid
- 37- C.Gdepar d'Oran, séance 16/10/1952 ,p120
- 38 -G.G. depar de Constantine séance 16 octobre 1953 Rapport du première commission MR :Barakror, PP 483-501
- 39 -G.G. depar d' Alger séance 10 mai 1954 dossier N°= 37/121 PP 360-367
- 40-République Algérienne 05/06/ 1953
- 41- C.G.depar. d'Oran 30 Octobre 1953 Rapport du président de la comité de la civilisation N° 15 CF, C.G. dep d'Alger Rapport du préfet, 1954 éducation Nationale, P527
- 42-Kateb(k) : « la séparation scolaire dans l'Algérie Coloniale »,In Revue Inssaniate N° 25 -26 , décembre 2004, pp 65 -100 (Crasc – Oran)
- 43- C.G.depar de Constantine , TII, séance 04/045/1951, p 803 44 -C.G.depar. d'Oran, Séance 25/10/52, p 131
- 45- Ibid, p 773
- 46-C.G.depart d'Oran 1954, séance du 16 octobre 1952-P131 47 - CG depar de Constantine - séance , novembre 1947, p 214 48 - C.G.depart d'Oran ,séance 26/10/1949, p 391
- 49 - GG depar d'Alger 25 Avril 1951 P199 CF C.G .d'Oran 21 octobre 1953, débat sur l'enseignement
- 50-C.G.depar d'Oran , 25 octobre 1949 PP 334-435
- 51- C.G .dep d'oran 10 octobre 1949 PP 83-91 CF , séance,25/10/1949, pp 334 – 345
- 52-Arch. Nat.de France, boîte N° AG/532 politique des gouverneurs Généraux, étude sur les Musulmans Algériens et l'enseignement présenté par « Dabache djamila »

الشعر البديعي في عصر الدويلات بين تعليمية البلاغة ونثرية الذوق

د/زروقي عبد القادر، جامعة ابن خلدون - تيارت

مما يُجمع عليه الباحثون والنقاد العرب إزاء هذا اللون الشعري المسمّى بالبديعيات، يمكن تلخيصه في اعتبارهم إياه من الألوان الشعرية المهضومة الحق نظراً لعدم العكوف على دراسته الدراسة الجادة الرصينة التي تستلحق نصوصه بما يكفل الكشف عن سماتها الفنية ومخبوءاتها الشعرية، وإنّ من وقف عليها من الباحثين - وهو نثر يسير جداً - لم يعطها ما تستحقه من التوغل في سبّر المقومات الأدبية والجمالية لهذا الجنس الأدبي، ولذا جاء معظم الدراسات للبديعيات وصفيّاً⁽¹⁾.

لذا سنستطلع بهذه الدراسة بعضاً من هذه المقومات الفنية بفتح المجال أمام النزر القليل من أبيات هذا الفن لأن يبوح عن مفاتن القول فيه فيُسفر عن شعريته الكامنة خلف الملمح التعليمي الذي حجب هذا الفيض الإشرافي من مقول البديعيات وغطى كل ما من شأنه فيها أن يؤطرها في خانة الشعر بمفهومه الإبداعي لا البديعي والنظمي. لكنّ هذا لا يعني أننا ننفي عن البديعيات الطابع التعليمي الذي فرضته ظروف العصر الذي أنشئت فيه. وحتى ينتفي اللبس عن فنية أو علمية القصيدة البديعية، يجدر بنا أن نحيط علماً ببعض القضايا - التاريخية والفنية - التي يتصدرها واقع إنتاج الشعر البديعي، وملمح الشعر عامة ونمط الإبداع الذي كان سائداً في هذا العصر. إننا الآن في عصر سُمّي بعصر الدويلات المتتابعة التي يتراوح عمرها إجمالاً من سقوط الدولة العباسية على أيدي المغول، بسقوط بغداد عاصمة الخلافة سنة 656هـ إلى مطلع العصر الحديث الذي يؤرّخ له بنهاية القرن الثامن عشر ميلادي، وبالضبط بحملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798م. اتخذ هذا العصر أطواراً مختلفة، شكّلها الصراع السياسي وسقوط الحكم في أيدي غير العرب عبر دويلات متعاقبة يمكن ضبط أهم مفاصلها من خلال عهود أربعة (الزنكي، الأيوبي، المملوكي، العثماني).

وعلى خلفية هؤلاء الأمراء الأعاجم، سنجد أن أكبر متضرر ثقافي هو الشعر، باعتبار أنّ الشاعر يحتاج إلى محفّزات مادية فضلاً عن المهيئات أو الدواعي الفنية التي تؤهله لقول الشعر، ولما لم يكن هناك مُعينٌ على قول الشعر أو سماعه في هذا العصر؛ لأنّ «هاهم أولاء، ملوكه وأمرأه جند»، والجندية أقرب إلى العمل منه إلى القول، فلا تجد الروح الأدبية سبيلها معبدة مذلة إلى نفوس أهلها، وهم أعاجم عن العربية، فليسوا إذن على استعداد فطري للإنصات إلى شعرائها والعطف عليهم⁽²⁾.

بذا انصرف غالبية أولوا العلم عن الشعر واهتموا بالشروحات والموسوعات حتى يُوصلوا هذا العصر (عصر الدويلات) بالعصور الأولى، آخذين بعين الاعتبار، هذا الانقطاع الذي تمّ بحرق خزانة بغداد وصبّ ما بقي من كتبها في نهر دجلة، وكذا حرق مكتبة الفاطميين في عهد صلاح الدين. هي إذاً بعض الأسباب التي دفعت بعلماء هذه الفترة إلى تعويض بعض ما ضاع من المكتبة العربية، بفضل هذه المصنفات التي أخذت طابع الموسوعية. قد تتعدّى في بعض مناحيها العصور الأولى للحضارة الإسلامية. ومن ذلك مثلاً لسان العرب والقاموس المحيط في المعاجم، وفي التاريخ ما أنجزه ابن خلدون، وفي الرحلات ما خلفه ابن بطوطة وابن جبير، وما تركه

القلقشندي والنويري في الكتابة، أما في سائر العلوم فنرى آثار المقرئيين وابن خلكان وابن مالك، وقد نستجمع كل ذلك في التأليف الموسوعي عند السيوطي مثلاً.

أما عن الشعر فقلنا قد انصرف عنه الشعراء لانصراف العناية والعزوف عن سماعه ومن ثم لم يلق الشاعر العطية التي تحفزه على القول، وهذا ملمح لانتكاسة الأدب في عصر الماليك، فانصرف الشعراء إلى شؤون دنياهم جاعلين الشعر - إلا ما نزر منه - وراء ظهورهم «وإليك ابن نباتة المصري، أمير الشعراء في عصره، أخذ يذرع الأرض من مصر إلى الشام طلباً للرزق شاكياً باكياً بؤسه وشظف عيشه»، قال⁽³⁾:

لا عار في أدبي إن لم ينل رُتباً وإنما العار في دهري وفي بلدي

هذا كلامي وذا حظي فيا عجباً مني لثروة لفظ وافتهار يد

نعم هي مفارقة بالغة الأثر على نفسية الشاعر، شاعرية كثة ولغة ثرية بصحبة فقر مدقع، فما يفعل بما لا يسدُّ رمقه ويلبي حاجات عياله. فلم يجد الشعراء أمثال ابن نباتة غير الشعر الديني بداية بديلاً عن باقي الأغراض الشعرية.

الشعر الديني الملاذ:

لما أعرض الملوك عن الشعر في هذا العصر اتجه الشعراء إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم بشعرهم، في بيئة كان معظم شعبها «جاهل غامض العاطفة، غلبت عليه عاميته، وشغله السعي إلى الرزق»⁽⁴⁾. مما جعل معظم شعر هذه المرحلة أن يتصف:

- خُلُوهُ من قوة السبك، فهو شعر مفكك الأوصار.

- بُعده عن جمال التصوير.

- الاعتماد الكلي على المواصفات الشكلية التي كان يحشد لها الشاعر كل الأشكال البديعية لإظهار المقدرة اللغوية.

مما أفقد القصيدة شعريتها، لذا «يُجمع الباحثون على أن أهم ما يمكن لنا أن نلاحظه على بلاغة هذه المرحلة هو الضحالة (إلى حد ما) في اللغة، والاضمحلال في الأدب، والبلادة في الحس، والضعف في الذوق»⁽⁵⁾. قد تُستثنى بعض القصائد - إن لم نقل بعض الأبيات - من هذا الحكم القاسي نوعاً ما، لكن هو الإجماع على الشعر والسياسة في هذا العصر دون غيرهما من المظاهر، وإن كان هذا الحكم غير متعلق بشعر هذا العصر فحسب وإنما هو رديف بكل شعر مال عن الفنية وعن تعدد الأغراض ومخاتلة المعاني الخفية؛ لأن «طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لأن، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علماً في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم، وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لأن شعره. وطريق الشعر هو طريق الفحول، مثل امرئ القيس، وزهير، والنابغة من صفات الديار والرحل، والهجاء والمديح، والتشبيب بالنساء، وصفة الخمر والخيول والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لأن»⁽⁶⁾.

هكذا شاعت المدائح النبوية بما جعل هذا الفن يتفوق في هذا العصر على كل موضوعات الشعر الآخر، وأن ما قيل فيه في هذا الموضوع تجاوز كل ما قيل في أي موضوع آخر. وأشهر شعراء العصر في المدح النبوي محمد بن سعيد البوصيري (ت695هـ)، الذي قال عدّة قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وأشهرها "البردة" جودة ومناسبة⁽⁷⁾ وتأثيراً في الشعراء من بعده، عدد أبياتها مائة وسبعة وستون بيتاً، يقول في مطلعها⁽⁸⁾:

أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلّة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

فصرنا لا نكاد نعثر على شاعر بعد البوصيري إلا وكان مدحه على نهج البردة، والملاحظ أن أكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم «وما يقال بعد الوفاة رثاء، ولكنه في الرسول صلى الله عليه وسلم يسمى مدحاً، كأنهم لحظوا أن الرسول موصول الحياة وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء»⁽⁹⁾.

تُعرف المدائح النبوية أنها فن «من فنون الشعر التي أذاعها التصوّف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص»⁽¹⁰⁾.

ولعل هذا الرواج لشعر المديح الديني يرجع إلى أسباب دفعت الشعراء إلى الالتفاف حول هذا الغرض من جهة وإلى انبعاث نماذج أخرى للشعر لا تبتعد كثيراً عن مضمار الدين إن هي لم تتخذ من الدين متكاً لموضوعاتها المطروقة. ومن هذه العوامل⁽¹¹⁾:

1. عصر الماليك الذي غلبت عليه روح التعصب للإسلام وقوة الغيرة الدينية الواسعة نظراً لحروب التتار والصليبيين المتتالية على العالم الإسلامي طمعاً في ملك المسلمين والقضاء عليهم وعلى دينهم.
2. صور الظلم الشنيعة التي عانى منها الشعب الذي لم يجد غير التوسّل لله عز وجلّ وأن يكشف عنه الغمّة ويرفع عن كاهله سطوة الحكّام ومكرهم، وأشرف ألوان التوسلات ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والتشفّع به إلى الله.

3. استخلاص المديح النبوي من النزاعات السياسية وقصره على إظهار الحب للنبي عليه الصلاة والسلام ومواطنه، وعلى الحديث عن سيرته الشريفة، ثم التقرب به إلى الله.

4. إعجاب الشعراء ببردة البوصيري وبتأطيرها للمديح في شكله الجديد، بما يخالف عما كان عليه من قبل، فكانت معارضتها بقصائد ضمّنها ألوانا من البديع وسموها "البديعيات" ليكون بذلك هذا النوع الشعري الجديد الذي يسمّى هذا العصر ونتاجه الشعري.

ماذا بعد المدائح النبوية؟

اتخذ الشعراء البوصيري مثلاً لهم يحتذونه في مدائحهم النبوية، ومن ثم برزت ظاهرة المعارضة الشعرية كظاهرة منتشرة بين شعراء هذا العصر وما قيل من شعر وما استُحسن من منظومة إلا أصبحا مثالين معارضين يبنى عليهما كثير من الشعر، ويدور حولهما كلام جَمٌّ. لذلك كانت المعارضة الشعرية السبب الغالب في انتشار البديعيات بعد حب الشعراء لنبي صلى الله عليه وسلم، فقد آتت استجابة لما أحدثه هذا النوع من صدى شعبي، وبالتالي فإنّ «الهدف الرئيسي في هذه القصائد هو مديح الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في المقام الأول، واستعراض شمائله وصفاته ومزاياه»⁽¹²⁾، يقول ابن جابر في حُلّته⁽¹³⁾:

إني لأرجو بنظمي في مدائحه رجاء كعب، ومن يمدحه لم يُضَم

لذا فإننا حينما نستقري هذه القصائد ونربطها بالأصول الأولى للمديح في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده بقليل نثبت ذلك التعالي التّصي الذي يُفضي بنا إلى اعتبار حسان بن ثابت رضي الله عنه الرائد لهذا الفن – وإن لم يكن على صيغة البديعيات – وهو أصل هذه الإنتاجية النصّية، والأصل الناضج للقصيد المدحية النبوية حتى بالصيغة التي توقفت عليها البديعية، لكن إذا كانت القصيدة المدحية في بدايتها قد خالطت في مضامينها

المدح والأفكار الدينية والقيم الأخلاقية الجديدة وقتئذٍ، فإننا نرى في البديعية مدحاً خالصاً للنبي صلى الله عليه وسلم، حتى وإن كان المنطلق هو إضفاء الصبغة التعليمية على هدف هذه القصيدة، فإن الحديث عن الصدق سيكون له شأن آخر؛ لأن الشاعر قد ينشئ قصيدته بدافع الاعتذار أو النجاة من الموت مثل فعل كعب بن زهير حين أنشأ قصيدته معتذراً للرسول صلى الله عليه وسلم على ما بدر منه إزاء وإزاء دعوته، طالباً للمغفرة وإشفاقاً من الموت، بعد أن كتب إليه بجير أخوه بكتاب يحذره فيه من القتل على يد أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم، مما يجعل روح الاعتذار والطمع في العفو تطبع القصيدة بطابع الإجابة التي تجلب المذهب اللطيف والقصد العجيب والرغبة في الأخذ بقلب المعتذر إليه ومسح أعطافه وجلب رضاه⁽¹⁴⁾، وهذا ما حمل زكي مبارك على القول أن: «كعب بن زهير لم يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم إلا لينجو من الموت، ومن كان في مثل حاله لا يُنتظر منه صدق الشاء»⁽¹⁵⁾.

غير أننا لا نجرم أن كل بديعيات هذا العصر كانت غايتها الخالصة مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كانت شخصيته ملهم شعراء البديعيات جميعهم في كل جوانبها الوضائية، وأن مقصدهم كان مقتصرًا على ما صوّروه لنا من كريم خلقه وعظيم سجايه، وإنما كان الغرض التعليمي مضافاً إلى المدح في هدف هذه القصائد التي سعت إلى تلقين الناشئة الصور البديعية والمحسن اللفظية، لذا كان شاعر البديعية يجتهد في الإتيان على كل أنواع البديع وفنونه دون أن يترك منها لونا، بل تراه يخترع ويضيف من الألوان ما هو افتراضي، قد لا يسلك التعبير إليه مسلكاً إلا في الحالة القليلة النادرة.

هكذا التقى في البديعيات الديني بالتاريخي بالسياسي بالعلمي بالاجتماعي، كما بيّنا من قبل، وخُطت هذه العوامل جميعها هذا النمط الشعري الذي لا يمكنه أن يفصل عما نسجه من خيوط، لذا فإن «عملية الاختصار بصياغة الصور البديعية أو البلاغية نظماً، والإسراع والتسابق في هذا النظم، والعمل على جمع الألوان مهما تكن، ذلك كان له ما يبرره»⁽¹⁶⁾. ولنأخذ مثلاً على ذلك صفي الدين الحلّي والأسباب التي دفعت به إلى إبداع قصيدته "الكافية البديعية". حيث تنازع الحلّي أمران اثنان في كتابة قصيدته هاته وهما:

1. تحرير كتاب ابن أبي الإصبع (ت654) "تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن".

2. المرض الذي أصابه وطالت مدته واشتدت هيئته.

فعزم الحلّي على نظم ما أراد تأليفه في قصيدة نبوية يرتجى بها شفاؤه وبرأه وهو يقول: «فعرضت لي علة طالمت مدتها وامتدت شدتها واتفق لي أن رأيت في المنام رسالة من النبي عليه أفضل الصلاة والسلام يتقاضاني المدح، ويعدني البرء من السقام، فعدلت عن تأليف الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشات البديع وتطرز بمدح مجده الرفيع. فنظمت مائة وخمسة وأربعين بيتاً في بحر "البسيط" تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعاً من محاسنه (...) وجعلت كل بيت مثلاً شاهداً لذلك النوع»⁽¹⁷⁾. فأصل القصيدة مشروع كتاب. بعد أن تضافر عنصران اثنان في إخراج فن البديعيات لدى الحلّي وهما بردة البوصيري، وكتاب تحرير التعبير، فكان المنطلق مباركة النبي صلى الله عليه وسلم لمديحه من جهة، ومنطلق الاهتمام بالبديع والرغبة في التأليف البلاغي في شقه البديعي من جهة أخرى. يقول الحلّي في خاتمة كافيته⁽¹⁸⁾:

هذي عصاي التي فيها مآرب لي وقد أهشُّ بها يوماً على غنمي

فالغاية الدينية إذا لم تغب - كما أنها لم تكن منفردة - عند معظم من قال في البديعيات «والحق أن غاية الحلّي كانت علمية، ولا صحة للحافظ الديني في مديحه النبوي»⁽¹⁹⁾. هذا لو أُلّف الكتاب قبل أن يحوّل مشروعه إلى بديعية بعد الرؤيا.

أول بديعية: تنازع التأريخ للبديعية الأولى الباحثون واختلفوا بين أعلام ثلاثة هم: الأربلي (ت670هـ) والحلي (ت750هـ) وابن جابر (ت779هـ).

واعتُبر علي بن عثمان الأربلي أول من أُلّف في هذا الفن، حين «نظم قصيدة لامية جعل في كلّ بيت منها لونا من ألوان البديع، غير أنها لا تعدّ مما نحن بصدد، إذ إنها ليس من المديح النبوي»⁽²⁰⁾؛ فهي في مديح بعض معاصريه، غير أنّ ما أوماً بانضمام هذه القصيدة إلى طراز البديعيات هو تضمينها في كلّ بيت منها محسناً من المحسنات البديعية، ولم يذكر ابن شاعر صاحب فوات الوفيات غير «سنة وثلاثين بيتاً، على كلّ حال تعدّ القصيدة أوّل قصيدة عُنِيَ ناظمها بأن يودع كلّ بيت من أبياتها محسناً بديعياً»⁽²¹⁾، مطلع قصيدة الأربلي:

بعض هذا الدلال والإدلال حالي الهجر والتجنّب حالي

هي مخالافات ثلاث وقّع فيها الناظم، مدّح لبعض معاصريه كغرض للقصيدة، بحر الخفيف وزنها، وجعل حرف اللام رويّاً لها. «تلك مخالافات صريحة لشروط القصيدة البديعية، لكننا نعتزّ له بالسبق في تضمين كلّ بيت من أبيات قصيدته لونا من البديع، وأنه مهّد لفكرة إنشاء البديعيات»⁽²²⁾.

اعتماداً على هذا الملمح عدّت محاولة الأربلي أول محاولة في شعر البديعيات، وعدّت⁽²³⁾ قصيدة عبد العزيز سرابا صفي الدين الحلّي أوّل بديعية فعلية في تاريخ أدبنا العربي، وكان صاحبها أوّل مبتكر للبديعيات ومطلعها:

إِنْ جِئْتَ سَلْعًا فَسَلِّ عَنْ جِيرةِ العَلَمِ واقراً السّلامَ على عُرْبٍ يَنْزِي سَلَمَ

ثمّ يأتي بعد الحلّي ابن جابر الأندلسي ببديعيته التي يبلغ عدد أبياتها مائة وسبعة وسبعين، وسماها "الحلة السيرا"⁽²⁴⁾ في مدح خير الوريّ والتزم فيها الشاعر بحصر «الأنواع البديعية المحضة كما جاءت في تلخيص المفتاح للقزويني»⁽²⁵⁾ ومطلعها:

بطيئة أنزل ويمم سيّد الأُمم وأنشُرْ له المدح وأنثر طيّب الكَلَمِ

فيما تأتي بديعية ابن حجة الحموي (ت837هـ) كأشهر بديعية، نظراً لشرحها المتميّز الذي قام به صاحبها تحت عنوان "خزانة الأدب وغاية الأرب" وكان شرحاً وافياً مستوفياً لكل فنون البديع، بلغ عدد أبياتها مائة واثنين وأربعين بيتاً، مطلعها:

لي في ابتداء مدحك بما عربّ ذي سلم براعة تستهلّ الدمع في العَلَمِ

تميّز الحموي فيها عن غيره من الشعراء بالتزامه ذكر في كلّ بيت من أبياتها للفظ يسمّى صراحة أو تورية النوع البديعي الذي هو بصدد.

خصائص القصيدة البديعية:

أول من أطلق مصطلح "بديعية" على هذه القصائد ذات الصفات المتميّزة هو صفي الدين الحلّي بفضل وسمه لقصيدته بـ "الكافية البديعية في المدائح النبوية" ثم تبعه في ذلك ابن حجة الحموي حيث قال: «وبعد، فهذه البديعية التي نسجتها، بمدحه صلى الله عليه وسلم على منوال طراز البردة»⁽²⁶⁾.

يحرص الشاعر في هذه القصيدة المدحية على جمعه لكل الفنون البديعية والمحسنات اللفظية التي وصلت إليه، وقد ظهر هذا النوع من الشعر معارضة لبردة البوصيري في القرن الثامن للهجرة واستمرت حتى القرن الرابع عشر، وتتخذ القصيدة خصائص محددة لتتجنس بهذا الجنس وتعرف بأنها «قصيدة طويلة، في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم، على بحر البسيط، وروي الميم المكسورة، وربما وُزِّيَ باسم النوع البديعي في البيت نفسه، في بعض القصائد»⁽²⁷⁾.

إذاً شروط البديعية هي:

1. أن تكون القصيدة على بحر البسيط، وروئها ميماً مكسورة.
 2. غرضها مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم لا تتعداه.
 3. أن يشتمل كل بيت فيها على نوع من أنواع البديع مثلاً وذكراً، أو مثلاً فقط.
 4. أن تتعدى الخمسين بيتاً حتى تحقق شرط الطول.
- لذا فكل «قصيدة خلت من أحد الشروط لا تعدّ من البديعيات»⁽²⁸⁾، ووفق مخالفة هذه الشروط رفضت قصيدة الأربلي على أن تكون أول بديعية في تاريخ الأدب العربي. فيما عدّت الكافية البديعية مستوفاة للشروط واحتلت صدارة التأليف في هذا الباب.
- ولما كانت البديعية ملتزمة بهذه الشروط حُقّ لها أن تدخل ضمن الشعر التعليمي وعُدّت بأنها «قصائد ذات طابع تعليمي، وإنما يأتي المديح النبوي فيها عارضاً بهدف التبرّك»⁽²⁹⁾. إن قصيدة الأربلي لم تكن في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ولا على البحر البسيط ولا ميمية الروي ولكن اختلف في عدّها بديعية لأنها اهتمت فقط بحشد صور البديع وآلياته، وعندئذ يكون البديع هو المؤشر الأول لعدّها هذه القصائد بديعيات فبه قد سميت، لذا ما دور البديع وأهميته في العملية الشعرية؟

ما هو بديع البديعيات؟

عدّ الجاحظ البديع أيقونة البيان العربي ومؤشر الشعرية فيه، فقد تميّز به العرب عن غيرهم من الأمم، فهو «مقصود على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان»⁽³⁰⁾، وقد اعتبر ابن المعتز البديع ظاهراً فنية قديمة قدم صناعة القول، وقرض الشعر، يتفاوت وجوده والاهتمام به، بحيث «أنّ بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمّي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه»⁽³¹⁾، كما ضمّن مؤلفه "كتاب البديع" فنون البديع البالغة ثمانية عشر فنّاً، فعُدّ خمسة منها بديعاً دون غيرها وهي: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي، في حين سمى باقي الفنون الثلاثة عشر: الالتفات، الاعتراض، الرجوع، حسن الخروج، تأكيد المدح بما يشبه الذم، تجاهل العارف، الهزل الذي يراد به الجدّ، حسن التضمين، التعريض والكناية، الإفراط في الصفة، حسن التشبيه، لزوم ما لا يلزم، حسن الابتداء، واعتبرها من محاسن الكلام⁽³²⁾.

هكذا شكّل البديع في هذه المرحلة الأولى للتنظير البلاغي عند العرب الإطار العام للتعبير الجيد والصياغة المتميّزة نظراً لما أحدثته الحياة العباسية من معاني مستحدثة، فعنى مصطلحه – البديع – المعادل المفهومي لكل تعبير مثّل الخروج عن الحدّ المألوف في صياغة الكلام، وهو ما أنتج لدينا فريقين من الأدباء

والشعراء المتفاوتين في نظرتهما إلى البديع، حيث أنّ التسمية ارتبطت بالإبداع و«إتيان الشاعر باللفظ المستطرف الذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع»⁽³³⁾، ليكون البديع هنا هو تلك الطريقة الجديدة في الكتابة على غير سُنن العرب وأساليبهم في قرض الشعر، لما لاحظوه فيه من جدة. ارتبط البديع إذاً بالآليات الأسلوبية التي تستوفي المعنى الشعري وتحقق الإيقاع، خاصة لما قُسمت البلاغة إلى فروع ثلاثة، اهتم أولها بخواص التراكيب والتشكيل الأسلوبي (المعاني) فيما اختص ثانيها بالصورة، خاصة ما كان من تشبيه ومجاز وكناية وسُمي بالبيان أمّا ثالث الفروع الثلاثة فكان البديع الذي اعتُبر مؤشر الكتابة الراقية حيث «أنّ الكلام متى تحقق فيه البديع، فقد تحققت فيه البلاغة كل البلاغة»⁽³⁴⁾. هكذا يتأرجح مفهوم البديع في الصيرورة المعرفية العربية شمولية وتخصيصاً، اتساعاً وتضييقاً؛ لأنّه في عُرْف المتأخرين من البلغاء «هو علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ووضوح الدلالة»⁽³⁵⁾، فهو إذاً في مرحلة متأخرة في بناء الخطاب الأدبي، لا وظيفة له غير التزيين والتميق وهذا ما دعا بعضاً من الباحثين⁽³⁶⁾ إلى ردّ مصطلح المحسنات البديعية واستبداله بـ «وجوه الأداء المعنوية» و/أو «وجوه الأداء اللفظية»، والسبب في ذلك أنّ المحسنات توحى بتزيين الكلام بعد استيفاء المعنى، في حين يكون الأصح أن يؤدي المعنى بهذه الوجوه البديعية نفسها حتى يكون -حسب رأي علي سلطاني- التعبير أغنى وأقدر.

لذا فإنّ كان البديع ارتبط - في المعجم العربي الجديد خاصة - بالخروج عن المألوف أو بتجاوز سنن العرب الكتابية، فإنّ البديعيات فعلاً تُشكّل أو تساهم على الأقل في بلورة هذا المفهوم، نظراً لما اتسمت به من سمات أهلّتها أن تكون لوناً شعرياً جديداً مارقاً بخصائصه عمّا عرفه العرب القدماء، وهكذا أسست لنفسها الفرداء - التشكيلية على الأقل - في تطور الشعرية العربية.

إذاً وبغضّ النظر عن المفهوم الواسع الذي كان يوحي به مصطلح البديع وقتئذٍ وهو في بداياته إلا أن الثابت، الذي لم يغادر هذا المفهوم وهو يتحول بتحول البلاغة العربية بكامل علومها، هو الجدة التي يحدثها في القول الشعري مقارنة بما وصلت إليه الصناعة الشعرية في كل حين.

غير أنّ المفارقة تتعلّق بشعراء عصر الدويلات الذين كان شغفهم بالبديع أقوى مما كان عليه من قبل، حتى غدا في تصورهم الإبداعي أنّ لا بلاغة دون التفنن في قضايا وأبوابه، وهو ما عزا لروح المبادرة والمنافسة الإبداعية أن تشتدّ بين شعراء وأدباء العصر. وهذا ما قادهم إلى التكلف والتعمّل في إيجاد الصنعة البديعية، على خلاف ما كان عليه المتكلم قديماً حيث لم يكن في حاجة إلى أن يقود «المعنى نحو التجنيس والسجع، بل قاده المعنى إليهما، وعثر به عليهما، حتى إنه لو رام تركّهما إلى خلافيهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى، وإدخال الوحشة عليه، في شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر»⁽³⁷⁾. حتى وإن كان الجرجاني قد غض الطرف عن المحسنات البديعية ورأى أنها لا ينبغي أن تقع محل اهتمام الناظم؛ لأنّ الأصل في ذلك للنظم، وما يفرضه من اهتمام بالبناء التركيبي للغة بما يخدم المعاني، إلا أنه يقر بما للبديع من أهمية في بعض الصيغ التعبيرية التي يفرض فيها البديع نفسه كحالة من أحوال التركيب، حيث يجوز فيها مرتبة الحسن، والسبب في ذلك أنّ المعنى هو الذي يطلب هذا اللون البديعي أو ذاك، وعندئذ لا يمكن الاستغناء عنه.

ومع ذلك تأتي البديعيات لتؤكد أن الصيغ البديعية هي الهدف من الكتابة، في ظل ما أومأنا إليه من ظروف اجتماعية وسياسية وثقافية، وإن كنا قد ألفنا أن العرب عرفت كل أشكال البديع وصوره منذ البدايات الأولى للقصيدة العربية، غير أنها لم تتخذ هذه الأشكال إلا وسيلة لإيصال المعنى في قالب بهيج.

فما الذي أحدثته البديعيات من أثر في البلاغة العربية؟

أراد البديعيون أن ينزلوا بالبلاغة إلى عامة الناس ويجعلون منها «فنًا شعبيًا» ونجحوا في ذلك فعلاً، إذ منذ «ولجَ البديع فن المديح النبوي فقد غدا شعبياً جماهيرياً، يحفظه المنشدون، ويفنونه في لقاءات الأتس والفرح»⁽³⁸⁾، فكان تعاطي الدرس البلاغي على هذا المستوى الشعبي الذي يتيح لعامة الناس معرفة قواعد البلاغة وفنون البديع، حيث «رأى البديعيون أن البلاغة ينبغي أن تُقيد ليسهل حفظها ويعم نفعها»⁽³⁹⁾. لكن هل كان ما يقوله البديعي في قصيدته ذا فائدة، وله أصل في التعبير اليومي، أو الأدبي للمتكلم أو المبدع على السواء؟

لعل ذلك التكاثر للبديعيات دفع أصحابها إلى الاجتهاد في تفريع الألوان البديعية وغدا النوع البديعي الواحد أنواعاً متعددة واتخذ لكل نوع تسمية مخالفة لغيره من الأنواع حتى وإن تشابه النوعان في الماهية، أو قد يسمى النوع الواحد بأكثر من اسم⁽⁴⁰⁾، اعتماداً على فروق وهمية لا مرجعية لها في الواقع التعبيري كما بينا ذلك قبل قليل وخير مثال على ذلك ما اصطاح عليه من ألوان البديع بالمهمل، وهو البيت الذي لا نقط فيه، كقول الشاعر⁽⁴¹⁾:

سَادُوا الْوَرَى طَاوَلُوا الْأَعْدَاءَ مُصْطَلَمًا عَلَوْا وَكَمَ (أَهْمَلُوا) الْأَعْدَاءَ كُلَّهُم

لكن نتجاوز هذا الترف الاصطلاحي والإغراق التفرعي للمسميات، لنؤكد مركزية هذا الالتجاء إلى المدائح النبوية – نظراً لما كان يتقصّد الأمة من مهالك – وجعلها مطيّة لتوصيل القاعدة البلاغية ليصل بذلك الشعراء إلى جعل البلاغة ممثلة في علم البديع فنًا شعبيًا من خلال نظم هذا الفن حتى يسهل على الناس حفظه ومن ثمّ التأسيس عليه والبناء على منواله.

لذلك تحولت البلاغة – في ظل هذه الظروف السياسية والتربوية والتعليمية – من علم الخطاب الشفاهي إلى مجرد سرد لقائمة متضمنة لوسائل التحسين اللفظي. وإنّ مكنم الإشكال في التوفيق بين البديعيات والبلاغة، يتجسّد في الحرص على إيجاد نوع من التجانس بين أقطاب ثلاثة:

1. استحضار الصيغ البديعية تعبيراً.

2. حصر ألوان البديع عدداً.

3. التعبير الجمالي المؤدي للوظيفة الشعرية للقصيدة البديعية ذات الغرض المدحي، مما يؤسس لتضارب أو صراع بين العقل والخيال، بين الشعر والعلم، بين الكلفة والطبع والاسترسال.

بؤرة شعرية البديعيات:

لعل ما ناقشناه سلفاً يعبر عما تعلّق بالبديعيات وصلّتها بالبلاغة تنظيراً وتجريداً، فيما بقي لنا الآن أن نحدّد مسار هذه القصائد الشعرية – أصلاً – في حرم الشعرية العربية، وهل لها من الخصوصية الفنية التي تدفع بها إلى الدخول في باب الشعر، وتصرف عنها وصمة النظم وتبعاتها؟

ترمي البديعيات إلى حصر فنون البديع في قصيدة واحدة بغرض تعليمي بحت، وهذا ما يحيلها إلى مصافّ المنظومات العلمية، كما هو شأن ألفية ابن مالك في النحو، والرحبية في الفرائض، ومثنى ابن عاشر في الفقه...وغيرها.

إلا أننا لا نقف عند هذه الحدود مع البديعيات، فهي تحوي خاصية جوهرية أخرى تضاف إلى هذه السمة العلمية، فهي - كما قلنا - قصيدة تحمل فكرة أسمى، مبلورة في غرض المديح، ناهيك عن المدح الذي هو خير الورى محمد صلى الله عليه وسلم، وهنا لا سبيل عن مراعاة «مشاعر التأثر والشوق التي تغلب على الشاعر، فتقترب القصيدة أشد ما يكون الاقتراب من ميدان الشعر»⁽⁴²⁾. فالبديعيات إذاً تُسفر عن شعريتها، وتأتى أن تكون مماثلة لتلك المنظومات العلمية التي تتميز - البديعيات بالتقدم عليها - فمن «خلال المشاعر والخيال يستطيع الشاعر أن يخلق التأثير الذي لا يستطيعه، ولا يمكن أن يستطيعه العلم»⁽⁴³⁾. هذا يعني أن أصحاب البديعيات لم يشغل بالهم البديع بالكلية، وهو الشق العلمي البحت في البديعية، وإنما كان فيما ذهبوا إليه من شعرهم أنهم يمدحون النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك كان في قصائدهم هذا التأثير وهذه الدفقة الشعورية، وهو ما يمنع هذه القصائد أن تُعامل معاملة المنظومات العلمية.

إن المنظومة العلمية «تُنحت من صميم الفكر وتُمزج بقوانين العقل، وتصب في قالب القواعد، دون التلون بعاطفة، أو الاقتران بغرض من أغراض الشعر المعروفة»⁽⁴⁴⁾، فالنحو أو الصرف أو العروض أو الفقه أو الأحكام أو الحديث أو غير ذلك من أبواب العلم هو ما تقف عنده المنظومات فلا تتعداه، وهو الحاجز ذاته الذي تتمرّد عليه البديعيات لتلج إلى الشعرية؛ لأنّ الشاعر فيها كلف بالبديع في صياغته ممارسة، لا في عدّه وحصره تنظيراً، وهو ما يُخرج اللغة على غير مخرج المعيارية، ففيه التلاعب بالألفاظ، كما أنّ الشاعر غير مغرم بالنحو ولا بالعروض ولا بغيرهما من العلوم التي تُظلم فيها، وإنما هوسه باللغة ولا شيء غير اللغة.

فالغاية التي تضاف إلى المدح والبديع في البديعية، هي المتعة اللغوية التي يُظهر فيها الشاعر قوة تشكيله الأسلوبية، بينما تكون غاية الناظم رصف الحقائق العلمية في تفعيلات مقفاة، وأوزان عروضية حتى يسهل على العامة حفظها واستظهارها.

ومهما يكن حال البديعيات في الشعرية فإنها تخضع لمبدأ التصوّر العلمي الذي يوحي بأنّ الشعر «إن كان لونا من ألوان الفكر أو التعبير، كان فيه صارف عن الفكرة العامة المكتملة التي تحتاج إلى تفصيل، وعن الفكرة الهادفة النبيلة التي تشير إلى غاية»⁽⁴⁵⁾. فالقصيدة البديعية إذاً لا تتفك عن المنظومة مادامت فكرة العلم حاضرة في صلب البناء الشعري، «مما أحال الكلام في البديع ومحسناته إلى صور غثة، ضررها أكثر من نفعها؛ لأنها خلطت بديعاً مُزيّفاً كثيراً بالبديع الحقيقي، بل إن هذا البديع المزيف هو الذي كان يستأثر باهتمامهم»⁽⁴⁶⁾. هي هكذا الرؤى النقدية حينما تريد محاصرة هذا النوع الشعري، منطلقة في حكمها عليه من قياس خاطئ بالعلوم الأخرى وبحقيقة المنظومات العلمية التي رصدتها لنا المصنّفات ومجاميع المتون التي حفظها لنا التاريخ.

لكن ألا ينبغي على من يذهب إلى مثل هذا الحكم أن يرصد المفارقة الواقعة بين ناظمي المتون وشعراء البديعيات، هؤلاء «لم يكونوا شعراء فحسب، وإنما كانوا شعراء أدباء، قد امتلكوا زمام الأدب من شقيه: الموهبة الشعرية، والمقدرة على التأليف، فهذبّت الشاعرية أفلامهم، وقعد القلم أشعارهم»⁽⁴⁷⁾، وبَدَت المشاعر

الصادقة في بديعياتهم على عكس تلك المنظومات التي تخلو جملة وتفصيلاً من الروحانية، وقد ذهب إلى مثل هذا نقادنا القدامى، حينما رصدوا شعرية الشاعر الواقعة بين الطبع والصنعة، ورأوا أن «الشاعر قد يُعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره، وبالإبداع جميع فنونه، فإن تلك مُجاهدة للطبع ومُغالبة للقريحة مخرجةً سهلاً التأليف إلى سوء التكلّف وشدة التعمّل (...); لأن لكل شيء حداً إذا تجاوزه المتجاوز سُمي مُفرطاً، وما وقع من الإفراط في شيء إلا شانه وأحال إلى الفساد صحته، وإلى القبح حسنه وبهائه»⁽⁴⁸⁾.

هذا النص يُفصح عن نفسه في ما يدعو إليه من سوء الإفراط في التكلّف، كما يبين مقبولية الشعر الذي حاز شيئاً من التكلّف، وهو ما قابل فيه ابن رشيّق المطبوع بالمصنوع حيث رأى أن المطبوع هو الأصل في القول الشعري، ولكن لا ضير إن وقع فيه شيء من الصنعة من غير تكلف تزيده حسناً وبهاءً، وهو يقول: «ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع فيه مطبوعاً في غاية الجودة، ثم وقع في معناه "بيت مصنوع" في نهاية الحُسْن لن تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمّل كان المصنوع أفضلهما»⁽⁴⁹⁾.

وقد يكون الاهتمام بالألفاظ التي هي محل البديع، حيث لم يحض لا البيان ولا المعاني بهذا الاهتمام، ولعلّ مرد ذلك أن أصل المعنى اللفظ كما أقره التفكيّر البلاغي القديم في بعض الطروحات «قال لنا أبو علي يوماً: قال لن أبو بكر (يعني ابن السراج): إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه، فإنكم إذا حفظتموه فهمتموه (...) فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا تَرَيْنَ أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتبويه بها وتشريف منها»⁽⁵⁰⁾. إذا كان الفهم الأوّلي لظاهرة البديع في عصر الدويلات بهذا الشكل، فإن شعراء البديعيات ما زَيّنوا ألفاظهم ولا اهتموا ببديعهم إلا تقريباً للمعنى واهتماماً به، واحتفاءً بما يحققه من فهم، وعيبهم في ذلك أنهم غالوا قليلاً، لكن ذلك لا يقضي نصوصهم من حلبة الشعرية.

كما لا يمكننا اليوم على هذا الاعتبار أن نلغيها نحن؛ «لأن مفاهيمنا اليوم غير مفاهيمهم، وطرقنا في الحياة تختلف عنها في أيامهم، ونظرتنا الذوقية (...) ولذلك فإن أحكامنا على الأشياء تختلف عن أحكامهم»⁽⁵¹⁾.

إنّ البديعيات جمعت بين النظم والشعر، فيها من الجفاف العلمي ما يجعلها في باب المنظومات التي لا مواصفات تجمعها بالشعر غير سمة الوزن والقافية، في حين قد تحمل في ثناياها من الشعرية وسمو الخيال ورحابة الأفق ما يؤهلها أن تكون في باب الشعر أدخل، وأليق بها أن تكون قصيدة شعرية لا منظومة علمية. وهكذا يتميز هذا النمط الشعري بفضل ما اتصف به من مواصفات جمعت له العلمية والشعرية التي تحتفظ له أهم خاصية يمتاز بها، وهي خاصية الغنائية. كما قال حسان بن ثابت⁽⁵²⁾:

تغنّي في كل شعر أنت قائله إنّ الغناء لهذا الشعر مضمّار

من علامات هذه الغنائية الكافّة للشعرية في القصيدة البديعية، ذكر ما يدل على «شدة الصبابة وإفراط الوجد، والتهالك في الصبوة»⁽⁵³⁾، نحو المحبوب الذي لا ينفد حبه وهو النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم.

لا شعرية بدون معمارية القصيدة:

الأسلوب الذي تقوم عليه البديعية، وتشكل به بنياتها التعبيرية هو أسلوب بلاغي بامتياز حيث يمكن اعتبار الشعر البديعي "لغة على اللغة" فهو لغة واصفة للبديع متلبسة بالمعاني الشعرية التي توظف الآليات التعبيرية

الكفيلة بتحقيق الشعرية، كالمجاز، الاستعارة، التشبيه، الكناية، السجع، الطباق... مما يكفل للقصيد أن تتمفصل وفق محطات تؤهلها إلى رسم مشهد متكامل لأجزاء غير مرتتهن عند حدود التنظير العقلي للقاعدة البلاغية ذات البعد العلمي، فالبديعة تخضع لمعمارية تجعل من أجزائها محطات متكاملة لمسيرة أرادها الشاعر من بداية القصيدة إلى نهايتها، فهي تبدأ «بمقدمة يصور الشاعر فيها شوقه لزيارة الأماكن المقدسة، ويمضي الشاعر مباشرة إلى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، فيتحدث عن شمائله، ويذكر فضله على سائر الأنبياء، ويتبع ما نسب إليه من معجزات ويتحدث عن غزواته، ثم عن فضائل صحابته وينهي القصيدة بطلب الشفاعة والتوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم لغفران ذنوبه»⁽⁵⁴⁾، هي خطة فنية إذاً تشترك فيها العاطفة بالتأليف، وهو الاشتراك الذي يميز البديعة عن أنماط الشعر الأخرى، فهي تقوم على رعاية أسرار البلاغة وتقنيات الفصاحة وجمال الصورة و«براعة، تهدف إلى حسن التخلص، وحسن الختام، وهذا بالطبع له تأثير فعال في نفسية المتلقي»⁽⁵⁵⁾.

شعرية البديعات:

يستند التعامل مع القصيدة البديعية – ضمن هذا العنصر – بناءً على سماتها الشعرية التي تجسدها تلك الصور المنفردة والمتناثرة عبر كل أبياتها، فهي معزولة عن بعضها، غير أنها في نهاية القصيدة ترسم لنا صورة كلية تُضبط معالمها في ما يسمّى بمعمارية القصيدة، وما يعزز ما نذهب إليه هنا هو اعتبارنا أنّ الشاعر البديعي شاعر غير عادي؛ لأنه كان إذا بلغ من الشهرة غايتها، ومن المعرفة والمقدرة الشعرية أوجهاً، يَمُم صوب (البديعات) ليدلي بدلوه فيها، ويفترف ما استطاع منها، وكأنه يرى أن تمام الشاعرية، واكتمال الشهرة، لا يتأتيان له إلا إذا أثبت في ميدان (البديعات) وجوده⁽⁵⁶⁾، من هنا كان لشعرية البديعات ما يؤسسها. إن ما ترتضيه الشعرية لنفسها كأرضية تقوم عليها هو الخيال الشعري المؤسس للصورة الفنية، وهو لا يتجاوز في بياننا العربي بشكل حصري غير التشبيه والاستعارة خاصة، وإن كان الشعراء قاطبة يتفاوتون في حشد صور هذا الخيال، إلا أنه «هو القوة التي كانت وراء إيجاد الشعر عند أصحاب البديع وغيرهم»⁽⁵⁷⁾، ولذا لا يمكننا إقصاء أي مُتَهَن للشعر أورد نصيباً من الخيال في شعره، لكن لا يمكننا أن نسوّي بينه وبين من انعدم الخيال في شعره. المنظومات العلمية جافة لا خيال فيها، بينما البديعات تطفح معظم أبياتها بالخيال، مفعمة بالروح والوجدان، مشبعة بالعاطفة، وإلا كيف نقابل بين قول ابن مالك وهو يتكلم عن أقسام الكلام⁽⁵⁸⁾.

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

وبين قول عائشة الباعونية وهي تتكلم عن التوشيح⁽⁵⁹⁾:

كُتِمْتُ حالي ويأبى كتمه شجني بحُكْمِي الفاضحين: الدمع والسقم

فأي الشعرين الخيال فيه حاضر، النظمي أم البديعي؟، أو فلنقابل بين قول ابن عاشر في الفقه وهو يبسط أركان الإسلام حيث يقول⁽⁶⁰⁾:

قواعد الإسلام خمس واجبات وهي الشهادتان شرط الباقيات

ثم الصلاة والزكاة في القطار والصوم والحج على من استطاع

وبين قول ابن جابر الأندلسي وهو يعرض آلية «ذكر إجراء الهزل مجرى الجد»⁽⁶¹⁾:

قل للصباح إذا ما لاح نورهمُ إن كان عندك هذا النور فابسم

حقاً إنّه للهزل حينما نسوّي المنظومات بالبديعيات ضمن الشعر التعليمي، فالشاعر – ابن جابر – يتحدث عن خصال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوان الله عليهم، وكيف ناظرَ بين الصباح ونور الصحابة وبين نور الصحابة وابتسامة الصباح. ومع ذلك إنّ «أقل ما يمكن أن توصف به البديعيات، عند غير محبيها وأنصارها، أنها لون من ألوان الشعر التعليمي، شأنها في ذلك شأن المتون العلمية المنظومة كآلفية ابن مالك في النحو، والرحبية في الفرائض وغيرها...»⁽⁶²⁾، وعلى ذكر الرحبية فماذا يقول صاحبها وهو يتناول موانع الميراث⁽⁶³⁾:

ويمنع الشخص من الميراث واحدة من علل ثلاث

رقٌ وقتل واختلاف دين فافهم فليس الشك كاليقين

ولنقابل هذا القول بما قاله صفي الدين الحلّي في باب الألفاظ⁽⁶⁴⁾:

حرانٌ ينفع حرّ الكرّ غلته حتى إذا ضمه برّد المقيّل ظمي

طبيعة الإنسان تقضي أن الحرارة تجلب العطش والظل البارد على خلافها، بينما الحلّي يأتي بالصورة على نقيض ما هي عليه في الواقع أثناء وصفه للسيف الذي استعمل في الحرب من قبل صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ورضوانه عليهم، فهو يعطش لما يضمّه الغمد وكأنّه يتوارى في قيلولة من شدة الحرّ، لكن الحرّ، خاصة حرارة المعركة والكر على الأعداء، هو ما يزيل عطش ويقطع ظمأ هذا السيف. ويدخل بيته هذا الشعر لا النظم.

فجرى السيف بغير مجرى عادة الطبيعة البشرية فكان يعطش إذا قال (من القيلولة) ويتروى إذا كرّ في هجير المعركة وجال في لهب الوطيس. فهي مفارقة أجل من أن تؤدي وظيفة تعليمية مباشرة تؤطر قضية عقلية لا يتسلل الخيال إليها.

هكذا أردنا أن نثبت شعرية البديعيات باعتماد نموذج لكل بديعية، لنقف على الجدة التي أحدثها شعراء البديعيات بتجاوز نمطية النظم التعليمي والإقرار لنوع جديد في الشعرية العربية كسرّ بها شعراء هذه الفترة التاريخية مقولة "ما ترك الأول للأخر شيئاً"

أخرنا نموذج الحلّي ليتصل القول بتحليل بعض أبيات بديعيته – إحقاقاً لشعرية البديعيات – نظراً لما تتمتع به هذه البديعية من سمعة طيبة لدى النقاد، حيث يقول أحمد مطلوب، «لعل بديعية الحلّي أجودها [البديعيات] شعراً وأصدقها عاطفة؛ لأنه لم يلتزم التورية عن الفن البديعي كما التزمه الموصلي والحموي»⁽⁶⁵⁾، هذا على مستوى البناء الأسلوبى والتشكيل البنائى أما على مستوى الخيال، فقد «كانت بديعية صفي الدين رائعة، خلق فيها الشاعر إلى آفاق من الفن والشاعرية لفتت نظر جميع من يحبون الفن الرفيع»⁽⁶⁶⁾.

اعتمد الحلّي خصائص الشعر العربي الرصين من كثافة للخيال وتصوير للمعاني الذهنية حتى وإن بدت هذه المعاني قريبة وسطحية في عمومها، إلا ما ندر منها حيث مال فيه الشاعر إلى التعمق، كما التزم الشاعر بالمعاني الشعرية القديمة، وجانب الخروج عنها ومن ذلك قوله⁽⁶⁷⁾:

كادت حوافرها ترمي جحافلها حتى تشابهت الأحجال بالرئم

جاء الشاعر بهذا البيت تجسيدا لآلية سلامة الاختراع، حيث «يخترع الشاعر معنى لم يسبق إليه»⁽⁶⁸⁾، فوصف فيه خيول جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي خاضت غمار الحرب ضد المشركين، المتميزة بالسرعة الفائقة، إذ كادت حوافرها أن تلتحم بجحافلها أي شفاهها، ولشدة هذا التقارب بين الشفاه والقدم، اختل التمييز بين الموضعين نظراً لتشابههما فبالحوافر تججيل وهو بياض في القوائم، وبالجحافل رثم وهو بياض في الشفة العليا للفرس، فهي فعلا صورة مخترعة لا تقل شأنًا عن "مكر مفر مقبل مدبر معا" لأننا لا نكاد نميز في هذه الخيول شفاهها من قوائمها لشدة التحامهما ببعضهما وتداخل بياضهما لفرط سرعتها - مثلما لم نستطع من قبل تمييز مقدمة فرس امرئ القيس من مؤخرته لفرط سرعته، فكان ذاهبا آيبا في الآن ذاته - والسؤال، ما محل النظم في بيت الحلّي؟ فالصورة خيالية موهلة في التجريد.

ومع ذلك فقد ينطبق حال هذا الشاهد الشعري على مقولة التطابق بين الشكل والمضمون؛ لأن أسلوب البديعيات وإن تفنن فيه صاحبه ليخرجه على غير عادة أصحاب المنظومات، إلا أن فيه من الميل إلى التزيين والتحسين ما يستدعي حصر أنماط البديع قهراً، كما الحال في هذا البيت الذي يجسد الكناية، ولكن لحق الشاعر فقد تجاوز هذا الإقحام لتلك الكليشيهات المموجة، فيقول الشاعر⁽⁶⁹⁾:

كل طويل نجاد السيف يُطْرِهُهُ وَقَعُ الصَّوَارِمِ كالأوتارِ والنُّعْمِ

هي كناية مستهلكة على غرار "طويل النجاد، رفيع العماد"، لكن هنا الصورة أكثر إيغالاً وتجاوزاً لأن يُحاصر هذا النوع البديعي، فقد تعدى بها الشاعر بتلك الفرحة والإبهاج حينما تتصل سيوف الصحابة رضوان الله عليهم بأعدائهم الذين تكون أجسامهم كأوتار الآلات الموسيقية التي تُحدث أنغاماً تُطرب السامع، لما تقع عليها سيوف الصحابة.

فمما يُفرح أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ورضوانه عليهم، هو مجاهدة أعداء الله وقتلهم وإغمار الصواري في أجسادهم. والسر في هذا التجاوز هو أن أصحاب البديعيات، قبل أن يكونوا مداحين، هم علماء باللغة علماء بفنون البديع، لذلك يأخذ نص البديعية في الغالب البعد التواصل، الإفهامي الإبلاغي فضلاً عن الشعري، فهو يسعى إلى تقرير الحقائق في غالبية مفاصله، حتى وإن عمد صاحبه إلى استحضار الأساليب التصويرية قد يجسد لنا هذا الطرح عدم المفارقة بين النظم والشعر عامة، ولكن ببراعة أصحاب البديعيات لم يَجُجْ ذلك الاستحضار عن المتلقي جماليات القول الشعري الذي تسفر عنه تلك الصيغ الإشارية الكفيلة بالخرق اللغوي منهجا تعبيريا، كما هو قول الحلّي في هذا البيت⁽⁷⁰⁾:

خاضو عُبابَ الوغى والخيل سابحةً في بحر طعنٍ بموج الموتِ مُلتطمِ

سأكتفي مركزاً في تبرير شعرية هذا البيت بما رمى ابن زاكور الفاسي بقوله: «العُباب، ارتفاع السيل وكثرته أو موجّه، و"السباحة" العوم، و"التطام البحر"، اضطراب أمواجه، والمعنى أنهم - رضوان الله عليهم جميعهم - خاضوا موج الحرب والخيل عائمة في بحر طعن ملتطم بموج الموت»⁽⁷¹⁾.

هكذا يرسم البيت صورة فنية يتجسّد فيها الموت كموج متلاطم تخوض عبابه خيول الله وهي تسبح حاملة الفرسان الأوشاس. هي لوحة فنية يتجاوز رسمها التعريف بآلية البديع المسماة "ائتلاف اللفظ مع اللفظ". وهذا الأسلوب في الكتابة "النظمية" هو ذاته ما يرسخ المفارقة بين الصيغة التعليمية والتصوير الأدبي المفعم

بالشعرية، وفضلاً عن هذا التصوير الفني فإننا نستشعر تسام روعي يتناغم مع هيبه الموقف وجسامة الحدث التاريخي، بفضل ذلك الاستعمال اللغوي المتميز، وهو ما يظهر كذلك في قوله⁽⁷²⁾:

بفتية أسكنوا أطراف سمرهم من الكمأة مقر الضغن والأضم

البيت ذكر لفضائل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، ورضوانه عليهم، وقد عبر عنهم الشاعر بالفتية عوض الشباب؛ لأن الفتى هو الشاب السخي الكريم، أما عن الصورة الواردة في البيت هي إسكان صاحبة لأطراف رماحهم في قلوب فرسان أعدائهم المليئة بالحسد والغضب، ومما خفي من المعاني ذلك التقابل بين الفتية وما تحمله من دلالة وبين من حملت قلوبهم كل الأخلاق القبيحة، وهي صورة لا تقل جمالا عما قاله عمرو بن معدي يكرب⁽⁷³⁾:

الضاريين بكل أبيض محذم والطاعنين مجامع الأضغان

إذا نحن نتعامل مع قصيد شعرية يحتفي صاحبها باللغة الفنية، وما سُمي بالقاعدة البلاغية لا يأتي إلا عرضاً في سياق الكلام، ومن ذلك هذا البيت الذي تتحقق فيه مقولة أن «المجانسات والترصيعات الصوتية هي الأرضية التي يتحقق فيها جمال الغناء والإنشاد واستواؤهما»⁽⁷⁴⁾، يقول الحلي⁽⁷⁵⁾:

من حاسر بغير العضب ملتحف أو سافر بغير الحرب ملتحف

فالبيت أورده الحلي للتمثيل على الترصيع الذي يعني «مقابلة كل لفظة من صدر البيت (...) بلفظة على وزنها ورويها وإعرابها غالباً في العجز»⁽⁷⁶⁾. والشاهد "حاسر-سافر"، "غرار-غبار". وهذا ظاهر لا لبس فيه وهو تزيين صوتي، حيث «إن الحافز الإيقاعي يؤثر في اختيار الكلمات وترتيبها»⁽⁷⁷⁾، إن ما يستوقفنا في هذا البيت هو التصوير الذي عمد إليه الشاعر، فالحاسر هو مَنْ لا درع عليه، أما السافر فهو من كشف النقاب عن وجهه و"غرار العضب" هو حدّ السيف القاطع. ولننظر إلى هاتين الصورتين الفنيّتين المتقابلتين في البيت والبعيدتين كل البعد عن المنظومات العلمية.

الشاعر يذكر بمحامد وخصال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضوان الله عليهم، وهم في قلب المعركة، وإذا فيهم الذي تجرد من درعه وأنبأه بالتسّر والالتحاف بحد سيفه، ليدل على مدى شجاعة وإقبال هذا الصنف من الصحابة على القتال. أما الصنف الثاني فقد تلثم بغبار المعركة الذي تتقعه أرجل الخيول، وهي صورة لا تقل جمالا عما قاله بشار⁽⁷⁸⁾:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فالمقاربة في بيت الحلي بين الالتحاف وحد السيف أو التلثم بالغبار لدليل على حسن التصوير وحضور الحس الأدبي في بناء هذه المنظومة، حيث «تزداد فاعلية المقابلة في الحبك، وتكون أكثر امتداداً حين تتقابل الشروط المصاحبة لطرفي التقابل»⁽⁷⁹⁾ وفي البيت التالي من منظومة الحلي كذلك تتضح لنا الشعرية حين يقول⁽⁸⁰⁾:

تُجار لفظوا إلى سوق القبول بها من لجة الفكر تُهدري جوهر الكلم

ساق الحلي هذا البيت للتدليل على مراعاة النظير الذي يعني «جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو مما يلائمه من أحد الوجوه»⁽⁸¹⁾، فما هو وجه المناسبة هنا، وما هما الشيطان المتلائمان؟

وظّف الشاعر "التجار" وقابلهم "بالسوق" وهذا يؤدي وظيفة الاستشهاد لمراعاة النظير. لكن خلف هذه العلمية توظيف شعري آخر وهو سَوَق الشاعر لأشياء متنافرة صنع بها الملاعة حينما استعمل "تجار لفظ" و"سوق القبول" و"لجة الفكر" و"جوهر الكلم". ففي "تجار لفظ" إيماء لصناعة الكلام وتأسيس البيان لدى الكتاب والشعراء وأنّ «بضاعتهم التي يستفضلون فيها انتخاب الألفاظ وتأليفها للدلالة على الأغراض حتى تتنافس في نقلها الحفاظ»⁽⁸²⁾، مما ينتج "جوهر الكلم" فالألفاظ المنتقاة مثّلت جوهر الكلم «بما حازت من نفاسة الجوهر صارت أهلاً لأن تكون لجوهر الكلم أصلاً»⁽⁸³⁾.

حاصل الدلالة مبدعون ينتجون جيد الكلام ونفيسه، قصد استجلاب المتلقي إليه، وهي الصورة الثانية، الماثلة في البيت الخاصة بالمتلقي الذي هو مصدر القبول لذا كان "سوق القبول" و"لجة الفكر"، وهنا يقع الإثبات لفاعلية علم البديع وما يشير إلى دوره «في دراسة التناسب بين أجزاء الكلام»⁽⁸⁴⁾.

هي إذاً مجموعة كبيرة من الخطابات تتنافس فيما بينها للولوج إلى نفسية المتلقي، ولا يختار هذا الأخير إلا خطاباً واحداً وهو ما مثّل بالجوهر، وحتى يستقر هذا الخطاب في النفس، يفرض ذاته في فكر المتلقي بعد صراع مع غيره من الأفكار كاللجّة المتلاطمة كما هي المياه في البحر، فالفكر صار بحراً متدافع الرؤى والاتجاهات كما هي لجج المياه متدافعة في البحر.

بهذه الصورة الفنيّة الغائرة في التأويل قدم الشاعر لونه البديعي الذي كان بإمكانه الاستغناء بما قدمنا ابتداءً حول التناظر، وهو ما يعكس أن ناظمي البديعيات هم شعراء حريصون على التعامل مع اللغة على خلاف التعامل العلمي المستجيب للعقل المقرر للحقيقة.

هكذا بفضل ما أوردناه من نماذج شعرية – لا نظمية – تضمنتها بديعية الحلّي يتّضح لنا أنّ الرقعة والسلاسة تجريان فيها كما هو حال أي رائعة من روائع الشعر العربي الكلاسيكي، ومع ذلك صحيح أنها «لا تخلو في بعض جوانبها من ثقل وألفاظ قلقله»⁽⁸⁵⁾ كما قال شوقي ضيف، في حين أنّ الحكم العام الذي يتسلل لنفسية أي قارئ «لهذه البديعية يشعر بانقياد الألفاظ مع الوزن للشاعر، على الرغم من أنه كان ينظم مع اشتراك المادة العلمية في هذا النظم، كما يشعر الإنسان بعاطفة تفرض نفسها على أحاسيسه، موحية بمشاعر الناظم الصادقة»⁽⁸⁶⁾ على رأي علي أبو زيد.

وتعقيبا على ما ذهب إليه الأستاذ شوقي ضيف، وتعميماً لكلام علي أبو زيد على كل البديعيات، واستجابة لما يدركه العقل بداهة من أنّ البديعيات لم تكن «في مستوى واحد بل اختلفت بتعدد أصحابها وتباين ثقافتهم ومواهبهم»⁽⁸⁷⁾. وقد يتعلق هذا الحكم بالمفاضلة بين الشعراء عامة، كما يمكن لهذا الحكم أن يتوقف عند الشاعر الواحد دون غيره، إذ من العسير أن نجد لكبار الشعراء قصيدة واحدة – فضلاً عن ديوان كامل – تطفح بالشعرية من أولها إلى آخرها، ففيها الشعري والمجانف للشعرية، وما هو بين ذا وذاك، وهو ما كان بين المنزلتين "الشعر الفاتر" بتعبير قدامة وقد يتضارب شعر الشاعر بين القوة الفائقة والرداءة المنحطة، وهو ما حكم على إثره البحتري بالشعرية لنفسه، حينما اعتبر أن جيد شعره دون جيد شعر أبي تمام ورديء شعره أحسن من مثيل خصمه، فتقارب عنده الطرفان فيما تباعداً عند خصمه، وبذلك حاز قصب السبق.

هو الحكم ذاته ينسحب على البديعيات، إنها وإن ضمت صناعة لفظية ورطانة لغوية وتقعّر تعبيري بفعل الاهتمام بالبديع والتكلف فيه، فقد حوت كذلك رؤية شعرية غنية بالصور الحية التي تأسر المتلقي. وهو ما

ينطبق على بديعية ابن جابر حيث «تبدو لنا أقل البديعيات تكلفاً»⁽⁸⁸⁾، ذلك أنها لم تتضمن في أبياتها أسماءً للفنون البديعية، ولم يُجبر صاحبها إلى الالتزام بلفظ معين يدور حوله باقي ألفاظ البيت، عكس ابن حجة الحموي الذي التزم بأن يورّي في كل بيت باسم النوع البديعي الذي يأتي البيت شاهداً عليه، ومما «لا شك فيه أن ذلك حمله على كثير من التكلف»⁽⁸⁹⁾، نظراً لمحافظته على هذا اللفظ الذي ينعت الفن البديعي الذي هو بصدده.

أردنا بالسهولة والبعد عن التكلف⁽⁹⁰⁾، لجوء الشاعر إلى أسير الألفاظ وأسهل الأساليب التي لا تتأبى على فهم العامة، فهي تجايف الغريب المعقد، مما يجعل معانيها سافرة عارضة لنفسها على متلقيها، لذا اتصف ابن جابر في بديعته بالمقدرة الشعرية والكفاءة اللغوية التي مكنته من صهر معاني المديح – بعد علمه بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم – في قالب القاعدة البلاغية التي تضبط التمثيل لمجمل ألوان البديع، ومن ذلك ما يورده في باب حسن المخلص، وقد جاء بيتين رائعي المعنى متكاملين البناء⁽⁹¹⁾.

يقول صَحْبِي وَسُفْنُ الْعَيْسِ خَائِضَةٌ بحر السَّرَابِ وَعَيْنُ الْقَيْظِ لَمْ تَنَمْ
يَمُّمٌ بَنَا الْبَحْرُ إِنَّ الرُّكْبَ فِي ظَمَأٍ فقلتُ سِيرُوا فهدَا الْبَحْرُ مِنْ أَمَمٍ

هكذا يمكن للمحسن البديعي أن يوسع نطاق حضوره فيتجاوز مستوى الجملة أو البيت الواحد، وذلك بالنظر إلى الدور الذي لعبه لفظ البحر في البيتين "بحر السراب"، "يمم بنا البحر"، "فهذا البحر"، ثلاثة أبحر لا رابط معنوي بينها أو يكاد، فيما كان الرابط البديعي هو المشكل لتلك العلاقة المتأرجحة بين التجانس (التوافق) والتخالف فمرة صحراء وأخرى ماء وثالثها الرسول ووجهته صلى الله عليه وسلم، لذا يمكن أن «تكون هذه الفنون (البديع) فاعلة بدرجة أو بأخرى في حيك النص»⁽⁹²⁾.

يخاطبنا شهاب الدين الرعيني "شارح الحلة" معلقاً على البيتين بعدما استوى معناهما واستقرت في خلد شعريتهما – ونورد هذا التعليق الذي نكتفي به نظراً لما يُبيّنه من شعرية يتجاوز البيتان بها النظم العلمي والتنظير العقلي – يقول الرعيني: «ذكر ما جرى بينه وبين صحبه، وخطابهم له وحسر الهجير قد رماه بخطبه، وشبه العيس في السرى عند الحرّ بالسفائن الخائضة في البحر. وكنى عن شدة الهجير بأن عين القَيْظ (الحر) لم تتم. وسألوه أن يقصد بهم البحر ليطفئوا ذلك الجمر، فأجابهم واعداء بمراد الكرم وأن البحر لا يحتاج إليه من أم صاحب الحرم، ونبههم على ذلك بقوله: هذا البحر من أَمَم»⁽⁹³⁾.

جوهر الشعر لغته التي تبني نفسها بنفسها – على إيقاع متميز تتداخل فيه المعاني والصور بالأصوات والحركات – لتحقيق مفهوم الشعر الذي «يقوم على "المسوع" و"المعقول" والمسموع هو الشرط الأساسي الجوهرية الذي لا يتحقق الشعر بدونه»⁽⁹⁴⁾، وقريب من هذا المفهوم يأتي هذا البيت لابن جابر⁽⁹⁵⁾:

أَبَحْتُ فِيهِمْ دَمِي لِلشُّوقِ يَمْرُجُهُ بِمَاءِ دَمْعِي عَلَى خَدَيَّ وَقُلْتُ دُمٌ

سبق البيت لتحريّر مصطلح الجنس المحرف الذي شاهده في البيت "دمي، دُم" لكن فيما بينهما يحضر لفظ "دمعي" ليزيد من ترسيخ الحركة الإيقاعية المنبثقة عن البيت مما يثبت إمكانية «أن يكون الجنس أكثر وسائل الإيقاع الداخلية في الشعر»⁽⁹⁶⁾، وتجاوز هنا الإيقاع الصوتي لتنتبه إلى إيقاع المعاني الذي ارتسمت من خلاله تلك الصورة الرومانسية – بعيداً عن التعليم والنظم الجاف – لتضافر الدم بالدمع بالديمومة نتيجة البعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما استدعى الشاعر لأن يبيح للشوق دمه حتى يفتك به، فيمتزج فيه الدم

بالدموع صوتاً وصورة، بل إن الشاعر بعد موته جراً إباحة دمه يأمر دموعه بعدم الانكفاف وألا ينحبس جريانها، مقتدية بجريان دمه، ووقتئذ لا يستأثر الشاعر بالراحة رغم موته، وكأنه يريد أن يكون حياً ميتاً، حياً ليزوق عذاب الحجر والبعد عن الأحبة دون انقطاع، إدراكاً لشدة الشوق، وميتاً جزاءً للوفاء لغرامه برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه الصورة بعيدة كل البعد عن طرق الجناس – بشتى أنواعه ومختلف ضروبه – بمنظار البديع والنظم التعليمي، فهي متجاوزة لكليهما، ضاربة في أعماق الفنية محققة لشعرية القول، وهكذا «تصبح الكلمات المتجانسة والمرتبة ترتيباً خاصاً في الشعر تشكّل قاعدة إيقاعية مهمة في تصوير التجربة الشعرية أو المعنى الأعظم للشعر، ولا يمكن أن تكون مجرد بنية خارجية يمكن للشعر أن يستغني عنها»⁽⁹⁷⁾. تتأكد هذه الخاصية في «الحلة السيرا في مدح خير الوري» بهذا البيت⁽⁹⁸⁾:

سَلْ مِنْهُمْ صَلَةً لِلصَّبِّ وَاصِلَةً وَالثَّمْ أَنْامِلَ أَقْوَامٍ أَنَا بِهِمْ

أورد ابن جابر البيت تبياناً للجناس الناقص، وقد تحقق الجمال الإيقاعي دون تكلف حينما تضافر فيه مجمل الألفاظ المتجانسة الصوت (سل، صلة، الصب، واصلة) ولكن لم ينفرد البديع – الجناس – بإيقاعية البيت، وإن جسد النغمة الموسيقية، فالتجانس المعنوي في البيت يبدأ من استحضار المتلقي – سَلْ – ونقله إلى بيئة النبي صلى الله عليه وسلم، وأمره عياناً أن يسأل ويطلب صلة (عطية) من كرم النبي صلى الله عليه وسلم. ليمثل هذا المشهد – الاستحضار، السؤال – صورة فنية تأخذ مرجعيتها من «قفا نبك» فهو نقلٌ للمتلقى من السماع إلى عالم الحس والأشهاد ممثلاً في السؤال والتفصيل لصاحب الأنامل السخية واليد البيضاء، وهو ما يجعل – هذا المتلقي – يتصور عالم النبي صلى الله عليه وسلم حساً ويعيشه جهاً نهاراً، وهكذا يكون ابن جابر قد وُفّق في ما اعتبره العمري «صعوبة كامنة في الملاءمة بين المطلبين: المعنى والصوت»⁽⁹⁹⁾.

رغم ذلك يبدو أن الشاعر لا يريد أن يشغل المتلقي بتتبع الصور، خاصة ما غمض منها؛ لأنه – أي المتلقي – سينشغل بها تاركاً غرض الشاعر الذي قصده وهو لتعريف باللون البديعي الذي يريد منه أن يُحصّله، لذا جاءت – كما بينا – القصيدة في مجملها سهلة الألفاظ واضحة المعاني، يقول ابن جابر ذاكراً فضائل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم⁽¹⁰⁰⁾:

إِذَا بَدَأَ الْبَدْرُ تَحْتَ اللَّيْلِ قُلْتُ لَهُ أَنْتَ يَا بَدْرُ أَمْ مَرَأَى وَجُوهِهِمْ

جمال الصورة يغطي ما قد توصف به البديعيات من ضحالة اللغة، وبلاغة الأسلوب؛ لأنها هي طريقة الكتابة التي أقرها الذوق في ذلك العصر، وإلا كيف نفسّر تهافت الشعراء على قرص بديعياتهم، وكذا إصرار الأمراء على الشعراء بأن يقولوا في هذا الفن، فكان الشاعر يقول القصيدة والقصيدة ثم يشرحها، وهذا مؤشر على القبول بها من العامة قبل الخاصة، وهو ما يوحي «بأنّ نظم البديعية لم يكن دوماً من أجل جمع أنواع البديع، إذ لو كان الأمر كذلك لما احتاج الشاعر إلى أكثر من بديعية»⁽¹⁰¹⁾، إذ إنّ الواحدة تحقق الغاية، ومن المعاني المبتغاة جراء القصيدة تلو القصيدة ما رمى إليه ابن جابر في قوله⁽¹⁰²⁾:

صَبُّ الدَّمْعِ كَأَمْثَالِ الْعَقِيقِ عَلَى وَادِي الْعَقِيقِ اشْتِيَاقًا حَقَّ صَبِّهِمْ

غرض البيت كان للتدليل على الجناس وهو ظاهر في البيت في لفظي صب والعقيق المكررين دون تكلف، لكن هي غايات أخرى مضافة يريدها الشاعر، إنها معانٍ متوالية خلف الغاية التعليمية، فالشاعر يجعل لعلاقته بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم حقوقاً، ومن حق المعشوق على العاشق أن يريق الدمع عليه وأن

يطيعه في كل أحواله وسلوكاته، فتكون الاستجابة – حسب البيت – مراعاة حق تلك الربوع التي أحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندئذ فما من واجب العاشق إلا صب الدموع وافرة سخية شوقاً عليها، ولا يجب أن تُعق هذه الدموع صاحبها ولا معشوق صاحبها بصفته الأمر الأول بذلك.

ولما كان ابن جابر أديبا شاعرا – فضلا عن كونه عالما ناظما – فهو يؤكد لنا معنى بيته هذا الوارد في بديعته ببيت آخر لا علاقة له بغاية التقنين والتنظير البلاغي فيقول⁽¹⁰³⁾:

فمن البرّ أنني أتبرى من عقوق لمنزلٍ بالعقيق

هي غايات أخر إذا مضافة إلى الغاية التعليمية التي ترومها البديعيات، ولذا «القراءة المتأنية لهذه البديعيات تكشف لنا عن وجود بديعيات على درجة كبيرة من النضج الأدبي والفني والبلاغي، تستحق الوقوف أمامها، والاستفادة منها تاريخياً وفنياً»⁽¹⁰⁴⁾.

نؤكد في الختام أن البديعيات تحوي قيما شعرية قبل القيم البلاغية والنقدية، باعتبارها قصائد ذات خيال وحضور وجداني ولا ندعي أن معظم أنواع هذه القصائد متكلف لا قيمة له في فن البديع⁽¹⁰⁵⁾، ولنعاملها معاملة الشعر لا النظم ولا النثر، ونحللها ونرصد مواطن الفنية فيها؛ لأن «الشعر – كما قيل – يظل إلى الأبد يعرض نفسه على كل جيل»⁽¹⁰⁶⁾، فالواجب علينا هو تغيير زاوية النظر لمثل هذا النوع من الشعر في هذا العصر، ولا نحاكمه بعيداً عن واقعه الذي أنتجه، فلا يجتزأ عن ثقافته التي أنجز في حضنها. وإلا صارت البديعيات كما هو «هذا حالها، لم تعد معيارا للشاعرية، ومقياسا للأديب، ولا وسيلة للشهرة»⁽¹⁰⁷⁾.

مراجع البحث وإحالاته:

- (1) ينظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، علم البديع، بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، لبنان، ط5، 1999م، ج3، ص: 11، وينظر: البديعيات "فن بلاغي يحتاج إلى تأمل"، يسري عبد الغني عبد الله، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ذو القعدة 1429هـ / نوفمبر 2008م، ص: 145.
- (2) الأدب العربي وتاريخه، محمود رزق سليم، في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، 1957م، ص: 60.
- (3) المرجع نفسه، ص: 61.
- (4) المرجع نفسه، ص: 60.
- (5) البديعيات، يسري عبد الغني عبد الله، ص: 144 - 145.
- (6) الموشح، المرزباني، تحقيق: علي محمد الجاوي، دار نهضة مصر، 1965م، ص: 78.
- (7) اقترنت البردة برؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام، وبإلقاء برده على الشاعر، وببرء الشاعر من مرض الفالج الذي ألم به، ونهوضه معافى بعد نظم القصيدة، وهذا كله أوحى إلى شعراء زمانه ومن جاء بعدهم برضى النبي صلى الله عليه وسلم على هذا النمط من الشعر، فتوافدوا عليه معارضين البوصيري في قصيدته، علّه ينال البوصيري من رضى النبي صلى الله عليه وسلم.
- (8) فوات الوفيات، ابن شاکر الكتبي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، 1951م، ج1، ص: 163.
- (9) المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1965م، ص: 35.
- (10) المرجع نفسه، ص: 26.

- (11) ينظر: الأدب العربي وتاريخه، محمود رزق سليم، ص: 69- 70.
- (12) البلاغة العربية، بكري شيخ أمين، ج: 3، ص: 12.
- (13) طراز الحلة وشفاء الغلة، شهاب الدين الرعيني، تحقيق: رجاء السيد الجوهري، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1990م، ص: 329.
- (14) ينظر: العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق، تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. 1، 2000م، ج: 2، ص: 877.
- (15) المدائح النبوية، زكي مبارك، ص: 25.
- (16) البديعيات، يسري عبد الغني عبد الله، ص: 146.
- (17) شرح الكافية البديعية، صفى الدين الحلبي، تحقيق: نسيب نشاوي، دار صادر، بيروت، ط. 2، 1992م، ص: 54-55.
- (18) المصدر نفسه، ص: 142.
- (19) البلاغة العربية في فنونها، محمد علي سلطاني، دار العصماء، دمشق، ط. 1، 2006م، ص: 14.
- (20) المدائح النبوية، محمد علي مكّي، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، ط. 1، 1991م، ص: 136.
- (21) فوات الوفيات، الكتبي، ج: 2، ص: 118.
- (22) البلاغة العربية، بكري شيخ أمين، ج: 3، ص: 18.
- (23) ينظر: البديعيات في الأدب العربي، نشأتها، تطورها، أثرها، علي أبو زيد، عالم الكتب، بيروت، ط. 1، 1983م، ص: 16، كما ينظر ما بين صص: 55- 69.
- (24) السيرا: البرود اللامعة التي يخالط نسيجها الذهب والفضة الخالصان، وهي المخططة، أو يخالطها حرير، قاموس المحيط مادة (السَّير).
- (25) طراز الحلة، الرعيني، ص: 50.
- (26) خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، شرح: عصام شعيثو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط. 1، 1987م، ج: 1، ص: 02.
- (27) البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، ص: 46.
- (28) البلاغة العربية، بكري شيخ أمين، ج: 3، ص: 12.
- (29) المدائح النبوية، محمود علي مكّي، ص: 137.
- (30) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، مصر، ج: 4، ص: 55.
- (31) كتاب البديع، عبد الله بن المعتز، تحقيق: اغناطيوس كراتشكوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط. 3، 1982م، ص: 1.
- (32) ينظر: المصدر نفسه، ص: 58.
- (33) العمدة، ابن رشيق، ج: 1، ص: 426.
- (34) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م، ص: 32.
- (35) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين أبو عبد الله القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط. 4، 1998م، ص: 317.

- (36) ينظر: البلاغة العربية في فنونها، محمد علي سلطاني، ص: 17.
- (37) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م، ص: 13-14.
- (38) البلاغة العربية، بكري شيخ أمين، ج: 3، ص: 25.
- (39) مناهج بلاغية، أحمد مطلوب، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973م، ص: 348.
- (40) ينظر: الإيضاح، القزويني، ص: 45.
- (41) ينظر: البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، ص: 227.
- (42) البلاغة العربية في فنونها، محمد علي سلطاني، ص: 9.
- (43) في تشكّل الخطاب النقدي، مقاربات منهجية معاصرة، عبد القادر الرباعي، منشورات الأهلية، الأردن، ط1، 1998م، ص: 47.
- (44) البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، ص: 49-50.
- (45) الأدب العربي وتاريخه، محمود رزق سليم، ص: 64.
- (46) البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1965م، ص: 366.
- (47) البلاغة العربية، بكري شيخ أمين، ج: 3، ص: 22.
- (48) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، للآمدي، تح. أحمد صقر، مكتبة دار المعارف، القاهرة، ط4، 1992م، ج1، ص: 260.
- (49) العمدة، ابن رشيق، ج1، ص: 212.
- (50) الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط4، 1999م، ج1، ص: 217.
- (51) البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، ص: 219.
- (52) الموشح، المرزباني، ص: 47.
- (53) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط1، القاهرة، 1371هـ - 1952م، ص: 129.
- (54) المدائح النبوية، محمود علي مكّي، ص: 139.
- (55) البديعيات، يسري عبد الغني عبد الله، ص: 137.
- (56) ينظر: البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، ص: 218.
- (57) في تشكّل الخطاب النقدي، عبد القادر الرباعي، ص: 43.
- (58) متن الألفية، ابن مالك، تعليق، عبد اللطيف الخطيب، مكتبة دار العروبة للنشر، الكويت، ط1، 2006م، ص: 26.
- (59) البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، ص: 105.
- (60) متن ابن عاشر، المسمّى بالمرشد المعين على الضروري من علوم الدين، للعلامة أبي محمد عبد الواحد بن عاشر، مكتبة القاهرة، ص: 05.
- (61) طراز الحلة وشفاء الغلة، شهاب الدين الرعيني، ص: 614.
- (62) البلاغة العربية، بكري شيخ أمين، ج: 3، ص: 614.
- (63) الرحبية في علم الفرائض، شرح سبط المارديني، دار القلم، دمشق، ط8، عام 1998م، ص: 47.

-
- (64) شرح الكافية، الحلّي، ص: 212.
- (65) مناهج بلاغية، أحمد مطلوب، ص: 348.
- (66) البلاغة العربية، بكري شيخ أمين، ج: 3، ص: 21.
- (67) شرح الكافية، الحلّي، ص: 219.
- (68) المصدر نفسه، ص: 219.
- (69) المصدر نفسه، ص: 201.
- (70) المصدر نفسه، ص: 226.
- (71) الصنيع البديع، في شرح الحلية ذات البديع، لمحمد بن قاسم بن زاكور، تحقيق: بشرى البداوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 2002م، ص: 222.
- (72) شرح الكافية، الحلّي، ص: 199.
- (73) الصنيع البديع، محمد بن زاكور، ص: 203.
- (74) الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، 2001م، ص: 63.
- (75) شرح الكافية، الحلّي، ص: 190.
- (76) المصدر نفسه، ص: 190.
- (77) ينظر: في تشكّل الخطاب النقدي، عبد القادر الرباعي، ص: 60.
- (78) الإيضاح، القزويني، ص: 215.
- (79) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصّية، جميل عبد المجيد، ص: 152.
- (80) شرح الكافية، الحلّي، ص: 128.
- (81) المصدر نفسه، ص: 128.
- (82) الصنيع البديع، محمد بن زاكور، ص: 141.
- (83) المصدر نفسه، ص: 141.
- (84) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصّية، جميل عبد المجيد، ص: 174.
- (85) البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص: 363.
- (86) البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، ص: 74.
- (87) مناهج بلاغية، أحمد مطلوب، ص: 348.
- (88) المدائح النبوية، محمود علي مكّي، ص: 138.
- (89) المرجع نفسه، ص: 140.
- (90) ينظر: الأدب العربي وتاريخه، محمود رزق سليم، ص: 78.
- (91) طراز الحلة، الرعيني، ص: 252.
- (92) البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصّية، جميل عبد المجيد، ص: 141.
- (93) طراز، الرعيني، ص: 258.
- (94) الموازنات الصوتية، محمد العمري، ص: 69.
- (95) طراز الحلة، الرعيني، ص: 218.
- (96) في تشكّل الخطاب النقدي، عبد القادر الرباعي، ص: 60.

-
- (97) المرجع نفسه ، ص: 61.
- (98) طراز الحلة ، الرعيني، ص: 142.
- (99) الموازنات الصوتية ، محمد العمري، ص: 62.
- (100) طراز الحلة ، الرعيني، ص: 617.
- (101) البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، ص: 313.
- (102) طراز الحلة ، الرعيني، ص: 214.
- (103) المصدر نفسه ، ص: 218.
- (104) البديعيات، يسري عبد الغني عبد الله، ص: 146.
- (105) ينظر: البلاغة العربية في فنونها ، محمد علي سلطاني، ص: 8.
- (106) في تشكّل الخطاب النقدي، عبد القادر الرباعي، ص: 23.
- (107) البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، ص: 310.

نظرة عن العيون والجواسيس في بلاد المغرب الإسلامي

من ق 3-5 هـ / 10-12 م

د/ حيمي عبد الحفيظ، جامعة ابن خلدون - تيارت

ملخص المقال:

تقدم هذه الدراسة لمحة عن تطور نظام الجوسسة في بلاد المغرب الإسلامي خلال عصر الفاطميين والمرابطين والموحدين، كما تحاول تسليط الضوء على خطة صاحب الخبر والمهام التي كانت تسند له والأساليب التي كان يقوم بها لجمع الأخبار وكيف كانت تصل تلك الأخبار إلى الولاة والأمراء، من خلال مجموعة من المصادر التاريخية، وأن لم تتضح معالم نظام الجوسسة لهذه المرحلة فإنني سأحاول أن أقدم لمحة عنها، فهل ستسمح المادة المصدرية لتوضيحها ؟

تمهيد:

تعتبر الجوسسة من الأساليب التي استخدمت منذ العصور القديمة، والتي تستهدف جمع المعلومات واستقاء أخبار الخصوم والأعداء على المستوى الخارجي، وتتبع أخبار الخارجين والمتمردين على المستوى الداخلي، فقد عرفها المسلمون منذ تأسيس الدولة الإسلامية واتضحت معالم هذه الخطة في العصر الأموي عندما توسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثر الأعداء وانتشرت الفتوحات شرقا وغربا، وعرفت هذه الخطة في المصادر تارة بمصطلح العيون، وتارة ب الجواسيس وأحيانا بصاحب الخبر، سأحاول أن اسلط الضوء على هذه الخطة من خلال بعض النصوص التي وردت في المصادر على قلتها لهذه الخطة منذ العصر الفاطمي مروراً بعصر المرابطين والموحدين.

1- صاحب الخبر عند الفاطميين في بلاد المغرب:

إن صاحب الخبر من الوظائف التي ورد ذكرها في كثير من النصوص التي تعود إلى العصر الفاطمي، ويفهم منها أن صاحب هذه الوظيفة كان مكلفا بنقل الأخبار إلى الإمام أو من ينوب عنه، وبخاصة تلك الأخبار التي تمس بالأمن العام ويخشى منها على مصالح الدولة.

وكان الفاطميون ببلاد المغرب يتخذون العيون وأصحاب الأخبار لجمع المعلومات عن المتابعين من قبل الجهات السياسية، من أجل معرفة كل التفاصيل والدقائق المتعلقة بهم ومعرفتهم في حلهم وترحالهم، وكان لهذه الخطة أهمية كبرى في تثبيت دعائم الدولة الفاطمية والحفاظ على حياة الأئمة الفاطميين، بالكشف عن المناوئين لهم والمخالفين لمذهبهم.

ولم يكتف حكام الدولة الفاطمية بالاعتماد على ديوان البريد في جمع الأخبار، وإنما اعتمدوا على أشخاص خارج البريد للقيام بالمهام الموكلة لهم، كما كان لخطة صاحب الخبر دور مهم في مراقبة قبائل البربر الثائرة عليهم والخارجة عن طاعتهم، وكان لعيون الفاطميين دور في نشر الدعوة الإسماعلية في الخارج كمصر والأندلس ومعرفة أخبارها رغبة في تحقيق توسعاتهم السياسية مستقبلا.

لقد ذكر الخشني، بأن الفقيه أحمد بن موسى التمار وأخوه دارت عليهما الدائرة بقوله: "دارت على أحمد بن موسى وعلى أخيه دائرة من مغرم فادح، ثم من بعد ذلك دارت عليه في أخيه محمد دائرة عظيمة، وذلك أن أخاه محمد بن موسى دخل في جماعة رجال القيروان على عبيد الله في سلام عيد، فاندفع: يصف سوء حال الرعية، وما نزل بهم: من ظلم العمال، فوقع ذلك من عبيد الله موقع الكراهية واتصل ذلك بمن أسماه- : من أهل القيروان - ففقدوا عليه شهادة عند صاحب الخبر ورفعها : على يد محمد البغدادي إلى عبيد الله، فأمر بضربه مائتي سوط، فضرب ضربا معنيا فمات رحمه الله" (1).

نقرأ من خلال هذا النص بأن صاحب الخبر على عهد الدولة الفاطمية لم تكن مهمته جمع الأخبار، وتبليغها إلى الإمام، وإنما التورط في العمل على توجيه التهم للمعارضين أو الذين يتهمون عمال الدولة بالظلم، والبحث عن شهود الزور قصد القضاء على كل من تسول له نفسه تجاوز ما يريده إمام الدولة وأن الأئمة لم يكن يعجبه ممن يصدق بالحق ويكشف جور وظلم العمال، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مدى التسلط والاستبداد الذي كانت تعانيه الرعية في بلاد المغرب على عهد الفاطميين، وكانوا يستخدمون القوة المفرطة في إسكات المعارضة، إضافة إلى ذلك نستنتج بأن خطة صاحب الخبر كان صاحبها على اتصال مباشر مع أئمة الفاطميين، أو مع رجال مخلصين للدولة لهم قرب منهم أمثال محمد البغدادي.

ولقد كان صاحب الخبر من الأشخاص المقربين من الخليفة وموضع ثقته لأهمية المنصب الذي يتطلب الصدق في ما ينقله من أخبار، فهي خطة تحتاج إلى قدر كبير من الأمانة والدقة ممن يتولاها، وعلى قدر كبير من العلم، فقد ذكر القاضي النعمان بن محمد الذي عمل في خدمة الإمامين المهدي والقائم إذ يقول: " وخدمت المهدي بالله (ص) من آخر عمره تسع سنين وشهورا وأياما والإمام القائم بأمر الله من بعده (ص) أيام حياته في إنهاء أخبار الحضرة إليهما في كل يوم طول تلك المدة إلى أقل الأيام " (2).

وتظهر أهمية صاحب الخبر على عهد الفاطميين، عندما استدعى المعز لدين الله يوسف بن زيري الصنهاجي ليعرض عليه إسناد ولاية المغرب إليه قبل رحيله إلى مصر وبعد إعلان زيري موافقته قال له: "بشريطه تولي القضاء والخراج لمن تراه وتختاره، والخبر لمن تثق به وتجعلني أنا قائما بين أيديهم، فمن استعصى عليهم أمروني به حتى أعمل فيه ما يجب، ويكون الأمر لهم وأنا خادم بين ذلك." (3).

ويبدو أن عيون وأصحاب الأخبار أيام الفاطميين كان لها انتشار واسع في الداخل والخارج، يخفون أنفسهم ويتجسسون على الناس، وبخاصة على ذوي الشأن من وجهاء القبائل والعلماء وعلية القوم، لأنهم هم في الغالب الذين يحركون العامة ضد العمال والأئمة، فقد ورد في سيرة جودر بأنه بلغه الخبر بأنه كان يوجد بالمسيلة رجل يدعى عثمان بن أمين، كان يكاذب بني أمية وأنهم يرعون ذمامه هناك ويقضون حوائجه، وأنه يقدح في الدولة، ولم يكن العامل جعفر بن علي أخذ على يده ولا حجزه عن أمر يوجب الإشارة إليه بذلك (4).

إن الأوضاع السياسية المعقدة التي شهدتها بلاد المغرب أيام الفاطميين دفعهم إلى توخي الصرامة في تنظيم سلطة الشرطة، حتى اضطر الخليفة الفاطمي الأول إلى إنشاء مصلحة خاصة بالبحث والتحري تعرف بديوان الكشف فقد ذكر صاحب البيان المغرب أنه: " وفي سنة 298هـ، تجول أبو عبد الله الشيعي في بلاد البربر وحارب صدينة وزناتة. وقتل الرجال، وأخذ الأموال وسبى الذرية وأحرق بعض المدن بالنار، وكتب

بافتوحات إلى عبيد الله، فقرأت كتبه على الناس، وفيها ولي أبو جعفر البغدادي ديوان الكشف، مشتركاً مع عمران بن أبي خالد بن أبي سلام⁽⁵⁾.

ورغم أن المصادر لا تذكر مهام ديوان الكشف لكن من الممكن أن يكون له علاقة بصاحب الخبر، فهي بمثابة مؤسسة تتلقى الأخبار من المخبين في جميع أصقاع الدولة خيرها وشرها، ويشرع في التحري عنها وإعلام الجهات المختصة وبالدرجة الأولى الإمام لاتخاذ الإجراءات اللازمة للمواجهة، إذا كان الأمر يتعلق بالفتن والثورات، أو المتابعة والاعتقال إذا كان الأمر يتعلق بأشخاص يحرضون ضد الدولة أو يقدحون في المذهب الإسماعيلي.

ومن المعتقد أن صاحب الخبر يحتاج إلى أعوان ومساعدين حتى يتمكن من أداء وظيفته على الوجه الأكمل، فليس من المعقول أن يتولى نقل الأخبار إلى الإمام أو الخليفة شخص واحد، فلا بد من وجود جهاز من أصحاب الأخبار المنتشرين في كل مكان داخل الدولة وخارجها، وأنهم كانوا يملكون وسائل اتصال سريعة لنقل الأخبار في حينها، فقد ذكر المقرئ في ذلك أيام الحاكم في مصر بقوله: "ويقال أن عقيل صاحب الخبر كان يحمل الرقاع بالخبر إلى القائد غبن ليوصلها إلى الحاكم وهي مختومة" (6).

إن خطة صاحب الخبر، من أهم الخطط التي أسهمت في ضبط الأمن من خلال نقل الأخبار في حينها، وما من شك بأن للمعلومات والأخبار دور بارز وأساسي في اتخاذ القرارات المناسبة، والتأهب بحشد كل الوسائل للتصدي للخطر سواء كان الأمر يتعلق بالتحديات الداخلية كالفتن والثورات التي تنتفض ضد الدولة أو تلك التحديات الخارجية التي تهدد أمن الدولة بشكل عام.

2- العيون والجواسيس عند المرابطين:

إن العيون والجواسيس، أو أصحاب الخبر، أو ما يصطلح عليه اليوم بالاستخبارات العسكرية، وسيلة قديمة استخدمت لغرض جمع المعلومات عن الأعداء، والتي بموجبها أو على أساسها يتم اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الخصم، وقد عرف هذا الأسلوب في المواجهات العسكرية، بحيث كانوا يرسلون العيون والجواسيس إلى الأمصار للاختلاط بأهلها والاطلاع على أحوالهم وما يجري بينهم، وكان لذلك أثر بارز في نجاح الفتوحات الإسلامية، على الرغم من صعوبة نقل المعلومات في حينها كما كان الحال في العصر الوسيط⁽⁷⁾.

لقد قام المرابطون بتطوير الجوسسة، ببث عيونهم في كل مكان وبخاصة أيام جهادهم في الأندلس، بحيث يذكر صاحب الاستقصا ذلك قائلاً: "ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح ثم تلاحق بقيّة الطلائع محققين لتحرك الأذفونش ثم جاءت الجواسيس من داخل محلّتهم تقول استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه ابن عباد مسعر هذه الحروب وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد وإنما قادهم ابن عباد ... " (8).

ويذكر عبد الواحد المراكشي قصة تفصح عن وجود الجوسسة عند المرابطين في الأندلس قائلاً: "كان له عينٌ بقرمونة يكتب له بأخبار البربر؛ بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذي جعله عيناً له بقرمونة كتاباً في بعض أمره..." (9).

وعندما أصبح تاشفين بن علي نائباً عن والده على الأندلس قبل أن يصبح ملكاً، قام بأعمال جليلة، بحيث قام بتعزيز التحصينات بالثغور، وانشأ شبكة من الجواسيس لمراقبة وتتبع أخبار الأعداء، ويشير إلى ذلك صاحب الحل الموشية قائلاً: "وأذكى العيون على العدو وآثر الجند ..."⁽¹⁰⁾.

ويوسف بن تاشفين عندما أحس بالخديعة من ألفونسو السادس بتحديد موعد لمعركة الزلاقة 14 رجب 479هـ (26 أكتوبر 1086 م)⁽¹¹⁾، عمل على جمع المعلومات المتعلقة بعدوه حتى لا يغامر بجيشه فيقول: "وجعل على عسكر العدو عيوناً على خيل سبق يأتونه بأخبارهم وما يرونه من حركاتهم فلم يزل كذلك إلى الفجر من يوم الجمعة"⁽¹²⁾.

وكان جيش المرابطين يستفيد من العناصر الفارة من جيش العدو إليه، بحيث يستفيد من الأخبار التي بحوزتهم، ويعتبرهم مصدراً للمعلومات المرتبطة بأعدائه، وقد حدث ذلك في غزوة إقليش عندما قام الجيش المرابطي بمحاصرة المدينة، والتحق من كان فيها من المسلمين المدجنين به، فقاموا بتقديم معلومات عن المدينة، وقد حاول النصاري مباغته المرابطين بتطويق مؤخرة الجيش، ولكن جندياً مسلماً كان في صفوفهم أخبر المرابطين بخطة العدو، فاستعدوا لذلك وأفضلوا خطتهم⁽¹³⁾.

إن العيون التي كان يرسلها قادة الحكم من المرابطين في الأندلس تتعلق بما يطلق عليه الاستخبارات العسكرية، والتي من مهامها جمع المعلومات عن الأعداء وتقديمها إلى القادة العسكريين الذين يقومون بتحليلها، وعلى أساسها يتم إعداد الخطط العسكرية والعمل على اتخاذ كل التدابير التي من شأنها أن تضمن الانتصارات في المعارك كما كان الحال في معركة الزلاقة.

وأحياناً كان المرابطون يستعينون بالعيون والجواسيس للقيام باغتيالات في صفوف أعدائهم، بحيث يورد النويري، بأن يوسف بن تاشفين أراد قتل سيد قبيلة كزولة محمد بن إبراهيم الكزولي المتحصن بجبل شامخ منيع مع قبيلته الكبيرة، فقام بإرسال جاسوس بزي حجام ومعه مشاريط مسمومة بغية قتله، ولكن أمره انكشف، وأعاد يوسف المرة الثانية، وبغث عميل بزي تاجر يبيع العسل، وكان العسل مسموماً، وانكشف أمره فكتب محمد ابن إبراهيم كتاباً إلى يوسف قائلاً "إنك أردت قتلي بكل سبب فلم يظفرك الله، وكشف لي عن سيرتك وقد أعطاك الله المغرب بأسره، ولم يعطني إلا هذا الجبل، وهو في بلادك كالشامة البيضاء في الثور الأسود، فلم تقنع بما أعطاك الله تعالى..."⁽¹⁴⁾.

وقد أورد صاحب كتاب سراج الملوك حادثة أيام المقتدر يبين من خلالها دور الجوسسة في تصفية الأعداء ببلد طرطوشة قائلاً: "فدعا المقتدر رجلاً من المسلمين لم يكن في الثغور أعرف منه في الحرب يسمى سعادة فقال له المقتدر: كيف ترى هذا اليوم؟ فقال سعادة: هذا يوم أسود، ولكن بقيت لي حيلة فذهب سعادة وكان زيه زي الروم وكلامه كلامهم لمجاورتهم وكثرة مخالطتهم، فانغمس في عسكر الكفار ثم قصد إلى الطاغية روميلف ألفاه شاكاً في السلاح مكفناً في الحديد، لا يظهر منه إلا عيناه فجعل يتحيله ويرتصد غرته إلى أن أمكنته الفرصة، فحمل عليه وطعنه في عينه فخر صريعاً لليدين والفم، ثم جعل ينادي بلسان الروم: قتل السلطان يا معشر الروم فشاع قتله في العسكر فتجادلوا وولوا منهزمين، وكان الفتح بإذن الله تعالى."⁽¹⁵⁾.

إن النص الذي أورده الطرطوشي حول نشر العيون في وسط جيش العدو إبان الحكم المرابطي في الأندلس، يبين ما مدى ما وصل إليه التطور في مجال الاستخبارات العسكرية ليس فقط من أجل جمع المعلومات عن العدو، ولكن استغلال ذوي الخبرة ومن يتقنون لغة العدو في هذا المجال، أو تجنيد بعض من هم في صفوف جيش العدو بهدف القيام باغتيالات لبعض القادة، ونشر ذلك وإشاعته من أجل كسب رهان الحرب النفسية.

ونظرا لما له من أهمية في بث العيون، ونشر الجواسيس من أجل معرفة الخصم وإعداد العدة بما يناسب حجمه وتحركاته وطبيعة الأسلحة المستخدمة، وتعداد الجيش والطريق الذي يسلكه والأماكن الإستراتيجية التي يستحوذ عليها يقول الطرطوشي: "اعلموا أن من أحزم مكائد الحرب إذكاء العيون واستطلاع الأخبار وإفشاء الغلبة، وإظهار السرور وإبانة الحذر والاحتراس من العدو" (16).

إن كثيرا من الانتصارات العسكرية التي كان يحققها المرابطون، تعود إلى استخدام الجوسسة في معسكرات أعدائهم بحيث جاء في الوثيقة الأولى من وثائق المرابطين عندما اسقطوا بعض القلاع في الثغر الأعلى الأندلسي ما يلي: "وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيرا، واقتنوه أسيرا، والله تعالى فيه خبأ أعدها من عنده وبعثها لجنده، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم منبئا بهم دالا عليهم، وكاشفا بهم عن النبأ العظيم ومطلعا منهم على المقعد المقيم، فعند ذلك ثارت ثائرتنا، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا" (17).

لقد تعرض حسين مؤنس إلى شرح لفظ "نزع" فقال: "أن النزاع في الاصطلاح الأندلسي هو الجندي الذي يندس في جيش الأعداء أو يدخل منهم متكررا في زبهم حتى يتعرف أخبارهم أو يثبط همهم ثم ينزع إلى قومه ساعة الحاجة إليه، أو بعد سقوط الحصن وكان في الأنظمة الحربية الأندلسية ديوان خاص لهؤلاء يعرف (بديوان النزاع)" (18).

إن النصوص التي توفرت لدي عن الجواسيس والعيون عند المرابطين كلها مرتبطة بالمرحلة الأندلسية، ولم أعثر على نص مرتبط بالفترة المغربية، ويحتمل أن مسألة الجوسسة كانت سمة معهودة في الغرب الإسلامي بشكل عام، ويحتمل استفادة المرابطين من الفنون والأساليب القتالية، واستخدام الجوسسة العسكرية لطبيعة الصراع العسكري الذي استفاد منه الأندلسيين منذ الفتح إلى أيام المرابطين.

3- الجواسيس والعيون عند الموحدين:

عرف الموحدون هم بدورهم الجوسسة، كما عرفها غيرهم من قبل سواء عند الفاطميين أو المرابطين أو حتى في صدر الإسلام، و لهذه الخطة دور بارز في جمع الأخبار عن العدو عن طريق بث العيون في صفوف الأعداء لمعرفة كل ما يتصل بالخصم من حيث الاستعداد المادي والمعنوي، بالإضافة إلى البحث عن نقاط القوة والضعف، هذا إذا كان الأمر يتعلق بأعداء الخارج، وللعيون دور كذلك في تتبع الخارجين عن الدولة أو المدعومين من جهات خارجية.

استطاع الموحدون أن يقوموا بإرساء نظام للجوسسة وبخاصة أثناء فتوحاتهم، لتمهيد الطريق أمامهم في إحراز الانتصارات على المناطق التي يسعون لفتحها، فقد ذكر ابن عذارى المراكشي بأن أبا يوسف المنصور عندما تحرك لغزو الجزائر ومليانة، وعندما اقترب الجيش منها أرسلوا كتبا لسائر البلاد المغلوب عليها يخبرونهم بالأمّن والأمان والصفح والإحسان (19).

ولم يكتف أبو يوسف المنصور في غزواته بإرسال المكاتبات إلى حكام المناطق التي يريد غزوها ، وإنما كان يدس جواسيسه ويبيت عيونهم في المناطق التي يسعى لفتحها فقد أورد ابن عذارى نصا يشير فيه إلى ذلك قائلا: " ولما دنت من البلاد دسوا بالكتب جواسيس دخلوا بها ليلا إلى البلاد واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن فلما وقفوا عليها ورأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب ، وأن العفو والرحمة لهم مفتحة الأبواب ، وثبوا على من كان عندهم من الأعداء ... " (20).

وكانت الجاسوسية عند الموحيدين تقوم بها مجموعة مختصة في الأمر ولها دراية بالمسالك ولها تجربة ودربة ، يصطحبون الجيش ، ويمهدون له الطريق قبل دخولهم أية منطقة أو قبل القيام بأية مواجهة ، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالحركات المناوئة للموحيدين ، فقد ذكر بأنه عندما ظهرت معارضة ببلاد الزاب قام المنصور بمخاطبة صاحب بجاية للتصدي لها وقبل وصوله إلى المنطقة قيل أنه: " ودس السيد أثناء ذلك عيوننا يتجسسون أخبار الأشل المذكور ومكان استقراره ومن استند من إجناد القبائل في جواره ، فتفرقوا في تلك الجهات وضرب لهم بالإياب إلى ميقات وبقي مع مجموع العرب يراودهم في التمكين من الأشل المذكور ، ويعدهم بالثواب على ذلك مع الأجر المذكور... " (21).

وكان العيون يقدمون تقريراً مفصلاً عن المباحث عنه ، بتعيين مكان تواجدهم ومن يقف إلى جانبه ، ومعرفة حتى لباسه ومأكله وشرابه وسلاحه وعدته وعتاده ، فمما ذكر عن صاحب الزاب الخارج عن طاعة الموحيدين: " وفي أثناء ذلك قفلت ثقات السيد الموجهون بخبر الأشل وتعيين مكانه وبصفته والوقوف على عيانه وكيف يختص أحد الرسل حتى يتوصل إليه وهو في مجلسه مع هيئته من لبس ثياب فاخرة معتم بعمامة خضراء وسيف محلى موضوع بين يديه وقد طاف به قوم من شيعته وهو يحدثهم بلسان حصري ، ولما استوفى السيد ما قص الرسل من أخباره وعلم موضع استقراره... " (22).

4- خطة الرقاص عند الموحيدين:

ويبدو أن أصحاب الأخبار لم تكن مهمتهم سوى جمع المعلومات ، وتسلم إلى هيئة أخرى تنقلها إلى الجهات المعنية سواء كان قائد الجيش ، أو إلى السلطان مباشرة ، فقد تعرضت المصادر التاريخية إلى ذكر خطة الرقاص⁽²³⁾ ، وجمعها رقاصون ، كانت مهمتهم نقل الأخبار وكانت لهذه الخطة أهمية كبيرة ومكانة راقية ، لارتباطها بمهمة كبيرة وهي نقل الأخبار والأوامر من السلطان إلى الولاة ، أو إلى جميع موظفي الموحيدين من طلبه وحفاظ ومشرفين ، وبذلك كان الرقاص يعتبر همزة وصل بين الحاكم ولاته على الأقاليم والعكس⁽²⁴⁾ ، فقد ذكر صاحب كتاب المن بالإمامة بتقديم جواب من قبل الأستاذ أبو العباس ابن سيد المالقي فقال: " ونهض الرقاص بالجواب وبهذا الشعر وطال أمد السفر في الورود والصدور ... " (25).

يبدو أن خطة الرقاصين ، كان ينتقى لها الأقوياء ، ويتلقون تدريباً على الركض والعدو ، وكان فيهم الرقاص العادي ، ورقاص الشرط ، وهذا الأخير هو المكلف بنقل الأخبار المهمة والمستعجلة مستخدماً الخيل والجياد بمنتهى السرعة وكان يجد في كل محطة على الطريق حصاناً مسرجاً يمتطيه⁽²⁶⁾.

ولقد حددت بعض وثائق الموحيدين واجبات ومهام الرقاصين تحديداً دقيقاً حتى لا يسيئوا استعمال نفوذهم وسلطتهم ، بحيث ورد في ظهير لعبد المؤمن الموحيدي مؤرخ في سنة 543 هـ بهذا الشأن: " وتخبروا

لرسائلكم ارسالا ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا وادفعوا إليهم زادا يقوم بهم في المجيء والانصراف ، ويقطع شأنهم في التكليف والإلحاق وارسموا لهم أياما معروفة العدد معلومة الأمد لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ويوزعوها على مسافات مراحلهم وحذورهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ... " (27).

ويمكن أن نستخلص من النصوص التي تناولت خطة الرقاصة ، بأن بعض من كان يتولاها ، وبخاصة على عهد عبد المؤمن ، استغلوا هذا المنصب لأهميته في الدولة في التعدي على الناس وتكليفهم أكثر مما يطيقونه عند مرورهم على شكل مجموعات وقوافل عبر المسالك ، أو دخولهم للمدن التي تقع على الطريق الذي يسلكونه ، فيكلفون الناس للحصول على الطعام بغير وجه حق ، فقد أشار إلى ذلك عبد المؤمن في رسالته التي وجهها إلى ولاته سنة 543هـ (1148م) والتي يرسم فيها سياسته في الدولة ومما ورد فيها ما يخص الرقاصين مايلي: "وإن ممن يسعى في نوع من أنواع الفساد ويستصحب الإضرار بالمسلمين في الإصدار والإيراد هؤلاء الرقاصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها..." (28).

ويلاحظ أن الرقاصين لم يتوقف أمرهم بتكليف الناس ما لا يطيقون والتعدي على أموالهم بحكم منصبهم ، بل تعدى ذلك إلى العبث بالمخازن ، وأخذ ما يرغبون فيه ، فقد اتضح ذلك من خلال الرسالة التي بعثها الخليفة يوسف إلى ولاته قائلا: "يفعلون في أموال الناس ما تقدم ذكره وشرح مكره وتمتد أيديهم إلى المخازن هنالك فيعيثون فيها ويتحكمون ويجرؤون في التعدي عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ..." (29).

ومن النصوص السابقة نستنتج أن فئة الرقاصين كانوا يمثلون هيئة تشرف على نقل الأخبار ويسيرونها في جماعات ، وكان لهم نفوذ سياسي كبير في وسط العامة وحتى عند بقية الموظفين في الدولة ، لأنهم كانوا يفرضون أنفسهم على الناس ، ويستحلون لأنفسهم الحصول على الطعام على حساب الرعية وهذا فيه إجحاف وتعد على حقوق الناس .

ونتيجة هذا الفساد الذي استشرى في أوساط الموظفين في الرقاصة قام الخليفة برسم قانون لمواجهة هذا الانحراف ووضع حد لهذه الظاهرة فقال: "فسارعوا وفقكم الله - إلى حسم هذه العلة من أصلها ، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ، وتخيروا لرسائلكم إرسالا وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا ، وادفعوا إليهم زادا يقوم بهم في المجيء والانصراف ، ويقطع شأنهم عن التكليف والإلحاق " (30).

وقام الخليفة بإصدار ظهير ينظم خطة الرقاصة بضبط توافقيتهم وأيام مجيئهم وانصرافهم ، وان توزع الأيام المحددة لهم في تأدية مهمتهم حسب المراحل والمسافات ، ويكون هذا بمثابة أمر بمهمة معلومة الأيام مضبوطة الزمان فقال: "وارسموا لهم أياما معروفة العدد معلومة الأمد ، لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم وحذورهم ممن تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة والله المستعان على دفع أسباب الجور ونستعيز به سبحانه من الخور " (31).

ومن النص السابق يمكن أن يستخلص تعليمات عبد المؤمن في علاج ظاهرة استغلال الرقاصين للرعية:

أولا : القضاء على العادات السيئة وذلك باختيار أهل الثقة ممن يشغلون هذه الوظيفة.

ثانيا : تزويدهم بما يلزمهم من الطعام حتى لا يتطفلوا على السكان في طعامهم.

ثالثا: تعيين فترة زمنية محددة في توصيل الرسائل حتى لا يجد أحد من الرقاصين فرصة في الإقامة عند أحد من الناس.

رابعا: تحذير وتخويف كل من يحاول مخالفة أوامر الخليفة.

خاتمة:

لقد أمدتنا المصادر التاريخية بنصوص وإشارات تفصح عن وجود خطة صاحب الخبر والعيون والجواسيس، وبخاصة في الحروب والمعارك، وعرفت هذه الخطة بشكل واضح منذ العصر الفاطمي وذلك لكثرة خصومهم في بلاد المغرب على المستوى الداخلي والخارجي، وعملهم بأسلوب الجوسسة للكشف عن مناوئهم في إطار الصراع المذهبي.

أما في العصر المرابطي فإن الجوسسة اقتضت من خلال الإشارات المصدرية اقتضت على التجسس على الأعداء وبخاصة عند دخولهم الأندلس، أما عن الموحيدين فإن نظام الجوسسة عرف تطورا أكثر بتزويدها بخطة أخرى عرفت بالرقاصة ولعلها هي صاحب البريد الذي كان ينقل ما جمع من الأخبار إلى الولاة والأمراء.

الهوامش:

- 1- الخشني: محمد بن حارث بن أسد القيرواني، قضاة قرطبة، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966، ص 301.
- 2- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، المصدر السابق، ص 79.
- 3- المقرئ: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد الشيال و محمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، د ت، ط 1، ج 1، ص 99.
- 4- الجوزري: أبو منصور العزيمي، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيري، دار الفكر العربي، لبنان، ومطبعة الاعتماد بمصر د ت، ص 123.
- 5- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، تحقيق ج س كولان ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت ط 3، د ت، ج 1، ص 162.
- 6- المقرئ، اتعاظ الحنفاء، المصدر السابق، ج 2، ص 102.
- 7- الهروي: علي بن أبي بكر، التذكرة الهروية في الحيل الحربية، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، د ت، ص 14.
- 8- المقرئ: أحمد بن محمد التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968 م، ج 4، ص 364. - السلاوي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، د ت، د ط، ج 2، ص 45.
- 9- المراكشي: عبد الواحد بن علي التميمي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحيدين، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط 1، 1426 هـ / 2006 م، ص 75.
- 10- لسان الدين بن الخطيب، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تصحيح البشير الفورتي، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، د ت، د ط، ص 63.
- 11- ابن أبي زرع: الفاسي أبو الحسن علي بن عبد الله، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس صور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972 م، ص 147.

- 12- نفسه، ص 147
- 13- حسين مؤنس، من وثائق المرابطين، الوثيقة الأولى الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد 1991م، ص 39.
- 14- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423هـ، ط1، ج 24، ص 272.
- 15- الطرطوشي: أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري المالكي، سراج الملوك، المطبوعات العربية، مصر، 1289هـ (1872م)، ص 181.
- 16- نفس المصدر، ص 181.
- 17- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 39.
- 18- نفس المرجع، على الهامش، ص 39، لكن لم يشير إلى المصدر الذي اعتمد عليه. ولم أعثر في المصادر ما يؤكد ذلك.
- 19- ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، قسم الموحدين، ص 178.
- 20- نفس المصدر السابق، 178.
- 21- نفس المصدر، ص 216.
- 22- نفس _____، ص 216.
- 23- ابن صاحب الصلاة عبد الملك، المن بالإمامة تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1987، ط3، ص 330— ابن القطان، المصدر السابق، ص 198.
- 24- حسن علي حسن، المرجع السابق، ص 151.
- 25- ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 77.
- 26- عبد الهادي التازي، تعليق على الرقاص في كتاب المن بالإمامة، ص 77.
- 27- ابن القطان، المصدر السابق، ص 77 — أحمد عزوي، رسائل موحدية مجموعة جديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقييطرة، 1416هـ / 1995م، ط1، ص 67.
- 28- ابن القطان، المصدر السابق، ص 198 — أحمد العزاوي، المرجع السابق، ص 68.
- 29 نفس المصدر ص 199. - نفسه، ص 68.
- 30- ابن القطان، المصدر السابق، ص 199 — أحمد العزاوي، المرجع السابق، ص 68.
- 31- نفسه، ص 199.

الحصار الفرنسي على الشرق الجزائري من خلال وثائق أرشيفية

(1242_ 1246هـ / 1827_ 1830م)

د/ دوالي خديجة، جامعة تيارت

تعد الوثيقة¹ الأرشيفية من المصادر الأساسية، ومن الأصول الضرورية في الدراسات التاريخية، تكونت من خلال الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية، مثل المراسلات السياسية المتمثلة في الرسائل² والتقارير³.

ومن بين هذه الوثائق، نذكر مجموعة الرسائل، المحصورة في إطارها الزمني ما بين 1230. 1246هـ الموافق لـ 1816. 1830م. أرسلت من طرف محمد جافر باي⁴ إلى عمر باشا⁵، ومن منماني⁶ وأحمد باي⁷ إلى حسين باشا⁸.

جمعت هذه الرسائل ضمن ملف الوثائق العثمانية تحت رقم تسلسلي: "1642" بالمكتبة الوطنية بالحامة، قسم المخطوطات. وعالجت مواضيع شتى منها ما كان سياسي واجتماعي، ومنها ما كان ثقافي واقتصادي. ودراستنا هذه لن نخوض في كلّ المجالات بل خصصناها لدراسة جزئية منها، تضمنت هذه الأخيرة "الحصار الفرنسي المضروب على السواحل الشرقية 1242. 1246هـ / 1827. 1830م".

وما هو مهم في هذا الموضوع هو تلك المعلومات التاريخية المتوفرة في هذه الوثائق، إذ تعتبر جديدة إذا ما قورنت بتلك المتوفرة في مجموعة المصادر والمراجع؛ فهذه التقارير رسمت لنا صورة واضحة المعالم حول السبل والوسائل التي واجهت بها السلطات الحاكمة على مستوى البايك الأزمة التي اصطفتها الحكومة الفرنسية.

لقد حاولت السلطات الفرنسية استغلال خسارة الجزائر لمعظم وحداتها العسكرية البحرية في موقعه ناشرين 1242هـ / 1827م لتنفيذ مشروعها الرامي باحتلال الجزائر، ولكن قبل تنفيذه كان لا بد لها من جس نبض المجتمع الدولي حول قضية الاحتلال هذه بفرضها للحصار البحري مدة ثلاث سنوات.

فبالإضافة إلى محاولة معرفة رأي الدول الإسلامية والأوروبية حول مبادرة فرنسا في احتلال الجزائر، كان للحصار المفروض على السواحل الجزائرية أهداف واضحة المعالم، سوف تمكن فرنسا من تهيئة الأوضاع لعملية الاحتلال.

كان هناك إجماع لدى معظم الباحثين أنّ ما وثر العلاقات الجزائرية الفرنسية هو ما اصطلاح عليه بـ "حادثة المروحة"، هذه الأخيرة نشبت ضمن لقاء خص به الداوي حسين القنصل الفرنسي بيار دوفال¹⁰ سنة 1242هـ / 1827م.

فقد اقتضت التقاليد الدبلوماسية المتعارف عليها في تلك الحقبة التاريخية أن يتقدم كل قناصل الدول الأوروبية بتهانيهم لداي الجزائر بمناسبة الأعياد الدينية، من بين هؤلاء القنصل الفرنسي دوفال، الذي تقدم إلى الداي حسين بتهانيه بمناسبة عيد الفطر المبارك الذي تزامن مع الخسارة العسكرية والمعنوية للجزائر والخلافة العثمانية في موقعة نافرين، هذا ما جعل الداي حسين منهارا، ممّا سمح للقنصل دوفال باستفزاز الداي خلال النقاش الذي دار بينهما.

ومن بين المواضيع التي أثير نقاشها أثناء المقابلة، قضية تسليح الباسطيون⁹، هذا الأخير كان من بين أهم الدوافع التي أزمت الوضع بين الجزائر وفرنسا¹¹، ذلك أنّ هذه الأخيرة ضربت بعرض الحائط بنود الاتفاقية التي تقضي بمنع تسليح الباسطيون تحت أي ظرف من الظروف، إلّا أنّ السلطات الفرنسية الوصية على هذه المؤسسة الممثلة في شخص ألكسندر دوفال⁽¹¹⁾ استغلت الأوضاع الحساسة التي كانت تمر بها الجزائر، لتقوم بتحسينه، فوضعت أربعة عشر مدفعا من حديد ومدفعين من نحاس ومنجقين، يقوم على حراستها وصيانتها أكثر من مائة جندي.

رد القنصل الفرنسي على الاتهامات الموجهة لحكومته معللا بأنّه ارتكبت عدة عمليات سطو وسرقة على مخازن الباسطيون، ممّا أجبر المسؤولين على اتخاذ إجراءات أمنية لدرعهم¹³. ثم أضاف بأنّ هذه الإجراءات عبارة عن إستراتيجية اعتمدها معظم ممثلي الدول من أجل إخافة وإبعاد اللصوص؛ لكنّ الباشا حسين لم يقتنع بهذا الطرح المزيف، لهذا أمر أحمد باي بالتحقيق في المسألة¹⁴.

تتفيذا لأوامر الباشا كلف أحمد باي "المركانتي"¹²، بتقصي الأحداث وتقديم تقرير مفصل حول القضية؛ فكانت نتائج البحث أنّه ما كان موجود في الباسطيون هي مدافع حقيقية، وقد تم بالفعل تسليح ما تعداد 100 رجل يقومون على حراسته؛ أمام هذا الوضع الخطير والحساس اتخذ الداي إجراءات صارمة ضد الموقع والقائمين عليه، فتم إغلاقه وطرد كل من كان موجودا فيه.

لهذا السبب، ولأسباب أخرى تطرقت لها جل المصادر والمراجع، نشبت بين الجزائر وفرنسا قطيعة في كلّ العلاقات والمعاملات وعلى كلّ الأصعدة، السياسية والدبلوماسية والاقتصادية؛ نتيجة لذلك قررت فرنسا فرض حصارا بحريا على كلّ السواحل الجزائرية بما فيها الشرقية، تأديبا للداي وحكومته على "حد زعمها".

أمام هذه المستجدات الخطيرة حرر أحمد باي عريضة بتاريخ 19 من ذي القعدة سنة 1242هـ/14 جوان 1827م يخاطب من خلالها كبار الشخصيات، والقائمين على الجهاز العسكري، بضرورة التحلي باليقظة، وتوعية الرعية بحساسية الوضع الذي تعيشه الجزائر عامة وبايلك الشرق على وجه الخصوص.

إذ يستنتج من نص هذه والعريضة أنّ السلطات الجزائرية كانت تتحسس وقوع أحداث وردود فعل عدوانية من طرف السلطات الفرنسية، فقد تأكد لدى الداي حسين فكرة، أنّ فرنسا لن تقف عند هذا الحد بل سوف تحاول إعلان الحرب ضد الجزائر آجلا أم عاجلا.

وبالرغم من العدوان الفرنسي على سيادة الجزائر، إلا أنّ السلطات على مستوى بايلك الشرق والممثلة في شخص أحمد باي كانت واعية بالتزاماتها الدبلوماسية والإدارية. فقد أكد الباي أحمد على ضرورة التحلي بالمسؤولية وعدم التعرض للجالية الفرنسية المقيمة على أراضي البايك.

هذا ما تشبه المعلومات التاريخية الذي تضمنتها إحدى الرسائل الموجودة في الملف العثماني، إذ ورد فيها ما نصه: "...إلا تعتدوا على النصارى الفرنسيين....."، كما خصهم ".....بأمان الله لا ينالهم مكروه وإن أرادوا الانتقال إلى بلادهم برضاهم وطواعيتهم فلا يمنعه عن ذلك أحد ولا يتعدى عليهم، ويرفعون مالهم وأمتعتهم عن آخرها بحيث لا يضيع لهم شيء أصلا....."¹⁵.

فمن خلال هذا النص التاريخي تأكدت أمامنا معطيات مهمة قد أنكرتها الكتابات الفرنسية وحتى الجزائرية، من بينها:

- خيرت السلطات الجزائرية الرعايا الفرنسيين بين البقاء أو الرحيل.
- في حالة بقائهم تضمن لهم السلطات حسن المعاملة، كما ضمنت لهم أرواحهم وأموالهم.
- أمّا في حالة اختيارهم للرحيل فإنّ السلطة الحاكمة تضمن لهم سلامة أرواحهم، كما أصدرت أوامر صارمة بعدم التعرض إلى ممتلكاتهم.

وبتاريخ 29 ذي القعدة من سنة 1242هـ/جوان 1827م، أرسل أحمد باي تقريراً إلى الداي حسين، يعلمه من خلاله وصول سفينتين فرنسيتين "سكونة وكريبط" إلى مرسى عنابة، كانت مهمتها حمل كلّ الرعايا الفرنسيين المتواجدين على مستوى المدينة؛¹⁷ وهذه المعلومات وردت إلى الباي أحمد بناءً على تقرير رفعه إليه كلّ من "المركانتي" وعلماء المدينة.

وأكد في التقرير نفسه أنّه تم إصلاح العاقل من الآلات الحربية، وتشديد الحراسة على مداخل مدينة عنابة ومخارجها ترقباً لردود فعل عدوانية من طرف فرنسا، كما حاول طمأنة الباشا حسين حول الأوضاع الأمنية في المنطقة، التي قال عنها بأنّها جد مستقرة¹⁸.

كما تكلم في التقرير على مبادرة سلام سعى إليها أحد الأوروبيين، هذا الأخير نعتّه الباي بـ "الرومي"، فذكر بهذا الصدد: "...إن وقع الصلح على وجه الرضا والطوع فيأخذ خط الرومي ويبعثه لنا نوجهه اليكم وإن امتنع الرومي من ذلك فيأتينا الرجل مربوطاً حتى نبلغه لحضرتك السعيدة..."¹⁹.

أمّا بتاريخ 26 من ذي الحجة سنة 1243هـ/1827م، أرسل أحمد باي أوامر إلى "المركانتي" مفادها إطلاق المدافع على كلّ سفينة فرنسية تظهر على السواحل الشرقية بدليل هذا النص التاريخي المستتبّط من أحد الرسائل فجاء فيه ما يلي: "...إذا ابصرتكم شقف قرصان قاصدا عنابة فاعملوا له الفمادة من بعيد فإدا لم يرجع الى ورائه وبلغ حد الرمية فارموه بالمدفع بالكور واغرقوه واهلكوهم..."²⁰.

من خلال ما ورد في هذا النص التاريخي نستنتج ما يلي:

- لا يتم إطلاق المدافع إلا على السفن الحربية التي خصها بالذكر.
- لا يكون ذلك إلا على بعد مرحلتين من مكان توقفها.
- كما لا يتم ذلك إلا بعد خطوات، فأما الأولى فيشيرون إليهم بـ "الفمادة"، ثم الثانية التي تتضمن إطلاق المدافع من غير "كور"، فالخطوة الأخيرة وهو رميها بـ "الكور".

وما يمكن ملاحظته على هذه الوثائق التي تناولت الحصار الفرنسي على السواحل الشرقية أنها انفردت ببعض المعطيات التاريخية التي غفلت عنها جل المصادر والمراجع التاريخية الفرنسية منها والجزائرية، وبالتالي فقد رسمت لنا الخطوط العريضة لمواجهة إحدى المناطق الجزائرية لهذه الأزمة والتدابير المتخذة من أجل السيطرة على الأوضاع.

وما يمكننا استخلاصه أن ما تم مناقشته أثناء اللقاء الذي ضم الداي حسين بالقنصل الفرنسي ببار دوفال، وما ترتب عنه من طرد الداي للقنصل الفرنسي لم تكن بالعوامل المباشرة للاحتلال، وإنما كانت سببا في فرض الحصار، والمفارقة التاريخية بين الأمرين واضحة تماما، وهذه هي المغالطة التاريخية التي وقعت أو أوقعت جل الباحثين والدارسين لتاريخ الجزائر الحديث والمعاصر في وصف حادثة المروحة بالسبب المباشر للاحتلال الفرنسي للجزائر. كما أن جل الدراسات ركزت على موضوع الديون وأغفلت دور الباسطيون في تفعيل مجريات الأزمة بين الطرفين.

الهوامش:

1- الوثيقة: في اللغة العربية "يشكل الجدر الثلاثي (و ث ق) مشتركا لفظيا لمعان عدة، ولكن الأبنية الصرفية الخاصة بمعنى الوثائق تشتق من الفعل (وثق) ماضيا، (يوثق) حاضرا، ومصدرهما (الثوثيق) الذي يعني تسجيل المعلومات وتحريرها حسب طرق علمية متفق عليها. ولعل اللفظة السائدة في اللغات الأجنبية، الانجليزية بخاصة، المقابلة لمعنى الوثيقة هي "Document". ينظر: حنش ادهام محمد، الخط العربي في الوثائق العثمانية، دار المنهاج، ط:1، 1418هـ/1998م، ص: 131، 132.

2- لقد احتلت الرسائل في كل عصر حيزا كبيرا من الاهتمام. ومن العادة أن تقسم الرسائل إلى ديوانية واخوانية، والمجموعة قيد الدراسة تصنف ضمن الرسائل الديوانية، هذه الأخيرة اختصت بمصالح الأمة وقوام الرعاية"، وهي بصورة عامة "تختص بتصريف شؤون الدولة. ينظر: طاهر محمد كريم، من أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1993م، ص: 165.

3- التقارير: مفردة تقرير. وهو عرض للحقائق الخاصة بموضوع معين، أو مشكلة معينة، عرضا تحليليا بطريقة سلسلة مبسطة. ينظر: إعلالوي نزيه و إشتية حفطي، أساسيات في اللغة العربية قواعد وتطبيق، عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع، ط:1، 1420هـ/1999م، ص: 105، 106. ويمثل التقرير خاصية من خصوصيات الوثائق العثمانية، يحرره الحاكم

بصورة مفصلة حول موضوع من الموضوعات ليقدمه إلى الحاكم الأعلى. ينظر: حنش ادهام، المرجع السابق، ص: 142. وكل هذه المفاهيم قد اشتملت عليها الرسائل التي هي قيد الدراسة.

4- **جاقر باي** (1229. 1232 هـ/ 1814. 1818 م): هكذا ورد اسمه في الرسالة. وهو معروف لدى معظم المؤرخين بـ شاكر محمد. أصله من أزمير. دام حكمه أكثر من أربع سنوات. ينظر: بن العنتري محمد صالح، فريدة منيصة في حال دخول الأتراك واستيلائهم على أوطانهم (تاريخ قسنطينة)، مروتق وتغ: بوعزيز يحي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1991 م، ص: 81، 82. ومن سلبيات حكمه أنه لم يسيطر على الجيش الانكشاري الذي خرج على طاعته، وعندما زادت الشكاوى من الرعية أمره الداي بقتل بعض قادة الجيش، لكّنه رفض، فكان ذلك سببا في عزله. ينظر: مجهول، تاريخ بايات قسنطينة المرحلة الأخيرة، تح: حساني مختار، الجزائر: منشورات دحلب، د ط، د س ط، ص: 39.

5- **عمر باشا** (1230. 1232 هـ/ 1815. 1817 م): كان على رأس الجيش لمدة طويلة. رفض منصب الحكم مرتين، ولكّنه في المرة الثالثة لم يستطع الاعتذار. ولد في ماتلان من عائلة يونانية. قدم إلى الجزائر عن عمر يناهز 33 سنة. ترقى في سلم المراتب العسكرية بسرعة. أهم حدث تاريخي وقع على عهده، الهجوم الانجليزي على مدينة الجزائر سنة 1232 هـ/ 1817 م، قتل خنقا في السنة نفسها. ينظر:

Pierre Boyer, Alger à la vielle de l intervention française, Monaco : imprimerie national s, A, 1^{er} trimestre, 1964, PP : 94, 95

6- **محمد منماني** (1240. 1241 هـ/ 1824. 1826 م): تركي قديم في قسنطينة. تولى أمر البابليك وهو عجوز هرم، وكان قبل هذا قد شغل بعض المناصب من بينها: قائد جلب الغنم، قائد الشعير، ثم بعدها خليفة. لا يحسن العربية ولا يتحدثها إلا بصعوبة بالرغم من أنه عاش في قسنطينة سنوات طويلة. بعد أدائه للدنوش وقع عليه غضب وسخط من الداي، فعزله عن منصبه، ووضعه تحت الإقامة الجبرية. ينظر: بن العنتري صالح، المصدر السابق، ص: 29.

7- **حسين باشا** (1233. 1246 هـ/ 1818. 1830 م): هو حسين خوجة بن علي، ولد ببورلة من بلاد آسيا الصغرى سنة 1178 هـ/ 1761 م، وقيل سنة 1181 هـ/ 1764 م. ينتسب إلى عائلة تركية. اكتسب مهارة حربية من والده في صنف الطبقجية (المدفعية)، ممّا سهل عليه مهمة الالتحاق بإحدى المدارس الحربية باسطنبول. تقلد عدة مناصب آخرها منصب الداي واستمر فيه إلى أن سقطت الجزائر على يد الاحتلال الفرنسي سنة 1246 هـ/ 1830 م.

8- **أحمد باي** (1242. 1246 هـ/ 1826. 1830 م): هو الحاج أحمد بن محمد بن الشريف، ولد في منزل الأسرة الذي يدعى دار أم نون بقسنطينة. وقد تضاربت الروايات التاريخية حول تاريخ مولده. كـرغلي الأصل. اشتعل منصب خليفة بابليك الشرق إلى أن ترقى إلى منصب الباي. عرف بحزمه وصرامته، وجهاده ضد الاحتلال الفرنسي رغم كلّ الإغراءات التي قدمها له هذا الأخير. توفّي في مدينة الجزائر سنة 1266 هـ/ 1860 م، ودفن في مقبرة ضريح عبد الرحمان الثعالبي.

9- **الباستيون**: كلمة تركية تستعمل للدلالة على المكان الذي بنى فيه الفرنسيون بعض المساكن لإيواء صيادي المرجان، كما ضم مخازن لحفظ هذه البضاعة. ينظر: قتان جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1997 م، ص: 91. أمّا حسين باشا فوصفه بأنّه مبنى صغير يمكن أن يقيم فيه ثلاثة إلى خمسة أشخاص. ينظر:

Kuran Erment, La lettre du dernier dey d Alger au grand vizir de l empire Ottomane, Revue africaine, N : 96, 1952, Pm 191.

العثمانية، رقم: 1642، الجزائر: المكتبة الوطنية، قسم المخطوطات.

11- **بيار دوفال**: ابن مترجم فرنسي. كان يتكلم اللغة العربية والتركية بفصاحة. كتب عنه القائد كران في تقريره الذي سلمه للشرطة الفرنسية بمرسيليا سنة 1239هـ / 1825م، أنه كان غير مرغوب فيه بين الأوساط الأوروبية، لأنه كان يتعامل كثيرا مع الأتراك. وصف بذلك الشخص المشبوه فيه. ينظر: أجيرورويبير شارل، تاريخ الجزائر المعاصر، بيروت: منشورات عويدات، ط: 1، 1982، ص: 14.

12- **ألكسندر دوفال**: هو ابن أخ بيار دوفال. استلم مهامه في الجزائر سنة 1239هـ / 1825م. وصف بذلك الرجل الطموح وعنصري، فقد تابع سياسة عمه بعدما توفي هذا الأخير بوباء الكوليرا سنة 1243هـ / 1827م. عاد إلى الجزائر مع الحملة الفرنسية سنة 1246هـ / 1830م.

13- **المركانتي**: مصطلح تركي يطلق على من يكلفه الباي بالتحصيل الجمركي في ميناء عنابة، كما يعتبر ممثلا للتجارة الجزائرية في هذه المدينة. ينظر: ملف الوثائق العثمانية، المصدر السابق.

14- المصدر نفسه.

15- المصدر نفسه

16- المصدر نفسه

17- المصدر نفسه

18- المصدر نفسه

19- المصدر نفسه

20- المصدر نفسه

إنفاضة سكان الظهرة 1845-1847

د/حباش فاطمة، جامعة تيارت

الملخص:

منذ نزول الاحتلال الفرنسي على الجزائر بعد الحملة العسكرية سنة 1830 ظهر رد فعل قوي ورفض للتواجد الأجنبي أشرفت عليه زعامات سياسية ودينية تولت مهمة تجنيد وتنظيم وتوحيد القبائل الجزائرية بمختلف المناطق تحت راية الجهاد المقدس. ومن المناطق التي شهدت على المقاومة العسكرية نجد منطقة الظهرة التي كانت أراضيها مسرحا لبطولات نضالية نفذتها قبائل المنطقة كأولاد رياح وأولاد سيدي يونس، تنوعت بين المواجهات المباشرة في معارك وبين هجومات خاطفة ضمن حرب العصابات ضد الفرنسيين وعملائهم من الجزائريين.

قامت قبائل الظهرة بدورها النضالي إلى جانب الأمير عبد القادر ثم مع الشريف بومعزة الذي ظهر في المنطقة عند أول سيدي يونس سنة 1844 وشرع في دعوة الناس للجهاد مستندا على العامل الديني، فهو من أتباع الطريقة الصوفية الطيبية التي اشتهرت بدورها السياسي ومساندتها لكل المقاومات. عموما حاولت الاهتمام بالبحث في تاريخ منطقة الظهرة خلال القرن 19 ومعالجة إشكالية تاريخية تتمحور حول الدور الذي قامت به قبائل الظهرة في مقاومة الشريف بومعزة لتؤكد على موقفها من الاستعمار الفرنسي وعدم الاستسلام والخضوع له بعد تراجع مقاومة الأمير عبد القادر.

الكلمات المفتاحية:

المقاومة / الظهرة / الطرق الصوفية / الاستعمار / حرب العصابات / الاستيطان / القبائل / الشريف / أولاد رياح / الطيبية / التعصب.

Since the revelation of the French occupation of Algeria after the military in 1830 a strong reaction appeared dismissive of foreign presence supervised by the political and religious leaders took over the task of recruiting and organizing and unifying the Algerian tribes in various areas under the banner of the holy jihad. Notable areas of military resistance, we find Dahra area with the scene of territory championships struggle carried out by tribes of the region varied between direct confrontations in the battles between the attacks and lightning with in the guerrilla war against the French and their agents of Algerians.

The tribes Dahra turn to struggle along with the Emir Abd-el-Kader then Bou Maaza who appeared in the region when the Ouled Younis in 1844 and proceeded to call people for jihad based on the religious factor, he is a follower of soufi Tayyibia and famous political role of supporting all resisters.

Generally tried to pay heed to piggyback on the history of the area during the 19th century and address the historical problematic centered on the role played by the tribes in Dahra resistance to cherif Bou maaza to confirm the of French colonialism and not to surrender and submit to him after the decline of the Emir Abd-el-Kader.

Keywords:

تمهيد:

استقرت فرنسا بعد حملتها على مدينة الجزائر والمدن الساحلية الأخرى¹ على فكرة الإحتلال الإستيطاني مما استوجب توجيه حملات توسعية إلى باقي البلاد وهنا اصطدمت بالقبائل والأعراش الجزائرية التي أبدت موقفا مناهضا للإحتلال ترجم في الجهة الغربية في مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847)، الذي حاول توحيد القبائل تحت لوائه بإسم الجهاد وحرية الوطن لمجابهة الخطر الأجنبي بدء من الجهة الغربية وصولا إلى الجنوب الشرقي²، وبالفعل أصبحت هذه المقاومة تشكل خطرا على الفرنسيين وعلى مشروعاتهم الإستعمارية بحيث وصلوا إلى قناعة أن العامل العسكري من خلال نشاط الجيش ودخوله في مواجهات ومعارك فاصلة غير كافية خاصة بعد الانهزامات التي مونوا بها على يد الأمير وخلفائه بل الأمر يستوجب تبني سياسة تمكنهم قبل القضاء عليه كقائد معركة القضاء على قواعد الخلفية التي يستند عليها ألا وهي القبائل، بتسليط وتوجيه حملات تأديبية لإخضاعها وإلزامها على الإستسلام بالقوة والعنف بتخريب محاصيلها ومصادرة املاكها وتشريد سكانها³، وفعلًا تم إخضاع القبائل في أغلب المناطق ما بين 1842 و1843 واجبارها على دفع ضرائب حربية. إذن هذه السياسة أثبتت نتائجها وتأثيرها على الأمير الذي أصبح مطاردا في الصحراء بعد فقدان عاصمته تاقدامت سنة 1841، واتخذت مقاومته طابع الغارات الخفيفة والحرب الخاطفة في إطار حرب العصابات دون أن تتوقف المقاومة نهائيا⁴ بل أخذت طابعا جديدا على شكل ثورات وإنتفاضات شعبية ضد العدو بقيادة شخصيات مجهولة النسب تركز على فكرة المهادوية والأشراف وعلى الزاوية في تحقيق مبتغاها ضد العدو⁵، وفعلًا كانت هذه الإنتفاضات إنبعثت أمل لدى السكان الذين لا يزالون متمسكون بالروح النضال رغم خضوعهم لفرنسا التي اقتصرت بأنها قضت على المقاومة، بمفهوم آخر أن القبائل كانت تتربع الفرض للعصيان ومواصلة النضال والتخلص من الإستعمار .

ولعل أهمية البحث في موضوع المقاومة ضد الاستعمار واستمرارها بأشكال مختلفة خلال القرن 19 بمختلف المناطق يدفعنا إلى التفكير في معالجة علمية عميقة وذلك بالتطرق إلى إشكالية تسمح لنا بالتعمق والبحث في التاريخ المحلي للمناطق وإبراز دور قبائلها في الجهاد والنضال بعدما كان الاهتمام في الدراسات السابقة البحث في مجال المقاومة بصفة عامة ضد الاستعمار أين يتم التركيز على منطقة على حساب أخرى.

ومن ضمن المناطق التي شهدت هذا التحرك الديني الذي أعاد لها الأمل في وقت مبكر أثناء مرحلة تراجع مقاومة الأمير نجد "منطقة الظهرة" وهي منطقة ذات مساحة معتبرة وموقع استراتيجي متميزة بتضاريسها الوعرة والجبلية ترتفع عن سطح البحر أكثر من 500 م، تقع في أقصى الحدود الشرقية الشمالية لمقاطعة وهران بين ساحل البحر المتوسط وحوض الشلف وتشمل كل الأراضي الواقعة بين تنس ومصب نهر الشلف⁶، ومن أشهر جبالها جبل الشيخ 533م، وجبل تزقايت 547 م، وجبل سيدي عامر 657م، وجبل سيدي سليمان ب 683م، كما شملت سلسلة من الأودية كواد شلف وواد الخميس اللذان يصبان في البحر المتوسط فالأول ينبع من الونشريس والثاني ينبع من منطقة الخميس، إضافة إلى واد وليس، ووادي سيدي موسى، وواد كهلال، وواد العبيد، وواد سداوة، وواد الرمان⁷.

احتضنت الظهرة انتفاضة عرفت عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية⁸ بزعامة الشريف بومعزة الذي لاتزال المعلومات حول أصوله وشخصيته مبهمة وغامضة ، غير أن المتفق عليه خاصة عند الكتابات الفرنسية أصوله تعود إلى المغرب الأقصى منهم هنري دونوفو De Neuvo الذي ذكر في كتابه الإخوان في إطار إستطاق⁹ خص به أخ بومعزة بعد إلقاء القبض عليه بنواحي بني مناصر من بني زوق زوق _ حيث ذكر أنه أخو بومعزة واسمه الحقيقي محمد بن عبد الله من تارودنت بالمغرب الأقصى¹⁰ واتفق معه هنري قاروو Henri Garrot¹¹ ، وهو من أتباع الطريقة الطيبية المنتشرة بنواحي وزان إسمه الكامل حسب ما ورد عند يحي بوعزيز محمد بن عبد الله بن وداح ذو هيبة وشخصية قوية لا يعرف الخوف اشتهر بذكائه وفطنته الحادة¹² ، حل بالجزائر في منتصف ثلاثينات القرن 19 دون تأكيد لسنة معينة نزل فيها لأنه ورد كذلك حول هذا الأمر اختلاف فأبو القاسم سعد الله يشير إلى 1838 سنة نزوله¹³ ، أما عبد الرحمان الجيلالي ينقصها بثلاث سنوات في 1835¹⁴ ، ورغم هذا الاختلاف حول تواجده بالجزائر فإنه يمكن القول تواجد بومعزة تزامن مع مرحلة القوة لمقاومة الأمير حيث استقر بنواحي شلف وتظاهر مع أولاد يونس محاولا إيجاد لنفسه عبر رابطة المصاهرة والدم انتماء بالمنطقة وفعلا تحقق طموحه حيث كانت قبيلة أولاد يونس بنفوذها ومكانتها أول المساندين له في الانتفاضة¹⁵ .

قضى بومعزة هذه الفترة وإلى غاية 1845 في التعبد والتدين والورع محاولا جلب الأنظار إليه من منطلق فكرة المهدي المنتظر ومولاي الساعة والصوفية الدينية ، وفعلا أعتبر شريفا في نظر الجميع وانتشرت شهرته الدينية لتشمل كل مناطق حوض الشلف والونشريس والظهرة وأصبح معروفا بلقب بومعزة نسبة إلى العزة التي كانت ترافقه¹⁶ ، حاول إثارة وتحفيز الناس لحمل السلاح خاصة وأن الضمير النضالي كما ذكرنا سابقا والرغبة في المواصله لازال قائما رغم إجراءات بيجو¹⁷ الإضطهادية ، بحيث أنها لم تقص الرغبة في إستمرارية المقاومة بطابع الإنتفاضة¹⁸ ، وهذا ما أدركه بومعزة وحاول استغلاله بتتبع أحوال القبائل ومعاناتهم وبناء العلاقات مع الأعيان والشيوخ في الظهرة¹⁹ .

ولابد من الإشارة إلى أن زعيم أولاد يونس الحاج حامد اليونسي قام بدور مهم في مرحلة التحضير ، فبمجرد نزول محمد بن عبد الله عنده والافصح عن رغبته في الجهاد ضد أعداء الدين الفرنسيين ودعوته للتعاون ، بادر هذا الأخير بالقبول دون تردد وشرع في مد العون بدء بتقديم له لباسا جديدا يليق بمقامه كرجل دين وورع يحمل صفة الشريف ومولاي الساعة ثم أقام على شرفه ضيفة كبيرة دعى فيها كل أعيان وزعماء قبائل منطقة الظهرة ليتعرفوا على الشريف بومعزة ، الذي بدوره استغل هذا التجمع وتحدث عن مشروعه النضالي.

إذن بعدما تأكد بومعزة من انتشار سمعته بين القبائل قرر إعلان الجهاد ابتداء من سنة 1845²⁰ مستندا على أسباب وعوامل ترتبط مباشرة بالسياسة المدنية والعسكرية لبيجو والمعروفة بسياسة السيف والمحراث للقضاء على المقاومة الوطنية :

1 ♦ الحملات العسكرية تجاة المناطق الداخلية لإخضاع الأعراس بإعتبارها السند المادي للمقاومة ابتداء من 1841 وما صاحبها من همجية من سفك للدماء إلى إبادة جماعية للسكان دون تمييز بحرق محاصيلهم ومصادرة أملاكهم ونفذ هذه الجرائم بيجو وقادته العسكريين منها حملته على منطقة الشلف حيث ترتب عنها ظلم وتعسف في حق السكان أين تعرضوا للتقتيل الجماعي والتشريد وكذا العقوبات الجماعية من مصادرة للأراضي والمواشي²¹ .

2 ♦ الترتيب العسكري الذي تبناه بيجو مع 1843 والقاضي بإنشاء مراكز عسكرية كخطوط دفاع لإحكام السيطرة، وعليه فممنطقة الظهرة لم تسلم من هذا الإجراء حيث جاء قرار إنشاء أرينفيل في أفريل 1843 كمركز عسكري يتوسط المدن الثلاثة وهران، مستغانم الجزائر في مكان ملتقى نهر الشلف بواد تسير هارت، يسمح بتموين القوات وريح الوقت أثناء تنقلها²²، وأوكل هذا المركز إلى سانت أرنو²³ الذي حاول منذ توليه إدارة المركز تطبيق مشروع بيجو الإستيطاني وفي هذا الصدد يقول أرنو (... حان وقت الأمور الجادة : الحصول على الوسائل والإمكانيات لتهيئة مرفأ تنس وشق الطريق المؤدية إليها وإستكمال أشغال الري ومضاعفة مساحة الحقول وإنشاء القرى الزراعية الثلاثة التي طلب المارشال إقامتها، تحسين المواصلات بتوسيع الطريق إلى مدينة مليانة وإقامة مراكز إتصال وبريد عسكري ...)²⁴

وفعلا ساهم إنشاء المركز قيام المشاريع الإستيطانية الأولى فقد هيا أرنو 50 هكتارا لزراع الحبوب ومد قنوات المياه وحفر الآبار وفتح طريق أرينفيل تنس، والملاحظ من هذا النشاط الإستيطاني قد تطلب مساحات واسعة من الأراضي تم الإستيلاء بفعل إجراءات المصادرة في حق القبائل مما ولد حالة من الحقد والإنتقام²⁵.

3 ♦ سياسة بيجو المدنية القاضية بإحداث نظام المكاتب العربية²⁶ سنة 1844 كنموذج للإدارة الأهلية، فبيجو في سياسته تجاه الأهالي ركز بشكل تراتبي على 3 نقاط أولا السيطرة العسكرية بعدها حكم العرب²⁷ أين أقر هنا على مبدأ حكم العرب بالعرب²⁸ من خلال الإستعانة بالزعامات الأهلية وتدجينها وجعلها تحت خدمة السلطة الإستعمارية تحمل ألقابا خلفاء، قياد، أغوات، تحت إمرة المكتب العربي مهمتها التجسس ومراقبة تحركات القبائل وضمان الأمن والسلام²⁹.

غير أن سوء هذه الإدارة بسبب تعسف وغلطسة عناصرها فرنسيين وأجزائريين وتجاوزاتهم في الضرائب ولد الحقد والرغبة في الإنتقام وخير نموذج ضابط مكتب العربي لأرنفيل ريشارد الذي كان يتقن اللغة العربية مما سمح له التعرف أكثر على العادات والطبائع حيث وصفهم بأقبح الصفات منها الرجل العربي كذاب وأفضل أسلوب في رأيه لمعاملته بعدل هو تأديبه بالعصا وعدم التأخر في معاقبته فورا³⁰.

بعد توفر هذه العوامل اقتنع بومعزة أن ظروف موالية خاصة بعد تصاعد حدة الإنتقام لدى السكان على إثر سياسة بيجو حتى إسترهازي في ذكره لتداعيات السياسة أقر أن الأعمال الصادرة عن نزوات الحكم الفردي التعسفي كانت تثير سخط لسكان³¹، وهذا ما حدث في الظهرة واستغله بومعزة لينطلق في نشاطه الثوري متتبعا إستراتيجية حربية سمحت له بتوسيع الإطار الجغرافي للثورة وكسب مساندين جدد وتشبثت القوات الفرنسية في أكثر من مواجهة وهي تقوم على:

1 ♦ الشروع في الدعاية والدعوة للجهاد إبتداء من مارس 1845 عندما توجه إلى السواحلية أحد فروع أولاد يونس فنزل عند الحاج حامد اليونسي مقدما نفسه على أنه شريف وأختاره دون غيره ليعتاون معه في مجابهة العدو، وفعلا لقي القبول والترحيب وأقام له ضيفة كبيرة جمع فيها أعيان المنطقة وقدمه لهم وحدثهم عن أهدافه النضالية³².

إمتدت دعايته بفضل هذه المباركة كامل الظهرة، وكذلك بفضل الرسائل التي وجهها بعد ذلك إلى زعماء القبائل، الذين أبدوا له الولاء وزوده بالأموال والأسلحة والذخائر³³ والبغال والحمير كوسيلة نقل واتصال، وأكثر من هذا صنعت له راية من الحرير للجهاد وأعطى حصانا ليركبه وكل هذا يدل على التأييد المطلق³⁴. بعدها مباشرة دخل في مرحلة تنظيم أتباعه وأنصاره عسكريا على نهج الأمير فعين ألقابا لرؤساء الجيش آغا

العساكر وآغا الخيالة لكل منهما مرتبا شهريا³⁵ ، كما أوجد نظاما إداريا على نمط الأمير عبد القادر فأوجد أغوات وقياد وفرض الضرائب لضمان المورد المادي لدعم وتموين المقاومة³⁶.

2❖ بعد الإستعدادات عند أولاد يونس شرع في عملياته العسكرية متبعا نمط حرب العصابات والهجمات الخاطفة القائمة على الكر والفر³² ، وهي في الواقع إستراتيجية تبنتها كل الثورات الشعبية من منطلق عدم تكافؤ موازين القوى بين طرفين بين جيش فرنسا النظامي والمجهز وقوات غير نظامية ، ولقد وجه بومعزة هذا النمط ضد الفرنسيين وأعوانهم من الجزائريين على حد سواء.

بدايتها ضد العملاء ، فبعد خروجه من أولاد يونس عسكر قرب سيدي عيسى بن داوود على حدود منطقتي الأصنام ومستغانم حيث شن غارة ليلية ضد قايد مديونة الحاج الصادوق وقتله في أفريل 1845 ، ثم عاد بعدها إلى معسكره ليجدد العملية على عرش الصبيح ويقتل القايد الحاج بلقاسم³⁷ . تكرر نفس المصير مع آغا الورسنيس أحمد الشاوش الذي حاول اعتراض بومعزة أثناء مده لنشاطه جنوبا نحو الونشريس ، إذن لقي هذا الأخير حتفه لقاء خيانتة عندما اعترضه بومعزة في 16/7 قرب مازونة في موكب عرس لابنته فقتل الجميع واستولى على أمتعتهم ، وفي نفس الليلة اعترض آغا الصبيحات محمد بن عبد الله الذي كان في مهمة تحصيل الضرائب للسلطة الاستعمارية³⁸ .

دائما في نفس النمط استهدف الفرنسيين من خلال الهجوم على مصالح المعمرين من قرى استيطانية ومزارع وقوافل تجارية وغيرها ، وعليه أصبحت كل من تنس وأرنفيل مهددتان من طرف بومعزة لاحتوائهما عدة مشاريع استيطانية أقامها سانت أرنو Saint Arneaud ، والتي أصبحت مستهدفة فمرفأ تنس تعرض حسب أرنو لهجمات دمر على إثرها معسكر المضايق الموجود بالقرب كليا³⁹ وتعدت الهجمات ففي أقل من شهر وصل بومعزة مع أتباعه مشارف المدينتين أين تم قتل ضابط المكتب العربي بيتريكس Beatrix في 20/4/1845 عندما حاول اعتراض سبيل أولاد بوهني في غابة واد ريحان فهاجموه وقتلوه وحزوا رأسه⁴⁰ ، وتكرر هجوم ثان قرب الأصنام 22/4/1845 على فرقة عسكرية كانت تعسكر قرب واد الفضة وتكبيديها خسائر فادحة⁴¹ . كما تعرض الثوار في 23/4/1845 لقافلة فرنسية متجهة من تنس إلى الأصنام عند واد علال أين خاضوا معركة دامت ليوم ، كما حاصر أتباعه تنس وثار كل سكان وقطعوا الطريق بين تنس والأصنام واضطر سانت أرنو أن يخطر بارجولي بخطورة الوضع معلما إياه أن مجموع 22 قرية جبلية حمل سكانها السلاح بين بعل وتنس على رأسهم بنو حجا وبنو حوة⁴² وبنو هيجه وبوهني.

ومع توالي الهجمات إستنفرت السلطات الاستعمارية وطلب بيجو المدد من باريس وتم رفع حجم القوات واتخاذ تدابير بحفر الخنادق ومضاعفة الحراسة⁴³ .

3❖ إلى جانب حرب العصابات والهجمات الخاطفة فقد تواجه بومعزة في معارك مع القوات الفرنسية التي كانت تلاحقه من مكان إلى آخر منها مواجهة مع سانت أرنو في معركة عين مران في 14/4/1845 وهذا عندما كان متوجها إلى الصبيحات حيث حاول أرنو اعتراض طريقه بعد تتبع أخباره على إثر وشاية من رجلين من الصبيح ، إذن عسكر أرنو عند واد الرأس وبومعزة بالخنانسة أين تبادلوا الضرب قرب قري لتتحول بعدها إلى معركة قرب مران تكللت بنجاح لأرنو على حساب بومعزة الذي فقد 60 رجلا وأسر 15 من أتباعه أعدموا مباشرة لترهيب الناس والتخلي عنه⁴⁴ .

على إثر الهزيمة انسحب بومعزة إلى جبال المنطقة دون الاستسلام - نمط التراجع والانسحاب إلى مناطق جديدة معمول به في كل الثورات - حيث وصل مازونة يوم 1845/4/15 وبدأ في كتابة الرسائل دعى فيها إلى الجهاد وشرح موقفه من الأعداء الذين حاربوه في سهل قري وعن الخائن الحاج بلقاسم الذي لقي حتفه في عملياته الأولى، فاستقبله المازنيون بحفاوة وقدموا له الدعم والمساعدات تعدت 300 جندي⁴⁵. هذا الموقف لسكان مازونة لم تهضمه السلطات الفرنسية وقررت الانتقام منهم فتوجه إليهم سانت أرنو على رأس قوة فمسكر أمامها وفرض عليهم حصارا في 1845/4/15 ثم دخلها وأعاث فيها فسادا وتخريبا لمدة يومين⁴⁶، أما بومعزة انسحب إلى عشعاشة⁴⁶.

وفي 4/17 خرج أرنو من مازونة متجها إلى معسكر سيدي علي بن داوود أين انضمت إليه قوة إضافية قدمت من تنس دخل بها في مواجهة مع أتباع الشريف يوم 18/4 في البعل، أين حاصر أولاد يونس القوات الفرنسية وكبدوهم خسائر⁴⁸.

ولم تقتصر قيادة العمليات ضد بومعزة على أرنو بل خطورته دفعت الحاكم العام بيجو يتدخل شخصيا لقيادة العمليات بالظهرة والتي وصلها يوم 5/9 وبقي فيها حتى 12 جوان، واتخذ قرارا عبر فيه عن الهمجية الاستعمار وحالة الهيستريا التي تصيب السلطات الاستعمارية عندما تتوالى عليها الانهزامات ويتوسع النشاط الثوري إذ نجدها تبارك الإبادة الجماعية في حق الجزائريين وهو ما حدث في حق قبيلتين من منطقة الظهرة عندما أبدتا الدعم لبومعزة ورفضتا الخضوع وهما على التوالي قبيلة أولاد رياح بالقرب من عشعاشة والتي جند لها الجنرال بليسسي Pelissier قوة معتبرة قدرت ب 4000 جندي مدعمة ب 200 عنصر من القوم تم بواسطتها تصفية القبيلة بحرق ممتلكاتهم والانتقام من سكانها الذين هربوا رجالا ونساء وأطفالا، واحتموا بغار الفراشيج، الأمر الذي دفع بليسسي إلى غلق فتحتي الغار بالحطب واشعاله يوم 17/6/1845 مما أدى إلى خنقهم بالدخان⁴⁹ ونفس المجزرة ارتكبت من قبل كافنيك في حق عرش الصبيح⁵⁰ الذين بدورهم احتموا بإحدى المغارات الجبال المحاذية لأراضيهم.

ورغم الإبادات الجماعية لأتباع الشريف بومعزة بقيت ثورته قائمة، وفي مطلع 1846 تواجه بومعزة مع ضابط المكتب العربي لاباسي Lapasset قرب تاجنة عندما كان هذا في حملة استطلاع على رأس قوة قدرت 120 جندي أما بومعزة فكان برفقة 25 فارس و700 جندي مشاة مني بهزيمة.

ولابد من الإشارة أن عمله الثوري تعدى الظهرة إلى مناطق أخرى عند أهل فليته وجبال الديرة بسور الغزلان ثم إلى الصحراء مروراً بالأحرار وأولاد خليف بتيارت ثم أولاد نايل وأولاد جلال⁵¹ كما انضم إلى الأمير عبد القادر لفترة ووحدا نشاطهما⁵² منذ عودته من المغرب الأقصى، حيث تعاونوا في مواجهة الفرنسيين واتجها إلى جرجرة واشتركا مع أحمد الطيب بن سالم، لكن الاتحاد لم يدم طويلا سرعان ما انفصلا في أكتوبر 1846.

الخاتمة: في الأخير نصل إلى إستنتاج مفاده أن انتفاضة الشريف بومعزة بمنطقة الظهرة والتي دامت سنتين كان لها تأثير كبير على الفرنسيين والدليل الإرباك الذي وقع بين صفوفهم وأدى بهم إلى إرتكاب أبشع الجرائم في حق الإنسانية كرد فعل عشوائي، والوصول إلى قناعة أن المد الجغرافي الذي وصلته الثورة في وقت قصير يدل أن على قوة السند الديني الذي ارتكزت عليه والمتمثل في الطريقة الصوفية والزواية فعال وذو تأثير قوي ألزمهم ضرورة وجوب البحث في حيثياته لأجل اقضائه وإلغائه.

الهوامش:

1. من بين المدن الساحلية التي تعرضت للحملة العسكرية نجد كل من مدينة وهران في حملتين الأولى في 13/12/1830 والثانية في 3/1/1831 ومدينة عنابة بداية في 29/9/1830 ثم في 27/3/1832. ينظر: أبو القاسم سعد الله . تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية . ج1. دار الغرب الإسلامي . لبنان. 1997.
2. ينحدر ناصر الدين الأمير عبد القادر من قبيلة الهشم، وهو الابن الرابع لمحي الدين ولد في شهر ماي 1807 بقرية القيطنة على ضفة واد الحمام بسهل غريس، في وسط عائلة دينية من أتباع الطريقة القادرية. تزعم الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي بعدما رشحه والده للمهمة وتمت مبايعته من طرف شيوخ وأعيان القبائل في بيعتين : الأولى في 21/11/1832 والثانية سنة 4 فيفري 1833.
- انطلق في الجهاد المقدس بفكرة ضرورة إيجاد وبناء دولة قوية وعصرية تضمن استمرارية النضال ضد عدو قوي، أوجد أسس وضوابط ثابتة بدايتها سلطة صارمة ومطلقة تستند على القرآن والسنة ومبدأ الشورى، أسس نظام إداري محكم وجيش منظم وعدالة صارمة ونظام ضريبي دقيق، اعتنى بالزراعة والصناعة. امتدت مقاومته من 1832 إلى 1847 حقق فيها عدة انتصارات ضد الفرنسيين في معارك فاصلة أشهرها معركة المقطع سنة 1835 ومعركة سيدي إبراهيم سنة 1845، أجبر الفرنسيين إلى اعتماد أسلوب التفاوض معه وإبرام معاهدتين فرض فيها شروطه : الأولى معاهدة ديمشال سنة 1834، والثانية معاهدة التافنة سنة 1837. ينظر : إبراهيم مياسي. من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 2007. ص.ص. 33، 34.
3. تبنى الجنرال بيجو بعد توليه منصب الحاكم العام سنة 1841 لاقصاء المقاومة سياسة القهر والعنف وأسلوب الحرب والابادة الشاملة ضد القبائل الجزائرية وكانت في شكل نمطين: الأول مدني من خلال تشجيع الاستيطان الأوروبي بدء بمصادرة الأراضي بصيغ قانونية مختلفة وتوزيعها على المعمارين الذين كان أغلبهم عسكريين، فهو شجع الجندي على الاستثمار والعمل في الأراضي أثناء فترة السلم، سعى إلى القضاء على هوية المجتمع والعمل تطبيق سياسة الاندماج من خلال تدجين الزعامات الجزائرية وضرب مقومات المجتمع الجزائري وهويته الإسلامية من خلال التدخل في القضاء الاسلامي والتعليم نهيك عن توسيع صلاحيات نظام المكاتب العربية وجعلها نظاما رسميا يعني بشؤون الجزائريين، أما النمط الثاني فهو عسكري حيث استهدف الأمير في مدنه وحاول إثارة خلفاءه ضده خاصة بالمناطق البعيدة وإعتماد إستراتيجية حربية مفادها تبني طوابير خفيفة سريعة التنقل لمطاردة الأمير. ينظر: أبو القاسم سعد الله. نفس المرجع السابق. ص ص 216، 217.
- 4_ نفسه. ص.218.
5. شارل أندري جوليان. تاريخ الجزائر المعاصرة " العروبة وبدايات الاستعمار" (1827- 1871). ط1. دار الأمة. الجزائر. 2008. ص. 352.
- 6_ Moulay Belhamissi. Histoire de Mazouna. Société nationale d'édition et de diffusion. Alger. 1981. P.13.
- Xavier Yacono. Les Bureaux arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans l'ouest de tell Algérois. Editions Larose. Paris V. 1953.P. 27.
- 7_ Mairin. Le Dahra ; Cassaigne ; Bousquet ; Pont de Chelif. Imprimerie de l'Ain Sefra. Mostaganem. 1905. P11.
- 8_ جنان الطاهر. مازونة عاصمة الظهرة. مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. 2005. ص.ص. 24، 25.
- 9_ إدوارد دو نوفو. الإخوان. ترجمة وتحقيق. كمال فيلالي. دار الهدى. الجزائر. 2003. ص.ص. 42، 43.
- 10_ نفسه. ص. 43.
- 11_ Henri Garrot. Histoire générale de l'Algérie. Imprimerie Crexenzo. Alger. 1910. PP. 864-866.
- 12_ يحي بوعزيز. ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20. ج1. منشورات المتحف الوطني للمجاهد. ط2. 1996. ص. 79.

- 13_ أبو القاسم سعد الله. المرجع السابق. ص. 291.
- 14_ عبد الرحمان الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. ج4. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1996. ص. 206.
- 15_ Jaques Frémeaux. Les Bureaux arabes dans l'Algérie de la conquête . Denoel . Paris. 1993. P. 115.
- 16_ إدوارد دو نوفو. المصدر السابق. ص. 43. / يحي بوعزيز. المرجع السابق. ص. 79. / هنري تشرشل. المصدر السابق. ص. 294.
- 17_ ولد توماس بيجو في 17 أكتوبر 1784 بمدينة ليمونج ذو أصول إيرلندية، انضم إلى الجيش في صفوف الحرس الامبراطوري سنة 1804، قدم إلى الجزائر سنة 1836 وقاد عمليات عسكرية قوية ضد الأمير عبد القادر انتهت بإبرام R . Peyronnet. معاهدة Tafنة، في سنة 1841 أصبح حاكما عاما ووبدا ينادي ويشجع الإستعمار الاستيطاني. ينظر: Livre d'or des officiers indigènes (1830-1930). T2. Imprimerie Algérienne. Alger. 1930. PP. 71-72.
- 18_ تمثلت الاجراءات الاضطهادية للجنرال بيجو في سياسة الأرض المحروقة وذلك بتسليط التخريب والنهب على ممتلكات القبائل المساندة للمقاومة، إضافة إلى مصادرة الأراضي وفرض غرامات عقابية وارتكاب الابادة الجماعية في حق السكان وتلهم حرقا أو خنقا. ينظر: شارل أندري جوليان. المرجع السابق. ص. 253.
- 19_ أبو القاسم سعد الله. المرجع السابق. ص. 291.
- 20_ هنري تشرشل. المصدر السابق. ص. 294. / Jaques Frémeaux. Op. Cit. P. 114.
- 21_ أبو القاسم سعد الله. المرجع السابق. ص. 291.
- 22_ شارل أندري جوليان. المرجع السابق. ص. 338.
- 23_ ولد سانت أرنو جاك لورواسنة 1798 بباريس، التحق بالجيش وعمره 16 سنة لكن سرعان ما قدم إستقالته ليحارب باليونان، وبعد عودته امتحن عدة حرف ليعو بعده مجددا إلى الجيش الفرنسي سنة 1830 وقدم خدمات عسكرية بالجزائر حيث اعجب به الجنرال بيجو كثيرا . ينظر: R . Peyronnet. Op. Cit. PP. 204-206.
- 24_ فرنسوا مسبيرو. سانت أرنو أو الشرف الضائع. دار القصبة للنشر والتوزيع. الجزائر. 2005. ص. 231.
- 25_ نفسه. ص. 232.
- 26_ يعود تأسيس المكاتب العربية إلى قرار 1844 / 2 / 1 على عهد الحاكم العم بيجو ويعنى بتسيير شؤون الجزائريين حيث سيكون واسطة بينهم وبين السلطة الاستعمارية، يرأسها ضباط عسكريون يساعدهم موظفين فرنسيين كالمترجمين، الكتاب، المحاسبين وغيرهم، إضافة إلى موظفين جزائريين بألقاب مختلفة مثل الخليفة، الآغا، القايد... إلخ. تخضع هذه المكاتب إلى إدارة مركزية على مستوى العاصمة تابعة للحاكم العام، ودورها الحقيقي إحقاق الأمن والسلم عن طريق المراقبة والتجسس على القبائل والسعي إلى تثبيت الاستعمار عن طريق تفتيت القبائل وإثارة الصراعات بين الزعامات والقيادات المحلية بهدف إضعافها وإقصاء نفوذها. ينظر: Hugounet Ferdinand. _ Souvenir d'un chef de bureau arabe. Michal lévy- fréver. Paris. 1858. PP. 8-9.
- 27_ شارل أندري جوليان. المرجع السابق. ص. 388.
- 28_ Germain Roger. La politique indigène du Bugeaud. Préface Marcel Emrit. Edition Larose. Paris. 1955. P.
- _ Ringel Albert. Bureaux Arabes et les cercles militaires de Galliéni. Emile Larose. Paris. 1903 . P. 27.
- 29_ أبو القاسم سعد الله. المرجع السابق. ص. 217، 218، 220.
- 30_ فرنسوا مسبيرو. المصدر السابق. ص. 325.
- 31_ شارل أندري جوليان. المرجع السابق. ص. 352.

- 32_ يحي بوعزيز. المرجع السابق. ص. 80.
- 33_ Jaques Frémeaux. Op. Cit. P. 115. /_ Tayeb Chenntouf. Les Resistances armées au XIX siecle. Cahiers magrébins d'histoire . N= 1 . 12/1987. P. 136.
- 34_ يحي بوعزيز. المرجع السابق. ص. 80.
- 35_ نفسه. ص. 80.
- 36_ Jaques Frémeaux. Op. Cit. P. 115.
- 37_ Moulay Belhamissi. Op.Cit.P. 63 .
- 38_ نفسه. ص. 81.
- 39_ فرنسوا مسبيرو. المصدر السابق. ص. 237.
- 40_ يحي بوعزيز. المرجع السابق. ص. 81، 82.
- 41_ عبد الرحمان الجيلالي. المرجع السابق. ص. 206.
- 42_ يحي بوعزيز. المرجع السابق. ص. 82.
- 43_ هنري تشرشل. المصدر السابق. ص. 296.
- 44_ Moulay Belhamissi. Op.Cit.PP. 63-64.
- _ فرنسوا مسبيرو. المصدر السابق. ص. 236.
- 45_ Moulay Belhamissi. Op.Cit.PP. 63-64.
- 46_ Ibid. PP. 63-64.
- 47_ فرنسوا مسبيرو. المصدر السابق. ص. 249.
- 48_ يحي بوعزيز. المرجع السابق. ص. 82.
- 49_ .ولد بليسي في 1800، التحق بالمدرسة العسكرية سانت سير، شارك في حملة فرنسا الأولى على الجزائر، تولى رئاسة المكتب العربي للمدينة من 1833 حتى 1835، وهو الذي أشرف على مجزرة غار الفراشيع في حق قبيلة أولاد رياح ومنح على إثرها عصا المرشالية وتواصلت ترقياته إلى أن أصبح حاكما عاما على الجزائر سنة 1860. توفى بباريس في 1858 /5/16. ينظر: Narcisse Faucon. Le Livre d'or de l'Algérie. Tome 1. Challamel. Paris. 1889. P. 446.
- 50_ بوعزة بوضرساية وآخرون . الجرائم الفرنسية والابادة الجماعية في الجزائر خلال القرن 19. منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954. ص. 126، 128.
- 51_ يحي بوعزيز. المرجع السابق. ص. 84.
- 52_ بعد الانتشار والتوسع الجغرافي للنشاط الثوري لبومعزة والذي وصل إلى بوابة الصحراء اضطرت السلطة الاستعمارية إلى تجنيد قوات معتبرة بقيادة ماري مونج والجنرال هيريبيون أين تواجهها مع بومعزة في معرك قرب واد مينا وحوض الشلف ما بين شهري جانفي وفيفري من 1847 وحققا انتصارا قويا على حساب الثوار لتتقوى عدتهم وعددهم وأبح في حالة مطاردة نحو الجنوب باتجاه ثنية الحد أين تواجه مرة أخرى في مارس 1847 في معركة كبيرة مع هيريبيون وتم اعتقاله بعد خيانة وسلم إلى الضابط سانت أرنو الذي سفره في 13/3 إلى مدينة الجزائر، ومن هناك بعثه بيجو طولون ثم باريس. ينظر : يحي بوعزيز . المرجع السابق. ص. 84، 85.
- 52_ اتفق الفرنسيون في ذكر صفات بومعزة منهم سانت أرنو الذي تحدث عنه عندا اضطر للإستسلام في 13 أفريل 1847 فقال: " إنه شاب وسيم ومعتز بنفسه. وعندما تقابلنا ركز كل واحد منا بصره في الآخر " ثم أضاف "ليس بومعزة شخصا عاديا، فهو يتصف بشجاعة نادرة وذكاء وقاد. وكان الأعراف الموالون لنا كلهم تقريبا يزودونه بالرجال والمال والسلاح ". أنظر. مصطفى الأشرف. الجزائر الأمة والمجتمع. تر. حنفي بن عيسى . المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1983. ص. 350.

اندلاع الثورة في المنطقة الثالثة ومظاهر من النّازر الثوري بينها وبين المناطق الأخرى

د/ عائشة حسيني، جامعة البويرة

مقدمة:

تحتل المنطقة الثالثة (الولاية الثالثة الثورية بعد مؤتمر الصومام) موقعا استراتيجيا هاما نتيجة الخصائص الطبيعية التي تتميز بها؛ والتي جعلت منها حصنا منيعا للثوار الذين أعلنوا الثورات الشعبية منذ بداية الاحتلال الي غاية الثورة التحريرية المباركة، وتمتاز بحصانة طبيعية نتيجة الطابع الجبلي الصعب للمنطقة، مما جعل منها ملجأ مثاليا للشخصيات الوطنية المعروفة التي فرت من السلطات الاستعمارية قبل اندلاع الثورة، ومنها تم التخطيط والتحضير للثورة، كما جعل منها أيضا موقعها الذي يتوسط الولايات الثورية، مركز عبور واتصال أساسي بين قيادات الثورة التحريرية المباركة منذ الأيام الأولى للثورة، والتي تميزت بالصعوبات الكبرى على مستوى التحضير والانطلاق، ثم مد ونشر النظام الثوري بها؛ والاتصال بين القيادات الثورية بعد الانطلاق، فكيف تم التحضير لانطلاق الثورة على مستوى المنطقة الثالثة؟، وما هي مظاهر التعاون والتآزر بين قيادات الثورة بالمنطقة الثالثة وباقي المناطق الثورية الجزائرية الأخرى.

الولاية الثالثة الموقع والحدود خلال الثورة:

تقع المنطقة الثالثة (الولاية الثالثة بعد مؤتمر الصومام) شرق الجزائر، وتتألف من مجموعة هامة من الجبال الوعرة، منها جبال جرجرة ووادي الصومام، وجبال البيبان، جبال البابور، وقسم من السهول العليا السطاييفية، والهضاب العليا الشرقية، وجنوب غرب جبال الحضنة، فهي تمتد من ساحل البحر شمالا من شرق أوقاس وبجاية إلى زموري حاليا؛ وبوسعادة جنوبا.

أما على حسب التقسيم الذي أحدثته قيادات الثورة بين الولايات الثورية منذ بداية الاحتلال، فإننا نجد أنها تشترك مع الولاية الثانية التاريخية من جهة الشرق، من سوق الاثنين على البحر إلى غاية سطيف عبر خراطة؛ على طريق الجزائر قسنطينة، وتحدها الولاية الأولى من سطيف إلى بوسعادة عبر برج بوعرييج والمسيلة، ومن الغرب تشترك مع الولاية الرابعة من زموري على البحر شمالا إلى بوسعادة جنوبا عبر الأخضرية، البويرة، سيدي عيسى وعين الحجل، وتم جعل مدينة سطيف في الشرق تابعة لها، ولكن طلب من مناضليها أن يقدموا المساعدة للولايتين الأولى والثانية¹.

ويتألف سطح الولاية الثالثة من تضاريس متنوعة سهلية وجبلية، فالكتل الجبلية تنتمي إلى سلسلة الأطلس التلي الممتدة من الشرق إلى الغرب، وتحديدا إلى الكتلة الجبلية الشرقية، التي يفصلها عن الكتلة الغربية جبال زكار ومليانة؛ ابتداء من جبال البليدة والأطلس البلدي، تمتد هذه المنطقة في إطارها الجبلي ابتداء من شرق

جبال بوزقزة الصعبة التي تشرف على العاصمة، ثم جبال جرجرة وجبال البابور والبيبان²، وهي مسطحة في جزئها الجنوبي تقريبا.

فجبال البيبان تمتد من صور الغزلان غربا، إلى سطيف شرقا، وبرج بوعريرج جنوبا، وخراطة وقرقور شمالا، ويفصلها وادي الصومام عن جبال جرجرة في الغرب ومضايقتها، وتشتهر بخوانقها العميقة والضيقة وأبوابها، وبحدة قممها وشدة انحدارها، ومن أشهر خوانقها أبواب الحديد، وتمثل هذه الجبال صلة الوصل بين الشرق القسنطيني والجزائر العاصمة جنوبا، كما تحتل جبال جرجرة رقعة واسعة واستراتيجية مهمة، وتمتد من وادي يسر غربا على مشارف سهل المتيجة إلى وادي الصومام شرقا على مشارف جبال البابور والبيبان، وهي ذات غطاء نباتي كثيف جدا³.

التحضير للثورة وظروف انطلاقها بالمنطقة الثالثة:

جند كريم بلقاسم وعمار أوعمران 450 رجلا بعد اجتماعهما برؤساء الدوائر السبعة لمنطقة القبائل واختاروهما من فئتين اثنتين:

أولا: الشبان غير المتزوجين الذين ليست لهم مسؤوليات عائلية. **ثانيا:** المتزوجون الذين ليس لهم أولاد، أو لهم أولاد قليلون. وكلهم من الذين تلقوا تدريبات عسكرية في الجيش الفرنسي، واعتادوا على حياة القسوة والصعوبات والخشونة. وبدا أعمارهم في التحضيرات منذ شهر جوان، حيث جمع 27 رئيس قسمة في منزل حارس الغابة بقرية ميرابو، وأعلن لهم خبر إنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل، وحدثهم على الاستعدادات العسكرية الجارية لإعلان الكفاح المسلح⁵، وبناء على ذلك صدرت تعليمات لمسؤولي النواحي والقسمات، بضرورة الإسراع في تنظيم الأفواج وتدريبهم على استخدام الأسلحة وصنع المتفجرات ونصب الكمائن، وكذا فنون حرب العصابات.

وقد تم توزيع بعض البنادق على الأفواج في كل الأقسام ليقع التدريب عليها، أما بالنسبة للسلاح فقد كان يشتري من السوق السوداء مثل تمزريب بضواحي سيدي على بوناب، وسوق الاثنين بني صدقة بأربعاء بني واسيف، إضافة إلى ما كان يشتريه المناضل ايت عبد السلام، والطاهر اوطازنت من ذراع الميزان، كما طلب من كل مناضل أن يبادر بشراء سلاحه من ماله الخاص، أما الأسلحة المشتراة بأموال النظام فقد كانت تخبأ في مقهى زهوان أمام السوق المركزي، ومن هناك كانت توزع على باقي نواحي المنطقة، كما كان يرسل البارود وبعض المواد اللازمة لصناعة القنابل المحلية إلى أربعاء بني واسيف، لتتقل إلى مغارة مجهولة في جرجرة، حيث يوجد المهندس عبد الكريم التجاني الذي كان متخصصا في صناعة القنابل، كما سلمت مائة قطعة سلاح من الاوراس إلى المنطقة الثالثة، قام بنقلها المناضل خليفاتي سعيد بسيارته، غير أن الكثير منها كان غير صالح للاستعمال.

وقد تم تنفيذ مجموعة من العمليات العسكرية بالمنطقة الثالثة في الفاتح من نوفمبر، منها عمليات تقزيرت في ناحية مأكودة لمهاجمة مخفر الشرطة، وقطع الأعمدة الهاتفية الرابطة بين مأكودة وتقزيرت كما نفذت مجموعة من العمليات في عزازقة، استهدفت حرق مجمع الفلين ومجمع الجندرمة، مقر المتصرف المدني، وتحطيم الأعمدة الهاتفية، كما استهدفت عمليات تادمايت مجمع الفلين ومقر التبغ البلدية، محطة البنزين،

الهاتف، وعمليات برج منايل استهدفت قطع أعمدة الهاتف، وحرق مجمع التبن للمعمر سكاليس، مقر نقابة التبغ، وعمليات ذراع الميزان استهدفت مقر الجندرمة في ذراع الميزان، وبوغني، البريد في تيزي نثلاثة، مزرعة احد الكلون ناحية تيزي غنيف، إلى جانب بعض المجاهدين الذين تأهبوا ولن ينفذوا عملياتهم، مثل ما وقع لمجموعة عين الحمام، ومجموعة الأربعة ناث اراثن، ومجموعة الناصرية⁶.

تنظيم الثورة بالناحيتين الثانية والثالثة من المنطقة الثورية الثالثة:

تقع الناحية الثانية والجزء الغربي من الناحية الثالثة في الجنوب الغربي للمنطقة الثالثة (الولاية الثالثة فيما بعد)، وتتشكل من خمسة أقسام وهي:

القسم الأول: يشمل برج أخريص.

القسم الثاني: يشمل الهاشمية وأهل القصر.

القسم الثالث: يشمل أولاد راشد، أشريعة، ثملاحت، أث منصور.

القسم الرابع: يشمل حيزر وبني عيسي.

القسم الخامس: يشمل امشدالة واغبالو.

وتقع الناحيتين حسب التقسيم الإداري الحالي في ولاية البويرة، تتكون من 6 دوائر و22 بلدية تحدها من الشمال سلسلة جبال جرجرة، ومن الغرب المنطقة الرابعة التاريخية، ومن الجنوب الناحية الأولى من المنطقة الثالثة، ومن الشرق الجزء الشرقي من الناحية الثالثة.

تتميز الناحية الثانية من المنطقة الثالثة، التي أصبحت تسمى بالمنطقة الثانية من الولاية الثالثة فيما بعد مؤتمر الصومام، إلى جانب جزء من الناحية الثالثة، بطابعهما الجبلي من حيث التضاريس في الجزء الشمالي والشرقي، وبالسهول وأراضيها الخصبة في جزئها الغربي، والجنوبي من ذراع الميزان إلى محطة عمر والجباحية، مروراً بعين بسام فصور الغزلان؛ إلى غاية دير حتى سيدي عيسي، ثم شرق ونوغة إلى غاية جبال البيبان، ومنها إلى الشرق نحو وادي الصومام وأعالي جرجرة، يهمننا في هذا السياق حدودها الجنوبية الغربية التي كانت تعتبر مجال عبور أساسية للعديد من قوات جيش التحرير، ومركز اتصال أساسي بينها وبين المنطقة الرابعة والمناطق الثورية الأخرى⁴.

وككل مناطق الوطن اقتصرت عمليات المجاهدين في البداية بالناحيتين الثانية والثالثة بعد الاندلاع في التوعية السياسية، وجمع المال والأسلحة من عند المواطنين، ومحاربة الدعاية الاستعمارية التي تصف المجاهدين بالفلاقة وقطاع الطرق، ومحاولة توعية الشعب بمفهوم الحياء، وأهداف الثورة ومسعاها حتى تتبلور جيذا فكرة الجهاد لدي كافة الشعب، لكي يستطيع أن يتبني هذه الثورة بوضوح، وقد كان لهذا العمل في البداية أثرا ايجابيا وعاملا حساسا؛ لدى الكثير من أفراد الشعب في الجهة التي عرفت فيما بعد بالناحيتين الثانية والثالثة من المنطقة الثالثة، وقد بلغ عدد العمليات التي تم تنفيذها بها خلال المرحلة الأولى من الثورة 123 عملية⁷.

ونتيجة تطور العمل الثوري بالمنطقة وانتشار العناصر المصالية بها، ظهرت العديد من المشاكل بين الطرفين، وما زاد الوضع صعوبة وتعقيدا هو تطور مشكل الحركة المصالية إلى صراعات عسكرية بين الطرفين، إلى جانب مشكلة سيطرة السلطات الاستعمارية على الوضع في بداية الثورة، وخلط الأوراق أكثر لكي لا تظهر الحقيقة من جهة، ولربح الوقت والسيطرة على الوضع من جهة أخرى.

وتعتبر مشكلة المصاليين من الصعوبات الكبرى التي اعترضت الثورة في هذه المنطقة، حيث ظهرت فيها إلى جانب هذه المشكلة، ومحاولات إحباط التفاف الشعب بالثورة من طرف السلطات الاستعمارية من جهة أخرى، وفي هذه الحالة اعترضت الشعب مشكلة كبرى مرتبطة بالثقة، فبالنظر إلى الماضي التاريخي لمصالي الحاج في الحركة الوطنية، لن يستطع الكثير من المناضلين السابقين في صفوف حزب الشعب الانسياق وراء هذه الثورة، أو الانضمام إليها بسهولة، بل ذهبوا إلى ابعاد من ذلك في إطار الدعاية المضادة للثورة في البداية، ثم إلى التقاتل مع المجاهدين في معارك دامية، جرت رحاها كلها تقريبا في المناطق التابعة للولاية الثالثة.

كان رد فعل جبهة التحرير في البداية لينا على المستوى المحلي، عن طريق عقد عدة اتصالات بهم لإقناعهم بفكرة توحيد الصف، إلا أنهم اظهروا تصلبا ورفضوا الدخول تحت لواء جبهة التحرير الوطني واشتروا العكس، أي دخول الجهة تحت لوائهم⁸، ومن بين تلك الاجتماعات التي عقدت معهم ذلك اللقاء الذي جمع أمحمد بوقره مع جماعة منهم في شهر جويلية من سنة 1955، كان الهدف منه توحيد الصف ضد العدو المشترك، لكن اختلاف التصورات حال دون الاتفاق بين الطرفين⁹.

ونظرا لانسداد الوضع؛ وخطورة الحركة المصالية على تطور مسار الثورة بالمنطقتين الثالثة والرابعة اتصل العقيد عميروش بالقائد ميرة عبد الرحمن، في بوشاوين بنواحي تكشدة، في منتصف سنة 1955 لدراسة الوضع وإعداد خطة إستراتيجية لمواجهة الظروف الصعبة¹⁰. كما لجأ قادة المنطقتين- الثالثة والرابعة-، إلى عقد اجتماع تنسيقي بينهما لدراسة الوضع في شهر جانفي من عام 1956 بوضواحي تكشدة، وبحضور قادة المنطقتين، اتخذت في هذا الاجتماع عدة إجراءات عملية صارمة لمواجهة الحركة المصالية، من بينها ضرب الحصار على المصاليين من الجهة الجنوبية لجرجرة، ابتداء من صحاري شرقا إلى غاية حيزر غربا¹¹، وشاركت في هذا الحصار عدة فصائل من جيش التحرير، إلى جانب أفواج من المسبلين تحت قيادة عبد الرحمن ميرة من الناحية الشرقية، وأمحمد بوقره من الناحية الغربية، وكريم بلقاسم من الناحية الشمالية¹².

نتيجة لذلك جرت عدة معارك كبرى بين المصاليين وجيش التحرير، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، وحسب ما ورد في تقرير المعارك الكبرى بالولاية الثالثة، انه وقعت بينهما 27 معركة، جرى معظمها فوق تراب المنطقة الثالثة، وفرض فيها الحصار بالتعاون بين المنطقتين الثالثة والرابعة خلال الفترة الممتدة بين شهري جانفي وأوت من سنة 1956؛ من أهم هذه المعارك نجد: معركة زمورة بحيزر في 28 جانفي 1956، شاركت فيها عدة فصائل من وحدات جيش التحرير الآتية من مشدالة بقيادة عبد الرحمن ميرة. ومن الأخضرية بقيادة أمحمد بوقرة¹³ معارك أنسمان بحيزر، التي تكررت ثلاثة مرات متتالية. ومعارك وادي تسالة، أمزاير، بني عيسى، أسلان، وأزغار...

وبعد هذه المعارك التي جرى معظمها بالناحية الثانية من المنطقة الثالثة، وفي المنطقة الحدودية بينها وبين الناحية الأولى من المنطقة الرابعة، انتقل المصاليون إلى جهات أخرى من المنطقة الثالثة، أين جرت معارك أخرى كثيرة؛ ابتداء من شهر أوت من سنة 1956، ومن بينها نحد معارك برج أخريص، أولاد عنان، جبل بوزيد، غار الحنش وغيرها...، وقد أسفرت هذه المعارك عن خسائر معتبرة في الأرواح عن الجانبين، حيث فقد فيها المصاليون 347 جندي، وفقد فيها المجاهدون 78 جندي¹⁴، وقد دارت هذه المعارك على مرأى ومسمع من الجيش الفرنسي، الذي أصبح ينتظر انتصار أحد الطرفين على الآخر ليخلو له الجو للقضاء على الفريق المنتصر¹⁵.

وننتج عن هذا الدعم المعنوي، أن سيطر المصاليون على الكثير من النواحي، خاصة بالمناطق الثالثة والرابعة والسادسة في بداية الثورة، حتى أن الكثير من المتحقيين الجدد بالثورة كانوا لا يفرقون في البداية بين تنظيم جيش التحرير والحركة الوطنية¹⁶، وربما تدل هذه المعطيات دلالة واضحة على مدى سيطرة وقوة المصاليين، وخاصة بالجهات الشرقية والجنوبية المحيطة بالناحية الأولى من المنطقة الرابعة، والناحية الثانية من المنطقة الثالثة منذ بداية الثورة، كما تدل نوعا ما عن نقص في تطور العمل الثوري لصالح جبهة التحرير الوطني بالمنطقة، حيث أن نظام الثورة لم يتوغل بالنواحي الشمالية للولاية السادسة إلى غاية بداية سنة 1956، عندما اتصل بناحية صور الغزلان أحمد بوقره؛ الصادق دهلوس وعمار أوعمران رفقة فوج من جيش التحرير بهدف بث شبكة النظام بالناحية¹⁷.

وأدى ظهور وبروز الحركة المصالية في هذه الجهات؛ إلى ربط الاتصالات وتنسيق الجهود بين قيادة المنطقتين الثالثة والرابعة في مواجهة كل من الجيش الفرنسي والمصاليين، ومحاولة بث النظام الثوري وإقناع الجماهير بفكرة الثورة، خاصة وأن الكثيرين منهم كانوا يدعمون المصاليين بدون علم منهم بأنهم ضد الثورة، كما حدث في الكاف الأخضر، دير، وبوقعدون، والأكثر من ذلك أنهم تجندوا في صفوف الحركة الوطنية (M.N.A)، على أساس أنهم في صفوف جيش التحرير الوطني¹⁸.

والملاحظ على السلطات الفرنسية أنها راهنت كثيرا على هذه الفرص لتفريق وضرب جيش التحرير، وعرقلة انتشار النظام الثوري بالمنطقة، وحاولت أن تجعل من المنطقة نموذجا من نماذج التهدة، ولهذا تكررت الزيارات الرسمية لممثلي الإدارة الفرنسية إلى هذه المناطق، حيث زارها المقيم العام روبر لاكوست وماكس لوجون، بالإضافة إلى وفد وزاري هام يوم 7 أوت من سنة 1956¹⁹، وان دل هذا على شيء إنما يدل على مدى قيمة المنطقة، كونها مثلت ملجأ مثاليا للثوار قبيل اندلاع الثورة نتيجة حصانتها الطبيعية، ومركزا قريبا لتنفيذ العمليات ثم الاختفاء بها، وأيضا من ناحية قربها من العاصمة التي تعتبر مركزا لتجمع الكلون، وقيادة الجيش، والسلطات الاستعمارية، والصحافة الفرنسية والأجنبية، وخاصة منها اليسارية التي كانت دائمة البحث عن الثوار لإجراء مقابلات معهم، والملاحظ أن هذه الزيارات من طرف القيادات العليا في السلطة والجيش، أنها جاءت مباشرة بعد الروبورتاج الذي أجراه الصحافي روبر بارا مع العقيد أوعمران وفرقة جيش التحرير التي كانت معه في نواحي الأخضرية، ونشره في جريدة فرانس أوبسارفاتور في سبتمبر من سنة 1955.

ولم تكن هذه الزيارات الأولى من نوعها إلى المنطقة، والتي حاولت فيها السلطات الفرنسية تكذيب الحقائق تحت شعارات الأخوة، ففي بداية سنة 1956 عندما نفذت عمليات عسكرية واسعة بمنطقة الأخضرية

وتابلاط، جمعت ثلاثة دواوير من الأخضرية، وكعادتها لم تقوت الصحافة الفرنسية الفرصة، وعلقت عن هذا التجمع بعناوين دعائية، فجريدة "journal d'Alger" كتبت عن الموضوع بعنوان بارز في صفحتها الأولى ما يلي: "مظاهرة المستقيمين ببالسترو"²⁰، من أجل التأثير على السكان وسحب ثقتهم من جيش التحرير.

وبالتوازي مع تنفيذ العمليات العسكرية لجيش التحرير بالمنطقة، جندت القوات الفرنسية اسنادات ضخمة من أجل السيطرة عليها، وخاصة بعد اشتداد هذه العمليات ابتداء من جانفي 1956، وبعد الهجمات الواسعة والمكثفة التي نفذت ضد المزارع والمراكز الفرنسية منذ شهر جانفي من سنة 1956، وبالضبط بعد هجمات هضبة 616، ولهذا أعلنت السلطات الاستعمارية عن عملية تمشيطية واسعة بالمنطقة، وبمشاركة قوات الجنرال ماسي، الدرك، وفرق اللفياف الأجنبية، وبدعم من سلاح الطيران والمدفعية²¹، وفي نهاية شهر فيفري، أعلنت عن مجموعة أخرى من العمليات الداخلية بالمنطقة، على إثر هجمات أولاد موسى، تابلاط، وفج الحوضين²²، وذلك بعد أن تم تنفيذ مجموعة من الهجمات من طرف الثوار على ستة مزارع أوروبية بالأخضرية في شهر مارس من نفس السنة، ولهذا أعلنت في الحال أيضا عن عملية تمشيطية عسكرية أخرى بالمنطقة²³، واستمرت هذه الحملات التمشيطية في التواصل وبكثرة، وخاصة بعد محاولة اغتيال حاكم مدينة تابلاط في 12 مارس من سنة 1956²⁴، إلى جانب ظهور مجموعة من المجاهدين بنواحي بوزقرة، وتنفيذ مجموعة من الهجمات الأخرى في طريق تابلاط، التي تم فيها اغتيال إحدى عشر شخصا في ظرف ثلاثة أيام فقط، ولهذا ففي 21 أفريل أعلنت عملية تمشيطية في تابلاط وبوقرة، وبمشاركة اسنادات ضخمة؛ نتج عنها إيقاف 200 مشبوه²⁵، كما تم حصار منطقة سوفلات بعين بسام لمدة ستة أيام؛ بغرض اكتشاف مقر قيادة الناحية²⁶.

وفي 18 ماي من سنة 1956، وعلى إثر كمين أولاد جراح تم إعلان عملية تمشيطية كبرى تحت القيادة المباشرة للجنرال ماسي²⁷، وبمساهمة الجنرال قودارد (Godard)، والجنرال بروتي (Brothier)، وبمشاركة سبعة فيالق لمدة خمسة أيام متتالية²⁸، وتبعا لذلك أعلنت مجموعة من العمليات الأخرى بضواحي العاصمة، والأطلس البليدي، وبلاد القبائل منذ 16 جوان إلى 11 جويلية تحت اسم أركوبيس (Arquebuse)، زولو (Zoulou)، باسك (Basque)، واسبرونس (Espérance)، وبواتي (Poitiers)، جندت لها السلطات الفرنسية قوات عسكرية ضخمة وحاصرت منطقة بوزقرة²⁹، وناحية سيدي مخلوف بعين بسام لمدة ثمانية أيام³⁰، كان الهدف منها التعرف على المنطقة وشق الطرق، وإنشاء مراكز عسكرية للتحكم فيها، بعد أن كثر الإزعاج للجيش الاستعماري بسبب العمليات الجريئة لجيش التحرير التي نفذها بها، وأخذت أكثر من الشهرة المحلية في الصحافة الاستعمارية، وعلى مستوى الرأي العام، مما جعل السلطات الاستعمارية تلجأ إلى إصدار أمر بعدم تشهير الصحافة بعمليات جيش التحرير لاحقا، ومعالجة الأمر في سرية تامة، باستثناء ما يشهر بقوتها، وفي المقابل الإنقاص من قيمة العمل التحريري لأفراد جيش التحرير بالمنطقة، كالإعلان عن اغتيال القادة العسكريين لجيش التحرير، مثل الإعلان عن القضاء على مصطفى خوجة، قصد إحباط معنويات أفراد جيش التحرير، والقضاء على التفاف الشعب حول الثورة.

هذا عن المرحلة التي سبقت مؤتمر الصومام، أما بعده وعلى اثر استحداث هياكل جديدة لدعم العمل الثوري، فقد تطور العمل العسكري لأفراد جيش التحرير بالمنطقة أكثر، خاصة بعد أن اتضحت الرؤى بشكل جيد، وتم التخطيط للمستقبل من طرق قادة الثورة، حيث تم إحصاء 751 عملية في مختلف أقسام الناحيتين

الثانية والثالثة خلال الثورة³¹، ومن أشهرها المعارك الكبرى التي وقعت في جبل تمقوت، تيكشجدة، حيزر، اذرار زقان، وغابات ثافركو، وبني وقاف، وشريعة، الفراكسة، وأهل القصر، وبرج اخريص... هذا على مستوى الناحيتين الثانية والثالثة من الولاية الثورية الثالثة، دون التعرض إلى المعارك الكبرى الأخرى على مستوى الولاية الثالثة التي أثبت فيها الشعب مدى الالتفاف حول ثورته وتبنيه لقضيته الوطنية، واثبت أيضا جيش التحرير عن مدى التنظيم والبسالة في المعارك فذلك مجال آخر.

وبالتوازي نجد أن السلطات الاستعمارية هي الأخرى لم تدخر جهدا لمحاربة الثوار بالمنطقة، وبكل الطرق منها المشروعة ودوليا وغير المشروعة، للوصول إلى هدف السيطرة على الوضع وإسكات صوت الثورة، الذي وصل إلى أرجاء مختلفة من العالم، وذلك بعد الضربات المتتالية والموجعة التي وجهها لها جيش التحرير في الكثير من مناطق الوطن، على اثر التنظيم الذي عرفته الثورة بعد مؤتمر الصومام، وذلك عن طريق مضاعفة المراكز العسكرية المتقدمة بالمنطقة المعنية بالدراسة، في إطار مخطط روبر لاكوست، وقد بلغ عددها 44 مركزا، وإقامة عدة معتقلات، و 37 ثكنة عسكرية، و 21 محتشد، و 10 فرق إدارية مختصة في شؤون الأهالي، و 11 مركز تعذيب، ورزق مساحات واسعة بالألغام³².

ونتيجة تطور العمل الثوري ازدياد نشاط الثوار بالمنطقة خلال السداسي الأول من 1957، تم الإعلان عن عملية بيجار خلال شهر جوان من سنة 1957، شملت الجهة الشمالية من مشدالة والجزء الشرقي للناحية، وهي اكبر عملية تمشيط من نوعها عرفتها هذه الناحية منذ اندلاع الثورة، من حيث الحجم، ومن حيث المساحة التي شملتها بالتمشيط، والمدة والسرعة في التنفيذ، من خلال الحصار والتطويق والتفتيش الدقيق للغابات، كل هذا نتيجة تزايد العمل العسكري بالمنطقة، حيث جرت أزيد من 25 عملية ضد القوات الفرنسية خلال السداسي الأول من سنة 1957، وقد بدأت هذه العملية في 27 جوان من نفس السنة، عن طريق تجنيد 36 ألف جندي و 200 آلية متحركة، إلى جانب دعم الطائرات العمودية والمقنبلة والاستطلاعية، دامت حوالي أسبوع، وقد نتج عنها خسائر بشرية كبيرة لم تعرفها الناحية من قبل، استشهد منهم 80 شهيد جلهم من المدنيين والمسبلين، من بينهم 58 استشهدوا في مجزرة بصحاريج خلال خمسة أيام، واستشهد خمسة مجاهدين من بينهم مليكة قايد، وأسرت ممرضتان، وتم اعتقال 20 مواطنا هذا دون الحديث عن الخسائر المادية³³.

مظاهر التعاون والتآزر بين المنطقة الثالثة وباقي المناطق الثورية الأخرى:

بقي أن نشير بأن رسم حدود المناطق والولايات الثورية التاريخية، لم يكن الهدف منها تقييد عمل الثورة، أو حصر أشغال الثوار في جهات معينة ومحددة، وإنما كان من أجل التحكم في تنظيم العمل الثوري، والتمكن من دعم الثورة على حسب المناطق التي كانت في حاجة إلى المساعدة، نشير أيضا بان هناك عدد كبير من مظاهر التعاون والتآزر التاريخي بين قادة الولايات الثورية، الذين لم تقف أي صعوبة؛ أو مشكل مهما كان نوعه قبل القناعات في هذا المجال أولا، وثانيا بالنظر إلى الأهداف المشتركة، وليس إلى المصلحة المشتركة.

ففي هذا المجال قدمت المنطقة الثالثة إلى المنطقة الرابعة 21 رجلا بقيادة عمر أعرمان للقيام بتنفيذ عمليات الفاتح من نوفمبر، وذلك بسبب إحباط عزائم المناضلين الذين تم تحضيرهم من طرف سويداني بوجمعة للمشاركة في هذه العمليات بالمنطقة الرابعة، من طرف جماعة لحول حسين وامحمد يزيد، كما أبدى كريم

بلقاسم وأوعمران استعدادهما لبيطاط لإرسال 200 رجل لان اقتضي الأمر ذلك إلى العاصمة³⁴، وان دل هذا على شيء أنها يدل على أن هذان الرجلان كانا يحظيان باحترام كبير وسط المناضلين بالمنطقة الثالثة من جهة، وتحكمهما في زمام الأمور من جهة أخرى.

وان كان الطريق الوطني رقم خمسة، هو الحد الفاصل بين الناحية الأولى من المنطقة الرابعة، والناحية الثانية والثالثة من المنطقة الثالثة، إلا أن القيادة الرشيدة لكريم بلقاسم وأوعمران جعلت من هذه المناطق مكملات لبعضها البعض في مجال العمل الثوري وخاصة في بداية الثورة، أين كان المجاهدون في حاجة ماسة إلى الوحدة، أكثر من أي شيء آخر، في ظل الظروف العامة التي طبعت الثورة في بدايتها؛ من مشاكل الانطلاق كما سبقت الإشارة إليها، إلى مشاكل التسليح التي بقي بسببها كريم بلقاسم كلمة باغيل إيمولة على المجاهدين الذين التفوا حوله فيما بعد، كلمة تاريخية لا يمكن أن تصدر إلا من أفواه أناس متأكدين جيداً مما يعتقدون، حيث تمكن من إقناع عناصره أن المشكلة لا يكمن فيمن وعدهم بالسلاح من قادة الثورة، وإنما يرجح أن المشكلة راجع إلى مدى سيطرة السلطات الفرنسية على الوضع، خاصة بعد العمليات المفاجئة لأول نوفمبر³⁵.

هذا دون الحديث عن الدعاية الاستعمارية المغرضة، التي كانت تستهدف الثوار الأوائل وتحاول إحباط العمل الثوري، والتفاف الجماهير حول الثورة ودعمها، وعلى اثر اعتقال راجح بيطاط مسؤول المنطقة الرابعة في 22 مارس 1955، تم تعيين اعمران مكانه قائداً على المنطقة الرابعة، وتعاون معه عبان رمضان بعد ان خرج من السجن بأمر من كريم بلقاسم.

وقد عمل اعمران منذ تعيينه على دعم وتنظيم المنطقة الرابعة أكثر، وتنسيق العلاقات والاتصال بينها وبين المنطقة الثالثة، ونتج عن هذا التعيين الجديد سد الفراغ في القيادة بالمنطقة الرابعة، مما ساعد في تنسيق العمل أكثر بين المنطقتين الثالثة والرابعة³⁶، كما يمكن أن يكون هذا سبباً في تركيز قيادة المنطقة الرابعة بالناحية الأولى منها في بداية الثورة، وازدياد نشاط العمل الثوري بها أكثر من أي وقت مضى خلال المرحلة الأولى من الثورة، ويدخل هذا في جانب التغطية والدعم والمساعدة، الذي باشر قادة الثورة منذ البداية تقديمه إلى إخوانهم المناضلين، الذين جمعتهم بهم كما سبقت الإشارة إليه وحدة الهدف والمصير المشترك، قبل أي اعتبار آخر مهما كان نوعه.

ونتيجة الطابع الجغرافي الصعب للمنطقة، ولتدارك النقص المفروض في الاتصال بسبب غياب قيادة مركزية للثورة في البداية، وانشغال كل قائد بمنطقته، وفرض الرقابة المشددة من طرف الجيش الفرنسي على الأماكن الحساسة، كل هذا أدى إلى انقطاع الاتصال بين قادة الثورة خاصة بعد إلقاء القبض على راجح بيطاط ومصطفى بن بولعيد، واستشهاد ديدوش مراد وبن عبد المالك رمضان، وانقطاع أخبار الآخرين؛ ولهذا تم إنشاء مجموعة من المراكز على مستوى المنطقة لقادة الثورة؛ لتنسيق العمل الثوري أكثر بينهم، حيث جرت عدة لقاءات بين قادة المنطقتين الثالثة والرابعة في بداية الثورة، فمركز الاتصال بينها وبين المنطقة الأولى عين في مزرعة بمشدالة، ومركز الاتصال بين المنطقة الرابعة والثانية عين في مزرعة بالبويرة، ومركز الاتصال بين المنطقة الرابعة والثالثة عين في مزرعة بسي مصطفى، ومركز الاتصال بين المنطقة الرابعة والخامسة عين في مزرعة بدائرة بوفاريك³⁷.

ولعل من ابرز مظاهر التأزر والتعاون بين قيادات الثورة بعد اندلاعها مباشرة، تتويج الانطلاقة بعقد مؤتمر الصومام الذي تم التحضير له في المنطقة الرابعة، وعقده في الولاية الثالثة، ويعتبر هذا المؤتمر احد الانجازات الكبرى للثورة الجزائرية، واحد المكاسب التاريخية الهامة جدا التي تفتخر بها الثورة التحريرية في المحافل الدولية، والتي برهنت فيها على مدي ثقة الجزائريين بعدالة قضيتهم الوطنية؛ وتبنيهم لها، ومدي الوعي بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم من طرف الشعب، لهذا تم التخطيط والتنظيم الجيد له، وكان عقده ونجاح تنظيمه في الأخير من اكبر الضربات الموجعة التي وجهها قادة الثورة للسلطات الاستعمارية، كما اعتبر أول مؤتمر وطني لقادة الثورة التحريرية الجزائرية، الذي أعطي لها بعدها العسكري والتنظيمي، وشخصيتها السياسية في الداخل والخارج، وهذه الولاية التاريخية أخذت شرف احتضانه، والمشاركة فيه، والإشراف على تنظيمه، وضمان نجاحه.

خاتمة:

وفي الأخير يمكن القول أن وحدة الهدف، والمصير المشترك، والإيمان بعدالة القضية، وضرورة استرجاع السيادة الوطنية المفقودة منذ أزيد من قرن من الزمان، كانت تمثل الدافع القوي وراء وحدة الصف بين قيادات الثورة التحريرية الجزائرية، قبل كل الاعتبارات الأخرى مهما كان نوعها وشكلها، وتمثل أيضا من جهة أخرى مدي الوعي لدي قيادات الثورة بوحدة القضية الوطنية الجزائرية.

الهوامش:

- 1- يحي (بوعزيز)، الثورة في الولاية الثالثة، طبعة خاصة الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص11.
- 2- عبد القادر (حيمي)، جغرافية الجزائر، ط1، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968، ص47. 50.
- 3- يحي (بوعزيز)، نفس المرجع السابق، ص12.
- 4- ندوة في 25 نوفمبر 1999، مكتب ولاية البويرة الإدارية، الناحيتين الثانية والثالثة، المنطقة الثالثة التاريخية، ص1.
- 5- يحي (بوعزيز)، ثورات القرن العشرين، طبعة خاصة الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص117.
- 6- جبهة التحرير الوطني، الطريق إلى نوفمبر كما يرويها المجاهدين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزء الأول، المجلد الأول، ص325. 335.
- 7- ندوة في 25 نوفمبر 1999، مكتب ولاية البويرة الإدارية، الناحيتين الثانية والثالثة، نفس المرجع السابق، ص15.
- 8- الطاهر حليسي، " الشروق اليومي في حوار ساخن مع الدكتور رابح بلعيد، هكذا خطفت جبهة التحرير الثورة من مصالي"، الحلقة السابعة، في: الشروق اليومي، العدد 151، 2001/5/6، ص5. ينظر أيضا: الرسالة التي بعث بها مصالي الحاج إلى وفد القاهرة، بتاريخ 31 جانفي 1955، نفس المرجع، الحلقة السادسة، العدد 150، 2001/5/5، ص11.
- 9- تقرير ولاية البويرة...المقدم لندوة 1998، مرجع سابق، ص9.
- 10- نفسه، ص8.
- 11- المنظمة الوطنية للمجاهدين، ندوة المعارك الكبرى بالولاية الثالثة، تيزي وزو، 25 نوفمبر 1999، ص19.
- 12- نفسه.
- 13- ندوة المعارك الكبرى بالولاية الثالثة، مرجع سابق، ص15.

14 - نفسه، ص ص 15 - 21.

15 - LE FLN Mirage et réalité, opcit, p 149.

16 - Francis ATTARD " imposante manifestation de loyalisme à Palestro" in : journal d'Alger , N°2, 072, 23 Mars 1956, p 3.

17- rapport sur la situation militaire en Algérie, op cit , p 20.

18- حسبما ذكره العقيد أوعمران في : الطريق إلى نوفمبر، الجزء3، مرجع سابق، ص 81.

19 - M _ M LACOSTE et LEJEUNE dans la région de Palestro" in : journal d'Alger, N°2, 188, 7 Août 1956, p3.

20_ Francis ATTARD "imposante manifestation de loyalisme à Palestro " in : journal d'Alger, N°2, 072, 23 Mars 1956, p 3

21 - Gabriel CONESA, "13militaires enlevés par les rebelles...à la suite d'une importante opération des nombreux rebelles ont été arrêtés hier" in : journal d'Alger. N° 2,003, 3 janvier 1956, p3.

22 - ينظر جرائد 18 فيفري، ص 1، 25 فيفري، ص 1، 26 - 27 فيفري، 1956، ص 1.

23 -Abominable tuerie près de Palestro...22 rebelles tués à la suite d'une opération de contrôle, op.Cit, p1.

24- samedi, à 4km de Tablat l'administrateur RAYMOND échappe à une embuscade qui fait 2 morts et 2blessés , in journal d'Alger, n°2,062 , 11-12 mars 1956, p1.

25 - la bande aux brassards est revenue sur la route de Tablat, 3 morts, I disparu et 7 blessés, une vaste opération en cours dans la région à déjà permis l'arrestation de200 suspects, in : Journal d'Alger, N° 2,090, 21 avril 1956, p1.

26 - تقرير ولاية البويرة...المقدم لندوة 1998، مرجع سابق، ص 18.

27 - le temps des léopards, op.Cit, p676.

28 - Henri LE MIRE, op.Cit, p77.

29 - Au cours de la vaste opération déclenché dans le Bouzegza, l'assassin de la adjudants – chef Master capture, in: journal d'Alger , N°2,132, 2 Juin 1956, p1.

30 - Mohamed, TAGUIA; op Cit, p298.

31- ندوة المعارك الكبرى بالولاية الثالثة، مرجع سابق، ص 16.

32- نفسه، ص 16.

33- ندوة المعارك الكبرى بالولاية الثالثة، مرجع سابق، ص 17.

34_ الثورة في الولاية الثالثة، نفس المرجع السابق، ص 32.

35- نفس المرجع، ص 37.

36 -1 novembre 1954, 1 novembre 1959, El moudjahid, 1 novembre 1959, T2. N°53-54, p520.

37 - أنظر، أحسن بومالي، إستراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954- 1956، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، منشورات متحف المجاهد، الجزائر: ص ص 77 - 79.

إطالة على فن التصوير القاجاري

د/إيمان محمد العابد ياسين كلية الآثار- جامعة القاهرة

ملخص:

شهد فن التصوير الإيراني خلال العصر القاجاري والممتد طوال الفترة ما بين عامي (1779-1925م) ؛ ظهور كوكبة من أمهر المصورين ؛ الذين حملوا على عاتقهم النهوض والارتقاء بفن الرسم القاجاري بفضل ما امتلكوه من موهبة فطرية ، دعمت عبر تشجيع محبي فن الرسم الإيراني ، ومن ثم كان لهم دور كبير في الدفع بالحركة الفنية التصويرية آنذاك نحو الأمام؛ ومن ثم يهتم هذا البحث بإلقاء الضوء على فن الرسم الإيراني في العصر القاجاري ، وذلك في محاولة للكشف عن هوية هذا الفن ، والتعريف به لإبراز أهم السمات الفنية المميزة له.

Abstract :-

In the Qajar Period (1779A.D. - 1925A.D) Iran witnessed a presence of a number of pioneers in the field of Qajar painting, who paid their best efforts to develop Iranian painting. So, this research caresit , in an attempt to reveal the identity of this art, and reflect the main distinctive artistic characteristics.

خلال تلك الحقبة التاريخية المليئة بالأحداث المضطربة ؛ شهدت الحركة الفنية التصويرية في العصر القاجاري (1193هـ / 1779م - 1343هـ / 1925م) ، نهضة كبرى لم تعدها إيران منذ نهايات العصر الصفوي وحتى بدايات العصر القاجاري مروراً بالغزو الأفغاني لإيران ؛ فقد اتصف فن التصوير الإيراني في القرن السابع عشر الميلادي بالركود والتكرار؛ ومن ثم فقد بعضاً من خصائصه بانتهاء القرن الثامن عشر الميلادي ؛ حيث شاع في أواخر العصر الصفوي عمل التصاوير المفردة وجمعها في ألبومات ، وانحصرت الموضوعات التصويرية المنفذة آنذاك في صور شخصية مهتزة من الناحية الفنية للحظايا ونساء البلاط ومشاهد من الحياة اليومية والمناظر الغرامية ؛ وباقترب نهاية القرن الثامن عشر الميلادي فقد فن التصوير الإيراني معظم ما كان له من حيوية.⁽¹⁾

ففي عهد **نادر شاه الإفشاري**^(*) ؛ لم تحظ الفنون بأي مظهر من مظاهر الرعاية أو الاهتمام ؛ إذ أن حكمه كان حكماً عسكرياً ؛ مما أدى إلى قمع الحركة الفنية ، وبالرغم من ذلك ظهرت له صوراً شخصية قام بتنفيذها بعض الفنانين المعاصرين له. أما عن **كريم خان زند**^(*) ؛ فقد ضم إلى بلاطه العديد من الفنانين مثل: محمد صادق الذي ظل يزاول نشاطه الفني حتى عهد **فتح علي شاه** - لوحة رقم (2) ..⁽²⁾

فقد اهتم حكام وكبار رجال الدولة القاجارية باستعادة النهضة الفنية لإيران مثلما كانت في سابق عهدها ، وقد دفعهم إلى ذلك إيمانهم العميق بالتراث والحضارة الإيرانية ، وكان على رأسهم سلاطين القاجاريين الذين حرصوا على تبني مختلف العبقريات الفنية التي توسموا فيها رفعة الموهبة ، والقدرة الخلاقة على الإبداع ؛ فالفنان لبنة وابتناجه الفني يسهم مع أقرانه في بناء وتشيد صرح حضاري .

وفي هذا الصدد يمكننا القول بأن : الحركة الفنية لأي قطر من الأقطار ولأي عصر من العصور تُعد بمثابة مرآة صادقة تعكس بمدى الوضوح والشفافية كافة الظروف والأوضاع المحيطة بها ؛ فضلاً عن كونها معياراً هاماً نستطيع من خلاله الوقوف على درجة تقدم أي أمة من الأمم ؛ ذلك إن ازدهار الحركة الفنية يعكس مدى ثرائها والعكس صحيح .⁽³⁾

ولعل من أهم مقومات تواجد أنشطة فنية مختلفة وجود أفراد يؤمنون بهذه الأنشطة ويباركونها ويحفزونها بالدعم المادي ، والمتمثل فيما يمتلكونه من ثروات وأموال تخصص للإنفاق عليها ، فضلاً عن الدعم المعنوي المتمثل في التشجيع الدائم للفنانين عن طريق احترامهم وإغداقهم بالهدايا ، وقد شكلت هذه المقومات عوامل ازدهار ونهضة للحركات الفنية المختلفة . ؛ فقد أظهر محمد شاه . ثالث حكام القاجاريين . لوحة رقم (3) . اهتماماً كبيراً بالمجالات الفنية المتعددة ؛ حيث صار على نفس النهج الذي اتبعه من قبل جده فتح علي شاه ؛ فشهد عهده دمج وترميم للعمائر المشيدة ؛ ذلك أن بناء العمائر في عهده كان قليلاً إلى حد ما ، كما كثر في عهده إنتاج المقالم والعلب المصنوعة من الورق المقوى . منتجات اللاكية . والتي صورت عليها العديد من الموضوعات التصويرية الشائعة آنذاك.⁽⁴⁾

وفيما يتعلق بفن التصوير فقد لمع في بلاطه كبار مصوري العصر القاجاري وكان على رأسهم المصور الإيراني الشهير **أبو الحسن الثاني غفاري " صنيع الملك "** . لوحة رقم (4) . ، والذي حظي برعاية وتشجيع محمد شاه قاجار نفسه ؛ فأرسله إلى إيطاليا لدراسة فن التصوير والرسم في كبرى الأكاديميات الفنية بها ؛ وكان ذلك خلال الفترة بين عامي (1846 . 1850م).⁽⁵⁾ ؛ إذ يُعد القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي هو عصر النهضة الحقيقية لفن التصوير الإيراني في ظل حكومة مركزية مباشرة تحت راية القاجاريين ؛ مما أوجد الفرصة لإعادة انتعاش الحياة الفنية مرة أخرى.⁽⁶⁾ ؛ لاسيما عقب فترة الاضمحلال والركود الفني التي شهدتها وعاصرتها الحركة الفنية في إيران عامة وفن التصوير بصفة خاصة ؛ خلال الفاصل الزمني والفني بين نهاية العصر الصفوي وبداية العصر القاجاري.⁽⁷⁾

ففي الفترة الممتدة فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين كان فن التصوير الإيراني قد قضى نحبها أمام سلسلة من موجات التأثير بالغرب الأوروبي تتحكم في مسيرتها عادة الأحداث السياسية ، وتعززها دائماً الرغبة في التجديد التي تكمن في العقل الإيراني النشط ، وقد نجح كبار الرسامين . وعلى رأسهم رائد فن التصوير القاجاري **" أبو الحسن الثاني غفاري " الملقب بـ " صنيع الملك "** . في امتصاص تلك المؤثرات ضمن أساليبهم الفنية دون أي افتقاد لفرديتهم ولطابعهم الوطني.⁽⁸⁾

أما في أواخر القرن العشرين فقد ظهرت التصاوير القاجارية بشكل غريب ، كان كثيراً ما يدعو للسخرية حيث مناظر الحياة اليومية والصور الشخصية والأحداث والوقائع التاريخية ورسوم الموضوعات المسيحية على واجهات منتجات اللاكية من المرايا والمقالم ، وغيرها فضلاً عن اللوحات الزيتية والتي جاهد الفنان القاجاري من خلالها في تقديم الظلال مع مراعاة قواعد البعد الثالث وبإصرار شديد.⁽⁹⁾

فقد نفذت الرسوم و التصاوير وغيرها من المعروضات التصويرية التي تعود للعصر القاجاري ؛ على أوساط فنية متعددة : فمنها ما صُوِّر على الجدران ، ومنها ما نُفذ بالألوان المائية والألوان الزيتية على الكافاه - الخيش - والتي أُستخدم الكثير منها لزخرفة القصور القاجارية ؛ حيث كانت تُعمل حنايا في الجدران تشغلها تلك اللوحات الزيتية فضلاً عن المنتجات الصغيرة المصنوعة من الورق المقوى كالمقالم وعلب المجوهرات والصناديق متعددة الاستخدام والمزخرفة باللاكيه وغيرها. والتي كانت أغلب موضوعاتها الفنية تدور حول مشاهد من الشاهنامة بأبطالها وشخصياتها.⁽¹⁰⁾ ؛ فلم يعد فن التصوير الإيراني خلال العصر القاجاري قاصراً على التصوير الجداري أو تزويق المخطوطات بالتصاوير كما كان معهوداً فيما مضى . بل أصبح فن التصوير آنذاك متعدد الاتجاهات والخطوط والأنماط الفنية التي تنوعت تبعاً لتنوع المجالات التي استخدم فيها فن التصوير - بقصد التزين والزخرفة - والتي سار في كل منها على حدا بخطوات سريعة التطور لمواكبة روح العصر آنذاك والذي سيطرت عليه النزعة الأوروبية بشكل واضح وصريح ، وقد تجسد ذلك في مختلف الأنماط الفنية التصويرية الشائعة آنذاك ؛ ومنها التصوير الجداري وتزويق المخطوطات والتصوير الزيتي وغيرها ؛ فقد بذل الفنان القاجاري جهداً كبيراً في محاولة التوفيق بين تراثه الفني القديم والمتمثل في التصوير الجداري وتزويق المخطوطات وكيفية مواكبة ومسيرة العصر الذي يعيش فيه والمتمثل في التصوير الزيتي وغيرها من الأساليب الفنية الأوروبية المستحدثة.

ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، لم يَقم أعظم فناني العصر القاجاري بدراسة التقاليد الفنية في الرسم الملكي مثلما كان معهوداً من قبل ، بل قاموا بدراساتها في الأكاديميات والمعاهد الفنية إما في طهران أو خارج البلاد ؛ فتعلموا كيف ينتجون صوراً باستخدام الألوان المائية والزيتية ؛ متخليين بذلك عما كان سائداً في إيران من تقاليد وأنماط فنية كانت منتشرة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.⁽¹¹⁾ إذ تطلع الإيرانيون أواخر العصر القاجاري إلى أوروبا بحثاً عن أنماط وأساليب فنية جديدة لم يعهدها الإيرانيون من قبل ؛ وذلك في السبيل لإحداث قدر من التغيير والتجديد في الهيكل البنائي الفني في التصوير الإيراني. فما حققوه لم يكن سوى إثبات ابتكارهم لنمط جديد وعصري في فن التصوير الإيراني ؛ والذي لم يكف أن يكون تعبيراً عن وسيلة كلاسيكية ومرنة من العصر الذهبي لماضيهم العريق.⁽¹²⁾ وقد سار في هذا الاتجاه عدد كبير من مصوري العصر القاجاري ؛ ومن بين هؤلاء المصورين كان أبو الحسن خان الثاني غفاري - صنيع الملك ..

هذا وقد انقسمت الآراء فيما بين الباحثين والدارسين لهذه الحقبة الفنية الهامة حول المدرسة القاجارية في التصوير إلى اتجاهين مختلفين تماماً ، وذلك على النحو الآتي :-

(أ) - الاتجاه الأول:- يرى أن الفنان القاجاري كان قد أخفق في الوصول بالفن الإيراني إلى درجة متقدمة من التطور والازدهار ؛ فقد أصيبت الحياة الفنية بحالة من الركود لاسيما فيما يتعلق بالذوق الفني ، وذلك نظراً لشغف الفنان الإيراني في العصر القاجاري بتقليد الأسلوب الأوروبي وبعده تدريجياً عن الأساليب الفنية المحلية.⁽¹³⁾

(ب)- الاتجاه الثاني:- وتمثله أ.د / سميح حسن محمد إبراهيم ؛ والتي قامت بعمل دراسة مستفيضة إلى حد ما عن التصوير القاجاري تحت عنوان المدرسة القاجارية في التصوير - دراسة فنية أثرية ؛ لنيل درجة الماجستير عام 1977م ؛ حيث أنها تؤيد في رأيها آراء بعض الباحثين في هذا المجال ؛ والذين يرون أن الفترة الفنية القاجارية تمثل مرحلة من مراحل التطور الفني الذي لم يسبق له مثيل في الفن الإيراني ؛ حيث الواقعية في التصوير ومراعاة قواعد المنظور ، وهذا على عكس ما كان يحدث فيما سبق . بالإضافة إلى استخدام الزيت في الرسم على مساحات كبيرة بدلاً من الرسم بالألوان المائية على مساحات صغيرة ؛ ومن ثم فهي ترى أن الفنان القاجاري أصبح شديد التطلع لكل ما هو جديد ، محاولاً مسايرة التقدم الحضاري الأوروبي ورغبته في إثبات مدى كفاءته ومهارته الفنية في هذا الميدان ، كما أنها ترى من خلال دراستها لهذا العصر وملامحه الفنية أن الفنان الإيراني لم يهجر الأساليب الفنية القديمة ، ولكنه حافظ عليها في صورة جديدة مستساغة لدى الأوروبيين ؛ فصور أمجاده وبطولاته على القطع الفنية وخاصة الأدوات المزخرفة باللاكيه ولوحات الزيت التي نالت تقدير الغرب أكثر من فن المنمنمات القديم ، وبذلك فهي ترى أن الفنان الإيراني لم يبعد عن الأساليب المحلية كما يزعم بعض الدارسين ؛ ومن ثم فهو عصر نهضة فنية وانفتاح على الغرب الأوروبي.⁽¹⁴⁾ - على حد قول أ.د / سميح حسن.

إلا أنني أرى أن الفنان القاجاري - لاسيما فنان مرحلة البعث أي المرحلة الكلاسيكية - كان أشبه بالذي تاه بين مسلكين ؛ ومن ثم فقد ضل طريقه ؛ فإذا به لم يحقق هدفه في الوصول إلى الطريق الذي يشده ؛ وهو تحقيق أعلى درجات المهارة والدقة الفنية التي وصل إليها الفنان الأوروبي من قبل . وفي الوقت ذاته لم يتمكن من استعادة مكانته الفنية القديمة والمشهود لها بطابع فني مميز حيث الاصطلاحية والرمزية الشديدة في التعبير ، والبعد عن التجسيم فضلاً عن استخدام الألوان الباردة ذات الطابع الزخرفي الشديد بما كان يفقد الصورة العديد من مظاهر العمق . ؛ فعلى الرغم من كون الفنان القاجاري قد سار على نفس النهج الذي سار عليه الأوروبي من قبل ؛ حيث تتبع كافة الأساليب الفنية الأوروبية كالواقعية في استخدام الألوان ، فضلاً عن طبيعة الموضوعات الفنية المختارة إلا أنه ، ومع ذلك لم يصل للمكانة الفنية التي حظي بها الفنان الأوروبي .؛ وعن أسباب إخفاق الفنان القاجاري - في المرحلة الكلاسيكية من العصر القاجاري - في بلوغ المكانة التي وصل إليها الفنان الأوروبي من قبل . ؛ فهي على النحو الآتي⁽¹⁵⁾:-

1. حدة الخطوط المستخدمة ؛ حيث اعتمدت الرسومات والتصميمات على الخطوط المستقيمة والحادة الزاوية ؛ مما أفقدها ليونتها ومرونتها المعتادة في مدارس التصوير الأوروبية ، أو كالتي ظهرت في رسوم المدرسة الصفوية الثانية ؛ مما جعل الموضوعات الفنية تدور في قالب محدود الاتجاهات ؛ فتحد بذلك من اتساع تخيلات المشاهد لمثل تلك الأعمال الفنية ؛ فقد ألزمه المصور القاجاري بفكرة معينة محدودة فرضها عليه في العمل الفني مما منعه من محاولة التعمق في عمله الفني على عكس ما ظهر لدى الفنان الأوروبي ؛ ومن ثم بدت الصورة القاجارية مسطحة تخلو من مظاهر العمق ؛ التي اقتصر وجودها في رسوم المناظر الطبيعية التي استخدمها الفنان القاجاري كخلفية في أعماله الفنية فصارت موضوعات ثانوية.⁽¹⁶⁾

2. اتسمت الصورة القاجارية كذلك بغلبة العديد من مظاهر الكآبة والجمود لاسيما فيما يتعلق بملامح أبطال الأعمال الفنية والتي كانت أكثر ملائمة للموضوعات الأرستقراطية الطابع ؛ لكونها تضيف على أبطالها بعضاً من مظاهر الشموخ والعظمة لاسيما صور السلاطين و الأمراء وكبار رجال الدولة.⁽¹⁷⁾

وقد تجسدت مظاهر الكآبة والجمود في الصور القاجارية عامة من استخدام ألوان قائمة رغم كونها مشابهة لمثيلاتها في الطبيعة ؛ إلا أنه أضفى عليها ما جعلها أكثر قتامة. وربما كان ذلك نابعاً من طبيعة العصر المضطربة سياسياً وعسكرياً آنذاك.⁽¹⁸⁾

3. اعتناق الفنان القاجاري للفكر الفني الأوروبي والذي تمثل من خلال قيامه باستخدام الصورة لخدمة عقيدته بشرحها والترويج لها ؛ حيث تجسيد القصص الديني على البلاطات الخزفية في المنشآت والعمائر وعلى منتجات اللاكيه ، وغيرها من الأنماط الفنية القاجارية.⁽¹⁹⁾

4. على الرغم من اعتناق الفنان القاجاري للواقعية إتباعاً للسنة الأوروبية ؛ إلا أننا كثيراً ما نشاهد رسوم وصور الرجال وقد غلب عليها العديد من الملامح الأنثوية الطابع لاسيما فيما يتعلق بملامح الوجوه الآدمية.⁽²⁰⁾

5. على أنه من أهم ما يؤخذ على الصور القاجارية - في الفترة الكلاسيكية - هو الجفاف والجمود في المشاعر الإنسانية التي بدت ذات طابع شديد الحدية ، وذلك على عكس ما ظهر في الأعمال الفنية الأوروبية. وكان ذلك نتاجاً طبيعياً لجمود الخطوط وحديثها لاسيما تلك التي رسم بها الشخص الآدمي في الصورة جعلت المشاهد أسيراً لفكرة معينة فرضت عليه من خلال العمل الفني.⁽²¹⁾

ولعل السبب الرئيسي في هذا الانطباع هو أن الفنان القاجاري لم يكن قد تخلص بعد عن نزعته الساسانية ؛ فاستخدم خطوطاً تتسم بالجفاف والحدية ؛ لذا أخفق في تحقيق هدفه الذي طالما كان يسعى إليه ؛ إذ يُخيل لي أن الفنان القاجاري كان قد عجز عن فهم وإدراك سر نجاح الصور الأوروبية ، ذلك أنه حاول أن يخلق مزيجاً فنياً مختلفاً مكون من تراثه الفارسي القديم ، والملامح الفنية الأوروبية المستحدثة والدخيلة على مجتمعه الفني الإيراني ؛ إلا أن هذا المزيج كان دائماً ما ينقصه التعاطف الوجداني مع الموضوع الفني أي المشاركة الوجدانية الفعالة ؛ ومن ثم فقد جاءت غالبية أعماله الفنية وقد اختفت منها خاصية الانسجام حيث بدت العناصر والوحدات الفنية المختلفة الأصول وكأن بينها شيء ما يجعلها متنافرة ويشوبها بعضاً من عدم الانجذاب ؛ فجاءت أعماله الفنية لتعبر عن مزيج غير متجانس من العناصر والوحدات الفنية الأوروبية والعناصر والوحدات الفنية الإيرانية ، التي كان من السهل الفصل فيما بينها والتعرف على كلاً منهما على حدة ؛ حيث النظرة السطحية لفن التصوير الأوروبي ؛ وهذا على عكس ما اتسم به الفن الإسلامي في أوج عصور ازدهاره ؛ إذ كان فنانون الإسلام الأوائل يأخذون من الفنون الأخرى وفق ما يتناسب مع عقيدتهم الدينية ، ولكنهم كانوا مع ذلك يجردون تلك الملامح والعناصر من ماهيتها الوثنية ويصبغونها بصبغة إسلامية ؛ ومن ثم كان من الصعب التعرف عليها وردها لأصولها الأولى.⁽²²⁾ ، وعندما أخذت رياح التأثيرات الأوروبية تعصف بالحركة الفنية الإيرانية - خلال المرحلة الأورو - قاجارية ؛ بدأ فنانونها في الانصياع لها ؛ فاعتنقوا النزعة الفنية الأوروبية التي ظهرت آثارها في مختلف الأنماط الفنية لاسيما فن التصوير القاجاري ؛ الذي جسد بمصادقية شديدة مدى تأثر المصورين القاجاريين بالروح الفنية الأوروبية ؛ وقد ظهر في هذا الصدد كوكبة من أمهر المصورين الذين كانوا يمتلكون موهبة الرسم ، فضلاً عن قيامهم بدراسة مبادئ فن التصوير في الأكاديميات والمعاهد الأوروبية ، وكان على رأس هؤلاء المصور

الإيراني الكبير ميرزا أبو الحسن خان غفاري " صنيع الملك " ؛ ومن ثم بدء فن التصوير الإيراني يسلك درباً جديداً نحو مواكبة الروح العصرية ، وتتبع مدارس التصوير الأوروبية والسير على نهجها.⁽²³⁾

لذا يُعد فن التصوير القاجاري مثاراً للجدل بين الباحثين ودارسي الفنون الإيرانية ؛ لكونه قد عبر عن اتجاهين فنيين متناقضين : أحدهما ينادي بالعودة إلى الكلاسيكية - الأصالة الفنية - ومحاولة إحياء التراث الفني القديم لإيران ؛ والمتمثل في فنونها قبل الإسلام الساسانية والأخمينية . أما الاتجاه الآخر ، فهو يعبر عن حرص الفنان القاجاري على مواكبة الروح الفنية العصرية التي اتسمت بالتأثر بالنزعة الأوروبية ، ومحاولته الجمع بين اتجاهين متناقضين لخلق اتجاه فني جديد مغاير لكلا الصيغتين ؛ فلا يمكننا أن نعبر عنه بالفن الفارسي أو الساساني أو الأخميني نظراً لوجود العديد من العناصر والتركيبات الفنية الأوروبية ، كما أنه لا يمكننا كذلك أن نطلق عليه فن أوروبي لوجود عناصر مختلفة تماماً عن الطابع الأوروبي . إلا أننا يمكننا أن نعبر عنه بمصطلح جديد ألا وهو الفن أو الطراز الأوروبي-قاجاري.⁽²⁴⁾ والذي كان من أبرز رواده والداعين له المصور الإيراني الأشهر ميرزا أبو الحسن خان الثاني غفاري " صنيع الملك " .

قائمة الصور واللوحات



لوحة رقم (1)

صورة أغا محمد خان مؤسس الأسرة القاجارية .

عمل المصور ميرزا بابا . أحد مصوري الرعيل الأول في العصر القاجاري

نقلًا عن : Falk, J.s. Qajar painting, P.58 -



لوحة رقم (2)

صورة فتح علي شاه - ثاني حكام آل قاجار

عمل المصور محمد صادق. أحد مصوري الرعيل الأول في العصر القاجاري

نقلًا عن : Falk, J.s. Qajar painting, P.69 -



لوحة رقم (3)

صورة محمد شاه قاجار - ثالث حكام آل قاجار

عمل المصور أبو الحسن خان الثاني غفاري. من أوائل مصوري الرعيل الثاني في العصر القاجاري

نقلًا عن : P.125, Persian painting, Sheila Canby -



. لوحة رقم (4) .

صورة شخصية للأمير اردشير ميرزا - حاكم طهران ، عمل ابو الحسن خان غفاري ، مؤرخة بعام 1269هـ =

1852 - 1853م ، نقلًا عن: Diba, L.; Royal, P.250



. لوحة رقم (5).

صورة خسرو خان الكرمانى، بالألوان المائية على الورق

عمل صنيع الملك - طهران (1850 - 1860 م) محفوظة بالمتحف البريطانى لندى ، مجموعة مكتب شركة

الهند الشرقية ، قسم المخطوطات ، اليوم رقم 4938 ، صفحة رقم (12) نقلاً عن :

Sims, E. : Persian painting, P.95



. لوحة رقم (6).

صورة شخصية لميرزا تقى خان - أمير كبير بالألوان الزيتية ، تنسب إلى "صنيع الملك" (1850 . 1855م) ، نقلاً

عن : زكاء، يحيى : أبو الحسن غفارى - هنر ومردم ، الجزء الأول ، ص22



- لوحة رقم (7) .

صورة شخصية للأمير إمام قولي خان - عماد الدولة -

عمل أبو الحسن خان غفاري - صنيع الملك - محفوظة بالمتحف البريطاني - لندن ، مجموعة مكتب شركة الهند

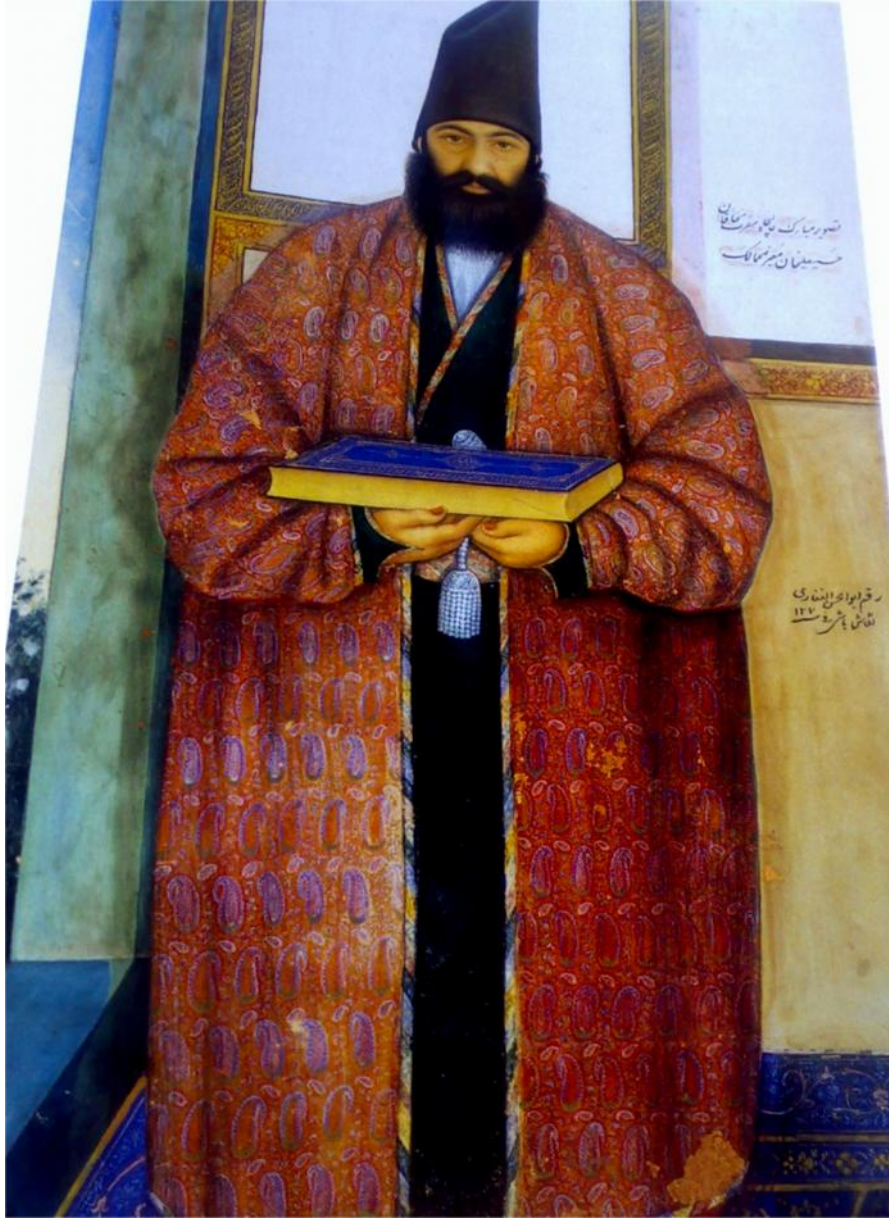
الشرقية ، قسم المخطوطات ، اليوم رقم 4938 ، صفحة رقم (7) ، نقلاً عن:

the Islamic book, london, 1929, P.78



. لوحة رقم (8) .

صورة شخصية للأمير إمام قولي خان - عماد الدولة - بالألوان الزيتية على الكانفاه ، عمل أبو الحسن خان غفاري
- صنيع الملك - تعود للفترة ما بين عامي 1855 - 1866م - محفوظة بمجموعة هاشم خسروان - طهران ، نقلا
عن: Diba, L.; Royal, P.253



لوحة رقم (9)

صورة شخصية لـ حسين علي خان - معيير الممالك - عمل **صنيع الملك** ومؤرخة بعام 1270هـ = 1853 - 1854م

، منفذة بالألوان المائية والتذهيب على الورق المقوى ، نقلاً عن :

Verniot, S.: Occidentalisme , P.67 &- Raby, J.: Qajar Portraits, P.60



لوحة رقم (10)

صورة شخصية لـ "ابو الحسن خان الثاني غفاري"، عمل ابنه المصور "يحيى غفاري"، بالألوان المائية على الورق
موقعة ومؤرخة [ابو الحسن ي ثالث 1293هـ = 1876م]، مجموعة خاصة - تهران - نقلاً عن :

Robinson; Persian painting, P.92

الهوامش:

- 1- بارت، دوجلاس: الفن الإسلامي ببلاد فارس - (د.ت) ص 36
- (♦) - نادر شاه الإفشاري : كان قد التحق ببلاد آخر الحكام الصفويين وهو الشاه طهماسب ميرزا بن الشاه حسين الصفوي عام (1139هـ / 1726م) ، وكان فيما قبل يعرف باسم نادر قلبي ينتمي أصله إلى قبيلة أفشار التي سكنت شمال إيران ، كان قد عين وصياً على الشاه عباس ميرزا بن طهماسب عقب وفاة أبيه وتولى قيادة كتائبه ؛ فتمكن من الانتصار على الأفغان بعد استيلائهم على مدينة أصفهان عام (1136هـ / 1723م)؛ وردهم عن خراسان وهرات ، كما دخل في معركة ضد الأتراك استرد فيها كلاً من جورجيا وأرمينيا ، وأخضعهما للسيطرة الإيرانية. ؛ في الوقت الذي كانت الدولة الصفوية قد مرت فيه باضطرابات سياسية عنيفة أواخر عهدها حيث الصراعات والحروب التي تمزقت على أعقابها بلاد فارس ، وتناثرت أجزائها بين قوى الصراع المختلفة ، وكان ذلك نتيجة حتمية لما آلت إليه الدولة الصفوية من ضعف واضطراب إثر الصراعات الدامية بين أمراء الصفويين حول الاستئثار بالعرش إلى أن سقطت الدولة ذاتها على يد الإفشاريين عام (1145هـ / 1732م).؛ والذين كانوا قد تمركزوا بزعماء نادر قلبي في الجزء الشمالي من بلاد فارس ؛ وفي عام (1148هـ / 1735م) أعلن نادر نفسه ملكاً على الجزء الأعظم من إيران مؤسساً بذلك دولة الإفشاريين التي استمرت من عام (1148هـ / 1735م) وحتى مقتله على يد بعض القاجاريين عام (1210هـ / 1795م) - اشتياني ، عباس : تاريخ مفصل إيران - ص 745 & . الزفازي، فوزي عبد الواحد : فتحعليشاه - الملك الشاعر عصره ، بيئته ، شعره - رسالة ماجستير - قسم اللغات الشرقية - كلية الآداب - جامعة عين شمس - 1982م ، ص 2 ، 3
- (♦) - كريم خان زند(1750.1779م)هو زعيم القبيلة الزندية - العدو اللدود للقاجاريين - التي تمركزت في الجنوب متخذاً من شيراز عاصمة له. ، والذي نشأ أماً محمد خان - مؤسس الأسرة القاجارية - لوحة رقم (1) - في بيته عقب أسرته في صغره ؛ حيث أمر باستدعائه عندما بلغ أشده ، وجعله من أقرب مستشاريه في أمور الدولة لما عرف عنه من زكاء و فطنة ، في الوقت الذي كان محمد خان يكن فيه الكراهية و العداء للزنديين. نقلاً عن : - Kamarava, Mehran: The Political history of modern Iran. " from the Tribalism to Theocracy - west, Connecticut , London, 1980 - P. 24
- (3)- إبراهيم ، سميه : المدرسة القاجارية في التصوير ، ص 8
- (4). العابد ، إيمان محمد: التأثيرات الأوروبية على الفنون الإسلامية الإيرانية خلال العصر القاجاري (1193هـ / 1779م - 1343هـ / 1925م) ، رسالة ماجستير. كلية الآثار - جامعة القاهرة ، 2008م ، ص 37
- (5) - إبراهيم ، سميه : المدرسة القاجارية . ص 18 - 19
- (6)Verniot, Stephan : The Nasser D. Khalili Collection of Islamic art -Vol. 23-Occidentalism “ The Islamic art in the 19th Century “, The Nour Foundation in association with Azimuth editions and Oxford University Press, 1997, P.107
- (7)- Pope A.U.:A survey of Persian art . Oxford Universitypress,1939 Vol. 3,P. 1899
- Hillenbrand: Persian painting, P. 90&- Robinson: Islamic painting, P. 215.
- (8) - السالم ، حصة صباح: كنوز الفن الإسلامي - متحف الكويت الوطني - 1985م. ص 179.
- (9)- Canby, Sheila :Persian painting – British museum press, 1993, P. 123
- (10)- Floor, William: “art (Naqqashi) and artists (Naqqashan) in Qajar Persia” in Muoqarnas Annual on the Visual culture of Islamic world, Vol. XVI- Koninklike Brill NV,1999, P. 139& - Falk S. J: Qajar Paintings “ Persian Oil Paintings of the 18th & 19th Centuries” – Faber and Faber LTD. , London , 1972.P. 25

- (11) - ماسلینتسینا، س. : هنر ایران گریده ای از مجموعه ی موزه ی هنرهای شرق تنظیم وتدوین : ناصر بورایبیرار – نشر کرانگ ، ص 7
- (12) - ماسلینتسینا، س. : هنر ایران ، ص 7
- (13) - کورکیان، أ.م. : باغهای خیال، هفت قرن میناتور ایران، طهران، 1377 هـ.ش.، ص 50
- (14) - إبراهیم ، سمیه : المدرسة القاجارية . ص 30 - 31
- (15) - العابد، ایمان : التأثيرات الأوروبية ، ص 150 – 151
- (16) - المرجع نفسه، ص 150
- (17) - نفسه ، ص 151
- (18) - نفسه، ص 152
- (19) - نفسه ، ص 152
- (20) - نفسه، ص 152
- (21) - نفسه، ص 152
- (22) - نفسه، ص 153
- (23) - نفسه، ص 154
- (24) - نفسه، ص 155

قائمة المراجع:

المراجع العربية:

- (1) - السالم، حصة صباح: كنوز الفن الإسلامي - متحف الكويت الوطني – 1985م
- (2) - باریت ، دوجلاس: الفن الإسلامي ببلاد فارس - (دت)

المراجع الأجنبية:

- 1)- Canby, Sheila :Persian painting – British museum press, 1993
- 2) - Falk, J.: Qajar Paintings “Persian Oil Paintings of the 18th&19th Centuries”- Faber and Faber LTD., London, 1972
- 3) - Hillenbrand Robert: Persian Painting from the Mongols to the Qajars - Cambridge University Press, London, 2000
- 4) - Kamrava, Mehran: The Political history of modern Iran. “From the Tribalism to Theocracy - west, Connecticut, London, 1980
- 5) - Pope A.U.:A survey of Persian art . Vol. 3,Oxford Universitypress,1939
- 6) - Robinson, B.W.:
- A) - A descriptive catalogue of the Persian painting in the Bodleian library, oxford, 1958
- B) - Persian drawing from the 14th through 19th century, Boston,1965

- C) - Islamic painting and the arts of the book, London, 1976
- D) - Robinson, B.W.: "Qajar art part2", encyclopedia Iranica, London, 1987
- 7) - Sims, Eleanor : Persian Painting and its sources. – Yale university press, 2002.
- 8) - The Islamic book, london,1929
- 9) - Verniot, Stephan: The Nasser D. Khalili Collection of Islamic art –Vol. 23-Occidentalism “The Islamic art in the 19th Century “– The Nour Foundation in association with Azimuth editions and Oxford University Press, 1997

المراجع الفارسية:

- (1)- کورکیان ، آ.م.: باغهاي خيال ، هفت قرن میناتور ایران ، طهران، 1377هـ. ش.
- (2) - ماسلینتسینا ، س. : هنر ایران گریده ای از مجموعه ی موزه ی هنرهای شرق تنظیم وتدوین : ناصر بورایبیرار – نشر : کرانگ

الدراسات والرسائل العلمية:

- 1). إبراهيم ، سمیه حسن محمد: المدرسة القاجارية في التصوير الإسلامي - دراسة أثرية فنية. مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار - جامعة القاهرة - 1977م
- 2) . العابد ، إيمان محمد ياسين: التأثيرات الأوروبية على الفنون الإسلامية الإيرانية خلال العصر القاجاري (1193هـ/1779م - 1343هـ/1925م). رسالة ماجستير. كلية الآثار. جامعة القاهرة ، 2008م

الدوريات العلمية:

- 1). مجلة هنر ومردم : زكاء، يحيى : ميرزا ابو الحسن خان صنيع الملك ، مؤسس نخستين هنرستان نقاشی در ایران. دوره 1 ش10. مرداد وشهریور42. العدد العاشر ، عام 1342هـ/1963م
- 2) - Floor, William: “art (Naqqashi) and artists (Naqqashan) in Qajar Persia” in Muoqarnas Annual on the Visual culture of Islamic world, Vol. XVI- Koninklike Brill NV,1999

البربر في جيش الخلافة الأموية في الأندلس 350-392هـ/961-1003م

أ/ بوخاري عمر، جامعة ابن خلدون- تيارت

مقدمة :

لم تجنح الخلافة الأموية في الأندلس فيعهد عبد الرحمن الناصر الى استجلاب البربر، الا بقدر ما كانت تحتاج إليه من مواجهة أعدائها.

فقد تبنى الخليفة الناصر سياسة التوجس و الحذر من هذه الفئة ، فقد اقتصر تجنيده على الغوغاء والإغفال من عامة البربر الذين ليس لهم من ملكات الالتئام والتمرد التي تسمح لهم بتهديد امن واستقرار الخلافة. ومع بداية المنتصف الثاني من القرن الرابع الهجري بدأت علامات الترهل تظهر في جيش الخلافة، فانبرى الحكم المستنصر إلى جبر التصدع وذلك بتطعيم الجيش بالعناصر البربرية التي ظل يملكها في بداية حكمه ، ثم تحول فجأت إلى الاهتمام بها و التعويل عليها ، خاصة عندما بلغه حسن بلائهم واستبسالهم في الحروب وخاض بهم دياجرة المواجهات.

وبمجئ الحاجب المنصور سار هو الآخر على نهجه حتى كاد أن يجعل من الجيش جيشا بربريا قضى به على الارستقراطية العربية ومنح الرواتب وقيادات الجيش للعناصر البربرية .

ولتجلية هذا الموضوع طرحنا الإشكاليات التالية : ما هي أوضاع هذه الفئة في جيش الخلافة في عهدي الحكم و المنصور ؟ وماهي انعكاسات تجنيد البربر في جيش الخلافة على مجتمع الأندلس؟

سياسة الحكم في اصطناع البربر:

عندما تولى الحكم المستنصر 350- 366هـ/961- 976م عرش أسلافه، لم يكن البربر قد اخترقوا جيش الخلافة، ولا حتى المناصب الحساسة في الدولة، بسبب سياسة التوجس والحذر التي تبناها والده عبد الرحمن الناصر 300- 350هـ/912- 961م، حيث اقتصر على تجنيد الغوغاء والأغفال، من عامة البربر الذين ليس لهم من ملكات الالتئام والتمرد، لتهديد أمن واستقرار الخلافة الأموية حيث يؤكد ذلك ابن حيان حين يقول: "لا يستخدم من البرابر إلا أرذالهم وعبدانهم من أشابتهم وأساودهم، موقعا عليهم اسم الطنجيين، مقتصرا بهم على أدنى الملاحق، قاصرا لهم على أقل الرواتب، مصرفا لهم في أشق الخدمة"¹.

وليس هناك من تعليل -حسب ظني- لهذه السياسة إلا لكون عبد الرحمن الناصر كان لا يثق بالعناصر البربرية التي طالما شقت عصا الطاعة².

نظرا لما سبق ذكره، لم يجرؤ الحكم المستنصر على ابتداء سياسة جديدة تجاه البربر وظل حريصا - إلى حين- على عدم خرق القواعد التي أرساها والده واستمر على نفس السياسة سواء فيما يتعلق بالحدود الجغرافية للأندلس، أو بالنسبة لشؤون المنطقة الغربية من المغرب³ كما يؤكد ذلك ابن حيان حيث يقول: "وأنهى خلفه ابنه الخليفة الحكم في امتثال ذلك صدر دولته"⁴، ومما يدل على امتثال سياسة والده أنه سار ذات يوم بموكبه نحو الزهراء فوقعت عينه على غلام له يركب فرسا بسرج عدوي (مغربي) الصنعة فامتعض الحكم لذلك وأنكر ذلك على الغلام إنكارا شديدا وأمر بمعاقبة الغلام وإحراق السرج⁵.

ولم يطرأ أي تغير على سياسة الحكم تجاه البربر إلى أن كانت الحرب مع بني محمد الحسنيين (الأدارسة) فرأى منهم ما أقر عينه.

يذهب أحد الباحثين إلى أن التغير الذي طرأ على سياسة الحكم جاء عقب الحروب التي دارت رحاها بين جيش الخلافة والبربر بقيادة الحسن بن كنون⁶ وهو ما أورده ابن حيان⁷. غير أنني أرى تواضعاً، أن هذا التحول بدأ مع وصول البربر إلى المناصب الحساسة في دولة الحكم الإدارية منها والعسكرية كما كان لإشراف عثمان بن نصر⁸ وهو من بربر بلنسية على تربية الحكم المستنصر⁹ أثر كبير على هذا التحول حيث قام الحكم بتعيين جعفر بن عثمان المصحفي¹⁰ وهو أبو الحسن - الوزير الحاجب المعروف بابن المصحفي كان والده عثمان بن نصر مؤدباً للأمير الحكم بن عبد الرحمن الناصر حتى توفي سنة 325هـ/936م وبعد وفاة أبيه قربه الحكم المستنصر إليه و عينه كاتباً له ثم ولاه الخليفة عبد الرحمن على كورة البيرة المرية ثم عزله عن البيرة التي تولاهم القائد محمد بن رماحس و اقر جعفر بن عثمان على البيرة فقط ثم ما لبث أن عزله عنها سنة 329هـ/940م وفي عام 333هـ/944م ولاه عبد الرحمن الناصر قائداً على الجزائر الشرقية فلما توفي عبد الرحمن الناصر وخلفه ابنه الحكم المستنصر استوزر جعفر بن عثمان المصحفي و كان جعفر من أهل العلم و الأدب البارِع و له إسهامات شعرية رائعة تدل على حسن طبعه و سمعة أدبه منها:

و لما قوي عضد المنصور و قوي بصبح حرم الحكم نكب بجعفر و مات في تلك النكبة 1 سنة 366هـ/976م.

كما أن هناك عامل آخر لا يمكن إغفاله، وهو الانتصار الذي أحرزه أبو علي جعفر بن علي بن أحمد

مجازاة نفسي لأنفاسها

أجاري الزمان على حاله

توارت به دون جلاسها

إذا نفس صاعد شقها

ن عكفت بصدري على رأسها

و إن عكفت نكبة للزما

بن حمدان الأندلسي ويحي أخوه على قوات زيري بن مناد الصنهاجي حيث دارت بين الفريقين معركة ضارية في رمضان 360هـ/970م عند وادي ملوية على مشارف المغرب الأقصى انتهت بهزيمة صنهاجة وقتل زيري ومعظم رجاله واستيلاء الزناتيين على معسكره¹¹ كما سآبين ذلك لاحقاً.

وأياً ما كان الأمر فإن البربر قد تبوؤوا مكانة محترمة لدى الحكم المستنصر حيث يقول ابن حيان: "وسبق جعفر ويحي أخيه وذويهما بالعبور إلى أرض الأندلس مهديين رأس زيري خالعين للدعوة الشيعية متقلدين للدعوة الأموية الجماعية وما جرى لهما لدى الحكم من قبول ورفعة"¹².

صحيح أن الحروب التي اشتعلت بين جيش الخلافة والبربر بقيادة الحسن بن كنون، كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير لكن تغير موقف الحكم لم يتم بهذه الفجائية التي أشار إليها عبد القادر بوباية. لقد تسنى للحكم أن يقف على شدة مراس البربر وقوة شكيمتهم وهو ما يؤكد ابن حيان: "فلاقى من صدق مراس رجالهم وش بأسهم على قلة عددهم ما ملأوا به عباب سيله ومارسوا برعالمهم"¹³ ألفاف كراديسه فصابروا جلادهم وقاوموا قراهم وأبروا في بعض المواطن عليهم حتى لقتلوا ابن طلمس القائد الجليل أول ناهد بالجيوش إليهم في طائفة من حماة الجند، أشجوا فيه الخليفة الحكم وحرّقه"¹⁴.

ومهما يكن من أمر فإن الحكم المستنصر أدرك بحصافة عقله وبعد نظره أن علاقته بالمغاربة متوقفة طرا على نوع العلاقات بين المغاربة والفاطميين وأصبح الشغل الشاغل لديه هو درء خطر الفاطميين بشتى الوسائل¹⁵ غير أن هذه السياسة سرعان ما اصطدمت بمصالح أمراء الأدارسة الذين ظلوا مصممين على استعادة ملكهم الغابر في هذه النواحي الشمالية من المغرب¹⁶.

وعندما اكتسحت قوات بلكين ابن زيري بن مناد¹⁷ بلاد المغرب وهيمنة على أهم المراكز، كان الحسن ابن كنون أول من سارع إلى بيعته¹⁸ وهو ما أشار إليه ابن الخطيب حين يقول: "واتصلت مشايعته- أي الحسن بن كنون- للمروانية وتمسك بدعوتهم إلى أن ولي أمر إفريقية بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي فتحرك إلى المغرب حركته الشهيرة التي استأصل فيها ملوك زناتة وقطع دعوة بني أمية من المغرب وقتل أولياءهم وأخذ البيعة لمعد بن إسماعيل كما فعل جوهر قبله وكان الحسن بن كنون هذا أول من سارع إلى بيعته الشيعة ونصرة بلكين"¹⁹.

وعلى عجل بادر الحكم بتعبئة الجيش لغزو بلاد المغرب وقتال الثائر الحسن بن كنون، وأوكل قيادة الجيش للقائد محمد بن القاسم بن طلمس²⁰ وزوده بتعليماته وأوصاه أن يستعين بمن دخل في طاعة الأمويين من البربر²¹ واندفع جيش الخلافة نحو تطوان²² فألفاها خالية ومنه إلى مدينة طنجة²³ ولما أحس الحسن بن كنون بشدة الحصار، فر هاربا في ثلة من أصحابه²⁴.

وفي تلك الأثناء استطاع الحسن بن كنون جمع قواته مرة أخرى حيث أعاد تنظيمها والتقى بجيش الحكم في ربيع الأول سنة 362هـ/972م في مكان يعرف بفحص مهران وكان النصر من نصيب الحسن بن كنون وانهزمت القوات الأندلسية وقتل منهم عدد كبير وعلى رأسهم القائد الأندلسي محمد بن القاسم بن طلمس²⁵.

لقد كان لسقوط هذا الأخير في ميدان المعركة أثر عميق على نفسية الحكم بلا ريب²⁶ ولكن في نفس الوقت أكبر من شأن البربر واعترف ببأسهم وهم الذين رغم قلة عددهم وعدتهم تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالجيش الأموي وهو ما يذكره ابن حيان حين يقول: "ووافته على ذلك شارة رجال هؤلاء الحسنين في غلمانهم وصناعاتهم المرغبين لهم وله بإذعانهم للذي سبق لهم لديه من الاغتصاص بمرارتهم والاعتراف ببأسهم"²⁷.

وظل الحكم حريصا على استمالة البربر حتى حين قام بتشجيع غالب مولاة وصاحب حروبه حين أنجد به جيشه المهزوم ببلاد المغرب حيث أوصاه بالاستماتة في مقاتلة الرؤوس والإحسان إلى من أذعن من القبائل البربرية وقال له: "يا غالب سر سير من لا إذن له في الرجوع إلا حيا منصورا، أو ميتا معذورا، ولا تشح بالمال وأبسط يدك به يتبعك الناس"²⁸.

هذا النص أعلاه يدل دلالة واضحة على أن أولى الأولويات لدى الحكم هي استمالة البربر وتكبييلهم بسلاسل الإحسان إليهم.

وبعد انتهاء المعركة التي أحرز فيها غالب النصر انقادت جموع البربر إلى دعوة المروانية وأجازهم إلى قرطبة²⁹ ليضافوا إلى من سبقهم من البربر حيث يقول ابن حيان: "فتقبلهم معرضا عن نحلته على بصيرة مسمحة، واكتملت بهم لديه آخر دولته القصيرة من هذه الفرق الثلاث البربرية الرجال: رجال بني حسن ورجال ابني الأندلس، ورجال البرازلة عسكر ضخيم يقاربون السبعمئة فارس"³⁰.

ونال الحسن بن كنون صحبة رجاله خطوة كبيرة لدى الحكم المستنصر وأوسع لهم في التكرمة و العطاء و اسكن الحسن بجواره إلى أن ساءت العلاقة بينهما و أجلاه عن الأندلس و أورد ابن الخطيب ما نصه: " و كان دخول العلويين صحبة غالب إلى قرطبة أول المحرم مفتتح سنة أربع و ستين و المائة و عفا عنهم الحكم ووفى للحسن بعهد و أوسع له و لرجاله في العطاء و كانوا سبعمائة من الشجعان و استمرسكناه في جوار الحكم و تحت بره إلى سنة خمس و ستين و ثلاثمائة ثم ساء ما بين الحسن بن كنون و بين الحكم المستنصر.³¹

ولم يقتصر الحكم المستنصر على استقدام هؤلاء البربر، وتفرغ العدو المغربية من هؤلاء الأبطال، بل فتح المجال لهم ليبلغوا أعلى المراتب في صفوف جيشه بعد أن تخلى عن نظراته السلبية تجاههم، ونلاحظ ذلك جليا في النص الذي أورده ابن حيان حيث يقول: "...فيهم وجوه وأعلام حازوا عما قليل بالعسكر الرئاسة جميعهم من البربر الذي طال مقت السلطان لهم وزهده فيهم"³².

لقد كانت سياسة الحكم في اصطناع البربر نابعة من قوة هذه العناصر وحسن بلائها في الحروب، وبخاصة عندما شهد ثباتهم في لجج الحرب الأخيرة مع ابن كنون.

وكانت المؤهلات الحربية التي عرف بها البربر من شجاعة وفروسية وإقدام³³ من الشروط التي يتطلبها الجيش الأندلسي على عهد الحكم حيث يحدد ابن حيان هذه الخصال متحدثا عن موقف الحكم: "فمنحهم الله قبوله وحسن عنده زيههم واستنبل تخفيفهم في مراكبهم وانكماشهم في ثقلهم ورأى أن أخذهم بذلك في آلتهم أليق بصناعتهم وأرفق بخيولهم"³⁴ وبذلك فقد أضاف الحكم دما جديدا لجيش الخلافة الذي -حسب ظني- لاحظ المستنصر شغورا حرص على ملئه بهذه الفلول من البربر.

لقد أدرك الحكم ببعد نظره أن جيش الأندلس الذي أنشأ والده وخاض به حروبه ضد المناوئين في شتى أنحاء الأندلس، واخمد به الفتن والقتال التي كادت أن تعصف بالخلافة الأموية - أصبح في حاجة إلى دم جديد وتركيبية بشرية جديدة تعيد إليه حيويته ومراده، فكان الخزان البشري الأجدر بهذا المشروع هو خزان العدو المغربية التي كانت تفرز رجالات الحرب من رحم المواجهات سواء بين القوى البربرية نفسها أو مع جيش الخلافة.

وظل الحكم محبورا بهذه الفئة من جند البربر، لا يفتأ يشيد بها حتى في ساعة مرضه الذي مات فيه، حين كان يتمتع نظره باستعراضهم أمامه: "حتى لظل أيام علته يشرف عليهم من قصبة دار الرخام المرسوم صحنها باعتراض الجند أيام إعطائهم، يتطلع على فرسان البرابر إذا تحركوا للعب شاخصا إليهم معجبا بهم يقول لمن حوله انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر"³⁵ بقوله:

فكأنما ولدت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

ما أعجب انقيادها لهم كأنها تفهم كلامهم فيعجب سامعوه من سرعة تحول رأيه فيهم³⁶.

وقد أدى اضطراب حيل الأمن في المغرب الإسلامي في عهد هذا الخليفة الأموي دفع الكثير من الأسر البربرية إلى الهجرة نحو الأندلس خاصة بعد تجنيده لفرسان البربر ولاحسن إليهم وتقريبهم واستقدم من المغرب بني برزال Les Birzalides وفرقة من بني دمر BANU dammar وبعض العناصر الاباضية³⁷ متخليا عن التزاماته في عدم السماح بدخول ارض الأندلس لنحل الدينية على غيرالمذهب السني.كل ذلك من اجل تقويت الفرصة على انضواء القبائل المغربية تحت الفاطميين.

واستنادا لهذه الوقائع فإنه يمكن اعتبار عهد الحكم هو بداية لسياسة الاعتماد على البربر في تشكيل الجيش الأموي حيث أصبحت صفة البربرية بادية على الجيش الأموي عندما انبث في هيكلته العامة قادة بارزون كان لهم قصب السبق في العديد من الوقائع التي سوف تشهدها الأندلس في عهد الدولة العامرية أو في عهد الفتنة التي أعقبتها كما سوف أبين ذلك بشيء من التفصيل.

♦ البربر على عهد المنصور ابن أبي عامر:

لما تولى الحكم المستنصر 366هـ/976م خلفه ابنه هشام المؤيد ليكون الخليفة الثالث في مسلسل الخلفاء الأمويين بالأندلس ونظرا لحدائث سنة لم يستطع أن يسوس شؤون الدولة ويولي كبير عناء لتأمين الثغور الشمالية مما زاد في أطماع الروم وشنوا الغارات حتى شكا المسلمون للخليفة استفزازات الروم وتطاولهم على ممتلكاتهم مما أثار حفيظة المنصور بن أبي عامر الذي ظل يلح على توليه أمر الجيش ومقارعة الغزاة. وكان في مقدمة المنافسين له جعفر بن عثمان المصحفي - الذي سبقت الإشارة إليه - حيث استغل عزل الخليفة له يوم الاثنين 13 شعبان 367/978م واعتقاله.

حيث تبرز مع هذا الخليفة الحدث، شخصية المنصور ابن أبي عامر الذي تولى الحجابة³⁸ الذي يعتبر أعظم شخصية سياسية وعسكرية عرفتها الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي - وهو من الشخصيات التي صنعتها الظروف السياسية وتألفت بها إلى أعلى مناصب الدولة، فهو بالرغم من انتمائه إلى بيت متواضع فقد تمكن من الاستئثار بالحكم طوال عهد هشام بن الحكم المستنصر، واستطاع بدهائه أن يتخلص من منافسيه بشتى الطرق والمكائد - وهو من اليمينية حيث دخل جده عبد الملك مع طالعة طارق بن زياد إلى الأندلس، ولد بقرية تركش ثم رحل إلى قرطبة وفيها تلقى تعليمه - ثم فتح له مكتبا قرب باب القصر، يكتب للناس رسائلهم ومرافعاتهم للسلطان. وسمح له عمله هذا بالاحتكاك مع خدام القصر - ويوم احتاجت السيدة صبيح من يكتب عنها دلها عليه احد المعجبين به ومن كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فلما استعملته واطمأنت إليه نبهت إليه الحكم المستنصر الذي ولاه عدة مناصب اظهر فيها نجابة واستحقاق إلى أن عينه الحكم قبل وفاته وزيرا لابنه هشام حيث قام المنصور بدور فعال في تنصيب هشام. وذاع صيته بين الرعية بعد أن تصدى لتحرشات الأسبان في الشمال ويلحق الهزيمة لجيوشهم.³⁹ واستطاع أن يشق طريقه كقائد عسكري وسياسي بإرادة قوية منتهزا في ذلك الفرص المتاحة لتقوية نفوذه على حساب رجال الدولة واستطاع بدهائه أن يمكر بهم وأن يضرب بعضهم ببعض ومن أجل استكمال هذا المشروع عمد إلى إصلاح الجيش فاسحا المجال للعناصر البربرية⁴⁰.

ليس هذا فحسب بل جعله قطب رchy لهذه الإصلاحات، لما تميز به البربر من خبرة قتالية، ومراس شديد، والتفاني في الانقياد والتحمل⁴¹ وهو ما يؤكد ابن حيان: "وأسرع موت الحكم على تقيته ذلك فأعقبهم عاقب جعفر بن عثمان في تدبير سلطان هشام الوالي بعده محمد بن أبي عامر خيره فاستظهر بهم على شأنه حين استولى على الملك فعلاهم على طبقات أجناده واصطفاهم لنفسه فخاض بهم الدياجير في حياته"⁴².

تطلبت هذه الإصلاحات استئصال الأحقاد والضغائن من صفوف جيشه البربري المكون من مختلف القبائل المغربية، وفي مقدمتها القبيلتان الكبيرتان (زناتة وصنهاجة) اللتان دارت بين أسلافهم حروب طاحنة جندلت فيها آلاف الرؤوس ومنها رأس زيري بن مناد، كما سآبين ذلك لاحقا. فتمكن المنصور أن يجمعهم في جبهة واحدة ويقف في وجه أعدائه في الداخل والخارج وهو ما أورده ابن خلدون "ولما خلا الجو من أولياء الخلافة

والمرشحين للرئاسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدو من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة⁴³.

ويستخلص من النص الذي أورده ابن خلدون أن المنصور ابن أبي عامر فتح الباب على مصراعيه لمختلف القبائل البربرية، لا يفتأ يستغل كل فرصة لاستقطابهم، حيث اتفق أن تحرك في هذه الفترة نائب الفواطم على إفريقية، بلكين بن زيري الصنهاجي في حملته التي أجهز بها على المغرب الأقصى، وأجفلت قبائل زناتة التي احتشدت في مدينة سبتة قاعدة الخلافة الأموية في المغرب⁴⁴. فاستغل المنصور هذه الحادثة وبعث إلى رجال زناتة يدعوهم إلى القدوم إليه وكان أعوانه قد أشاروا عليه بذلك حين قالوا له: "قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة واعتقاد المنة عليهم فأرسل إليهم يأتوك سراحا فيجد إحسانك إليهم مكانا"⁴⁵.

إلا أن المنصور بن أبي عامر كان أعرف الناس بالبربر يعرف خصال الشراة والطمع فيهم فلم يتركهم بلا عطاء ولو لم يلحوا عليه بالسؤال وذلك لتقديره العظيم لمعروفهم الذي أولوه إياه⁴⁶.

وظل يستكثر ويستزيد من عناصرهم ويزرعهم في صفوف جيشه بانتظام ليكون بهم قاعدة صلبة لمواجهة أعدائه ويحدد الصفدي عدد المجندين من البربر في جيشه بأربعة آلاف ومائتي فارس⁴⁷، أما ابن الخطيب فيحدد عددهم بخمسة آلاف: ثلاثة آلاف فارس وألفي راجل من رقاصة السودان الداخلين في عدادهم وكان البربر يشغلون ميمنة جيش المنصور بن أبي عامر⁴⁸.

وكان الذي شجع المنصور بعد مستشاريه معرفته بطبائع البربر التي لم تكن غريبة عنه فقد سبق أن عاش في بلادهم وبين قبائلهم عدة أعوام في عهد الحكم المستنصر.

وفوق ذلك هناك نص في غاية الأهمية يعضد ما أورده ابن خلدون في النص الذي سبقت الإشارة إليه حول اعتماد المنصور على هذه الطائفة البربرية من العدو المغربية وهو ما يؤكد ابن الخطيب بقوله "فاستظهر بفرسان الهيجاء وأبطال الكريهة وأعلام السمرة من فرسان الغرب وزناتة الواردين على بابها في سبيل الحسائف والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم فارتاش منهم بأجنحة وافرة لم يستظهر قبله ملك بمثلها ومغراوة وأزداجة وزناتة وصنهاجة"⁴⁹.

ويفهم من النص أعلاه، أن المنصور بفرط ذكائه استطاع أن يستثمر الخلافات بين هذه القبائل، لتجنيد ما أمكن من أبطالهم وأفذاذهم في صفوف جيشه.

وبغية الهيمنة والتسلط عمد المنصور إلى سياسة التفرقة والتتوع العرقي حتى أصبح أجناده قبائل مختلفة، وأجزاء ممزقة لا يربط بينها سوى الخضوع للسلطة المركزية التي أصبحت بيد الحاجب المنصور، وكان الهدف من هذه السياسة هو إضعاف الروابط القبلية للعناصر العربية الأندلسية في الجيش. وفي المقابل قرب المنصور البربر وصاروا من حاشيته ويطانته، وهم أظهر الجند عنده وأعلامهم مرتبة⁵⁰. وتحولوا بذلك إلى أداة طبيعة بين يديه يضرب بها كل ناعق.

وبهذه السياسة المنتهجة من قبل المنصور يكون قد لامس هدفه المتوخى ألا وهو إبعاد الارستقراطية العربية الأندلسية من الهيكل العامة للجيش الأندلسي⁵¹ وهو ما يشير إليه ابن خلدون: "وقدم رجال البرابرة وزناتة، وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر"⁵².

ويُستخلص من كلام ابن خلدون أن تقديم المنصور لهؤلاء البربر وإظهارهم على حساب العناصر العربية لم يكن حبا في البربر بقدر ما هو تقوية الفرصة على الأندلسيين وقطع الطريق أمامهم نحو السلطة خاصة وأن الظرف كان مناسباً لأن تظهر فيه شخصية عربية من السلالة الأموية لها من القدرات ما تستطيع أن تملأ هذا الشغور في السلطة وتزيح الأسرة العامرية.

لذلك راح المنصور بن أبي عامر يضرب على هذا الوتر الحساس، ويجرد هؤلاء الزعماء من معظم القوى التي كانت بين أيديهم، ويجعلها تحت السلطة المركزية التي أصبحت بين يدي الخليفة⁵³ وبفعل هذا التغيير الذي تبناه المنصور في نظام الجند زالت العصبية القبلية بين أفراد الجيش، وربما زالت تلك الأحقاد التي كانت بين الطوائف البربرية نفسها.

لقد سمحت هذه السياسة بتجمع العناصر البربرية في قطاع حساس، ومن ثم الإحتكاك بالشرائح المختلفة للمجتمع الأندلسي. وذلك أن تنظيمات المنصور استندت على جعل القوات المسلحة وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادة عليا وإلغاء النظام القديم الذي يقوم على أساس قبلي وعنصري، ولا شك أن الإنتصارات المتتالية التي حققها المنصور، وحسن بلاء البربر فيها، كانت تزيد من مكانتها في المجتمع الأندلسي فترسخت بذلك جدوى هذه الإصلاحات التي رفع لواءها المنصور بن أبي عامر.

إلا أن هناك من يرى أن هذا التنظيم الجديد لم يجلب سوى النتائج السلبية للمجتمع الأندلسي حيث يورد لنا أبو بكر الطرطوشي نصاً في غاية الأهمية حيث يقول: "وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم انتقاصاً لما كانت الأرض مقطعة (مملوكة) في أيدي الأجناد فكانوا يستغلونها فيرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يربي التاجر تجارته وكانت الأرض عامرة ويقولون ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو في الضعف والأموال وافرة والأجناد متوافرة والكرع (الخيل) والسلاح فوق ما يحتاج إليه إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن عامر فرد عطايا الجند مشاهرة يقبض الأموال على النطأ، وقدم على الأرض جباة يجبونهم فأكلوا الرعايا فاجتاحوا أموالهم واستضعفهم فتهافت الرعايا وضعفوا عن العمارة فقلت الجباة المرتفعة إلى السلطان وضعفت الأجناد وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منهم"⁵⁴.

ويستنتج من هذا النص أن تردّي الأوضاع الاقتصادية في أواخر عهد المنصور مردها إلى انشغال الأجناد من قواته بالمراقبة في الثغور وخوض غمار الحروب. فحل محلهم جباة استغلوا هؤلاء الفلاحين وأرهقوهم.

إلا أنني أرى أن الأمر على النقيض من ذلك، حيث أن الإصلاحات والتغييرات العددية والنمطية التي أجراها المنصور على الهيكل العامة وإعادة صياغة البنية القاعدية للجيش قد أعادت للأندلس هيبتها بفعل المدافعة في الثغور الشمالية التي كانت تنتهي بانتصار الجيش، واحتل بذلك مكانة بارزة كقطاع حساس، وعلت مكانة المنصور ابن أبي عامر باعتباره قائد هذا الجيش وحامي حمى الأندلس، ومع ذلك وبالرغم من وصول المنصور إلى تحقيق أهدافه إلا أنه ظل حريصاً على الحفاظ على هذا الخزان البشري الذي لا ينضب معينه.

فهو عندما استولت قواته على مدينة فاس ندب المنصور الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي⁵⁵ ومنحه سلطات واسعة في إدارة البلاد وأمره أن يعمل على استمالة قبائل البربر وأوصاه بمغراوة وعلى رأسهم زيري بن عطية لما قدموه من المساعدات للأمويين وإخلاصهم للدعوة الأموية في بلاد المغرب⁵⁶.

وهكذا ومن خلال ما أوردته من النصوص يتضح جليا أن المنصور بن أبي عامر واعتمادا على هذه الفئة من البربر استطاع أن يقهر أعداءه في الداخل ويزيجهم عن مزاحمته، ويفرض نوعا من الاستقرار الداخلي الذي عرفته الأندلس خلال عهد عبد الرحمن الناصر ونجده الحكم المستنصر.

كما ظلت آلتة العسكرية متأهبة طوال فترة حكمه يقارع بها جيوش النصارى في معارك فاصلة لم يصب فيها بانهزام حيث يؤكد صاحب تاريخ الأندلس ما يلي: "وهي ست وخمسون غزوة لم يهزم قط في غزوة منها ولم يزل فيها ظافرا مؤيدا منصورا عند اسمه"⁵⁷.

وصاروا دروعا يحتمى بها عند الكريهة إذا حمي وطيسها حتى أن أهل الأندلس كانوا يحسدونهم على هذه المكانة التي حضوا لدى المنصور حيث يشير إلى ذلك ابن الأثير: "لما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور بن أبي عامر: لقد نشطنا هؤلاء -أي البربر- للغزو فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج إلى الجهاد"⁵⁸. وظل يستفز أعداءه في التخوم الشمالية وينزل بهم الهزائم تلو الهزائم ولا يترك لهم فرصة التوحد واستجماع قواهم وهو القائل:

رميت بنفسي هول كل عزيمة وخاطرت والحر الكريم مخاطر
وما صاحبي إلا جناد مشيع واسمر خطي وابيض باتر
ومن شيمتي أني على كل طالب أجود بمال لا تقيه المحاذر
وإني لمقتاد الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيها أسود خواد⁵⁹

هذا وقد توغل جيشه في عمق الأراضي المسيحية حتى وصل في غزوته الثمانية والأربعين التي انطلقت في صائفة جمادى الآخرة عام 387هـ/997 إلى ليون وكنيسة القديس يعقوب (شانت ياقث) في أقصى الشمال الغربي لشبه جزيرة ايبيريا فهدمها ولم يبق إلا على قبر القديس.⁶⁰

لقد كانت حياة المنصور بن أبي عامر جهادا متواصلا، مما اثر في حياته الصعبة وبالرغم من اعتلال صحته استتفر جيشه للخروج إلى جليقية سنة 392هـ/1001م ولما اشتد به المرض وحال دون مواصلة الكفاح عاد أدراجه نحو الجنوب⁶¹ وفي الطريق صنع له جيشه سريرا من الخشب حملوه عليه مدة أربعة عشر يوما حتى بلغوا به مدينة سالم، واسلم روحه لربه في 27 رمضان 392هـ/1001م ووري التراب ونقش هذان البيتان على شاهد قبره.⁶²

أثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه
تأله لا يأتي الزمان بمثله أبدا ولا يحمي الثغور سواه

الهوامش:

- 1 - ابن حيان أبو مروان حيان بن خلف - المقتبس في أخبار بلاد الأندلس - تحقيق صلاح الدين الهواري - المكتبة العصرية - ط1 - صيدا بيروت - 1426 هـ - 2006 م - ص148.
- 2 - عبد القادر بوباية - البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية - جامعة وهران 2001/2002 م - ص115.

- 3 - ليفي بروفنسال- تاريخ إسبانيا الإسلامية- ترجمة إيميليو جارثيا جومث إلى الإسبانية وعبد الرؤوف البمبي وعلي ابراهيم منوفي والسيد عبد الظاهر عبد الله، مراجعة صالح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، مدريد، ط2، 2000م- ص430.
- 4 - ابن حيان- المصدر السابق- ص148.
- 5 - ابن حيان- نفس المصدر- ص148.
- 6 - عبد القادر بوباية- نفس المرجع- ص120.
- 7 - ابن حيان- نفس المصدر- ص148.
- 8 - عثمان بن نصر: هو عثمان بن نصر بن عبد الله بن حميد بن تسلمة بن عباد بن يونس القيسي المصحفي المؤدب، من أهل قرطبة، كان ذا سمت وعدالة، وهو والد الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي توفي يوم الإثنين من ذي الحجة سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وهو ابن اثنتين وستين سنة، ابن الفرضي أبو الوليد- تاريخ علماء الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية- صيدا- بيروت- 1426هـ/2006م- ص271.
- 9 - ابن الفرضي- نفسه- ص271/ ليفي بروفنسال- المرجع السابق- ص432- 433.
- 10 - الحميدي أبو عبد الله- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية بيروت ط1 2004 ص134. ابن حيان- المقتبس - ج5 نشر بيدرو شلميطه المعهد الإسباني العربي للثقافة مدريد، كلية الآداب الرباط 1979 ص47 الظبي بن عميرة- بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري- المكتبة العصرية 2005 ص234.
- 11- ابن حيان- المصدر السابق- ص18/ ابن عذاري المراكشي- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- تحقيق ليفي بروفنسال وج س كولان- دار الثقافة بيروت- ط3، 1981م- ج2، ص342.
- 12- ابن حيان- المصدر السابق- ص22.
- 13- رجالهم جمع الرعيل الجماعة القليلة من الرجال أو الخيل أو التي تتقدم غيرها والكراديس الطائفة العظيمة من الخيل والجيش- ابن منظور أبو الفضل- لسان العرب- دار صادر للطباعة والنشر- بيروت- 1388هـ- 1978م- ج11 ص286.
- 14- ابن حيان، المصدر السابق- ص149.
- 15- عبد العزيز فيلالي- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس والمغرب- دار هوم، الجزائر، 2007م- ص214.
- 16- أحمد مختار العبادي- في تاريخ المغرب والأندلس- مؤسسة الثقافة الجامعية- الإسكندرية- دت- ص230.
- 17- بلكين بن زيري بن مناد المسمى يوسف المكنى بأبي الفتوح والملقب بسيف العزيز بالله وهو من هزم زناته، واستأصل شأفته وفتح معاقلهم ووكل من قبل أبيه زيري ابن مناد بتأسيس مدن، الجزائر ومليالة، والمدينة - ابن الخطيب لسان الدين- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط- تحقيق أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني - دار الكتاب دار البيضاء 1964م، ص221/ الهادي روجي إدريس- الدولة الصنهاجية- ترجمة حمادي الساحلي - دار الغرب الإسلامي بيروت، 1992م، ج1، ص60.
- 18- ابن أبي زرع الفاسي- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- دار المصور للطباعة، الرباط 1972م- ص91.

- 19- ابن الخطيب- نفسه- ص221.
- 20- ابن حيان- المصدر السابق- ص57/ ابن عذاري- المصدر السابق- ج2 ص364/ الناصري أبو العباس- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري- مطبعة دار الكتاب الدار البيضاء، 1954م- ج1 ص200.
- 21- إسماعيل العربي- دولة الأدارسة- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1983م- ص183.
- 22- تطوان: قاعدة بني سكين فيها قصبة للأول، وبها مياه كثيرة سائحة، أقيمت فيها الأرحاء وهي على بعد نحو 18 ميل من المضيق و6 أميال من البحر وقد فتحها المسلمون عندما أخذوا مدينة سبته من يد القوط. أبو عبيد البكري- المسالك والممالك- تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري- الدار العربية للكتاب- تونس، ج2، ص784/ حسن الوزان المعروف بليون الإفريقي- وصف إفريقي- ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر- دار الغرب الإسلامي بيروت، ط2، 1983م، ج1، ص318.
- 23- ابن حيان- المصدر السابق- ص58.
- 24- نفسه- ص66.
- 25- نفسه- ص71/ مؤلف مجهول- مفاخر البربر- تحقيق بوباية عبد القادر- دار أبي رقرق- الرباط 2005م- ص98/ الاستقصا- المصدر السابق- ص200/ ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص93.
- 26- ابن حيان- نفسه- ص149.
- 27- نفسه- ص149.
- 28- ابن أبي زرع- المصدر السابق- ص112/ الناصري- المصدر السابق- ج1 ص201.
- 29- السيد عبد العزيز سالم- تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس- مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية- 1985م- ص389.
- 30- ابن حيان- المصدر السابق- ص150.
- 31- ابن الخطيب لسان الدين- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط- تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني- دار الكتاب الدار البيضاء 1964 ص222.
- 32- نفسه- ص150.
- 33- عبد القادر بوباية- المرجع السابق- ص192.
- 34- ابن حيان- المصدر السابق- ص150.
- 35- الشاعر أبو الطيب المتنبّي المتوفى سنة 354هـ/ 950م قصيدة يمدح فيها أبا أيوب أحمد بن عمران ومطلعها-
سرب محاسنه حرمت ذواتها داني الصفات يفيد موصوفاتها
أوفى فكنت اذا رميت بمقلتي بشرا رأيت أوق من عبراتها
يستاق عيسهم أنني خلفها تتوهم الزفرات زجر حراتها
وكأنها شجر بدت لُكنها شجر جنيت الموت من عراتها
لا سرت ابل لو اني فوقها لمحت حرارة مدمعي سماتها
أبو الطيب المتنبّي - ديوان المتنبّي - المكتبة الثقافية - بيروت - دت - ص186.
- 36- ابن حيان- المصدر السابق- ص150.
- 37- ارزقي فراد المرجع السابق ص14.

- 38- مجهول- تاريخ الأندلس- دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية- دار الكتب العلمية- بيروت- 1428هـ/ 2007م- ص216.
- 39 المقري نفع الطيب-ج1 ص399- فراد محمد ازقي القوى الغربية في الأندلس ص16 الفتح بن فاقان
- 40- محمد سهيل طقوش- تاريخ المسلمين في الأندلس- دار النفائس- بيروت- 2005- ص363.
- 41- أحمد مختار العبادي- في التاريخ العباسي والأندلسي- دار النهضة العربية- بيروت- 1972م- ص439.
- 42- ابن حيان- المصدر السابق- ص151.
- 43- ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص177.
- 44- مجهول- مفاخر البربر- ص106.
- 45- ابن عذاري- المصدر السابق- ج2 ص293، 294.
- 46- دوزي رينهارت- المسلمون في الأندلس- ترجمة حسن حبشي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- 1994م- ج2 ص113.
- 47- الصفدي خليل ابن أيك- الوافي بالوفيات- نشر هلموت ريتز- دار النشر فرانس ستاين- فيسبان- 1962- ص87.
- 48- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام- تحقيق إ. ليفي بروفنسال- دار المكشوف- بيروت- ط2- 1956م- ص102.
- 49- ابن الخطيب- المصدر السابق- ص66.
- 50- ابن عذاري- المصدر السابق- ج2 ص279.
- 51- ارزقي محمد فراد- المرجع السابق- ص20.
- 52- ابن خلدون- المصدر السابق- ج4 ص177.
- 53- دوزي رينهارت- المرجع السابق- ج2 ص111.
- 54- الطرطوشي أبو بكر- سراج الملوك- تحقيق محمد فتحي أبو بكر- الدار المصرية اللبنانية- القاهرة- 1414- 1994- ج2 ص498- 499.
- 55- عبد الودود السلمي: الحسن بن أحمد بن عبد الودود من خاصة المنصور ولاء المغرب بعد الاستيلاء على مدينة فاس سنة 376هـ/ 986م وخوله صلاحيات واسعة وقام بضبط البلد وهاب البرابرة بأسه وامتحنه المنصور بعد سعاية قام بها حاسدوه فوجده من المخلصين له وازدادت ثقته عنده، مجهول- مفاخر البربر- ص111.
- 56- ابن خلدون- المصدر السابق- ج7 ص40/ مجهول- نفسه- ص111.
- 57- مجهول- تاريخ الأندلس- ص226.
- 58- ابن الأثير عز الدين أبي الحسن- الكامل في التاريخ- دار صادر- بيروت- 1385هـ/ 1965م- ج9 ص33.
- 59- مجهول- تاريخ الأندلس- ص226.
- 60- ابن عذاري المبيان المغرب ج2 ص440- 443.
- 61- المقري أبي العباس- نفع الطيب من عنصر الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لأنه الدين ابن الخطيب- تحقيق إحسان عباس- دار حماد بيروت 1968 ج1 ص597.
- 62- ابن عذاري المراكشي- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج2 ص440 - 443

موقف رجال الحركة الوطنية من الكيان الصهيوني بفلسطين 1948/1936

د/كلاخي ياقوت، جامعة تيارت

الملخص:

تعد القضية الفلسطينية من أبرز القضايا التي لم يتم تسويتها الى يومنا هذا، اذ تتفرد بتاريخها التحرري الذي نجد له حضورا ضمن الحركة الوطنية الجزائرية ونضال رجالها وذلك مايدل على انتشار الفكر القومي العربي خلال فترة الثلاثينيات والاربعينيات وهي الفترة التي شهدت نشاطا ووعيا سياسيا ترجم في نشاطات الحركة الوطنية الجزائرية ومن بين القضايا التي لقيت اهتماما لدى السياسيين الجزائريين القضية الفلسطينية، فكان حزب الشعب الجزائري من الاحزاب التي دعت الى نصرته القضية الفلسطينية خاصة بعد لقاء مصالي الحاج مع شكيب أرسلان مما جعل الحزب يتجه اتجاها قوميا عربيا، كما كان لجمعية العلماء المسلمين موقفها المساند للقضية معنويا وماديا، وبعد اعلان الكيان الصهيوني لاقامة دولته على الاراضي الفلسطينية سجلت للشخصيات الوطنية الجزائرية استنكارها للوضع الذي آلت اليه القضية الفلسطينية، حيث سجلت من خلال الوثائق الارشيفية قضية اتهام بوتارن قادة بالاعتراف بالكيان الصهيوني ودولته على أرض فلسطين وهو أحد أبرز الاعضاء ضمن حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بتيارت والتي أثارت ضجة في أوساط السياسيين بمدينة تيارت على مستوى حزب حركة الانتصار المعروف بصراعه مع حزب الاتحاد الديمقراطي، ومهما كانت ملبسات القضية فاننا نستنتج ما لي القضية الفلسطينية من أهمية لدى الجزائريين خاصة النخب منهم السياسية والثقافية الذين عملوا على نصرته القضية الفلسطينية.

The Attitude of the Algerian Political Leaders toward the Sionist Occupation of Palestine

The Palestinian Question is still the among the issue that are not yet set up by the international community. This question has had an echo in the Algerian national movement during the 1930s and 1940s when the Algerian liberation movement was in intense activities.

The Association of the Algerian Ulemawas backing up the Palestinian question and it was denouncing the Sionist State and the British occupation of Palestine.

The Party of the Algerian People was also in the same position regarding this Arab problem. Its leader, Mr Messali Hadj had met with Mr Chekib Arslan of Syria and became not only struggling for independence but he was supporting the Arab issues.

According to the Algerian archives, Mr Boutarene Kada, an outstanding member of the Democratic Union for the Algerian Manifest which founded in June 1946, had been accused of recognising the Jewish State in Palestine ; the fact that he had denied vigorously in the local and regional newspapers. This event proves the interest of the Algerians in the Palestinian question.

تعد القضية الفلسطينية من أعلق القضايا وأكثرها تأزما حيث اجتمعت حولها مصالح العديد من الدول بداية من بريطانيا صاحبة مشروع تقسيم المشرق العربي ضمن ما عرف باتفاقية **سايكس بيكو** التي جمعتها مع فرنسا، غير أن هذه الاخيرة كانت خططها الاستعمارية متمركزة نحو المغرب العربي، لتظهر الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية كقوة سياسية عالمية لتحل محل بريطانيا في منطقة المشرق العربي بغرض حماية الكيان الصهيوني والمساهمة في نشأته وزرعه كدولة لها كيانها السياسي والعسكري

والاقتصادي حيث يعد الكيان الصهيوني ممثلا للرأسمالية الغربية في قلب العالم العربي، وفي الوقت الذي كانت بريطانيا تخطط لاختضاع المشرق العربي بعد أن تأمرت مع الشريف حسين على التواجد العثماني والقضاء عليه تحت ما عرف بالثورة العربية سنة 1916، كانت فرنسا حينها قد قطعت شوطا كبيرا في اخضاع بلدان المغرب العربي على رأسها الجزائر التي تعد ضمن المخطط الاستعماري الفرنسي تجربة ونموذجا سعت فرنسا لتعميمه في المناطق التي احتلتها بالمغرب العربي، تلك هي السياسة نفسها التي اعتمدها بريطانيا في فلسطين ومن بعدها الكيان الصهيوني والاستعمار الفرنسي بالجزائر.

فالاستعمار الامبريالي كان يهدف أساسا لاستثمار الافراد والشركات الرأسمالية الغربية في بلدان العالم العربي عن طريق تنمية رأسمالها وتنويع استثمارها وربط اقتصاد البلدان العربية بالاقتصاد الرأسمالي الغربي⁽¹⁾، ولم يهدف الى تنمية المنطقة أو عمل على اعادة الفرض للسكان الاصليين لممارسة حقهم في اقتصاد يلبي حاجة المواطنين للمواد الاساسية ويعمل على تنميتها بل هدف الى سد حاجة السوق في الدول الغربية وتلبية سياسات دولها في كل الظروف⁽²⁾.

وهذا ما اتضحت معالمه بعد نهاية الحرب العالمية الأولى التي كانت لها انعكاسات سلبية على العالم العربي كما كان لها انعكاسات ايجابية من أهمها دخول الفكر العربي مرحلة جديدة فكريا، سياسيا واجتماعيا فقد انتهت الحرب بخيبة أمل كبيرة للعرب فلم تتحقق آمانيهم لا في اعطاء حقوقهم السياسية كما وعدت بها فرنسا الجزائريين ولا في تحقيق بريطانيا لمطالب القوميين العرب المشاركة أعقاب المؤتمر العربي عام 1913 وخلال الثورة العربية 1916، بل قسم المشرق العربي الى دويلات محتلة، وسلمت فلسطين لليهود تحت غطاء استعماري بريطاني بمقتضى وعد بلفور 1917.

ونظرا لتشابه السياسة الاستعمارية البريطانية والفرنسية من جهة و لأن كلا من الجزائر وفلسطين يلتقيان في البعد العربي الاسلامي من جهة ثانية، عملت الاحزاب السياسية الجزائرية على نصرة القضية الفلسطينية وادراجها ضمن اهتماماتها في مكافحة الاستعمار الاستيطاني الذي عمل على القضاء عن الهوية الوطنية وبعدها الاسلامي والاستيلاء على الاراضي مصدر الرزق وأساس الاقتصاد في العالم العربي آنذاك، حيث يعتبر حزب الشعب الجزائري حزبا وطنيا ذو فكر راديكالي مناهض للاستعمار الامبريالي، ويرجع نشاط حزب الشعب الى فترة العشرينيات أين عرف بنجم شمال افريقيا الذي قامت الإدارة الاستعمارية بحله سنة 1929 متهمة إياه بمعاودة فرنسا والدعوة الى الثورة، لكن حزب النجم ظل يعمل في الخفاء إلى غاية 1933 وهي السنة التي عقد الحزب خلالها اجتماعا وكان ذلك شهر ماي، وقد أسفر الاجتماع على وضع برنامج ومن أهم ما إحتوى هذا البرنامج منع أعضاء النجم من الانتماء إلى أي منظمة أو حزب آخر، حيث خرج من النجم كل من دخل لأغراض غير وطنية وبذلك تجزأ هيكل النجم وأصبح يعمل لصالح القضية الجزائرية ولم يعد يهتم بقضايا المغرب العربي سوى اهتمام ثانوي⁽³⁾، وهو البرنامج نفسه الذي اعتمد عليه في تأسيس حزب الشعب، وقد أعلن عن برنامج الحزب من خلال تصريحات المكتب السياسي الذي أعلن سعيه لتحسين المستوى المادي والأخلاقي للشعب الجزائري ودفاعه عن كل مطالب الجزائريين كما رفض رفضا باتا الاندماج والفرنسة وعمل على تحرير الجزائر على غرار سوريا ومصر والعراق، كما أعلن مصالي الحاج من خلال الاستجابات الموجهة اليه عن

مطالب الحزب في تطبيق القوانين الديمقراطية والاجتماعية والسياسية ومنها تأسيس برلمان جزائري مع توضيح مفاهيم الوطنية الجزائرية واستقلال الجزائر.

أما مفدي زكريا فقد ركز على فكرة الدمنيون المعروفة عند الانجليز وهو إنشاء برلمان له الحق التشريعي وينتخب من طرف سكان الجزائر قاطبة، والشيء الجديد الذي أتى به الحزب هو تكوين نظام عصري ووعي سياسي يكون أساسا للكفاح المتواصل⁽⁴⁾.

كما ارتكزت إستراتيجية الحزب على الدفاع عن الإسلام والبلدان العربية لأن الإسلام كان المحرك الكبير للدفاع عن الشخصية والكرامة والارتباط مع التاريخ وكان أول من دافع عن الوحدة الجزائرية، وقد كان الشعور بالعروبة والإسلام هو المميز للحزب في اعتماده كعنصر أساسي من عناصر استمرارية الحزب ونضاله، وكان من مبادئه الدفاع ضد سياسة التنصير، كما تضامن الحزب مع المكافحين باسم الإسلام عن قضاياهم كما دافع عن الوحدة المغربية فنجد ضمن مقالاته تأييده لزعماء الحركة التونسية والمغربية، مع قضايا المشرق العربي والعالم الإسلامي.

كان للحزب مواقفه الصارمة اتجاه السياسة الامبريالية والاستعمارية وهذا ما كان سببا قويا في ازدياد شعبيته وعلو مكانته في أوساط الجزائريين، وذلك ما أكسبه تواجد قويا وشعبية خلافا عن النجم، فقد هدف حزب الشعب إلى جزارة المطالب السياسية، وهو ما أوضحه مصالي الحاج ضمن الاستجاب الذي قامت به رجال الشرطة والقضاء معه في 02 سبتمبر 1937م قائلا: «إن الفرق بين النجم وحزب الشعب هو أن هذا الأخير يطالب باحترام ديننا وأرضنا ونساءنا، فهو حزب ولد جزائريا ونشاطه يجري في الجزائر بخلاف النجم»⁽⁵⁾.

ولم يكتف حزب الشعب بالدفاع عن القضية الجزائرية بل تعداها إلى الدفاع عن قضايا العالم العربي والإسلامي فكان له موقفه منذ التأسيس من الاستعمار البريطاني لفلسطين، حيث كانت للقضية الفلسطينية مكانتها ضمن برنامج الحزب، هذه القضية التي اعتبرت من القضايا العالقة والتي لم تتم تسويتها بعد، إذ أنها اليوم تتعدى كونها قضية تاريخية فلا زالت ضمن القضايا السياسية الراهنة، غير أننا سنرجع بالتاريخ إلى الوراء لننتحدث عن البعد العربي والإسلامي لحزب الشعب الجزائري ودفاعه عن القضية الوطنية وربطها بالقضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية على وجه الخصوص لما في القضية الفلسطينية من أوجه التشابه بينها وبين القضية الجزائرية.

إلا أننا سنتوقف عند سبب إدراج مصالي الحاج للقضية الفلسطينية ضمن برنامج لقاءاته وتجمعاته السياسية، إذ أن لشكيب أرسلان⁽⁶⁾ دور في ذلك، فبعد أن التقى بمصالي الحاج في المؤتمر الإسلامي بجنيف المنعقد في 12 سبتمبر 1935م⁽⁷⁾ كانت تلك مرحلة جديدة في حياة الحزب حيث أعطت للحزب اتجاهها مغايرا لنجم شمال إفريقيا، بعد أن أصبحت العلاقة واضحة بين المفكر الإسلامي شكيب أرسلان والمناضل الشاب مصالي الحاج المدافع بقوة عن القضية الجزائرية، حيث يجمع المهتمون بتاريخ الحركة الوطنية في الجزائر بأنه أيقظ الضمير الاسلامي لدى مصالي الذي كان حتى سنة 1936 يؤمن بمثالية الاشتراكيين والشيوعيين⁽⁸⁾.

هذا اللقاء الذي أخرج النجم من الفلك الشيوعي العمالي الوحيد وجعله يعتمد على تأييد مزدوج عربي إسلامي من جهة وعالمي يساري من جهة ثانية، ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين إلى القول بأن مصالي الحاج كان سيظل مناضلا ماركسيا لولا لقائه مع شكيب أرسلان الذي أدخله في فكرة القومية العربية⁽⁹⁾.

هذه الفكرة التي وجدت ترحابا لدى شخصيته مصالي الحاج فكان يدافع من خلالها على القضايا العربية خاصة القضية الفلسطينية التي اجتمعت الكثير من أوجه التشابه بينها وبين القضية الجزائرية كما سبقنا وأن أشرنا، فكلا من فلسطين والجزائر تعرضتا الى الاستعمار الامبريالي فلم تختلف السياسة الامبريالية الصهيونية تحت غطاء الاستعمار الانجليزي بفلسطين عن السياسة الامبريالية الفرنسية بالجزائر، فمارس كلاهما:

الاجتثاث والقوة بمختلف أشكالها وصورها للقضاء على العنصر السكاني في كل الجزائر وفلسطين.

ممارسة الاستبداد والتفرقة العنصرية بمختلف أشكالها على ما تبقى من السكان الأصليين ممن لم يتمكن المستوطنون من إبادتهم من جذورهم بالهجرة خارج الديار الجزائرية والفلسطينية.⁽¹⁰⁾

ولأن كلا من القضيتين الفلسطينية والجزائرية قد تشابهت في نوعية الاستعمار، برز جليا تعاطف الشخصيات والنخب السياسية الجزائرية مع القضية الفلسطينية، ومن الأحزاب الجزائرية حزب الشعب الذي زاد اهتمامه بالقضية الفلسطينية بعد ثورة 1936 ومشروع التقسيم لسنة 1937 وهو التاريخ الذي أخذت فيه الاحداث منعرجا دراميا⁽¹¹⁾

فقد اتجه الحزب منذ تأسيسه كما سبق وأن أشرنا اتجاها قوميا عربيا مهتما بالقضية الفلسطينية التي بدأت تجمع الزعماء السياسيين العرب ، وذلك ما تجلى في خطابه ولقاءاته السياسية، ولم يكتف الحزب بالوسائل الادبية كتنظيم الاجتماعات والمظاهرات والاحتجاجات في الساحات العمومية بل تعداها الى الوسائل المادية والدبلوماسية حيث افتتح الاكتتابات العامة لجمع الاموال التي سيتوجه محصولها الى المجاهدين الفلسطينيين، ووجه نداءات الى المسلمين الجزائريين لدفع التبرعات تحت اشراف لجنة الدفاع عن فلسطين، كما قام الحزب بالاتصالات الواسعة مع السلطات المعنية لابرار مواقفهم وارسل برقيات الاحتجاج لدى الهيئات العليا وجمعية الامم، وطالب الحزب عبر "جريدة الامة" المسلمين الجزائريين بالتظاهر ضد ما يجري في فلسطين، وارسل الاحتجاجات الى الحكومة البريطانية والاعلان عن التضامن مع الشيخ الامين الحسيني واللجنة العليا العربية وحددت مطالب العرب العادلة والشرعية في فلسطين وهي: المنع الفوري للهجرة ، ونزع السلاح من الصهاينة ، وايقاف كل الصهاينة الارهابيين، واطلاق كل العرب المسجونين واستقلال فلسطين وتركيز برلمان منتخب⁽¹²⁾.

وذلك ما سنستشفه من خلال ما نقلته جريدة Action Tunisienne في 19 أوت 1937م عن اللقاء الذي نظمه مصالي الحاج وحضره 60.000 عربي حيث ندد من خلاله بسياسة انجليزا الامبريالية بفلسطين والتي سعت من خلالها إلى انشاء كيان يهودي على حساب المصالح العربية، حيث وقف الحزب بقوة ضد مشروع تقسيم فلسطين العربية المقرر من قبل اللجنة الملكية البريطانية والذي يهدد مصالح الدول العربية المجاورة، وقد أعلن الحزب تضامنه مع الشيخ الأمين الحسيني واللجنة العربية التي مثلت طموحات وآمال المقاومة الوطنية للشعب

الفلسطيني والتي عملت ساعية من اجل تحقيق ذلك، وناشد مصالي الحاج في الأخير كل المسلمين الجزائريين والدول العربية للتظاهر ضد مشروع التقسيم والمطالبة بالاستقلال التام لفلسطين العربية وأكمل الخطاب بهتفتات: يحيا الأمين الحسيني، يحيا الشيخ أرسلان، يحيا إحسان الجابري، يحيا رياض الصلح، تحيا فلسطين عربية، متحدة، قوية ومستقلة.⁽¹³⁾

وفي نفس الفترة التي بدأ حزب الشعب نشاطه بكثافة، كان رجال الحركة الوطنية من اصلاحيين واندماحيين قد عزموا على نشر فكرة المؤتمر الاسلامي الذي انعقد في طبعتين الاولى جوان 1936 والثانية في جويلية 1937 في أرجاء التراب الوطني، كما تكونت على اثرهما منظمة شبيبة المؤتمر الاسلامي برئاسة الامين العمودي، التي استنكرت ما تعرض اليه الشعب الفلسطيني اثر الثورة الفلسطينية 1936 من قمع وطرده من قبل الامبريالية الانجليزية⁽¹⁴⁾، والتي سوف تنظم لاحقا لدعم القضية عبر اللجنة التي دعى اليها الشيخ العقبي، وذلك ما سنتعرض اليه لاحقا.

وظلت القضية الفلسطينية محورا من محاور اللقاءات والملتقيات السياسية لحزب الشعب الجزائري خلال فترة نضاله، حيث كتبت جريدة الامة سنة 1938: " يتابع العالم العربي من الخليج الفارسي الى المحيط الاطلسي بكل قلق واعجاب في الوقت نفسه المعركة الشرسة التي يخوضها اخواننا في فلسطين ضد تحالف الامبريالية الانجليزية واليهود الصهاينة...فلسطين بلاد لا تقبل التجزئة ولا التبعية، وتتنسب الى العالم العربي والصهاينة يريدون الاستحواذ على أرض ليس لهم فيها أي حق."⁽¹⁴⁾

ورغم ما كانت تعانيه الطبقة السياسية ونخبها الوطنية من إجراءات قمعية تعسفية، لم تنسى إدراج القضية الفلسطينية والتذكير بما كان يعانيه الشعب الفلسطيني من أثر الاستعمار البريطاني في ظاهرة الصهيوني في عمقه وحقيقته التي بدأت تظهر بوادرها مع نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث تراجعت قوة كل من بريطانيا وفرنسا بعد انهزامها عسكريا وإنهاك قوتها من أثر الحرب العالمية الثانية لتظهر أمريكا كقوة سياسية تحل محل بريطانيا في المشرق العربي ويجد الصهاينة من يستندون إليه، فالكيان الصهيوني هو الابن المدلل ولدته بريطانيا وترعرع ولا يزال في كنف الولايات المتحدة الأمريكية.

إذ تعتبر سنة 1945م ونهاية الحرب العالمية الثانية، تاريخا نوعيا على صعيد إدراك تحولات النظام الدولي، فدلالات سنة 1945م لا تكمن في نهاية الحرب وإحداث مؤسسات السلم والأمن وهيئة الأمم المتحدة أساسا وحسب بل أيضا هي بداية استفاد مفهوم الاستعمار لقيمه التاريخية، فالهيمنة الأوروبية أولا ثم الغربية لاحقا التي تكونت مع نهضة القرن الخامس عشر وتعززت بحركة الاستعمار ستشهد تراجعا لم يوقف سيادة المشروع الحضاري الغربي ولكن عرضها للنقد والاستفهام والتساؤل⁽¹⁵⁾.

ومن بين اهم انعكاسات الحرب على العالم العربي تطور الوعي السياسي في مشرقه ومغرب و تبلور الفكر القومي العربي الذي كان له وقع عميق على استكمال استقلال جل الأقطار العربية بالمشرق وتفعيل النضال الوطني المغاربي بأفق الاستقلال وتزايد الدعوات لتجديد عملها النضالي حيث رأت الحركات التحريرية المغاربية من الواجب ربط النضال القومي بمقاومة الوجود الأجنبي ومناهضة مشاريع التقسيم وتجزئة⁽¹⁶⁾ الوطن العربي.

فمع نهاية الحرب العالمية الثانية تجدد النضال السياسي حسب طبيعة البنى الاقتصادية والاجتماعية لمختلف الأقطار العربية ، كما زادت في تطور هذا التحول ونضجه طبيعة المشاريع الاستعمارية التي شهدتها المنطقة العربية وفي مقدمتها تهويد فلسطين عبر إقامة كيان إسرائيلي الذي يضمن للصهيونية والغرب الرأسمالي الإمبريالي خطوط الاستقرار والامتداد بالمنطقة العربية ويعرقل بالضرورة كل نضال قومي عربي يهدف الى التحرر والوحدة والتنمية المستقلة.⁽¹⁷⁾

هذا على مستوى وضع العالم العربي العام ، أما عن مستوى الوضع بالجزائر فقد شهدت هي الاخرى مع نهاية الحرب العالمية الثانية كغيرها من دول العالم العربي جو سياسيا طبعته التحولات التي تسببت في تأثيرها الحرب العالمية الثانية خاصة وأن النخب السياسية الجزائرية كانت أكثر وعيا بسقوط هيمنة فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية وصعود قوة الولايات المتحدة الأمريكية.⁽¹⁸⁾ التي ستحل محل بريطانيا في منطقة المشرق العربي و يكون لدخولها ضمن الحرب الباردة تأثير قوي على حركات التحرر ، تلك التأثيرات الدولية التي كان لها وقعها على تطور الوعي السياسي لدى الطبقة السياسية الجزائرية.

ومما زاد في تطور الوعي السياسي لدى النخب الجزائرية ما شهدته الحركة الوطنية من تطورات على المستوى الداخلي خاصة أحداث 08 ماي 1945م وما نتج عنها من تطور على مستوى الوعي السياسي لدى الجزائريين لمواجهة الإدارة الاستعمارية وذلك بعد أن اهتزت قوة فرنسا كما سبق وأن أشرنا.

حيث لم تزد أحداث 08 ماي 1945 الجزائريين إلا قوة ووعيا ، فما كان على الإدارة الاستعمارية إلا أن تعفو على الشخصيات السياسية الجزائرية التي تم اعتقالها وتسمح لهم بالممارسة السياسية ، وكعادتها كلما شعرت الإدارة الاستعمارية بوجود حس وطني يهدد مصالحها ووجودها بالجزائر ، سارعت إلى إيجاد حلول⁽¹⁹⁾ لتفادي انفجار الوضع.

ولذلك صادق مجلس التأسيس الفرنسي الأول على قانون العفو عن المساجين فأطلق مصالي الحاج وفرحات عباس وغيرهما من الزعماء الوطنيين في 16 مارس 1946م. فقام فرحات عباس ورفاقه بتأسيس حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ووضعوا برنامجا لا يختلف كثيرا عن برنامج أحباب البيان والحرية⁽²⁰⁾ .

والى جانب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري قام مصالي الحاج بتأسيس حركة انتصار الحريات الديمقراطية خلفا ومتابعة لمسار حزب الشعب الجزائري الذي لم يختلف برنامج عن أسس ومبادئ حزب الشعب ، فقد حافظت حركة الانتصار على نهجها أيام حزب الشعب في دعم القضية الفلسطينية من خلال صحيفتها "المغرب العربي" بل وأكثر صرامة من الماضي ، لأن الوضع بفلسطين أضحى على نفس الوضع الصعب الذي آلت إليه الجزائر ، فقد شهدت سنة 1948 تجسيد المخاوف العربية الكبيرة منذ سنوات ، فصدر القرار الأممي في 29 نوفمبر 1947 بتقسيم فلسطين ، وأعلن اليهود عن قيام دولتهم في فلسطين في 15 ماي 1948 ، وفي الجزائر كان انصدام الوطنيون بغش وتزوير الحكومة (حكومة نايجلان) في الانتخابات التي أدت الى تلاشي مصداقية قانون الجزائر 1947 ، في حين لم تنسى بعد أحداث 8 ماي 1945.⁽²¹⁾

وقد سمحت الإدارة الاستعمارية بقيام الحزبين "حركة الانتصار والاتحاد الديمقراطي" ونشاطهما على أمل أن يدخلا في صراع وجدال وخصام وتنافر بينهما.⁽²²⁾ ، وهذا ما تجسد على أرض الواقع ضمن قضية بوترن قادة بتيارت حيث ظهر على اثرها نزاع وصراع شديد بين الحزبين والتي سنتطرق اليها لاحقا.

كما عرفت جمعية العلماء هي الاخرى نشاطا سياسيا مكثفا بعد الحرب العالمية الثانية ولأن مصير الجزائر قد ارتبط بالسياسة الاستعمارية والتحولت الدولية التي انعكست على العالم العربي، حيث تواطت الدول الغربية بعد الحرب العالمية الثانية لتدعم الاحتلال الصهيوني في فلسطين بعد أن أحكمت قبضتها على معظم بلدان العربي العربي، الذين لم تسمح لهم أوضاعهم آنذاك بأن يضغطوا على الحكومة البريطانية ويقفوا بقوة من أجل نصرة القضية الفلسطينية، وقد جاء على لسان رئيس جمعية العلماء المسلمين عبد الحميد بن باديس على أن: "الدفاع عن فلسطين من واجب كل مسلم وقد هب رجالات الاسلام في الشرق للقيام بهذا الواجب فهناك من ناحية الحكومات ما يقوم به وزير مصر ووزير العراق باسم ملوك العرب في لندن وهنالك اللجنة البرلمانية المصرية للدفاع عن فلسطين تضم فريقا كبيرا من حضرات الشيوخ والنواب المصريين وقد اعتزموا على عقد مؤتمر برلماني عام للبحث في قضية فلسطين على أن يشترك في المؤتمر أيضا زعماء العرب والمسلمين في الاقطار العربية والاسلامية التي لا توجد فيها برلمانات وصح عزم اللجنة على أن يعقد المؤتمر في مدينة القاهرة ان شاء الله يوم الجمعة الموافق 17 أكتوبر 1938، سيكون هذا المؤتمر الاول من نوعه في الشرق العربي وستعرف به الصهيونية والاستعمار البريطاني أنهما أمام العالم الاسلامي والعربي لا أمام فلسطين وحدها فعلى المسلمين كلهم أن يؤيدوا هذا المؤتمر برفع أصواتهم إليه ، وعلى اليهود الذين ينكرون ظلم الصهيونية وشرها أن يفتتموا هذه الفرصة الفريدة لإعلان استنكارهم واثقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم واعلموا أن الله شديد العقاب."⁽²³⁾

وقد ظلت جمعية العلماء تساند القضية الفلسطينية بل وتعتبرها محورا أساسيا فكان للشيخ الطيب العقبي موقفه من التواطىء العالمي اتجاه القضية الفلسطينية حيث شكك في المصادقية الدولية بقوله: "كل هذا من الانجليز الضلعة، وتحت نظر وموافقة جمعية قالوا عنها أنها جمعية الامم وعصبة الشعوب المتمدنة"، وقد تزامنت دعوة العقبي الى دعم القضية الفلسطينية ماديا مع نداء الجامعة العربية القاضي بجعل يوم الجمعة 3 أكتوبر 1947 يوما لفلسطين في العالم لإظهار عواطف المسلمين اتجاه القضية الفلسطينية العادلة⁽²⁴⁾.

ولبى الشعب الجزائري النداء على غرار الشعوب الاسلامية الاخرى وأحييت العاصمة الذكرى بقلوب خاشعة ورفع المصلون دعواتهم الى الله خلال صلاة الجمعة لنصرة القضية الفلسطينية، وفي مساء ذلك اليوم احتضن نادي الترقى⁽²⁵⁾ ذكرى يوم فلسطين بإلقاء محاضرات من قبل كل من مصطفى الزاهري وابراهيم بوحميده، أبو بكر جابر و محمد الحسن الورتلاني وبعدها خطب الشيخ العقبي وشرح للحاضرين عدالة القضية الفلسطينية وتطوراتها التاريخية وبأنها قضية كل مسلم في العالم الاسلامي⁽²⁶⁾.

أما جريدة الاصلاح فقد أولت اهتمامها بالقضية الفلسطينية وغطت أحداث الاحتفال بيوم فلسطين بنادي الترقى الذي نشطه العقبي وأسمته "يوم فلسطين العربية في الجزائر المسلمة العربية" واعتبرت الحدث اسلاميا ومعبرا عن الرابطة الاسلامية⁽²⁷⁾.

لم يرغب الشيخ العقبي في العمل الفردي من أجل القضية الفلسطينية، وكان يرى في العمل الجماعي القوة الفاعلة، وانه حان الأوان لتوحيد لتوحيد الرأي العام الجزائري لتدعيم فلسطين لذلك اتصل بالهيئات والاحزاب السياسية والوطنية وبالإبراهيمي ممثلا عن جمعية العلماء، ووجد العقبي بعض المتعاطفين في محاولاته الأولى لتخوف بعض التيارات السياسية من دعوة العقبي على أساس أنه يهتم بالقضايا الخارجية على حساب القضايا الوطنية وذلك ما سيؤخر العمل السياسي بالجزائر، وأعاد العقبي الكرة واتصل بالإبراهيمي وأعرب العقبي على أن تكون مشكلة فلسطين فاتحة لعهد جديد في تقارب العلاقات السياسية الجزائرية من جهة وتقرب وجهات النظر تجاه الجمعية من جهة أخرى، وقد نجح العقبي في تفاوضه مع الإبراهيمي، واتفق الطرفان على أسلوب العمل وعلى أن يقوم العقبي بتوجيه الدعوة الاتحاد الديمقراطي وحركة انتصار الحريات الديمقراطية بقصد الانضمام الى العمل الجماعي والمشاركة في اعانة فلسطين وحينها تأخذ القضية نوعا من المصداقية، بعد أن تلتف حولها معظم التيارات السياسية الجزائرية ولإنجاح ذلك اقترح العقبي تأسيس لجنة للدفاع عن فلسطين في كل مدينة وقرية مهمتها جمع التبرعات واحصاء قوائم المتطوعين من المجاهدين والمجاهدات الذين يرغبون في الذهاب لفلسطين وقد أسند العقبي المهمة لمصالي الحاج⁽²⁸⁾. أما فرحات عباس فقد لبى هو الآخر الدعوة وأبدى رغبته في العمل مع رجال الإصلاح جاعلا القضية الفلسطينية فوق كل اعتبار حزبي⁽²⁹⁾.

واثر اعلان اليهود عن تأسيس دولتهم في 15ماي 1948 واندلاع الحرب بين اليهود والجيش العربي تأسست في الجزائر الهيئة العليا لاغاثة فلسطين بمبادرة من العلماء في 6 جوان 1948 بعد أن كانت التحضيرات سارية، وقد تتكونت من الشيوخ البشير الإبراهيمي والعقبي وبيوض و فرحات عباس رئيس حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، أما مصالي الحاج فلم يكن ضمنها لأسباب غامضة، وقد اقتصر عمل هذه اللجنة على ارسال المال لفلسطين وارسال برقيات لهيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية وللحكومة الفرنسية تعلن فيها عن التضامن مع الدول العربية في كفاحها ضد الصهيونية وتلفت نظر الحكومة الفرنسية الى عواقب الاعتراف "بالدولة الاسرائيلية" الكيان الصهيوني المزعومة بالدولة الذي من شأنه أن يصادم عواطف 25 مليون من مسلمي شمال افريقيا المتضامنين مع اخوانهم العرب في فلسطين⁽³⁰⁾.

وذلك ما تجسد على أرض الواقع خلال الحملات الانتخابية والتجمعات وأهم ما سجل وآثار اهتمامي قضية بوتارن قادة⁽³¹⁾ ومهاجمة من قبل أعضاء خلية حزب الشعب حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وهي من بين القضايا السياسية الخاصة بمنطقة تيارت والتي تابعها السلطات الاستعمارية من خلال تقاريرها حيث أشارت تقارير الشرطة إلى انعقاد اجتماع خاص لأعضاء خلية انتصار الحريات الديمقراطية في 29 جويلية 1948م وذلك بشأن قضية اتهام بوتارن قادة باعترافه بالدولة اليهودية، حيث كلف كل من طيبي الطبيب⁽³²⁾ وولد إبراهيم السعيد⁽³³⁾ بالتحقيق في القضية والذين انتهيا إلى ان بوتارن قادة لم ينتمي يوما إلى لجنة ضد العنصرية وبذلك تسقط عليه التهمة⁽³⁴⁾.

كما كان لبوتارن رد فعل اتجاه التهمة الموجهة إليه حيث سبق حركة انتصار الحريات الديمقراطية بعقد اجتماع مع أعضاء خلية حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري في 25 جويلية 1948م، لتكذيب ما روج عنه في أوساط المسلمين من دعاية مفادها أن بوتارن قادة قد اعترف بالدولة الإسرائيلية (الكيان

الصهيوني) وأن اسمه قد ورد في قائمة لجنة ضد العنصرية إلى جانب السيد بومنجل الصادرة بجريدة Le Droit De Vivre حيث أعلم بوتارن قادة الحاضرين بأنه لم يتقدم أبدا إلى هذه اللجنة كما أنه لم يعترف بالحكومة اليهودية بفلسطين وقد انتهى اللقاء الذي اجمع فيه 80 شخص مع بوتارن قادة بإرسال مقال لتكذيب التهمة إلى يومية وهران الجمهورية الأسبوعية المحلية وصدى تيارت Quotidien D'Oran و Echo De Tiaret⁽³⁵⁾.

وقد جاء في الرسالة الموجهة من بوتارن قادة إلى مدير جريدة Le Droit De Vivre والمنشورة باسم المفتش العام للشرطة، مكتب تيارت في 1948/07/31م والتي تضمنت ما يلي: "سيدي المدير، لي الشرف أن أحيطكم علما بتفاجئي العميق بوجود اسمي في لجنة سمت نفسها الصداقات الإسلامية والتي لم أكن أعلم حتى بوجودها، وقد صدر هذا التتويه في جريدتكم الموقرة رقم 193 شهر جوان 1948، ومن دون إصدار أي حكم مسبق عن قيمة أو أهمية هذه اللجنة، وأحيطكم علما بأنني لم أطلب أبدا الانتماء إليها، فيما لم أقدم أبدا موافقتي لأي كان لا شفويا ولا كتابيا، وقد قامت بعض الأطراف باستعمال اسمي دون علمي أو إشعاري بذلك وهذا ما يأسفني، كما أعلمكم بأنني انتمي إلى حزب سياسي (الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري) وأنتني من بين أعضاء لجنته المركزية وعليه فإنه لا يمكنني أن أستخدم اسمي دون إشعار مسبق لهذا التنظيم، وفي أي حال من الأحوال لم يتم طلب مثل هذا الإشعار أو الحصول عليه، ولذلك أطلب من سيادتكم أنا الذي أعرف رفعه تهذيبيكم وحرصا على الحقيقة بنشر هذا التوضيح والتصحيح في عددكم القادم ومن ثم سحب اسمي من هذه اللجنة⁽³⁶⁾.

ومهما يكن موقف بوتارن من القضية الفلسطينية وعلان الكيان الصهيوني، فإننا نستنتج من خلال ما قام به في عقده للاجتماع وإرساله لرسالة التكذيب إلى مدير جريدة Le Droit De Vivre فذلك يدل على حرص الشخصيات الوطنية على سمعتهم اتجاه القضايا العربية، كما يستنتج من هذه القضية وما أثارته من صراع بين حركة انتصار الحريات الديمقراطية وحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري أنه رغم الاختلافات الأيديولوجية للحركة الوطنية من استقلالي إلى اندماجي إلى إصلاحي فكلها عملت من أجل القضية الوطنية التي لا يمكن لأي منهم أن يفصل القضية الوطنية من امتدادها العربي والإسلامي وارتباطها الوثيق بقضايا التحرير خاصة القضايا العربية والقضية الفلسطينية التي كانت ولا زالت الجزائر تدعمها.

الهوامش:

- 1- عبد المالك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي، عالم المعرفة، 1978، ص15.
- 2- نفس المرجع، ص ص 15، 16.
- 3- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1930- 1954، ط4، منقحة، دار الغرب الاسلامي، 1982، ج2، ص: 144.
- 4- محمد قنانش، محفوظ قداش، حزب الشعب الجزائري 1937- 1939، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص21.
- 5- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص145.
- 6- شكيب أرسلان: ولد بلبنان 25 ديسمبر 1869 وبعد عمر طويل من النشاط السياسي والقومي والأدبي توفى في بيروت 09 ديسمبر 1946، وكان قد تعلم ببيروت ومن شيوخه الشيخ محمد عبده، نظم الأمير أرسلان الشعر مبكرا وكان

يكتب في الصحف المعاصرة: الأهرام والمؤيد، تولى وظائف إدارية في الشام أثناء العهد العثماني وشارك في حرب طرابلس ضد إيطاليا إلى جانب بعض زعماء لجنة الاتحاد والترقي مثل أنور باشا وكان من أنصار الاتحاديين العرب والأتراك، أنتخب للبرلمان العثماني دعم موقف تركيا خلال الحرب العالمية، لكنه اختلف مع سياسة جمال باشا الذي حكم بالاعدام على عدد من زعماء العرب، غادر الأمير أرسلان سوريا إلى اسطنبول سنة 1916 وهي سنة الثورة العربية وسنة استشهاد القادة العرب على يد جمال باشا، وبعدها انتقل إلى لوزان ثم في جنيف حيث عصبه الأمم ولم يرجع إلى سوريا إلى زائرا سنة 1937.

- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، طخ، عالم المعرفة، 2009، ج 4، ص: 115.
- 7- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 126.
- 8- الزبيري، محمد العربي، الثورة الجزائرية في عامها الأول، الطبعة 1، دار البعث، قسنطينة، ص 73.
- 9- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 127.
- 10- رحيم محياوي، دراسة مستقبلية الاستيطان والتوطين الاستعمار الفرنسي في الجزائر والحركة الصهيونية في فلسطين، منشورات جامعة باجي مختار، 2006، ص 9.
- 11- أحمد شفيق أحمد أبو جزر، العلاقات الجزائرية الفلسطينية مواقف وأسرار، دا هومة، 2004، ص 192.
- 12- نفس المرجع، ص 193.
- 13- محفوظ قداش، محمد قنانش، المرجع السابق، ص 111.
- 14- أحمد شفيق أحمد أبو جزر، المرجع السابق، ص 221.
- 15- أحمد شفيق أحمد أبو جزر، المرجع السابق، ص 194.
- 16- محمد مالكي، الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، أغسطس، 1994، ص 398.
- 17- أحمد شفيق أبو الجزر، المرجع السابق
- 18- نفس المرجع.
- 19- نفس المرجع، ص 428.
- 20- عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص 262.
- 21- يحي بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري 1830_1954، طبعة خاصة، دار البصائر، 2009، ص 155.
- 22- أحمد شفيق أحمد أبو جزر، المرجع السابق، ص 179.
- 23- نفس المرجع، ص 162.
- 24- عبد الحميد بن باديس، نصوص مختارة، جمع وتعليق محمد القورصو، المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والاشهار، 2010، ص 157.
- 25- أحمد مريوش، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ط1، الجزائر، 2003، ج 1، ص 275.
- 26- اسقاطا لما جاء في كتاب الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي المشرقي حول النوادي العربية ودورها في حركات التحرر فان نادي الترقى كغيره من النوادي العربية قد لعب هو الآخر دورا بارزا، خاصة في الجانب الثقافي داخليا ومساندته لحركات التحرر خارجيا، واعتبرت القضية الفلسطينية محور النضال العربي للتحرير من السيطرة الاستعمارية، هذا التحرير الذي يشكل خطوة أساسية لتحقيق الوحدة العربية، واعتبر الصهيونية حركة اعتدائية

استعمارية تهدف الى انشاء كيان صهيوني في فلسطين ليسيطر على الوطن العربي سياسيا واقتصاديا ويحول دون تحقيق وحدته واستقلاله.

هادي حسن عليوي، الاتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي المشرقي 1956/1918، ط1، بيروت، 2000، ص175.

27- أحمد مريوش، المرجع السابق.

28- نفس المرجع.

29- نفس المرجع، ص277.

30- نفس المرجع، ص278.

31- أحمد شفيق أحمد أبو جزر، المرجع السابق، ص211.

32- بوتارن قادة من مواليد بريزينة البيض الا أنه عرف حسب التقارير الفرنسية بنشاطه بمنطقة تيارت ، حيث كان ممثلا لفرنده في المجلس العام كما كان مسؤولا عن خلية حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بتيارت ، يعتبر أكثر الاعضاء نشاطا في مجال الدعاية للحزب ومن الاعضاء الاكثر تأثيرا في العمل السياسي.

A.O.M carton 926/46 notice de renseignement, le 28/09/1947 .

33- طيبي الطيب من أعضاء خلية حزب الشعب ، عمل في مجال الدعاية لحزب الشعب حركة انصار الحريات الديمقراطية ، عمل كموزع للمنشورات الوطنية للجريدة السرية action algérienne ، كان ضمن لائحة الموقوفين على اثر أحداث 8ماي 1945 المنطلقة من الشرق الجزائري A.O.M carton 926/46, affaire indigène, activité des élément t nationaliste, surveillance des milieux musulman 1939/1947.

34- ولد ابراهيم السعيد قدم الى تيارت 1939 من ميشلي بلاد القبائل ومنذ ذلك الحين وهو يستعمل محله للخياطة الواقع ب la rue thiers لنشر أفكاره الوطنية ، عرف بنشاطه الدعائي لصالح حزب الشعب _ حركة انتصار الحريات الديمقراطية لدى معارفه، تم القبض عليه في 15 ماي 1945 وحينها اعترف بأنه رئيس فرع الحزب بالمنطقة (وحيث كان نشاط الحزب سريرا وغير شرعي وفق القانون الفرنسي) ، كما عرف بمعاداته لفرنسا ولتواجدها بالجزائر ، وحسب التقارير شرطة الاستعلامات العامة فان ولد ابراهيم يعتبر عنصرا خطيرا يهدد أمن فرنسا الوطني حيث كانت تعتبر الجزائر جزءا لا يتجزأ من الوطن الام فرنسا .

A.O.M carton 926/46, affaire indigène, activité des élément t nationaliste, surveillance des milieux musulman 1939/1947.

35- A.O.M Oran 132 ,L'Activite de PPA a Tiaret ,Tiaret le 30 Juillet 1948.

36- A.O.M Oran 132 ,L'Activite de UDMA a Tiaret ,Tiaret le 26 Juillet 1948.

36- A.O.M Oran 132, Tiaret le31 Juillet 1948.

الرحلة العلمية ودورها في حركة التعليم بالأندلس

في عصري الإمارة و الخلافة¹

(138 - 422 / 756 - 1030 م)

أ. بن حاج ميلود، جامعة زيات عاشور - الجلفة

Abstract :

This study deals with the topic of The Andalusian Scientific Journey to the East and its role within the Andalusian's learning process in addition to the the scientific graduation of the eastern ,religious scholars especially in literary and divine options.

The time setting of the study includes The "Emirate" and The "Khilapha" Ages , during (138_422 AD) and (756_1030 AD) ,those two periods were considered as the most fertile times Andalusia had ever witnessed in the scientific and intellectual fields. Thus ,it is worthy to know how the Andalusians have reached that high class of intellectual prosperity where the secret in that was the care about learning _teaching process not only inside Andalusia but abroad as well . Regarding the advanced famous towns like The Holly Mecca ,Medina ,Egypt and Iraq without neglecting North African towns like Fas and Kairawan . For all these reasons the scientific journey was regarded among the most salient learning features of the Andalusians which made Andalusia rank to that high civilized class in the Islamic World.

This study released several outcomes amongst them :

1) The scientific journey which was made by the Andalusians whose men were satisfied only to learn from the eastern scientists but they had also sublime contributions even in sharing and debating at some scientific lectures which were set in literary , religious councils within the eastern world .

2) The scientific journey also contributed to insert and launch some precious books which were the most important literary means that had helped Andalusian teachers to manage their scientific lectures ; reading ,dictating or even addressing .

الكلمات المفتاحية (key words): الرحلة: Journey، علمية: scientific، التعلم: learning، التعليم: teaching

● مقدمة :

جاء مصطلح الرحلة مشتق من لفظ رحل أي سار فمضى²، ويقال أن الترحيل والإرحال أي الإزعاج، وهذا اللفظ يعبر عن الخوف والقسوة، فقد كان القدامى لشدة الرحلة يخصصون لها النياق الأشد والأقوى على السير ويقال: ناقة رحيلة، بمعنى شديدة قوية على السير، وكذلك يقال: جمال رحيل ذو رحلة أي ذو قوة على السير، ثم جرى ذلك على المنطق حتى قيل ارتحل قوم عن المكان ارتحالاً، ويقال رجل رحول وقوم رحل أي يرتحلون كثيراً، والترحال والارتحال بمعنى الانتقال، والرحلة اسم للارتحال للمسير، ويقال دنت رحلتنا ورحل فلان وارتحل وترحل³.

ويشار أن الرحلة الأندلسية من أهم مميزاتها تعدد أنواعها فهناك ما يعرف بالرحلة السفارية (وهي سياسية دبلوماسية) كرحلة السفير يحيى الغزال (ت 250هـ/864م) مبعوث الأمير عبد الرحمن بن الحكم

(الأوسط) إلى ملك النورمان، والرحلة الحجازية، وكذا الرحلة الاستطلاعية والاستكشافية، والرحلة العلمية⁴، وهذا النوع الأخير هو المقصود في موضوعنا هذا .

• أهداف الرحلة العلمية :

لقد كانت الرحلة في طلب العلم، أو ما تُعرف اختصاراً بالرحلة العلمية حاجة كل طالب أو عالم في العصر الوسيط، لذلك كان اكتساب العلم (التعلم) هو مرادف وملازم لمعنى السفر في القرون الأولى للهجرة، ولقد اعتاد العلماء الأندلسيون على الرحلة من أجل الاستزادة بالعلم منذ العصر الأول للفتح فكان طلب العلم مظهراً من مظاهر التعبير عن ارتباطهم بالمشرق روحياً وعلمياً، ونتج عن ذلك عدد لا يُقدر ولا يُحصى من الرحلات، والتي لم يدون منها إلا القليل⁵. وتُعد الرحلة العلمية من أجل تحقيق غرضين هامين هما :

- هدف ديني وهو تأدية فريضة الحج .
- هدف علمي من أجل لقاء العلماء الموجودين هناك سواء علماء مكة والحجاز أو المشرق أو غيرهم من البقاع الأخرى، وهذا لتلقي العلم والتحصيل أو تبادل المعارف و المناظرة وغيرها من أشكال التعليم، ولا يتم كل ذلك إلا بعد أداء مناسك الحج⁶.

وتجدر الإشارة بضرورة التمييز بين استفادة الطلبة الأندلسيين في رحلاتهم العلمية إلى المشرق وبين لقاءاتهم مع العلماء المشاركة الوافدين إلى الأندلس، وكذلك احتكاكهم ببعض الأوروبيين الذين حلوا بقرطبة وطليلة لنفس الغرض، إذ كانت الأندلس في العصر الوسيط خاصة في العصر الأموي مقصداً وقبلة لهؤلاء نظراً للتطور والرفي الحضاري الذي بلغته⁷.

٥ الرحلة العلمية وأثرها على الطالب الأندلسي وعلى المجتمع بصفة عامة :

للرحلة العلمية التي يقوم بها الطالب الأندلسي دور هام بعد رجوعه إلى وطنه في تكوين شخصيته العلمية هذا على المستوى الشخصي، أما على مستوى أهله ومحيطه فهو يقوم بنشر العلم الذي حصله في رحلته بين الطلبة الأندلسيين الذين لم يحالفهم الحظ في الارتحال والمُلاحظ أن هذه الرحلات كانت تتم بشكل فردي حسب الإمكانيات الفردية للطالب⁸.

ولقد قام الطلبة العائدون من رحلاتهم العلمية بالإضافة إلى علماء المشرق الوافدين إلى الأندلس بتدعيم الحركة الأدبية والعلمية في مجالي التدريس والتأليف⁹، ومن هؤلاء الطلبة العلماء مثلاً الفقيه قاضي القضاة الأندلسي يحيى بن يحيى الليثي (ت234هـ/848م)¹⁰ فبعد أن قرأ الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي (ت183هـ / 799م)¹¹، انتقل إلى المشرق وهو في سن الثامنة و العشرين من عمره، حيث اتجه نحو الحجاز، وسمع من مالك بن أنس وأُعجب به وسماه " عاقل الأندلس"، وعاد الفقيه يحيى بن يحيى الليثي إلى قرطبة، وصارت له الرئاسة في الفقه والقضاء، ونال مكانة سياسية رفيعة في البلاط الأموي منذ عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، والتي تأثرت سلباً في عهد الأمير الحكم بن هشام (180 – 206هـ/796-822م) بسبب حادثة الرض 202هـ/817م¹²، إلا أنه تعزز نفوذه أكثر في عهد عبد الرحمن بن الحكم الأوسط (206 – 238هـ/822 – 852م) حيث أصبح قاضي الجماعة بل ويتدخل في شؤون الحكم ويفرض رأيه على الأمير¹³.

٥ أمثلة عن بعض الطلبة الذين رحلوا إلى المشرق بقصد طلب العلم¹⁴ :

مما يمكن ملاحظته قبل الخوض في عرض أمثلة عن هؤلاء الطلبة لابد الإشارة إلى أن الطالب الأندلسي الذي كان يرتحل إلى المشرق لهدف علمي يعتبر هو في حد ذاته عالم ومن عليه القوم، وأثناء تنقله هذا فهو حامل لإرث علمي محصل ونتاج المراحل الأولى من **التعلم** في وطنه الأم -الأندلس- لذا كان يحظى بقدر كبير من الاحترام حتى لدى أهل المشرق¹⁵.

ولعرض نماذج من هؤلاء الطلبة العلماء الذين خرجوا من الأندلس **للاستزادة بالعلم**، فتجدر الإشارة كذلك إلى أنه لا يقتصر الحديث والتخصيص للطلبة الذين قصدوا المشرق الإسلامي إلى مصر والحجاز والشام والعراق فقط، وإنما كذلك بعض الحواضر المغربية كالقيروان، وفاس، وغيرها، فالرحلة العلمية تعني كذلك **زيارة** و **قصد طالب العلم كل مركز علمي أو ديني للتعلم والاستزادة** كالمسجد مثلاً أو دور العلم كبيوت العلماء مثلاً أو غيرها في أي حاضرة ثقافية كانت سواء في الأندلس أو خارجها، أي كلما اتجه الطالب صوب المشرق أو جنوب الأندلس-مدن المغرب - فابن الفريسي (ت403هـ/1012م) مثلاً صنف القيروان ضمن حواضر المشرق وهو بصدد الترجمة للفقيه محمد بن وضاح الصديفي (توفي في عهد عبد الرحمن الناصر) لما قال: "...ورحل إلى المشرق، **فروى** بالقيروان تفسير القرآن ..." ¹⁶، وذكر القيروان فقط في هذه الترجمة دون غيرها من الحواضر، كما أنه لم تقتصر الرحلة العلمية بالحج دائماً وإلزاماً، فقد قصد بعض العلماء الأندلسيين بعض الحواضر بعينها ثم رجعوا إلى الأندلس دون إقامة فريضة الحج في هذه الرحلة، ومثال ذلك ما ذكره المقري (ت1041هـ/1631م) وهو يترجم للعالم يوسف بن يحيى بن يوسف الأندلسي الأزدي المعروف بالمغامي (ت288هـ/900م) فبعد أن سمع من علماء الأندلس، رحل إلى مصر **للسماع** من علمائها ثم عاد إلى الأندلس، فأقام بقرطبة أعواماً ثم عاد إلى مصر ثانية وأقام بها، و**سمع الناس منه** وعظمت شهرته في المشرق ثم انتقل إلى القيروان حيث أقام بها إلى أن توفي¹⁷، وفيما يلي عرض لأبرز هؤلاء الطلبة كنماذج لعدد كبير من الذين ارتحلوا طلباً للعلم، وعلى سبيل المثال لا الحصر في عصر الإمارة الفقيه يحيى بن يحيى الليثي (ت234هـ/848م) المذكور سالفاً، والعالم الفقيه بقي بن مخلد (ت276هـ/889م) ¹⁸ فبعد أن أخذ عن علماء الأندلس، رحل إلى المشرق، **فسمع** من علماء الحجاز ومصر ودمشق وبغداد، و**سمع** من أحمد بن حنبل (ت241هـ/855م) ¹⁹، وسمع بالكوفة والبصرة وبلغ عدد **شيوخه** مائتان وأربعة وثلاثون رجلاً²⁰.

وفي عصر الخلافة كان الحافظ القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى (ت339هـ/1008م) ²¹، وهو أحد أحفاد الفقيه يحيى بن يحيى الليثي، وقد رحل أبا عبد الله محمد من قرطبة إلى المشرق سنة 312هـ/924م، فدخل مصر وحج و**سمع** بمكة، ولما رجع إلى الأندلس سنة 314هـ/926م ولاه عبد الرحمن الناصر قضاء جيان ثم البيرة ثم بجانة ثم طليطلة، ثم قاضي الجماعة بقرطبة سنة 324هـ/935م، وكان كثير الخروج إلى الثغور حيث توفي في إحدى حصون طليطلة²²، وكذلك الفقيه القاضي منذر بن سعيد البلوطي (ت355هـ/966م) ²³ فبعد أن سمع من بعض علماء الأندلس رحل حاجاً سنة 308هـ/920م ²⁴، وبلغت شهرته وفضائله آفاق المشرق " فقد **سمع** من علماء مكة ²⁵، وروى عن علماء مصر، ومما وصف به الفقيه القاضي البلوطي أنه كان متفنناً في مختلف العلوم من فقه وتفسير ونحو وأدب وجدل ومنطق، خطيباً فصيحاً، وقد غلب عليه التفقه بالمذهب الظاهري ²⁶ والبحث فيه والاحتجاج به لنفسه وأصحابه، أما في القضاء فقد كان يحكم بين الناس بالمذهب المالكي وهو المذهب الرسمي المعتمد لدى الدولة الأموية في الأندلس

آنذاك²⁷، وقد أقام البلوطي في رحلته أربعين شهراً، ولم يكتف بأخذ العلم عن علماء المشرق بل كانت له مساهمة جليلة في التدريس، إذ كان يعقد الحلقات العلمية، فسمع منه علماء في مكة ومصر²⁸.

ولم يكتف العلماء أثناء رحلاتهم العلمية بالأخذ من علماء المشرق، بل تعدى ذلك إلى الإنتاج والتلقين والمشاركة في الحلقات العلمية، بل الأكثر من ذلك كانوا يُدرّسون الطلبة ويمارسوا التعليم في بعض الحواضر التي تصادفهم في طريق الرحلة، ومن هؤلاء مثلاً الوليد بن هشام بن المغيرة بن عبد الرحمن الداخل (ت399هـ/1008م)، إذ خرج من الأندلس، ووصل برقة حيث اشتغل بتعليم الصبيان وتلقين القرآن الكريم²⁹.

وعموماً فالغالب على الرحلات العلمية السالفة الذكر أن الهدف منها هو البحث عن الإجازات والمشيخة³⁰ دون إغفال المساهمة والمشاركة في التعليم³¹، فيما يشبه في عصرنا الحالي تبادل المعارف والخبرات بين علماء الأندلس ونظرائهم من تلك الأمصار، وقد كانت رحلة البحث عن شيوخ العلم هي الأساس الأول وكذا الهدف والمنال في آن واحد هذا فيما يخص الهدف الشخصي الفردي لكل طالب.

أما الهدف الأسمى ونستطيع أن نسميه الهدف العام، والذي يمس الحركة العلمية الأندلسية ككل فهو يتبلور في تقوية العلاقات الثقافية والعلمية بين علماء الأندلس والمشرق الإسلامي المركز الأم، فقد بدأ الطلب العلمي الأندلسي في القرون الأولى من الوجود الإسلامي في الأندلس بكثافة من خلال تلك الرحلات العلمية التي قام بها الطلبة من الأندلس إلى المشرق وهي الأكثر شيوعاً، وهذا لأن المشرق كان بمثابة المركز الروحي، نظراً للمكانة المقدسة لكل من الحاضرتين الشريفتين المدينة المنورة ومكة المكرمة واستقطابهما للعلماء من العالم الإسلامي، وكذلك وجود بعض العلماء والمشايخ من مختلف الحواضر العلمية المشهورة آنذاك في مصر والعراق والشام... الخ.

وبهذا عملت حركة الرحلات العلمية على توثيق الصلات والعلاقات بين الطرفين، ونتج عن ذلك ازدهار الحياة العلمية الأندلسية، وبالتالي انتقل العلماء في الأندلس من مقلدين لعلماء المشرق إلى علماء منافسين ومتفوقين أحياناً³²، ومثال ذلك ما ورد عن تلك المناظرة التي تفوق فيها الشاعر الأندلسي أبو مروان الجزي (ت394هـ/1004م) على اللغوي الخطيب صاعد البغداد (ت475هـ/1082م) في مجلس المنصور بن أبي عامر، والتي انتهت بقول الحاجب المنصور: "لله درك يا أبا مروان قسنك بأهل بغداد - يعني صاعدا- ففضلتهم، فبمن نقيسك بعد؟"³³، هذا مثال عن فوائد وثمرات تلك الرحلات العلمية.

وتجلت أهمية الرحلة العلمية الأندلسية كذلك في تحقيق هدف اجتماعي وثقافي في آن واحد وهو توثيق الاتصال المادي والروحي بين الأندلس والمشرق، فضلاً عن نقل علوم المشرق إلى الأندلس والعكس صحيح، فقد ورد في موضع سابق من هذه الدراسة أن بعض الأندلسيين ممن تنقلوا إلى المشرق مارسوا وساهموا بفعالية في حقل التدريس والتعليم في بعض بلدان المشرق، كما ساهموا في توفير بعض الخدمات كالطب مثلاً، فالطبيب محمد بن عبدون الجبلي رحل إلى المشرق ودرس الطب حتى أتقنه هناك، وفي أثناء عودته ساهم بعلمه وخبرته الطبية مارستان³⁴ الفسطاط بمصر³⁵.

• الرحلة ودورها في انتشار الكتب بالأندلس³⁶:

يعود الفضل في انتشار الكتب بالأندلس إلى عاملين أساسيين وهما:

- 1 - ازدهار نشاط حركة التأليف لدى العلماء الأندلسيين.
- 2 - إدخال الكتب المشرقية ورواجها بفضل الأندلسيين الذين قاموا بالرحلات العلمية أو

الحجبة أو حتى الدبلوماسية أو التجارية .

وبما أن الرحلة إلى المشرق قد بدأت منذ عهد مبكر خاصة مع قيام دولة بني أمية في الأندلس فقد حرص هؤلاء الرحالة على جلب، وإحضار الكتب المشرقية، وإدخالها إلى الأندلس، وكذلك العكس، إذ نقل هؤلاء الكتب الأندلسية إلى المشرق في مختلف المواضيع، والمجالات سواء الدينية أو اللغوية أو العلمية... الخ³⁷. وما يمكن ملاحظته في حركة نقل الكتب المشرقية إلى الأندلس في البدايات الأولى بعد الفتح الإسلامي وقيام الدولة الأموية أنها كانت تركز أكثر بالاهتمام بكتب العلوم الدينية بالدرجة الأولى، ثم كتب الأدب المشرقية الشهيرة في المقام الثاني، ثم الكتب العلمية في مجال الرياضيات والفلك والفلسفة... وغيرها³⁸.

ويمكن سرد على سبيل المثال لا الحصر بعض الرحلات التي أدخل أصحابها العديد من الكتب إلى الأندلس، وكان المبكرين من هؤلاء الفقيه عبد الرحمن بن دينار الواقدي (ت 212هـ / 827م) الذي أدخل كتب الفقه المالكي والكتب المعروفة بالمدينة المنورة إلى الأندلس³⁹.

ورحل الفقيه والمحدث والأديب والشاعر قاسم بن ثابت بن حزم السرقسطي (ت 302هـ / 914م) هو وأبوه إلى المشرق، ورجعا بعلم كثير حتى قيل أنهما أول من أدخل إلى الأندلس كتاب العين في اللغة والعروض للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ / 786م)⁴⁰.

كما رحل أبو عبد الملك عثمان بن المثنى القرطبي (ت 273هـ / 886م) إلى المشرق وقرأ على حبيب بن أوس المعروف بأبي تمام (ت 273هـ / 886م) ديوان شعره وأدخله إلى الأندلس رواية⁴¹ عنه، وعاد محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس (ت 296هـ / 908م) القرطبي من المشرق فأدخل إلى الأندلس علماً كثيراً من الشعر وغريبه، وعنه أخذ الأندلسيون الأشعار المشروحة رواية⁴².

وروى ابن بشكوال أن الحافظ المحدث سلمة بن سعيد بن سلمة الشافعي المذهب (ت 406هـ / 1015م) رحل إلى المشرق وحج وأقام بالمشرق ثلاثاً وعشرين سنة يجمع في الكتب وأدب في بعض الحواضر، وفي عودته إلى الأندلس ساق نحو ثمانية عشر حملاً مشدودة من الكتب في مختلف مجالات العلوم، ولم يتم له ذلك إلا بمال كثير حمله معه إلى المشرق⁴³.

كما أن بعض رجال الأسر الحاكمة في الأندلس كانت لهم مشاركة في جلب بعض الكتب المشرقية، فقد ورد أن حبيب بن الوليد الملقب بدحون (توفي بعد 200هـ / 815م)⁴⁴ رحل إلى المشرق ولقي بعض علماء الحديث، وكتب عنهم ورجع إلى الأندلس بعلم كثير⁴⁵، وكذلك ابن الأحمر محمد بن معاوية (ت 365هـ / 975م) الذي يُنسب إليه أنه أول من أدخل إلى الأندلس مصنف النسائي (ت 303هـ / 915م) في السنن، وقد حدث به في الأندلس⁴⁶.

ولم تقتصر المساهمة في رواج الكتب بالأندلس على العلماء العائدين من المشرق والحكام ورسلمهم وأعاونهم، بل كان للتجار دور في هذا الشأن، وقد كان قصدهم في هذا النشاط التجارة والربح، أو الإهداء لطلبة العلم والمتعلمين كما جرى الحال مع أبي بكر أحمد بن الفضل الدينوري (ت 349هـ / 960م)⁴⁷، وكذلك أحمد بن خالد بن قبيل بن يبيى الجذامي القرطبي التاجر (ت 378/988م) الذي أدخل إلى الأندلس "كتباً غريبة تفرد بروايتها فسمعها الناس منه ولم يكن له فهم... ولا كان يقيم الهجاء إذا كتب، غير أنه كان رجلاً صالحاً

صدوقاً" ⁴⁸، وكان محمد بن عبيد الله بن أيوب الدباج (ت317هـ/929م) لاشتغاله بعمل الديباج والذي كانت كتبه بخط الوراقين وهو ثقة سمع منه الناس في القيروان والأندلس ⁴⁹.

وساهم الغرباء الوافدون إلى الأندلس في إدخال بعض العلوم رواية فكان منهم على سبيل المثال علي بن بندار بن إسماعيل البرمكي (كان حياً 337هـ/948م) وهو من أهل بغداد، وقد قدم إلى الأندلس تاجراً وأدخل كتابي "الموضح"، "والمنجج" في الفقه لأبي الحسن عبد الله بن أحمد المغلس الداودي الظاهري (ت324هـ/935م) ⁵⁰، وجاء أحمد بن محمد بن هارون البغدادي خلال (ت311هـ/923م) إلى الأندلس حيث أدخل معه بعض كتب أبا محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت276هـ/889م) رواية، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ/869م) رواية كذلك ورجع إلى المشرق بعد أن تردد أعواماً في الأندلس ⁵¹.

كما وفد إلى الأندلس أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله الأديب اللغوي أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت356هـ/966م) والذي دخل قرطبة سنة 330هـ/994م فأكرمه الخليفة الناصر واستقبله ابنه الحكم وبالح في تعظيمه ⁵²، وأبو علي القالي هو مؤلف كتاب "الأمال" في اللغة، وكتاب "الأفعال"، "فعلت و أفعلت"، "مقاتل الفرسان"، و"تفسير السبع الطوال"، "الإبل والخيول"، و"البارع في اللغة الذي يقع في نحو خمسة آلاف ورقة، و"المقصود والممدود على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق" جمع فيه ما لا يُحد ولا يُعد أعجز ما بعده وفاق من تقدمه، وكان أبو علي قد عُرف بأنه أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين على حد وصف المقرئ التلمساني ⁵³.

كما ساهمت الرحلة في رواج وانتشار بعض الكتب، ورسائل الفقهاء التي لها علاقة أو تناولت موضوع التربية والتعليم، ومثال ذلك الرسالة التي بعثها الفقيه القيرواني أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النفزي (ت386هـ/978م) إلى علماء ومربي ومعلمي الأندلس، ووصلت نسخة منها إلى العالم الأندلسي أبي بكر محمد بن زرب القرطبي (ت381هـ/991م)، وتتكلم هذه الرسالة عن تعليم أبناء المسلمين مبادئ عقيدتهم ⁵⁴.

والجدير بالذكر أن الأندلسيين لم يتقبلوا كل ما ألفه علماء المشرق الوافدين إلى الأندلس أو محتوى تلك الكتب القادمة من المشرق، بل لقيت بعض الكتب الحذر وفي بعض الأحيان الرفض وهو ما جرى عندما طعن أدباء الأندلس محتوى كتاب الفصوص في الأدب والأشعار والأخبار للغوي البغدادي صاعد بن الحسن البغدادي (ت410 أو 417هـ/1019 أو 1026م) ⁵⁵ حتى أنهم رموه في النهر، وسبب ذلك أن المنصور بن أبي عامر طلب من صاعد أن يؤلف له كتاباً في اللغة لم يؤلفه أحد من قبله، وهو يقتضي بذلك أبو علي البغدادي لما ألف كتاب الأمال للحكم المستنصر، ويرجع رفض علماء وأدباء المنصور كتاب المنصوص لقلة علمه وعدم الثقة في ما تضمنه من مادة مشكوك في صحتها ⁵⁶، ورغم ذلك فقد أثابه المنصور بخمسة آلاف دينار وأمر بأن يسمعه الناس في المسجد الجامع بالزاهرة وذلك ابتداءً من سنة 385هـ/995م ⁵⁷.

ورحل أيوب بن سليمان بن حكم بن بلكايش بن إليان القوطي (ت326هـ/937م) ⁵⁸ إلى المشرق فجلب معه الكثير من كتب العراقيين، ولكن أعرض الناس عن كتبه لأنها كانت في موضع الشك فلم يُحدث بها أحد إلا ابنه ⁵⁹.

كما ثار بعض الأندلسيين على كتب الاختلاف، وغرائب الحديث لصاحبها المحدث بقي بن مخلد (ت276هـ/889م) ⁶⁰، ومن الكتب التي انفرد بها هذا الفقيه والمحدث ولم يدخلها سواء إلى الأندلس كتاب

الفقه للإمام الشافعي (ت204هـ/820م) ، و مصنف أبي بكر بن أبي شيبة (ت235هـ/849م) ، وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط (ت240هـ/854م)...الخ^{1 6}.

• خاتمة :

- مما سبق ذكره عن هذا الموضوع نستطيع في الأخير أن نخرج بعدة نتائج أهمها :
- أن الهدف الأساسي من الرحلة العلمية التي قام بها طلاب العلم الأندلسيين كان للاستزادة بالعلم التعلم من علماء مشايخ مختلف الحواضر التي يصادفها الطالب في طريق حلقته خاصة منها الحاضرتين الشريفتين مكة المكرمة المدينة المنورة .
 - لم يكتف طلاب العلم الأندلسيين بالأخذ عن علماء المشرق بل كانت لهم مشاركة فعالة في التدريس ، تشييط بعض الحلقات العلمية في كبرى الحاضر المشرقية .
 - ساهمت الرحلة العلمية التعليمية في تكوين شخصية الفرد الأندلسي، فبعد عودته من رحلته المشرقية يصبح قبلة مقصداً من طرف طلاب العلم الأندلسيين الذين لم يسعفهم الحظ للارتحال إلى المشرق للأخذ عنه الاستزادة منه .
 - للرحلة العلمية الأندلسية دور اجتماعي و ديني ، فطلب العلم و التعلم عند علماء وفقهاء المشرق خاصة في الحجاز، يعبر عن الارتباط الروحي للأندلس بالمشرق .
 - ساهمت الرحلة العلمية في انتشار الكتب المشرقية ورواجها بالأندلس، فالكتاب يعد أحد أهم الوسائل المستخدمة في التعليم إقرأ وإسماعاً وإملأً، واستطاع الأندلسي الاطلاع على إنتاج علماء وفقهاء المشرق والحصول على نفائس و أمهات الكتب في مختلف المجالات التخصصات في الفقه النحو والشعر والفلسفة والحساب والفلك والطب...الخ .
 - وبفضل الرحلة العلمية وما نتج عنها من احتكاك بين طلاب العلم الأندلسيين وعلماء المشرق أصبح بمقدور الأندلسيين مناقشة ونقد ما قدمه علماء المشرق سواء في حلقاتهم العلمية أو في مؤلفاتهم، وبهذا انتقل الأندلسيون من مرحلة التقليد والاقتباس إلى مرحلة بناء ونضج الشخصية العلمية الأندلسية، حتى إلى درجة أنه استطاع بعض العلماء الأندلسيين أن يصححوا بعض أخطاء علماء المشرق .

الهوامش:

¹ ينبغي الإشارة هنا بأن الرحلة العلمية التي قام بها طلبة العلم الأندلسيين إلى المشرق كان الهدف منها الأول وبالأساس هو الأخذ عن علماء ومشايخ وفقهاء المشرق أي لغرض **التعلم**، وبعد الرجوع إلى البلد الأم - الأندلس - يبدأ هؤلاء بنشر العلم وتنظيم الحلقات العلمية في المساجد وقصور الخاصة و البيوتات العلمية للتدريس و الاملاء و الاسماع وتلك الأشكال والطرق تعبر عن أهم مظاهر ممارسة نشاط التعليم، لهذا فالدراسة تستهدف الشق الأول من هذا النشاط وهو **الحديث عن تعلم الأندلسيين لدى علماء المشرق** .

² ابن منظور الإفريقي (جمال الدين محمد بن مكرم)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت ، م11، ص 278 .

³ نفسه، م11، ص ص 276 وما بعدها.

⁴ توجد دراسة خاصة لهذه الأنواع بالتفصيل، ينظر إلى أحمد بوغلا، **الرحلة الأندلسية (الأنواع والخصائص)**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2008، ص16 وما بعدها .

- ⁵ المقرري التلمساني (أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ط1، ج2، 1998، ص 183 وما بعدها، ج3، ص 3. أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص 235.
- ⁶ بشير رمضان التليسي، الاتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003، ص 237.
- ⁷ زيفريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب وأثرها على الحضارة العربية في أوروبا، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، دارالآفاق الجديدة، بيروت، ط6، 1981، ص 500.
- ⁸ عبد القادر بوباية، إسهام التاهريين في الحركة العلمية بالأندلس، مجلة الخلدونية، جامعة ابن خلدون، تيارت، عدد خاص: أكتوبر 2009، ص 174.
- ⁹ نفسه.
- ¹⁰ كان يتولى تعيين القضاة والوزراء في عهد عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط)، يُعرف بأبي محمد، عالم الأندلس في عصره أصله من بربر مضمودة بالمغرب، وله باع في علم الحساب والنحو واللغة والعروض ومعاني الشعر والأخبار والجدل. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ج1، ط2، 1989، ج1، ص 125. ابن الفرضي (عبد الله بن محمد)، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ق2، 1966، ص ص 179 - 180. الخشني (أبو عبد الله محمد) قضاة قرطبة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ط2، م6، 1989، ص ص 30 - 31.
- ¹¹ فقيه قرطبي، يكنى: أبا عبد الله، يلقب بشبوطون، ويلقب كذلك بفقيه الأندلس، من تلاميذ الإمام مالك بن أنس، وهو أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس متفقاً بالسماع، عُرض عليه القضاء في عهد الأمير هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل (172 - 180هـ/788 - 796م) فرفض، توفي 193 أو 194هـ/199م. ابن الفرضي المصدر السابق، ق1، ص ص 154 - 155. القاضي عياض (موسى بن عياض)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ج1، ص 349 وما بعدها.
- ¹² الرض: هو حي من أحياء قرطبة، وارتبط هذا الاسم بالأمير الحكم فأصبح يُطلق عليه الأمير الحكم الرض، وقد حدثت هذه الواقعة يوم الأربعاء 13 رمضان من سنة 202هـ، وقُتل الحكم من أهل الرض نحو الثلاثمائة، وتتبع الباقي مدة ثلاثة أيام، ومن الهاربين من استولوا على جزيرة ايقريطش (كريت)، وأصبحت قاعدة الأندلسيون الشرقية في بحر الشام ومركز تهديد ضد البيزنطيين. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968، م4، ص 274. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 222 وما بعدها.
- ¹³ ابن عذارى المراكشي أبو عبد الله محمد)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ليفي بروفنسال و ج.س كولان، دار الثقافة، بيروت، ج2، ص 89. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، ج4، 1996، المرجع السابق، ج4، ص 99.
- ¹⁴ خصص المقرري التلمساني (ت1041/1631م) الباب الخامس من القسم الأول في كتابه نفح الطيب وفي خمس مائة واثان وثمانون صفحة لذكر بعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق، ولقد استفاد الطلبة الأندلسيون من هؤلاء العلماء مما تحوي صدورهم من حفظ وعقولهم من فكر وفهم للمسائل في مختلف التخصصات بعد رجوعهم من رحلتهم العلمية خاصة في العلوم الدينية والأدبية. كما ذُكر العديد منهم في كتب التراجم والطبقات كابن الفرضي (ت403/1012م) في

- كتابه تاريخ علماء الأندلس، و ابن بشكوال (ت578/1183م) في كتابه الصلة، والأکید أنه مهما خصصت من المجلدات فإنها لا تتسع لحصر وإحصاء كل هؤلاء الطلبة الذين رحلوا إلى المشرق بقصد التعلم أو الحج أو التعلم والحج معاً ، من خلال لقاء علماء المشرق وأخذ العلم عنهم، وكذلك تبادل التشاور في أمور العلم والثقافة. المقرئ التلمساني(أحمد بن محمد)، المصدر السابق، ج2، ص183 وما بعدها، ج3، ص3 وما بعدها. التليسي بشير رمضان، المرجع السابق، ص237.
- ¹⁵ قاسم الحسيني، **الرحلة العلمية بين الأندلس والمشرق**، مجلة كراسات أندلسية، تقديم: عباس الجباري، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات الرباط، ط1، 2006، ص ص 110 – 111 .
- ¹⁶ ابن الفرضي، المصدر السابق، ق 2، ص30.
- ¹⁷ المقرئ التلمساني، المصدر السابق، ج3، ص 129 .
- ¹⁸ قرطبي، حافظ، مفسر وإمام محقق. ابن بشكوال، (أبو القاسم بن خلف)، **الصلة**، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، ج 1، ط 1، 1989، ص 195 وما بعدها . المقرئ التلمساني، نفسه . خير الدين الزركلي **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط16، ج2، 2005، ص 60 .
- ¹⁹ إمام المذهب الحنبلي، نشأ منكباً على طلب العلم فقد رحل إلى أماكن عديدة منها: الكوفة والبصرة والشام والمغرب واليمن وخراسان، له مؤلفات كثيرة منها: المسند، وكتاب التاريخ، والناسخ والمنسوخ...الخ. التلمساني(يحيى بن ابراهيم)، **منازل الأئمة الأربعة**، تحقيق: محمود بن عبد الرحمن قدح، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 2002، ط1، ص234 وما بعدها. الشيرازي الشافعي أبا إسحاق، **طبقات الفقهاء**، تحقيق: إحسان عباس دار الرائد العربي، بيروت، ص91 وما بعدها. البغدادي(محمد بن أبي يعلى الفراء)، **طبقات الحنابلة**، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ج1، 1999، ص08 وما بعدها. المقدسي الحنبلي(أبا عبد الله محمد بن أحمد)، **مناقب الأئمة الأربعة**، تحقيق: سليمان سلم الحرش، دار المؤيد، (د.ت)، ص127 وما بعدها.
- ²⁰ المقرئ التلمساني، المصدر السابق، ج3، ص ص 127 – 128 .
- ²¹ قاضي الجماعة بقرطبة له عناية بعلم الإعراب ومعاني الشعر . ابن الفرضي المصدر السابق، ق2 ص 59 .
- ²² المقرئ التلمساني، المصدر السابق، ج2، ص188 وما بعدها. الخشني، المصدر السابق، م6، ص233 وما بعدها.
- ²³ قاضي الجماعة بالأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر إلى أن توفي هو ، له مؤلفات في القرآن والفقه والسنة والرد على أهل الأهواء. النباهي المالقي (أبو الحسن علي بن عبد الله)، **المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا " تاريخ قضاة الأندلس"**، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1983، ص66 وما بعدها . محمد الشريف قاهر، **منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي خاطباً قاضياً شاعراً**، القسم الثاني، مجلة الدراسات الإسلامية، المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، العدد: 02، ديسمبر 2002، ص128 وما بعدها .
- ²⁴ ابن الفرضي، المصدر السابق، ق2، ص 144. المقرئ التلمساني، المصدر السابق، ج2، ص 195 .
- ²⁵ ابن الفرضي، نفسه. المقرئ التلمساني، نفسه .
- ²⁶ هو المذهب الذي يأخذ بظاهر النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وكذلك الإجماع ، وينفي القياس والاجتهاد في إصدار الأحكام الشرعية. الشهرستاني (محمد عبد الكريم بن أحمد)، **الملل والنحل**، تقديم: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ط2، 2002، ص 166. عبد المنعم الحنفي، **موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية** دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1993، ص286.
- ²⁷ المقرئ التلمساني، المصدر السابق، ج2، ص 195 .
- ²⁸ نفسه . قاسم الحسيني، المرجع السابق، ص 127 .
- ²⁹ نفسه، ج3، ص 247 .

³⁰ المشيخة : جمع شيخ، ولغة بمعنى من استبان فيه السن، ويطلق الشيخ مجازاً على المعلم أو الأستاذ كتعظيمه وتقديره له أما المشيخة اصطلاحاً فهي وثيقة يدون عليها الطالب المرتحل نشاط العلماء الين درس عندهم، توضح التوجهات العلمية أو ما يسمى المقررات الدراسية، وكذا المؤلفات المرتبطة بها، وتعد هذه الوثيقة من الوثائق التي تصور نشاط العلماء وطرقهم في التدريس والتعليم، وكذا كتبهم التي يتداولونها، وفنون المعرفة التي يطرقونها وآدابهم عند التلقي وتفاوت مراتبهم في درجات العلم وحرصهم على الإسناد . عبد الله المرباط الترغي، **فهارس علماء المغرب من النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة منهجيتها- تطورها- قيمتها العلمية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان (سلسلة الأطروحات رقم 02)، ط1، 1999، ص ص 39 - 40 . قاسم الحسيني المرجع السابق ص 133 .

³¹ قاسم الحسيني، المرجع نفسه، ص 131 .

³² عبد الواحد ذنون طه، **دراسات أندلسية**، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2004، ص191.

³³ المقري التلمساني، المصدر السابق، ج3، ص ص 359 - 360.

³⁴ المارستان أو البيمارستانات: هي كلمة فارسية مركبة من شطرين: بيمار بمعنى مريض أو عليل أو مصاب، وستان أي مكان أو دار، ومنه فهي دار المرضى، ثم اختصر اللفظ ليصبح مارستان بمعنى المستشفيات في عصرنا . أحمد عيسى بك **تاريخ البيمارستانات في الاسلام**، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1981، ص ص 4، 10.

³⁵ ابن جلجل (سليمان بن حسان)، **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1985 ص115. عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص 198 .

³⁶ يعد الكتاب من بين أهم الوسائل المستخدمة في التعليم، فقد يوظفه الفقيه المعلم للإملاء على الطلبة، كما أن الكثير من المؤلفات الأندلسية كانت نتاج إملاء المعلم لتلاميذه في حلقة علمية ما .

³⁷ إبراهيم علي العكش، **التربية والتعليم في الأندلس**، دار عمار، دار الفيحاء، أريد، عمان، ط1، 1986، ص58 .

³⁸ خوليان ريبيرا، **التربية الإسلامية في الأندلس أصولها الشرقية وتأثيراتها الغربية**، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1994، ص 150 .

³⁹ ابن الفرضي، المصدر السابق، ق1، ص 257 .

⁴⁰ نفسه، ق 1، ص 361 . المقري التلمساني، المصدر السابق، ج2، ص 217.

⁴¹ نفسه، ق1، ص 302 . خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 151 .

⁴² ابن الفرضي، المصدر نفسه، ق2، ص ص 22 - 23 .

⁴³ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص 351 .

⁴⁴ قرطبي، كان فقيهاً، أديباً، شاعراً، رحل الى المشرق في عهد عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط)، وكانت له حلقة بجامع قرطبة للتدريس . المقري التلمساني، المصدر السابق، ج3، ص ص 116 - 117.

⁴⁵ نفسه . خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 152 .

⁴⁶ الضبي، المصدر السابق، ج1، ص 166 .

⁴⁷ ابن الفرضي، المصدر السابق، ق1، ص ص 61 - 62 . خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 152 .

⁴⁸ ابن الفرضي، المصدر السابق، ق1، ص ص 55 - 56 . خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص ص 152 - 153.

⁴⁹ ابن الفرضي، المصدر السابق، ق2، ص ص 37 - 38 . خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 153 .

⁵⁰ الصفيدي صلاح الدين (خليل بن أبيك)، **الواقي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج17، ط1، 2000، ص25. المقري التلمساني، المصدر السابق، ج3، ص 337 .

⁵¹ ابن الفرضي، المصدر السابق، ق 1، ص 61 . خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 151 .

⁵² المقرئ التلمساني، المصدر السابق، ج3، ص 340 وما بعدها .

⁶ نفسه، ص ص 342 – 343 .

⁵⁴ الدباغ (عبد الرحمن بن محمد)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه : أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التتوخي، تصحيح وتعليق: إبراهيم شيوخ، مكتبة الخانجي، مصر، 1968، ج3، ص 113. بشير رمضان التليسي، المرجع السابق، ص 252.

⁵⁵ يكنى : أبا العلاء، دخل الأندلس في أيام ولاية المنصور محمد بن أبي عامر سنة 380هـ / 990م، أصله من الموصل واختلف المؤرخون في ضبط تاريخ وفاته فيذكر المقرئ نقلاً عن الحميدي سنة 410هـ / 1019م، أما ابن بشكوال فيجده نقلاً عن ابن حزم الظاهري سنة 417هـ / 1026م بصقلية. ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص 372. المقرئ التلمساني، المصدر السابق، ج3، ص 362 .

⁵⁶ نفسه، ج3، ص 345 .

⁵⁷ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج1، ص 371 .

⁵⁸ قرطبي، يكنى:أبا سليمان ،سمع من بقي بن مخلد (ت276هـ/889م) وصحبه، كانت له وجهة بعلمه .ابن الفرضي المصدر السابق، ق1، ص ص 86 – 87.

⁵⁹ نفسه، خوليان ريبيرا، المرجع السابق، ص 152 .

⁶⁰ قرطبي، يكنى:أبا عبد الرحمن، فقيه، محدث، كان ورعاً، فاضلاً، زاهداً، له رحلة إلى المشرق سمع من عدد كبير من المحدثين، ومن مؤلفاته : تفسير القرآن، مسند النبي صلى الله عليه وسلم... الخ .ابن الفرضي، المصدر السابق، ق1 ص 91 وما بعدها .

⁶¹ نفسه، ق1، ص 92.

دور العامل الاجتماعي في الحركة العلمية لعلماء الجزائر

خلال العهد العثماني

أ/خنفار حبيب، جامعة بن خلدون- تيارت

لا شك أن الوضع الاجتماعي للعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني، له دور فعال وهام في حركة العلماء الداخلية وخاصة الخارجية، فقد حدد موقع العالم في السلم الاجتماعي للمجتمع الجزائري العثماني، طبيعة حركته أو هجرته ودوافعها حيث كان العلماء يتموقعون أو يتوزعون عموديا على طول السلم الاجتماعي وينتمون تقريبا إلى كل المستويات الاجتماعية.

كانت فئة العلماء من النخبة عبارة عن تركيبة بشرية واسعة غير واضحة المعالم ولكنها توحدت من خلال نشاطاتها المرتبطة بإدارة العدالة من خلال القضاء والإفتاء والمشاركة في تسوية بعض القضايا ذات الطابع السياسي داخليا وخارجيا وتعليم الدين الإسلامي من عبادات وتفسير وغيرها، ونشر الثقافة، وكانت مصادر أغلب مواردها من المؤسسات الدينية والصدقات أو التبرعات في إطار الأوقاف أو الأحباس وكذلك من السلطة السياسية¹، لذلك تختلف دوافع وظروف هذه الحركة العلمية لدى علماء الجزائر وأهدافها وطبيعتها، من حيث مدى قربهم أو بعدهم من السلطة السياسية.

بداية يجب أن نحدد هذه الفئة الواسعة التي لم تقتصر على "رجال الدين" أو "رجال القانون" بل تتعداه إلى أنها مجموعة تشمل أعضاء المحاكم والمؤسسات الدينية والمؤسسات التعليمية (مسجد، مدرسة، كُتّاب، زاوية) والذين يمثلون أهم أطراف هذه الفئة وكذلك القائمين عن الطرق الدينية الصوفية وجماعة الأشراف²، ومن جهة أخرى يمكننا أن نحدد مما سبق أنهم ينقسمون إلى عدة فئات منها العلماء الرسميون المحليون والوافدون من خارج الجزائر، والعلماء المتصوفة أو الزعامات الدينية المؤيدون أو المؤالون والمعارضون للسلطة العثمانية في الجزائر، والعلماء الأحرار الذين في الواقع كانوا يمثلون فئة النخبة المتميزة التي لها وعي قوي بذاتها وبما تتميز به عن غيرها من مكونات المجتمع³.

ويعتد حسين الورثي لاني هذه الفئة بالخاصة وكان يقصد بها رجال العلم، التي لم تكن حائزة على ثروة مادية كبيرة بالمقارنة مع أهل السيف من الطبقة الحاكمة التي كانت تتحكم في مقاليد الأمور وبالتالي في الثروة.

لكن فئة العلماء بمعناه الواسع أي بداية من معلم القرآن في الكُتّاب؛ كان مستوى ثروتها العام يصنف في الفئة الدنيا في المجتمع⁴، على اعتبار أن أغلب الشرائح المكونة لهذه الفئة من الفقراء ذوي مداخل متواضعة، باستثناء الأقلية من الأسر العلمية التي تمتعت بالثراء الغزير، واحتكرت الوظائف العليا مثل الإفتاء والقضاء

والإمامة والخطابة، وكانت هذه الوظائف على تعدد مجالاتها محدودة، لذلك كثر التنافس عليها بين العلماء والأسر العلمية، الأمر الذي جعل أهل السيف من الباشوات والبايات يستغلون ذلك لضمان وفاء وولاء هذه الأسر العلمية، فكانت بذلك مصلحة بعض العلماء تكمن في كسب ود السلطة وإرضاء حكامها⁵، لكن المصلحة كانت متبادلة فقد كان الحكام الأتراك في حاجة إلى العلماء اللذين كان لهم دور كبير في توسع نفوذهم والمحافظة على استقرار الأوضاع مثل الدور الذي لعبته عائلة الفكون في قسنطينة لصالح الأتراك.

لذلك كانت وظيفة الإفتاء والقضاء حكرا على أفراد هذه العائلات لما تمثله من امتيازات مادية ومعنوية وكان أفرادها يتولون وظائف أخرى مثل وكالة الأوقاف والإمامة والخطابة والتدريس، فتصبح هذه الوظائف وراثية في هذه العائلات، مثل عائلة قدورة التي سيطرت على وظيفة الإفتاء على المذهب المالكي بالجامع الكبير بالعاصمة لأكثر من قرن وكان مؤسس هذه الأسرة العلمية هو الشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الذي تولى وظيفة الإفتاء سنة 1028-1066 هـ / 1618-1655 م، ثم تولى ابنه محمد حتى سنة 1107 هـ / 1695 م، ثم خلفه أخوه أحمد الذي استمر في هذه الوظيفة حتى مقتله سنة 1118 هـ / 1706 م وبعده تولى سعيد بن أحمد قدورة من 1122 إلى 1129 هـ (1710-1716 م)⁶، إضافة إلى أن مؤسس هذه العائلة سعيد بن إبراهيم قدورة جمع ثروة طائلة من التجارة والمشاركة في امتلاك سفن الجهاد البحري وعمليات تصدير السلع من الغنائم البحرية⁷.

وقد أثّرت شكوك حول إشرافه على أوقاف الجامع الكبير رغم ثبوت براءته منها، ومع ذلك تعددت مصادر الدخل لدى هذه العائلات أو الأسر واستفاد أفرادها الذين تقلدوا هذه المناصب من مبالغ مالية تدفع إليهم من الضرائب المفروضة على اليهود، فقد وصل نصيب المفتي الحنفي ثمانون صائمة (80 ص) والمفتي المالكي خمسون صائمة (50 ص) والقاضي المالكي خمسون صائمة (50 ص) وسيدي مصطفى العنابي⁸ أربعون صائمة (40 ص)⁹.

أما العلماء الوافدون إلى الجزائر والذين تقلدوا مناصب رسمية، من أمثال محمد بن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر وكان خطيبا فصيحاً وسفيراً للسلطة العثمانية في الجزائر إلى المغرب لتسوية المشاكل التي عرفت علاقات البلدين في بداية تأسيس الدولة الجزائرية في العهد العثماني، وكذلك محمد زيتون التونسي الذي تولى القضاء الحنفي في زمن شعبان خوجة باشا (1101 هـ / 1592 م)¹⁰.

ولعل الشيخ فتح الله السوري الأصل والذي هاجرت أسرته إلى مصر ثم إلى الجزائر وسجل نفسه في سجل الباشا ليتقاضى المنحة المخصصة للأحناف؛ من أبرز نماذج هذه الفئة، وقبل فترة حكم صالح باي ذهب إلى قسنطينة، وأصبح من العلماء الرسميين الوافدين إلى الجزائر عندما تقلد وظيفة خطيب في مسجد القصبة ومشرفاً على مدرسة سوق الغزل ثم عين مفتياً حنفياً وأشرف على الأحباس أو الأوقاف لمدة سنتين ثم قاضي حنفي حتى عهد الباي أحمد شاوش القبائلي¹¹.

والملاحظ في سيرة حياة هذا العالم كان يبحث عن الثروة أولاً وأخيراً، وظهر ذلك من كثرة المهن التي كان يزاولها مثل صناعة الكشمير وصناعة العطور وصباغة الحرير وادعى أنه أستاذ في الفلك والأدب والحديث وعلم التنجيم، ويبدو أنه حصل على الثروة التي كان يسعى لتحقيقها عندما أصبح قاضياً ومفتياً وخطيباً على

المذهب الحنفي وقريبا من السلطة السياسية، وكان لهذه الطموحات أثارا خطيرة حيث تسببت في مقتله¹² بعد حركة أحمد شاوش القبائلي 1808م¹³، إذن كانت هذه النوعية من المناصب محط أنظار العلماء الوافدين إلى الجزائر وكان الدافع المحرك وراء ذلك هو الدافع المادي وتحقيق الثروة، ولكن لا يمكن أن نعمم هذه الفرضية على كل العلماء الوافدين، فقد كان العالم علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي الفيلاي(ت1057هـ) الذي قدم من المغرب إلى مدينة الجزائر؛ كان قريبا من النخبة الحاكمة في عهد يوسف باشا، حيث حصل على امتيازات كثيرة، وشغل وظيفة التدريس، ويظهر من كثرة قصائد مدح الشعراء له وورثاتهم له بعد وفاته، أنه كان يتمتع بحظوة كبيرة لدى السلطة السياسية وطلبة العلم، وكان صاحب جاه ونفوذ مع سعة الإطلاع وغزارة العلم¹⁴.

ويظهر مما سبق أن هذا الصنف من العلماء الرسميين سواء الوافدين إلى الجزائر أو المحليين أي الأسر العلمية في مدينة الجزائر وعواصم البايكات أو المدن الكبرى؛ كانت تحتكر الوظائف الرسمية التي ساهمت بشكل كبير في تنمية ثرواتهم وحصولهم على امتيازات واسعة، رغم ما يشوبها من أخطار انقلاب الأوضاع السياسية عليهم فيتغير موقعهم من الفئة المقرية للحاكم إلى الفئة المغضوب عليها.

أما الفئة الثانية من النخبة العلمية، فيمثلها العلماء الأحرار « المثقفون الأحرار »¹⁵، فهم علماء لم يسبق لهم أن تقلدوا وظائف رسمية، وكانوا بعيدين عن السلطة السياسية وغالبا ما كانوا أكثر كفاءة من زملائهم ومعارضون للسلطة وثائرين على زملائهم الموظفين وينتقدون كل من يقترب من الحكم، وهذه الفئة من العلماء هي التي مستها الهجرة أكثر من غيرها، وأغلب العلماء المهاجرين، هجرة دون رجعة كانوا من هذه الفئة.

غير أن عددا منهم كانوا كثيри الترحال لأسباب عدة من بينها الظروف السياسية، والصراعات الداخلية على المناصب ونيل الحظوة لدى النخبة الحاكمة من طرف الفئة الأولى من العلماء الرسميين الذين سعوا إلى إبعاد كل المنافسين واستخدموا كل الوسائل لتحقيق أهدافهم، إضافة إلى الدافع الديني المتمثل في الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وطلب العلم والإجازة من كبار العلماء في العالم الإسلامي، ومن المفارقات أن أغلب العلماء المهاجرين نحو المغرب أو المشرق، كان وضعهم الاجتماعي في البلاد التي هاجروا إليها أحسن حالا من بلادهم، فَرُجِبَ بهم واعترفوا لهم بمكانتهم العلمية، وتم تعيينهم في مناصب رسمية هامة كالإفتاء والقضاء وخاصة التدريس في أكبر المدارس و مراكز العلم في هذه الفترة كفاس والأزهر الشريف وغيرها.

بينما كان وضعهم الاجتماعي متدهورا في بلادهم، فقد تحدث ابن خلدون عن الوضع الاجتماعي لفئة النخبة وحملة العلم، التي تمثل ضمير الأمة بأن «... القائمين بأمور الدين... لا تعظم ثروتهم في الغالب» وأن فقر رجال العلم ظاهرة اجتماعية معقدة، إنهم حقا فقراء بالمقارنة مع السياسيين والعسكريين¹⁶.

فإذا استثنينا العائلات العلمية المعروفة في الحواضر الكبرى في الجزائر العثمانية، وأصحاب المناصب الرسمية السامية، فإن غالبية العلماء الذين امتهنوا مهنة التدريس كانت أجورهم زهيدة ولا تحقق لهم طموحاتهم، فقد تتحكم فيها عدة عوامل من بينها سمعة المعلم بين الناس والوقف المخصص لذلك¹⁷ وأهميته، فمثلا مدرس جامع عبيد باشا يتقاضى خمس ريات (5ر) ما بين سنة (1729 - 1730م) و بين (1742-

1743م)، في حين مدرس مسجد بابا عزون يتقاضى ست ريات (6 ر) ما بين سنتي (1744- 1745) ¹⁸ أما مدرس مسجد ميزوموطو فيتقاضى خمسة و ثلاثون دينارا (35د) في أواخر القرن 17م ¹⁹، و مدرس جامع خيضر باشا له ستون دينار (60 د) ²⁰.

وقد حاول بعض الحكام أن يحققوا بعض الاستقرار في أجور القائمين على التدريس أو التعليم مثل صالح باي الذي خصص للمدرس بمدرسة الكتاني 30 ريال شهريا و الوكيل 8 ريات شهريا و كان مدرس الجامع الكبير بقسنطينة يتقاضى 40 ريال ²¹.

أما بايلك الغرب فقد خصص الباي محمد الكبير للعلماء والمدرسين، أجورا ومرتبات من الأوقاف، فقد ذكر ابن سحنون الراشدي « أنه رتب للمدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء، إلا من كان متوليا لخطه أو مستعملا لخدمة» ²²، إضافة إلى نصيبهم من الهدايا التي تخصص لهم من مداخل الجهاد البحري وتقدم إليهم في المناسبات الدينية مثل الأعياد وشهر رمضان، فقد خصص في 4 ربيع الثاني 1114هـ (1702م) لسيدي عبد الرحمن الثعالبي نصيب الفنائم وكذلك لكل من سيدي والي دادة وسيدي يعقوب ²³.

رغم هذه الجهود من طرف بعض الحكام في الاهتمام بفئة العلماء إلا أن مداخلهم في غالب الأحيان لم تكن موحدة أو ثابتة ودائمة، بل كانت خاضعة لعدة اعتبارات، والمؤكد أنها في العموم كانت منخفضة ولا ترضي الكثير من العلماء، لذلك كانت مزاوله مهنة أخرى مثل التجارة خاصة، الحل الأمثل لتحسين وضعهم الاجتماعي والتفرغ للتأليف والتطوع للتدريس في بعض الأحيان وأهم نماذج علماء هذه الفترة والذي لم يكن طلبه للعلم يوفر له معيشته، وينطبق عليه هذا الوصف هو العالم عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري، الذي ولد في مدينة الجزائر سنة 1107هـ/ 1695م ²⁴، من أسرة متوسطة الحال تمتن مهنة الدباغة وبعض الأعمال التجارية البسيطة ²⁵، وكانت ثقافته هي ثقافة معاصريه ولكنه انفرد عنهم بالتخصص بالجانب العلمي في هذه الثقافة فاهتم بعلم الرياضيات والطب، فهو صيدلي وطبيب وفلكي إضافة إلى اهتمامه بالفقه والنحو والتصوف مثل باقي علماء عصره ²⁶.

الظاهر من عدة إشارات في رحلته "لسان المقال" أنه كان فقيرا ومتمسكا بطلب العلم، فقد تركته زوجته وأُتْبِتُهُ أمه على سوء حظه وعند ختان ابنه يذكر أنه كان ختانا لم يعلم به أحد فيقول في رحلته « وكان أهلي طامعين أن يجعلوه وليمة عرس، فسقط في أيديهم ولاموني عليه » ²⁷ ونستخلص من ذلك أن تصرفه هذا كان لفقره، ومما زاد من تدهور مستواه الاجتماعي الخسارة التي تعرض لها أثناء رحلته إلى المغرب أين فقد أغلب ماله وقد سجل بعد عودته إلى الجزائر ما يلي: « و كنت تعبت ..في المغرب من مرض وخسارة وضيق، ولم أَرَقُ قط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة والعياذ بالله حتى أيقنت الهلاك » ²⁸ ومن أسباب خسارة تجارته انتظاره أكثر من أربعة أشهر لأحدى السفن للرجوع فيها إلى الجزائر ²⁹.

وعرف ابن حمادوش باعتداده وافتخاره بشرفه ومحافظته على مكانته العلمية وميله إلى التصوف فلم يغير من نمط حياته البسيطة ³⁰ رغم الضغوطات التي مورست عليه من قبل عائلته وبقي بعيدا عن السلطة والحكام،

فقد نشب بينه وبين المفتي ابن علي خصومة في دار ابن ميمون، سببها عدم قيام ابن حمادوش احتراماً له، وكان أصل المفتي بن علي كرجلي، فاعتبره ابن حمادوش أقل منه شرفاً وعلماً، ولكن الرحلة التي قام بها ابن حمادوش إلى المغرب وأقطار العالم الإسلامي لم يكن هدفها التجارة بقدر ما كانت عبارة عن حركة علمية، إلتقى من خلالها بعدد من العلماء وأخذ عنهم وأجازوه في عدة علوم فرجع برصيد علمي كبير إلى الجزائر، ساهم به في تطوير وتنشيط الحياة العلمية في بلاده من خلال الدروس والمناقشات التي حدثت بينه وبين العلماء المعاصرين له.

من العلماء الأحرار، أو "المثقفون الأحرار" الذين هاجروا من الجزائر لطلب العلم أي الهجرة العلمية هو الشيخ حمودة بن محمد بن حمودة بن عيسى الشريف الجزائري المعروف بالمقايسي (ت1245م) كانت وجهته المشرق حيث تتلمذ على عدد من الشيوخ ذوي الشهرة الواسعة عندئذ، كالزبيدي وحسن العطار³¹ ومحمد الأمير والمحقق الشيخ الدسوقي المالكي والشيخ الصبان وحجاري بن عبد المطلب العدوي³² وأذنوا له بالتدريس في الأزهر ولكنه اختار الرجوع إلى أرض الوطن فكانت هجرته مؤقتة، فيذكر أنه بعد أن أخذ الإذن من شيوخه كالشيخ الصبان و الدسوقي و الشيخ الأمير وغيرهم بالعودة إلى الجزائر، مرّ بتونس وألقى بها بعض الدروس، فلقى إعجاب سكانها إلى درجة أنهم طلبوا منه البقاء للتدريس مقابل قيامهم بكل احتياجاته، لكنه رفض وكان عازماً على الذهاب إلى الجزائر، معتقداً أنه سوف يلقي نفس التقدير والإعجاب، فكان وضعه عكس ما كان يتوقع فقد ذكر الحفناوي أنه كتب على لفظه «... فلم أرد إلا الذهاب إلى الجزائر، فوجدت بها علماء أصحاب جاه وكان في ذلك الوقت لا يسود إلا من يتردد على أصحاب المملكة فكانت أتعيش بالصنعة وأكلت كتيبي والسلام»³³.

ومن هذا التصريح نستشف خيبة الأمل التي أصيب بها المقايسي وقد حدد شروط بلوغ المكانة العلمية في الجزائر وهي التردد على أصحاب المملكة، في ظل وجود علماء ذوي جاه وأسر علمية بارزة سيطرت على المراكز الحساسة كالقضاء والإفتاء ونقابة الأشراف والأوقاف، لذلك اختار العدول عن مهنة التدريس وتعاطى مهنة المقايسي أو صناعة الأساور التي نسب إليها، فقد ذكرها عندما انتهى من كتابة الإجازة التي أجازها بها شيخه الدسوقي قائلاً: «... نسأل الله العلم والعمل. كاتبه الفقير حمودة القاطن بالأزهر و كتب رحمه الله تعالى على لفظه حمودة ما نصه المقايسي صناعة، الجزائري وطننا»³⁴، فكانت صناعة الأساور يتعيش منها، و يبدو أنها لم تكن تكفي حاجته فيضطر إلى بيع كتبه، رغم شهرته بين معاصريه برواية الحديث وحفظ السند ومع ذلك مات فقيراً³⁵ مع العلم أنه لو بقي في مصر أو تونس لكان حاله أحسن بكثير، فكان وضعه الاجتماعي كغيره من العلماء الأحرار الذين اختاروا العودة إلى الجزائر بعد هجرة علمية دينية أو تجارية علمية.

في حين العلماء الذين اختاروا الهجرة دون رجعة فقد كان وضعهم الاجتماعي والمادي أحسن بكثير وفي أغلب الحالات مع ما يصاحب ذلك من تقدير إجلال واعتراف بالمكانة العلمية، فقد هاجر الشيخ العلامة الحافظ أبو عبد الله بن أحمد القسنطيني ويعرف في بلاده بابن الكمّاد وينتسب أهل بيته إلى الشرف³⁶، هاجر من قسنطينة إلى المغرب، رغم أنه ينتسب إلى أحد بيوتات العلم فيها وكانت تتولى القضاء والإفتاء، إلا أن كثرة المنافسين واستخدام الطرق غير شريفة وكثرة المنازعات جعلت هذا العالم يهاجر إلى المغرب³⁷، فاتجه أولاً إلى

جبل زواوة وأخذ عن المقرئ ثم إلى مدينة الجزائر وأخذ على محمد بن سعيد قدورة ثم رحل إلى فاس فتصدر للإقراء بها جمع الجوامع للسبكي (رسالة في أصول الفقه) فأبدع في إقراءه ورأى الطلبة من حفظه ما لم يكونوا يعهدون، فكثرت الأزدحام عليه، وتوجهت عيون أرباب الدولة إليه فارتفعت مرتبته وشمله درور إحسان السلطان فمن دونه واجتمعت الكلمة على أنه أحفظ علماء عصره^{3 8} فقال مكانة لدى العامة والسلطة السياسية في المغرب التي كان يُقدَّر فيها العالم فتهيأت الظروف لطلب العلم والاجتهاد فيه ونشره.

فقد انقطع ابن الكمّاد للتدريس فكان لا يُرى إلا في درسه أو في مطالعة كتبه لذلك كانت تأليفه قليلة ولكنه ترك تلاميذ أصبحوا من أبرز علماء المغرب مثل محمد بن عبد السلام البناني وإدريس بن محمد المنجري وغيرهم^{3 9} وتوفي في 4 محرم 1116هـ^{4 0}، فكان هذا العالم النموذج الذي يعبر فعلا عن العالم الجزائري الذي هاجر تحت ضغط الظروف السياسية والاجتماعية الداخلية غير المناسبة للنشاط العلمي، في حين توفرت له الظروف في فاس فساهم مساهمة كبيرة في بعث الحركة العلمية في المغرب.

لقد مست ظاهرة الهجرة عدد كبير من العلماء لأسباب مختلفة، أهم جوانبها الأوضاع الاجتماعية التي لم تكن هدفا في حد ذاتها وإنما وسيلة لتحقيق أهداف علمية كان يصبوا إليها العلماء كالمكانة العلمية والحصول على الإجازة في علم من العلوم، وحقق أغلب العلماء الجزائريين الذين هاجروا إلى المغرب أو المشرق؛ هذه الأهداف ونالوا تقدير واعتراف الطلبة والعلماء والحكام في البلاد التي هاجروا إليها لكن وضعهم الاجتماعي بقي في الطبقة الوسطى ولم تصل ثرواتهم إلى مستوى ثروات أهل السيف، في حين كانت سلطتهم المعنوية داخل المجتمع قوية ومؤثرة، فكانوا بذلك محل احترام الحكام وتقديرهم.

الهوامش:

¹ - André Raymond, *Grandes villes arabes à l'époque ottomane*, Ed.sindbade, paris, 1985, p79.

² - Ibid,p78.

³ - المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخل، ج 1، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص327.

⁴ - المرجع نفسه، ص328.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص396.

⁶ - المرجع نفسه، ص364.

⁷ - المنور مروش، المرجع السابق، ص331.

⁸ - «هو مصطفى بن رمضان العنابي من أسرة بن العنابي و كان معاصرا لجد بن العنابي صاحب "السعي المحمود في نظام الجنود" و توفي 1130هـ/1717م وكانت هذه العائلة على المذهب الحنفي وتقلد أعضائها وظائف رسمية كإفتاء و القضاء و التدريس» عن: أبو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي، ش و ن ت، 1977، ص14.

⁹ - A. De Voulx, TACHRIFAT: Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Imprimerie du gouvernement, Alger, 1852, p51.

¹⁰ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع السابق، ص444.

¹¹ - EL-Hadj ahmed mobarek, *kitab Tarikh Quassantina*, traduit par A. Dournon, Revue africaine, Vol.57, année. 1913, pp301-302

12 - «عند قيام أحمد شاوش القبائلي بثورة ضد علي بن يوسف 1807- 1808م قتلته ونصب نفسه بايا في قسنطينة دون موافقة الداي في الجزائر، و لكن مغامرة أحمد شاوش انتهت بالفشل حيث تخلى عنه الجند فطلب من الشيخ فتح الله أن يتوسط له لدى الداي و يعلن توبته و أنه ما قام بهذا العصيان إلا تحت إلحاح من سكان قسنطينة والجند ، فكان موقف الشيخ الرفض، وأن لا علاقة للسكان بما قام به ، فطرده أحمد القبائلي الشيخ على أن يذهب إلى عنابة ، و أرسل فارسين يتعقبون الشيخ لقتله، وتمكنوا من ذلك في منطقة فج بوغارب بين قسنطينة وعنابة». عن: Ibid, p 302.

13 - Ibid, p 301.

- 14 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ، المرجع السابق، ص381.
- 15 - المرجع نفسه ، ص404.
- 16 - المنور مروش، المرجع السابق، ص328.
- 17 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص326.
- 18 - رشيدة شكري معمر، العلماء و السلطة العثمانية في الجزائر في فترة الدايات (1671- 1830)، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2006، ص83.
- 19 - سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص257.
- 20 - رشيدة شكري معمر، المرجع السابق، ص84.
- 21 - سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص327.
- 22 - أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح و تق المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص135.
- 23 - TACHRIFAT, op.cit.p47.
- 24 - عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة بن حمادوش الجزائري المسماة: "لسان المقال في التنبؤ عن النسب و الحسب و الحال" ، تقديم و تحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص9.
- 25 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص423.
- 26 - عبد الرزاق بن حمادوش، المرجع السابق، ص10.
- 27 - المصدر نفسه ، ص ص115، 118.
- 28 - نفس المصدر، ص115.
- 29 - سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص236.
- 30 - ناصر الدين سعيدوني، ص432.
- 31 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص39.
- 32 - أبي القاسم محمد الحفناوي، المرجع السابق، ص141.
- 33 - نفس المصدر، ج2، ص141.
- 34 - نفس المصدر، ص142.
- 35 - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص322.
- 36 - العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حلّ مراكش و أغمات من الأعلام، راجعه: عبد الوهاب ابن منصور، ج8 ، ط 2 ، 2002، المطبعة الملكية، الرباط ، ص359.
- 37 - سعد الله ، المرجع السابق، ج2، ص433.
- 38 - العباس بن إبراهيم السملالي، المرجع السابق، ص360.
- 39 - سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص435.
- 40 - محمد بن جعفر بن إدريس الكتّاني، "سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس" ، تحقيق محمد حمزة بن علي الكتّاني ، ج 2 ، الموسوعة الكتّانية لتاريخ فاس، ص ص34-35.

صور من رد المظالم⁽¹⁾ في الإسلام

من عهد النبوة إلى عهد نور الدين محمود

أ/ زلماط إلياس، جامعة تيارت

إن من أهم الأهداف السامية التي من أجلها بعث الله الرسل، وأنزل من أجلها الكتب هي إقامة العدل بين الناس، وإذا كان العدل أساس الحياة، فعلى الحاكم أن يكون عادلاً، يساوي بين رعيته، "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ"⁽²⁾، فلا يميل عن الحق لأجل منفعة شخصية أو هوى، قال تعالى عن نبيه داود عندما وفقه ليكون حاكماً على قومه: "يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ"⁽³⁾.

و قد جعل الله الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصف كل مظلوم، وهو كالراعي الشفيق على إبله، و كالأب الحفي على ولده، وكالأم الحنونة الشفيقة، قال النبي ﷺ: "أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم عفيف متعفف ذو عيال"⁽⁴⁾، كما أن الحاكم العدل يكون يوم القيامة تحت ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

ومن هذا المنطلق تتبدى إلينا طرح التساؤلات التالية: كيف كان أمر ردّ المظالم في الإسلام ؟ وما هي حاله في عهد الخلافة الراشدة ؟ وكيف أصبح زمن الدولة الأموية ثم العباسية ؟ وما هي صوره زمن الدولة النورية ؟ ولما كان الموضوع واسعاً ارتأينا أن نقدم صورا موجزة عن كل زمن من هذه الأزمان.

رد المظالم والحث عليها في الإسلام:

وجدت نواة القضاء عند العرب في الجاهلية، فكان شيخ القبيلة يحكم بين أفرادها وفق التقاليد و العادات، إذ لم تكن ثمة قواعد يرتكز عليها إلا ما توارثوه من صفات أصطلح عليها بـ"العرف"، وقد أقر الإسلام بعضاً من هذه الأحكام، ورد أخرى. ومن الصور المشرقة في رد المظالم قبيل بزوغ شمس الإسلام ما عرف بـ: "حلف الفضول" فهو صورة دالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها، وكلحت شرورها، فلن تخلو من نفوس تهزها معاني النبيل، وتستجيشها إلى النجدة والبر. ففي الجاهلية الغافلة نهض بعض الرجال من أولي الخير، وتوافقوا بينهم على إقرار العدالة وحرب المظالم، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في أرض الحرم !.

قال ابن الأثير: "...ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف، فتحالفوا في دار عبدالله بن جدعان لشرفه وسنه. وكانوا بني هاشم، وبني المطلب، وبني أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وثيم بن مرة. فتحالفوا وتعاقدوا

ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه؛ وكانوا على من ظلمه، حتى تردّ مظلّمته فسمّيت قريش ذلك الحلف "حلف الفضول" فشاهده رسول الله ﷺ وقال - حين أرسله الله تعالى - : لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحبّ أن لي به حُمْرُ النّعم، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت".⁽⁵⁾

إن بريق الفرح بهذا الحلف يظهر في ثنايا الكلمات التي عبر بها رسول الله ﷺ عنه، فإن هذه الحمية للحق ضدّ أي ظالم مهما عرّ، ومع أي مظلوم مهما هان، هي روح الإسلام الأمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، الواقف عند حدود الله، ووظيفة الإسلام أن يحارب البغي في سياسات الأمم، وفي صلات الأفراد على سواء.

وقيل في سبب الحلف: إن رجلاً من "زيد" أتى بتجارة إلى مكة، فاشتراها العاصي بن وائل السهمي، ثم حبس حقها وأبى أن يدفعه! فاستعدى عليه قبائل قريش والأحلاف فلم يكثرثوا له، فوقف الغريب المظلوم عند الكعبة وأنشد:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنّفرا
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجرا
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام بثوب الفاجر الغدرا⁽⁶⁾

وقد رويت قصص أخرى عن أسباب هذا الحلف، ومهما يكن فالإسلام قد آقره ونبينا ﷺ ثمنه واستبشر به . ومما يمكن أن نستشف مما سبق أن الإسلام يدعوا إلى الأخذ بالحق ورد المظالم مهما كان قائله أو الداعي إليه و لو كان كافرا و لو عدوا.

وعلى كل حال؛ لما نزلت الشريعة مفصلة الأحكام، في أمور الدين والدنيا، أمر الله نبيه الكريم أن يحكم بين الناس بما أراه الله، ونهاه أن يحكم وفق أهواء قومه وذلك في العديد من الآيات كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا".⁽⁷⁾

كان عليه الصلاة والسلام قاضيا، وكان للشريعة مبلغا، ولم يكن للمسلمين في عهده قاض سواه، ولما انتشرت الدعوة الإسلامية وكثر عدد المسلمين أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين المسلمين ومن ذلك حديثه لمعاذ بن جبل عندما ولاه اليمن فقال له " بم تقضي يا معاذ ؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد ؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد ؟ قال أجتهد برأيي فأقره على ذلك "⁽⁸⁾ وبهذه التشريعات التي فرضت والسنن التي أتبعها أصبحت الدعوة إلى الإسلام من يوم أن خرجت من مكة مصابيح تكتسح الظلمة، وموازين تبدد المظالم، وتعطي كل ذي حق حقه فتتشر الأمان في ديار الإسلام .

كان النبي ﷺ يتولى بنفسه رفع المظالم التي تصل إليه من الولاة ومن صور رد المظالم في عهده أن خالد بن الوليد قتل مقتلة في قبيلة جزيمة بعد أن أعلن أهلها الخضوع، فاستنكر النبي ﷺ ذلك وأرسل عليا بن أبي طالب رضي

اللَّهُ عنه ليرفع عنها هذه المظلمة بأن دفع دية قتلاها على اعتبار أن القتل كان خطأ واتجه النبي ﷺ إلى ربه يقول:
"اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد".⁽⁹⁾

رد المظالم عهد الخلفاء الراشدين: بعد أن تمت بيعة أبي بكر قام في الناس خطيباً "يا أيها الناس قد وليت عليكم و لست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني، الصدق أمانة و الكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله..."⁽¹⁰⁾

حددت هذه الخطبة سبيل أبي بكر القويم ونهجه المستقيم الذي سار عليه حتى لقي ربه، ولا أدل على ذلك إسناده القضاء في المدينة إلى عمر، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان. ولما انتشر الإسلام في عهد عمر و اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، استدعى ذلك تعيين القضاة⁽¹¹⁾ يتولون مع الخليفة الفصل في بعض المنازعات، طبقاً لأحكام الكتاب والسنة والقياس، كما قرر ذلك النبي ﷺ، وكان يراعى في اختيار القاضي في عهد الخلفاء الراشدين: غزارة العلم و التقوى و الورع، و العدل. و تميز العهد الراشدي أن الناس كانوا يرضخون للحكم فور صدوره و لا يتجادون في ما قضي به، بل أنهم كانوا يسارعون إلى تنفيذ الحكم في حضرة القاضي⁽¹²⁾.

كان عمر رضي الله عنه من أوضح الخلفاء الراشدين في تتبع المظالم من الولاة أو الجند على الرعية، وكان أول ما خطب به يوم توليه الخلافة قوله: "إني لم أستعمل عليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم - جلودكم - وليشتموا أعراضكم و يأخذوا أموالكم، ولكني استعملتهم عليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم - فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي ليرفعها إلي حتى أقضه منه"⁽¹³⁾ وقد سار على هذا النهج في متابعة مظالم الولاة، وترجع شدته على ولاته إلى قناعته أنه لا سبيل إلى كفالة الحياة الكريمة لرعيته إلا أن يسوي العدل بين الحاكم و المحكوم، والغني والفقير والأمير والمأمور، وكان يقول: "إن الناس لا يزالون مستقيمين ما استقامت لهم أئمة الهدى" لهذا كان رضي الله عنه شديداً على ولاته، فالحكم يغريهم بالبطش إن لم يجدوا من يردعهم.

وقال رضي الله عنه أيضاً: "الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإذا رتع الإمام رتعوا"، ولهذا كان يرى مكان عماله منه مكان الرعية من عماله - هو مسؤول عنهم كما أن العامل مسؤول عن تولى عليهم - فإذا ظلم العامل الرعية وجب أن يقتض منهم، كما وجب أن يقتض من أي فرد في المدينة ظلم غيره، وقد عبر عن شعوره بهذه التبعة بقوله: "أي عامل ظلم أحداً فبلفتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته"⁽¹⁴⁾.

فمع هذا يصبح رد المظالم مطلوباً مرغوباً، فهكذا كانت سيرة هذا الرجل حتى قيل فيه: **حكمت فعدلت فأمنت فنمت**، هذا هو حس المحسن في دنياه الذي ينتظر آخرته، و الذي يحضر نفسه ليوم الرحيل، ليقف بين يدي الجبار، و سيوقفه ليوم الحساب، ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

هذا عندما يكرم الله المسلم بتفتح البصيرة ويقضه القلب يحس بعبوديته لله، وأن صدق هذه العبودية كائن في تسخير الجوارح في طاعة الله، ورد المظالم لذا تجده دائماً الفكرة ينظر فيعتبر لا تبطره النعمة، ولا تصرفه الدنيا

وملذاتها عن ما أمره الله به، و العمل للآخرة التي هي خير وأبقى، وتراه حين تراه لا يفتر عن ذكر الله والتفكير في آلائه، يذكر الموت فلا يغتر بالحياة الدنيا، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين في دار كرامته فيصغر في عينه كل ما يعظمه أولئك الذين غرهم بالله الغرور .

وقد بلغ من شدة عمر في محاسبة عماله أنه كان يعزل أحدهم أحيانا لشبهة لا يقطع بها دليل، وقد يعزل لريبة لا تبلغ حد الشبهة، فقد سئل في ذلك يوما فقال: "هان شيء أصلح به قوما أن أبدلهم أمير مكان أمير" ومن صور ذلك أنه: "عزل عن بعض ولاية الشام شرحبيل بن حسنة واستعمل بدلا منه معاوية بن أبي سفيان واعتذر على رؤوس الأشهاد أنه لم يعزله عن شيء هجنه به بل أراد رجلا أقوى من رجل" (15).

وهناك أيضا صور أخرى من رد المظالم زمن عمر نذكر بعضها منها، وهي: أن موسم الحج كان في عهد عمر مؤتمرا لمحاسبة الولاة، فكان يجمعهم في كل عام يسألهم عن أعمالهم و يسأل الناس عنهم ليرى مدى دقتهم بالاضطلاع بواجباتهم وتنزههم حين أدائها عن الإفادة لأنفسهم أو لذويهم (16).

وقد خطب عمر رضي الله عنه في ولاته في موسم الحج فقال: "يا أيها الناس إنني لم أبعث عليكم عمالي ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد، فقال: يا أمير المؤمنين إن عاملك فلان ضربني مائة سوط، قال فيم ضربته؟ قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه . قال: دونكم فأرضوه فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين، وقال: من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي إلا أن يرفعها علي حتى أقصه منه، فقيل: رأيت إن أدب أميراً رجلا من رعيته أقصه منه، قال: ومالي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه. (17).

وكان يرى رضي الله عنه من الاقتصاص من العمال ترويضاً لهم على الطاعة وترك التبجح والاذلال على الرعية (18).

إضافة لما تقدم نذكر صورة أخرى، أن عمر بن الخطاب كتب إلى فيروز الديلمي رضي الله عنهما: "أما بعد فقد بلغني أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل، فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم على بركة الله فاغز في سبيل الله"، فقدم فيروز فاستأذن على عمر رضي الله عنهما فأذن به فزاحمه فتى من قریش، فرفع فيروز يده فطمم أنف القرشي فدخل القرشي على عمر مستدمي فقال له عمر من فعل بك؟ قال: فيروز وهو على الباب . فأذن لفيزوز بالدخول فدخل فقال: ما هذا يا فيروز؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا كنا حديثي عهد بملك، إنك كتبت إلي ولم تكتب إلي، وأذنت لي بالدخول ولم تأذن إلي فأراد أن يدخل في إذني قبلي فكان مني ما قد أخبرك . قال عمر: القصاص . قال فيروز: لا بد ١٩. قال: لا بد .

فجش فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقصص منه، فقال له عمر رضي الله عنه: على رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ: سمعت رسول ﷺ ذات غداة وهو يقول: قتل الليلة الأسود العنسي الكذاب، قتله

العبد الصالح فيروز الديلمي، أفتراك مقتصاً منه بعد أن سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال الفتى: قد عفوت عنه بعد أن أخبرتني عن رسول الله ﷺ بهذا. فقال فيروز لعمر: أفترى هذا مخرجي مما صنعت إقراراً له وعفوه غير مستكره؟ قال: نعم، قال فيروز: فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألفاً من مالي هبة له. "هذه من أبلغ الصور التي مثلها الصحابة في إحقاق الحق والانصياح له والعمل به ورد المظالم، حتى بلغوا بها درجات سامقة من الأخلاق التي وسمت سيرتهم العطرة التي لا نظائر لها.

أما عن سيرة ثالث الخلفاء عثمان بن عفان رضي الله عنه: فقد حافظ على الأوضاع التي وضعها عمر، واستشار من استشاره عمر، وقد كان في رد المظالم كصاحبيه لا يسكت عن حد من الحدود ولا يتساهل مع من يرتكب المحظورات. فكتب في الأمصار: أن توافيه العمال في كل موسم ومن يشكوههم، وكتب إلى الناس والأمصار "أن أثتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ولا يذل المؤمن نفسه فإنني مع الضعيف على القوي مادام مظلوماً إن شاء الله" (19). ويمكننا أخذ صورة عن رد المظالم ومحاسبة العمال زمن عثمان مما يلي:

فقد ابتاع عثمان حمدان بن أبان وعلمه الكتابة واتخذ كاتباً، ثم وجد عليه: لأنه وجهه للمسألة عما رفع عن الوليد بن عقبة فارتشى منه، وكذب ما قيل فيه، فتيقن عثمان صحة ذلك، فقال عثمان: "لا تساكني في بلد فرحل عنه ونزل البصرة" (20).

ومهما يكن فإن عثمان رضي الله عنه حاسب واليه وعاقبه العقاب الذي يستحقه، لكن ما آخذه به بعض العوام وثرثبه عليه، أنه كان أقل حزمًا من عمر رضي الله عنه، ونشير هنا إلى أن كثيراً من الافتراءات التي قيلت في عثمان، والتي روجها بعض ضعاف النفوس سفهاً، وبعض أعداء الإسلام عمداً ونكايه في المسلمين وتهديداً لأنهم واستقرارهم، والتي كان عثمان بريئاً منها، هي التي سببت الفتنة التي حدثت والتي أنتجت مقتله رضي الله عنه.

أما ما يروى عن سيرة آخر الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في رد المظالم ما جاء عن الماوردي، أن إمامة علي احتاج رضي الله عنه حين تأخرت إمامته واختلط الناس فيها وتجاوزوا إلى فصل الصرامة في السياسة وزيادة تيقظ في وصول الأحكام إلى غوامض، فكان أول من سلك هذه الطريقة واستقل بها ولم يخرج فيها إلى نظر المظالم المحض للاستغناء عنه. جاء في قول النويري في نهاية الأرب: لم ينتدب أحد من الخلفاء للمظالم، وإنما كانت المنازعات تجري بين الناس في فصلها حكم القضاة (21).

وقد ولي الخلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واقتربت توليته التي نجمت عن قتل عثمان وما تبعها من أحداث شقت صف المسلمين وفرقت كلمتهم، وأصبحت مواجهة تلك الأحداث لرأب الصدع شغله الشاغل، ولم يكن هذا الصراع الدامي في عهد علي رضي الله عنه مانعاً له من أن يعطى للقضاء نصيباً من الاهتمام به وتنظيمه، ويدل على هذا رسالته التي أرسلها إلى الأشتر النخعي واليه على مصر حين كانت تابعة لحكمه، وفيها يقول: ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى

في الزلة، ولا يحصر في الفئ إلى الحق إذا عرفه، ولا تستشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصوم، وأصبرهم على كشف الأمور، وأصرمهم على اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطرء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل، ثم أكثر من تعاهد قضائه، وأفسح له في البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال عندك .⁽²²⁾

وفي هذه الرسالة أيضاً: أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيّتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أوحش حجته، وكان لله حرباً، حتى ينزع أو يتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد⁽²³⁾.

ونلاحظ أن هذا العهد تضمن صفات القاضي، كما تضمن حقوقه وواجباته، والذي يتأمل في الذي كتبه أمير المؤمنين على رضي الله عنه لواليه على مصر، يعجب لهذا العهد الذي كتب عام 40هـ، أو حولها، في وقت لم يكن للعرب فيه أي اتصال بالحضارات الأخرى بعد، وكيف كان العقل السليم الذي ينظر بنور الله قادراً على تفتيق المعاني، ووضع أمور الدولة في نصابها، وهذه النظرات من أمير المؤمنين علي في إنصاف الرعية، وتجنب ظلمها كانت فيما بعد عماداً في تنظيم ولاية المظالم⁽²⁴⁾.

ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاء ما يقال أنه كتبه علي بن أبي طالب إلى أحد عماله، ولعل رسالة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه إلى واليه في مصر، التي تُبين مدى الحذر والحيلة في انتقاء القضاة، تشير أيضاً إلى الخصائص التي تُميز شخصية القاضي، ويُتقى على أساسها. إذ يقول رضي الله تعالى عنه: "...ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك في نفسك، ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادي في الذلة، ولا يحصر من الفئ إلى الحق إذا عرفه، ولا تستشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم إلى أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصوم، وأصبرهم على كشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزد فيه المرء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل..."⁽²⁵⁾.

ولعل في الصورة التالية دليلاً على مبلغ حرص الخلفاء الراشدين على العدل و المساواة بين الخصوم مهما كانت درجاتهم ودياناتهم، فقد حدث في عهد عمر أن يهودياً شكى إليه علياً، فلما مثل كلاهما بين يدي الخليفة خاطب عمر اليهودي باسمه بينما وجه الخطاب إلى علي بكنيته إذ ناداه كما جرت العادة (يا أبا الحسن) فغضب علي فقال له عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهودياً و أن تمثل معه أمام القضاء على سواء ؟، فقال له علي: لا و لكنني غضبت لأنك لم تسوّ بيني وبينه بل فضلتني عليه إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتني بكنتي⁽²⁶⁾ ⁽²⁷⁾.

تلك إذًا بعض الصور في حياة الخلفاء الراشدين التي تشهد بعدلهم وحرصهم على قمع الولاة وكشف أحوال المعتدين منهم مهما اختلفت صور الظلم وتتنوعت أساليبه.

وإذا تقرر ذلك فقول الماوردي ومن تبعه (أنه لم يندب للمظالم من الخلفاء الأربعة أحد، لأنهم في الصدر الأول مع ظهور الدين عليهم بين من يقوده التناصف إلى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم، فإنما كانت المنازعات تجري في أمور مشتبهة يوضحها حكم القضاء، فأن تجور من جفاة أعرابهم متجور ثناه الوعظ أن يدبر وقاده العنف أن يحسن، فاقصر خلفاء السلف على فصل التشاجر بينهم بالحكم والقضاء تعيينا للحق في جهته لانقيادهم إلى التزامه.. إلى أن قال: فكان أول من أفرد للظلمات يوما يتصفح قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر عبد الملك بن مروان⁽²⁸⁾.

رد المظالم عهد الدولة الأموية:

كانت الدولة الأموية لا تستعمل من العمال إلا من تثبت كفايته ونجدته في تأييد سلطانها يحضونها النصيح ولا ينقضون عن تعهد حال الناس وكشف ظلاماتهم واتخاذ الطرق المفضية إلى ما فيه راحتهم، وقد أوصى معاوية أحد أقرابه ممن استعمله فقال: "لا تبعن كثيرا بقليل وخذ لنفسك من نفسك واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخف عليك المؤونة وعلينا منك وافتح بابك للناس". وقال لآخر: "إذا أعطيت عهدا فوفّ به ولا تخرجن منك أمرا حتى تبرمه، فإذا خرج فلا يرون عليك، ولا تطمع أحدا في غير حقه، ولا تؤيسن أحدا من حق له"⁽²⁹⁾.

تلك قواعد وضعها معاوية لعماله وفيها شيء من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض وإرضاء كل واحد بحقه وتوفير ثقة الرعايا بولاتهم. ولنضرب صفحا عن صورة المجتمع الأموي، ونجس نبضه أيام معاوية رضي الله عنه من خلال ما روى عن أحد العلماء لما سئل: كيف تركت الناس؟ فقال: "تركهم بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهي"، وهذا لا يعطينا الصورة الصحيحة البينة؛ لأنه كان يريد إدارة الملك على عهد ابن أبي سفيان كما كانت في عهد عمر بن الخطاب.

ومن الإنصاف القول بأن لكل زمن طريقته ورجاله، وأرباب الصلاح يتوهمون أن العدل المطلق يستفيض في الناس بأمر من الخليفة أو بعناية عماله وحدهم، وأن كل خير لا يأتي إلا من السلطان، أما المحكومون فليس لهم كبير أثر في إفاضة العدل في العالم ولا تلحق بهم تبعه. ومن الإنصاف أيضا أن نذكر ما جاء على لسان الطبري أن معاوية لما حضره الموت أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال، كأنه أراد أن يطيب له الباقي لأن عمر قاسم عماله⁽³⁰⁾.

ولما تجاهر الناس بالظلم والتغالب، ولم تعد تكفيهم زواجر العظة من التمانع والتجاذب احتاجوا في ردع المتغلبين وأنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذي يمتزج فيه قوة السلطان بنصفة القضاء، فكان أول من أفرد للظلمات يوما معلوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر هو عبد الملك بن مروان 65هـ- 705م. وكان إذا وقف منها على مشكل رده إلى قاضيه أبي إدريس الخولاني فينفذ فيه الحكم، 86هـ/685م- 705م.

فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الأمر⁽³¹⁾ ، وقد قام للجلوس عبد الملك بن مروان بنفسه حتى يرتدع الناس وكان عبد الملك حين يجلس للمظالم يستعد لها ، فكان يلبس جبة ورداء ، كما يقام على رأسه بالسيوف ، ويأمر شخصاً من هؤلاء القائمين على رأسه لإنشاد شعر لسعيه بن عريض وهو:

وأنصت السامع للقائل	إننا إذا ما دواعي الهوى
نقضي بحكم عادل فاصل	واصطرع القوم بألبابهم
نلفظ دون الحق بالباطل	لا نجعل الباطل حقاً ولا
فتنخل الدهر مع الخامل ⁽³²⁾	نخاف أن تسفه أحلامنا

ثم يجتهد عبد الملك في الحق بين الخصمين ، وهذا يعني أن جلوس الخليفة عبد الملك للمظالم كان جلوساً منظماً ومتكاملاً ، ولا بد أن جلسات الخليفة هذه كان يحضرها كتاب يدونون هذه الجلسات وأحكامها ، كما أن تحديد الخليفة عبد الملك يوماً معيناً من كل أسبوع للنظر في المظالم ، وتعيين قاضي لذلك وتعيين من يقوم على رأسه بالسيوف وهم من الحماة والأعوان ، وارتداء الخليفة ملابس معينة ، وانعقاد هذه الجلسات في مكان محدد ، كل هذا يعني وجود الأسس لديوان مستقل لكل ذلك يمكننا أن نقول: بأن الخليفة عبد الملك ربما كان أول من أسس ديوان النظر في المظالم في الدولة⁽³³⁾ ، لكن هناك من الباحثين من يرى أن عبد الملك أسس ديوان المظالم هذا ليبين للناس أنه قائم على رد المظالم ، وقد أسس هذا الديوان لقضايا بذاتها يهمل أمرها وفي المقابل سمح للحجاج وهو واليه أن يتصرف بكل حرية ، فأوقع المظالم وهو الذي فسقه العلماء⁽³⁴⁾ .

وقد دافع عبد الملك بن مروان عن سياسته يوماً فقال: لو أنصفتهمونا يا معشر الرعية ، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة أبي بكر وعمر ، نسأل الله أن يعين كلا على كل⁽³⁵⁾ ، ويبدو أن كلام عبد الملك لو تدبره العاقل الأريب ، لوجده يحتوي على شيء من الحق ، وهو أن العهد تغير والفتن لا تزال نيرانها تشتعل ، فأني لحاكم عادل أن ينصف ويرد مظالم الناس ، ومع هذا لا نلقي كل اللوم على العصر ونغفل دور السلطان الذي بإمكانه رد كثير من المظالم ، كيف لا وهما هو عمر بن عبد العزيز فعل ذلك .

يمكن القول أنه متى أراد الله بالعبد كمالاً وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هيئ له ، فإذا استفراغ وسعه برز على غيره وفاق الناس فيه ، كما قيل:

ما زال يسبق حتى قال حاسده هذا طريق إلى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذي يشكو وجع البطن مثلاً إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به ، وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه ، فهذا سليمان بن عبد الملك لما أراد الله به خيراً وفقه لاتخاذ بطانة الخير التي تسلك به سبل النجاة.

وقد عد المؤرخ أبو زرعة الدمشقي خلافة سليمان، وخلافة عمر بن عبد العزيز واحدة، حيث يقول: كانت خلافة سليمان بن عبد الملك كأنها خلافة عمر بن عبد العزيز، كان إذا أراد شيئاً قال له: ما تقول يا أبا حفص؟ قالاً جميعاً⁽³⁶⁾. وأما ابن قتيبة فيقول: افتتح بخير وختم بخير؛ لأنه رد المظالم إلى أهلها، ورد المسيرين وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة واستخلف عمر بن عبد العزيز وأغزى أخاه الصائفة حتى بلغ القسطنطينية، فأقام بها حتى مات⁽³⁷⁾. ووصفه ابن كثير بقوله: يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله⁽³⁸⁾.

ومن صور حث عمر بن عبد العزيز سليمان على رد المظالم ما ذكر عنهما أنه خرج سليمان ومعه عمر إلى البوادي، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر: إنما هذا صوت نعمة فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فقال سليمان: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها، فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو؟ قال: قوم صحبوك في مظالم لم يصلوا إليك، فجلس سليمان فرد المظالم⁽³⁹⁾، ويظهر عند عمر وضوح فقه ترتيب الأولويات فرد المظالم مقدم على بذل الصدقات.

وقبل وفاة سليمان بن عبد الملك أوصى بالخلافة لعمر بن عبد العزيز صاحب السيرة العطرة التي ملأت كتب التاريخ حتى عدها البعض شبيهة لسيرة الخلفاء الراشدين، وما بلغه الحكم في عصره إلى تلك القمة العظيمة السامقة -على قصر المدة التي قضاها فيه - إنما كان ثمرة من ثمرات إيمانه وصدقه وتقواه، بعيداً عن شهوة الحكم ورغبة السلطان، وحرصه أن يكون في حكمه للرعية على السنن التي سلكته الخلافة الراشدة تحقيقاً لعبودية الله في الأرض.

وقد وصفه النويري في رده المظالم بقوله: ثم زاد من جور الولاة وظلم العتاة واغتصاب الأموال في دولة بني أمية، ما لم يكفهم عنه إلا أقوى الأيدي وأنفذ الأوامر، فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من راعى سنن العدالة وأعادها وندب نفسه للنظر في المظالم وردھا⁽⁴⁰⁾.

ثم بدأ عمله في خلافته برد المظالم بنفسه فنظر إلى ما في يديه من أراضى أو متاع فخرج منه وردّه إلى المسلمين، ثم شئ بأهل بيته ثم جلس لنظر في المظالم. وسأقتصر على ضرب مثالين فقط من رد المظالم في خلافته لضيق المقام:

الأول: ما رواه الفرات بن السائب قال: "كان عند فاطمة بنت عبد الملك بن مروان جوهر جليل وهبها أبوها و لم يكن لأحد مثله، و كانت تحت عمر بن عبد العزيز فلما ولي الخلافة قال لها: اختاري إما أن تردي جوهرك وحليك إلى بيت مال المسلمين، وإما أن تأذني لي في فراقك فإني أكره أن اجتمع أنا و أنت و هو في بيت واحد، فقالت: بل أختارك عليه و على أضعافه لو كان لي، و أمرت به فحمل إلى بيت المال، فلما هلك عمر و استخلف يزيد بن عبد الملك قال لفاطمة أخته إن شئت رددته عليك، قالت: فإني لا أشاء ذلك طبت عنه نفسا في حياة عمر و أرجع فيه بعد موته!! لا والله أبداً".⁽⁴¹⁾

والثاني: ما روى سهيل بن يحيى المروزي عن أبيه عن عبد العزيز عن عمر بن عبد العزيز قال لما دفن سليمان، صعد عمر على المنبر فقال: إني قد خلعت ما في رقبتي من بيعتكم، فصاح الناس صيحة واحدة قد اخترناك، فنزل و دخل و أمر بالاستور فهتكت و الثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت إلى بيت المال، ثم خرج و نادى مناديه من كانت له مظلمة من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين فليحضر، فقام رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس و اللحية فقال: أسألك كتاب الله، قال: بما شأنك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني ضيعتي، و العباس جالس فقال عمر: ما تقول يا عباس؟ قال: أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد و كتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول أنت أيها الذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، فقال عمر: إيها لعمري إن كتاب الله لأحق أن يتبع من كتاب الوليد، أردد عليه يا عباس ضيعته، فجعل لا يدع شيئا مما كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة.⁽⁴²⁾

وتتابع الناس في رد المظالم إليه، فما رجعت إليه مظلمة إلا ردها سواء كانت في يده أو في يد غيره حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم مما صار إليه ظلما، وكان يرد المظالم إلى أهلها بغير البيعة القاطعة وكان يكتفي باليسير، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البيعة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس، وقد ذكروا أنه أنفذ بيت مال العراق في رد المظالم حتى حمل إليه من الشام⁽⁴³⁾.

ولقد واجه عمر بن عبد العزيز جبروت الظلام من جراء رد المظالم وقد خاف عليه مستشاريه من أهل الخير حتى قيل له - وقد شدد عليهم- : "إننا نخاف عليك العواقب من ردها، فقال: كل يوم أخافه وأتقيه غير يوم القيامة لا وقيته".

ومن صور مواجهته لهؤلاء الأمراء رده على كتاب عمر بن الوليد بن عبد الملك الذي رواه ابن عبد الحكم فقال: و كتب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز لما أخذ بني مروان برد المظالم كتابا أغلظ له فيه، من جملته أنك أوزيت على كل من كان قبلك من الخلفاء و عبتهم و سرت بغير سيرتهم بغضا لهم و شئنا لمن بعدهم من أولادهم، و قطعت ما أمر الله به أن يوصل و عمدت إلى أموال قريش و مواريتهم فأدخلتها بيت المال جورا و عدوانا فاتق الله يا ابن عبد العزيز و راقبه، فإنك خصصت أهل بيتك بالظلم و الجور، والذي خص محمد ﷺ بما خصه به لقد ازدددت من الله بعدا بولايتك هذه التي زعمت أنها عليك بلاء فأقصر عن بعض ما صنعت، و اعلم أنك بعين جبار عزيز و في قبضته و لن يتركك على ما أنت عليه .

فكتب عمر جوابه فقال: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، أما بعد: فقد بلغني كتابك وسأجيبك بنحو منه، أما أول شأنك يا ابن الوليد كما زعم، فأمكن نباتة أمة السكون كانت تطوف في سوق حمص وتدخل في حوانيتها ثم الله أعلم بها اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس المحمول وبئس المولود، ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا، تزعم أنني من الظالمين إذ حرمتك وأهل بيتك فيء الله عز وجل الذي فيه حق القرابة والمساكين، والأرامل وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من

استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين، تحكم بينهم برأيك ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لك وويل لأبيك، ما أكثر خصماء كما يوم القيامة، وكيف ينجو أبوك من خصمائه وإن أظلم مني وأترك لعهد الله؛ من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب يسفك الدم الحرام، ويأخذ المال الحرام، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابيا جافيا على مصر وأذن له في المعازف واللهو والشرب، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما في خمس العرب فرويدا يا ابن نباة فلو التقت حلقتا البطان ورد الفيء إلى أهله لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتكم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيات الطريق، وما وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أكون رأيته بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل، وإن لكل فيك حقا والسلام علينا ولا ينال سلام الله الظالمين⁽⁴⁴⁾.

ولم يهدأ للأمرء بال حتى سمّوه فمات على إثر ذلك كما جاء على لسان الذهبي عند ذكر سيرته فقال: " كان حنيفا زاهدا مع الخلافة ناطقا بالحق مع قلة المعينين وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملوه وكرهوا محاققته لهم، وأخذة كثيرا مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة و توفي سنة 101هـ ودامت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأياما⁽⁴⁵⁾.

ولم يكد عمر بن عبد العزيز يلق ربه حتى عادت الدولة إلى سابق عهدها إلا قليلا، وعزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر بن عبد العزيز جميعا، ثم أهملت سنة رد المظالم إلى آل الحكم إلى آل العباس فأحيوا هذه السنة. **رد المظالم عهد بني العباس:** إن جلوس الملك لكشف قصص المظلومين والفصل بين المتنازعين من أعظم قوانين العدل الذي لا يعم الصلاح إلا بمراعاته ولا يتم التناصف إلا به.

فهذا أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس كان يهتم باختيار عماله ويقول: ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أعف منهم، قيل له: يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال: هم أركان الملك ولا يصح الملك إلا بهم... أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لائمة لأثم، وآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، و الثالث صاحب خراج يستعصي ولا يظلم الرعية فإنني عن ظلمها غني، و الرابع صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة⁽⁴⁶⁾.

وإليك صورة من صور انقياد أبي جعفر المنصور للمواعظ في رد المظالم:

ما روي في حكاية الرجل الذي سمعه المنصور، وهو يطوف بالبيت آخر الليل، ويقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحال بين الحق وأهله من الظلم والقمع، فسأله عن مراده بذلك: فقال له: ذلك الرجل الذي دخله الطمع، حتى حال بينه وبين الحق، وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد أنت، قال له: ويحك كيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء على يدي، والحلو والحامض في قبضتي، قال: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين، إن الله استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجير والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجبه معهم السلاح ثم سجن نفسك فيها عنهم، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها، واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة. إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والسلاح، وأمرت أن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان و فلان نفر سميتهم، ولم تأمر بإصلاح

المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف الفقير، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق. فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرتهم ألا يحجبوا عنك. تجبي الأموال ولا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله، فمالنا لا نخونه، وقد سخر لنا. فآتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل، فيخالف لهم أمراً، إلا أقصوه، حتى تسقط منزلته، ويصغر قدره.

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليتقربوا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك أهل الثروة والقدرة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم من الرعية، فامتألت بلاد الله تعالى بالظلم بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك، وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول، وإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك، وجدك قد نهيت عن ذلك، ووضعت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل، وبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته، وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة، لم يمكنه ما يريد، خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلج إليه، ويلوذ به، ويشكو ويستغيث، وهو يدفعه ويحتال عليه، فإذا جهدوا وظهرت صرخ بين يديك، فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالا لغيره، وأنت تنظر، فلا تنكر، ولا تغير، فما بقاء الإسلام وأهله على هذا.

وقد كانت بنو أمية والعرب لا تنتهي إليهم المظالم، إلا رفعت ظلامته إليه فينتصف، ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم، فينصف. ألا وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين، وبها ملك فقدمتها مرة، وقد ذهب سمع ملكهم، فجعل يبكي، فقال له وزراؤه: ما لك تبكي لا أبكت عيناك، فقال: أما إني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي المظلوم يصرخ بالباب فما نسمع صوته.

ثم قال: أما إن كان ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس لا يلبس ثوباً أحمر إلا المظلوم. فكان يركب الفيل في طريق النهار، هل يرى مظلوماً، فينصف، هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين، ورقته على شح نفسه في ملكه، وأنت مؤمن بالله وابن عم رسول الله، لا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك.

ثم مضى في موعظته حتى بكى المنصور بكاءً شديداً وارتفع صوته ثم قال: ليتني لم أخلق، ولم أكن شيئاً. ثم قال: كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائناً قال: يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين.

قال: ومن هم؟ قال: العلماء، قال: قد فروا مني، قال: هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك، قال: ولكن أفتح الأبواب، وسهل الحجاب وأقتص للمظلوم من الظالم وامنح المظالم، وخذ الشيء مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن لك أن من هرب منك أن يأتيك، فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك، فقال المنصور: اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل⁽⁴⁷⁾.

يقتصر مما سبق أن الطرق إلى مرضات الله مفتحة الأبواب وأن من يرد الله به خيرا يجعل له واعظا من نفسه، وعندها لا يقرب إلا بطانة الخير التي تذكره إذا غفل وتنصحه إذا مال عن الصراط السوي .

وقد رد المنصور الكثير من المظالم، أما أول من قيل أنه جلس للمظالم من بني العباس الخليفة المهدي، فكان يجلس بنفسه ينظر في ظلمات الناس وبين يديه القضاة، فيزيل عنهم مظالمهم، وكان عادلا في خلافته حتى يقال إنه كان في بني العباس كعمر بن عبد العزيز في بني أمية، وكان إذا جلس للمظالم يقول أدخلوا علي القضاة، فلو لم يكن ردي المظالم إلا للحياء منهم لكفى⁽⁴⁸⁾.

ويروى عنه أيضا: أنه كان يجلس للمظالم وتدخل القصص عليه، فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص، وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولا فأول، فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض⁽⁴⁹⁾.

ومن صور رد المظالم في زمن الدولة العباسية عهد المأمون بن هارون الرشيد التي رواها الماوردي فقال: ومن أخبار المأمون عبد الله بن الرشيد هارون العباسي، أنه كان يجلس للمظالم في يوم الأحد، فتنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة في ثياب رثة فقالت:

يا خير نتصف يهدي له الرشيد ... ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد الملك أرملة ... عدا عليها فما تقوى به أسد
فابتز منها ضياعا بعد منعتها ... لما تفرق عنها الأهل والولد

فأطرق المأمون يسيرا ثم رفع رأسه، وقال:

من دون ما قلت عيل الصبر والجلد ... وأقرح القلب هذا الحزن والكد
هذا أو أن صلاة الظهر فأنصر في ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
المجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ... أنصفك منه وإلا المجلس الأحد

فانصرفت، وحضرت في يوم الأحد أول الناس، فقال لها المأمون: من خصمك؟ فقالت القائم على رأسك، العباس بن أمير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم، وقيل بل قاله لوزيره أحمد بن أبي خالد: أجلسها معه وانظر ما بينهما، فأجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون، فجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض حجابها، فقال: دعها فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه، فأمر برد ضياعها عليها⁽⁵⁰⁾.

ما أجمل القوة العادلة عندما تتساب بردا وسلاما فتحسم المظالم النازلة على الأفئدة الكسيرة، وتطفئ الآلام التي برحت بالمظلومين والمستضعفين، إنه لا يعرف فضل القوة المؤيدة للحق إلا من شقى تحت وطأة الطغيان دهرا طويلا، إنه يستقبل طلائعها استقبال المرقور للدفع، واستقبال الهيمان للإلف، إنه يعتبر زحفها بوارق الصبح تشق جنح الظلام، ومعالم اليقظة تغزو البصائر والأبصار.

وقيل : " جلس لكشف المظالم من خلفاء بني العباس المهدي حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها ، ثم جلس لها من بعده الهادي ، ثم احتجب الخلفاء لتظاهر الترك وغيرهم عليهم ودفعوا أمر المظالم إلى وزرائهم⁽⁵¹⁾ .

وخلال العصور العباسية المتأخرة ، أصبحت صلاحيات الوزير واسعة لدرجة أنه أخذ ينظر في المظالم بعد أن كانت من صلاحيات الخليفة العباسي ، فالوزير أبو شجاع محمد بن الحسن الروذراوري ، وزير الخليفة المقتدي بأمر الله 467هـ ، كان يجلس للمظالم بعد صلاة الظهر ، وكان الحجاب ينادون في الناس لرفع قصص المظالم إلى الوزير للنظر فيها⁽⁵²⁾ .

رد المظالم عهد الدولة النورية : ولما أفضى ملك الشام إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله⁽⁵³⁾ ابتنى له داراً في قلعة دمشق وسماها دار العدل ، وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيئها إلى سائر أبناء الأمة ، وقد جاء إنشاؤها بسبب تزايد الظلم من عدد من كبار الأمراء في دمشق ، وبخاصة أسد الدين شيركوه ، وتماديهم في اقتناء الأملاك ، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر ، فكثر الشكوى إلى قاضي القضاة ، كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض ، لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل⁽⁵⁴⁾ .

يقول ابن الأثير: فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلّموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي ، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ ، والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي ، فقالوا له: إن الناس إذ علموا هذا اشتطوا في الطلب.

فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم ، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين ، ففهم نور الدين ما جرى فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا⁽⁵⁵⁾ .

وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعممها في غير دمشق ، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع ، وقيل أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلماتهم لا يطلب بذلك درهما ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزائنه ، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله⁽⁵⁶⁾ .

وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى والفقير والغني ، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ، ولا القوى في دفع الضعيف بالمقال ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها

والمكاملة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ، ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله ، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة ، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة ⁽⁵⁷⁾ . وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق: ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم ⁽⁵⁸⁾ .

ومن صور رد المظالم في عهد نور الدين وسرعة استجابته للقضاء ، أنه طلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً: يقوم المولى إلى مجلس الحكم ، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ وأردف: يُحضر فرسي حتى نركب إليه: السمع والطاعة: " إِنْ مَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⁽⁵⁹⁾ . ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له: امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له: أني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع ⁽⁶⁰⁾ .

ويوماً كان يلعب الكرة - هوايته المفضلة - في دمشق ، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك ، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة ، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين ، ولكن هذا ألح عليه ، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له: إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر المدعي ساوياً كمال الدين بينه وبين خصمه .

وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور: هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا: لا ، فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي ، وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته ، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه ⁽⁶¹⁾ . تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه.

و من صور عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى: أن إنساناً كان بدمشق استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله ، فلما توفي تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم يُنصف ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ، أين عدلك ؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصيح .

فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطُيَّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه ، فبكى أشد من الأول فقال له صلاح الدين لم تبكي ؟ قال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق ، وكل ما نحن فيه من عدل

فمنه تعلّمناه⁽⁶²⁾. ويمكن القول أن صلاح الدين سارع لرد المظلمة خوفا من انفلات الأمور من يده، بعد أن استقل بدولته الفتية الناشئة التي ورثت دولة نور الدين محمود .

وفي الأخير نقول عن هذه الصور المشرقة المشرفة في تاريخنا الإسلامي، التي هي محط فخر للإسلام والمسلمين، والتي أساسها وحي هذا الدين القويم، الذي تصل نفحاته إلى إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم، وقهر الظالم و الأخذ على يده، مهما كانت منزلته ومرتبته، والمسلم الصادق الحق مدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الارتقاء إلى هذا الأفق الوضيء السامي، ليكون على مستوى هدي هذا الدين واتخاذ المواقف الجريئة في مواجهة الباطل ونصرة المظلومين، بقدر الإمكان و كل على حسبه ؛ وقد جاء الهدي النبوي معززا لهذه الخلائق البطولية النبيلة، مؤكدا نصر الله للأبطال المنافحين عن الحق، وقد كانت سيرة الرسول ﷺ العملية مثالا حيا فذا في ذلك كما حكينا طرفا منه، وقد سلف ذكره، و المسلم الحق من فقه هذه الصور كلها، وكان متمثلا لها في نفسه وفي سلوكه الاجتماعي؛ بأن يبتعد عن مظاهر الظلم بشتى أنواعه وأشكاله مع الناس عامة .

الهوامش:

- (1)- المظالم :لغة جمع مظلمة بكسر اللام - ما تظلمه الرجل- و أراد ظلامه ومظالمته أي ظلمه.
الظُّلم بالضم: وضع الشيء في غير موضعه - انتقاص الحق - وتظلم: أي أحال التظلم إلى نفسه ومنه شكّا من ظلمه .
والمَظْلَمَةُ بكسر اللام : ما تَظَلَّمَهُ الرَّجُلُ.
في الشريعة :عبارة عن التعدي من الحق إلى الباطل وهو الجور، وقيل هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد .
جمال الدين أبي الفضل ابن منظور، لسان العرب، ت ح أحمد عامر حيدر ،دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1424هـ.
2003م ج 12 ص 370.
- (2)- سورة الحديد، الآية 25.
- (3)- سورة ص، الآية 26.
- (4)- محمد بن فتوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تح: د. علي حسين البواب دار ابن حزم - بيروت ط2، سنة: 1423هـ - 2002م، رقم 3139 ص 413.
- (5)- محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، سنة 1407هـ 1987م، ج 1 ص 570.
- (6)- سمي هذا الحلف بحلف الفضول باسم ثلاثة من زعماء جرهم وهم: الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة والفضل بن الحارث، وقيل الفضل بن شراة والفضل بن وداعة والفضل بن قضاة.

- والفضول: جمع فضل وهي أسماء هؤلاء الذين تقدموا.
- وقيل بل سمي كذلك لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها وألا يغزو ظالم مظلوما.
- وزعم ابن إسحاق أن هذا الحلف عقدوه على التناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم. وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب. أبي الفدى إسماعيل بن كثير، البداية و النهاية، ت ح: محي الدين مستو و علي أبو زيد أبو زيد، دار بن كثير دمشق ط2 1431هـ - 2010م ج2، ص356.
- (7) - سورة النساء الآية: 85.
- (8) - أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، مُصنف ابن أبي شيبة . تحقيق محمد عوامة، الدار السلفية الهندية القديمة. ج4 ص 543.
- (9) - أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تح: د . محمد كمال الدين عز الدين علي دار عالم الكتب ، بيروت، ط1، سنة 1417هـ ج2، ص195.
- (10) - أبي الفداء إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية تح: مصطفى عبد الواحد دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت سنة 1396 هـ - 1971 م ج4 ص25.
- (11) - حمدي عبد المنعم، ديوان المظالم؛ نشأته وتطوره واختصاصاته مقارنة بالنظم القضائية الحديثة، دار الشروق بيروت، ط1 سنة 1403هـ 1983م ص 57.
- (12) - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب دار الكتب العلمية تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، بيروت سنة 1424 هـ - 2004 م ط1. ج3 ص 157.
- (13) - أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري تاريخ المدينة المنورة (أخبار المدينة النبوية)، حققه فهيم محمد شلتوت، منشورات دار الفكر ج3 ص 182.
- (14) - ديوان المظالم ، المرجع السابق، ص 57.
- (15) - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المنار ط1 سنة 1419هـ 1999م ج3 ص 299. علي محمد الصلابي، أبوبكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره ، ط 1 1422 هـ - 2001م ص 145.
- (16) - ديوان المظالم ، المرجع السابق، ص 57.
- (17) - محمد كرد علي، الإسلام و الحضارة العربية، القاهرة 1982 سنة، ج2، ص111.
- (18) - ديوان المظالم ، المرجع السابق، ص 59.
- (19) - تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري دار الكتب العلمية بيروت ط1 1407هـ - 1987م ج 2 ص 350، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها

- وتسمية من حلها من الأمثال أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، تح: علي شيري دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط1 سنة 1419 هـ - 1998 م ج 8 ص 250.
- (20)- تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2 سنة 1413هـ ج 1 ص 281.
- (21)- أبو الحسن علي بن محمد الموردي الأحكام السلطانية و الولاية الدينية دار الكتب العلمية بيروت ط1 1405هـ- 1985م ص 78. النويري، المصدر السابق، ج 6 ص 227.
- (22)- محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض ط1، 1414 هـ - 1993 م دار الكتب العلمية بيروت ، ج 5 ص 200.
- (23)- النويري، المصدر السابق، ج 6 ص 22.
- (24)- ديوان المظالم، المرجع السابق، ص 66.
- (25)- النويري، المصدر السابق، ج 6 ص 24.
- (26)- الكُنيَّة: اسم يطلق على الشخص للتعظيم نحو (أبي حفص) و (أبي الحسن) أو علامة عليه، و الجمع (كُنَى) بالضم في المفرد و الجمع و الكسر فيهما لغة مثل برمة و برم و سدر و سدر، و اشتَهَرَ عند المتأخرين من أنَّ الكُنيَّةَ ما صُدِّرَ بِأَبٍ أو أُمٍّ أو ابْنٍ أو بِنْتٍ، وإِلَّا فالأَكْثَرُ من الأَقْدَمِينَ يُخْرِجُونَ مثل هذا على اللَّقَب. محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض، الملقَّب بمرتضى، الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين الناشر دار الهداية، ج 4 ص 229.
- (27)- ديوان المظالم، المرجع السابق ص 68.
- (28)- الماوردي، الأحكام السلطانية ص 132.
- (29)- الطبري، تاريخ الأمم و الملوك، ج 3 ص 242.
- (30)- المصدر نفسه، ج 3 ص 355.
- (31)- الماوردي الأحكام السلطانية ص 134.
- (32)- تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج 9 ص 140.
- (33)- كرد علي، المرجع السابق ج 2 ص 164.
- (34)- ديوان المظالم المرجع السابق ص 72.
- (35)- أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تح: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية - بيروت ط1 سنة 1424 هـ - 2004 م ج 3 ص 36.

- (36)- عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري المعروف بأبي زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت ط1 سنة 1417هـ 1996م ج1 ص10.
- (37)- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس دار صادر - بيروت، ج2 ص420.
- (38)- البداية والنهاية، المصدر السابق، ج7 ص120.
- (39)- علي محمد محمد الصلّابي الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، المكتبة الإلكترونية الشاملة www.shamela.ws، ج3 ص296.
- (40)- نهاية الأرب، المصدر السابق ج6 ص227.
- (41)- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء دار الكتاب العربي - بيروت ط4، سنة 1405هـ ج5 ص283.
- (42)- تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج12 ص283.
- (43)- ديوان المظالم، المرجع السابق ص75.
- (44)- تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج12 ص360.
- (45)- الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت748هـ تحقيق محب الدين أبي سعيد بن غلامه العمري، سير أعلام النبلاء دار الفكر للطباعة والنشر ط1 سنة 1417هـ - 1997م ج9 ص138.
- (46)- الطبري، المصدر السابق، ج4 ص438.
- (47)- ابن الأزرقي، بدائع السلك في طبائع الملك، المكتبة الإلكترونية الشاملة www.shamela.ws، ج1 ص88.
- (48)- أحمد بن عبد الله القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت ط2، سنة 1985م ج1 ص51.
- (49)- نفسه، ج1 ص83.
- (50)- الأحكام السلطانية، المصدر السابق، ص147. تاريخ دمشق، المصدر السابق ج12 ص308.
- (51)- عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الرحمن الشيزري، المنهج السلوك في سياسة الملوك، علي عبد الله الموسى ط1 سنة 1407هـ 1987م ج1 ص566.

(52)- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف و الترجمة القاهرة، ط2، سنة1981م، ج5 ص 111.

(53)- هو محمود بن زنكي (عماد الدين) الملقب بالملك العادل: كان أعـدل ملوك زمانه وأجلهم و أفضلهم، صالحا متعبدا يحتكم إلى الشرع ويقدر العلماء و كان معتنيا بمصالح رعيته، مداوما للجهاد، يباشر القتال بنفسه، موفقا في حروبه مع الصليبيين أيام زحفهم على بلاد الشام، وله الفضل - بعد الله - في نشر العلم وبناء المدارس، و التمهيد لما حققه المجاهد الكبير صلاح الدين الأيوبي من نصر على الصليبيين، مات بـعـلة الخوانيق في قلعة دمشق سنة 569هـ واشتهر بنور الدين الشهيد ولقد بني بجانب قبره مسجد ويقع اليوم في سوق الخياطين بدمشق سير أعلام النبلاء المصدر السابق، ج20، ص 531 ، ابن الأثير، المصدر السابق، ج9 ص125.

(54) - عبد القادر بن محمد النعيمي، الدارس في التاريخ المدارس تحقيق جعفر الحسني مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ط2 سنة 1427هـ 2006م ص 469. - محمد ابن أحمد ابن عثمان الذهبي تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1 دار الكتاب العربي، بيروت 1414، هـ 1994م، ج39 ص379

(55)- علي محمد محمد الصلّابي، موسوعة الحروب الصليبية عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، المكتبة الإلكترونية الشاملة www.shamela.ws ص336.

(56)- شهاب الدين عبد الرحمان بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشامي المعروف بأبي شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية تح: إبراهيم الزبيقي، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، ط1 سنة 1418هـ 1997م ج1 ص62 .

(57) المصدر نفسه ج1 ص62 .

(58)- علي محمد محمد الصلّابي، موسوعة الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 337

(59)- سورة النور، آية: 51

(60)- علي محمد محمد الصلّابي، موسوعة الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 306

(61)- المرجع نفسه ص 339 .

(62)- الروضتين، المصدر السابق، ج1 ص365 .

الدولة الرسنمية

إشكالية الإمامة بين النظرية السياسية والممارسة العملية

أ/ محمد علي، جامعة ابن خلدون - تيارت

ملخص:

يتناول هذا البحث جانبا من نظام الحكم في الدولة الرسنمية الإباضية وهو الإمامة ، من حيث أن الإباضيين طبقوا في هذه الدولة نظام حكم وراثي ، وهو النظام الذي سارت عليه الدول الإسلامية في العصر الوسيط ، مخالفين بذلك أهم قاعدة في الإمامة قام على أساسها المذهب الإباضي وهي الاختيار الحر للحاكم عن طريق الشورى ، والإشكالية المطروحة للنقاش هي لماذا ناضل الإباضيون منذ نشأة مذهبهم من أجل تحقيق دولة أنموذجية يطبق فيها الحكم الحر المستمد من الاختيار الحر للحاكم على نهج الخلافة الراشدة ، وقدموا تضحيات وفاء لمبدئهم ، ولما استقلوا بدولتهم في المغرب الأوسط التزموا بما يخالف مذهبهم في الحكم ؟!

والأمر الآخر الذي يبعث على التساؤل في هذا البحث ويعزز الإشكالية هي أن أهل الرأي من المذهب الإباضي أيدوا فكرة توريث الإمامة في البيت الرسنمي و وقفوا في صف الأئمة الرسنمين ، لا بل اعتبروا كل من خرج عن هؤلاء الأئمة وأنكر إمامتهم أخطأ في حقهم . وهذا ما تناقلته المصادر الإباضية واتفقت على صوابه ، مما يعني أن الواقعية السياسية أو المنطق السياسي تجاوز المثالية المذهبية لهذه الدولة .

تمهيد:

عرفت بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري الموافق للقرن الثامن الميلادي تطورات سياسية تمخض عنها ظهور دول مستقلة عن الخلافة العباسية ، منها الدولة الرسنمية سنة 160هـ / 776م ، وهي أول دولة مستقلة تتأسس في المغرب الأوسط على أسس مذهبية . والحقيقة إن الظروف السياسية لولاية المغرب هي التي صنعت هذه الدولة وغيرها من الدول المستقلة التي تأسست في نفس الفترة وفي نفس الظروف تقريبا ، فقد تحالفت الطموحات السياسية للبربر الراغبين في التحرر من ممارسات جور غالبية ولاية إفريقية مع أهداف دعاة الحركات الخارجية المناوئة للخلافة العباسية ومن قبلها الأموية ، ولاسيما الإباضية منهم ، في قيام كيان سياسي يُعبّر بشكل عملي عن دعوة إباضية أساسها الحكم الحر الذي يستند إلى الشورى في اختيار الأمير ويستبعد الحكم الوراثي الذي هو من ثوابت النظام السياسي في الدولة الأموية والعباسية .

غير أن الواقع السياسي الذي واكبته الدولة الرسنمية منذ تأسيسها على يد عبد الرحمن بن رستم سنة 160هـ / 776م إلى غاية زوالها على عهد اليقظان أبي اليقظان ، آخر إمام رسنمي سنة 296هـ / 908م. وضع هذه الدولة ضمن النسق السياسي التاريخي الذي سارت في اتجاهه كل الدول الإسلامية في العصر الوسيط وهو الحكم الوراثي. ولا شك التاريخ السياسي للدولة الرسنمية وظروف تأسيسها يفرض على الباحث الإجابة على الإشكالية التاريخية التالية :

هل الواقعية السياسية للعصر الذي قامت فيه الدولة الرستمية وما تفرضه مصالح الدولة كانت أقوى مما يمكن اعتباره مثالية مذهبية ، وبالتالي كان تطبيق النظام الوراثي امتثالا للظروف السياسية وليس التزاما للأسس المذهبية الإباضية ؟ هل كان موقف الفقهاء الإباضيين من نظام التوريث في الدولة الرستمية ومن معارضيه موقفا مذهبيا أم موقفا سياسيا؟ ، وهل استمدت الدولة الرستمية قوتها من المذهب أم من العصبية القبلية ؟

1- جذور الفكر السياسي الإباضي ومبادئه :

لا شك أنّ الخلافة أو الإمامة¹ وما يتصل بها من شؤون الحكم ، باعتبارها فعلا سياسيا تكتمل به مصالح المسلمين الدنيوية ومقاصدهم الشرعية ، هي أول وأهم القضايا التي شغلت الفكر السياسي الإسلامي عبر العصور الإسلامية المختلفة. وهي من الإشكاليات الكبرى التي واكبت سيورة التاريخ الإسلامي وعبرت عن مواقف متعارضة لفرق أو مذاهب متنازعة حول أحقية ومشروعية الخلافة ، وظل كل طرف يعمل على تجييش الأدلة ما وسعه الأمر لإبراز ما يراه الإمامة الحقّة الواجب إتباعها من قبل المسلمين

اختلف المسلمون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حول الرجل الذي يقوم مقامه ويكون الأجدر بمنصب الخلافة أو الإمامة من بعده ، غير أنّ كبار الصحابة سارعوا إلى وأد هذا الخلاف في المهدي لما أجمعوا رأيهم على اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه (11- 13هـ/632- 634م) خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فسار في الرعية على نهج بهديه ، ثم من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه (13- 23هـ/634- 643م). فكان الخليفة الذي استظل المسلمون بعدله وتقواه.

لكنّ أطرافا استقلت برأيها ووقفت موقفا عنيفا من عثمان بن عفان رضي الله عنه (24- 35هـ/644- 655م) أفضى إلى استشهاد سنة 35هـ/655م ، فكان هذا الحادث المؤلم بداية لفتنة عظيمة فجرت خلافا سياسيا بين المسلمين ما لبث أن تحوّل إلى مواجهة عسكرية بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما في معركة صفين² سنة 37هـ/657م وانتهى الأمر بينهما إلى التحكيم في دومة الجندل³ في رمضان من سنة 37هـ/657م⁴ ، غير أنّ لجوء الطرفين إلى التحكيم لم يحسم الأمر بل أسس لحالة من الانقسام السياسي أخذ أبعادا عقديّة خطيرة كان لها نتائج وخيمة على المسلمين ، فالذين طالبوا علي بن أبي طالب بالامتنال لتحكيم كتاب الله فيما شجر بين الفريقين انقلبوا عليه وخرجوا عن صفه حينما رأوا أنّ نتائج التحكيم لا تستجيب لأهوائهم فسموا خوارج⁵ أو المحكّمة⁶ ، أما الفئة التي بقيت معه فقد أيدته واستماتت في الدفاع عن رأيه لا بل إنّ منهم من بالغوا في تأييده إلى حدّ رأوا فيه أنّ من أنكره حقه في الخلافة أو أيد خصمه فقد خرج من الملة وهم الشيعة.

ومن المسلمين من وقف على الحياد ، لاعتقاده أنّ ما احدث بين الطرفين لم يكن إلا فتنة رغم أنهم رأوا أنّ الحق مع علي رضي الله عنه وأنّ معاوية اجتهد فإخطأ ، وكان هذا منهج جمهور عريض من الأمة الذين اصطلح على تسميتهم لاحقا بأهل السنة والجماعة على إثر انتصار الإمام أحمد بن حنبل (164- 204هـ) في فتنة خلق القرآن الكريم⁷.

هكذا انقسم المسلمون إلى فرق سياسية ، وتبنت كل فرقة نظرية حول الخلافة أو الإمامة. فالخوارج - وهم أول الفرق ظهوراً في الإسلام - تشبثوا بفكرة "لا حكم إلا لله"⁸ وهي طبعاً لم تكن نظرية للحكم بل كانت فكرة غامضة مضطربة لم يتبين أصحابها مبادئها ومقاصدها وإنما الفهم الخاطئ لنصوص القرآن الكريم أدى بهم إلى تأويله بطريقة خالفت مقاصده ، وترتب عن ذلك بالطبع تكفير من لم يشاطرهم أفكارهم ، فجانبوا الحق ، وإن تهيأ لهم أنهم على طريقه ، إذ سَوَّلَ لهم فكرهم إراقة دماء من يخالفهم من المسلمين بطريقة فيها استهتار بالنفس التي حرم الله دمها إلا بالحق .

وانقسم الخوارج بعد ذلك إلى 20 فرقة كما بينه البغدادي في كتابه "الفرق بين الفرق"⁹ ، وأكبر هذه الفرق الأزارقة¹⁰ وهم الأكثر دموية وعنفاً ، والنجداث¹¹ والصفريه¹² والاباضية¹³ هذه الأخيرة هي الأكثر مسالمة واعتدالاً في آراء أتباعها. ولو أنهم لا يعتبرون أنفسهم فرقة خارجية بل مذهباً إسلامياً مستقلاً منكرًا للفكر الخارجي المتطرف ، ويسمون أنفسهم أهل الاستقامة¹⁴ ، لأن الصورة النمطية التي تداولتها المصادر التاريخية عن الانحراف الفكري وحتى العقدي¹⁵ للخوارج لا سيما الأزارقة منهم ، جعلتهم لا يقرون بهذا الانتساب ، بل يتبرأون منه ويستدلون بموقف عبد الله بن إباح من نافع بن الأزرق حينما أرسل إلى عبد الملك بن مروان برسالة يتبرأ فيها من ابن الأزرق وأعماله قال فيها: "أنا براء إلى الله من ابن الأزرق وضيعه وأتباعه، لقد كان خرج إلى الإسلام فيما ظهر لنا ولكنه أحدث وارتدّ وكفر بعد إسلامه، فنبراً إلى الله منهم"¹⁶ ، وكان هذا في حدود سنة 64هـ/683م¹⁷ وهو إنكار صريح لمنهج نافع بن الأزرق والإعراض عنه ، علماً بأن فرقة الأزارقة مثلت أحسن تمثيل فكر الخوارج الأوائل في غلوهم وتطرف مواقفهم .

ويبقى ظهور فرقة الإباضية مرتبطاً بالنسق التاريخي العام الذي ظهر وتطور فيه نشاط الخوارج وتطور معه أيضاً عداء الدولة الأموية لكل الحركات المناوئة لها والخارجة عن طاعتها وإن تفاوتت حدة مناوئتها.

والحقيقة التي لا مراء فيها أنّ فرقة الإباضية لم تتخذ العنف منهجاً كما فعلت بقية الفرق الخارجية الأخرى وإنما كانت تلجأ إليه دفاعاً عن النفس، وإذا كان مصطلح الخوارج في سياقه التاريخي يعني الخروج عن طاعة الحاكم أو الإمام وهو ما فعلته ثلة من أصحاب علي رضي الله عنه حينما خلعوا طاعتهم له من دون مبرر شرعي أو حجة ملزمة ، وجعلوا من هذا الخروج منهجاً سياسياً وسلوكياً متطرفاً ، فإنّ خوارجية الإباضية هي تعبير عن موقف سياسي رافض لسلطة بني أمية الذين حوّلوا الخلافة الراشدة إلى ملك وراثي وانحرفوا عن منهج الشورى. وممنتقد في نفس الوقت لسياسة ولاتهم التي لم تتطابق مع المقاصد الكبرى للسياسة الشرعية في الإسلام وهي العدالة والمساواة .

ومن الناحية السياسية تتفق فرق الخوارج على أنّ الإمامة تكون في عامة المسلمين عريهم وعجمهم ، مستبعدين فكرة القرشية أو العصبية القبلية لأنّ الإسلام ساوى بين الناس والفضل بينهم ليس في النسب وإنما في الاستقامة والعدل والالتزام بالكتاب والسنة وهذه هي الشروط التي توجب الإمامة¹⁸ وقاعدتها الشورى وأداتها انتخاب الأكفأ ، ونظراً لتمسكهم بهذه المبادئ فقد اعتبروا أول من نادى بتطبيق الحكم الجمهوري في الإسلام¹⁹ ، لذلك أنكروا حكم الأمويين وهو طعن في شرعية خلافتهم ، على أنّ الأمويين من جانبهم خاضوا

ضدهم حروبا طاحنة كشفت استماتتهم في الدفاع عن آرائهم ومواقفهم والتضحية في سبيلها ، وباتت المعركة بين الطرفين معركة وجود .

وإذا كان موقف الخوارج من الخلافة الأموية وتحديد الأزارقة منهم اتسم بالصراع الدموي فإن موقف الإباضيين من حكم الأمويين ومن بعدهم العباسيين عبّر عنه الفكر السياسي الإباضي الذي يُعرّف الخلافة أو الإمامة على أنها خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين وحفظ الإسلام²⁰ ، وهي فرض على المسلمين²¹ حتى تقام الحدود وتصان الأعراض وتحفظ الفرائض²² ، فهي إذا ضرورة شرعية لأنها ، حسب محمد بن يوسف أطفيش وهو إباضي معاصر ، مرتبطة بمتطلبات الشريعة و أحكام القرآن الكريم وإبطالها هو إبطال الحدود الشرعية²³ ومن ثم فطاعة الإمام²⁴ واجبة بنص الآية يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم²⁵ .

ومن هذه الاعتبارات فإن الإمامة في المذهب الإباضي تقوم على مجموعة من المبادئ أو القواعد الأساسية تتفق في عمومها مع نظرة الخوارج للحكم وهي :

. اعتبار الإمامة حق لكل مسلم استقام حاله على الورع وله من القدرة العسكرية أي الشجاعة والدراية بشؤون الحكم ما يجعله أهلا لمنصب الإمامة ، فيختار إماما وتعتد له البيعة²⁶ من قبل أهل الحل والعقد²⁷ .

. الاختيار الحر للحاكم أو الإمام تبعا لأحكام الشورى والتزاما بنص الآية وأمرهم شورى بينهم²⁸ ، فيكون مجبرا على التقيد بالكتاب والسنة والافتداء بالصالحين من الأمة . ويسير في حكمه بين الناس بالعدل والحق متبعا سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيكون بذلك قدوة للناس ، على ألا يجعل من نفسه أعلى منزلة منهم فيستقوي عليهم بسلطته ويفعل ما يشاء ، بل يكون في خدمتهم لأن مبايعتهم وطاعتهم له هما نظير رعايته لمصالحهم ، وفي هذا السياق يذكر فاروق عمر فوزي في كتابه "الإمامة الإباضية في عمان" على لسان شبيب بن عطية العماني أحد شيوخ الإباضية المشاركة في العصر الوسيط أن الإمام هو واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم²⁹ ، و إذا ما قام بفعل فيه مخالفة للشرع عليه أن يبادر إلى إعلان توبته .

ويلاحظ من خلال هذه المبادئ التي تتفق عليها الإباضية في اختيار الإمام أو الحاكم أنهم يتقاطعون مع أهل السنة في هذه الشروط إلا شرط القرشية³⁰ فإنهم يستبعدونها ، فليس من حق الشخص الذي يرتضيه الناس إماما عليهم عن طريق الشورى أن يجعل الملك في عشيرته أو عائلته حتى إذا ما أخل بهذه الشروط عزل³¹ . وقد عبّر الشيخ أحمد الخليلي مفتي سلطنة عمان الحالي عن مبدأ عدم توريث الإمامة أو الخلافة بقوله : "وقد كانت نظرة الإباضية إلى الخلافة على طريق الخلفاء الراشدين بحيث لا يحق للخليفة أن يورث أبناءه وقرباته وإنما عن طريق الشورى"³² .

ولقيام الإمامة ، وهي تعد لديهم رديفا للدولة لا بد من توفر شروط يراعى فيها الحالة التي يكون عليها الإباضية من قوة في العدة والعدد والمال والعلم ، وهي مقومات تصنع قوة الدولة وظهورها على أعدائها³³ .

وهناك حالات أجاز فيها الإباضية وجود إمامين متزامنين في بلدين متباعدين إذا كان بينهما حاجز حسب ما استدل به محمد بن يوسف أطفيش من أقوال شيوخ الإباضية في كتابه "شرح النيل وشفاء العليل" وفي حالة ما

إذا اتصلت أقطارهما تسقط إمامة أحدهما وحينذاك يجب على الرعية أن تختار أفضلهما بالشورى³⁴ ، ولا يتسمى الإمام بأمر المؤمنين إلا إذا كان خليفة على كل المسلمين في مشرق الأرض ومغربها، وقد حدث بالفعل أن قامت إمامة في عُمان سنة 177هـ/ 793م³⁵ حينما اختار الإباضية إماما جديدا لهم وهو محمد بن عبد الله بن أبي عفان³⁶ ، وهذه الإمامة تزامنت مع الإمامة الرستمية في المغرب الأوسط .

هذه هي إذا أهم مبادئ نظرية الحكم أو الإمامة³⁷ التي يقوم على أساسها الفكر السياسي الإباضي ، علما بأن فقهاء الإباضية قدّموا اجتهادات فقهية لبعض المسائل السياسية التي كانت تعترض الإمامة في الظروف الاستثنائية عبر العصور منها أن بعض شيوخ الإباضية في عمان أجازوا الخروج مع الظالم على من هو أظلم منه³⁸ . في أثناء ضعف الإمامة وما كانت عليه من مواجهات مع العباسيين

2. تأسيس الدولة الرستمية على منهج الشورى : لا يختلف إثنان في أن الدولة الرستمية جاءت ثمرة لدعوة إباضية ناضل دعايتها وأتباعها في المشرق كما في المغرب الإسلامي من أجل تحقيق مبادئهم التي قدّموا في سبيلها توضيحات جسام. فالدعوة الخارجية عموما والإباضية على وجه خاص تمت في بادئ أمرها تحت شعار إصلاح ما أفسده الولاة وتقديم الصورة المثلى للإسلام من مساواة وعدالة وتسامح ، هذه المبادئ رفعها البربر شعارا لثوراتهم طيلة النصف الأول من القرن 2 هـ/ 8م وهذا في حد ذاته يعد نجاحا للمذهب الإباضي .

أدرك عبد الرحمن بن رستم وهو ممن رفعوا لواء الدعوة الإباضية في المغرب الإسلامي بعد هزيمة ومقتل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري (زعيم إباضي من أصل عربي يمني وهو إمام الظهور في طرابلس) 144هـ/ 761م أن بقاءه في القيروان محفوف بالمخاطر وأن نفوذ الإباضية لم يكن إلا مرحلة ظرفية ساقطتها حالة التملل والضعف الذي أصاب الأسرة الفهرية³⁹ ، ذلك أن العباسيين لا يمكنهم التفريط بسهولة في هذه المدينة الحيوية ، ثم إن ما بقي من أتباعه بها ليس بإمكانهم أن يصمدوا طويلا أو يواجهوا قوة محمد بن الأشعث المنتشي بانتصاره على ابن أبي الخطاب ، لهذه الأسباب فضّل ابن رستم أن ينسحب إلى مكان آمن حتى يكون في منعة من أمره ، هو ومن معه من أهله ، فكانت وجهته إلى المغرب الأوسط حيث يكثر أنصار مذهبه .

وبالفعل يصل بعد مسيرة طويلة وعناء شديد خلال مسالك آمنة إلى جبل يسمى سوفجج⁴⁰ وهو جبل منيع حتى أن محمد بن الأشعث لما تعقبه لم يستطع النيل منه وأقفل راجعا من حيث أتى، وحول هذا الجبل تقوم مضارب قبيلة لماية ، وهي من جملة القبائل البربرية الإباضية التي قامت على نصرته و وعدته بمآزرته باعتباره زعيم الإباضية بعد مقتل أبي الخطاب. ويظهر ذلك من خلال وجهته إليها، عبر ابن خلدون عن هذه العلاقة بقوله "ونزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم"⁴¹ وسارعت قبائل أخرى للانضمام إلى هذا التأييد ، وكانوا غالبيتهم من زناتة وهوارة ولواتة ونفزاوة⁴² .

هذا السند المذهبي والاجتماعي لعبد الرحمن بن رستم يترجم أو يتجسد على أرض الواقع في بناء مدينة جديدة هي مدينة تاهرت⁴³ بمجرد وصوله إلى هذه المنطقة سنة 144هـ/ 761م، ويبدو أن بناء هذه المدينة بالشكل الذي يجعلها عاصمة دولة عامرة بما تتطلبه الدولة من مرافق وأحياء استغرق وقتا طويلا ففي سنة 160هـ/ 777م بويع عبد الرحمن بن رستم أول إمام للدولة الرستمية وكان حينئذ حائزا على شروط الإمامة

مستوفيا لحقوقها في نظر من بايعوه. هذا ما تضمنته عبارات ابن الصغير في قوله " ولقد كان الإمام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلدوه أموركم فإن عدل فذلك الذي أردتم وإن سار فيكم بدون عدل عزلتموه ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه ".⁴⁴

3- أزمة انتقال الإمامة من عبد الرحمن بن رستم إلى ابنه عبد الوهاب :

جمع عبد الرحمن بن رستم قبل وفاته سنة 171هـ/787م سبعة أشخاص من أهل المشورة والرأي الذين تتوفر فيهم شروط الإمامة وهم ابنه عبد الوهاب ، وعمران بن مروان ، وأبو الموفق سعدوس بن عطية ، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان، و أبو قدامة يزيد بن فندين⁴⁵ ، ومسعود الأندلسي وهو أكثرهم فضلا وفقها⁴⁶. أوصاهم بالتشاور واختيار إمامهم من بينهم وبذلك يكون قد التزم بمبادئ الشورى واقتدى بعمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما جمع ستة من كبار الصحابة ومعهم ابنه عبد الله ليتشاوروا ويختاروا من بينهم خليفة للمسلمين⁴⁷.

تمت مبايعة عبد الوهاب إماما خلفا لأبيه عبد الرحمن بيد أن انتقال الإمامة بهذا الشكل، أو على نحو أدق ، فوز عبد الوهاب بها مع وجود من أهم أكفأ منه يبعث على التساؤل وهو هل تعيين عبد الرحمن بن رستم لابنه ضمن الأشخاص السبعة المرشحين للإمامة كان اعتبارا لمكانة عبد الوهاب العلمية أم رغبة منه في أن يتولى الإمامة من بعده مع علمه بأن سمعته تشفع لابنه عند مشايخ الإباضية لانتخابه إماما . ٩

إن الظروف التي تم فيها اختيار عبد الوهاب ومبايعته إماما خلفا لأبيه يشوبها بعض الغموض ويبدو أن عوامل كثيرة حسمت الأمر لصالحه على الرغم من أن رواية أبي زكريا في سير الأئمة وأخبارهم توضح أن المسلمين - يقصد الإباضيين - انقسموا إلى فريقين أحدهما يدعم عبد الوهاب والآخر يدعم مسعود الأندلسي، ولم يحسموا أمرهم إلا بعد أن انقضى شهر⁴⁸. واستنادا إلى رواية محمود إسماعيل يكون هذا التعيين بفعل تدخل قبيلة بني يفرن لأن أمه كانت يفرنية⁴⁹ ، ولم يكن من شك في أن لجماعة الفرس المتواجدين في تاهرت بصمات في هذه التزكية⁵⁰ ، وهنا تستجد مسألة مثيرة للاهتمام وتبعث على التساؤل في أن واحد وهي أننا حينما نقارن ظروف مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالمعطيات الجديدة التي بموجبها تمت مبايعة ابنه عبد الوهاب يتضح أن اختيار الأول كان مبنيا بالأساس على أنه غريب الديار ويفتقد إلى عصبية تحميه وهو شرط مثالي ومناسب حقه له منصب الإمامة ، بينما ابنه حضي بدعم نسب أمه ومكانة أبيه ، فألت الإمامة إليه، وعلى هذا النحو فالعصبية كان لها تأثير ولو بشكل ثانوي أو خفي في هذا الاختيار.

عامل آخر صنع انتصار عبد الوهاب وهو اختفاء مسعود الأندلسي في أثناء البيعة وكان هو الأوفر حظا في تقلد الإمامة لأنه الأكفأ علما من منافسه . والثابت أن المصادر الإباضية تصور هذا الاختفاء على أنه امتناع منه عن قبول الإمامة ليفسح المجال أمام عبد الوهاب ، إذ أنه لما علم بأن الأمر صار إلى هذا الأخير ظهر وكان أول المبايعين له⁵¹. وهكذا يبدو أن اختيار ثاني إمام رستمي مثل أول اختبار لأباضي الدولة الرستمية في مدى نجاحهم في تطبيق مبادئ الإمامة بما يضمن استمرار دولتهم الفتية وسط ظروف خارجية لا تحسد عليها .

4. المعارضة ومشكلة مشروعية الإمامة الرستمية : أثارت مسألة مشروعية إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أو بالأحرى بقاء الإمامة في البيت الرستمي بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم ، لأنّ يزيد بن فندين ، وهو أحد السبعة الذين أوكل إليهم أمر اختيار الإمام من بينهم ، لم يخف امتعاضه من ظفر عبد الوهاب بالإمامة ، وقد صرح بذلك حينما اشترط على هذا الأخير نظير مبايعته له ألا يقطع بأمر أو يبت في قضية إلاّ بأمر من مجلس شوري ، أي المبايع على الشرط.⁵² غير أنّ الإجماع الذي حاز عليه من كبار القوم على الأقل في بداية الأمر فوّت الفرصة على يزيد بن فندين ، ويبدو أنّه كان يريد من هذا الشرط الحد من صلاحيات الإمام عبد الوهاب .

تطور هذا الخلاف إلى معارضة صريحة من قبل ابن فندين ، وقد طعن في إمامة عبد الوهاب على أنّها باطلة وغير مشروعة بحجة أنّه تولى الإمامة وفي القوم من هو أفضل منه أخذاً بمبدأ عدم جواز تقديم إمامة المفضول على الفاضل . والسؤال الجدير بالطرح في مثل هذا الحال هو هل المعارضة التي تزعمها يزيد بن فندين ضد الإمام عبد الوهاب هي تعبير وترجمة لرفض الخروج عن القواعد الصحيحة للإمامة وبالتالي العمل على تصحيح انحراف أضر بالنهج السليم لمبادئ الحكم الشوري التي تعد من الأصول السياسية للمذهب الإباضي ، أم أنّها لا تعدو أن تكون حركة تمرد وخروج عن الإمامة ، انطلقت من مصالح شخصية ولم يكن لها من هدف سوى إثارة الفتنة؟!

للإجابة عن هذا التساؤل يجب أن ينظر إلى الموضوع من جميع زواياه ، من حيث تحديد طبيعة المعارضة والمساق الذي آلت إليه. وكيف تم التعامل معها من قبل أصحاب الرأي والمشورة من الفقهاء الإباضيين ، لا سيما المشاركة منهم باعتبارها مسألة مستجدة على الإمامة وتتطلب الرجوع إلى أصول الفكر السياسي الإباضي.

تمظهرت حركة يزيد بن فندين بحجة أو شعار الدفاع عن مطالب مشروعة عبرت عن وجهة نظر أصحابها في اعتقادهم أنّ معارضتهم هي في سبيل الدفاع عن آراء هي في الحقيقة قواعد ومسلمات المذهب الإباضي المستمدة من الشوري ، وأنّ مطلب ابن فندين في إقامة مجلس شوري يتكون من جماعة للمشورة كان يهدف إلى الحيلولة دون استبداد الإمام عبد الوهاب بالسلطة ، لذلك جاهر بعداوته له منطلقاً من فكرة أنّ هذا الأخير مغتصب للسلطة⁵³ وبالتالي ليس عليهم طاعته ، ومن شأن هذه المبررات أن تضي على معارضته صفة الشرعية .

ولا شك في أنّ هذه الأزمة ألقت بظلالها على السياسة الداخلية للدولة وأثارت جدلاً في الأوساط الفقهية الإباضية . في تاهرت حول مشروعية الإمامة حتى وصل صدها إلى مشايخ الإباضية في البصرة والحجاز من أمثال الربيع بن حبيب ، وأبي غسان مخلد الغساني ، وشعيب بن المعروف الفقيه الإباضي المصري⁵⁴ ، وهؤلاء استعين بهم في إبداء موقفهم من إمامة عبد الوهاب ، أو ما يمكن تسميته بالأزمة الطارئة على الإمامة في تاهرت.

والذي يبدو لأول وهلة من خلال جواب فقهاء الإباضية في الحجاز ومصر أنّ هناك تلمللاً في موقفهم وفي معالجتهم لهذه الأزمة ، وحتى المصادر الإباضية رغم أنّها تعرضت لمجريات ما حدث في هذه الفترة إلاّ أنّها لم تعط إجابة شافية بل صورت الأمر على أنّه حُسم للتو من قبل فقهاء الحجاز وعلى رأسهم الربيع بن حبيب ، وفي المقابل إنّ ما ورد في سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكريا يفيد بأنّ شعيب بن المعروف الفقيه الإباضي المصري بادر بنفسه إلى الوقوف على حيثيات الفتنة بالسفر إلى تاهرت حيث التقى أولاً بعبد الوهاب فأفتى له بصحة إمامته ولما سار إلى ابن فندين تراجع عن فتواه الأولى وأبدى موقفاً مسانداً له لأنّ القوم أطمعوه في الإمامة لا بل يصوره على أنّه

أحد المتأمرين الكبار على الإمام⁵⁵ ، فيظهر من موقفه هذا أن فتواه كانت مزاجية خاضعة لأغراض شخصية . لكن النظرة الموضوعية للموقف تعطي انطبعا بأن المصادر الإباضية ومنها كتاب السير بالغت في التشنيع بخصوص الإمام عبد الوهاب.

على أن رأي محمود إسماعيل عبد الرازق في كتابه "الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع" الهجري ، وهو يستند على ما جاء في سير الشماخي من أن الفقهاء المشاركة أعابوا على عبد الوهاب أمورا وطلبوا منه الرجوع عنها⁵⁶ ، يستفاد منه أن فتوى المقدمة لمعالجة هذه الفتنة من قبل الإباضية المشاركة باعتبارهم مرجعية فقهية يعتد بها حملت في طياتها موقفا متناقضا كرس الانقسام بدلا من أن يرأب الصدع .

وحتى تلك التي جاءت من داخل الدولة الرستمية نفسها كان يطغى عليها الولاء السياسي أو المصلحة الذاتية على حساب الالتزام بقواعد المذهب . ومن كل هذا نستنتج أن هذه الفتاوى في حد ذاتها عبّرت عن انقسام في وجهات نظر أصحابها ، فلم تزد الفتنة إلا تأججا .

تطورت هذه المعارضة إلى ثورة مسلحة بعد أن جمع ابن فندين من حوله فئة عريضة آذرت موقفه ، ولا يستبعد أن تكون المصالح الذاتية والنزعات العصبية من بين دوافع ثورته . فقد اتهم الإمام عبد الوهاب بأنه أوكل المناصب لمن ليسوا أهلا لها وأثر بها قبائل بعينها خاصة نفوسة⁵⁷ التي كانت متنفذة في السلطة الرستمية .

وهكذا يتضح أن هذا الانقسام السياسي الطارئ على الدولة الرستمية تطور إلى انشقاق مذهبي تمخض عنه ما سمي في أدبيات المصادر الإباضية بالافتراق الأول وخلص إلى وجود فرقتين: "النكارية" وهم أنصار ابن فندين الذين قالوا ببطلان إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، و"الوهبية" أنصار هذا الأخير يتزعمهم معظم الفقهاء ، الذين اعتبروا سلوك بن فندين وأصحابه تمردا على الإمامة.

خرج ابن فندين مع انصاره من مدينة تاهرت في مكان يسمى الكدية⁵⁸ تعبيرا منهم عن رفضهم البقاء في مدينة يقيم فيها إمام خلعوا طاعتهم له ورفضوا إمامته ، وبذلك تنتقل الدولة من طور الانسجام والوحدة التي نعمت بها طوال عهد الإمام عبد الرحمن بن رستم إلى طور الانشقاق والصراع .

بالفعل مثلت هذه الثورة تهديدا خطيرا للإمام عبد الوهاب لكنه استطاع أن يخمدتها بمصرع يزيد بن فندين على يد ابنه أفلح⁵⁹ في أثناء محاولته اقتحام مدينة تاهرت. ولا شك أن هذا الإمام استمد قوته في محاربة النكارية ، أولا من تزكية الفقهاء الإباضيين داخل الدولة ، وكذلك إباضية المشرق الذين قالوا بمشروعية إمامته استنادا على الرسالة التي بعث بها فقهاء الإباضية في المشرق وقد تضمنت تأييدهم لإمامة عبد الوهاب مستدلين في ذلك بخلافة أبي بكر الصديق وفق مبدأ جواز المفضول على الفاضل⁶⁰ ، فقد بويغ خليفة وفي الأمة من هو أعلم منه ، ويستشف من ذلك أن الإباضية في هذه المسألة يقدمون الكفاءة السياسية على درجة العلم توافقا مع الظروف الخارجية التي تتطلب وجود إمام قوي يستند على جماعة تقدم له المشورة.

ومهما يكن من أمر فإن ما اعترض انتقال الحكم من عبد الرحمن بن رستم إلى ابنه عبد الوهاب مثل أول أزمة في الإمامة الإباضية ، وبصرف النظر عن طبيعة دوافع الأطراف التي عارضت هذا التوريث ، فإن هذه المعارضة عبرت عن وجهة نظر أصحابها ، كما أن مجرد الخوض في مسألة مشروعية الإمامة بشكل جدلي في

الأوساط الفقهية الإباضية يشير إلى أن هناك خلافاً اعترض نظام الحكم في الدولة الرستمية عالجه البعض وفق مصوغات ومبررات سياسية و فقهية ، وعده البعض الآخر انحرافاً يجب تصحيحه ، وهذه بالطبع سنة الاختلاف في البشر.

5 - موقف الفقهاء الإباضيين من بقاء الإمامة في البيت الرستمي: يتجلى موقف الفقهاء الإباضيين المشاركة والمغاربة على حد سواء من الإمامة الرستمية بداية في النظر بعين الرضا والتقدير لإمامة عبد الرحمن بن رستم ، لأنه نهج في الرعاية سيرة العدل والحق امتثالاً للكتاب والسنة والتزاماً بما توافق وتعاهد عليه الإباضية فيما يجب أن يكون عليه الحاكم ، وهذا الانطباع أوردته المصادر الإباضية وغير الإباضية ، فقد جاء على لسان ابن الصغير قوله : "فسار بهم سيرة جميلة حميدة أولهم وآخرهم ولم ينقموا عليه في أحكامه حكماً ولا في سيره سيرة"⁶¹ ويطمئن القارئ على هذه الشهادة حينما يلزم نفسه بالصدق ويؤكد أنه ناقل لحقائق سمعها بقوله : "إذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروءات ولا من أخلاق ذوي الديانات"⁶².

وعلى هذا النحو امتاز عهد الإمام الأول عبد الرحمن بن رستم (160- 171هـ/ 776- 787م) بالعدل والمساواة بين الرعاية جميعها إباضيين وغيرهم ، فنالت سياسته إعجاب ورضا إباضية المشرق لما رأوا في حكمه من عدل وتواضع حتى سميت حاضرتة بالمعسكر المبارك⁶³.

ولكن "المثالية" التي تمتعت بها الإمامة الرستمية على عهد عبد الرحمن بن رستم زالت بوفاته وحل محلها الانقسام والفرقة ، ذلك أن التوريث أصبح مبدأ تسير عليه الدولة ، ما هيئ وشجع عناصر نقيمت على الأئمة فأصبح الخروج عن كل إمام رستمي يرث الإمامة تقليداً من قبل معارضييه لازم كل الأئمة فلم تكن حركة ابن فندين هي المعارضة الوحيدة التي طبعت المسار السياسي في الدولة الرستمية ، بل كانت أولى التمردات و الثورات التي اقتدى بها من جاء بعده .

فقد واجهه الإمام عبد الوهاب تحد آخر حينما نادى خلف بن السمع حفيد أبي الخطاب في المناطق الشرقية (طرابلس وجبل نفوسة) بالاستقلال عن الإمام وباعثه في ذلك أنه رأى لنفسه أحقية في الإمامة لمكانة جده ، فوجود إمامين في وقت واحد لا يتعارض مع مبدأ الإمامة حسب ما أفتى به المؤيدون له من فقهاء هذه المنطقة⁶⁴ . هذا الخروج عن الإمامة في تاهرت . وإن لم ينكرها . عدُ الافتراق الثاني للإباضية وظهرت على إثره فرقة سميت "الخلفية" نسبة لخلف بن السمع قالت بمشروعية تعدد الأئمة في وقت واحد.

لم يسلم الإمام أفلح بن عبد الوهاب (208هـ - 258هـ / 823م - 871م) هو الآخر من المعارضة ، لأن توليته كشفت تكريسا لمبدأ التوريث وأن الإمامة استقرت في البيت الرستمي وهي مخالفة صريحة لقواعد الشورى حينما تذكر المصادر والمراجع أن أباه عبد الوهاب أعجب بشجاعته في القتال يوماً فقال: "لقد استحق أفلح الإمامة"⁶⁵ ، وهذه العبارة إشارة ضمنية لولاية العهد التي لا يقر بها الفكر السياسي الإباضي وقد لقيت تأييداً من فقهاء وأعيان تاهرت⁶⁶.

تأتي المعارضة هذه المرة من عالم فقيه هو نفاث أو فرج بن نصر النفوسي أو النفائي⁶⁷ في جبل نفوسة لكنه لم يكن له من الأنصار ما يمكنه من تحقيق ما نادى به فأثر الرحيل إلى المشرق استزادة في العلم والتأليف على

أن آراؤه استمرت حتى بعد انتهاء الدولة الرستمية في قبيلة مطماطة. أصبحت فكرة الشورى من بعد الأئمة الثلاثة الأوائل الذين شفعت لهم قوتهم وحنكتهم السياسية لدى الخاصة والعامة مجردة من معناها ، حتى إنّ الإمام صار لا يملك من أمر نفسه إلا الاسم⁶⁸ ، ولم يبق للإمامة في العهود المتأخرة إلا اسمها إذ انضبط عقدها وضاعت هيبتها ، فاختيار الأئمة أصبح من صلاحيات القبائل المتنفذة في الدولة مثل قبيلة نفوسة وهوارة وليس تبعاً للشورى التي أصبح القائمون عليها يشرعون أمراً محسوماً سلفاً . ما جعل أصواتاً ترتفع مستكرة ما صارت عليه أحوال الإمامة من استهتار وداعية إلى رد الأمر إلى الشورى وفي هذا السياق يذكر ابن الصغير أنّ فقيهها إياضيا وهو عبد العزيز بن الأوز نادى في الناس قائلاً : الله سائلكم معاشر نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى⁶⁹ .

ومع هذا فإنّ الموقف العام لفقهاء الإباضية هو التسليم بشرعية الإمامة للبيت الرستمي والمصادر الإباضية تؤيد هذا الطرح إذ أنها تصف كل من خرج على الإمام بالمروق عن الإمامة ، ويستدل على ذلك مما جاء في كتاب "سير الأئمة وأخبارهم" لأبي زكرياء ، وهو يتحدث عن أطوار الافتراق الذي عرفته الدولة الرستمية خاصة حينما يتحدث عن نفاث بن نصر النفائي⁷⁰ علماً بأنّ هذا الأخير هو فقيه إياضي كما تقدم . في حين نجد أنّ الدرجيني في طبقاته لا يكاد يتناول فترة الأئمة المتأخرين إلا بإيجاز متحاشياً ذكر تفاصيل ضعف الإمامة في تاهرت وتبعات ذلك على الدولة .

6 - الإمامة الرستمية بين الواقعية السياسية ومثالية المبدأ : ليس من شك في أنّ الدعوة أو الحركة الإباضية منذ نشأتها إلى قيام الدولة الرستمية في المغرب الإسلامي والإمارة الإباضية في عمان على عهد العباسيين حمل أصحابها لواء المعارضة ضد الحكم الأموي والعباسي من بعدهم واتهموا بل أعابوا على خلفاء الدولتين انحرافهم عن نهج الشورى الذي التزم به أبو بكر وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما وجعل الحكم ملكاً وراثياً لا يخلو من شطط وظلم ، لذلك سعوا إلى تحقيق مشروع دولة يفسح فيها المجال للشورى حيث يكون فيها منصب الحاكم أو الإمام على أساس الاختيار لا التوريث وعلى اعتبار الفضل لا النسب وهو الحكم الأمثل الذي يضمن تحقيق العدل والمساواة بين الناس جميعاً .

لكن نظام الحكم الذي انتهجته الدولة الرستمية الإباضية كرس واقعاً سياسياً مخالفاً لنظرية الحكم التي يقوم عليها جوهر الفكر السياسي الإباضي ، فالتزمت بالحكم الوراثي شأن كل الدول الإسلامية في العصر الوسيط ، وهذا واضح من اسم الدولة نفسه الذي يحمل دلالة النسب الرستمي ، فهل هذا يعني أنّ الإباضيين تنكروا لمبادئهم السياسية وتخلوا عنها ، بمجرد أن استقامت أحوال دولتهم ؟ أو بأدق تعبير كيف نفسر تخلي الإباضية عن فكرة الاختيار الحر للحاكم بعد إمامة عبد الرحمن بن رستم ؟

لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا أنّ الرستميين تعاملوا بواقعية مع الظروف السياسية التي أحاطت بتأسيس دولتهم وتطورها ، لذلك كان من الضروري إيجاد نظام حكم قوي يضمن استقرار الدولة واستمراريتها ، لعدة اعتبارات، فوقعها في المغرب الأوسط جعلها محاطة بأعداء يتربصون بها الدوائر لأسباب سياسية ومذهبية ، ثم إنّ الفتن التي عرفتها الدولة بينت أنّ الطامعين في الإمامة كثر فأعطت مبرراً سياسياً يجعل الإمامة في البيت

الرستمي صونا للوحدة السياسية ودرا للأخطار الخارجية ، وهذا ما عبرت عنه مواقف الفقهاء الإباضيين من المشرق والمغرب على حد سواء والتي ظلت مؤيدة و ودية للأئمة الرستميين . وهذا يجعلنا نخلص إلى أن الفكرة التي تأسست عليها النظم السياسية في العصر الإسلامي الوسيط هي أن النظام الوراثي كان الضامن الرئيس لقوة الدولة واستمراريتها ، رغم أن الأمراء في أي دولة إسلامية لم يكونوا على نفس القدر من القوة والعظمة ، ولكن المسلمين ، خاصتهم وعامتهم، رضوا اقتضاء بالدولة التي تحقق اجتماعهم على حاكم امتثالا لمقاصد الشرع في ضرورة وجود إمام أو خليفة يحفظ للناس دينهم، ويقوم على شؤون دنياهم.

وهناك نقطة مهمة جدا وهي جدية بالاهتمام وهي مسألة العصبية القبلية التي لازمت الدولة الرستمية وتحكمت في مسارها السياسي وقد ظهرت حدتها أكثر مع الفترات المتأخرة ، فقبيلة لمية احتضنت وأيدت عبد الرحمن بن رستم في بداية أمره وقبيلة بني يفرن الزناتية كان لها دور في تزكية الإمام عبد الوهاب وقبيلة نفوسة التي حظيت بمكانة سياسية وإدارية متميزة كما هو معلوم .

وبذلك لم تخرج هذه الدولة عن القاعدة الخلدونية "في أن الملك منصب شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج إلى المدافعات ولا يتم شيء من ذلك إلا بالعصبية"⁷¹ وهي طبعا أهم الخصائص التي اختصت بها كل الدول الإسلامية في العصر الوسيط ، فالرستميين سايروا روح العصر ولم يكنوا استثناء ، و الظاهر في الأمر هو أن العصبية القبلية والمذهبية شكلت ثنائية صنعت قوة الدولة وضعفها أيضا ، ذلك أن القبيلة في المرحلة الأولى ساهمت في تعزيز المذهب الإباضي الذي قامت عليه الدولة وفي المرحلة الثانية اعتنت بمصالحها على حساب الضوابط السياسية المذهبية ، فضعف بذلك شأن الإمامة ، مما هيأ الظروف لسقوطها على أيدي العبيديين سنة 296هـ.

كما أن نظرية الحكم الحر التي قامت عليها الدعوة الإباضية على غرار نظرية الخوارج جاءت في أصلها كحل لما تمخضت عنه الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما و ما آل إليه الأمر من تحول الخلافة إلى ملك وراثي ، وقدمت هذه النظرية على أنها بديل سياسي يتوجب على المسلمين كافة الأخذ به للعودة إلى الخلافة الراشدة ، معنى ذلك أن نجاح هذه الفكرة كان مرهونا بتطبيقها على الدولة الإسلامية بكاملها ، أما محاولة تطبيقها على إقليم معين من البلاد الإسلامية في العصر الوسيط فقد جعل منها فكرة مثالية يصعب انجازها على أرض الواقع .

وعليه لا يحتاج المرء إلى دليل ليثبت أن فكرة الاختيار الحر التي ظلت تمثل العنوان البارز في الفكر السياسي الإباضي منذ نشأته لم تكن في الحقيقة إلا فكرة مثالية بددتها الواقعية السياسية والاجتماعية للدولة الرستمية.

خاتمة : تحولت إذا الحركة الإباضية من دعوة مذهبية إلى دولة مستقلة في المغرب الأوسط وهي الدولة الرستمية وعد هذا الانجاز في حد ذاته انتصارا سياسيا للمذهب الإباضي . لكن المفارقة هي أنها التزمت بنظام الحكم الوراثي على غرار الدول الإسلامية في العصر الوسيط .وخالفت بذلك أهم مبدأ نشأ عليه الفكر السياسي الإباضي وهو الاختيار الحر للخليفة أو الإمام عن طريق الشورى دونما اعتبار لنسب أو لعصبية .على ان عامة الفقهاء الإباضيين أوجدوا لهذا التوريث مبررات في حين أنكروه وعارضه أولئك الذين رأوا فيه خروجاً

صريحاً عن قواعد المذهب، ما أدى إلى انقسام سياسي تطور إلى انشقاق مذهبي. وهكذا بقي هذا المبدأ مجرد نظرية سياسية لم يرق بها أصحابها إلى ممارسة عملية للحكم الشوري الحر. فالتاريخ علمنا أنّ كثيراً من الأفكار والنظريات عجز أصحابها عن تحقيقها في الواقع لما تعارضت مع ما اتفقت عليه مصالح الناس .

الهوامش :

1 الإمامة كما يعرفها الماوردي موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا أي الحكم الذي فيه حفظ للدين ومصالح الدنيا وعقدها لمن يقوم بها واجب بالإجماع وإن شذ عنه الأصم وتعرف أيضاً بالإمامة العظمى وهي الخلافة تمييزاً لها عن الإمامة الصغرى وهي إمامة الصلاة ، وهي كما قال ابن خلدون النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم، فهي إذاً من أتم مصالح المسلمين ومقاصد الدين، ينظر الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق أحمد مبارك البغدادي ، مكتبة دار ابن قتيبة، ط1، الكويت، 1989، ص 3، و ابن خلدون : المقدمة ، ص 262، و ينظر محمود عكاشة : تاريخ الحكم في الإسلام ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، ط 1 ، القاهرة ، 2002 ، ص 54، 163.

2 صفين بكسر الصاد والفاء وتشديد الأخيرة وهو موضع بالقرب الرقة على شاطئ الفرات الغربي ارتبط تاريخياً بالمعركة التي جرت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، ينظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ج3 ، دار صادر بيروت ، 1977، ص414.

3 موضع بين دمشق والمدينة سمي على اسم دوما أو دومة بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وهو على الحدود السعودية الأردنية ، ينظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ج2، ص 487، و محمد الشريف عدنان الصواف : بين السنة والشيعة ، بيت الحكمة ، ط1 ، دمشق ، 2006، ص 88.

4 لما كادت الدائرة تدور على جيش معاوية في معركة صفين اهتدى عمرو بن العاص، وكان من دهاء العرب ، إلى فكرة رفع المصاحف على أسنة الرماح لتوقيف القتال والاحتكام إلى القرآن الكريم ، ينظر الطبري : تاريخ الطبري ج5 ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط2 ، القاهرة ، مصر ، ص 48، 57، و ابن كثير : البداية والنهاية ج 10، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، الجيزة ، مصر ، ط1 ، 1998، ص545، 544.

5 هم الذين طالبوا بل أجبروا علي رضي الله عنه بأن يجيب معاوية رضي الله عنه وأصحابه لما دعوههم إليه من الاحتكام إلى كتاب الله حينما قالوا له : القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعوننا إلى السيف ! وكان في مقدمة هؤلاء الأشعث بن قيس الكندي ومسعر بن فذكي التميمي وزيد بن حصين الطائي ، وكانوا في الحقيقة رؤوس فتنة في جيش علي رضي الله عنه والحقيقة أنّ هذا الحزب كان امتداداً للفئة التي خرجت على عثمان بن عفان رضي الله عنه وقتلته ويتبين ذلك من تصرفاتهم وتهديداتهم لعلي ابن أبي طالب ، ينظر الشهرستاني : الملل والنحل ج1 ، تحقيق أمير علي مهنا و علي حسن فاعود ، ط3 ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، 1993 ، ص 133، 132، أحمد معيطة : الإسلام الخوارجي ، ط1 ، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع ، اللاذقية ، سورية ، 2000 ، ص 14.

6 المحكّمة من الأسماء الأولى للخوارج لأنهم طالبوا علي رضي الله عنه بالامتنال لطلب معاوية في تحكيم كتاب الله لوقف القتال بين المسلمين ، ينظر محمد أبو سعدة : الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي ، كلية الآداب ، ط2، القاهرة ، 1998، ص29.

- 7 محمد عبد الهادي المصري : أهل السنة والجماعة - معالم الانطلاقة الكبرى - ، دار الإعلام الدولي و القاهرة و مصر ، ص57، مصطفى الشكعة : الأئمة الأربعة ، دار الكتاب المصري ، و دار الكتاب اللبناني ، ط 3 ، القاهرة وبيروت 1991، ص 158.
- 8 شعار اشتهر به الخوارج على اثر قضية التحكيم يجعل التحاكم أو التخاصم إلى كتاب الله أي يجعل الحاكمية لله وحده دون عباده . ينظر محمود عكاشة : تاريخ الحكم في الإسلام ، ط 1 ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2002 ، ص 243 ، و J J Saunders : History of Medieval Islam, routledge, London, p 66.
- 9 البغدادي : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير ، القاهرة ، مصر ، ص 72.
- 10 هم أصحاب نافع بن الأزرق قتل في عهد عبد الملك بن مروان سنة 65هـ ينظر الطبري : تاريخ الطبري ج5 ، ص 613.
- 11 أصحاب نجدة بن عامر بن عبد الله بن ساد بن المفرج الحنفي الذي كان في الأصل مع نافع بن الأزرق واختلف عنه في مسألة القعدة عن القتال ، قتله ابن فديك سنة 69هـ ينظر ابن الأثير: الكامل ج4 ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، بيروت ، لبنان ، 1987 ص 23.
- 12 أتباع عبد الله بن الأصفر التميمي بينما الشهرستاني في الملل والنحل ينسبها إلى زياد بن الأصفر ينظر . البغدادي : المصدر السابق ، ص 67 ، و الشهرستاني : المصدر السابق ، ص 159 ، و الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 1 ، القاهرة ، مصر ، 1950 ، ص 169.
- 13 ينسبون إلى عبد الله بن إباح بن ثعلبة التميمي الذي عاصر معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان ، ينظر صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهباً ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1986 ، ص 43.
- 14 بكير بن سعيد أعوش : دراسات إسلامية في أصول الإباضية ، ط 3 ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر ، 1988 ، ص 71 و علي يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ج1 ، ط 2 ، وزارة الثقافة والتراث ، سلطنة عمان ، 1994 ، ص 138.
- 15 أسرفوا أيما إسراف في تكفير الناس ، فمرتكب الكبيرة كافر وحتى صغائر الذنوب تعد عندهم كبيرة تستوجب التكفير ، ينظر سعد رستم : الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات ، الأوائل للنشر والتوزيع ، ط 3 ، دمشق ، 2005 ، ص 203.
- 16 قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: الظروف السياسية لنشأة الفرقة الإباضية ، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر أفريل 1998 ، ص 23 ، الطبري : تاريخ الطبري ج 5 ، ص 568.
- 17 محمود اسماعيل عبد الرازق: الخوارج في المغرب الإسلامي حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، دار الثقافة ، ط 2 ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1985 ، ص 51.
- 18 الشهرستاني : المصدر السابق ج1 ، ص 134 ، و Louis Gardet: Les hommes de L'islam, Hachatte, 1971, p211.
- 19 أحمد سليمان معروف :قراءة جديدة في مواقف الخوارج وفكرهم وأدبهم ، ط 1 ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، 1988 ، ص 126.

- 20 صابر طعيمة : المرجع السابق ، ص 136.
- 21 اتفقت الفرق الإسلامية على أنّ الخلافة أو الإمامة فرض ، وأنّ من الواجبات العامة للأمة هي الانقياد لإمام باستثناء النجيدات الذين قالوا إنّ الإمامة ليست لازمة إنما ما يكفي أن يسود الحق بين الناس ، ينظر ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج4 ، تحقيق محمد إبراهيم نصر و عبد الرحمن عميرة ، دار الجيل ، ط2 ، بيروت ، لبنان ، ص149.
- 22 بكير بن سعيد أعوش : المرجع السابق ، ص 112 ، صلاح الدين محمد نوار : نظرية الخلافة أو الإمامة وتطورها السياسي والديني ، منشأة المعارف ، الإسكندرية مصر ، 1996 ، ص21.
- 23 محمد بن يوسف أطفيش : كتاب النيل وشفاء العليل ج14 ، القسم 1 ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، 1989 ، ص 274 ، 275.
- 24 الإمام لغة هو القائد والرئيس وهو الرجل الذي يقتدى به واصطلاحاً تحمل على معنيين: سياسي ويعني الخليفة أو الأمير وشرعي ويعني الفقيه أو الرجل الذي يؤم الناس في الصلاة ، و الإمام في المصطلح الإسلامي هو الذي يحمل المعنيين معا السياسي والشرعي تأكيداً على أنه يقوم بشؤون الرعية ما تعلق بأمور دينها ودنياها ، والمعنى الديني وهو أكثر استعمالاً عند الشيعة ، ينظر محمود عكاشة: المرجع السابق ، ص 54 ، حسن حنفي: موسوعة الحضارة الإسلامية ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1995 ، ص189.
- 25 سورة النساء ، الآية 59.
- 26 البيعة بفتح الباء هي اتفاق بين أهل الحل والعقد أي أهل المشورة والإمام أو الخليفة ، يعرفها ابن خلدون على أنها العهد على الطاعة للإمام مقابل أن يقوم هذا الأخير بإتباع الكتاب والسنة والمبايع يضع يده في يد الإمام تأكيداً للعهد كما يفعل المشتري مع البائع وهي عقد بين الأمة والحاكم ، ينظر ابن خلدون : المقدمة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2001 ، ص 261.
- 27 هم أهل المشورة والاختيار من يكون لهم فضل العدل والعلم والحكمة وسداد الرأي ، ينظر أحمد وهبان : الماوردي رائد الفكر السياسي الإسلامي ، دار الجامعة الجديدة للنشر ، الإسكندرية ، 2001 ، ص51.
- 28 سورة الشورى ، الآية 38.
- 29 عمر فاروق فوزي : الإمامة الأباضية في عمان ، جامعة آل البيت ، الأردن ، 1997 ، ص35.
- 30 صابر طعيمة : المرجع السابق ، ص 136.
- 31 أحمد معطية : المرجع السابق ، ص 30.
- 32 أحمد الخليلي : (الإباضية من عمان إلى تاهرت قوة التواصل في أصالة المذهب) ، جريدة السلام ، يومية جزائرية ، العدد 366 ، 12 جانفي 1992 ، ص 2.
- 33 محمد بن يوسف أطفيش : المرجع السابق ، ص308.
- 34 محمد بن يوسف أطفيش : المرجع نفسه ، ص 371 ، 372.
- 35 عمر فاروق فوزي : المرجع السابق ، ص 39 ، 41.

36 من قبيلة اليعمد الأزديّة العمانية، تلقى تعاليم المذهب الإباضي في البصرة، ينظر عمر فاروق فوزي: المرجع نفسه، ص 41.

37 يرى الاباضية كما الخوارج أنّ الإمام ينتخب وفق مبدأ الشورى، والإمامة مخولة لأي مسلم مهما كان جنسه، على أن تتوافر فيه الشروط الضرورية وهي العلم بالكتاب والسنة، وما يتبعهما من صلاح واستقامة وعدل ونزاهة وكفاءة، وهي عناصر تكفل العدل والمساواة في الحكم، والواضح من نظريتهم هذه أنّهم يقفون على النقيض تماما من الشيعة الذين يرون أن الإمامة ليست شأنًا عاما يترك للناس إنما هي ركن ركين من الدين تخضع لمبدأ الوصاية بنص وهي مخولة للأئمة من آل البيت فحسب، وهذه المبادئ التي نادى بها دعاة الإباضية كانت من العوامل التي جعلت البربر يلتفون حول حركتهم، ينظر محمود إسماعيل عبد الرازق: المرجع السابق، ص 257، بكير بن سعيد أعوش: المرجع السابق، ص 115، 116.

38 عمر فاروق فوزي: المرجع السابق، ص 40.

39 ابن عذاري: البيان المغرب ج 1، تحقيق ومراجعة ج. س كولان و إلفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط 2، 1983، لبنان ص 67.

40 عيسى الحيري: الدولة الرستمية، دار القلم للنشر والتوزيع، ط 3، الكويت، 1987، ص 85.

41 ابن خلدون: العبر ج 6، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2001 المصدر السابق، ص 159

42 نفسه، ص 147.

43 تشير المصادر التاريخية الى وجود مدينة تاهرت القديمة وقد ذكرها ابن عذاري ضمن المناطق التي غزاها عقبة بن نافع، وهي بلا شك غير تلك التي أشرف على بنائها عبد الرحمن بن رستم التي هي تاهرت الحديثة عاصمة الرستميين، وقد أنشئت في سفح جبل يسمى جزول يلتقي عندها نهران، أحدهما يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة والآخر يجري من عيون يسمى تاشيش وقد ورد في كتاب الاستبصار بإسم نانس، ينظر ابن عذاري: المصدر السابق ج 1، ص 24، و ابن خلدون: المصدر السابق ج 6، ص 147، و ياقوت الحموي: المصدر السابق ج 2، ص 8، وكذلك كاتب مغربي مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية 1958، ص 17.

44 ابن الصغير: المصدر السابق، ص 30.

45 الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب الجزء الأول، تحقيق، إبراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، ص 46.

46 أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: المصدر السابق، ص 54.

47 يبقى الفرق هو أنّ عمر بن الخطاب عين ابنه على أساس أن يكون حكما من أهل الشورى لا أن يختار خليفة، فقد قال: "بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد" وفي ذلك تأكيد على رغبته إبعاد ابنه عن الخلافة، بينما الراجح أن عبد الرحمن بن رستم عين ابنه ضمن السبعة الذين يختارون من بينهم إماما على أساس أن يكون حظه في الإمامة كحظ الآخرين، وهذا ما تم فعلا، ينظر ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 5، ص 27، محمود إسماعيل عبد الرازق: الخوارج في بلاد المغرب، ص 265، ابن خلدون: المصدر السابق، ص 262.

48 أبو زكرياء: المصدر السابق، ص 56.

- 49 محمود إسماعيل عبد الرازق: المرجع السابق، ص 265، أبو زكريا يحيى: سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1979، ص 56.
- 50 محمد بن تاووت التطواني: (دولة الرستميين أصحاب تاهرت) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، العدد 5، السنة 1957، ص 105، 128.
- 51 أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: المصدر السابق، ص 56، الدرجيني: المصدر السابق الجزء الأول، طبقات المشائخ بالمغرب الجزء الأول ص 47.
- 52 محمد بن يوسف أطفيش: المرجع السابق، ص 306.
- 53 محمود إسماعيل عبد الرازق: المرجع السابق، ص 156.
- 54 أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: المصدر السابق، ص 56.
- 55 نفسه، ص 60.
- 56 محمود إسماعيل عبد الرزاق: المرجع السابق، ص 157.
- 57 نفسه، ص 156، مسعود مزهودي: جبل نفوسة، مؤسسة تاوالت، 2005، ص 112، 115.
- 58 ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق محمد ناصر و إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986، ص 50.
- 59 أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: المصدر السابق، ص 63.
- 60 عيسى الحريري: المرجع السابق، ص 117، محمد بن يوسف أطفيش: المرجع السابق، ص 278.
- 61 ابن الصغير: المصدر السابق، ص 31.
- 62 نفسه، ص 31، أبو زكرياء: المصدر السابق، ص 54.
- 63 عيسى الحريري: المرجع السابق، ص 106.
- 64 مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 85.
- 65 ابن الصغير: المصدر السابق، ص 55.
- 66 الدرجيني: المصدر السابق، ص 72.
- 67 مسعود مزهودي: المرجع السابق، ص 95، 96، عيسى الحريري: المرجع السابق، ص 145.
- 68 عيسى الحريري: المرجع نفسه، ص 22.
- 69 ابن الصغير: المصدر السابق، ص 71، 70.
- 70 أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: المصدر السابق، ص 96، 92.
- 71 ابن خلدون: المقدمة، ص 235.

نشاط جيش التحرير الوطني في منطقة نيسمسيكت سنة 1959

من خلال تقارير الدرك الفرنسي

أ/ عنان عامر، جامعة تيارت

مقدمة:

إن الحديث عن نشاط جيش التحرير الوطني في منطقة نيسمسيكت عموماً، و في سنة 1959 خصوصاً من خلال وثائق أحد المؤسسات الأمنية العسكرية الفرنسية الأكثر انتشاراً في مختلف المدن و الدوائر و البلديات الجزائرية خلال الحقبة الاستعمارية يطرح جملة من الاستفسارات التي تتطلب التوضيح و التمهيد قبل الانتقال إلى معالجة الإشكال الرئيسي لهذه المداخلة المتمحور حول ما مدى قدرة عناصر جيش التحرير الوطني العاملين في نطاق المنطقة الثالثة من الولاية الرابعة التاريخية على الثبات في نشاطه العسكري و السياسي و كل ما يتعلق بالدعم والإسناد في ظل القبضة الحديدية التي انتهجها الجيش الفرنسي منذ نهاية عام 1958 و طيلة سنتي 1959 و 1960 أملاً من قاداته و على رأسهم الجنرال ديغول في حل القضية الجزائرية حلاً عسكرياً بعيداً عن التنازل والقبول بالطرح الجزائري الذي عمل جيش التحرير و الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية للوصول إليه و هو انتزاع حق الاعتراف بالاستقلال و استرجاع السيادة الوطنية.

تكتسي الوثائق الأرشيفية أهمية بالغة في الدراسات التاريخية أياً كان نوعها، و معرفة مصدر الوثيقة أمر لا يقل أهمية عن الوثائق في حد ذاتها، ذلك أن مصدر الوثيقة يشكل عنصراً مهماً في هويتها و مصداقيتها، و عليه فإن الوثائق التي حاولنا من خلالها تتبع أهم الأحداث الثورية التي عرفتها منطقة نيسمسيكت خلال عام 1959 تعود إلى سرية الدرك الوطني الفرنسي لمنطقة فيالار Vialar سابقاً.

يعد جهاز الدرك من أهم الأجهزة الأمنية العسكرية التي اعتمدت عليه سلطات الاحتلال في التمكين لمشروعها الاستعماري منذ نجاح عملية الغزو سنة 1830 و ذلك من خلال مشاركته في مختلف الحملات العسكرية خلال القرن التاسع عشر و عمليات القمع خلال القرن العشرين. و أثناء الثورة التحريرية لعب هذا الجهاز دوراً خطيراً في قمع الجزائريين و رصد تحركات العناصر الوطنية التابعة لجيش و جبهة التحرير على مستوى المدن و الأرياف. إن هذا الدور الخطير الذي كان ينصهر إجمالاً مع أعمال القوات المسلحة و الشرطية العاملة في الجزائر ما بين 1954. 1962 و بدأ يبرز و يتجلى شيئاً فشيئاً تبعاً لإفراج المؤسسات الأرشيفية الفرنسية على مختلف الأرصد الوثائقية المتعلقة بعمل مختلف عناصر المنظومة الأمنية التي حشدتها سلطة الاحتلال لمواجهة النشاط المتزايد للثورة التحريرية عسكرياً و سياسياً، و لعل أبرز اعتراف من قبل العدو الفرنسي بهذا المد التصاعدي للعمل الثوري في الجزائر عامة هو لجوء قوات الاحتلال إلى رفع تعدادها بصفة مستمرة و في هذا الإطار لم يشذو جهاز الدرك الفرنسي عن هذه القاعدة و التي تؤكد عجزاً حقيقياً في التحكم و المواجهة، فقد

ارتفع تعداد عناصر هذا الجهاز خلال الثورة التحريرية من 4000 جندي إلى 13000 جندي⁽¹⁾ أي بزيادة ثلاثة أضعاف العدد العامل وقت السلم.

1 الوصف المادي للوثائق الأرشيفية المدروسة: تعود هذه الوثائق إلى سنة 1959 محررة من قبل ضابط سرية الدرك الفرنسي لمنطقة فيالار سابقا، كتبت بالآلة الراقنة و بالحبر الأزرق في أغلبها وهي في حالة جيدة، وهي مكونة من نوعين من الوثائق الصنف الأول وثائق عبارة عن تقارير أمنية تخص كل ما يتعلق بالأحداث ذات الصلة بقضايا الأمن و الاستقرار في المنطقة، أما الصنف الثاني فيتمثل في البطاقات الاستعلامية (Fiches de renseignements) اهتمت بتتبع أهم المعلومات الإستخبارية المتعلقة بالعناصر التي كانت تطلق عليها إدارة الاحتلال تسمية العناصر المشبوهة أو المتآمرة ضد مصلحة الدولة الفرنسية. حملت هذه الوثائق ثلاثة أنواع من الأختام: ختم الهيئة الصادرة عنها و ختم للدلالة على السرية (سري) و الختم الثالث هو ختم الولاية العامة. توجد هذه الوثائق على مستوى مركز الحفظ الأرشيفي لمدينة Aix-en-Provence بمرسيليا، فتح هذا الرصيد للإطلاع عليه من قبل القراء بداية من عام 2012.

2 موقع تيسمسيلت وأهميته: تقع تيسمسيلت في نطاق المنطقة الثالثة من الولاية الرابعة على الجهة اليسرى لوادي الشلف و الجزء الشرقي للونشريس ومن أهم المناطق المشككة لإقليم المنطقة أجزاء من سرسو و المهديّة و الحمادية، أولاد بسام، برج بونعامة (بلدية موليير سابقا)،... إلخ⁽²⁾.

تتميز المنطقة بتنوع مظاهرها التضاريسية من جبال و سهوب و هضاب، و تبعا لذلك تتنوع غطاؤها النباتي والنشاط السكاني فيها. ففي الشمال تمتد جبال الونشريس التي تعتبر جزءا من سلسلة جبال الأطلس التلي و هي مترامية الأطراف إذ تمتد من وادي المينا غربا إلى وادي الشلف شرقا و هي تعد من أهم السلاسل الجبلية في شمال إفريقيا حيث تبلغ أعلى قمة بها حوالي 1800 م و المعروفة بقمة سيدي سليمان⁽³⁾. تغطي سفوح هذه السلسلة غابات كثيفة و متنوعة حيث نجد أشجار البلوط و الأرز الأطلسي كما يزخر باطن هذه الجبال بثروة منجمية مهمة مثلما يدل على ذلك منجم بوقايد الخاص بالزنك و الرصاص⁽⁴⁾. و تمتد جنوبه و شماله سهول واسعة و خصبة على غرار سهلي وادي الشلف شمالا و السرسو جنوبا مما جعل المنطقة تعرف تركيزا ديموغرافيا كولونياليا معتبرا، لقد ساهمت الظروف الطبيعية مساهمة فعالة في صياغة البناء الاجتماعي و الاقتصادي للمنطقة و الذي اتسم بالطابع الريفي القبلي.

3 الثورة في المنطقة الثالثة إلى غاية عام 1959: بعيدا عن تتبع دقيق ليوميات الكفاح المسلح بمنطقة تيسمسيلت منذ غرة نوفمبر 1954 إلى نهاية سنة 1959، فإنه يمكن القول أن المنطقة كانت على علاقة وثيقة بنشاط الحركة الوطنية منذ أربعينيات القرن العشرين بحيث تشكلت بها خلايا حزب الشعب التي نشطت تحت مظلة حركة أحباب البيان و الحرية قبل أن تقوم سلطات الاحتلال بمجازر الثامن ماي 1945 والتي اتخذتها ذريعة و مبررا لتصفية الحركة الوطنية و إعادة قبضتها الحديدية على الوضع العام في الجزائر⁽⁵⁾.

لقد شرع للإعداد للثورة في المنطقة في إطار المنظمة الخاصة من قبل عناصر حزب الشعب، حيث التقى الشهيد الجيلالي بونعامة⁽⁶⁾ بالشهيد أحمد عليي سنة 1953 و ذلك بأمر من الشهيد سويداني بوجمعة لدراسة

أوضاع الناحية و تنسيق الأعمال و تكوين الأفواج الأولى من جنود جيش التحرير بالقرى و المداشر و المدن و تحديد مهامهم و جمع الذخيرة و الأسلحة و كل أشكال الدعم المادي و المعنوي⁽⁷⁾. انسجاما مع ذلك عرفت السنة الأولى من الثورة تشكيل فصائل المسبلين و الفدائيين الذين أنيطت بهم مهمة ضرب مصالح العدو داخل و خارج التجمعات السكانية، وأدت تلك العمليات إلى تمرس جنود جيش التحرير على حرب العصابات الموجهة للعدو و من جهة أخرى سمحت تلك العمليات بتعميم و نشر العمل الثوري على مختلف ربوع المنطقة⁽⁸⁾. لقد سجلت السنوات اللاحقة تطورا نوعيا في العمل العسكري و السياسي بالنظر للأثر البالغ الذي أحدثته مقررات مؤتمر الصومام على مسار الثورة من حيث التنظيم والتوجيه، فكانت المنطقة الثالثة من الولاية الرابعة ميدانا لحرب استنزاف حقيقية برز خلالها إصرار سكانها على مناصرة الثوار دافعين بقوافل من الشهداء دون ملل و كلل و غايتهم النصر أو الاستشهاد.

4. النشاط الثوري بالمنطقة الثالثة عام 1959 حسب شهادة العدو: تعد سنة 1959 من أصعب السنوات في مسار الثورة التحريرية بصفة عامة و بالولاية الرابعة بصفة خاصة بالنظر للإجراءات و الإمكانيات الكبيرة التي سخرتها حكومة الاحتلال للقضاء على الثورة قضاء عسكريا.

تشير تقارير ضابط الدرك الفرنسي Pelisson قائد الفرقة الإقليمية للدرك لمنطقة فيالار إلى نشاط عناصر جيش التحرير بالمنطقة بصفة يومية مما سمح لنا بتتبع تلك التحركات و تنظيمها و توزيعها حسب نوعية العمليات العسكرية أو السياسية و الدعائية أو الدعم الشعبي.

• العمليات العسكرية:

بالنظر للفارق الكبير في العدة و العتاد بين عناصر جيش التحرير و القوات الاستعمارية المربطة في المنطقة ممثلة في الفوج 110 للمشاة الميكانيكية (R .I.M. 110^{ème}) و الذي كانت قواته تتوزع في شكل سرايا على مختلف البلديات التابعة لدائرة تيسمسيلت (فيالار)، و فوج المحاربين الرّحل (Régiment des tirailleurs nomades) المتمركز بمنطقة الحمادية و لديه سرايا عاملة في مختلف مداشر المنطقة، يضاف إلى هاتين القوتين القوات المنبثقة من خطة شال القاضية بمواجهة الثورة بأبناء الشعب الجزائري، حيث تشكلت فرق الدفاع الذاتي الأهلي و فرق ما يسمى ب: Commandos chasse، تعززها كذلك الشكّة العسكرية لفرقة السبايحية بمدينة ثنية الحد.

لقد تنوعت و تعددت مظاهر العمل العسكري لفرق و كتائب جيش التحرير الوطني العاملة بالمنطقة وفقا للظروف الطبيعية و اللوجيستية و البشرية التي كانت تتوفر عليها الثورة و من ذلك نذكر كثافة العمليات العسكرية في موسمي الشتاء و الربيع و الخريف بالمقارنة مع فصل الصيف فطول ساعات الليل في الفصول الثلاثة كانت تعتبر تأمينا طبيعيا

لتحركات أفراد جيش التحرير في المداشر و القرى و في أطراف المدينة، كما تشير تقارير الدرك الفرنسي إلى أن حركة الانسحاب لأفراد جيش التحرير كانت تتميز بالسرعة و الخفة و تتوجه صوب المنطقة

الشمالية لإقليم المدينة أي نحو المنطقة الجبلية حيث كانت تتركز القيادة الثورية بالمنطقة، و بالعودة إلى تتبع الأعمال العسكرية فإن تقارير الدرك الفرنسي قد رصدت لنا عددا كبيرا و مختلفا من العمليات العسكرية و الفدائية و التي يتقدمها:

(أ) تفخيخ الطرق:

تعد من أهم العمليات العسكرية التي واجهت بها الثورة التحريرية التفوق العددي و العتادي للجيش الفرنسي لما لهذا الأسلوب العسكري من نجاعة في إصابة الأهداف العسكرية للعدو بدقة و فعالية كبيرتين. و في هذا الإطار شكلت المسالك المعبدة و غير المعبدة التي كانت تجوبها دوريات العدو أهدافا مباشرة لجيش التحرير. و حسب تقارير الدرك فإن منطقة تيسمسيلت و ضواحيها عرفت أكثر من عشر عمليات من هذا النوع خلال سنة 1959 نال منها الطريق الريفي الرابط بين مدينة فيالار و مركز المصالح الإدارية الخاصة (SAS) لسيدى عابد حصاة الأسد من هذه العمليات. و تشير تقارير الدرك إلى أن أول عملية تفخيخ لمسار إحدى الدوريات العسكرية الفرنسية سنة 1959 بالمنطقة كانت بتاريخ 14 جانفي و استهدفت عربة عسكرية من نوع 6X6 تابعة لعناصر الفوج 110 للمشاة الميكانيكية ببلدية عماري و تحديدا عند مزرعة كولين ليون، حيث أسفرت العملية عن إصابة العربة إصابة مباشرة ما أدى إلى جرح الجنود الستة الذين كانوا على متنها بجروح بالغة الخطورة نقلوا على إثرها إلى المستشفى المختلط بتيارت⁽⁹⁾.

و في 22 مارس نجحت مجموعة تابعة لجيش التحرير الوطني في تلغيم الطريق الرابط بين مدينة فيالار وسيدى عابد، حيث تم تفجير اللغم بعربة عسكرية من نوع "جيب" Geep تابعة لعناصر الفوج 110 للمشاة الميكانيكية أين ذكر البلاغ العسكري الأول أنه في حدود الساعة الصفر و ثلاثون دقيقة في الطريق الغير معبد الرابط بين مركز مدينة فيالار و سيدى عابد و تحديدا على بعد 17 كيلومتر و 500 متر شمال غرب مركز مدينة فيالار تعرضت العربة العسكرية التابعة ل: E,E,A,C من الفوج 110 لعملية تفجير عن طريق لغم أرضي يعمل بشاررة كهربائية⁽¹⁰⁾ و قد أسفرت هذه العملية عن تحطم كلي للعربة و تدمير جهازي الراديو و مقتل جنديين و إصابة ثالث بجروح خطيرة، و يتعلق الأمر ب: الجندي Tussal Maurice Rouviller و الضابط Chappot De Clanonie⁽¹¹⁾. و انتهى التقرير إلى تأكيد فشل مصالح البحث و التحري من التوصل إلى أية آثار و بقايا من الجهاز الذي استعمل في عملية التفجير، الأمر الذي كان يزيد في تعقيد مهمات الدوائر الأمنية العاملة في المنطقة.

و في شهر أفريل تجددت عملية استهداف طريق مركز (S.A.S) لمنطقة سيدى عابد و ذلك يوم 15 أفريل حيث انفجر لغم أرضي في الطريق بإحدى الدوريات العسكرية التابعة للفوج 110 و لم يعطي تقرير الدرك تفاصيل عن هذا الانفجار⁽¹²⁾. و في 04 جوان تم تفجير عبوة ناسفة بسيارة عسكرية من نوع C.M.G تابعة للسرية الخامسة من الفوج 110 على بعد 6 كيلومتر شمال مركز مدينة فيالار و الجدول التالي يبين أهم العمليات العسكرية التي استخدمت فيها الألغام الأرضية⁽¹³⁾:

العملية	تاريخها	مكانها	نتائجها	ملاحظات

تفجير عربة 6X6	1959/01/14	بلدية عماري	تخطيط كلي للعربة و إصابة 6 جنود بجروح خطيرة	عدم تحديد نوع العبوة و المسؤولين عنها.
تفجير عربة JEEP	1959/03/22	طريق سيدي عابد	وفاة ضابط و جندي و تدمير العربة	// //
زرع لغم أرضي	/	//	فشل العملية بسبب اكتشافها من طرف الدورية	تم تفجير اللغم من قبل قوات العدو في 1959/04/01
تفجير لغم أرضي	1959/04/15	طريق سيدي عابد	لم تذكر أية تفاصيل عن النتائج	عدم تحديد هوية المسؤولين عن العملية
زرع لغم أرضي		طريق وطني 19 فيالار. موليير	فشل العملية	اكتشاف اللغم من طرف العدو و إبطال مفعوله 1959/05/23
تفجير عربة عسكرية C.M.G	1959/06/04	ضواحي فيالار	تدمير جزئي للعربة دون تحديد عدد الإصابات	عدم تحديد نوع العبوة و المسؤولين عنها.
انفجار لغم أرضي	1959/06/11	بلدة بني مايدة	إصابة فلاح بجروح بليغة	// //
زرع لغم أرضي	/	طريق سيدي عابد	فشل العملية	اكتشاف اللغم من طرف العدو و إبطال مفعوله 1959/06/30
انفجار لغم أرضي	1959/07/26	7 كلم شمال الحمادية	وفاة عم رئيس بلدية بني مايدة و حصانه	عدم تحديد نوع العبوة و المسؤولين عنها.

ب) ضرب مصالح المعمرين:

بالنظر إلى خصوبة أراضيها، عرفت المنطقة انتشارا واسعا لحركة الاستيطان الأوروبي في الأرياف حيث انتشرت العشرات من المزارع الأوروبية في النطاقات الزراعية للمنطقة، و أثناء الثورة شكلت هذه المزارع أهدافا مهمة للنشاط الثوري لأفراد جيش التحرير، فعلاوة على خلق حالة من اللااستقرار كانت تلك العمليات تستهدف تقويض القدرات الاقتصادية للاحتلال، هذا من جهة و من جهة أخرى فإن تلك المزارع كانت تمثل مصدرا تموينيا للثورة حيث تشير تقارير الدرك الفرنسي إلى أنه من خلال ثلاثة هجمات على ثلاث مزارع غنم الثوار قرابة 800 رأس ماشية والعديد من حيوانات الجر بين أحصنة و بغال كانت تعتبر وسيلة نقل مثالية بالنسبة لفصائل جيش التحرير بالنظر إلى الطابع الجبل للمنطقة. و الجدول التالي به رصد عام لمختلف العمليات التي طالت مزارع المعمرين بالمنطقة خلال سنة 1959 وفقا لما رصدته تقارير الدرك الفرنسي⁽¹⁴⁾:

المزرعة	موقعها	تاريخ الهجوم عليها	الحصيلة

غنم حصانين و تحطيم سقف المنزل	1959/01/06	بني مايدة	Berger vachon lucien
غنم 15 بقرة، 229 نعجة ، 5 مهورات ، 22 equidés(خيليات)	1959/01/25	// //	Gazeaux
غنم ثلاثة حيوانات جر	//	// //	Rostall joseph
حرق جرارين باستعمال مادة البنزين	1959/03/09	أولاد بسام	Reymond pierre
غنم 200 رأس ماشية	1959/03/23	بني لنت	Carbot
غنم حيوانات جر	1959/03/25	بني مايدة	Asceniro
غنم 150 رأس ماشية، حصانان و بغلان و اعتقال صاحب المزرعة	1959/04/26	// //	Streit marcel
غنم 210 رأس غنم مع تقدير خسائر المزرعة ب: 2, 5 مليون فرنك فرنسي.	1959/09/27	// //	Viscanino antoine

يتضح لنا من خلال هذا الجدول تركيز إجمالي العمليات بمنطقة بني مايدة ذلك بالنظر إلى الانتشار الفطري لهذه المزارع على حساب أراضي أهالي المنطقة. ضف إلى ذلك أن أغلبية المزارع غادرها ملاكها من ذوي الأصول الأوروبية تاركين مسؤولية إدارتها إلى وكلاء من أبناء المنطقة و ذلك تحت وقع الهاجس الأمني و فشل المصالح الامنية الفرنسية في تحقيق الأمن لهؤلاء المعمرين، حيث أن زيارة خاطفة للمعمر Streit Marcel إلى مزرعته مكنت المجاهدين من القضاء عليه، كما أن هذه العمليات لم تكن عمليات مكلفة بالنسبة لعناصر جيش التحرير بالنظر للوسائل المستعملة مقارنة بالغنائم المحصل عليها. و تعكس نجاحات هذه العمليات التحضير المسبق والإعداد المنظم لتلك العمليات.

ج) تخريب الممتلكات العامة للعدو: شكلت خطوط الهاتف والكهرباء أهدافا مميزة للنشاط الفدائي بالمنطقة و سمحت تلك العمليات بتحطيم العديد من أعمدة الهاتف الخشبية و خلق حالة اضطراب في حركة الاتصالات السلكية بين مركز مدينة فيالار وبقية المراكز الاستيطانية التابعة لها من جهة، و بين نفس المدينة و مدينة تيارت من جهة أخرى، و كذا بالنسبة لخطوط الكهرباء سواء تعلق الأمر بخطوط الضغط العالي أو الضغط العادي. لقد مست هذه العمليات الخطوط المحاذية للطرق الوطنية الرئيسية بالمنطقة و كذا الطرق الفرعية، و هو ما يعكس الانتشار الجيد لخلايا الفدائيين ودقة حركتهم. و الجدول التالي يلخص لنا مجمل العمليات التي طالت شبكتي الهاتف و الكهرباء بالمنطقة خلال عام 1959⁽¹⁵⁾.

العملية	تاريخها	الحصيلة
تخريب خط الهاتف الرابط بين بني مايدة و مسوكات	1959/01/25	تحطيم 09 أعمدة عند النقطة الكيلومترية 550+115 و 950+115 من الطريق الوطني رقم 14

تخريب أعمدة الهاتف للخط الرابط بين فيالار و مركز ليار	1959/05/06	قطع 06 أعمدة هاتف على الطريق العملائي رقم 167 عند النقطة الكيلومترية 4+350
تخريب أعمدة هاتف و كهرياء للخطوط الرابطة بين فيالار و تيارت	1959/05/10	تحطيم 03 أعمدة للهاتف و عمودين معدنيين من الخط الكهربائي عند النقطة الكيلومترية 550+114 و 850+114 من الطريق الوطني 14
تخريب أعمدة كهرياء من نوع الضغط العالي	1959/06/19	تحطيم 03 أعمدة للضغط العالي من الخط الرابط بين فيالار و تيارت
تخريب خط الهاتف الرابط بين بني مايدة و مسوكات	1959/06/22	قدرت إدارة الاحتلال حجم الأضرار بحوالي 35000 فرنك

د) ضرب الأهداف العسكرية: من خلال القائمة الطويلة للعمليات العسكرية التي رصدتها تقارير الدرك الفرنسي لعام 1959 أمكننا تمييز نوعين من الأهداف العسكرية:

- أولا: نقاط المراقبة العسكرية

من أهم العمليات التي اندرجت في هذا السياق محاصرة و إطلاق النار على مركز المصلحة الإدارية الخاصة و لا سيما مركز سيدي عابد الواقع في نطاق نشاط خلايا جيش التحرير لمنطقة أولاد بسام، حيث كان هذا المركز هدفا لعشرات الهجمات الليلية كما استهدف أفراد جيش التحرير نقاط تمرکز سرايا القوات الفرنسية حيث هاجمت مجموعة من المجاهدين يوم 31 مارس 1959 مركز السرية 14 من فوج الرحالة الجزائريين في مركز ليار و نظرا لقوة الهجوم و مباغتته لجأت السرية إلى استخدام الأسلحة الثقيلة بما فيها سلاح المدفعية و بينما لم يرشح أي خبر عن حجم الخسائر البشرية، اكتفى التقرير بوصف الآثار النفسية العميقة التي خلفها هذا الهجوم على منتسبي السرية⁽¹⁶⁾.

كما نذكر في هذا المجال العمليات التي قام بها أفراد جيش التحرير داخل بعض الأحياء المعروفة بنشاطها الثوري على غرار حي الدرب الذي عرف العديد من عمليات التسلل للمجاهدين للقيام بمهام عسكرية محددة. كما شكلت عمليات المراقبة و التفتيش المباغت من جانب قوات الاحتلال مجالا لاندلاع اشتباكات مسلحة عديدة داخل المدينة أو في بعض بلدياتها، ففي يوم 29 سبتمبر 1959 فوجئت دورية عسكرية بكمين نصبه أفراد جيش التحرير بضواحي بلدية أولاد بسام، انتهى بمقتل و جرح بعض أفراد هذه الدورية، و في وصفه لحيثيات العملية ركز تقرير الدرك على أن الهجوم استخدم فيه عناصر جيش التحرير البنادق الحربية و القنابل اليدوية الهجومية⁽¹⁶⁾، كما شهدت سنة 1959 العديد من الهجمات الفردية بالقنابل اليدوية على دوريات الاحتلال أو المحلات التجارية التي يمتلكها تجار أوروبيون.

- ثانيا: استهداف القوى الأهلية المجندة من طرف العدو

منذ تعيين الجنرال شال على رأس القيادة العسكرية في الجزائر مع نهاية سنة 1958، باشر تنفيذ مخططاته العسكرية الرامية إلى إجهاض الثورة عسكريا و سياسيا و اقتصاديا و دعائيا و ببيكولوجيا ، و في إطار الحرب الشاملة التي باشرها في الجزائر منذ نهاية عام 1958 أصدر أولى تعليماته لهيأة أركانه من أجل العمل على خلق قوة موازية للثورة من أبناء الشعب الجزائري أو ما كان يعرف ب:(F.S.N.A) أي الفرنسيين من أصول شمال إفريقية في شكل ميليشيات مسلحة أطلقت عليها تسميات متعددة من بينها فرق الدفاع الذاتي ومجموعات Commandos Chasses. و في نشاطها المقاوم لهذه الميليشيات، قامت عناصر جيش التحرير العاملة بمنطقة بني مايدة يوم 09 سبتمبر 1959 و تحديدا بين الساعتين الثامنة و العاشرة مساء بالتسلل إلى دوار "أولاد خروف" و تمكن المهاجمون من القبض على جميع أفراد مجموعة الدفاع الذاتي ، ونزع سلاحهم المؤلف من 14 بندقية و في تقريره أكد الضابط بليسون ان الهجوم يعد الاول من نوعه بمنطقة بني مايدة (17).

• النشاط السياسي ومختلف انواع الدعم :

لقد عرفت سنة 1959 نشاطا سياسيا ودعائيا متنوعا كما تعددت مظاهر الدعم والمساندة عكس ما كانت تتمناه الدوائر الاستعمارية ، حيث لم يفت ضابط الدرك الإشارة إلى القدرة الكبيرة للتنظيم الثوري بالمنطقة على تجاوز ضربات القوى الأمنية وإعادة تشكيل الخلايا الدعم والإسناد الشعبية على مستوى المدينة والقرى والمد اشتر ، غير أن ما يلفت الانتباه في هذا المجال وجود هذه الخلايا على مستوى الهياكل والأجهزة الموجهة لضرب الثورة ، مثلما هو الحال مع السيد "عرجان بن صالح" الذي كان يعمل أمين سر (S.A.S) سيدي عابد ، وكان على علاقة وثيقة بالثوار ، حيث كلف بجمع أموال الاشتراك لصالح الثورة من بعض الحركة والمجندين الجزائريين التابعين للسرية السابعة من الفوج 110 منذ سنة 1957، حيث جمع ما بين 13000 و 38000 فرنك وقدمها إلى المسؤول عن ذلك "ماصيف عبد القادر"، كما كان السيد عرجان وراء نجاح فرار المجند "راضي علي" من السرية المذكورة سابقا (18).

جدير بالذكر أن العديد من عمليات الفرار للمجندين الجزائريين من السرايا العسكرية العاملة بالمنطقة قد تمت بنجاح وهو ما اعتبرته تقارير الدرك عمليات إختراق ناجحة un noyautage réussi ، نذكر من هذه العمليات فرار المجند "ودان علي بن محمد" مجند في السرية الخامسة التابعة للفوج 110 للمشاة يوم 13 جوان بسبيدي عابد ، حاملا معه سلاحه الرشاش من نوع Mat/9mm و 200 خرطوشة ، وثمانية خزانات ذخيرة ومحفضتي خزنة (19).

كما عرفت السرية الخامسة للفوج الأول مشاة آلية العسكرية بإحدى مزارع عين تزاريت عملية فرار ناجحة قام بها المجند "حسين سعد" يوم 22 اكتوبر 1959 حاملا معه سلاحه الحربي و 16 خرطوشة ، بينت تحريات العدو فيما بعد ضلوع مجموعة من الحركة في العملية وذكر تقرير الدرك أن السرية شهدت ثلاثة محاولات فرار لمجندين وحركة خلال هذه السنة (20). وسبق ذلك المجند "عبد الغاني" من السرية السابعة التابعة للفوج الأول مشاة آلية يوم 03 آوت 1959 حاملا معه بندقيته الحربية و 88 خرطوشة (21).

و من الأنشطة السياسية التي رصدتها تقارير الدرك التجمعات الشعبية التي كان ينظمها مسؤولوا الخلايا السياسية و الإدارية على مستوى النواحي و الأقسام لمواجهة دعاية المحتل، كما ظهرت الكتابات الجدارية المؤيدة لجيش و جبهة التحرير و المعادية لسياسة الجنرال ديغول و مشاريعه الجهنمية. فقد ورد في أحد التقارير الإشارة إلى وجود كتابة على جدران أحياء مدينة فيالار منها " لقد ظلّ ديغول طريقه "، و "جبهة التحرير ستنتصر". و بما أن الإعلام أبلغ رسالة من البندقية فقد عملت خلايا جيش التحرير على مواجهة الحرب الدعائية و البسيكولوجية للمصالح الخاصة للجيش الفرنسي بتكذيب مزاعمها و ادعاءاتها. و من أبرز وسائل ذلك عملية توزيع المناشير التي أحصينا منها خمسة صادرة عن قيادة جيش التحرير بالولاية الرابعة خلال سنة 1959 واحتفظت سرية الدرك الفرنسي لدائرة فيالار بنسخ منها و قد تناولت اهتمامات متعددة هي كالتالي:

المنشور الأول جاء بعنوان: "هل لقي العقيد سي امحمد بوقرة نفس المصير الذي لقيه العربي بن مهيدي؟" توقف هذا المنشور عند الظروف التي سقط فيها العقيد سي امحمد جريحا بعد معركة أولاد بوعشرة يوم 03 ماي 1959 حيث يذكر المنشور أنه سلّم و يعاني من جروح بليغة إلى مصالح المكتب الخامس ليخضع لعملية غسل المخ وانتهى المنشور إلى تأكيد عزم الثوار على مواصلة مسيرة الكفاح إلى أن يتحقق النصر(أنظر الملحق الأول).

المنشور الثاني: و خصص لإحياء ذكرى أحداث 08 ماي 1945، و أكد هذا المنشور، بعد التذكير بالتضحيات الجسام التي قدمها الجزائريون للاحتفال كبقية الأمم المنتصرة على النازية و الفاشيستية، أن الثورة التحريرية غير ناسية لتلك التضحيات و أن السفاح الذي اقترف مجازر الثامن ماي هو نفسه السفاح الذي لا يزال يسفك بيده الدماء الجزائرية "الجنرال ديغول" (أنظر الملحق الثاني).

المنشور الثالث: و عنوانه "جيش التحرير لا يحبذ الخطاب لكنه يضرب" ورد فيه جرد عام لمختلف المعارك التي خاضها جيش التحرير في مختلف مناطق ونواحي الولاية الرابعة وما حققه من انتصارات. (أنظر الملحق الثالث).

المنشور الرابع: و عنوانه "كيف رفضت الولاية الرابعة عرض وقف إطلاق النار المحلي"، تناول هذا المنشور قضية الرائد عز الدين و أكذوبة سلم الشجعان. و بعد عرض تفاصيل القضية انتهى المنشور إلى تكذيب ادعاءات حكومة الاحتلال و تأكيد قيادة الولاية الرابعة التزامها بمبدأ الوحدة الوطنية و التنسيق التام مع بقية الولايات داخليا و مع الحكومة المؤقتة خارجيا (أنظر الملحق الرابع).

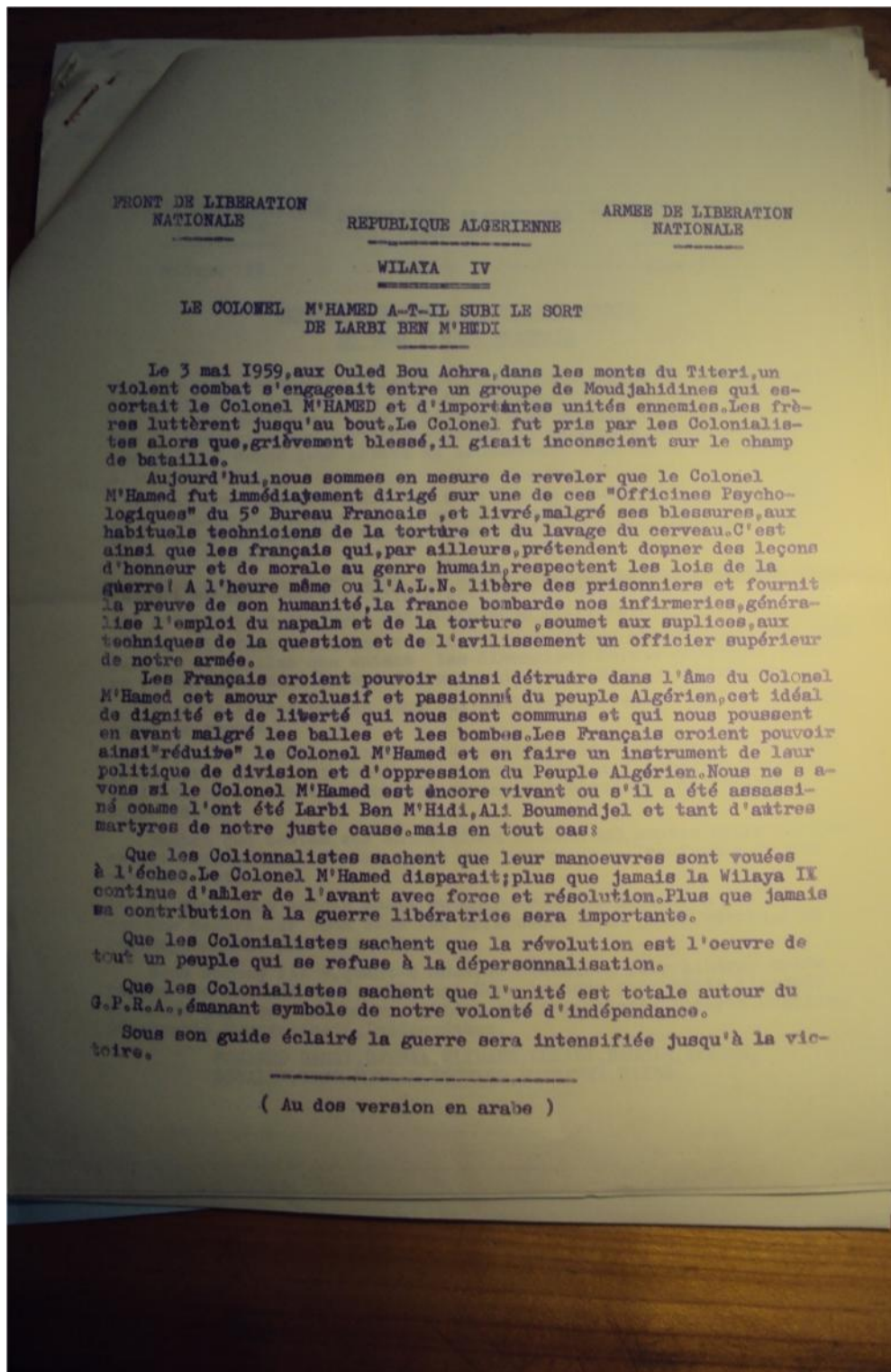
المنشور الخامس: و عنوانه "نهاية سنة في المنفى" خصص هذا المنشور لمخاطبة جنود جيش الاحتلال و كان متزامنا مع الاحتفالات الخاصة برأس السنة الميلادية و دعت من خلاله قيادة جيش التحرير على مستوى الولاية الرابعة جنود الاحتلال إلى التمرد ورفض المشاركة في حرب إجرامية مآلها الفشل (أنظر الملحق الخامس).

خاتمة: لقد شكلت سنة 1959 امتحانا عسيرا للثورة بالولاية الرابعة و المنطقة الثالثة بصفة خاصة بالنظر للتضحيات الجسام التي فرضت عليها لمواجهة الخطط العسكرية و الأمنية والسياسية و البسيكولوجية

التي تفنّن مجرمو الحروب من جنرالات فرنسا في تنفيذها في الجزائر، و على الرغم من ذلك فقد عرفت الثورة كيف تتكيف وفقا للظروف الطارئة و تحقق الكثير من الانتصارات العسكرية و السياسية و الاجتماعية وتتجاوز مشاريع استئصال الثورة، و هي حقيقة أيقنها العدو قبل أبناء الثورة، حيث كتب الضابط بليسون في أحد تقاريره نهاية سنة 1959 أن أحداث الجزائر خلقت حالة اضطراب يصعب معها توقع عودة الاستقرار السابق.

تقدم وثائق الدرك الفرنسي مادة خبرية مهمة حول العديد من القضايا المتعلقة بحرب التحرير سواء العسكرية أو السياسية التي تزال غامضة أو مجهولة، كما يمكن استغلالها في تسليط الضوء على مجالات جديدة في تاريخ الثورة لم تتل قسطها من الدراسة مثل قضية اختراقات جيش التحرير للجيش الفرنسي، الإعدامات الجزافية في حق المعتقلين في مواقع شهدت عمليات عسكرية من قبل عناصر جيش التحرير، حيث رصدنا العديد من عمليات الإعدام في من تمّ اعتقالهم و نقلهم نحو مركز العبور المحاذي للمدينة و الذي كان تحت تصرّف القوات العسكرية المرابطة بالمنطقة، و من القضايا الأخرى التي شكّلت مادة بالنسبة لتقارير الدرك الفرنسي في المنطقة محاولة جرد مخابئي جيش التحرير في الأرياف و الجبال و كذا في التجمعات السكانية القريبة من مركز المدينة و مقارنة تلك التصورات الفرنسية بالواقع الثوري لهذه القضية.

الملحق الأول: le colonel M'hamed a-t-il subi le sort de Larbi ben m'hidi:



FRONT DE LIBERATION
NATIONALE.

WILAYA IV.

REPUBLIQUE ALGERIENNE.

ARMEE DE LIBERATION
NATIONALE.

PEUPLE ALGERIEN !

Il y a 14 ans, à l'heure même où sur la France se levait une aube d'allégresse,

A l'heure même où des foules en délire y fêtaient une victoire à laquelle les Algériens n'avaient pas peu contribué,

A l'heure même où les carillons y annonçaient joyeusement et à toutes volées, la fin du cauchemar hitlérien,

En Algérie, l'aube qui se levait, était sanglante. Le Constantinois était mis à feu et à sang par les légionnaires et les miliciens d'Achiary. DE GAULLE ordonnait le massacre systématique de 45.000 Algériens et Algériennes, coupables à ses yeux d'avoir prétendu extérioriser leur soif de dignité et de liberté et d'avoir cru que la fin du nazisme signifiait la fin du colonialisme. Dans les villes et les campagnes, le tocsin sonnait et, bientôt, le soleil éclairait des scènes de meurtres et de pillages.

PEUPLE ALGERIEN !

Jamais nous n'oublierons qu'à l'heure même où le peuple français criait sa joie, nos soeurs et nos frères étaient massacrés ! Jamais nous n'oublieront les mechtas bombardées, incendiées, noircies de fumée et les milliers de corps couchés parmi les décombres ! Jamais nous n'oublierons la chasse à l'Arabe dans les rues de GUELMA, SETIF, CHEVREUIL, KERATA, etc... et sur les sentiers des montagnes ! Jamais nous n'oublierons les femmes violées, les jeunes gens lynchés, fusillés, précipités du haut des corniches ou brûlés à la chaux vive dans les fours crématoires d'HELIOPOLIS ! Jamais nous n'oublierons que DE GAULLE a les mains rouges du sang des martyrs du Constantinois et qu'aujourd'hui encore il continue à tremper ses mains dans le sang Algérien !

PEUPLE ALGERIEN !

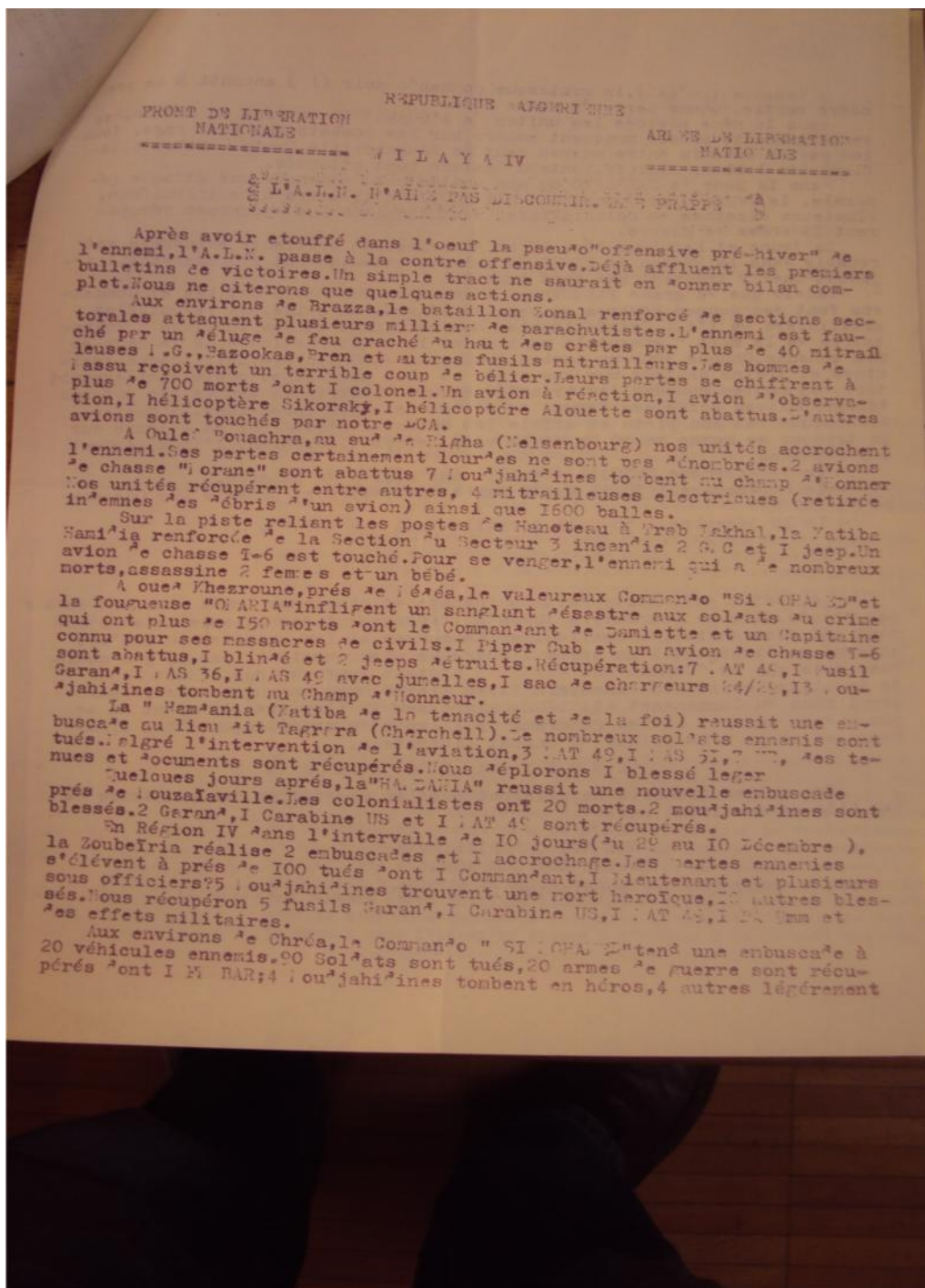
En ce 8 Mai 1959, nous nous recueillerons avec ferveur, longuement et religieusement devant la mémoire des martyrs de l'épopée Algérienne. Leur sacrifice ne sera pas vain. L'aube qui se lève en apporte la certitude. Le soleil éclaire une Algérie en lutte et qui avance résolument vers l'indépendance, sous le guide éclairé du GOUVERNEMENT PROVISOIRE DE LA REPUBLIQUE ALGERIENNE.

GLOIRE ETERNELLE AUX CHOUADAS !

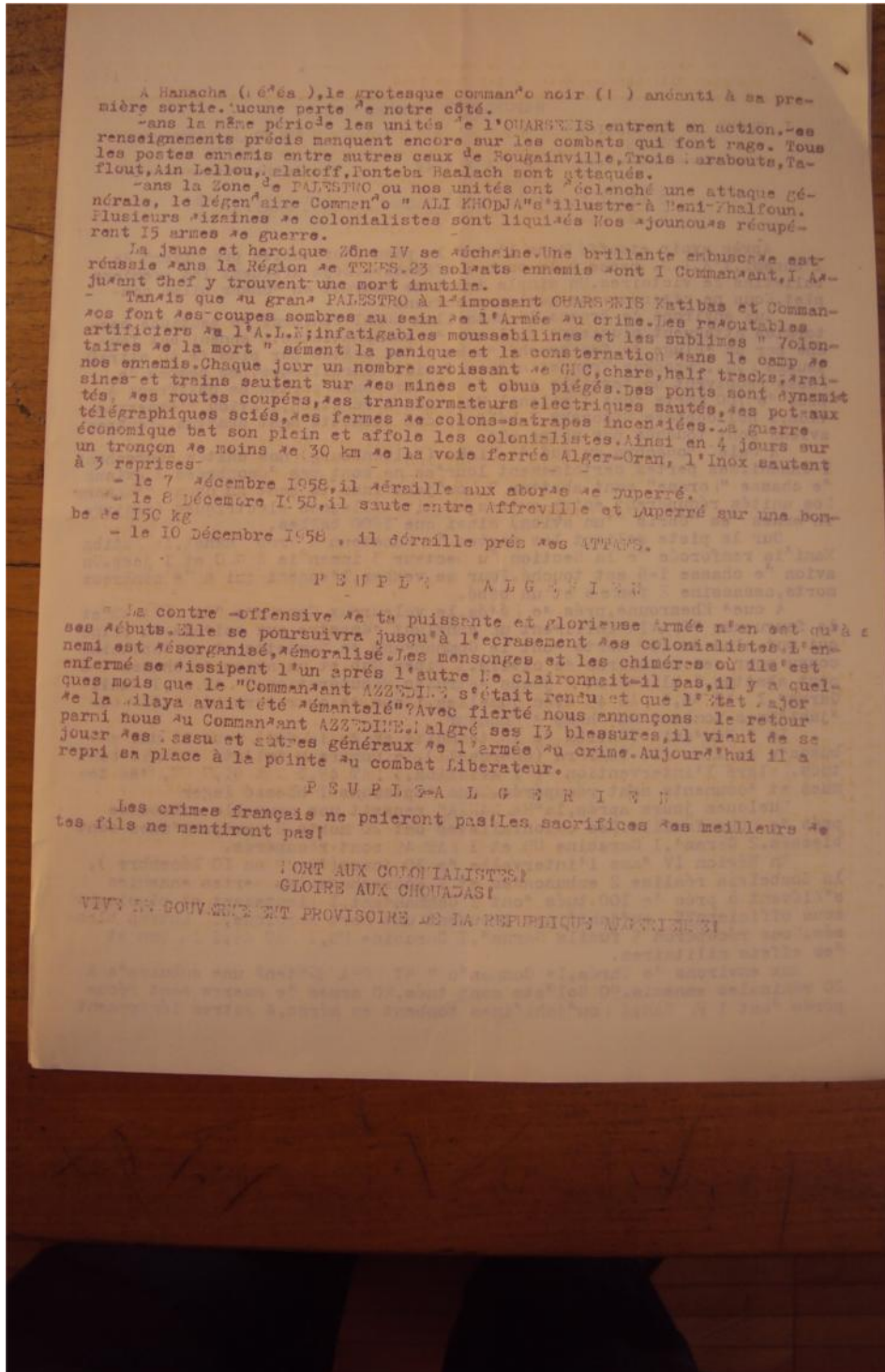
VIVE L'ALGERIE IMMORTELLE !

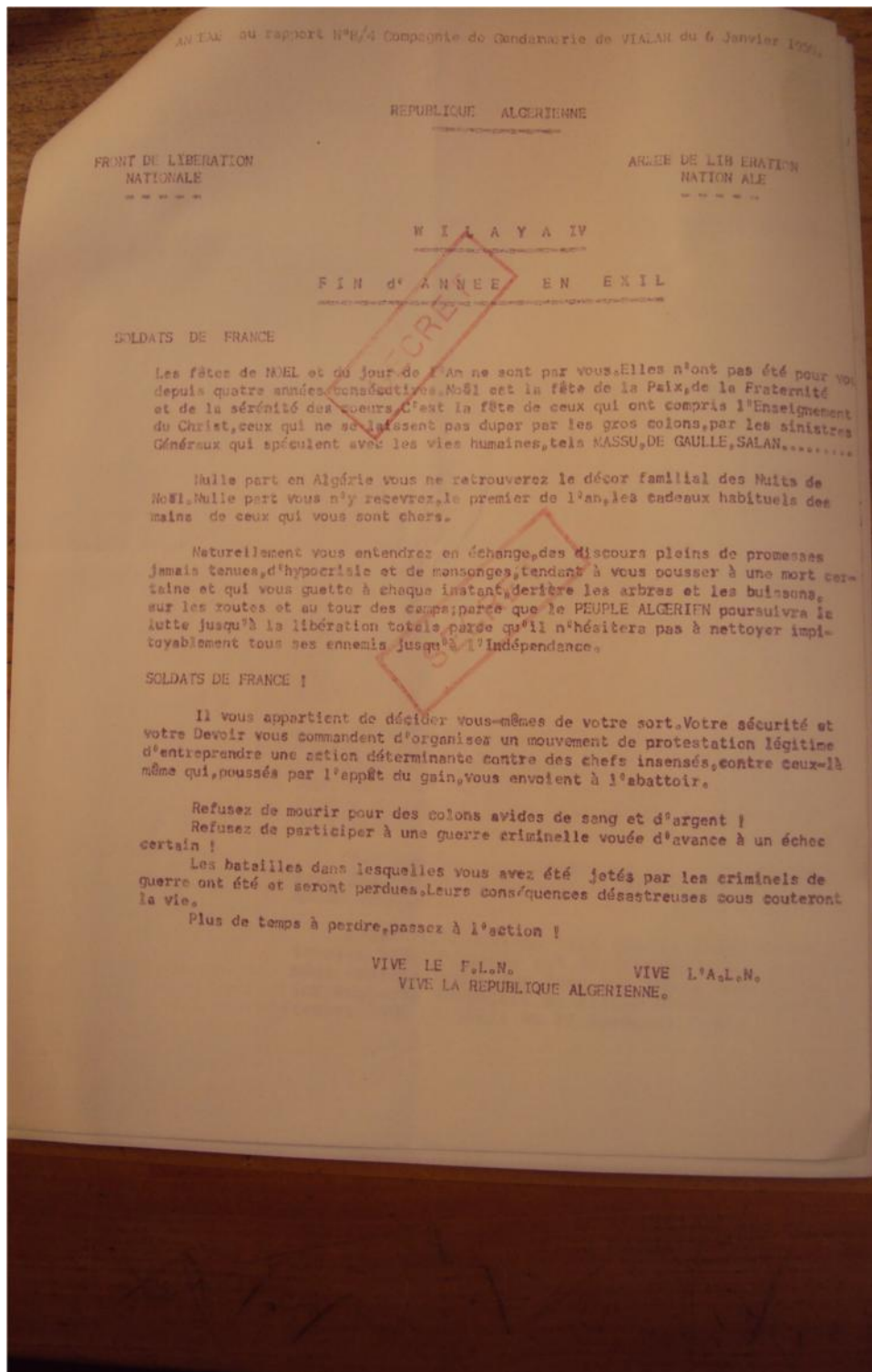
14^{ème} anniversaire du massacre du 08 mai 1945: الملحق الثاني

L'A.L.N n'aime discourir mais frappe: الملحق الثالث



comment la wilia IV refusée l'offre du cessé le feu local:الملحق الرابع





قائمة الببليوغرافيا:

- (1)Jaulin Emmanuel, la gendarmerie dans la guerre de l'Algérie dépendance et autonomie au sein des forces armées, ed. la vanzelle. 2009.p.9.
- (2)Mohamed Tegua, L'armée de libération nationale en wilaya IV, ed. casbah, Alger 2009.p.14.
- (3)Mohamed Boudib, les cèdres de la Ouarsenis, la guerre vécue, office des publications universitaires, Alger.p.13.
- (4)Ibid.
- (5)عامر عنان، نشاط الحركة الوطنية في منطقتي ثنية الحد و فيالار عشية أحداث 8 ماي 1945 من خلال أرشيف ما وراء البحار، أبحاث رقم 1، 2012، ص 61.
- (6)هو الجيلاي بونعامة من مواليد 16 أفريل 1926 بدوار بني هندل بلدية Molière سبقا من أسرة فقيرة استشهد والديه إثر عملية قصف جوي لمسكنهم، التحق بصفوف حزب الشعب سنة 1945 ثم المنظمة الخاصة ليعتقل بعد انكشاف أمرها، وفي سنة 1954 انظم إلى جبهة التحرير وعمل على تنظيم الثورة في منطقة الونشريس حيث رقي إلى رتبة رائد مكلف بالمسائل العسكرية في قيادة أركان الولاية الرابعة زمن العقيد سي امحمد بوقرة، استشهد الجيلاي بونعامة يوم 1961/08/09 بمقر قيادته في قلب مدينة البليدة رفقة مجموعة من مساعديه بعد معركة عنيفة شاركت فيها قوات النخبة الفرنسية .
- (7)وزارة المجاهدين السجل الذهبي لشهداء الثورة لولاية تيسمسيلت، ص 19.
- (8)سليمان الغول، المصدر السابق، ص 27.
- (9)C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar, **rapport N°28/4**, Vialar le 16 janvier 1959.
- (10) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar, **message N°215** Vialar le 23 mars 1959.
- (11) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar, **rapport N°121/4** Vialar, 24 mars 1959.
- (12) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar, **rapport N°136/4** vialar, 19 avril 1959.
- (13) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar, **les rapports N° : 28 ,121,136,187,238,242,319,333**, Vialar 1959 .
- (14) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar, **les rapports N° : 28,43,50 ,104,123,167,473** .
- (15) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar, **les rapports N° : 50,176,180,231**.

(16) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar ,**rapport N°136/4** vialar le 04/04/1959.

(17) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar, **rapport 368/4** vialar le 29/09/1959.

(18) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar,**rapport N°517 /4** vialar le 28 /04/1959.

(19) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar ,**rapport N°231/4** vialar le 24/06/1959.

(20) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar ,**rapport N°418/4** vialar le 13/11/1959 .

(21) C.A.O.M ; 9260.43-45, compagnie de la gendarmerie de Vialar ,**rapport N°312/4** vialar le 10 /08/1959.

أضواء على خطة الكتابة على عهد الموحدين

أ/ بغداد غربي، جامعة الشلف

تعتبر الدولة الموحدية في بلاد المغرب الإسلامي من أهم الكيانات السياسية التي بسطت نفوذها على هذه المنطقة، وإذا كانت الدراسات المتعلقة بتاريخ هذه الدولة من الناحية السياسية مستفيضة، وتكاد تحيط بهذا المجال من كل جوانبه، فإن الاعتناء بالمجالات الحضارية لتاريخ المغرب بصفة عامة والموحدين بصفة خاصة لا تزال بكرة، وقليلة كذلك، وذلك نظرا لحداثة الباحثين عهدا بها، وقلة المادة التاريخية المحفزة على خوض البحث في هذا الجانب من تاريخ المغرب الإسلامي من ناحية أخرى.

ومن ثم؛ جاء هذا المقال ليتناول جانبا مهما من الجوانب الحضارية على عهد الموحدين، ألا وهو جانب النظم الإدارية، محاولة لتسليط الضوء على نظام حساس ومهم من النظم الإدارية ألا وهو نظام الكتابة والدواوين، ويراد بالكتابة هنا؛ الكتابة الرسمية الصادرة عن السلطان إلى مختلف الجهات في الداخل والخارج، دون الحديث عن الكتابات الأدبية والمراسلات غير الرسمية.

سنحاول في هذا الموضوع ضبط مصطلح الكتابة من الناحية اللغوية والاصطلاحية، كما سنبين مدى أهمية خطة الكتابة بصفة عامة، وعند الموحدين بصفة خاصة، مع التطرق إلى الشروط التي يجب توفرها في الكاتب، وأنواع كتاب الدولة، مع ذكر اختصاصاتهم والأعمال المنوطة بهم مضافة إلى مهمة الكتابة والترسل. كما سنسلط الضوء في هذا المقال المتواضع على الوضعية المادية والاجتماعية التي كان يحظى بها الكاتب، وذلك كله بالاستناد على الإشارات القليلة المتناثرة في ثنايا المصادر باختلاف أنواعها، إذ أن الموضوع لم تخصص له دراسات مفصلة في حدود علمي.

أولا: تحديد المصطلح

الكتابة في اللغة: مصدر كتب الشيء يكتبه كتبا وكتبا وكتابة، وكتبه بمعنى خطه. والكتاب اسم لما كتب مجموعا. وهو مصدر، والكتابة لمن تكون له صناعة مثل الصياغة والخياطة¹. وتعني الكتابة الجمع، يقال تكتب القوم إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة، كما سمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض². كما للكتابة معان أخرى: كالعلم³، والحكم⁴.

أما في الاصطلاح: فيراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني من المكاتبات، والولايات، والمسامحات، والاطلاقات، ومناشير الاقطاعات، والهدن والأمانات والأيمان، وما في معنى ذلك؛ ككتابة الحكم وغيره⁵. فبذلك تكون كتابة الإنشاء مختصة بكل ما ينشئه الكاتب المختص بالخليفة والسلطان على اختلاف مواضع ما يكتب عنه.

وسميت الكتابة بكتابة الإنشاء من باب التخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذي هو أصل موضوعها، وهو مصدر أنشأ الشيء إذا ابتدأه وخلق، وذلك أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعاني فيما يعمل على كتابته من المكاتبات والمراسلات، هذا بالإضافة إلى أن هذه المكاتبات تنشأ عنه ابتداء⁶. وبذلك تكون كتابة الإنشاء أو الكتابة الديوانية خارجة عن الأصناف الأخرى للكتابة التي يقسمها النويري إلى خمسة أصناف، فيجعلها بالإضافة إلى كتابة الإنشاء؛ كتابة ديوان وتصرف، وكتابة حكم وشروط، وكتابة نسخ، وكتابة تعليم، وكتابة شُرطة⁷.

ويطلق مصطلح النثر الديواني على كتابة الإنشاء، وهو كلام فني يشمل رسائل الحرب والسلام والمعاهدات والمسامحات والمراسيم والمواثيق الإدارية والمالية، وما يجري بين الملوك والأمراء والوزراء والولاة وقادة الجيش من مكاتبات تتناول التهئة بالنصر، وتقليد المناصب، وما يتعلق بحاجات الناس ومصالحهم الدينية والدنيوية⁸.

ثانيا: أهمية خطة الكتابة وشروط اختيار الكتاب.

تعتبر الكتابة الديوانية أو كتابة الإنشاء من أهم الخطط في مجال النظم الإدارية، وفي هذا السياق وبيانا لأهمية هذه الخطة يقول ابن خلدون: " .. إن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدوا أربعة، لأنها إما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها.. وصاحب هذا هو الوزير، وإما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان، وتنفيذ الأوامر فيمن هو محبوب عنه، وصاحب هذا هو الكاتب"⁹ ثم ذكر بعد ذلك الحاجب وصاحب المجابي.

وحيث أن هذه الخطة من الأهمية بمكان في سلم إدارة الدولة تم الاعتناء بها وبمتوليها من طرف أرباب هذه الصنعة، وذلك بتدوين العديد من المصنفات¹⁰ التي تطرقت إلى التعريف بها وبيان أهميتها، وتعدد شروط من يتولاها، مع بيان أنواع الكتابات الديوانية ومراسيم كتابتها، وما إلى ذلك مما يتعلق بهذه المهنة الشريفة، فأصبحت هذه المصنفات بمثابة دساتير تقرر أصول هذا الفن، وترشد الكتاب إلى أقوم السبل التي ينتهجونها لأداء مهمتهم على أحسن وجه.

لذلك نرى مسارعة الخلفاء إلى اتخاذ كتاب في أغلب أحوالهم، حتى قبل استواء هذا الخليفة أو ذاك على عرش الخلافة. فقد اتخذ المهدي بن تومرت داعية الموحدين منذ ابتداء أمره كتابا لمراسلاته ومخاطباته¹¹، ودلت النصوص على اغتمام الخليفة عبد المؤمن بن علي لوفاة كاتب سره اغتماما كبيرا لمكانته منه¹² بل إننا نجد بعض الثائرين قد اتخذوا كتابا لمراسلاتهم قبل السيطرة على مقاليد الحكم¹³.

إن هذه الإشارات - على قلتها - تدل على أهمية هذه الخطة عند الموحدين ومكانة الكاتب في الإدارة الموحدية، وتتجسد تلك الأهمية في ذلك العدد الوفير من أعلام الكتابة والترسل، وأئمة البلاغة والأدب الذين خدموا البلاط الموحدي¹⁴ إضافة إلى ما خلفوه من زخم هائل من أنواع الرسائل الديوانية¹⁵ التي أنشأها كتاب الخلفاء وأمرائهم على الأمصار.

ونظرا لسمو مرتبة الكتابة كان صاحبها لا يتخير إلا من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم، وعارضة البلاغة، ولذلك ذهب القلقشندي وغيره، إلى تخصيص جزء مهم في مصنفاتهم لشروط اختيار الكتاب، وما يتوجب توفره فيهم من ثقافة وآداب¹⁶.

وتعتبر رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب¹⁷ التي كتبها إلى الكتاب من أهم الدساتير التي تناولت الصفات العلمية والذاتية والأخلاقية التي يجب أن يتمتع بها الكاتب، ليظل في مستوى مهنة الكتابة الشريفة التي يمارسها، حتى أصبحت هذه الرسالة بمثابة القانون المضبوط، والدستور الثابت الذي سار عليه الكتاب في المشرق والمغرب وفي جميع العصور، بل إن القوانين التي قنتها كبار الكتاب في مصنفاتهم لم تكن إلا شرحا وتفصيلا لهذه الرسالة.

والخلفاء الموحدون كغيرهم من ملوك المغرب حشدوا أقطاب الكتاب المجدين وأرباب البلاغة حفاظا على ديوان الكتابة بمستواه الرفيع، كيف لا وقد غلبت على معظم الخلفاء نزعة علمية كان لها الأثر الكبير في

حياة الخلافة طول أيامها؛ من تقريب ورعاية للعلماء والمفكرين، ونظرا لذلك؛ عمل الخلفاء على انتقاء الكتّاب واختيارهم، وتوَحَّوا فيهم الخبرة الإدارية من ناحية، بالإضافة إلى ثقافتهم الواسعة من خلال تصدرهم لمختلف الفنون وإتقانهم لأنواع العلوم¹⁸.

وإن لم تتوفر لدينا عن هذه الفترة مصادر متخصصة حول ما يتعلق بالكتّاب وثقافتهم وصفاتهم؛ إلا أننا نلمس - من خلال استقراءنا لتراجم كبار كتّاب الإنشاء الذين خدموا سلاطين الموحدين وولاتهم - أن أغلب هؤلاء الكتّاب توفروا على الشروط التي اشترطها أرباب هذه الصنعة في مصنفاتهم وموسوعاتهم كالقلقشندي والنويري وعبد الحميد الكاتب قبلهما، إذ جمع أغلبهم بين الإحاطة بعلوم الشرع والتفنن في الآداب، بل كان أغلب هؤلاء الكتّاب أهل حديث وفقه قبل أن يكونوا أهل أدب¹⁹.

ومن أشهر هؤلاء الكتّاب أبي جعفر أحمد بن عطية القضاعي، فلقد كان من كبار الكتّاب والأدباء أيام المرابطين بليغا في كتابته، سهل المأخذ، منقاد القريحة، سيال الطبع، وكان سبب تقييده واستكتابه من طرف الخليفة عبد المؤمن بن علي رسالته التي كتب بها إليه عن القائد أبي حفص قائد الجند لما انتصر على الماسي الثائر، وكانت رسالة أجاد في أكثرها، وهي تتم عن قدرته الأدبية والبلاغية، " فلما وصلت هذه الرسالة وقرئت في مجلس الخليفة...استحسنها الخليفة لما فيها من وصف الحال بغاية الإبداع وأنها أخذت من الفصاحة والبلاغة والتشبيه الغريب بالقلوب والأسماء، وأجمع البلغاء على إبداعها غاية الإبداع"²⁰، ولذلك قرّبه عبد المؤمن واستكّته وزاده إلى الكتابة الوزارة بعد أن وصل كتابه إليه ورأى من بلاغته وفصاحته ما ذكرنا ولما وجد فيه من "شجاعة قلبه وحصافة عقله"²¹، بالإضافة إلى خبرته الإدارية لما مارسه من الكتابة عن أمراء المرابطين.

ولم ينفرد ابن عطية بهذه المزية من الفصاحة والبلاغة، فلقد كانت صفة أغلب كتّاب الموحدين، وذلك ما نلمسه في القصيدة التي ألحها الكاتب ابن عياش مخاطبا العرب يستعجلهم فيها ويسترحلهم للجهاد إلى الأندلس على لسان الخليفة أبي يعقوب يوسف بقوله

أقيموا إلى العلياء عوج الرّواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصّواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وشدّوا على الأعداء شدة صائل²²

وهي قصيدة طويلة تدل على عظم بلاغة هذا الكاتب وسعة علمه باللغة وأساليبيها.

كما وصف ابن الأثير عبد الرحمن بن يخلفتن الفازازي الكاتب بقوله: "...كان عالما بالأدب ومتصرفا في الفنون، كاتباً بليغا، شاعرا مجودا، وافر المادة، قوي العارضة، مشاركاً في أصول الفقه، ذا معرفة بعلم الكلام، ناظرا في الفقه"²³، وقد وصف أبو الحسن الرعيني الكاتب سرعة بديهة أبي زيد الفازازي هذا بقوله: "شاهدته مرارا ينظم القصيدة من أربعين بيتا إلى سبعين، فيكتبها في قرطاس كأنما هو لها ناقل لا قائل، ورأسه لا ناظم"²⁴.

ولم تقتصر صفات الكتّاب على التبحر في علوم اللغة فحسب، بل كانت معارفهم تشمل مختلف العلوم، فهذا الرحّالة ابن جبير الكناني الذي يعد من أعلام كتّاب الأندلس في العصر الموحدي؛ إذ على الرغم من بروزه في الكتابة والنظم؛ حيث كتب في شببته للسيد أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن خلال ولايته على سبتة، واشتهر برحلته المعروفة باسمه، وكان بالإضافة إلى ذلك بارعا في القراءات والحديث، ذو علم واسع باللغة والأدب والفقه، وله قدرة على نظم الشعر²⁵.

كما يصف لنا صاحب الإحاطة الكاتب محمد بن إبراهيم بن خيرة بقوله: "كان كاتباً بليغاً، وشاعراً مجيداً... وكان حسن الخط رائقه... له تصانيف تاريخية وأدبية، منها، ربحان الآداب وربيعة الشباب لا نظير له، والوشاح المفصل، وهو كتاب في الأمثال السائرة، وكتاب في الأدب نحا فيه منحى أبي عمرو بن عبد البر في بهجة المجالس²⁶."

وهذا الكاتب أبو إسحاق ابن فرقد، كاتب أبي سعيد والي غرناطة، يصفه ابن الأثير بقوله: "...وأخذ عنه - أي عن شيخه أبي عمر بن ميمون - الصحيحين وكان يعلو فيهما... وغلب عليه الأدب، وعلم الفرائض وله في ذلك أرجوزة أخذت عنه، وولي منصب القضاء²⁷."

و كتب للخليفة المأمون الكاتب والأديب الهيثم بن أحمد؛ الذي يصفه ابن سعيد بقوله: "حافظ اشبيلية، لم ألق بها أحفظ منه، ومن أعجب عجائبه كان يملئ على شخص شعراً، وعلى ثمان موشحة، وعلى ثالث زجلاً، وكل ذلك ارتجالاً دون توقف"²⁸، وقد ترجم له المقرئ في النفح²⁹

كما نجد الخليفة الرشيد الموحدي (640/630هـ) يستكتب الكاتب علي بن محمد بن الحسن الأنصاري الأشبيلي، الذي يصفه ابن عبد الملك بقوله: "كان أديب النفس، كاتباً بليغاً، شاعراً مجيداً، رقيق الغزل، بارع المنازع، فائق النظم والنثر، مبرزاً في فهم المعاني، نحويًا ماهراً، ذاكرة للغات والآداب، من أبرع من رأيته خطأ، وكان قد شرع في الجمع بين تفسيري الزمخشري وابن عطية، ورجز الأحكام في معجزة النبي عليه الصلاة والسلام، لأبي الحسن بن القطان، وله منظومات كثيرة في مقاصد شتى ورسائل متنوعة، وكل ذلك شاهد تبريزه، وجودة مأخذ³⁰"

واستكتب السيد أبو الربيع سليمان الموحدي الكاتب علي بن إبراهيم الأنصاري البلسي³¹، الذي ذكر له المراكشي مجموعة من المصنفات التي توحى بسعة علمه منها: "اختصار العقد الفريد"، وكتاب "مشاهير الموشحين بالأندلس"، وهم عشرون رجلاً ذكرهم بمحاسنهم وحلاهم على طريقة الفتح في المطمح والقلائد، وابن بسام في الذخيرة، كما ذكر له صاحب التكملة كتاباً على الكامل للمبرد، وذكر كتابته لعدة من الولاة الموحدين³².

ومن الكتاب المشهورين بسعة الثقافة الكاتب عامر بن هشام الأسدي، الذي يصفه صاحب الذيل بقوله: "وكان أديباً شاعراً، كاتباً بارعاً، كتب عن أبي محمد بن أبي حفص وغيره... وكان قد اختصه كثيراً وحظي عنده"، وذكر له مصنفات عديدة في فنون شتى منها "المخصص في شرح غريب المخصص"، و"مثبط العجلان ومنشط الكسلان" وهما في الأدب، وكتاب "المقصورة" وهي مجموعة من القصائد نظمها وقسمها إلى ثلاث أقسام، الأول خاص بالزهد وتأنيب النفس، والثاني في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم "بني الإسلام على خمس"، والثالث في شكوى الزمان وما مني به من بعض الحسدة الخوان، وتأيين مصطنعه السيد أبا الربيع لما توفي، وعدتها مئة وخمسة وستون بيتاً، و مما ذكر له صاحب الذيل من شعره:

إنا إلى الله من دنيا مضت وقضت ولم أبت وجلا من خشية الله
تري البطالة في ميدانها بطلا مني وأنسى أن ألهو مع اللاهي

ومما يقول في آخرها:

يا رب إن فتئت عن شيب قد أكرهني عسى قبول متابي بعد إكرام.

كما وصف ابن عبد الملك شعره بالكثير الجيد وقال: "له مخاطبات مع شعراء وأدباء وقته تشهد بمتانة أدبه وبراعته"³³.

ويعد الكاتب أبو المطرف ابن عميرة المخزومي³⁴، من أعظم كتّاب المغرب والأندلس الذين خدموا وقتا غير يسير في البلاط الموحيدي الذين امتازوا بالتبحر في العلوم وكل أنواع الفنون والآداب، كتب عن جملة من الولاة "إذ استهل كتابته عن والي بلنسية محمد بن أبي حفص سنة 608هـ، ثم كتب عن والي إشبيلية السيد أبا العلاء الكبير سنة 617هـ، وفي سنة 620هـ عاد إلى بلنسية وكتب عن السيد أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن إلى غاية سنة 626هـ، كما كتب لغير هؤلاء"³⁵، كما كتب بعد ذلك للخليفة الموحيدي الرشيد الذي أعجب ببلاغته فاستكتبه لذلك، يصفه الغبريني بقوله: "الشيخ الفقيه المجيد المجتهد العالم الجليل الفاضل المتقن المتقن أعلم العلماء وتاج الأدباء...وفاق الناس بلاغة وأرى على ما قبله"³⁶، كما وصفه ابن سعيد بقوله: "هو الآن عظيم الأندلس في الكتابة في فنون من العلوم"³⁷، وقد ترجم له صاحب الإحاطة بقوله: "...قد كان نسيج وحده إدراكا وتفننا، بصيرا بالعلوم، محدثا مكثرا، راوية ثبوتا، مستبحرا في التاريخ والأخبار، ديننا، مضطلعا بالأصليين، قائما على العربية"، كما وصفه بقوله "ثاني بديع الزمان في رونق الكلام ولطف المأخذ، وتبريز النثر على النظم، والقصور في السلطانيات"³⁸.

له عدة مصنفات في علوم شتى تصدق ما ذكره مترجموه، قال عنها الغبريني: "وما رأيت من كتاب ما أعجبني مثل كتب الفقيه أبي المطرف إلا كتب أبي جعفر بن عطية"³⁹، ومما خلفه في التاريخ كتاب كائنة ميورقة، و تغلب العدو عليها⁴⁰، وقد ذكره بن عبد الملك في الذيل⁴¹، كما ذكر له صاحب الإحاطة كتابا في التاريخ كذلك بعنوان "الاقتضاب من تاريخ المريدين"⁴² وهو اختصار لكتاب ثورة المريدين الذي ألفه ابن صاحب الصلاة (صاحب المن بالإمامة)، ومما خلفه من الكتب الدينية مجموعة من المواعظ والزهديات، إذ يقول ابن عبد الملك: "وله فصول وعظية على طريقة الإمام أبي الفرج بن الجوزي"⁴³، وكتاب في التعليق على "معالم أصول الفقه" للرازي، وهو عبارة عن جواب لسؤال سائل، "كما كان الطلبة يتلقون عنه تلحيقات السهروردي، وهي من مغلفات أصول الفقه عند طائفة ممن لم يمارس علم الأصول، ولا يتعرض لإقراءها إلا من له ذهن ثاقب"⁴⁴.

ومن الكتّاب الذين اشتهروا في بلاط الموحدين بتولي وظيفة كتابة الإنشاء وكانوا بالإضافة إلى ذلك من أعلام المؤرخين ابن صاحب الصلاة، فقد ألف كتابا حول تاريخ الدولة الموحدية سماه "المن بالإمامة" وهو كتاب مشهور، إضافة إلى كتاب حول "ثورة المريدين" كما يذكر ذلك عن نفسه في المن، وكان بالإضافة إلى ذلك من أبرز الكتّاب الموحدين⁴⁵.

وقد كان أدبيا كاتباً محسناً، عني بحفظ التواريخ وتقيدها⁴⁶، وكذلك ابن القطان صاحب كتاب "نظم الجمان"، فقد كان بالإضافة إلى براعته في الكتابة التاريخية رئيس كتّاب الإنشاء عند الموحدين، وممكنه ذلك من إطلاع على الوثائق الرسمية المتواجدة في الديوان ونقل منها مجموعة في كتابه المذكور⁴⁷.

كما يعتبر الكاتب محمد بن الأبار القضاعي من أعظم من خدم الموحدين وغيرهم من ملوك المغرب بالكتابة عنهم، وكان بالإضافة إلى ذلك من أهل التبحر في شتى العلوم والفنون، حيث يصفه ابن سعيد بقوله: "ورأيته فاضلا في النظم والنثر والتاريخ وملح الآداب"⁴⁸، ويصفه الغبريني بقوله: "الفقيه المحدث المقرئ الأديب النحوي المجيد اللغوي الكاتب البارع التاريخي، له نزعات في الأدب بارعة مستحسنة"⁴⁹، وخلف مصنفات

كثيرة منها كتاب "التكملة لكتاب الصلة"، و"الحلة السيرة"، وكتاب "إعتاب الكتاب"، وهي كتب ألفها في التراجم لرجال الأدب وغيرهم، كما له في التاريخ كتاب "المعجم في أصحاب أبي علي الصديقي"، ويعد من أبرز كتّاب الدولة الموحدية؛ إذ كتب للسيد أبي زيد والي بلنسية، كما كتب عن الرئيس أبي جميل الزيان ابن مردنيش بعدما اضطربت الثورة في بلنسية، وكان سفيره إلى الأمير الحفصي يستصرخه لإنقاذ بلنسية من أيدي النصارى، فكان مما خاطبه به قصيدته السينية الرائعة التي يقول في مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهي قصيدة عظيمة لو لم يخلف ابن الأبار غيرها لكانت دليلا على كفاءته الأدبية والعلمية. ولو تتبعنا تراجم الكتّاب الموحدين وإحصاء ثقافتهم وقدراتهم العلمية والأدبية لوجدناها تستوفي كل الشروط التي سطرها أرباب صنعة الكتابة كالقلقشندي والنويري؛ من العلم بالوحيين الكتاب والسنة، والإلمام بالفقه، والتبحر في علوم اللغة والأدب، والبراعة في قرض الشعر، ناهيك عن العلوم العقلية من المنطق والفلسفة، إضافة إلى تضلع بعضهم في علم الطب والفلسفة⁵⁰.

ونظرا لأهمية هذه الطبقة في الإدارة الموحدية، وما تملكه من ثقافة واسعة كانت لها الصدارة في توجيه طبقة الحفاظ التي أنشأها الموحدون، فهذا الخليفة عبد المؤمن يأمر هذه الطبقة "بالتزام أشياخ البلاد من الفقهاء والكتّاب والشعراء ومذاكرتهم وملازماتهم"⁵¹، ولم يكن هذا إلا لعلمه وثقافته هؤلاء الكتّاب الواسعة، وتيقنه من تبحرهم في أنواع العلوم والفنون، كما كان بعض الكتّاب يتولى بالإضافة إلى الكتابة عن الخلفاء تعليم وتأديب أبناء الخلفاء⁵².

I. أنواع الكتّاب في الإدارة الموحدية.

عرف الموحدون نوعين من الكتّاب الرسميين المندرجين في خطة الكتابة والمتولين للكتابة الديوانية السلطانية، كتّاب الإنشاء؛ يتولون كتابة المراسيم السلطانية، والرسائل الموجهة إلى الولاة والقضاة وسائر موظفي الدولة وحتى العامة داخل المملكة، وكذا تحرير الرسائل المتعلقة بتنظيم علاقات الدولة الخارجية، وإلى جانب هؤلاء هناك كتّاب الجيش - يعرف في الأندلس باسم كاتب الجبهة⁵³، حيث يختصون بتقييد الجند ونفقاتهم وإحصاء الأسلحة⁵⁴.

أطلقت ألقاب عدة على كتّاب الرسائل؛ ككتّاب الإنشاء⁵⁵، وكتّاب السر⁵⁶، وكتّاب التدبير⁵⁷، ورئيس الكتّاب⁵⁸، وصاحب الكتابة العليا⁵⁹، وصاحب القلم الأعلى⁶⁰، وعلى الرغم من هذا الخلاف في نعت كاتب الرسائل؛ فإن المقري يجزم بعدم تسمية الموظف المتولي لشؤون الكتابة عن الخليفة بغير اسم الكاتب، "وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة"⁶¹.

أما تعيين الكتّاب فلقد كانت من خصائص الخلفاء أنفسهم؛ إذ توخوا في اختيار كتّابهم توفيرهم على الخبرة الإدارية⁶²، بالإضافة إلى توفرهم على مستوى علمي وأدبي رفيع، لذلك كانوا يحشدون في بلاطهم أقطاب الكتّاب المجدين، ويتخذون لكتابتهم أبلغ أدباء العصر، حتى في أواخر عهد الدولة نجد الخلفاء الموحدين حريصين على الاحتفاظ لديوان الكتابة والرسائل بمستواه الرفيع الذي بلغه منذ الخليفة الأول عبد المؤمن بن علي⁶³.

غير أن المصادر تشج علينا بما يتعلق بمراسيم ذلك التعيين كما هو الحال بالنسبة لتتصيب الولاة والقضاة؛ إذ كان يوصف بدقة وإسهاب، إلا أنه من الملاحظ عند استقراء تراجم الكتّاب الموحدين نجدهم كانوا يتدرجون في المناصب قبل الوصول إلى منصب رئيس كتّاب الإنشاء في عاصمة الخلافة مراکش⁶⁴. لقد اتخذ كتّاب الإنشاء في حضرة السلطان مساعدون يعملون تحت أمره، ويساعدونه في إنشاء الرسائل وتدوينها، ويعملون على تحرير الرسائل عند غيابه أو انشغاله بأمور أخرى⁶⁵، وبالإضافة إلى ذلك؛ اختص الكتّاب ببعض الأعمال مضافة إلى وظيفة الكتابة؛ كرفع قصائد الشعراء إلى الخليفة، والعمل على تنظيم الوفود عليه، وخص ابن خلدون هذا العمل بالوزير فقال: "واختاروا - أي الموحدين - اسم الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه، ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتهم وخطابهم، والآداب التي تلزم في الكون بين يديه"⁶⁶، ويبدو أن هذه الأعمال التي اختص بها الوزير في بداية الدولة أصبحت من اختصاص كتّاب الإنشاء، فقد ذكر ابن صاحب الصلاة أنه رفع شعرا إلى الخليفة، وكان الذي أوصله إليه هو الكتّاب أبو الحسن بن عياش⁶⁷.

تجدر الإشارة إلى اتخاذ ولاة الأقاليم كتّابا كذلك؛ إذ كان السادة من أبناء الخليفة وإخوته يستخدمون في حكوماتهم المحلية أكابر كتّاب الأندلس جريا على سنة بلاط مراکش، حيث اعتبر الكتّاب عند والي أو السيد من أقرب المساعدين والمقربين، حيث اختص والي بكتّاب أو مجموعة من الكتّاب يعملون على خدمته والكتابة عنه⁶⁸، واختلف عددهم في بلاط والي حسب حاجة الإدارة إلى ذلك، وممن اشتهر من ولاة الموحدين بكثرة الكتّاب في حضرته السيد أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن الذي يصفه المراكشي بقوله: "...واجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتّاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده"⁶⁹، إلا أن هؤلاء الكتّاب كانوا يعينون من طرف الخليفة، ولا سلطة للسيد في ذلك؛ إذ كانت سلطة الأسياد وغيرهم من العمال محدودة وخاصة في بداية الدولة وقوتها⁷⁰.

ومن الملاحظ أن طريقة تعيين الكتّاب لم تبق على ذلك النمط من تحكم الإدارة المركزية في تعيينهم وغيرهم من الموظفين كالوزير والحاجب، ويدل ذلك على ما فرضه الشيخ عبد الواحد الحفصي على الخليفة الناصر الموحدي (610/595هـ) من شروط لقبول ولايته على إفريقية؛ إذ اشترط عليه حرية التصرف في اختيار الكتّاب والوزير والقاضي ورؤساء الجند⁷¹.

وبالإضافة إلى وظيفة الكتابة؛ اختص كتّاب والي أحيانا بالجمع بين الكتابة والوزارة، وذلك ما نراه في أواخر العهد الموحدي؛ إذ نجد السيد أبا زيد بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والي بلنسية، يستخدم لوزارته وكتّابته كتّابا من أعظم كتّاب الأندلس وشعرائها ألا وهو ابن الأبار القضاعي⁷².

لقد كان كتّاب الجهات يخضعون لمراقبة الخلفاء ومحاسبتهم، ومن ذلك ما فعله الناصر الموحدي سنة 604هـ، حين استدعى العمال والكتّاب لمحاسبتهم، كما كان يشرف عليهم في أعمالهم كتّاب الخلفاء، إذ كان تحت نظر الكتّابين أبي محمد عبد الله بن يحيى، وأبي عبد الله بن الكتّاب اللذين عينهما المنصور لمحاسبة عامل إشبيلية، من كتّاب الجهات نحو خمسين كتّابا⁷³.

هذا بالنسبة لكتّاب الإنشاء، أما النوع الثاني من الكتاب في ديوان الدولة الموحدية فهو كتّاب الجيش، إذ نرى منذ بداية عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن تتحدد اختصاصات الكتّاب، فنجد شؤون الجيش توكل إلى ديوانين أو وزارتين يشرف عليهما نوعين من الكتّاب⁷⁴، أحدهما خاص بديوان العسكرية ويسمى

كاتب ديوان العسكرية، وهو مختص بالجند النظامي؛ حيث يعمل على إحصاء الجند من ناحية العدد، وكذا معرفة حاجات الجند المتعددة من أمور السلاح والنفقات وغير ذلك⁷⁵، بالإضافة إلى إسناد محاسبة العمال وأصحاب الأشغال على الجهات إلى هذا الكاتب أحيانا⁷⁶، كما كانت تسند إليه مهمة تقييد أموال المخزن، وإحصاء أموال الزكاة والفرائض المختلفة على الأموال، ومن ذلك؛ ما قام به الكاتب أبو الحسن الهوزني من الإشراف على كتابة المجابي وهو رئيس كتّاب العسكرية⁷⁷.

والكاتب الآخر خاص بديوان التمييز⁷⁸ ويسمى متوليه كاتب ديوان التمييز، ويتمثل اختصاص كاتب هذا الديوان في إيراد نفقات الجيش، وتقسيم الأعطيات والبركات على كل من ثبت اسمه في زمام⁷⁹ الجيوش والجند الذين قام بإحصائهم كاتب العسكرية، وكان صاحب ديوان التمييز قبل إنفاذ البركات يعرض زمام التمييز الجديد على الزمام القديم الذي قبله من أجل المقارنة ثم ينفذ بعد ذلك الأعطيات بأمر الخليفة⁸⁰.

ولم يتحمل كتّاب الجيش هذه الأعباء بمفردهم، فقد كان في ديوان الجند كاتب أو أكثر يعملون على مساعدة كاتب العسكرية والتمييز، فيكون بذلك على رأس هذين الديوانين وزيرين؛ هما كاتب العسكرية وكاتب التمييز، ومعهما مساعدون يختصون بالكتابة في ذلك⁸¹.

II. مهام الكتّاب واختصاصاتهم:

لم يقتصر عمل الكاتب الرئيسي على تحرير الرسائل المتسمة بالبلاغة الفائقة فحسب، بل كان يعمل على استقبال الرسائل الواردة إلى السلطان، فيعمل على قراءتها عليه واستشارته حول نوع الرد عليها، هذا مع إشراف الكاتب الرئيس على مراقبة صغار الكتاب في الديوان والإشراف عليهم في كتاباتهم الثانوية التي يقومون بها⁸².

إلا أن شخصية الكاتب الفريدة من خلال ما تحمله من ثقافة واسعة، وسعة علم بالتدابير السياسية، و خبرة في إدارة شؤون المؤسسات تعددت اختصاصاته وتنوعت مهامه، مضافة إلى عمله الرئيسي من تحرير الرسائل وإنشاء المخاطبات الرسمية، ومن تلك المهام المضافة إليه مع مهمة الكتابة:

أولا: تولي منصب الوزارة مضافة إلى الكتابة،

حيث اعتلى الكاتب في بداية الدولة الموحدية منصب الوزارة، ولم يكن هذا من بدع الموحدين في نظم الإدارة والحكم، فقلد لزم لقب الوزير عند بعض الدويلات في المغرب وغيره الكاتب المتولي لرئاسة ديوان الإنشاء⁸³، وهذا التداخل بين الوزارة والكتابة نجده في بداية الدولة الموحدية، وبالأخص في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي المؤسس الفعلي للدولة وإدارتها، ويعود ذلك إلى أن الدولة في بداية نشأتها لم تتخذ الرتب والألقاب ولم يكن ذلك إلا بعد استقرارها، وهذا ما وصفه ابن خلدون بقوله: "دولة الموحدين في بداية أمرها لم يكن عندهم من الرتب غير الوزير، فكانوا أولا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية، وعبد السلام الكومي، وكان له مع ذلك النظر في الأشغال المالية"⁸⁴.

وأول الكتّاب الذين شغلوا منصب الوزارة والكتابة؛ الكاتب الشهير أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعي⁸⁵، فهو معدود في الكتّاب والوزراء⁸⁶، ولم ينفرد ابن عطية بتولي منصب الوزارة والكتابة، فإننا نجد في أواخر العهد الموحيدي السيد أبا زيد بن محمد بن عبد المؤمن والي بلنسية يستخدم لوزارته وكتابته كاتباً من أعظم كتّاب الأندلس وشعرائها ألا وهو ابن الأبار القضاعي⁸⁷.

فكانت خصائصه التزام الخليفة ومشاورته في أمور السلطان وكل ما يتعلق بأعباء الوزارة، هذا بالإضافة إلى القيام بأعمال الكاتب من تحرير الرسائل، وقراءة الوارد منها على الخليفة وغيرها من أعمال الكتابة، غير أن الوزارة في هذه المرحلة تعتبر مجرد وزارة تنفيذ⁸⁸، دون أن يكون للكاتب استقلال بالقرارات، فلم يكن للوزير أو الكاتب نفوذ سياسي كما كان في كثير من الممالك، إلا ما كانا يبديانه من المشاورات في شؤون الدولة العامة بصفتهم طرقي نقاش.

ثانياً: القيام بمراسيم تولية العهد

إذ كان من اختصاصات الكتاب الموحدين كتابة نص البيعة، ثم إلقائها على الوفود المبايعة، وكان لهذه المبايعة صيغة خاصة يلقيها الكاتب من على المنبر⁸⁹.

ثالثاً: التحقيق مع العمال :

فلقد كان الخليفة يوكل أحياناً مسألة التحقيق مع بعض الولاة والعمال على الأقاليم إذا بلغه عنهم سوء تصرفهم، أو ظلمهم للرعية، أو تبذيرهم لأموال الدولة والإسراف في إنفاقها، يكل ذلك إلى بعض الكتاب للتحري في المسألة ومحاسبة هذا الوالي أو العامل على ذلك، ومن ذلك، ما عمله الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من تعيين الكاتب أبي عبد الله ابن محسن أحد كتاب العسكرية مع بعض الموظفين لمحاسبة ابن المعلم⁹⁰، كما نجد الخليفة المنصور قد وكل إلى بعض كتابه محاسبة عامل إشبيلية داوود ابن أبي داوود، وذلك لما بلغه من ظلمه وجوره ما يستوجب ذلك، "... فأبرز لمحاسبته أبا محمد ابن يحيى، وأبا عبد الله ابن الكاتب، وكان تحت نظرهما من كتاب الجهات نحو خمسين كاتباً، وأقاموا في نسخ وتقييد، وتبييض وتسويد، وإكباب على بحث وتقيب، وتصديق بعض وتكذيب"⁹¹.

رابعاً: الإشراف على الأعمال العسكرية، والشؤون المالية

فإضافة إلى ما كان ينوط بالكاتب من وظائف في مجال القلم والكتابة، كان يتولى أحياناً قيادة بعض الأعمال العسكرية، أو مرافقة بعض القادة الكبار أثناءها، ومن ذلك ما حدث مع ابن عطية الكاتب على عهد الخليفة عبد المؤمن لما خرج عليه أخوي المهدي بن تومرت وتمردا عن طاعته، فنجدته قد أوكل قيادة الجيش إلى الوزير الكاتب أبي جعفر ابن عطية⁹². ومن أعمال ابن عطية العسكرية كذلك، مرافقته للسيد أبي يعقوب يوسف إلى إشبيلية بعد هزيمة الأذفونش⁹³ من قبل السيد أبي سعيد والي غرناطة، وذلك لكتابة عهد الأمان للنصارى بالميرية⁹⁴.

كما يعلمنا ابن عذارى كذلك عند حديثه عن خبر حركة الخليفة السعيد (640/646هـ) ومسيره إلى قتال الأمير أبي يحيى وبني مرين، عن مرافقة كتابه له في هذه الغزوة، "إذ حضر معه في هذه الحركة كتابه الجلة: أبو الحسن الرعيني، وأبو زكريا الفازازي، وأبو عبد الله التلمساني"⁹⁵.

هذا بالإضافة إلى تولي بعض كبار الكتاب الإشراف على الشؤون المالية للدولة، وخاصة هؤلاء الذين تميزوا بخبرة إدارية في مجال الحساب والتقييد، ولذلك نجد أغلب الكتاب الذين تولوا الإشراف على الأمور المالية من كتاب الجيش - الذين هم كتاب حساب بالدرجة الأولى، ومن بين الكتاب البارزين الذين تولوا هذا المنصب أبو عبد الله بن منيع؛ يقول ابن عذارى في معرض الحديث عن تعيين الخليفة الناصر للولاة ومساعدتهم على الأمصار: "وقدم الكاتبين النبيهين؛ أبا محمد الحسن، وأبا عبد الله بن منيع، وكلاهما فيما انفردا به من الإحسان وصناعة الإنشاء والديوان فرسا رهان، ومالكا راية الإتيان والبيان، واقتصر أبو محمد بن الحسن على

كتب التوقيعات والظواهر وكل ما ترتب عليه العلامة من وجوه الأوامر، وانفرد أبو عبد الله بن منيع؛ وهو الكاتب المختص بديوان العسكر، وما انضاف إليه من التنفيذات السلطانية، وتقييد الجزيات العامة في أنواع النفقات" 96.

كما يزودنا ابن صاحب الصلاة بنص يدل صراحة على تولي الكتاب الإشراف على الأعمال المخزنية وتقييد الأموال إذ يقول: "فوصلها - أي قرطبة - أبو إسحاق براز بن محمد المسوي بالأمير العزيز، واستقر داخلها، واستدعى الكتاب والمشارف من إشبيلية وأنظارها، فبادر إليه أبو القاسم ابن عساكر، وأبو بكر المراني... ومعهم من الكتاب جماعة كبيرة مشهورة من أعيان إشبيلية وأعيان جهاتها، وكنت - أي ابن صاحب الصلاة - في جملة من كتب من الكتاب، وعين للإشتغال بذلك الباب، فاستعفيت وقنعت والتزم غيري ممن كتب تقييد أموال المخزن بها وبأنظارها، وبالبلاد المفتحة المرتجة من أيدي المنافقين، وبضمم بالزكوات والفرائض المفروضات، فقربهم عند وصولهم إليه وأدناهم ... واستعملهم على الأشغال وولاهم ... وتلاحق الناس والكتاب لهذه الآمال، وشغلوا بالتصرف في تلك الأعمال" 97.

فالنص صريح الدلالة على أن الكتاب الذين استدعوا كانوا يمارسون في إشبيلية تقييد الأعمال الخاصة بالمخزن، وإحصاء أموال الزكاة والفرائض المختلفة على الأموال، وعلى رأسهم الكاتب العسكري المشهور أبو القاسم بن عساكر؛ إذ يذكره ابن صاحب الصلاة من بين كتاب ديوان التمييز والعسكرية 98. وصاحب الشغل هذا الذي ذكره ابن صاحب الصلاة هو غير صاحب العمل والمشرق 99؛ ونظرا لإسناد هذه الوظيفة إلى الكتاب العسكريين دون غيرهم من كتاب الإنشاء يجعلنا نفترض أن كاتب العسكرية كانت يسند إليه - بالإضافة إلى أعماله المتعلقة بالجيش - تقييد الأمور المالية، وإن كان كذلك، فيكون كاتب العسكرية مشرفا على ديوانين مهمين هما ديوان العسكرية، وديوان الأموال والنفقات.

خامسا: الخطابة بين يدي الخليفة:

نظرا لفصاحة الكتاب وبلاغة أسلوبهم، كان يستعملهم الخلفاء أحيانا كخطباء بين أيديهم، ويباهون بهم ويشعرهم وفصاحتهم، ويزينون بهم حضرتهم السلطانية، هذا بالإضافة إلى اختصاصهم بوظيفة الكتابة، فنجد مثلا الكاتب عبد الله بن جبل 100، الذي كان يقف مع بعض الخطباء ويكتب بين يدي الخليفة ويبيدي ما جادت به قريحته من فصاحة وقرض للشعر 101.

سادسا: الإشراف على خطة المظالم:

لقد كان مركز الكاتب يتيح له أيضا الجلوس مع الخليفة على منصة القضاء، وينظر في الدعاوى ويوقع على القصص ويختتمها بخاتم الخليفة، فأصبحت بذلك من الأعمال الجليلة المنوطة بالكاتب، خاصة وأن هؤلاء الكتاب كانوا يتولون منصب القضاء قبل تولي خطة الكتابة أو بعد صرفهم عنها.

يصف لنا القلقشندي نظام المحكمة بالمغرب في عهد الموحدين بقوله: "...جرت عادة من له ظلامة أن يرتقب السلطان في موكبه - يعني يوم جلوسه للمظالم - فإذا اجتاز به السلطان صاح بعد لا إله إلا الله أنصرتني نصرك الله، فتأخذ قصته وتدفع لكاتب السر، فإذا عاد جلس في قبة معينة لجلوسه، ويجلس معه أكابر أشياخه مقلدين السيوف، ويقف من دونهم على بعد، مصطفىين متكئين على سيوفهم، ويقرأ كاتب السر قصص أصحاب المظالم وغيرها فينظر فيها بما يراه" 102.

فكان رئيس الكتاب، الذي يسميه صاحب النص؛ كاتب السر، أحد أعضاء جلسة المظالم، هذه الأخيرة التي يشترط فيها الماوردي خمسة أعضاء من الحاكم، والفقهاء للتشاور معهم، والشهود الذين يشهدون التقاضي ويصدقون عدل القاضي، وعصبة القوة، لمنع أخذ المتظلم حقه بالقوة والعنف، والكاتب خامسهم¹⁰³. ولم يكن الكاتب المختص بجلسة المظالم مجرد كاتب نسخ وتدوين، بل كان كاتب السر ورئيس ديوان الإنشاء، وهو الذي يتلقى قصص المظالم، ويقرؤها على الخليفة، حتى إذا أصدر فيها الخليفة حكمه وقّع عليها الكاتب توقيعه بأمر من الخليفة. ومن بين أشهر الكتّاب الذين تولّوا هذه الخطة الكاتب القاضي أحمد بن يزيد بن عبد الرحمان، "فقد تولى قضاء جماعة بمراكش مضافا إلى ذلك خطتي المظالم والكتابة العليا"¹⁰⁴. كما يذكر ابن عذاري أن كتاب الإنشاء يشرفون على كتب التوقيعات وكل ما ترتب عليه وقوع العلامة من وجوه الأوامر¹⁰⁵.

III. رواتب الكتّاب وحالتهم المادية والاجتماعية:

لقد تعددت أوجه الإنفاق في الدولة الموحدية على مختلف المؤسسات المدنية منها والعسكرية و تنوعت، إلا أنه يمكن حصر هذه النفقات؛ فيما كانت تنفقه الدولة على الجيش من مصاريف التجهيز وشراء وسائل القتال وغيره، وكذلك نفقات البناء والتعمير، كما كانت لها نفقات في مجال المنح والهدايا التي كان يبذلها الخلفاء الموحدون لمختلف الجهات الداخلية منها والخارجية؛ وذلك لأسباب اقتضتها سياسة البلاد ومصالح العباد، وهناك نوع رابع من هذه النفقات؛ يتمثل في المرتبات التي كانت تبذلها الدولة لمختلف العمال على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم¹⁰⁶.

تعتبر المرتبات والأرزاق على الوزراء والقضاة والكتّاب والطلبة والفقهاء ثاني وجه من أوجه الإنفاق من بيت المال الموحيدي، فقد ذكر صاحب المعجب أنّ ابن طفيل طبيب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان يأخذ جامكية - أي مرتباً - مع غيره من موظفي الدولة وعمالها¹⁰⁷.

ولم تكن المرتبات على عهد يوسف فقط بل كان الخليفة عبد المؤمن يوزع الأرزاق والمرتبات على العمال والأجناد، ويشرف على ذلك بنفسه، فقد روى ابن صاحب الصلاة أن الكاتب أبا عبد الله بن محسن كاتب ديوان التمييز ومنفذ البركات للموحدين ولسائر الناس من الأجناد والمرتزقين، دخل على أمير المؤمنين بتلخيص زمام تمييز العساكر وفيه زيادة كثيرة على ما تقدم "فقال لي رضي الله عنه: نفذ لهم البركة على ذلك، إنما غرضنا الإحسان إلى الأجناد وأن تظهر عليهم الخيرات والبركات"¹⁰⁸؛ والبركات هنا بمعنى المرتبات وهي بهذا الاسم الجوامك عند المصريين.

كما كانت البركات عند الموحدين تقسم أربع مرات في السنة، إذ كان الموكل بذلك يعمل على تقسيمها في عيد الفطر مرة، وفي الأضحى تفرقة أخرى كذلك، وفي شهر ربيع الأول تفرقة، وفي رجب التفرقة الرابعة، كل ذلك تحت إشراف الخليفة ونظيره، وبالإضافة إلى هذه المرتبات كانت تقدم إلى المستحقين مواساة خارج نطاق الرواتب، وهي غلة تفرق عليهم عند تحصيل الغلات والمحاصيل، وهناك الإحسان كذلك؛ وهو مبلغ من المال، وكل من المواساة والإحسان يفرق على العمال، والأجناد، ومختلف الموظفين مرة واحدة في السنة، ولا يضبطهما قدر معين، وإنما يكون قدر ذلك حسب ما يراه السلطان، وحسب أقدار الناس ومراتبهم¹⁰⁹.

ويبدو أن طبقة الكتّاب ومن كان في مستواهم كانوا يتمتعون بامتيازات مالية عند الخلفاء الموحدين؛ فقد نال الناس في فترة الخليفة أبي يعقوب سعة في نمط معيشتهم وحالتهم المادية، فقد "نال الناس معه في إمارته

وبعد ذلك من جميع الطبقات من الكتّاب والعمال، والطلبة والقضاة والرعية، بصلاح أحوالهم، ونماء أموالهم¹¹⁰، وهذا يدل بوضوح على قيمة المرتبات والهبات التي كان يحظى بها المقربون من موظفي الدولة وعلى رأسهم وأقربهم من الخليفة الوزير والكتّاب، ولذلك كان الكتّاب يسعون دائماً وراء الحصول على تولي خطة الكتابة، وذلك نظراً لما كانت توفره هذه المهنة من الثراء المادي، والنفوذ والجاه والسلطان¹¹¹.

هذا بالإضافة إلى تمتعه بمكانة اجتماعية عالية، وخاصة عند أهل الأندلس، فقد ذكر المقرئ في النسخ عند حديثه عن الكتّاب الأندلسيين وطبقاتهم، أن كاتب الإنشاء كان يحظى بمكانة اجتماعية عالية إلى درجة أنه محط أنظار كل أفراد المجتمع، إذ كان يحاسبه هؤلاء الأفراد على كل تصرفاته الصغيرة منها والجليلة¹¹².

وإذا لم توفر لنا النصوص معلومات عن مرتب الكتّاب بدقة فإن تراجم الكتاب تفصح عن الحالة المادية والاجتماعية المعتبرة التي كان يتمتع بها هؤلاء، فهذا الكاتب محمد بن عبد العزيز بن عياش، كاتب الخليفة الناصر، يترجم له صاحب التكملة بقوله: "... وكان عالماً بها رئيساً في صناعة الكتابة... واستكتبه السلطان بالمغرب فقال دنيا عريضة"¹¹³، كما كان الكاتب عبد الله بن جبل فقيهاً خطيباً مفوهاً وقد نال من خدمة السلطان دنيا عريضة¹¹⁴.

ولقد ترجم صاحب الذيل للكتّاب الشهير أبي عبد الله محمد بن عياش، وذكر قصة له مع الكاتب أبي القاسم البلوي تدل على سعة جاهه ووفير ماله نوردها مع طولها نظراً لأهميتها إذ يقول: "حدثني الشيخ أبو القاسم البلوي قال: كنت أخف إليه، و أشفع عنده في كبار المسائل فيسرع في قضائها. ولقد عرضت لبعض أصحابي من أهل بلاد الأندلس حاجة مهمة كبيرة، وجب علي السعي فيها، والتماس قضائها وفاءً لربها، ولم يكن لها إلا ما قدرته من حسن نظره فيها، ورجوته من جميع أثره في تيسير أمرها، وكان قد أصابه حينئذ التياث لزم من أجله داره، ودخلت عليه عائداً، فأطال السؤال عن حالي، وتبسط معي في الكلام، مبالغاً في تأنيسي، ففجئت ذكر الحاجة ورغبت منه في الشفاعة عند السلطان في شأنها، وكان مضطجماً، فاستوى جالساً وقال لي: جهل الناس قدرتي؟، وكررها ثلاثاً، في مثل هذا أشفع إلى أمير المؤمنين؟ هات الدواء والقرطاس، فناولته إياهما، فكتب برغبتي، ورفعها إلى السلطان فصرف في الحين معلماً، فاستدعاني، ودفعه إلي وقال: يا أبا القاسم، لا أرضى منك أن تحجم عني في التماس قضاء حاجة تعرضت لك خاصة وإن كانت لأحد من معارفك عامة، كبرت أو صغرت، فألتزم قضاءها، وعلي الوفاء، فإن لكل مكسب زكاة، وزكاة الجاه بذله"¹¹⁵.

وإن ما ذكره صاحب الإحاطة عن الكاتب أبي المطرف بن عميرة حول مسألة سلب أمواله إثر سفره من سبتة إلى مكناسة ليدل صراحة على ثراء هذه الشريحة بسبب خدمتها للخلفاء بالكتابة عنهم، فقد سلب منه وهو في طريقه إلى سبتة ما يعدل أربعة آلاف دينار عشرية، وفيها عين وورق وحلي¹¹⁶. كما أن سفره هذا إلى المغرب، الذي سلب فيه ماله ومتاعه لم يكن إلا طلباً للجاه والثروة من خلال البحث عن وظيفة كاتب عند الخلفاء الموحدين¹¹⁷، ولذلك نراه يندب حظه لما صرفه الخليفة الرشيد (630/640هـ) عن ديوان الكتابة إلى القضاء، وكتب إلى صديقه أبي الحسن الرعيني¹¹⁸ في ذلك، شاكياً إليه مصابه في رسالة مذيبة بقصيدة طويلة تفيض بالحزن والأسى، وقد أجابه الرعيني برسالة يواسيه عن تأخيرها عن الكتابة، وذكر خلالها أن الأطماع والرغبة في الثروة هي التي أغرت ابن عميرة بالهجرة إلى المغرب، ومما قاله فيها: "ولحاً الله الأطماع،

فإنها تستدرج المرء وتستجرحه، وتستخرج حين تعرفه ما يسره، ما زالت تقتل في الذروة والذروة، وتختل في الجاه والثروة، حتى أنأت عن الأحباب والحبائب، ورمت بالغريب أقصى المغرب" 119.

كما نجد الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن أحد كتاب السيد أبي زيد لما كان والياً على غرناطة يقوم بإتمام بناء القنطرة التي بنيت على واد شنجيل بخارج غرناطة من صميم ماله بمبلغ قدره أربعة آلاف دينار، كما بنى مسجداً من ماله الخاص قبل ذلك، وما ذلك إلا لثروته الوفيرة بسبب هذه الوظيفة 120.

غير أن هذه الحفاوة والإكرام للكاتب لم تكن سمة جميع الخلفاء، وفي كل الأزمان، إذ أن تقريب الكتاب والشعراء والإغداق عليهم بالأموال والإجازات كان رهين الاستقرار السياسي للدولة، ولم يحظ الكتاب بتلك الامتيازات في حال الاضطراب؛ إذ كان الخلفاء والولاة على الأمصار في تلك الحالات يصرفون اهتمامهم للجند والعناية به، ومثال ذلك ما حدث لابن عميرة الكاتب مع زيان بن مردنيش والي بلنسية لما جفاه ولم ينل عنده حظوة نظراً لاعتناؤه بالجند، وذلك أن بلنسية كانت تعيش في هذه الفترة (628هـ) وما بعدها اضطرابات كبيرة، فقال ابن عميرة في ذلك:

هو ما علمت من الأمير فما الذي تزداد منه وفيه لا يرتاب
لا يتقي الأجناد في أيامه فقراً ولا يرجوا الفنى الكتاب 121

كما روى ابن الأبار حسب ما يورده ابن سعيد من أن زيان احتجم صبيحة بعض الجمع ووهب الحجام مالا فدفع إليه ابن عميرة شعراً يمدحه فلم يجزه، فكتب شعراً لطيفاً في ذلك ارتجالاً يقول فيه:

أرى من جاء بالموسى مؤاسى وراحة من أراح المدح صفرا
فانجح سعي ذا إذ قص شعراً وأخفق سعي ذا إذ قص شعراً 122

وعلى الرغم من هذه الإشارات حول وضعية الكتاب المادية والاجتماعية إلا أن المصادر لا تحدد لنا بشكل مضبوط رواتب هؤلاء الكتاب وأعطياتهم، إلا ما تذكره من أن طبقة الكتاب كانت تحظى برواتب مع باقي موظفي الدولة¹، إما شهرياً حسب ما يورده ابن عذاري²³، أو أربع مرات في السنة على حد قول القلقشندي²⁴.

لقد كان الوزراء و الكتاب ورجال الدولة في البلاط على اختلاف وظائفهم، والحشم وغيرهم من الشعراء و الأدباء و المقربون لهم جرايات ومرتببات يتقاضونها من خزينة الدولة، وإن ما يميز هذه المرتببات أنها كانت غير ثابتة القدر إذ كانت تزيد و تنقص، وكثيراً ما كانت تزيد في عهد الأمراء الأجواد²⁵.

إن الإشارات القليلة حول خطة الكتابة ودواوين الدولة الموحدية لا تسعف الباحث لوضع صورة متكاملة ومتأسقة عن هذه الخطة وترتيباتها الإدارية، إلا أن الباحث والقاريء على حد سواء إذا ما نظر الى التوسع السياسي والعسكري للإمبراطورية الموحدية وذلك التنسيق المحكم بين رجالاتها في الولايات والأمصار يستشف مدى تطور هذه الخطة ومدى اعتناء سلاطين الدولة بها، كما يدل على هذا الاعتناء ذلك الثبت الهائل للكتاب الذين خدموا البلاط الموحيدي سواء في العاصمة أو في الولايات، ويضاف الى ذلك كشاهد على تطور وتنظيم هذه الخطة ذلك الكم الهائل من الرسائل الديوانية التي خلفها كتاب الدولة الموحدية.

الهوامش:

- ¹ - ابن منظور الافريقي، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرمة، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، ط6، 1417هـ/1997م، ج1، ص: 697.
- ² - القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، الهيئة المصرية للكتاب، 1405هـ/1985م، ج1، ص: 51.
- ³ - ابن الاثير، مجد الدين ابي السعد المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والاثار، تح: محمود الطناحي، دار احياء الكتب العربية، بيروت، ج6، ص: 1.
- ⁴ - سميح عاطف الزين، تفسير مفردات الفاظ القرآن الكريم، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط3، 1414هـ/1994م، ص: 735.
- ⁵ - القلقشندي، المصدر السابق، ج1، ص: 54.
- ⁶ - ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص: 180. القلقشندي، ج1، ص: 53.
- ⁷ - النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، نهاية الارب في فنون الادب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2004م، ج7، ص: 5.
- ⁸ - عبد القادر بن احمد الاطرش، النثر الديواني عند لسان الدين بن الخطيب، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1404هـ/1982م، ص: 128.
- ⁹ - ابن خلدون، العبر، ج1، ص: 249.
- ¹⁰ - ومن تلك المصنفات: ادب الكاتب لابن قتيبة (ت270هـ)، الوزراء والكتاب للجيشياري (ت331هـ)، ادب الكاتب للصولي (ت335هـ)، الكتاب لابن دستورية (ت346هـ)، وكتاب الصناعتين الكتابة والشعر للعسكري (ت395هـ)، والاحكام السلطانية للماوردي (ت450هـ)، وسراج الملوك للطوطوشي (ت520هـ)، وقانون ديوان الرسائل لابن الصيرفي (ت550هـ)، وقوانين الدواوين لابن مماتي (ت606هـ)، ومعالم الكتابة لابن شيث القرشي (ت625هـ)، والمثل السائر في ادب الكاتب والشاعر لابن الاثير (ت637هـ)، وحسن التوسل في صناعة الترسل للحلي (ت725هـ)، والتعريف بالمصطلح الشريف للعمري (ت749هـ)، ورونق التعبير في حكم السياسة والتدبير للعالمي، وموسوعة صبح الاعشى في صناعة الانشا للقلقشندي (ت721هـ)، ونهاية الارب للنويري (ت733هـ) وغيرها من المصنفات.
- ¹¹ - للقيام بتلك المراسلات اتخذ المهدي في بداية امره كاتبين من أعضاء العشرة أهل الجماعة، أحدهما: أبو الربيع سليمان الحضرمي، الذي توفي في معركة البحيرة (524هـ)، والآخر: ملول بن إبراهيم بن يحيى الصنهاجي، الذي آوى المهدي بينه وبين قبيلة هرغة. البيدق، أبو بكر الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تح: ليفي بروفنسال، طبعة باريس، 1928م، ص: 33، 39.
- ¹² - الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1981م، ص: 83.
- ¹³ - فهذا يحيى بن الناصر (624هـ/1226م) لما خرج على عمه الخليفة أبي العلاء المأمون ابن المنصور (624-630هـ/1226-1232م) كتب يستجلب الناس لطاعته وقد اتخذ كاتباً اسمه أبا الحسن السرقسطي. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تح: إبراهيم الكتاني، محمد بن تاووت الطنجي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب ط1، 1406هـ/1985م، ص: 282.
- ¹⁴ - المراكشي، المصدر السابق، ص: 293.
- ¹⁵ - كما هو في مجموع رسائل بروفنسال ومجموعة الرسائل الجديدة للعزاوي.

- ¹⁶ - شروط الكاتب معددة في كل من: القلقشندي، صبح الاعشى، ج1، ص: 61- 100. المرادي، أبو بكر محمد بن الحسن، الإشارة إلى أدب الإمارة، تح: رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1981 ص: 105- 108. العاملي، رونق التعبير في حكم السياسة والتدبير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، تح: سليمان القرشي، ط1، 1424هـ/2004م، ص: 41، 42. المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1: 1419هـ/1998م، ج1، ص: 280، 203. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب، مطابع كست تسوماس وشركائه، القاهرة، ج7، ص: 32.
- ¹⁷ - هوالكاتب الأموي الشهير: عبد الحميد بن يحيى بن سعد، ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص: 228.
- ¹⁸ - محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ق2، عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية: 1411/1990م، ص: 646. حسن علي حسن، المرجع السابق، ص: 114، 115.
- ¹⁹ - محمد بن شريفة، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره، مطبعة الرسالة، الرباط، المغرب، دط، 1385هـ/1966م، ص: 181.
- ²⁰ - البيان المغرب، قسم الموحدين ص: 32.
- ²¹ - المراكشي، المعجب، ص: 268.
- ²² - ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي، المن بالإمامة، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1987، ص: 111، 328.
- ²³ - ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار المعرفة الدار البيضاء، المغرب، دط، 1415هـ/1995م، ج3، ص: 47.
- ²⁴ - ابن عبد الملك، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة تح: محمد بن شريفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 1984، ج8، ص: 267.
- ²⁵ - المقري، نفح الطيب، ج3، ص 143. عبد العزيز سالم، تاريخ والمؤرخين العرب، دار الكتاب العربي، للطباعة والنشر دط، 1997، ص: 220. وله نماذج بديعة في نظم الشعر ذكر نبذا منها ابن الأبار في التكملة، ج3، ص: 98.
- ²⁶ - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1424هـ/2003م، ج2، ص: 223، 224.
- ²⁷ - ابن الأبار التكملة، ج1، ص: 131، 132.
- ²⁸ - ابن سعيد المغربي، علي بن موسى بن عبد الملك، المغرب في حلى المغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ/1997م، ج1، ص: 190.
- ²⁹ - ج4، ص: 337.
- ³⁰ - ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الخامس، ص: 88- 101.
- ³¹ - ابن عبد الملك، نفسه، السفر الخامس، ص: 188.
- ³² - ابن الأبار، التكملة، ج3، ص: 212. و المقتضب من كتاب تحفة القاد، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط3، 1410هـ/1989م، ص: 51. ابن الزبير، أبي جعفر أحمد، صلة الصلة، تقديم بروفنسال، مكتبة خياط، بيروت، لبنان، ص: 91.
- ³³ - ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج5، ص: 106- 110.

- 34- عن حياته بصفة تفصيلية انظر البحث الذي قام به محمد بن شريفة تحت عنوان "أبو المطرف ابن عميرة المخزومي، حياته وآثاره"
- 35- مقدمة كتاب **كائنة ميورقة** لهذا الكاتب بتحقيق: محمد بن معمر، منشورات الأديب، الجزائر، الطبعة الأولى: 2006، ص: 7. وانظر المقال الذي نشره نفس المحقق: محمد بن معمر، نظرة في **مخطوط كائنة ميورقة**، مجلة التراث الإسلامي، دمشق، سورية، عدد: 98، جمادي الأولى 1426هـ/2005م.
- 36- الغبريني، أبو عباس أحمد بن أحمد، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981م، ص: 250.
- 37- ابن سعيد المغربي، المغرب ج2، ص: 363.
- 38- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 63.
- 39- الغبريني، المصدر السابق، ص: 251.
- 40- وهو مخطوط قام بتحقيقه مؤخرًا أستاذنا الدكتور محمد بن معمر، في إطار تحقيق ونشر المخطوطات التي يعمل على فهرستها مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، بجامعة وهران.
- 41- ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج1، ص: 89.
- 42- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 184.
- 43- ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج1، ص: 85. محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص: 300.
- 44- الغبريني، المصدر السابق، ص: 253.
- 45- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 159.
- 46- ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج5، ص: 32.
- 47- ابن القطان، نظم الجمان، مقدمة المحقق، ص: 47.
- 48- ابن سعيد المغربي، المغرب، ج2، ص: 309.
- 49- الغبريني، المصدر السابق، ص: 183.
- 50- مثل أبي بكر بن طفيل الذي خدم أمراء الموحدين وكتب عنهم. المراكشي، المعجب، ص: 311- 314.
- 51- ابن القطان، نظم الجمان، ص: 173.
- 52- ابن صاحب الصلاة في ترجمته، للكاتب أي العباس ابن سيد المالقي قوله: "...درس النحو و الأدب كثيرا، وكان شاعرا كاتباً بليغاً، ...ثم صار إلى مراكش، فأدب بني عبد المؤمن" المن بالإمامة، ص: 76.
- 53- المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص: 202، 203.
- 54- المراكشي، المعجب، ص: 269، 316، 317، 338، 391، 405. ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 254.
- 55- المراكشي، المعجب، ص: 317. ومعنى كتابة الإنشاء أنها معرفة بالإضافة: أي بإضافة الكتابة إلى كلمة الإنشاء، وهي من مصدر أنشأ الشيء إذا ابتدأه واخترعه على غير مثال يحتذيه، ومعنى ذلك أن الكاتب اخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعاني فيما يكتبه، أو أنها نسبة إلى أن المكاتبات الرسمية تنشأ عنه ابتداء. القلقشندي، ج1، ص: 52.
- 56- الغبريني، المصدر السابق، ص: 83. كما نجد القلقشندي يعطيه نفس اللقب، صبح الاعشى، ج5، ص: 139. غير أن القلقشندي كما هو معروف كاتب مشرقي، وكثيراً ما يتحدث بمصطلحات المشاركة في هذا الباب، ومن ثم لا يمكن التعميل على تسميته للكاتب بهذا اللقب عند الموحدين بصفة قطعية.
- 57- العاملي، رونق التعبير، ص: 40. وربما يقصد بذلك تدبير شؤون السلطان الإدارية من تحرير الرسائل الرسمية والإشراف على دار الإنشاء وصغار الكتاب، بل وحتى مشاركة السلطان في عظام المهمات ومشاورته في ذلك.

- ⁵⁸ - الذيل و التكملة، ج5، ص: 633. وهذه التسمية لا تحمل صبغة اصطلاحية للقب كاتب الخليفة بقدر ما توجي بوظيفته من خلال رئاسته لديوان الإنشاء ومن فيه من صغار الكتّاب، فدعت كثرة الكتّاب في حضرة الخليفة إلى تمييز كاتب الخليفة عن غيره من المساعدين بلقب رئيس الكتّاب.
- ⁵⁹ - التكملة، ج1، ص: 102، 103. وهي الكتابة عن السلطان مباشرة، أي أن صاحبها هو كاتب الخليفة ونديمه الذي يمتاز بمرافقته، فكتابه غير الكتابة التي يقوم بها صغار الكتّاب ولذلك ميزت كتابته عن غيرها بالكتابة العليا.
- ⁶⁰ - الإحاطة، ج4، ص: 3.
- ⁶¹ - نفح الطيب، ج1، ص: 202، 203.
- ⁶² - لذلك كان أغلب الكتاب في صدر الدولة ممن خدم المرابطين أو الحماديين أو خدم دويلات الطوائف. عز الدين عمر موسى، المرجع السابق، ص: 163.
- ⁶³ - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص: 622.
- ⁶⁴ - فمثلاً نجد الكاتب ابن عبد ربه حفيد صاحب العقد الفريد، كان كاتباً مختصاً بالوالي السيد أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد صاحب بجاية وسجلماسة، ثم أصبح كاتباً للخليفة أبي يعقوب المنصور الموحي، كما كتب الطبيب المشهور أبو بكر ابن طفيل للسيد أبي سعيد والي غرناطة وكان من أهم وأبرز كتّابه، ثم أصبح من بين كتّاب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ورئيس أطبائه، كما نجد الكاتب أبا عبد الله ابن عيَّاش قد كتب عن المنصور ثم ابنه الناصر فحفيده المستنصر، وكان يخدم قبل ذلك الرشيد أبا حفص بن يوسف بن عبد المؤمن، فلما سخط على الرشيد أخوه المنصور وضرب عنقه، طلب أصحابه، وكان ابن عيَّاش في جملتهم فاقتفى مدة وقاسى شدة وقال في ذلك أبياتاً كانت سبب استكتاب المنصور له بعد أن وقف عليها وعفا عنه بسببها، ومن بين أبرز الأمثلة على تدرج الكتّاب للوصول إلى الحضرة كتابة ابن الأبار وزميله أبي المطرف ابن عميرة إذ كتباً لأبي زيد والي بلنسية، ثم كتباً بعد ذلك للخليفة الرشيد الموحي. انظر: المراكشي، المعجب، ص: 375. ابن سعيد، المغرب، ج2، ص: 66، 67، 69. محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص: 87.
- ⁶⁵ - البيدق، المصدر السابق، ص: 37. المراكشي، المعجب، ص: 296، 317. ابن سعيد، المغرب، ج2، ص: 156. ابن الأبار، المقتضب من تحفة القادم، ص: 177. أحمد العزاوي، المرجع السابق، ج1، ص: 19.
- ⁶⁶ - ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص: 252.
- ⁶⁷ - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 185. وأنظر حول تنظيم الكتّاب لوفود الشعراء المراكشي، المعجب، ص: 387.
- ⁶⁸ - ومن بين من كتب للوالي لبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن: أبو إسحاق بن فرقد، كما كتب له الرحالة الشهير ابن جبير الكناني، والكاتب أبو الحسن ابن الهردوس، كما استخدم لكتابه الكاتب والشاعر الكبير أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي، واختص به كذلك الفيلسوف والأديب الكاتب أبو بكر ابن طفيل القيسي وكتب له وقتاً، والكاتب أبو محمد عبد الغني بن طاهر والكاتب أبو بكر بن عبد الرحمان بن أبي الحسن بن مسعدة. انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 191، 244. / ج2، ص: 146، 334. ابن الأبار، التكملة، ج2، ص: 131. / ج3، ص: 421. المقتضب، ص: 107، 125، 140. ابن سعيد، المغرب، ج2، ص: 89، 185، 311. الحلل الموشية، ص: 151. المقرئ، النفع، ج3، ص: 12. ابن إدريس، زاد المسافر وغرة محي الأدب السافر، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1980م، ص: 28. كما اختص السيد أبا حفص عمر بن عبد المؤمن، والي تلمسان بعض أعلام الكتّاب ومشاهيرهم، وعلى رأسهم الفقيه الكاتب أبو الحسن عبد الملك بن عيَّاش، كما كتب له أحد مشاهير الكتّاب وأحذقهم ألا وهو محمد ابن إبراهيم ابن خيرة، والكاتب أبو القاسم ابن المواعيني. التكملة، ج2، ص: 43. الذيل والتكملة، ج5، ص: 642.

- 69- المراكشي، المعجب، ص: 293.
- 70- ابن عذاري، البيان، ص: 50، 92، 93. الحلل الموشية، ص: 151. وروض القرطاس، ص: 194. الناصري، أبو عباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر ومحمد ابني المؤلف، دار الكتاب الدار البيضاء، المغرب، دط، 1955، ج2، ص: 123.
- 71- الزركشي، الأعلام، ص: 18.
- 72- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ق2، ص: 642.
- 73- ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 173، 217.
- 74- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ق2، ص: 638.
- 75- عصمت دندش، المرجع السابق، ص: 150.
- 76- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 363.
- 77- ابن عذاري، البيان، ص: 170. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 138، 139.
- 78- كثيرا ما تتردد كلمة التمييز في المصادر الموحدية وخاصة عند إقدام الجيش على المعارك، والتساؤل المتبادر هو هل هذا التمييز الذي كان يقوم به الجيش عند كل غزوة هو نفسه الذي أحدثه ابن تومرت في البداية، والذي قام به البشير الونشريسي إذ "كان يخرج المخالفين والمنافقين والخبيثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب...فمات يومئذ من الناس قتلا خمس قبائل"، البيدق، أخبار المهدي، ص: 59. أم أن هذا التمييز هو غير ذلك؟ إننا نجد في المراجع التي نتحدث عن هذا التمييز بعض الاختلاف، إذ يرى البعض أنه نفس التمييز الذي أحدثه المهدي، ثم اتخذ عادة جرى عليها الموحدون منذ عهده، وكل من ميز وثبت توحيده عدّ موحدا، وسجل في سجل خاص في العاصمة والنواحي⁷⁸، إلا أن النصوص الواردة في عملية التمييز العسكري توحى بخلاف ما قام به المهدي من "الميز"، وأنه لا علاقة له به، وإنما المقصود به اختيار الصفوة من الجند قبيل كل غزوة يقبل عليها الموحدون. أحمد العزاوي، المرجع السابق، ج2، ص: 232. وهو يقابل ما يسمى باستعراض الجيوش في المشرق. الحلل الموشية، ص: 131.
- 79- الزمام هو السجل الذي تدون فيه إحصائيات الجند وغيرها في الديوان.
- 80- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 347.
- 81- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ق2، ص: 638.
- 82- القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص: 144.
- 83- كالعباسيين، والاختشيديين في المشرق. والمرابطين في المغرب. الحلل الموشية، ص: 78. وينظر أيضا: محمود مصطفى، الأدب العربي بمصر من الفتح إلى نهاية العصر الأيوبي، دار كتاب العربي للطباعة والنشر، دط، 1387هـ / 1967م، ص: 133، 190. محمد رضوان الداية، الأدب الأندلسي والمغربي، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، سوريا، دط، 1400هـ / 1980م، ص: 33.
- 84- ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص: 253.
- 85- ترجمته في: ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 127 وما بعدها. الحلة السيرة، ج2، ص: 194، 238. المقرئ، النفح، ج6، ص: 154. ابن سعيد المغربي، المرقصات المطربات، ص: 17. ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص: 225. ابن خلدون، العبر، ج6، ص: 274.
- 86- المراكشي، المعجب، ص: 266، 267.
- 87- محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ق2، ص: 396.

- ⁸⁸ - يقسم الماوردي الوزارة إلى قسمين: وزارة تنفيذ ووزارة تفويض، فاختص وزير التنفيذ بتنفيذ أوامر الخليفة الذي يشرف على جميع تصرفاته وأعماله، واختص وزير التفويض بتدبير شؤون الدولة تبعاً لرأيه وسلطته بتفويض من الخليفة نظراً لنفوذه، الماوردي، المصدر السابق، ص: 22- 29.
- ⁸⁹ - تتمثل صيغة البيعة التي يلقيها الكاتب على الجموع في: "تبايعون أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة في المنشط والمكروه واليسر والعسر، والنصح له ولولائه وعامة المسلمين، هذا ما له عليكم، ولكم عليه ألا يجمر بعوذك وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته، وأن يجعل لكم عطائكم، وألا يحتجب عنكم، أعانكم الله على الوفاء، وأعانه على ما تقلد من أموركم"، وكانت هذه الصيغة نفسها التي عمل الكاتب أبو عبد الله بن عباس بها لما قام بمراسيم إلقاء مبايعة الخليفة أبي يعقوب يوسف ابن محمد المستنصر بالله . المراكشي، المعجب، ص: 407. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 94، 95.
- ⁹⁰ - ابن المعلم، أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد، كان في فترة عبد المؤمن ومعظم أيام ابنه يوسف مشرفاً على الأعمال بإشبيلية، إلى أن كانت سنة 573هـ فانتقم منه لما انتقد عليه من أخبار شنيعة وأحوال فضيعة، وأمر بسجنه وصودرت أمواله، وضرب بعد محنة طويلة عنقه. ابن عذاري، البيان المغرب، ص: 104. ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 310، 311، 320، 363.
- ⁹¹ - ابن عذاري، البيان المغرب، ص: 224، 225.
- ⁹² - ابن عذاري، المصدر نفسه، ص: 51.
- ⁹³ - هوالفونسو السابع صاحب طليطلة عاصمة قشتالة، وهو الذي يحمل اسم روموندس، توفي في 13 رجب 552هـ/21 غشت 1157م، حسب المصادر النصرانية، إثر اشتباك مع الموحدين تأثراً بجراحه. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 1424هـ/2004م، ص: 331. يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1417هـ/1996م، ج1، ص: 231، 233، 258، 259.
- ⁹⁴ - ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 56.
- ⁹⁵ - نفسه، ص: 371. وهؤلاء الكتاب الثلاثة يعدم ابن عذاري في كتاب الجيش عند حديثه عن كتاب الخليفة السعيد.
- ⁹⁶ - ابن عذاري، البيان المغرب، ص: 254.
- ⁹⁷ - ابن صاحب، المن بالإمامة، ص: 138، 139.
- ⁹⁸ - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 311.
- ⁹⁹ - عز الدين عمر موسى، المرجع السابق، ص: 167، 168.
- ¹⁰⁰ - أبو محمد عبد الله بن جبل، من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان، الفقيه الخطيب، صاحب أبي الحسن ابن الإشبيلي، يذكره ابن صاحب الصلاة من بين الكتّاب الموحدين، والمراكشي من قضائهم، أنظر المن بالإمامة، ص: 163. المعجب، ص: 229.
- ¹⁰¹ - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 95. ابن القطان، نظم الجمان، ص: 210، 212.
- ¹⁰² - القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص: 206.
- ¹⁰³ - الماوردي، المصدر السابق، ص: 80.
- ¹⁰⁴ - ابن الأبار، التكملة، ج1، ص: 102، 103.
- ¹⁰⁵ - ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 254.
- ¹⁰⁶ - حسن علي حسن، المرجع السابق، ص: 209.

-
- 107- المراكشي، المعجب، ص: 312. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 217.
- 108- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 347.
- 109- القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص: 141.
- 110- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 168.
- 111- محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص: 85.
- 112- المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص: 179.
- 113- ابن الأبار، التكملة، ج2، ص: 166.
- 114- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 156. ابن الأبار، التكملة، ج2، ص: 304.
- 115- ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج6، ص: 384. ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص: 338.
- 116- ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص: 185.
- 117- ابن عبد الملك، المصدر نفسه، ج1، ص: 91.
- 118- ترجمته في: الإحاطة، ج4، ص: 139. الذيل والتكملة، ج8، ص: 12- 14.
- 119- محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص: 125.
- 120- الإحاطة، ج3، ص: 159- 161.
- 121- المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص: 295. محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص: 95.
- 122- المراكشي، المعجب، ص: 312. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 217. محمد عبد الله عنان، المرجع السابق،
ق2، ص: 646.
- 123- ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 65.
- 124- القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص: 141.
- 125- يوسف أشباح، المرجع السابق، ج2، ص: 249.

النظام المالي الجبائي عند المرابطين وأثره السياسي

نظام القبالات نموذجا

أ/ طويلب عبد القادر، جامعة تيارت

تتجه الدراسات الحديثة في التاريخ الاسلامي خاصة، إلى الجانب الاقتصادي والاجتماعي، بعيدا عن التاريخ السياسي وتاريخ الحكام في العالم الاسلامي عبر مختلف العصور. ومن بين هذه الحقب التاريخية التي تحتاج إلى الدراسة الاقتصادية والاجتماعية، والتي هي مجال بكر لمثل هذه الدراسات، حقبة دولة المرابطين بالمغرب والأندلس. هذه الدولة التي تأسست بالمغرب الإسلامي، وكان لها دور بارز بالمنطقة في جميع المجالات، السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وامتد نفوذها حتى الأندلس فأثرت فيه كما تأثرت به. وفي هذا البحث، أحاول التطرق إلى جانب من الجوانب الأساسية في بناء الدولة، وهو النظام الاقتصادي، خاصة جانب الموارد التي اعتمدت عليها في الحصول على الأموال لبيت المال أو خزانة العامة، وبالتحديد نظامها الجبائي، وكمورد لذلك، القبالات أساسا. وعليه، كيف كان نظام القبالات عند المرابطين؟

و للإجابة على هذا السؤال لابد من تتبع مراحل تطور القبالات من نشأة الدولة المرابطية إلى سقوطها، من خلال تتبع سياسة قائدهما الروحي عبد الله بن ياسين، وأميرها يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة وخليفته علي بن يوسف بن تاشفين.

1. السياسة المالية لدولة المرابطين في عهد عبد الله بن ياسين:

يعتبر الفقيه عبد الله بن ياسين المؤسس للدولة المرابطية وقائدها الروحي في بداية نشأتها. وبما أن التأسيس كان على المبدأ الديني والإلتزام بأحكام الشريعة الإسلامية، فإن عبد الله بن ياسين بعد خروجه بالملتزمين من رباطه للغزو، بين الهدف من هذا الخروج وهو القضاء على الضلالات المنتشرة بين القبائل البربرية من صنهاجة وغيرها في الجنوب وكذلك في الشمال في سجلماسة وفاس ..، والجهل بأحكام الدين، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يبين الأساس والمبدأ المالي الذي تقوم عليه هذه الدولة ودعوتها في جبايتها للأموال، وهو الإلتزام بمبدأ الشرع: أي لا يحصلون من الأموال إلا ما أوجبه كتاب الله وسنة رسوله وما ورد فيهما من أحكام بشأن الأموال، ولهذا عندما افتتح عبد الله بن ياسين سجلماسة، غير المنكرات، وألغى كل المغارم والرسوم والضرائب التي لم يرد بها نص من كتاب أو سنة⁽¹⁾ ويؤكد هذا الكلام ما أورده ابن أبي زرع عن عبد الله بن ياسين حيث يقول: «و أزال المكوس وأسقط المغارم»، وترك ما أوجب الكتاب والسنة تركه...»⁽²⁾ وكذلك ابن خلدون نجده يذكر نفس الخبر والتأكيد على السياسة التي تبناها عبد الله بن ياسين في جباية الأموال فيقول: «و قصدوا سجلماسة فدخلوها غلابة و قتلوا من كان بها من أهل مغراوة، و أصلحوا من أحوالها و غيروا المنكرات، و أسقطوا المغارم والمكوس، واقتضوا الصدقات...»⁽³⁾ فكان خير قدوة يحتذى به المرابطين في سياسة الدولة، و لم يكتف بذلك بل نجده يقسم الأسلاب فيئنا بين جنود الرابطين، وهو في السوس يسقط المغارم

و لا يجبي إلا زكاة المال و خراج الأرض، وبالتالي يؤلف القلوب، و يهيئ بداية مضمونة لإمبراطورية الصحراء الناشئة.⁽⁴⁾

و هذه السياسة المالية التي اتبعها عبد الله بن ياسين جاءت نتيجة الأوضاع التي كانت سائدة ببلاد المغرب قبل قيام دولة المرابطين، من جور الحكام و عسفهم، و تنكبهم عن الطريق السوي و إقبالهم على الرعية بقصد ابتزاز أموالهم، مما جعل الناس تزهد فيهم و تتطلع إلى من يخلصها مما تعانيه من ظلم و اضطهاد، و قد تفنن ولاة الأمر في فرض هذه المغارم، فمن مكوس إلى معونة إلى قبالات إلى تقسيط، بل أمعنوا في ظلمهم و بغيهم، فجبوا الخراج من الأرض التي أسلم أهلها، فتركت على أن يدفعوا ضريبة العشر، و من الأرض التي وزعت على الفاتحين على شرط أن تعفى من الخراج اكتفاء بالعشر. هذه الظروف هي التي دفعت عبد الله بن ياسين إلى رفع هذه المظالم و إعفاء الناس من هذه الضرائب الجائرة، و يزيح عنهم ما كانوا ينوءون به من ضرائب ظالمة جائرة.⁽⁵⁾

و كانت لهذه السياسة التي انتهجها عبد الله بن ياسين و الإصلاحات التي قام بها، أثرها الطيب في تاريخ المرابطين، إذ أخذ سكان المغرب يتطلعون إلى هذه القوة الناشئة، لإنقاذهم مما هم فيه من جور و عسف، فتعاطفوا مع المرابطين و استقبلوهم بالترحاب، كما سارعوا إلى الانضمام إلى صفوف قوات جند المثلثين.⁽⁶⁾

و كانت تعتمد خزانة الدولة في هذه الفترة على الموارد التي أقرها الكتاب والسنة في نظامه المالي من زكاة، و غنائم و فَيءٍ بالإضافة إلى العشر من أهل الذمة الذين يتاجرون في بلاد المسلمين، و الجزية و هي الضريبة على الرؤوس تفرض على أهل الكتاب الذين يعيشون في بلاد الإسلام. و طهر بيت المال من الضرائب غير الشرعية من جبايات و مغارم.⁽⁷⁾ كان هذا هو مذهب عبد الله ابن ياسين الذي أنشأه و استند عليه في إقامة دعوته المرابطية مستمدا أحكامها من الشريعة الإسلامية ملتزما بمذهب الإمام مالك و رواياته، خاصة فيما يتعلق بجباية الأموال.⁽⁸⁾

2. السياسة المالية للمرابطين في عهد الأمير يوسف بن تاشفين:

تولى يوسف بن تاشفين إمارة الدولة المرابطية بعد أن تنازل له ابن عمه أبو بكر عنها. و سار إلى الجنوب ليوصل عملية الفتح في السودان الغربي و نشر الإسلام بين أهلها، بعدما تأكد أن لا جدوى من منازعة يوسف على الإمارة بعدما رأى منه الحرص عليها. كما أنه كان أقدر على المهمة التي أوكلها إليه، و هي إقامة دعائم الدولة المرابطية، حتى أن يوسف ابن تاشفين يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة بعد أن وسع رقعتها، و وطد أركان سلطته، و دانت له أرض المغرب كله، و امتد سلطانه إلى الأندلس الذي أعاد له توازنه بعد حرب الاسترداد التي شنها القشتاليون بقيادة ألفونسو المحارب إلى حين، خاصة بعد معركة الزلاقة سنة 479هـ.

أما سياسة ابن تاشفين فكانت إقامة دعائم الدولة الجديدة و تنظيم أمورها في جميع المجالات، سياسيا واقتصاديا، و خاصة جانب الموارد المالية لبيت المال وكيفية الحصول على المال وجبايته و جمعه، فكيف كانت هذه السياسة و ما هي أبرز سماتها في العدوتين المغرب والأندلس؟

إن أول ما بدأ به الأمير يوسف بن تاشفين في بداية فترة حكمه، هو إقامة تراتيب الدولة و نظمها، فلقد بدأ بإنشاء الدواوين، أي ديوان الرسائل أو ديوان الإنشاء، وثنى بديوان الجند، بمعنى تحويل العساكر المتطوعة إلى

جند منظم، تسجل أسماؤهم في قوائم أصحاب الرواتب الشهرية المنتظمة.⁽⁹⁾ وإذا كان النص السابق الذي يورده ابن عذارى لا يشير إلى ديوان المال و الخراج، فإن النص على طاعة البلاد له تعني الخضوع للنظام الضرائبي الذي هو من أعمال السيادة بالنسبة للدولة، و ذلك بفضل الجيش الذي نظمته و أعده لمهمة الفتوح وبسط النفوذ المراتبي في المنطقة، على القبائل و البلدان، الأمر الذي يعني إقرار السلام المراتبي في تلك البلاد، و قبولهم دفع الضرائب المقررة. وهذا ما يميز عادة دولة أهل الحضرة المستقرين عن دولة أهل البادية من الرعاة الرحل.⁽¹⁰⁾

و كان ابن تاشفين متأثراً بالسياسة التي سلكها سلفه الفقيه عبد الله بن ياسين، الزعيم الروحي للمرابطين، الذي رسم الخطوط العريضة للسياسة المالية للدولة. لذا نجد الأمير يوسف ابن تاشفين لا يحيد عنها في بداية أمره، ويلتزم بتحصيل ما تجيزه الشريعة من الفروض من زكاة و عشور وأخماس الغنائم وجزية أهل الذمة.⁽¹¹⁾

و في ذلك يقول "ابن أبي زرع" في "روض القرطاس" : « و لم يجد في بلد من بلاد، و لا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس و لا معونة و لا خراج لا في حاضرة و لا في بادية إلا ما أمر الله تعالى به و أوجبه حكم الكتاب و السنة من الزكاة و العشر و جزيات أهل الذمة و أخماس غنائم المشركين. »⁽¹²⁾ و لا قبالات بعد أن رفعها عن الرعية استجابة لندائها، و خصوصا في الأندلس،⁽¹³⁾ الذين كانوا يعانون كثيرا من الضرائب الجائرة الباهظة التي كانت تثقل كاهلهم، فالتمسوا من يوسف بن تاشفين يطلبون منه رفع هذه الضرائب، و يلتزموا ما أمر به الشرع و لا يجمعوا إلا ما قضى به القرآن.⁽¹⁴⁾

و هذه السياسة التي اتبعها يوسف بن تاشفين في جبايته للأموال بالتزامه لأحكام الشرع وعدم التعدي فيها، قد أثمرت نتائج طيبة على بيت المال بأن فاضت خزانة الأمير رغم قلة موارده، فانتشر الرخاء و عم اليسر، وأصبح الأمراء يقدقون الأموال على الفقهاء و العلماء، و على وجوه البر، ينشئون المساجد و ينفقون في سبيل الله، كما أحسن السير في الرعية.⁽¹⁵⁾ و في ذلك يذكر "ابن أبي زرع" في "روض القرطاس" قوله : « .. وجبى في ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجبه أحد قبله، يقال أنه وجد في بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربيع من الورق و خمسة آلاف و أربعون ربيعا من دنانير الذهب المطبوعة. »⁽¹⁶⁾ واتخذ للمال الذي كان يجمعه قسبة صغيرة يختزن فيها ما كان يجبيه بمراكش.⁽¹⁷⁾ هذا من جهة، كما أثمرت آثارا طيبة على الرعية من جهة أخرى، إذ بإلغاء الضرائب و المكوس، عم الرخاء و الرفاهية بين الأفراد و أقبلوا على التجارة و العمل، مما ساهم في نمو الحياة الاقتصادية للدولة ككل.⁽¹⁸⁾ بالإضافة إلى أنها كانت سياسة ناجحة في جذب سكان المغرب إليهم، إذ لم يتعود المغاربة على حكم يتماشى مع تعاليم الإسلام من قبل، فالتفوا حول المراتبين.⁽¹⁹⁾ و كذلك الأمر في الأندلس. و لا نكون مبالغين إذا قلنا، إن هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة كانت من أهم العوامل التي مهدت لهم السبيل، و فتحت أمامهم أنواع القلاع و الحصون على مصارعها، إذ رأوا فيها، وظهروا لهم بمظهر المنقذ بعدما عانوا ألوانا من الظلم و الجور من ملوك الطوائف في جباية الأموال.⁽²⁰⁾

إلا أن هذه السياسة لم تدم طويلا في الدولة المراتبية، إذ سرعان ما تغيرت طريقة جباية الأموال و الموارد التي تحصل منها. و كان ذلك لعدة أسباب، منها عدم كفاية الموارد المعتمدة و تواضع دخلها، و لم تعد تلبي مطالب و احتياجات الدولة الجديدة، وذلك لكثرة الإنفاق و اتساع نطاقها، إضافة إلى الحروب التي دخلت فيها

خاصة في الأندلس لمواجهة خطر النصارى، ومن قبل في بلاد المغرب ضد القبائل البربرية التي رفضت الإذعان لسلطان المرابطين في المنطقة. حيث تذكر المصادر التاريخية أن يوسف بن تاشفين لجأ إلى فرض ضرائب ورسوم جديدة على الرعية في كل البلاد التي كانت تحت يده (في العدوتين)، فأرسل إلى عماله بجميع كور الأندلس يطلب منهم ضرورة فرض ضريبة تسمى "المعونة" وذلك للمساهمة في الجهاد، إلا أنها جوبهت بالرفض خاصة في ألمرية من طرف قاضيه أبا عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن الفراء الذي عارضه فيها وأبلغه أنها غير جائزة ما دام بيت مال المسلمين فيه ما يكفي للإنفاق على الحملات العسكرية الموجهة ضد النصارى.⁽²¹⁾

و لم يتوقف الأمر بالأمير عند هذا الحد، بل نجده يفرض على اليهود الذين تركزوا في ضاحية اليسانة (Lucena) ولاية غرناطة، و الذين كانوا أثرياء، ضريبة ثقيلة،⁽²²⁾ وقد فرضت هذه الضريبة بإشارة من أحد فقهاء قرطبة إلى الأمير ابن تاشفين سنة 464هـ/1071م. و ذلك أن اليهود ألزمت نفسها الدخول في الإسلام على رأس المائة الخامسة إذا لم يظهر نبي آخر الزمان منهم، و حتى يجدوا حلا لهذا الإشكال دفعوا هذه الضريبة و لا يدخلوا في الإسلام،⁽²³⁾ و اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية و نيف على ثلاثة عشر ألف دينار.⁽²⁴⁾ و هذا المبلغ الذي جمعه ابن تاشفين لا يبرره إلا الأعمال الضخمة القائمة وقتئذ، من إنشاءات حضارية وأعمال حربية، و كذلك يفسر قصة كنوز الذهب والفضة و الجواهر التي اكتشفتها زينب النفزاوية في سراييب دار الأمير أبي بكر، حسب ما يرى زغلول في كتابه عن المرابطين⁽²⁵⁾.

و قد علق "رينهت دوزي" على هذه الضريبة التي فرضها يوسف بن تاشفين على اليهود بقوله: « و كان أمر الضرائب ملقى على عاتق اليهود يمولون بيت المال نيابة عن المسلمين كلما أعوز بيت المال إلى المال عند الحاجة »⁽²⁶⁾ وكان النظام المالي الإسلامي ليس لديه موارد مالية يعتمد عليها، أو عاجز عن إيجاد هذه الموارد حتى يلجأ إلى مثل هذه الوسائل في الحصول على المال و جبايته و هذا من اللمز الذي اعتاد المستشرقون استعماله في كتاباتهم، و العداء الذي يكنه هذا المستشرق للدولة المرابطية خاصة و التي يرميها بكل نقيصة في كتاباته.

3. السياسة المالية في عهد الأمير علي بن يوسف:

بعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين، تولى الإمارة بعده ابنه علي (500هـ/539هـ) و امتدت في عهده دولة المرابطين، و توسع ملكه من بلاد السوس الأقصى غربا إلى بجاية بالمغرب الأوسط شرقا، و من جبل الذهب في بلاد السودان جنوبا إلى سجلماسة شمالا، و ملك جميع بلاد الأندلس شرقا و غربا وملك الجزائر الشرقية و (جزر البليار) ميورقة و منورقة و يابسة. و خطب له على أكثر من ألفي منبر، و ملك من البلاد ما لم يملكه والده لأنه وجد البلاد هادئة والأموال وافرة و الملك توطد و الأمور مستقيمة له،⁽²⁷⁾ هذه الظروف بالإضافة إلى تكوينه و نشأته، كلها سوف يكون لها تأثير على سياسته المالية في إمارته للملثمين بالمغرب والأندلس.

إن التزام المرابطين بالشرع في جباية الأموال و فرض الضرائب لم تكن إلا في بداية نشأة الدولة، و في فترة قوتها في عهد الأمير يوسف بن تاشفين. أما فترة الأمير علي بن يوسف التي هي فترة الترف و الحضارة، و الفتن و الحروب، فقد تغيرت السياسة المالية للدولة تغيرا جذريا كانت له آثار سلبية على كيان الدولة ومستقبلها. و نجد مقولة "ابن زرع" من أن دولة المرابطين كانت خالية من الضرائب، لا مكس و لا معونة و لا خراج، واكتفائها بما

أوجب الكتاب و السنة، لا تنطبق إلا على الفترة الأولى من حكم المرابطين ببلاد المغرب والأندلس، أما في عهد علي بن يوسف فقد اختلف الوضع تماما. و عليه، فما هي معالم السياسة المالية للأمير علي بن يوسف المرابطي؟

نتيجة اتساع نطاق و كيان الدولة المرابطية، و تضاعف جيوشها و ثقل مسؤولياتها و كثرة الحروب التي كان يخوضها المرابطون، خاصة ببلاد الأندلس و التي طال أمدها، و تحولوا فيها إلى الدفاع. فتقطعت الغنائم كمورد مالي، و كذلك الحياة الجديدة التي ألغها الأمراء استدعت نفقات كثيرة، لم تستطع الموارد الشرعية أن تفي بها.⁽²⁸⁾ فاضطروا إلى فرض ضرائب جديدة أهمها **القبالات**.⁽²⁹⁾ و قد فرضت على مختلف السلع والصناعات و كل شيء يباع ويشترى، يقول "الإدريسي" تأكيدا على ذلك: « و أهل مراکش يأكلون الجراد، و يباع منه بها كل يوم الثلاثون حملا فما دونها و فوقها **بقبالة** عليه. و كانت أكثر الصنع بمراكش **متقبلة** عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون و الصفر و المغازل، و كانت **القبالة** على كل شيء يباع دق أو جل، كل شيء على قدره.»⁽³⁰⁾ و في الأندلس عانت البلاد من هذه الضرائب الإضافية غير المشروعة المسماة بالمكوس. و قد كان خطرها كبيرا لأنها كانت تعطى التزاما أي قبالة⁽³¹⁾. و بهذا العمل، الذي هو إعادة **القبالة**، وهي ضريبة غير شرعية، و التي لم تكن مقبولة من طرف الشعب. فإن علي بن يوسف قد حاد عن السياسة التي انتهجها أسلافه من الحكام المرابطين، و هي التزام أحكام الشرع في جباية الأموال، رغم ما عرف عنه من الورع و احترامه للفقهاء و سلطتهم الدينية التي تميزوا بها في الدولة المرابطية، وذلك للحاجة إلى الأموال. و كان من المهارة لجعل الفقهاء يقبلون مخالفة تتطلبها الحالة الاقتصادية للدولة⁽³²⁾.

و يذكر ابن عبدون أن هذا النظام كان عاما و شاملا، ليس في العاصمة مراكش أو المغرب فقط، بل شمل الأندلس كذلك، و يعطينا تفاصيل أكثر عن هذا النظام وجشع **المتقبليين**، فلم تكن **القبالات** في الأسواق الكبرى فقط، بل كانت في السويقات والرحاب، إذ كان يؤخذ على كل شيء يباع فيها مكس حدد هو قيمته لمن **تقبل** تلك الأماكن⁽³³⁾، حتى البيع في الدور الذي لجأ إليه فقراء الناس من أجل التعيش أخذ عليه **قبالة** سواء كانت زيتا أو طعاما⁽³⁴⁾. وهو ما يفهم منه أن **المتقبليين** لهذه الأسواق والمراكز التجارية الأخرى لم يتركوا شيئا يباع صغيرا أو كبيرا إلا أخذوا عليه **قبالة** حتى وصلوا إلى بيوت الفقراء و فرضوا عليهم **القبالات**⁽³⁵⁾. بل أكثر من هذا، إذ أدى بهم الجشع إلى أن يأخذوا على الوارد إلى الأسواق **القبالة** مرتين، من الجلابين مرة و من المشتريين مرة أخرى فالضحية التي كانت تجلب إلى السوق من الريف و البادية كان يؤخذ عليها قبل دخول المدينة **قبالة**، وعندما كان يتم بيعها يؤخذ عليها **قبالة** أخرى من مشتريها، و هو ما حذر منه ابن عبدون⁽³⁶⁾.

و من أجل هذا كانت **القبالات** مصدرا للغنى الفاحش و السريع، فلجأ إليها من طمع في ذلك، و قد كانت الفرصة متاحة حتى و لو بدأ الفرد **بتقبل** سلعة غذائية واحدة، أو سويقة أو صنعة واحدة ثم يتسع في **قبالاته** التي ربما شملت سوقا كاملا أو قرية كاملة⁽³⁷⁾. و تخبرنا إحدى نوازل "الونشريسي" أن شخصا **تقبل** القرسطون⁽³⁸⁾ في السوق بسبعين دينارا فقط فاغتنى من ذلك، ثم ما لبث أن وسع قبالاته فشملت سوق الخضر و معه أشياء أخرى بأربعمائة دينار، فكثرت مفسده و جمع من ذلك أموالا كثيرة عدت في نظر زوجته التي لم يدخل بها و أخيها وأما أموالا حراما، و رفعوا بذلك إلى الفقهاء يشتكون من هذا المسلك و يريدون فسخ عقد الزواج واستخلاصها من زوجها⁽³⁹⁾.

و بناء على ما سبق يمكننا القول أن نظام **القبالات** بعد يوسف بن تاشفين صار العمود الفقري للسياسة الجبائية في عهد المرابطين، و تمسك به حكامهم من أجل ضمان تدفق الأموال على خزانة الدولة لسد حاجاتها الضرورية و الكمالية . و أن هذا النظام تغيرت ملامحه تماما بعد أن اتسع نطاقه و التوت دروبه و تعددت مساريه بفضل جشع **المتقبليين**، و إغضاء الحكام طرفهم عن ذلك، مما أدى في النهاية إلى ظلم بين الرعية التي أثقل المرابطون و جباتهم من **المتقبليين** كاهلها بمبتدعات هذا النظام التي حرص أذيال المرابطين من الثوار على تطبيقها كلية بل و الزيادة فيها و هذا ابن مردنيش⁽⁴⁰⁾ ربيب هذا الجو الذي انهمك في ميدان البطالة و اللهو وألجأه الخروج عن الجماعة و الانفراد بنفسه في شرق الأندلس و احتفى بالنصارى (صاحب برشلونة و ملك قشتالة) كان يدفع لهما في السنة الواحدة خمسين ألف مثقالا مرابطيا، و كون جيشا من المرتزقة من النصارى، و بنى لهم منازل و حانات للخمر، و أجرى عليهم الأرزاق الواسعة.⁽⁴¹⁾ فمن أين كان يأتي بالأموال لكل ذلك ؟ يقول "ابن الخطيب" في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" : « إنه أجحف برعيته لأرزاق من استعان به منهم ووجد ضالته المنشودة من أجل تحقيق سياسته الخاطئة ومسلكه المشين في نظام **القبالة**، بعد أن وضع الضرائب و المغارم و المكوس على كل شيء قبلها **لنقبليين** قساة مفترين »⁽⁴²⁾. و في كتابه "الأعلام" يصف ابن مردنيش فيقول: « و استعان بهم (الروم) على تدييره، و رتب منهم أعوانا وجندا، أفرد لهم بمرسية منازل فيها الحانات و البيع، و اضطر إلى المال، فتخيف الرعية بكل وجه من وجوه الجور، واستكثر من **القبالات**، و رسم بدائع من المكوس، و قرر في المواشي عددا يلزم المئتين، و فرض على الأدم والبقول و الحبوب معاون ثقيلة تقارب أصول الأثمان»⁽⁴³⁾ و في ذلك يقول الدكتور "عبد الله عنان": « وقد كان من جراء هذا الإغداق الفياض على النصارى أن اشتط ابن سعد (ابن مردنيش) في فرض المغارم و الرسوم المختلفة على رعاياه المسلمين»⁽⁴⁴⁾.

و نتيجة الشطط في **القبالات** في الأندلس في عهد المرابطين أنها شملت حتى حفلات الأعراس و الملاهي وذلك ما يؤكد "ابن الخطيب" حين قال : « و أما رسوم الأعراس والملاهي فكانت **قبالاتها** غريبة»⁽⁴⁵⁾ ويروي عن هذه **القبالات** حكاية طريفة و غريبة مفادها أن رجلا من شاطبة و اسمه محمد بن عبد الرحمن كان له بها ضبيعة يعيش بها و كان ما يفرض عليها من الضرائب أكثر مما يجنيه منها فكان يعطي التزامها حتى افتقر وفر إلى مرسية فصوردت أرضه و ذلك بأمر من ابن مردنيش، و لما وصل إلى مرسية بدأ يشتغل عند الناس في البنيان حتى اجتمع له مبلغ من المال، و هو يسير في السوق إذ به يقوم من بلده شاطبة ففرح بهم و عزمهم على طعام و المبيت عنده، فرضوا وأكلوا مما صنع لهم من الطعام و ضربوا دفا. وفي الصباح إذ بنقر عنيف بالباب، فلما سأل فإذا هو الطارقون الذي بيده **قبالة** اللهو، و قال له : أنتم ضربتم البارحة الدف فأعطينا حق العرس الذي عملت. فلم يترك حتى افتدي.⁽⁴⁶⁾

كما لجأ علي بن يوسف إلى فرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامة تعرف **بالتعثيب** أو **التعطيب** كان يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة، و ترميم الأسوار القديمة،⁽⁴⁷⁾ وقد فرضت هذه الضريبة في أعقاب غزوة ألفونسو المحارب للأندلس سنة 519هـ/1125م. كما فرض أيضا سنة 530هـ / 1135م على أهل فاس أن يرمموا أسوار المدينة على نفقتهم، و أن يدفعوا **المعاون** للجيش، أو تتحمل الرعية تجهيز الجيش من أموالهم.⁽⁴⁸⁾

و من الأمثلة التي تدل على شيوع **القبالات** عند المرابطين في هذه الفترة ما ذكره "البديق" في كتابه "أخبار المهدي بن تومرت" ما حدث لابن تومرت نفسه عندما أراد عبور وادي أم الربيع، فاجأه المكاس بطلبه

مكس العبور، يقول البيدق: « ثم جدّ بنا السير - أي ابن تومرت وصحبه حين توجهوا إلى مراکش - حتى وصلنا وادي أم الربيع و ما كنّا نعرف أن الإمام يتكلم باللسان الغربي فأردنا الجواز فمنعونا حتى نعطي المكس و هو المكري و قالوا لنا تعطوا على كل رأس كذا و كذا فلما سمعهم المعصوم قال لهم : آوْ مَوْرَنْ مَكُونَيْنِ إِنْ سُوْسْ آدَاوْنْ نَاك. وصاح عليهم ثم جزنا و كان في بعض ما قال لهم إنما السبيل للمسلمين و أنتم تقطعونها و هذا غير جائز في الشرع. »⁽⁴⁹⁾

و بهذا العمل يكون المرابطون قد وقعوا فيما كانوا يحاربونه، فمحاربتهم للقبائل المغربية و خلعهم للملك الطوائف بالأندلس كان من بين أسبابه فرض الضرائب غير الشرعية و الجائرة على الرعية ، فهاهم يقعون في نفس ما وقع فيه غيرهم، ويفرضون **القبالات** و مختلف الضرائب غير الشرعية، و التي أثقلت كاهل الرعية مما سوف يكون له الأثر السيئ في المستقبل على دولة الملتزمين في المغرب والأندلس.

و نتيجة كثرة الضرائب عند المرابطين في عهد علي بن يوسف، و اضطراب الأحوال في دولته و سيطرة الفقهاء على دواليب السلطة. جعلت "شارل أندري جوليان" في كتابه "تاريخ شمال إفريقيا" يصف الأمير المرابطي بقوله: «أنه رضي بممارسة سلطة صورية و بقبض مواد الضرائب و الجباية»⁽⁵⁰⁾ هذا الوصف الذي يكون قد أخذه عن "المراكشي" صاحب "المعجب"، الذي يصف الأمير علي بن يوسف بنفس الوصف، عندما يتعرض إلى تحليل وبيان ظروف و أسباب اختلال أحوال المرابطين فيقول: « وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله، ويقوى ضعفه، و قنع باسم إمرة المسلمين، و بما يرفع إليه من الخراج.»⁽⁵¹⁾

و كذلك "ابن خلكان" يصف الأمير المرابطي بنفس الوصف و لكن هنا على سبيل المدح والإثراء مبينا حالة الغنى التي كانت عليها دولة المرابطين و فضائل أميرها بعد توليه إمارة المرابطين عقب وفاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يقول: « و أفضى الملك إلى ولده أبي الحسن علي بن يوسف، و كان رجلا حليما وقورا صالحا عدلا منقادا للحق والعلماء، تجبى إليه الأموال من البلاد .. »⁽⁵²⁾

و مما يدل على كثرة الأموال التي تجمعت لعلي بن يوسف نتيجة الضرائب الكثيرة التي كانت تفرض على الرعية، و لا يمكن أن تكون من مصادر أخرى، خاصة إذا علمنا أن علي لم يهنأ بالحكم كثيرا لكثرة الحروب التي كان يخوضها بالأندلس، والثورات التي قامت ببلاد المغرب، و أهمها ثورة المهدي ابن تومرت إمام الموحدين. كما أن نفقات الحروب كثيرة. فاشتط في تحصيل الأموال من الرعية عن طريق الضرائب و المكوس غير الشرعية، ما يدل عليه ما ذكره صاحب (كتاب الحلل الموشية) في وصف دخول عبد المؤمن بن علي الموحي مراکش واستيلائه عليها فيقول: « و استولى عبد المؤمن على خزائن علي ابن يوسف، و ذخائر لمتونة، مما يقصر عن وصفه اللسان، و لا يأتي على شرحه البيان.»⁽⁵³⁾

4. استعمال علي بن يوسف للنصارى في جباية الضرائب:

و قد عهد علي بن يوسف إلى النصارى الروم و الأغزاز المقيمين سواء في المغرب أو الأندلس بأعمال جباية الضرائب في أحواز مراکش العاصمة و بلاد السوس،⁽⁵⁴⁾ أو كان يعهد إليهم مهمة حراسة جباية الضرائب، خاصة في المناطق النائية حيث تضعف السلطة المركزية، و لم يكن من السهل جباية الضرائب في هذه المناطق بدون إرسال قوات عسكرية لتحصيله، و لذلك استخدم المرابطون هؤلاء النصارى للقيام بهذا العمل.⁽⁵⁵⁾ كما

اعتمدوا أيضا على اليهود في ذلك خاصة بالأندلس.⁽⁵⁶⁾ و قد فعل المرابطون ذلك من أجل ضمان تحصيل الضرائب، و علمهم أن أمثال هؤلاء يخافون السلطان و يخشون العقابة و لا يفرطوا في أداء واجبهم كما لا يمدون أيديهم إلى أموال الجبائية.⁽⁵⁷⁾ هؤلاء الروم من النصارى واليهود الذين حباهم الأمير المرابطي بثقته و حمايته، اشتد نفوذهم في الدولة خاصة في الجيش و شئون الجبائية، بعد ما اضطربت أحوال الدولة المرابطية على إثر قيام حركة المهدي في المغرب⁽⁵⁸⁾، فأساءوا معاملة المسلمين، و اشتطوا في تحصيل المغارم و الفروض، و أمتعوا في سلب و نهب أموالهم، و غلبت الفوضى على شؤون الدولة المالية، كما غلبت على غيرها.⁽⁵⁹⁾

و في استعمال علي بن يوسف الروم في جباية المغارم و الضرائب، و الذي كان أول من استحدث ذلك بالمغرب. يقول صاحب "الحلل الموشية": «و هو (علي بن يوسف) أول من استعمل الروم بالمغرب، و أركبهم و قدمهم على جباية المغارم.»⁽⁶⁰⁾

5. مراقبة و محاسبة الحكام لعمال الجبائية:

و من حرص الحكام و الأمراء على جباية الأموال حتى لا يضيع منها شيء، كانوا يراقبون مستخلصي الضرائب مراقبة دقيقة و يشددون النكير عليهم و يحاسبونهم حسابا عسيرا، و يعاقبون المقصر منهم عقابا شديدا، فكانوا يحاسبونهم إذا ما اعتزلوا الخدمة، و يعرضونهم لمصادرة الأموال و السجن إذا رأوا منهم تقريبا أو تقصيرا،⁽⁶¹⁾ و من شدة حرصهم كانوا يحاسبون و رثة المستخلص إذا مات و يثقلون عليهم و يصادرون تركة المتوفى إذا لزم الأمر. و لعل الخوف من هذا الحساب العسير هو الذي دفع "مؤمل" مستخلص أمير المسلمين عندما حضرته الوفاة، أن يحضر ما كان عنده من مال المستخلص، و أشهد الحاضرين على دفعه إلى من استوثقه على حمله، ثم أبرأ جميع عماله و كتابه، و أنفذ رجلا من صنائعه إلى أمير المسلمين بجملة من مال نفسه، يريه أن ذلك جميع ما اكتسبه في دولته أيام خدمته، و أن بيت المال أولى به خوفا من أن يصيب و رثته مكروه إذا مات.⁽⁶²⁾

بعد هذا العرض التاريخي للنظام المالي للدولة المرابطية، و لنظام القبالات فيها، يمكن ملاحظة ما يلي:

- إسقاط القبالات في بداية قيام الدولة، و مرحلة القوة فيها، في عهد القائد عبد الله بن ياسين، و في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، اللذين وقفا من القبالات موقفا حازما من خلال محاربتها و معاقبة المتصدين لها، كما ظهر ذلك فيما بيناه في عرض سياستهما. و هنا يمكن أن نشير إلى ما قرره العلامة ابن خلدون في مقدمته في الفصل الثامن و الثلاثون عن الجبائية و سبب قتلها و كثرتها، و التي يمكن إسقاطها على الدولة المرابطية، خاصة إذا علمنا أن ابن خلدون قد استقى أفكاره و آراءه في السياسة و الاجتماع من الواقع الذي عايشه ببلاد المغرب و لإطلاعه على أوضاع هذه الدولة عن كثب لقرب عهده منها. يقول العلامة ابن خلدون: «اعلم أن الجبائية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، .. و السبب في ذلك: أن الدولة إن كانت على سنن الدين فليست تقتضي إلا المغارم الشرعية من الصدقات و الخراج و الجزية، و هي قليلة الوزائع، لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت، و كذا زكاة الحبوب و الماشية، و كذا الجزية و الخراج و جميع المغارم الشرعية، و هي حدود لا تتعدى، و إن كانت على سنن التغلب و العصبية فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم، و البداوة تقتضي المسامحة و المكارمة و خفض الجناح و التجايف عن أموال الناس و الغفلة عن تحصيل ذلك إلا

في النادر ، فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة ، و الوزيرة التي تجمع الأموال من مجموعها ، و إذا قلت الوزائر و الوظائف على الرعايا نشطوا للعمل و رغبوا فيه ، فيكثر الاعتماد و يتزايد محصول الاغتباط بقلة المغيرم ، و إذا كثر الاعتماد كثر أعداد تلك الوظائف و الوزائر ، فكثرت الجباية التي هي جملتها»⁽⁶³⁾

إن ما ذكره ابن خلدون في مقدمته نجد له أثره في الدولة المرابطية، فكما ذكرناه من قبل ، وكما هو معلوم ، أن دولة اللثام دولة قامت و تأسست على دعوة دينية تلتزم أحكام الشرع في سياستها العامة، و هذا الذي لحظناه في سياسة عبد الله ابن ياسين، و يوسف بن تاشفين في سياستهما المالية و في جباية الضرائب. و نتج عن هذه السياسة وفرة مالية جمعت لهما ، كما وصفها من أرخوا لهذه الدولة من أن يوسف بن تاشفين جبي من الأموال ما لم يجبه أحد قبله ، ساهمت في تقوية الدعوة و بناء الدولة في بلاد المغرب ، كما أوجدت رخاء اقتصاديا و انتعاش تجاري وعمراني و زراعي لدى الدولة ، و استقرار سياسي في البلاد جعل الرعاية تتمتع بالأمن و تندفع إلى العمل في ارتياح وطمأنينة ، و عاشت رفاهية و نماء لأموالها ، بعد أن رفعت عنها المكوس و المغارم الظلمة التي فرضها الحكام السابقين من قبالات و غيرها. حتى المعونة التي أراد أمير المسلمين أن يفرضها على أفراد دولته ، و التي كانت من أجل المصلحة العامة ، لم يكن لها تأثير كبير على الرعاية ، و لم تفسد العلاقة التي كانت بين الحاكم و المحكوم ، لأنها لم تبني على جور و ظلم. كما أن الطابع البدوي للحكام في هذه المرحلة جعلهم يتعاملون بالرحمة و المسامحة و عدم التضيق على الرعاية ، كما قال ابن خلدون.

جدير هنا أن نذكر رأي الدكتور القادري بوتشيش الذي يعبر أحسن تعبير عما أوردناه في هذا الجزء من الدراسة يقول: « و الأمر في تقديري يختلف حسب الأطوار التي مرت بها الدولة و تغير أحوالها الاقتصادي ، ففي طور التأسيس و نظرا لروح البداوة التي ظلت السمة الغالبة عليها ، و ما نجم عن ذلك من تقشف في النفقات العامة و حفاظا على التقاليد القبلية "الديمقراطية" ، ظلت علاقة الدولة بالقبائل الخاضعة لسلطتها علاقة "مساهمة و مشاركة" على حد تعبير ابن خلدون ، فاتسمت بكثير من الرفق و التسامح لكونها صادرة عن الخلال الحميدة التي هي نتاج البداوة. ولأن الغنائم و موارد الحروب كانت لا تزال تدر "فائضا" على بيت المال ، فقد سعت الدولة في تلك المرحلة إلى "كسب القلوب" بكل ما تتطوي عليه هذه العبارة الخلدونية من معنى . و هذا ما يفسر إلغاء الضرائب غير الشرعية في عهد يوسف ابن تاشفين»⁽⁶⁴⁾

و لما تغيرت أحوال الدولة تغير نظام الجباية فيها ، يقول ابن خلدون في هذا الشأن: « فإذا استمرت الدولة و اتصلت ، وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد ، و اتصفوا بالكيس ، و ذهب شر البداوة و السذاجة و خلقها من الإغضاء والتجافي ، و جاء الملك العضوض و الحضارة الداعية إلى الكيس ، و تخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق ، و تكثرت عوائدهم و حوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم و الترف ، فيكثرون الوظائف و الوزائر حينئذ على الرعايا و الأكرة (الحراث) و الفلاحين وسائر أهل المغارم ، و يزيدون في كل وظيفة ووزيرة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ، و يضعون المكوس على المبيعات و في الأبواب ... حتى تثقل المغارم على الرعايا و تنهضم و تصبح عادة مفروضة ، فتتقبض كثير من الأيدي عن الاعتماد جملة ، فتتقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائر منها ، وربما يزدون في مقدار الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية و يحسبونه جبزا لما نقص ، ...»⁽⁶⁵⁾

ومن خلال الدراسة التاريخية للحكام المرابطين الذين تولوا أمور الدولة بعد وفاة يوسف بن تاشفين، و الأمراء والعمال على الأقاليم، خاصة بعد توسع الدولة و ترامي أطرافها، واختلاطهم بالعناصر الأندلسية، التي كانت تعيش الترف و الدعة في الحياة، فقد تغيرت طبائعهم و عاداتهم و راحوا يقلدون أهل الأندلس في سياسة الدولة و التي كانت تعتمد على البذخ و الإسراف أكثر منها على التدبير و حسن التسيير، فكثر النفقات التي لم يعد بيت المال يتحملها، فاشتطوا في فرض الضرائب و المكوس، وراحوا يقبلونها إلى عمال السوء الذين بدورهم لم يكن يهمهم إلا جمع المال، وأداء ما تعهدوا بأدائه إلى بيت المال، و الحصول على فائض ما يفضل لهم من هذه المغارم. هذه السياسة قد أضرت بالرعية، التي أثقلت كاهلها هذه الأصناف من الضرائب، فقلت أيديهم عن الاعتماد و العمل و تركت الصنائع و خدمة الأراضي الزراعية، لأن كل شيء أصبح متقبلا في دولتهم جليلا كان أو حقيرا كما ذكرنا من قبل، مستدلين بمقولة المؤرخ و الجغرافي الإدريسي في الفصل الثاني.

و في هذا الصدد أيضا يقول الدكتور القادري بوتشيش: « وإرجاعها (الضرائب غير الشرعية) في المرحلة الثانية - المرحلة الأندلسية الترفية - خلال حكم الأمير علي بن يوسف بسبب ما حفلت به تلك الفترة من تبذير و إسراف، مما جعل العلاقة بين الدولة و الرعية تتقل من العدالة إلى الجور و الظلم، و هذا ما يؤكد أحد المؤرخين بقوله: " وملك الملثمون بلاد الأندلس في ظل وقعة الزلاقة مدة، و جاهدوا أطراف العدو صدرا من دولتهم، ثم أذربوا فأخلدوا إلى الراحة و البطالات و فساد الأعمال و النيات، و كثر ظلمهم و حيفهم". أما المؤرخ المراكشي (عبد الواحد) فقد عبر عن هذا التوتر بين الدولة و الرعية أحسن تعبير حين أشار إلى أن علي بن يوسف المذكور " أهمل أمور الرعية غاية الإهمال".⁽⁶⁶⁾

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه ما ذكره القادري بوتشيش في دراساته فيقول: « ومن الأمثلة التي نسوقها للبرهنة على صحة انحراف الدولة المرابطية عن جادة الأخلاق السياسية، إقدامها على فرض ضرائب متنوعة ومكوس غير شرعية على الرعايا، التي تعكسها المصادر التاريخية، تعرض الرعية لاستغلال جبائي بشع. لأن مختلف الشرائح الاجتماعية الفقيرة من المجتمع الأندلسي خضعت لأشكال متعددة من الضرائب، ومن الثابت تاريخيا أنه كلما تعرضت الرعية لابتزاز ضرائبي، كلما قل الإنتاج، وساهم ذلك في تكريس الركود و عدم التطور. لذلك نعتقد أن سلبية هذا العامل الأخلاقي في سياسة الدولة المرابطية تجاه رعاياها ساهم في إضعافها، و أسهم هذا الضعف بدوره في ضياع الأندلس من أيدي المسلمين، فالأسباب مرتبطة و متشابكة، بيد أن النتيجة واحدة.⁽⁶⁷⁾

و في فصل آخر من المقدمة يبين ابن خلدون كيف أن ضرب المكوس يكون في آخر الدولة، لأنها تكون في أول أمرها بدوية، حاجاتها قليلة لعدم الترف و عوائده، فيكون خراجها وإنفاقها قليلا، و ما تجمعها من خراج يفضل عن حاجاتها و يزيد، « اعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية .. فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف و عوائده، فيكون خرجها و إنفاقها قليلا، فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم⁽⁶⁸⁾. لتدخل بعد ذلك في مرحلة الترف التي تتطلب الأموال الضخمة لتلبية لحاجة السلطان و حاشيته، مما يلجئ الدولة إلى فرض الضرائب و المكوس الزائدة، « ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف و عوائدها، و تجري على نهج الدول السابقة قبلها، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة، و يكثر خراج السلطان - خصوصا - كثرة بالغة بنفقته في خاصته، و كثرة عطائه، و لا تفي بذلك الجباية. فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء، والسلطان من النفقة، فيزيد مقدار الوظائف و الوزائع⁽⁶⁹⁾ فتكثر

الأموال في يد السلطان وحاشيته وتكثر عوائد الترف من إنفاق و تبذير للسلطان نفسه، و كثرة عطائه و هباته لمن حوله استمالة لهم، من جند و حامية، دون أن يدرك أن هذا الأمر هو سبب فناء الدولة و سقوطها، فيدرك الدولة الهرم والضعف، كما تضعف عصبيتها و تقل جبايتها، كل هذا يدفعها إلى استحداث أنواع من الضرائب على كل السلع و الحرف كما ذكرنا من قبل الوصف الذي يقول أن في عهد المرابطين كل شيء كان متقبلا من السلع و الحرف. هذا الوضع يكون عاملا مهما في سقوط الدولة و خراب عمرانها. يقول ابن خلدون في ذلك: «ثم يزيد الخراج والحاجات و التدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية، و يدرك الدولة الهرم، و تضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال و القاصية، فتقل الجباية و تكثر العوائد، و تكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم، فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على البياعات(السلع)، و يفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق، و على أنواع السلع في أموال المدينة، و هو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش و الحامية، و ربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة، فتكسد الأسواق لفساد الآمال، و يؤذن ذلك باختلال العمران، و يعود على الدولة، و لا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل.»⁽⁷⁰⁾

و رغم ما ذكره ابن خلدون في مقدمته من تحليل و تحليل لقيام الدول و سقوطها، و تحدثه عن الجباية و تأثيرها على الدول، فإنه لا يشير إلى الضرائب غير الشرعية التي انتشرت في دولة المرابطين كما بيناه في دراستنا للقبالات بهذه الدولة و هو مع الرأي الذي يقول أن يوسف بن تاشفين أزال و محا كل الرسوم الجائرة التي كانت مفروضة في المغرب من طرف حكامها قبل مجيء المرابطين، و في الأندلس التي اشتط ملوك الطوائف في فرض الضرائب والمكوس على الرعية تلبية لمتطلبات الملك والأتوات التي كانوا يدفعونها للنصارى. مع العلم أن من أسباب ثورة ابن تومرت و الموحدون على المرابطين، الفساد المالي و الرسوم الجائرة التي استحدثوها ببلاد المغرب و الأندلس كما سوف نبينه في المبحث التالي، فيقول ابن خلدون في مقدمته: «و قد كان وقع منه بأمصاشر المشرق في أخريات الدولة العباسية و العبيدية كثير، وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم، و اسقط صلاح الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأغاضها بآثار الخير، و كذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف حتى محارمه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين.»⁽⁷¹⁾ حتى و إن صح هذا الحكم فإنه لا ينطبق إلا على الفترة الأولى للدولة المرابطية في بداية عهدها، عهد البداوة والمسامحة كما يقرر ابن خلدون نفسه، و لكن عندما دخلت الدولة في مرحلة الحضارة و الترف، فإن الأمر تغير كثيرا عما كان في عهد يوسف بن تاشفين و فرضت المغارم و المعاون و القبالات، و استعين بالروم النصارى الذين ظلموا الرعية في جبايتهم لهذه الضرائب.

الهوامش

1. حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس، عصر المرابطين و الموحدون، ص: 194.
2. ابن أبي زرع علي الفاسي: الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، اعتناء تصحيح و طبع، كارل يوحنا تورنبرغ، مدينة أوبسالة، دار الطباعة المدرسية، السنة 1843، ص: 81. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، 2، العصر الإسلامي، بيروت، دار النهضة العربية، 1981، ص: 696، 697.
3. ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ج 6، بيروت، لبنان، دار الفكر، 1417هـ. 1996م، ط3، ص: 244.
4. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، المرابطون، ج 4، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1995، ط1، ص: 203.
5. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الكتاب الحديث، 1416هـ/ 1996م، ط2، ص: 151، 152.
6. سعدون نصر الله: تاريخ العرب السياسي في المغرب، بيروت، دار النهضة العربية، 2003، ط1، ص: 253.

7. السائح الحسن، الحضارة الإسلامية في المغرب، الدار البيضاء(المغرب)، دار الثقافة، 1406هـ-1986م، ط2، ص: 196.
8. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص: 152. سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في المغرب، ص: 251، 250.
9. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 4، تحقيق: د/ إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1983، ط2، ص: 23.
10. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، المرابطون، ص: 259.
11. حمدي عبد المنعم محمد حسين، تاريخ المغرب و الأندلس في عصر المرابطين، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1986م، ص: 317. عبادة كحيلة، المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، القاهرة، المطبعة الإسلامية الحديثة، 1418 هـ / 1997 م، ط1، ص: 103. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، 1384هـ/1965م، ط2، ص: 406. ينظر أيضا جورج مارسية، بلاد المغرب و علاقاتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة، محمود عبد الصمد هيكل، الإسكندرية، مطبعة الانتصار، 1991م، ص: 284.
12. ذابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 88. السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تحقيق جعفر و محمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954م، ص: 54.
13. الزيري، نفسه، ص: 169. الملحق الثاني من المذكرات، ص: 210.
14. رينهرت دوزي: المسلمون في الأندلس، ج 3، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م، ص: 141، 142، 146.
15. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 358.
16. ابن أبي زرع، نفسه، ص: 88. السلاوي، الاستقصا، ج2، ص: 54.
17. ابن أبي زرع، نفسه، ص: 89.
18. عبد الواحد ذنون طه، تاريخ المغرب العربي، دار المدار الإسلامي، 2004، ط1، ص: 308، 309.
19. الفقي عصام الدين عبد الرؤوف، دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس، القاهرة، دار الفكر العربي، 1419هـ/1999م، ص: 252.
20. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص: 357.
21. كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين و الموحدين، الإسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، بدون تاريخ، ص: 364. أيضا حمدي عبد المنعم حسين: تاريخ المغرب و الأندلس في عصر المرابطين، ص: 317. ينظر أيضا جورج مارسية، بلاد المغرب و علاقاتها بالشرق، ص: 285. أيضا السيد عبد العزيز سالم، نفسه، ص: 740.
22. مؤلف مجهول، الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق، سهيل زكار، عبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، السنة 1399 هـ / 1979م، ط1، ص: 25.
23. مؤلف أندلسي مجهول، الحل الموشية، ص: 81، 80. ينظر أيضا سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، المرابطون، ص: 366. كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص: 364. جورج مارسية، بلاد المغرب و علاقاتها بالشرق، ص: 285.
24. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 4، ص: 23.
25. سعد زغلول عبد الحميد، نفسه، ص: 260.
26. دوزي، نفسه، ص: 164.
27. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 102.
28. عبادة كحيلة، المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، ص: 106.
29. عبد الحميد حاجيات، الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص: 331.
30. الشريف الإدريسي: المغرب و ارض السودان و مصر و الأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، لندن، مطبع بريل، 1863م، ص: 69، 70. الحميري، الروض المعطار، ص: 541.
31. العبادي أحمد مختار: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، الكويت، منشورات ذات السلاسل، السنة 1406هـ / 1986م، ط2، ص: 314.
32. جورج مارسية، بلاد المغرب و علاقاتها بالشرق، ص: 285.

33. ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي)، رسالة في الحسبة، ثلاث رسائل أندلسية، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، 1955م، ص: 30.
34. نفسه، ص: 31.
35. عبد خليفة، القبالات في المغرب و الأندلس، ص: 549.
36. ابن عبدون، نفسه، ص: 31.
37. عبد خليفة، القبالات في المغرب و الأندلس، ص: 549.
38. قرسطون كلمة يونانية عربت و تعني الميزان و هي عند العرب قَبَّان و يستعمل في وزن النقود الفضية والنحاسية، و في فاس محلة تسمى القرسطون و لابد أن هذا الاسم قد أطلق عليها لأن فيها هذه الآلة. يراجع في معنى الكلمة، دوزي، تكملة المعجم العربية، ج 8، ص: 223، 224. و المراد الضريبة المفروضة على الوزانين في الأسواق. (عبد خليفة، القبالات ببلاد المغرب و الأندلس، ص: 585، ت 179).
39. الونشريسي أحمد بن يحيى: المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية و الأندلس والمغرب، ج 3، خرجه د/ محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، السنة 1401هـ / 1981م، ط1، ص: 276، 277.
40. محمد بن سعد بن مردنيش أكبر و أخطر الثائرين الذين ظهروا في شرق الأندلس في الفترة من زوال أمر المرابطين إلى دخول الموحيدين الأندلس كان يدفع الإتاوة إلى كونت برشلونة راييموندو برينجر الرابع و ملك قشتالة ألفونسو السابع كما دفع إتاوة لجمهورية بيزا و جنوه في بعض السنين. الحلة السيرة ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي) 596-658هـ / 1199-1260م، الحلة السيرة، ج 2، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، 1985م، ط2، ص: 232، ت1 ينظر أيضا فرانسيسكو كوديرا في الفصل الخاص بابن مردنيش، FRANCISCO CODERA, decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana, ZARAGOZA, 1899, pp: 111. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين و الموحيدين، القسم الأول، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1411هـ / 1990م، ط2، ص: 365، 366.
41. ابن الخطيب، لسان الدين السلماني، أعمال الأعلام أو تاريخ اسبانية الإسلامية، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، بيروت، لبنان، دار المكشوف، 1956، ط2، ص: 261.
42. ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلماني) ت 776هـ، الإحاطة في أخبار غرناطة، م 2، شرح و ضبط و تقديم أ. د. يوسف علي طويل، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1424هـ / 2003م، ط1، ص: 72.
43. ابن الخطيب، كتاب أعمال الأعلام، ص: 261.
44. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث، القسم الأول، ص: 366.
45. ابن الخطيب، الإحاطة، م 2، ص: 72.
46. نفسه، ص: 72.
47. ابن عذاري المراكشي، البيان، ج 4، ص: 73، 74.
48. ابن القطان، نظم الجمان، ص: 250. ينظر أيضا، ابن عذاري، البيان، ج 4، ص: 73، 74. حسن علي حسن، نفسه، ص: 201.
49. البيدق أبو بكر بن علي الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحيدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة و الوراقة، 1971، ص: 26. ينظر حسن علي حسن، نفسه، ص: 201.
50. (1) . payot deuxième édition, André julien Charles :Histoire de l'Afrique du Nord ,tome2 , paris, 1964, p 86 .
51. المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص: 241.
52. ابن خلكان، الوفيات، ج 7، ص: 123.
53. مجهول، الحلل الموشية، ص: 144.
54. حمدي عبد المنعم حسين، التاريخ السياسي و الحضاري للمغرب و الأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، 1997، ص: 418. ينظر أيضا سعد زغلول عبد الحميد، نفسه، ص: 381. عبادة كحيلة، نفسه، ص: 107. ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب

و الأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم و أ. محمد صلاح الدين حلمي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1990، ص: 247، 248.

55. البارودي ، رضوان ، دراسات و بحوث في تاريخ و حضارة المغرب و الأندلس، الاسكندرية، مركز الإسكندرية للكتاب، 2007، ص: 203، 204.

56. حسن إبراهيم حسن، نفسه، ص: 342.

57. حسن أحمد محمود، نفسه، ص: 358، 359.

58. عبد الحميد حاجيات ، نفسه، ص: 331.

59. عنان محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، ص: 410. ينظر أيضا عبادة كحيل ، نفسه، ص: 107.

60. مجهول ، الحلل الموشية، ص: 84، 85.

61. حسن علي حسن ، نفسه، ص: 191. ينظر أيضا حسن أحمد محمود، نفسه، ص: 359.

62. (2). الزيري، التبيان، ص: 214. حسن أحمد محمود ، نفسه، ص: 411. حمدي عبد المنعم حسين ، نفسه، ص: 419.

63. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، بيروت ، لبنان، مؤسسة الرسالة ناشرون، 1426هـ - 2005م، ط1، ص: 276.

64. القادري بوتشيش، إبراهيم، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي و تاريخه الاقتصادي والاجتماعي، بيروت، لبنان، دار الطليعة، 2002، ط1، ص: 154.

65. (65) - ابن خلدون، المقدمة، ص: 286، 287.

66. (66). القادري بوتشيش، إضاءات، ص: 154.

67. - القادري بوتشيش، إبراهيم، إضاءات ، ص: 158.

68. - ابن خلدون، المقدمة، ص: 287.

69. - ابن خلدون ، نفسه، ص: 287، 288.

70. - ابن خلدون، نفسه، ص: 288.

71. ابن خلدون، نفسه، ص: 288.

الوضع الصحي لسكان الجزائر في العهد العثماني

أ/ قندوز عبد القادر، جامعة تيارت

الملخص:

إن الواقع الصحي في الجزائر خلال العهد العثماني، من الموضوعات الهامة في تاريخ الجزائر الحديث لما يحمله من معلومات عن الواقع الصحي آنذاك، إذ من خلاله نستطيع إعطاء صورة ولو بسيطة عن مختلف الأوبئة والأمراض الموجودة في ذلك العهد، ومدى انتشارها وتأثيرها على الأوضاع العامة للسكان، وكذلك التعرف على سياسة الحكام تجاه ذلك بالنظر الى انشغالاتهم السياسية والعسكرية الكبيرة في تلك الفترة، ومن أجل ذلك تطرقنا إلى هذا البحث للتعرف على الأمراض والأوبئة التي عاشها سكان الجزائر آنذاك بالإضافة الى مختلف أدوات الاحتراز والعلاج التي استخدموها لمواجهة هذا الواقع الصحي السيئ، وكذا موقف السلطة العثمانية التي كانت في اغلب سياساتها بعيدة عن معاناة السكان.

The health situation in Algeria during the Ottoman era, is one of the most important subjects in modern Algerian history as it has important information on the health situation at the time, it can also give an image, even simple about the various epidemics and diseases existed in that period, and the extent of its spread and its impact on general population, as well as identifying governors' the referees policy toward it, given the political and military big, elitist in that period, and for that we talked to this research to identify diseases and epidemics experienced by the population of Algeria at the time, in addition to various precautionary and treatment tools they used to face this health situation bad, as well as the position Ottoman power, which was in the most distant from the suffering of the population policies.

الكلمات المفتاحية: health, Algeria, Ottoman, epidemics, Disease, Medicine

مقدمة:

تعتبر دراسة الوضع الصحي للجزائر في العهد العثماني من الدراسات المهمة في تاريخنا الحديث للوقوف على الحالة السيئة التي عرفت الجزائر آنذاك، من جراء انتشار الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية، والتعرف أكثر على تأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية، حيث أثرت سلبا على استقرار الحالة الديموغرافية والاجتماعية للسكان، ومن أبرز تلك الظواهر المرضية على الإطلاق مرض الطاعون كأخطر وباء عانت منه كل الفئات الاجتماعية، بما فيها السلطة الحاكمة والعناصر الأجنبية المقيمة بالبلاد بالإضافة إلى الأوبئة الأخرى كالتيفوس، الكوليرا، الجدري وغيره، وهذا الوضع أدى إلى ردود أفعال متباينة من قبل كل من السلطة الحاكمة والسكان، فالسلطة الحاكمة إزاء هذه الأوبئة والكوارث اتخذت موقفا سلبيا على الأغلب، أما السكان فكانوا بين الاستسلام للمرض كقدر ومكتوب لا بد من القبول به، وبالتالي رفضوا الاحتراز و

التداوي من هذه الأوبئة أو اللجوء إلى الأطباء الذين غالبا ما خلطوا بين الطب العلمي والطب الروحاني، القائم في أغلبه على خزعبلات وطقوس تكرس ثقافة الشعوذة والخرافة، أو طرق علاجية موروثه عبر الأجداد أثبتت فعاليتها وأشاد بها الأجانب.

1- الأوضاع الصحية في الجزائر:

لقد شهدت الجزائر منذ بداية الحكم العثماني إلى نهايته، فترات صعبة تدهورت خلالها الأوضاع الصحية، تاركة آثارا سيئة على نمو السكان وأحوالهم الاجتماعية، كما صاحب ذلك ركود اقتصادي وانكماش عمراني، وانتشرت الأمراض بشكل يثير الانتباه خاصة في أواخر القرن الثامن عشر ميلادي¹.

ومن بين أهم الأمراض المنتشرة في تلك الفترة الطاعون²، الكوليرا، التيفوس، الجدري، السل، الرمد ... الخ، ولعل أخطرهما الطاعون الذي ترك بصمات خطيرة على البنية الاجتماعية الجزائرية، إذ كان يتردد عليها باستمرار حتى أطلق عليه "المرض القاطن أو المستوطن"³. إذ شكل الطاعون أخطر مرض عانت منه كل الفئات الاجتماعية بالجزائر خلال العهد العثماني، كما تعرضت إلى ضرباته الحادة كل العناصر الأجنبية المقيمة بالبلاد، لقد تكرر ظهوره في شكل تواتر حلقات متعاقبة إذ أن الوباء كان يتكرر كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما⁴، مما تسبب في انهيار ديمغرافي و أدى إلى تدهور الوضع الصحي الذي اثر بدوره سلبا على اقتصاديات البلاد تاركا تشوهات خطيرة في البنية الاجتماعية⁵.

كما شكلت الأمراض الأخرى، والكوارث الطبيعية، بيئة جزائرية غير صحية طيلة العهد العثماني، أثرت بدورها بصورة مباشرة على سكان وعلماء الجزائر التي أدى الطاعون إلى هلاك العديد منهم مما ترك آثارا سلبية على الواقع الثقافي آنذاك، وفي الوقت نفسه ساهم في ظهور العديد من المؤلفات التي بينت ماهيته وخطورته، مثل رسالة "الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون" لمحمد بن رجب الجزائري، و"ما رواه الواعون في أخبار الطاعون" لأبي راس الناصري وغيرهما، أما بالنسبة للأمراض الأخرى فكان بعض العلماء وأشباهم يركبون الأدوية من النباتات المتوفرة في البلاد ويضعون المعاجين والأشربة ويستعملون وسائل الكي والحجامة، ونحو ذلك وقد وضعوا مجموعة من الوصفات للتغلب على بعض الأمراض الشائعة، كوجع الرأس والمعدة والحروق والإصابات الجلدية وضعف الأعضاء التناسلية ووجع المفاصل وغيرها⁶، وكل ذلك نلاحظه في فيما يلي:

أ- الأوبئة:

1- **الطاعون:** اعتبر أخطر وباء عرفته الجزائر، لتواجهه باستمرار في بلادنا مقارنة بالأمراض الأخرى⁷، حيث أن بداياته في الجزائر خلال العهد العثماني ترجع إلى عام 1535م، فيذكر دي غرامونت (De Grammont) أنه في هذه السنة « اشتدت المجاعة بالسكان، كما هلك العديد من سكان مدينة الجزائر جوعا، نتيجة جنوح سفينة محملة بالقمح آتية إلى ميناء الجزائر »⁸، وفي ذلك نلاحظ أن الموانئ شكلت ممرا

دائماً لانتقال الوباء على كل الفترات لصلة الجزائر بعالم البحر المتوسط (توافد التجار، البحارة، الحجاج، الطلبة، إلى الجزائر).

كما عرفت مدينة وهران في سنة 1542م انتشارا للوباء في عهد حسن أغا، وقد ذكر ذلك كل من هايدو Haedo، بريروغر Berbrugger، غيون Guyon، رينو Raynaud، و نتج عنه خسائر بشرية كبيرة جعلت الأسباب يغادرون المدينة، واستمر حتى عام 1545م توفي خلاله حسن أغا في سن ست وخمسين سنة⁹، وفي عام 1552م ضرب الوباء الجزائر بشكل عنيف منتقلا إليها من الأسطول البحري الذي أرسله السلطان العثماني صالح رايس إلى الجزائر أثناء حربه مع الأسبان، وقد عرف الوباء انتشارا واسعا في مدينة الجزائر والمناطق الغربية من البلاد حيث مس الوباء كل من وهران وتلمسان، وقدر عدد ضحاياه بتسعة آلاف ضحية¹⁰.

وتسبب الوباء في مدينة تلمسان خلال نفس السنة في وفاة أبرز الفقهاء والأعيان منهم أربعة من عائلة العقباني، والمفكر الفيلسوف محمد بن عايس الكبير والشيخ سيدي محمد بن الشيخ مزيان¹¹، وفي منتصف القرن السادس عشر كانت ضربات الطاعون شديدة على سكان الجزائر، خاصة مدينة الجزائر الذي جعل أعداد الضحايا يتزايد كل يوم¹²، وتوفي إثره صالح رايس عن سن السبعين ويوسف باشا وعمره لا يتجاوز 26 سنة، كما ذهب ضحية الطاعون سنة 1557 يحي باشا¹³، واستمر الوباء حتى نهاية القرن السادس عشر.

ويمكن أن نشير إلى أن الطاعون لم يكن وباءا خاصا بالجزائر فقط بل كان عاما على كل ايلات الإمبراطورية العثمانية وأوروبا، حيث إنه يرتبط أساسا بالاضطرابات الجوية والمناخية من جفاف وفيضانات¹⁴، إضافة إلى اجتياح الجراد المسبب للقحط والمجاعات. ومع بداية القرن السابع عشر ميلادي عرف الوباء انتشارا واسعا، ابتداء من عام 1601م إلى غاية 1614م، بسبب الجفاف الكبير الذي دام تسع سنوات وقد ترتبت عنه مجاعات حادة خاصة بمدينة قسنطينة التي فتك بها الطاعون بخلق كثير¹⁵، كما احدث بمدينة الجزائر 700 وفاة يوميا¹⁶، وفي عام 1620م عاد الوباء من جديد بشكل اخطر حيث أطلق عليه السكان "الحمية الكبيرة"¹⁷ لشدة انتشاره بالأرياف والحوضر، ولم تسلم من الطاعون حتى المناطق الجنوبية ففي مدينة بسكرة التي زارها العياشي سنة 1649م أثناء رجوعه من الحج، يذكر أنه سبب وفاة العالم السيد أبي الطيب القصير وأصحابه، إذ أصبحت مساجد ومنازل المدينة خالية¹⁸.

وهكذا استمر الوباء طيلة النصف الأول من القرن 17م، وفي النصف الثاني من القرن 17م استمر الوباء بعنف شديد حيث بين سنتي 1654م- 1666م ضرب كل من وهران، بجاية، وقسنطينة، إذ كان يقتل حوالي 500 شخص في يوميا¹⁹، وأرجع دي غرامون سبب الوباء إلى حركة رياح البحر الذين نقلوا العدوى من المناطق المصابة إلى الجزائر، و سبب وفاة عشرة آلاف أسير²⁰، وبقي الوباء منتشرا في كل الايالة الجزائرية بشكل تصاعدي خطير حيث قدرت أعداد ضحاياه في أواخر القرن 17م، ما بين 25000 إلى 45000 ضحية سنويا²¹.

استمر الطاعون في تدمير البنية الديموغرافية لسكان الجزائر في القرن 18م، حيث نلاحظ في عام 1718م أن الوباء تسرب من سفينة انجليزية معدية آتية من الإسكندرية كانت محملة بالأقمشة، وقد توفي ربابها وركابها نتيجة هذا الوباء²²، كما عرفت سنة 1740م عودة الوباء نتيجة المجاعة الشديدة التي عرفت الجزائر عام 1738م، و تسبب في خسائر بشرية هامة حيث بلغ عدد الضحايا نسبة يومية تتراوح ما بين 200 و 400 وفاة²³، ويشير الورتلاني في رحلته إلى الوباء على أنه أضر ببسكرة وضواحيها ومات من جرائه آلاف من السكان، وكاد يفنيهم عن بكرة أبيهم²⁴.

وتكررت فترات الوباء طيلة القرن 18م، فوباء 1752م، 1762م حسب مارشيك تسببت فيه وفود الحجيج الذين وصلوا إلى ميناء الجزائر، أما الفترة الممتدة بين 1778م- 1804م فعاد الوباء بقوة بعد هدوء نسبي، حيث وصل عدد الأموات في 1786م أحيانا إلى 500 جنازة كل يوم وسمي بالوباء الكبير، قيل انه وصل من بر الترك في مركب رجل يدعى ابن سمايا امتد إلى سنة 1786م²⁵، وكانت آثاره السلبية التي أخلت البلاد وأفتت العباد فكتب الزباني « وكان عاماً من العمائر التي بينها وبين الجزائر، فما نزلنا منزلاً إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم »²⁶.

وفي القرن التاسع عشر شهدت الجزائر ضربات موجعة للطاعون في الفترة ما بين 1817م إلى 1822م، حيث تسبب في وفاة أعداد كبيرة من السكان، وقد ذكر نقيب الأشراف أحمد شريف الزهار ذلك قائلاً: « وفي سنة 1239هـ انقطع الوباء من الجزائر وقد حل بها في رجب 1232هـ وبقي سبع سنين²⁷، وقال أيضا : « وبعد شهرين ونصف من ولاية الداوي حسين 1234هـ كان الوباء قد أشعلت ناره وقت الضحى وصلت مائة جنازة »²⁸، كما تعرضت مدينتي وهران ومعسكر سنة 1819م إلى الوباء، إذ كان يقتل يوميا ما بين 30 و 40 فردا²⁹.

ومما يمكن تسجيله أن كل الأمراض الطاعونية في هذه الفترة كانت قد انتقلت من خارج الجزائر عبر موانئها، ففي مدينة الجزائر بتاريخ 08 جويلية 1817م تسرب مرض الطاعون من سفينة تركية كانت قد رست بالميناء، فكان يهلك حوالي 50 فردا يوميا³⁰، وفي مدينة عنابة التي أصابها الوباء في نفس السنة كانت أعداد الوفيات بين 10 و 15 شخص يوميا تسببت فيه سفينة الحجاج، وكذا بالنسبة إلى وهران حيث كان الناس يموتون في الشوارع³¹، وفي سنة 1822م بدأ الوباء بالاختفاء، حيث كانت هذه السنة خاتمة للسنوات التي تضررت منها الجزائر العثمانية بوباء الطاعون³².

ويمكننا إرجاع خلو الجزائر من الوباء في الفترة ما بين 1822م- 1830م، مقارنة باستمراره بقوة في مناطق أخرى بعنف شديد مثل مصر، إلى عدة عوامل أهمها الحصار البحري الذي فرضه الأسطول الانجليزي أولا ثم الأسطول الفرنسي على السواحل الجزائرية، مما حداً من حركة انتقال التجار والحجاج إلى الجزائر أو الخروج منها. كما ساهم كذلك قلة القادمين من الولايات العثمانية أو حتى اسطنبول في تراجع الإصابة بالوباء، بفعل انخفاض عدد المجندين خاصة بعد قيام السلطان العثماني محمود الثاني بالثورة على الجيش الانكشاري عام 1826م، وهذا ما قد يثبت لنا أن وباء الطاعون الذي تعرضت له الجزائر في كل الفترة العثمانية، كان

ببتقل عن طريق البحر أي بواسطة سفن الحجاج وغيرها التي كانت تأتي من أقطار وأماكن مصابة بالداء، وتدخل إلى الموانئ لاسيما مصر والحجاز واسطنبول³³.

ب- الأوبئة الأخرى:

بالإضافة إلى وباء الطاعون الذي اعتبر أخطر الأوبئة على الجزائر، والذي سجل حضوراً سيئاً في كل الفترة العثمانية، كما يمكن تسجيل أوبئة أخرى خطيرة كانت محدودة زمنياً ومكانياً خلال تلك الفترة منها:

- وباء الجدري (LA Variole): أرجع المؤرخون وجود داء الجدري في منطقة شمال إفريقيا إلى ثلاثة آلاف سنة ماضية، واعتبروه من أخطر الأمراض التي تفتك بالسكان، إذ كان يصيب البلاد مرة كل أربع سنوات تقريباً³⁴، وفي فترة الحكم العثماني تم تسجيل وباء الجدري في الجزائر في بداية القرن السادس عشر، عندما ضرب الحامية الإسبانية في بجاية عام 1509م ثم في بداية عام 1560م.

وتفشى الوباء المعروف بالحبوبت وهو مرض الجدري المعدي،³⁵ في عهد صالح رايس سنة 1552م وأحمد أعراب سنة 1571م، كما تم تسجيله بمدينة الجزائر في 1789م، ثم من جديد عام 1803م³⁶، و تكررت أوبئته بحدة خلال سنة 1817م إذ يقتل خاصة الأطفال³⁷، فبين عامي 1803م و1804م قتل ما بين 2000 و3000 شخص³⁸.

- التيفوس (typhus): شكّل مرضاً خطيراً، حيث ارتبط بسنوات المجاعة واجتياح الجراد، وهو بالتالي وباء راسخ في الذاكرة الشعبية بالحروب والمجاعات، التشرد، الفقر والبيّوس³⁹، و تتمثل أعراضه في ارتفاع حرارة الجسم والصداع الشديد. ومما يمكن ملاحظته أن العديد من الأوبئة الأخرى لم تسجل في الجزائر كالكوليرا إلا في الفترة الاستعمارية الفرنسية ابتداء من 1834م، وهكذا شكّلت الأوبئة ظروفًا صعبة لسكان الجزائر طيلة العهد العثماني أدت إلى عدم استقرار البنية الديموغرافية الجزائرية.

ج- الأمراض المتعددة:

لقد عانى سكان الجزائر إلى جانب الأوبئة، من أمراض متعددة خلال العهد العثماني، ساعد في ذلك انتشار المستنقعات بالسهول الساحلية وحول المدن الكبرى مثل عنابة والجزائر ووهران وعدم التزام السكان بالقواعد الصحية التي كانت تميز الحضارة الإسلامية⁴⁰ ومن بين تلك الأمراض:

- الحمى بجميع أنواعها التي أصابت السكان بمختلف أعمارهم منها حمى الربيع التي تسمى بالحمى الصفراء (Fièvre jaune)، وحمى الصيف الخطيرة التي تؤدي إلى الوفاة خاصة في صفوف المسنين⁴¹، وحمى المستنقعات المعروفة بالمalaria المرتبطة بالمياه الملوثة، حيث كانت منطقة متيجة تعاني منها فيصف حمدان خوجة ذلك: « إنني ازور هذا السهل مرة في ربيع كل سنة لأنني أخشى الحمى في الفصول الأخرى، وحتى في هذه

الفترة أخذ معي ماء الكولونيا وغيره مما يقيني شر الهواء الفاسد ، كما أتزود من ماء مدينة الجزائر اشرب منه ، إن هذا السهل يشبه الغدير في الشتاء ، وفي الصيف والخريف تستوطنه الحمى باستمرار »⁴².

وذكر عالم الزراعة الفرنسي دي فونتين DE FONTAINE بأن متيجة في سنة 1784م «... مملوءة بهواء الأمراض المعدية وتتلخها من كل الجهات المياه الراكدة مشكلة مستنقعات غير صحية »⁴³ ، كما كان ينتشر الرمد الذي يصيب العيون خاصة الأطفال في أغلب الأوقات⁴⁴ ، إلى جانب ذلك لم تعرف الجزائر أمراضا خطيرة كأمراض الجلد والمفاصل وغيرها وفي ذلك يقول حمدان خوجة « ومن حيث التكوين الجسدي ، فإن أجسام الجزائريين رشيقة ، ذلك أن امتزاج العنصر التركي بالعنصر الأندلسي قد أنتج عنصرا مختلطا من النوع الرفيع ، الأمر الذي جعلنا لا نجد في مدينة الجزائر رجالا من ذوي العاهات أو المصابين بالأمراض المزمنة مثل النقرس وغيره ، كما لا نجد فيها تلك الأمراض الكريهة أو أمراض الجلد »⁴⁵.

د - الكوارث الطبيعية:

إلى جانب الأوبئة والأمراض تعرضت البيئة الصحية الجزائرية إلى جملة من الكوارث الطبيعية المختلفة ، مثل الجفاف والجراد والزلازل والفيضانات والمجاعات التي ساهمت في تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية⁴⁶ ونشير إليها فيما يلي:

1- **الزلازل:** عرفت الجزائر خلال العهد العثماني ، سلسلة من الهزات الأرضية العنيفة والشديدة تسببت في تخریب وهدم العديد من المدن وكذا خسائر معتبرة في الأرواح ، وتشير العديد من المصادر أن لوباء الطاعون علاقة بالزلازل ، وهو ما ذهب إليه مارسي Mercier عندما تكلم عن وباء سنة 1604م حيث ذكر أنه ناجم عن الزلازل أيام حكم سليمان باشا⁴⁷ ، ونفس الشيء يؤكد دي غرامونت من أن الأوبئة المستمرة في مدن الجزائر وقسنطينة وبسكرة نجمت عن زلزال 1639م⁴⁸.

كما عرفت البنية الديموغرافية لسكان الجزائر تأثيرا سلبيا أدى إلى تناقص أعدادهم كزلزال مدينتي الجزائر والمدينة عام 1632م ، إذ اهلك جل سكان الجزائر ، كما أن زلزال 1716م الذي تعرضت له السواحل الجزائرية قد أودى بحياة ما لا يقل عن 20000 نسمة⁴⁹ ، وكذا الزلزال العنيف الذي أصاب وهران وضواحيها في ليلة 08 إلى 09 أكتوبر 1790م ، فقد دمر في ظرف دقائق معدودة كل المنازل والكنائس واستمر حتى جانفي 1791م متسببا في قتل 3000 ضحية⁵⁰ ، وفي هذا الزلزال فقدت الحامية العسكرية الاسبانية ثلث رجالها ، ومن بينهم الحاكم العام بالنيابة دون نيكولا غارسيا⁵¹ ، وأثناء ذلك قام الباي محمد الكبير بإنقاذ المنكوبين بمساعدة المخزن الذي وزع الحبوب والزيتون الألبسة والخيام.⁵²

وأخر زلزال عرفته الجزائر في الفترة العثمانية هو زلزال مدينة البليدة عام 1825م الذي أحدث خسائر بشرية ومادية هامة، يقول الزهار: "هذا الزلزال مات فيه خلق كثير الذي فاجأ الأمير الذي أمر الرعية بالبحث عن الناس الذين تحت الأنقاض" ⁵³.

2- المجاعات والجفاف والجراد :

ارتبطت الأوبئة والأمراض كذلك بالاضطرابات الجوية من جفاف، وفيضانات ⁵⁴، والقحط والمجاعات، إذ عرفت الجزائر مجاعات عديدة نذكر منها مجاعة 1551م التي كان عدد ضحاياها معتبرا عبر كل الإيالة الجزائرية ⁵⁵، وكذا مجاعة عام 1752م التي استمرت أربع سنوات وذهب ضحيتها 1700 شخص في مدينة الجزائر وحدها في مدة ثلاثين يوما، وقد ذكر الشريف الزهار والعنتري أن الناس كانوا يموتون من جرائها في شوارع مدينتي قسنطينة الجزائر ⁵⁶، واستمرت المجاعات المرتبطة بفترات الجفاف واجتياح الجراد حتى نهاية الفترة العثمانية بالجزائر مما كان يضطر الحكام إلى استيراد الغذاء من خارج الجزائر للتزود بكمية هامة من الحبوب ⁵⁷.

ويمكن أن نشير إلى سنوات زحف الجراد بما يلي: 1663م- 1710م- 1724م- 1725م- 1760م- 1778م- 1779م- 1780م، وما بين 1784م- 1787م و 1798م- 1799م- 1800م- 1804م- 1816م- 1822م- 1824م، أما أعوام الجفاف فهي كانت في الفترة الممتدة من 1579م إلى 1580م ومن جوان 1612م إلى غاية 1609م، ومن عام 1734م إلى 1737م، ومن عام 1778م إلى 1779م وكذلك عام 1800م، وبالإضافة إلى عامي 1806م- 1807م، وعامي 1816م- 1819م ⁵⁸.

وهكذا كانت الجزائر تعرف فترات الجذب والقحط مما يسبب مجاعات متكررة مما أدى إلى التزايد في عدد الأموات عبر كامل البلاد، وقد قام الباي محمد الكبير في إحدى تلك الفترات بجلب القمح من أوروبا ويوزعه على السكان مجانا، وأعطى المزارعين من دفع الضرائب ⁵⁹، أما الفيضانات فتشير بعض المصادر إلى أن هناك مساحات شاسعة من متيجة اكتسحتها المياه اثر الفيضانات التي حدثت في شهر مارس 1673م وعام 1694م ⁶⁰، ومن خلال هذا نرى الارتباط الواضح بين هذه الكوارث والآفات الطبيعية وبين ظهور الأوبئة والأمراض بصورة مستمرة، جعلت البيئة الصحية الجزائرية تعرف تدهورا متواصلا طيلة الفترة العثمانية.

1- تأثير الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية على السكان:

لقد أحدثت الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية بالجزائر خلال العهد العثماني، تأثيرا مباشرا وبلغا على السكان، حيث أدت إلى تناقص أعدادهم في المدن والأرياف بشكل محسوس من خلال استنزاف ديموغرافيا خطيرة ⁶¹، حيث عرفت الجزائر منذ القرن 18م تدهورا مفاجئا وسريعا في عدد السكان ففي عام 1787م كان يموت يوميا ما بين 29 إلى 30 فردا، وهذا أدى إلى هلاك 16721 نسمة في مدينة الجزائر منهم 14330 من المسلمين والباقي من الأسرى واليهود ⁶².

ومما يمكن الإشارة إليه أنه من الصعوبة أخذ فكرة دقيقة عن عدد السكان في مختلف الايالات العثمانية وليس الجزائر فحسب، لأن المسلمين يعتبرون عملية الإحصاء إثما كبيرا شأنهم في ذلك شأن اليهود⁶³، لكن المؤكد أن الأوبئة والأمراض والكوارث الطبيعية كان لها دور كبير في تناقص عدد السكان، وتأثير بالغ على النواحي الاقتصادية والاجتماعية، فقد كانت دائما الأحوال الصحية عائقا أمام تحسن الأحوال المادية⁶⁴.

فمن الناحية الاجتماعية فأنشاء الأوبئة تستجد أعمالاً قد لا نجدها في الأوقات الأخرى مثل نشاطات بيت المال، إذ كان الوباء يطرح مشكلة الإرث وتنشط مؤسسات الأوقاف فيقول حمدان خوجة في ذلك « وفي زمن الطاعون كان لإدارة بيت المال نشاط يفوق جميع الإدارات الأخرى، فهي تقوم بإحصاء الموتى، وتعمل على تجنب الفوضى التي تتسبب فيها كثرة الوفيات، كما أنها هي التي تتولى التركات المهمة وتقوم بعمليات الميراث »⁶⁵.

ولعل أخطر تأثير نلمسه للأوبئة هو هلاك أعداد كبيرة من علماء الجزائر خلال كل العهود، لما يمثلونه من ثقل فكري وحضاري هام، وفي العهد العثماني تحمل لنا مؤلفات ابن مريم والفكون العديد من أسماء العلماء الذين هلكوا بالطاعون، نستطيع أن نذكر منهم كل من أبو محمد بركات المسبح القسنطيني الذي توفى بالطاعون عام 1574م⁶⁶، وكذلك عبد الله بن محمود بن عمر التتبيكتي الذي كان فقيها بارزا توفى بالطاعون يوم الاثنين عام 1597م⁶⁷، كما توفى العالم الجليل سيدي عبد اللطيف بن عبد الكريم بن بركات بن سعيد مطعونا عام 1621م⁶⁸، وخلال طاعون عام 1647م توفى الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السلجماسي شهيدا بالطاعون في الجزائر⁶⁹.

وتسبب الطاعون في هلاك العالم الفقيه محمد بن عبد الكريم الفكون الذي كانت وفاته رضي الله عنه عشية الخميس 24 ذي الحجة 1073هـ الموافق لـ 1662م⁷⁰، ووفاة أبي سالم العياشي يوم الجمعة 18 ذي القعدة عام 1679م، وكذلك وفاة العالم الجليل سيدي محمد أبو راس ابن احمد بن ناصر الراشدي الناصري صاحب التأليف التي جاوزت المائة الذي توفى مطعونا رحمه الله عام 1238هـ الموافق لـ 1822م، وقد جاوز التسعين وصلى عليه ألف وخمسمائة نفس بتحرير من حضر، جلهم حملة القرآن وعلماء وأشراف، وكان إمام الجميع تلميذه العلامة أحمد الدائح، ودفن بمعسكر⁷¹، هذه عينة بسيطة من علماء الجزائر مما استطعنا حصرهم الذين قضوا بالطاعون المنتشر آنذاك، ولعل القائمة طويلة لان الطاعون كان موجودا في كل الأوقات خلال العهد العثماني.

3- سياسة حكام الجزائر من الأوضاع الصحية:

ذكرت العديد من المصادر والمراجع، بأن حكام الجزائر كانوا لا يهتمون بأمور الصحة ولا يولونها العناية اللائقة بها⁷²، كما لم تكن لهم سياسة واضحة إزاء ذلك، وقد نفسر هذا الإهمال بإيمان اغلب الحكام أن الأمراض والأوبئة قضاء وقدر، باعتبارها إرادة الإلهية ورحمة وشهادة في سبيل الله.

ويتضح ذلك في موقف الداى إبراهيم عندما طلب منه نائب القنصل الفرنسي فرض الحجر الصحي على سفينة فرنسية وصلت إلى ميناء الجزائر، قادمة من ميناء الإسكندرية جوان 1740م على متنها مرضى بالطاعون فكان رد الداى عليه مايلي: « إنى أرى خوفك من انتقال العدوى يفسر يكونك مسيحيا، وبهذه الصفة تظن أن بإمكانك الإفلات والهروب من القدر وإرادة الله اذهب أنا تركي ولا أخشى الطاعون، فماذا يستطيع أن يفعل الطاعون، نحن أسوء وأخطر منه، ولو حاول اجتياح المدينة فلدينا مدافع لمواجهة » وبالتالي أمر الداى بإنزال البضائع وتسليمها، مما أدى لانتشار الوباء ولمدة أربع سنوات ليس في الجزائر فقط بل في كل شمال إفريقيا، متسببا في خسائر كبيرة حيث تم تسجيل 400 وفاة يوميا⁷³، نتيجة إهمال الداى وعدم أخذه بنصيحة نائب القنصل الفرنسي.

ونفس الشيء نجده عند الداى دالي إبراهيم، الذي أظهر موقفا مشابها، حيث أن احد الموظفين توفي أثناء عقد مجلس الديوان، ورغم ذلك واصل الداى أعمال الجلسة دون أن يتأثر بما وقع⁷⁴، كما يذكر دي غرامونت أن علي شاوش رفض العلاج مستسلما للقدر حتى توفي في شهر جانفي 1718م، وهذا ربما يفسر لنا عدم اهتمام حكام الجزائر بالرعاية الطبية، وهذا ما أدى بالطبيب الانجليزي شاو يقول: « أن الجزائر لم تكن تتوفر على طبيب واحد »⁷⁵.

كما نقل لنا الأسير سيمون بفايفر (Pfeiffer) انه عندما سأله الخزناجي عن مهنته فرح كثيرا لما أجابه انه تعلم فن الجراحة، وقال له أنها مهنة تدر الأموال على صاحبها خاصة في الجزائر حيث لا يوجد طبيب ماهر بعد أن انتهى فن الطب العربي⁷⁶، ويذكر انه عندما طلب من الخزناجي كتباً طبية خاصة بالجراحة، رد عليه انه لا يستطيع أن يحضر لي شيئا، أما إذا كان بحاجة إلى كتب عربية أو فارسية أو تركية فانه يضع تحت تصرفه الكثير منها.⁷⁷

إن أغلب الحكام لم ينتهجوا سياسة وقائية واضحة في الوقت الذي نجد أن الأوروبيين أبلوا بلاءً حسنا في اتخاذ الإجراءات الوقائية بابتكار نظام الكرنتية⁷⁸، حيث في ذلك قال حمدان خوجة: « فكننت رأيت بالبلاد الإفريقية انتظام أمورهم واعتنائهم بأمور السياسة في صيانة جمهورهم، وخصوصا حيث التزموا لدفع الوباء »⁷⁹، وحتى في المغرب نجد أنه في أيام السلطان المولى عبد الرحمان المتوفى في عام 1822م أسس السفراء بطنجة مجلسا صحيا يهدف إلى إنشاء محجر صحي لوقاية المغرب من أضرار الوباء⁸⁰، وكذلك نجد هذا الإجراء معمولاً به في تونس فقد تحدث المؤرخ أبو القاسم الزياني عن التدابير الصحية التي اصطدم بها في تونس أثناء عودته سنة 1794م مع عدد من الحجاج، إذ لم يسمح لهم بدخول ميناء تونس إلا بعد قضاء حجر صحي لمدة 20 يوم⁸¹.

لقد ذكر كذلك دي غرامونت إهمال حكام الجزائر للإجراءات الوقائية بقوله أن الأتراك كانوا لا يفرضون الحجر الصحي على السفن لتفادي انتقال الأمراض⁸²، وهذا نلاحظه أيضا في موقف الداى محمد عثمان خوجة عام 1786م عندما سمح للسفن المطعونة بالرسو بميناء الجزائر مما أدى إلى انتشار العدوى إلى

مدينة الجزائر ومناطق أخرى من الولاية، ويذكر مارشيك أن المسؤولين كانوا يهددون ويعاقبون من يتكلم عن هذا المرض مثلما حدث لليهوديين وبسكريين بتاريخ 05 أوت 1786م⁸³.

كما كان بعض الدايات يلجأون إلى الهرب من الوباء، فيذكر هايدو أن الباشا محمد تكرلي، هرب من مدينة الجزائر بسبب الطاعون الذي أحدث العديد من الضحايا واستقر تحت خيمة في رأس كاكسين (CAP CAXINE)⁸⁴، كما فرّ عثمان باي من مدينة وهران اثر وباء 1794 م إلى سهل ملاتة مع عائلته وحاشيته، ولم يعد إلى القصر إلا بعد ثلاثة أشهر وسمي ذلك الوباء من قبل السكان ب"طاعون عثمان"⁸⁵.

إن اعتبار الحكام الفرار من الوباء نوع من الاحتراز والوقاية، وشكلاً من أشكال الحجر الصحي، ودليل على الوعي والتحلي بالحذر، فإن هذا السلوك يؤثر تأثيراً سلبياً على معنويات السكان ويعطل الحياة السياسية، والأعمال وبالتالي تقليد العامة لهم أدى إلى انتقال العدوى إلى الجهات الخالية من الوباء، وهكذا ينتشر ويعم على كل البلاد.

كما لجأ بعض الحكام إلى الأطباء الأجانب وكانوا يختارونهم في الأغلب من الأسرى الأوروبيين، حيث نجد الطبيب الايطالي باسكال قاريزو Pascal Grrusot حيث كان يتكفل بصحة صالح باي، والطبيب الأسير الألماني بفايفر كان يتكفل بصحة خزناجي الداى حسين عام 1829م حيث يقول « إنني لاحظت الوزير يعاني من التهاب في الكبد، فقامت بوضع دم القنفذ على كبد المريض وحضرت له مزيجاً من الشاي والسكر والصمغ العربي، وطلبت منه تناول المشروبات الباردة، وفي اليوم التاسع من العلاج شفي المريض من مرضه⁸⁶ ».

ومما يمكن الإشارة إليه انه إضافة إلى قلة الأطباء فإن الصيدليات تكاد تكون منعقدة، إذ لم يرد ذكر سوى صيدلية واحدة بمدينة الجزائر وكانت تحتوي على مجموعة من القناني والكؤوس المحتوية على العقاقير والتوابل، يشرف عليها "باش جراح"، والذي هو جراح مسلم مسؤول عن الأطباء، حيث كان يشغل وظيفة الصيدلي والجراح والطبيب في آن واحد، بالإضافة إلى بعض المحلات (الحوانيت) التي كانت تباع أنواعاً معتبرة من الأدوية المستخرجة في معظمها من النباتات كالصبر والحلبة والقرنفل⁸⁷.

كما ذكر لامارك LA MARQUE أن الحكومة التركية لم تهتم بالحالة الصحية والمستشفيات في الجزائر، إذ كان همها الوحيد هو السباق نحو القرصنة، وأكد أنه قبل الاحتلال الفرنسي لم يكن هناك وجود للعناية الصحية، فالسكان يقول كانوا يعالجون في المساجد بوسائل طبية بسيطة للغاية، ويصف مصحة عقلية في زقاق باب عزون بأن ظروفها كانت مقرفة وصعبة للغاية⁸⁸.

لقد تواصل إهمال الحكام للحالة الصحية طيلة فترة حكمهم، رغم أنه في بداية التواجد نجد البايبراي حسن باشا ابن خير الدين قد أسس مستشفى صغيراً للانكشارية والشيوخ والعجزة في عام 1549⁸⁹، بالإضافة وجود إلى ملاجئ ومأوى مثل مأوى بوطويل خارج باب الواد إذ كان ملجأ الأهالي الذي يجدون به

الخبز، وكان هذا المأوى وقفا للفقراء، وكذلك مأوى زنقة الهواء للأتراك والانكشاريين المعوقين، والمرضى الشيوخ⁹⁰، كما كانت الزوايا تتكفل بصحة السكان فكانت تأوي الفقراء والعجزة والمعوقين.⁹¹

لقد عملت الدول المسيحية منذ بداية العهد العثماني، بالاعتناء بالأسرى في الجزائر، وذلك بإنشاء مستشفيات لهم خاصة إسبانيا وفرنسا، ففي عام 1665م كانت توجد بالجزائر خمسة مستشفيات تدار من قبل الأب بيدرو PEDRO⁹²، وشكّلت هذه المستشفيات ملاذاً آمناً للأسرى من الأمراض فيذكر كاثكارت أنه نقل إلى المستشفى حيث وجد عناية طبية من أحد الأطباء الأسبان، مما جعله يسترد صحته في وقت عاجل⁹³.

وفي المقابل نجد بعض الحكام وهم قلة من اهتم بالأوضاع الصحية والإجراءات الوقائية، مثلما فعله صالح باي عام 1787م بفرضه حزام صحي حول عنابة وضواحيها لمنع انتقال وتسرب العدوى والأوبئة الفتاكة والخطيرة إلى قسنطينة⁹⁴، وكذلك الباي محمد بن عثمان الملقب بمحمد الكبير باي الغرب الذي كان واسع الاطلاع على علم الطب مغرماً بدراسته فكان يجهز بنفسه الأدوية المختلفة ويوزعها على أفراد الشعب ليقول: «أنا طبيب الفقراء»⁹⁵، حيث عرفت فترته مجاعة كبيرة هلك فيها الكثير من السكان...وحدث بأول مملكته بالمعسكر مسغبة عظيمة هلك بها أناس كثيرون إلى أن أكلت الميتة، والدم، ولحم الخنزير...»⁹⁶.

وقد وصفه كاتبه ابن سحنون الراشدي بقوله: «وله في الطب اليد الطولى والمرتبة العليا فهو يصف إلى الناس الأدوية ويدفع لهم، حتى أن المساكين وغيرهم يفرعون إليه في ذلك كما يفرعون إلى الطبيب الماهر»⁹⁷، كما طلب منه تأليف قاموس طبي "المنحة القدوسية في الأدوية القاموسية" أين قام المؤلف بترتيب الأدوية ترتيباً أبجدياً، وقد قدم له الباي محمد الكبير 50 قطعة ذهبية "سلطاني" نظير هذا العمل⁹⁸.

و يذكر كذلك ابن حمادوش في رحلته أن باشا الجزائر عام 1744م⁹⁹ قد فرض الحجر الصحي على مركب حجاج من الإسكندرية، فيقول «وفي الثالث رجب الموافق آخر يوم من يولييه قدم علينا مركب من إسكندرية بالحجاج، فيه الوباء فمنعهم الباشا الدخول، حمية من أن يقوم ممرض عن مصح. إلى ثامن عشرة، موافق خامس عشر أغشت، أذن لهم في الدخول، بعد تحقق سلامتهم من المرض المذكور»¹⁰⁰.

كما كان بعض الحكام يتخذون إجراءات مهمة أثناء الكوارث الطبيعية، حيث يذكر الزهار «وجاء الجراد في هذه السنة، أوله أتى طائراً، ثم غرس وأقام أياماً في الأرض ثم خرج وأكل الزرع والأشجار والثمار ووقع الغلاء في تلك السنة، وأعطى الأمير القمح لجميع الخبازين وجعل له سعراً مناسباً على سعر أيام الرخاء... وبقي الأمر كذلك إلى أن وجد الزرع الجديد»¹⁰¹.

4- الثقافة الطبية عند سكان الجزائر:

إن تدهور الأوضاع الصحية للمجتمع الجزائري، أحدث ثقافة طبية متباينة عند السكان، حيث كانت النظرة للصحة والمرض تختلف باختلاف الثقافات آنذاك، فالصحة والمرض ظواهر ثقافية مثل ما هي

ظواهر بيولوجية من حيث ثقافة التفسير والاعتقاد الخاصة بها ، فالثقافة هي التي تحدد للمريض تقييمه وتصوره لحالته المرضية وردود أفعاله تجاه المرض ، فهو إما يذهب إلى الطبيب أو يذهب إلى المعالج المحلي أو الساحر ، أو يتجاهل تماما أعراض مرضه ، فتقييم المريض وسلوكه تجاه مرضه ، أمر يختلف باختلاف الخلفية الثقافية والاجتماعية¹⁰² .

فهناك من اقتصرت نظرته على أن الأوبئة والأمراض إرادة إلهية ، وبالتالي لابد من الاستسلام للقدر إلى درجة عدم التحلي بالصبر والوقاية من العدوى ، فقد كانت النساء مثلا يصبن بأمراض معدية بمجرد احتكاكهن بأموتهن أثناء البكاء عليهم ، وقد تكون تلك التصرفات عن جهل أو تفسير جزئي وخاطئ للأحاديث الشريفة التي تنص على القضاء والقدر ، مثل حديث الرسول الكريم: « ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطاك لم يكن ليصيبك » وقوله عليه السلام: « لا يغني حذر من قدر » وقوله أيضا: « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الأسد »¹⁰³ .

الاستسلام للقدر والمكتوب جعل تفسير كل المصائب على أنها إرادة الله ، سواء كانت أمراضا أو كوارث طبيعية كالزلازل والجفاف والجراد ، وهذا ما ذكره الطبيب شو بقوله: «... ومع ذلك وحتى أقدم فكرة عما وصلت إليه العلوم والفنون في بلاد البربر أشير بادئ ذي بدء ، إلا أنه فيما يخص الطب ، فإننا نفتقر افتقارا كليا لأطباء أكفاء حيث تنتهي غالبية الأمراض الخطيرة بالوفاة أو المرض المزمن حيث أن كثيرا من المسلمين يؤمنون بمبدأ القدر الإلهي ... »¹⁰⁴ .

وهكذا أدى التصور الثقافي والديني للأمراض والأوبئة من طرف سكان الجزائر إلى قبول الداء وانتظار الشفاء من الله ، دون اتخاذ الأسباب والبحث عن الدواء ، فقد كان ذلك ثقافة سائدة عند السكان والحكام على السواء ، وحتى عند بعض العلماء ، فالسكان كثيرا ما كانوا يرفضون تلقي العلاج ، وقد ذكر شو أن السكان « يرفضون بعناد تلقي أي نوع من الإرشادات الطبية ويمتنعون عن تناول أي نوع من أنواع العلاج ، في حين يسخر آخرون مما يمكن أن يقدمه الطب من إسعافات ، فيعهدون بأنفسهم كلها إلى حكم الطبيعة وحدها »¹⁰⁵ .

وإذا اجتاحت الطاعون المسلمين فهو فضل إلهي ، إذ يعد كل مسلم أن الوباء إذا أودى بحياته فهو شهادة في سبيل الله مثل سقوط المجاهدين في المعارك ، فالمسلم الحقيقي هو الذي يصبر ويرضى بالمرض¹⁰⁶ ، وهذا تأكيدا للأحاديث النبوية التي تحض المسلمين على عدم الخروج من الأراضي التي أصابها الطاعون لقوله عليه الصلاة والسلام: « إذا سمعتم به بأرض قوم فلا تقدموا عليه » وحديث أن « الطاعون شهادة لكل مسلم ».

ومن جانب آخر أحدثت الأوبئة والأمراض حالة من الخوف لدى السكان كونت لديهم كذلك ثقافة احترازية وعلاجية مميزة ، وكثيرا منها كانت سلبية وخطيرة مثل الهروب من مناطق الوباء مما يتسبب في انتشاره بسرعة مخيفة عبر الأرياف والمدن ، ففي وباء 1740م كل المنازل أخلت من قبل السكان في مدينة

الجزائر¹⁰⁷، وتكون وجهتهم في اغلب الأحيان الجبال كما فعل عثمان باي عام 1794م أو إلى الأرياف والصحراء.

كما نجد فئة أخرى من السكان خاصة في المدن يكتفون بالبقاء في منازلهم أثناء الوباء، امتثالاً للحديث النبوي الشريف الذي ينص على عدم الخروج من الأرض التي يحل بها الوباء، كما أن الأسرى الذين يصيبهم الوباء يحوّلون إلى المستشفى المجاور للسجن، حتى يمتثل إلى الشفاء أو يموت فيدفن وتشيع له جنازة محترمة¹⁰⁸.

وفي بعض المناطق نجد ثقافة احترازية واعية من الأمراض والأوبئة، فكان السكان لا يستقبلون الوافدين عليهم دون التأكد من سلامتهم خاصة وفود الحجيج، ويتبعون نظاماً احترازياً محكماً عند التعامل مع من يشكون في إصابتهم بالوباء كأنه حجر صحي معتمد، وهذا ما ينقله لنا سالم العياشي¹⁰⁹ أثناء عودته من رحلة الحج عندما مر على منطقة الأغواط حيث يقول: « ونزلنا الأغواط قبل الظهر يوم الأحد السادس عشر من رمضان، وكان في الركب أعراب سعاة من دمك يتكففون الناس فقالوا لأهل البلدان: في الركب وباء، فلم يتركوا أحدا يدخل إليهم، ووجدنا الغلاء كثيراً عندهم مقدار مدين فاسيين بريال قمحا، فلم يخرج منهم إلى الركب، وكانوا يدلون الزرع من فوق السور ويأخذون الريال ويفسلونه ولا يتناولونه إلا بعد الغسل »¹¹⁰.

ونفس الشيء ذكره حمدان خوجة من أن خشيته من الحمى في سهل متيجة جعله يغسل بهاء الكولونيا وغيره ليقية شر الهواء الفاسد¹¹¹، ويحذر من عدم الاحتراز فيقول: « لهؤلاء النساء اللاتي لا يتوقضن عن الاشتغال، إنهن قذرات لا يعتنين بهندامهن، الأمر الذي يجعلهن عرضة للحمى ولغيرها من الأمراض »¹¹².

إلى جانب ثقافة الاحتراز كان السكان يلجئون إلى معالجة العديد من الأمراض معتمدين على وسائلهم الخاصة ومعتقداتهم في ظل إهمال الحكام لأوضاعهم الصحية، وذلك امتثالاً للسنة النبوية الشريفة، إذ أمر الرسول الكريم أمته بالتداوي وطلب الشفاء لقوله عليه السلام: « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له الشفاء »¹¹³ وقوله: « لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل »¹¹⁴، كما استعمل السكان الطب التقليدي المتوارث كدواء لبعض الأمراض كما اعتمدوا على الأدعية والأحجية والتمايم للتخفيف عن مرضاهم من الممرض¹¹⁵، فكثيراً ما يلجأون إلى الحمية للتداوي خاصة من الحمى¹¹⁶.

ويذكر بربرغر أن للجزائريين وسائلهم الخاصة في حالة وجود مرض، حيث يذكر أنه لعلاج الحمى كان يلجأ قائد السفينة إلى مطالبة الجدافين المصابين بالحمى بمواصلة الجدف مقدماً لهم حمية خاصة تساعد على إخراج العرق، وفي بعض الأحيان يوهم المصاب بالحمى بأنه سيحرقه فيلوذ بالفرار فيخرج منه العرق ويشفى بعد ذلك¹¹⁷، كما كانوا يعالجون مرض الزهري بحمية من أصعب ما يكون، وكان المريض يشفى شفاء تاماً في ظرف شهرين¹¹⁸.

أما وباء الجدري حسب شو يعالجونه بترك المريض في مكان معتدل الحرارة ويناولونه من وقت إلى آخر بعض حبات الكرمس (التين) المجفف الممزوج في العسل، وأن العرب يعالجون كل أشكال الإصابات من الأسلحة البيضاء أو النارية بوضع الزبدة على الجراح¹¹⁹، كما كانت الحناء وسيلة لعلاج الحروق والجروح، وكانوا يتغلبون على لدغة العقرب والأفعى بوضع البصل والثوم على مكان اللدغة¹²⁰.

وكانت للنساء قوالب معروفة بالمهارة في التوليد والاهتمام بصحة المولود وأمه، عن طريق نظام غذائي جيد كالعسل وزيت الزيتون والحليب والعديد من النباتات « إن خبرة هؤلاء النسوة كانت بالغة بخصوص عمليات الولادة فهذه الطرقات كانت بدائية محضة، والملفت للانتباه أن جميع النسوة كانت على دراية بالعقاقير والأعشاب الطبية المستعملة، فكل واحدة منهن تتعلمها من والدتها ومن نساء أخريات كبيرات في السن »¹²¹.

كما لجأ العديد من السكان إلى استعمال البخور والعلاج بالمياه المباركة، وتعاطي الشعوذة قصد الشفاء وإزالة آثار السحر والوقاية من الحسد، كما كانت زيارة الأولياء والمرابطين أمرا شائعا لاعتقادهم بأن زيارة المقام تنزل عليهم البركة، وتقيهم من الأمراض والأوبئة، « وقد كانت النساء يزرن القرب بانتظام كي يقدمن القربان ويوقدن المصابيح الزيتية، ويضعن الزهور لتدعيم التدخل الديني الذي يطلبه بغية أبعاد المصاعب الاجتماعية والعائلية »¹²².

ولقد ذكر ابن خلدون أن تلك الثقافة قديمة عند العرب إذ عرفوا منذ القدم الطب الذي يعتمد على التقليد وإتباع طرق من سبقوهم، وأن كانت معظمها خرافية وبعيدة عن الدين والسنة « ولأهل العمران طب بينونه في غالب الأمر من تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، ويتداولونه متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض »¹²³.

الخاتمة: من خلال هذه الدراسة المتواضعة التي قمنا بها حول الأوضاع الصحية بالجزائر خلال العهد العثماني، نستطيع تسجيل بعض الاستنتاجات والملاحظات التي توصلنا إليها والتي تعكس الواقع الصحي آنذاك وهي:

- إن الأوبئة والأمراض التي تعاقبت على الجزائر أثناء الوجود العثماني، أدت إلى تدهور الأوضاع الاجتماعية والمعيشية للسكان، خاصة مرض الطاعون القاتل الذي كان آفة مرعبة متكررة بصورة دائمة آنذاك، حيث عانت منه كل الفئات الاجتماعية.

- رغم انتشار الأوبئة فقد سجلت لنا المصادر والمراجع أن الأمراض الأخرى لم تكن منتشرة كثيرا في المجتمع الجزائري، وذلك لاهتمام السكان بالجانب الصحي واعتنائهم بنظافة ملابسهم ومنازلهم، فكانوا يغسلون أيديهم لأداء الصلاة وقبل تناول الطعام، جعل الأوربيين يعتقدون أن ظاهرة الغسل المتكررة عند الجزائريين شذوذا، ومما يؤكد اهتمام الجزائريين بنظافتهم الأعداد الكبيرة للحمامات المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد آنذاك.

- إن الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية، شكّلت لسكان الجزائر في الأغلب قدرا محتوما وإرادة إلهية لا بد من الاستسلام لها، وعدم اتخاذ أي احتراز ووقاية تتألف هذا الاعتقاد، حيث أن الوضع الصحي المتدهور والغير مستقر الذي كانت تعرفه الجزائر أثناء العهد العثماني قد أفرز نوعا من العلاج امتزج فيه الطب بالخرافة والشعوذة، فقد كان التكفل بصحة السكان ومعالجتهم يعود إلى الطالب أو المرباط في أغلب الأحيان عبر وصفات علاجية متوارثة أو موجودة في كتب الأولين، مثل كتاب القانون لابن سينا و تذكرة الأنطاكي في أحسن الأحوال، أو من خلال القرآن والسنة النبوية باعتماد الرقية في علاج مختلف الأمراض.

- عناية حكام الجزائر بالجانب الصحي لم يتعدى اهتمامهم بشؤون صحتهم الخاصة، حيث لم يقوموا بتشجيع دراسة الطب في المدارس، ولم ينشئوا أكاديميات طبية للبحث في مثل هذه العلوم، فمعظم الباشاوات والبايات جلبوا لأنفسهم أطباء أوروبيين أو من المقيمين في الجزائر لأغراض تجارية أو سياسية، ومن الأسرى الأجانب، ماعدا استثناءات قليلة من خلال مساعي باي وهران محمد الكبير وتشجيعه للأطباء.

الهوامش:

- ¹ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ج2"، م.و.ك، الجزائر، 1988، ص 124.
- ² الطاعون: مرض تتسبب فيه جرثومة يارسين، ويصيب في أغلب الأحيان أنواعا عديدة من الحيوانات القارضة خاصة منها الفئران، نقلا عن: عائشة غطاس "الوضع الصحي في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة الثقافة، عدد 76، الجزائر، 1983، ص 24.
- ³ فلة موساوي- القشاعي، الصحة والسكان في العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر 2003-2004، ص 49.
- ⁴ سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص 126.
- ⁵ القشاعي: «وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، دوراته وسلم حديثه وطرق انتقاله»، مجلة دراسات إنسانية، جامعة الجزائر، عدد 1، سنة 2001، ص 134.
- ⁶ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 417.
- ⁷ A. BERBRUGGER, "mémoire sur la peste en Algérie" en exploitation scientifique de l'Algérie, imp. Royal, paris 1847, P. 180.
- ⁸ H. D. DE GRAMMONT, Histoire D'Algérie sous la domination Turque (1515,1830), Ed. Ernest Leroux, paris, 1887, P.P.17-18.
- ⁹ JEAN.MARCHIKA, La peste en Afrique septentrionale: Histoire de la peste en Algérie de 1363 à 1830, julien carbonal, Alger 1927, P. 24.
- ¹⁰ BERBRUGGER, op. cit., p.206.
- ¹¹ MARCHIKA, op. cit., p.29.
- ¹² A.DEVOULX, "assassinat du pacha Mohamed tekerli" in R.A. N°15, Année 1871, o.p.u, Ed. Bastide, Paris 1871, p.82 .
- ¹³ DIEGO DE HAËDO, Histoire des rois d'Alger, traduit par H.D. De Grammont, Adolphe Jourdan, Ed Alger, Alger 1881, P.120.
- ¹⁴ DEVOULX, Quelques tempêtes à Alger, in R.A. N°15, 1871, p. 342 .
- ¹⁵ محمد الصالح بن الغنترى، فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتعليق يحي بوعزيز، دم.ج. الجزائر 1991، ص 33.

- ¹⁶ MARCHIKA, op. cit., p.37.
- ¹⁷ LUCIEN RAYNAUD, Épidémies de peste dans la régence d'Alger: cas de peste survenus dans la colonie de 1899 a 1924, p.306.
- ¹⁸ MARCHIKA, op. cit., p.48.
- ¹⁹ MARCHIKA, op. cit., p. 49 .
- ²⁰ DE GRAMMONT, op.cit., p.203
- ²¹ Idem, p.268-269
- ²² MARCHIKA, op. cit., p.75
- ²³ Idem, p. 80
- ²⁴ الحسين بن محمد الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تصحيح محمد بن شنب، مطبعة بيبيرفونتانا، الجزائر 1908، ص87.
- ²⁵ أحمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر (1754- 1830)، ش.و.ن.ت، الجزائر 1974، ص51.
- ²⁶ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر 1979، صص39- 40.
- ²⁷ توفيق المدني، مذكرات...، مصدر سابق، ص151.
- ²⁸ المصدر نفسه، ص 144.
- ²⁹ MARCHIKA, op.cit., p. 168.
- ³⁰ Idem, p.178.
- ³¹ Idem, P.162.
- ³² Idem, P.178.
- ³³ سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص 124 .
- ³⁴ عائشة عطاش: "الوضع الصحي للجزائر خلال العهد العثماني"، عن مجلة الثقافة، ع76، الجزائر، 1983، ص126.
- ³⁵ عبد الله بن محمد الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر، تحقيق وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2006، ص141.
- ³⁶ MUSTAFA KHAIATI, Histoire de la médecine en Algérie, Edition ANEP 2000, p 253 .
- ³⁷ MARCHIKA, op. cit., p.156.
- ³⁸ (c) BOUTIN, Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, publié par G. Esquer, Paris 1927, P. 67 .
- ³⁹ KHIATI, op. cit., p. 246.
- ⁴⁰ سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص 124 .
- ⁴¹ MARCHIKA, op. Cit., p. 156.
- ⁴² حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر 1982، ص ص 87.88.
- ⁴³ وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعليق وتعريب عبد القادر زيادية، ش.و.ن.ت، الجزائر 1980، ص 115.
- ⁴⁴ HAËDO, op. Cit., p.492.
- ⁴⁵ حمدان خوجة، مرجع سابق، ص 105 .
- ⁴⁶ سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص 127.
- ⁴⁷ E. MERCIER, Histoire de Constantine, Constantine 1903, P. 219.
- ⁴⁸ DE GRAMMONT, op. cit., p.189.

- ⁴⁹ سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص 128.
- ⁵⁰ DE GRAMMONT, op. cit., p.343.
- ⁵¹ أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ط2، ش.ون.تن، الجزائر 1976، ص 524.
- ⁵² MOULOUD GAID, l'Algérie sous les turcs, Edition minioumi.2ed, Alger 1991, p.165.
- ⁵³ توفيق المدني، مذكرات...، مصدر سابق، ص155.
- ⁵⁴ DEVOULX, quelque tempête à Alger, In R.A N°15, 1871, p 342 .
- ⁵⁵ MARCHIKA, op.cit. p24.
- ⁵⁶ سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص 130. أنظر كذلك محمد صالح العنتري، مجاعات قسنطينة سنين القحط و المسغبة ببلاد قسنطينة، مخطوط رقم 2330، المكتبة الوطنية الجزائرية.
- ⁵⁷ HAËDO, op. cit. p84.
- ⁵⁸ سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص129.
- ⁵⁹ عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، د م ج، دار الثقافة، بيروت 1982، ص 261.
- ⁶⁰ المرجع نفسه، ص129.
- ⁶¹ سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000، ص 569.
- ⁶² المرجع نفسه، ص 127.
- ⁶³ (DSD), JUCHEREAU, Considérations statistiques, Historiques, militaires et politiques sur la régence d'Alger, De Lanny lib, Paris 1831, P.40.
- ⁶⁴ سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني، م.وك، ط2، الجزائر 1985، ص 52.
- ⁶⁵ حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 136 .
- ⁶⁶ عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، ص 47.
- ⁶⁷ أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، المكتبة العتيقة، تونس 1985، ص 252.
- ⁶⁸ الفكون، مصدر سابق، ص 78.
- ⁶⁹ الحفناوي، مرجع سابق، ص 73.
- ⁷⁰ المرجع نفسه، ص 166.
- ⁷¹ المرجع نفسه، ص 342.
- ⁷² سعيدوني، ورقات ...، مرجع سابق، ص 125.
- ⁷³ MARCHIKA, op. cit., p. 79.
- ⁷⁴ DE GRAMMONT, op.cit., p. 278.
- ⁷⁵ SHOW, op. cit., p. 80.
- ⁷⁶ سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تعريب وتقديم أبو العيد دودو، ش.ون.تن الجزائر 1979، ص 25.
- ⁷⁷ المرجع نفسه، ص 48 .
- ⁷⁸ الكرنيتية: بمعنى أربعين، حيث يحجز الوافدون من الخارج الذين يشتبه في مرضهم، أربعين يوما حتى تثبت سلامتهم من الوباء.

- ⁷⁹ حمدان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، وزارة الثقافة، الجزائر 2007، ص 45.
- ⁸⁰ محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج2، مؤسسة تنشرة للنشر والطبع، الدار البيضاء، ص 140-141.
- ⁸¹ أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي، دار النشر، الرباط 1991، ص 471.
- ⁸² DE GRAMMONT .op.cit.,P.410.
- ⁸³ MARCHIKA .op cit., p.123.
- ⁸⁴ E. WATBLED, "Documents inédits sur l'assassinat du Pacha TEKERLI, (1556-1557), In R.A N°15. P.338.
- ⁸⁵ MARCHIKA, op. cit., p. 145.
- ⁸⁶ بفايفر، مصدر سابق، ص 26.
- ⁸⁷ LAMARQUE (Léonce), la Recherche Historique sur la médecine dans la régence d'Alger, Alger 1951, p p 53-54 .
- ⁸⁸ Idem, p p130-131.
- ⁸⁹ HAËDO, "topographie ..." In RA, n°15, année 1979, p p 202-237 .
- ⁹⁰ KHIATI, op. cit., p.101.
- ⁹¹ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 270.
- ⁹² KHIATI, op. cit., P. 85.
- ⁹³ جيمس كاثكارت، مذكرات أسير الداوي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، د م ج، 1982، ص 33.
- ⁹⁴ سعيدوني، دراسات...، مرجع سابق، ص 125.
- ⁹⁵ احمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766 - 1791)، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 142.
- ⁹⁶ محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، م و ف م، الجزائر 2007، ص 205.
- ⁹⁷ ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر 1975، ص 147م.
- ⁹⁸ KHIATI, op. cit, p.121.
- ⁹⁹ هو داي الجزائر بابا إبراهيم (1732 م - 1745م).
- ¹⁰⁰ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال "، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983، ص 121.
- ¹⁰¹ توفيق المدني، مذكرات...، مصدر سابق، ص 117.
- ¹⁰² محمد عباس إبراهيم، المدخل إلى الأنثروبولوجيا الطبية (الثقافة والمعتقدات الشعبية)، ج2، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1992، ص 274.
- ¹⁰³ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن حزم للنشر والتوزيع، بيروت، 2003. الحديث تحت رقم 5707، ص 150.

¹⁰⁴ DR SHAW, Voyage dans la Régence d'Alger, traduit de l'anglais par j.Mac.carthy, Ed. Bouslama, Tunis 1980, P 81 .

¹⁰⁵ Idem, p81.

106 فلة موساوي، مرجع سابق، ص 229.

¹⁰⁷ MARCHIKA, op cit, p. 86 .

¹⁰⁸ كاثكارت، مصدر سابق، ص 104 .

¹⁰⁹ هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى العياشي، ولد سنة 1037هـ / 1628م، وتوفي بالطاعون سنة 1090هـ / 1679م، عرّف برحلته الشهيرة إلى الحجاز.

¹¹⁰ عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية (1661- 1663)، حققها وقدمها: سعيد الفاضلي وسلمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة 2006، ص 546.

¹¹¹ حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 87.

¹¹² المصدر نفسه، ص 74.

¹¹³ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، مصدر سابق، ص 1075.

¹¹⁴ زكي الدين المنذري، مختصر صحيح مسلم، دار ابن حزم، بيروت 2001، ص 532.

115 VENTURE DE PARADIS, Alger Au XVIII Siècle ,Typographie Adolphe Jourdan, Imprimeur-Libraire Editeur, Alger1988, P.147.

¹¹⁶ حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 74.

¹¹⁷ BERBRUGGER, "Charte des Hôpitaux chrétiens 1694 " in RA N°8. Alger 1864, pp 133-134.

¹¹⁸ حمدان خوجة، مصدر سابق، ص 105 .

¹¹⁹ SHAW, op. cit., p. 83.

¹²⁰ سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص 418 .

¹²¹ MATHEA GAUDRY, "La Femme Chaouia De L'Aurès", ED CHIHAI, Alger1998, p, 230.

¹²² وليم سينسر، مصدر سابق، ص 105.

¹²³ عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان 2003، ص 491.

فهرسة لمؤلفات الفقيه أحمد ابن أبي محلي المخطوطة

أ/ موساوي مجدوب، جامعة تيارت

ملخص

يعتبر أحمد ابن أبي محلي من بين أولئك العلماء والفقهاء الذين ساهموا في الحركة الثقافية بإقليم الساور بالجنوب الغربي الجزائري في أواخر القرن العاشر هجري وأوائل القرن الحادي عشر هجري، هذه المساهمة تظهر من خلال ما تركه من تصانيف متعددة ومتنوعة، تنوع القضايا والإشكالات التي كان يثيرها ويدافع عنها، إذ تجاوزت كتاباته الألف ورقة. وقد عرفت كتاباته انتشاراً وشيوعاً واسعاً في كل البلاد شرقها وغربها، وقد أردنا من خلال هذا المقال أن نعرف بهذا الرجل وبجهوده الإصلاحية ووضع فهرسة لمؤلفاته وإسهاماته، التي لا يمكن للباحث أن يستغني عنها لقيمتها العلمية والتاريخية التي تحتويها.

Ahmed Ibn Abi Mahli was one of those scientists who helps in enriching the cultural movement in the region of Sawra in the South West of Algeria in the late of the 10th century of el Hidjra and the beginning of the 11th hidjri this participation occurs in what he left as more than 1000 different books.

His writings was spreaded all over the country from East to West. We are trying through this article to show his efforts and made an outline of his books which none of researchers can neglect them because of its importance and value

يعتبر أحمد ابن أبي محلي من بين أولئك العلماء والفقهاء الذين ساهموا في الحركة الثقافية بإقليم الساور¹ بالجنوب الغربي الجزائري في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر هجريين موافق لأواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ميلاديين، هذه المساهمة تظهر من خلال ما تركه من تصانيف متعددة ومتنوعة، تنوع القضايا والإشكالات التي كان يثيرها ويدافع عنها، إذ تجاوزت كتاباته الألف ورقة.

وقد عرفت كتاباته انتشاراً وشيوعاً واسعاً في كل البلاد شرقها وغربها، وقد أردنا من خلال هذا المقال أن نعرف بهذا الرجل وبجهوده الإصلاحية ووضع فهرسة لمؤلفاته وإسهاماته، التي لا يمكن للباحث أن يستغني عنها لقيمتها العلمية والتاريخية التي تحتويها، أملنا أن تكون هذه الفهرسة لبنة أساسية في البحث للمهتمين والباحثين والدارسين، نوفر لهم من خلالها الكثير من الوقت والجهد والعناء، إذ حاولنا أن نقدم صورة دقيقة عن مصنفات هذا الفقيه حسب ما توفر لدينا من مصادر ومراجع عنها، بالإشارة إلى أماكن وجودها في المكتبات والخزائن داخل الجزائر وخارجها، وتحديد لأوصافها التي تميزها من حيث شكلها المادي (ورق، مداد، خط، تجليد...)، ومن حيث مضمونها الفكري (العنوان الكامل للمخطوط، اسم الناسخ، وتاريخ ومكان النسخ، ذكر بداية ونهاية المخطوط ومضمونه بصفة عامة...)، كما قدمنا ملاحظات عامة عن هذه التصانيف كحالة المخطوط إن كانت جيدة أو رديئة بسبب ما تعرض له من عوامل طبيعية وبشرية، أو إذا كانت بها هوامش وتعليقات وتعقيبات.

ولهذا حاولنا من خلال هذه الدراسة الإجابة على الخصوص على جملة من التساؤلات تتشكل منها إشكالية هذا المقال. فيمن يكون الفقيه أحمد ابن أبي محلي؟ وماهي التصانيف التي تركها؟ وفيما تكمن أهميتها العلمية؟ وبماذا تميزت؟ وأين توجد هذه المخطوطات؟.

- التعريف بابن أبي محلي:

هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بابن أبي محلي². ولد بتافيلالت يوم الثلاثاء في العشر الأوسط من شوال 967هـ - 1559م³. ثائر متصوف⁴، من العلماء⁵.

تلقى تعليمه الأولي ببلدته تافيلالت على يد والده الذي اعتنى به منذ الصغر في حفظ القرآن وتلقين مبادئ العلم، فلولا كما يقول ابن أبي محلي «لضعت، فجزاه عنا خيرا في ضبطه، وضغطه»⁶.

وفي مرحلة ثانية من مساره العلمي انتقل إلى فاس في حدود سنة 980هـ - 1572م، أقام بها مدة تزيد عن خمس سنوات⁷. أخذ عن علمائها وبعدها تنقل عبر مختلف المراكز العلمية الكبرى في المدن والقرى والمدارس بحثا عن العلم والعلماء قصد توسيع مداركه العلمية⁸. كما أخذ مبادئ التصوف خاصة عن شيخه ومربيه وعمدته فيه أبا عبد الله الشهير بمحمد بن مبارك الزعري⁹. والذي لازمه ثمانية عشرة سنة¹⁰.

وبعد أن حج وتصوف وكثر أتباعه، استقر بمنطقة وادي الساورة، وكاتب رؤساء القبائل وعلماء البلدان يحضهم على الاستمسك بالسنة¹¹ ويشيع أنه المهدي الفاطمي (المنتظر)¹². وذكر في نسبه أنه من ذرية السيد العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه¹³.

استولى على سجلماسة بعد قتال فأظهر بها العدل وغير المناكر، وقدمت عليه وفود أهل تلمسان والراشدية يهنئونه بالنصر¹⁴، كما زحف إلى مراكش بعد أن هزم جيش السلطان زيدان¹⁵ واستقر بها ملكا¹⁶. إلا أنه نسي ما بني عليه أمره من التقوى والنسك فهاجمه متصوف آخر من العلماء اسمه يحيى بن عبد الله الحاحي¹⁷. انتصارا للسلطان زيدان بن أحمد. فكانت المعركة على أبواب مراكش وأصيب ابن أبي محلي برصاصة قتلته، وعلق رأسه مع رؤوس بعض أنصاره على سور مراكش نحو اثنتي عشرة سنة، وزعم أصحابه أنه لم يموت وإنما تغيب¹⁸.

أما مدة سلطته على المغرب فكانت زهاء ثلاث سنوات¹⁹. ترك العديد من التأليف²⁰.

1- مؤلفات ابن أبي محلي²¹:

ألف ابن أبي محلي معظم كتبه بعد عودته من الحج للمرة الثانية عام 1014 هـ / 1605م، واستقراره بقرى بني عباس بوادي الساورة، بعدما ألف جوابه المعروف بـ «جواب الخروبي» بدرعة و«القسطاس» بدار سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد²² بالشلالة الظهرانية²³ في نحو شهر قبل خروجه منها إلى بني جومي²⁴. وقد استطاع الفقيه أحمد ابن أبي محلي أن يؤلف إنتاجا أدبيا مهما تجاوز ما يفوق ألف (1000) ورقة، خصوصا تلك التي تم العثور عليها، أما التي لا نعرف سوى اسمها، فلا نعرف بالضبط حجمها، ولكن يظهر أنها في الغالب الأعم تشبه جل مؤلفاته من حيث الحجم وعدد الصفحات.

ونظرا لمكانة مؤلفاته والقضايا التي كان يثيرها بين ثايلها، فقد عرفت كتاباته شيوعا ليس فقط في المغرب، بل حتى في المشرق²⁵، وقد دون ابن أبي محلي بعض مؤلفاته في قصيدة شعرية وفي هذا يقول:

أيعملُ في المهراسِ خَدَشُكَ خاسٍ وَكَمْ دَقَ بالمهراسِ مَرْدَاسُ نَاسٍ
وَأَوْضَحْتُ بالوضاحِ كُلَّ طَرِيقَةٍ كَمَا فَضَحَ القُسْطَاسُ دَرَهْمَ دَاسٍ

وَأَجْوِبُهُ الْخُرُوبِي عَنْوَانُ مَا مَعِي
وَمَهَّدْتُ فِي الْمَجْدِ الْأَثِيلِ قَوَاعِدَ
وَذَا الْمُنْجِنِيقُ رَدْفُهُ سَمُ سَاعَةِ
وَإِذَا صَحَّ أَنْي عَاطِفُ كُلِّ عَاسٍ
وَدَلَّلْتُ بِالْإِصْلَافِ قَنْعَاسٍ بَاسٍ
لِقَتْلِ غَوِي قَاتِلِ قَلْبِ كُلِّ قَاسٍ 26

وتتمثل مؤلفاته في :

- 1- مراسلات ومهاجيات نظما ونثرا مع معاصريه من سلاطين وفقهاء مغاربة ومشاركه.
 - 2- تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة.
 - 3- الوسيلة إلى الله بالقرآن.
 - 4- جواب الخروبي.
 - 5- الهودج.
 - 6- وصية لابنه العربي سماها حدراء القصائد وعذراء الولائد.
 - 7- القسطاس المستقيم في معرفة الصحيح من المستقيم.
 - 8- الوضاح لكل متمشدد فضاح.
 - 9- أصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت أو عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادة مصر وقادة العصر.
 - 10- الحكاية الأدبية والرسالة الطلبيه مع الإشارة الشجرية.
 - 11- السيف البارق والسهم الراشق.
 - 12- منجنيق الصخور لهدم بناء شيخ الغرور ورأس الفجور أو لرمي البدعي الزنديق.
 - 13- مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة ومدراس نفوس السفلة المنخدعة.
 - 14- سلسبيل الحقيقة والحق في سلسبيل الشريعة للخلق.
 - 15- سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارق الجماعة.
 - 16- تهيج الأسود.
 - 17- رسالة إلى رؤساء القبائل بعدما أخذت وهران من طرف الأسبان.
- وما يميز هذه المخطوطات هو :

- أنها في مجملها غير محققة باستثناء القسم من رحلته الشهيرة التي تضمنتها كتابه إصليت الخريت، الذي أخرجه الأستاذ عبد المجيد القدوري تحت عنوان « ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت »، والذي يهتم فقط المقالة الثانية من الباب الثاني التي تضم الصفحات من 156 إلى 206، أو مخطوطه « تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة » الذي قام بإخراجه الأستاذ سعيد واحيحي ضمن كتابه « مهدوية ابن أبي محلي الفيلاي ».
- البعض من تصانيفه عبارة عن مخطوطات مفردة، ومنها ما ضم في مجاميع.
- جل مخطوطاته ألفها ابن أبي محلي بجنوب غرب الجزائر بقرى بني عباس بإقليم الساورة.
- أغلب مخطوطات ابن أبي محلي في التصوف نثرا وشعرا تحمل في ثناياها هجاء لشخص سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد السماحي.
- نسخ أغلبها بالخط المغربي المعتاد وبممداد أسود، وبأقلام جزائرية، جلها من نسخ تلامذته.

- بعض المخطوطات فيها ألوان وبصفة خاصة اللون الأحمر الذي كان يستعمله ابن أبي محلي في كتابته للعناوين بغرض ترتيب النص وإشارة إلى ضرورة التوقف.
- العناصر المادية لجل مخطوطاته عبارة عن ورق، ومما لاشك فيه أن هذا الورق كان متداولاً في هذه الفترة (1137 هـ / 1627 م) والذي كان يستورد من أوروبا²⁷.
- جل مخطوطاته حالتها سيئة فبعضها مبتورة الأول والآخر، وبعضها بها خروم بسبب العوامل الطبيعية والبشرية.
- جل المخطوطات بها تعقيبات وإحالات، كما نجد بعض الشروح والتعليقات في حواشي بعض منها.
- معظم المخطوطات ورد فيها ذكر لتاريخ ومكان التأليف.
- معظم المخطوطات عناوينها طويلة.
- علامة الاستفهام (؟) الواردة في وصف المخطوط محصورة بين قوسين كبيرين تعني أن الكلمة في المخطوط تعذر قراءتها، وإن تكررت فتعني كلمتين تعذر قراءتهما أيضاً وهكذا.

2- مضمون مؤلفات ابن أبي محلي :

أثار ابن أبي محلي في مجموع مؤلفاته وتقنياته مجموعة قضايا شغلت بال الرأي العام المحلي والوطني والإقليمي، وحتى المشرقي آنذاك، فكان أهم موضوع تطرق إليه ونال السبق في جميع مصنفاته حديثه عن «المهدي المنتظر»، فتحدث عنه بمناسبة أو بدونها مبيناً آراء علماء الإسلام، فكتب صفحات وأنشد قصائد ومقطوعات في مناجاة « المهدي المنتظر » داعياً إلى الظهور،²⁸ وملحاً عليه في القيام بدور المنتظر في تغيير المناكر المتفشية ونشر العدل بين الناس²⁹، كما خصص صفحات من كتبه على نقد التصوف البدعي في شخص عبد القادر بن محمد المشهور بسيدي الشيخ³⁰.

كما كانت له مساهمة كبيرة ورائدة في النقاش الفقهي حول مسألة « التبغ »، من خلال فتاويه وأجوبته ومناظراته مع العلماء.³¹

وظل في كتاباته أيضاً نثراً ونظماً يعتز بأسرته ونسبه ويفتخر ويتكلم عن نفسه باستمرار، كما أبدع في مواضيع أخرى خاصة الأشعار الحماسية حاثاً بها على الجهاد ضد الأسباب في الجزائر والثورة ضد السلطة السعدية في المغرب بسبب تسليم العرائش³².

3- خصائص وأسلوب الكتابة عند ابن أبي محلي :

- تميز ابن أبي محلي في كتابته لجل تصانيفه بجملة خصائص نوجزها فما يلي :
- أنه تخصص في كل كتاب من كتبه بموضوع بدليل أنه قام بترتيبها وتفصيلها إلى أبواب وفصول وفروع، كما حرص على تفادي التكرار واللجوء دوماً إلى إحالة القارئ على أبواب المسألة - التي تذكر عرضاً أو للتذكير - وهي طريقة متقدمة في الكتابة بالنسبة لعصره.
- أنه كان يلجأ باستمرار إلى طرح الأسئلة لأنها مفاتيح التعلم والفهم حسب نظره وبها يزيل الغموض أو الجهل عن القراء.
- أنه كان حريصاً في ذكر مصادر أفكاره وأخباره في كتاباته للأمانة، وينبه على ذلك عندما لا يكون متيقناً منها، كما لجأ مراراً إلى استعمال الشهادة العينية أو الرواية الشفوية.

- أنه كان يتدخل في النصوص التي يوردها في كتاباته بلجوئه باستمرار إلى التضمين والاقتراس من القرآن والحديث ويورد الأشعار والحكم الصوفية وأمثلة عن الإشارات التاريخية التي عاصرها.
- أنه كان يذكر القارئ بالعيوب والأخطاء التي كان يجدها في النصوص، أما عن أسلوبه فقد غلب عليه السجع، فكان لا يلجأ إلى تبسيط كتاباته.³³

4- فهرسة لمخطوطات أحمد ابن أبي محلي :

المخطوط الأول³⁴ :

- **العنوان الأول :** أصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت.
- **العنوان الثاني :** عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادة مصر وقادة العصر.
- **عدد النسخ :** يوجد مخطوط الإصليت في أربع نسخ، ثلاثة منها بالخزانة الحسنية بالرباط بالمغرب الأقصى، ونسخة رابعة بخزانة دار الكتب المصرية بالقاهرة.
- **النسخة الأولى :** رمزها الحرف « أ » وهي نسخة كاملة ومنظمة ومرقمة، تقع في 147 ورقة، مقاسها كبير- 5، 19 سم / 28 سم وعدد الأسطر في كل ورقة 29 سطرا، وفي كل سطر 17 كلمة . كتبت بخط مغربي مجوهر لا بأس به سريع بالمداد الأسود الملون للعناوين بالأحمر، حالتها حسنة، ناسخها هو محمد حسني³⁵ على الورق، سنة 1137 هـ / 1627 م، بدايتها هي : « الحمد لله (٩) من الله تعالى بالشراء الصحيح والتمن المقبوض... »، ونهايتها هي : «... وهذا آخر ما نوره في الهودج في أواسط شوال عام ستة عشر وألف قيد بالوادي »³⁶، المخطوط به تعقيبات وحواشي، أتم ابن أبي محلي تأليفه بوادي الساورة - جنوب غرب الجزائر -³⁷ ضحوة يوم الخميس 5 جمادى الثانية سنة 1016 هـ موافق لسنة 1607 م. النسخة موجودة بالخزانة الحسنية بالرباط - المغرب الأقصى - رقمها 100.
- **النسخة الثانية :** رمزها الحرف « ب » وهي نسخة غير كاملة تنقصها عشرة 10 أوراق من حجم النسخة « أ »، يقع في 368 صفحة، عدد الأسطر في كل صفحة 24 سطرا، وفي كل سطر 15 كلمة، الخط مغربي واضح، حالتها تتخللها خروم في الأطراف وهي سيئة، النسخة خالية من أي ذكر لاسم الناسخ وتاريخ ومكان النسخ، بدايتها هي : « فالجزولي اذا شيخ العصابة بالمغرب... »، توجد فيها تعقيبات وحواشيها قليلة، النسخة موجودة بالخزانة الحسنية بالرباط - المغرب الأقصى -، رقمها 4442.
- **النسخة الثالثة :** رمزها الحرف « ك » ضاعت منها عدة أوراق وحتى تلك التي بقيت فإنها غير مرقمة ومصابة بخروم كثيرة جعلتها غير صالحة للاستعمال، إضافة إلى كل هذا فإنها لا تتوفر على أية إشارة لاسم الناسخ أو لمكان وسنة النسخ، النسخة موجودة بالخزانة الحسنية بالرباط - المغرب الأقصى -، رقمها 4009.
- **النسخة الرابعة :** عنوانها عذراء الوسائل وهودج الرسائل، تقع في 268 ورقة، مقاسها ومسطرتها مختلفة، الخط مشرقى بالمداد الأسود، حالتها حسنة، ناسخها هو محمد مرتضى الحسيني³⁸ على الورق، بالقاهرة بمصر، سنة 1191 هـ / 1777 م. بدايتها هي : « الحمد لله كما ينبغي لجلاله وكرمه وصلواته تعالى وتسليماته المباركات... »، ونهايتها هي : «... في أواسط شوال عام ستة عشر وألف قيد بالوادي وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »، النسخة بها تعقيبات وهي قليلة الحواشي، توجد بدار الكتب المصرية بالقاهرة - جمهورية مصر العربية - تحت رقم 431 - أدب.

- **مضمون مخطوط الإصليات :** هو وليد رحلتيه الحجازيتين واتصالاته بعلماء الأزهر، فجاء تلبية لرغبة صديقيه عبد الهادي أحمد المرصفي ومحمد الشريف الميقاتي المعروف بالطحان، ناقش فيه مباحثات فقهية ولغوية كثيرة كالدخان والمهدوية والمهدي المنتظر... إلى جانب حديثه عن جملة من الفقهاء الذين أخذ عنهم خاصة من المشاركة³⁹. كما ترجم فيه لنفسه وتحدث عن نسبه ونشأته.⁴⁰

المخطوط الثاني :

- **العنوان :** مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة ومدراس نفوس السفلة المنخدعة⁴¹.
- **عدد النسخ :** يوجد مخطوط المهراس في نسختين نسخة أولى بالخزانة العامة بالرباط، ونسخة ثانية بالزاوية البوعبدلية ببطوية بوهرا بالجزائر.
- **النسخة الأولى :** رمزها الحرف « أ » وهي نسخة مجلدة بالورق المقوى، كاملة ومنظمة ومرقمة، تقع في 233 صفحة، مقاسها 15 سم / 20 سم، عدد الأسطر في كل ورقة في معظمها 23 سطرا، وفي كل سطر 17 كلمة، الخط مغربي مليح ملون، حالتها جد سيئة، ناسخها هو محمد الغندور ابن الحاج عبد الرحمان التزديتي⁴² على الورق، يوم الاثنين 12 جمادى الأولى 1030 هـ موافق نحو 4 أفريل 1621 م بإقليم توات⁴³ جنوب غرب الجزائر، بدايتها هي : « بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله...»، ونهايتها هي : «... فإنه لا حول ولا قوة إلا بك أنت رب العرش العظيم، انتهى والحمد لله (٩) والصلاة والسلام على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم »، المخطوط توجد به تعقيبات وحواشيه قليلة، كما لا توجد به حليات ورسوم أو جداول، ألفه ابن أبي محلي بالساوره - جنوب غرب الجزائر - ، يوم 10 ربيع الثاني 1019 هـ موافق نحو 2 جويلية 1610 م. المخطوط موجود بالخزانة العامة بالرباط بالغرب الأقصى تحت رقم 192 ك، كما توجد نسخة أخرى على شكل ميكروفيلم بنفس الخزانة تحت رقم MMF/ 99 058، نوعيته 1461.
- **النسخة الثانية :** رمزها الحرف « ب »، وهي مخطوطة بالزاوية البوعبدلية ببطوية بوهرا بالجزائر بدون رقم التصنيف، أفادنا بذكرها المستشرق - جاك بارك - في كتابه Ulémas fondateurs insurgés du Maghreb XVIII siècle وللأسف طلبنا من أصحاب هذه الخزانة القائمين عليها اليوم بالنظر فيها إلا أن طلبنا رفض.
- **مضمون مخطوط المهراس :** تضمن المخطوط مسائل فقهية وبصفة خاصة المسألة المتعلقة بظهور المهدي المنتظر، كما رد فيه على خصمه الشيخ عبد القادر بن محمد المشهور بسيدي الشيخ.

المخطوط الثالث :

- **العنوان :** القسطاس المستقيم في معرفة الصحيح من السقيم.
- يقع المخطوط في 157 صفحة وهو في التصوف، مسطرته مختلفة، الخط مغربي واضح بمداد أسود، حالته سيئة، ناسخه هو عبد الرحمان بن سليمان البازي نسبا الجومي دارا على الورق، بأواخر ذي القعدة 1013 هـ موافق سنة 1604 م، بدايته هي : « بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما...»، ونهايته هي : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه⁴⁴ (٩٩٩٩٩) »، المخطوط فيه تعقيبات وقليل الحواشي، ألفه ابن أبي محلي بدار سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد بالشلالة الظهرانية، أيام 6 أو 7 باقين من ربيع الأول 1012 هـ موافق نحو

فواتح سبتمبر 1603 م، يوجد المخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط - المغرب الأقصى - ، رقمه 570 ق. كما توجد نسخة أخرى على شكل ميكروفيلم بنفس الخزانة تحت رقم 613.

- **مضمون المخطوط :** يهاجم فيه صهره سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد ، كما تكلم فيه عن العلم والعمل والخلافة ، وبصفة عامة التصوف. وقد ختمه بملحق سماه الغطاس وتابعة القسطاس ، يقول بأنه ألفه بتاريخ يوم 9 رمضان 1012 هـ موافق نحو 10 فيفري 1604 م وهو نائم على إثر مرض ألم به أقعده الفراش نحو 5 أشهر أشرف فيه على الهلاك.

- المخطوط الرابع :

- **العنوان:** منجنيق الصخور لهدم بناء شيخ الغرور ورأس الفجور من المبتدعة والزنادقة.

- يقع المخطوط في 230 صفحة ضمن مجموع من الصفحة 127 إلى الصفحة 357 من المجموع ، وعدد الأسطر في كل صفحة 23 سطر ، الخط مغربي بمداد أسود مريح ، حالته سيئة ، وهو خال من أي ذكر لاسم الناسخ وتاريخ ومكان النسخ ، رقم المخطوط هو 338 ق ضمن مجموع ، بدايته هي : « بسم الله الرحمن الرحيم (٩) صلى الله على سيدنا محمد وآله... » ، ونهايته هي : « وبتاريخ عشية يوم جمعة في العشر الأواخر من ربيع الثاني أنالنا الله خير وبره ووقانا شره وشر ما بعده و (٩) وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » ، توجد به التعليقات ، حواشيه وتعليقاته قليلة جدا ، ألفه ابن أبي محلي بداره الجديدة بقرية برّبي من بلاد بني جومي ، عشية يوم الجمعة 20 ربيع الثاني 1017 هـ موافق نحو 3 أوت 1608 م ، توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بالرباط - بالمغرب الأقصى ، وأخرى بالخزانة الحسنية الملكية بالرباط وهي نسخة جميلة الخط عددها 582 45 .

- **مضمون المخطوط :** يضم مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة ، تحدث فيه عن العاكزة⁴⁶ وخصمه وصهره سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد وهو في الأصل تنمة لكتابه السيف البارق إذ اعتبر كما يقول لواحقه وبوارقه كما تضمن مسائل مختلفة حول إجاباته على العديد من القضايا المرفوعة إليه.

- المخطوط الخامس :

- **العنوان :** السيف البارق مع السهم الراشق.

- يقع المخطوط في 95 ورقة ضمن مجموع مبدؤه من الورقة 358 إلى الورقة 453 ، وعدد الأسطر في كل ورقة بين 22 و 23 سطر ، الخط مغربي مريح بالمداد الأسود ، حالته سيئة ، ناسخه هو أبو بكر بن عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر السكوني نسبا الشريف الحسني على الورق ، ضحوة يوم الثلاثاء 4 رجب الفرض عام 1017 هـ موافق 1608 م ، رقم المخطوط 338 ق ضمن مجموع ، بدايته هي : « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله (٩٩٩) رسالة أحمد بن عبد الله إلى شيخ الغرور ورأس الفجور عبد القادر بن محمد المبتور... » ، ونهايته هي : « الحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين والحمد لله رب العالمين (٩) » ، توجد فيه تعليقات وقليل من التعليقات في الحواشي ، ألفه ابن أبي محلي بقرية برّبي من بلاد بني جومي ، عشية يوم السبت آخر جمادى الأولى عام 1017 هـ موافق نحو 10 سبتمبر 1608 م ، توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بالرباط - بالمغرب الأقصى -

- **مضمونه :** هو عبارة عن كرايس مقسم إلى ثلاثة أبواب ومقدمة وخاتمة، عبر عنه باسم البندق وهو المدفع أو النفض الذي ترمى منه الأكوار، هاجم فيه صهره سيدي الشيخ عبد القادر بن محمد بعد أن بصر بحاله كما يقول محذرا الناس منه ⁴⁷.

- المخطوط السادس :

- **العنوان الأول :** سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارق الجماعة.

- **العنوان الثاني :** خنيجر مسموم في لبة خنزير مدموم.

- يقع المخطوط في 124 ورقة ضمن مجموع مبدؤه من الورقة 2 إلى الورقة 126، عدد الأسطر في كل ورقة 22 سطرا، الخط مغربي مليح بالمداد الأسود، حالته سيئة، وهو خال من أي ذكر لاسم الناسخ ومكان النسخ، في حين نجد تاريخ نسخه وهو عشية يوم السبت 15 رجب 1017 هـ موافق لعام 1608 م، رقم المخطوط هو 338 ق ضمن مجموع، بدايته هي : « بسم الله الرحمان الرحيم (فراغ) صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ثم يقول (؟) الفقير أحمد بن عبد الله بن القاضي الشهير... »، ونهايته هي : « وكان الفراغ من نسخه عشية يوم السبت الخامس عشر من رجب عام سبعة عشر وألف ميمون إنشاء الله والحمد لله رب العالمين (؟) »، لا توجد فيه تعقيبات أو حواشي، ألفه ابن أبي محلي ببني عباس بوادي الساورة بالجزائر، صبيحة يوم الجمعة 14 رجب الفرد 1017 هـ موافق نحو 24 أكتوبر 1608 م، توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بالرباط - بالمغرب الأقصى.

- **مضمونه :** يرد فيه على ما كتب حول كتابه السلسيل من طعن لما مكنه منه بعض الأصحاب الجرايين من بلاد تجرايين ⁴⁸ أو جرارة المجاورة لبلاد توات بهذه الصحراء الجزائرية سألقة الذكر وهي حاليا دائرة تميمون، وتضمن رسالة بعثها إلى أحد العلماء حول - الحكم بالاختلاء بالأجنبية، وما حكم من جهر أو سكت عن مبتدع يقوم بهذه الأفعال - ذيل بها كتابه ⁴⁹.

- المخطوط السابع :

- **العنوان الأول :** تهيج الأسود السود من العرب والبربر إلى أهل المدر والوبر والبحر والبرلتهجيج القرده والفهود والخزايا كاليهود من بني الأصفر .

- **العنوان الثاني :** تهيج الأسود.

- المخطوط غير تام يقع في 16 ورقة، عدد الأسطر في كل ورقة 22 سطرا، الخط مغربي، حالته سيئة جدا، وهو خال من أي ذكر لاسم الناسخ وتاريخ ومكان النسخ، بدايته قصيدة شعرية تبدأ بالبيت :

ومن كل طود كالسيول إلى الوطا ❖ لعلى بهم انطوا على كل جاحد...

ونهايته هي : « وارتفعت كلمة النصرانية الوضيعة على كلمة المحمدية الرفيعة وطال سيف النصرى وقصر سيف الإسلام بعد أن كانت »، لا توجد فيه تعقيبات أو حواشي، ألفه ابن أبي محلي ببني عباس بوادي الساورة بالجزائر، ضحوة يوم الخميس 17 ذي الحجة عام 1019 هـ موافق نحو 2 مارس 1611 م، المخطوط بدون رقم التصنيف وهو موجود بخزانة سيدي أحمد ديدى البكرية بتمنطيط بإقليم توات بالجزائر كما توجد نسخة أخرى منه محفوظة بمكتبة الشيخ المهدي البوعبدلي ببطيوة بوهرا بالجزائر ⁵⁰.

- **مضمونه :** هو شعر حماسي، يشكل دعوة صريحة لقيامه ضد السلطة السعدية وصرخة لتحريض القبائل والعلماء للقيام بالجهاد ومقاتلة الإسبانيين الذين كانوا يحتلون وهران، معلنا الفضيحة والعار والخديعة على تسليم العرائش⁵¹.

- **المخطوط الثامن :**

- **العنوان :** جواب الخروبي.

- يقع المخطوط في 162 ورقة وهو في التصوف، مقاسه 27 سم / 19 سم، وعدد الأسطر في كل ورقة 21 سطرا، الخط مغربي معتاد بمداد أسود، حالته لا بأس بها لكنه مبتور الأول وبعض أوراقه مخرومة، وهو خال من أي ذكر لاسم الناسخ وتاريخ ومكان النسخ، بدايته هي : « جلوا (؟) مدارك كل أكمة... »، ونهايته هي : « والحبیب جفان »، ألفه آخر جمادى الأولى أو غرة الثانية عام 1000 هـ موافق نحو 1591 م بلكتاوة ببني مسنان بدرعة، المخطوط موجود بالمكتبة الوطنية بالرباط - بالمغرب الأقصى - تحت رقم 611 لك.

- **مضمونه :** الكتاب عبارة عن رد على رسالة سيدي محمد الطرابلسي الخروبي⁵² إلى أبي عمر القسطلبي المراكشي⁵³، فرد عليه برسالة مطولة وعنيفة، كما يشير إلى ذلك في الورقة 14 من المخطوط.

- **ملاحظة :** المؤلف غير مذكور بسبب البتر الحاصل في الكتاب، ويذكر في كتابه هذا أن له مؤلفا بعنوان - الوضاح لكل متمشدد فضاخ-⁵⁴.

- **المخطوط التاسع :**

- **العنوان :** جواب للقاضي محمد عبد الله الجراي⁵⁵.

- يقع المخطوط في 17 ورقة، عدد الأسطر في كل ورقة 16 سطرا، الخط مغربي معتاد ملون بالأحمر، حالته سيئة، ناسخه هو أحمد بن محمد بن (؟) من نسخة مقابلة للأصل المكتوب بخط مؤلفه أحمد ابن أبي محلي، يوم الجمعة 2 شوال عام 1024 هـ موافق نحو 24 أكتوبر 1596 م، لا يوجد ذكر لمكان النسخ، بدايته هي : « بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم الحمد لله الذي طهر قلوب أوليائه من دنس... »، نهايته هي : « ثم السلام وبه الختام »، لا توجد فيه تعقيبات أو تعليقات، ألفه ضحوة يوم الخميس 17 ذي الحجة عام 1019 هـ موافق نحو 2 مارس 1611 م بإقليم توات بالجزائر. المخطوط موجود بخزانة سيدي أحمد ديدي البكرية بتمنطيط بإقليم توات وبدون رقم للتصنيف.

- **مضمونه :** جواب من أبي محلي على سؤال في المعرفة بالله سألته إياه قاضي قورارة وهو القاضي محمد عبد الله بن عبد الكريم الوطاسي المريني نسبا الجراي دارا.

- **المخطوط العاشر :**

- **العنوان :** حدراء القصائد وعذراء الولائد .

- يقع المخطوط في 15 ورقة، الخط مغربي بمداد أسود، حالته سيئة جدا، وهو خال من أي ذكر لاسم الناسخ وتاريخ ومكان النسخ، بدايته هي : « بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم هذه وصية (؟) أحمد بن عبد الله بن أبي محلي الفلالي لولده محمد العربي... »، ونهايته هي : « تحصيله وكل ما كنت (؟؟؟) »، عليه تعليقات في الحواشي، ألفه ابن أبي محلي أواسط جمادى الأولى عام 1006 هـ موافق نحو 24 ديسمبر 1597 م ببني عباس بوادي الساور بالجزائر⁵⁶، توجد نسخة من المخطوط بخزانة

- تامكروت بالمغرب تحت رقم 1628 ضمن مجموع - - و- ⁵⁷، أما أصل المخطوط فهو محفوظ بخزانة سيدي أحمد ديدي البكرية بتمنطيط بإقليم توات بالجزائر.
- **مضمونه :** الكتاب عبارة عن قصيدة في نظم بحر البسيط قافيته دالية، استهلها بمقدمة يوصي فيها ابنه سيدي محمد العربي على التعليم واكتساب المعرفة ⁵⁸.
- **المخطوط الحادي عشر :**
- **العنوان :** قصائد أم العطاييل.
- المخطوط يقع في 15 ورقة، عدد الأسطر في كل ورقة 14 سطرا، خطه مغربي مليح ملون، حالته جيدة، المخطوط خال من أي ذكر لاسم الناسخ وتاريخ ومكان النسخ، كما هو خال من أي ذكر لتاريخ ومكان التأليف، بدايته هي : القلب (٩) والطرف منتظر ❖ من كان مثلي فقل قامت قيامته...، ونهايته هي : « والحمد لله وما توفيقى إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين ». المخطوط توجد فيه تعقيبات، المخطوط موجود بخزانة سيدي أحمد ديدي البكرية بتمنطيط بإقليم توات بالجزائر.
- **المخطوط الثاني عشر: العنوان :** تعييد في التعريف بمدينة سجدماسة . المخطوط يقع في 5 صفحات، مقياسه 18 سم / 13 سم، عدد الأسطر في كل ورقة ما بين 20 و 28 سطرا، الخط مغربي حروفه صغيرة، حالته جيدة، المخطوط خال من أي ذكر لاسم الناسخ وتاريخ ومكان النسخ، كما هو خال من أي ذكر لتاريخ ومكان التأليف، بدايته هي : « الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم هذا تعييد ما وقفنا عليه في تعريف مدينة سجدماسة...»، ونهايته هي : «وبها توفي رحمه الله فكانت مدة ولايته ما أشار إليه به شيخه سيدي احمد بن أمبارك الزعري التستاوي كما ذكر أعلاه نفعا الله به آمين »، المخطوط توجد فيه تعقيبات، وهو موجود بالخزانة الحسنية بالرباط بالمغرب الأقصى تحت رقم 12163، وهو ليس النسخة الأصلية بل هو مجرد نسخة منقولة، كما أن المخطوط محقق من طرف الأستاذ سعيد واحيحي وهو مطبوع.
- **مضمونه :** تعريف لمدينة سجدماسة المغربية ⁵⁹.
- **المخطوط الثالث عشر :** عنوانه الوضاح لكل متمشدد فضاخ تركه عند المشاركة، وهو في علم التصوف والحقائق والمعارف ⁶⁰، ذكره ابن أبي محلي في طالعته كتابه الذي أجاب به الخروبي، تحدث فيه عن حقيقة الشيخ وما يحتاج إليه في أمره، فعقد له بابا منفردا يضم 10 فصول، وكل فصل يشتمل على أمرين من أموره، وكان تأليفه له ما بين 1008 هـ / 1599 م و 1011 هـ / 1602 م.
- **المخطوط الرابع عشر :** عنوانه الوسيلة إلى الله، وهو عبارة عن مجموع أبيات توصل من خلالها إلى الله بسور القرآن من سورة الفاتحة إلى سورة الناس حسب ترتيب القرآن الكريم، نسخ عام 993 هـ / 1585 م، المخطوط موجود بخزانة الإمام علي تارودانت بالمغرب، وهو ضمن مجموع من الصفحة 228 إلى الصفحة 230 تحت رقم 147 ⁶¹.
- **المخطوط الخامس عشر:** عنوانه سلسبيل الحقيقة في سلسبيل الشريعة للخلق، ألفه ابن أبي محلي بالساوره جنوب غرب الجزائر يوم الخميس 26 من ذي القعدة 1019 هـ في الشهور التي أعلن فيها ثورته موافق لسنة

1610 م، يوجد من المخطوط نسختان، الأولى موجودة بالخزانة الملكية الحسنية بالرباط بالمغرب الأقصى، وهي نسخة تامة رقمها 4733، من 1 ب إلى 206 أ - ، كتبت بخط مشرقى جميل مذهب ملون مؤطر، انتهى من نسخها يوم الخميس 16 ربيع الثاني عام 1022 هـ / 1613 م، وهو ممتلك بمراكش، ولا شك أن ناسخها أحد نساخ ديوان السلطان أحمد المنصور السعدي لوجود قرائن تدل على ذلك⁶². - **مضمونه**: أورد فيه مباحث صوفية، وذكر طبقات الأولياء، وقضية المهدي وشروط الخلافة، وأرزاق الخطباء والأئمة والمفتين، وأشار إلى أنه لما كان يحرق صفحته الأخيرة وصلت أخبار غير مؤكدة عن استيلاء إسبانيا على العرائش فنظم قصيدة قافيتها شينية في الحث على الجهاد تمرد فيها على اللغة والقافية والوزن⁶³. ومما سبق ذكره نلاحظ أن جل مؤلفات الفقيه أحمد ابن أبي محلي لا تزال مخطوطة وهي بحاجة إلى من يعتني بها ويقوم بالتعريف بها وتخريجها خاصة من قبل الباحثين والمؤسسات العلمية. فمخطوطات ابن أبي محلي تعتبر من الكنوز التراثية التي تزخر بكم هائل من الفوائد العلمية، وهو ما حاولنا إظهاره من خلال وضعنا فهرسة اجتهدنا فيها أن نقدم وصفا وصورة دقيقة لهذه المخطوطات خدمة للباحثين والمهتمين والدارسين.

الهوامش:

¹ جزء هام من الصحراء الجزائرية الكبرى، يقع في الجنوب الغربي الجزائري، يرتبط من الناحية الشمالية بالهضاب العليا، ويتفتح في حدوده الجنوبية على توات وكورارة.

² ترجم له مجموعة من المصادر والدراسات الحديثة، لكننا سوف نقتصر على البعض منها:

- السملالي العباس بن براهيم (ت 1378هـ - 1958م)، **الإعلام بمن حل مراكش وأغमत من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، 1414هـ - 1939م، الجزء الثاني، ص 286 - 294.

- اليوسي الحسن (ت 1102هـ - 1690م)، **المحاضرات في الأدب واللغة**، تحقيق وشرح محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، الطبعة الثانية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، د، غ، إ، بيروت، 1402هـ - 1982م، الجزء الأول، ص 261 - 264.

- المجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمдарتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، الطبعة الأولى، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994، ص 105.

- الإفرائي محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير، **نزهة الهادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تصحيح السيد هوداس، مطبعة بردين انجي، 1888، ص 200 - 209. الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- الدولة السعدية-**، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955، الجزء 6، ص 26 - 34.

- حجي محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، مطبوعات فضالة، الدار البيضاء، المغرب، 1398 هـ - 1978م، الجزء الثاني، ص 625 - 626.

- حجي محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، المطبعة الوطنية بالرباط، 1384هـ - 1964م، ص 132 - 137.

- الزركلي خير الدين، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستغربين والمستشرقين**، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، أيار (مايو) 1980، الجزء الأول، ص 161.

- بن منصور عبد الوهاب، **أعلام المغرب العربي**، المطبعة الملكية، الرباط، 1410هـ - 1990م، الجزء الخامس، ص 286-307.
- دي هنين خورخي، **وصف الممالك المغربية (1603هـ - 1613م)**، تحقيق توركوأتوبيرس دي كوشمان، ترجمة عبد الواحد أكيمير، الطبعة الأولى، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، المغرب، ديسمبر 1997، الصفحة 133 وما بعدها.
- مخلوف محمد بن محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349، ص 298.
- واحيحي سعيد، **مهدوية ابن أبي محلي الفيلاي ومخطوطه «تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة»**، الطبعة الأولى، المطبعة Rabat Net Maroc، الرباط، 2009، ص 13-74.
- BERQUE Jacques, **Alyoussi, problème de la culture marocaine au XVII^{ème} siècle**, 2^{ème} éd, éditeur, centre Tarik Ibn Ziad pour les études et la recherche, Rabat., Mai 2001, P.63.
- BERQUE Jacques, **Ulémas fondateurs insurgés du Maghreb XVIII siècle**, la bibliothèque arabe sindbad, Paris, 1982 PP.45-80.
- ³ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي محلي السجلماسي العباسي (ت 1021هـ - 1612م)، **أصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت أو عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادة مصر وقادة العصر**، دار الكتب المصرية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، مخطوط رقم 431 أدب، الورقة 187.
- ⁴ بن منصور، المرجع السابق، ص 286. حجي، المرجع السابق، ص 625.
- ⁵ الأعلام للزركلي، المرجع السابق، ص 161.
- ⁶ ابن أبي محلي، المصدر السابق، الورقة 96.
- ⁷ الوفرائي، المصدر السابق، ص 201.
- ⁸ بن منصور، المرجع السابق، ص 287.
- ⁹ دفين «تساوت»، من مشاهير الأولياء والأتقياء، كان عمدة أحمد ابن أبي محلي في التصوف وعليه اعتماده، لهذا نجده يتحدث عنه بنوع من القدسية في جل كتبه بمناسبة أو بدونها، حتى قال عنه «كان فياض الحال باهر الخوارق...» وبقي على ذلك الحال، ت 1006هـ - 1597م. الناصري، المصدر السابق، ج 5، ص 192. الإفرائي محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، الطبعة الأولى، مركز التراث الثقالي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، 1425 هـ - 2004م، ص 50. واحيحي، المرجع السابق، ص 20.
- ¹⁰ أبو العباس أحمد بن عبد الله بن القاضي بن أبي محلي السجلماسي العباسي (ت 1021هـ - 1612م)، **مهراش رؤوس الجهلة المبتدعة ومدراس النكوس السفلة المنخدمة**، الخزانة العامة، الرباط، مخطوط رقم 192ك (ضمن مجموع)، ص 114-115. بن منصور، المرجع السابق، ص 288.
- ¹¹ الأعلام للزركلي، المرجع السابق، ص 161.
- ¹² ابن أبي محلي، **إصليت الخريت...**، الورقة 89. ابن أبي محلي، **مهراش رؤوس الجهلة...**، الصفحة 145 وما بعدها.
- اليوسي، المصدر السابق، ص 262. القدوري، المرجع السابق، ص 62. مزيان أحمد، **فجيج «فكيك» مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1903)**، مطبعة فجر السعادة، 1988، ص 90.
- ¹³ الإفرائي، **نزهة الحادي**، ص 200.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص 207.

¹⁵ هو أبو المعالي زيدان بن أحمد المنصور السعدي. بويغ له بعد وفاة والده عام 1012هـ - 1603م بفاس، وهو الذي قام عليه ابن أبي محلي. توفي سنة 1037هـ - 1627م، ودفن بمقبرتهم بمراكش. كان فقيها مشاركا متضلعا في العلوم وله تفسير على القرآن الكريم اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشري. الناصري، المصدر السابق، الجزء السادس، ص 3-72.

¹⁶ اليوسي، المصدر السابق، ص 262.

¹⁷ يحي بن عبد الله الحاحي زعيم زاوية زداغة الواقعة بتافيلالت بالسوس شمال تارودانت بالأطلس الكبير، عالم مصلح. واحيحي، المرجع السابق، ص 64.

¹⁸ الوفرائي، المصدر السابق، ص 207 - 209.

- Berque, Ulémas..., p.45.

¹⁹ حجي، المرجع السابق، ص 626.

يذكر الأسباني خورخي دي هنين معاصر أحمد ابن أبي محلي في مذكراته سالفه الذكر أن مدة حكمه كانت 19 شهرا وثلاثة أيام، ص 133 وما بعدها.

²⁰ أنظر بن منصور، المرجع السابق، ص 292 - 294. القدوري عبد المجيد، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليّة الخريت، منشورات عكاظ، المغرب، 1991، ص 73 - 74. واحيحي، المرجع السابق، ص 29 - 32.

²¹ لازالت عبارة عن مخطوطات ولم تحقق بعد، وهي محفوظة بخزانات الجزائر بقورارة وتوات وبطيو بالزاوية البوعبدلية، وبالمغرب الأقصى بالرباط وتازة وتمقروت وتارودنت، وبمصر بالقاهرة.

²² صوفي جزائري، أشتهر بلقب سيدي الشيخ، تنتسب إليه الطريقة الشيعية. لتفاصيل أكثر أنظر كتابنا عبد القادر بن محمد المشهور بسيدي الشيخ، الطبعة الأولى، دار أيقونة، الجزائر، 2013 م.

²³ قصر من قصور صحراء تلمسان في جهتها الجنوبية الغربية. بها ضريح والد سيدي الشيخ محمد بن سليمان. أهله مزارعون للخضر والفواكه، ولبعض نخيل التمور، وهي مصدر أرزاقهم إلى جانب ممارستهم للتجارة، كما عرفوا بصناعة التبغ من أشجار العرعار، إلى جانب صناعتهم للصابون.

- Daumas, le Sahara Algérien études géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie, Dubos frères, Alger, 1845, PP.242-244.

²⁴ تعرف بني فومي اليوم بدائرة تاغيت إحدى الدوائر الإدارية بولاية بشار بالصحراء الجزائرية.

²⁵ واحيحي سعيد، سجل ماسة/تافيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور، 796هـ - 1393م، إلى أواخر القرن

11هـ/17م، (دراسة تاريخية، اجتماعية، ثقافية)، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ الحديث، إشراف مولاي هاشم العلوي القاسمي، شعبة التاريخ ظهر المهرز فاس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المملكة المغربية، 1425هـ/2004م، ص 294، 303.

²⁶ ابن أبي محلي، مهراس رؤوس الجهلة...، ص 24 - 25.

²⁷ القدوري، المرجع السابق، ص 98.

²⁸ المهدوية فكرة شيعية قديمة تطورت عن عقيدة اختفاء الأئمة عندهم، وعودة الإمام المخفي - الذي سمي فيما بعد بالمهدي المنتظر - ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا، استغلت استغلالا سياسيا قصد الاستحواذ على السلطة عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ما حصل مع ابن أبي محلي. حجي، الحركة الفكرية...، ج 1، ص 227.

²⁹ المرجع نفسه، ص 228.

- ³⁰ واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي...، ص 74. حمادي عبد الله الإدريسي، "كتابات ابن أبي محلي نزيل السأورة (ت 1021 هـ / 1612 م) من مصادر تاريخ هذه البلاد وتُخومها المُجاورة"، ملتقى بشار : دور علماء السأورة في خدمة الثقافة الجزائرية، سلسلة القوافل العلمية 2، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2010، ص 78.
- ³¹ من بين العلماء الذين ناقشهم في هذه المسألة شيخه سالم السنهوري، واحيحي، المرجع نفسه، ص 24.
- ³² ابن أبي محلي، الإصليت...، ص 36 – 39.
- ³³ القدوري، المرجع السابق، ص 89 – 92.
- ³⁴ المنوني محمد، فهرس مخطوطات الخزانة الحسنية حسي أرقامها على الرفوف (1)، الخزانة الحسنية، المطبعة الملكية، الرباط، 1403 – 1983، ص 67 – 68.
- ³⁵ لم نهدي إلى ترجمته.
- ³⁶ يذكر محمد المنوني في فهرسته الجديدة لمخطوطات الخزانة الحسنية أن أول المخطوط يبدأ بـ « الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله قال المؤلف عفى الله... » وآخره «...وقد أقررت بجهلي واليد الطولى لمن أفاد وهذا آخر ما نوردته في لواحق الهودج...»، وعدد أوراقه 146 ورقة، واسم الناسخ مكتوب داخل شكل عدلي مشبك. المنوني محمد عبد الهادي، منتخبات من نواذر المخطوطات، تقديم أحمد شوقي بنين، الطبعة الثانية، الخزانة الحسنية بالرباط، المطبعة والوراقة الوطنية، الداوديات، مراكش، 2004، ص 147 – 148.
- ³⁷ ابن أبي محلي، المصدر السابق، ص 146 – 147.
- ³⁸ لم نهدي هو الآخر إلى ترجمته.
- ³⁹ واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي...، ص 31.
- ⁴⁰ المنوني، المرجع السابق، ص 148. بن منصور، المرجع السابق، ص 292.
- ⁴¹ المنوني محمد، فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، الطبعة الأولى، منشورات الخزانة العامة للكتب والوثائق، 1999 – 2000، المجلد السادس، ص 124.
- ⁴² لم نهدي إلى ترجمته.
- ⁴³ تقع في جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية، يشمل على عدد من الواحات والمدن والقصور تزيد عن 350 قصر. بن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحاده، راجعه سهيل زكار، دار الفكر، لبنان، بيروت، 1421هـ - 2000م، الجزء السابع، ص 76 – 78.
- ⁴⁴ قرآن كريم، رواية ورش، سورة عبس، الآيات 34، 35، 36، 37.
- ⁴⁵ بن منصور، المرجع نفسه، ص 293. واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي...، ص 31. واحيحي، سجللماسة / تافيلالت...، ص 298. القدوري، المرجع السابق، ص 145. بن منصور، المرجع السابق، ص 294. حمادي، المرجع السابق، ص 67.
- ⁴⁶ العكاكزة: قال عنهم ابن أبي محلي «...وهم قوم لا غيرة لهم على الحرير ويقولون المرأة كالسجادة صل عليها وأعط لأخيك».
- ويقولون أيضا: «نحن نأكل من حبة ونبيت في جبة ونشرب من جعبة». ابن أبي محلي، منجنيق الصخور...، ص 133، 145. الإفرائي، نزهة الهادي...، ص 323.
- ⁴⁷ ابن أبي محلي، المصدر السابق، ص 357.
- ⁴⁸ تعرف أيضا بتيكورارين وكورارة، والتي تعني المعسكرات بالبريرية. تسمى اليوم بتيميمون ولايتها أدرار. قال عنها الوزان: «...منطقة مأهولة..بها ما يقرب عن خمسين قصرا وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل، سكانها أغنياء

لتجارته مع بلاد السودان...لهذه البلاد أراضي كثيرة صالحة للزراعة...». الوزان محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية حجي محمد والأخضر محمد، الطبعة الثانية، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، الجزء الثاني، ص 133 - 134.

⁴⁹ القدوري، المرجع السابق، ص 74. حمادي، المرجع السابق، ص 87 - 88. بن منصور، المرجع السابق، ص 294. واحيحي، سجلماسة/تافيلالت...، ص 299 - 300. واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي...، ص 31.
⁵⁰ بن منصور، المرجع نفسه، ص 293.

⁵¹ حمادي، المرجع السابق، ص 90 - 91.. محمد حجي، الحركة الفكرية في عهد، ج 1، ص 207. -BERQUE, Ulémas fondateurs,... p.73.

⁵² هو أبو عبد الله محمد الخروبي، فقيه الجزائر في عصره، مفسر، محدث، من كبار العلماء، ولد بقرى طرابلس الغرب، ونشأ بالجزائر له عدة تصانيف منها : « شرح صلاة ابن مشيش » و « تفسير القرآن »...وغيرها. نويهض عادل، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، الطبعة الثانية، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1400هـ / 1980م، ص 132.

⁵³ هو أبو عمرو بن أحمد الأمين بن قاسم القسطللي المراكشي، ولد سنة 912 هـ، من أشهر رجال الصوفية بمراكش تنسب له الزاوية البوعمرية. السملالي، المصدر السابق، ص 241.

⁵⁴ القدوري، المرجع السابق، ص 74. بن منصور، المرجع السابق، ص 293. واحيحي، سجلماسة/تافيلالت...، ص 298 - 300. واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي...، ص 30 - 32. محمد حجي، الزاوية الدلائية...، ص 132.

⁵⁵ هو محمد عبد الله بن عبد الكريم بن أحمد الجراي. تلميذ وصهر سيدي الشيخ. فقيه متمكن وشاعر ناثر، تولى قضاء بلده. له في شيخه سيدي الشيخ قصائد مدحية عديدة، منها قوله:

رأيت شيوخا من شعوب كثيرة فلم أرى مثل الشيخ عبد القادر
ويقول أيضا: شغفت بحب الشيخ عبد القادر فأذهلني عن القضا في الخصومة
يشير إلي بالقضا غير مرة ويامرني بالفصل بين الخليفة

ت 1035هـ/1625م، وهو دفين قرية أولاد سعيد بتيكورارين. بنعلي محمد بوزيان، **فجيج في عهد السعديين السياسية والثقافة والمجتمع**، مطبعة الجسور، وجدة، 2005، ص 313.

⁵⁶ حمادي، المرجع السابق، ص 65 - 95.
⁵⁷ المنوني محمد، **دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1405 هـ / 1985 م، ص 97.

⁵⁸ واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي...، ص 30.

⁵⁹ المرجع نفسه، ص 29 - 102.

⁶⁰ ابن أبي محلي، الإصليت...، ص 3.

⁶¹ واحيحي، سجلماسة / تافيلالت...، ص 298 - 299. بن منصور، المرجع السابق، ص 294.

⁶² القدوري، المرجع السابق، ص 74. حجي، الحركة الفكرية...، ج 1، ص 207.

⁶³ بن منصور، المرجع السابق، ص 294.

المواقف العربية والدولية من تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية خلال الثورة التحريرية (سبتمبر 1958 -جانفي 1960)

أ/ ميلودي سهام – جامعة تلمسان

ملخص:

بمجرد الإعلان عن تشكيل الحكومة المؤقتة الجزائرية في 19 سبتمبر 1958 حتى سارعت أغلب الدول العربية والغربية للاعتراف بها، و قدمت لها الدعم في جميع المجالات، مما أعطى لها دفعا في ممارسة نشاطها إذ تمكنت من إيصال صوت الشعب الجزائري عن طريق عرض قضيته في المؤتمرات وكذلك دور هيئة الأمم المتحدة معتمدة على الثقل الذي تمثله الدول الإفريقية والآسيوية في المحافل الدولية، كما كان لها دور كبير في تمهيد الطريق للمفاوضات مع الحكومة الفرنسية، وهذا يعتبر في حد ذاته تقدما للقضية الجزائرية.

Summary :

de Once the announcement of the formation of the Algerian temporary government in the September 19, 1958 until most of the Arab countries were quick and West to recognize them , and provided them with support in all areas , which gave her a boost in its operation , it was able to deliver the voice of the Algerian people by presenting its case at conferences , as well as the role of United Nations body based on gravity posed by African and Asian countries in international forums, also had a big role in paving the way for negotiations with the French government , and this in itself is progress for the Algerian cause.

الكلمات المفتاحية:

الحكومة الجزائرية المؤقتة : temporary Algerian gouvernement

الأمم المتحدة : United nations

القضية الجزائرية : Algerian cause

المفاوضات : négociations

تقرير المصير : self-détermination

الدول الأفروآسيوية : Afro-Asian countries

مؤسسات القيادة : leadership organisations

السلطة : authority

المحافل الدولية : international forums

مقدمة:

هل كان لهذه القيادة الجديدة دور في تغيير مسار الثورة التحريرية ؟ إن هذا التساؤل الرئيسي يطرح مجموعة من التساؤلات الفرعية ، كيف كان صدى الإعلان عنها ؟ أو ما هي المواقف العربية والدولية المتخذة من تشكيل الحكومة المؤقتة ؟ هل حققت إنجازات للقضية الجزائرية ؟

1- ظروف و أوضاع الثورة التحريرية من 1956-1958 : تعددت مؤسسات القيادة خلال الثورة التحريرية فلما اندلعت في الفاتح من نوفمبر 1954، لم تشهد تنظيمًا شاملاً و واسعاً إلا بعد انعقاد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956، و هذا عن طريق إحداث مؤسسات سياسية وعسكرية لدعم النشاط الثوري، فتم تشكيل المجلس الوطني للثورة الجزائرية (CNRA) و لجنة التنسيق والتنفيذ (CCE) التي تتولى تطبيق القرارات المنبثقة عن هذا المجلس.

✓ لكن قبيل تشكيل الحكومة المؤقتة عرفت الثورة التحريرية عدة أحداث وتطورات أثرت على مسارها، فعلى المستوى الداخلي: نتيجة عقد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 اتخذت السلطات الفرنسية عدة إجراءات كرد فعل على هذا المؤتمر، حيث لجأت إلى اختطاف الطائرة التي كانت تقل الزعماء الأربعة بالإضافة إلى مصطفى الأشرف كصحفي في 22 أكتوبر 1956⁽¹⁾ و هي في طريقها من المغرب الأقصى إلى تونس لحضور مؤتمر من أجل تأسيس اتحاد فدرالي بين تونس و الجزائر و المغرب الأقصى لحل المشكل الجزائري⁽²⁾، من خلال مناورة الاختطاف نستطيع أن نفسر غرض فرنسا هو إضعاف الثورة عن طريق القضاء على زعمائها، غير أن هذا لم يمنع الثورة من مواصلة مسارها و خاصة بعد نقلها إلى المدن و كان الهدف من وراء ذلك هو التأكيد للعالم أن الثورة يقوم بها كل الشعب و ليس مجموعات منعزلة، كما كانت تدعي فرنسا و قد تمثلت في العمليات الفدائية حيث نفذت بمدينة الجزائر، واختيرت هذه الأخيرة لأنها تمثل القلب النابض للسياسة الاستعمارية⁽³⁾، و تدخل هذه العمليات في إطار "معركة الجزائر"، إذ كان يشرف عليها العربي بن مهيدي⁽⁴⁾، و تعود بدايتها إلى سنة 1956 فكانت هناك أربع عمليات في جانفي 1956 و 50 في جوان و 95 في أكتوبر و 122 عملية في ديسمبر 1956⁽⁵⁾، فبدأ القلق ينتاب السلطات الاستعمارية، و نلمس هذا من خلال تحويل السلطة الأمنية إلى الجنرال Massu⁽⁶⁾، بتاريخ 7 جانفي 1957، حيث أسندت إليه كامل الصلاحيات للحفاظ على الأمن⁽⁷⁾، و قد تزامن مع معركة الجرائر إضراب الثمانية أيام الذي كان من 28 جانفي إلى 4 فيفري 1957 و تعود فكرة هذا الإضراب إلى العربي بن مهيدي⁽⁸⁾، والغاية منه هي إبراز دور الجماهير الشعبية داخل المدينة و مدى تعلقه بقيادة الثورة، فتم توجيه نداء من طرف جبهة التحرير الوطني إلى الشعب الجزائري، فاستجاب لها النداء مختلف شرائحه⁽⁹⁾، و قد كانت له نتائج إيجابية وسلبية، فمن الناحية الإيجابية حقق صدى كبير في أوساط الصحافة العالمية إذ حسب وكالة رويتر البريطانية: "ما يقارب 90% من الحوانيت في المدن الرئيسية بالجزائر مغلقة و حوالي 70% من الموظفين الجزائريين لم يلتحقوا بمناصب عملهم"، و كما كان هناك تضامن من طرف الدول العربية فمثلاً القاهرة أذاعت محطة صوت العرب بلاغاً موجهاً من جبهة التحرير الوطني بالقاهرة إلى الشعب الجزائري بمجد موقفه البطولي في تنفيذ نداء الإضراب أما في الرباط فقد أعلنت المنظمات القومية بالمغرب الأقصى إضراباً عاماً لمدة ساعة⁽¹¹⁾.

ومن هنا ندرك مدى نجاح الإضراب و أكدت جبهة التحرير الوطني أنها الممثل الشرعي للشعب الجزائري . أما بخصوص النتائج السلبية: نتيجة لسياسة العنف التي انتهجها ماسو (Massu)، تم تفكيك شبكة العمليات الفدائية و إلقاء القبض على العربي بن مهيدي في 23 فيفري 1957، الذي تعرض للتعذيب لمدة 10 أيام و في مارس 1957 صرحت السلطات الفرنسية أنه انتحر⁽¹²⁾، و مما زاد الطينة بلة هو اكتشاف مقر لجنة التنسيق و التنفيذ و خروجها من العاصمة و بهذا أصبحت الثورة تسير من الخارج⁽¹³⁾، و هذا يعد مخالفاً لقرارات مؤتمر الصومام التي أكدت أولوية الداخل على الخارج، و إضافة إلى ما سبق كان هناك انعزال ولايات الداخل عن

الخارج بسبب إنجاز خط موريس في 15 سبتمبر 1957 الذي عرقل عملية تمرير السلاح إلى الداخل غير أن كريم بلقاسم⁽¹⁴⁾، استعان بخبراء عسكريين من المشرق العربي لقطع الأسلاك المكهربة و تمرير السلاح إلى الداخل⁽¹⁵⁾، لكن السلطات الفرنسية اكتشفت الأمر و كرد فعل منها قامت بشن هجوم جوي على ساقية سيدي يوسف بتونس في 8 فيفري 1958 بحجة استهداف فرق جيش التحرير الوطني داخل الأرض التونسية⁽¹⁶⁾، و يمكن أن نفسر هذا بأنها أرادت أن توتر العلاقات بين الجزائر و تونس و خاصة بعد أن استقر أعضاء لجنة التنسيق و التنفيذ بها.

✓ أما على مستوى الخارجي فبعد اكتشاف مقر لجنة التنسيق و التنفيذ و الفرار إلى الخارج كان لا بد من اجتماع للمجلس الوطني للثورة في 20 أوت 1957 بالقاهرة و أصدرت عدة قرارات و منها: إلغاء أولوية السياسي على العسكري و كذلك أولوية الداخل على الخارج⁽¹⁷⁾، و تم توسيع لجنة التنسيق من خمسة إلى تسعة أعضاء و المجلس الوطني للثورة من 34 إلى 54 عضو أو من أهم قراراته إنشاء حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية⁽¹⁸⁾، كما كان لاستقلال تونس و المغرب أثر بارز في نشاط الثورة التحريرية حيث لقيت دعما كبيرا في المجال العسكري و الدبلوماسي. ففي المغرب انعقد مؤتمر طنجة من 27 إلى 30 أفريل 1958 و جاءت المبادرة من حزب الاستقلال المغربي و الحزب الدستوري التونسي⁽¹⁹⁾.

من الملاحظ أن هذا المؤتمر جاء بعد شهرين من الهجوم الفرنسي على قرية سيدي يوسف بتونس كتأكيد للسلطات الاستعمارية بوحدة المغرب العربي، وقد قبلت جبهة التحرير الوطني المشاركة في المؤتمر لعدة أهداف منها:

- تمتين تضامن الشعب التونسي و المغربي مع الثورة الجزائرية⁽²⁰⁾.
- اعتبار الوحدة المغاربية مشروطة باستقلال الجزائر و مساعدة هذه الأخيرة في كفاحها ضد المستعمر.
- التوصية بضرورة تكوين حكومة مؤقتة جزائرية⁽²¹⁾.

في ظل هذه الظروف التي عرفتها الثورة سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، كان من الضروري إذن تكوين حكومة مؤقتة كتتفيذ لقرار المجلس الوطني للثورة و مؤتمر طنجة و أيضا من أجل إبلاغ القضية الجزائرية و حقيقة ما يحدث في الجزائر للرأي العام العالمي.

2- الإعلان عن الحكومة المؤقتة:

تعتبر فكرة تكوين حكومة مؤقتة حدثا بارزا و هاما بالنسبة للثورة الجزائرية ، فبعد أن فوّض المجلس الوطني للثورة الجزائرية لجنة التنسيق و التنفيذ لإنشائها، قررت عقد اجتماعها يوم 9 سبتمبر 1958 من أجل دراسة هذه القضية حيث تم و ضع خطة لتشكيلها و تحديد وظائف الوزراء⁽²²⁾، فقد كانت تتكون من طبقتين: الطبقة الأولى هي صاحبة القرار و تضم الثلاثي كريم بلقاسم، لخضر بن طوبال⁽²³⁾، وعبد الحفيظ بوصوف⁽²⁴⁾، و باقي الأعضاء مسؤولون أمامها، وكانت برئاسة فرحات عباس⁽²⁵⁾.

و اختيار هذا الأخير كرئيس للحكومة: بحكم أنه كان زعيما لحزب البيان للإتحاد الديمقراطي (UDMA) سابقا وكذلك لأنه لا يملك القدرة السياسة للتفاوض مع فرنسا⁽²⁶⁾، و قد أرجع سعد دحلب في كتابه المهمة المنجزة أن سبب هذا الاختيار يعود إلى ظهور معطيات تطلبت بروز رجل سياسي يؤمن بالحل التفاوضي⁽²⁷⁾.

لكن سبب الاختيار برأينا يرجع ، في المقام الأول إلى تعامله مع الفرنسيين إذ كان حزبه اندماجيا و بهذا تكون له علاقات مع سياسيين فرنسيين و مهارة دبلوماسية أثناء الحديث معهم، حتى سياسته كانت قائمة على

التفاوض من أجل الحصول على الاستقلال، فمن المعلوم أنه سابقا دخلت جبهة التحرير الوطني في لقاءات و اتصالات سرية مع الحكومة الفرنسية و كلها كانت فاشلة لأن فرنسا لم تعترف بجبهة التحرير الوطني كممثل شرعي للشعب الجزائري، و شيء آخر كانت فقط تريد جس نبض قادة الثورة و إطالة الحزب بالجزائر، لهذا تطلب الأمر تشكيل حكومة مؤقتة لتكون هناك مفاوضات فعلية و رسمية مع فرنسا. و في يوم 4 ربيع الأول 1378 الموافق ل 19 سبتمبر 1958 على الساعة الواحدة بعد الظهر⁽²⁸⁾، في القاهرة و بحضور رجال الصحافة و مختلف ممثلي وكالات الصحف الأجنبية تولى فرحات عباس باعتباره رئيس الحكومة تلاوة بيان التأسيس⁽²⁹⁾، و قد صدر في وقت واحد بالقاهرة و تونس و الرباط و نم فيه إعلان إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية⁽³⁰⁾.

الشيء الملفت للنظر أن الاهتمام بهذا الحدث يبدو واضحا من خلال حضور الصحافة من مختلف الدول و إعلانها ميلاد الحكومة المؤقتة حيث أصبحت هذه الأخيرة مسؤولة عن قيادة الثورة، لكن بطبيعة الحال تتلقى مختلف القرارات من طرف المجلس الوطني للثورة، حيث كان هذا الإعلان تنفيذا لقراراته أثناء اجتماعه بالقاهرة في 20 أوت 1957، و بالتالي المهمة الأساسية لها هي تحقيق الاستقلال.

3- الاعترافات العربية و الدولية بها :

كان صدى إعلان تشكيل أول حكومة مؤقتة جزائرية في الخارج كبيرا جدا و هذا من خلال توالي الاعترافات بها خاصة بعد انتهاء فرحات عباس من تلاوة البيان يعني في اليوم نفسه نجد أن العراق هي أول دولة اعترفت بها، ثم تليها الجمهورية العربية المتحدة، و جاء بعد ذلك سفير ليبيا معترفا رسميا بالحكومة المؤقتة و سفير دولة الباكستان، و في مساء ذلك اليوم جاء اعتراف دولة اليمن⁽³¹⁾. و الملاحظ أن أشكال الاعتراف⁽³²⁾، اختلفت من دولة لأخرى، فمثلا المغرب كانت تتواجد بها بعثة أعضاء لجنة التنسيق و التنفيذ مهمتها التوصل إلى الاعتراف الرسمي لمحمد الخامس بالحكومة الجزائرية فأعطى الملك دعمه للحكومة⁽³³⁾، أما تونس فقد بعثت برسالة من كتابة الدولة للشؤون الخارجية التونسية إلى وزارة خارجية حكومة الجمهورية الجزائرية تقرر فيها بالاعتراف رسميا⁽³⁴⁾، بهذه الحكومة بعد أن أذاعت بلاغا في 19 سبتمبر 1958 يؤكد ذلك⁽³⁵⁾.

و قد أعطت هذه الاعترافات دفعا قويا للقضية الجزائرية إذ عملت على مساندتها، ماديا ومعنويا، حيث أن الحكومة المؤقتة واصلت جهودها من أجل الاعتراف بها.

هذا بالنسبة لأهم الدول العربية أما الدول الغير العربية فقد جاء اعتراف الصين بعد ثلاثة أيام من الإعلان عنها حيث قال الرئيس هوشي تونغ: "إن تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة يعد تعبيراً عن إرادة الشعب الجزائري الذي لا يقبل المساومة مع الاستعمار"⁽³⁶⁾. كما جاء اعتراف كوريا الشمالية في 20 سبتمبر 1958 و الفيتنام في 26 سبتمبر 1958 و إندونيسيا في 27 سبتمبر 1958⁽³⁷⁾.

من خلال عرض هذه الاعترافات يتضح لنا أنه كانت هناك مساندة دولية أما من جهة فرنسا فنجد أنه بعد الإعلان عن تشكيل الحكومة المؤقتة اهتدى الجنرال ديغول الذي تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية الخامسة في 1 جوان 1958 على تطبيق سياسة الإدماج و تحقيق المساواة⁽³⁸⁾ ومن أجل تحقيق هذا الأمر اتخذ إجراءات عسكرية

و سياسية و اقتصادية بداية بإجراء استفتاء 28 سبتمبر 1958 و هذا من أجل التصويت على دستور فرنسا الجديد و قد لعب الجيش دور وكالة الإشهار إذ كان مكلف بحملة نعم خلال الاستفتاء من خلال معلقات ثلاثية الألوان في المدن، الجدران، المزارع، المشاتي ممثلة العلم الفرنسي و تراكم صور الجنرال ديغول في جميع الشوارع فحواها نعم للدستور الجديد هي نعم لديغول، حيث بلغت نسبة التصويت 96 % و هذا ما جعله يفترو يوهم الرأي العام العالمي أن الجزائريين رافضين للحكومة المؤقتة كتمثل شرعي⁽³⁹⁾ لهم غير أن هذه النسبة مبالغ فيها فديغول كان يريد أن يهز مكانة الحكومة المؤقتة و رغم اعتراف معظم دول العالم بها لم يتوقف ديغول عن مشاريعه الاستعمارية فمن أجل الدفاع عن فكرة الجزائر فرنسية قام بإعلان يوم 3 أكتوبر 1958 من خلال خطاب ألقاه بمدينة قسنطينة بالجزائر عن مشروع قسنطينة الذي كان يهدف من خلاله غرس فكرة الإدماج عن طريق إفساح العمل للجزائريين و كان يتضمن ما يلي: إنشاء مساكن لمليون نسمة، منح 250 ألف هكتار من الأراضي للجزائريين أحداث 400 ألف وظيفة جديدة⁽⁴⁰⁾، و هنا نلمس أن ديغول كان يحاول إغراء الشعب الجزائري بالعمل وبالتالي يعزله عن الثورة و تكوين طبقة مرتبطة بفرنسا أو ما يسمى بالقوة الثالثة لكن هذا المشروع لقي معارضة شديدة من طرف المعمرين والجزائريين على حد سواء، فالمعمرون لا يسمحون أبدا أن يصبحوا في درجة المساومة مع الجزائريين لشعورهم بأنهم هم السادة، و طبعا حتى الجزائريين رفضوا المشروع⁽⁴¹⁾، لكن ديغول لم يستسلم فجاء بمشروع سلم الشجعان حيث وجه نداء إلى جيش التحرير الوطني بكل فئاته و قد جاء بتاريخ 23 أكتوبر 1958 و مما جاء في النداء " على الذين بدؤوا القتال أن يوقفوه و عليهم أن يعودوا إلى منازلهم و ذويهم و على قادتهم أن يتصلوا بقادتنا العسكريين بواسطة العلم الأبيض، أما أعضاء الوفد الخارجي للثورة فما عليهم إلا أن يتوجهوا إلى سفارة فرنسا في تونس أو الرباط كي تضمن نقلهم إلى فرنسا لكي يبحثوا شروط الإستلام في النطاق الفرنسي و أما المستقبل السياسي للجزائر فلا مجال للتعرض له الآن⁽⁴²⁾، ينصح لنا أن ديغول كان يطلب من قادة الثورة الاستسلام و الشيء الملاحظ أيضا على هذا النداء أن الهدف المراد الوصول إليه هو إحداث شقاق و خلاف بين قادة الثورة عن طريق عزل الداخل عن الخارج غير أن هذا المشروع فشل، فقد رفض من طرف الحكومة المؤقتة الجزائرية وأعلنت عن يقينها بأن السلام لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق التفاوض فوجهت دعوة للحكومة الفرنسية من أجل التفاوض بصورة جدية و في بلد محايد⁽⁴³⁾ و من الواضح أن فرنسا لم تعترف بالحكومة المؤقتة كتمثل شرعي للشعب الجزائري لكن هذا لم يمنعها من مباشرة نشاطها.

4- بداية نشاطها و الدعم الإفريقي الآسيوي لها:

بعد أن استطاعت الحكومة المؤقتة الحصول على التأييد من عدة دول بدأت نشاطها السياسي و بالأحرى الدبلوماسي من خلال سفر الوفد الوزاري إلى الصين و الذي دام من 03 إلى 13 ديسمبر 1958 و أيضا من 16 إلى 20 ديسمبر 1958 و أثناء المحادثات التي جرت مع ماو تسي تونغ رئيس الجمهورية الشعبية للصين و شوان لاي رئيس مجلس الوزراء تم تأييد الشعب الجزائري في كفاحه من أجل الاستقلال⁽⁴⁴⁾، و بالتالي نجد أن هذه الزيارة أثارت حماس الشعب الجزائري و أيضا الوفد الوزاري في مواصلة مهامه، خاصة أنه في الأسابيع نفسها التي تمت فيها الزيارة رافقتها عدة أحداث بداية من عرض القضية الجزائرية في الأمم المتحدة⁽⁴⁵⁾ خلال دورتها الثالثة عشر، فقد أراد الوفد الجزائري أن يحقق عدة أهداف كانت الحكومة المؤقتة قد سطرته ومن بينها: العمل على الاعتراف بحق الشعب الجزائري في الاستقلال ووجوب التفاوض بين الطرفين⁽⁴⁶⁾، فقد كان هناك دعم

للقضية الجزائرية لأول مرة في الدورة العاشرة للأمم المتحدة سنة 1955 إذ قدم مندوبو أربع و عشرين دولة من الدول الإفريقية و الآسيوية بهيئة الأمم المتحدة رسالة إلى الأمين العام يوم 29 جويلية طلبوا منه فيها إدراج قضية الجزائر في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة ثم تجدد الطلب في الدورة الحادية عشرة سنة 1956 و الثانية عشر سنة 1957 و في الدورة الثالثة عشر 1958 تقدمت كتلة الدول الإفريقية الآسيوية بمذكرة توضيحية و مر فوقة بطلب الكتلة و مما جاء فيها أن الحرب ظلت مستمرة في الجزائر بدون هوادة متسببة في زيادة الخسائر المادية و الأرواح البشرية، و ليس هناك أية بادرة لوجود حل يتفق مع مبادئ و أهداف ميثاق الأمم المتحدة⁽⁴⁷⁾، وكانت أهم نتيجة لهذه الدورة هي تصويت الجمعية بأغلبية الثلثين فمن بين 82 دولة لم نجد إل 18 دولة ساندت فرنسا⁽⁴⁸⁾، و رغم بقاء القضية الجزائرية كما هي دون حل، و لكن حصل تطور كبير في اتجاه كثير من الوفود و أصبحت تتفهم المشكلة و تعطف عليها⁽⁴⁹⁾.

- نلمس هنا أن الحكومة المؤقتة استطاعت أن تتحصل على دعم الدول الإفريقية .
- و الآسيوية في المحافل الدولية و يظهر جليا من خلال الطلبات التي قدمتها للأمم المتحدة من أجل مناقشة القضية الجزائرية .
- كما تلا مباشرة هذه الدورة مؤتمر أكررا الذي انعقد في 8 ديسمبر 1958 إذ ضم الأقطار الإفريقية حيث نوه هذا المؤتمر تمسك الشعب الجزائري بتقرير مصيره و أن تجري مفاوضات مع الحكومة المؤقتة⁽⁵⁰⁾.
- لكن لا يعني أن الحكومة المؤقتة أولت جل اهتماماتها للنشاط السياسي بل كان هناك أيضا اهتمام بالميدان العسكري فتشكيلها كان له أثر ايجابي على صعيد التسليح و التموين، فأصبحت بعض الدول الشقيقة تتعامل معها كهيئة شرعية و تبرم معها صفقات مثل مصر و العراق و سوريا و الأردن، كما التحقت بقائمة الدول المتبرعة بالسلاح⁽⁵¹⁾ دول كبرى مثل الصين و الإتحاد السوفياتي، حيث كان يتم تهريبها عبر الطريق البري للبيبا و تونس و نظرا لتزايد كميات الأسلحة و كبر حجمها، كانت بحاجة إلى سيارات ثقيلة و بالفعل تم شراؤها من مصر أوائل عام 1958 و هي عبارة عن لوريات مرسيدس بالمقطورة حمولة كل واحدة 2020 طن و تم شحنها بعد أن كلف المسؤول عن التسليح و النقل بتوفير اثني عشر سائقا من الشباب الجزائري ووصلت في 24 أكتوبر 1958، لتساهم بقدر كبير في عملية إمداد الجزائر بالسلاح⁽⁵²⁾، كما تم تسليم كمية من الأسلحة يوم 13 نوفمبر 1958 و اتخذت طريقها إلى تونس و هي عبارة عن متفجرات و ألغام، مثلا نجد 16 لغما مضادا للدبابات 5، 1350 لغما مضادا للدبابات 7، 20000 فتيل متفجر، 1000 متر فتيل متفجر⁽⁵³⁾.
- بالفعل الحكومة المؤقتة قامت بتوفير الأسلحة غير أنها لم تصل إلى الداخل، نتيجة إنجاز خط شال الذي يمتد بالتوازي على بعد 70 كلم مع خط موريس في الجهتين الشرقية و الغربية من البلاد و بقوة كهربائية 30 ألف فولط حيث رأى موريس شال ضرورة تشديد الخناق و تدعيم المراقبة على الحدود الجزائرية الشرقية و الغربية عن طريق غلقها بالأسلاك الشائكة المكهربة فالهدف الرئيسي من إنشاء خطي موريس و شال هو منع دخول الأسلحة و الذخيرة بالتالي أصبحت فكرة تموين الداخل مهمة صعبة جدا رغم هذا العائق الذي أوجدهته الحكومة الفرنسية أمام الحكومة المؤقتة لم يمنعها من مواصلة نشاطها خاصة فيما يتعلق بكسب العديد من التأييدات العربية و الدولية للقضية الجزائرية فقد قام وفد الحكومة المؤقتة بالعديد من الزيارات مثل زيارة 13 فيفري 1959 إلى ليبيا متكونة من فرحات عباس رئيس الحكومة و أحمد توفيق المدني وزير الشؤون الثقافية و ابراهيم مزهودي مدير مكتب رئيس الحكومة المؤقتة بليبيا و عبد الحفيظ بوصوف وزير المواصلات حيث تم

استقبالهم بحفاوة كبيرة و حرصت ليبيا على مساندة الجزائر⁽⁵⁴⁾ ، وفي 6 فيفري 1959 توجه وفد الحكومة المؤقتة من مدينة القاهرة إلى المملكة السعودية حيث حصلت على تأييده للقضية الجزائرية ، كما زار الرئيس فرحات عباس و بن يوسف بن خدة وزير الشؤون الاجتماعية الهند و الباكستان التي عبرت عن دعمها للقضية الجزائرية⁽⁵⁵⁾ ، حتى أنه لما انعقد مؤتمر الدار البيضاء في إطار الدورات التي كانت تعقدها جامعة الدول العربية و قد حضر الوفد الجزائري كوفد ملاحظ في سبتمبر 1959 حيث صودقت فيها على دعم المادي و المعنوي للقضية الجزائرية⁽⁵⁶⁾ .

- و نتيجة لهذه التطورات الدولية ، إذ لم تعد القضية الجزائرية قضية فرنسية بل خرجت إلى الصعيد الدولي ، لأول مرة اعترف الجنرال ديغول بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه لكنه أحاط ذلك بقيود و شروط كادت تجعله مستحيلا⁽⁵⁷⁾ ، من خلال خطاب ألقاه في 16 سبتمبر 1959 و يتضمن ثلاثة حلول للقضية الجزائرية و هي " الإدماج " الإتحاد الفيدرالي ، الانفصال ، فالإدماج يعني المساواة في الحقوق و الواجبات بين جميع سكان الجزائريين و المسلمين ، أما الإتحاد الفدرالي و هي أن يحكم الجزائريون من طرف جزائريين بمساعدة فرنسا في إطار اتحاد وثيق معها و الانفصال يعني الاستقلال و قد صرح ديغول بخصوص هذه النقطة أنه يجب على الجزائريين أن يبتعدوا عن هذه الفكرة فقد تؤدي إلى فوضى و تتيح الفرصة للتكامل و التعذيب و الذبح و الشنق⁽⁵⁸⁾ .

- إن هذه المبادرة من طرف ديغول أحدثت حالة استنفار في صفوف الحكومة المؤقتة فقامت باستشارات داخلية و خارجية فعلى الصعيد الداخلي فوضعية الحكومة المؤقتة لم تسمح لها باتخاذ القرارات الحاسمة في القضايا الجوهرية ، مما أدى إلى اتخاذ قرار إشراك القادة العسكريين - قادة الولايات - في ثلاث اجتماعات أيام 20 ، 21 ، 27 سبتمبر 1959 و هذا لإعطاء المصادقية للقرارات التي ستتخذ⁽⁵⁹⁾ .

- أما على الصعيد الخارجي: أجرت اتصالات مع الدول الصديقة و الشقيقة خاصة مع دولتي الجوار والتي لهما علاقة مباشرة بالصراع الجزائري الفرنسي تونس و المغرب الأقصى ، ففي اتصال لرئيس الحكومة المؤقتة بالرئيس التونسي لحبيب بورقيبة نصح هذا الأخير قادة الثورة باتباع سياسة المعروفة بالمراحل أو خذ و طالب ، و ذلك بقبول حق تقرير المصير ثم و ضع الشروط التي تراها الحكومة ضرورية كما أكد جمال عبد الناصر عن دعمه للثورة في حال رفضها لمبادرة ديغول.

- كما أجريت اتصالات مع دول عربية أخرى مثل: ليبيا ، المملكة العربية السعودية و لبنان و بدول صديقة مثل: الصين الشعبية عن طريق سفيرها في تونس و الذي أكد على ضرورة و ضع شروط سياسية مثل الاعتراف بالحكومة المؤقتة و شروط عسكرية مثل جلاء القوات الفرنسية⁽⁶⁰⁾ .

- و بعد استشارات داخلية و خارجية و نقاشات دامت حوالي أسبوعين ، صاغت الحكومة المؤقتة بيانها ردا على إعلان ديغول و أذيع بتونس يوم 28 سبتمبر 1959 و قد تضمن هذا البيان نقاط عديدة يمكن إيجازها كالآتي:

- إن ربط حرية اختيار الشعب الجزائري باستشارة الشعب الفرنسي يتعارض مع مبدأ حق تقرير المصير و يتعارض أيضا مع الديمقراطية.

- الاستقلال الذي ينتج عن حرية استشارة الشعب الجزائري ، لن يكون مصدر فوضى و معانات ، بل أن الاستقلال شرط لتحقيق الرقي الحقيقي الذي سيضمن حرية الأفراد و أمنهم ، و يسهل توحيد المغرب العربي⁽⁶¹⁾ .

- استعدادها للدخول في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية من أجل مناقشة الشروط السياسية و العسكرية لوقف إطلاق النار⁽⁶²⁾.
- إن هذا البيان خلص الثورة الجزائرية من الحرج الذي كان سيلحق بها دوليا خاصة في هيئة الأمم المتحدة في حال رفضها لمبادرة فرنسا خاصة و أنها كانت تحضر لمناقشة القضية الجزائرية في دورتها الرابعة عشر فقد ظهرت متمسكة بالحل السلمي و مطالبية بالمفاوضات.
- انطلاقا من هذا العرض نجد أن الحكومة المؤقتة اعتمدت على عدة ركائز من أجل إيصال القضية الجزائرية إلى العالم.
- حصلت على أكبر قدر من دعم دول العالم من أجل الاستفادة من تضامنهم مع القضية العادلة للشعب الجزائري.
- اعتمدت على دعم الدول العربية خاصة الجمهورية العربية المتحدة، العراق، تونس والمغرب لكسب مواقع جديدة على الساحة الدولية، سواء على مستوى الكتل و المنظمات في إطار جامعة الدول العربية أو الكتلة الإفريقية والآسيوية و يظهر جليا من خلال مساندة هذه الأخيرة للثورة الجزائرية في الدورات التي عقدتها الأمم المتحدة فقد اعتمدت الحكومة المؤقتة على الثقل الذي يمثله دعم الدول الإفريقية و الآسيوية في المحافل الدولية، إذ ساهمت في الانتقال بالمشكل الجزائري من الحيز الفرنسي إلى مستوى التدويل⁽⁶³⁾.

خاتمة:

- يتبين لنا من خلال هذا العرض أن الحكومة المؤقتة قد حققت عدة انجازات فبعد أن تحصلت على العديد من الاعترافات العربية والدولية عند الإعلان عنها باشرت نشاطها المتمثل في سلسلة الزيارات التي قام بها كل من فرحات عباس رئيس الحكومة المؤقتة وأعضاؤها عبر مختلف الدول لكسب تأييدها وتمويلها ، وكذلك المشاركة في العديد من المؤتمرات كمؤتمر أكرا، كما تمكنت من عرض القضية الجزائرية في دورات هيئة الأمم المتحدة متعمدة على دعم الدول الإفريقية والآسيوية، بالتالي كان لها دور كبير في تدويل القضية الجزائرية حيث أصبح لها صدى واسع ، كما مهدت الطريق للمفاوضات مع فرنسا وبهذا تكون قد حققت تقدما في مسار الثورة التحريرية.

الهوامش:

- (1) الزعماء الأربعة هم : أحمد بن بلة ، محمد بوضياف، محمد خيضر، حسين آيت أحمد وهم أعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني أنظر:
- Benyoucef Benkhedda ,la fin de la guerre d'Algérie les Accords d'Evian ;2^{eme} éd .D.P.U, Alger, 1998,p.15 .
- (2) أورغندي محمد لحسن ، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956- 1962 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1989، ص 144
- (3) Gilbert meynier ,histoire intérieure du FLN(1954-1962) éd .casbah ;Alger.2003 pp 322,323.
- (4) العربي بن مهيدي : ولد سنة 1923 بدوار الكواهي ولاية أم البواقي - الجزائر ، مناضل بحزب الشعب الجزائري ، أول مسؤول ولائي للغرب الوهراني لجبهة التحرير الوطني يعني الولاية الخامسة لأن الجزائر غداة الاستعمار الفرنسي كانت مقسمة إلى ست ولايات أنظر:

Achour cheurfi ,la classe politique Algérienne de 1900 à nos jours dictionnaire bibliographique ;éd. Casbah . 2001,pp 91-92.

(5)Gilbert Meynier ;op ;cit ;p.323.

(6) الجنرال ماسو : Jascques Massu: ولد في 05 ماي 1908 شيلان سير مارن Chalons sur Marne هو قائد الفرقة العاشرة للمظليين أنظر : القرص المضغوط ، تاريخ الجزائر ، 1830- 1962 ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، الجزائر ، 2002.

(7)Messaoud Maadad ;guerre d'Algérie chronologie et commentaires , éd .ENAG ,Algér ; 1992 ,p81.

(8) "إذ تقرر مدته في البداية بشهر ثم حددت بثمانية أيام نظرا لعدم تحمل الشعب الجزائري مدة شهر لأنها طويلة جدا" أنظر قدور كريمة ، معركة الجزائر فيفري 1957 من ثورة الريف إلى حرب المدن ، الرائد ، ع 1 ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، الجزائر 2002 ص ص 10- 11 . أيضا المقاومة ، ع 6 ، 28 جانفي 1957 ، ص 12.

(9)Archive wilaya Orane, Boite BP 198,Bulletin de la presse d'Algérie la grève du FLN et les syndicats musulmans ,N°690 ,1957 , p63

(10) المقاومة الجزائرية ، ع 7 ، 16 فيفري 1957 ، ص 11.

(11) نفس المصدر ، ص 11

(12)A.W.O Boite BP198 , Bultin de lapresse d'Algérie , le suicide de ben Mhidi , N° 690,1957,p.59

(13) أحسن بوما لي ، إضراب 28 جانفي 1957 الإجماع والتحدي ، الذاكرة ، ع 4 المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، 1996 ، ص 90.

(14)كريم بلقاسم ولد في 14 ديسمبر 1922 بذراع الميزان بمنطقة القبائل، انخرط في حزب الشعب الجزائري ، عين عضو في لجنة التنسيق والتنفيذ ، ثم وزير للقوات المسلحة عند تشكيل أول حكومة مؤقتة أنظر:

Benjamin Stora, Dictionnaire Bibliographique de militants nationalises Algériens,1926 - 1954,éd l'Harmathan ,paris,1985,p.329.

(15) فتحي الديب، عند الناصر وثورة الجزائر، ط2، دار المستقبل العربي للنشر والتوزيع القاهرة ، 1990 ، ص 388.

(16) معمر العايب، حادثة ساقية سيدي يوسف فيفري 1958 وبداية الاهتمام الأمريكي بمنطقة المغرب العربي، حولية المؤرخ، ع3- 4 يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين الجزائر، 2005 ، ص 476.

(17) مصطفى هشماوي ، جذور نوفمبر 1954 في الجزائر ، دار هومة ، الجزائر (د.ت) ، ص 133.

(18) أوزغيد محمد لحسن ، المرجع السابق ، ص 181.

(19) Mohamed Harbi ,le FLN mirage et réalité , des origines à la prise du pouvoir 1945-1962 ,NAQE,ENAL ,Alger,1993,p.205.

(20) معمر العايب: مؤتمر طنجة المحطة الأخيرة لتصفية الاستعمار الفرنسي من المغرب العربي ، الرائد، ع 2 المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954- ، 2002، ص 41.

(21) عامر رخيلة ، "الثورة الجزائرية والمغرب العربي " ، المصادر ، ع 1 ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، 1999 ، ص 162.

(22) جمال بلفردى هيكله وتنظيم جيش التحرير الوطني الجزائري على الحدود الشرقية والغربية 1958- 1962 ، مذكرة ماجستير ، جامعة الجزائر ، 2004 - 2005 ، ص 74.

(23) بن طوبال ولد في 1923 بميلة ، كان ضمن حزب الشعب الجزائري ، عضو في المجلس الوطني للثورة أنظر: Benjamin Stora ,op .cit.p.324

- (24) عبد الحفيظ بوصوف، ولد في 1926 بميلة ، كان ضمن لجنة 22 للتحضير للثورة ، عضو بالمجلس الوطني للثورة 1956 أنظر. Achour Cheurfi ,op,cit ,p 123.
- (25) فرحات عباس: ولد سنة 1889 بالطاهير ولاية جيجل وهو من عائلة مشهورة من الناحية العسكرية كان رئيس حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري انضم إلى جبهة التحرير الوطني سنة 1955 أنظر، Benjamin Stora,op,cit,pp377-338.
- (26) Yves Courrière , la guerre d'Algérie ,les Fils de la toussaint, tome I, éd ;Fayard ,France ;1970 ;p49.
- (27) Saad Dahlab ,Mission accomplie ,éd Dahleb ;Alger ;1990 ;p96.
- (28) المجاهد ، ع37، طبعة خاصة ، الجمعة 19 سبتمبر 1958 ، ص 1 وأيضاً N°16- l'Echo d'Alger ، 887,samedi 20 septembre 1958.pp.1-3 .
- (29) أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح مع ركب الثورة التحريرية، الجزء الثالث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 400.
- (30) عمار بوحوش ، التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962 دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 475.
- (31) أحمد توفيق المدني ، المصدر السابق ، ص 400 وأيضاً Farhat Abbas ,Autopsie d'une guerre(l'aurore) éd ;Alger-livres 2001.p238.
- (32) C.A.N.A , Boite :033, Tableau des reconnaissances du GPRA N°033-02 p1.
- (33) l'Echo d'Oran ,N° 31-271,vendredi 19 septembre 1958,p.02.
- (34) المركز الوطني للأرشيف الجزائري عليه رقم 6 ، رسالة من كتابة الدولة للشؤون الخارجية بتونس إلى وزارة خارجية حكومة الجمهورية الجزائرية، رقم 006.11.003 ، 22 سبتمبر 1958، ص 1 - 2.
- (35) عمار بوحوش المرجع السابق، ص 475.
- (36) إسماعيل دبش ، السياسة العربية والمواقف الدولية اتجاه الثورة الجزائرية 1954 - 1962، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر ، 2005 ، ص 146.
- (37) نفس المرجع ، ص 254.
- (38) أوزغدي محمد لحسن ، المرجع السابق، ص 187 - 188.
- (39) Yves courrier, la guerre d'Algérie T3,l'heure des colonels ,éd ,la société générale, paris ;2000,p1256-1257.
- (40) جريدة المجاهد، ع94، 1961/04/25، ص 8.
- (41) أوزغدي محمد لحسن، المرجع ، ص 195.
- (42) القرص المضغوط، المرجع السابق.
- (43) عمر بوضربة، النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة الجزائرية سبتمبر 1958 - جانفي 1960، دار الحكمة للنشر الجزائر ، 2010، ص ص 88 - 91.
- (44) المجاهد ، ع35، 15 - 01 - 1959 ، ص 3.
- (45) فوزية بوسباك ، الثورة الجزائرية في المحافل الدولية ، الذاكرة، ع3، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر ، 1995، ص 167.
- (46) المجاهد، ع34، 24 - 12 - 1958 ، ص 5.
- (47) يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ثورات القرن العشرين طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2009 ، ص ص 293 - 294.

- (48) المجاهد ، ع 34 ، 24 - 12 - 1958 ، ص 4.
- (49) يحي بوعزيز المرجع السابق ، ص 295 .
- (50) المجاهد ، ع 34 ، 20 ديسمبر 1958 ، ص 5.
- (51) جمال يحياوي ، تطور جيش التحرير الوطني 1956- 1962 ، أطروحة دكتوراه ، قسم تاريخ ، جامعة وهران ، 2006- 2007 ، ص 114.
- (52) فتحي الديب ، المصدر السابق ، ص 397.
- (53) نفس المصدر ، ص 302 - 303.
- (54) المجاهد ، ع 37 ، 25 فيفري 1959 ، ص 3
- (55) المجاهد ، ع 39 ، 2 أفريل 1959 ، ص 8.
- (56) المجاهد ، ع 43 ، 1 جوان 1959 ، ص 12.
- (57) أوزغدي محمد لحسن ، المرجع السابق ، ص 217.
- (58) عمر بوضرية ، المرجع السابق ، ص 93 - 94.
- (59) نفس المرجع ، ص 96.
- (60) نفس المرجع ، ص 99.
- (61) المجاهد ، ع 52 ، 5 - 10 - 1959 ، ص 6.

(62) Benyoucef benkhedda ,op.cit,18.

- (63) عمر بوضرية ، المرجع السابق ، ص 133 - 136.

قائمة المصادر والمراجع

أولا- المصادر:

I- مركز الأرشيف الوطني الجزائر العاصمة

1- بالعربية

علية رقم 6 ، رسالة من كتابة الدولة للشؤون الخارجية بتونس إلى وزارة خارجية حكومة الجمهورية الجزائرية رقم 006.11.003 ، 22 سبتمبر 1958.

2- باللغة الفرنسية:

Boite:033, tableau des reconnaissances du GPRA, N°033.02.

3- أرشيف وهران:

Boite :BP198, Bulletin de la presse d'Algérie :La grève du FLN et les syndicats musulmans ,N°690,1957.

- Le suicide de Ben M'hidi ,N°690,15 mai 1957.

II- الجرائد:

1- باللغة العربية:

- المقاومة الجزائرية ، ع 7 ، 16 فيفري 1957.
- المجاهد ، ع 37 ، طبعة خاصة ، 19 سبتمبر 1958 .

ع 34 ، 24 ديسمبر 1958 .

ع 35 ، 15 جانفي 1959 .

ع 37 ، 25 فيفري 1959 .

ع 39 ، 2 أفريل 1959 .

ع 43 ، 1 جوان 1959 .

ع 52 ، 5 أكتوبر 1959 .

ع 94 ، 25 أبريل 1961 .

2- باللغة الفرنسية:

-L'écho d'Oran ,N°31-271, vendredi 19 septembre 1958.

-L'écho d'Alger, N°16-887, 19 septembre 1958.

III - الكتب:

1- باللغة العربية:

- الديب فتحي ، عبد الناصر و ثورة الجزائر، ط2، دار المستقبل العربي للنشر و التوزيع القاهرة ، 1990 ، 725ص.
- المدني أحمد توفيق، حياة كفاح مع ركب الثورة التحريرية ، الجزء الثالث، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، 1982، 596ص.

2- باللغة الفرنسية:

- Abbas Ferhat, Autopsie d'une guerre (l'aurore), éd. Alger livres , Alger, 2011, 392p.
- Benkhedda Benyoucef, La fin de la guerre d'Algérie, les accords d'Evian, OPU, Alger, 1998, 136p.
- Courrière Yves, La guerre d'Algérie, les fils de la toussaint, tome 1, éd. Fayard, France, 1970, 446p.
- , La guerre d'Algérie ,l'heure des colonels, tome 3 , éd. Casbah, Alger, 2005, 550p.
- Dahlab Saad, Mission accomplie, éd. Dahlab, Alger, 1990, 347p .
- Harbi Mohamed, Le FLN mirage et réalité, des origines à la prise du pouvoir 1945-1962, NAQE, Enal, Alger, 1993, 440p.

ثانيا- المراجع:

ا- الكتب

1- باللغة العربية

- بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962، دار الغرب الاسلامي ، بيروت، 1997، 684ص.
- بوضرية عمر، النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة الجزائرية سبتمبر 1958 - جانفي 1960، دار الحكمة للنشر، الجزائر ، 2010، 383ص.
- بوعزيز يحيى، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، ثورات القرن العشرين، طبعة خاصة ، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2009، 576ص.
- لحسن محمد أوزغليدي، مؤتمر الصومام و تطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1954- 1962، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1989، 331ص.
- هشماوي مصطفى، جذور نوفمبر 1954 في الجزائر، دار هومة، الجزائر، (د.ت)، 261ص.
- القرص المضغوط: تاريخ الجزائر (1830- 1962)، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، الجزائر، 2002.

2- باللغة الفرنسية:

Cheurfi Achour, La classe politique Algérienne de 1900 à nos jours dictionnaire bibliographique , éd. Casbah, 2001, 511p.

MaadadMassoud, guerre d'Algérie chronologie et commentaires , édENAG, Algèr, 1992, 268p.

-Meynier Gilbert, Histoire intérieure du FLN (1954-1962) , éd.

Casbah, Alger, 2003, 811p.

Stora Benjamin, Dictionnaire bibliographique de militants nationalistes Algériens 1926-1985, 404p. 1954, 2d. l'Harmattan , Paris ,

II- الدوريات:

- العايب معمر، حادثة ساقية سيدي يوسف 1958 و بداية الاهتمام الأمريكي بمنطقة المغرب العربي ، حولية المؤرخ، عدد3- 4 ، يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر، 2005، ص ص 471- 481 .
- " " ، مؤتمر طنجة المحطة الأخيرة لتصفية الاستعمار الفرنسي من المغرب العربي ، الراصد، ع2، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة نوفمبر 1954، 2002 ، ص ص 40- 41 .
- بوسباك فوزية، الثورة الجزائرية في المحافل الدولية ، الذاكرة ، ع3، المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، 1995، ص ص 161- 172 .
- رخيطة عامر ، الثورة الجزائرية و المغرب العربي ، الراصد ، ع1، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، 2002 ، ص ص 135- 177.
- قدور كريمة، معركة الجزائر فيفري 1957 من ثورة الريف إلى حرب المدن ، الراصد، ع1، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2002، ص ص 11- 13.

III- الرسائل الجامعية:

- بلفرد جمال، هيكل و تنظيم جيش التحرير الوطني الجزائري على الحدود الشرقية و الغربية 1958- 1962، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 200- 2005، 242ص.
- يحياوي جمال، تطور جيش التحرير الوطني 1956- 1962، أطروحة دكتوراه قسم التاريخ، جامعة وهران، 2006- 2007، 402ص.

الصحراء الجزائرية من الاستكشاف إلى التوغل والاحتلال (1828-1934)

أ/ الطاهر موساوي، جامعة بشار

ملخص:

الاستكشافات الفرنسية للصحراء الجزائرية واحتلالها، دراسة موجزة حول مراحل استكشاف فرنسا للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م، من أجل التعرف عليها والتحكم في تجارتها، لذلك تهتم الدراسة في البداية بالحديث عن الرحلات العلمية الفرنسية لاستكشاف الصحراء الإفريقية والجزائرية، كما تدرس البعثات العسكرية الفرنسية لاستكشاف مناطق الجنوب الجزائري، ويذكر البحث الحملات العسكرية التي وجهت لاحتلال الصحراء الجزائرية، كما تحاول الدراسة مناقشة دوافع هذه الاستكشافات ودورها في احتلال الجنوب الجزائري.

Keywords

French explorations , Algerian Sahara , 19th century, French military missions, military campaigns , southern Algeria , the occupation of the Sahara.

Summary

The French explorations of the Algerian Sahara and occupation , a brief study on the steps of the French Algerian desert exploration in the 19th century in order to recognize and control the trade , speaks first Travel french scientists to explore Africa and the Algerian Sahara, is also studying the french military mission to explore the southern areas of Algeria, the study also talks about military campaigns led to the occupation of the Algerian Sahara, as the study attempts discuss the reasons for such explorations and their role in the occupation of southern Algeria .

مقدمة:

مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي تزايد اهتمام فرنسا بإفريقيا، وبرزت إلى الوجود مشاريع استكشاف الصحراء الكبرى، بما فيها الصحراء الجزائرية، ومن أجل تحقيق هذا أنشأ الفرنسيون جمعيات جغرافية وأنثروبولوجية ابتداء من سنة 1821، وقد رصدت لعملية استكشاف الصحراء الكبرى أموال كثيرة، وانتدب لهذه المهمة رحالة جابوا الصحراء الإفريقية ومنها الصحراء الجزائرية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، أمثال: "كايبه"، "دوفيري"، "سوليه" و"دولس" (Caillé René)، (Duveyrier Henri)، (Paul Soleillet).

زاد اهتمام فرنسا بالصحراء الجزائرية مع بداية احتلالها للجزائر سنة 1830 لذلك عمدت السلطات الفرنسية إلى إرسال بعثات استكشافية عسكرية لمناطق الجنوب الجزائري فيما بين 1830 و1900، من أجل أغراض اقتصادية وعسكرية توسعية، كمشاريع مد خطوط السكة الحديدية عبر الصحراء الجزائرية لربط مستعمراتها الإفريقية ببعضها ببعض والسيطرة على التجارة الصحراوية.

قاد تلك البعثات الاستكشافية ضباط عسكريون، أمثال "دوماس"، "كولوني"، و"فلاترس" (Daumas) (Eugène)، (Victor Colonieu)، (Flatters Paul François Xavie)، ثم زادت رغبة فرنسا في التوسع نحو الجنوب الجزائري والتوغل في الصحراء، على هذا الأساس شهدت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر

الميلادي تزايد عدد البعثات العسكرية الاستكشافية، ومن أبرز المستكشفين في هذه المرحلة "فرناند فورو" (Foureau Fernand).

كان حلم الفرنسيين أن يتمكنوا من فرض سيطرتهم على الصحراء الجزائرية ليتمكنوا من فرض الاستقرار في بقية مستعمراتهم الإفريقية، لذلك بدأت فرنسا تخترق الصحراء الجزائرية شيئاً فشيئاً مع مطلع الأربعينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، بدأ بمدينة بسكرة سنة 1844 وأحداث واحة الزعاطشة عام 1848، ثم فكرت جدياً في احتلال الصحراء، لذا اهتم الفرنسيون بإنشاء مراكز عسكرية أمامية في أعماق الصحراء لتنظيم عمليات الغزو والتوسع، وعملوا على تنظيم حملات عسكرية في بلوغ المناطق الصحراوية التي رغبوا في احتلالها. غير أن الإشكال المطروح هو ما دور الرحلات والبعثات الاستكشافية خلال القرن التاسع عشر الميلادي في عملية التوغل والاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية؟

1. اهتمام فرنسا بالصحراء الجزائرية واستكشافها خلال القرن التاسع عشر الميلادي:

اشد التنافس الاستعماري بين الفرنسيين والبريطانيين، والألمان حول القارة الإفريقية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وشرع الرحالة الأوروبيون يفدون على إفريقيا مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وقد استهوت التجارة المزدهرة بالصحراء الكبرى الدول الأوروبية فعزمت على استكشافها تمهيدا لغزوها واستعمارها، لذا اهتم الأوروبيون أولاً بدراسة ما كتبه الرحالة العرب¹ ومن خلال ذلك تعرفوا على الطرق المختلفة التي سلكتها القوافل التجارية وقوافل الحجيج، والتي سهلت عليهم اختراق الصحراء من شمالها إلى جنوبها ومن غربها إلى شرقها، بما في ذلك الصحراء الجزائرية أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وخلال القرن التاسع عشر الميلادي.

كما حاول بعض الرحالة الأوروبيين وخاصة الفرنسيين منهم معاينة الطرق الصحراوية الجزائرية التي كانت تربط الأقطار المغاربية الثلاث بعضها ببعض، والتي تربطها أيضاً بالمناطق المجاورة في بلاد السودان و بالشرق العربي.²

تعرفوا أيضاً على الطرق الصحراوية التي تربط بين دول المغرب العربي ودواخل إفريقيا، تلك التي ورد ذكرها في مؤلفات العرب وعابنها الأوروبيون، ودونها في سجلاتهم، وعلى رأسهم المستكشف البريطاني "جيمس رشاردسون" (James Richardson)،³ والباحث الفرنسي أيدوارد بلان (Edouard Blanc).⁴

مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي تزايد اهتمام فرنسا بإفريقيا، وبرزت إلى الوجود مشاريع استكشاف الصحراء الإفريقية، ومن أجل تحقيق هذا تم إنشاء "الجمعية الجغرافية بباريس" سنة 1821، كما أنشئت أيضاً "الجمعية الأنثروبولوجية بباريس" سنة 1859، وجمعيات جغرافية أخرى في مدينة ليون 1873، وبوردو 1874، ومرسيليا 1876 وفي ليل 1882، كما أنشئت حوالي خمس عشرة جمعية في مختلف مدن فرنسا في الفترة الممتدة بين 1873 و1882، وأنشأ الفرنسيون "جمعية جغرافية في الجزائر" سنة 1879.

فقد استكشف "روني كاييه" منطقة توات عام 1828⁵ في رحلته باتجاه مدينة تومبوكتو التجارية،⁶ ما بين سنة 1827 وسنة 1828، حيث سجل ملاحظات وأنجز رسومات عن المناطق التي استكشفها ومنها منطقة توات، وقدم إلى المصالح الفرنسية المختصة معلومات هامة عن المناطق الصحراوية ساعدتها فيما بعد في عمليات احتلال الصحراء الجزائرية.⁷

أما "هنري دوفيري"،⁸ فقد استكشف في رحلاته لأغراض التجارة الصحراوية ما بين 1859 و1860، مناطق عدة من الصحراء الجزائرية، منها بسكرة، قرارة، غرداية، متليلي، القليعة، الأغواط وتوقرت ومنطقة وادي سوف، حيث قدم معلومات هامة حول هذه المناطق في كتابه: "طوارق الشمال" (Les Touareg du Nord)،⁹ كما هيأ الظروف لإنجاز "معاهدة غدامس" بين فرنسا والطوارق، ولما عاد إلى فرنسا استأنف أبحاثه ونشروا عن جغرافية الجزائر وإفريقيا.

بينما كان "بول سوليه" شغوفا باستكشاف عين صالح،¹⁰ لذلك قام في أواخر سنة 1872، برحلة من الجزائر العاصمة إلى عين صالح¹¹ استكشف من خلالها الأغواط، غرداية ثم متليلي، وفي مطلع سنة 1873 استكشف ورقلة، وفي طريقه إلى عين صالح¹² استكشف المنية (El-Goléa) ولما وصل إلى مشارف عين صالح منعه أهلها من دخولها فاضطر إلى العودة من حيث أتى،¹³ رغم ذلك فقد قدم "سوليه" في كتاباته عدة معلومات هامة حول المناطق الصحراوية التي استكشفها وحول هضبة تادمايت وما جاورها، حيث استفادت منها السلطات الاستعمارية في توسعها إلى الجنوب.

في سنة 1874 تمت محاولة استكشافية أخرى قام بها كل من "دورنودوير" (DournauxDupéré)،¹⁴ و"جوبار" (Joubert)،¹⁵ لربط علاقات تجارية بين مستعمرات فرنسا في إفريقيا،¹⁶ حيث استكشفا بسكرة، توقرت، الوادي، تماسين، منطقة اغرغار وحاسي العشية.

كذلك استكشف "فكتور لارغو" (Victor Largeau)، أثناء رحلاته عبر الصحراء الجزائرية لأغراض تجارية إلى غدامس الليبية سنة 1875 وأواخر سنة 1876، وإلى عين صالح عام 1877،¹⁷ كل من بسكرة، زاوية تماسين، وادي اغرغار، حاسي العشية، وهو طريق لم يستكشف من قبل،¹⁸ وعند عودته استكشف وادي سوف، توقرت وطريق وادي ريغ، كذلك استكشف ورقلة، تديكالت ووادي ميه، حيث تمكن "لارغو" من استكشاف طرق تجارية جديدة وكذا إجراء دراسات متنوعة حول المناطق التي عبرها، ووصف مدينة توقرت وذكر طبيعة وعادات سكانها، كما تحدث عن طرق الري وتقسيم المياه، ووصف واحة تماسين وحاسي بوئين، أين أنجز جدول لمختلف التغيرات المناخية بالمنطقة.¹⁹

بينما اهتم "مرسال بلات" (Marcel Palat) باستكمال استكشافات فلانترس،²⁰ كما كانت له رغبة في استكشاف عين صالح،²¹ حيث توجه سنة 1885 من الجزائر العاصمة إلى البيض، ومنها إلى المنية عبر برزينة، ووادي أولاد سقيور وحاسي بوزيد، ومن المنية إلى قورارة، واحة تحنتس، قصرسموته ثم تديكالت، غير أنه تعرض للاغتيال في طريقه إلى عين صالح،²² بذلك يكون "بلات" قد استكشف الطريق الرابط بين البيض وعين صالح، كما تعرف على مدن وقصور ووحدات هذا الطريق، وعرف النشاط التجاري الذي يتميز به.

ومن الذين استكشفوا الصحراء الغربية الجزائرية "كامي دولس" (Camille Douls) فيما بين 1887 و1889، حيث قام بعدة رحلات باتجاه صحراء المغرب والصحراء الغربية وصحراء الجزائر،²³ ففي رحلته الأولى الاستطلاعية عام 1887،²⁴ استكشف منطقة تندوف فوصفها وذكر أهلها، أما في رحلته الثانية عام 1888 إلى تمبوكتو ببلاد السودان (شمال المالي حاليا) عبر منطقة توات انطلاقا من واحات تافيلالت جنوب المغرب الأقصى، فقد استكشف وادي الساورة، واحة رقان وأولف، وفي طريقه ما بين أولف واحة أقبلي تم اغتياله.²⁵ زاد اهتمام فرنسا بالصحراء الجزائرية مع بداية احتلالها للجزائر سنة 1830 لذلك عمدت السلطات الفرنسية إلى إرسال بعثات استكشافية عسكرية لمناطق الجنوب الجزائري فيما بين 1830 و1900، غير أن

الفرق بينها وبين الرحلات العلمية السابقة الذكر يتمثل في كون أغلب رواد البعثات ضباط عسكريون حركتهم جهات رسمية كالحاكم العام ووزارة الأشغال العمومية، أو تعاونت هذه الجهات مع جمعيات مختصة في باريس وغيرها من مدن فرنسا لانتداب مستكشفين من أجل أغراض اقتصادية وعسكرية توسعية. كانت تشكيلة تلك البعثات تتسم في الغالب بالطابع العسكري وتسير في وجود حماية عسكرية مزودة بالسلاح والذخيرة، إلى جانب أن تقارير المستكشفين وملاحظاتهم ترفع إلى الجهات الحكومية الوصية خاصة العسكرية منها، ولا يمكن نشر تلك التقارير والملاحظات في دوريات الجمعيات المختصة إلا بإذن من السلطات الفرنسية. بسبب الأحداث التي ميزت الفترة الممتدة ما بين 1830 و1900 من زمن الاحتلال الفرنسي، قسمت البعثات الاستكشافية العسكرية للصحراء الجزائرية إلى ثلاث مراحل زمنية متباينة.

1.1- المرحلة الأولى (1830 - 1870):

تميزت المرحلة الأولى 1830 و1870، في مجملها بالوتيرة البطيئة في عملية الاستكشاف نظرا لقوة المقاومة الجزائرية في الشمال وفي الجنوب، وكانت في بدايتها بمثابة بعثات عسكرية استطلاعية، غايتها التعرف على مختلف مسالك الجنوب الجزائري، وتتبع طرق التجارة الصحراوية، والتقرب من سكان الصحراء للتعرف على أنماط عيشهم.

قاد تلك البعثات ضباط عسكريون، أمثال "دوماس"، "كافينياك"، "دو بونمان"، "دوكولومب"، "كولونيو"، "ميرشير"، "بولنيك" ودبونشيل (Louis Eugène Cavaignac)، (De Bonnemain)، (Joseph De Colombelouis)، (Victor Colonieu)، (Mircher)، و(Duponchel Adolphe) فلقد قاد "إيجان دوماس"،²⁶ فيما بين 1843 و1845 عدة بعثات استكشافية متتالية من مدينة الجزائر باتجاه مناطق مختلفة من الجنوب الجزائري، ففي رحلته الأولى استكشف ورقلة، الأغواط، غرداية، ثم منطقة مزاب،²⁷ في رحلته الثانية استكشف منطقة المسيلة، بوسعادة، منطقة الزيبان، بسكرة ثم توقرت،²⁸ أما في رحلته الثالثة فقد تعرف على الطريق بين بسكرة والأغواط عبر سيدي خالد، مسعد، قصر الحيران، فالأغواط، مستكشفا بذلك منطقة أولاد نايل، كما سلك الطريق الرابط بين توقرت وغرداية، وتعرف على الطريق الرابط بين توقرت والأغواط، وعبر طريق بسكرة غرداية، وطريق توقرت ورقلة، كما استكشف منطقة وادي سوف، حيث تمكن من ذكر تلك المناطق ووصفها.²⁹

بعد ما تعرف على الجنوب الشرقي اهتم "دوماس" بالتعرف على مناطق الجنوب الغربي، حيث استكشف منطقة جبال العمور، جبال كسال، استيتن، بوعلام، الغاسول، بريزينة، كما استكشف واحة الأبيض سيدي الشيخ،³⁰ قصور الأطلس الصحراوي وواحاته ومنها اربوات، الشلالة القبلية، الشلالة الظهرانية، عسلة، بوسمغون، تيوت، العين الصفراء، سفيسيفة، مفرار الفوقاني والتحتاني، فوصف تلك القصور والواحات، ووصف قبائل أولاد سيدي الشيخ والقبائل المجاورة لها، وقبائل حميان، وغيرها.³¹ ومن سفيسيفة توجه إلى فقيق المغربية، ومنها سلك طريقه عبر بلاد ذوي منيع ومناطق بلاد توات: (محارزة، قورارة، أوقيروت، توات، تديكالت) ثم تميمون، إلى أن وصل عين صالح. عرف المناطق التي قطعها، ووصف وصنف قبائلها،³² كما استكشف مناطق أخرى في رحلة ثانية إلى عين صالح منها تاقدامت، استيتن، الغاسول، وادي مية، جبل باتن إلى أن وصل إلى عين صالح.³³ استكشف خلالها طريق البيوض إلى تميمون، طريق متليلي إلى تميمون مروراً

بمنطقة الشعابنة (ورقلة، متليلي، المنيعه وليست القليعة)، طريق تميمون إلى عين صالح ثم طريق متليلي - عين صالح.³⁴

أما "لويس إيجان كافينيك"،³⁵ فقد قاد بعثة سنة 1847 إلى الجنوب الغربي الجزائري،³⁶ حيث استكشف جبال الأطلس الصحراوي وقصور جنوب القطاع الوهراني ووحداتها منها عسلة، تيتوت، مغرار التحتاني ومغرار الفوقاني،³⁷ عين الصفراء وسفيسيفة،³⁸ حيث تمكنت بعثته من دراسة ووصف الشطوط والمرتفعات التي اجتازتها وسجلت الرسومات المنقوشة في كل من تيتوت ومغرار التحتاني، كما وصف "كافينيك" وقصور جنوب القطاع الوهراني أو الأطلس الكبير كما سماها، ودعم كتابه برسومات لتلك القصور وخريطة لمسالك رحلته.³⁹ كذلك قاد "دو بونمان"⁴⁰ بعثة نحو غدامس الليبية بأمر من الحاكم العام بالجزائر لدراسة المنطقة الواقعة بين وادي سوف وغدامس دراسة جغرافية، ومعرفة أبعادها ومصادر مياهها، وتحديد أهمية التجارة مع بلاد السودان،⁴¹ فتعرف على وادي سوف.⁴² وقد سلك الطريق نفسه الذي قطعه "دوماس" من قبل وعند عودته إلى وادي سوف سلك طريقا آخر بغية استكشاف مزيد من المناطق بين غدامس والوادي، استطاع "دو بونمان" جمع العديد من المعلومات عن هذه المناطق، كما وصف أيضا وادي سوف وتحدث عن قبائلها وعلاقاتها التجارية مع قسنطينة.⁴³

بينما كلف "لويس - جوزيف دو كولومب"،⁴⁴ سنة 1856 بالتعرف على الواحات وطرق القوافل التجارية،⁴⁵ حيث استكشف قصور قورارة، توات وتديكالت.

أما "فكتور كولونيو"،⁴⁶ فقد كلف أواخر سنة 1860 بإبرام علاقات تجارية مع سكان توات وقورارة للظفر بتجارة بلاد السودان، لذا قام برحلة لاستكشاف قورارة وتوات، انطلاقا من البيض فالأبيض سيدي الشيخ⁴⁷ إلى أن وصل تميمون لكن رفض أهلها فتح الأبواب لقاقلته فغادرها متوجها إلى تاورسيت، تيمي، توات ثم أوقيروت، حيث عومل بالطريقة نفسها أينما حل، لذلك قرر العودة إلى واحة الأبيض سيدي الشيخ من دون أن يحقق أهداف البعثة، استطاع "كولونيو" التعرف على قورارة وأوقيروت وتمكن من تسجيل ملاحظاته عن الطبيعة والسكان، وفصل في النشاط التجاري من خلال الحديث عن السلع والأسعار ومناطق التبادل، وهو ما ورد ذكره في مجلة "الجمعية الجغرافية بباريس" سنة 1893.⁴⁸

أيضا قاد "ميرشير"⁴⁹ بعثة استكشافية رفقة "بولنيك" وكل من المهندس "دوفاتون" والطبيب "هوفمان" (De Votonne) (Hoffman) وإسماعيل بوضربة" إلى غدامس عام 1862، هدفها إبرام اتفاقية تجارية مع قبائل طوارق أزجير،⁵⁰ عند عودته استكشف منطقة وادي سوف، شط ملغيغ ثم بسكرة، أجرت البعثة دراسات على المناطق الصحراوية الجزائرية التي عبرتها من الناحية الاجتماعية، أيضا تمكن المهندس "دوفاتون" من دراسة مصادر المياه، وجمع الطبيب "هوفمان" ملاحظات طبية، إلى جانب ذلك جمعت البعثة سلسلة من المعلومات حول تجارة بلاد السودان.⁵¹

2.1- المرحلة الثانية (1870- 1881):

أما المرحلة الثانية ما بين 1870 و1881 فقد جاءت مميزة في أحداثها، حيث برزت إلى الوجود مشاريع مد خطوط السكة الحديدية عبر الصحراء الجزائرية باتجاه تشاد والسنغال لربط مستعمرات فرنسا بعضها ببعض والسيطرة على التجارة الصحراوية، ولتحقيق ذلك بعثت الدوائر الحكومية الفرنسية مجموعة من

المستكشفين إلى مناطق مختلفة من الصحراء الجزائرية شرقا وغربا وفي الوسط، ومن أبرزهم "دوبونشال" و"فلاترس" و"شوازي" (Choisy).

ففي سنة 1878 عاد اهتمام الفرنسيين بالطرق التجارية الصحراوية وطرحت قضية النقل الصحراوي في اجتماعات عدة ما بين 1878 و1879، لذا كلفت وزارة الأشغال العمومية المهندس "أدولف دوبونشال"،⁵² سنة 1880 بقيادة بعثة إلى جنوب الجزائر لدراسة مسألة مد خطوط السكة الحديدية، غير أنه لم يتجاوز الأغواط، ولم يتوغل في أعماق الصحراء، وقد أصدر كتابا ضمنه تقريرا حول خطوط التواصل بين الجزائر وبلاد السودان.⁵³

بينما كلف "شوازي"⁵⁴ بدراسة إمكانية مد خط للسكة الحديدية عبر الجهة الشرقية من الصحراء الجزائرية، وطلب منه المقارنة بين طريقين مقترحين وهما: طريق الأغواط إلى المنيعية وطريق بسكرة إلى ورقلة، توجهت القافلة من الأغواط إلى المنيعية،⁵⁵ حيث اكتشف منفذا بين العروق بعرض 1500 متر يسمح بإمكانية تمرير خط لسكة الحديد، كما أشار إلى إمكانية إنجاز نفق في المناطق الجبلية التي قطعها، ومن القليعة توجه إلى ورقلة ثم بسكرة مروراً بوادي ريغ،⁵⁶ تمكن خلال رحلته من إحصاء سكان الواحات الواقعة بين ورقلة وبسكرة وعدد النخيل التي قدرها بنحو 430500 نخلة، وأكد على أنه باستطاعة فرنسا التحكم في تجارة مناطق مزاب وسوف والزيان، كما أكد على أن طريق بسكرة وورقلة أفضل من طريق الأغواط والمنيعية، وهو مستقبل السكة الحديدية الصحراوية.⁵⁷

ويعد "فلاترس" أشهر من كلفوا بدراسة إمكانية إنشاء سكة حديد صحراوية في جنوب ورقلة،⁵⁸ لذا قام برحلتين فيما بين 1880 و1881 باتجاه جنوب ورقلة، في الرحلة الأولى سنة 1880 انطلقت بعثته الاستكشافية،⁵⁹ م من ورقلة عبر منطقة مزاب، العاطف، غرداية، بريان ثم الأغواط،⁶⁰ أما في رحلته الثانية أواخر عام 1880م والتي كانت من ورقلة باتجاه بلاد الطوارق،⁶¹ فقد استكشف "فلاترس" وادي ميه، حاسي سيدي عبد الكريم، هضبة تادمايت، حاسي المسقم، حتى وصل إلى أمقيد في مطلع 1881، بعد ذلك عبر هضبة تينقارت إلى سبخة أمدغور، ومن هناك إلى بئر الغرامة في منطقة جبلية أين تم اغتيالها رفقة مجموعة من بعثته وملاحقة بقية أفراد البعثة.⁶² قدم "فلاترس" في رحلته الأولى معلومات وافية حول المناطق التي اجتازها من وصف للكثبان الرملية والصخور والأودية والأشجار والحدايق بوادي مزاب وغيرها،⁶³ كما قامت البعثة بمسح 1200 كلم من الطريق المخططة للسكك الحديدية عبر الصحراء، في الوقت نفسه قامت بدراسات جغرافية وحيولوجية للمناطق التي استكشفتها وسجلت ملاحظات عن أحوال الطقس والحيوان والنبات، الأمر الذي استحسنته اللجنة الحكومية للسكك الحديدية العابرة للصحراء، وهو ما ساعد على وضع مشروع لخط سكة حديد يمتد بين ورقلة وأمقيد على مسافة 600 كلم،⁶⁴ كما كان من نتائج بعثته "فلاترس" الثانية التعرف على طريق القوافل بين المنيعية وورقلة، عين صالح وأدلس وعسيو وغات الليبية.

3.1- المرحلة الثالثة: (1881- 1899):

في المرحلة الثالثة 1881 - 1899، والتي أعقبت مقتل الضابط "فلاترس"، زادت رغبة فرنسا في التوسع نحو الجنوب الجزائري والتوغل في الصحراء باتجاه مستعمراتها الإفريقية وأصبحت أكثر طلباً للتجارة الصحراوية، خاصة بعد إبرام اتفاقيات مع الدول الأوروبية على تقسيم مناطق النفوذ في إفريقيا، وفي مقدمتهم بريطانيا سنة 1899، على هذا الأساس شهدت تلك الفترة تزايد عدد البعثات العسكرية الاستكشافية، ومن

أبرز المستكشفين في هذه المرحلة "غاسطون ميري" (Gaston Méry)، "برنار دتانو"، (Bernard D'Attanoux و"فرناند فورو".

فقد قاد "غاسطون ميري"،⁶⁵ بعثتين: الأولى أوائل سنة 1892 والثانية أواخر سنة 1892 إلى مطلع عام 1893، كلف في الرحلة الأولى من قبل "مقاولة ورقلة - السودان"، من أجل إنجاز خط سكة حديدية من بسكرة إلى ورقلة، وتوسيع النشاط التجاري ما بين ورقلة وبلاد الطوارق، لأجل هذا استكشفت منطقة الوادي، حاسي ألدنة، طريق توقرت، حاسي ميلود،⁶⁶ حاسي الناصر، منطقة الغور، حاسي أولاد صالح، العين الطيبة، البيوض، سبخة الطارفة، وادي اغرغار، عندها توقف "ميري" عن مواصلة رحلته واضطر إلى العودة، هكذا قطع "ميري" في بعثته نحو 725 كلم في ذهابه، وحوالي 800 كلم في عودته، في مجموعها تكون نحو 1525 كلم.⁶⁷ من أهم ما توصل إليه هو إمكانية مد خط سكة حديد في بلاد ممتدة وصلبة خاصة ما بين العين الطيبة وتماسنين، في اتجاه بلاد الطوارق، أما في البعثة الثانية فقد كلف من قبل "مقاولة ورقلة - السودان"، للتوجه إلى بلاد طوارق أزجير لأجل التفاوض مع زعمائها للحصول على ترخيص للقوافل الفرنسية كي تعبر أراضيهم باتجاه السودان الأوسط،⁶⁸ حيث غادر بسكرة إلى الوادي حيث استكشف حاسي مي، حاسي بلحيران،⁶⁹ مجرى وادي اغرغار، مويلح معطا الله. ثم سار إلى بلاد الطوارق، من حدود وادي اغرغار عاد "ميري" لكن طريق العودة اختلف عن طريق الذهاب حيث توجه نحو الغرب عبر كثبان العين الطيبة، تماسنين، مرتفع الخنفوس وهو امتداد لجبال التاسيلي، بحيرة منخوع، عين الحجاج، ثم قطعت القافلة جبال التاسيلي إلى أن وصل "ميري" إلى منخوع المكان الذي التقى فيه بزعماء طوارق أزجير، حصل "ميري" بموجب التفاوض على صداقة طوارق أزجير لفرنسا، وعلى ضمان مرور قوافل فرنسا باتجاه السودان الأوسط تحت حماية التوارق أنفسهم،⁷⁰ كما قام "ميري" بإنجاز خرائط لتلك المناطق التي استكشفها، وسجل ملاحظاته اليومية حول الظروف الجوية، وجمع معلومات وعينات حول التركيبة الجيولوجية للمناطق التي عبرها.⁷¹

بينما كان "برنار دتانو"،⁷² من بين عناصر بعثة "ميري" الثانية التي كلفت من قبل "مقاولة ورقلة - السودان" باستكشاف جنوب بسكرة ووحدات وادي ريغ وبلوغ بلاد طوارق أزجير،⁷³ حيث انطلقت الرحلة في مطلع 1894، ومن اليوم الأول لم يتفق "ميري" مع أعضاء البعثة لذا عين "دتانو" قائدا جديدا لها،⁷⁴ فاستكشف حاسي بلحيران، حاسي مخنزة، حاسي الطويل، العين الطيبة، مويلح معطا الله، تماسنين، وادي اغرغار، تابلالت ثم عين الحجاج،⁷⁵ وبعد ذلك دخل طوارق أزجير عبر وادي أنيفي،⁷⁶ إلى أن بلغ منطقة منخوع، أين أجرى مفاوضات مع زعماء الطوارق من أجل السماح لفرنسا باجتياز بلاد طوارق وربط علاقات تجارية مع بلاد السودان وقد نجح في ذلك،⁷⁷ وعند العودة استكشف طريق منخوع، عين صالح، تابلالت، تماسنين، تابنكورت، بلحيران إلى أن وصل إلى توقرت، تمكن "دتانو" من استكشاف العديد من المناطق التي عبرتها بعثته.

كما قاد "فرناند فورو" عدة بعثات استكشافية في صحراء الجزائر في الفترة ما بين 1883-1898، بتكليف من الحاكم العام، كان هدف البعثة الأولى هو استكشاف منطقة توقرت، كما كان من بين أهدافه الاستكشافية البحث في إمكانية مد خط سكة الحديد فيما بين ورقلة وعين صالح من غير أن تعترضها كثبان الرمال.⁷⁸ وعلى هذا الأساس سلك الطريق المؤدي إلى عين صالح، حيث انطلق من غرداية، وهي نقطة انطلاق القوافل إلى غدامس،⁷⁹ ومنها اتجه إلى حاسي الملح، ثم حاسي تويزة، العين الطيبة، منطقة تادمايت إلى أن بلغ توقرت.

بينما في البعثة الثانية فقد كلف "فورو" من قبل وزارة الأشغال العمومية والحاكم العام بالجزائر باستكشاف المنطقة الواقعة ما بين حاسي المسقم وتمادسين. حيث بدأ رحلته من بسكرة في مطلع عام 1892، متجها نحو حاسي بلحيران، إلى مويلح معطا الله، ابنكورت وتمادسين، ثم توجه إلى الجنوب الغربي حيث استكشف حاسي تين - سيغ، آبار البيوض إلى أن وصل حاسي المسقم، من حاسي المسقم أنهى "فورو" رحلته وقفل عائدا إلى توقرت.⁸⁰ في هذه البعثة تمكن "فورو" من إجراء حسابات الارتفاعات والمنخفضات، وتحديد التوجهات باستعمال البوصلة، وتسجيل معدل حرارة تلك المناطق، وهو الأوروبي الوحيد الذي استطاع وصول حاسي المسقم بعد محاولتي "فلاترس".

في البعثة الثالثة من ديسمبر 1892 إلى فبراير 1893 كلف "فورو" من قبل وزارة الأشغال العمومية والحاكم العام، باستكشاف الطريق الجديد بين ورقلة وغدامس، من أجل التفاوض مع طوارق أزجير في قضايا تجارية وأمنية، غادر بسكرة خلال أواخر 1892، نحو العين الطيبة، ومن هناك سلك طريقا جديدا إلى البيوض، تمانسين، حاسي تابنكورت ثم حاسي إمولاي، عبر طريق جديد يؤدي إلى غدامس لم يستكشف من قبل، استقبله الطوارق في غدامس ودخل معهم في مفاوضات،⁸¹ ثم عاد بعد ذلك إلى بسكرة. قدم "فورو" ملاحظات جغرافية كثيرة، نحو 54 ملاحظة لثلاث طرق فرعية لم تقطع من قبل.⁸²

في البعثة الرابعة ما بين أكتوبر 1893 ومارس 1894،⁸³ كلف "فورو" من قبل وزارة الأشغال العمومية والحاكم العام، من أجل عبور بلاد الطوارق وبلوغ منطقة الآير،⁸⁴ شرع في رحلته من بسكرة باتجاه المنيعية ثم حاسي الحاج موسى، حمادة تادمايت، منطقة عين صالح، تمانسين، ثم توجهت القافلة إلى منطقة تاسيلي أزجير، وفي وادي تخمالت التقى برجال من زعماء الطوارق، ودخل معهم في نقاش من أجل السماح لبعثته بأن تعبر أراضيهم باتجاه الآير،⁸⁵ وفي طريقه إلى التاسيلي توقفت رحلته عند وادي مهيري قرب بحيرة مهيري في منطقة التاسيلي حيث اعترضت طريقه إحدى قبائل الطوارق ومنعته من مواصلة رحلته، أمام هذا الوضع، عادت القافلة إلى بسكرة.⁸⁶ ومن النتائج العلمية لهذه الرحلة استطاع "فورو" أن يضع خريطة رسم فيها حوالي 4000 كلم من المسالك التي عبرها، وكذلك 138 ملاحظة فلكية، وخمس نقط للارتفاعات، وملاحظات كثيرة حول الأحوال الجوية، وتحديث مطولا عن قبائل طوارق أزجير وعن منطقة التاسيلي.⁸⁷

أما في البعثة الخامسة فيما بين 1895 و1896، فلم يتجاوز جنوب العرق الكبير، حيث أوقف رحلته الحاكم العام لكون بلاد الطوارق كانت تمر بظروف صعبة آنذاك.

كلف "فورو" من قبل "الجمعية الجغرافية" بباريس في سنة 1897، برحلة أخرى عبر الصحراء، حيث انطلق من بسكرة نحو العين الطيبة ثم البيوض، تمانسين،⁸⁸ عين الحجاج، ومن هناك إلى بلاد طوارق أزجير، حتى وصل إلى بئر منخور، ثم حاسي تاسينجة، أين تفاوض مع زعماء الطوارق،⁸⁹ ثم عاد إلى بسكرة.⁹⁰ تمكن "فورو" في هذه البعثة من استكشاف نحو 440 كلم من المسالك الجديدة من بين 2450 كلم التي قطعها، وتمكن من تحديد مستويات الارتفاع والانخفاض للمناطق التي عبرها، ووضع لها خرائط ورسومات، كما استطاع دراسة ووصف الآبار ومصادر المياه وطبيعة الجو، ووضع لذلك جداول، وسجل أسماء مختلف نباتات المنطقة وأسماء الأماكن المتداولة بين التوارق.⁹¹

2 - عمليات التوغل وبسط النفوذ الفرنسي على الجنوب الجزائري (1844-1934): كان حلم الفرنسيين أن يتمكنوا من فرض سيطرتهم على الصحراء الجزائرية ليتمكنوا من فرض الاستقرار في بقية مستعمراتهم

الإفريقية، وهو ما صرح به النقيب "هنري وولف" (Henri Wolff) سنة 1848، في قوله: «لن تكون مستعمراتنا الإفريقية هادئة حقيقة إلا حينما يرفرف العلم الفرنسي في الصحراء على قصر عين صالح».⁹²

بدأت فرنسا تفكر جدداً في احتلال الصحراء بعد أن احتلت بسكرة سنة 1944، حيث شرعت في إقامة مؤسسات اقتصادية، وإنشاء مراكز تجارية في كل من توات وتديكالت، كما بدأت تكثف من دراستها لهذه المناطق للتعرف أكثر على جوانبها البشرية والجغرافية والاقتصادية والمائية.⁹³

وقد صرح "فرناند فورو" بعد بعثته الاستكشافية إلى منطقة الطوارق سنة 1893 قائلاً: «إن أهم تساؤل بالنسبة لكل الفرنسيين الذين يهتمون بالصحراء هو: ماذا نعمل من أجل أن تصبح الصحراء تحت قبضتنا؟. ومن أهم الوسائل لتحقيق ذلك أن نضغط ونضاعف جهود التوغل في الصحراء ونسعى لاحتوائها. كما يجب إنشاء مجموعة من المراكز المتقدمة في مناطق مختارة بعناية، والتي تكون على اتصال مباشر مع السكان الذين نرغب في التواصل معهم واحتوائهم. هذه المراكز يجب أن تمثل خطاً دفاعياً متيناً أمام مقاومات الصحراويين». كما اقترح إنشاء مراكز وحاميات عسكرية في حاسي بلحيران والبيوض و تماننين و حاسي المسقم.⁹⁴

لهذا السبب اهتم الفرنسيون بإنشاء مراكز عسكرية أمامية في أعماق الصحراء فيما بين عامي 1893 و 1894، لتنظيم عمليات الغزو والتوسع الاستعماري، وعملوا على تنظيم حملات عسكرية استعانوا في بعضها بمستكشفين مثل "فورو" و"فلامون" وفي حملات أخرى اعتمد قادتها، في بلوغ المناطق الصحراوية التي رغبوا في احتلالها، على الخرائط والدراسات التي أنجزها المستكشفون، وسلكوا الطرق التي استكشفت من قبل "دوفيري" و"فلاترس" وغيرهم.⁹⁵

لقد شهدت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي، سلسلة من الحملات إلى مختلف أرجاء الصحراء الجزائرية. منها حملة "لاكروا" (Lacroix) والعقيد "قوم" (Gaume) سنة 1872، ثم حملة الجنرال "قاليفيه" (De Gallifet) ما بين 1872 - 1873، وحملة "فورو-لامي" ما بين 1898 - 1900، وحملة "فلامون" (Flamand) سنة 1900، لاحتلال عين صالح.

1.2 حملة لأكروا و قوم 1872:

مع مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، بدأت فرنسا تخترق الصحراء شيئاً فشيئاً، و بسبب انتفاضة بعض قبائل الجنوب القسنطيني كلفت فرنسا الجنرال "لاكروا" والعقيد "قوم" بقيادة حملة عسكرية للقضاء على تلك الانتفاضة وإنشاء حامية بالجنوب.

تحركت الحملة في شهر جانفي من عام 1872م، باتجاه القليعة، حيث دخلت توقرت ثم ورقلة إلى أن وصلت إلى العين الطيبة. ثم توقفت الحملة ولم تبلغ القليعة بسبب صعوبة المسالك، وارتفاع درجة الحرارة بالمنطقة.⁹⁶

2.2 حملة قاليفيه 1872 - 1873:

كلف الجنرال "قاليفيه" بقيادة حملة عسكرية إلى المنية، حيث قطعت مسافة 600 كلم، التي تفصل مدينة بسكرة عن مدينة المنية، من 20 ديسمبر 1872 إلى 24 جانفي 1873، كان الهدف من هذه الحملة التعرف على هذه المنطقة واحتلالها،⁹⁷ حيث انطلقت الحملة عام 1872م من بسكرة باتجاه ورقلة، ثم القليعة، حاسي برغواي، إلى أن دخلت قصر المنية في 24 جانفي 1873م، وعند العودة سلك "قاليفيه" طريقاً غير الطريق

الأول إلى أن وصل ورقلة. ومن نتائج الحملة أن تمكن "قاليفيه" من إقامة مركز عسكري بالمنطقة، وتأمين الطريق الرابط بين ورقلة و المنيعه.⁹⁸

3.2 حملة فورو-لامي 1898 . 1900:

في أعوام 1898 و 1900 قام كل من "فورو" و "لامي" (Lamy) بحملة عسكرية، وهي أهم هذه الحملات جميعا، وكان اتجاه الحملة من ورقلة إلى بلاد الآير وتشاد، على أن تنطلق في الوقت نفسه حملة ثانية من السنغال، وحملة ثالثة من الكونغو الفرنسي لتلتقي جميعها في بحيرة تشاد شمالا.⁹⁹ وضعت هذه الحملة تحت إمرة "فورو"، وعين "لامي" قائدا للحرس، غادرت الحملة منطقة ورقلة في اتجاه زندر، حيث تعرضت مقاومة شديدة من الطوارق بمنطقة أزجير خلال شهر جانفي 1900، وفي شهر فبراي وصلت الحملة إلى تشاد، والتقت بالحمليتين القادمتين من السنغال والكونغو الفرنسي.

4.2 حملة فلامون 1899 . 1900:

انطلقت حملة "فلامون" (Flamand) في البداية على شكل بعثة في نوفمبر 1899،¹⁰⁰ أشرفت عليها وزارة الشؤون العامة والمستعمرات، ودعمتها الحكومة إثر طلب من الوالي العام "لافريار" (Laferrrière)، لكن الحكومة أمرت النقيب "بان" (Pein)، الذي يتأرض المكتب العربي بورقلة، بأن ينضم إلى الحملة، كما كلف وزير الحرب النقيب "جرمان" (Germain) بالانضمام إليها.¹⁰¹

غادرت البعثة ورقلة يوم 28 نوفمبر 1899، متوجهة إلى عين صالح عبر حاسي اينغل، حاسي سوقي، حاسي المقر، رق أجمار، وادي مسين، إلى أن وصلت إلى واحة ايقوستين، عندما اكتشف أهالي المنطقة نوايا هذه الحملة، استعدوا لمقاومتها، وقاموا بهجوم مفاجئ عليها يوم 28 ديسمبر 1899م، تحت قيادة "الحاج المهدي باجودا"، رئيس قبيلة باجودا. غير أن هذه المقاومة لم يكتب لها النجاح بسبب مقتل "الحاج المهدي باجودا". لذا سيطر النقيب "بان" على الموقف، خاصة بعد أن تعززت قواته بفرقة عسكرية بقيادة النقيب "جرمان"، واستطاعت أن تواصل سيرها، وتدخل القصر الكبير للواحة.¹⁰²

تعرضت الحملة لهجمات متكررة خلال مكوثها بالقصر، لذلك قرر الوالي العام "لافريار" تدعيمها بقوات إضافية، فأمر القائد "بومقارتان" (Boumgartin)، القائد الأعلى لدائرة المنيعه، بالتحرك نحو عين صالح على رأس الفرقة العسكرية الصحراوية، وذلك للسيطرة على المنطقة، وصلت الفرقة إلى القصر الكبير يوم 18 جانفي 1900، واندمجت مع حملة "فلامون" لتقضي على المقاومين، الأمر الذي مكن الفرنسيين من دخول عين صالح، وبذلك تمكن "فلامون" من احتلال عين صالح سنة 1900م.

بعدما انتهى من حملته قدم "فلامون" عرضا للوالي العام شمل جميع ملاحظاته الجيولوجية والجغرافية والطبوغرافية، وتحدث فيه عن الري الصحراوي، والإمكانيات الاقتصادية للمنطقة، وعلاقة فرنسا بالصحراء.¹⁰³

تعتبر الفترة الممتدة بين 1890 و 1900 فترة تقسيم إفريقيا بين الدول الاستعمارية، حيث أبرمت فيها عدة اتفاقيات تحدد قسمة فرنسا من الصحراء الإفريقية. منها اتفاقية فرنسا وبريطانيا في 05 أوت 1890، والتي تمنح فرنسا حق التصرف في الصحراء الإفريقية من ساي بالنيجر إلى باروا بتشاد، وفي سنة 1898 تعززت باتفاقية ثانية، وأخرى ثالثة سنة 1899 توسع نفوذ فرنسا في شرق تشاد، كما عقدت فرنسا في 1900 اتفاقية مع إسبانيا تمنح فرنسا حرية التصرف في الصحراء.¹⁰⁴

هكذا تمكن الفرنسيون، مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين الميلادي، من احتلال عين صالح، ووحدات تديكالت، وقورارة، وتوات، وايقلي، وتميمون، وشاروين، وتاليمين، ومناطق جنوب القطاع الوهراني فيما بين عام 1900 - 1903،¹⁰⁵ وعين "لابيرين" (Laperrine) على رأس القيادة العسكرية لجنوب الجزائر الجديدة عام 1902، فأتخذ عين صالح مركزا لقيادته، واشتدت الحملات العسكرية ضد الطوارق بقيادة "لابيرين" ودعم من "دوفوكولد" (Charles de Foucauld)، كما أقام الجنرال "ليوتي" (Lyautey) حاميات عسكرية على الحدود الجزائرية المغربية ابتداء من عام 1903.¹⁰⁶ نشط العديد من القادة والضباط العسكريين في مقاومة سكان الصحراء واحتلال واحاتها المختلفة من سواحل المحيط الأطلسي إلى صحراء فزان بليبيا، وتمكنت القوات الفرنسية من احتلال واحة جانبيت عام 1911، وتتدوف عام 1934، بذلك أحكمت فرنسا قبضتها على كامل صحراء الجزائر، معتمدة على ما أنجز من دراسات وخرائط من قبل المستكشفين ومستجيبة لنداءات بعضهم.

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة يتبين أن الرحلات و البعثات الاستكشافية الفرنسية استطاعت جمع كم هائل من المعلومات حول الجوانب الإنسانية والعلمية عن الصحراء الجزائرية، غير أن تلك النتائج والمعلومات لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما كانت الغاية منها تنفيذ مشاريع اقتصادية وأخرى توسعية، وأن أغلب تلك الأبحاث والدراسات بقيت حبيسة الكتب والمجلات والأرشيف.

أما المشاريع التي أقيمت لأجلها الدراسات، وسخرت لها البعثات والقوافل، لم ينجز بعضها مثل مشروع البحر الداخلي، ومشاريع أخرى أنجز جزء منها فقط، مثل مشاريع السكة الحديدية، وحتى محاولات الظفر بالتجارة الصحراوية لم تنجح رغم الاتفاقيات التي أبرمت من أجل ذلك مع زعماء الطوارق.

من الانعكاسات السيئة لتلك الاستكشافات، تعرض الصحراء الجزائرية لحملات التنصير، وإنشاء المدارس الحرة، ومراكز "جمعية الآباء البيض" في العديد من مناطق الجنوب، خلال القرن التاسع عشر الميلادي، لتضليل سكان الصحراء وتمسيحهم، مستغلين في ذلك ظروفهم المادية السيئة.

لكن أبرز النتائج وأكبر الأهداف التي حققتها تلك الرحلات والبعثات الاستكشافية المختلفة، هو تمكين فرنسا من التوغل في الجنوب الجزائري، الأمر الذي يسر لها بعث الحملات تلو الأخرى في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ومكنها في الأخير من احتلال الصحراء الجزائرية مع مطلع القرن العشرين الميلادي.

من هنا يمكن القول بأن الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن التاسع عشر الميلادي لم تكن بريئة، وأنه ما كانت فرنسا قادرة على احتلال الجنوب الجزائري بذلك القدر المحدود من الجهد والوقت لو لم تشهد الصحراء تلك الاستكشافات بهذا الحجم الذي تكلمنا عنه.

- الهوامش:

¹- Davezac. M : "de l'Algérie, et des Principaux Ouvrages Récemment Publiés a ce Sujet", N.A.V.G.H, 4 série.Tome7, 1841, PP. 257 – 317.

²- العربي الزبيري: "مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث"، ص ص 123 - 124. أنظر أيضا: سعد زغلول عبد الحميد: "تاريخ المغرب العربي"، ج4، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1995، ص 115.

- ³-James Richardson: "Routes du Sahara. Itinéraires dans l'Intérieur du Grand Déserts D'Afrique", Imprimerie de le Martinet, Paris,1850, PP. 4-28.
- ⁴-Edouard Blanc: "Les Routes de L'Afrique Septentrionale au Soudan", B.S.G. de Paris. 1890.PP. 11-16.
- ⁵- Jomard A.M : "Notice Historiquesur la Vie et les Voyages de René Caillé", B.S.G. de Paris, 2 séries,T.10, 1838, PP. 330 – 358.
- ⁶- René Caillé:"Voyage d'un Faux Musulman a Travers l'Afrique", EugèneArdantEditeurs, Paris, Sans Date, P. 108.
- ⁷ - عبد القادر بوباية: "دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية"، عصور، جامعة وهران، الجزائر، السنة الثالثة العدد 4 و5 ديسمبر 2003 - جوان 2004، ص 173 .
- ⁸ - NarcisseFaucon: "Livre d'Or de l'Algérie" , Tome 1^{er}- Biographies, Challamel et C^{ie}, Editeur, Paris, 1889, PP. 22 – 223.
- ⁹ - HenriDuveyrier : "Exploration du Sahara : les Touareg du Nord", Challamel, Ainé, Libraire-Editeur, Paris,1864.
- ¹⁰ - NarcisseFaucon: Op. Cit, PP. 526 _ 527.
- ¹¹ - Paul Soleillet:"L'Afrique Occidental,Algérie,Mzab,Tidikelt",Paris,Challamel,1877,P.1.
- ¹² - Ibid. P. 206.
- ¹³ - Ibid. P. 276.
- ¹⁴ - إبراهيم مياشي:"توسع الاستعمار الفرنسي في الجزائر الغربي الجزائري 1882 . 1912" منشورات المتحف الوطني، الجزائر ، 1996 ، ص 60.
- ¹⁵ - يحيى بوعزيز: "اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها"، الأصالة، "الملتقى الإسلامي الثالث عشر"، تمنراست، الجزائر، 1979، ص 22.
- ¹⁶ - Paul Gaffarel: "L'Algérie: Histoire, Conquête et Colonisation", Edition Firmin-Didot et C^{ie},Paris,1883, PP. 522 – 523.
- ¹⁷ - DictionnaireBiographique, Op, Cit.
- ¹⁸ - M. Delesse: "AfriqueSeptentrionale- M. Paul Soleillet", E.J.G.C, Volume 1, Premier Semestre, Paris, 1875, P.191.
- ¹⁹ - Victor Largeau: "Expédition de M. Largeau a Radâmes, Journal de V. Largeau", Mémoires et Bulletins,G.J.G.S.G.G. Premier Série,Tome 14, H. Georg,Libraire- Editeur, Genève, 1875, PP. 95-36.
- ²⁰ - NarcisseFaucon:Op.Cit, PP. 428 _ 438.
- ²¹ - P. Vuillot: Op. Cit, PP. 121 _ 222.
- ²² - Michel Antar : "Chauvauchées d'un Futur Saint-Cyrien à Travers les Ksours et Oasis Oranais", Collection Hetzel, Paris, 1907, PP. 98 – 103.
- ²³ - P. Vuillot: Op. Cit, PP. 231- 233.
- ²⁴ - Camille Douls:"Voyage d'Exploration à Travers le Sahara Occidental et le SudMarocain"
B.S.G. de Paris, 7 Série,T 9,Paris, 1888. PP. 437 – 438.
- ²⁵ - P. Vuillot: Op. Cit, P. 235.
- ²⁶-NarcisseFaugon : Op. Cit, PP. 178 – 179.
- ²⁷ -EugèneDaumas : "le Sahara Algérien :Etudes Géographique, Statistique, et Historiquesur laRégion au Sud des ÉtablissementsFrançais", LangloisLeclercq, Paris, 1845,PP.15 -90.
- ²⁸ - Ibid, PP. 91 – 142.

-
- ²⁹ - Ibid, PP. 154 – 205.
- ³⁰ - Ibid, PP. 209 – 225
- ³¹ - Ibid, PP. 225 – 260
- ³² - Ibid, PP. 260 – 275
- ³³ - Ibid, PP. 303 – 306
- ³⁴ - Ibid, PP. 307 – 322
- ³⁵ - NarcisseFaugon: Op. Cit, PP. 140 _ 142.
- ³⁶ - Félix Jacquot: "Expédition du GénéralCavaignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847", Gide et j. Baudry, LibrairesEditeur, Paris, 1849, PP.1 – 9.
- ³⁷ - Ibid, PP. 119 – 236.
- ³⁸ - Ibid, PP. 237 – 332.
- ³⁹ - Ibid, PP.340 – 344.
- ⁴⁰ - A. Cherdonneau: "Relation du Voyage de M. le Capitaine De Bonnemain", N.A.V.G.H.A., Tome 2, Arthus Bertrand, Editeur, 1857, Paris, P. 258.
- ⁴¹ - Marcel Mercier: "le Idoles de G'Adames", R.A., N° 18, 1857, P. 78.
- أنظر أيضا :
- "Relation du Voyage de M. Le Capitaine De Bonnemain: " A. Cherdonneau R.A., N° 97,1953, PP. 18 – 19.
- ⁴² - A. Cherdonneau: Op. Cit, PP. 258 - 259.
- ⁴³ - Ibid, PP. 260 - 289.
- ⁴⁴ - NarcisseFaugon: Op. Cit, PP. 161 _ 160.
- ⁴⁵ - Louis -Joseph de Colombe : "Explorations des Ksour et du Sahara de la Province d'Oran", Paris, Challamel, 1858, P.59.
- ⁴⁶ - P. Vuillot: Op. Cit, P. 70.
- ⁴⁷ - Vallat, Gustave : "A la Conquête du Continent Noir, Missions Militaires et Civiles de 1892 à 1900, Inclusivement, d'après des Documents Officiels", J. Lefort, Imprimeur, Editeur, Paris, 1901, PP. 33 – 36.
- ⁴⁸ - VictorColonieu: " Voyage au Gourara et à l'Auogurout", B.S.G de Paris, Premier Trimestre, 1893, PP. 53 – 97.
- ⁴⁹ - P. Vuillot: Op. Cit, P. 77.
- ⁵⁰ - E. Rouard De Card: "Traité de la France avec les Pays de l'Afrique du Nord, Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc", A. Pédone, Éditeur, Paris, 1906.PP. 95 - 99.
- ⁵¹ - Marcier. Marcel: "Les Idoles de G'Ahadames" Op. Cit, P.20.
- ⁵² - Ibid, P.173.
- ⁵³ - AdolpheDuponchel: "Le Chemin de Fer Trans-saharien, Jonction Colonial, entre l'Algérie et le Soudan, Etudes Préliminaires du Projet et Rapport de Mission, avec Cartes Générale et Géologique", Topographie et Lithographie de Boehm, Paris, 1878.
- ⁵⁴ - Paul Gaffarel: Op Cit, PP. 532 – 534.
- ⁵⁵ - Ibid, P.532.
- ⁵⁶ - Ibid, P.533.
- ⁵⁷ - Ibid, P.534.
- ⁵⁸ - NarcisseFaugon: Op. Cit. PP. 247 _ 254.
- ⁵⁹ - Henri Brosselard: "les deux Missions Flatters, au Pays des Touareg Azdjer et Hoggar", LibrairieFurne, Paris, 1889, P. 4.

⁶⁰-Ibid, PP. 172 - 182.

⁶¹ - إبراهيم مياشي: المرجع السابق ، ص 63.

⁶²- P. Vuillot : Op. Cit , PP. 195-196.

⁶³ - Paul Flatters: "les deux Missions du Colonel Flatters, en Afrique", Librairie Dreyfous, Paris, 1884. PP. 2 – 168.

⁶⁴ - نفس المرجع ، ص 332 .

⁶⁵ - Vallat Gustave: Op. Cit, P. 47.

⁶⁶ - P. Vuillot: Op. Cit, P. 255.

⁶⁷ - Ibid, PP.228- 229.

⁶⁸ - Vallat, Gustave :Op. Cit , P. 48

⁶⁹ - P. Vuillot : Op. Cit, PP.270- 271

⁷⁰ -Vallat, Gustave :Op. Cit , P. 48.

⁷¹ - Ibid,P.269.

⁷² - P. Vuillot : Op. Cit , P.307.

⁷³ - Ibid, PP.306- 307.

⁷⁴ - Ibid, P.308.

⁷⁵ - Ibid, PP.308- 310.

⁷⁶ - Ibid, P.311.

⁷⁷ - Ibid, PP.312 - 317.

⁷⁸ - Ibid, P.253.

⁷⁹ - Ibid,P.225.

⁸⁰ - Ibid, PP. 261-262.

⁸¹ - Ibid, PP. 284-286.

⁸² - Ibid, PP. 286-287.

⁸³ - Fernand Foureau : "Rapport sur ma Mission au Sahara et chez les Touareg Azdjer Octobre 1893–Mars 1894", Librairie Coloniale, Paris, 1894,

⁸⁴ - Ibid, P. VI.

⁸⁵ - Ibid, PP.107 - 114.

⁸⁶ - Ibid, PP.114 - 197.

⁸⁷ - Ibid, PP. 198 - 274.

⁸⁸ - Fernand Foureau : " Mon Neuvième Voyage au Sahara et au Pays Touareg , Mars -Juin 1897 "Librairie Maritime et Coloniale,Paris, 1898, P.03 _ 28 .

⁸⁹ - Ibid, PP. 32-77.

⁹⁰ - Ibid, PP. 78- 120.

⁹¹ - Ibid, PP. 121- 149.

⁹² - Henri Wolff et A. Blachère : "Sahara et Soudan, les Régiments de Dromadaires", Challamel Ainé, Editeur, Paris, 1884, P. 78.

⁹³ - A. Bernard N. Lacroix : Op, Cit. P. 102.

⁹⁴ - Fernand Foureau: "Une Mission Chey les Touareg", B.S.G de Paris, Tome 14, 7 Série, 4 Trimestre, 1893, PP. 540 – 541.

⁹⁵ - يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص 24 .

⁹⁶ - P. Vuillot: Op. Cit, P.114.

⁹⁷ - إبراهيم مياشي: المرجع السابق، ص 59 .

⁹⁸ - P. Vuillot: Op. Cit, PP.115 - 117.

- ⁹⁹ - H. Simon : "Occupation et Organisation des Régions Sahariennes", R.A. N°49, 1905, P.244.
¹⁰⁰ - Michel Antar : Op. Cit, P.136.
¹⁰¹ - G. Tillon : "la Conquête des Oasis Sahariennes", Edition Militaire, Paris, 1903, PP.13 – 14.
¹⁰² - Ibid, P. 53.

¹⁰³ - إبراهيم مياشي: المرجع السابق، ص 170.

¹⁰⁴ - H. Simon : Op. Cit, PP.244 - 245.

¹⁰⁵ - Ibid, PP.245 - 262.

¹⁰⁶ - يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 57 - 58.

قائمة المصادر والمراجع:

أ - المصادر الفرنسية :

- ¹ - A. Cherdonneau : "Relation du Voyage de M. le Capitaine De Bonnemain", N.A.V.G.H.A, Tome 2, Arthus Bertrand, Editeur, 1857, Paris, P. 258.
² - Adolphe Duponchel: "Le Chemin de Fer Trans-saharien, Jonction Colonial, entre l'Algérie et le Soudan, Etudes Préliminaires du Projet et Rapport de Mission, avec Cartes Générale et Géologique", Topographie et Lithographie de Boehm, Paris, 1878.
³ - Camille Douls: "Voyage d'Exploration à Travers le Sahara Occidental et le Sud Marocain" B.S.G, de Paris, 7 Série, T 9, Paris, 1888. PP. 437 – 438.
⁴ - Davezac. M : "de l'Algérie, et des Principaux Ouvrages Récemment Publiés a ce Sujet", N.A.V.G.H, 4 série. Tome 7, 1841, PP. 257 – 317.
⁵ - Edouard Blanc: "Les Routes de L'Afrique Septentrionale au Soudan", B.S.G, de Paris. 1890. PP. 11-16¹ .- Jomard A.M : "Notice Historique sur la Vie et les Voyages de René Caillé", B.S.G. de Paris, 2 séries, T.10, 1838, PP. 330 – 358.
⁶ - Eugène Daumas : "le Sahara Algérien : Etudes Géographiques, Statistique, et Historique sur la Région au Sud des Établissements Français", Langlois Leclercq, Paris, 1845, PP.15 -90.
⁷ - Félix Jacquot: "Expédition du Général Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847", Gide et j. Baudry, Libraires Editeur, Paris, 1849, PP.1 – 9.
⁸ - Fernand Foureau : "Rapport sur ma Mission au Sahara et chez les Touareg Azdjer Octobre 1893–Mars 1894", Librairie Coloniale, Paris, 1894.
⁹ - Fernand Foureau: "Une Mission Chez les Touareg", B.S.G de Paris, Tome 14, 7 Série, 4 Trimestre, 1893, PP. 540 – 541.
¹⁰ - Henri Brosselard: "les deux Missions Flatters, au Pays des Touareg Azdjer et Hoggar", Librairie Furne, Paris, 1889, P. 4.
¹¹ - Henri Duveyrier : "Exploration du Sahara : les Touareg du Nord", Challamel, Aîné, Libraire - Editeur, Paris, 1864.
¹² - H. Simon : "Occupation et Organisation des Régions Sahariennes", R.A. N°49, 1905, P.244.
¹³ - Henri Wolff et A. Blachère : "Sahara et Soudan, les Régiments de Dromadaires", Challamel Aîné, Editeur, Paris, 1884, P. 78.
¹⁴ - James Richardson: "Routes du Sahara. Itinéraires dans l'Intérieur du Grand Déserts D'Afrique", Imprimerie de le Martinet, Paris, 1850, PP. 4-28²5.- G. Tillon : "la Conquête des Oasis Sahariennes", Edition Militaire, Paris, 1903, PP.13 – 14.
¹⁵ - Louis - Joseph de Colombe : "Explorations des Ksour et du Sahara de la Province

d'Oran", Paris, Challamel, 1858, P. 59.

¹⁶ - Paul Gaffarel: "L'Algérie: Histoire, Conquête et Colonisation", Edition Firmin-Didot et C^{ie}, Paris, 1883, PP. 522 – 523.

¹⁷ - Paul Soleillet: "L'Afrique Occidentale, Algérie, Mزاب, Tidikelt", Paris, Challamel, 1877, P. 1.

¹⁸ - M. Delesse: "Afrique Septentrionale - M. Paul Soleillet", E.J.G.C, Volume 1, Premier Semestre, Paris, 1875, P. 191.

¹⁹ - Marcel Mercier: "le Idoles de G'Adames", R.A, N⁰ 18, 1857, P. 78.

أنظر أيضا :

²⁰ - "Relation du Voyage de M. Le Capitaine De Bonnemain: " A. Cherdonneau R.A, N⁰ 7, 1953, PP. 18 – 19.

²¹ - Michel Antar : "Chauvauchées d'un Futur Saint-Cyrien à Travers les Ksours et Oasis Oranais", Collection Hetzel, Paris, 1907, PP. 98 – 103.

²² - Narcisse Faucon : "Livre d'Or de l'Algérie", Tome 1^{er} - Biographies, Challamel et C^{ie}, Editeur, Paris, 1889, PP. 22 – 223.

²³ - Paul Flatters: "les deux Missions du Colonel Flatters, en Afrique", Librairie Dreyfous, Paris, 1884. PP. 2 – 168.

²⁴ - René Caillé: "Voyage d'un Faux Musulman a Travers l'Afrique", Eugène Ardant Editeurs, Paris, Sans Date, P. 108.

²⁵ - Victor Largeau: "Expédition de M. Largeau a Radâmes, Journal de V. Largeau", Mémoires et Bulletins, G.J.G.S.G.G. Premier Série, Tome 14, H. Georg, Libraire - Editeur, Genève, 1875, PP. 95-36.

ب- المراجع العربية:

1. إبراهيم مياشي: "توسع الاستعمار الفرنسي في الجزائر الغربي الجزائري 1882 - 1912" منشورات المتحف الوطني، الجزائر، 1996.

2 - عبد الحميد سعد زغلول: "تاريخ المغرب العربي"، ج4، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1995.

3. عبد القادر بوباية: "دور الرحالة والمستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية"، مجلة عصور، جامعة وهران، الجزائر، السنة الثالثة العدد 4 و5 ديسمبر 2003. جوان 2004.

4 - العربي الزبييري: "مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984.

5 يحيى بوعزيز: "اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها"، مجلة الأصالة، الملتقى الإسلامي الثالث عشر، تمناست، الجزائر، 1979.

ملف الفلسفة، علم
الاجتماع وعلم النفس

مشروع الحداثة في الفكر العربي والإسلامي المعاصر "قراءة تحليلية نقدية"

د/لكحل فيصل، جامعة ابن خلدون تيارت

مقدمة:

لقد ارتبط مصطلح ومفهوم الحداثة بعدة محددات تاريخية معينة تختلف وتتباين في مقاصدها ودلالاتها فهي قد تشكلت بدءا كتوجه فكري ثم ارتقت إلى مستوى المذهب والنسق والمنهج ومن ثم إلى مستوى المشروع الشمولي والكلاني الذي حدده الغرب في العصر الحديث من خلال ما دعت إليه فلسفات الأنوار والنزعات الإنسانية، وفي هذا تبلورت معالم الأسبقية الزمانية والتاريخية للغرب في امتلاك بؤادر الحداثة -المشروع- مما جعل غيرها من الشعوب والمجتمعات في مستوى التلقي والتأثر فقط، وهذه هي النتيجة التي واجهها العالم العربي والإسلامي الذي لم يجني من الحداثة في النهاية سوى التلقي والتأثر السلبي الباهت، حيث لا أحد ينكر بأن الغرب هو أول من استأنف الإطار الحداثي الذي فرض كمرجعية لكل المشاريع التحديثية العربية والإسلامية التي لم تجد بُداً في بناء حداثتها إلا من خلال تلقي الأنموذج الغربي باعتباره أنموذجا سابقا تاريخيا، وبالتالي كان السؤال الذي ظل يطرح تاريخيا وبإلحاح هو: هل يمكن بناء مشروع حداثة عربية وإسلامية بعيدا عن التلقي الغربي؟

بيد أن هناك سؤالا أكثر أصالة منه وأشد معاصرة لنا هو مقارنة الآتي: إذا كانت الحداثة الغربية على مشارف الأفول والانحطاط القيمي التام - لفلسفة الأنوار والنزعات الأخلاقية والإنسانية - هل يبقى للعالم العربي والإسلامي أمل في استلهاهم نهضته وتقدمه من هذه الحداثة؟ وهل يبقى هناك من معنى للقول بالأنموذج الحداثي الغربي كصورة نرى من خلالها ذواتنا ووضعنا الراهن؟

إن كل هذه الأسئلة وغيرها، تحيلنا حتما إلى نوع من الحداثة المفقودة كواقع عربي وإسلامي ناجز، وهذا ما يعد بحق معول هدم لكل بُناها، بل ببيان تهافت ادعاءاتها وفقدانها كل إمكاناتها التاريخية المأمولة لها، لأن العالم العربي والإسلامي ظل يُراهن أزمته متتاليتين: حاكمية النظرة الغربية المسيطرة من جهة وضيق أفق الإبداع والإنتاج الثقافي والحضاري من جهة ثانية. وأمام هذا كله هل يبقى هناك من أمل في استئناف مهام جديدة للمشروع الحداثي /أو/ التحديثي العربي والإسلامي وهو مرهون على الدوام بأزمات متتالية مسكونة بتشاؤمية مبطنة لكل سؤال يمكن أن يطرح حول مستقبله الثقافي والحضاري؟

أولا - الأنموذج الحداثي الغربي والمشروع التحديثي العربي:

مصطلح/ مفهوم الحداث¹ لفظ مستعمل بكثرة منذ القرن العاشر في المساجلات الفلسفية والدينية ويكاد يستعمل دوما بمعنى ضمني وهو انفتاح الحرية الفكرية مع الأحداث والوقائع المكتشفة²، وهي تشير إلى تيار فكري يرتبط عادة بعصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر بالاعتماد على العقل في فهم الذات والعالم المتميز الواضح بين الذات والموضوع، ودراسة التغيرات والتطورات في الوعي، وكذا بالتركيز على فكرة الإنتاج في التكنولوجيا³، ولذلك عرفت

الحدث ذاتها بأنها حالة من التغير ربما إلى الأفضل⁴، وللحدث عدة مفاهيم، وما يهمنا هنا هو المفهوم الفلسفي، وهي بهذا الاعتبار موقف عقلي يتمثل في عدم الرضا بالطرق التقليدية للحياة والتركيز على إبداع الجديد واستغلال الموارد الطبيعية باستخدام المعرفة الحديثة⁵، والحدث تجلت في أفقها الغربي من خلال ثلاثة مفاهيم أساسية هي: الذاتية (Subjectivité)، العقلانية (Rationalisme) العدمية (Nihilisme) وهذه المفاهيم تشكل في العمق أساس الحدث الفلسفي⁶، ولكن رغم الانتشار الواسع لمصطلح الحدث (Modernité) إلا أنه يبقى من نوع تلك المفاهيم التي تتمرد على المفهمة حتى أن أحد المفكرين الضليعين في هذا الموضوع يقول "إن فكرة الحدث هي فكرة صعبة الفهم في ذاتها"⁷، ولكن إذا قاربنا مفهوم الحدث مقارنة فلسفية عميقة أمكننا القول أن الحدث الفلسفي ارتبطت في تاريخ الفلسفة باللحظة الديكارتية من خلال ما اكتشفته هذه الأخيرة من مفاهيم جديدة استطاعت أن تقام عليها المذاهب والأنساق الفلسفية الحديثة ونقصد بذلك مبدأ الذاتية أو ما سماه ديكارت بالكوجيتو أو بدهاء الأنا أفكر، الذي كان فاتحة عهد فلسفي جديد تخلص من ربة اللاهوت الذي كبل العقل الإنساني طيلة العصور القروسطية، وهذه الفاتحة تمثلت بالضبط في تجلية قدرة الإنسان والإيمان بإرادته في تغيير الطبيعة وبناء سعادته وقدراته العلمية على فهم واكتشاف أسرارها.

أما إذا قاربنا المفهوم انطلاقاً من الإشكالية التي نحن بصدد معالجتها فانه يمكن القول أن أفهمة مصطلح الحدث لم تجد لها في الاصطلاح العربي وعاء لغويًا حاملًا لمقاصدها ومدلولاتها كتلك التي حددها الغرب والشاهد على ذلك هو انعدام اصطلاح مفاهيمي عربي وإسلامي خالص لما نسميه بالحدث، ولذا كان مفهوم الحدث من جنس تلك المفاهيم التي لا نعثر لها مقابل مباشر في لغتنا العربية، لأنها بكل بساطة ليست من إنتاج تلك اللغة، وهذا مثل اصطلاح الثقافة والحضارة والمدنية وغيرها⁸، فهي مفاهيم دخيلة ذات أصول وأسس غربية أو أنها نحتت نحتًا لغويًا غريبًا وبالمثل يمكن القول أن "مصطلح كل من الحضارة والثقافة في أوروبا ليس أصلاً في مسيرة التقدم بل هو وقفة نرجسية لما أنتجه تقدم العصر الصناعي منذ القرن السابع عشر الديكارتية في مسيرة تستمد من أصولها اليونانية والوثنية الرومانية حدود رؤيتها لعناصرها..."⁹، وكما يقول عمر كامل مسقاوي أن الإصلاح في العالم العربي والإسلامي "...كمصطلح ارتبط فوراً بالحالة الغربية ولم يكن نتيجة مراقبة ذاتية واعية، إذ هذه المراقبة لا توجد إلا في إطار من حيوية الثقافة عندما تكتب تاريخها بحبر أدائها اليومي"¹⁰ مما يعنى القول معه بأن البيئة الثقافية لم تنتج هذا المفهوم إنتاجاً اصطلاحياً وإنما ربطته بوعي مفاهيمي خاص، إذ هناك فرق كبير بين أن يكون للمفهوم وعاء نفسي أو اجتماعي حامل له، وبين أن يكون هناك وعي يعمل على تبينة هذا المفهوم في سياق خاص، وهذا هو ربما العمل الذي انتدبت المشاريع العربية "التحديثية" نفسها بالوقوف عنده، أي تحديد وجهتها الثقافية والحضارية تحديداً يتلاءم مع طبيعة السياق العام الذي تبلور فيه مشروع الحدث في فضائه الغربي، ومن هنا يمكن أن تطرح المفارقة التاريخية التي تبين أن هناك مشروع غربي للحدث وأن هناك في المقابل مساعي عربية للتحديث، مما يعنى القول معه بأن هناك فرق بين "الحدث" و"التحديث"، ويبدو أن هذا الأمر يتضح إذا ما نحن تأملنا طبيعة المشروع النهضوي - الإصلاحية العربي والإسلامي في العصر الحديث، الذي تبلور في إطار لحظة تاريخية حاسمة ومفصلية في الوقت نفسه، إذ ومنذ عهد الحركة الإصلاحية الوهابية إلى غاية الحركات الإصلاحية الحديثة في العالم العربي والإسلامي ثم إلى التيارات الفكرية التي ترجمت الحدث الغربية في قوالب عربية وإسلامية، ونحن نشهد وعياً متضافراً للتنمية وتذكية أطر الحدث وتهيئة المحددات المبدئية لها.

ولهذا توجب على النهضة أو التجديد الفكري الإبداعي الذي من شأنه أن يساير الفكر الحداثي العالمي أن لا يغفل في مسيرته عن ما بدأه الأولون كون أن البدء في عملية الإصلاح على خطى الفكر السليم إنما يفترض الأخذ بزمام الفهم الصحيح لسيرورة تلك المساعي المختلفة التي يوحدتها الهم المشترك وتحركها النوازح الواحدة¹¹ ولكن الشيء الملاحظ هنا هو أن الوعي بالحدثة لم يكن وعيا عربيا وإسلاميا خالصا، وإنما كان وعيا مغتربا ومتشكلا في ظل حتمية نفسية واجتماعية قاهرة أو بالأحرى في ظل حاكمية تاريخية مفارقة للشعور وللوعي العربي والإسلامي، وهي بالضبط انعدم المحددات الطبيعية لنمو وتوتر مبادئ الحدثة، هذا إذا سلمنا جدلا بوجود مبادئ معينة يمكن من خلالها ترصين قوالب الحدثة كمشروع فكري وثقافي قبل أن يكون منجزا حضاريا جاهزا، والشاهد هنا، هو أن مشروع الحدثة العربية لم يلد أو ينمو أو يتزعزع في ظروف طبيعية خالصة كونها الوجدان أو العقل العربي أو هيئتها المجتمع التاريخي، وإنما هو مشروع تكون نتيجة تآزم خائق شاهدة الوضع التاريخي النفسي والاجتماعي، مما أدى إلى بروز وعي تاريخي زائف ومستلب لا ينطلق من هويته الثقافية والحضارية، وإنما هو على الضد من ذلك متكون في إطار تربة غريبة وأرض ليست هي بالأصل ولا بالتراث وإنما هي لحظة مفارقة وغير طبيعية بالتمام، والمقصود من أن مشروع الحدثة العربية لم ينبت في ظل ظروف طبيعية، هو أن الملابس التي فرضت قيم ومبادئ الحدثة لم تكن منتجا عربيا وإسلاميا خالصا وإنما كانت غريبة بالأساس، فمشروع الحدثة العربي طرح في ظل أوضاع عربية كانت تطمح إلى تغيير وضعها التاريخي والاجتماعي لمواجهة طبيعة الأزمات التي كانت تحيط بها "الأزمة الاستعمارية، السياسية والاقتصادية،..." مما دفعها إلى بلورة مشاريع نهضوية إصلاحية تجديدية تغييرية، تختلف ربما عن المشاريع الحداثية التي نشأت وتكونت تكونا غريبا خالصا، ولكن الأمر التبس على العالم العربي والإسلامي الالتباس الخطير، إذ عوض أن يستمر في تحديد مشاريع نهضوية تغييرية من داخل خصوصيته الثقافية والاجتماعية، راح يرى بأن هذه المشاريع هي عينها الدخول في إطار مشروع حداثي جديد، ولكن الأمر هنا مختلف فشتان بين مشاريع طبيعية يخلقها الظرف التاريخي الزماني، حتى في ظل أزمات حضارية خانقة، وبين المخيال المتعالي في الحلم بالحدثة، ذلك الذي انتهى إلى صهر مطالب النهوض والتجديد العربي والإسلامي في قوالب لا تتلاءم بتاتا مع الوضع النفسي والاجتماعي الذي راهنته، ولذا يمكن القول أنه ما كان لمشروع الحدثة العربية أن يرى إرصاده النظري من دون تلك المقومات التي أقامها الغرب، ولكن كيف استطاع مشروع الحدثة العربية أن يبني مطالبه وأن يحدد مبتغياته الثقافية والحضارية انطلاقا من الحدثة الغربية باعتبارها لحظة سابقة تاريخيا وإجرائيا عن الوعي الحداثي العربي والإسلامي؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تؤدي بنا منذ البداية إلى البحث في قضية المرجعية الفكرية الغربية للفكر العربي الحداثي، إذ كيف ولماذا تأثر المفكرون العرب الحداثيون بفلاسفة عصر التنوير، وبأهداف الثورة الفرنسية الاجتماعية والسياسية؟ لماذا تأثر الطهطاوي بفولتير ومنتسكيو وروسو وبالدستور الفرنسي تحديدًا؟ لماذا كانت وضعية كونت وريمان العلموية بالضبط، مؤثرا فكريا في فكر فرح أنطون مثلاً؟ ولماذا تبنى شبلي الشميل نظرية داروين وسبنسر، وإلى أي حد أخذ عنهما؟ وما هي دوافع تبني طه حسين منهج الشك الديكارتية وعقلانيته؟¹² ويبدو من خلال نماذج هؤلاء المفكرين بأن الفكر العربي والإسلامي وجد نفسه في العصر الحديث يعاني أزمة تاريخية حادة، تمثلت في افتقاده لثقافة التجديد والتغيير الحضاري، لأنه وجد بأن العالم الغربي الذي يسكن معه نفس الأرض ويتقاسم معه الإنسانية، قد فاقه بأشواط كبيرة من التقدم والتطور الثقافي والحضاري، مما جعل بعض المفكرين والمتقنين ينبهون بحدثة الغرب ويتأثرون بها ويسعون إلى محاولة تبنيها من أجل بناء نهضة حضارية مماثلة، فقد تبين مع

الخطاب التاريخي للنهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي بأن الحل يكمن في العودة إلى أصول الدين والاستناد على التراث والأصالة¹³، ولكن العودة إلى التراث لم تساعف الفكر العربي والإسلامي في النهوض والتجديد، أمام حدة ما فرضته الحداثة الغربية من مغريات ومن فتوحات ثقافية وحضارية¹⁴، وكأن الأمر تعلق بظاهرة مرضية أو بـ"عصاب جماعي" أصاب المثقفين العرب بعد نكسة في 1967 فارتدوا ناكسين إلى الوراء، أي إلى "التراث" والذين يقولون هذا يشتكون من أن الاهتمام بالتراث وقضاياها يصرف عن الاهتمام بالحداثة ومتطلباتها، ومن هنا كان من متطلبات الحداثة في نظر محمد عابد الجابري تجاوز هذا الفهم التراثي للتراث، إلى فهم حدائي، أو إلى رؤية عصرية له، فالحداثة في نظره لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسميه بالمعاصرة¹⁵، فالمعاصرة غدت في نظر المفكر العربي- الحدائي تعني الانفتاح على العصر وما أفرزه من إمكانات وفتوحات علمية، وليس التقوقع في التراث والانغلاق على الذات، بل أن مقتضيات الحداثة حتمت على العالم العربي والإسلامي أن يجد له مكانا في التاريخ لكي يستطيع أن يرتقى بالتراث إلى مستوى متطلبات الحاضر الإنساني الذي يعيشه مع الآخر "الغرب"، ومن شأن تجديد التراث أو جعله معاصرا لنا أن نفتتح على الحداثة الغربية بجميع ما تملكه من إمكانات وما تسخره من منجزات، وهذه حقيقة تاريخية مشهودة تمثلها المفكر والمثقف العربي منذ القرن التاسع عشر، حيث بدأ الغرب متمثلا في أوروبا آنذاك يفرض نفسه على غيره كنمط كوني للحداثة فرض على المثقف العربي أن يبحث عن مكانة لمجتمعه في هذا الواقع التاريخي الكوني الجديد وبدأ يتلمس الإجابة لأسئلة الحداثة وإشكالاتها، المطروحة عليه، انطلاقا من رؤية كونية للتاريخ¹⁶، ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأ رفاعة الطهطاوي واضعا أول مقارنة عربية في العصر الحديث بين الشرق الإسلامي الذي ينتمي إليه والغرب الحديث العائد منه، ثم تلاه في الستينيات من نفس القرن خير الدين التونسي الذي قام بمقارنة حضارية مماثلة عميقة كانت ثمرة معاينة مباشرة لمظاهر التقدم الأوروبي وحداثته¹⁷، كما أن ظهور مفكرين كشبلي شميل، وفرح أنطوان، وعلي عبد الرازق ولطفي السيد وسلامة موسى... الخ، في مرحلة الخطاب الحدائي العربي الأولى، يأتي دليلا على تبني الفكر العربي الواضح لأسس الخطاب الفلسفي التنويري الحدائي وقد تعمق هذا الاهتمام مع ظهور مفكرين كزكي نجيب محمود، وعبد الله العروي، وأنور عبد الملك وهشام جعيط ومحمود أمين العالم، وحسين مروه، والطبيب التيزيني¹⁸، ولاشك في أن المثقف العربي قد أسهم في تعميم مشروع الأنوار الأوروبي، فالشيخ رفاعة الطهطاوي كان متيقنا "أنه لا يوجد اختلاف كبير بين مبادئ الشرع الإسلامي والمبادئ الخاصة بالقانون الطبيعي التي أقيمت على مقتضاها دساتير أوروبا الحديثة، الأمر الذي أدى بالشيخ الطهطاوي إلى إعادة تفسير الشرع الإسلامي في اتجاه التوافق مع المتطلبات الحديثة"¹⁹، فلم يكن التأثير بالحداثة الغربية يعني للعالم العربي والإسلامي في الأخير سوى الاندماج في مطالبها والعيش في كنفها مادام أن أمر تجاوزها لا يمكن أن يتحقق التحقق المطلق، فالسعي نحو التفكير في النهضة والتجديد في العالم العربي والإسلامي لابد أن يمر عبر بوابة الغرب باعتباره منتج الحداثة ومبدعها ومخترعها بامتياز، ووفق محمد عابد الجابري فإن قضية اصطدامنا بالنموذج الحضاري الغربي ليست أمر اختيار، فلقد فرض هذا النموذج الحضاري نفسه علينا منذ القرن الماضي، كنموذج حضاري جديد للعالم يقوم على جملة من المقومات لم تكن موجودة في النماذج الحضارية السابقة له²⁰، فلقد طرح الفكر الغربي الحدائي نفسه كأمر قابل للتلقي منذ أن نشأ في الفكر العربي والإسلامي ما يسمى بمشاريع النهضة والصحو والتجديد والتغيير، وهذا ما يطرح هاجس التأثير السلبي الباهت، فلم تكن طبيعة هذه المشاريع تتأصل في بنية ثقافية من إنتاجها الخالص، بل كانت تتجذر في تربة غريبة عنها، فما

كان أن أنتجت سوى التناقض والاختلاف، ذلك الذي عاشته التيارات الفكرية العربية والإسلامية في العصر الحديث بين سلفي متعصب وعلماني تحديثي متفتح ومنغلق عن التراث، وداع إلى التجديد والتغيير وفق مقتضيات العصر، ولكن الأمر ظل على حاله، ولا أدل على ذلك من أن كل هذه المشاريع لم يكتب لها التحقق المناسب لطموحاتها وإراداتها، ولعل الأمر هنا يعبر عن مفارقة تاريخية طرحت نفسها كقضاء حتمي لم يكن الفكر العربي والإسلامي بمختلف توجهاته وتياراته ليتحكم فيه ولا ليلغيه ولا أن ينتظر قبولاً أو رفضاً منه، وكذلك كان الأمر مع الحداثة، إذ "لم تستشيرنا الحداثة ولم تطلب رأينا قبل أن تدهس بابنا لأنها لم تسلك يوماً وفق منطق الاستشارة والاختيار فهي أشبه بنهر هائج وكاسح لا يبقي ولا يذر يجرف كل شيء في طريقه"²¹

من هنا يمكن القول أن مشروع الحداثة العربية والإسلامية، كان في بدايته يعبر عن تلقى النخب العربية والإسلامية المثقفة منها والسياسية وغيرها، لما توصل إليه الغرب من ثقافات وأنساق فكرية حضارية، ولا أدل على ذلك من أن الحداثة اكتشفت غربي أوروبي تميزت به الثقافة الأوروبية زمن العصر الحديث، حينما أرادت أن تتخلص من ربة اللاهوت المسيحي وتحكم قبضة الإنسان على الطبيعة والتاريخ، من خلال تجسيد مبادئ معينة للعصر الحديث، تعبر عن زمن الحداثة "الحرية، الذاتية،...."، والعالم العربي والإسلامي كان في تلك الفترة يعاني فترة الضنك الحضاري المتصاعد، التي ظل يتخبط فيها منذ عصر ما بعد الموحدين، وأمام ركوده وتخلفه في مجال الثقافة والدين والحضارة، لم يجد بدا في الأخذ بالأنموذج الحداثي الغربي، وذلك من خلال تلقي الحلول الغربية الجاهزة، اعتقاداً منه أنه بقادر على تجاوز كبوته الحضارية حينما يصغي إلى مبادئ الحداثة الغربية إما عن طريق التلقي المباشر، وذلك ربما تجسد في محاولة تطبيق بعض السياسات والنظم الاجتماعية الغربية في العالم العربي والإسلامي، وإما عن طريق التلقي غير المباشر والذي ربما تجسد على مستوى البراديعم الذي فرضته الحداثة الغربية على التيارات الفكرية العربية التي ظهرت بوادرها في العصر الحديث فلا تجد إلا أسماء مذاهب على مسميات غربية، حيث أصبحنا نسمع عن داروينية شبلي شميل، وعن فلسفة الأنوار عند الطهطاوي، وعن الوضعية عند زكي نجيب محمود، وعن تاريخانية عبد الله العروي، وعن شخصانية محمد عزيز الحبابي، وعن نزعة الشك والعقلنة عند طه حسين، والوجودية عند عبد الرحمان بدوي.... وغيرها، وكل هذه التيارات الفكرية تبين بما فيه الكفاية كيف أن الخروج من الأزمة الحضارية التي راهنها العالم العربي والإسلامي في العصر الحديث إنما كانت تجد حلولها المباشرة في ما يمكن أن تقدمه لها الحداثة الغربية من إسعافات وحلول جاهزة، ولكن الفكر العربي والإسلامي لم يبق على مستوى التلقي وفقط، بل حاول أن يساهم في بناء قوائم جديدة للحداثة ويبدع معالم ذاتية حداثية خاصة به ومن داخل بيئته الثقافية وليس فقط في إطار ما يتلقاه من الغرب، ولكن كيف يكون هذا الأمر ممكناً إذ كان كل بناء لمشروع الحداثة في العالم العربي والإسلامي يبقى محاطاً على الدوام بهواجس الحداثة الغربية التي تبقى تطرح نفسها كأنموذج قبلي، تاريخياً وثقافياً وحضارياً في الوقت نفسه؟

ثانياً - مشروع الحداثة العربية وبناء الأنموذج الإسلامي:

يبدو أن بناء مشروع الحداثة العربية والإسلامية، قد تبلور في إطار عدة مشاريع فكرية تحديثية متعددة أرادت أن تذكي على اختلاف توجهاتها تجربة تحديث الفكر والثقافة والمجتمع والسياسة والاقتصاد، وهذا من خلال تجاوز التجارب التراثية السابقة، باعتبارها حلولاً مطلقة ونهائية، وفي هذا تشكلت معالم الطريق نحو بناء حداثة عربية وإسلامية، ليس هو بالطريق الغربي وإنما طريقاً مختلفاً يسلك سبل المنهج الغربي، ولكن يتعامل مع قضايا ومشكلات وأزمات يواجهها الإنسان العربي المسلم في واقعه النفسي والاجتماعي، فظهرت هناك حداثة ذات توجه إسلامي مثل تلك

التي نادى بها طه عبد الرحمان، وحداثة مبدعة عند محمد عابد الجابري وحداثة تميل إلى العلمانية كتلك التي يمكن أن نلتمسها عند كل من محمد أركون وعلي حرب ومحاولة تحديث سياسي واجتماعي عند كمال عبد اللطيف،...وأمام تعدد هذه التوجهات واختلافها، فإننا لن نتطرق إلى تجربة كل واحد من هؤلاء المفكرين ولكننا نسعى إلى بيان كيف أن مشروع تحديث الفكر العربي والإسلامي فتح أفقا عند المفكر العربي الذي وجد فيه مسوغا لبناء أنموذج عربي وإسلامي يراعى طبيعة التوجه الثقافي والخلفية العقديّة للمجتمع، فالواقع النفسي والاجتماعي الذي راهنه المفكر العربي المسلم في العصر الحديث كان كفيلا بأن يذكر فيه روح الإبداع من خلال حركة الفكر والثقافة في مواجهة الأزمات والمشكلات، وهذه هي بالضبط الحالة التي وجد الفكر العربي والإسلامي نفسه مواجهها بها منذ العصر الحديث ومنذ صدمة الحداثة، حيث تحتم عليه أن يجد له مكانا في قلب الإعصار الحداثي الذي عصف به منذ احتكاكه بالغرب، وعلى سبيل المثال فإن انفتاح مشروع الحداثة على التجربة السياسية في العالم العربي والإسلامي يكشف حسب ما يدعوا إليه الباحث كمال عبد اللطيف عن سعى متجدد نحو عقلنة السلطة والسعي إلى تجسيد النظم والسياسات العقلانية الحديثة التي تراعي مبدأ العدالة والسيادة للجميع، وهذا عبر تشكيل صيغة من الفكر والثقافة تستمد من مجريات الأحداث ما يمدّها بدفع عجلة التاريخ نحو التغيير والتجديد الاجتماعي، من خلال تحقيق فكرة المواطنة والسيادة والعدالة والمساواة السياسية بيد أن إيماننا بالحداثة السياسية يصاحبه إيمان مماثل بنظرتنا إليها من زاوية أنها عبارة عن أفق مفتوح على كل ممكنات الإبداع الذاتي في التاريخ فلا يمكن تصور إمكانية تحقيق الحداثة بالتقليد، بل إن سؤال الحداثة في أصوله ومبادئه العامة يعد ثورة على مختلف أشكال التقليد²²، إذ لا يمكن أن ينفع تحديث المجتمع العربي والإسلامي سياسيا من دون الدخول في تجربة جديدة تلقى بثقلها على المكدرات الموروثة والتقاليد البالية فمعطيات العصر الحديث تتد عن البقاء في إطار نظام القبيلة أو العشيرة، من دون الدخول في تجربة المواطنة السياسية والنظم السياسية الحديثة التي تراعي طبيعة الظروف التاريخية الحادثة والمتغيرات النفسية والاجتماعية فمثلا فرضت الديمقراطية نفسها كنظام سياسي حديث على السياسات العربية محاولة تحقيق الانسجام بين مطالب وحقوق المواطن ومتطلبات القانون وسيادة الدولة، بيد أن استحضار أفق الحداثة عند التفكير في المشروع الديمقراطي العربي، لا يعني ولا يفيد الدعوة إلى نسخ تجارب بعينها بقدر ما يعنى الاستئناس بتجربة محددة في التاريخ ومحاولة إبداع الوسائل الذاتية القادرة على ترسيخ المنظور الحداثي لاسيما وأن المجتمعات العربية اليوم تعيش أزمت الثورات المجتمعية المتتالية المطالبة بحقوقها وبتغيير أنظمتها السياسية التي لا ترى فيها تجسيدا لمطلب الحوار والديمقراطية السياسية، فالتجديد والتغيير الذاتي من شأنه أن يرسم أفاق وطموح السياسات الناجعة في التاريخ، وهذا ما يشي به المنظور الحداثي في سعيه نحو عقلنة المجتمع والدولة وتحقيق آليات الحوار والتفاهم بينها، وهو بالضبط ما يحتاجه العالم العربي والإسلامي من أجل تفادي مكر الزمن وعواصف التاريخ، إذ الوعي بقيم الحداثة في الجانب السياسي من شأنه أن يخلص العالم العربي والإسلامي من المشكلات التي تترى به على الصعيدين الداخلي والخارجي معا.

إن معركة تبيئة مبادئ وقيم حقوق الإنسان في الفكر العربي تحتاج إلى معارك سياسية محددة في قضايا موصولة بالتحويلات الجارية في المجتمع العربي، لكنها تحتاج أيضا وبنفس الحدة والقوة إلى معركة الدفاع عن الحداثة في فكرنا المعاصر، ولهذا بالضبط نجد بعض المواقف المتفائلة من داخل الفكر العربي ترى إمكانية مواجهة الواقع العربي للمتغيرات العالمية الراهنة التي تسود فيها الأمركة والنظم العالمية الأوروبية باقتصادياتها وعولمتها، فمثلا يقول الباحث منير شفيق "إن الإمكانيات لإحداث تغيير في ميزان القوى الراهنة كامنة موضوعيا ونابعة من طبيعة المصالح والأهداف

للأطراف المتضررة، لا تحتاج إلا إلى خلطة لا بد من حدوثها في ميزان القوى الراهن²³، وكأن الباحث يلمح من خلال كلامه هذا إلى أن الوضع الذي آل إليه الغرب يصب في مصلحة العالم العربي والإسلامي من أجل أن ينهض بمهامه التاريخية ويعيد تكريس قيم جديدة للحدثة، بيد أن الأمر على العكس من ذلك، إذ لا يعني أفول أو تهافت الغرب نهوض العالم العربي والإسلامي بالضرورة، لأن هذه المهمة تستدعي وعيا متضافرا بحركة التاريخ وتغييرا متجددا لنمط التعامل مع مستجداته، فتجربة التحديث لا تستدعي النهوض ابتداء من انتكاسة الآخر، بل إنها تستدعي النهوض ابتداء من انتكاسة الذات، فمادام أن الركود يظل ثاويا في الوجود النفسي والاجتماعي للإنسان العربي والمسلم، فانه لا أمل للاستفادة من تجربة أفول وسقوط الآخر "الغرب"، فنظرية الدورة الحضارية التي تكلم عنها عبد الرحمان ابن خلدون ومالك بن نبي ومختلف فلاسفة التاريخ، لا يمكنها أن تفسر لنا على وجه التحديد نهضة العالم العربي والإسلامي عند فقدان العالم الغربي لمحدداته الثقافية والحضارية، فأمور التاريخ لا تحتكم إلى الضرورة وفقط، بل هي بالقدر نفسه تحتكم إلى المكر والمصادفة، وإذ ذاك فان تجربة تحديث العالم العربي والإسلامي لا يمكنها أن تتجسد من خلال فقدان الغرب لحداته، فالحدثة ليست آلة يتم استيرادها، بل هي محيط نفسي وثقافي واجتماعي يتم إنشاؤه في ظل ظروف طبيعية تماما تستدعي وعيا بحركة التاريخ وبإمكاناته، ومن هنا حسب مالك بن نبي "لا يجوز لنا مثلا أن نتساءل لماذا توجد عناصر فكرية قاتلة في الثقافة الغربية؟ بل من الأجدر أن يكون سؤالنا في صورة أخرى على شاكلة لماذا تمتص بالضبط طبقتنا المثقفة في البلاد الإسلامية هذه العناصر القاتلة؟"²⁴

ومن هنا يتبدى بأن كل مفاصل المشروع النهضوي العربي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية تتوقف على مدى توافر شرط أساسي هو ضرورة استيعاب أسس الثقافة الحديثة، وهذه المسألة ليست بسيطة أو تلقائية فني المراحل الأولى لليقظة العربية كانت هناك الدعوات متفائلة وطموحة لاكتساب الثقافة الحديثة باعتبار أنها لا تتناقض في جوهرها مع التراث والتقاليد²⁵، وهذا ما بين بأن الحاجة إلى الاشتغال بالتراث تمليها الحاجة إلى تحديث كيفية تعاملنا معه خدمة للحدثة وتأصيلا لها، وهذه وجهة نظر عبر عنها الجابري منذ بداية اشتغاله بالتراث مع منتصف السبعينيات²⁶، فانخراط ثقافتنا في زمن الحدثة وما بعدها، يعنى التفكير والمساهمة في مواجهة التحديات المشتركة القائمة بيننا وبين الآخرين في كل مكان، لا مع الغرب فحسب، بل مع كل الثقافات التي تشبعت بالفكر الحدائي²⁷، بيد أن الأمر التمس الالتباس الخطير منذ أن أصبحت مشاريع الحدثة تطرح على العالم العربي والإسلامي في إطار مطالب يحددها الغير "الغرب" مدام أن أي مشروع عربي وإسلامي للتحديث لا يمكنه أن يجد أفقا خارج الطرح الغربي، والأمر الأكثر خطورة من ذلك هو أن الحدثة الغربية لم تستمر تاريخيا ولو من الناحية الإجرائية، فلا أحد في الغرب اليوم يعيش مطالب عصر الأنوار في ظل حتميات تاريخية فرضها منطق العولة والمتغيرات العلمية المعاصرة، فمن الغرب اليوم من طرح سؤال ما الحاجة لديكارت وكانط وروسو أو فولتير وهيكل في ظل فتوحات علمية وتقنية لم يشهد لها التاريخ مثيلا من قبل فهؤلاء الفلاسفة والمفكرين العظام لم يصبح الحديث عنهم في الغرب الآن، على الرغم من أهميتهم إلا من باب التاريخ للفكر والفلسفة، وهذا منذ أن بينت فلسفات ما بعد الحدثة تهافت مطالب الحدثة الغربية ونهاية مآلها الثقافي، وهذا ما يجعل أي مشروع للتحديث في الفكر العربي والإسلامي محل مساءلة تاريخية عميقة، إذ لا يمكن تجسيد مشروع حدثة في العالم العربي والإسلامي إلا من خلال أحد الطريقتين، إما في إطار ما نتلقاه من الغرب، أو في إطار ما يمكن أن نبذعه من داخل فكرنا وثقافتنا، وفي ظل هذا كيف يمكن للعالم العربي والإسلامي أن

يستأنف مشروع حادثة على منوال الحادثة الغربية، التي آلت تاريخيا إلى الأفول والبيات الثقائي؟ وكيف يمكن له أن يبدع حادثة من عنديته في ظل الأزمات التاريخية الداخلية والخارجية التي تتربص بأحلامه وطموحاته؟

ثالثا- مشروع الحادثة العربية وسؤال المآل "أزمة التحديث / أزمة البناء":

يبدو أن ما هدفت إليه الحادثة الغربية تاريخيا، هو محاولة الرفع من شأن الإنسان وإحلاله محل المطلق في القيم والمبدأ والحرية والإرادة، واعتبرت الذات الإنسانية بذلك حقيقة الحقائق، ولكن المآل الذي خلص إليه هذا الحلم هو أنه وجود نفسه أمام جملة من الرغبات المتناقضة التي تسعى جميعها إلى تحقيق وجودها، فالحرية الناجمة عن إشباع طموحات الذات الإنسانية، جعلت الإنسان نفسه يتناول على الله وعلى القيم وهذا ما وصلت إليه فلسفات ما بعد الحادثة الفلسفة النتشوية، واليهودغرية وغيرها، نتيجة الزيج عن كل مبدأ يحكمها أو عن كل قيمة تبرر بها منطقاتها، فراحت تتداعى إلى خلق فلسفات لا هم لها سوى الركون تحت نوع من التشاؤمية التي تؤرق الوعي الإنساني في نوع من التراجيديا والمأساة الضنكية المتصاعدة، التي "رمرت إليها... مسرحية فاوست في نوع من النزاع بين الخير والشر دون أمل في حل أو خلاص...واقعت الرجل الغربي بأن مصيره كمصير آلهة الإغريق وآلهة الألمان"²⁸، وهذا ما يبين أن الغرب عاش في تاريخه فترة الحادثة بجميع القيم التي كانت تحملها حتى استفحل به أمرها "نسقها، مذهبا، منهجها" فسعى بذلك إلى فتح باب ما بعد الحادثة كثورة على قيم الحادثة، إذ أن الإفراط الحداثي انتهى به إلى نوع من التفريط في الجوانب الأخرى "الحيوية والوجودية" التي عمل مفكروا ما بعد الحادثة على الاهتمام بها لتطويق حاكمية الحادثة، وإذا قاربنا كل هذا بحال الفكر العربي والإسلامي وجدنا أن القول باعتلاء هذا الفكر عتبة الحادثة كما هو مشهود لها في تاريخ الغرب يحتاج إلى إعادة نظر في هذا الادعاء، إذ هل يلزم نهضة وتجديد وتغيير العالم العربي ثقافيا وفكريا حادثة كتلك التي مرت بها الحضارة الغربية؟

لاشك أن هذه الضرورة تنتفي إذا ما نحن تأملنا حال ما نتج عن الحادثة الغربية من أنساق ومذاهب فكرية مغلقة لم ينتهي بها الأمر إلا إلى الاهتمام بالوضع "المعريف/ الاستيمولوجي" متجاهلة بذلك الوضع الأونطولوجي والاجتماعي الحضاري للإنسان، لذا فإن مشروع الحادثة العربية والإسلامية الذي يستند على حادثة الغرب كأنموذج سابق تاريخيا ينبغي المرور بنفس تجربته الحضارية، إنما هو تجاهل لحقيقة ما وصل إليه الغرب من أوضاع فكرية/ ثقافية في تاريخه سواء الحداثي منه أو ما بعد الحداثي، والتي يلخصها الباحث خالد حاجي في ما انتهى إليه حال المفكرين ما بعد الحداثيين قائلا "...أما نيتشه الذي قيل عنه أنه كان يريد أن يفكر في الشيء الذي لا سبيل إلى التفكير فيه "اللامفكر فيه" فقد قيل عنه أنه استحمق، وأما مارتن هيدغر فقد أفضى به نقد العقلانية الغربية إلى الصمت والإصغاء، وأما أزولد شبنجلر فقد انتهى إلى اقتراح الجولان الفكري خارج الحضارة الغربية، كما انتهى الشاعر الفرنسي "رمبوا" إلى القول بأن الحياة الحقيقية توجد في مكان آخر"²⁹ هذا والأمثلة كثيرة تبين لنا كيف أن الغرب ضاق ذرعا من حداثته، لا بل حتى من ما بعد حداثته مما فتح الباب أمام مصراعيه لطرح الإشكاليات التالية، إذا كان هذا هو حال الغرب هل يبقى للعالم العربي والإسلامي أمل في استلهام نهضته منه؟ وهل يبقى هناك معنى للقول بأنموذج الآخر كصورة نرى من خلالها ذواتنا ووضعنا الراهن؟ ألا تتحل هذه الصورة وتكسي مرآنا بنوع من الهالات والشعارات التي لا تروم سوى الأخذ والرد والاختلاف؟ هل يبقى هناك من معنى للقول بأن الغرب يملك مفاتيح التقدم والسيادة وسعادة الأرض، من خلال ما دعي إليه من شعارات مثل دنيوة الحياة والأخذ بمنطق المادة والآلة والتقنية؟ ألا ينتهي تاريخ الغرب بهذا إلى نوع من الحضارة الحاملة التي تركب في النهاية سفينة العدمية؟

إن هذه الإشكاليات لا تلغي علاقة الغرب بالعالم العربي والإسلامي، ولكن المسألة إنما هي مسألة فهم منطق هذه العلاقة التي راح يصول ويجول فيها المفكرين العرب والغرب على حد السواء دون نهاية، فالغرب ينظر دوماً إلى حضارته نظرة الريادة والسيادة على العالم العربي والإسلامي، وقد نسي وتناسى أن هذه الحضارة التي يقدها انتهت به إلى العدمية بجميع مظهراتها "اجتماعيا، صناعيا، ثقافيا..."، أمّا العالم العربي والإسلامي فقد بقي إلى غاية الراهن أسير فكين لم يجد مآلا في الخلف منهما، حاكمية النظرة الغربية المسيطرة من جهة وضيق أفق الإبداع والإنتاج الحضاري والثقافي العربي والإسلامي من جهة أخرى، وهكذا تبقى هذه الأوضاع موضع سجال تاريخي ينبئ بمستقبل تتخلله الكثير من الأزمات والصراعات والاختلافات والندبات، التي لا ترضى إلا بمنطق الإلحاق والتجاوز والتفكيك، مما يجعل العالم في حالة صراع يكون فيه الكل ضد الكل صراعا يعلن عن قيامة دنيوية مآلا تنتهي إليه المعرفة والعلم والثقافة والحضارة.

من هنا فإن النموذج الحضاري الغربي وصل في نهاية المطاف إلى طريق مسدود، لأنه شاخ وانتهى به مطاف الدورات إلى العجز والانهييار، ولأنه ألغى إنسانية الإنسان وحوله إلى آلة صماء وجعل منه أسيرا لرغبات مادية لا تنتهي أبداً فأصبحت حياة هذا الإنسان رحلة عذاب وشقاء لتحقيق تلك الرغبات الأنانية حتى إذا حقق البعض منها وجد أنه لم يحقق شيئاً³⁰، نظرا لبروز مظاهر الاختناق والتأزم على مشروع الحضارة الغربية في مختلف مناحي الحياة، وهذا ما عبر عنه السوسيولوجي الفرنسي ألان تورين في كتابه المعنون "الخطاب الفلسفي للحداثة قائلًا "إن الحقل الاجتماعي الثقافي الغربي منذ أواخر القرن التاسع عشر لا يمثل مرحلة جديدة في مسار الحضارة بقدر ما يمثل مرحلة نقضها وتفكيكها"³¹، ولهذا بالضبط شهد الغرب من أحداثه ذاتها الكثير من الاجتهادات التي دعت إلى الانعتاق من تاريخ الغرب طمعا في استرداد الإحساس المفقود بالوجود في تاريخ الكينونة الرحب، ولهذا كان كل من انتقد الغرب من الغربيين متشوقا إلى حياة خارج طوقه الفلسفي النسقي، وقد كان ازفد شبنجلر ضمن من صرخوا معبرين عن استيائهم من مستقبل الحضارة الغربية، حيث تنبأ بسقوط الغرب، ولعل ما يستوقف ذهن الدارس لمضمون تحليلاته ليس هو كتابه الشهير "أقول الغرب"، وإنما هو جملة واحدة منه وهي قوله "لنا حضارة وليست لنا ثقافة"، وهذه المقولة في حقيقتها اعتراف صريح يؤرخ للحظة وعي جديد في تقويم تاريخ الغرب، تقويما بعيدا عن النزعة التشاؤمية الكابوسية، وعن النزعة التفاؤلية العالمية³².

لكن إذا كان هذا هو حال الحضارة الغربية، فإن هذا يعني أن قضية التلقي العربي والإسلامي لا يمكنها أن تجدي نفعا لأن الأمر الذي يتأكد قبل كل تلقي هو أن المآل لن يكون أحسن من ما وصل إليه الغرب، وهذا يبين بأن المشاريع العربية والإسلامية التي تتبنى مبادئ الحضارة الغربية تبقى دائما مصابة بنوع من العجز عن الموائمة بين خصوصيتها الثقافية والوافد الغربي، فالشاهد التاريخي هو أن العالم العربي والإسلامي لم يستطع على الرغم من استفادته من المنجزات الحضارية الغربية، أن يحقق هذه المنجزات داخل محيطه، فهو لا يزال إلى غاية الراهن التاريخي يتلقى من دون أن يبدي مما شكل له عقدة نفسية واجتماعية حادة، فهو لم يستطع في بعض الأحيان أن يستفيد حتى من التقنية الغربية، خارج المجال الذي يحدده الغرب لها، وخارج حدود الاستعمال التي يفرضها، وكأن قدر العالم العربي والإسلامي أن يبقى سجيناً وحبيسا لكل ما يقدمه الغرب في ميدان العلم والثقافة، وفي بعض الأحيان تصبح أخطاء الغرب وتجاوزاته الحضارية والثقافية حقا للتجارب ومحلا للتكرار في العالم العربي والإسلامي، فما لحاجة اليوم للكلام عن الديمقراطية العربية والحرية والسيادة، والحداثة العربية والثقافة العربية الأصيلة، والحضارة العربية

العريقة، والعقل العربي المبدع،...مادام أنه يعاني الانتكاسة التاريخية المتكررة ويعيش زمن الآخر المنقضي "الغرب" ويتشفع بقدراته الثقافية والحضارية ولا يجد من مشاريعه الفكرية سوى التأثير الانفعالي الباهت والتتظير الفكري المجرد من دون انطلاقة حاسمة في التاريخ.

وإذا ما أردنا أن نفهم طبيعة التغير الحادث في العالم العربي والإسلامي غداة عصر النهضة الحديثة مع رواد النهضة والإصلاح أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، اللذان عملا على تذكية مبادئ الإصلاح من خلال الدين والعقل³³، فإننا نجده قد مر بثلاثة تغيرات أساسية، أولا ساد عصر النوم الذي استمر قرونا عديدة، ثانيا عصر الانتباه أو استرداد الوعي، وثالثا عصر الفوضى والذنب³⁴، فكل هذه المحددات تبين كيف أن النهضة العربية والإسلامية المأمولة ظلت تعاني على مختلف الأصعدة والميادين مما يعنى معه أن بناء نهضة ومشروع للحداثة في العالم العربي والإسلامي ليس بأقل سهولة من قضية تلقي الأنموذج الغربي ومحاولة تطبيقه على الواقع العربي والإسلامي لتغيير التاريخ في مجال آماله وطموحاته، وهذا ما يبين بأن أزمة التلقي تبعثها أزمة في البناء، فإذا كان التلقي مستحيلا من الناحية الإجرائية والعملية بحكم اختلاف آلياته وتباين الطبيعة النفسية والاجتماعية بين العالمين العربي- الإسلامي والغربي الأوربي، فإن قضية بناء نهضة عربية إسلامية من داخل المحددات الطبيعية والظروف الداخلية للإنسان والمجتمع لم يكتب لها تاريخيا أن تحقق طموحاتها، لأن الواقع الذي كانت ترزح فيه ظل ثاوبا تحت أزمت حضارية كبست كل مشروع للنهضة والحداثة، وهذا ما شهد عليه ذلك "الإخفاق والانسداد الذي ولجته البلاد العربية منذ مطلع العقد السابع من القرن العشرين بعد أن تعرض مشروع النهضة والتقدم فيها إلى انتكاسة فادحة"³⁵، فكلما ظهر في العالم الثقافي مشروع للأفكار الحداثية النهضة إلا وأصيب بنوع من البيات والأفول وتردى إلى خلافات اجتماعية وسياسية مريعة، وهذا الأمر بدأ منذ أن فقد العالم العربي والإسلامي حضارته في عهد ما بعد الموحدين وإلى غاية الراهن التاريخي وهو يتذلل المرتبة الأخيرة في سلم الرقي والتطور الحضاري، فلم يسعفه التلقي الغربي الخارجي ولا مشروع البناء الحداثي العربي والإسلامي.

فلقد فرض الوضع التاريخي على الذات العربية في القرن العشرين الدخول في أزمة حقيقة طالت الضمير والمعرفة والعلم وهذا بفعل الوضع الذي أصبحت تعاني منه الذات العربية في وسط تلك الغرابة المطلقة التي فرضها منطق العولمة على مسرح التطورات العالمية، حيث تلاشت الحدود الوسطى ولم يعرف حقيقة فوائدها ومضارها نظرا للاختلافات الكامنة بين وضع حضاري وآخر، فهي قد تكون نقمة على البعض ونعمة على البعض الآخر، ولهذا فإن كل الخطر "أن يكون للعولمة وللكوكبة خطر أكبر على مستقبلنا، ذلك أننا لا ندخل القرن القادم بمحض إرادتنا بل نكبكب في جحيم عالم لا نعرف عنه شيئا"³⁶، ولعل هذا ما زاد في استمرار "حالة التأجيل التي مازالت توجد عليها اليوم أسئلة الماضي وإخفاق الحاضر، حاضر العرب، في إنجاز مطالب النهضة والتقدم والحداثة وسواها،...فأنتج كل الأسباب لتجديد سلطة التراث بوصفها سلطة ماضٍ لم ينته في حاضر لم يبدأ"³⁷، فتشكلت بذلك أزمة حضارية حادة ظل يعاني منها العالم العربي والإسلامي على طول تاريخه فهو لا يعيش الماضي التليد إلا على مستوى الأمان والشعور، لأنه يعلم بأن استرداده لأعجاز حضارته لا يمكن أن يتحقق بنفس الكيفية التي كان عليها في الماضي، كما أنه يعيش واقعا نفسا واجتماعيا قاهرا لم يجد سبيلا في الخلاص منه، وبالتالي أصبحت طموحات المستقبل تسير بوحى من أزمت الماضي والحاضر معا. ولهذا لا تكاد الحداثة العربية تقلت من الديناميات المذكورة، فهي أولا حادثة برانية وليست جوانية، لأنها لم تنشأ وترعرع في هذه التربة العربية، بل ترافقت مع الاستعمار ومع دخول الأجنبي، ومن ثم غربتها وغرابتها وخارجيتها، وهي

ثانيا حدثت عنيقة في طريقة حلولها بربوعنا وعنيقة من حيث فعلها التفكيكي في كياننا الجوهري، إنها عنيقة في منشأها وعنيقة في فعلها الحاضر وهي ثلاثة، حدثت يختلط فيها التحرر بالسيطرة، فهي تحرر من ثقل التراث والتقليد ومن صور العالم القديمة، إنها تحرر الفرد من ربة التقليد وثقل الماضي، لكنها تنزع عنه أغلال الماضي لتكبله في أصفاد الحاضر³⁸، فالحدثت بالرغم من أنها تحقيق للحرية والسيادة والإنسانية، إلا أنها بالقدر نفسه تفكيك للهويات وتذويب للخصوصيات وتفتيت للماهيات أمام ردود الفعل الراضة، فهي غالبا ما تتوقف عند حد الدفاع الثقافي، وذلك لأن اكتساحات الحدثت تطال الحياة اليومية والتقنيات المنزلية والعلاقات الوجدانية الحميمة من ما جعل أمر اقتلاعها وطردها مسألة عسيرة المنال، وهكذا يتجه رد الفعل الراض في النهاية إلى القبول الجزئي للحدثت، عبر استعمال تقنياتها ومنتجاتها الاقتصادية وعلاقتها الإستعمالية مع رفض بنيتها الفوقية الثقافية والميتافيزيقية³⁹، لأن المتصفح لتاريخ الغرب وتحولاته الفكرية والمعرفية التي صنعت حاضره وجعلته يحلم بنهاية التاريخ، يدرك أن قيام حدثته كانت على أنقاض قطيعة مع الدين والجوانب الروحية، قطيعة تجلت من خلال انتقال التسمية من "العالم المسيحي" إلى الحضارة الغربية والعالم العربي والإسلامي وجد نفسه منخرطا على الرغم منه في الحدثت الحضارية للغرب، وان كان في بعض الأحيان يرفض معتقداته وأفكاره ومنطق ثقافته، لأن الغرب أزاح كل ما يشبط مرتكزات القيم الحداثية وألغى حتى سلطة الدين في مقابل كرامة الإنسان وسعادته التقنية العلمية المعيشة، فكان أن آل الأمر إلى انتصار الحضارة عن الثقافة وربما استقلالها عنها، وهذا هو الأمر الخطير الذي يوشك أن يحل بربوع العالم العربي والإسلامي، لأنه لا يملك الحصانة الكافية لدرئ سموم الحدثت الغربية التي تلقي بسلبياتها يوما بعد يوم على مستقبل العالم العربي والإسلامي، وهذا بسبب أن الفكرة الدينية التي يدين بها لم تتمكن من نفس الإنسان العربي والمسلم التمكن الكافي، ولم تستطع أن تتجذر التجذر الكافي في أفعاله وسلوكاته، وهذا من شأنه أن يجعل السموم الغربية سهلة التمكن من الحالة النفسية للفرد والوضع العام للمجتمع، لاسيما وأن حدة الأزمة تطرح مفارقة كبيرة على الجانبين، فالعالم العربي يعيش الأزميتين معا، أزمة افتقاده لمحددات نهضته ولمعالم فكرته الدينية في الواقع النفسي والاجتماعي الذي يعيشه، وأزمة تأتية من العالم الغربي، الذي يطرح نفسه خارجيا كقوة اجتماعية وسياسية واقتصادية عالية تلغي خارج حدودها كل من لا ينصت إليها.

لكن العالم العربي والإسلامي يبقى في فترة ضنكه الحضاري ينتظر الحلول من أجل الوقوف من جديد على سكة الحضارة، ولكن هذا الأمر لابد أن يتجسد خارج المشاريع التنظيرية الفكرية الحداثية، التي أثبت التاريخ عجزها المتتالي عن استيعاب واقع الأزمة والقدرة على تغيير الوضع، فالراهن العربي والإسلامي لا يحتاج فقط إلى الوعي بما ينتظره من مهام تغييرية، بل هو مطالب بممارسة التغيير، أي تحقيقه وتجسيده وإنجازه واقعا ولكن من أين يبدأ التغيير؟ وما هي آلياته؟ وكيف يمكن تحقيق انسجامه مع الأحداث العالمية التي يعيشها العالم اليوم؟

رابعا- تخوم مشروع الحدثت العربية "الراهن العربي ومآل التغيير":

لقد تبين في ما سبق بأن الوقوف في صورة المتأمل العاجز لا يمكنها أن تقدم لحال الواقع العربي والإسلامي شيئا جديدا، فقد تبين يوما بعد يوم أن "إشكالية النهضة والحدثت وما بعد الحدثت والعولمة إشكاليات مغلوبة وغير منتجة حيث لا تخرج عن أن تتمحور حول سؤال واحد، كيف نلتحق بالغرب؟ وكيف نثور على الغرب حتى نحقق الندية معه ونقف مثله أو قبله في صدارة التاريخ⁴⁰، ولعل هذا ما عجل بوقوف الكثير من المفكرين العرب المعاصرين على عوائق

النهضة والتغيير الحضاري في العالم العربي والإسلامي ومن مثال ذلك ما قام به المفكر "جورج طرابيشي" في كتابه "نقد العقل العربي" من خلال استخدامه لآليات التحليل النفسي لمقاربة بعض أهم المنجزات الفكرية التي أفرزتها الثقافة العربية والإسلامية منذ أواخر القرن التاسع عشر، حيث رأى بأنها مجرد سعي ميؤوس للأمر جرح النرجسية الذي ما فتئ يعاني منه كيان الأمة منذ صدمة اللقاء مع الغرب⁴¹، ذلك أنه ما فتئ الباحثون الاجتماعيون والأنثربولوجيون والمفكرون في قضايا المجتمعات العربية يلاحظون أنه لئن تأثت فضاء العالم العربي بمختلف الآلات التقنية-الحديثة والأحداث الجديدة، فإنَّ الذهنية الحداثية لازلت لم تتمكن بعد من نفوس سكان هذه البلاد⁴²، ولذلك تجد الثقافة التقليدية نفسها منخرطة من جهة في عملية تمازج وتفاعل تكيفي مع الثقافة الحديثة، ولكنها في الوقت نفسه تشكل نواة للمقاومة الثقافية ضد مظاهر الحداثة⁴³، مما شكل هاجسا دائما في الأوساط الثقافية والاجتماعية للعالم العربي والإسلامي الذي لم يستطع أن يجد الصياغة التاريخية الكافية في الصلح مع الذات والتراث ولا الآليات التي تمدد بجسر الحوار مع الحاضر والغير، فبقى إلى غاية الراهن التاريخي يتوق إلى استعادة عصر الإسلام الأول وفي الآن ذاته العيش في إطار المتطلبات التقنية والعلمية العالمية المعاصرة.

ولكن لو تتبعنا آراء المفكر الجزائري الأصول محمد أركون بقليل من التمعن، نجده ينتقد بشراة سياسيات الدول العربية والإسلامية التي تقبل بالحداثة المادية وترفض الحداثة الفكرية، على غرار سياسة التصنيع الثقيل في الجزائر بعد الاستقلال، أو ما يحصل في دول الخليج العربي التي تتمتع بأحدث أنواع الأجهزة وشتى مظاهر الحياة المادية الرغيدة دون أن يرافق ذلك أي تغيير جذري في موقف المسلم من الكون والعالم، وذلك ما أسماه أحد الباحثين بـ"الحلم الإسلامي بالحداثة النصفية"⁴⁴، فتمط الحداثة الذي تبنيه الدول العربية والإسلامية في حقيقته هو حداثة معطوبة أو معاقة تمزج بين مؤسسات ومظاهر ونتاجات الحداثة والعقلانية مع قيم وعلاقات قديمة، مما يعطى نوعا من الحداثة الملفقة المواكبة للعصر من ناحية الشكل والتقليدية من ناحية المضمون، ولذا يتساءل المفكر الجزائري المعاصر محمد أركون عن كيفية بروز وعي فلسفي متبصر في العالم العربي الإسلامي وهو محاط بسياسات دوغمائية مغلقة حول الدين والخطاب الديني أو حول من ينظر للدين على خلفية سلطوية سياسية أو نخبوية اجتماعية إيديولوجية معينة، وفي هذا يقول "ضمن هذه الشروط والظروف، كيف يمكن لنا أن ندخل الموقف الفلسفي إلى الساحة الثقافية العربية بعد أن خلت منه زمنا طويلا...وكيف نفعل إذا كانت الاتصالات المباشرة بين عموم الشعب والفئات الأكثر تطورا في المجتمع والأكثر انفتاحا على الحداثة مقطوعة أو مهمشة"⁴⁵.

وأمام حدة هذا الوضع المأساوي الذي آل إليه العالم العربي والإسلامي في هذا العصر، سيسهر الإنسان المسلم بعدم جدواه، بحكم أنه يعرف بأن التاريخ يصنع بدونه، فهو بوصفه عنصرا من عالم غير مخطط، يري نفسه مجتازا من طرف التطور السريع لبقية البشرية⁴⁶، وبالتالي لا يصبح يمتلك التغيير إلا على مستوى الفكرة/ المبدأ، أما في الجانب التطبيقي فإنه يجد نفسه متجاوز دائما بصيغ التغيير والتبدل التي أصبحت تفرض عليه من الخارج وتحتم عليه الاندماج في عالم ليس هو إياه، لأن نمطية التغيير الذي لا تؤخذ بوارده من إرادة واعية ذات مقاصد هادفة سرعان ما يتلاشى ويركن إلى السكون والبيات التاريخي، الذي حصل للفرد والمجتمع العربي والإسلامي منذ عصر ما بعد الموحدين إلى غاية اليوم، أي منذ أن فقد حضارته، فلم تسعفه بذلك الحلول الحداثية الغربية الجاهزة التي يستردها من الغرب، ولا تلك المشاريع الحداثية التي يعتقد في نفسه أنه يستطيع بناءها بما تبقى له من عالم أشياء وأشخاصه، بل فقط حينما يدرك الإنسان العربي والمسلم أن هذا العصر هو عصر التغيرات الكبرى وعصر الانطلاق التاريخي بغير عودة، ويبدوا أن المعترك

التاريخي الذي يرتكن فيه هو "عدم رضاه بالواقع النفسي والاجتماعي الذي يعيشه"، والمفارقة التي تواجهه في هذا الصدد هو أنه يدرك بأنه ينتمي إلى حضارة عريقة ذات مبادئ روحانية وقيم خاصة، ولكنه من جهة أخرى يعلم أن التغيرات التي يؤول إليها حاضره التاريخي تكاد تنفصل عن هذه المبادئ وتلك القيم⁴⁷، ومما يزيد طبيعة المفارقة حدة هو أن هذه المفارقة لم تصبح تطرح نفسها على المستوى النفسي والاجتماعي، بل إنها طالت المجال السياسي والاقتصادي وأصبح الإنسان المسلم والفكرة الإسلامية "المبدأ" على طرفي نقيض.

من هنا أضحى الإسلام يمارس - كما يرى محمد أركون- في آن معا نوعا من الجاذبية والنفور على الباحثين الغربيين، فهم من جهة يرغبون في سماع ما يقوله المسلمون عن أنفسهم وعن دينهم ومجتمعاتهم، ولكنهم يرفضون اتخاذ المثال الإسلامي كقاعدة انطلاق من أجل دراسة الظاهرة الدينية أو التفكير بها⁴⁸، ولعل موقف محمد أركون هذا، يشي بأن سبب بعد الغرب عن الإسلام وعدم إيجاد صيغة حضارية للحوار معه هو بسبب أن المسلمين أنفسهم بعيدين عن تعاليم الإسلام، فالغرب يعرف قيم الدين الإسلامي ومبادئه التي شكل الماضي التاريخي الحضاري أفقا لنهضة الإنسان والمجتمع الإسلامي الأول، ولكنه يدرك من جهة أخرى تدهور وانحطاط الإنسان المسلم الذي انفصل عن أصله الثقافي وغدا مغتربا في نوع من الضنكية الحضارية المتصاعدة، وبذلك أضحت كل دراسة غربية للدين ولتاريخ الأديان تسقط الدين الإسلامي من حساباتها، ليس على مستوى الدراسة والبحث والفهم، بل على مستوى التأثير به أو اعتباره قدوة أو مثالا مقتدى، وهذا الأمر أشد خطورة وتنكيلا بقيم الإسلام وتعاليمه، إذ لو كان الإسلام حيا في قلوب وضمائر وأفعال وسلوكات المسلم لما استطاع الغرب أن يتجاوزها بحثا في تفكيكه وتقويض بنائه، فلما لم تكن فكرة الإسلام حية عند المسلمين فكيف نطلب لها الاستبراء والتأثير في الآخرين ونحن نزداد يوما بعد يوم بعدا عنها وعن مقاصدها الحقيقية، إنَّ هناك بالأحر تغيرا سلبيا معاكسا تماما لمقاصد الفكرة الدينية الإسلامية، ذلك الذي أضحى العالم العربي الإسلامي يؤول إليه مالا غير محمود ولا هو مفكر فيه كأمل للتحديث والنهضة الحضارية، والواقع الاجتماعي والنفسي الذي أضحى يتخبط فيه العالم العربي والمسلم في هذا العصر خير شاهد عن التردّي المريع الذي انحلت إليه الفكرة الإسلامية في الوعي الفردي والوجود الاجتماعي⁴⁹، فلم تسعفه بذلك مغريات مبادئ الحداثة الغربية ولا مشاريع التحديث العربية لأنَّ الحالة التي آل إليها المجتمع العربي والإسلامي ومنذ عصر ما بعد الموحدين هي انعدام فعالية الثقافة وفقدان إرادة التغيير، وربما هجران المبادئ والقيم، ويظهر هذا الأمر جليا في "ضعف الارتباط بالفكرة أو المبدأ وتنامي الارتباط بالأشخاص والهيئات أو ما يسميه بعضهم بالإمعية،...إنَّ لارتباط المسلمين- وخاصة الشباب منهم-

بالأشخاص والهيئات، أكبر وأقوى من ارتباطهم بالإسلام نفسه، بالرغم من حرص الجميع، من الناحية النظرية، على ضرورة جعل الإسلام هو الميزان في الحب والبغض والمولاة"⁵⁰، لأنَّ الارتباط بالأشخاص أو الأفكار يحدث تغيرا باهتا فاقتا لكل فعالية سلوكية مبدعة وناجزة، بينما إذا ارتبط التغيير بالفكرة أو المبدأ فإنَّ الفعالية تكون حضارة، لأنَّ الذي يتغير وفق تغير الأشياء والأشخاص يكون مثل المقلد فقط، بل انه يتحول إلى آلة نمطية لا تعرف إلا أن تطبق فقط، بينما يكون الارتباط بالفكرة أمرا حيا دائما في إرادة صاحبه، فالفكرة تسكن العقل والضمير وتتحوّل إلى إرادة، بينما الشيء أو الشخص فإنه لا يملك هذا المفعول، بحكم أنَّ التغير الحقيقي لا يأتي بدفعة من الآخرين أو عالم الأشياء، وإنما هو من الفكر ذاته، ولعل عدم التبصر لهذه اللازمة راجع إلى حدة ذلك اللتباس الذي أضحى العالم العربي والإسلامي يتخبط فيه، منذ أن وجد نفسه غائما في متاهات العقل الحائر بين مبادئه التي يدين لها تاريخه ومعتقداته وبين تحديات التغيير التي تفرض عليه من كل حذب وصوب، فنحن كأمة عربية وإسلامية ورثنا مجموعة من المبادئ

والقيم العليا التي نحس في أعماقنا أنها قيم ثابتة ومتحررة من قيود الزمان والمكان ونحكم عليها أنها قيم تصلح للإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن خصائصه الجزئية وتغيراته الحياتية التي يمر بها، ولكن هذا يفرض بدءاً أن تجد هذه القيم والمبادئ انعكاساً لها في واقع السلوك والعمل⁵¹، ولهذا يجب على العالم العربي والإسلامي أن يواجه مشكلاته الحضارة، بالوعي بقيمة وأهمية المبادئ والقيم التي تؤسس لمقومات النهوض الحضاري من جديد، ولكن هذا لا يعني بأن ننظر إليها على أنها مجرد أفكار وتصورات مثالية ومتعالية لا علاقة لها بالواقع - تتأدى بالمشاريح الحداثية قبل أن تقدم الفعل الحضاري والسلوك العملي المناسب لها-، وبكلمة واحدة يجب أن نذيب مثالية المبادئ والمشاريع مهما كان نوعها سواء التحديث أو النهضة أو التغييرية، ونجعلها منصهرة تماماً في واقع معين يضمن للإنسان القدرة على عكس عالم تصورات ومبادئه في واقع سلوكياته وأعماله، والنقد هنا لا بد أن لا يقتصر على التراث والعقل فقط، بل يجب أن يبطال الفعل والممارسة، أي العمل والممارسة "المجتمع والسياسة والاقتصاد"، نقد حتى دوغمائية التصورات الحداثية ذاتها التي تتمط معايير القيم والمبادئ في أفق واحد بعينه، وبهذا يمكن أن نضمن للفكر العربي والإسلامي المعاصر مسافة يمكن من خلالها أن يتجاوز تلك الأحكام التصنيفية المتسرعة التي تدين الفكر بمطلقية اليقين وتعلن عن النتائج مسبقاً قبل أن ترتدي لبوس الإمكان الفلسفي العميق الذي يدقق المسألة قبل أن يقدم أبسط يقين.

هوامش المقال:

¹ - تجدر الإشارة بدءاً أن ننبه إلى قضية المشكلة الاصطلاحية والمفهوماتية لما يسمى بـ "الحداثة" دون الدخول في متاهات المشكلة الاصطلاحية اللغوية وما تثيره من اختلافات ومفارقات، نقول في اللغة العربية "الحداثة" وهي مصدر من الفعل "حدث" تعني نقيض "القديم" فـ "الحداثة" هي أول العمر وابتدأه، فلا علاقة لها بالقديم الموروث، وكما بينه "ابن منظور" في "لسان العرب" فإن لفظ "حدث" "حديث"، وهو نقيض القديم، فهو المحدث والحديث، وحدث الشيء، يحدث حدوثاً وحداثة، وكلمة حداثة في اللغة العربية مشتقة من الجذر "ح- د- ث" وحدث الشيء يحدث، حدوثاً، وحداثة، فهو محدث، وحديث وحدث الأمر أي وقع وحصل وأحدث الشيء أي أوجده، والمحدث هو الجديد من الأشياء وعليه فالحداثة في اللغة العربية ترادف الجدة والتجديد، لكن هذا لا يعني أنه لا علاقة للحداثة بالماضي، لأنه كما يرى "فرانك كيرمود" أن تاريخ كلمة حديث modern يعني في مضمونه وجود علاقة تربط بينها وبين الماضي، أما في اللغة الفرنسية فإن الصفة "حديث" Moderne أقدم تاريخياً من اللفظ حداثة Modernité وكلمة حديث تقابلها في اللاتينية Modernus التي ظهرت في أواخر القرن الخامس بعد الميلاد وتأتي من "كلمة Modo التي تعني الآن أو مؤخراً أو حالا، أنظر في هذا الصدد كل من/

- فرح مسرحي، "الحداثة في فكر محمد أركون"، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2006، ص20.

- بيتر بروكو، "الحداثة وما بعد الحداثة"، ترجمة عبد الوهاب علوب، مراجعة جابر عصفور، ط1، منشورات المجمع الثقافي، 1995، ص9.

- Larousse: "grand dictionnaire philosophie"; sous la direction de Michel Blay, snrs édition 2005, pour la présente édition, vuef – édition, 2003, pour l'édition original, p678.

² - أندريه لالاند، "الموسوعة الفلسفية"، المجلد الثاني، تعريب خليل أحمد، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط2، 2000، ص822.

³ - جون ليشته، "خمسون مفكراً أساسياً معاصراً، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة"، ترجمة، فاتن البستاني، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط1، 2008، ص519.

⁴ - راييموند ويليامز، "طرائق الحداثة"، ترجمة، فاروق عبد القادر، منشورات عالم المعرفة، د- ط، 1999، ص48.

⁵ - Larousse: "grand dictionnaire philosophie "; p678.

- ⁶ - محمد الشيخ، ياسر الطائري، "مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة"، دار طليعة بيروت، لبنان، 1996، ص12.
- ⁷ - فرح مسرحي، "الحداثة في فكر محمد أركون"، مرجع سابق، ص19.
- ⁸ - لكحل فيصل، "التوجه الحضاري في فكر مالك بن نبي، قراءة تحليلية نقدية"، مقال ضمن مجلة التربية الإستيمولوجيا، مجلة محكمة تصدر عن مخبر التربية الإستيمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة، الجزائر، العدد الثالث، 2012، ص111.
- ⁹ - عمر كامل مسقاوي، "المصطلحات الرئيسية في فكر مالك بن نبي"، مجلة مطارحات، السنة الرابعة، العدد 20، 2003، ص96.
- ¹⁰ - المرجع نفسه، ص95.
- ¹¹ - لكحل فيصل، "الأبعاد الفلسفية للفكر النهضوي في الجزائر"، ضمن مجلة الحكمة، مجلة دورية محكمة تعنى بالبحوث العلمية الجادة والدراسات الفلسفية العميقة، تصدر عن دار كنوز الحكمة، العدد التاسع، السنة الثالثة، الأبيار، الجزائر، 2011، ص269.
- ¹² - حسن بشاني، "خطاب الحداثة في الفكر العربي المعاصر وإشكالية الخصوصية والعالمية، دراسة تحليلية مقارنة"، أطروحة دكتوراه في الفلسفة، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الرحمان بوقاف، 2006/2005، غير منشورة موجودة بقسم الفلسفة، الجزائر، ص27.
- ¹³ - رفاع الطهطاوي، "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، موفم للنشر الجزائر، ط1، 1991، ص91.
- ¹⁴ - لكحل فيصل، "التوجه الحضاري في فكر مالك بن نبي، قراءة تحليلية نقدية"، مرجع سابق، ص107.
- ¹⁵ - محمد عابد الجابري، "التراث والحداثة، دراسات ومناقشات"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991، ص15.
- ¹⁶ - حسن بشاني، "خطاب الحداثة في الفكر العربي المعاصر وإشكالية الخصوصية والعالمية، دراسة تحليلية مقارنة"، مرجع سابق، ص152.
- ¹⁷ - إبراهيم أعراب، "الإسلام السياسي والحداثة"، إفريقيا الشرق بيروت لبنان، (د - ط)، 2000، ص93.
- ¹⁸ - حسن بشاني، ص212.
- ¹⁹ - إسماعيل راجي الفاروقي، "نحن والغرب"، دار الزيتونة، باتنة، الجزائر، (د - ط)، 1989، ص34.
- ²⁰ - محمد عابد الجابري، "إشكاليات الفكر العربي المعاصر"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، بيروت، 2005، ص18.
- ²¹ - محمد سبيلا، "الحداثة وما بعد الحداثة"، مرجع سابق، ص91.
- ²² - محمد سبيلا، "الحداثة وما بعد الحداثة"، مرجع سابق، ص21.
- ²³ - المرجع نفسه، ص217.
- ²⁴ - مالك بن نبي، "مجالس دمشق"، دار الفكر، دمشق - سوريا، ط2، 2006، ص131.
- ²⁵ - محمد سبيلا، "الحداثة وما بعد الحداثة"، مرجع سابق، ص97.
- ²⁶ - محمد عابد الجابري، "التراث والحداثة، دراسات ومناقشات"، مرجع سابق، ص18.
- ²⁷ - كمال عبد اللطيف، "أسئلة النهضة العربية، التاريخ، الحداثة، التواصل"، مرجع سابق، ص180.

- 28- إسماعيل راجي الفاروقي، "نحن والغرب"، مرجع سابق، ص10.
 - 29- خالد حاجي، "من مضاييق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي العربي"، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص129.
 - 30- صالح الحاجة، "أي حضارة نريد"، تقديم: حمادي صمود، سرار للنشر، تونس، (د- ط)، 1985، ص65.
 - 31- رفيق عبد السلام بوشلاكة، "مآزق الحداثة، الخطاب الفلسفي لما بعد الحداثة"، مجلة أسلمه المعرفة مجلة فصلية علمية محكمة تصدر عن المعهد العالي للفكر الإسلامي، العدد الثامن، 2003، ص101.
 - 32- خالد حاجي، "من مضاييق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي العربي"، المرجع نفسه، ص77.
 - 33- محمد عبده، "رسالة التوحيد"، موفم للنشر الجزائر، ط1، 1989، ص124.
 - 34- مالك بن نبي، "فكرة كومينويلث إسلامي"، دار الفكر المعاصر ببيروت لبنان، دار الفكر دمشق سوريا، ط9، 2009، ص26.
 - 35- عبد الإله بلقزيز، "أسئلة الفكر العربي المعاصر، كتاب المعرفة للجميع"، ط1- مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، 2001، ص86.
 - 36- خالد حاجي، "من مضاييق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي العربي"، المرجع نفسه، ص109.
 - 37- عبد الإله بلقزيز، المرجع نفسه، ص89.
 - 38- محمد سبيلا، "الحداثة وما بعد الحداثة"، مرجع سابق، ص92.
 - 39- المرجع نفسه، ص92.
 - 40- خالد حاجي، "من مضاييق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي العربي"، المرجع نفسه، ص37.
 - 41- المرجع نفسه، ص17.
 - 42- محمد الشيخ، "ما معنى أن يكون المرء حداثيا"، سلسلة منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2006، ص8.
 - 43- محمد سبيلا، "الحداثة وما بعد الحداثة"، مرجع سابق، ص100.
 - 44- فرح مسرحي، "الحداثة في فكر محمد أركون"، مرجع سابق، ص48.
 - 45- محمد أركون، "الفكر الإسلامي نقد واجتهاد"، ترجمة وتعليق هاشم صالح، لافوميك المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993، ص20.
 - 46- مالك بن نبي، "فكرة كومينويلث إسلامي"، مرجع سابق، ص41.
 - 47- لكحل فيصل، "التوجه الحضاري في فكر مالك بن نبي، قراءة تحليلية نقدية"، مرجع سابق، ص113.
 - 48- محمد أركون، "الفكر الإسلامي نقد واجتهاد"، مرجع سابق، ص189.
 - 49- لكحل فيصل، المرجع نفسه، ص114.
 - 50- الطيب برغوث، "الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية"، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2004، ص134.
 - 51- لكحل فيصل، "التوجه الحضاري في فكر مالك بن نبي، قراءة تحليلية نقدية"، مرجع سابق، ص117.
- قائمة المصادر والمراجع:**
- 1- مالك بن نبي، "مجالس دمشق"، دار الفكر دمشق سوريا، ط2، 2006.
 - 2- محمد عبده، "رسالة التوحيد"، موفم للنشر الجزائر، ط1، 1989.
 - 3- زكي نجيب محمود، "في حياتنا العقلية"، دار الشروق، ط2، 1981.

- 4- شبلي الشميل، "آراء شبلي الشميل"، مطبعة المعارف، القاهرة، د- ط، 1908.
- 5- رفاعه الملهطاوي، "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، موفم للنشر الجزائر، ط1، 1991.
- 6- محمد عابد الجابري، "التراث والحداثة، دراسات ومناقشات"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991.
- 7- محمد أركون، "الفكر الإسلامي نقد واجتهاد"، ترجمة وتعليق هاشم صالح، لافوميك المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993.
- 8- مالك بن نبي، "فكرة كومينولث إسلامي"، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، دار الفكر دمشق سوريا، ط9، 2009.
- 9- محمد عابد الجابري، "إشكاليات الفكر العربي المعاصر"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، بيروت، 2005.
- 10- راييموند ويليامز، "طرائق الحداثة"، ترجمة، فاروق عبد القادر، منشورات عالم المعرفة، د- ط، 1999.
- 11- خالد حاجي، "من مضاييق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي العربي"، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005.
- 12- إبراهيم أعراب، "الإسلام السياسي والحداثة"، إفريقيا الشرق بيروت لبنان، (د- ط)، 2000.
- 13- محمد الشيخ، "ما معنى أن يكون المرء حداثياً"، سلسلة منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2006.
- 14- كمال عبد اللطيف، "أسئلة النهضة العربية، التاريخ الحداثة التواصل"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2003.
- 15- محمد الشيخ، ياسر الطائري، "مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة، دار طليعة بيروت، لبنان، 1996.
- 16- عبد الإله بلقزيز، "أسئلة الفكر العربي المعاصر، كتاب المعرفة للجميع"، ط1- مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب 2001.
- 17- فرح مسرحي، "الحداثة في فكر محمد أركون"، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، 2006.
- 18- جون ليشته، "خمسون مفكراً أساسياً معاصراً، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة"، ترجمة، فاتن البستاني، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط1، 2008.
- 19- نواف القديمي، "الإسلاميون سجال الهوية والنهضة"، مقاربات في الفكر والممارسة"، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان ط1، 2008.
- 20- رضوان جودة زيادة، "سؤال التجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر"، دار المدار الإسلامي، ط1، بن غازي ليبيا، 2005.
- 21- أحمد الشريف وآخرون، "جدل النهضة والتغيير، حوارات في الفكر العربي المعاصر"، وزارة الثقافة، ط1، 2002.
- 22- عمر كامل مسقاوي، "المصطلحات الرئيسية في فكر مالك بن نبي"، مجلة مطارحات، السنة الرابعة، العدد 20، 2003.
- 23- الطيب برغوث، "الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية"، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2004.
- 24- صالح الحاجة "أي حضارة نريد"، تقديم: حمادي صمود، سرار للنشر، تونس، (د- ط)، 1985.
- 25- الطيب برغوث، "حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية"، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2004.
- 26- الطيب برغوث، "الفعالية الحضارية والثقافة السننية"، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2004.
- 27- إسماعيل راجي الفاروقي، "نحن والغرب"، دار الزيتونة، باتنة، الجزائر، (د- ط)، 1989.
- **المجلات العلمية المحكمة:**
- 1- رفيق عبد السلام بوشلاكة، "مآزق الحداثة، الخطاب الفلسفي لما بعد الحداثة"، مجلة أسلمه المعرفة مجلة فصلية علمية محكمة تصدر عن المعهد العالي للفكر الإسلامي، العدد الثامن، 2003.

2- علي زيغور، "صراع قيم السياسة والحقيقة في الفكر العربي المعاصر"، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي 1992.

3- لكحل فيصل، "الأبعاد الفلسفية للفكر النهضوي في الجزائر"، ضمن مجلة الحكمة، مجلة دورية محكمة تعنى بالبحوث العلمية الجادة والدراسات الفلسفية العميقة"، تصدر عن دار كنوز الحكمة، العدد التاسع، السنة الثالثة، الأبيار، الجزائر، 2011.

4- لكحل فيصل، "التوجه الحضاري في فكر مالك بن نبي، قراءة تحليلية نقدية"، مقال ضمن مجلة التربية الإستيمولوجيا، مجلة محكمة تصدر عن مخبر التربية الإستيمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة، الجزائر، العدد الثالث، 2012.

- الموسوعات والمعاجم:

1 - أندريه لالاند، "الموسوعة الفلسفية"، المجلد الثاني، تعريب خليل أحمد، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط2، 2001.

2 - مراد وهبة، "المعجم الفلسفي- معجم المصطلحات الفلسفية"، دار قباء الحديثة القاهرة، د- ط، 2007.

3- Larousse: "grand dictionnaire philosophie"; sous la direction de Michel Blay, snrs édition 2005, pour la présente édition, vuef – édition, 2003, pour l'édition original.

- الأطروحات والرسائل الجامعية:

1- حسن بشاني، "خطاب الحداثة في الفكر العربي المعاصر وإشكالية الخصوصية والعالمية، دراسة تحليلية مقارنة"، أطروحة دكتوراه في الفلسفة، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الرحمان بوقاف، 2006/2005، غير منشورة موجودة بقسم الفلسفة، الجزائر.

مفهوم التسامح في الإسلام

أ/ بن سليمان عمر، جامعة تيارت

التسامح الدلالة والمعنى : يرى الكثير من المفكرين واللغويين أن اللغة العربية لم تتوصل بعد إلى الاهتداء لمفهوم واضح ، لكلمة تسامح بالمعنى المعاصر لها إذ جاء في لسان العرب لابن المنطور للدلالة على المفهوم ما يلي : سمح ، السماح ، السماحة والسميح وتعني لغة الجود والكرم وأسمح إذ جاد وأعطى بكرم وسخاء وأسمح وتسامح وافقني على المطلوب والسماحة هي المساهلة.¹

وجاء في مختار الصحاح : سمح ، السماح والسماحة الجود (سمح) به يسمح بالفتح فيهما سماحا سماحة أي جاد وسمح له أي أعطاه وتسمح من باب ظرف صار سمحا بسكون الميم ، وقوم سمحاء بوزن فقهاء ، وامرأة سميحة ونسوة سماح ، والمساهمة المساهلة وتسامحوا تساهلوا².

يقال في اللغة العربية : أسمحت الدابة أي لانت وانقادت ويقال : أسمحت وسامحت إذ ذلت نفسه وتابعت تقول العرب: عليك بالحق فإن فيه لمسحا أي فيه متسعا .³

ويقال عن السيف أنه مسمح أي تم تثقيفه أي تهذيبه حتى لان والسميح هو السهل.⁴ وعندما يتناول المعجم الفلسفي لجميل صليبا تعريف مصطلح التسامح، يركز بداية على المعنى في اللغة العربية حيث يشير إلى التساهل ويستدل ترك ما يجب تنزهها.

لكن فولتير وغيره من فلاسفة القرن الثامن عشر يعرفون التسامح بأنه ما يتصف به الإنسان من صفات، التي تمكنه من معاناة الناس رغم اختلاف وجهات نظرهم أو آرائهم.⁵

وللتسامح كما جاء في المعجم نفسه معاني متعددة ، حيث يشير المعنى الأول إلى فكرة التحمل أو الاحتمال أي احتمال المرء بلا اعتراض كل اعتداء على حقوقه بالرغم من قدرته على صدها أو دفعها.

أو هو تفاضي السلطة بموجب العرف والعادة عن مخالفة القوانين المتعارف عليها أو المتعهد فيها أما المعنى الثاني فهو أن تترك لكل إنسان حرية التعبير عن آرائه وإن كانت هذه الآراء متعارضة مع آرائك⁶. ولم تتوقف معاني صليبا في توضيح مصطلح التسامح عند المعاني المذكورة بل تعدتها إلى معاني أخرى كان يحترم المرء آراء غيره لاعتقاده أنها محاولة للتعبير عن جانب من الحقيقة ، وهذا يعني أن الحقيقة اغني من ان تنحل إلى عنصر واحد. والوصول إلى معرفة كل عناصرها يوجب الاعتراف لكل إنسان بحقه في إبداء رأيه حتى يؤدي الاطلاع على كل الآراء إلى معرفة الحقيقة الكلية⁷. فالتسامح بهذا المعنى واجب أخلاقي مبني على احترام الشخصية الإنسانية.

ودائما في تعريف التسامح يذهب أديب إسحاق في تعريفه بأنه رضا المرء برأيه واعتقاده الصحة فيه واحترامه لرأي الغير مهما كان هذا الغير ، رجوعا إلى معاملة الناس بما يريد ان يعاملوه به فهو على إثاته الصواب لما يراه إذ لا يقطع بلزوم الخطأ في رأي سواه .وعلى رغبته في تطرق رأيه للاذهان ولا يمنع الناس من إظهار ما يعتقدون.⁸

والتسامح في موسوعة لالاند الفرنسية مبدأ عقلي يقوم على فكرة التفحص الحر بهدف الحث عن الحقيقة باعتباره قاعدة مسلكية قوامها ترك حرية التعبير عن الرأي لكل فرد حتى وإن نحن لا نشاطره الرأي أو الموقف ، كما أنه احترام ودي لآراء الآخر للمساهمة في بلوغ الحقيقة الشاملة.

أخيرا يتساءل الفيلسوف الفرنسي فولتير قائلا : ما هو التسامح ؟ ثم يجيب : إنه نتيجة ملازمة لكيونة البشرية
إننا جميعا من نتاج الضعف ، كلنا هشون وميالون للخطأ لذا دعونا نسامح بعضنا البعض ونسامح مع جنون
بعضنا البعض بشكل متبادل وذلك هو المبدأ لقانون الطبيعة.⁹

أما قاموس لاروس « la rousse » الموسوعي « فيرى ان التسامح هو موقف من يقبل لدى
الآخرين وجود طرق حياة مختلفة عما لديه هو وبالتالي فهو موقف من يتحمل نتائج العوامل الخارجة عن نطاقه
لاسيما العدائي والمضربة منهما. وبذلك يصبح مبدأ التسامح مبدأ توافقيا حيث يكون الغرض منه ليس الأخذ
بالممنوعات ولكن الوصول إلى التوافقات .

كما أن التسامح في المعنى العام يعني اتخاذ موقف ايجابي فيه إقرار بحق الآخرين في التمتع بحقوقهم
الإنسانية وحريةهم الأساسية في الحياة.¹⁰

و التسامح في المعنى الأصلي موقف عملي وان أدان من حيث المبدأ طريقة في التفكير .أو العمل لأنه
يراه باطلا مع ذلك يتساهل معها احتراماً منه لضمير وحرية الآخرين.و بسبب تفهمه لما جبل عليه الإنسان من
ارتكاب الخطأ.أو لأسباب عملية تتعلق بإمكان التعايش مع الآخرين .يهدأ يتميز التسامح من السماح :فأللّه مثلا
—لا يسمح بالخطيئة .لكنه يتسامح في وقوعها من جانب الإنسان.

اما التسامح بالمعنى الحديث والمعاصر اوسع بكثير.فهو استعداد نفسي وسلوك ناتج عن ، هذا الاستعداد
لنهم رأي وموقف الآخرين المغايرين لنا في الاعتقاد والتصرف. وفي هذه الحالة فان الشخص المتسامح لا يقوم برد
فعل لما يراه من سلوك يصدع عقيدته ، ولا يعبر عن استهجانة لعقائد الآخرين بل يتخذ موقف المتفهم ،
والتسامح إما أن يكون دينيا ،أو مدنيا .ففي هذه الحالة فالتسامح الديني يتعلق بالعقائد والشعائر ، كما يتعلق
بالأشخاص الذين يمارسون هذه العقائد. و التسامح المدني أو السياسي، فهو صميم الديمقراطية الحرة و هو
النتيجة الحتمية المباشرة لحرية الفكر.²

و يقترح ادمود غوبلوفي كتابه vocabulaire philosophique التعريف التالي:التسامح هو التخلي
عن المعتقدات الخاصة أو الامتناع من إظهارها ، والدفاع عنها و نشرها.بل هو الامتناع من كل الوسائل العنيفة، او
المهينة أو المؤلمة ، بالجملة ،و التسامح حسب هواقترح الآراء دون السعي إلى فرضها على الآخرين.

تحديد معنى التسامح في الإسلام :

التسامح وفق المنظور الإسلامي فضيلة أخلاقية وضرورة مجتمعية وسبيل لضبط الاختلافات وإدارتها
والإسلام دين عالمي يتجه برسائله البشرية جمعاء ، الرسالة التي تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسي دعائم
السلام في الأرض وتدعو إلى التعايش الايجابي بين البشر جميعا في جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بلا
استثناء فالجميع ينحدرون من نفس واحدة كما جاء في قوله تعالى " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من
نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء." (11)

ففي القرآن الكريم أكثر من آية تدعو إلى السلم ونبذ العنف ، أما التسامح في السنة النبوية الشريفة
فهو التساهل والمساهلة واللين والحكمة والصفح في كل جوانب الحياة.

فمحمد كان راية في السلم والسلام لأنه يحمل للبشرية النور والهداية والرشاد والرحمة والرأفة والخير
فيقول صلى الله عليه وسلم " إنما أنا رحمة مهداة" ويتحدث القرآن الكريم عن رسالته فيقول " وما أرسلناه إلا

رحمة للعالمين"⁽¹²⁾ عليه تجد أن التسامح في الإسلام بصفة عامة يعني التساكن والتعايش من غير إخلال بمقومات هذا التساكن أو تجاهل لقيم الإسلام الثابتة.

فالمسلم مؤتمن على عقيدته يحميها بقوة الدفاع عنها بالكلمة الطيبة التي تقرب وتشجع وتفتح أبواب الأمل. والبعد الإنساني في الرؤية الإنسانية واضح كل الوضوح في الأحكام الشرعية التي تحترم إنسانية الإنسان، وتعترف بكل حقوقه الإنسانية دون تفريط في العقيدة لأن التسامح قد يفيد معنى التفريط والمسلم في هذا مؤتمن على عقيدته ودينه لأن تسامح التفريط تسامح مذموم يرفضه الإسلام ولا يرض به المسلم.⁽¹³⁾ فالإسلام يفضل التسامح الذي يتمثل في احترام حق الآخر في ممارسة حقوقه الإنسانية.⁽¹⁴⁾

إلا أن مسألة التسامح وفق هذا المنظور تحتاج إلى تفسير لكلمة "تسامح" التي جاءت على صيغة تفاعل، وهي أقرب إلى المعنى الأصلي الذي يفيد السماح كما جاء في لسان العرب لابن منظور، في مادة سمح، السماح والمسامحة وهي كلها مقابلة لمعنى اللين والسهولة.⁽¹⁵⁾

ونقول أيضا وفق ما جاء في اللسان تسمح سماحة وسموحة وسماحا : جاد ، ورجل سمح امرأة سمحة من رجال ونساء سيمح وسمحاء ورجال مساميح ونساء مساميح وعرف التسامح اصطلاحا على انه رؤية متفهمة أو متحررة فكريا حيال العقائد والممارسات المغايرة أو المضادة لعقائد الشخص المتسامح وممارساته⁽¹⁶⁾ ويورد صليبا معاني عديدة واصطلاحات للتسامح منها:

1. احتمال المرء بلا اعتراض كل اعتداء على حقوقه الدقيقة بالرغم من قدرته على دفعه.
 2. أن تترك لكل إنسان حرية التعبير عن آرائه وإن كانت مضادة لأرائك .
 3. هو أن يحترم المرء آراء غيره لاعتقاده إنها محاولة للتعبير عن جانب من جوانب الحقيقة⁽¹⁷⁾.
- وعرف أيضا بأنه موقف من يقبل لدى الآخرين وجود طرق تفكير وطرق حياة مختلفة عما لديه هو ... وبذلك يصبح مبدأ التسامح مبدأ توافقيا ويكون الغرض منه ليس الأخذ بالمنوعات ولكن الوصول إلى التوافقات.

كما أورد **اللاندر** عدة تعاريف لمفهوم التسامح إذ يعتبره استعداد عقلي أو قاعدة سلوكية قوامها ترك حرية التعبير عن الرأي لكل فرد حتى وإن كنا لا نشاطره الرأي.⁽¹⁸⁾

وعليه فالتسامح هو امتزاج بين الفكر والأخلاق وتعبير عن موقف فكري من جهة وموقف أخلاقي يحدد طريقة التعامل مع المفاهيم والأفكار المغايرة⁽¹⁹⁾ وإلى جانب هذه الآراء المختلفة في معنى مفهوم التسامح إلا أننا نتمسك دائما بالنص المنزه الدال والمعبر عن الأخلاق، يقول الله عز وجل : " **اسمحو لعبدي لي سماحة إلى عبادي**" والاسماح لغة السماح والتسامح لغة أصله السماح وهو أيضا الجود، وسمح وأسمح كذلك جاد وأعطى عن كرم وسخاء ، وسمح لي فلان أي منحني وأعطاني وسمح لي بذلك أي وافقني على المطلوب والمسامحة هي المساهلة وتسامحوا تساهلوا.

التسامح في الإسلام: يعتبر التسامح خاصية مميزة تطبع المجتمع الذي يدعو الإسلام إلى قيامه، بصفته دين السماحة الذي لا ضيق فيه ولا تعصب سواء مع الذات أو مع الآخر.

كما أنه يدعو إلى التعارف والتجمع والتعايش و التساكن، وتبادل المنافع وتقاسم المصالح في تأثر وتأثير متواصلين بعيدا عن أية عصبية أو عنصرية أو نغمة قبلية. وهو بذلك لا يرى فضلا لأحد على آخر إلا بالتقوى

مصادقا لقوله تعالى : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " (20)

كما احترام الإسلام جميع الديانات التي اتصل بها خاصة اليهودية والمسيحية وهي ديانات كتابية ، إلى جانب التسامح العرقي فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. والتسامح الطبقي فالناس سواسية كأسنان المشط والعمل الصالح هو الذي يفرق بينهم أمام الله إنه وحده معيار الحكم والتقويم. (21)

وسنة الله في الأرض تقوم على تباين البشر سواء أكان هذا التباين يتعلق باللغة أو بالجنس أو بالدين " العقيدة" ، أو أي عامل من عوامل الحضارة والإسلام بذلك يرى الأمر خاضعا لإرادة إلهية والسر الكامن فيها. فيؤكد ذلك فيقول : " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (22)

كما أنه لم ينفي الاختلاف الذي يجعله طبيعة في الإنسان وهو جيلة الخلق مصادقا لقوله تعالى : " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم " . (23)

والإسلام لا يضطر أحدا إلى اعتناق الدين ولا يكرهه عليه ، يقول سبحانه وتعالى " لا إكراه في الدين " (24) والذي يعني بها لا يجب الإلزام بالدخول في الإسلام عن طريق الإرغام والاضطهاد ، والتخويف والقهر وما إلى ذلك ، لأنه دين يقوم على التفكير والتدبر ، علما بأن الحرية الدينية في منظور الإسلام ، تنطلق من أن الدين عقيدة وإيمان أي شعور داخلي للإنسان يقوم على الاقتناع والميل لأنه استسلام وانقياد لله.

والإسلام يعترف في كل أنظمتها وتشريعاته بالحقوق الشخصية لكل فرد من أفراد المجتمع ، ولا يجيز أي ممارسة تؤدي إلى انتهاك هذه الحقوق والخصوصيات ، إن المنظومة الخلقية والسلوكية التي شرعها الدين الإسلامي من قبيل الرفق والعفو والإحسان والأمانة ، وحث المؤمنين على الالتزام بها وجعلها سمة شخصيتهم الخاصة والعامة كلها تقتضي الالتزام بمضمون مبدأ التسامح ، ومن خلال هذه المنظومة نرى أن المطلوب من الإنسان المسلم دائما وفي كل أحواله أن يلتزم بمقتضيات التسامح ومتطلبات العدالة والإنصاف والسهر على حقوق الغير.

وفي الإسلام الأصل في العلاقات الاجتماعية والإنسانية المحبة والمودة والإخاء والتعايش والتآلف ، حتى ولو تباينت الميول والرغبات والمواقف بل هذا التباين والاختلاف هو الذي يقوي العلاقة ويرسخ أسس ومبادئ التسامح الذي ينشدها الإسلام.

هذا الإسلام الذي لم يكن في يوم من الأيام متعصبا ، كما يفترى عليه خصومه ، بل على العكس من ذلك فقد كان أكبر عون لحرية الإنسانية وحضارتها المثالية والمضمون الصادق للحرية والعدل والمساواة وعلم الإنسان عظمة الإخاء والتسامح وتجسد كل هذا في تعاليم القرآن الكريم.

لهذا فإن الأصل في الإسلام هو التسامح ، لأنه كان رسالة عالمية منفتحة على الإنسانية جمعاء لا فرق فيها بين أفراد البشر مصادقا لقوله تعالى " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " (25) مما يدل على السلم والمسالمة والصلح والرحمة.

إن هذه المنطلقات الفكرية التي وردت في القرآن الكريم أعطت زادا فكريا لممارسات إسلامية متقدمة خصوصا في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين ، والمتمثلة في الاتفاقيات والمواثيق السياسية السلمية ،

كما أنها شكلت نقيضا لممارسات أخرى لا تتسم بالتسامح باعتبارها خروجاً وتعارضاً مع النصوص المقدسة (القرآن الكريم)، والسنة النبوية الشريفة.

الآخر في نظر الإسلام :

كما أكدت المصادر التي تؤرخ للحقب الزمنية التي مرت بها الحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامي بالخصوص، في الأمر المتعلق بالتعامل مع الآخر حيث تجسد ذلك تقريباً في جل المراحل بدءاً بالعصر العباسي، الذي اتسم بالروح التسامحية والمتمثلة في التعاملات الخاصة بالحكام والملوك. فهارون الرشيد كان قمة في التسامح والتساهل مع النصارى حتى أنه سمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة مريم العذراء.

ولعل المرحلة الأكثر والأغنى مسامحة، وألفة ومرونة ما عاشته بلاد الأندلس والذي يعد بحق شاهداً على سيرة الدولة الإسلامية في تعاملها مع تلك الأقطار التي أصبحت فيما بعد جزءاً من بلاد الإسلام. إلى جانب ذلك كله حرص مفكروا الإسلام على إعطاء صورة عن قبول الاختلاف واحترام الآخر في منجزاته وإبداعاته الفكرية، التي طغت عليها الروح التسامحية والنماذج كثيرة ومتنوعة.

ويعتبر الكندي أول من أصل لهذا المفهوم في الفلسفة الإسلامية عندما دعا إلى التسامح مع المخطئ، بل أكثر من ذلك يذهب حتى إلى المطالبة بشكره على الجهد المبذول والأمر لا يتوقف عند الكندي بل يتعداه إلى ابن رشد الذي اختص أو الذي شهد له بالتسامح من طرف نظرائه ومن عايشهم، هذا التسامح عنده الذي تميز بالدفاع عن الآخرين واحترام حريتهم الدينية والمدنية.

وفي قوله بضرورة الاطلاع عليها والاستفادة منها⁽²⁶⁾ كما نادى الجابري في الفترة المعاصرة بضرورة تأصيل مفهوم التسامح في التراث بعدما تعرض في كتابه "قضايا في الفكر المعاصر" إلى الجوانب الإيجابية التي بواسطتها يمكن التفتح على الآخر هذا بالخروج عن التعصب والتمذهب والانفراد بالرأي وعدم احترام الغير أي الفكرة المقابلة وفي مناداته بتأصيل المفهوم في التراث أي الوقوف عند المفاهيم الحديثة المنقولة من الفكر الأوربي كمصطلح الحداثة والتسامح والعولة وغيرها من المصطلحات التي تتباين مع ما تحتويه النصوص فمثلاً كلمة Tolérance لا تناسب بالضرورة مصطلح التسامح باعتبار المصطلح لم يرد في النص ولو مرة واحدة فالتساهل والعفو والصفح فكلاً مصطلحات غاية في الأهمية وأبلغ من أي كلمة أو مصطلح غربي إلا أن الأمر الذي لا يختلف فيه اثنان هو أن Tolérance أو Toleration مصطلحات حديثة لا تعبر عن المغزى الحقيقي لكلمة تسامح التي اختيرت لتكون معنى مقابل للمصطلحات المذكورة.

وحسب الجابري فإن عملية تبيئة المفاهيم الحديثة تملئها الحاجة المتمثلة في المشاكل التي أصبحت تعيشها المجتمعات الإسلامية والعربية ومنها التطرف الديني باسم الدين أو ضده، التطهير العرقي، التفكير الأحادي الذي يطمح للسيطرة على العالم، وفي نظره أي إعطاء الأسبقية للآخر هو جوهر التسامح⁽²⁷⁾ أما أركون فتناول موضوع التسامح بالأسلوب المباشر القائل بأن التسامح لم يعرفه السياق الإسلامي تاريخياً هذا بالرغم من تعرضه للمصطلح . المقابل والمتمثل في اللاتسامح حيث انطلق من أن التسامح لا يمكن فهمه فهماً نقدياً إلا بربطه بمفهوم اللاتسامح (intolérable) ليخلص إلى التأكيد بأن التسامح كمفهوم لم يعرفه الإسلام وأنه يعتبر من أنواع اللامفكر فيه في الفكر الإسلامي.⁽²⁸⁾

أما التسامح كممارسة فعلية فإنه هو الآخر كان غائبا في المجتمعات الإسلامية لعدم وجود شروط تحققه، أي حماية ممارسيه، وبهذا يبقى مفهوم التسامح حديثا بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي ولا يليق إلا بمجتمعاته الأصلية ويقصد بذلك أوروبا. (29)

أما "علي أوامليل في مؤلفه" ف" في شرعية الاختلاف" فقد اهتم بمرحلة تاريخية تعود إلى ما قبل الضغط الأجنبي إلى مرحلة كانت فيها المجتمعات الإسلامية في موقع قوة، وكانت الغاية التي وجهت على أوامليل في حديثه عن التسامح والاختلاف. (30)

كما أن التسامح عنده يعني قبول الآخر أي قبول الاختلاف وفي النهاية اهتدى كل من الجابري وأركون وأومليل إلى طرح السؤال الذي بواسطته يقوم الحفر في النصوص لإيجاد ما يناسب المصطلح الحديث الذي أصبحت تفرضه الحاجة.

هل التراث العربي الإسلامي كان عاملا مساعدا أو عائقا على تكون عقل يقبل شرعية الاختلاف؟

وبرجوعنا إلى موقف الإسلام من التسامح فنجد أن الإسلام يتخذ التسامح مكان الصدارة ليس على مستوى المبادئ فحسب، وإنما على مستوى التطبيق العملي الذي تهدبه التاريخ العالمي.

فالإسلام قد نص على التسامح مع مختلف الأديان وجاء في الآية الكريمة مصداقا لقوله تعالى: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون". (31)

وهذا يعني أن الذين آمنوا أي المسلمين والذين هادوا أي اليهود وكذلك المسيحيين والصابئة أي كل الذين يؤمنون بالله ويعلمون ما هو صالح لا يخشى أن يعذبوا في الآخرة أو يحرموا من النعيم أليس في ذلك دليل على أن الإسلام يتجاوز في تسامحه طوائف المسلمين إلى بقية الأديان.

ولا ننفي التعصب وعدم التسامح عن تاريخ المسلمين نفيًا مطلقا ملائكيا، ولكن التسامح موجود ومجسد في عمق ومحتوى العقيدة الإسلامية. وهذه الروح التسامحية نجدها حاضرة في التجربة الفلسفية العربية الإسلامية كما أشرنا إلى ذلك سابقا بدءا من الكندي وصولا إلى ابن رشد الذي كان حريصا على بيداغوجية التسامح. (32)

التسامح كما أشارت إليه النصوص :

لقد تضمنت النصوص المتمثلة في القرآن والسنة العديد من الآيات والروايات التي تشير للتسامح، إذ دعا الإسلام أتباعه إلى التسامح بين أفراد المجتمع الإسلامي وأطيافه من جهة وإلى قبول الاختلاف والتعدد في الرؤى مع غيرهم من الديانات الأخرى.

هذه الرؤية الإسلامية للتسامح سنكتشفها من خلال محطات عديدة بدءا باعتراف الإسلام بالتعددية والحق والاختلاف وإقراره بالحرية ورفضه لجميع الممارسات المتعارضة مع التسامح من عنف وتعصب وعدوان. (33)

كما دعا الإسلام إلى الحوار وسعى إلى تحقيق السلم والتعايش والسلام بنى البشر كمفاهيم مركزية في ثقافة التسامح وما الوحدة إلا المتمثلة في وجود الله وفق المنظور الإسلامي ليبقى كل ما عداه قاب للتعدد والتنوع والاختلاف هذه الرؤية جعلت من التعددية في كل الظواهر المخلوقة سنة من سنن الله تعالى (34) وما السور والآيات إلا دليل على أن الاختلاف والتعدد سلوكا لا بد منه حيث أن الإيمان لا يكتمل إلا بالاعتراف

بجميع الرسل والأنبياء وبكل الكتب السماوية. وبهذا يظهر بان الإسلام يعترف بالآخر أو الغير المخالف ويدعو إلى الاعتراف به فردا كان أو جماعة. (35) وفي الحالتين قد يكون مؤمنا وقد يكون كتابيا وقد يكون كافرا.

الآخر المؤمن هو للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعض والآخر الكتابي في المجتمع الإسلامي هو في ذمة المسلم "ومن أذى دمي... فقد آذاني" كما قال أيضا أما الآخر الكافر فالعلاقة معه مبنية على تعايش ومعاشرة قائمة على قاعدة متمثلة في لكم ما لكم وعليكم ما عليكم مصداقا لقوله تعالى "لكم دينكم ولي ديني" كما أقر الإسلام الحرية الفردية بجميع أشكالها ما لم تتعارض مع المصلحة العامة وتضر بحرية الآخر وتعتدي عليها وفي المجال الديني نجد أن الإسلام قد نهى عن كل ما يتعارض مع الحرية الدينية بمثل استخدام أساليب الضغط والإكراه والعنف والإرغام على الاعتقاد وهو ما يقره المبدأ القرآني في القول : " لا إكراه في الدين" .

إن تحقيق ما سبق ذكره من أساليب يستدعي تجنب كل أنواع العنف والكرهية و التعصب مهما كان شكله ، وتجاوز جميع أساليب الحرمان والاقتصاد والتجني والتهميش. فالمؤمن الذي نتحدث عنه وفق مبادئ الإسلام لا كراهية لديه لكل الديانات والرسل.

إن رفض الإسلام لكل الأساليب العنيفة يعني منطقيا أن فكرة السلام فكرة أصيلة فيه ، هذه الفكرة التي ترجع إليها نظمه جميعا وتلتقي عندها تشريعاته وهو ما يفسر أن هذه اللفظة ذكرت في مرات عديدة وبمعاني مختلفة مما يوضح أن في الاختلاف رحمة.

هذا الاختلاف الذي ينبذ التنازع والقتال والعنف ويشجع أسلوب الحوار باعتباره وسيلة مثلى للإقناع ترفض الإكراه والإرغام في شتى مناحي الحياة الإنسانية مادية كانت أو معنوية وحتى روحية. (36)

ووفق هذا الأساس فإن الحوار القائم على المحبة والألفة والتآخي والمعاشرة والاحترام هو قيمة من قيم الحضارة الإنسانية المستندة أساسا إلى مبادئ الشريعة الإسلامية المبنية على تعاليم الدين الحنيف إذ يعتبر موقف فكري وحياة وجدانية تنادي وتطمح دائما إلى تحقيق السلم والسلام المؤدي إلى التسامح هذا التسامح الذي أصبح اليوم حاجة تفرضها ظروف التي أصبحت تعيشها المجتمعات المتمثلة في الغلو في الدين والتعصب للرأي والسعي وراء التكبسب الغير مشروع مهما كلف ذلك حتى ولو على حساب الآخر. هذا الآخر الذي أعزه الإسلام وكرمه بغض النظر على ديانتته. (37)

وأخيرا نقول ان العيش المشترك يتطلب حضور فضيلة التسامح بين الأفراد وذلك ما اقره الإسلام ، ودعت إليه الشرائع على مر العصور (الإسلامية) فعالمنا اليوم وخاصة العالم العربي و الإسلامي في اشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الايجابي بين الناس أكثر من أي وقت مضى ، نظرا للتقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات وذلك لتوفر العوامل والوسائل التي تفرض على الفرد أن يولي اهتماما بالآخر ، محترما في ذلك القوانين التي تفرضها الطبيعة البشرية.

المراجع:

1. ابن منظور لسان العرب المجلد الثاني دار صادر بيروت، ط1، 1955، ص490.
2. ابن بكر الرازي ، "مختار الصحاح" دار الفكر بيروت لبنان ، ص 322.
3. ابن منظور لسان العرب المجلد الثاني دار صادر بيروت، ط1، 1992، ص489.

4. المرجع نفسه ، ص 493.
5. صيبا جميل ، " المعجم الفلسفي ج2 " الشركة العالمية للكتاب بيروت لبنان 1994 ، ص 271.
6. المرجع نفسه ص 271.
7. المرجع نفسه ص 273.
8. أديب إسحاق ، " التعصب والتساهل " من كتاب أضواء على التعصب لمجموعة من المؤلفين دار أمواج للطباعة والنشر بيروت ، ط1 1993 ، ص 15.
9. أندري لالاند ، " الموسوعة الفلسفية " ، مج 3 ، دار عويدات للنشر وتوزيع ، ط2008 ، ص1460.
10. « voltaire dictionnaire philosophique chronologie et préface..... panneau flamarion » .paris » p 362
11. le grand dictionnaire encyclopédique La rousse f. 1985
12. سورة الأنبياء، آ (107).
13. سورة النساء، آ (1).
14. مفهوم التسامح في البناء الحضاري الإسلامي جامعة الصحوة الإسلامية الدورة الثالثة 1995 ، الدار البيضاء المغرب، ص85.
15. الميلادزكي الإسلام والإصلاح الثقافي، دار أطيف للنشر والتوزيع القطيف السعودية، 2007، ص88.
16. ابن منظور لسان العرب المجلد الثاني دار صادر بيروت، ط1، 1992، ص24.
17. سورة الحجرات، آ13.
18. مرحبا محمد عبد الرحمن، "الجامع في تاريخ العلوم عند العرب"، المؤسسة الوطنية للكتاب منشورات عويدات بيروت لبنان، ط3، 1989.
19. سورة الحجرات، آ13
20. سورة هود، آ(118).
21. المرجع السابق مفهوم التسامح في البناء الحضاري، ص98.
22. راجي روح التسامح في الفكر الرشدي مجلة فكر ونقد العدد 66 دار نشر المغربية الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص61.
23. الجابري محمد عابد ، " المثقفون في الحضارة العربية " ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت بنان 1995 ، ص 44 بدون طبعة .
24. المرجع نفسه ، ص 46.
25. محمد أركون التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي، مقال ضمن المجلة العربية لحقوق الإنسان العدد (2)، 1995، ص11.
26. المرجع نفسه ، ص 19
27. سورة المائدة، آ (69).
28. عمارة محمد ، " التعددية في الرؤية الإسلامية " ، دار النهضة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1997 ، ص 4.
29. المرجع نفسه ص 5.
30. المستاري جيلالي ، "قيم التسامح في السياق الإسلامي " ، دار النهضة للطباعة والنشر القاهرة 1987 ، ص 4
31. سورة الكافرون آ (6)
32. المستاري جيلالي ، "قيم التسامح في السياق الإسلامي " ، المرجع السابق ، ص 148.

33. عمر هاشم احمد ، " الإسلام دين التسامح في السياق الإسلامي " دار الفاروق ، القاهرة مصر ، ط1 2006 ، ص 17.
34. التويجري عبد العزيز ، " الحوار من أجل التعايش " ، دار الشروق القاهرة ، ط1 1998 ، ص 137.
35. ترجمة المصطلحات المحورية للمقال..
36. ملخص وجيز باللغة الفرنسية.

الهوامش:

- 1- ابن منظور ، لسان العرب ج2 ، دار صادر بيروت ، لبنان 1995 ، ص 490 .
- 2- ابن بكر الرازي ، مختار الصحاح ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، ص 312 – 498
- 3- ابن منظور ، لسان العرب مج2 ، دار صادر بيروت ، لبنان 1992 ، ط1 ، ص 271.
- 4- المرجع نفسه .
- 5- صليب جميل المعجم الفلسفي ج1 ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، لبنان 1994 ، ص 271.
- 6- المرجع السابق جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ص 271.
- 7- المرجع نفسه ، ص 273.
- 8- أديب إسحاق ، " التعصب والتساهل " من كتاب أضواء على التعصب لمجموعة من المؤلفين " ، دار أمواج للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 1993 ، ص 15.
- voltaire dictionnaire philosophique chranologie et préface..... panneau « paris » p 362 .
- 9 - grand dictionnaire La rousse f. 1985 p 10275 10
- 10- بدوي عبد الرحمان - ملحق موسوعة الفلسفة . المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بدون طبعة ص58
- 3- المرجع نفسه ص59 4- المرجع السابق ص60
- (11)- سورة النساء، آ (1).
- (12)- سورة الأنبياء، آ (107).
- (13)- مفهومالتسامح في البناء الحضاري الإسلامي، جامعة الصحوة الإسلامية الدورة الثالثة، 1995، الدار البيضاء المغرب، ص85.
- (14)- نفس المرجع، ص88.
- (15)- مليكان مصطفى، مفهوم التسامح إطلالة على الركائز النظرية، كتاب التسامح وجذور اللاتسامح مجموعة مؤلفين مركز دراسات فلسفة الدين بغداد، 2005، ص85.
- (16)- صليب جميل المعجم الفلسفي، ج2، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، 1994.
- (17)- علي عاطف التسامح والثقافات مجلة التسامح، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية سلطنة عمان، العدد 5، 2004، ص300.
- (18)- لالاند، الموسوعة الفلسفية، ج2، ص1460.
- (19)-.الميلاد زكي الإسلام والإصلاح الثقافي، دار أطيايف للنشر والتوزيع القطيف السعودية، 2007، ص88.
- (20).ابن منظور لسان العرب المجلد الثاني دار صادر بيروت، ط1، 1992، ص24

-
- (21) - نفس المرجع، ص88.
- (22) - سورة الحجرات، آ(13).
- (23) - مرحبا محمد عبد الرحمن الجامع في تاريخ العلوم عند العرب المؤسسة الوطنية للكتاب منشورات عويدات بيروت لبنان، ط3، 1989.
- (24) - سورة يونس، آ(99).
- (25) - سورة هود، آ(118).
- (26) - المرجع السابق مفهوم التسامح في البناء الحضاري، ص98.
- (27) - راجي روح التسامح في الفكر الرشدي مجلة فكر ونقد العدد 66 دار نشر المغربية الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص61.
- (28) - محمد عابد الجابري المثقفون في الحضارة العربية مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، لبنان 1995، ص44 بدون طبعة.
- (29) - نفس المرجع، ص46.
- (30) - محمد أركون التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي، مقال ضمن المجلة العربية لحقوق الإنسان العدد (2)، 1995، ص11.
- (31) - نفس المرجع، ص19.
- (32) - سورة المائدة، آ(69).
- (33) - عمارة محمد، "التعددية في الرؤية الإسلامية"، دار النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، 1977، ص4.
- (34) - عمارة محمد، "التعددية في الرؤية الإسلامية"، نفس المرجع السابق، ص5.
- (35) - المستاري جلالى قيم التسامح في السياق الإسلامي، المرجع السابق.
- (36) - عمر هاشم أحمد الإسلام، "دين التسامح"، دار الفاروق القاهرة، مصر، ط1 2006، ص17.
- (37) - التوبجري عبد العزيز، "الحوار من أجل التعايش"، دار الشروق القاهرة، ط1 1998، ص137.

نحو إبستمولوجيا إختزالية

أ/ داود خليفة، جامعة الشلف

الملخص :

شكل العصر الكلاسيكي عصر انتصار العقل والعلم، تمكن الإنسان فيه من بناء معرفة تقوم على نظرة جديد ومختلفة للعالم. أدت إلى تغيير الأسس الإبستمولوجية للمنظومة المعرفية، فتشكل جراء ذلك نظام معرفي جديد قائم على أساس الحتمية، السببية، الانفصال، وترييض الطبيعة... وهي أسس في مجملها إختزالية، مما أدى إلى ظهور ما يسمى ببراديفم الإختزال.

الكلمات المفتاحية : الإختزال، التعقيد، منظومة، السببية، الحتمية. براديفم (أنموذج)

Abstract :

Featuring the classic era as the era of the triumph of reason and science, human enable it to build knowledge on a new and different view of the world, have changed the epistemological fundamentals of knowledge, a result of that constitute a new knowledge system based on determinism, causality, separation, and the mathematization of the nature... It was founded in essence it's reductionist, which led to the emergence of the so-called reduction paradigm.

Key words : reduction, Complexity, System, determinism, causality, paradigm.

تعرف الفلسفة بأنها تأمل نظري تأملي يتكوّن حول قضية أو مسألة ما، وهي باعتبارها كذلك تعتمد على الفكر والمنطق والعقل، وتضع بناءها حول كافة المشكلات والمسائل التي تحتاج إلى تحليل وتفسير وفهم. والفلسفة وإن لم تكن علما، فإنها تُنظّر للعلم وتتأسس عليه في آن واحد، وهي في مسارها التاريخي تطلب دائما من علوم عصرها النموذج النظري الذي يؤسس قضاياها، لأن للطرح العلمي تأثيره على الاتجاهات الفلسفية. ونظرا للعلاقة بين الفلسفة والعلم فإن الفلسفة تصبح بهذا المعنى مرادفة لتحليل الخطاب العلمي السائد، أي تتأسس على علوم عصرها، فهي مجملها تتشكل في ضوء المعارف العلمية السائدة وتبنى عليها. وهذا ما ينطبق على الفكر الفلسفي في العصر الكلاسيكي، الذي أصبح معبرا عن تلك التحولات العميقة التي عرفتها المنظومة المعرفية وقتذاك، والتي انتهت - كما هو معروف - إلى رسم صورة ميكانيكية للكون. وقد تجسد هذا التحول المعرفي في ميدان العلم الطبيعي بفضل جهود نخبة من المفكرين والعلماء والفلاسفة، الذين اعتبروا أن المجال الحقيقي للمعرفة الإنسانية هو الطبيعة، بهدف كشف خفاياها واستقراء عناصرها ومن ثمّ تفسيرها ومعرفة قوانينها العامة، فالبحث في الطبيعة هو المجال الحقيقي للنشاط الفكري للإنسان، وهذا بالتأكيد ما يخالف ما كان سائدا في النظام المعرفي القديم، الذي تأسس على التعاليم أرسطو. هذا الاتجاه المعرفي الجديد هدّم العديد من المفاهيم والتصورات التقليدية وأحدث تغييرا شاملا في النظرة إلى العالم، وزعزع التصور القديم للعلم وللحقيقة العلمية، وأحدث تحولا مفهوميا فيهما، نتج عنه براديفم جديد للمعرفة أو ما يمكن أن نسميه بـ"إبستمولوجيا جديدة". وهنا نتساءل : ماهي معالم هذه الإبستمولوجيا الجديدة التي عرفتها المنظومة المعرفية في العصر الكلاسيكي ؟

قبل الحديث عن هذه الاستيمولوجيا الجديدة، نرى من الضروري الإشارة - ولو بصورة مختصرة - إلى بعض التحولات العلمية التي حدثت في أوروبا منذ القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، والتي ستسمح لنا برسم صورة عامة عن ملامح النموذج العلمي لذلك العصر، ونهدف من خلال هذا العرض التاريخي الوقوف بالقراءة والتحليل عند أهم التحولات العلمية التي حدثت في أوروبا منذ الثورة العلمية في سياقها التاريخي الذي حدثت فيه تلك التحولات وتطورت، عن طريق رصد مسارها تطورها وتجلياتها عند بعض علماء تلك الفترة، وبالتالي فالمسعى هنا ليس تأريخا لميلاد نظريات علمية بقدر ما هو محاولة استقراء النتائج التي ترتبت عنها.

في علم الفلك، نادى كوبرنيك (1473-1543 N. Copernicus) بضرورة قيام هذا العلم على الملاحظات الدقيقة والحسابات والافتراضات البسيطة، معتبرا أن الفروض العلمية البسيطة هي الأقرب إلى الصواب من الفروض العلمية المعقدة⁽¹⁾، وكان من أبسط الفروض العلمية في نظره هو أن الشمس هي مركز الأرض؛ فالشمس ثابتة والأرض وسائر الأفلاك الأخرى تدور حولها، حيث إن «جميع مسارات الأجرام عبر السماء يمكن تفسيرها بشكل أبسط عن طريق الافتراض أن الأرض والأجرام السماوية جميعا تدور حول الشمس المركزية الثابتة»⁽²⁾، ولم يدعم كوبرنيك نظريته إلا بحجة واحدة هي حجة "البساطة"، حيث إذا نظرنا إلى الكواكب من على سطح الشمس، وافترضنا أنها هي المركز فسوف تبدو مدارات الكواكب أبسط وأجمل وحساباتها الرياضية أبسط. وباسم "مبدأ البساطة" شن كوبرنيك هجوما على تعقيدات النظرية الفلكية البطلمية⁽³⁾. وبذلك يكون قد مهد لكبلر (1571-1630 J. Kepler) الطريق لصياغة قوانينه الفلكية الثلاث.

إن القول بثبات الشمس ودوران الأرض ليس مجرد افتراض علمي فحسب، بل كان بمثابة الانقلاب الذي أنتج سلسلة متتالية من الانقلابات في ميدان العلم الطبيعي، فقد أحدث ثورة زعزعت مركزية الإنسان والأرض، أسهمت بشكل كبير في تقدم المعرفة العلمية منذ ذلك الوقت، من حيث إن كل معارفنا قد تأثرت تأثيرا عميقا بالكشف العلمي الذي حققه كوبرنيك⁽⁴⁾. ويمكن القول بشكل عام، إن نظرية كوبرنيك هي صياغة لنسق أو لتصوير ينظم الوقائع الفلكية تنظيما أكثر بساطة وأكثر جمالا من النظرية القديمة للنظام الشمسي... فأعطى أهمية خاصة لفكرة الشمس التي كان نفوذها السائد معترفا به، وقد أعطيت أخيرا المكان المركزي الذي يليق بها⁽⁵⁾.

أما غاليليو (1564-1642 G. Galileo) فقد استخدم المنهج الرياضي وتطبيق الرياضيات في الدراسات الطبيعية التجريبية (أي الجمع بين علوم الطبيعة كالفلك والفيزياء والرياضيات) مما أدى إلى تحول العلم الطبيعي معه إلى علم رياضي، وهذا التريبض للظواهر الطبيعية هو ما سيسمح باختزال وتبسيط الكثير من الظواهر في عدد بسيط من القوانين الرياضية التي تحكمها.

وقد استفاد نيوتن (1642-1727 I-Newton) من هذا النموذج الرياضي، فقام بالصياغة الرياضية لقوانين وصفت بأنها أكثر عمومية، وهي قوانين في جوهرها اختزال لقوانين كبلر وغاليليو من جهة، وسمحت من جهة ثانية بتوحيد القوانين التي تحكم السماء والأرض واختزال كل الحركات في النوع الميكانيكي. وبالتالي بينت قوانين نيوتن أن الحركات والتداخلات بين الأجسام المادية في العالم تخضع لعدد قليل من قوانين بسيطة نسبيا⁽⁶⁾. لقد انقلب مركز الثقل في الكون؛ وأصبح كل شيء فيه - من أكبر الأجرام السماوية إلى

أصغر الأجسام - خاضعا لقوانين الميكانيكا التي تترجمها الرياضيات، وبذلك أزيحت التركيبة الفلكية القديمة بنظامها المعقد وحلت محلها بساطة الكون النيوتوني العقلاني الرياضي.

وقبل نيوتن، كان ديكارت (1596-1650 R.Descartes) قد وضع قاعدة البساطة من القواعد الأساسية لتوجيه الفكر⁽⁷⁾، الأمر الذي سيؤدي - عند اتباعها - إلى تجزئة أو فصل الكائن المدروس إلى وحدات بسيطة.

غير ان السؤال الجوهرى الذى نعيد طرحه هنا هو : ماهى النتائج التى ترتبت عن هذه التحولات العلمية التى حدثت فى أوروبا فى تلك الفترة ؟

نتج عن منجزات العلم الكلاسيكى ابستمولوجيا جديدة يمكن توصيفها بأنها ابستمولوجيا اختزالية، قامت على أنموذج معرفى هو "أنموذج البساطة" أو "الاختزال"، تأسس هذا النموذج على فلسفة ميكانيكية اختزالية^(*) بُنيت على توحيد القوانين والتفسيرات الخطية السببية والبيانات الرياضية، فضلا عن تجزئة الكائنات المدروسة. بالتالى يمكن القول أن الابستمولوجيا الاختزالية قد جعلت التفكير يَألف الطرق البسيطة التى تختزل الظواهر وتلغى كل التفاعلات فيما بينها، ومن ثمَّ كان العلم لا يكتسب صفة اليقين إلا إذا استند على هذه الرؤية الاختزالية.

إن أنموذج البساطة والاختزال يقوم أساسا على الفصل بين العالم الطبيعى والعالم الإنسانى، فيختزل العالم الإنسانى فى البيولوجى، والبيولوجى فى الفيزيائى، كما أنه يقضى على النسيج المركب للوقائع بسبب استناده إلى نزعة تخصصية داخل العلم الحديث.

ماذا نعني بالبساطة والاختزال ؟

- البساطة من التبسيط أو البسيط، والبسيط هو نقيض المركب. ويشير عند الفلاسفة إلى «الشيء الذى لا جزء له أصلا»⁽⁸⁾، ويرى ابن رشد أن البسيط يدل على ما لا ينقسم أصلا، لا بالقوة ولا بالفعل. أما ليبنتز (1646-1716 G.W.Leibniz) فيعتبر الشيء البسيط^(**) كل ما لا أجزاء له، ويطلقه على "المونادة"⁽⁹⁾.

إن التبسيط يعبر عن حالة هي تجزئة وتحليل المركب ورده إلى عناصر أو أجزاء بسيطة، باعتبار أن أفضل طريقة لفهم أي ظاهرة هو تحليلها إلى أجزائها المكونة لها والنظر في تلك الأجزاء كل جزء على حدة.

من هذا المنطلق، كان الفكر العلمى الكلاسيكى يسلّم بحقيقة مفادها أن التركيب والتعقيد اللذان يمكن ملاحظتهما فى الظواهر يمكن تفسيرهما اعتمادا على بعض المبادئ البسيطة، وبالتالي كانت المعرفة العلمية تهتم بتجاوز التعقيد الواضح للظواهر والتعبير عن هذه الظواهر بشكل أبسط، عن طريق رد التنوع المتغير الملاحظ فى الأشياء إلى بعض العناصر البسيطة. لقد أصبح التبسيط سندا علميا له حضورا قويا فى الفكر العلمى الكلاسيكى، انطلاقا من إمكان تحقيق فكرة التبسيط عن طريق الفصل والاختزال، وعبر منهجا يرد الفوضى إلى النظام والتعدد إلى الوحدة والاختلاف إلى الانسجام...

وهذا يعنى فى النهاية أن البساطة ترتبط فى علاقة مع الانتظام، باعتبار أن مهمة العلم الأساسية ليست فى تجميع معلومات اتفاقية معزولة لا رابط يجمع بينها، بل على العكس، يتعين على الفكر العلمى أن يقدم تفسير منظم للعالم عن طريق الربط الظواهر المختلفة عبر علاقات منطقية، التى تعدُّ من الشروط الضرورية لقيام العلم باثنين من مهامه الأساسية : التفسير والتنبؤ.

- أما الاختزال (*Reduction*) أو الاختزالية (*Reductionisme*) فكثيرا ما تستخدم كمرادف للتبسيط (*Simplification*)، وتعني تلك المحاولة التي سادت العلم الكلاسيكي لتفسير عدد كبير من الوقائع بعدد قليل من المبادئ والافتراضات والقوانين، ويعتبر المذهب الميكانيكي، ابرز تمثيل للاختزالية الذي يحاول - كما أشرنا سابقا - تفسير العالم على أساس قوانين الميكانيكا.

يرتبط مفهوم الاختزالية بمفهوم الرديّة أو الرد⁽¹⁰⁾، الذي له دلالات متعددة، فهو يعني : «رد الشيء بتحويله من صفة إلى صفة، ورد الشيء إلى الشيء هو الإرجاع إليه. والرد في اصطلاح الرياضيين والمناطق هو تحويل بعض موضوعات الفكر إلى موضوع آخر معادل لها»⁽¹¹⁾.

كما يعني مفهوم الرديّة أن مبدأ السببية الحتمية يعمل من أسفل إلى أعلى، فحركات الذرات على المستوى الذري هي السبب في تكون الجزيئات، وحركة الجزيئات هي سبب في تكون المواد العضوية، وحركة المواد العضوية هي السبب في تكون الخلايا الحية، وحركة الخلايا الحية هي سبب في تكون العقل، فالسببية الحتمية هنا تصاعدية من أسفل إلى أعلى⁽¹²⁾.

أما عند الفلاسفة فإن الردّ يعني : «إرجاع الشيء إلى عناصره المقومة له وتخليّته عن العناصر الغريبة عنه، كرد المذهب إلى مبادئه، ورد الاستدلال إلى سلسلة من الحدوس، ورد الحكم إلى تداعي الأفكار، والرد بهذا المعنى مرادف للتحليل»⁽¹³⁾.

أما في الفلسفة الظواهرية^(***)، فإننا نجد معنى الردّ عند هوسرل (1859-1938 E. Husserl) يعني : «إرجاع الشيء إلى حقيقته وتطهيره من اللواحق الزائدة عليه، وهو قسمان : الرد إلى الماهيات، وهو موقف الفكر الذي ينظر إلى ماهيات الأشياء لا إلى ظواهرها. والآخر هو الردّ إلى الظواهر وهو الردّ المتعالي، حيث يتجسد كموقف الفكر الذي يعد أن معطيات التجربة الداخلية والخارجية هي ظواهر لا غير. وعندما يتابع عمليات الردّ المتعالية يكشف في النهاية عن حقيقة لا يمكن ردّها إلى غيرها، وهي الوعي المحض أو الأنا المتعالي»⁽¹⁴⁾.

يتضح من ذلك، أن مصطلح الرديّة أو الاختزالية الذي ساد علوم المادة الجامدة والحياة وصولا إلى مختلف مناحي حقول المعرفة لا يُعنى إلا برد الظواهر إلى عناصرها المقومة لها أو إلى فكرة محددة بذاتها، فالتسلسل الهرمي الذي يقوم على إرجاع حقائق غير أساسية إلى حقائق أخرى هو السمة الأساسية التي تنطوي عليها الاختزالية⁽¹⁵⁾. كما كانت هناك سمة أخرى مميزة للاختزال : «هي انه يوحد الظواهر القابلة للملاحظة أو على الأقل يوحد التعميمات المقررة بمقتضاها إلى اطرادات أكثر أساسية ودقة»⁽¹⁶⁾، وبالتالي تعبر الاختزالية عن ذلك المنحى الذي تجسد في تلك الجهود الفكرية المبذولة التي حاولت اختزال كل الواقع إلى أصغر المكونات القابلة لقياس العالم المادي.

بهذا المعنى، تكون الاختزالية أسلوب يُعنى بتحليل الشيء إلى أجزائه، وشرح خصائصه وسلوكه استنادا إلى خصائص وسلوك أجزائه، باعتبار أن أجزاء كيان أو نظام ما تحدد خصائص وسلوك النظام ككل وليس العكس. ثم إن أسلوب التفسير في العلم يقوم على هذه الرؤية الاختزالية : فإذا كان هدف الفيزياء هو تفسير العالم، فإن الفيزيائي عموما لا يحاول فهم كل شيء دفعة واحدة، لكنه يركز على جزء من الواقع، وهكذا يبدأ بعزل مجموعة من الظواهر ودراستها منعزلة.

إذن، الاختزالية ليست إلا مقولة في نظام الطبيعة وأسلوبا لفهم طبيعة الأشياء المعقدة عن طريق ردها إلى

تفاعلاتٍ من أجزائها، أو إلى أشياء أكثر بساطة أو أشياء أكثر أساسية. وهي تعبر عن موقف فلسفي يرى أن أي نظام مُعقّد ليس سوى مجموع أجزائه، وأنه يمكن اختزال أي جزء منه إلى أجزاء تتألف من مُقوّمات أساسية فردية، وينطبق هذا على الأشياء والظواهر والتفسيرات والنظريات والمعاني...

يفضي مفهوم الاختزالية إذن إلى تبسيط دراسة أي كيان أو ظاهرة عن طريق "تجزئتها" إلى أجزاء منفصلة، أو مكونات يسهل دراسة كل منها على حدة. ويستند هذا المفهوم على أساسين: الأول هو افتراض أن خصائص الكيان ككل يمكن اشتقاقها من خصائص مكوناته. أما الأساس الثاني فيؤكد على أن خصائص مكونات الكيان المشتقة من دراستها ككيانات مستقلة لا تختلف عن خصائصها باعتبارها أجزاء لكل واحد؛ مثال ذلك يمكن انطلاقاً من مبدأ الاختزال فهم جسم الإنسان كظاهرة بيولوجية انطلاقاً من مكوناته الأساسية مكوناً من ماء وبروتين ودهون ومواد أخرى...

تقوم فكرة الاختزال إذن على الإيمان بوجود مستويات مختلفة وبناء هرمي ومركب للظواهر والموجودات، بحيث يمكن تفسير هذه الظواهر والموجودات برّد عناصرهما الأكثر تعقيداً إلى الأكثر بساطة، أي يمكن توصيف وتفسير الظواهر العامة في قوانين رياضية بسيطة تنظم سلوك هذه الظواهر. وهذه الوجهة من النظر تسود في العلم كما تسود في الفلسفة، وفي أنماط مختلفة من المعرفة.

تقوم فكرة الاختزال على أن كل العلوم يمكن ردها إلى فيزياء الجسيمات الأولية، حيث ترد الكيمياء إلى الفيزياء، وترد البيولوجيا إلى الكيمياء من خلال البيولوجيا الجزيئية، وضرورة البحث في الظواهر الإنسانية النفسية منها والاجتماعية والاقتصادية عن قوانين يمكن ردها جميعاً إلى العلوم الطبيعية.

من الوجهة العلمية، كشف تاريخ العلم أن قوانين **كبلر** في علم الفلك وقوانين **غاليليو** في علمي الفيزياء والكيمياء، لم تكن سوى حالات خاصة من قوانين أكثر عمومية صادقة صدقاً ضرورياً في كل زمان ومكان. وكان **نيوتن** قد بيّن كيف يمكن استنباط قوانين **كبلر** وقوانين **غاليليو** من قوانينه باعتبارها حالات خاصة، وقد درج الابستمولوجيين على تسمية هذا النوع من الاستنباط: "**الاختزال مابين النظريات**"، أو بكلمة مختصرة: "**الاختزال**". حيث يفترض الاختزال أن تكون القوانين في "**النظرية المختزلة**" مستنبطة من القوانين الخاصة بـ "**النظرية المختزلة**"⁽¹⁷⁾، وبالتالي فالاعتقاد أن قوانين نظرية ما يمكن استنباطها من قوانين نظرية أخرى هو اعتقاد يتضمن إلى حد ما فكرة بسيطة، هي أن الاختزال هو اشتقاق نسخة مصححة من نظرية ما بردها إلى نظرية أكثر أساسية تختزلها.

وهكذا نكتشف أن ما حققه الفكر العلمي في القرن السابع عشر ليس إلا اكتشاف واختزال قوانين **كبلر** و**غاليليو** في قوانين **نيوتن**، كما نكتشف أن تاريخ الفيزياء ليس إلا تاريخ اختزال النظريات العلمية اقل عمومية في نظريات أخرى أكثر عمومية، بهدف توسيع وتعميق مدى التفسير في العلم وتحقيق التقدم فيه، إذ أن تسارع خطوات التقدم في مجال العلم لا تتحقق إلا بالاختزال.

إذن، كان مسعى العلم في العصر الكلاسيكي هو التبسيط والاختزال، من حيث إن كلّ الظواهر التي يدركها الوعي الإنساني، في العالم أو في النفس، يمكن اختزالها في تفسيرات فيزيائية، وبالتالي فإن النظرية الاختزالية الفيزيائية تزعم أنه لا وجود إلا للأشياء المادية، وأن كل الحوادث لها عللٌ فيزيائية بحتة، وهذه "العلل" هي التفسيرات لوقوع الحوادث أو وجودها⁽¹⁸⁾، فنتج عن هذا الاعتقاد ظهور ما يسمى بـ "**منظومة الاختزال**". وإذا كان الفكر العلمي في الحقبة الكلاسيكية انتهى إلى الاختزال كسند له حضور في التصورات

العلمية، فإن هذا المفهوم أي الاختزال لم يكن غريباً عن الفكر الفلسفي، حيث نجده يؤكد حضوره أيضاً عند معظم الفلاسفة وأغلب المذاهب الفلسفية. ويمكن تبرير ذلك فيما يلي :

- **الفلسفة والاختزال** : في الفلسفة ترتبط منظومة الاختزال تاريخياً بالفلسفة الواحدة، التي حاولت تفسير الوجود بجوهر واحد، سواء كان هذا الجوهر الواحد مادياً (الواحدة المادية) أو روحياً (الواحدة الروحية)، أي القول بمبدأ واحد في الوجود، أو بجوهر واحد أو بنوع واحد من الجوهر وإن تعددت أفرادها، ويستوي في ذلك أن يكون الجوهر الواحد مادة أو روحاً.

وجه التبسيط في الواحدة لاسيما الواحدة المادية يكمن في كونها فلسفة ردّية، حيث يحاول أنصارها رد كل الحوادث الذهنية إلى مجرد ظواهر ثانوية مصاحبة للحوادث المادية (كما ساد في علم النفس لما فسر بعض علماء النفس بعض الفعاليات العقلية كالإدراك والتذكر والتصور والأفكار بردها إلى مجرد عمليات مادية تنتظم في صورة آلية ميكانيكية). نفس هذا التبسيط والرد وقع فيه أنصار الواحدة الروحية، حيث إن إرجاع الوجود إلى عنصر روحي واحد أياً كان هذا العنصر ليس إلا إنكاراً للتعقيد الذي ينطوي عليه الوجود الكامل. وبالتالي تصبح الواحدة بهذا المعنى فلسفة التبسيط الموحد، تتكرر كل تنوع وتعقيد وتردهما إلى مبدأ نهائي واحد بسيط.

هذا، وترتبط فلسفة الاختزال الواحدة بالفلاسفة الانطوحيين اليونانيين الأوائل الذين حاولوا تفسير الوجود برده إلى عنصر واحد. وكان من بين التصورات لمفهوم الوجود تلك التي عبر عنها **هيرقليطس** (540-475 ق.م) *(Heraclites)*، الذي جعل النار هي جوهر التحول والتغير، معتبراً «أن الأشياء جميعاً في تغير متصل وتطور مستمر بقوة باطنة وقانون ذاتي، وبهذه الأقوال توفرت له وحدة الوجود، وحدة مادية باشتراك الأشياء أصلاً وصيرورة» (19).

وأيضاً **ديموقريطس** (460 ق.م - 370 ق.م) *(Democritus)*، الذي يعتبر أحد فلاسفة الطبيعة الأوائل الذين حاولوا تفسير طبيعة الكون برده إلى جوهر واحد أو مبدأ واحد هو الذرة⁽²⁰⁾، فهو يرى «أن العالم مصنوع من عدد قليل من وحدات البناء، وهي من الصغر بحيث لا يمكن تمييزها بالعين، ويطلق عليها ذرات»⁽²¹⁾، والذرة عنده وحدة متجانسة غير محسوسة، غير متناهية العدد، متناهية الصغر، وهي الجزء الذي لا يتجزأ من المادة، أزلية ومتحركة بذاتها. وتشابه الذرات من حيث طبيعتها المادية وعدم قابليتها للقسم، لكنها تختلف من حيث الحجم والشكل، بالإضافة إلى أنها لا تحتوي على فراغات داخلية تسمح بمزيد من الانقسام.

تفترض الفلسفة الذرية أن الكون كله مؤلف من جزيئات صغيرة، غير مرئية، متحركة بحرية في فراغ محايد لانهائي، و متمخضة - عبر تصادمها وتآلفها - عن جميع الظواهر. وفي هذا الفراغ ليس ثمة مركز كوني مطلق... ونظراً لأن الكون بمجمله مؤلف من الجزيئات المادية نفسها وفقاً للمبادئ ذاتها، فإن الأرض ليست إلا تجمعاً طارئاً آخر لحشد من الجزيئات⁽²²⁾. وبرأي **ديموقريطس**، فإن اتحاد الذرات ينشأ الكون، وبافتراقها يتم فساد وزواله، فالأشياء تتركب من ذرات متحركة تلقائياً، ويرجع اختلافها إلى اختلاف مقدار الذرات الداخلة فيها وشكلها وطريقة ترتيبها، ثم تكتسب كيميائياتها من لون ورائحة وحرارة، وبفعل حركة الذرات وتصادمها تتشكل الأشياء، وتتأخر وتتباعد بفعل اختلافها. وبالتالي فإن اختزال الوجود كله في الذرة وحركاتها ليس إلا وجه التبسيط والاختزال.

هذا التصور الذري أثر لاحقاً وبصورة بليغة في الفكر العلمي الكلاسيكي ؛ فمقاربة غاليليو للطبيعة واعتبارها مادة متحركة يمكن تكميمها ليس إلا تأثراً بالفلسفة الذرية ، كما أثرت في ديكارت الذي اضطلع بتكييف المنهج للذرية لتوفير تفسير ميكانيكي للطبيعة بكل ظواهرها.

غير أن الكثير يعتبر التاريخ الفعلي لمنظومة الاختزال قد بدأ مع ديكارت ؛ الذي كان يتصور العالم تصوراً ميكانيكياً بالدرجة الأولى، معتبراً الواقع مادة، لامتناهي في أبعاده ؛ عرضه وطوله وعمقه، وهذا الامتداد اللامتناهي مقسم إلى أجزاء صغيرة تملأ مساحة الامتداد بأكمله تتحرك بحركة ميكانيكية، و«كان من فعل الحركة في المادة على مقتضى القوانين أن تكونت السماء والأرض والسيارات والمذنبات والشمس والنجوم والضوء والماء والجبال والمعادن والنباتات والحيوانات والأجسام الإنسانية.. تكونت كلها بمحض فاعلية الحركة في الامتداد، دون أي شيء من تلك الكيفيات التي أضافها أرسطو والمدرسيون إلى المادة»⁽²³⁾. وهذا التصور المادي للواقع يمكن الإفصاح عنه بجملة من القوانين الرياضية. يمكن القول إن المادة عند ديكارت، من حيث طبيعتها البسيطة الأولى، تتصف بأنها كم متصل غير قابل للتمدد غير المحدود أو للقسم غير المتناهية، وذلك في المقدار الهندسي المتجانس وذو الأبعاد الثلاثة. وهذا التصور الديكارتي للمادة لا يختلف في جوهره عن تصور فلاسفة اليونان الأوائل⁽²⁴⁾.

في تصور ديكارت وجود واقعية ثنائية : عقلية ومادية ؛ فالواقعية المادية (الفيزيائية) طبيعة ممتدة في المكان، وواقعية عقلية حاضرة في الوعي. وكلاهما واقعي، لأن حتى عالم العقل لا يقل واقعية عن عالم المادة. يستند هذا المعنى للواقعية انطلاقاً من الفلسفة الديكارتية ذاتها ؛ فنحن ندرك أنها قائمة على ثنائية (Dualisme) هي الروح كجوهر غير مادي يتميز بالتفكير، والجسد كجوهر مادي يتميز بالامتداد والقابلية للقسم. وتأكيد هذه الثنائية بين المادة المفكرة والمادة الممتدة يكون ديكارت قد أسهم في تحرير العالم المادي من أي ارتباط بالإيمان الديني، ما يتيح للعلم فرصة تطوير تحليله للعالم انطلاقاً من مبادئ متحررة من أي مواصفات روحية أو إنسانية، وغير مقيدة بأي عقائد لاهوتية جامدة⁽²⁵⁾، هذا الأمر نتج عنه توصيف ديكارتي للكون باعتباره كونا ميكانيكياً فيما عدا الله والنفس العاقلة.

انطلاقاً من هذه الثنائية الاختزالية، قام ديكارت بسحب الحياة لا من الطبيعة وحدها، بل ومن الكائن الحي عندما جعل منه مجرد آلة⁽²⁶⁾، وهو يصرح بذلك في قوله : «أنا لا أعتقد بوجود أي فارق بين الآلات التي يصنعها الحرفيون، وبين مختلف الأجسام التي تتولى الطبيعة وحدها تركيبها»⁽²⁷⁾.

وبهذه الفلسفة الاختزالية تمكن ديكارت من فهم وتفسير كيفية عمل جسد الإنسان آلياً، فصاغ مفهوم الفعل المنعكس ليرمز منه الطابع الآلي للسلوك الحركي عند الإنسان، كما شرح العمليات التي يقوم بها الجسم / الآلة ميكانيكياً مثل الهضم ونمو الأعضاء وعمليات فسيولوجية أخرى التي تتم بصورة آلية كالتنفس والنوم واليقظة واستقبال الصوت والضوء والشم والحرارة... فجميع هذه العمليات الموجودة في هذه الآلة يشبه نظام أعضائها حركات الساعة، وعليه فإن الأجسام آلات : دقيقة في أجزائها، كثيرة في تعقيدها، عجيبة في صنعها، وهو ما يجعل في النهاية «منطق الكائن الحي يبدو وكأنه لا يشذ عن منطق سائر الكائنات، فلقد أضحت النزعة الميكانيكية بمثابة النموذج النظري لتفسير الكائن الحي نفسه، وذلك في ظل اختزال الطبيعة إلى قوانين ميكانيكية»⁽²⁸⁾.

يمكن القول، أن ما غلب على الفكر الديكارتي هو تلك النزعة الآلية الميكانيكية الاختزالية، التي

اختزلت الكائن إلى مجرد آلة لا يمكن تفسيرها إلا بالقوانين التي تتسحب على العالم الطبيعي، أي خضوع الكائن الحي إلى القوانين نفسها التي تخضع لها المادة الكونية. وبالتالي لم يخرج ديكارت عن روح علماء العصر الكلاسيكي الذين ينادون ببساطة قوانين الطبيعة. ويرجع ديكارت تلك البساطة إلى بساطة "الطبيعة الإلهية" ذاتها، تلك التي تسلك في فعلها أقصر الطرق. انطلاقاً من ذلك اعتمد ديكارت على مبدأ البساطة الإلهية لتأكيد جملة من المبادئ العلمية التي كانت لها أهمية كبيرة في عصره مثل حركة الأجسام في اتجاه مستقيم، وثبات كمية الحركة في العالم. وقد ترتب عن ذلك أن اعتقد ديكارت بصحة قانون "القصور الذاتي" الذي قال به غاليلو.

وخلاصة القول، أن الفترة الممتدة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر كانت فترة انقلاب معرفي على المنظومة المعرفية الارسطوطاليسية المشبعة بالأفكار اللاهوتية التي أضفت عليها طابعاً تقديسياً. وكان هذا المنحى الانقلابي قد تحقق بعد الثورة العلمية التي بدأت بتغيير التصورات حول نظام الكون عندما نقل كوبرنيك مركزه إلى الشمس بدلاً من الأرض التي أثبت دورانها حول الشمس وتأكيد ذلك من قبل كبلر. ثم اعتماد الرياضيات - لا سيما مع غاليلو - في فهم الطبيعة وتحول اهتمام العلماء من البحث في الكيفيات إلى البحث في الكميات، واكتمل الانتقال إلى علم الطبيعة والمطابقة بين العقل والطبيعة مع ديكارت ونيوتن، فنتج عن ذلك نظام معرفي جديد قائم على الحتمية والسببية والتجزئة... التي شكلت دعائم العلم الكلاسيكي، وهي دعائم في جوهرها اختزالية، تبسيطية، مما يبرر أن نطلق على العلم الكلاسيكي اسم: "العلم الاختزالي" أو "العلم التبسيطي".

هذه الاستيمولوجيا الاختزالية كانت حقلاً للنقد، لاسيما من طرف إدغار موران (1921 - Edgar Morin) في مؤلفه الموسوعي الموسوم بـ "المنهج" (سنة - 6 - أجزاء)، فهو يعتبر أن منظومة التبسيط قد حكمت الغرب وخطاباته، وبحكمها هذا قد شكلت اللاوعي الغربي في مساره الفكري، إذ أن «الصيغ المبسطة للمعرفة تشوه الوقائع أكثر مما تعبر عليها، ومن ثم فهي تنتج العمى أكثر من مساهمتها في التوضيح»⁽²⁹⁾. ومن ثم سيكون التعقيد - عوض التبسط - هو مفتاح المعرفة العلمية، باعتباره يمثل تحدياً للعقل ودفعه للتعامل مع الشكوك والتناقضات واللايقين، وبهذا المعنى فإن التعقيد ليس توصيفاً للمعرفة العلمية ولا هو جواباً يقدمه الفكر عن المعرفة، بقدر ما هو طريقة أو منهج معرفي يسمح بدراسة مختلف الارتباطات بين مختلف فروع المعرفة ويولد فهماً أفضل للكون، ومن ثمّ الماضي قدما في بناء المعرفة العلمية وتفسيرها وتحديثها، لأننا - حسب إدغار موران - «مازلنا في حالة عماء اتجاه مشكلة التعقيد [...] وهذا العماء هو جزء من همجيتنا، فمازلنا في عصر الأفكار الوحشية، والعقل البشري مازال في عصر ما قبل التاريخ، إن الفكر المعقد وحده يسمح لنا بتمدين معرفنا»⁽³⁰⁾. لقد ولى عصر البساطة إلى الأبد، ولا بد من مواجهة التعقيد والتركيب، وقد يكون لهذه الاستيمولوجيا التركيبية عند موران موضوعاً مستقلاً بحول الله.

المراجع:

- علي، حسين، فلسفة العلم المعاصر ومفهوم الاحتمال، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر، د ط، القاهرة، 2005.
- أبو زيد، سمير، العلم والنظرة العربية للعالم، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 2009.
- برهيه، إميل، تاريخ الفلسفة - الجزء الرابع: القرن السابع عشر، ترجمة: جورج طرابيشي، د ط، دار الطليعة للطباعة والنشر، د ت، ص 18.

- تارناس، ريتشارد، **آلام العقل الغربي : فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم**، ترجمة : فاضل جتكر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط 1، 2010.
- روبرت.م. أغروس، جورج.ن. ستانسيو، **العلم في منظوره الجديد**، ترجمة كمال خلالي، عالم المعرفة، العدد 134، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.
- سبيلبرج، نيثان و اندرسون، برايون، **أفكار سبع هزت العلم**، ترجمة : أحمد عبدالله السماحي وفتح الله الشيخ، كلمات عربية للترجمة والنشر، ط 1، القاهرة، 2010.
- كرم، يوسف، **الطبيعة وما بعد الطبيعة : المادة – الحياة – الله**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط 1، القاهرة، 2014.
- كرم، يوسف، **تاريخ الفلسفة الحديثة**، دار المعارف، د ط، القاهرة، د ت.
- نفاذي، السيد، **السببية في العلم وعلاقة المبدأ السببي بالمنطق الشرطي**، دار الفارابي، ط 1، بيروت، 2006.
- نفاذي، السيد، **الضرورة والاحتمال بين الفلسفة والعلم**، دار التوزيع للطباعة والنشر، ط 2، بيروت، 2005.
- هاشم براون، جهاد، **إشكالية الاختزالية في فلسفة العقل وتبعاتها على الإيمان بالله ومبدأ النفس**، سلسلة ورقات طابة، رقم 2013/7.
- يفوت، سالم، **ابستمولوجيا العلم الحديث**، دار توبقال للنشر، ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص 83.
- روزنبرغ، أليكس، **فلسفة العلم : مقدمة معاصرة**، ترجمة : أحمد عبدالله السماحي وفتح الله الشيخ، المركز القومي للترجمة، ط 1، القاهرة، 2011.
- طريف الخولي، يمنى، **فلسفة العلم في القرن العشرين**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، القاهرة، 2009.
- موي، بول، **المنطق وفلسفة العلوم**، ترجمة : فؤاد حسن زكريا، دار نهضة مصر، القاهرة، د ت.
- وانبرغ، ستيفن، **أحلام الفيزيائيين، بالعثور على نظرية نهائية، جامعة شاملة**، ترجمة : أدهم السمان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 2، دمشق، 2006.
- Edgar Morin, **Introduction à la pensée complexe**, Éditions du Seuil, Paris.

المجلات :

- 1- عماد فوزي شعبي، الاختزالية : من ابستمولوجية (الواحد) إلى نظرية كل شيء، مجلة جامعة دمشق، المجلد 22، العدد 3- 4، 2006.

القواميس :

- 1- جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، المجلد الثاني، دار الكتاب اللبناني، د ط، بيروت، 1982.

الهوامش :

- (1) - حسين علي، **فلسفة العلم المعاصر ومفهوم الاحتمال**، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر، د ط، القاهرة، 2005، ص 47.
- (2) - السيد نفاذي، **السببية في العلم وعلاقة المبدأ السببي بالمنطق الشرطي**، دار الفارابي، ط 1، بيروت، 2006، ص 82.
- (3) - يمنى طريف الخولي، **فلسفة العلم في القرن العشرين**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، القاهرة، 2009، ص 87.

- (4) - حسين علي، فلسفة العلم المعاصر ومفهوم الاحتمال، مرجع سابق، ص 48.
- (5) - السيد نفاذي، الضرورة والاحتمال بين الفلسفة والعلم، دار التنوير للطباعة والنشر، ط2، بيروت، 2005، ص 29.
- (6) - روبرت.م. أغروس، جورج.ن. ستانسيو، العلم في منظوره الجديد، ترجمة كمال خليلي، عالم المعرفة، العدد 134، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص 107.
- (7) - أنظر إلى :ديكارت، قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة :سفيان سعد الله، دار سراس للنشر، د ط، تونس، 2001، ص 47 وما بعدها.
- (*) - الفلسفة الميكانيكية : هي ميكانيكية للاعتقاد ان العالم عبارة عن مادة وحركة، وأن كل الأشياء هي في نهاية تتألف من جزئيات أو ذرات، تتفاعل فيما بينها وفقاً لقوانين الطبيعة الثابتة، وقد تأسست هذه الفلسفة الميكانيكية بداية مع غاليليو ثم ديكارت واكتملت مع نيوتن. وهي اختزالية لأنها من جهة تقوم على اختزال كل أنواع الحركة في النوع الميكانيكي، ومن جهة أخرى تنظر إلى كل ظواهر الوجود - حتى الإنساني منه - باعتبارها آلات وهو ما يعرف بالآلية الميكانيكية. وجنرالوجياً ترجع مماثلة العضوية الحية بالآلة إلى أرسطو؛ فهو الذي وجد في صنع آلات العسكري كالمجانيق إمكانية مماثلة حركات الحيوان بحركات ميكانيكية آلية.
- (8) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، المجلد الثاني، دار الكتاب اللبناني، د ط، بيروت، 1982، ص 209.
- (**) - يقول ليبنيتز: «ليست المونادة سوى جوهر بسيط، يدخل في تكوين المركب، والبسيط معناه ما لا أجزاء له».
- انظر إلى : المونادولوجيا والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهي، ترجمة : عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، د ط، القاهرة، 1978، ص 125.
- (9) - جميل صليبا، المرجع نفسه والمكان.
- (10) - انظر إلى : عماد فوزي شعبي، الاختزالية : من استيمولوجية (الواحد) إلى نظرية كل شيء، مجلة جامعة دمشق، المجلد 22، العدد 3- 4، 2006، ص 249.
- (11) - المرجع نفسه، ص 612.
- (12) - سمير أبو زيد، العلم والنظرية العربية للعالم، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 2009، ص 298.
- (13) - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، المجلد الثاني، مرجع سابق، ص 612 - 613.
- (***) - الفلسفة الظواهرية أو الظاهراتية *Phénoménalisme* هي المذهب القائل بالوجود الحقيقي للظواهر وإنكار الجوهر المادي. ويزعم أصحاب هذا المذهب أن الإدراك لا يكون إلا بظواهر الأشياء، أي بما تبدو عليه، بمعنى أنه إدراك بما ينطبع من الظواهر على الحس، وما يتخلف عن هذا الانطباع من صور، وما يترتب عليها من أفكار، وعلى ذلك يكون الحديث عن الشيء، حديثاً في الواقع عن انطباعات عنه، وليس عن الشيء نفسه، وكأن وجود الأشياء هو وجودها في الوعي، وليس وجودها في الواقع، والتفكير بها أو الحديث عنها هو إيجاد لها، وهذا ما يسمى بالظاهرية اللغوية التي قال بها آير (1910- 1989 A.J.Ayer) وبيرس (1939- 1914 C.S.Price) وبرتراند رسل (1869- 1971 B.Russel).

يمكن التمييز بين معنيين للظاهرية، المعنى الأول : الذي يقول إنه لا وجود إلا للظواهر، وإن ما يسمى بالشيء في ذاته ليس سوى لفظ أو مفهوم، وهو مذهب هيوم، والمعنى الثاني : وهو الظاهراتية أي المذهب القائل بوجود الشيء في ذاته، وأنه غير مدرك، فالعقل يدرك الظاهرات وحسب، أي ما يحدث في الزمان والمكان، ويتجلى هذا المذهب في نقدية كانط وفي

- وضعية أوغست كونت.
- (14)- المرجع نفسه، ص 613.
- (15)- يميز ارنست ماير (1904 – 2005 E.W. Mayr) بين ثلاثة أنواع من الاختزالية : **الاختزالية التكوينية** وهي طريقة لدراسة الأشياء باستقصاء مكوناتها الأساسية. و**الاختزالية النظرية** وهي تفسير نظرية بمجملها في إطار نظرية أوسع. و**الاختزالية التفسيرية** وهي مقولة أن مجرد معرفة المركبات أو المكونات النهائية لمنظومة معقدة تكفي لتفسيرها.
- نقلا عن : **ستيفن وانبرغ، أحلام الفيزيائيين، بالعثور على نظرية نهائية، جامعة شاملة**، ترجمة : أدهم السمان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 2، دمشق، 2006، ص 53.
- (16)- أليكس روزنبرغ، **فلسفة العلم : مقدمة معاصرة**، ترجمة : أحمد عبدالله السماحي وفتح الله الشيخ، المركز القومي للترجمة، ط 1، القاهرة، 2011، ص 160.
- (17)- المرجع نفسه، ص 155.
- (18)- جهاد هاشم براون، **إشكالية الاختزالية في فلسفة العقل وتبعاتها على الإيمان بالله ومبدأ النفس**، سلسلة ورقات طابة، رقم 2013/7، ص 1.
- (19)- يوسف كرم، **الطبيعة وما بعد الطبيعة : المادة – الحياة – الله**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط 1، القاهرة، 2014، ص 119.
- (20)- في الحقيقة لا يمكن تفصيل كل تاريخ المذهب الذري، ويكفي هنا أن نشير إلى أن إن المفهوم الذي يعتبر الذرات أصغر جسيمات لا تقبل التجزئة وتتألف منها جميع المواد، ظهر لأول مرة في القرن الـ 5 ق.م، في أعمال الفلاسفة اليونانيين القدامى أمثال **ديمقريطس** الذي أكد انفصال إشكال الوجود وكثرتها، وأن كل الظواهر ينبغي أن تفسر عن طريق فكرة جزيئات مادية تبلغ حدا هائلا من الصغر، لا تتغير ولا تتجزأ، هي الذرات. ثم **أبيقور** (320 ق.م – 270 ق.م) الذي اقتبس هذه الفكرة، وأدخل عليها فكرة قدرة الذرة على الانحراف، دون وجود علة خارجية لانحرافها، ودون أن تصطدم بشيء آخر. ثم **لوقيبوس** والشاعر **لوكريس** (99 ق.م – 55 ق.م) الذي بين في قصيدته "طبيعة الأشياء" فلسفته الطبيعية التي تقوم على الذرة. وكان مفهوم الذرة افتراضيا ولم يستند إلى معطيات تجريبية، وحلت محله - فيما بعد - ولفترة طويلة دراسة **أرسطوطاليس** التي ظهرت في نفس العصر تقريبا. ولم تبدأ دراسة الذرات إلا في القرن السادس عشر مع **غاسندي** (1592 – 1655) ثم **جيردانو برونو**، واكتمل التفسير الذري في الفيزياء والكيمياء كفرضية علمية مع **ديكارت** و**نيوتن** و**لافوازييه** ... وغيرهم كثير. أنظر إلى : **بول موي، المنطق وفلسفة العلوم**، ترجمة : فؤاد حسن زكريا، دار نهضة مصر، القاهرة، د ت، ص 318.
- (21)- سبيلبرج، نيثان و اندرسون، برايون، **أفكار سبع هزت العلم**، ترجمة : أحمد عبدالله السماحي وفتح الله الشيخ، كلمات عربية للترجمة والنشر، ط 1، القاهرة، 2010، ص 128.
- (22)- ريتشارد تارناس، **آلام العقل الغربي : فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم**، ترجمة : فاضل جتكر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط 1، 2010، ص 318.
- (3 2)- يوسف كرم، **تاريخ الفلسفة الحديثة**، دار المعارف، د ط، القاهرة، د ت، ص 77.
- (24)- لتفصيل التصور الديكارتي للكون، انظر إلى : **ديكارت : العالم، أو كتاب النور**، ترجمة : إميل خوري، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 1999، بداية من 63 وما بعدها.

-
- (25)- ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي : فهم الأفكار التي قامت بصياغة نظرتنا إلى العالم، مرجع سابق، ص 335.
- (6 2)- إميل برهيه، تاريخ الفلسفة - الجزء الرابع : القرن السابع عشر، ترجمة : جورج طرابيشي، د ط، دار الطليعة للطباعة والنشر، د ت، ص 18.
- (7 2)- نقلا عن المرجع نفسه، ص 110.
- (8 2)- سالم يفوت، إستيمولوجيا العلم الحديث، دار توبقال للنشر، ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص 83.
- (29)-Éditions du Seuil, Paris, 2005, p 24. Edgar Morin, Introduction à la pensée complexe, op.cit., p 10.

ابستمولوجيا العلاقات النسبية اللسانية

حديث عن منطق اللغويات الاسنقراطية

أ/ مصطفى عبد القادر، جامعة تيارت

الملخص باللغة الإنجليزية:

If this article is the subject of the real is a kind of jurisprudence "synthetic transcendental" to Epistemology relative relations sense Constitution of understanding according to the logic of linguistics inductive; where we find the rooting of the impact of modern linguistics at the human sciences; psychological and social private between the two positions or Trahin cognitive and practical; with pigments to subtract criticized him. Watching them, perhaps in the form of justification or legal ratification of the target dialectics finds editorial ideas and writing in the following paragraphs; with Rsd and offer views of the most controversial in the major theories and philosophies that we take into account her address as "all," and the thought of its men of moderate and put in Abestmah image always pull on the human sciences.

This work may be to some extent a relatively brief - and is reasonable - because we believe that the most important thing in the case is the "cognitive" after Bstna of hand "methodology" when editing; and we are all over it but that track the status of ideas "under different addresses Bashkl claim that is unprecedented - the humility of effort - and be our purpose to consider "alternatives" and specifically the effects Albesako- sociological. not for nothing but to have a picture of the reality of Humanities (psychological / social) and the amount of the relative linguistic Bazaúha; Issues in theory was applied or multiple seizures worth to build them; in order to contribute to - and if Balnzer little - in the conclusion of a "humanitarian" dialogue imagine integration within the readings of interest juncture "lingual" contemporary.

The following pages are linked questions - accompanying statements Kpra philosophers and held - so to speak causal relationship between language and synthetic Btaadtha and Tfkikadtha; in the midst of falling into the inevitable sign of linguistics phrase "Albesako-sociological" ... Do I always manage speech language within a closed circle of Alabstimologih provisions that do not go out of frames the problem of human truth in linguistic theory of knowledge. Is it really "meaning not completed until the dispute limits" ... in terms of arbitration axioms "relative" language. ?

Keywords : philosophy of language - linguistics - epistemology - Psychology - Sociology - logical - humanities analysis. . .

ملخص: لا نكتف - فيما يخص حاصل احتمالية أن يكون ملمحُ التأثير متبادل بين الاستيمولوجيا اللسانية والميتودولوجيا الإنسانية وهو أمر جلي لمن يطلع عن كُتب على عملنا هذا - فحسب.. إنها سنسعي

لإيضاح أنه لم يثبت بالمرّة أن " الميتافيزياء " هي الحلقة الأضعف في الدراسة التفكيرية - في هذا التساوق بين اللغة و علوم الانسان - فرغم أن الدعوة لإقصاءها - في وقت من الأوقات - كان لأسباب تاريخية و ابستمولوجية غداة تطبيق استكمال تطبيق التجريب على المعارف الممكنة التحقق ' إلا أنها قد تُعود - كما يبينه هذا المقال المتواضع بصور غير مباشرة - من منافذ قنوات نظرية الدلالة اللغوية لتبعث " الأفكار " الذهنية الغنية بـ " التحاليل " و لو جدلاً! و تُبقي بذات ما للعلم للعلم . و ما لفلسفة للفلسفة .

الحديث عن منطق اللغويات الاستقرائية ؛ في متون هذه الاستخلاصات و في التهميشات و كذا التعليقات المصاحبة شيق ؛ و إيماناً منا بأن الذي قمنا به يبقى مُتقبلاً بمعىة " طبيعة " العمل وطبعته بالأطر المُعنونة له ، ثم بالتصحيحات والتبويضات التي تطاله - غداة أية تعليقات أو مناقشات محتملة عليه - ليتضح ما لنا وما علينا شأننا شأن الكثيرين من الكتاب و طلبة الدراسات العليا ؛ و حتى أساتذة الجامعات المغمورين .

إن " أطروحات " أو " مسائل " هذه الكتابات؛ أما المؤاخذات التي تهم (الشكل) والمنهج والشبهات التي تتعلق بـ (المضمون) ويمدى تطبيق منهج " ابستمو- لساني " في دراسة ظواهر الوقائع الإنسانية نفسية كانت أو مجتمعية بلغة ما سيعرف بـ " المدخل الدلالي " فسوف تأخذ بعين الاعتبار ؛ لكن نحن بحاجة إلى أن نحض بالنشر ؛ نشر " المُتميزة " منها - على الأقل - من طرف الجهات المعنية ' (في المجالات المحكمة أو في الكتب الجماعية التأليف) و إن لم يكن لذلك علاقة بالهدف الأساسي لهذه المحاولة .

تقديم :

إن موضوع هذا المقال في الحقيقية هو نوع من الاجتهادات " التركيبية التجاوزية " لإبستمولوجيا العلاقات النسبية بالمعنى التأسيسي للفهم وفق منطق اللغويات الاستقرائية ؛ حيث نجد فيه تأصيل لتأثير اللسانيات الحديثة على علوم الإنسان ؛ النفسانية والاجتماعية خاصة بين الموقفين أو الطرحين المعرفي و العملي ؛ مع إصباغ للطرح إياه بانتقادات . المتأمل فيها لعله يجد فيها شكل من التعبير أو التصديق الاعتباري للجدليات المستهدفة بالتحرير أفكاراً و كتابةً في الفقرات التالية ؛ مع رصد و عرض للآراء الأكثر إثارة للجدل في كبرى النظريات و الفلسفات التي راعينا التطرق لها كـ " كل " ولفكر رجالها المعتدل و تطرح في صورة ابستمية دائماً تتسحب على علوم الإنسان .

قد يكون هذا العمل إلى حدّ مقتضب نسبياً - و هو أمر معقول - لأنه في اعتقادنا أن أهم ما في القضية هو الناحية " المعرفية " بعد أن بسطنا للناحية " المنهجية " عند التحرير ؛ و نحن في كل ذلك إنما ذلك نتعقب مكانة الأفكار " تحت عناوين مُختلفة بشكل نزع أنه غير مسبوق - على تواضع الجهد - ويكون غرضنا النظر في " البدائل " و تحديداً في المؤثرات البسيكو- سوسيولوجية . لا لشيء سوى لتملّك صورة عن واقع العلوم الإنسانية (النفسية / الاجتماعية) ومقدار النسبية اللسانية بإزائها ؛ فالمسائل فيها نظرية كانت أو تطبيقية مُتعددة المصادر تستحق أن نبني عليها ؛ لأجل المساهمة - و لو بالنزر القليل - في إبرام حوار " إنساني " نتصور اندماجه داخل القراءات التي تهم المنعطف " اللساني " المعاصر .

ترتبط أسئلة الصفحات التالية - المشفوعة بأقوال كبراء الفلاسفة و التي تعقد - إن صحّ التعبير- علاقة سببية بين التركيبية اللغوية و بتاءاتها و تفكيكاتها ؛ في خضم الوقوع في حتمية قيام دلالة العبارة الألسنية " البسيكو- سوسيولوجية " ... أيتعين دائماً أن تُدير الخطاب اللغوي داخل دائرة مغلقة من الأحكام الاستيمولوجية التي لا نخرج عن أطر مشكلة الحقيقة الإنسانية في نظرية المعرفة اللسانية . وهل فعلاً " لا يكتمل معناها إلا في حدود مجادلة " ... من مُنطلق تحكيم مُسلمات " النسبية " اللغوية ؟ .

الانتقادية الاستيمولوجية و المعرفة اللسانية :

إذا كان العلمُ - إجمالاً- لا يتكلم إلا " الحروف " فعن أية لغة عداها نتحدث يا ترى ؟ ؛ إننا نستخدم اللغة في أحاديثنا عن هذه " اللغة " و في أحكامنا عنها ؛ أن الألوان أن نستعين بقراءة الاستيمولوجيا اللغوية . هذا الاختصاص المستجد نسبياً الصاعد نجمه في سماء اللسانيات ؛ و قد جاء لأجل معالجة بل و لحسم عدة خصومات تخص البنية الكبرى أو البنية الصغرى للدلالات غير الحرفية و اللأرمزية بما فيها مستجدات ما بعد خصومة " اللغة - و الفكر " التليدة في عهد الوسائط الرقمية و (الفعالة) و كذا ما يُطلق عليه مسمى الذكاء الاصطناعي الحاسوبي ' فضلاً عن " الثقل " التي تمّ القفز بها على نقطة الإرجاع من " المحتوى " إلى " الشكل " مع عقلنة الرصيد الرموزي للدلالات ؛ و ربما الفضل الأول في ذلك يعود إلى نوع من " القدرة على الإبصار ، و التفكير " 1.

انطلاقاً من معضلة الدلالة خصوصاً يأتي لأجل تحقيق ما لم تستطع الألسنية تحقيقه ؛ و قد هرع علماء في علم الإنسان الاجتماعي إلى القول بـ " كلية المعرفة " برغم تعدّد مناهجها و مواضعها و صبّغ تحولاتها من " المشكلة " إلى " النظرية " ؛ على ذكر ما هو نظري ؛ فإن الأفكار النظرية المطلقة تنهار و يظهرُ زيفُ كثير من الاقتناعات فيها أمام الأزمات النفسية / والاجتماعية / و اللغوية حتى ' .. لذا من الطبيعي أن البحث العلمي الاجتماعي مُتداخل الميادين برغم اندراج بعض شعبه في دوائر الاختصاص الضيق ممّا يُقوي من احتمالية انبعاث الإشكالية المتراجحة حول " النظرية " و " التطبيق " في عود على بدء ! .

ما يعرف أكاديمياً و معرفياً بـ " النقد الإستيمولوجي " ● يُقدم خدمة نقدية بعنوان تقييم أدات الفكر اللغوي المستجد أكثر من مجرد التنسيق بين العلوم الإنسانية ؛ و بين اللسانيات . بالفعل اللغة لا تتضمن أيّ بُعد استيمولوجي في ذاتها . لكن - و هذه نقطة جد حساسة - علينا إبراز الوظيفة غير المرئية لها بتعميق مجالات الترابط الألسني الإستيمي ' لعلّ وعسى أفضى ذلك إلى فهم موضوعاتي لجملة العلوم الإنسانية قاطبة .

إن اللغة كـ " نسق " و كـ " ظاهرة " في التعامل مع التصورات و التصديقات بحاجة إلى تحليل " حيادي " لها - وبها لتحقيق من ماهياتها المحدثّة ؛ الـ " ما فوق نحوية " ثم من مدى ملائمة المفاهيم و المصطلحات إيّاها لسيمولوجيتها و إنه لا يكتمل ذلك على أكمل وجه إلا بقراءة " رياضياتية " أو " جبر- نحوية " مرة أخرى ' فكما يُقال المبادئ المنطقية هي الحقائق الأولية النسبية .

إن منطلقُ النقدِ الاستيمولوجي للمعرفة الإنسانية اللسانية هو التحليل الفكري لتمثلات العقل اللغوي و"تبدلاته" التحليلاتية " باعتبار السمات التي تكفل إعادة تكوين الأنظمة الدلالية ؛ أما سمة كل استراتيجية استيمولوجية قادمة فهي أنه إذا كانت الموضوعية هي لب المشكلة الإنسانية و هي (الهدف) فإن هذا يُحتمُ علينا كدارسين للمحيط الداخلي للـ " الأنا " و الخارجي لها الانتباه إلى البنيات الأخرى (عدا البسيكو- سوسيولوجية) لهذا الموضوع المتناول برمته ، بعد أن آل الأمر إلى " الأسلوبيين " و النُحاة اللسانيين لتقديم الحلول التمايزية الممكنة - مثلاً - بالاتكاء على ذلكم السند الرياضي كأساس لا يُشك فيه و كأساس أوحده لبقية العلوم ؛ بما فيها تلك المشخنة بالمعطيات الكيفية أو الكلامية●●... مع اتخاذ شيء من المنهج الاستبطاني للتدليل على أولية ؛ أو أسبقية المعرفة اللغوية الرمزية على العقلية المجردة منها بتحليلها المُتخيل بالذهن إلى عناصرها المنطقية و اللسانية .

سميوطيقا البسيكو- سوسيولوجيا :

يقودنا التحليل الأنف الذكر إلى القول بإمكانية تشييد شكل من العلم الـ استيمو- لساني مبني على " تريبس " و مستند إلى تلك التحديدات السيميوطيقية و هذا مع تحوّل مشهود للمنطق من نظرية الاستدلال التقليدية إلى الحساب الماتيماتكي في مسعى جاد لوضع اليد على ما اصطلح على تسميته بالثغرة المنطقية في النظرية التوليدية على وجه التحديد .

دراسة البنيات المنطقية للغات المرسلّة تفرضُ نفسها بعيد فحص القواعد (في اللغة العادية) و ما ألفت به فلسفة الرّفض القطائعية " العقلانية " من خلال رفض الوصاية على ما يُعتبر محفزات للذهن " الألسني " المتجدد بمفاهيمه المستمدة من روح العلم المتقددة علماً - و من ناحية أخرى - أن مسألة العلاقات بين علوم الإنسان لاسيما النفسانية و الاجتماعية - مع ما يعزوها من الفكر المنطقي الصارم - طرحت منذ أمدٍ ليس بالقصير و قد خلفت سجالات لا ضير من تقلب صفحاتها . إنه و على سبيل الإشارة ثمة من ينسبُه من حيث الإنثاق- أي المنطق - للنفس أو للاجتماع والحديث في هذا يطول ... على أن العلاقة بين اللغة - و المنطق هي دائماً علاقة انكفاء خاصة ١ . يستقيم ذلك منهجياً على الأقل و قد " تبين بعد النظر في طبيعة الاستدلال الرياضي أن المنطق حرٌّ في اصطناع النسق الذي يضعه و في أن يحدد الإشكالات والرموز و طريقة تركيبها " 2 .

تلکم الجزئية - في العبارة الأخيرة - هي مكن " التبدلات " التي تصنع طفرة في الـ " رمزية " لأن الوقوف على حقيقة الدلالات مع تركيب رياضي تنسيقي للأفكار إنما هو من صميم عمل " وضعيين " أو فنيين مولعين بالحصافة كناطقين تلقائين باسم نظرية ستعرفُ بنظرية تحديد و ضبط المصطلحات وفق ضوابط تقنية علمية ترابعية تكون لها قابلية للتعميم وبالتأكيد للتطوير أيضاً (أنظر لنمذجة لآليات تثبيت اللغة في الكمبيوتر).

محاولات إضفاء رسالة اشهارية ما على الطابع الأكاديمي ك نظام فرضي استنتاجي علمي في الأصل يُسقطُ على أرضية من التفكير اللغوي الذي يكون قد تأثر أياً تأثر بابستيمولوجيا معينة ؛ ذات تفكير انتقادي

استدلالي بدورها ' على أن الأمر في هذا إنما يتعلق بـ السلوك الابتكاري للغة●●● ... و لما نقفل راجعين إلى الحجاج البرهاني الخطابي يبدو أن منطلق الالتزام بقواعد مُمنهجة هو صفة أساسية مميزة للمعرفة العلمية .

مرحلة نقدية بعد البنائية يتم فيها - مع الاستعانة الصريحة بأدوات المنهج الوصفي - تعويض أصول النقد التاريخي بـ نقد " تحقيقي " يفصل بين ما هو نظري / و ما هو ميتودولوجي في الإطار البحثي لكبريات نظريات العلوم الإنسانية والاجتماعية التكوينية - الوظيفية - البنيوية .. مع انفتاح اللسانيات على نماذج نظرية لـ علم الرياضة الفلسفي الجذر تتميز بذلك الطابع " الدينامي " و لا يمنع ذلك من إقامة أعمدة إنارة فكرية ذات أدوار كاشفة لها برغم البون الواسع - لحدّ ما - بين الحقيقتين اللسانية و الإنسانية من جهة و بينهما ' و بين حقيقة التعابير الرياضية التي تميل أكثر للعلم التجريبي . لكن مع شدة انساق السياقات التعبيرية في أكثر فروع العلوم النفسانية والاجتماعية تجاذباً بدا أنه أخيراً يُمكننا أن نتصور بجلاء نموّ قدرات توليدية لغوية مع - التناول التريضي مهما بدا لعلماء التطبيقات تواضعها - بما يُعطي إضافة للسان ؛ أو لـ (المفاهيم ذات الدلالة) تُحييها الاستيمولوجيا المفاهيمية .

الدراسة " الامبيريقية " أدت إلى تقدّم أساليب التحليل الإبتيمي المذكور ؛ إذ المسلك الذي ينتهجه هذا الأخير يروم بلوغ القدرة على ترجمة عبارات لفظية إلى رموز القيم الجديدة ممّا يُساهم في بسط حلول مشكلات " ثورات " علمية بمعينة الفلسفة الرياضية ' على أن الإنسان بصفته " إنسان " يبقى قيمة أكبر من الرياضيات كما يُقال !

لكن - في المقابل - ثمة عدّة تساؤلات تريد لو تطرح نفسها (...). ألم يقل أحد أكبر الحدسانين يوماً أننا نحيا في منطقة وسطى بين الأشياء / و اللغة 3 . ألم تمثل الحلول المتقدمة - متجلية في الحدسانية - حدثاً هاماً في عالم الفلسفة ؟ . ألم يكن مجرد القياس المنطقي من قبل فقط بحثاً في " أشكال " المتناقضات ، و حتى المغالطات ؛ ثم هل للسانيات ، و لابستيمولوجيا المعرفة منطق من غير جنسها ... و ما دخل لسان دوال الرياضيات في ثانيا التناول الذي يخص أوراق مُستلة من أعمال السايكولوجيين / و السوسيولوجين ؟ . في فلسفة العلوم الإنسانية المفتوحة على غيرها من الفلسفات و العلوم تلك الأسئلة تحلل ، و لا تناقش ! .

إن أهل " الدلالة " - كعلم فونولوجي الروح - يحبذون استعمال أدوار اللسان (النحوية) ليشير إلى قضاياهم دون مراعاة " الشروط " المنطقية النفسية (الفطرية) أو الخارجية ضرورة ؛ ثم إن " نحوية " منظومة المبادئ / الأسس / والأوليات الرياضية لا يمكن أن تتسحب على جوهر اللسان باعتباره أداة جارية للكلام ؛ هكذا يكون من شأن أعمال ترجمة لسانيات اللغة الطبيعية إلى لغة الترييض إحدى الحلول الإبتيمية الوظيفية من باب محاولات نمذجة العلائق التي أنتجت أنساق صورانية على صعيد " العبارة " السيميائية المُحدثة ' و قد كانت وراء إزدهار لسانيات تطبيقية تحصيلية على مدرج تقدّم علم اللغة " البنيوي " رفقة برمجة لـ " إجرائية " و " علمية " علوم الدلالة المعاصرة .

تتكامل " اللسانيات " و " الإنسانية " خاصة بين علما النفس و الاجتماع و صار في وسع المراقب الابستيمي - كما يُطلق عليه في الدوريات الحديثة - البحث العاجل في مزايا و عُيوب التحليل المنطقي

السيكولوجي - أو- السوسولوجي للغة و في ذات الوقت يحتفظ بفكر يميز بين التصورات الذهنية و تطبيقاتها ؛ و يُقر بحقيقة استحالة تجريد المبحث اللغوي من صبغته الفلسفية و صفته " التخيلية " بالكلية و ذلك أن الذهنية الفلسفية / الاستيمولوجية تؤمن بإمكان تطور ؛ و كذلك تعدد " صور المعرفة الإنسانية " 4 و تقدر مبادئ العلم الرياضي الذي يُطبق على أوليات اللغة الجارية لا على أحوالها بالضرورة.

ستحز استيمولوجيا اللغة (الخاصة) - و هو ما يهمننا - نقاط لصالحها في نزالها (الشريفي) مع بنية الثورات العلمية - على رأى الأركيولوجيين النيوكلاسيكيين - مع الاتجاه نحو تثبيت موطأ أقدام لوجيك " الكشف " العلمي - على رأى كارل بوبر- وهو ما يدفع من بعيد ب الدراسات اللغوية - و اللغويات التجريبية تحديداً إلى الأمام و معلوم أن اللغويات الآن هي في مرمى النظر الثاقب ل (منظار اللسانيات) و قد حصل تصنيف المنهاج العلمي الذي يدرس اللغات " الحية " كما قلنا بوصفها نسقاً وظيفياً له قواعده الثابتة في صيرورته ؛ و بدأ تفسر ظواهر الخطاب الكلامي بالكيفية الوضعية دونما الحاجة للخروج عن الوجوه المعرفية البنائية ' كما هو حادث مع النظرية التوزيعية - التي كنا أخذنا أنفأ لمحّة عنها - و التي ذهبت تستخدم أشكالاً ترميزية مُستوحاة من عند علوم الحساب كأداة لإبراز الخصائص الشكلية لواقع اللغة .

سؤال تحصيل الحاصل " استيمولوجيا " علوم الإنسان هذه ؛ إلى أين ؟ . . . يطرح هذا " السؤال "
أكثر من علامة استفهام !! .

إنه " سؤال " ذو وجهة نظر انطولوجية شيئاً ما - متروكٌ إلى حين - في خضم الحديث عن اعتكاف أكثر المنشغلين النقديين بـ " العالم " الذي يُدور في فلكه اللسان (الأنفس / و الاجتماع) إلا أن الاستدعاء الاستقطابي إياه ؛ له مسوغاته و تجلياته ك (النقد الاستيمولوجي للسيمولوجيا ، و غيره) فضلاً عن الموقف الايجابي ، والقاطع في ذات الآن من مبدأ العلمية ؛ فالمسألة الإستيمية الرئيسية مسألة تزامنية - أو لنقل تعاقبية - بالمرّة و لذا باتت الوقائعية النفسية ' أو الاجتماعية للبنى الفونولوجية ، و التركيبية ، تحتل ركناً ركيناً على مستوى التركيب الإستعاري للمعطيات اللغوية تحت طائلة أحكام النحو- فونولوجي ل تبادلية " البنى " ، " و " الأنظمة " الدلالية العامة .

إن الانتفاع بنتائج الدراسات المنطقية من خلال تبيان امتياز المسائل اللغوية بين و يكاد يكون أمراً مفروغ منه ؛ لكن الملفت حقاً هو بزوغ فجر فرع اللسانيات الرياضية التي استأثرت بهذه التسمية في السنوات القليلة الماضية ؛ مما يُظهر لنا أنه لسوف يُعاد إحياء أدوار فلسفة الرياضيات وإشكالاتها و يُسهم في إذكاء ؛ ودعم الموقف القوي أصلاً للغة كـ " أداة " للتحصيل الذهني المعرفي ، مع العلم أن بعض الرياضيين - في هذا الصدد - يبدوا أنهم صاروا يميلون أكثر إلى الاهتمام ب الاعتبارات التكوينية (النفسانية) منها و حتى (الاجتماعية) و أكيد كذلك (الإحصائية) .. وهذا لأجل تطوير الأفكار العملية ' مع نوع من الوعي " الفوقي " الذي فحواه أن الألسنية منبتها التأصيلي " ماتيماتكي " النشوء ؛ فالكثير من آباء اللسانيات لطالما أعجبوا مع النظر الاستلهامي بالبناءات الهندسية الإستكمالية " اللا- إقليدية " المضمونة الدوام من حيث الصدق و ليس

الصَّحَّةُ ' لكن من دون أن يتساءلوا عن أقرب العلوم الصحيحة المسندة لها و المُلَفَّت في الأمر أن هذا ما بينته الفلسفة - تعريضاً مع التقليد الفرنكفوني °.

محاولة لوجيستية ابستمولوجية مُنسقة لفهم الواقع اللساني (كما هو) جديرة بالتأمل ؛ و بالاستحسان بطبيعة الحال فهي ليست بحثاً في علاقات الحدود و الأحكام . و إنما تحليل لنسق العلاقات بين العلامات ' و دمجها مع الماهيات ذات الترجمات " التَّرييضِيَّة " بُغْيَةً ملأ فجوات " الاشتقاقية " إن صح التعبير . إنه و (في مثال جد بسيط لغتي الرياضية إنما تعبرُ عن واقعي " الحاجيَّاتي " ؛ فأنا استعمل الرقم " سبعة " للتعبير عن عدد أيام الأسبوع الواحد أو في عدِّ الدنانير التي في اليَد .. ؛ كوصف لا يحدد عن الدَّقة لـ " مادي " و لـ " معنوي " كذلك) . على العموم علم العلامة كـ " سيميوطيقا " يسعى لتكييف منطوقات الوجود - كما صار وجوده لا كما كان - مع مستجدات التحليل الألسني ؛ تحليلٌ سيحملُ معه تأثير التحولات التقنية على صناعة و تسيير الموارد البشرية لـ " اللغة " - وبها ؛ كما هو الحال مع علم اللغة الحاسوبي °° الآخذ في الانتشار و في الإبهار أيضا !! .

موقف ليفي ستراوس ♦ :

أفكار الرجل أوغلت اهتمام الابستمولوجيين بفلسفة العلوم التي عنها نتحدث وبالمباحث التأسيسية في ما دون اللسانيات . من يكون ليفي ستراوس ♦ - ماذا يقول ؟ . إنه يرى أن :

- لغة العلوم الاجتماعية إنما ترمي إلى معالجة مفاهيم مُجردة لها ما يُقابلها في العالم و إلى أن تعبر عن الوقائع تعبيراً بالمقياس الكمي الممكن .

- التعابير الشبيهة بالرياضية عن موضوعات علومنا الإنسانية تعني ضبط الكثير من معطياتها عددياً ' و في ذلك سعيٌ لـ تجاوز إشكالية المنهج .

- رياضيات الإنسان دعمٌ كـ فلسفة . كـ تسمية . كـ ابستمولوجيا لطريقة التصوّر البنيوي و لحسابات منهاج قيم الدلالة التفاضلية . وفق سلمٍ كميٍّ لما يختص بالإمبيرقيات (القياس بدل الوصف - و التحليل) .

لقد حاول " ستراوس " تجاوز التعارض بين (الفهم) و (التفسير) كأُسْلُوبين سوسيو- عمليين بالأساس ؛ مع الإفادة من الخبرة الأنثروبولوجية . إنه كـ مُفكك و مُرسي للأنثروبولوجيا البنيوية يطمح لتوسيع مجال العلوم الإنسانية ليحتوي العلوم اللسانية ؛ التي تتوفر بعض وضعياتها و علائقها - داخل مناهجها - على قدرٍ معتبرٍ من العقلانية ؛ بعد أن وُثِّقت أواصر قرابة " مُكتشفة " بين اللسانيات - و الأنثروبولوجيا .

و " ليفي ستراوس " يربط بين اللسانيات و المبحث الأدبي و الاجتماعي ؛ فهو كـ فيلسوف " انثرو- إناسي " لا يتورع في الربط بين الميتافيزيقا و الأسطورة كما في الحديث عن الحياة البدائية و العيش الأول ؛ مُتوخياً منهجية علمية مستوحاة من الأساليب العلمية للسانيات في ذلك الزعم ! .

في مقام آخر : الملاحظة الاستيمولوجية الجديرة بالتأويل الذاتي أن فلاسفة الاختلاف الإنسانيين و الألسونيين تتعقد بينهم صفقة مشروع مشترك (حصل بالفعل بين شومسكي / و ميلر) بناءً على الخلفية المعرفية اللسانية للمنهج البنيوي ' و يمكن أن يكون هذا " الوفاق " موضوع نفسه و كنوع من الوفاق لحل أزمة يقين الإتساق البنائي بمعنية طرح استيمولوجيا اللغة و قد جاء كرد فعل على التبدلات في نظريات الأنساق مع تحديد مُحدث لصلات اللسانيات بالمنطق / و بالرياضيات ممّا يحتم تحديد القيمة الأستيمولوجية لهكذا اتصال . أما الهدف المُعلن فهو تطوير بنية رياضية الدرجات لسلم ترادفي للغات الطبيعية بما أن البنية المنطقية بدورها مشتركة بين اللغات الإنسانية ؛ بل هنالك منطق " نوعي " إبدالي من جهته داخل كل لغة بشرية سابقاً عن كل منطق صوراني ؛ أو رمزي رياضي و ما هو بالوضعي المنطقي و موقف كهذا يعبر عن شيء منه تيار " تأويلي " الذي بالمناسبة لم يكن بتاتاً على وفاق مع شقيقه الأكبر " التحليلي " . النموذجان هما (غادمير / راسل) .. و يُرسخ درس الاستيمولوجيا في الأذهان بُنى المفهوم العقلاني للمعرفة العلمية تجسيدا لمدّ الفكر العلمي الإنساني المستجد (على ذكر " المد " ؛ أيهما يشكل مداً للآخر ؛ البنيوية أم اللسانية ؟) يُستفسر عن ذلك مع عودة الفلاسفة من جديد للاهتمام بمشكلة المنهج و لكن هذه المرة تحت مجهر " فونيماتي " ليس بمفبرك لذلك الإلحاق الـ " إنسانو- لساني " مما يوسع نطاق الاشتراطات العلمية .

نظرات أخرى :

عن جدوى النظر في النظرية الاستيمولوجية ذات الروح الفكرية الجديدة في مجال الدراسات الإنسانية يُرينا أصحاب هذا المشروع النقدي الغير متطرفين لأرائهم ؛ كيف أنه ينصُ على اتخاذ موقف علني متماسك ناقد للعلم و ليس ناظم على أحدٍ من أفكاره ، أو رجالاته ، إنما يُرام معه بالذهن المجرد أن يصل إلى بلوغ إدراكات تهم الصيرورات العلمية الدلائلية - فيما يخص المعرفة اللسانية - المتصلة بالحياتين النفسانية ، و الاجتماعية على وجه الخصوص بناءً على ائتلاف في ما بين كل من " الإنساني " / و " التحقيقي " الإجرائي داخل أنماط من أقسام البحث المسائر لطبيعة المعرفة العلمية ؛ بحث تشعبيّ وإن سلك فيه طريقاً معكوساً^{٥٥٥} عدة مرّات استجابةً لدعوة اتجاهات رمزية جبرية محضة ؛ و مع الاضطلاع بتقريب التناظر بين " الاستيمولوجي " - و - " الدلالي " تكتمل الصورة إذ يُراد باللغة أن تكون متتالية نظام معرفي ذات حُدوس ابتكارية : مبادئ و أوليات ؛ نتائج و أهداف ...

إن رجلُ الاستيمولوجيا ليست اللغة بالنسبة له - في كل الحالات - هي أمّ القضايا (...) لكن و تبعاً لتطور الفكر الإنساني ؛ و مناهجه كان لزاماً تجديد قوايلها منذ عهد الدعوات التحسينية مع جورج مور . و فريجة و وكذا الحُلم بمونادة " اللغة العالمية الشاملة " و بـ لغة " الرياضة " بما هي مرآة العقل ... إلى غاية انتشاء النقد بـ " الإستيمو- تكوينية " التي أقحمها " البياجيون " - القائلون بأفكار جون بياجي - لأجل إثراء البنيات الأولية للمعرفة ؛ مع احترام انتظام تدريجي لتجريد المعاني الوظيفية للغة . فضلاً عن غايات أخرى في أنفسهم ! .

مهما يكن من أمر تنوع أو بالأصح تعدد " أزمنة " الاستيمولوجيات (استيمولوجيا الأنوار - استيمولوجيا النهضة - استيمولوجيا حديثة - ف معاصرة ...) و مهما يكن من تحديد لحقولها كذلك (

ابستيمولوجيا علوم الطبيعة التجريبية - ابستيمولوجيا علوم الإنسان الإجتماعية - ابستيمولوجيا القضايا التريضية - و المطلقة ...) فإن الذي يعنينا هو أن ابستيمولوجيا " الراهن " التي تركب اللغة ؛ و تمتطي علاماتها السميوطيقية ، تبتغي حقاً المغامرة السيمولوجية (كما وصفها بارث) فضلاً عن المعرفة بالنظريات الألسنية الكبرى . يظهر لنا أن إتباع أساليب إزدواجية ؛ سواء أكانت قاطعة أو مُعتدلة بمثابة نقطة إرجاع في عُرف ممثلي ما بعد الحداثة العلمية .

تصنيف العلوم الإنسانية ، و تصنيف كل عمل على حدا من الأعمال اللسانية ، مع توطيد أركان النزعتان المتلاصقتان " النقدية " / و " الإستمية " في بوتقة واحدة عجل ببلورة بنية كلية نسقية للغات الطبيعية و كذلك بنقل مركز ثقل المعركة الرموزية من على سكة التحليل الفلسفي الـ ما قبل بنيوي إلى خط سير العلم المتسارع ؛ مهّد لذلك توحد المنطق والرياضيات في الأصول ؛ علماً و أن المنطق التقليدي لم يكن مهتماً بالترميز اللغوي كما أن البُنيويون الأوائل ما كانوا يدعون أية جوهريّة لضروب " الأدلنة " التي يطلبون .

خُصوصية كل لغة لسانية - تبعاً لنداءات لسانيا ما بعد " حلقة فيينا " بضرورة وجود كليات فونولوجية - تهم في الواقع جميع اللغات من حيث انتظام عناصر الكلام الأساسية ؛ في وحدات تآلفية غير أن الارتقاء اللغوي المأمول اصطدم بصعوبات لم يتخطاها المنطق اللساني الذي لم يتغاضي عن العمق النفسي / و الامتداد الاجتماعي للكلام حتى أنه يقتبس من المنطق الجدلي فكرة " خلاف الأضداد " المستمر المؤدي إلى الحياة و فكرة الانتقال عن طريق الجدال البناء أيضاً كـمقولة مُحركة للفكر و لغته و غير بعيداً عن هذه الفكر ساد تفاؤل بقيام تجارب محترفة ذات ملمح سيميائي في ظل وجود بنية رياضية مُكتشفة أو بالأحرى أعيد اكتشافها أسهمت في " ألسنة " أنظمة العلامات برغم محدودية النتائج المُدققة في التطبيقات العامة .. !

لقد انصبت تآليف عدّة على التحليل الرياضي وعلى فك الارتباط بين المفاتيح التجريبية و الرموز التوثيقية وبيّن لنا جون فال - مثلاً - أن بوانكاريه ♦♦♦ كـ " رياضي كبير يرينا كيف تتميز الرياضيات بمبدئها الاستقرائي عن الاعتبارات المنطقية الخالصة باسم فاعلية اللغة ، و أنماط التعبير " 5 .. ثم إن أقوال العلماء الوصفية و التركيبية لا تتوقف عند صدق ماهياتها المتصورة فحسب ؛ بل على تواجدها في إطار معالجات تعميمية و التي يُنطلق فيها من أن تكون اللغة يتيح إنتاج عدد لا محدود من الجمل ، و التراكيب.

إن أهمية الوظيفة الابستيمولوجية (الثاقبة) تتمثل في لفت الانتباه إلى نقل لب المشكلة " التحويلية " من الصورانية الكمونية إلى المنطقية الترميزية بالإضافة إلى إحالة الباحثين إلى النقد الذاتي " للمرجع " ؛ فلا يُقر بصحة نظرية في المعرفة عموديا أو لنقل (شكلاً) إلا في حدود إرجاعها أفقياً إلى (مضمونها) و هو ما تتكفل الابستيمولوجيا به ... و أكثر من ذلك تتعداه إلى إعداد تقريرٍ عن كيفيات تجسيد التفكير اللساني العام في حل مشاكل الواقع الفعلي ما كان ذاتياً منه و ما كان موضوعياً كذلك ؛ أو بالأقل التغلب على جزء يسير منها بفضل الإمساك عن التأمل المفرط في قضاياها الخالية من المعنى - كما دأبت الوضعية المنطقية على وصفها - و لأدلّ على ذلك إشارات تشومسكي إلى " الملكة " اللغوية و كفايتها . أما نُخب الابستميين فتودُ إيلاء الاعتبار

للقيمة القائمة خلف السردية السريالية في ظل الحاجة لأحياء تلکم " التعالقات " كما يُطلق عليها جزافاً بين " المحتوى " الفكري و " الشكل " التعبيري .

نسبياً يرسم لنا منطق الاستيمولوجيا اللغوية حُلُولاً للغة في ذاتها (و لأجل ذاتها الناطقة بلسانها ؛ كموضوع وحيد و حقيقي و مشروع للسانيات يجعلُ - مثلاً - من البرامجيّات (القاعدية / و التطبيقات العامة) موضوعاً شيقاً للدراسات اللغوية بدل النحوية و المنطقية من دون إلغائها بالتأكيد ؛ برغم الطريق الشاق الذي تشقه في بعض الدروب كما يحدث لما تهندس مسالك المناولة السيمولوجية المتدرجة من البسيط ..إلى المعقد ... إلى الأكثر تعقيداً...حتى أنه يُفرد حيزاً لماهيات " الميتا - لغة " ؛ مما يدلُّ على تعميق المستويات النظرية التي وصل إليها .

خاتمة :

دون إطالة نصلُ إلى حقيقة أن كل نقد في كل دراسة للغة يأتي ب صورة ابستمية ؛ لا بد له من الدليل السيمولوجي المصاحب . هذا الأخير سيكون مدعاةً لإقحام علمي " النفس " و " الاجتماع " اللغويين الآخذين في " التألسن " مع تناول المتدرج لموضوعات الدلالة ؛ البنية ؛ التوليد ... الخ .

على العموم لن يطول الوقت لنحتفي بهذين الوليدين اللذين ستتباهما العلوم الإنسانية / والاجتماعية و لن تختفي معهما الخلفية الفلسفة لاسيما مع تجدد الأزمة النقدية الإيجابية المبنية على أساسات الاستيمولوجيا المغايرة تماماً لمناهات ؛ أو لتعارضات ما وراء الطبيعتين " اللغوية " و " الوجودية " .

بعيداً عن كل ذلك هنالك وجهات نظر تعكس الموقف العقلاني و الإيجابي من الكلام الإنساني ككل ؛ و بما يحتضنه من مكون دلالي والذي أضحي يُعرّف على أنه " نظام " من الإشارات بدل أنه " جملة " من الرموز والعبارات فقط ... توطيداً لأواصر " الخصوبة " متعددة الدلالات بين العناصر اللغوية ١ .

هوامش : احالات / تعليقات / مراجع - بحسب ترتيب الصفحات على التالي :

1- فرنسوا غريغوار ؛ المشكلات الميتافيزيقية الكبرى . ت.نهاد رضا ؛ نشر مكتبة الحياة . بيروت دط- دت ص.97

● دليل أن " الإستيمولوجيا هي منطلق راسل الأساسي " والذي ظلّ دائماً شغله الشاغل . و راسل نفسه يؤكد أن على طول المدى منذ البدايات ؛ و حتى النهايات كان مهموماً بالسؤال المعرفي ؛ إلى أي حدّ يمكننا التأكيد بأننا نعرف ؛ و بأي درجة من اليقين أو الشك ؟ . هذا المُقتطف منقول عن ما جاء بكتاب راسل " تطوّر الفلسفة " - بتصرف كما نُقل عن مقال دي.طريف الخولي في :

مجلة عالم الفكر - دورية مُحكمة - العدد 01 ، المجلد 30 ، نشر م - و - ث - ف - آ دولة الكويت . الثلاثي 3 .

●● حُذ - مثلاً - أن صياغة رياضية تبسيطية للمشاكل المتعلقة بالاتصالات الهاتفية تدخل بصورة من الصور في إطار علم النفس التجريبي الذي يعتمد بدوره على " الإحصاء السيكلولوجي " و الذي عمّا قريب سيُعد من خيرة النماذج الاحتمالية

للتعلم بعد أن عرفت ستينات القرن المنصرم سلسلة (تطبيقات) ذات صلة لها حتى مطبوعاتها اللغوية كـ " الجريدة الانجليزية لعلم النفس الرياضي و الإحصائي " .

2- محمود يعقوبي ؛ أصول الخطاب الفلسفي - محاولة في المنهجية - د . م . ج - الجزائر دط . دت ص. 09

●●● إنه مرتبط بمستوى الفهم الديدانكتيكي المسمى " الترجمة " . الترجمة المقصودة هنا يُراد بها إعادة المتلقي أو المتعلم - مثلاً - لما أخذ بشكل أو بآخر كـ " درس " مع نوع من الوفاء لمباني المعاني و استعمال الوسائل و الأفكار التي سبق وأن لقن إياها ؛ و ليس بالضرورة أن يجد علاقة بين وسيلة و أخرى و أن يفهم جدواها " رياضياتياً دائماً " . المقصود هو القدرة على ترجمة عبارات لفظية أو مشكلات إلى رموز جبرية (و العكس يمكن أن يصح) وهو ما يطرح تحدياً جديداً للسانيات التعليمية لدى البعض .

3- H. Bergson ; Le rire - Essai sur la signification p.u.f ; paris 4ed 1983 _ pp.111/112

° - للأمانة أورد ذلك الجابري (محمد عابد) في المرجع السابق [مدخل إلى فلسفة العلوم] مع عنوان فرعي هو العقلانية المعاصرة / تطور الفكر العلمي / المبحث الثاني من المدخل - ص. 19 على أنه من كتاب :

1 Robert blanche ; l'épistémologie. Coll. Que-sais-je ? p.u.f paris. 1972 , pp.20,21

° ° علم اللغة الحاسوبي : " هذا الاختصاص الجديد من فعل التقنيات المعاصرة التي يُعتمد فيها على الذكاء الاصطناعي ' على مدى تشجير خصائص اللغات لتستجيب اللغة للحاسوب " و لعلّ الحاسوب هو الذي استجاب ! . التعريف مقتبس عن : صالح بلعيد ؛ علم اللغة النفسي . دار هومة - الجزائر دط . 2008 ص. 146

4- باتريك هيلي ؛ صُور المعرفة / ت.د. نور الدين عبيد - نشر و توزيع المركز العربي للترجمة م- د- و- ع . بيروت ط1 2008 ص. 155 .. و ما بعدها . و للاستزادة حول فكرة آخر سطرين من تلك الفقرة يُنظر رجاءً :

حنفي بناصر - مختار الأزعر ؛ اللسانيات - منطلقاتها النظرية وتعميقاتها المنهجية - د . م . ج الجزائر 2009 ص. 62 ... و يليها .

❖ كلود ليفي ستراوس (Cloud Lévi-Strauss 1908- 2009) واحدٌ من آخر عمالقة الفكر الفرنسي في القرن العشرين أشار - كعالم انثروبولوجي - إلى أن اللسانيات بفضل توجهها العلمي تصير جسراً تعبره كل العلوم الاجتماعية له مصنف " الإناسة البنيوية " و كذلك " رياضيات الإنسان " . | تنويه : لفظ " إناسة " يُعتمد - أحياناً - كترجمة لـ Anthropologie |

° ° ° مقاربة " فرانكو - إبستمولوجية " مع [جون كلود شوفالييه J.C Chevalier , و جون كلود ميلر J.C Miller] لـ لسانيات المفاهيمات . في أنموذج مفهوم " التكرارية " ؛ هذا الذي يُوظفه اللسانيون مستلفين إياه من عند جيرانهم الرياضيين ؛ يتمّ معه إخفاء حسابات الربح و الخسارة (...) و يسلك اللساني طريقاً معكوساً في الاستدلال الداخلي

مستلهماً من البرهان الرياضي الجبري اللامباشر ؛ كأن يضع افتراضاً لسانياً عاماً حول بنية ألفظ لغة عادية . ثم يُحاول التدليل على ملائمة هذه الفرضية للغة الطبيعية عن طريق القيام بتبريرات تحليلية تجيب على أسئلة التصحيح الذاتي ليصل في نهاية المطاف إلى نتيجة تؤكد مقدمات الافتراض المنطلق منها . في هذه الحالة تُعد خطوات الاستدلال الداخلية طريقاً للاستنتاج إذ النتيجة تستلزمها المقدمة و محتواها العام المتضمن فيها .

❖❖ هنري بوانكاريه 1854-1912 (H. Poincaré) عالم فرنسي شغل كرسي الفيزياء الرياضية في معهد يسمى " البوليتيكنيك " في بلده .

5- جورج طرابيشي ؛ معجم الفلاسفة - مادة / حرف | ب | ص.194 وأما (جان فال 1889-1917 J. Wahl) فأستاذ فلسفة في جامعة باريس . له مؤلف بعنوان Tableau de la philosophie française لوهو بالمناسبة أحد مراجع بحثنا هذا.

تعليم النحو لغير الناطقين باللغة العربية كتاب الأستاذ صوالح محمد أنموذجا

د/تاج محمد، جامعة تيارت

مقدمة:

مما لا شك فيه فإن تعليمية اللغات قد قطعت شوطا كبيرا في عملية تعليم اللغات وخاصة النحو بفضل ما وفرتة اللسانيات الحديثة والتطبيقية منها، فلأسباب كثيرة منها العلمي والاستعماري والثقافي جعلت الشعوب تهتم بلغات بعضها البعض.

ونحن في هذه الأوضاع نحاول أن نقدم الأستاذ صوالح محمد، الذي اهتم بهذا الجانب أي جانب تعليم النحو العربي إلى غير الناطقين باللغة العربية وقد قسمنا هذا البحث إلى:

- تقديم صوالح محمد.
- أهم مؤلفاته وركزنا على كتب اللغة والنحو خاصة.
- منهجية الأستاذ صوالح محمد في كتاب:

من هو صوالح محمد:

ولد صوالح محمد ولد معمر عام 1873 بفرندة في الحي الشعبي المسمى سيد الناصر، فبعد مزاولة دراسته بالبلدية، انتقل إلى الجزائر العاصمة لمتابعة دراسته، كان طالبا بارزا مما جعله يحصل على شهادة البكالوريا واختير لمتابعة دراسته بالجامعة، في 1936 أصبح أستاذا بجامعة الجزائر رفقة عمر دهيبة. ويذكر الآن مسعودي وهو مؤرخ ومدرس أن محمد صوالح أول معلم تحصل على درجة التبريز سنة 1910.

En 1910, Mohamed Soualah, ancien instituteur, avait été le premier musulman à réussir le prestigieux concours de l'agrégation, institué l'année précédente pour l'arabe. Tous ces arabisants musulmans sont proches de l'administration coloniale dans laquelle ils font carrière ainsi que, souvent, leurs descendants¹

بعد الحرب العالمية الثانية أصبح أستاذا بجامعة السربون بباريس، منة بين الطلبة الذين درسوا عنده المستشرق الفرنسي جاك بيرك ابن البلدة التي ولد فيها (فرندة) وقد كان دوما يسأل عند أثناء زيارته إلى مدينة فرندة.

Elle portait le nom de Professeur Soualah Mohamed dans sa partie basse et redevenait rue de la Casbah après avoir coupé la rue Ben Cheneb.

أهم مؤلفاته وركزنا على كتب اللغة والنحو خاصة:

كتب صوالح محمد عددا من الكتب في مختلف مجالات العلوم الانسانية وخاصة في ميدان العلوم اللغوية والنحو خاصة وقد جاءت باللغة الفرنسية بفرض اختصاصه فقد معلما لها، ولذلك فمعالجته التيسيرية للنحو العربي الموجه لغير الناطقين بالعربية جاءت بلغة مختلطة فرنسية/عربية. ومن أهم الكتب التي استطعنا حصرها هي:

- العالم الاسلامي.
- النحو في اللغة العربية.

- وصف الحياة اليومية في فرنسا.

- العادات والتقاليد في الجزائر.

وثمة عناوين أخرى منشورة على الانترنت وقد حرصت على نقل كتب الدكتور سواح محمد وهي:

LANGUE ARABE] SOUALAH (Mohamed, Professeur agrégé de l'Université, Docteur ès lettres) ::

COURS ELEMENTAIRE D'ARABE PARLE. COURS Moyen D ARABE PARLE-SOUALAH, Mohamed (Officier d'académie).

SOUALAH(Mohammed)L'auxiliairedel'arabisant

Alger, A. Jourdan, 1912

in-8, xxii-258 pp., broché, dos renforcé avec du scotch

Contenant des lettres manuscrites et des documents commerciaux et privés d'Algérie, de Tunisie du Maroc et du Soudan, des annonces, des réclames; des articles pris dans les journaux et les ouvrages en arabe moderne; des actes et des avis judiciaires et un lexique avec de nombreux néologismes

Cours supérieur d'arabe parlé d'après la méthode directe SOUALAH Mohammed

Cours supérieur d'arabe parlé Livre du maître SOUALAH Mohammed

Auteur: SOUALAH M. Livre : COURS PREPARATOIRE D' ARABE PARLE. ENSEIGNEMENT PAR L ' IMAGE

ET LA METHODE DIRECTE

- Paru en 1958

Auteur : SOUALAH MOHAMMED Livre : COURS MOYEN D 'ARABE PARLE

Edité par

Jules carbon - Paru en 1923

Auteur : SOUALAH MOHAMMED Livre : COURS SUPERIEUR D 'ARABE PARLE Edité par Jules carbonel - Paru en 1961

Auteur : SOUALAH MOHAMMED Livre : ENSEIGNEMENT PAR L 'IMAGE ET LA METHODE DIRECTE Edité par Jules carbonel - Paru en 1955

Auteur : SOUALAH MOHAMMED Livre : L 'ISLAM Edité par Soubiron - Paru en 1935

Auteur : SOUALAH MOHAMMED Livre : L 'ISLAM ET L 'EVOLUTION DE LA CULTURE ARABE, DEPUIS L 'ANTIQUITE JUSQU 'A NOS JOURS. RAPPORTS DE LA RELIGION AVEC LES LETTRES, LES SCIENCES ET LES ARTS

Edité par P g soubiron - Paru en 1935

Auteur : SOUALAH MOHAMMED Livre : MANUEL Franco-arabe A L 'USAGE DES MILITAIRES D'AFRIQUE DU NORD

Edité par Hachette - Paru en 1942

Auteur : SOUALAH MOHAMMED Livre : METHODE PRATIQUE D 'ARABE REGULIER A L 'USAGE DE TOUS LES ETABLISSEMENTS D'INSTRUCTION. QUATRIEME EDITION CORRIGEE ET COMPLETEE Edité par Imprimeries la typo - Paru en 1936 SOUALAH Mohammed, Officier d'académie.

COURS ELEMENTAIRE 'ARABE PARLE, Livre du Maître. Transcription, Traduction, Corrigé des Exercices, Notes explicatives, Procédés pédagogiques. Typographie Adolphe

JOURDAN - ALGER - 1908 - 179 pages, plus 2 pages d'errata. Relié Bon état. - Soualah, Mohammed. - Une élégie andalouse sur la guerre de Grenade. Alger, Jourdan, 1914-1919.

1908 Cours élémentaire d'arabe parlé : livre du maître : Transcription, traduction, corrigé des exercices, notes explicatives, procédés pédagogiques / Par Soualah Mohamed

1932 Cours élémentaire d'arabe parlé : livre du maître : Transcription, traduction, corrigé des exercices, notes explicatives, procédé pédagogique / Par Soualah Mohamed

1934 L'Islam et l'évolution de la culture arabe, depuis l'Antiquité jusqu'à nos jours / Soualah Mohammed.

1945 Méthode pratique d'arabe régulier à l'usage de tous les établissements d'instruction / Par Soualah Mohammed

1956 Manuel franco-arabe à l'usage des militaires de l'Afrique du Nord / Par Soualah Mohammed.

1956 Nouvelle méthode pratique d'arabe régulier ou classique à l'usage de tous les établissements d'instruction / Soualah Mohammed .

Soualah, Mohammed. Manuel Franco-arabe à l'usage des militaires de l'Afrique du Nord. 5e Edition.

Alger, Jules Carbonel., 1956. 24 x 16 cms, x, 230 p., ill. dans le texte. qq. annotations en plume dans le texte. Cartonnage de l'éditeur. dos abîmé. partiellement en caractères arabes. KEYWORDS: France North Africa linguistics

TITRE: L 'ISLAM. AUTEUR: SOUALAH MOHAMMED .Vous recherchez le livre L 'ISLAM écrit par SOUALAH MOHAMMED : si c'est le titre tant recherché, vous pouvez avoir plus d'informations ici. Nous n'avons de résumé pour L 'ISLAM, mais dès qu'il sera disponible, nous vous le mettrons à disposition.

Chapitre, votre spécialiste livre, vous propose d'affiner votre recherche concernant "L 'ISLAM" dans la partie de droite afin de mieux satisfaire votre requête.

Méthode pratique d'arabe régulier à l'usage de tous les établissements d'instruction / Par Soualah Mohammed

Cours préparatoire d'arabe parlé Auteur: soualah Mohammed (illustrations de herzig
Editeur: Imprimerie Alger Année d'édition: 1947 Taille: broché Reliure: IN8
Commentaire/état ARABE AUTHOR SOUALAH MOHAMMED
TITLE MANUEL FRANCO-ARABE A' L'USAGE DES MILITAIRES DE L'AFRIQUE DU NORD JULES CARBONEL. 1942. IN-12 IN-12 CARRE'. BROCHE'. ETAT D'USAGE. TACHEE. DOS ABIME'. INTERIEUR FRAIS. 222P,

ILLUSTRE' DE DESSINS DANS LE TEXTE, TRACES DE MOUILLURES SUR LES PLATS, DOS TOILE' Abîme', COUVERTURE ILLUSTREE.

Nouvelle méthode pratique d'arabe régulier ou classique à l'usage de tous les établissements d'instruction / Soualah Mohammed.

الكتاب من الحجم المتوسط مكتوب بلغة فرنسية ممزوجة بشروحات ونصوص باللغة العربية، نشر سنة

195، من قبل مطبعة:

LA TYPO- LITHO ET JULES CARBONEL .REUNIES 2.RUE DE ORMANDIE.2

يقدم الكتاب بمقدمة يشرح فيها أهمية هذه الطبعة وكيف أنه استفاد من الطبقات السابقة ويذكر أسباب

طبعه هذه الطبعة:

- نجاح الطريقة التي ألف بها كتبه السابقة.
- الاستفادة مما ألفه في السابق.
- تزويد الكتاب بما يقويه ويعطي الاستاذ والطلبة الفرصة للتمكن من اللغة (مثل القواعد الاولى ومكملات النحو والجداول المساعدة والملاحظات الاساسية لعلم الأصوات.
- الظروف المحيطة والأفكار المنتشرة، فإذا كانت القواعد تتصف بالثبات فإنّ التعبير عن القضايا والمفاهيم الأدبية والتقنية والاجتماعية قد انتشر في العالم الإسلامي والشرقي من قبل مفكرين مصريين وسوريين وأتراك تكوّنوا في مدارس أوربية بعد حملة نابليون.²
- قانون 27 سبتمبر 1947 المتعلق بتنظيم الجزائر وخاصة مادته 57 التي تحاول تنظيم تعليم اللغة العربية لجميع الفئات حسب قرارات مجلس الجزائر الذي يحدد برنامج اللغة العربية الكلاسيكية والدارجة في التعليم من الدرجة.³

وبعد استعراضه لأسباب تأليفه الكتاب يذكر محمد صوالح مادة كتابه والتي رتبها على اعتبارين أساسيين هما:

- أولاً: تقديم معالجات أولية: مثل الأبجدية، الصوائت، العلامات على الطريقة المستعملة في تعليم اللغة في الجزائر.
- ثانياً: وهي مرحلة هامة في الكتاب، تختص بفهم النحو، يقدمه من خلال دروس.
- ثالثاً: فهم النصوص في اللغتين بهدف تحضير التلميذ لدراسة الكتاب العرب.
- ويوضح ذلك الفهرس الآتي:

TABLE DES MATIÈRES.

Concordances grammaticales . XI	
ABREVIATIONS	XII
NOTIONS PRELIMINAIRES	XIII
43- LECON VERBES SOURS	325
44-- LECON VERBES ASSIMILES	336
45-- LECON VERBES CONCAVES	

346	
46 - LECON VERBES AUXILIAIRE.....	360
VERBES NEGATIF...	362
ليس	
VERBE LE MOT... ابن	363
47-- LECON VERBES DEFECTUEUX	367
47- BIS – LECON COMPLEMENT POUR LES VERBES DEFECTUEUX	379
48- - LECON VERBES HAMZES	384
49- - LECON VERBES DOUBLEMENT IRREGULIERS	394
50- - LECON MANIERE DE TRADUIRE LES DIFFERRNTS TEMPS DU VERBES FRANÇAIS	400
51- LECON MANIERE DE TRADUIRE LES DIFFERRNTS TEMPS DU VERBES FRANÇAIS SUITE ET FIN	402
52- AUTRES CLASSES DE VERBES DE LOUANGE ET DE BLAME ;D,ADMIRATION DE COMMENCEMENT DE CŒUR	406
DES APPOSITIFS	407
APPENDICE I. CADRE EPISTOLAIRE	446
APPENDICE II METRIQUE	454

منهجية صوالح محمد في تكوين مادة دروسه:

البدء بالفعل ثم بالجملة فالشعر ، النص المترجم ، النص القديم ، ثم تصريف الأفعال مع الضمائر والأزمنة مع مختلف الحالات (المبني للمجهول والمبني للمعلوم) مثال: LECON VERBES SOURS .

- يعرف هذا النوع من الأفعال.
- يضرب مثالا على ذلك بالأفعال: مرّ، شدّ
- مشتقات هذه الأفعال: مررت ، مرّر ، استمرار شدّ شاد ، شدد ، وكذلك الأمر بالنسبة للفعل عضّ، مدّ.
- يوظف هذه الأفعال وغيرها في جمل من اختياره مثل: ظننت أنّ تلك المرأة هي أمك.⁴ بينما نحن مسافرون إذ مررنا بجزيرة – بمن مررت بتلك الطريق.
- تمرين باللغة الفرنسية حتى يقرب المعنى. مقطوعة شعرية ومن أمثلة ذلك: نص الطاووس مأخوذ من القراءة المصورة - أنا في البستان أجري بين أشجار ونهر
- لاعبا طول النهار تحت أغصان كبار
- اشرب الماء النмир ألقط الحب الكثير

- إنَّ ذيلي لطويل إنَّ ريشي لجميل
- مثل نفس في حرير صنعة المولى القدير⁵
- نص بأسماء وأماكن فرنسية، ولكنه بلغة عربية (حذاقة الكلاب الجبلية، جبل سان بيرنار، دير مسيحي).⁶
- نص عربي قديم (الأصمعي والأعرابي).⁷
- شرح الكلمات الصعبة.
- وهكذا مع باقي الدروس الأخرى. وقد يلجأ أحياناً إلى استعمال العامية كما في الصفحة 451-452.
- وهكذا تبقى محاولة الأستاذ محمد صوالح ضمن الكثير من المحاولات التي دأب أصحابها تقريب النحو العربي إلى غير الناطقين باللغة العربية بل الطريقة التي استعمالها رائدة في بابها وهي حلقة هامة ضمن حلقات البحث عن سبل التيسير وتقديم النحو بطرق تساعد على فهمه وتمثله.

المصادر والمراجع:

1. EL WATAN- LUNDI 26/FEVRIER 2007/18
Nouvelle méthode pratique d'arabe régulier ou classique à l'usage de tous les établissements d'instruction / Soualah Mohammed -5-
- (1) Ibid -5-
- (2) Ibid -327-
- (3) Ibid -327-
- (4) Ibid -328-
- (5) Ibid -328-
- (6) Ibid -329-

أثر الصورة في تنوع مصادر ثقافة الطفل

د/ الطيب بن جامعة، جامعة ابن خلدون- تيارت

الملخص: لا تزال الدراسات في حقل البصريات وبخاصة الصورة بعيدة عن حقيقة دورها وأثرها في تنوع مصادر المعرفة - حسب ما اطلعت عليه - يدعوك موضوعها إلى الكون باعتباره (في تقديري) يمثل مشهدا رائعا يسمح برسم رؤية واعية عن الكون الذي تشكل جزءا منه، ولا ندرکه كأنة خارج عن وعینا، وبقراءة مركزة لكل مشهد من المشاهد الكثيرة التي تقع عليها العين، تجد حضور الصورة يستولي على الشعور وتستهوئ الإحساس، وتثير الفكر، وتمنح القدرة على امتلاك ما لم يمتلك بغير الصورة .

لا أسعی من خلال مضمون هذه المقالة أن أجيب عن أسئلة افتراضية حول الصورة، كالماهية و مراحل تشكيلها، ونمط وجودها، ولا عن معيار عملها، ولا عن سياقها التاريخي، ولا عن مصدر سلطتها، وإنما سأحاول أن أبين العلاقة التي تربطها بالوسط الذي تتشكل فيه، (الجغرافي، الاجتماعي الثقافي، النفسي...) هذا الوسط المركب هو الذي يصوغ الفكر الذي يقرأ، ويبدع، وينجز، بل يصنع سلطة الفكر التي تجعل من مساحة استمرار الحياة أوسع أملا، بالرغم من محدوديتها، ولكنه يختصر الجغرافيا، ويختصر الزمان، ويلخص التاريخ، ويوسع نافذة الأفق الفكري إلى ما لا حد له.

هذه هي الصورة التي تحرك الضمير الإنساني حين تشاء، وتجعله ينام في سبات عميق إذا شئت، بالصورة تشتعل الحرب، وبها يعم السلم والتسامح، وبها حذف من قاموس العلاقات ما يسمى بالحدود، بها تقبرك الجريمة، وتجعل الحكم مقبولا، تصدرها إلى حيث تشاء، وتؤدها في مهدها متى شئت، تجعل من البريء مجرما، وتبرئ المجرم، كل هذا يصنع في مخبر اسمه الصورة .

أي صورة من هذه الصور نريدها أن تكن مصدرا ثقافيا لأبنائنا، هذا هو السؤال الذي تختصر إجابته المسافة بين محمول الصورة ومستويات فكر أبنائنا، من هنا يبدأ التفكير في المنهاج الذي يحدد المضمون ليحافظ على التوافق بين القيم والمفاهيم المعاصرة .

أثر الصورة :

يعيش الإنسان في وسط أيقوني أي من الصور، كل أيقون مثير للاهتمام، الصورة رسالة لا يقاس أثرها بالنظام المعرفي الحديث بل تتجاوز تجلياتها شكلها المنظور الذي يتصف بالواقعية، وملامسة الحقيقة المدركة، يسهل على متأملها الحكم بالحسن أو القبح، وينطبع كلاهما في ذاكرته المعرفية، ويتشكل لديه الإحساس بالذوق الفني، وتترجم في قدرة إدراك تفاصيلها، التي صاغت منها أنامل الفنان مشهدا سحريا أصبغ عليه من نفسه ما يعبر عن كل نفس، فيراود كل من يقف أمام المشهد أنه بمقدوره إنجاز نفس المشهد وبفلس التقنيات، والخطوط، الألوان، والأبعاد، غير أن هذا ليس في متناول الجميع، لأن ذلك يحتاج إلى دراية، وممارسة، وأدوات تقنية .

يتمتع كل مهتم بطاقة ذاتية في داخله، تتجسس عن موهبة خلاقة تسمو إلى أعلى مراتب الفن ولعل هذا ما دفع بيكاسو إلى القول: « **لقد قضيت خمس سنوات من عمري لأتعلم الرسم كالأطفال** »¹ في النص إشارة دالة على امكانية الولوج إلى عالم الرسم، عالم الصورة، عالم الفن، عوالم يتزاج فيها الواقعي بالعاطفي، « **الصورة**

يسيرة المدخل والولوج في اللغات بدون مهارة أو تعليم مسبق»² إنها تمثل جوهر الشيء المدرك، «فهي طيب الأمين الذين لا يعرفون القراءة»³ فما يفهمه من يعرفون فن تفكيك رموز الكتابة المركبة، لا يتوفر لمن لا يعرفون القراءة، فتكون الصورة بديلا، من وظائفها الإظهار، فهي تقصي الشك، وترفض الاحتمال، وتنسم بالتمويه، وبين الإظهار والتمويه «فهي تعطي الوجود الحقيقي للشيء حيث يصبح موجودا مشارا إليه...»⁴ إنها بهذا التوصيف، تفرض على المشاهد مضمون خطابها الصامت، فلا يستطيع المشاهد أن يتخلص من وهي أساس إثبات لا نفي.

قيدها بيسر، وبخاصة المولعون بها من الأطفال، لأنهم يجدون في شكلها ما يحقق رغبتهم في التمتع بالألوان، وهي لغة أخرى يعتمدها الفنان ليعطي للصورة معنى ساحرا وجذابا، يتقاطع في قراءتها الأمي والمتعلم، فهي في حد ذاتها لغة يتواصل بها سكان العالم

للصورة وجهان:

وجه ظاهر : يقرؤه المشاهد بانطباعه البصري ويفهم مدلوله ولو على مستوى السطح، ويترك أثره في

ذاكرته

وجه باطن : يضاف إلى الانطباع البصري فهم بعض الدلالات، وهذا مرهون بمستوى قدرة المشاهد على تأمل جزئياتها للإحاطة بها، وتفكيك رموزها، ليشكل تصورا إضافيا يجمع بين الظاهر والباطن، يتحول هذا التزاوج إلى مصدر إضافي في ثقافة المشاهد بمختلف أنواعها القيمية (دين، فن، تاريخ، إبداع....) اجتماعي (تقاليد، عادات، تعاون،....) اقتصادي (نشاط، مردود، نفع، فائض،....) الطبيعي (غروب، أصيل، شلال، بحر،....) عمران (هندسة، زخرفة، منمنمات، حداثق معلقة،....) كل هذه الامتزاجات الذوقية والمفهومية، تصبح رصيда معرفيا، فنيا، لغويا، في معجم المتعلم.

إن الاهتمام بالصورة هو نتيجة إغرائها لتأملها بفضول زائد على المعتاد، يسيطر سحرها على الحواس، وعلى العقل، ويهيمن محمولها بممكنات لا نهائية تجسد ثقافة إضافية في مخزونه الفكري، يرسم من خلالها أفقا فنيا واسعا، ويجسده في مشاريع حياتية، تصبح بصماتها شاهدة على دوامها، فالفن إثبات لقوة الحياة، التي تعكس مدى قدرة الفن على صناعة الثقافة المنتجة للترقية، «**فالصورة تخاطب العين وتغازل النظر لإتحافه وإمتاعه وإغرائه**»⁵ وفي الوقت نفسه تحصل معرفة المرئي بدقة، ولعله من سمات العصر تبتكر وسائط داعمة تفعل وتنوع طرق العملية التعليمية لتسهيل التحصيل لدى المتعلم، لإنجاز المشروع الثقافي الذي يعبر عن ثوابت الأمة، ويطمح إلى مسايرة ما يحققه الانفجار العلمي والتكنولوجي، ليضمن المكانة المتميزة للمنتج الفكري الذي يعكس مستوى قدرات وكفاءات ومهارات المجتمع على توظيف نتائج المخابر العلمية في المجالات المختلفة المتفاوتة دقة، ومعالجة السلبات بتغيير الوسائط المناسبة للحالة.

أنظمة الصورة :

ترتبط أنظمة الصورة بوظائفها، ومهامها، وأنواعها، فالقول: بأنظمة الصورة يعني أنها نظام في غاية الدقة صناعة وتركيبا، ومن سماتها ممارسة التأثير، الاستحواذ على الاهتمام، فلا يوجد حقل بعيد عن الانطباع البصري، فالصورة لا تدع شيئا خارجة إلا واحتوته في إطارها بغرض النظر عن الموضوع الذي يوحي بالفكرة - التي تعد مصدرا معرفيا وثقافيا - ولا عن الرسالة التي تهدف إلى تمريرها مما يثبت أنها عنصرا من العناصر المكونة للثقافة التي يستلهمها المشاهد و«يعود يسر استهلاكها إلى أسباب كثيرة»⁶.

لا تتطلب مستوى معرفيا ولا قدرا كافيا من القراءة، يفهمها الأمي والمتعلم، وتمحو الفارق بين النخبة وبقية الناس، فهي يسيرة الولوج بدون مهارة القراءة، فهي مساحة فضاء تشخص الفكر، «إنها تحمل في ذاتها علامات وإشارات»⁷ يقرؤها الخبير، والمشاهد العادي، وكل منهما يقف على قيمة دلالاتها حسب ما يمتلك من قدرة وكفاءة تعطيه من شكلها ما يسحر، ومن مضمونها ما يهذب الذوق ويعدل رؤية الواقع الحياتي الذي لا نموذج له في أكبر معاهد التعليم والتعلم، فالكون مصدر الفن أكثر مما يتوقع الإنسان .

تعزف الصورة على أوتار شديدة الحساسية، وتثير غرائز ذاتية، ورغبات جماعية، من التشكيل الفني الجميل إلى صور الحرب، والجنس ... و هو الفرق بين عالمين، عالم الحياة، وعالم الموت هذا العزف، وهذه الإثارة، تكشف ما خفي، وتبين عما استتر، فهي تتفتح على جميع العيون الناضرة التي فيها وإليها، وتمنحها «إمكانية الحديث عن أية صورة»⁸ كانت الصورة في بداية الأمر هي لغة الإنسان الأولى بها تكلم، وبها تواصل، وبها يختصر النص، ويفهم الحياة، ويكشف أسرارها، يراجعها كل حين، مستغلا رؤية جوهر الشيء بالشكل الذي يقنع، فالرؤية المتجددة تجدد الإحساس، وتجد الإثارة، التي تضمن الاستمرار لحياتها .

تؤكد قدرة الفنان في منح الصورة الصامتة القدرة على الكلام، وجعل الخفي ظاهرا، والمجرد ملموسا، أو شبه ملموس، لتقريب الفكرة، لأن « الفكرة هي المنظر الأعلى، والامتداد اللامتناهي للمستقبل الأكثر إلحاحا »⁹ لقد أصبحت اليوم بديلا لكثير من الوسائط، وسلاحا متطورا لحرب معلنة وغير معلنة ،

توظف في كل الحقول المعرفية، وتستجيب لكل المتطلبات في الآن، لها القدرة على أن « تسحر وتذهل، لتحول واقعا غير مرغوب فيه، إلى واقع جذاب، وفاتن، بفعل تأثيرها»¹⁰ يطفو من داخل عمق كل إنسان صور تعبر عن عقله الواعي الذي يترجم ما اختزنه في عقله اللاواعي، ففي كل خلجة يولد شيئا جديدا، يفتح أفق المشاهد، ويعايش مضمون الصورة أو الصور إلى حد غياب العقل بأثر تذوق الجمال، لأن الفنان لا يستمد منتجه الفني من العقل « فالفن صورة لصورة »¹¹ يؤشر النص على أن الصورة تمدنا بما نستطيع أن نفسر به أحاسيسنا، ونعقل بها إدراك ما نراه .

العقل نافذة من نوافذ العقل، فإدراك الجمال وتذوقه سبيل إلى مكاشفة حقيقة محجوب مدلول الصورة، وصولا إلى الغاية المتمثلة في أبعاد فن الصورة فإدراك الشيء السامي يثير الثقة بما فوق الحس، ويرفع قوى الروح إلى مستوى الوجد، يستغرق فيه كاستغراق العابد في المحراب، تتساب من خلالها بصمات تشكل بين فواصلها ما يسمى العبقرى، « العبقرى طفل في أفعاله دائما، يتصف بالسذاجة والبساطة، يشرق منهما، وتتقاطع فيهما ملامح العبقرى التي تجمع بين الحيرة المستفهمة والتأمل البريء »¹²

لاكتشاف حقيقة الوجود . يقوم الفنان باستدعاء الوجود بواسطة الصورة الفنية لكي يوجد فينا، وينادي الحضر كي يحضر من الغياب، هذا الاستدعاء، و هذا النداء هما الطاقة المثيرة للإبداع الفني بالمعنى الواسع للكلمة .

أنواع الصورة:

تتعدد الصور بتعدد مجالات الحياة، ولكل صورة منها خاصية مميزة نكتفي بالإشارة إلى بعض منها، كالصورة الفنية، الصرة الثابتة المتحركة، التعليمية، التواصلية،

الصورة الثابتة تمنح الصورة الثابتة المشاهد المتأمل حرية السفر عبرها إلى ما توحى إليه، ويبجر في عمق دلالاتها ليصل في النهاية إلى الإضافة التي كان يتوقعها، بعد التفحص والتمعن المدققين لعناصرها، إنها ترسخ

الواقع المعين بصريا، وترسم صورة واقعية للحياة، « فالصورة لا تتكلم مع المشاهد، بل تتكلم عنه »¹³ فكأنها تفسح المجال للمشاهد ما بحاجة إلى تصحيح، ليحقق بعض تطلعاته من خلال ما قدمته الصورة أو ما فهمه منها للاسترشاد بها، والتحرر مما يمثل عائقا أمامه، ليدخل في عالم الحركية الذي تصوغه حركية المجتمع، ويختار من خلاله صور حركية المجتمع الأكثر جاذبية، والأكثر مردودية نفعية

فهي « تلتقط أكبر عدد من الأسرار لنشرها، بما هي أسرار، يشكل الاختفاء وتستتر الصورة الفوتوغرافية فيه جوهرا »¹⁴ هذه صورة مختصرة مختزلة للواقع الحقيقي مساحة وحجما وزاوية ومنظورا وتكييفا وخيالا وتخبيلا، وبالتالي فهي تعبر عن لمسات المصور وأفكاره ووجهة نظره وطبيعته وعيه وإدراكه الذاتي والموضوعي.

تتميز الصور الفوتوغرافية بطابعها المهني والتقني، وطابعها الفني والجمالي وطابعها الرمزي، والإيديولوجي، وتشكل العلاقة بين الدال والمدلول في ثنائية، باعتبار الصورة واصفة الواقع، وتشاركها في خاصيتها الصورة الشمسية والاصطناعية، والرقمية، والمركبة.

الصورة الأيقونية هي صورة تختصر النص الإبداعي الذي يتضمن صورا أيقونية باعتبارها علامات سيميائية في المشهد الواحد، وتتميز بخاصية الدقة في تحديد ملامح الصورة، التي تمثل العلاقة السيميائية واللون الذي ينسجم مع الأيقون المتخيل في النص، فتتحول الأيقونات النصية في شكل صورة تعبر عن جميع علامات النص السيميائية بإضافة الإثارة التي يمنحها من خلال الصورة التي نقلت اللامرئي إلى مشهد بصري يؤدي وظيفة معرفية وثقافية واجتماعية.

الصورة التواصلية لا يشعر الإنسان بوجوده خارج العملية التواصلية، فعلاقة الأشياء بالبشر توسط، وعلاقة البشر بالأشياء توسط، والمعيار الذي تعتمد وسائل الاتصال هو قوة التأثير في المتلقي، وآداته التأثيرية هي الرسالة، فهي قطب الرحى في العملية التواصلية الحديثة، لأن الغاية منها هي استمالة الآخر، والوسيط متنوع بين المرئي، والمسموع، والمكتوب أيضا، ويتفاوت سرعة، والهدف واحد فكل ما يبيث « في وسائل الاتصال الحديثة يبلغ هدفه في الآن والأوان، لا تأخير ولا انتظار، لا إرجاء ولا تأجيل، ما يبعث يصل لتوه (...) مما يؤكد الطابع المميز للحدث التكنولوجية » التي ربطت الوسائط التواصلية بالصورة التي تتصف بواقعية دقيقة، وتقرب مسافة الزمان بكل خصائصه ومميزاته ومؤثراته، فهي تمثل « حقائق ذات تطور ثابت ».¹⁵

الصورة المتحركة : هي صورة تتتابع فيها مقاطعها، بكيفية لا تسمح للمشاهد بالحرية الكافية لقراءة المشهد وما يمثله من تلميحات تعبر عن ملامح الحياة الواقعية المنشودة، فهي تضيق مساحة التمعن، والتأمل، والتفحص، على عكس الثابتة، ولا تمكن المشاهد من قبولها أو رفضها على المستويين الشكلي والباطني، إنها تهيمن على حاستنا البصرية وتحرك خوالجنا ولا تمنحنا فرصة اتخاذ المواقف اتجاهها إيجابا أو سلبا لسرعتها «إنها أقرب ما يمكن إلى الأمر والموجه، وعلى المشاهد أن ينفذ (...)، فصورة الشاشة أو التلفزة تجعل العين معوقة»¹⁶ إذا كان بالإمكان قياس مستوى تأثير الصورة الثابتة فإنه من الصعوبة بمكان في الصورة المتحركة، فالصورة هي الأصل والأساس الذي يبنى عليه ظهور الشيء إلى الوجود الحقيقي وتبقى الغاية منهما واحدة، تتمثل في تمكين المشاهد من الاستفادة في مستوييهما الشكلي (الذوق) والباطني (زاد ثقافي معرفي متعدد ومتنوع).

الصورة التعليمية أو الديدانكتيكية : عرفت العملية التعليمية عبر العصور وسائل عديدة ومتنوعة لدعم تفعيل النشاط التعليمي، وحاول البيداغوجيون تطوير الطرق التعليمية مركزين بالأساس على عملية التكوين،

لأن العملية تحتاج إلى إنسان مبدع، مبتكر، نافذ البصيرة، يمتلك قدرة التكيف لمواجهة تحديات العصر «العصر مليء بالتحديات (...) فكل يوم تظهر على مسرح الحياة معطيات جديدة تحتاج إلى خبرات جديدة وأفكار جديدة ومهارات جديدة وآليات جديدة للتعامل معها بنجاح»¹⁷ لا سبيل لمواجهة التحدي إلا سبيل المعرفة، ولا معرفة خارج إطار المدرسة التي أوكل إليها صياغة الفكر البشري للحفاظ على التوازن الاجتماعي من خلال المفاهيم الفكرية المرتبطة بالحاصل والمأمول لإنتاج مدونة علمية معرفية تعكسها ثقافة المجتمع وتعبّر عن غاياته لتكون مؤشرا على الجهد الواعي الذي يجعل من تفكير المتعلم جسرا إلى تعلم التفكير، وهذا النوع من التعليم لا يمكن أن يتحقق إلا بالوسائط الأكثر تأثيرا ومنها الصورة التعليمية التي شكلت في مخبر البيداغوجيين لدعم ومساعدة المتعلم باعتباره المحور الأساسي في منظور الإصلاح الذي يبنى نظريا في كثير من الدول العربية، ومن بينها الجزائر التي أسست لمضمون الإصلاح الذي يهدف إلى تعليم يكون فيه الدور الأساسي للمتعلم، فالفعل التعليمي تفاعلي مفتوح على الدوام على المبادرة الفعالة التي تحرك الطاقة الكامنة والقدرة الهائلة لدى المتعلم لإنتاج تعلمات على مستوى عال يتناسب وعمره الزمني، يتحقق كل ذلك في بعدين:

« ذاتي: يتمثل في ثقة المتعلم بقدرته الذاتية وتوظيفها في المواقف المختلفة في الحياة »¹⁸

اجتماعي: إنجاز مشاريع اجتماعية بقدرات وكفاءات علمية يكون المتعلم فيها القاعدة الارتكازية، وهذه الثقة المولدة للطاقة لديه ليست كفيلا بتحقيق الغاية، ما لم تعتمد على الدعم الفعلي المثير لنشاطه، وليس من مثير أكثر من الصورة بها تتم المعرفة والمعرفة الأدائية وبها يتم التحصيل الذي يسمح بتحقيق تعلمات مركزة وعالية الدقة.

فالفعل التعليمي داخل الفضاء المعرفي يسعى إلى تأطير الأهداف، وبه تضبط الوسيلة والكيفية، والوقوف على النتائج التي تعبر عن الاستفادة من المضامين المعرفية لتصبح مرجعية يستثمرها في الحياة اليومية وكأنه يستنتج ما استخلصه من الصورة التي وجهت مواهبه، ففي داخل إطارها تتفاعل منمنماتها وتتقاطع في داخلها «معارف، خبرات، ومواقف، (...) تقلص الهوية بين المعرفة المجردة، والحياة العملية»¹⁹ يحيل النص إلى بعد الربط بين الفكر والممارسة، والتركيز على الأنشطة الذاتية، والاعتماد على النفس، فالصورة في حد ذاتها تمثل مشروعا بذاته وهي ذاتها عنصر الإثارة والتشويق وهي نموذج باعتبارها نصا جاهزا ذا سلطة ثقافية أكيدة «حيث النموذج لا يقول شيئا عند فصله عن إ حالته الثقافية لكنه يفصح عن كل شيء عندما تقترب المسافة بين الدال والمندول لصياغة المعرفة وهي مرتبطة بثلاث أسئلة كبرى »

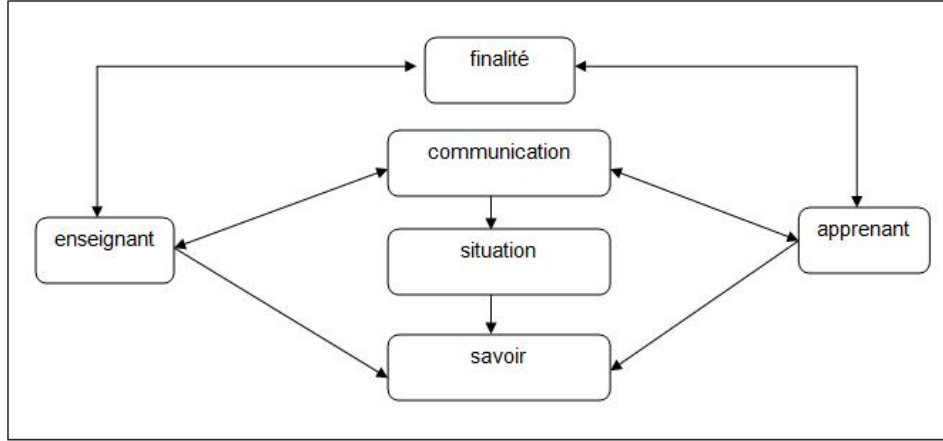
سؤال المعرفة: كيف يعرف الإنسان ما يعرف؟

سؤال الإدراك: كيف يدرك الإنسان ما يعرف؟

سؤال الذهن: كيف يتحقق الإدراك داخل الذهن؟²⁰

كل هذه الأسئلة فتحت مجال استغلال كيفية معرفة المعرفة على المستويين الإدراكي، والذهني والكشف عن الإمكانيات الكامنة في ذات المتعلم، لتصويب وتعزيز ما حصله من معارف « فالمعرفة ليست في الهدف وحده، ليست في الموضوع وحده، وليست مرتبطة بتفوق هذا أو ذاك، ولكنه في تفاعل الهدف بالموضوع »²¹ فالعناصر المشكلة للعملية التعليمية تتفاعل باطراد لتجمع المنتج العلمي المتراكم، وتخضعه للتقويم، وتقدير الدرجة العلمية التي تجعل الشهادة النهائية ذات مصداقية، وتعبّر عن المستوى العلمي للمتعلم بها .

ولعل في هذا الشكل ما يوضح قيمة العلاقات الترابطية بين العناصر المكونة للعملية التعليمية، ويعطي تصورا علميا وعمليا لبناء مسارات التعليم والتكوين في المستويات المختلفة، والحقول المعرفية المتنوعة²².



لا تحقق المنظومة التعليمية أهدافها وغاياتها حتى يدرك المكون ما الذي يتعين مخاطبته لدى المتعلم، وما يتعين عليه أن يعلمه ؟ وما هي الأدوات التي نسخرها للمتعلم لصياغة معارفه بنفسه ؟ وهل مشروع التعليم المقاربة بالكفاءات هو الحل السحري ؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة هي المفتاح الذي يتحكم في ترتيب الأولويات لمعالجة الحالات المستعصية، وتخطط في نفس الوقت لاستشراف المستقبل، لتدخل عالم صناعة الحواسيب، وخدمات المعلومات المواصلات لتقليص الهوة بين الدول المتقدمة والدول النامية .

إن الرهان الوحيد الذي يضمن نسبيا نجاح الأداء التعليمي يتمثل في وضع استراتيجية، تحدد فيها المقاصد بدقة ووضوح، يشرف عليها خبراء من الدرجات العلمية العالية في التخصص، وتتابع إنجازها خلايا البحث المؤهلة، ويسهر على تطبيقها مكون يتمتع بالحكمة، والقدرة على التخطيط، والرؤية الصائبة، وانسياب اللغة، والاعتماد على الوسائط الداعمة، وبخاصة الصورة .

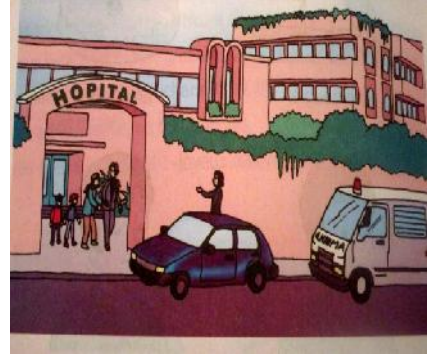
هذه الصورة تعطي انطبعا لمفهوم العولمة، التي أصبحت من المفاهيم المعاصرة التي تصوغ ثقافة الطفل، وتقربه من بني جنسه، تقرب يشعره بالود، والحب، بالرغم من الاختلاف، في اللغة، والتقاليد، والدين. واللون، ولكنه اختلاف يفتح الحوار، ويصنع التعايش الذي يحقق معاني التسامح والإنسانية.



تمثل هذه الصورة وجه آخر من مشاهد الحياة، صورة تنمي الذوق والحس الجمالي، وتتجز المتخيل، وتفتح الأفق الذي يجعل الطبيعة مصدرا معرفيا يختار منه الطفل ما يسعده، ويحقق أحلامه، ويكون شخصية تعرف بوعي ماذا تمثل الطبيعة في حياة الإنسان .



توحي هذه الصورة إلى قيمة ذات دلالة إنسانية، تدفع بالنفس إلى الإحساس بالآخر، يزوره في مرضه، ويساعده إذا احتاج إلى مساعدته، ويتبرع له بدمه إذا اقتضى الأمر. وبهذه المشاعر تتكون ثقافة التضامن.



الخلاصة : هذه نماذج من المشاهد التي لا يحصرها العقل، وكل صورة وكل مشهد، هو مصدر من مصادر تنوع المعرفة فالإنسان تقرب إلى الله بالصورة، وتعرف على أسرار الكون بالصورة، وتعلم بالصورة، ولا زال يصنع العجب بالصورة ...

إحالات البحث ومراجعته:

1. François dagognet, philosophie de l'image, ed, vrin, 1986, p21.
2. Pirrot jean, image des vivants et des morts, p07.
3. ينظر. أحمد فروخ. الطفولة والخطاب صورة الطفل في القصة المغربية القصيرة. دار الثقافة للنشر والتوزيع. المغرب. 1995. ص.15.
4. ينظر. حسين مجيد العبيدي. فلسفة المادة والصورة والعدم عند ابن رشد. دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع. دمشق. 2009. ص.99.
5. سعاد العالمي. مفهوم الصورة عند ريجيس دوبري. إفريقيا الشرق. 2004. ص.53.
6. عبد العالي معزوز. فلسفة الصورة بين الفن والتواصل. إفريقيا الشرق. الدار البيضاء. 2014. ص.45.
7. المرجع نفسه. ص.151.
8. Burgos jean, pour une poétique de l'imagination, ed seul, paris, 1982, p09.
9. Faure Elie, histoire de l'art : l'art antique, livre de poche, 1928, p13.

10. سعاد العالمي. مفهوم الصورة عند ريجيس دوبري. ص.81.
11. علي شلق. الفن والجمال. المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع. ط1. 01. 1982. ص.51.
12. المرجع نفسه. ص.59.
13. سعاد العالمي. مفهوم الصورة عند ريجيس دوبري. ص.85.
14. عبد العالي معزوز. فلسفة الصورة بين الفن والتواصل. ص. 137.
15. روبرت أوزيل. فن تخطيط العمران. تح بهيج سفيان. دار منشورات عويدات. لبنان. ص.10.
16. عبد العزيز بن عبد الله السنبلي. التربية التعليم في العالم العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين. منشورات وزارة الثقافة. سوريا. 2004. ص.148.
17. ينظر. د. بن جامعة. أثر الصورة في العملي التعليمية. نشاط القراءة في الطيب السنة الأولى نموذجاً. مجلة الحضارة الإسلامية. ع. 17. 2012. ص605 - 606.
18. محمد شريف. مقاربات بيداغوجية من تفكير التعلم إلى تعلم التفكير. إفريقيا الشرق. 2010. ص.30.
19. عبد الكبير الخطيبي. الاسم العربي الجريح. ترجمة محمد بنيس. دار العودة. بيروت. 1989. ص.32.
20. د.عبد السلام عشير. عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق. ط2. 2012. ص.26.
21. Marguerite alte, les pédagogie de l'apprentissage, puf, 1997, 01 ed. p13.
22. Epid.

نمية الموارد البشرية لتحقيق التنمية

د/ لعللى بوكميش، جامعة أدرار

الملخص:

إن التنمية لا يمكن تحقيقها بدون عنصر بشري، فهو الذي يخطط وينفذ، وهو الذي يحرك باقي الموارد، وهو الذي يصنع التغيير ويشيد الحضارة. فالأمم تتقدم بفضل مواردها البشرية وبفضل الاهتمام بها والاستثمار فيها، وإن كانت الدول المتقدمة قد قطعت أشواطاً كثيرة في الاستثمار في العنصر البشري وفي أعداده وتنميته فإن الدول النامية ما تزال في بداية الطريق، وقد حاولنا في هذه المداخلة تسليط الضوء على أهم الآليات العملية التي يمكن الاعتماد عليها لتنمية الموارد البشرية حتى تساهم بشكل فاعل في تحقيق التنمية، ومن أهم هذه الآليات: التعليم، التدريب، التوعية، المشاركة وتوفير الظروف والخدمات الملائمة.

الكلمات المفتاحية: التنمية، الموارد البشرية، تنمية الموارد البشرية.

Development of human resources to achieve development

Abstract:

The development can not be achieved without human resources, is the one who plans and executes, who drives the rest of the resources, which makes a change and Building civilization.

The Nations progressing by its human resources, by attention and investment in these resources.

If the developed countries have made a great strides in the investment in human resources, in its preparation and development, so the developing countries are still at the beginning of the road. We have tried in this presentation to highlight the most important practical mechanisms that can be relied upon for the development of human resources so that it can contribute effectively to the achievement of development, the most important of these mechanisms are: education, training, awareness, participation and provide appropriate conditions and services.

key words: development, human resources, development of human resources.

مقدمة:

يحتل موضوع التغيير والتنمية حيزاً واسعاً من اهتمام رجال الفكر والسياسة سواء في الدول المتقدمة أو المتخلفة، فالكل يريد أن يغير أن يطور أن ينمي أن ينتقل إلى وضع أحسن وأفضل وفي جميع المجالات. لا شك أن الملاحظ لواقع الدول النامية يجد أنها ما تزال تتلمس الطريق للخروج من دائرة التخلف، رغم ما تمتلكه من العديد من المقدرات والموارد التي تؤهلها لأن تكون في وضع أحسن مما هي فيه، ولكن للأسف يبدو أنها لم تتمكن بعد كسر حلقة التخلف لتشق طريقها نحو التنمية والتطور، بل أنها أوجدت أوضاعاً اقتصادية واجتماعية وسياسية تعمل كلها على تكريس التخلف وإعادة انتاجه.

إن الموارد المادية وحدها غير كافية لحدوث التنمية فلا بد من توفر العنصر البشري لأنه هو صانع التنمية، فقد حققت بعض الدول نهضة حضارية رائدة بفضل مواردها البشرية رغم قلة مواردها المادية وخير مثال علة ذلك اليابان.

إن أهمية المورد البشري في مجال التنمية لا تقل أهمية عن باقي الموارد المادية الأخرى، بل هو أشنها على الإطلاق لكونه محركها ومسخرها، فهو صانع التغيير والتنمية.

وقد أدركت الدول المتقدمة أهمية العنصر البشري منذ عقود من الزمن لذلك اتجهت نحو الاستثمار فيه وهيأت له كل الظروف المناسبة لتشجيعه على البذل والعطاء، وقد تزايد هذا الاهتمام في الآونة الأخيرة تحت تأثير العولمة واحتدام المنافسة بين الدول القوية اقتصاديا وسيادة اقتصاد المعرفة وتسارع وتيرة التطورات التكنولوجية.

من خلال ماسبق تأتي هذه المداخلة كمحاولة لتسليط الضوء على أهم الآليات العملية التي يمكن الاعتماد عليها لاعداد وتنمية الموارد البشرية حتى تساهم بشكل فاعل في تحقيق التنمية، وقد

قمنا بتقسيمها الى مبحثين أساسيين، تم التطرق في المبحث الأول إلى المفاهيم العامة للبحث وذلك بشرح معنى كل من الموارد البشرية، والتنمية وتعريف تنمية الموارد البشرية، أما المبحث الثاني فتناولنا فيه أهم آليات إعداد وتنمية الموارد البشرية من أجل التنمية والمتمثلة في: التعليم، التدريب، التوعية، المشاركة وتوفير الظروف والخدمات الملائمة.

المبحث الأول- الإطار المفاهيمي: سوف نتطرق في هذا المبحث الى تحديد تعريف كل من الموارد البشرية والتنمية وكذا إعداد الموارد البشرية

الفرع الأول- تعريف الموارد البشرية: تستخدم المؤسسات على اختلافها نوعين من الموارد لتحقيق أهدافها، الموارد المادية والموارد البشرية، وهذا النوع الأخير هو المحرك المستخدم للنوع الأول.

ويقصد بالموارد البشرية في المشروعات (المؤسسات) جميع الأفراد الذين يعملون بها، بينما يقصد بها في الدولة جميع الأفراد الذين يحملون جنسية هذه الدولة وقيمون بها بصفة دائمة⁽¹⁾.

غير أننا نرى بأن الموارد البشرية تشمل جميع السكان المقيمين في دولة معينة سواء كانوا أصليين أو غير أصليين .

ومفهوم الموارد البشرية يضع الإنسان على نفس مستوى الموارد المجتمعية الأخرى إلا أنه مورد من أغلى الموارد، فهو القادر على تحويل الموارد الطبيعية الأخرى إلى طاقة منتجة ونافعة، ذلك أن الإنسان هو صانع هذا التحول في الموارد الأخرى وهو الموظف لها، وهو بذاته مورد لا تنضب طاقاته وهو في نهاية الأمر الغاية والهدف الذي من أجله يتم استثمار وتشغيل طاقات مختلف الموارد الأخرى⁽²⁾.

وبشكل مختصر فإن الموارد البشرية هم البشر الموجودين في أي دولة أو مؤسسة أو نقطة من العالم.

الفرع الثاني- تعريف التنمية:

إن أول استخدام لكلمة تنمية " DEVELOPPEMENT " بالمعنى المعاصر يرجع إلى " يوجين ستيلي " EUGENE STALYE "، الذي اقترح خطة لتنمية العالم سنة 1939⁽³⁾.

وقد انتشر استخدام هذا المفهوم بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد موجة التحرر التي شهدتها دول العالم الثالث، والتي كانت قابضة تحت الاستعمار، ومن ثم ظهرت التنمية كآلية للقضاء على التخلف والوصول إلى مصاف الدول المتطورة.

وفي البداية ظهر مفهوم التنمية الاقتصادية، التي تركز على العوامل الاقتصادية لإحراز التنمية، وهي تهدف إلى "تضييق الفجوة في دخل الفرد بين الدول المتقدمة والدول الفقيرة"⁽⁴⁾، وزيادة الدخل القومي.

ولكن بعد الستينات من القرن الماضي تغير مدلول التنمية، حيث تأكد أنه لا يمكن الاعتماد على العوامل الاقتصادية وحدها لتحقيقها، بل لا بد من الاهتمام والتركيز على العديد من العوامل المختلفة والمتنوعة الاقتصادية منها والاجتماعية والثقافية والسياسية والإدارية⁽⁵⁾.

وتعرف التنمية وفق التصور الحديث بأنها: "تعني حصيلة تفاعلات سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية متداخلة ومستمرة، تشكل كل منها - وبدرجة متفاوتة - عاملاً مستقلاً وتابعا في آن واحد"⁽⁶⁾.

كما تعرف أيضا بأنها: "التحريك العلمي المخطط لمجموعة من العمليات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من خلال إيديولوجية معينة، لتحقيق التغيير المستهدف من أجل الانتقال من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب الوصول إليها"⁽⁷⁾.

وبالرجوع إلى "إعلان الحق في التنمية" نجده يعرف التنمية في الفقرة الثانية من الديباجة بأنها: "عملية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية شاملة تستهدف التحسين المستمر لرفاهية السكان بأسرهم والأفراد جميعهم"⁽⁸⁾، والمقصود هنا جميع السكان في الدولة الواحدة وفي العالم بأسره، وجميع الأفراد بدون تمييز بينهم. من خلال ما سبق يمكن تعريف التنمية بأنها التغيير والتطوير والتحسين الواعي والمقصود والمنظم في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والإدارية، بهدف الانتقال بالمجتمع من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوبة.

الفرع الثالث- ماهية تنمية الموارد البشرية:

إن عملية تنمية الموارد البشرية هي عملية إعداد الموارد البشرية من أجل تحقيق التنمية، وهي لا تختلف كثيرا عن التنمية البشرية والتي تعرف بأنها: "عملية توسيع خيارات الناس Human development is the process of enlarging people's choices، وأهم هذه الخيارات هي توفير حياة مديدة وصحية، التمتع بمستوى معيشة لائق، توفير الحرية السياسية وضمان حقوق الإنسان والاحترام الذاتي"⁽⁹⁾.

وهكذا فتتمة الموارد البشرية تركز بشكل أساسي على تحسين الظروف الحياتية للإنسان من ناحية الصحة والتعليم والحياة الكريمة، وبهذه الإجراءات يمكننا توفير الموارد البشرية القادرة على إحداث عملية التنمية المستدامة والشاملة.

وقد أشار "مكتب العمل العربي"⁽¹⁰⁾ أن مفهوم تنمية الموارد البشرية قد تطور، ولم يعد يقتصر فقط على التعليم والتدريب، بل أصبح يركز على تطوير أنماط التفكير والسلوك، ونوعية التعليم والتدريب، ونوعية مشاركة الجمهور في اتخاذ القرارات والعلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد، وثقافة الشعوب، وطرق وأساليب العمل والإنتاج أي تعبئة الناس بهدف زيادة قدراتهم على التحكم في مهاراتهم وقدراتهم.

وهكذا نستخلص بأن التنمية البشرية أصبحت تتسم بالشمولية والاتساع ولم تعد تقتصر فقط على جوانب الصحة والتعليم.

وما يجب التأكيد عليه أن تنمية الموارد البشرية انتقلت من كونها تركز على الجوانب التقليدية (الصحة، الغذاء، محاربة الأمية) إلى إضافة أبعاد أخرى تتعلق بمحو الأمية المعلوماتية والتركيز على الكفاءة والتدريب لهذه الموارد، وانتقلت من التركيز على تنمية الموارد البشرية ضمن إطار الدولة الواحدة أو مراعاة الظروف الداخلية لهذه الدولة إلى التركيز على تحليل الظروف الدولية العالمية التي نتجت عن ظاهرة العولمة وتوحد أسواق العمل الدولية.

وقد تحدثنا هنا عن التنمية البشرية حتى لا نمس بالمعنى أو المدلول العلمي لهذا المصطلح، لذلك استخدمنا مصطلح تنمية الموارد البشرية وهي عملية واسعة قد تستوعب عدة آليات.

وحسب هذا البحث فإن عملية تنمية الموارد البشرية هي عملية إعداد الموارد البشرية من أجل تحقيق التنمية، وهذا الإعداد والتنمية يشملان عدة مجالات منها التعليم والتدريب، وتوفير الخدمات اللازمة مثل الصحة والسكن والنقل وغيرها، والتوعية والمشاركة، وسوف نتطرق إليها بالتفصيل في البحث الموالي.

البحث الثاني- آليات إعداد الموارد البشرية من أجل التنمية:

لقد ركزنا في هذا البحث على أهم الآليات التي يمكن بواسطتها إعداد وتنمية الموارد البشرية لكي تساهم بشكل فاعل في تحقيق التنمية، وهذه الآليات هي: التعليم والتدريب والتوعية والمشاركة وتوفير الظروف والخدمات الملائمة، وسوف نشرح فيما يلي هذه الآليات.

الفرع الأول- التعليم:

إن التعليم أو التكوين يعني تعليم العنصر البشري واكسابه معارف جديدة وعصرية تستجيب لمتطلبات التنمية. إن الاقتصاد الحالي هو اقتصاد المعرفة (*l'economie du savoir*) الذي يقوم على أساس المعرفة كوسيلة لخلق القيمة وتحقيق التنمية، وهو يعتمد على الراسمال المعرفي لدى العنصر البشري. كما أن المجتمع الحالي هو مجتمع المعرفة (*la société du savoir*) الأمر الذي يتطلب الاهتمام أكثر بتعليم العنصر البشري. وحتى تتحقق التنمية والتقدم لا بد أن تكون المعرفة متقاسمة أو مشتركة (*Savoir partager*)، لكونها حسب "ك. ماتسورا" (K.Matsuura) المدير العام لليونيبيسكو هي "الوسيلة للخروج من الفقر"⁽¹¹⁾، وهي حسب "آسيا خياط": "تحويل الرأسمال البشري إلى نمو، ومن نمو إلى تنمية اقتصادية، ومن تنمية اقتصادية إلى تنمية اجتماعية، ومن تنمية اجتماعية إلى تنمية مستدامة، ومن تنمية مستدامة إلى تماسك اجتماعي"⁽¹²⁾.

إن المتأمل لواقع التعليم في العالم العربي يلاحظ أنه يعتمد على الكم بدل النوع، وهذا ما يؤدي إلى تخريج باحثين يفتقرون إلى الدراية والكفاءة العلمية المطلوبة للبحث والإنتاج العلمي على النحو الموجود في الدول المتطورة، وفي هذا الإطار يشير بعض الباحثين بخصوص حالة الجزائر بالقول: "يبدو أن الجزائر قد وقعت تحت تأثير اعتقاد بأن التوسع الكمي في التعليم العالي هو الطريق السالك لتحقيق التنمية المنشودة دون مراعاة لوظيفته، وهذا على حساب التكوين النوعي الصحيح والوظيفي الذي يستجيب لمتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية الحاضرة والمستقبلية"⁽¹³⁾.

ومن جهة أخرى نلاحظ عدم وجود إستراتيجية لربط الجامعات وهيئات البحث بالمجتمع ومؤسساته، وفصح المجال أمام الطلبة والباحثين لإجراء التطبيقات الميدانية والاعتماد على الجانب النظري الأمر الذي يجعلهم عاجزين عن التصور الجيد للمعارف ومن ثم عدم إمكانية تطويرها وتوطينها والتحكم فيها. وفي هذا الإطار يشير تقرير التنمية البشرية لسنة 2001 إلى أن: "رجال الصناعة وبخاصة الاتصالات وتصنيع الأخشاب في فنلندا يقضون 20% من أوقاتهم في تقديم خبرتهم لطلاب الجامعات، وفي الصين تدعم الجامعات الحكومية البحث العلمي لصالح المؤسسات الصناعية في القطاع الخاص مثل الصناعات البتروكيمياوية وتحسين الأنشطة التقليدية في الزراعة"⁽¹⁴⁾.

وهكذا فلا بد من إعادة النظر في برامج التكوين في الجامعات والمعاهد وكذلك إعادة النظر في التخصصات وفي طرق التدريس المعتمدة، وذلك بشكل يقود في النهاية إلى تخريج أجيال قادرة على إحداث التغيير المطلوب وعلى تقديم أداء عالي ومتميز.

ولا بد أن يركز التكوين وبناء العنصر البشري على الجانب الأخلاقي والقيمي بحيث لا بد من غرس قيم احترام الوقت وقيم الانضباط وقيم إتقان العمل وتجنب كل مظاهر الفساد من رشوة ومحسوبية وغير ذلك من المظاهر السلبية التي تعرقل أداء الأجهزة الإدارية وتحول دون الوصول إلى الأداء العالي، وهذه الأشياء لا بد من غرسها في الشخص منذ الصغر وهي تساعد في بناء الضمير المهني لدى الشخص فيما بعد والذي يشكل ما يسمى بالرقابة الذاتية لدى العامل أو الموظف والتي لا نحتاج معها إلى رقابة أخرى تؤدي إلى إضاعة المال والوقت والجهد.

وهنا لا بد من وقفة مع مشكلة الفساد التي أصبحت مسألة خطيرة تعوق كل جهود الإصلاح والتنمية والتطوير في العالم العربي، وللأسف فإن هذه الآفة مست جميع الجوانب والمؤسسات في الدول العربية، فحسب التقرير الذي أصدرته منظمة الشفافية الدولية سنة 2006 فإن أقل الدول العربية فساداً تقع في المرتبة (31) من أصل (163) دولة وتتابع المواقع على السلم حتى تصل إلى المرتبة (156) والتي تحتلها دولة السودان، بينما يقع العراق في المرتبة (160) مسجلاً بذلك أكبر دولة عربية من حيث الفساد⁽¹⁵⁾.

وفي هذا السياق يقول أحد الباحثين: "وما يمكن أن نقوله بثقة أن الفساد قد تسلل إلى أجهزة وأوصال البحث العلمي في العراق ليهبط بهذا البلد إلى مستوى متدنٍ من الإنجاز العلمي النوعي يوازي ما بلغه أيضاً من مستوى في الفساد"⁽¹⁶⁾.

وحسب تقرير الاتجاهات الاقتصادية الإستراتيجية لسنة 2005 فإن الفساد اتخذ طابعاً منهجياً ومؤسسياً في العديد من الدول العربية، حيث أصبح القاعدة لا الاستثناء، ويعتبر ضعف آليات المساءلة والشفافية كسبب رئيسي وراء ارتفاع معدلات الفساد في المنطقة⁽¹⁷⁾.

لقد أصبح الفساد المالي والإداري من أهم التحديات التي تواجه التنمية وأيضاً البحث العلمي في الدول العربية، وهذا ما يؤكدته التقرير الصادر عن البنك الدولي تحت عنوان "التنمية في عام 2005"، حيث أشار بأن الفساد من أهم التحديات التي ينبغي على الحكومات العربية مواجهتها من أجل تحسين مناخ النمو والاستثمار فيها⁽¹⁸⁾.

ولا شك أن التعليم يمكن أن يساهم في الحد من ظاهرة الفساد وذلك من خلال غرس القيم الأخلاقية الفاضلة في الأجيال من أمانة ونزاهة وحفاظ على المال العام وغيرها.

الفرع الثاني- التدريب:

يعرف التدريب بأنه: "عملية تعلم، تتضمن اكتساب مهارات ومفاهيم وقواعد أو اتجاهات لزيادة وتحسين أداء الفرد"⁽¹⁹⁾.

كما يعرف بأنه: "عملية تعلم تهدف إلى إحداث تغيير دائم على مستوى الأفراد والذي سيحسن من قدرتهم على الأداء في العمل"⁽²⁰⁾.

ويميز البعض بين تدريب الموظف وبين تنميته، ذلك أن: "تدريب الموظف (employee training) هو عبارة عن تدريب موجه للحاضر (Present-oriented trainig)، وهو يركز على الأعمال الحالية للأفراد"⁽²¹⁾، أما "تنمية الموظف (employee development) هو عبارة عن تدريب موجه للمستقبل (Future-oriented trainig)، وهو يركز على النمو الشخصي للموظف"⁽²²⁾.

والتدريب والتنمية هي عملية تعلم مستمرة، تهدف إلى تغيير في المعارف والمهارات والاتجاهات والسلوك والخبرة لدى الأفراد⁽²³⁾.

وعلى هذا الأساس أصبح يربط بين التدريب والتنمية وقد يستخدم أحدهما للدلالة على الاثنين، والتدريب مسألة تهم كل الموارد البشرية في المؤسسة وفي كل المستويات دون استثناء. إذن فالتدريب فهو موجه بشكل أساسي إلى العاملين بهدف إكسابهم مهارات وخبرات جديدة، ولكن لماذا يعتبر تدريب الموظفين قضية مهمة؟

لقد أصبح تدريب الموظفين يزداد أهمية نظرا لكون الأعمال أصبحت أكثر تطورا أو حساسية (Sophisticated) وأكثر تأثرا بالتغيرات التكنولوجية وتغير المنظمة ذاتها⁽²⁴⁾.

ويمثل التدريب أهمية كبيرة خاصة في ظل المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية والحكومية، والتي تؤثر بدرجة كبيرة على أهداف واستراتيجيات المنظمة، ومن الناحية الأخرى، فإن هذه التغيرات يمكن أن تؤدي إلى تقادم المهارات التي تم تعلمها في وقت قصير. أيضا فإن التغيرات التنظيمية والتوسعات، تزيد من حاجة الفرد لتحديث مهاراته واكتساب مهارات جديدة⁽²⁵⁾.

ويعتبر التدريب التنمية وسيلة فعالة بإمكان المنظمات استخدامها من أجل تجديد حيويتها باستمرار وجعلها قادرة على مواجهة تحديات القرن الحالي⁽²⁶⁾.

لقد أصبح ينظر إلى التدريب والتنمية كاستراتيجية وهذا نظرا للأهمية الإستراتيجية له في تحقيق إستراتيجية المنظمة، حيث يمكن القول: "أن التدريب والتنمية كإستراتيجية تسعى إلى بناء نظام معرفي حديث لدى الموارد البشرية في المنظمة، وتطوير مهاراتها الحالية وإكسابها أخرى جديدة ومتنوعة وتعديل اتجاهاتها السلوكية للأفضل، بهدف استيعاب والتأقلم مع التغيرات التي تحدث في البيئة وتفرض على المنظمة تبنيها والتكيف معها"⁽²⁷⁾.

لقد كان ينظر إلى التدريب والتنمية في بريطانيا بشكل تقليدي على أنهما تكلفة وليس استثمار، ولكن هذه النظرة تغيرت⁽²⁸⁾، وأصبح ينظر إليه كاستثمار.

ونحن بحاجة إلى تغيير النظرة السائدة في الدول العربية حول قيمة التدريب وأهميته واعتباره استثمار يؤدي إلى تحسين أداء الأفراد ومن ثم رفع أداء المنظمة وزيادة قدرتها التنافسية.

إن اختيار مقاربات وطرق التدريب والتنمية يجب أن يكون على أساس أكثرها فعالية في تحصيل المهارات والكفاءات المطلوبة من قبل المنظمة⁽²⁹⁾.

كما أن إستراتيجية التدريب والتنمية يجب أن تركز على إستراتيجية المنظمة وأهدافها وان تتضمن تحديد المهارات والكفاءات المطلوبة لتحقيق هذه الإستراتيجية وهذه الأهداف في الوقت الحاضر وفي المستقبل⁽³⁰⁾. ولنجاح التدريب ومساهمة في تحقيق التنمية المحلية فيجب أن نأخذ بعين الاعتبار بعض الشروط والتي من أبرزها:

- أ- يجب أن يرتبط التدريب بالإستراتيجية العامة للمؤسسة ومن ثم بإستراتيجية التنمية المحلية، وأن لا يكون التدريب من أجل التدريب.
- ب- يجب أن يكون يتضمن التدريب جوانب عملية وتطبيقية وليس نظري فقط.
- ج- يجب أن لا يركز التدريب فقط على الجوانب المادية من العمل بل لا بد أن يشمل أيضا جوانب متعلقة بالأخلاق والقيم لأنها تشكل قوة دفع داخلية، فنحن بحاجة إلى تقويم السلوك المهني لدى العاملين في الدول العربية وغرس أخلاق وقيم تزيد من الأداء مثل النزاهة والأمانة واحترام الوقت وإتقان العمل ومحاربة الفساد وغيرها.
- د- لا بد من تقييم التدريب للتأكد من فعاليته.
- هـ- عدم إعادة الأشخاص المستفيدين من التدريب للقيام بنفس المهام السابقة وعدم إتاحة الفرصة لهم لتوظيف ما تعلموه واكتسبوه من التدريب في خدمة المؤسسة.

الفرع الثالث- التوعية:

- إن العنصر البشري بحاجة إلى توعية وإلى توضيح الأهداف المطلوب تحقيقها على المستوى المحلي، وبحاجة إلى توعية لتجنب بعض المشكلات التي تهدد المجتمع وتكرس تخلفه وتحول دون تقدمه، ومن أبرز مجالات التوعية التي تساعد في توجيه العنصر البشري نحو تحقيق أهداف التنمية المحلية ما يلي:
- أ- التوعية في مجال تكريس السلم الاجتماعي والتسامح بين أبناء الشعب ونشر روح الوحدة واللحمة بينهم ونبذ كل أشكال العنف والعدوان.
 - ب- تقبل التنوع الثقافي والديني والعرقي والنظر إليها على أنها أشياء طبيعية في المجتمع.
 - ج- تكريس مفهوم المواطنة المحلية والانتماء للإقليم والوطن.
 - د- التوعية بخصوص تجنب بعض العادات والتقاليد التي تكرس التخلف وتضر بالمجتمع وتحول دون تقدمه.
 - هـ- التوعية في المجالات المتعلقة بمحاربة المخدرات والجريمة بمختلف أنواعها.
 - و- التوعية في مجال الجودة والإتقان واعتماد الكفاءة والجدارة كمقياس لاختيار الأفراد ومنح المكافآت.
 - ي- التوعية بضرورة تكريس مبدأ حياد الإدارة.
- ولنجاح هذه العملية التوعوية لا بد من إشراك المدرسة والمسجد والإذاعة المحلية ووسائل الإعلام المحلية وغيرها.

الفرع الرابع- المشاركة:

لقد أصبحت المشاركة من المسائل المهمة في نجاح المنظمات، وعلى المستوى المحلي ومن أجل مساهمة العنصر البشري بشكل فاعل في تحقيق التنمية المحلية فلا بد من الاعتماد على المشاركة، وذلك من خلال مشاركة العنصر البشري في بلورة الأهداف أي أهداف التنمية وفي تصور الطرق المثلى لتحقيق هذه الأهداف. ومن هذا فإن الأفراد يحسون بأن الأهداف هي أهدافهم وأن القضية أي قضية تحقيق التنمية المحلية هي قضيتهم. وفي مجال المشاركة فلا بد من مشاركة منظمات المجتمع المدني وممثلي الفعاليات الاجتماعية الموجودة مثل الأعيان ولا بد من مشاركة أصحاب الكفاءات وعدم الاعتماد كما هو موجود فقط على القيادات الإدارية التي أحياناً تنقصها الكفاءة والنظرة الشمولية للأمور لكونها تدرجت في السلم الإداري عن طريق الأقدمية. والمشاركة كما نحتاجها خارج المؤسسات والإدارات فنحن نحتاجها أيضاً داخل هذه المؤسسات والإدارات، ومن ثم لا بد من فتح المجال للعاملين للمشاركة وإبداء آرائهم وانتهاج أسلوب التسيير التشاركي والديمقراطي.

الفرع الخامس- توفير الظروف والخدمات الملائمة للعنصر البشري:

لقد بدأ الاهتمام بخدمة العنصر البشري وتوفير الظروف المناسبة للعيش والعمل منذ بدايات القرن الماضي على يد "روبرت أوين"، ومنذ ذلك الوقت والجهود مستمرة لتحسين هذه الظروف، ذلك أنه لا شك أن العنصر البشري حتى يساهم بشكل فعال وحتى يسخر جهده للعمل والعطاء فهو بحاجة إلى تهيئة الظروف المناسبة لذلك وتقديم الخدمات المساعدة على ذلك، من هذه الخدمات والظروف ما يلي:

- توفر السكن، وذلك باستخدام مختلف الصيغ الممكنة مثل السكن الوظيفي، بيع السكن، الإيجار البيع بالإيجار.. وغيرها.
- توفير الخدمات الصحية سواء داخل محيط العمل أو خارجه.
- توفير النقل، ويرتبط النقل بمسألة شق الطرق خاصة في المناطق النائية والمعزولة، فالنقل والطرق يساعدان على حركية العنصر البشري وعلى انجاز مهامه وإشباع حاجاته.

الخاتمة:

لاشك أن للعنصر البشري دور مهم في دفع عجلة التنمية وتحقيق التقدم، فهو الذي يخطط وينفذ ويراقب ويقيم ويحرك سائر الموارد نحو تحقيق الأهداف التنموية، ذلك أن الموارد المادية مهما عظمت وكثرت فإنها تبقى كالروح بلا جسد، إذ لا بد لها من عنصر بشري يستغلها ويستثمرها. وإن هذا العنصر حتى يقوم بدوره على أحسن وجه فهو يحتاج إلى عناية ورعاية وإعداد، فقد أصبح الاستثمار في العنصر البشري هو السبيل لتحقيق التنمية والتقدم والطريق لكسب رهان المنافسة والبقاء في ظل البيئات التنافسية.

إن الدول النامية بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في استراتيجياتها التنموية، وذلك باعطاء الأهمية والمكانة اللائقة للعنصر البشري ضمن هذه الاستراتيجيات، فالتنمية إنما تتم بالإنسان ولفائدة الإنسان. وقد توصلنا من خلال ماتم عرضه في هذا البحث إلى أن إعداد العنصر البشري كي يساهم بشكل فاعل في عملية التنمية يتطلب توفير مايلي:

- 1- تعليم عصري يستجيب لمتطلبات التنمية.
- 2- تدريب كفؤ وفعال يشمل جوانب العمل أو الأداء والسلوك والأخلاق والمعارف، ويركز

- على اتقان الاعمال الحالية ويبني المهارات للمستقبل.
- 3- التوعية اللازمة بمختلف الوسائل لنشر الوعي بقضايا التنمية وتكريس السلم الاجتماعي ومحاربة كل ما من شأنه عرقلة جهود التنمية.
- 4- فسح المجال للمشاركة وابداء الرأي.
- 5- توفير الظروف والخدمات الملائمة من سكن ونقل وخدمات صحية وغيرها.

الهوامش:

- (1)- مكتب العمل العربي، "الموارد البشرية العربية ودورها في الحياة الاقتصادية"، مجلة العمل العربي، منظمة العمل العربية، القاهرة، عدد (98)، 1997، ص 117.
- (2)- نفس المرجع، ص 118.
- (3)- إسماعيل العربي، التنمية الاقتصادية في الدول العربية والمغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1994، ص 32.
- (4)- إسماعيل العربي، نفس المرجع، ص 33.
- (5)-voire: - Gérard Timist, **Théorie de L Administration**, Edition Economisa, Paris, 1986, pp. 335-340.
- (6)- صادق محمد، إدارة التنمية وطموحات التنمية، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، عمان، الأردن، 1983، ص 20.
- (7)- عاطف غيث، في تقديمه لكتاب، نبيل السمالوطي، علم اجتماع التنمية: دراسة في اجتماعيات العالم الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1974، ص VI-V.
- (8)- إعلان الحق في التنمية، المعتمد من طرف الجمعية العامة للأمم المتحدة بموجب القرار رقم: 128/41 المؤرخ في 4 كانون الأول/ ديسمبر 1986
- (9)- Human development report 1990, UNDP, N.Y. 1990, P. 10.
- (10)- مكتب العمل العربي، نفس المرجع، ص 119.
- (11)-Assya KHIAT, Analyse economique et G.R.H: Audit de la fonction ressources humaines dans les entreprise, Editions Dar El Adib, Oran, Algerie, 2009, p43.
- (12)- Op.cit, p 44.
- (13)- عماري عمار وقطاف ليلي، الجامعة الجزائرية: الواقع والآفاق، بحث مقدم إلى الملتقى الدولي حول: إشكالية التكوين والتعليم في أفريقيا والعالم العربي أيام 28- 29- 30 أفريل 2001، سلسلة إصدارات مخبر إدارة وتنمية الموارد البشرية، جامعة فرحات عباس: سطيف(الجزائر)، العدد الأول 2004، ص 96.
- (14)- تقرير التنمية البشرية لعام 2001: توظيف التقنية لخدمة التنمية البشرية، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الطبعة الأولى، نيويورك، 2001.
- (15)- موفق سالم نوري، مشكلات البحث العلمي في الوطن العربي: الواقع والمعالجات، الموقع التالي: <http://www.rabitat-alwaha.net/moltaqa/showthread.php?t=23351>
- (16)- موفق سالم نوري، نفس المرجع.
- (17)- محمود عبد الغفار، تقرير الاتجاهات الاقتصادية الإستراتيجية على الموقع التالي:

<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/1388F65B-EEAE-4E02-865A-51A824A18C6C.htm>

- نقلا عن: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الإستراتيجية، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، ط 1، 2005.
- (18)- محمود عبد الغفار، نفس المرجع.
- (19)- راوية حسن، إدارة الموارد البشرية: رؤية مستقبلية، الدار الجامعية، الاسكندرية، مصر، 2002 - 2003، ص 163.
- (20)-David A. DeCenzo and Stephen P. Robbins, David A. DeCenzo and Stephen P. Robbins, Fundamentals of Hman Resource Management, 8th Ed, John Wiley and Sons, Inc, N.J, 2005, p 217.
- (21)- Op.cit, p 204.
- (22)- Ibid, p 204.
- (23)- عمرو وصفي عقيلي، ، إدارة الموارد البشرية المعاصرة: بعد استراتيجي، دار وائل، عمان، الأردن، ط2، 2009، ص 438 (بتصرف).
- (24)-David A. DeCenzo and Stephen P. Robbins, Op.cit, p 217.
- (25)- راوية حسن، المرجع السابق، ص 163.
- (26)- عمرو وصفي عقيلي، المرجع السابق، ص 435.
- (27)- نفس المرجع، ص 438.
- (28)- Derek Torrington and Laura Hall, Human Resource Management, 4th Ed, Prentice Hall Europe, 1998, p 403.
- (29)- Derek Torrington and Laura Hall, Op.cit, p 408.
- (30)- Ibid, p 411.

قائمة المراجع:

- 1- إسماعيل العربي، التنمية الاقتصادية في الدول العربية والمغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1994.
- 2- إعلان الحق في التنمية، المعتمد من طرف الجمعية العامة للأمم المتحدة بموجب القرار رقم: 128/41 المؤرخ في 4 كانون الأول/ ديسمبر 1986
- 3- تقرير التنمية البشرية لعام 2001: توظيف التقنية لخدمة التنمية البشرية، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الطبعة الأولى، نيويورك، 2001.
- 4- عماري عمار وقطاف ليلي، الجامعة الجزائرية: الواقع والآفاق، بحث مقدم إلى الملتقى الدولي حول: إشكالية التكوين والتعليم في أفريقيا والعالم العربي أيام 28 - 29 - 30 أفريل 2001، سلسلة إصدارات مخبر إدارة وتنمية الموارد البشرية، جامعة فرحات عباس: سطيف(الجزائر)، العدد الأول. 2004.
- 5- صادق محمد ، إدارة التنمية وطموحات التنمية، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، عمان، الأردن، 1983.
- 6- نبيل السمالوطي، علم اجتماع التنمية: دراسة في اجتماعيات العالم الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1974.
- 7- محمود عبد الغفار، تقرير الاتجاهات الاقتصادية الإستراتيجية على الموقع التالي:

<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/1388F65B-EEAE-4E02-865A-51A824A18C6C.htm>

نقلا عن: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الإستراتيجية، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، ط 1، 2005..

8- موفق سالم نوري، مشكلات البحث العلمي في الوطن العربي: الواقع والمعالجات، الموقع التالي:

<http://www.rabitat-alwaha.net/moltaqa/showthread.php?t=23351>

9- مكتب العمل العربي، "الموارد البشرية العربية ودورها في الحياة الاقتصادية"، مجلة العمل العربي، منظمة العمل العربية، القاهرة، عدد (98)، 1997.

10 -Assya KHIAT, **Analyse economique et G.R.H: Audit de la fonction ressources Humaines dans les entreprise**, Editions Dar El Adib, Oran, Algerie, 2009.

11- David A. DeCenzo and Stephen P. Robbins, **Fundamentals of Hman Resource Management**, 8th Ed, John Wiley and Sons, Inc, N.J, 2005.

12 -Gérard Timist, **Théorie de L Administration**, Edition Economisa, Paris, 1986.

13- Human development report 1990, UNDP, N.Y. 1990.

نمذّلات القيم في العلاقة أستاذ - طالب في الوسط الجامعي دراسة ميدانية

د/قريصات الزهرة، جامعة تيارت، أ/ وليد جمال، جامعة مستغانم

ملخص البحث:

تعد القيم من المعالم المميزة للمجتمع واحد و هي انعكاس للطريقة التي يفكر بها أفراد المجتمع الواحد و الثقافة المشتركة الواحدة و لكن التناقض في تمثّل القيم يظهر جليا عند الطلبة و الأساتذة في الجامعة الجزائرية من خلال هذه الدراسة الميدانية ، و التي تبين تضاربا في تمثّلات العينة المدروسة في مجال مكاني و زمني مشترك .

إن صراع القيم بين الطلبة و الأساتذة يرجع إلى وجود عادات مكتسبة اجتماعياً يصل بها الطلبة إلى الجامعة اكتسبوها من حياتهم السابقة و هم غير قادرين على تغييرها لأنها متجذرة في أعماق الوجدان الاجتماعي تعمل على توجيه خياراتهم في معاملاتهم، و تعمل على تشكيل تمثّلاتهم و التمسك بها و صعوبة تغييرها في مراحل لاحقة . بالمقابل يظهر الأساتذة تباعدا في فهم القيم عند الطلبة و هذا يؤثر بشكل جلي على نوع العلاقة و تفعيلها في خدمة الأهداف المشتركة .

إن عدم الاتساق القيمي بين قيم الطلبة و تمثّلات أساتذتهم لهذه القيم هو انعكاس للصراع القيمي بين الطلبة و الأساتذة مما ينعكس في سوء التكيف بين الفاعلين في علاقتهما معا و في علاقتهما بالمجال الزمني و المكاني المشترك . لأن التمثّلات تعكس صورة وخصوصية الجماعة الاجتماعية تسمح بتشكيل هوية اجتماعية وشخصية متوافقة مع منظومة القيم والمعايير المحددة اجتماعياً و لكن التناقض الملاحظ في الدراسة يعكس الفجوة الجلية وصراع الفئات الفاعلة في الجامعة الجزائرية .

الكلمات المفتاحية : القيم ، التمثّلات ، النسق ، الهوية ، المعايير
المخلص باللغة الأجنبية :

Les valeurs des caractéristiques de la société est un reflet de la façon dont pense les membres d'une même société et la culture commune, mais le contraste en valeurs montre un conflit de représentations de l'échantillon étudié dans l'université.

Le conflit des valeurs entre les étudiants et les enseignants est du aux références culturelles enracinées dans la conscience sociale profonde du travail pour guider leurs choix,

.Les Professeurs de l'inverse montrent divergence dans la compréhension des valeurs des étudiants, ce qui affecte clairement le type de relations et activités au service des objectifs communs.

L'incohérence entre les valeurs morales des étudiants et de leurs professeurs est le reflet du conflit moral, qui se reflète dans la relation entre les acteurs et leurs relations dans le domaine temporel et spatial commun. Parce que les représentations reflètent l'image de la vie privée du groupe social permet la constitution de l'identité sociale et personnelle , Mais la contradiction est indiquée dans l'étude reflète la lacune évidente des groupes actifs .

-Mots clefs :

Valeurs, représentations, système, identité, normes.

مقدمة :

تعتبر التمثّلات النفسية الاجتماعية إحدى بؤر اهتمامات عدد كثير من العلوم الإنسانية، لما أصبحت تلعبه من أدوار أساسية في بناء الحقيقة الاجتماعية و في تغييرها حسب الوضعيات التي يحتلها الأفراد الاجتماعيون ضمن السياقات التعليمية الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية ، و يستأثر موضوع التمثّلات باهتمام كثير من العلماء و الباحثين في مختلف العلوم الإنسانية، لما له من قيمة مضافة يزيدها إلى تطور العلوم عموماً، وعلوم التربية بصفة خاصة، و لقد ازداد اهتمام الباحثين بدراسة القيم عند الشباب باعتبارهم العنصر الهام في تقدم وتطوير أية أمة و لما كانت مرحلة الدراسة الجامعية تمثل مرحلة حرجية، تتجلى أهمية التمثّلات في كونها تفتح لنا آفاقاً جديدة لمعرفة الحقيقة الاجتماعية و تعطينا تفسيرات واضحة حول تصورات الأفراد و الجماعات حيال الظواهر و الأحداث المعاشة من طرفهم، انطلاقاً من عمق التفاعلات الموجودة بينهم و بين الوسط السوسيوثقافي الذي ينتمون إليه.

إن التمثّلات و القيم تفرض على الأفراد سلوكيات معينة ، و عندما يخالف السلوك هذه الأخيرة تحدث حالة من التوتر و اللاتوازن الداخلي هناك نظريات عديدة حاولت التأكيد على العلاقة بين السلوك و القيم و الاتجاهات " فقد قدم هايدر (Heider1958) نظريته المعروفة بنظرية التوازن (Balance Théory) التي توضح أننا نبحث دائماً على التوازن بين ما نعتقد و بين السلوك الذي نقوم به كما قدم براون (Brown1966) بعده نظرية شبيهة تقريبا بنظرية هايدر و تدعى نظرية الاتساق (Cousistency Theory) و هي تشير إلى أن الفرد لا بد أن تكون معتقداته و سلوكياته في اتساق و إذا وجد أنهما غير متسقين يتصرف بطريقة أو بأخرى لإزالة عدم الاتساق و ذلك بتعديل الاتجاه أو بتعديل السلوك أو بتعديلهما معا " ، لفهم العلاقة الدقيقة بين البعد الثقافي و الاجتماعي للطالب لا بد من فهم¹:

- 1- مصدر العوامل الثقافية و القيمية المؤثرة داخل الوسط الجامعي قبل القيام بأي شيء لمعالجة الآثار السلبية لبعض القيم الثقافية علينا التعرف على كل الجوانب الثقافية و إفرازاتها القيمية و ذلك للتعرف على مدى مساهمتها لأهداف تنظم الواقع الجامعي .
 - 2- تصنيف التراث الثقافي و القيمي المؤثر في الوسط الجامعي بحيث يمكن الفصل بين القيم الإيجابية التي يجب تدعيمها و القيم ، و القيم السلبية التي يتحتم علينا العمل على تعديلها و تكيفها إلى الواقع الجامعي .
 - 3- التعرف على الجذر الثقافية للمناهج المستوردة : يمكن التعرف على الدوافع الثقافية للمناهج المستوردة غير المتماشية مع واقعنا حتى يتسنى لنا استبدالها بما يقابلها استناداً إلى الواقع الثقافي المحلي .
 - 4- إيجاد ثقافة خاصة بالوسط الجامعي : يمكن بلورة ثقافة تنظيمية و تعليمية سليمة متمحورة حول الأهداف الأساسية للجامعة باعتماد التكوين و الإعلام الداخلي و تعزيز القيم الموجبة و تكرار اللقاءات الهادفة إلى تحسين الفعالية و رفع دافعية الإنجاز و الطموح و رفع درجة الانتماء عند الطلبة و الأساتذة .
- هذه الإجراءات تساهم في التخفيض من التناقضات القيمية داخل الجامعة و تساهم في وضع أسس سليمة مبنية على وحدة الأهداف و قوة الانتماء و ضرورة جمع الجهود لتجسيد الأهداف و الطموحات .

الاشكالية :

- 1 ♦ كيف تترتب تمثّلات القيم (دينية ، اجتماعية ، نظرية ، سياسية ، اقتصادية ، جمالية) عند أساتذة كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية بجامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم عن طلبتهم ؟

2♦ كيف تترتب القيم (دينية ، اجتماعية ، نظرية ، سياسية ، اقتصادية ، جمالية) عند طلبة كلية العلوم

الاجتماعية والإنسانية بجامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم ؟

3♦ هل هناك علاقة بين تمثل الطلبة لقيم (دينية ، اجتماعية ، نظرية ، سياسية ، اقتصادية ، جمالية) و تمثيلات أساتذتهم لنفس القيم عند الطلبة ؟

أهداف البحث:

1♦ معرفة ترتيب القيم عند الأساتذة و الطلبة في كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية حسب أهميتها (دينية، اجتماعية، نظرية، سياسية، اقتصادية، جمالية).

2♦ معرفة مدى الاختلاف أو التقارب في نسق القيم عند عينة البحث بغرض فهم خلل تشوه التواصل و عدم تفعيل الايجابية في العلاقة أستاذ – طالب .

3♦ الكشف عن منظومة القيم لدى الأساتذة و الطلبة يمكننا من فهم الاتجاهات و التنبؤ بالسلوكيات عند كلا الفئتين.

أهمية البحث:

حدد الباحث أهمية البحث بالنقاط التالية :

- 1- تثبث أهمية هذه الدراسة من أهمية القيم ذاتها كمحركات للسلوك وموجهات للفكر والتنمية.
- 2- إثارة الاهتمام بموضوع القيم والأنساق القيمية في الأوساط الجامعية بغرض العمل على إيجاد برامج لتفعيل العلاقة أستاذ – طالب .
- 3- إن الجامعة من أهم المؤسسات النخبوية في المجتمع ، و دراسة القيم فيها تعطي لنا تفسيرات عن التغير الاجتماعي في هذه المؤسسة و فهم أسبابه و كيفية دعم النسق القيمي لدى الطلبة و الأساتذة فيما يخدم دور ووظيفة الجامعة الجزائرية .

مصطلحات البحث :

القيم : (دينية ، اجتماعية ، نظرية ، سياسية ، اقتصادية ، جمالية)

التمثيلات : تصورات الطلبة و تصورات أساتذتهم لنفس القيم في الوسط الجامعي .

مفاهيم نظرية :

- **أولا : مفهوم القيم :**

القيم أحكام مكتسبة من الظروف الاجتماعية يتأثر بها الفرد و يحكم بها ، و تحدد مجالات تفكيره و تحدد سلوكه و تؤثر في تعلمه و القيمة قد تكون إيجابية أو سلبية تتحدد من خلال التمسك بمبدأ من المبادئ أو بالعكس احتقاره و الرغبة في البعد عنه .

«بارسنز «Parsons» يعرف القيمة في كتابه «النسق الاجتماعي» (بأنها عنصر في نسق رمزي مشترك يعتبر معياراً أو مستوى للاختيار بين بدائل التوجيه التي توجد في المواقف، فان القيم هنا تمثل معايير عامة واسباسية يشارك فيها اعضاء المجتمع وتسهم في تحقيق التكامل وتنظيم أنشطة الافراد.¹

ثانيا : مفهوم التمثيلات :

يعرفها Edgar Morin: "التمثيلات هي حوصلة معرفية تتميز بصفة الشمولية،الإرساء،و الاستقرار ، وتكتسب من خلال سيرورة بنيوية لمجموعة عناصر :الادراك ، مخططات الذاكرة و الاستيهامات "²

تعريف جان مين " يعتبر التمثل نموذجاً شخصياً فهو كذلك عملية تنظيم لمعارف ومعلومات تهدف إلى حل مشكل معين (...) إن التباين بين التمثل والمفهوم العلمي لا يتشكل في درجة اختلافهما فقط، بل يكمن في كونهما نمطين مختلفين من المعرفة، فإذا كان الأول يتجسد في شبكة من العلاقات المعبر عنها بواسطة صيغ إجرائية، فإن الثاني يغلب عليه الطابع التصوري"³

تعتبر التمثيلات بنيات ضمنية لعملية جمع و تنظيم المعطيات، تعكس تصورنا للبيئة الاجتماعية و الثقافية، و التي تلعب دوراً أساسياً في تحديد طبيعة هذه التمثيلات، فالعادات و التقاليد والنظم و الأعراف والقيم و الاتجاهات تشكل مرجعية يعتمدها العقل في تعامله مع الواقع و تحدد اطار العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.

وتعتبر التمثيلات انعكاس للمستوى المعرفي للفرد تظهر في شكل نماذج تفسيرية للواقع في زمان و مكان ما، هي أنساق معرفية اكتسبها الفرد من خلال تكيفه مع المحيط، كما أنها قد تكون سلبية فتحتاج إلى تصحيح في علاقات التأثير و التأثير، أو إيجابية فتحتاج إلى الدعم والتعزيز.

القيم كموجهات نوعية تؤثر في تغيير التمثيلات :

1-♦ أنساق القيم المتناقضة :

أ - القيم الموروثة و الحديثة : أهمها ما يلي :

1_ القيم التاريخية : إن وقوع الأفراد تحت ضغوط معينة لأزمة طويلة يؤدي إلى تكوين أفكار معينة و اتجاهات مما يؤدي إلى ترسيخها.

2_ القيم الدينية: لها أثرها القوي في نفوس الأفراد و تحديد طبيعة اتجاهاتهم و سلوكياتهم.

3_ القيم الثقافية: تتكون نتيجة استقرار و تفاعل عناصر مختلفة من تاريخ و دين و سياسة.

_ هناك قيم معاصرة تظهر باستمرار نتيجة التفاعل و التجديد موازية لواقع الفرد و انشغالاته و هي كما يلي:

4_ القيم السياسية : مرتبطة بما تريد السياسة و الساسة ترسيخه في المجتمع من أفكار واتجاهات .

5- القيم الاقتصادية: و تحدد بالسياسة الاقتصادية، من تجارة و صناعة و طبيعة الخدمات .

6- القيم الاجتماعية : خلاصة القيم المتفاعلة و المتواجدة في المجتمع و تتميز بالشمول و العمومية .

1-♦ب_ تصنيف القيم :

صاغ حيدر حميد الدهوي تصنيفاً مستنداً إلى تصنيف يضم القيم عند العرب و المسلمين و عند غيرهم بحيث حاول الإحاطة بكل فقراتها و جمعها و وصفها سلوكياً و تشمل منظومة القيم هذه ما يلي :¹

1- قيم سلوك الفرد مع نفسه و مع المجتمع

2 - قيم سلوك المجتمع مع نفسه و مع الفرد .

و تشمل منظومة القيم النظم الأخلاقية، و النظم الذاتية (الضمير و نظم السلوك) و تعاريف القيم كثيرة يمكننا أن نذكر منها " مجموعة النظم الأخلاقية السلوكية للإنسان في داخله الباطني و خارجه الظاهري تتبع من دينه و حضارة مجتمعه، و ثقافته الشخصية مضاف على تربيته الخاصة و عقيدته في النفس و العالم".¹

الدراسة الميدانية :

عينة البحث :

تتكون عينة البحث من 96 أستاذًا تم تطبيق مقياس القيم عليهم في كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية بجامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، و 300 طالبا هم طلبة السنة الثالثة علم النفس و علم الاجتماع بنفس الكلية .
أداة البحث :

لإتمام جمع المعطيات اللازمة لبحثنا قمنا بالاستعانة بتقنية المقابلة كتقنية مكملة لمقياس القيم ، وهذه المقابلات هي موجهة في شكل شبكة للمقابلة تدرس تمثيلات الأساتذة للقيم و كذا تمثيلات الطلبة لنفس القيم في إطار العلاقة أستاذ – طالب .

بالإضافة إلى ذلك ، كانت تقنية الملاحظة تلازمنا في كل خطوات بحثنا الميداني، لما لهذه التقنية من أهمية منهجية في تفسير وتأويل بعض المعطيات المحصل عليها. مع الحرص على " الابتعاد عن التحيز لأي عنصر من عناصر الملاحظة" ⁴ بسبب مشاركة المدروسين نفس المجتمع .

مقياس النسق القيمي لطلاب الجامعة :أ.د. إيمان فؤاد الكاشف .أستاذ الصحة النفسية بكلية التربية جامعة الزقازيق: و قد تم تطبيق هذا المقياس على الطلبة ، ثم طرح نفس أسئلة المقياس على الأساتذة منطلقا من معاشيتهم اليومية للطلبة و ملاحظتهم في الوسط الجامعي لمعرفة مدى التوافق بين تمثّل الطلبة لهذه القيم ، بالمقابل تمثّل أساتذتهم لها لأنهم يمتلكون المعرفة ، التصور ، المعيشة اليومية التي تمكنهم من تمثّل القيم عند الطلبة .

- تم تحديد أكثر القيم شيوعا وهي ستة قيم منبثقة من تصنيف سبرانجر (محمد خضير 1995) و هي : القيم الدينية، النظرية، الجمالية، السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية .
- و هو مجموعة من العبارات التي يجيب عنها المفحوص باختيار إجابة واحدة من ثلاث إجابات (موافق- إلى حد ما- غير موافق) و تضم ستة أبعاد على اعتبار أن كل بعد يمثل قيمة من القيم الست و يضم كل بعد (08) عبارات .
- يتكون هذا الجزء من المقياس من (48) عبارة تمثل ستة أبعاد بواقع 8 عبارات لكل قيمة و تم تدوير العبارات بحيث تكون العبارة رقم 1 هي الأولى للبعد الأول ، و العبارة رقم 2 هي الأولى للبعد الثاني ، و العبارة 3 تمثل العبارة الأولى في البعد الثالث و هكذا .
- يتم تصحيح هذا الجزء من المقياس من خلال ثلاثة اختيارات هي (موافق و تعطى ثلاث درجات- أحيانا و تعطى له درجتين -و غير موافق و تعطى له درجة واحدة) إذا كانت العبارة في الاتجاه الايجابي ، و العكس إذا كانت العبارة في الاتجاه السلبي (موافق و تعطى ثلاث درجات- أحيانا و تعطى له درجتين -و غير موافق و تعطى له درجة واحدة).

عرض النتائج : جدول رقم 1: جنس عينة الأساتذة

النسبة	العدد	
69,8	67	الذكور
30,2	29	الإناث
100,0	96	المجموع

تمثل عينة الذكور أكثر من ضعف الإناث ، بحيث تمثل نسبة العينة ذكور 69,8% أما الإناث فمثلت فقط 30,2% ، بحيث أبدى الذكور تجاوبا أكبر للتعامل مع الموضوع و الاجابة على أسئلة المقياس.

جدول رقم 2:جنس عينة الطلبة :

العدد	النسبة	
117	39.00	الذكور
183	61.00	الاناث
300	100,0	المجموع

يبدى الطلبة الإناث تواجدا أكبر في الحرم الجامعي و هن يتفوقن على الذكور في العدد بحيث تقدر نسبتهن ب 61.00% أما الذكور فيمثلون نسبة 39.00% ، تظهر الإناث تجاوبا أكبر مع الدراسات خاصة عند اطلاعهن على إنها دراسات تمثل جزءا من تخصصاتهم .

1- القيمة الجمالية :

القيم الجمالية: يهتم فيها الفرد بكل ما هو جميل من ناحية الشكل أو التوافق. ويميل هؤلاء الأشخاص إلى جعل كل شيء منظما بالمنزل أو الشارع أو العمل. وليس شرطاً أن يكون هؤلاء الأشخاص مبدعين أو مبتكرين.

القيم الجمالية	الطلبة			المجموع
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
العدد	127	101	72	300
النسبة	42.33	33.66	24.00	%100

القيم الجمالية	الأساتذة			المجموع
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
العدد	73	21	02	96
النسبة	76.04	21.87	02.08	100

تتعلق القيمة الجمالية في المقياس من مفهوم أن كل شيء جميل في الحياة ، و الاهتمام بالآداب و الفنون كأهم انجازات الحضارة البشرية ، و الاهتمام بالتنسيق و النظافة و الترتيب و الاهتمام بالمظهر ، و أن الجمالية قيمة حضارية ، في حين يوافق الطلبة على تواجد هذه السمات في حياتهم اليومية ب 42.33% ، يرى أساتذتهم أن الطلبة يحرصون على تجسيد هذه القيم بنسبة أعلى 76.04% ، و يظهر هذا التراجع عند الطلبة مقارنة بأساتذتهم منطلقاً من واقعهم المعاش في الحرم الجامعي و الأحياء الجامعية التي تعكس انطبعا يؤثر على ممارسة هذه القيمة كمظهر حضاري يطبع شخصية الطالب الجامعي ، تمثل الأساتذة لهذه القيمة ينطلق من المعيشة اليومية للطلبة في الحرم الجامعي و الذي يفرض ممارسات و قواعد للانضباط تساعد في تجسيد هذه القيمة .

21.87% من الأساتذة يتمثلون القيمة الجمالية عند الطلبة و يشيرون إلى أن الطالب بحاجة إلى المساعدة لترقية القيمة الجمالية لذلك ينتقده داخل قاعة الدرس و يحاول تعديل بعض المفاهيم و في حين نجد 07,30% من

لأساتذة يتفادون انتقاد الطلبة بل يتجاهلون تصرفاتهم غير اللائقة أحيانا أو يطردونهم من قاعة الدرس لتفادي الدخول في حوارات غير مجدية بسبب بعض التصرفات المشينة ، أما 18,80 % فينتقدون الهدام غير اللائق أو بالأحرى غير المحتشم ، كما ينتقد البعض الآخر خاصة القبعات سواء الذكورية أو الأنثوية داخل قاعات الدرس أما النسبة الأكبر من الأساتذة فينتقدون خاصة السلوكيات غير اللائقة كالمزاح وهو الغالب في هذه الحالات ، وقد تظهر مع المزاح سلوكيات غير لائقة بين الطلبة ذكور و إناث أو استعمال الهاتف النقال و هذه السلوكيات عموما تعرقل السير الحسن للدرس أما ما يتعلق بالصور الجمالية فما يدفع بالأستاذ للتدخل سواء بالانتقاد أو الطرد من القاعة و هذا يبين أن الأستاذ يهتم أكثر بانتقاد ما يعرقل سير الدروس أكثر من اهتمامه بجوهر الفعل الجمالي في حد ذاته كالمحافظة على نظافة القاعة .

2♦ القيمة الاجتماعية :

- **القيم الاجتماعية:** ويهتم فيها الفرد بغيره من الناس فيحبهم ويسعى إلى خدمتهم وينظر لغيره على أنه غاية وليس وسيلة. ويمتاز أصحاب هذه القيم بالعطف والإيثار والحنان ويمكن توظيفهم في العمل الاجتماعي البيئي وغالبا ما ينجحون في أداء المهام المكلفين بها وخاصة ما يتصل منها بالحفاظ على البيئة ووقايتها.

القيم الاجتماعية	الطلبة			المجموع
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
العدد	232	41	27	300
النسبة	77.33	13.66	09.00	100

القيم الاجتماعية	الأساتذة			المجموع
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
العدد	67	17	12	96
النسبة	69.79	17.70	12.50	100

تتجلى القيم الاجتماعية في المقياس في العمل من أجل الآخرين و إسعادهم على حساب المصلحة الشخصية ، المحافظة على الروابط العائلية ، و تكوين أصدقاء ، و الإحساس بقيم المسؤولية و المواطنة كمرعاة المحتاجين و المعاقين و المشاركة في العمل التطوعي و العمل على دعم السلطة في تجسيد القوانين .

في حين يرى الطلبة أنهم يمتلكون القيم الاجتماعية بنسبة 77.33% و يركزون على القيم العلائقية مع الأسرة و أصدقاءهم يرى أساتذتهم ذلك بنسبة 69.79% ، فالطالب يحرص على الالتزامات الاجتماعية المتعلقة بالأسرة و الأصدقاء و لكنه يفتقد قيم المسؤولية و المواطنة في عدة جوانب من حياته و هذا ما تدعّمه نسبة 12.50% من الأساتذة.

إن تصور الطالب في مفهومه لقيم المسؤولية و المواطنة يقتصر على علاقاته المحدودة بأسرته و أساتذته و أصدقائه و لكن هذا المفهوم غير ناضج في علاقته بالمجتمع الكبير و مؤسساته المختلفة و هذا ما تظهره نسب شبكة المقابلة من خلال آراء الأساتذة و التي تبين :

— يظهر القصور في قيم الطالب الاجتماعية من خلال شبكة المقابلة أكثر في الآداب و السلوك العام بنسبة 63,50% و أن تعلمها و ممارستها يتطلب وقتا أكبر من تعلم ممارسة قيم التعلم و القيم الاجتماعية لأن هاتين الأخيرتين يفرضها المجتمع و الجامعة و الطالب قد يعاني العقاب المادي (نظرة المجتمع السلبية ، الرسوب) إذا لم يمثل لها في حين أن الآداب و السلوك العام هي ممارسات إن قام بها الطالب يقابلها الاستحسان و الشاء و إن لم يقم بها فهو لا يتعرض للعقاب و هذا ما يميزها ، أما القيم الاجتماعية فيظهر القصور فيها بنسبة 28,10% ، على حساب قيم التعلم التي يمثل القصور فيها نسبة 08,30%.

3♦القيمة السياسية :

- **القيم السياسية:** ويهتم فيها الأشخاص بالحصول على القوة والمكانة ويعملون على قيادة غيرهم. ويفيد هذا النوع من القيم في قيادة العمل البيئي لكي يخدم أكبر عدد ممكن من المؤسسات أو أفراد المجتمع.

القيم	الطلبة			الاجموع
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
السياسية	145	64	91	300
العدد				
النسبة	48.33	21.33	30.33	100

القيم	الأساتذة			الاجموع
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
السياسية	71	14	11	96
العدد				
النسبة	73.95	14.58	11.45	100

تتجلى القيم السياسية في عن ضرورة طاعة السلطات و أن كثيرا من مشكلات المجتمع الحالي نابعة من ضعف القوانين مما يعرض الوطن للخطر، و أن شعار البقاء للأقوى و الحصول على مركز و نفوذ سيكون حتمية الألفية الجديدة . في حين يرى الأساتذة أن طلبتهم لديهم قيم سياسية بطريقة جلية بنسبة 73.95% تظهر فجوة واضحة في تمثل القيم عند الطلبة ب 48.33% و ترتفع نسبة غير الموافقين على تمثلاتهم لهذه القيم ب 30.33% و هي نسبة كبيرة بحيث يبرر الطلبة ذلك بأن اهتماماتهم السياسية قليلة لأن معاشهم اليومي يحور اهتماماتهم لمواضيع أكثر فعالية في حياتهم الجامعية و أن التغيرات الحادثة في المجتمع تجعل المتابعة الآنية صعبة و مضيفة للوقت ، أما بالنسبة للانتماء للمنظمات الطلابية فيظهرون كفاً ضدها معربين أنها تعبر عن آراء شخصية و مصالح فردية و لا تعبر عن الرأي العام للوسط الجامعي.

4♦القيمة الاقتصادية: - القيم الاقتصادية: ويهتم فيها الفرد بكل ما هو نافع ومفيد ويمتاز أصحابها

بنظرة عملية تقوم علة أساس منفعة كل شخص وعادة يكونون من رجال الأعمال أو المال، ويمكن توظيف قدراتهم في قضايا تهتم المجتمع وخاصة قضايا البيئة.

القيم	الطلبة :			الاجموع
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
الاقتصادية	137	77	86	300
العدد				
النسبة	45.66	25.66	28.66	100

القيم	الأساتذة			الاقتصادية
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
العدد	80	12	04	96
النسبة	83.33	12.50	04.16	100

تعتبر القيم الاقتصادية عن سيطرة القوى الاقتصادية و الفنية في العالم ، و أن تجاوز المشكلات الحياتية المختلفة يمكن بتوفر المال ، و أن " الغاية تبرر الوسيلة" هي المبدأ السائد الآن على حساب الإلتقان و الاجتهاد و أن المال يفرض على الآخرين احترامك. يتمثل الطلبة القيم الاقتصادية بمثالية أكبر من أساتذتهم ففي حين يوافق الطلبة على تمثّلهم لهذه القيم بنسبة 45.66% ، و يرفضونها بنسبة ما يقارب الثلاثون بالمائة و هي نسبة تظهر كبيرة مقارنة بسلوكياتهم و أخلاقياتهم الممارسة في الحياة اليومية ، ففي حين يميل الطلبة إلى عدم الاهتمام بدراساتهم و البحث عن سبل سهلة للربح السريع و تحقيق الذات ، يظهر التناقض واضحاً بين ما يفكره الطلبة و ما يمارسونه في حياتهم و تعاملاتهم اليومية. تظهر النسبة عالية عند الأساتذة بنسبة 83.33% حول تمثّلات الطلبة للقيم الاقتصادية و هذه الفجوة تبين عدم التوافق في الأنساق القيمية الاقتصادية عند كل من الطلبة و الأساتذة .

5♦ القيمة الدينية :- القيم الدينية: يهتم فيها الفرد باكتشاف ما وراء العالم الظاهري، ويحاول أن يربط نفسه بتوجهات عليا مصدرها الدين. وغالباً ما تسهم هذه القيم الدينية في ارتفاع مستوى النظافة والصدق في القول والعمل.

القيم	الأساتذة			الدينية
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
العدد	54	20	22	96
النسبة	56.25	20.83	22.91	100

القيم	الطلبة			الدينية
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
العدد	207	61	32	300
النسبة	69.00	20.33	10.66	100

و نعني بالقيم الدينية في المقياس الخوف من المعصية و الالتزام الديني و فعاليتها في تحقيق الأهداف ، و غياب قيم الشجاعة و الأمانة و الصدق في مجتمع اليوم ن و أن صلاح المجتمع لا يكون إلا بإتباع تعاليم الدين، و تمسك الأفراد بالعبادات .

يرى الطلبة أنهم منقادون لقيمهم الدينية بنسبة 69.00% و تمتد إلى 90% إذا أخذنا بعين الاعتبار إجابات "موافق إلى حد ما" فالطلبة يعتبرون الدين "المقدس" الذي لا غنى عنه في تمثّلاتهم لكل أدوارهم ووظائفهم في الحياة اليومية ، بالمقابل يبين الأساتذة أن الطلبة يتمثلون القيم الدينية بنسبة 56.25 % لأن معرفتهم بالدين تنحصر في العبادات و بعض الممارسات و لكنهم يفتقدون تمثّل القيم الدينية في الممارسات الدراسية و العلمية .

6♦ القيمة النظرية :- القيم النظرية : ويهتم أصحابها بالعمل على اكتشاف الحقيقة. فالفرد يوازن بين الأشياء على أساس أهميتها دون النظر إلى قيمتها العملية أو إلى الصورة الجمالية لها. ويمتاز هؤلاء بالنظرة الموضوعية للأشياء ولديهم رغبة في وضع حلول واقعية للمشكلات البيئية.

القيم	الأساتذة			المجموع
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
النظرية	63	15	18	96
العدد	65.62	15.62	18.75	100
النسبة				

القيم	الطلبة			المجموع
	موافق	موافق الى حد ما	غير موافق	
النظرية	114	92	94	300
العدد	38.00	30.66	31.33	100.00
النسبة				

و تعبر القيم النظرية في المقياس أن النجاح ينطلق من فهم الذات و أن فهم العلوم الفلسفية و السياسية تمكن من السيطرة على العالم و أن النظرية النفسية هي التي تحكم العالم ، الانفتاح على العالم يفيد في التعرف عليه و سبل التقدم و كيفية بناء الذات كجزء من العالم المتقدم .

يرى نسبة 65.62% من الأساتذة أن الطلبة يتمثلون القيم النظرية المذكورة في حين لا يرى ذلك إلا 38% و يرجعون ذلك أن الصعوبات الموجودة في الواقع الجامعي تعيق الطالب بشدة عن تحقيق ذاته و يعبرون عن افتقارهم الفعلي للأستاذ القدوة في الجامعة الذي يدفعهم إلى العمل على تحقيق الذات العلمية و الأكاديمية و تظهر قناعاتهم بأساتذتهم مهزوزة كنماذج لتحقيق الذات ما عدا قلة منهم و التي لا تعبر عن النخبة فعلا .

ما يفوق 30 % من الأساتذة يرون أن الطلبة قيمهم النظرية قاصرة و لا تعبر عن مستوى الطالب الجامعي و يبررون ذلك من خلال شبكة المقابلة أنهم يقومون بممارسات تتنافى و القيم الفعلية في تحقيق الذات و التي تندرج في ما يلي :

استعارة الطلبة لأعمال للحصول على النقطة بنسبة 45,8% و قد وصلت هذه الاستعارة إلى حد نسب أعمال للذات في المذكرات و غيرها ، و هذه خيانة علمية تمس بالطالب أولا بحيث أنها لا تعبر عن مستواه الحقيقي و لا تسمح له بالتعلم و البحث ، و تمس بالأستاذ إذا لم يستطع إثبات أو لم يكن مطلعاً على العمل من قبل و يصبح تقييمه خاطئاً لأن المعطيات التي قام عليها التقييم خاطئة في الأصل ، أما دفع المال لشراء المقياس فظهرت بنسبة 14,60% و هي ظاهرة موجودة في العلاقات أستاذ _طالب و لكن رغم هذا تم تهميشها في الإجابات المختلفة ، أما التأخر في الالتحاق بقاعة الدرس فمثلت نسبته 32,30% و هي نسبة تمثل الثلث و هنا تظهر ضرورة الإشارة إلا أن الأساتذة أنفسهم يتأخرون عن قاعة الدرس مما يمنعهم في أحيان كثيرة عن مراقبة الطلبة في هذا الجانب و أن مفاهيم الانفتاح على العالم ينحصر في تكنولوجيا التواصل من "سكايب" و "فايس بوك" و غيرها و لا تستخدم في خدمة القيم النظرية المتعلقة بالتعلم و النجاح .

ما يزعج الأستاذ أكثر في ممارسات الطلبة هو التفاوض بهدف الحصول على المقياس بنسبة 44,80% و هي ظاهرة تفشت في الوسط الطلابي نتيجة غياب الجدية و الصرامة في العلاقات أستاذ _طالب و نتيجة تدخل

الذاتية في العلاقات بشكل كبير أيضا ، فالذنب ليس كله على الطالب لأنه ملزم بتحصيل السنة و (الغاية تبرر الوسيلة) .

ترتيب القيم عند الطلبة و تمثلات القيم عند الأساتذة اتجاه طلبتهم :

القيمة	النسبة			
	الأساتذة	الترتيب	الطلبة	الترتيب
القيم الجمالية	76.04	02	42.33	04
القيم الدينية	56.25	06	69.00	02
القيم الاقتصادية	83.33	01	45.66	03
القيم الاجتماعية	69.79	05	77.33	01
القيم السياسية	73.95	03	48.33	05
القيم النظرية	65.62	04	38.00	06

قيمة ر المحسوبة	درجة الحرية	الحرية	مستوى الدلالة	ر الجدولية	لحة	الدلالة الإحصائية
0,37	6		0,05	0,886		غير دال

جدول يوضح الدلالة الإحصائية

بما أن ر المحسوبة 0,37 أقل من ر الجدولية 0,886 أي أننا نرفض فرضية البحث و نقبل الفرض الصفري و عليه لا توجد علاقة دالة إحصائية بين تصور الأساتذة لقيم الطلبة و تصور الطلبة لقيمهم. هناك فرق واضح في تمثلات الطلبة للقيم (الجمالية، الدينية، الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية، النظرية) ففي حين تظهر القيم الاجتماعية في الصدارة عند الطلبة يرى الأساتذة أن الطلبة يتمثلون القيم الاقتصادية بشكل أكبر نتيجة التحولات الاقتصادية و التغير الاجتماعي الذي حدث في المجتمع في المراحل المتلاحقة للعشرية السوداء و الذي أثر على تمثل الكثير من القيم .

يختلف مفهوم تمثل القيم الدينية عند الطلبة و الأساتذة و يعزى الأساتذة ذلك إلى تمثل القيم الغربية عند الطلبة فكان نتيجة الفراغ القيمي عند الطلبة و الهوائيات المقعرة كانت موجودة لتقديم البديل عن هذا الفراغ " و أخذت النماذج الغربية المتمثلة تفقد رمزياتها العدوانية، لتصبح أدوات للارتقاء في جميع الاتجاهات " ¹ في حين يعطي الطلبة لهذه القيمة أهمية في تعاملاتهم و لكنهم يقتصرون على مفاهيمها الصريحة و ليس الضمنية و يربطونها أكثر بالعبادات على حساب المعاملات في كليتها . أحداث أكتوبر وما تبعه من انفتاح عن العالم من الناحية السياسية والاقتصادية وكذا الأزمات السياسية و الاقتصادية كلها وقائع غيرت وجه الجزائر، كما كانت حقبة نهاية التسعينات محل تحولات وتغيرات اجتماعية وثقافية مؤثرة على البنية الاجتماعية.

- النتائج العامة:** - تضارب في تمثّلات الفئات الاجتماعية في مجال مكاني و زمني مشترك و تضارب وصراع القيم بين الطلبة و الأساتذة .
- وجود عادات مكتسبة اجتماعياً يصل بها الطلبة إلى الجامعة اكتسبوها من حياتهم السابقة و هم غير قادرين على تغييرها لأنها متجذرة في أعماق الوجدان الاجتماعي تعمل على توجيه خيارات الأفراد في معاملاتهم، تعمل على تشكيل تمثّلاتهم و التمسك بها و صعوبة تغييرها في مراحل لاحقة .
 - هذه التمثّلات تتميز بالاستقرار عند الطلبة فالمعطيات الأكاديمية المتعلمة و النضج المعرفي لم يرتقي بالطلبة لتمثّل قيمهم مع ما يتوافق مع انتظارات و تمثّلات أساتذتهم .
 - نلاحظ عدم استطاعة الطلبة اكتساب تمثّلات جديدة للممارسة السياسية و الجموعية مما جعلهم غير فاعلين اجتماعياً و سياسياً و يبدون تخوفات عميقة في الاتجاهات السياسية .
 - تعد القيم من المعالم المميزة لمجتمع واحد و هي انعكاس للطريقة التي يفكر بها أفراد المجتمع الواحد و الثقافة المشتركة الواحدة و لكن التناقض في تمثّل القيم يظهر جليا عند الطلبة و الأساتذة .
 - القيم لها أهميتها لأنها مصدر لتشكيل السلوك و نسق القيم الذي يتبناه المتعلم يؤثر في عملية التفاعل و التناقض الملاحظ في الدراسة يؤثر بطريقة على فهم الأساتذة للطلبة و قيمهم و اختياراتهم مما يعيق التواصل و يؤدي إلى عدم الاتساق القيمي .
 - إن عدم الاتساق القيمي هو انعكاس للصراع القيمي بين الطلبة و الأساتذة مما ينعكس في سوء التكيف بين الفاعلين في علاقتهما معا و في علاقتهما بالمجال الزمني و المكاني المشترك .
 - التمثّلات تعكس صورة وخصوصية الجماعة الاجتماعية تسمح بتشكيل هوية اجتماعية وشخصية أي متوافقة مع منظومة القيم والمعايير المحددة اجتماعياً و لكن التناقض الملاحظ في الدراسة يعكس الفجوة الجلية و صراع الفئات الفاعلة في الجامعة الجزائرية .

خاتمة :

تبرز أهمية التعليم والتعلم باعتبارهما آليات و أدوات قد تكون ناجعة أكثر في تطوير وتصحيح ودعم تمثّلات المتعلمين، المعرفية و الاجتماعية و الثقافية، إن صيرورة تحول التمثّلات والممارسات مسألة في غاية التعقيد وتبقى حقلا واسعا للبحث ولا يبدو أن هناك عملية مباشرة لتأثير إحداها في الأخرى (تأثير التمثّلات في القيم أو تأثير القيم في التمثّلات) و ليس هناك وجود بشري بدون وجود تمثّلات ملازمة لهذا الوجود. فالتمثّلات تقود أعمال وممارسات البشر وتوجهها في حين تسهم القيم والاتجاهات كعناصر ثقافية في إحداث التغيير و التطور عند الطالب فهي تمثل الحوافز و الدوافع التي تدفع به إلى الارتقاء و تحسين مستواه المادي و المعنوي .

إن القيم الثقافية تلعب دورا م مهما في ترسيخ قواعد تغيير السلوك نحو الفعالية و الإيجابية و لكننا نلاحظ في المجتمع الجزائري و بخاصة الواقع الجامعي أن هناك قيم ثقافية مضادة كثيرة تعيق ترسيخ قواعد العمل الفردي ، و المثابرة و الاجتهاد و في حين تنتشر تقاليد تؤثر مباشرة على انخفاض الدوافع و ترسيخ الاتكالية .² إن هذه القيم تؤثر بشكل مباشر في ممارسات الطلبة اليومية و في حين تترتب القيم الاقتصادية و الجمالية و السياسية في أولويات القيم عند الطلبة لا يلمسها أساتذتهم في معاملاتهم معهم بسبب فرق الإدراك عند كلا الطرفين و عدم تجسيدها من طرف الطلبة في ممارساتهم اليومية ، تترتب القيم الدينية و النظرية في آخر سلم القيم في مقابل

تمثّلات الأساتذة للقيم الجمالية و النظرية عند الطلبة و يتعلق ذلك بانتظاراتهم و التي لم تجد لها صدى في قيم الطلبة .

هناك تفاعل نشط في صراع القيم يتعلق بثقافة المجتمع و الانتماء السوسيو ثقافي ، يتعلق بانتظارات كل من الطرفين اتجاه الآخر و عدم استجابة كل منهما للآخر بطريقة تشبع هذه الانتظارات لذلك كان لابد من اعادة النظر في بناء وحدة نفسية و بناء ثقافي موحد للفاعلين بالجامعة حتى يحدث التوافق في الرؤية و الانتظارات و القيم و التمثّلات مما يجعل إمكانية الارتقاء أكثر تطبيقا و فاعلية .

وواقع الجامعة الجزائرية عموما لا يخلوا من الكثير من التقاليد و القيم المرسخة السلبية و التي يجب العمل على تغييرها في ذهنيات الأفراد . هذا لا يعني غياب القيم الإيجابية و لكننا نفتقد إلى توظيف هذه القيم في حياتنا اليومية في إطار استراتيجيات ضمان الجودة .

المراجع :

1. حيدر حميد الدهوي : العولة و القيم ، رسالة في الطريق إلى ما بعد العولة و قيمها ، دار علاء الدين ط 1 2004
2. محمد عبد العزيز محمد : الأخلاق و القيم ، جدة ط 1 دون سنة
3. د. نور الدين طوالي : الدين و الطقوس التغيرات ، ترجمة وجيه البعيني ، منشورات عويدات ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ط 1 1988
4. د. محمد سعيد فرح ، البناء الاجتماعي والشخصية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية، 1989 ، ص 389.

1-E. Morin: La méthode: "La connaissance de la connaissance" Editions du Seuil. Collection Essais Points

2-Migne Jean ; Représentation et apprentissage des adultes. Education permanente, N119, 1994-

الدراسات :

- د. مقداد محمد : الثقافة و التسيير ، (مداخلة : أثر العوامل الثقافية في نقل التكنولوجيا) ،
- _أ. محمد مزيان ، أ. احمد بوزعكة . واقع العنف في الأحياء الجامعية ، مخبر البحث في علم النفس و علوم التربية ، الملتقى الوطني الأول حول ظاهرة العنف ، أسبابها و طرق التعامل معها ، إشراف:أ.د. بوفلجة غياث 13/04/2005 ط 2008 جامعة وهران .

المقاييس:

- أ.د. ايمان فؤاد الكاشف ، مقياس النسق القيمي لطلاب الجامعة دار الكتاب الحديث 2010

الهوامش:

¹ _أ. محمد مزيان ، أ. احمد بوزعكة . واقع العنف في الأحياء الجامعية ، مخبر البحث في علم النفس و علوم التربية ، الملتقى الوطني الأول حول ظاهرة العنف ، أسبابها و طرق التعامل معها ، إشراف:أ.د. بوفلجة غياث 13/04/2005 ط 2008 جامعة وهران .
ص ص 202 – 203 .

². د. محمد سعيد فرح، البناء الاجتماعي والشخصية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1989، ص389.

³E. Morin: La méthode: "La connaissance de la connaissance" Editions du Seuil. Collection Essais Points. p. 106-107

- ⁴Migne Jean ; Représentation et apprentissage des adultes. Education permanente, N119, 1994- 2,p.p 11-31.

⁵ حيدر حميد الدهوي : العولة و القيم ، رسالة في الطريق إلى ما بعد العولة و قيمها ، دار علاء الدين ط 1 2004 ص 26 - 27

⁶ محمد عبد العزيز محمد : الأخلاق و القيم ، جدة ط 1 دون سنة ص 87 - 88

⁷. د. نور الدين طوالي : الدين و الطقوس التغيرات ، ترجمة وجيه البعيني ، منشورات عويدات ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ط 1 1988 ص 61

⁸—د.مقداد محمد : الثقافة و التسيير ،(مداخلة :أثر العوامل الثقافية في نقل التكنولوجيا) ، مرجع سابق ص 99-100

العولمة الثقافية بين القبول والرفض

د/ بن لباڤ الغالي، جامعة تلمسان د/ : ملوكي جميلة - جامعة تيارت

لقد سال خبر غزير حول ظاهرة العولمة وأصبحت في طليعة مشاغل النخبة المثقفة، أكانت من البلدان المتطورة أو من المجتمعات النامية، فعالمنا المعاصر اليوم يمر ومنذ عقد التسعينات بتحولات كبرى غيرت من ثوابت الفكر وتوجهاته واستراتيجيات التنمية والتخطيط فيه.

وأحدث ذلك انقلابا هائلا وثورة عارمة شملت كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فبعد تفكك الاتحاد السوفياتي وانهياره في أوائل التسعينات، وتبوأ الولايات المتحدة الأمريكية عرش القوة، وسعيها إلى انتشار نظام اقتصادي عالمي جديد، يليه نظام جديد للتجارة العالمية، ثم نظام إعلامي جديد، شرع المنظرون الأمريكيون في التحدث بجدية واهتمام بالغ عن وضع نظام ثقافي عالمي جديد، الغرض منه السعي نحو توحيد الثقافات وتقريب شقة الخلافات بين الحضارات تحت ما يسمى بالعولمة الثقافية cultural globalisme وهو مفهوم آخر تدعو إليه الدول الغربية على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية إل توحيد ثقافات الأمم والشعوب وصقلها في بوتقة العالمية.

ويرى منظروها ومؤيدوها بأنها إيجابية في العموم، بيد أن آخرين يرون فيها مخاطر عديدة ومنهم المفكرون العرب، الذين اختلفوا في تحديد موقفهم تجاه العولمة، وانعكاساتها على مختلف جوانب الحياة بما فيها الثقافية.

سوف نحاول أن نعالج في هذا الطرح موضوع العولمة الثقافية ونجيب على سؤاليين هامين هما: هل الثقافة العربية وخصوصا الإسلامية تقبل العولمة الثقافية أم ترفضها؟ أو بطريقة أخرى:

هل الثقافة العربية تقبل الإنفتاح على العولمة الثقافية والتعددية الثقافية، أم تطالب بالأحادية، وتواجه تحديات العولمة؟

أم تجمع بين الموقفين وتحاول التوفيق بين الثقافة العربية الإسلامية والعولمة مع أخذ المتغيرات العالمية بعين الاعتبار؟

مفهوم العولمة:

تعتبر العولمة ذلك المصطلح الذي أثار ويشير إشكاليات كبيرة وعديدة من حوله، حيث كثرت التعاريف، وأثارت جدلا واسعا ومتشعبا بين الباحثين لاختلاف تياراتهم ومذاهبهم ومرجعياتهم التي ينتمون إليها، كما تختلف التعاريف وفق مبدأ الانتماء أو الاعتراض عن هذه الظاهرة، فالمشككون في نوايا هذه الظاهرة تختلف تعريفهم عن المؤيدين لها.

وعموما معنى العولمة لم يرد في معاجم اللغة العربية وهو يعتبر مصطلح حديث، علما بأن جذرها اللغوي هو "علم" ومنه العالمون. وهو من أصناف الخلق والعالم... وهو لفظ دال على جمع، ولا يوجد له مفرد من لفظه.

ويجمع على وزن فعول... وكذلك فإن جمع عالم هو عوالم أما ما قاله وهب بن المنبه بأن الله سبحانه وتعالى له ألف عالم والدنيا من عالم واحد.(1)

والعولمة هي الترجمة الحرفية لكلمة: Globalization، وهذه الكلمة تعني إعطاء الشيء صفة العالمية، والخروج من نطاق المحلية والإقليمية "وأصل هذه الكلمة بالإنجليزية هو (Globe) وتعني كرة، كرة أرضية أو كرة جغرافية، وهي بدورها مشتقة من الكلمة اللاتينية (Globus) وجاء في معجم (webster's):

To globalize, to make, global, Espto make world in scope or application .

وهذا يعني إكساب الشيء طابع العالمية وبخاصة جعل نطاق الشيء أو تطبيقه عالمياً(2)

أما مفهوم العولمة اصطلاحاً : فلم نجد له مفهوماً واحداً شاملاً اتفق على صياغته المفكرون. فقد عرفت بأنها: "نظام عالمي جديد قائم على العقل الإلكتروني و الثورة المعلوماتية والإبداع التقني غير المحدود. دون الأخذ بعين الاعتبار الحضارات والقيم والثقافات والأعراف. والحدود الجغرافية و السياسية السائدة في العالم قاطبة"(3) كما عرفت العولمة على أنها: "العملية التي من خلالها تزداد إمكانية رؤية العالم كمكانٍ واحد، بالإضافة إلى الطرق التي تجعلنا في حالة وعي بهذه العملية، والعولمة هي انكماش المكان وتسارع الزمان، واتساع علاقات الإنسان، والعولمة أو الكونية Globalisation هي العملية التي يتم بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب التي تنتقل فيها المجتمعات من حالة الفرقة والتجزؤ إلى حالة الإقتراب والتوحيد، ومن حالة الصراع إلى حالة التوافق، ومن حالة التباين والتمايز إلى حالة التجانس والتماثل، وهنا يتشكل وعي عالمي وقيم موحدة تقوم على مواثيق إنسانية عامة(4)

ويرى بعض الباحثين والمحللين أن المفاهيم التي عالجتها ظاهرة العولمة وإن تنوعت وتشعبت إلا أنه يمكن أن تنحصر في اتجاهين:

الأول: اتجاه كلي بحيث يصور العولمة ويعرفها من خلال جميع جوانبها، سياسية كانت أو اقتصادية أم ثقافية.

الثاني: هو اتجاه كلي كذلك يصور العولمة من خلال الكشف عن أهم جوانبها وسماتها.

وعلى إثر هذين الاتجاهين تم تقسيم وتمييز أربع مجموعات، تمثل كل مجموعة تياراً مستقلاً وهي على

النحو التالي:

"التيار الأول: يراها حقبة تاريخية لفترة زمنية معينة.

والتيار الثاني: يراها مجموعة تجليات لظاهرة اقتصادية.

والتيار الثالث: يراها ثورة تكنولوجية واجتماعية.

والتيار الرابع: يراها هيمنة وتسلطاً للقيم الأمريكية"(5)

وإن تمعنا في هذه التعريفات جميعاً وغيرها، للاحظنا أن كل تعريف يتضمن أو يشتمل أحد جوانبها.

فهو من جهة تمثل حقبة تاريخية، ومن جهة أخرى تشمل مجموعة من الظواهر الاقتصادية المتسلسلة والمتتابعة، ثم هي أكيد عبارة عن هيمنة للقيم الأمريكية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار الكتلة الاشتراكية وبروز القدرات التكنولوجية العالمية.

ما أدى بطبيعة الحال إلى النتيجة الأخيرة وهي ثورة تكنولوجية في جميع المجالات أثرت على كل الأبعاد سواء كانت إقتصادية أو سياسية أو إجتماعية أو ثقافية و التي هي محل دراستنا في هذا المقام. وقد تحدث مطولاً كل من الدكتور "إبراهيم عبد الهادي ومحمد محمود المهدي" في كتابهما "العولمة وأثرها في التخطيط الاجتماعي"، عن تعاريف عدة لظاهرة العولمة حيث ومن خلالها أبرزوا التسلسل والتدرج الذي حصل لمفهوم العولمة بناءً على تطور الأحداث والوقائع على أرض الواقع.

2 صور وأشكال العولمة:

السرعة هي ميزة هذا العصر، عصر السرعة، فسرعان ما تظهر ظاهرة إلى الوجود، سرعان ما تنتشر، وتزحف بقوة إلى كل المجتمعات وهي ميزة هذه الظاهرة، ظاهرة العولمة. فسرعان ما ظهرت موجة العولمة، كثر الحديث عنها، فأخذت تزحف بقوة إلى كل المجتمعات، وسرعان ما تحول العالم إلى قرية صغيرة، وسرعان ما تدفقت التحولات والتغيرات من كل الإتجاهات وفي كل المجالات وشملت جميع الثقافات، واتخذت مختلف الأشكال. فقد تعددت صور العولمة ودخلت كل مجالات الحياة، خاصة وأن الحديث عنها تزامن مع بروز مجموعة من الظواهر الحياتية والمستجدات الفكرية والتطورات التكنولوجية والعلمية. والتي تزيد وتسهل إلغاء الحدود والفواصل القائمة بين الأفراد والمجتمعات والثقافات والدول. ونتاجاً لهذه المتغيرات السريعة والمتلاحقة تكونت شركات متعددة الجنسيات استطاعت السيطرة على معظم أجزاء المعمورة إقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً.

أ- المجال الاقتصادي:

لعل أول مفهوم للعولمة كان إقتصادياً قبل أن يكون إجتماعياً أو سياسياً أو ثقافياً أو علمياً. فقد كان الاقتصاد أولى المجالات التي عولمتها العولمة وأكثرها تحقق على أرض الواقع وأكثرها اكتمالاً. فهي تقوم على أنماط الاقتصاد المتطورة من النظام الرأسمالي، وهي على حسب رأي "روبرت كوكس، تمويل عمليات الإنتاج وتشغيل العملة، وحركة الهجرة، وبيئة التنافس في المجتمع الدولي التي تتجاوز قدرات الدول التقليدية، وتجعل من الدول مجرد وكالات في عالم واحد" (6)

فبعد تفكك المعسكر الشيوعي وبرز النظام الرأسمالي تشكلت مجموعة من النظم الإقتصادية وتوحدت تحت شعار نظام اقتصادي عالمي واحد تحكمه أسس عالمية مشتركة وتديره مؤسسات وشركات عالمية لها التأثير على جميع الاقتصاديات المحلية. أما الأسواق التجارية والمالية العالمية فإنها وكما يقول (مالكولم واترز) لم تعد موحدة أكثر من وقت آخر فحسب، بل هي خارجة عن تحكم كل دول العالم بما في ذلك أكبرها وأكثرها غنى (7).

وقد تبنت العديد من الدول هذا النظام الديمقراطي واقتصاديات السوق والخصخصة للإنعاش اقتصادها وتكييفها مع النظام العالمي الجديد والمنظمات الدولية التابعة له كالبנק الدولي وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية والشركات المتعددة الجنسيات وهي تجربة لظاهرة العولمة بمعناها الاقتصادي. وهكذا يتم انصهار أكبر عدد ممكن من اقتصاديات الدول سواء كانت فردية أو وطنية أو إقليمية في اقتصاد عالمي واحد تحكمه وتتحكم فيه دول تفوقت وانفردت بقيادة السوق العالمية في كافة القوى الإقتصادية.

ب- المجال السياسي:

يمكن القول أن العولمة بشكل عام يحركها جانبان قويان هما الاقتصاد والسياسة ، فقد لاحظنا أنه في المجال الاقتصادي تراجعت قدرة الحكومات الوطنية على توجيه الأنشطة الاقتصادية أو السيطرة عليها بظهور نظام تقسيم جديد للاقتصاد العالمي. وتزايد دور الشركات المتعددة الجنسيات عن طريق تزايد أرباحها واتساع أسواقها وتعاظم نفوذها في التجارة الدولية وفي الاستثمار ، وهذه التحولات وغيرها وضعت نهاية للنظام الدولي القديم ، وأسهمت في وضع متغيرات وفق النظام العالمي الجديد على المستوى السياسي ، أهمها:

ظهور موجات ذات طابع عالمي من التحول الديمقراطي والاتجاه نحو الاقتصاد الذي نتج عنه ثورة في المعلومات والاتصالات ، حيث خلقت هذه الأخيرة واقعا جديدا لم يعد باستطاعة أي نظام سياسي أن يتحكم في بعض الحقائق وإخفاءها عن العالم الخارجي تحت ما يسمى بالديمقراطية.

كما تراجعت مبدأ السيادة الوطنية للدول ما خلق انطبعا لدى بعض الأفراد بأن الدولة لم تعد ضرورية ، فهناك إنتقال حر للأفراد والسلع والخدمات والأفكار والمعلومات عبر المجتمعات والقارات.

إن العولمة السياسية "لا تعني القضاء على الدولة أو بروز الحكم العالمي ، وإنما تتضمن دخول البشرية إلى مرحلة سياسية جديدة يتم من خلالها الانتقال الحر للقرارات والتشريعات والسياسات والقناعات والخيارات عبر المجتمعات والقارات ، وبأقل قدر من القيود والضوابط ، متجاوزة بذلك الدول والحدود الجغرافية فتزداد بذلك الروابط السياسية بين دول العالم على نسق غير مسبوق من قبل" (8)

فالعولمة السياسية بهذا الشكل تمثل مزيجا متباينا من الروابط والعلاقات المتداخلة التي تتجاوز الدولة القومية ، فمثلا تكون الأحداث والقرارات والأنشطة في جزء من العالم لها أثر ونتائج مهمة على أفراد وجماعات أخرى من جزء آخر من العالم. وهي بذلك تمثل حلا لمشكلات إنسانية مشتركة والتي لم تُحل من قبل السيادة الوطنية المطلقة للدولة مثل البيئة والتلوث ومشكل الطاقة ، وندرة المياه ، والجفاف ، والتصحر ومشكلة الإرهاب والعنف السياسي والجريمة المنظمة والمخدرات والأمراض القاتلة كالايدز... وغيرها من المشكلات التي تستلزم تكاثف الجهود الدولية وتضافر الإرادات السياسية للدول في سبيل الوصول إلى حلول ناجعة وفعالة.

لكن من جهة أخرى هذه العولمة السياسية بطريقة أو أخرى تجعل سيادة الدولة متناقصة وتتجه نحو التآكل نتيجة العلاقات الدولية فيما بينها في شتى ميادين الحياة وهو ما يقلل من فعالية الدولة في صنع قراراتها السياسية ، ويظهر ذلك واضحا من خلال بعض الملامح:

"كالتوسع المتزايد في إبرام الاتفاقيات الدولية المتسارعة ، والنظم الدولية التي تتضمن قواعد وأحكاما ملزمة لعموم الدول ويمكن أن تتمثل هذه القواعد والأحكام في النقاط التالية:

* وجود قواعد قانونية دولية آمرة حاليا تختص بتنظيم مجالات عديدة وقد أصبحت لهذه القواعد حجة في مواجهة كافة الدول ، فلا يجوز بحال الاتفاق على ما يخالفها ، ولو كان تحت مُسمى السيادة الوطنية.

* قد أصبحت وفي نطاق المجتمعات الدولية نظم للرقابة والإشراف الدولي تقوم بمهام التحقيق والتفتيش ، كاتفاقيات حقوق الإنسان والتسلح النووي واتفاقيات العمل...

* الإتجاهات الحديثة في مجال تقنين قواعد المسؤولية الدولية.

* الإتجاه المتزايد نحو إقامة الكيانات الدولية عابرة القوميات أو فوق القومية ، ... " (9)

إن العولمة السياسية بهذا الشكل تسعى إلى مغزى أساسي في إطار بعد دولي، وهو ما يتوقع تحقيقه من خلال المنظمات الدولية التي هي أحد أدرعة العولمة، كهيمنة الأمم المتحدة الأمريكية ومجلس الأمن الدولي وغيرها، والتحكم في القرارات السياسية إضافة إلى عناصر القوة الأخرى كالعناصر الاقتصادية والعلمية التكنولوجية... وغيرها وبالتالي تزيد الدول القوية قوة، والدول الضعيفة ضعفا وفقرا.

ج - المجال الاجتماعي: لقد ارتبطت العولمة السياسية ببروز مجموعة من القضايا والمشكلات الاجتماعية والتي تستدعي الاستجابة الجماعية على صعيد كل دولة، كالبيئة والتلوث والتصحر وندرة المياه والمجاعة والانفجار السكاني وغيرها من المشاكل الاجتماعية التي تحتاج إلى تكثيف الجهود وتوحيدها من أجل حل المشكلات المشتركة والتي تعود بالفائدة على كل البشرية. وهي عبارة عن مبادئ اجتماعية تسعى إلى نشر العولمة الاجتماعية، وعدم التمييز العنصري في خضم عالم واحد، تجمع مصالح مشتركة ومنافع اجتماعية وجماعية كالإحساس بالخطر الواحد الذي يهدد البشرية جمعاء أو كالسعي إلى تحقيق الأمن الجماعي وغيرها من المبادئ كإزالة أشكال التعصب والتمييز العنصري والعنصرية...

إن مثل هذه الجهود وغيرها كثير، والتي تسعى العولمة لحلها ستتيح للعالم أجمع بكل اختلافاته الاجتماعية بالعيش في أمن وسلام.

إلا أن هذه العولمة الاجتماعية التي لها من الإيجابيات ما استدعى الترحيب من قبل دول ومجتمعات، لها من الاحتمالات المقلقة ما تعود بالخطر على الفرد والمجتمع:

فالعولمة تبدو مقلقة "إذا كانت زيادة توظيف الشركات الاحتكارية لقدراتها المالية والتنظيمية من أجل استغلال ثروات الشعوب وزيادة تغلغلها في إقتصادات الدول النامية التي عانت ما فيه الكفاية من الإستغلال والنهب الإستعماري والإمبريالي، والعولمة مقلقة إذا كانت تتضمن زيادة الفجوة الإقتصادية والحضارية القائمة حاليا في العالم بين الدول الغنية التي تزدد غنى والدول الفقيرة التي تزدد فقرا. والعولمة مقلقة أيضا إذا كانت تتضمن إحتمال صدام الحضارات، وصراع المناطق الحضارية ودخولها في حروب دامية وعنيفة وربما كانت أكثر دموية من كل الحروب التي شهدتها التاريخ البشري. والعولمة مقلقة إذا كانت تعني الأمركة واستفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالشأن العالمي، ونشر نموذجها الحياتي وتعميمه على الصعيد العالمي..."(10)

باختصار فإن العولمة وإن فتحت للمجتمعات بعض الفرص وأتاحت لها بعض السبل، إلا أنها ساهمت في إنساع الفوارق بين المجتمعات وبين أفراد المجتمع الواحد من الأغنياء والفقراء، ونتج عن ذلك اشتداد التوترات والعنف والجريمة المنظمة وساهمت في إلغاء النسيج الحضاري والاجتماعي للشعوب والذي أدى إلى اختراق قوميات وتدمير هويات، والقيام بتفتيت وحدة بعض الدول والكيانات.

د- المجال الثقافي:

إذا كان لمصطلح العولمة حضور قوي في المجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي فإنه لابد من الإشارة إلى أن حضور هذا المصطلح أقوى في المجال الثقافي. فالعولمة كما سبق الذكر، نظام متكامل يهدف بصفة عامة إلى صيغ العالم بصيغة واحدة في جميع المجالات بحيث يتقارب البشر وتذوب بينهم الفوارق في الفكر واللغة والمعتقدات، في أشكال التبادل التجاري والصناعي والثقافي... دون إعتبار للحدود الجغرافية والمكانية والخصوصيات الثقافية بحيث يصبح العالم وأفراده وكأنهم يعيشون في قرية واحدة.

وربما يكون المدلول اللفظي لمصطلح العولمة مفيداً في هذا المجال لفهم المقصود بها. حيث أن المدلول اللفظي يشير إلى اشتراك البشر في هوية واحدة، أكانت اقتصادية أو تجارية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية. وهذا الإشتراك الواحد في المجال الثقافي، هو في حقيقة الأمر ظاهرة جديدة في مجال العولمة لم تكتمل بعد مجالاتها التأسيسية، و لم تبرز معالمها في الحياة الثقافية إلا خلال عقد التسعينات، بحيث أنها ليست بنفس الوضوح الذي هي عليه العولمة الاقتصادية و التي إكتملت معالمه على أرض الواقع. فقد يبدو للوهلة الأولى أن العولمة الثقافية هي ترك الحرية المطلقة للثقافات الأخرى أن تعبر عن نفسها، وتنتقل من نطاقها الضيق إلى آفاق رحبة وواسعة من العالم وفق فرص متكافئة ، بحيث تتفاعل الثقافات فيما بينها في ظل ثورة الإتصالات التي تسهل من نقل الأنماط الحضارية والثقافية من منطقة إلى أخرى ومن جيل إلى آخر.

إلا أن هذا الانتقال من المحلي إلى العالمي وهذا التفاعل والتقارب بين الحضارات والثقافات يبدو مجرد واحد من الوجود العديدة للعولمة الثقافية ، لأن العالم الواقعي يخالف ذلك و ينتقده. فتدفق المعلومات يجري باتجاه واحد، من الغرب إلى الشرق، وهناك عدم تكافؤ الفرص نتيجة التفوق الإعلامي والتطور التكنولوجي و المعلوماتي ما ساعد على هيمنة ثقافة على أخرى، ورواجها على الصعيد العالمي. وهو ما أفقد العديد من الدول قدرتها على التحكم في السيطرة على تداول الأخبار وانتشارها بسرعة سواء تلفزيونياً أو هاتفياً أو إلكترونياً.

وهذه الإشكاليات أدت إلى تساؤلات عدة على مستوى الساحة الفكرية ، عن قضية العلاقة بين سرعة انتشار المعلومات وديمقراطية الفكر والثقافة ، وعن قضية الإنفتاح الحر والمتزايد على الثقافات الغالبية أو الغربية، هل ستؤدي إلى قدرة شعوب هذه الثقافات وهذه الحضارات إلى التعامل مع التعددية الثقافية والحضارية التي توفرها العولمة أم ستؤدي بهذه الشعوب إلى إذلالها ومحو ثقافتها وهويتها القومية؟

إن السعي من أجل تقارب الحضارات وانفتاح الثقافات على بعضها البعض ، ومحاولة خلق عالم ثقافي واحد يتيح الفرصة لجميع الثقافات بالانصهار فيه، هو مجرد وجه من الأوجه العديدة للعولمة الثقافية ، "ذلك بأنه بقدر ما يسعى التوجه العام نحو تقارب الثقافات وإنفتاحها، فإن العولمة الثقافية يمكن لها أن تتجه نحو صراع الحضارات ، و نحو الهيمنة الثقافية لثقافة واحدة على سائر الثقافات ، ونحو نشر الثقافة الاستهلاكية وجعلها الثقافة الأكثر رواجاً على الصعيد العالمي"(11)

إن بلوغ البشرية مرحلة الحرية الكاملة في انتقال الأفكار والمعلومات والحرية والديمقراطية في تبادل القيم والأذواق والثقافات بأقل قدر من القيود والعراقيل والضوابط يفقد الدولة القدرة على التحكم في شعوبها والسيطرة على أفراد مجتمعاتها، وهو أخطر ما يمكن أن تعانيه الشعوب والأمم من العولمة التي تسعى إلى طمس هوية وثقافة هذه الدول وتراثهم. وهو يُعد يضاف إلى الأهداف السياسية للعولمة وما يتوقع تحقيقه من خلال المنظمات الدولية التي هي أحد أذرع العولمة.

3 - العولمة الثقافية وأثرها على الثقافة العربية:

يشير الكثير من المفكرين والباحثين في هذا المجال إلى أن العولمة الثقافية هي في الأساس نشر لقيم وعناصر الثقافة الغربية، وذلك بفعل هيمنة وسائل الإعلام الغربية وبفعل قوة الغرب وقوة علومه وسياساته واقتصاده وتجارته، وصبح العالم بصبغة غربية في مختلف مجالات الحياة بما فيها الثقافية. فإذا كان هذا هو جوهر الثقافة "العولمة" وجوهر أهدافها، فما هو أثرها على الثقافة العربية. وما هو موقف العرب منها. وما هي تحديات الثقافة العربية في عصر العولمة؟

إن العالم العربي المعاصر يعيش عالمين متناقضين حاملا في شخصيته ثقافتين متباعدتين يصعب التقريب بينهما، وهما ثقافتين غير متكافئتين في المبادئ الأولى: ثقافة تراثية مضغمة بالمواطنة الأصلية والإرث المشترك والأعراف المتنوعة، والثانية "عولمية" تغريبية تسلبه مبادئ الثقافة الأولى، وتدفعه نحو "العصرنة" الكوكبية المصطنعة.

فأصحاب الثقافة الأولى يرون أن هذه العولمة تهدد هويتهم العربية والإسلامية، وينبغي رفضها جملة وتفصيلا، بينما يرى الفريق الثاني أن العولمة هي خدمة للبشرية لمواكبة المجتمعات المتطورة وتحسين حياة الإنسان، وهي قادمة من المجتمعات المتقدمة، وفيها أحدث ما وصل إليه العلم من وسائل الإتصال والتقنيات الحديثة لذلك ينبغي أن نغتتم هذه الفرصة. ونواكب التطورات للاستفادة من ثمراتها. وفي حقيقة الأمر كلا الموقفين يعيشان حالة من اللامستقرار مع دواتهم.

فالأول يعيش في عالم من الخيال ونسق من الوهم يصنعه لذاته. ويهرب من العالم المحيط وينتقده ويثور عليه وينكص إلى ماضيه، بل يتباكى عليه، في حين نجده مظهريا وخارجيا وفي استعمالاته اليومية يسعى إلى الوصول إلى أرقى مظاهر التقدم، ويقتني أرقى وأحدث الوسائل التكنولوجية.

والثاني كذلك يعيش في عالم من الخيال ونسق من الوهم بحيث نجده يندمج في ثقافة غيره، ويتبنى بعض القيم والأفكار التي تسلبه هويته فتجعله يهرب من واقعه وينصهر ويهيم في الثقافات الغربية لمواكبة التطور واللاحق بركب الحضارة المتقدمة. فيقلل من شأن تراثه ويقطع صلته بماضيه وبالتالي تسلبه خصوصيته الثقافية والوطنية والدينية، ويفقد هويته ويصبح غير قادر على مصارحة نفسه وتكييفها مع الواقع. هل يتعايش مع الآخر وبكل خصوصياته الثقافية من أجل إعادة إنتاج الذات أم يتصالح مع ذاته ويعود إلى القيم الاجتماعية والفكرية التي تأصلت في حياة مجتمعه.

وتعود هذه الحالة الضبابية والرؤية التشاؤمية في مواقف المثقفين وغيرهم تجاه ظاهرة العولمة الثقافية إلى اختلافهم في نقطتين جوهريتين هما:

- 1- اختلاف مفهوم العولمة لدى كل طائفة من المثقفين
 - 2- واختلاف الرؤى حول مدى العلاقة بين العولمة من جهة وبين الهوية من جهة أخرى.
- فهناك من لا يرى في العولمة إلا ذلك التقدم التكنولوجي وتسارع معدل انتقال التجارة، وانتقال الأفكار والقيم وأساليب الاستهلاك والتنافس الذي يخلف آليات فعالة لضمان الجودة والنوعية للسلع والخدمات... التي تساهم في زيادة الإنتاج أضعافا مضاعفة، وهو في سبيل ذلك مستعد لأن يغفل للعولمة أي تأثير سلبي يمكن أن ينتج عنها ويضر بالهوية الثقافية.

فهذه الفئة تجدها مفتونة بالحضارة الغربية بوجه عام ، ومفتونين بالديمقراطية الغربية وبالعلاقات الاجتماعية الغربية وبغزارة الإنتاج الثقافي في الغرب، ويتمنون للآخرين الالتحاق بكل هذه الإنجازات ومشاركتهم لها والاستفادة من مميزاتهما. وهي فئة تنادي بقبول العولمة واتخاذها منهجاً وطريقة في الحياة.

وبالمقابل هناك من يرى في العولمة أنها ليست غزواً اقتصادياً وتكنولوجياً وعلمياً، بل هي غزو قومي تهدد هوية الأمة العربية وهي نظرة قد تكون من منبع ديني قبل كل شيء لأن العولمة تنكرت لكل الأديان وآمنت بالعلمانية التي حسب رأيهم لا تبتعد كثيراً عن الكفر.

إن الثقافة العربية في زمن العولمة تعيش في ازدواجية الفكر بين إرث المحافظة على التراث والماضي الموروث الحضاري والسعي إلى القطيعة مع العولمة والتصدي لها للحفاظ والدفاع عن الهوية الثقافية من مخاطر العولمة.

لكن بهذا الشكل لا يتم الدفاع عن الهوية الثقافية من مخاطر العولمة فالانغلاق على الذات ورفض الآخر جملة وتفصيلاً يعني التأخر عن ركب الحضارة، والبقاء على دهاليز التخلف التقني والصناعي والعلمي والتكنولوجي.

إننا نعترف بأن الهوية الثقافية هي صفات وأحاسيس، ونمط حياة، هي في كل شيء، في الملبس والمأكل، والموسيقى والفن، والثقافة وفي العادات والتقاليد، لكن بالمقابل يجب أن نعترف أن هذا النمط المعيشي يجب أن يتفاعل مع المتغيرات المحيطة به، ويتغير معها، دون أن يذوب فيها. يعود إلى الأصالة لكن يواكب الجديد.

إن إشكالية المثقف العربي هي تغنيه "بالعصرنة"، فتجده يأخذ منها نتائجها دون آليات تقدمها وبالتالي يبقى أسيراً داخلها في ماضيه على المستوى السيكولوجي، وعبدًا للوافد على المستوى المادي. ولهذا أصبح الفكر العربي يعاني من هوة بين التراث ومعطيات العصر بين الواقع والفكر.

• وخلاصة القول أن الحل الأمثل لمواجهة سلبيات العولمة الثقافية لا يكون إلا بمنهجية محكمة تمكننا من الاستفادة من العولمة وتجنب آثارها السلبية. فهي حدث يتوقف أثره على كيفية التعامل معه. وصحيح أنها ترتبط بالتطورات التكنولوجية ولا يمكن الفصل بينهما، من حيث القبول والرفض، ولكن الربط الصحيح هو في كيفية تمييز العقل السليم والمنطق بين هذا وذاك.

والمطلوب منا نحن العرب أن تكون لنا رؤية إبداعية قومية للثقافة العربية. يمكننا بواسطتها أن نتصدى للتحديات التي تفرضها علينا العولمة الثقافية والتي تدق بعنف أبواب ثقافتنا بغية غزوها وإلزامها بإتباع نموذجها الثقافي، ولن يكون هذا التصدي إلا عن طريق الإبداع الفكري وتوطين التكنولوجيا وتطويرها، وليس استهلاكها واستيرادها وذلك كله بدون المساس أو الرفض للتراث الثقافي العربي.

ويرى الدكتور "محمد الشبيني" في كتابه صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة أن التحديات التي تفرضها علينا العولمة الثقافية تحتم علينا أن نعي أموراً أربعة:

"الأمر الأول: هو أن نبتعد عن مسألة "الهستيريا" والقلق الذين يعتريان عدد من المفكرين العرب الذين يتوجسون خيفة من العولمة الثقافية على التراث العربي الإسلامي والعنوان عليها ومن ثم تهيمشه...

الأمر الثاني: هو أن قبول الحداثة والإبداع والابتكار في الفكر العربي أصبح حتمية لا جدال فيها، إذا ما أريد لهذا الفكر أن ينمو ويزدهر في مواجهة العولمة الثقافية الغربية التي تتميز بالديناميكية الفكرية، والتفوق العلمي والتكنولوجية الحديثة.

والأمر الثالث: هو ضرورة أن يفتح الفكر العربي على الثقافات الأخرى وأن يعمل على التفاعل معها، ومواكبة النهضة الحديثة التي تعيشها الثقافة الغربية.

والأمر الرابع: هو أن نزيد من رصيدنا الثقافي، ونعمل على مواصلة تحديثه والإبداع فيه، حتى يكون هذا الرصيد مواكبا للحياة المعاصرة، متصفا بالنمو والتطور، ويصبح قادرا على مواجهة العولمة الثقافية والتفاعل معها بدلا من مقاومتها والصراع معها " (12)

إن إعادة بناء الفكر العربي وتجديده على هذه الأسس يتطلب أولا وأخيرا انجازات هائلة تقوم على التعاون المستمر بين الدول العربية والتنسيق فيما بينها. والحوار الموضوعي بين مفكرها حتى تتمكن الثقافة العربية من إبراز ملامحها على خريطة العولمة الثقافية.

ويبقى في الأخير أن نقول أن موضوع العولمة هو موضوع لا يمكن أن نوفيّه حقه في هذه العجالة. والحلول التي اقترحت مجرد ومضات مبدئية تحاول أن تثير قريحة كل مفكر وكل مهتم بمسألة العولمة.

قائمة المراجع والمصادر:

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، سنة 1955، كلمة "علم" ج 12، ص 420.
- 2- إبراهيم عبد الهادي المليجي، محمد محمود المهدي "العولمة وأثرها في التخطيط الاجتماعي" المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، سنة 2005، ص 13- 14.
- 3- د. علاء الدين ناطوريه "العولمة وأثرها في العالم الثالث" التحدي والاستجابة- مركز الأبحاث والدراسات الدولي ولاية اللّوني، دار زهران للنشر، والتوزيع، الأردن، عمان، سنة 2001، ص 9- 10.
- 4- د. عبد الجليل كاظم الوالي "جدلية العولمة بين الاختيار والرفض" دار الكتاب الجامعي الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، سنة 2010، ص 17.
- 5- أ. د. إبراهيم عبد الهادي المليجي و د. محمد محمود المهدي "العولمة وأثرها في التخطيط الاجتماعي" مرجع سبق ذكره ص 16.
- 6- د. عبد الجليل كاظم الوالي "جدلية العولمة بين الاختيار والرفض، مرجع سبق ذكره، ص 18.
- 7- د. عبد الخالق عبد الله "العولمة: جذورها، فروعها وكيفية التعامل معها" من مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن والعشرون العدد الثاني، سنة 1999. ص 67.
- 8- د. رحيمة الطيب عيساني "العولمة الإعلامية وأثارها على مشاهدي الفضائيات الأجنبية" عالم الكتب الحديثة، أريد- الأردن، سنة 2010، ص 42.
- 9- نفس المرجع، ص 42- 43.
- 10- د. عبد الخالق عبد الله "العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها" مرجع سبق ذكره، ص 89.
- 11- 8- د. رحيمة الطيب عيساني "العولمة الإعلامية وأثارها على مشاهدي الفضائيات الأجنبية" مرجع سبق ذكره، ص 49.
- 12- د. محمد الشيبيني "صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة" دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2002، ص 120.

العامل والمؤسسة- رؤية وقائية صحية-

د/ مارييف منور، جامعة ابن خلدون - تيارت

ملخص المقال:

يعتبر موضوع الوقاية والصحة في الوسط المهني من المسائل المتعلقة بحياة العامل اليومية داخل مؤسسة العمل، كونها ذات علاقة مباشرة ومستمرة أثناء عمله، لكون هذا العامل يقضي ثلث حياته في العمل، كما أن جوانب صحته؛ هي انعكاس لطبيعة ومناخ الوسط المهني الموجود به، مع العلم أن لكل نشاط مهني مهما كانت طبيعته، خطورة معينة. من هنا، أُعطي لمفهوم الحادث الناتج عن مختلف هذه النشاطات المهنية عناية قصوى، وذلك في مختلف الفروع العلمية (الاجتماعية، الاقتصادية، النفسية...).

تتعدد أسباب الإصابة أثناء العمل، قد ترجع إلى العامل في حد ذاته، أو إلى الآلة التي يستخدمها. في ظل هذا النسق (إنسان، آلة)، نجد أسبابا متدخلة فيه؛ كانعدام وجود دراسة علمية للعامل عند مرحلة انتقائه وتوجيهه للمهنة المراد العمل فيها، أو انعدام تحديث وسائل العمل وصيانتها، أو عدم مواءمة الظروف الفيزيائية للعمل، كما قد ترجع في بعض الأحيان إلى نظام العمل في حد ذاته.

ينجر عن هذا كله، انعكاسات وخيمة جدا، خاصة عندما يتعلق الأمر بالعامل؛ كأن تؤدي بعض الحوادث إلى عجز، عاهة، أو وفاة، حيث يُقدر الخبراء، أن عاملا واحدا في العالم يموت كل ثلاث دقائق بسبب إصابة عمل، أو مرض بسبب التعرض لمخاطر المهنة، وأن أربعة عمال، يقعون في إصابات عمل كل ثانية واحدة، وتدل الإحصائيات السنوية الصادرة عن المنظمات الدولية للعمل، أن 110 مليون عاملا يتعرضون لإصابات مختلفة، و180 ألف إصابة؛ منها ما تؤدي إلى الوفاة، وبذلك يكون معدل الإصابات أربع (04) إصابات عمل كل ثانية، وحادث واحد (01) خطير كل ثلاثة دقائق.

دفعنا بنا هذه المؤشرات الإحصائية إلى محاولة إعطاء رؤية وقائية علمية، انطلاقا من التساؤل الرئيسي التالي:

ما هي الاستراتيجيات العلمية والعملية التي يجب اتخاذها. لأجل الحد من حوادث العمل التي يتعرض لها العامل داخل مؤسسته؟

الكلمات المفتاحية: السلامة المهنية - إصابة العمل - حوادث العمل - برامج الوقاية - العمل -

الأمن الصناعي

Article Title: Worker and Organization-vision preventive Sanitary-

Article Summary:

Is the subject of prevention and health in the vocational center of issues related to the daily lives of working within the Labour Foundation, being related directly and continuously during the work, knowing that this factor spends a third of his life at work, and that aspect of his health; is a reflection of the nature and climate of vocational center located him, knowing that each professional activity, whatever its nature, a certain seriousness. From here, given to the concept of the accident resulting from these various professional activities of utmost care, in various disciplines (social, economic, psychological ...).

There are several causes of injury at work, may return to factor in and of itself, or to the machine used. In light of this pattern (human, machine), we find reasons for intervening in it; such as the lack of scientific study of workers at select has and directing stage of his career, modernization and maintenance, or lack of harmonization of physical working conditions, and may return occasionally to work the system in the end the same.

Whittling about all this, the implications are very serious, especially when it comes to the worker, though some of the incidents leading to the deficit, disability, or death, where experts estimate, that one factor in the world dies every three minutes because of a work injury, or illness due to exposure to the risk of the profession, and that the four workers, they fall in action every single second injury, and indicate Statistics annual issued by international organizations to work, that 110 million workers are exposed to various injuries, and 180 thousand injured; some of which lead to death, so that the rate of infection 04 work every second injury and accident and one 01 dangerous every three minutes.

This prompted us statistical indicators to try to give a scientific vision, based on the following main question:

What are the scientific and practical strategies that must be taken. In order to reduce work-related accidents suffered by the worker within the institution?

Keywords: occupational safety - work-related injury - Accidents Labor-prevention programs - work - Industrial Security

إن توسع مجالات الصناعة وتنوعها، زاد من مخاطر الاصابات المتعلقة بالفرد العامل من جهة، وتلف وسائل العمل من جهة أخرى، لهذا كان من الأجر الاهتمام بجانب السلامة للحفاظ عليهما؛ أي الفرد العامل ووسائل العمل، من خلال توفير بيئة عمل آمنة وصحية. وللحد من هذه الأخطار، كان لابد من معرفة سبل تجنبها، وكيفية التعامل معها وحصرها في أضيق الحدود الممكنة، من خلال تطبيق شروط علمية، حفاظا على نفسية العامل وإعطاء السمعة الجيدة للمؤسسة.

1. تحليل المفاهيم:

1.1. السلامة والصحة المهنية: إن المجال المهني الأكثر تعرضا لمخاطر الاصابة بالحوادث هو المجال الصناعي؛ إن القصد من "الصناعي" هو وقاية المنتجين من الأخطار الصناعية، وحمايتهم من الأمراض المهنية، سُمي بالأمن الصناعي لكثرة الحوادث في المجال الصناعي من غيره، وبالتالي أُدرجت تحته كافة مجالات العمل الأخرى، وأصبح يعني ارتداء العمال الألبسة الواقية واستعمال أدوات الوقاية، كما أصبح الأمن الصناعي والصحة المهنية أكثر شمولية في نهاية القرن العشرين مع تقدم المجال الصناعي بدخول وسائل العمل الجديدة،

ووسائل الانتاج المختلفة، وأصبح مفهوم الأمن الصناعي يشمل جميع الاحتياطات والاجراءات القانونية، وتغيرت تسميته وأخذ معناه الشامل "السلامة والصحة المهنية" من خلال توسع تطبيقاته على المجالات الصناعية، الزراعية والتجارية، ومن ثمة تأمين الوقاية من كافة الأخطار قبل وقوعها.

1.2. **إصابة العمل:** تم تعريف هذا المفهوم من وجهة علماء نفس الاجتماع والأرغوميا، انطلاقاً من تحليلاتهم المتعلقة بالمشاكل النفسية، الاجتماعية والتنظيمية التي تتركها الاصابة، وبالتالي فهي حسبهم، ليست سوى لحظة خلل تصيب عمل ما، وهي نتيجة لعدة عوامل، بمعنى أدق؛ أنها تظهر أين يتدخل سلوك الفرد إلى جانب الوسيلة المستخدمة، ومحيط العمل، والزملاء، ونوعية الاشراف، وفترات التدريب الجد قصيرة، وسوء صيانة الآلات والأماكن الخطرة والمملة وطبيعة نظام العمل، والعودة إلى العمل بعد فترة راحة.1

أما تعريف الاصابة على مستوى الطبي والصحة والأمن فهي "حادثة غير متوقع، قد يؤدي إلى إحداث ضرر، أو جرح في كل ظروف الحياة العملية، وترجع معظم أسباب الاصابات، إن لم تكن كافة الاصابات إلى عناصر مادية، بينما يرجع جزء منها إلى إجهاد نفسي".2، أما علماء الاقتصاد، فيرون أن إصابة العمل هي: "كل حادث يقع للعامل أثناء تأدية عمله المسند إليه، والاصابات التي تحدث له خلال فترة ذهابه للعمل، وعودته منه، بشرط أن يكون الذهاب والاياب دون توقف أو تخلف أو انحراف عن الطريق الطبيعي"3. أما تعريف الاصابة من منظور الموارد البشرية فهي: كل ما ينشأ عن حوادث العمل من أضرار جسمية أو وظيفية، وهناك من يضيف الأضرار العقلية والنفسية الناجمة عنها.

1.3. **حوادث العمل:** هي كل ما يحدث دون أن يكون متوقع الحدوث، بحيث ينجم عنه أضرار تصيب الفرد أو تصيب الآخرين.4. يتأكد نفس المفهوم من خلال التعريف الذي قدمه عبدالفتاح محمد دويدار على أنها "واقعة غير مرغوب فيها، تحدث دون توقع، وهناك أفعال متشابهة تؤدي إلى نتائج مختلفة، وأفعال متعددة تؤدي إلى نتائج متشابهة، ولكن الفهم الكامل لطبيعة الحوادث ومنعها، يتطلب التمييز بين الأفعال ونتائجها بعناية ودقة".5

2. **برامج الوقاية:** سعياً لتوفير وتحسين وقاية العامل من حوادث العمل، استوجب ذلك اتخاذ استراتيجيات وقائية متمثلة في مجموعة من الاجراءات، بحيث يجب تحقيقها من خلال اتباع خطوات متعددة، لتنتهي إلى ما يُسمى بالبرامج الوقائية، الهدف منها هو حماية العمال من حوادث العمل أثناء تأديتهم لعملهم في أماكن عملهم، ويمكن تصنيفها في جانبها العملي إلى ثلاث مراحل رئيسية هي: التخطيط، التنفيذ ثم التقييم.

1.2. **تخطيط برامج الوقاية:** تتمثل في مجموعة من القواعد والجراءات الواجب اتباعها، منبثقة من التشريعات القانونية المختلفة الاطار القانوني لإجراءات السلامة والصحة المهنية.6، يمكن حصر هذه القواعد باعتبارها أساساً للتخطيط في:

2.1.1. وضع مواصفات خاصة بالصحة والسلامة المهنية، للعامل والآلة والممتلكات، إلى جانب حماية الاقتصاد، بحيث تؤدي هذه المواصفات دوراً أساسياً للتحكم في أسباب الحوادث، والبحث عن تفادي المخاطر بمختلف الطرق.

2.1.2. تنظيم العمل: يتم ذلك من خلال إعداد قواعد وشروط العمل بشكل سليم، يجعل محيط العمل خال من كل مسببات الأمراض المهنية.

2.1.3. تحديد ساعات العمل اليومية، من خلال الأخذ بعين الاعتبار لفترات الاستراحة خلال العمل.

2.1.4. اختيار موقع العمل: يتم فيها مراعاة قواعد البناء التي تُحددها المواصفات القياسية عند البناء.

2.1.5. الرعاية الطبية: تكون عن طريق تقديم الاسعافات الأولية في حينها، إلى جانب الفحوص الطبية الدورية، والعلاج الطبي الاقامي.

ما يمكن الإشارة إليه هو؛ أن تكون هذه الاجراءات، مصاغة في شكل خطة متكاملة، هادفة إلى حماية العمال من الأخطار، مع العلم، أن هذه العملية تتطلب التحلي ببعض من المواصفات يمكن حصرها في:

- اقتناع الإدارة بأهمية البرنامج: يجب أن تكون الادارة المخططة والصادرة للبرنامج الوقائي على اقتناع بأهميته على المستوى الاقتصادي والانساني، وذلك من خلال تبيان تكاليف العواقب في حالة عدم تنفيذه بالشكل الصحيح.

- التوعية الوقائية: تنحصر في إعطاء الأهمية للوائح والتشريعات المتعلقة بالصحة والسلامة المهنية، ومن خلالها يجب توعية جميع العمال بأهميتها، والمتمثلة في الاحتياطات الواجب اتخاذها في جميع الحالات المؤدية إلى الأخطار، أو تفادي الوقوع في الحوادث؛ بمعنى كيفية استخدام الأدوات وتشغيل الأجهزة، بالإضافة إلى وقاية أعضاء الجسم، ورفع الأثقال وحملها أو نقلها، مع التعريف بأماكن الخطر، وأسباب الحرائق والانفجارات، و الحرص على عمل اشارات التحذير7.

2.1.6. التدريب: يؤدي التدريب دوراً أساسياً في المحافظة على بيئة العمل من الأخطار والحوادث، وذلك من خلال تدريب العمال على كفاءات أداء عملهم بطريقة سليمة. تتضح أهمية العلاقة بين التدريب والأخطار المهنية في حالة مزاوله هذا العمل من طرف عمال جدد، يُمكنهم ذلك قدرة على التنبؤ بالحوادث، والتعرف على عواقب الأخطار، كما تجدر الإشارة إلى أنه يجب تصميم البرنامج بشكل جيد ذو أهداف واضحة، قابلة للتطبيق، تراعى فيها الفروق الفردية بين العمال8.

2.1.7. تحديد مصدر الخطر: من خلال إعداد كل من الادارة والعمال لتقبلهم برنامج الوقاية والصحة المهنية، يتم الشروع في تحديد مصادر الأخطار، المتمثلة في بيئة العمل المادية وظروفها، والسلوكات المنافية لقوانين السلامة؛ كالتصرفات الغير السليمة، إلى جانب كل ما يتعلق بالفرد من حيث مستوى خبرته وتدريبه.

2.1.8. تحديد إجراءات التحقيق في الحوادث والبيانات المطلوب جمعها: يتم الاعتماد أثناء عملية التخطيط لاعداد برنامج السلامة والصحة المهنية، على إجراءات التحقيق في الحوادث، مع تحديد البيانات التي يجب الحصول عليها عند حدوث إصابة أو مرض مهني، كونها تساعد في تحديد الأسباب الحقيقية للحوادث، وهنا يمكن اعتماد التقارير؛ كمصادر أساسية للحصول على البيانات الخاصة بالحوادث والاصابات والأمراض المهنية⁹، حيث أن هناك مجموعة من العناصر يجب مراعاتها في مرحلة تصميم التقرير، والذي يشمل:

- شركات التأمين التي تتولى تغطية هذه الأخطار.
- تمكين البيانات للمختصين بالوقاية من التعرف على أسباب الحادث.
- شمولية كافة البيانات المساعدة في تحليل الحوادث، لمعرفة الجوانب المترتبة على وقوعها، حتى يتم اتخاذ الاجراءات لمنع وقوع حوادث مشابهة مستقبلا.
- كما يجب أن يشمل التقرير النموذجي للحادث البيانات التالية:
- مكان وقوع الحادث، التاريخ ويوم حدوثه، وساعات وقوعه.
- العمل الذي كان يقوم به العامل أثناء الحادث، والقسم الذي يعمل به، وذلك لأجل التعرف على الأخطار التي ينطوي عليها هذا العمل.
- نوعية الحادث، حيث يتبين نوعية الحادث، والوسيلة المتسببة في ذلك دون تفصيل.
- السبب المباشر للحادث: يتم من خلاله إظهار السبب الأساسي للحادث (عامل إنساني غير مأمون، ظروف بيئية غير مأمونة)، بغية التوصل إلى معرفة سبب الحادث، ومن ثمة اتخاذ الاجراءات اللازمة¹⁰.
- نتائج الحادث: بحيث يشمل التقرير على بيانات متعلقة بالآثار الناجمة عن الحوادث؛ أي مدى خطورة الإصابة، وقيمة الخسائر المادية، استعانة بمختصين في هذا المجال.
- مدة الخدمة بالعمل: يجب أن يشمل التقرير مدة خدمة الشخص المصاب وخبرته بالعمل، حتى يمكن على ضوء هذه البيانات إعداد البرامج التدريبية لهؤلاء الأفراد.
- البيانات السيكولوجية: تكون في شكل تقرير شامل لدرجات اختبارات لياقة العامل من حيث سماته الشخصية، إلى جانب اختبارات الأداء، التي تفيد في التعرف على العوامل الانسانية المؤدية للحادث.

2.1.9. إعداد سجلات الحوادث: بعد إعداد التقارير المتعلقة بالحادث، يتم تسجيلها في سجلات لأجل جمعها، بغية الرجوع إليها عند الضرورة، والحصول على المعلومات التي تهم المختصين بالوقاية والسلامة، والمتمثلة في الأيام الضائعة، التعويضات والمصاريف، إلى جانب التعرف على مختلف وسائل الوقاية الشخصية المطلوب

توفرها، وما يجب إدخاله من تعديلات، بالإضافة إلى الحصول على البيانات بسرعة، وبالتالي ينبغي إعداد سجل أو ملخص إجمالي للحوادث، حسب النوع ودرجة الإصابة.

2.1.10. إعداد لائحة التعليمات والإرشادات الخاصة بمنع الحوادث: يجب أثناء مرحلة التخطيط إعداد قواعد وتعليمات وإرشادات، مع توضيح العقوبات أثناء الإخلال بتطبيقها، مع تسليم نسخة منها لجميع العمال، ومناقشتها إن استدعت الضرورة مع مشرفهم، وذلك في إطار اجتماعات خاصة.11

2.2. تنفيذ برامج الوقاية، السلامة والصحة المهنية: بعد الانتهاء من مرحلة تخطيط برامج الوقاية، نستطيع القول أنه أصبح جاهزا للتنفيذ، بحيث تقوم كل جهة لها علاقة بالدور المطلوب تنفيذ هذا البرنامج، من خلال إشراك مجموعة من الفاعلين منهم: مفتشية العمل، لجنة السلامة الصحية والوقاية المنشأة على مستوى المؤسسة، وصاحب المؤسسة أو المسؤول المباشر، إلى جانب دور العامل في تنفيذ هذه الإجراءات.12

2.3. تقييم برامج الوقاية والسلامة الصحية: تتمثل هذه المرحلة في تقييم هذه البرامج، بهدف علاج اختلالات التنفيذ، أو العيوب الظاهرة أثناء التطبيق، خاصة وأنه لا يجب الاعتماد على كل من التوعية والتدريب، بل يجب اللجوء إلى المتابعة والرقابة باستمرار من قبل الجهات المختصة الداخلية والخارجية، كونها تساعد في التمسك بقواعد وإجراءات السلامة والصحة المهنية، كما أنها تكشف عن عيوب البرنامج في وقته.

تقتصر عملية التفتيش على فحص أماكن العمل، من حيث مدى توفر الظروف الفيزيائية الملائمة، وضعية السلع، وملاحظة العمال أثناء تأديتهم لعملهم، وذلك للوقوف على الأخطاء والمخالفات المرتكبة، ومدى تطبيقهم للتعليمات المتعلقة بالوقاية والسلامة. حيث يقوم المعنيون بتسجيل مجموع الحوادث والإصابات وأمراض العمل في سجلات منتظمة لأجل تقييم برامج الوقاية والسلامة المهنية.

بعد جمع وتبويب البيانات يتم مناقشتها مع رئيس كل قسم بغية الحصول على معلومات دقيقة عن ظروف العمل، وتقديم الإرشادات، ومن ثمة يتم إعداد تقرير المفتش الذي يُرفع إلى مدير المؤسسة متضمنا لمقترحات، بغرض تعديل ظروف العمل، كإعادة تصميم، ترتيب الآلات، أو اللجوء إلى تخطيط التكوين.13

2.4. أهداف برامج الوقاية:

إن الهدف الرئيسي الذي وُضعت لأجله برامج الوقاية: هو الحفاظ على صحة وسلامة العامل ووسائل الانتاج، كل ذلك لأجل تجنب العواقب الوخيمة التي تضر بالمؤسسة بمختلف أشكالها. ويمكننا حصر الأهداف الرئيسية لبرامج الوقاية فيما يلي:

❖ الاهتمام بالموارد البشري على مختلف المستويات الصحية النفسية الاجتماعية، باعتباره عنصرا أساسيا في العملية الانتاجية.

❖ تهيئة العمال للعمل داخل المنظمة تبعا لاختلاف طبيعة مناصب العمل من متطلباته والأعباء المنجزة

عنه.

❖ الحد أو التقليل من الآثار السلبية الناجمة عن الحوادث والأمراض المهنية أثناء العمل، والتي تنعكس على كل من أداء العامل وطبيعة التنظيم.

❖ الاهتمام بجانب الاستقرار النفسي للعمل، نظرا لما تتركه الحوادث والأمراض من انعكاسات على المستوى النفسي؛ كالقلق، التوتر، وعدم الرضا...

❖ الاهتمام بجانب الروح المعنوية للعامل من خلال تدخلات الإدارة المشرفة على الجانب الوقائي، وهو ما يجعل العامل محل اهتمام من طرف المشرفين على المؤسسة.

❖ التقليل من التكاليف التي تتحملها المؤسسة، جراء الحوادث والأمراض المهنية الحادثة للعامل أثناء

عمله.14

2.5. الأسس العامة لبرامج الوقاية من حوادث العمل:

إن الجانب الوقائي الواجب مراعاته داخل مؤسسة العمل، هو تقديم الحماية لكل العناصر المتدخلة في العملية الانتاجية من مختلف الأخطار، على هذا الأساس فهي تسعى؛ أي المؤسسة إلى توفير الوسائل العصرية التي تتماشى مع طبيعة نشاط المؤسسة، وهو ما يؤدي إلى اختلاف الجانب الوقائي من حيث الطريقة والأسلوب من مؤسسة لأخرى.

يعتمد برنامج الوقاية من حيث تطبيقه على مجموعة من العناصر الأساسية هي

2.5. 1. المتابعة والدعم من المسؤول: القصد منه، هو الدعم الذي تقدمه الإدارة المشرفة من خلال مجموعة من الاستراتيجيات لأجل الحد من هذه الحوادث التي من أهمها:

❖ عقد اجتماعات دورية، لأجل اتخاذ الاجراءات اللازمة للحد من الحوادث؛ وذلك من خلال ما يتم التنبؤ به من حدوث للأخطار، التي تزداد تبعا لتنوع استعمالات آلات جديدة، أو توظيف عمال جدد.

❖ المراقبة والمتابعة المستمرة لأماكن العمل وما تتطلبه من احتياطات يجب اتخاذها لضمان السلامة.

❖ إمداد أعوان الوقاية والأمن بالإجراءات الحديثة لأجل التدخل، مساندة لمستوى خطورة الحادث.15

2.5. 2. ضبط مسؤولية الوقاية: تتمثل في تحديد المسؤول عن الوقاية تبعا لحجم المؤسسة؛ كتحديد عون متخصص في الوقاية في المنظمة الصغيرة، أو تكليف مهندس الأمن الصناعي في المؤسسات الكبيرة.16

2.5. 3. هندسة العمل: تتمثل في الالتزام بالشروط الهندسية لمواقع العمل، من حيث تطبيق الاجراءات اللازمة لاستخدام أجهزة الوقاية، مع أخذ الحيطة والحذر في استعمال مواد العمل مهما كانت طبيعتها.17

2.5. 4. التعليم والتدريب: يشمل القيام بعمليات التعليم والتدريب، سواء للعامل قبل شغله للمنصب، أو القيام بدورات تكوينية للعمال الذين يشتغلون بالآلات الجديدة لأول وهلة، أو اللجوء على الأقل إلى تقديم

إرشادات دورية حول التعليمات والضوابط المتعلقة بالصيانة والأمن الصناعي، من حيث درجة المخاطر، العواقب المنجزة عنها وكيفية الوقاية، ولتفادي ذلك، يجب التركيز على الجانب التوعوي والتحسيني ومنها:

❖ الملصقات واللوائح: تكون مطبوعة في شكل رسومات موضحة لدرجات الأخطار الممكن حدوثها، والمتضمنة لإرشادات، يجب وضعها في ورشات العمل، وبالتحديد في مناصب العمل.18

❖ دعائم إعلامية مكتوبة: يقوم بإنجازها متخصصون في الوقاية والأمن الصناعي، يتم إنجازها في شكل (منشورات، جرائد، مذكرات، مجلدات، مطويات...) يمكن استغلالها في الجانب الإرشادي والاعلامي، عند القيام بالاجتماعات الدورية الخاصة بموضوع الوقاية والأمن.19

❖ المحاضرات: يُشرف على إعدادها وتقديمها مجموعة من المتخصصين في مجال الأمن الصناعي، قصد توعية عمالا معنيين بهذه المخاطر، لأجل اجتنابهم أو مواجهتهم للمخاطر المهنية.

❖ الندوة : محادثة لها هدف معين، يُشرف على تقديمها من ثلاثة (03) إلى ست (06) أفراد متخصصين، لهم تجربة طويلة في المناصب المعنية، بهدف عرض مجموعة من المشاكل المتعلقة بالجوانب الوقائية، وتبادل وجهات النظر، على أن تكون طريقة تقديم هذه الندوة بالطريقة التي يرونها مفيدة للعمال.20

❖ اللجنة: هم مجموعة من الأفراد، يتم تعيينهم عن طريق الانتخاب لأجل القيام بمهمة الجانب التوعوي، يترأس هذه اللجنة رئيسا، كما قد يتم تعيينه في بعض الأحيان من طرف الأعضاء أنفسهم، تنحصر مهمة هذه اللجنة، في رسم الخطط المتعلقة بالنشاطات الوقائية وتقييمها، من خلال العمليات المنفذة في هذا الشأن.

❖ الارشادات: يشرف عليها تقنيا متخصصا، بحيث يقوم بإعطاء مجموعة من التعليمات العملية قبل بداية العمل، خاصة أثناء المهام الجديدة التي يتطلبها منصب العمل، أو عند استعمال مواد، أو أدوات لا يعرفون أخطارها.21

3. الدعائم المساعدة على الوقاية:

3.1. سجلات الحوادث: استغلال السجلات التي يتم فيها تسجيل جميع الحوادث، والتي من خلالها يتم توضيح عدد ونوع الحوادث والأمراض المهنية، والخسائر الناجمة عن هذه الحوادث، بحيث تكون منظمة على الشكل (الحوادث المؤدية إلى الوفاة، المؤدية إلى فقدان العمل، المؤدية إلى الأضرار الطفيفة، طرق التعامل معها، والاسعافات الأولية المقدمة).22

3.2. تحليل الحوادث: الهدف منها؛ هو التعريف بالأسباب والتكاليف المنجزة عن هذه الحوادث، والتي من خلالها تتم محاولة تشخيص الحوادث؛ بمعنى المؤشرات المتدخلة؛ كقلة الخبرة، والمعرفة بإجراءات وطرق العمل حفاظا على دافعية ورضا العامل داخل المؤسسة.23

3.3. **لجان الأمن الصناعي:** وفيها يتم الاهتمام بدور لجان الأمن داخل المؤسسة، كونها الطرف المباشر عن تنظيم الأمن والوقاية، والتي تتكون من أطراف معنية بهذه المهمة بشكل مباشر كمهندس الأمن، الأخصائي النفسي، طبيب العمل...ومن صلاحيتها، الاشراف على التوجيه المهني أثناء التوظيف بطريقة علمية، ثم القيام بأيام دراسية توعوية لتحديد المخاطر التي يمكنها أن تُصيب العامل، والتي تكون كطرف أساسي في تشخيص الحادث من خلال تحديد مميزات العامل العقلية والجسدية، وتحليل المواقف والظروف المادية والاجتماعية المتسببة في الحوادث، إلى جانب التنسيق بين مواصفات العامل، والعناصر المؤدية لموقف الحادث.24

3.4. **مشاركة العامل في الجانب الوقائي:** يتضح من الدراسات، أن التعليم الوقائية الصادرة من العامل في حد ذاته، تكون أكثر قابلية وتنفيذا من طرف العمال؛ كالاعتياد على ارتداء الألبسة والأحذية الوقائية...، خاصة عندما تكون صادرة من العمال الذين يتمتعون بمحبة زملائهم، و يكون دور المشرف على الوقاية في هذا الموقف؛ الأخذ بهذا السلوك من خلال المناقشة، ومن ثمة الموافقة من طرف كل العمال.

الهوامش:

1.مرابط اليامنة، التكنولوجيا وإصابات العمل، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم علم الاجتماع، جامعة قسنطينة. الجزائر 1988، ص37

2. Encyclopédie de médecine, Hygiène Sécurité du travail ,Bureau internationale du travail, GENEVE 1976 , p37

3. عزالدين فراج وآخرون، الصحة المهنية والأمن الصناعي والاسعافات الأولية، دار الفكر العربي، الأهرام، القاهرة 1979. ص41

4. محمد شحاتة ربيع، أصول علم النفس الصناعي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2007، ص 272

5. عبد الفتاح محمد دويدار، أصول علم النفس المهني وتطبيقاته، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1995. ص272

6. شاويش مصطفى، إدارة الموارد البشرية "إدارة الأفراد"، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر، عمان 2000

7. حنفي عبد الغفار، السلوك التنظيمي وإدارة الأفراد، دار الجامعة الجديدة للنشر، القاهرة 1990.

8. Vredenburg . A. Organizational safety : Which management practices are most effective in reducing employee injury rates? Journal of safety Research. USA. 2002

9. شاويش مصطفى، المرجع نفسه.

10. حنفي عبد الغفار. المرجع نفسه.

11. شاويش مصطفى، المرجع نفسه.

12. زويلف مهدي، إدارة الأفراد، مكتبة المجتمع للنشر، عمان، 2003
13. شاويش مصطفى، المرجع نفسه.
14. سهيلة محمد عباس، علي حسن علي، إدارة الموارد البشرية. دار وائل للنشر. عمان 1999. ص 347
15. المرجع نفسه.
16. يوسف حجيم الطائي وآخرون، إدارة الموارد البشرية، مدخل استراتيجي متكامل. الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 2006. ص 455
17. سهيلة محمد عباس، علي حسن علي. المرجع نفسه، ص 353
18. Institut National d'hygiène et de sécurité, Article n°09 ; Statut général du travailleur et prévention des risque professionnel. Algérie. dans l'entreprise, les éditions d'organisation. France 1985.
19. A . R, Françoise. Manuel d'organisation ; édition de l'organisation du travail. France.
20. JAKIE BOISSELIER et GERARD BOUE, pratique de sécurité, 1977, p24
21. دقيش خندودة، الوعي الوقائي لدى العمال المنفذين وعلاقته بحوادث العمل، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم علم النفس وعلوم التربية، جامعة قسنطينة. الجزائر، 2006، ص 26
22. يوسف حجيم الطائي وآخرون، المرجع نفسه، ص 456
23. سهيلة محمد عباس، علي حسن علي. المرجع نفسه. ص 355.
24. أحمد سيد مصطفى، إدارة السلوك التنظيمي رؤية معاصرة، دار النشر والتوزيع، القاهرة 2000، ص 212

نمط المسكن ونظوره بالجنوب الغربي الجزائري في بلاد "القصور" - إدرار-

د/ تياقة الصديق، جامعة ابن خلدون- تيارت

Shelter – housing – is considered essential thing for human being not less than biology needs which lead to his existence and life like nourishment. Since the first existence of human being on this land ,it was with existence of shelter which represents the truth of that being in life even after it in his grave.It has developed through time and takes different forms.It is not because to achieve the real need of human but because it has a cultural dimension which has relationship with different cultural structure of individuals and groups, as it expresses the identity of group which contains individuals.this relationship gives a meaning to things related to housing as places , equipments of housing , the internal organization.....etc as many sociology scientists like Chombre de lauw , Rapport.A and Edward Hall confirmed that cultural dimension of housing .Eventually ,we see the importance of search about the kinds of buildings Touat region south east of Algeria ,as they are special buildings in trms of building substances ,internal morphology and also types of families. IT is truly expresses society culture of ELKOSSOR.

مقدمة:

يعتبر المأوى (المسكن)، حاجة أولية وضرورية بالنسبة للإنسان لا تقل عن الحاجات البيولوجية التي تضمن بقاءه وحياته كالتغذية والاطراح، فمنذ وجود الإنسان على وجه الأرض وُجد معه مسكنه، إذ يمثل جوهر وجوده في الحياة وحتى بعد مماته يكون القبر، ولقد تطور وأخذ أشكالاً متعددة على مر التاريخ. غير أن المسكن لا يتوقف وجوده عند تحقيق الحاجات الضرورية للإنسان، بل له بعد ثقافي، ذلك أن المسكن يرتبط بالتركيبات الثقافية المختلفة للفرد والمجتمع، والتي تعبر عن هوية الجماعة التي يدخل الفرد في علاقة معها، تعطي هذه العلاقة المعاني للأشياء التي يضمها المسكن: الأماكن، تجهيز المسكن، تنظيمه الداخلي، طرق امتلاكه....الخ. وقد أكد ذلك كثير من علماء الاجتماع الانثروبولوجيا أمثال شومبر دولو Chombre de lauw، أموس رابوبور Rapoport.A و إدوارد هال E. Hall على البعد الثقافي للمسكن. من هنا ارتأينا الوقوف والبحث في أنماط العمارة السكنية أو المساكن في إقليم توات بالجنوب الغربي الجزائري كونها مسكن متميزة من حيث مود البناء والمورفولوجية الداخلية ونمط العائلة وغيرها، فهي تعبر بصدق عن ثقافة مجتمع "القصور".

وإذا كانت الثقافة في أي مجتمع من المجتمعات تعد في طابعها المادي المتميز، فإن ذلك يجسد في البيت القصورى وأثاثه الذي يتميز بشكل منفرد. فهو يمثل إحدى المكونات الأساسية للثقافة المادية التي تلقي عندها مجموعة العلاقات الاجتماعية المتشابكة مع بقية العناصر الأخرى، و إذا كان هذا القول يصدق على المسكن وأثاثه في أي مجتمع من المجتمعات، إلا أننا نلمسه في المجتمعات الصحراوية التقليدية عامة وأشد ما يكون عليه في مجتمع توات، لكن هذا البيت لم يعد كما كان عليه بالأمس لقد تغير تغيراً جذرياً، يمكن أخذه كمعيار للأشواط الحياتية التي قطعها هذا المجتمع، وتغير اجتماعي شهدته كل المجتمعات الصحراوية خلال العقود الأخيرة نتيجة تأثيرات خارجية وضرورات حضارية بتعاقب الأجيال التي شغلته وكل جيل أنتجه وتملك فضاءه حسب ثقافته.

تبدو هذه التغيرات بشكل جلي في مواد بناء المسكن وجماليته وحجمه كمحطات ظاهرة للملاحظ الأنثروبولوجي، فوقف على: المسكن التقليدي القديم(الخشة)، والمسكن التقليدي الحديث، ثم المسكن العصري.

أولاً: المسكن مفاهيم عامة:

كثيراً ما يصادف المهتمين بالبحث في المجال السكني أو السكن - من جغرافيين وعلماء اجتماع - غموض كبير في مصطلحات السكن، والمسكن، والمجال السكني، ولكن في حقيقة الأمر هنالك اختلاف كبير في معاني هذه المفاهيم الثلاثة.

1- مفهوم السكن l'habitat :

السكن يضم جملة من الاعتبارات المعقدة تجمع بين المسكن l'habitation والممارسات الاجتماعية في الحياة اليومية العملية، وهو يحمل معنى واسع في إطار كل العناصر المادية والإنسانية التي تساهم في أطر العيش. ومن الناحية الجغرافية انه نظام التوزيع المجالي للمقرات السكنية، ويشكل جزء هام في ترتيب أشكال التوزيع الفضائي السكني من قرى، سكنات فردية، تجمعات سكنية، فمصطلح السكن يتعدى المحيط الداخلي للمنزل الذي يعيش فيه الفرد.

ويراه عبد القادر القصير ، بأنه "البناء الذي يأوي إليه الفرد ويشمل على الضروريات والتسهيلات والتجهيزات والأدوات والوسائل التي يحتاج ويرغب فيها الفرد"¹. وإذا رجعنا إلى شومبار دولو CHOMBART DE LAUE. ، نجده يعطيه تعريفاً كالتالي: "انه صورة المجتمع المسقط على الأرض، والتحول التي تطرأ عليه، ترمي إلى التغيرات التي تحدث في المجتمع والأسرة"².

2- مفهوم المسكن l'habitation :

المسكن أكثر دقة من السكن وهو يرمز إلى الفردانية، يضم البيت والعائلة التي تشغله إلى جانب السكنات المجاورة. يرى شومبر CHOMBART DE LAUE بأنه هو البناء الذي يأوي جماعة عائلية موسعة، ويضم أكثر من منزل، وهو وحدة فضائية، تتوافق مع وحدة اجتماعية، وهذا البناء يتموقع داخل السكن الذي يضم كل المواضع الإنسانية les implantation للمجتمع في إطار محدد، ومن الناحية الفيزيائية تفسره Marion Segaud: "على كونه وحدة سكنية مكونة من شقق تضم أفراد تجمعهم علاقات أسرية يشتركون في استعمالها والتعايش فيها، وهو جزء من الممتلكات المادية ويتميز بالخصائص التالية: الموقع، الشكل المعماري، الأفراد المقيمين فيه. فالمسكن ليس صرحاً جافاً بل هو نموذج أسري"³. ولفظ السكن قديم قدم الإنسان ذاته لأنه يلبي حاجة بيولوجية وهي الحماية لذا امتاز ببعض الخصائص الثابتة عبر العصور. فهو مصدر حماية ضد القوى الطبيعية (البرد، الحر، الأمطار) والقوى الإنسانية (الحروب، الغزوات) ومصدر للراحة، فهو يشكل المكان الذي يؤوي إليه الإنسان بعد تعب النهار، أين ينعزل عن الخارج، أين يجد الطمأنينة والراحة، فمنذ أن سكن الإنسان الكهوف والمغارات كان ذلك المأوى البدائي يؤدي تلك الوظائف.

3- تعريف المجال المسكون:

البيت بمختلف أشكاله هو "الكون الأول للإنسان، دلالة الأصل وتثبيت الهوية، لولاه لبقى الإنسان مشئت داخل الفضاء، وهو يشكل الإطار الخاص للمجال المسكون"⁴، إذا المجال لا يقتصر على المنزل من حيث الشكل أو الجانب المورفولوجي بل يشمل المحيط الاجتماعي المتجلي في التمثلات والتصورات، والعلاقات الأسرية. فهو وظيفة أساسية لكل هيكل اجتماعي"⁵. كما أن وجهته الشعرية poétique مكنت من لفت انتباه المختصين لاسيما في أوروبا حيث أدركوا مدى تفاعل العلاقة سكن/ساكن ومدى أهمية هذا الأخير باعتباره أي الساكن الفاعل الأساسي داخل الفضاء المشغول"⁶ الذي يطبعه بثقافته وهويته، فالمجال المسكون له خصوصيته وهويته فهو هوياتي identitaire يجد هذا المفهوم كل معناه في العلاقات اللاشعورية التي تدخل في إطار الزمن والمكان مع الخيال الجماعي. l'imaginaiire collectif"⁷. فالمسكن ظاهرة اجتماعية وليس صرحاً فيزيقياً جافاً مادام يدخل ضمن الخيال الجمعي، وهو وظيفة أساسية لكل هيكل اجتماعي.

ثانياً: المسكن موضوع المقاربة الانثروبولوجية:

لقد تصدى للكتابة عن العمارة والمسكن كثيرون، "منهم التاريخي، ومنهم الآثاري، فضلاً عن نقاد الفن، والمهتمين بالتراث وعلماء اللغة والدين، وقليل من المعمارين، وجاءت طروحاتهم، وتحليلاتهم، وفقاً لنوعية ثقافتهم، وأسقطوها على المنجز المعماري، والكثير من هذه الدراسات، بل الأعم الغالب، منها اهتمت بالمقاربات

الوصفية - التصويرية والتسجيلية لذلك الإنجاز"⁸. ومنذ العصر الحديث أصبح المسكن محطة أنظار علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا ، فالمسكن هو موضوع الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية بالخصوص.

انطلاقاً من قول آموس رابوبورت A. Rapoport: "إن البناء أو التعمير لم يكن من اختصاص المهندس المعماري لكنه عبارة عن محيط مبرمج ومهيكل تقريباً عن طريق الثقافة الشعبية أو الفلكلورية وقد تغافل عنها التاريخ"⁹ وحسبه أن الفضاء السكني موظف حسب الحاجات الأولية بالخصوص والحاجات الأساسية، ثم يأتي الذوق الجمالي إذا أمكن، ولقد اهتم الباحثين بالفن والموسيقى ومحيطها الاجتماعي منذ القديم، أما الاهتمام بالعمارة والبيت الذي يعرفنا بثقافة السكن الشعبي البسيط مهمل من طرف بعض الدراسات. فالتشكيل الهندسي للعمارة و التقاليد الشعبية ما هي إلا ترجمة مباشرة وغير شعورية لثقافة هذا المجتمع.

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ظهر تيار جديد من الدراسات في هذا الميدان لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا مما ساهم في احتلال مفهوم الفضاء السكني مكان الصدارة في الدراسات المعاصرة التي عالجته من مختلف الأبعاد، ونتيجة لظهور علماء تخصصوا في الدراسات الاجتماعية الحضرية، أمثال لوين Lewin (1890-1947) الذي يعتبره البعض أول من مهد لمفهوم المجال السكني عندما اعتبر الفضاء عنصراً اجتماعياً لكونه مصدر جميع التفاعلات التي تحدث بين الفرد والمحيط الذي يعيش فيه، وواصل البحث في هذا الاتجاه تلامذته باركر روكر Barker ROGERK، وهربرت وورايث⁽¹⁰⁾ HERBERT WERIGHT.

وفي سنة 1966 نشر عالم الأنثروبولوجيا إدوارد هل hALL. E كتابه : البعد الخفي"وقدم فيه قواعد التقارب، وعرفه بأنه الدراسة العلمية للسلوك المكاني للأفراد. وأوضح في هذا الكتاب المعاني التي يلجأ إليها الأفراد عند استخدام الحيز، ووضع الحسابات الأولية الثابتة للمعايير المكانية في العديد من الثقافات المتباينة"¹¹. إلا أن هناك من الباحثين من يعتبر أن أول من تطلع لدراسة الفضاء ضمن إطار تحليلي وظيفي وربطه بالمسكن هو باشلار Bachelar الذي عبر في كتابه la poétique de L'espace شاعرية الفضاء سنة 1967 عن المسكن بأنه لغة الحياة اليومية وأدوات حياتنا النفسية الخفية التي بدونها يفقد نموذج الألفة في الحياة، وقيل أنه أول من مهد لanthropologie du logement المسكن.

وفي هذا العصر دخل ميدان العمارة والبناء والسكن مجال الدراسة الأكاديمية المتخصصة، إذ شغل موضوع السكن علماء الاجتماع الغربيين أمثال: شومبر دو لو P.H. CHOMBART DE LAUWE عندما اهتم برودود أفعال الساكنين واثري الموضوع بأبحاثه في مشاكل أزمة السكن وطرق معالجتها"¹². ومن الدراسات الميدانية الأنثروبولوجية الحديثة التي عالجت موضوع الفضاء السكني وعلاقته الجوارية نذكر على سبيل المثال

دراسة بوشنن BOUCHANINE-NF في دراستها عن المجتمع المغربي، فالفضاء السكني لديها لا ينحصر داخل حدوده الداخلية بل يتعداه إلى الفضاء الخارجي، إن النماذج السكنية تفصل بدقة النماذج السوسيو ثقافية، وتغير بنية المسكن الداخلية ضروري حسب ما تراه بوشانين إذ تحاول الأسرة من خلال ذلك التغيير الحفاظ على حميميتها وأمنها¹³، فالساكن يتخذ في فضاءه السكني مجموعة ممارسات رمزية تجعل من هويته مسالة جماعية كما يؤكد على ذلك بيير بورديو P.BOURDIEU في دراسته للمسكن القبائلي في الجزائر.

ومن المقاربات الميدانية الأخرى ما أتت به مدرسة شيكاغو، حيث بنت دراستها على المفاهيم الإيكولوجية للروابط الاجتماعية وتوصلت إلى: "أنه كل ما زادت الحياة الحضرية أصبحت العلاقات الاجتماعية تتميز باللامعيارية والعزلة، كما أن الحضرية حسب ما يؤكد بارك PARK.R تؤدي بالضرورة إلى اختفاء الجماعة الأولية بما فيها جماعة الجيرة، ويذكر ويرث WIRTH.L: أن من بين نتائج الحياة الحضرية عزل الحياة السكنية فيعيش لأفراد مرتبطين ارتباطا سطحيا تحكمه المصلحة المتبادلة"¹⁴.

كما لا يمكن أن نهمل جهود الباحثين الذين ساهموا في تطور علم الاجتماع الحضري، أمثال سومر Sommer سنة 1969، ولوفيفر Le Fébvre (1970)، وشومبار دو ولو Chobar de lauwe (1971)، ومارك أو ليفية Marc Olivier (1972)، هلبرن Halpren (1995)، وغان بروبس لفنتل Levental, Gunn Broobes (2003) وغيرهم.

ثالثاً: أنماط العمارة السكنية في قصور "توات":

تتوزع وتتباين الخصائص المورفولوجية للمساكن القصورية اليوم في إقليم "توات" على ثلاثة أنماط تبعاً لحجم المسكن، ومادة بناءه وكيفية إنجازها وحتى موقعه، لذا عبر هذا البيت عن المرحلة الزمنية التي أنجز فيها والمستوى المادي والاجتماعي لمالكه، فكان أوله.

1- المسكن التقليدي القديم:

حاولنا تقسيم هذا النوع من المساكن إلى قسمين هما مسكن الخشة (السقيفة) ومسكن القوس (الغرفة، المصرية)، وكل واحد منهما ساد لقرون عديدة، فالأول كان ملجأ الإنسان القصورى منذ بداية الاستيطان البشري في تلك المناطق وتأسيس القصبات والقصور التي على هيئة قلاع وحصون، أما الثاني فيوجد منذ الاستقلال أو قبله بقليل.

1- 1مسكن الخشة(السقيفة):

1- 1- 1 مادة البناء والخصائص المورفولوجية للدار:

يصف ابن خلدون طريقة أنجاز العمارة البدائية الأولى ومواد بناءها والتي تكون عادة بالحجر والطين، "إذ يبدأ العمران بالرغم من بدائيته حجريا متينا لتوفر المادة والبنائين المهرة والأدوات (أدوات الطرق والحفر والقطع والمساطر والموازين) لكن بزيادة عدد السكان، وبالتالي زيادة الطلب على المساكن تستنزف مواد البناء وتفقد. وينعدم توفر البنائين المهرة بالعدد المطلوب، ولصعوبة التعامل مع الحجر يلجأ البناؤون إلى مواد بديلة من الطوب والطين بدل الحجارة كون المواد البديلة أسهل في البناء وأسرع بتلبية الحاجات في المأوى بالرغم من بدائية البناء وسرعة خرابه إذ يلقى العناية المطلوبة"¹⁵. هذه الملاحظة تتضح أهميتها وحقيقتها للمتابع لمواد بناء المساكن وتطورها في القصور الصحراوية، هذا ما اكتشفناه عن طريق البحث الأركيولوجي للمساكن القديمة في قصر "تمنطيط". فمادة البناء، كانت طينية بالأساس زائد الحجار الصخرية المتواجدة بالمنطقة، والوحد الطينية والأترية الكلسية(الحذب، التافزة) والأملاح المجلوبة من السبخة. أما كيفية تجهيزه(اللين) فكانت تتم عن طريق حفر حفرة وتعجن فيها تلك المواد مع إضافة شيء من التبن وروث البهائم إلى أن يصبح على شكل سائب تترك لتفاعلات كيميائية لمدة أسبوع أو أكثر ثم يعاد عجنها بعد أن يضاف إليها الماء ثم تستخرج من الحفرة لتشكل منها قطع اللبن ذو الشكل التكعيبي الثلاثي الأضلاع، حيث إذ يأخذ هذا الشكل بعد الضغط على قطعة الطين بكف اليدين من الجهتين لتأخذ شكل مسطح وواسع في الأسفل بضلعين ويضيق في الأعلى بضلع واحد، يسمى هذا النوع من "اللبن" بالمصطلح المحلي "طوب الديدن" وهو مادة بناء تقليدية التي شكلت إحدى مواد البناء الأساسية في المساكن القصورية قديما ولم يعد يستعمل بعد الاستقلال إلا في إحاطة البساتين والأبنية المتعلقة بها كحظيرة الماشية وإسطبلات الدواب، لما بدأ يزاحمه اللبن الحديث تلك الفترة، وحسب شهادات إحدى المبحوثين: "طوب القالب زمان كان عند ألا عند فرنسا"¹⁶، وهذا ما يؤكد أن طريقة تجهيز هذا النوع من اللبن لم تستعمل إلا مع الفترة الاستعمارية أو بعدها بقليل.

وإلى جانب هذا هناك مادة أساسية لاستكمال البيت القصورى هي الأخشاب المصنوعة من جذوع النخيل لتجهيز السقف والتي لا يشترط أن تكون مستقيمة الشكل بقدر ما يكون الاعتبار لطولها الذي لا يتجاوز المتر، أو المترين والنصف كحد أقصى ليتناسب مع عرض الغرف التي هي عبارة عن أزقة، تصطف فوق جدرانها المتوازية بشكل متباعد نسبيا بمقدار (3م إلى 3.5م) ليشتد بقطع خشبي من الجريد يدعى "الكرناف" بشكل مخالف يكسب السقف حلة زخرفية جميلة ثم توضع فوقه مادة "الفدام" وهي عبارة عن لحاف دائري يحيط بجريد النخلة يشد بعضه بعض، وقد يعوض بسيقان القمح "البرومي" التي تفضل بعد عملية الدرس للقمح وهي غذاء أساسي للماشية، ومهمة هذه السيقان هو منع تسرب المياه من السقف نحو الأسفل ويغطي كل هذا بالطين السائب.

1-1- 2 التوزيع الداخلي للمسكن:

إن دراسة مخطط المسكن/ المنزل Logement "هو تحليل للعلاقات بين حياة العائلة والإطار المعطى الذي فرضه المجتمع، فدراسة المسكن في هذا الأفق هو ملاحظة صورة المجتمع المسجلة على الأرض"¹⁶، فما هو مخطط هذا النوع من المساكن القصورية التي أفضت إلى توزيع مجالها الداخلي وطبيعة بنيتها العائلية؟.

يقتصر على أروقة مستطيلة الشكل عدا الصحن المكشوف، هذه الأروقة هي عادة ضيقة ومتعامدة بانكسار زاوية تسعين درجة تؤدي إلى السقيفة الأولى ثم المدخل الرئيسي مباشرة لتتصل بالسقيفة الثانية التي تؤدي بدورها إلى الصحن، تخصص إحداها لنوم الأطفال والأخرى لنوم الزوجين وقد ينام الزوجين في غرفة التخزين (المصرية) بالنسبة للأسر التي ليست لديها سقيفتين، ثم نجد الصحن و تحيط به غرفة أو غرفتين حسب المقدرة المادية للأسرة ولا يزيد عن ذلك. تسمى الأولى بـ "التاقمي" والثانية "المصرية" تخزن فيها الأملاك المادية للأسرة، أما "التاقمي" فهي مكان للأثاث ذو الاستعمال اليومي للأسرة مثل "القلة" (الزير) الذي يوضع فيه الماء للتبريد، وقربة اللبن المعروفة محلياً بـ "التاغويا"، وفي فصل الشتاء تخصص إحدى زواياها مكان للطبخ. وفي هذا الفضاء "التاقمي" نجد مدخل يؤدي مباشرة إلى زريبة الماشية والدواب وغيرها من الحيوانات التي هي ملك للعائلة. هذه الزريبة تضم كذلك سقيفة مغطاة ملجأ الدواب في الشتاء.

الصحن هو الفضاء المركزي في الدار، وكما وزع الحركة أفقياً في الدار يوزعها عمودياً عن طريق السلم إلى السطح، الذي يخلو من أي غرفة أو فضاء وظيفي عدا (الحفرة) دورة المياه التي تكون عادة في السطح، وتكون عبارة عن ثقب أو ثقبين في إحدى زوايا السطح الأربعة وعادة ما تكون في الجهة المخصصة للماشية، يحيط بها جدار منكسر بزاوية 90° أو دائري ليحجب الرؤية عن بداخلها، وفي أسفلها مبنية حتى السقف لغرض صحي، وفي كل موسم زراعي من كل عام تنقب من الجهة الخارجية للدار أو في بيت الماشية حسب موقعها وتخلط بروتها وتنقل على ظهر البهائم للبساتين لتخصيبها.

هذا النوع من الديار يخلو من الغرفة المتخصصة والمطبخ والحمام فالقصورية قديماً كان يستحم في البساتين أو بيت الماشية، كما يخلو من الأبواب عدا المدخل الأول الذي بابه مصنوعة من خشب النخيل بشكل محكم، أما الباب الذي يصد الماشية في بيتها الذي هو عبارة عن عصي متقاطعة تشبه الشباك تسمى "المحصر" لأنه يحصر الماشية.

1 - 2 مسكن القوس: نمط معماري ومجال داخلي جديد.

يصعب تحديد الفترة الزمنية لهذا النوع من المساكن وقد يكون مع دخول الإسلام إلى هذه المنطقة لكن تحاشين هذا الأمر لسببين اثنين: أولهما لسنا هنا في موقع المؤرخ ولا يهمننا هنا القوس في حد ذاته بقدر ما يهمننا أثر هذه التقنية على تغيير الفضاء الداخلي للمسكن القصورية القديم، وقد اخترنا في فترة الاستقلال هنا لان في هذه

الفترة ظهرت تقنية جديدة، وهي الألواح الخشبية والقطع الحديدية الطويلة، تعوض عمل القوس مما أدى إلى اتساع الغرف وتخصيص الوظائف بها. وثانيهما أنه حتى ما بعد الهجرات العربية الإسلامية للمنطقة في القرن السابع ميلادي وإلى غاية فترة ما بعد الاستقلال ساد هذا النوع من المساكن، وقد شاهدنا البعض منه باقي إلى اليوم بكل معالمة.

لا يختلف هذا النوع عن مسكن **الخشة** سواء في مواد بناءه وكيفية تجهيزها، لذلك اعتبر امتداد للمسكن الأول في صورته الثانية، نتيجة ظهور فضائين جديدين هما غرفة المخزن (امتداد للمصرية) وغرفة فوق السطح تسمى "**العُرفة**" (بفتح الغين في اللهجة القصورية)، والحمام، وحسب إحدى الباحثين المهنيين والذي سبق وأن قام بدراسة معمارية من جامعة وهران قسم الهندسة المعمارية - وقد أجرينا مع مقابلة فقد صرح لنا بأن لفظ القوس الذي يطلق على الغرفة السفلية في الدار جاء من لفظ القوس الموجود بداخلها والذي يصل بين الرفوف الخشبية من الجهتين وقد أستعمل لوظيفة الوصل بين الأعمدة الخشبية القصيرة، وقد عوضت الأعمدة الحديدية (firati) والألواح الخشبية الطويلة دور الأقواس بعد الاستقلال بعد دخول هذه المواد الجديدة للمنطقة، فالأعمدة الحديدية والألواح الخشبية وضعت كدعامات لأخشاب النخيل التي توضع فوقها بشكل معاكس.

هذه التقنيات الجديدة غيرت كذلك حتى شكل الدار وجدرانه التي كانت متعرجة ودائرية إلى مستقيمة، فأعطت للعمارة السكنية القصورية شكلاً مربعاً نتيجة ظهور اللبن ذو الشكل المستطيل الذي بدأ في الاستعمال ولو بشكل قليل.

رغم ظهور هذين الفضائين، لم يطرأ أي تغيير وظيفي على مجالاته الداخلية، وإن احتلت المصرية موقعها مباشرة بعد المدخل الرئيسي للدار فإنها لم تكن مخصصة للضيف، ويضيف لنا مبحوث آخر أنه لما سألناه عن غرفة الضيوف في مجتمع لا يقل فيه واجب الكرم عن واجب الشرف، قال لنا: "**الضيف بكري أين كان أجي يمشي للدار الضيف أو الدار الكبيرة أوكل واحد انهار أدير ليه عشاء**"¹⁸ أي عندما يأتي الضيف لأي كان من أهل القصر يقيم في دار مخصصة له وكل أفراد القصر يطعمه كل حسب اليوم المخصص له وقال آخر: "**الضيف فالقلوب الضيف زمان كان يجيء ويدفع النار لمولاة الدار وهي تطيب الحساء بكري**"¹⁹ ويعني هذا أن الضيف كان يجلس قرب الموقد ولم تكن له غرفة مخصصة وإن دخوله لوسط الدار لا يثير أي قلق ولم يكون مقصي من المجال الخاص فما دام قد دخل القصر يمكنه دخول الدار لأن حتى دخول القصر مسبقاً كان قد خضع لضوابط مشددة، ولا يعني هذا أن كل الضيوف يدخلون بدون حرج فقد يكون هؤلاء من الأقرباء أو الأصدقاء.

1- 2- 1 التوزيع الداخلي للمسكن وتملكه:

لا نريد هنا ، أن نعيد ما قلناه سابقا لأن التوزيع الداخلي لا يختلف كثيراً عن **مسكن الخشنة** ولكن كما تأثر هذا المسكن بتقنيات جديدة ، ومكتشفات الحضارة العصرية كدخول الكهرباء مثلاً فلاشك أن التأثير شمل ساكنيه وبالتالي يدخلون في علاقات جديدة مع المجال.

مع إضافة هاتين الغرفتين بقي الصحن هو المركز الحيوي في البيت القصورى فلا يكاد يستغني عنه أي مسكن ، ومنه نجد السلم المؤدي إلى السطح الذي هو كذلك مجال حيوي وأنشطته تتوزع حسب فصول السنة والتقلبات الجوية ، فهو مكان للنوم في فصل الصيف ليلاً وتجفيف الأطعمة والتدفئة شتاءً. أما جدرانها تتباين من حيث الطول والقصر تبعاً لدرجة قرابة الجار فقد يطول بين جارين لا تجمعهما أية قرابة ويقصر بين جارين متقاربين وعموما العرف المتفق عليه أن جدار السطح يجب أن يكون على قدر قامته رجل واقف لكي لا يكشف الجار سيما وأن دورة المياه في المنازل القصورية توجد في السطح ، وعموما جدران السطح كلها قصيرة. لكن باب المفارقة أثناء زيارتنا الميدانية المتكررة لقصر "تمنطيط" شاهدنا معظم أسطح المساكن مكشوفة أن لم نقل كله ، وبالتالي استطعنا التقاط صور فوتوغرافية لها من فوق ، كما بدت لنا الهوائيات المقعرة ونحن فوق مستوى السطح دون أن نكلف أنفسنا عناء الصعود فوق جدار.

وإذا رجعنا إلى الصحن نجد في إحدى زواياه فيها مخبزة تقليدية المسماة محلياً بـ "أنور" وبجانبه مكان لتجهيز خبز الملة خبز يجهز تحت الرماد الساخن. وغالباً ما يوجد هذا المكان تحت السلم وللصحن دور وظيفي في الدار ، وهو توزيع الإضاءة على الغرف المحيطة به.

كان هذا البيت في غاية البدائية والبساطة ، يخلو من النوافذ عدا الفتحات الموجودة في أعلى الجدران ، تُسد في فصل الشتاء بقطعة قماش كما تسمح بخروج الدخان عند فتحها. يفتقد للتأثيث والزخرفة الجمالية ، إذا ما استثنينا الأثاث ذو الاستعمال اليومي كأواني الطبخ وهي في مجملها طينية الصنع وتشغل حيزاً في الصحن ، والرحى لطحن الحبوب و "المهراز" لتكسير التمر الجاف وصخرة يهشم عليها علف الماشية وكل هذه الأثاث يوجد في السقيفة الأولى مباشرة بعد المدخل الرئيسي للدار.

أن هذا النوع من المساكن له خصائص المنزل الريفي التقليدي القليل التجهيز المنعدم الجمال الزخرفي والفني ، له ما يشابهه في المناطق الريفية من حيث الوظائف والشكل الهندسي ومواد البناء خاصة في قرى المناطق الحارة مثل قرى إيران وصعيد مصر. أما من حيث النظافة فلم يكن ساكنيه يولونها أي اهتمام ، فقد كانت الماشية والدجاج تقاسم القصوريين مجالاتهم الداخلية دون أن يجد حرجاً في ذلك.

سمة هذا النوع من المساكن الالتصاق والتقارب الشديدين ، لكونها وحدات سكنية وأسرية قروية ، أو بالأحرى هي مجموعة الأنوية العائلية والوحدات السكنية الفيزيقية المكونة للقصر ، وقد عبر عن مرحلة زمنية

معينة تبدأ منذ خروج الإنسان الصحراوي من السكن في الكهوف إلى منتصف حقبة الستينيات مع بداية جلب مواد البناء الحديثة كالزنك والأعمدة الحديدية التي كان لها الأثر الكبير على حجم البيت وتوزيع حجراته. وعموما تصميم البيت القصورى له نفس خصائص العمارة الأفريقية حيث يصف بارث BARTH تصميمها للسكن القصورى الذي يقوم على أساس المدخل الواحد فيجد الضيف غرفة الاستقبال وفي نفس الاتجاه يوجد سلم يؤدي إلى السطح ثم بعدها يجد غرف النساء ورواقا وساحة داخلية وبهذا كل البيوت تتشابه في هندستها بحيث تعكس بصدق طبيعة البناء الصحراوي الذي يقوم على الأقواس النصف دائرية²⁰.

2- المسكن الحديث التقليدي:

2-1 مادة البناء ومورفولوجية الدار.

تعتبر المعرفة بمادة البناء في مجال الدراسة السكنية من المتطلبات الجوهرية لاستكمالها. "إنها تعكس عن طريق الاستثمارات الهامة، التي تبرز في الواجهة: التعبير الهندسي والألوان، ومواد البناء تهدف كلها إلى تجميل الدار، وترمز إلى أفرادها....، إلى إعطاءها طابعها الخاص، إلى تمييزها اجتماعيا". ورغم بقاء مادة البناء هي نفسها طينية فإن طريقة التجهيز اختلفت كليا عن الطريقة الأولى فقد غابت فيها الأملاح المعدنية والتبن وروث البهائم وعوضتها مواد حديثة كمادة الجير لطلاء السطح والأسمنت لأرضية الدار أو على الأقل بعض الغرف ذات الأهمية الوظيفية في المنزل، كغرفة الضيوف والمطبخ، وغرفة النوم.

إن أول شيء كان له الأثر الأكبر على شكل المنزل وحجمه هنا هو اللبن ذو الشكل التربيعي الذي ساد انتشاره وأصبح اللبن التقليدي ذو الشكل التكعيبي الذي ودع لغير رجعة، وظهر اللبنة التي على شكل مستطيل وسميكة الشكل يتم صنعها من الطين السائب (المعجون)، إذ توضع الطين في القالب الخشبي أو الحديدي ثم تسوى وتضغط ثم ينزع ذلك القالب وهكذا نحصل على الطوب وبعد يترك لأشعة الشمس عدة أيام حتى يجف ثم يستعمل في البناء، أما طريقة بناء المنزل فهي لا تختلف كثيرا عن المنزل القديم فبعد حفر الأساس لكل جدار يراد بناءه يوضع اللبن على شكل منتظم ثم يوضع فوقه الطين السائب ثم الطوب، وهكذا دواليك إلى أن يصل الجدران إلى أعلاه ثم يغطى السقف بمواد مختلفة إلا أن بعض الأسر الغنية تدعم جدران بيتها بأعمدة حديدية (Pillé) ركنية في زوايا البيت.

وبعد أن تجف (الجدران) تغطى الغرف بأعمدة حديدية والزنك وأما الأروقة (السقايف) المؤدية إلى الغرفة فتغطى بأخشاب النخيل تبعا للمقدرة المادية للأسرة وإرادة ساكن المنزل، وبعض المنازل استعملت في جميع سقفوها المواد الخشبية، وقد عبر هذا النوع من المساكن عن حجم الأسرة وعكس التفاوت الاجتماعي بين السكان.

ومن خصائص هذا المسكن أيضا ، أن بناءه وتجهيزه لم يتم على "التوزيع" أي مشاركة جميع أفراد العشيرة أو القبيلة في عملية بناءه ، بل يستأجر البناء المتخصص والعامل المساعد له أو مجموعة ممن يبذلون جهد عضلي ، وقد يشترك في عملية البناء أفراد العائلة الواحدة من خمسة أفراد وأكثر وفيها تؤكدون تضامنهم الجمعي.

تقصى المرأة في عملية البناء كالمعتاد ، والمجموعات لأنه مجتمع البناءين ووجودها بينهم مدعاة للفتنة لذلك كان إقصاؤها إجباريا اتقاء لما ينجم عن وجودها.

تنوعت وتعددت مواد البناء التكميلية (La finition) حسب الذوق الجمالي لأفرادها ، ومستواهم الثقافي والمادي ، فالأسر الميسورة الحال كانت تطلي جدرانها بالطين الأبيض والجير أما الأسر الغنية التي بدأت في الظهور كجماعات اجتماعية جديدة في القصر أصبحت تستعمل الدهن (Pantuer) الأزرق وتفرش الأرضية بالاسمنت بدل التراب.

لقد أصبح هذا النوع من المساكن يعبر عن التفاوت الاجتماعي والاقتصادي للعائلات ، والجماعات الأسرية ، والأفراد على حد سواء. كما أنه حسب المخيال الجماعي لسكان القصر أصبح يمثل مصدر تحدي فظهور هذا النوع من المساكن لم يكن نتيجة التحسن المادي لما لديه فقط ، بل الهجرة كذلك ، فالتواصل والاحتكاك بالغرباء اثر فيهم وترجم ذلك من خلال استعمالهم لأشكال معمارية جديدة أكثر جاذبية ، لكن لم تعد هذه المساكن منسجمة أشد الانسجام ومتشابهة مع بعضها البعض مثل مساكن النوع الأول.

2- 2 بنية الداخلية ووظائفه الاجتماعية:

يختلف التركيب الداخلي للمسكن من بيت لآخر ، هذا الاختلاف يكون من حيث الحجم وتموضع الغرف وحجمها تبعاً لكل عائلة حسب أفرادها ، رغم أن وظيفتها بقيت نفسها ، فالغرف بأشكالها ومساحتها وان اختلفت من بيت لآخر فان وظيفتها بقيت ثابتة حسب تموضعها.

مباشرة بعد المدخل الرئيسي نجد السقيفة تتصل برواق منكسر بزاوية 90° درجة لحجب الرؤية عن داخل البيت ، كما نجد في السقيفة الباب المؤدي لغرفة الضيوف وكذلك السلم المؤدي إلى السطح مباشرة أما الرواق المنكسر فهو يؤدي إلى الصحن المغطي والمزود بفتحة للإضاءة ، فالصحن المربع الشكل تحيط به مجموعة من الغرف المتصلة به عن طريق أبواب ، و غرفة بشكل مستطيل تستعمل للطبخ ، وقد يحتوي على مدخلين أساسيين واحد يؤدي إلى السقيفة وغرفة الضيوف أما الثاني مخصص لساكني الدار لاسيما الحرم في حالة وجود غرباء ، كما تدخل منه الدواب ، في حالة ما إذا كان هناك حيوانات تربي داخل المنزل.

أما السطح جدرانه عالية لا تسمح بكشف الجار مثلما هو الحال في المساكن القصورية القديمة ومطلبي بالجيرة وبه دورة مياه، يفصل بفضاءاته (غرفة الاستقبال، السطح، الحمام) المدخل الثاني، عن طريق باب كما يظهر به التخصص الوظيفي لكل مجال (غرفة الطبخ، الاستقبال، التخزين، الأعمال اليومية). غالباً ما تسبق المسكن (زربية) حسب اصطلاح القصوريين تسمى "الجرده" وبه المطبخ التقليدي (التاقي) الذي يستعمل الحطب التقليدي في الطهي وقد تحتوي على إسطليل للدواب وان كانوا يعزلون في جهة معينة ويغلق عليهم بإحكام بواسطة باب السلم المؤدي إلى السطح أين توجد غرفتين واحدة لتخزين المنتجات الغذائية، وأخرى خاص بأواني العروس التقليدية التي تهبها لها أمها وإخوانها يوم الزفاف.

هذا النوع من المساكن قليل الزخرفة الجمالية ولو في شكلها البسيط، كتزيين المدخل الرئيسي (Décoration)، وان كنا نجد الأقواس والرحبة جد منمقة بألواح خشبية أفقياً، أي العوارض الخشبية (البودرا) والتي تستعمل غالباً في بنايات المدارس والمساجد الفخمة، وأصبحت الغرفة الموجودة في الطابق الأرضي أكثر أهمية ومزودة بأبواب كبيرة تفتح وتغلق تبعاً لفصول السنة وتقلب واعتدال الجو.

ونتيجة استعمال مواد البناء الحديثة، لاسيما في السقف، فالأعمدة المستقيمة كان لها الأثر الكبير على شكل البيت الذي أصبح مستطيلاً أو مربعاً ومتصل بزربية إحاطة أو شارع رئيسي على غرار الزقاق، واستعمال الأبواب الحديدية والخشبية والنوافذ المطلة على الشارع أو بالداخل وعليها رداء وأصبحت في منتصف الجدار بعدما كانت في أعلى الغرف، أما الباحة (البهو) الداخلية أصبحت مغطاة وبها فتحة للتهوية، بعد أن عوضت إضاءة الغرف المصابيح الكهربائية.

لم تعد هذه المساكن متشابكة ومتلاصقة مع بعضها البعض وتؤدي إليها الأزقة الضيقة لأن بعضها أصبحت تقع داخل ساحة تسمى بـ "الإحاطة".

فمسكن "الإحاطة" ينتمي إلى نمط المساكن الحديثة التقليدية التي بدأت في الانتشار اثر ظاهرة السكن خارج الأسوار (القصبات)، وأطلقنا عليها هذه التسمية لوقعها داخل إحاطة مربعة أو مستطيلة الشكل والتي عوضت الممر الغير النافذ الموجود في القصر والذي هو عبارة عن زقاق (درب) ضيق يؤدي إلى منازل متقاربة. "الإحاطة" سمة معمارية بارزة ظهرت بعد حركة الخروج من القصر وهي مساحة محاطة بجدار من الجهات الأربعة وتحوي ديار أفراد العائلة من الأعمام والإخوة والأبناء وتربطهم علاقة قرابة دموية، وهي ملكية جماعية لكل أفراد تلك العائلة رغم أن كل واحد منهم يستقل فيها بمسكنه كما أنها عادة ما تحتوي على أسطليل للدواب والدجاج ومكان لخبز أعلاف الماشية ومرآب للسيارات كما توجد فيها أحياناً حسب اتساعها حديقة صغيرة يطلق عليها "الجرده" والمساحة الخالية المتبقية منها هي مكان بناء سكن الأبناء عندما يبلغون سن الرشد

والزواج ، هذه الإحاطة تم الحصول عليها أما بوضع كرا كير من الحجر تحدها ، وباعتراف الجماعة أو كانت عبارة عن واحة خضراء والآن هي يابسة ، إذ يحرص الرجل القصورى على الحصول والحفاظ على قطعة ارض لأبنائه ليبني فيها ديارهم لأن حرصه على زواجهم أكثر من حرصه على معاشهم ، فقد يحرم نفسه من كماليات العيش لأجل شراء قطعة أرض لهم.

لا نجد تفسيراً لهذا السلوك إلا لذلك الصراع المجالي بين العائلات القصورى الذي لازالت رواسبه باقية حتى الآن ، فالثروة في ملكية الأرض وكبر حجمها لازالت مصدر ثراء ، ليس من أجل استثمار اقتصادي نفعي بل من أجل استثمار رمزي وتنافس اجتماعي وذلك بعد بناء الأبناء ديارهم فيها . يكون لها مدخلين أو مدخل واحد حسب كبر حجمها ووظائفها فالمدخل الرئيسي لأفراد العائلة ككل ، أما المدخل الثانوي فيكون للدواب وإخراج فضلاتها.

يبني جدار الإحاطة باللبن والطين وان كانت الديار الأسرية فيها مبنية بالاسمنت وذلك لكبر حجمها ، وهي الآن تمثل فضاء نصف خاص ملكيته مقصورة على أفراد العائلة الواحدة ، وهي بمثابة بديل عن الممر الغير المنفذ الذي كان سائدا في القصر والذي هو فضاء نصف عمومي لأفراد الأسر الساكنة في ذلك الزقاق (الممر الغير النافذ) ، والمعروف حسب المصطلح المحلي بـ "اسكلو" عادة ما يؤدي إلى ثلاثة ديار أو أكثر تربطهم صلة قرابة. هذه الإحاطة (الحائط الدائر على الديار) لها عدة وظائف هامة معمارية واجتماعية ، فيحتمي البيوت من العوامل الطبيعية المختلفة ويصون حرمتها ومحتوياتها ويقسم المساحة الداخلية فيها ليسهل استعمالها في أغراض شتى ، وبذلك لعب الحائط دورا معماريا واجتماعيا في وقت واحد ، كما استعملت المساحة الفارغة منها لدفع النساء والرجال في فصل الشتاء وللتنوم ليلا في فصل الصيف للأبناء الذكور من كل أسرة قرابية تسكن داخل هذا الفضاء كما أنها فضاء للعب الأطفال على مقربة من أنظار أمهاتهم ، ومكان كذلك لمختلف الأشغال اليومية والمناسباتية ، كالنسيج وتكسير التمر (الدق) وعلف الماشية والطحن وهي مجالا مكملا للأفضية الداخلية الأسرية والسطوح وفضاء حميمي لأفراد العائلة لقضاء وقت فراغهم مجتمعين تعزيزا لأواصر المودة وصلة الرحم.

3- المسكن العصري:

3-1- المورفولوجية العامة ومادة البناء:

يحمل هذا النوع من المساكن كل مميزات وسمات الحياة العصرية من مواد البناء والتوزيع المجالي والتجهيز الداخلي لذا سميناه بالمسكن العصري.

مادة البناء الأساسية أصبحت إسمنتية مئة بالمئة ، كما أن هذه المساكن كلها تتموقع خارج القصر أو القصبة ، وقد بدأ هذا النوع من المساكن في العقدين الأخيرين فقط وفيه ما هو مقدم من طرف الدولة و ما هو مبني من طرف الأفراد ذاتهم ، يبنى هذا المسكن في الإحاطة أي في الملكيات الترابية للأسر والأراضي الزراعية أو التجزئات الترابية المقدمة من طرف الدولة افرز هذا النوع من المساكن فئة مهنية جديدة تسمى "البنائين المهرة" les Massons الذين سرحوا من الشركة الوطنية للبناء ، أو الذين كانوا يعملون في مقاولات البناء العمومية من قبل ، وكذا العمال المهنيين (موناغري) Les Maines de ouvres ، كما تميز هذا النوع بالزخرفة والزينة كمواد مكملة له la finition ، مكملة له من زخرفة كالصفائح الأرضية (karlage) وطلاء (Panteura) الجدران. أما الأبواب فهي حديدية وخشبية ويحتوي على نوافذ كبيرة مزخرفة. ولقد كان لهذه المواد الحديثة اثر على حجم البيت وتركيبه الداخلي وكذلك ظهور نوع من تقسيم العمل والتخصص لكل فرد في صناعة قطع المادة المستعملة في البناء مما أدى إلى ظهور مؤسسات توجد تقريبا في كل قصر الآن تنتج مواد البناء وتجهيزاته مثل اللبن الأسمنتي (Parpa) وفئة مختصة في صنع خرسانة من هذا النوع من المساكن وتغطيته (الضالة) حتى طرق بناء هذا المسكن لم تعد تعتمد على الوسائل التقليدية واستبدلت بوسائل البناء العصرية ، فانفتح هذا النوع من المساكن على تكنولوجيا البناء وتقنياته الحديثة كأدوات الحفر والعجن ، والتعامل معها ، مكان الوسائل التقليدية والسواعد العضلية ، أدى إلى غياب التعاون إنشاء البناء المعروف بـ "التويضة" أو "الدالة" ، فكان له الأثر البالغ في المجتمع القصورى وبناءه الاجتماعي.

تستغرق مدة بناء هذا المسكن سنة أو سنتين وقد تزيد عن ذلك بسنوات حسب المقدرة المادية للأسرة أو الفرد وإرادته ، وليس لإرادة الجماعة وإكراهاتها. ففي السابق كان الشباب المقبل على الزواج يستطيع بناء مسكنه في ظرف شهر أو شهرين لأن كل أفراد العشيرة يتعاونون في بناءه ذكورا وإناث وبالمواد المحلية المتوفرة (الطين، وجذوع النخيل) أما الآن فقد أصبحت مواد البناء كلها مجلوبة من أماكن بعيدة عن المنطقة ، والجماعة التي تبني المسكن متخصصة وليست هي الجماعة الأسرية مثلما في السابق أو الجماعة القروية.

إن انتقال عملية البناء من الأسرة والجماعة القروية في المساكن الطينية إلى المؤسسات الحديثة كمؤسسة إنتاج "اللبن" مثلاً كان له الأثر البالغ على البناء الاجتماعي عامة والبناء الأسري على وجه الخصوص مادام عمل جماعة الأسرة له دلالاته (التضامن العائلي، التعاون العائلي) ، فقد عوض بعلاقات وبنى اجتماعية جديدة تتمثل في طبقة عمالية وأخرى مالكة لوسائل الإنتاج ، كما انه عزز من حرية الشباب (الأولاد) والانفلات من السيطرة الأبوية وذلك بعدم التبعية لمواد البناء المحلية التي هي في الأصل ملكية جماعية (جزوع النخيل) و قطعة الأرض (مكان البناء) ، وذلك ما أكدته لنا شباب في سن السادس والعشرين من العمر في قوله عن استغنائه عن

قطعة الأرض الممنوحة من طرف العائلة والتي هي غالباً ما تكون ملك للعائلة الموسعة ، ومنه فالتخلي عنها يؤدي في آخر المطاف عدم جوار الأب والأعمام وبالتالي التباعد المجالي بين القرابة والواحدة.

3- 2 تجهيز المسكن وتأثيثه: لا يكتمل المسكن هنا بجدران زائد أناس، فلا بد من تجهيزه وتأثيثه لاستكمال بنيته، ونقصد بالتجهيز هنا مدى توفر هذا المسكن على التزويد بشبكة المياه الصالحة للشرب وشبكة التصريف الصحي والكهرباء والغاز والهاتف الثابت.

أما التأثيث هنا فنقصد به التأثيث العصري الذي خصصت له مجالات معينة، كالحزانة العصرية "البيفي" التي تأخذ حيزاً في غرفة الضيوف وكأنها خصصت لذلك وما يوجد بها من تلفاز ومذياع..الخ. وأواني فخارية وزجاجية، وما احتضنته غرفة الضيوف من أرائك وقد يوجد بها مكيف هوائي للتبريد داخل المنزل.

أما الغرفة الثانية يوجد بها كذلك تلفاز وطاولة للأبناء المتدربين، ناهيك عن تأثيث المطبخ العصري بوسائل الطبخ الحديثة والثلاجة، كما حلت مكان آلة النسيج التقليدية (النسج) آلة النسيج الحديثة التي أصبحت مصدر فخر وأداة للتمايز الاجتماعي والمعرفي للنسوة فيما بينهن أكثر منها أداة للخياطة، ومكيف هوائي وبعض الأواني المزخرفة.

أن ظهور تأثيث جديد وتجهيزات عصرية جديدة فرضت مجالات جديدة أساسية خاصة بها والتخلي عن التأثيث التقليدي أدى كذلك إلى اختفاء فضاءات التي كانت خاصة بها مثل "التقمي" و"المطبخ التقليدي" ومخزن أعلاف وأغذية الماشية، وعموماً أن هذا المسكن مجهز وموثق نوعاً ما ويأخذ في الحسبان الجانب الجمالي الزخرفي والفني.

الهوامش:

- 1- القصير عبد القادر، أحياء الصفيح، بيروت دار النهضة، 1993، ص11.
- 2-CHOMBART DE LAUWE, Famille et habitation, Paris1975:CNRS.p05.
- 3 - ثياقة، الصديق، النمط المعماري للمدينة الصحراوية ووظائفه الاجتماعية- مقارنة أنثروبولوجية لقصر تمنطيط- أدرار نموذجاً. رسالة تخرج غير منشورة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، جامعة وهران، 2006، ص159
- 4-LEFBVER, Henries. le droit à la ville suivre de l'espace. Paris: 1974 Entropose.
- 5 - THYSEN, X. des manères d'habiter dene le SAHEL Tunisien. Marseille : 1983CNRS.
- 6-HADJII, EIDjonid. « l'habiter: la spatialisatiom de vie».siences Uhumaines, Constsntie, revue N°17, 2002, P11.23.
- 7 -LAKJAA.Abdelkader. « L'habitat identire, mod d'appropriatiom de l'espace réidetiel en milieu urbaain ».CRASC, revue N02, 1996,17.25.
- 8 - السلطاني خالد.. "العمارة في العصر الأموي"، <http://www.rezgar.com>، تاريخ الاطلاع 24 - 08 - 2005.
- 9 -RAPOPORT.A, pour une anthropologie de la maison, Paris, Ed. Bordas; p42.

10 - سليمان جميلة، دراسات في علم النفس الاجتماعي الفضائي، الآليات النفسية الاجتماعية للمسكن، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع- الجزائر، 2011، ص19.

11- المرجع السابق، ص20.

12-DE LAUWE,C.opcit,p 25.

13-BOUCHANINE , NAVEZ. Habiter la ville marocaine, Paris: L'Harmattan, 1997,p44.

14- عكاشة سامر، " تنظير العمارة وتجربة الحياة اليومية "، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد (248)، 1999، ص ص123.93.

15 - محمود عبد العزيز، أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، وهران: مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية CRASC، 1999، ص141.

16- مقابلة مع إحدى المبحوثين، سنة 2006 بأدرار.

17 - DE LAUWE,C.opcit,p27 .

18- مقابلة مع مبحوث من بمدينة أدرار، سنة 2006.

19- المقابلة مع مبحوث من بمدينة تمنطيط (أدرار). 2006

20 - بن حوتية محمد، قبيلة كنتة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. رسالة تخرج غير منشورة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 1988، ص43.

المراجع والمصادر:

المراجع بالعربية:

1- القصير، عبد القادر. أحياء الصفيح. بيروت، دار النهضة. 1993

2- السلطاني، خالد، "العمارة في العصر الأموي"، تاريخ الإطلاع 24 - 08 - 2005 في الموقع <http://www.rezgar.com>

3- بن حوتية، محمد، قبيلة كنتة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. رسالة تخرج غير منشورة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 1988.

4- ثياقة، الصديق، النمط المعماري للمدينة الصحراوية ووظائفه الاجتماعية- مقارنة أنثروبولوجية لقصر تمنطيط- أدرار نموذجا. رسالة تخرج غير منشورة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، جامعة وهران. الجزائر. 2006

5- سليمان جميلة، دراسات في علم النفس الاجتماعي الفضائي، الآليات النفسية الاجتماعية للمسكن، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع- الجزائر، 2011، ص19.

6- عكاشة، سامر، " تنظير العمارة وتجربة الحياة اليومية "، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد (248)، 123.93.

7- محمود عبد العزيز، أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، وهران: مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية CRASC، 1999، ص141.

المراجع باللغة الأجنبية:

1 -BOUCHANINE , NAVEZ, Habiter la ville marocaine, Paris: L'Harmattan 1997.

- 2- BOUCHANINE, NAVEZ. Citadinité : Le cas des villes Marocaines, IN LUSSAULT. M et SIGNOLES.P, Citadinité en questions, Tours: Urbama, FASCICULE de recherche, 1996.
- 3- CHOMBART DE LAUWE , Famille et habitation. Paris:CNRS, 1975.
- 4- LAKJAA.Abdelkader, « L'habitat identire, mod d'apropriatiom de l'espace réidetiel en milieu urbaain ».CRASC, revue N02,17.25,1996.
- 5- LEFBVER, Henries, le droit à la ville suivre de l'espace. Paris: Entropose, ; 1974.
- 6-Rapoport.A ,Pour une anthropologie de la maison, Paris,Ed. Bordas.
- 7- HADJII, EIDjonid, « l'habiter: la spatialilisiatiom de vie»,siences Uhumaines, Constsntie, revue N°17, P11.23, 2002.
- 8- THYSEN, X, des manères d'habiter dene le SAHEL Tunisien. Marseille : CNRS, 1983.

دور التكوين في علم النفس في تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي

دراسة على طلبة علم النفس ببعض جامعات الغرب الجزائري

أ/ تواتي عبد الغني حياة، د/ بشلاغم يحيى - جامعة وهران

ملخص:

هدفت الدراسة إلى التعرف على دور التكوين في إختصاص علم النفس في تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي، حيث اشتملت عينة الدراسة على (523) طالب وطالبة للاختصاصين الحقوق وعلم النفس، اخترناها بطريقة عشوائية طبقية، من بعض جامعات الغرب الجزائري مستغانم تلمسان، سعيدة، تيارت، انتهجنا المنهج الوصفي واستخدمنا طريقة مسحية، لجمع النتائج قمنا ببناء مقياس المهارات الحياتية المتعلقة بالطالب محل الدراسة، تم إخضاعه للخصائص السيكومترية، احتوى على (84) فقرة موزعة على ثمانية مهارات حياتية. ولمعالجة النتائج استخدمنا الوسائل الإحصائية المناسبة لمعرفة الفروق الحقيقية بين المتوسطات، بعد التحليل الإحصائي، استنتجنا بأن للتكوين في إختصاص علم النفس دور إيجابي في تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي.

الكلمات المفتاحية: التكوين، إختصاص علم النفس، المهارات الحياتية.

Summary :

The object of study is to identify the role of formation in psychology in the development of certain life skill in university's students.

The studies carried on a sample of (523) students divided into two specialty as following.

measure the most important life skills related to the student, then have submitted the tool psychometric characteristics (honesty and reliability and objectivity finally reuse built a tool consists of 84 issues in eight life skills to cope with these results, we use appropriate statistical methods such as (arithmetic mean, and standard deviation, and coefficient of simple test pearson correlation ; student test (t-test) and test (analysis of variance) unidirectional and tukey test for calculating the least significant difference of means.

After statistical analysis, we concluded that formation in psychology games made positive role in the development of certain skills in the student's life of the university. And so the study with some recommendations mention the strengthening of formation in psychology in the service of life skills among students as the skills of planning and time management skills relationship and communication, and the social skills, the work with the group, the psychology and personal self-awareness, thinking and problem solving, identification and patriotism, the mastery of language, scientific and the technology.

Key-words : formation, psychology, life skills.

مقدمة ومشكلة البحث:

يتميز المجتمع المعاصر بديناميكية هائلة وتغير متسارع في جميع المجالات الاجتماعية والنفسية الثقافية والاقتصادية وغيرها، بقدر ما يزداد تسارع هذا التغيير يزداد الاهتمام بالمستقبل، والتغيير ظاهرة عامة وشاملة تصيب الشعوب والمجتمعات مع الاختلاف في الدرجة والشكل، هدفها الأسمى هو الاهتمام بالإنسان والسعي إلى إبعاده بأعلى قدر ممكن. والسعي إلى تكيفه مع المجتمع المتغير وتربيته بحيث يستطيع أن يتأقلم مع المتغيرات الحاصلة، ولتحقيق هذه الأخيرة يستوجب على الفرد مزاولة دراسته بالجامعة، ولهذا يجب أن تتكيف الجامعة مع هذا التغيير الحاصل في تكوينها، والجامعة تعتبر مركز العملية التعليمية والتكوينية لما لها من أهمية، حيث يذكر عبد العزيز الغريب (2005) (أهمية الجامعة بأنها الأساس الأول لتطوير أي مجتمع في جميع مظاهره وقطاعاته، فموضوعات التعليم لها قيمة كبيرة في حياة الأمم، لأنها تتصل بتكوين النفوس وبناء العقول. إذا فالتعليم الجامعي يتميز بأهمية خاصة مع تضاعف حجم المعرفة وازدياد معدل نموها تصبح الجامعة لها أهمية كبيرة، فعليها أن توجه عناية أكبر للبحث العلمي في شتى فروع ومجالات العلم، وأن تولي مزيد من العناية لإعداد كفاءات بشرية متخصصة على مستوى العصر وأن تقوم بنشر العلم وحفظ التراث الثقافي ونقله عبر الأجيال). لا يقتصر العمل في الجامعة على الكتب والوثائق فحسب، وإنما على تكوين و تدريب أبناء المجتمع، فنشاط الجامعة ليس فقط الدراسات النظرية وإنما يمتد إلى الدراسات التطبيقية العالية، إذا فإن الجامعة لا تسعى إلى تطوير العلم من أجل العلم والوصول إلى الحقائق العلمية فحسب، وإنما امتدت هذه الأهمية لتشمل النهوض بالمجتمع في جميع جوانبه والإسهام في حل مشاكله في جميع صورته وتحقيق الرفاهية والرخاء لأبناء هذا المجتمع. "التكوين هو نشاط هادف إلى توفير فرص اكتساب خبرات جديدة تزيد قدرات الطالب على أداء عمله من خلال تنمية قدراته وملكاته الذاتية وذلك بتلقيه أفكار ومهارات يتطلبها الأداء الفعال" (عزيل، 2004: 11)، فهذا يجب الاهتمام بالجانب التكويني للطلاب الجامعي لأن العملية التكوينية في الجامعة مهمة ولديها أهداف أساسية التي استخلص بعض نماذجها الباحث موزسكي (1988 MOSKI) مختص في علم النفس الاجتماعي، والتي ذكرت من قبل عمور عمر في دراسته: "بأنها قابلية الاكتساب والتعلم لدى الفرد، ونقل هذه المعلومات والمكتسبات إلى أفراد آخرين، والتكوين كحافز، بحيث الفرد يؤثر ويتأثر مع تدخل قدراته الخاصة، والتكوين كتطور ذاتي، وهنا يتطلب الحضور الذاتي للفرد للشروع في عملية التعلم، والتكوين كاتصال (بين المكون والمتكون)، وهنا يكون التعاون والتوافق في الآراء وذلك وفقا لقدرات المتكون، والتكوين كمغير للسلوك، بحيث أن الفرد يؤثر ويتأثر من خلاله وذلك بهدف تنمية شخصيته، وكذا إطلاق العنان لإمكاناته وقدراته الخاصة للوصول به إلى الفعالية" (2009). ولقد أجريت دراسات خلال السنوات الماضية عن التكوين الجامعي مثل دراسة مريم صالح بوشارب (2001)، التي أثبتت بأن التكوين لم يكن له دور كبير في تحقيق أغراضه، الدراسة كانت تحت عنوان "التكوين الجامعي بين الأهداف والواقع" دراسة ميدانية بجامعة عنابة، هدفت إلى معرفة إذا ما كان نمط التكوين السائد حاليا في الجامعة الجزائرية مؤهل لإنتاج الكفاءات المناسبة لتحقيق أهدافها، والكشف عن حقيقة التكوين في الجامعة الجزائرية وأهدافه

الضمنية من خلال تحليل العناصر المكونة له واليات عملها، خلصت الدراسة إلى أن الاعتماد على التدريس الكلاسيكي رغم عدم تماشيه مع التطورات المتلاحقة للمعرفة العلمية، وأساليب التقويم تسعى بالدرجة الأولى إلى قياس واختبار (الذاكرة) الطالب بدلا من تنشيط القدرات الفكرية والعقلية. ودراسة أخرى أجريت على طلبة ما بعد التدرج مثل دراسة ياسمين خدنة (2007)، تحت عنوان: "واقع تكوين طلبة الدراسات العليا في الجامعة الجزائرية" دراسة حالة جامعة منتوري قسنطينة، التي هدفت إلى تشخيص عملية تكوين طلبة الدراسات العليا من خلال التعرف على أهمية برامجهم التعليمية وبحوثهم العلمية، ومعرفة إذا ما كانت الجامعة الجزائرية قادرة على تكوين إطارات فعالة قادرة على مواكبة ما تنتجه جامعات العالم المختلفة من إطارات وكفاءات علمية، تقدم لبلدانها الإنتاج الفكري الغزير والاختراع والابتكار، وتوصلت أهم نتائج المحصل عليها أن الجامعة الجزائرية لا تزال في طور النضج، فيما يحظى وضع وسيطرة برامج ومقررات دراسية لطلبة الدراسات العليا في التدرج الأول.

من خلال ما ذكر يمكننا أن نبلور دور الجامعة بالدرجة الأولى في الاهتمام بتكوين الطالب الناجح الذي يحتاج إلى الدعم بحكم الدور الكبير الذي ينتظره في المجتمع (التطوير، البناء، العطاء، الخدمة والعمل، الحماية.... الخ)، لأنه من أكثر الشرائح الاجتماعية تفاعلا مع التغيير الحادث في المجتمع في كافة المجالات الحياتية. وأن يكون التعليم الجامعي مبني على حل المشكلات التي تواجه الطالب في حياته اليومية، وهذا من خلال إدراج المهارات الحياتية في المناهج التعليمية، وأن نربي فيه بعض المهارات الحياتية، وفي هذا الخصوص يذكر عبيد عن المهارات الحياتية: "بأنها مجموعة من المهارات التي تمثل إطار العمل يركز من خلال توظيفها على ما نريده من الحياة، وكيف نضع أهدافها، ونوظف المهارات في العمل مع إنجاز الأهداف المساعدة على اكتشاف القيم وتوجه نحو جعلها جزءا من حياتنا اليومية، والإسهام في مواجهة تحديات التغيير في الحياة، وتحديد الاتجاه الصحيح نحو إنجاز الأهداف لبناء مستقبل أفضل" (2008: 21). ويقول أحمد حسين "بأن إدماج المهارات الحياتية في المناهج الدراسية يجعل المنهج مشوقا للمتعلم والمعلم، ومتوازنا، ومتكاملا في شقه النظري والعملية. مما يعود في الأخير بالنفع على الفرد والمجتمع، هذا بالإضافة لتطبيقاتها الواسعة ومزاياها التي تعد المطلب الأكبر في سوق العمل اليوم، وفي ظل متطلبات الحياة العصرية شديدة التغيير، ناهيك عن تغيير تركيبة الأسرة والتفكك الذي طالها، بالإضافة على عجز الوالدين في تحقيق التنشئة الاجتماعية المناسبة، زيادة على الفهم الجديد لاحتياجات الشباب دون أن ننسى التغيير الاجتماعي والثقافي المتسارع باضطراد. (عبد المعطي، 2007: 14). ولهذا على التكوين الجامعي أن يكون سبب من الأسباب التي تساعد في إسعاد هذا المجتمع بتكوين أجيال المستقبل الذين بدورهم هم قادة ومسирون العالم الداخلي للمجتمع والمرآة العاكسة في الخارج. وإذا كان الغرض الرئيسي من العملية التكوينية هو إحداث تغييرات معينة على الطلبة، فينبغي أن تتبين إذا كانت هذه التغييرات فعلا حدثت أم لا، من خلال خمسة سنوات من التربص أي الدراسة الجامعية والتكوين الذاتي واكتساب مهارات على المستوى السلوكي والمعرفي والوجداني وغيرها.

فالدارس والمهتم بقضايا التكوين الجامعي يلاحظ الكم الهائل من المعلومات والمعارف التي يتلقاها المتكون خلال مساره التعليمي، من مقاييس نظرية و تطبيقية يكون الهدف منها تنمية المكتسبات الخاصة بالتخصص، التي تعمل كذلك على تأثير في شخصيته من خلال إكسابه جملة من السلوكيات والعادات النابعة من عمق التخصص في حد ذاته، وهذا ما أكدته دراسات أجريت عن التكوين في إختصاص علم النفس واكتساب المهارات الحياتية مثل دراسة أسامة عبيدات و سائدة سعاد (2010)، تحت عنوان درجة اكتساب المهارات الحياتية لدى طلبة الجامعات

الأردنية الحكومية والخاصة والمقارنة بين طلبة إختصاص العلوم والتخصصات الإنسانية، وأظهرت النتائج بأن كلا الاختصاصين يكتسب مهارات الحياتية (التكنولوجيا والاتصال والتحكم في اللغات والإبداع)، ولكن التفوق في اكتسابها لصالح التخصصات الإنسانية. ويبقى تأثير هذا التكوين على المخرجات الحياتية التي يواجهها المتكون في المجتمع، أما في الدراسة الحالية نود تسليط الاهتمام باختصاص علم النفس الذي عليه أن يهتم بإكساب و تنمية المهارات الحياتية للطلاب، لأن هذا الاختصاص له علاقة كبيرة بمجالات مختلفة في الحياة منها النفسية، والاجتماعية، والتواصلية والثقافية، وغيرها من المجالات المهمة في حياة الإنسان، و من هذا المنطلق جاءت فكرة الدراسة الحالية التي نحاول من خلالها معرفة دور التكوين في اختصاص علم النفس على تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي.

ومن خلال هذا العرض يمكننا طرح جملة من الأسئلة التي نبدأها:

❖ ما هو دور التكوين في اختصاص علم النفس في تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي حسب متغير المستوى، طلبة (سنة أولى جدع مشترك و الثالثة ليسانس والثانية ماستر) ؟

❖ ما هو ترتيب المهارات الحياتية عند طلبة عينة الدراسة ؟

- الفرضيات:

❖ للتكوين في علم النفس دور ايجابي في تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي حسب متغير المستوى، طلبة (سنة أولى جدع مشترك والثالثة ليسانس والثانية ماستر) لصالح طلبة السنة الثانية ماستر.

❖ تنمي المهارات الحياتية عند الطالب في اختصاص علم النفس كلما استمر في التكوين، حيث يحتل المرتبة الأولى في جميع المهارات عند طلبة السنة الثانية ماستر.

- أهداف البحث:

❖ معرفة دور التكوين في اختصاص علم النفس في تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي حسب متغير المستوى، طلبة (سنة أولى و الثالثة ليسانس والثانية ماستر) .

❖ معرفة الترتيب الذي تأخذه كل مهارة حياتية في الاختصاص علم النفس حسب متغير سنوات التكوين.

- أهمية البحث:

تتلور أهمية البحث في الوقوف على دور التكوين في علم النفس في تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي، وما يتلقاه من معارف ومعلومات التي تعمل على التأثير في شخصيته وفي أفكاره وسلوكه كعنصر متكون يتأثر بما يدور في حجرة الدراسة. إن هذه الدراسة يمكن ترتيب أهميتها في نقاط يمكننا أن نلخصها على النحو التالي :

- في حدود مطالعتنا و ما جمعناه من دراسات سابقة نعتقد أنه لا توجد دراسة في الجزائر تناولت مثل هذه الدراسة المتمثلة في دور التكوين في اختصاص علم النفس في تنمية بعض المهارات الحياتية لدى طلبة المرحلة

الجامعية و التي تكمن أهميتها في فتح مجال لدراسة مثل هذه المواضيع ، و التي يمكن أن تكون مكتملة ومدعمة للدراسة الحالية.

- تفيد في إعادة نظر المتخصصين في توجيه طلبة علم النفس أي قبل توجيههم لهذا التخصص بالذات، يجب إخضاع الطلبة الذين يودون الدراسة والتكوين في هذا التخصص إلى اختبار يؤهلهم لهذا. لأن المختص النفسي أو المرشد يجب أن تتوفر فيه صفات وميزات معينة لا يحتاجها مختص في مجال آخر.

مصطلحات البحث:

التكوين الجامعي: هو المسار الدراسي الذي يتخذه الطالب خلال ثلاث سنوات الأولى (ليسانس) والخمسة سنوات من الدراسة (ماستر).

الاختصاص: هو الميزة التي يكتسبها الطالب من خلال المسار الدراسي النظري والتطبيقي الممارس خلال مرحلة التكوين.

الطلبة:

أ.الطلبة الجدد: هم طلبة المسجلين في السنة الأولى جدع مشترك.

ب.الطلبة المقبلين على التخرج شهادة الليسانس: هم كل الطلبة الذين درسوا ثلاث سنوات بالجامعة والمقبلين على تحصيل شهادة ليسانس في اختصاصات محل الدراسة.

ج.الطلبة المقبلين على التخرج شهادة الماستر: هم كل الطلبة الذين درسوا خمسة سنوات بالجامعة والمقبلين على تحصيل شهادة الماستر في اختصاصات محل الدراسة.

المهارات الحياتية: هي مجموعة من السلوكيات الايجابية التي يكتسبها الفرد من خلال حياته وتتمى من خلال تكوينه والتي تساعده على التكيف مع متطلبات الحياة المختلفة والمواجهة المشكلات اليومية.

مهارات التخطيط وإدارة الوقت: هي قدرة الطالب على التخطيط السليم للحياة وتقييم النتائج المستقبلية وتحليلها.

مهارات الاتصال والتواصل: قدرة الفرد على استخدام اللغة بشكل سليم للتواصل مع الآخرين.

مهارات الاجتماعية والعمل مع الجماعة: هي تكوين علاقات مع الآخرين مبنية على الاحترام والتعاون.

مهارات النفسية والوعي الذاتي: هي القدرة على التكيف وتحمل الضغوط، والتعايش مع الانفعالات والتعامل مع المواقف المختلفة والاعتماد على الذات.

مهارات العلمية والتكنولوجية: هي قدرة على التحكم في الوسائل التكنولوجية الحديثة مثل وسائل الإعلام الآلي.

مهارة الهوية وحب الوطن: هي حب الوطن والانتماء له والحفاظ عليه وحمايته والدفاع عنه.

مهارة التحكم في اللغة: هي التحكم في اللغة العربية واللغات الأجنبية، قراءة وكتابة.

مهارات التفكير وحل المشكلات: هي قدرة الطالب على تحديد المشكلات واقتراح حلول مناسبة لكل مشكلة في أقل وقت وبأقل التكاليف المادية والمعنوية.

الدراسات السابقة:

1- الدراسات التي تناولت التكوين الجامعي:

دراسة يسمينه خدنة، سنة (2007)، تحت عنوان "واقع تكوين طلبة الدراسات العليا في الجامعة الجزائرية" دراسة حالة جامعة منتوري قسنطينة. هدفت الدراسة إلى تشخيص عملية تكوين طلبة الدراسات العليا من خلال التعرف على أهمية برامجهم التعليمية وبحوثهم العلمية. عينة الدراسة تمثلت في طلبة التدرج وما بعد التدرج، موزعين على مختلف التخصصات، حجم العينة (142) طالب (7 طلاب في كل مجموعة)، اعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي التحليلي، وأدوات جمع البيانات الملاحظة (الملاحظة بالمشاركة)، المقابلة، تحليل المادة المكتوبة، الاستمارة المكونة من (30) سؤال (أسئلة مفتوحة ومغلقة)، قسمت إلى أربعة محاور، أهم النتائج المحصل عليها: أن الجامعة الجزائرية لا تزال في طور النضج، فيما يحظى وضع وسيطرة برامج ومقررات دراسية لطلبة الدراسات العليا في التدرج الأول، الظروف المحيطة بالطلّاب لا تساعده على تحسين مستواه المعرفي.

دراسة أسماء هارون، سنة (2009)، تحت عنوان " دور التكوين الجامعي في ترقية المعرفة العلمية، تحليل نقدي لسياسة التعليم العالي في الجزائر في ظل الإصلاح الجديد نظام "LMD"، عينة الدراسة تمثلت في طلبة السنة الثانية و الثالثة LMD و أساتذة جامعة لثلاث كليات بقالة، و تم اختيارها بطريقة عشوائية، تمثل حجم العينة في 10 ٪ من المجتمع الأصلي، (250) طالب و(66) أستاذ. استخدمت المنهج الوصفي دراسة مسحية استعانت بأدوات جمع البيانات الملاحظة المباشرة، المقابلة، الاستمارة التي تكونت من (19) سؤال خاصة بالطلّاب، و (20) سؤال خاصة بالأساتذة. نذكر أهم النتائج الذي توصلت إليها هذه الدراسة: تبين الدور الكبير الذي يلعبه التكوين الجامعي في تحقيق أهداف المجتمع التتموية، حيث يعتبر معيار تقدم المجتمع من خلال ما يقدمه من إطارات ذوي مهارات تأهلهم لتلبية متطلباته الاقتصادية والاجتماعية.

2- الدراسات التي تناولت المهارات الحياتية :

دراسة مريم السيد في سنة 2006، تحت عنوان: "حاجات الطلبة جامعة الإسراء على المهارات الحياتية". هدفت الدراسة إلى التعرف على حاجات طلبة جامعة الإسراء من المهارات الحياتية، عينة الدراسة تكونت من 480 طالب وطالبة، اختيرت بطريقة عشوائية، اعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي التحليلي. وكانت النتائج المتحصل عليها أن ترتيب محاور حاجات طلبة جامعة الإسراء جاء على النحو التالي: محور الهوية، الصحة، الاقتصاد، التكنولوجيا، علاقات اجتماعية بيئية. لا يوجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى $\alpha = 0.05$ على جميع المحاور باستثناء محور العلاقات الاجتماعية.

دراسة عمر عيسى عمور، سنة (2009)، تحت عنوان: "إسهامات بعض أساليب التدريس الحديثة في التربية البدنية على تنمية بعض المهارات الحياتية لدى طلاب المرحلة الجامعية". هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على إسهامات بعض أساليب التدريس الحديثة في التربية البدنية (التدريبي، الزوجي) على تنمية بعض المهارات الحياتية، وذلك في لعبتين جماعيتين (كرة القدم، كرة الطائرة)، عينة الدراسة اشتملت على (76) طالبا جديدا اختيروا بطريقة عشوائية من أصل (275) طالبا من السنة الأولى ليسانس، المنهج المستخدم هو المنهج التجريبي. أهم النتائج المحصل عليها أن للأسلوبين أثر ايجابي على تنمية المهارات الحياتية محل الدراسة وكانت النتائج في صالح

القياسات البعدية في كل لعبة على حدي. ووجود فروق دالة إحصائية بين الأسلوب التدريبي والأسلوب الزوجي في تنمية المهارات البدنية والمهارية بعديا لصالح الأسلوب التدريبي والأسلوب الزوجي، ووجود فروق ذات دلالة إحصائية بين أسلوب التدريبي والأسلوب الزوجي في تنمية مهارات الاتصال والتواصل، والمهارات الاجتماعية والعمل الجماعي.

- **دراسة أسامة عبيدات وسائدة سعادة (2010)**، تحت عنوان: "درجة اكتساب المهارات الحياتية لدى طلبة الجامعات الأردنية الحكومية والخاصة، هدفت هذه الدراسة لقياس درجة اكتساب المهارات الحياتية لدى طلبة الجامعات الأردنية الحكومية والخاصة، تكون مجتمع الدراسة من طلاب وطالبات السنة الرابعة في الجامعات الحكومية والخاصة الأردنية، وقد تم اختيار عينة قصديه من جامعتين واحدة حكومية والأخرى خاصة هما الجامعة الهاشمية وجامعة الزرقاء الخاصة وعينة الدراسة تمثل حجمها (228) طالبا، من طلبة السنة الرابعة في جامعة الزرقاء الخاصة والجامعة الهاشمية في الأردن (120 طالب و108 طالبة). المنهج المستخدم المنهج الوصفي، أظهرت النتائج أن معدل اكتساب المهارات الحياتية متقارب لدى كل من طلبة الجامعات الحكومية والخاصة في الأردن وكانت نسبة اكتساب المهارات الذي طلبة الجامعة الخاصة 70.75 % ونسبة 67.5 % لدى طلبة الحكومية، وقد أظهرت النتائج اختلافات في مستوى اكتساب المهارات حسب الجنس ونوع الكلية (علمية، أدبية)، يعزى السبب في ذلك لتوجيهات صانعي سياسة التعليم العالي نحو تحسين نوعيته و جعله أكثر ارتباطا بالاقتصاد المحلي، خرجت الدراسة ببعض التوصيات نذكر أهمها دمج التدريب العملي على المهارات الحياتية مع الخطة الدراسية لطلبة البكالوريا واعتبارها متطلبا للتخرج.

تعليق على الدراسات السابقة وأوجه الاستفادة منها:

من خلال استعراض الدراسات السابقة التي تناولت المهارات الحياتية يمكن الإشارة إلى أن هذه الدراسات التي سبق عرضها قد أجريت على عينات مختلفة من طلبة المرحلة الأساسية أو المرحلة الثانوية، وطلبة الجامعات، ومن مناطق مختلفة منها الحضرية أو الريفية، واختيرت بطريقة عشوائية، استخدام الأداة الأساسية في جمع البيانات وفي اغلب الدراسات هي الاستمارة، لقد توافقت الدراسة الحالية مع اغلب الدراسات السابقة في اختيار العينة والأداة المناسبين للدراسة. وقد اختلفت محاور الدراسات السابقة فيما بينها ولكنها ركزت على محاور تهتم بالمرحلة العمرية المدروسة، والتي تحتاجها وحسب هدف الدراسة.

إذا الدراسات السابقة ساهمت بالكثير في الدراسة الحالية، والمساعدة وإعطاء الانطلاقة لهذه الأخيرة نذكرها بتسلسل كالتالي:

- الفهم العميق لمشكلة الدراسة والوقوف على مستجداتها.
- ندرة تناول دور التكوين في اختصاص علم النفس و إكسابه المهارات الحياتية.
- كيفية اختيار عينة الدراسة، وكيفية التعامل معها.
- اختيار الأدوات المناسبة لجمع البيانات (الاستمارة).
- تحديد المنهج المستخدم المناسب لهذه الدراسة.
- انتقاء أفضل الأساليب الإحصائية لمعالجة البيانات قصد مناقشة نتائج البحث.

الإجراءات الميدانية للدراسة:

المنهج:

تم استخدام المنهج وصفي في دراسة مسحية مقارنة، على عينة طبقية من مستويات مختلفة تمثل السنة الأولى، والسنة الثالثة ليسانس، والسنة الثانية ماستر.

المجتمع والعينة:

المجتمع : مجتمع البحث هو طلبة جامعيين تخصص علم النفس طلبة جدد (سنة أولى علوم اجتماعية جدد مشترك)، وطلبة مقبلين على التخرج سنة الثالثة ليسانس علم نفس والسنة الثانية ماستر علم النفس في مختلف التخصصات المفتوحة، وقد اعتمدنا على أربعة جامعات من الغرب الجزائري اختيروا بطريقة عشوائية من بين الجامعات الأخرى، وهم على التوالي: جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة، جامعة بن خلدون تيارت. بمجموع 2593 من اختصاص علم النفس.

العينة: أجرينا الدراسة على عينة من طلبة عددهم الإجمالي (523)، تم اختيارها من مجتمع الأصل بالشكل التالي: (523) طالبا بنسبة 20.16% من مجموع المجتمع الأصلي (2593).

حدود الدراسة :

1- **الحدود المكانية :** لقد أجرينا الدراسة ببعض جامعات الغرب الجزائري (تلمسان أبو بكر بلقايد، جامعة مستغانم عبد الحميد بن باديس، جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة، جامعة ابن خلدون تيارت).

2- **الحدود الزمنية :** لقد أجرينا الدراسة من نهاية السنة الدراسية 2012/2013 إلى غاية نهاية السنة الدراسية 2013/2014.

3- **الحدود البشرية :** أجرينا الدراسة على عينة من طلبة السنة أولى (جدة مشترك العلوم الاجتماعية) طلبة السنة الثالثة (علم النفس)، والسنة الثانية ماستر (علم النفس)، عددهم الإجمالي 523 طالبة وطالب.

- أداة الدراسة:

خطوات بناء الأداة (الاستبيان): قبل الشروع في بناء الأداة قمنا بالإطلاع على كل ما من شأنه يساعدنا في فهم الموضوع وبعيننا على تحديد أبعاده، وهذا من خلال الأدبيات والمراجع العلمية والكتب التي تناولت موضوع المهارات الحياتية، وأهميتها، وأنواعها. ونخص بالذكر كتاب عمران تغريد وآخرون مهارات الحياتية 2001. وكتاب أحمد حسن معطي ودعاء محمد مصطفى المهارات الحياتية 2007. وكتاب فهم مصطفى محمود المهارات الحياتية في المدرسة الثانوية ... والطريق إلى صناعة شخصية عصرية التربية 2005. كما اعتمدنا على تصنيف المنظمات العالمية منها منظمة اليونيسيف 2005. وتصنيف منظمة الصحة العالمية 1993. تصنيف مركز تطوير المناهج والمواد التعليمية التابع لوزارة التربية والتعليم بمصر 2000 القضايا والمفاهيم المعاصرة في المناهج الدراسية مطابع الأهرام. وتصنيف وزارة التربية والتعليم المملكة العربية السعودية الغانم غانم وسعد وآخرون. الدليل الإجرائي لتألف الكتب الدراسية. والتطوير التربوي 1426 هـ / 2005. و تصنيف وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية 2003 الإدارة العامة للتدريب والإشراف التربوي. وكما جاء في المجلات العلمية وخاصة دراسة صادق خالد حايك وزيادة محمد أرمل غادة حساونة الأردن مؤتمر الإبداع الرياضي الأردن 2011 المهارات الحياتية القائمة على

الاقتصاد المعرفي المكتسبة من تعلم مناهج الجميز في كلية التربية البدنية والرياضية بالجامعة الأردنية 2007. أسامة محمد عبيدات، سائدة تيسير سعاد المجلة العربية لضمان جودة التعليم الجامعي العدد 05 السنة 2010 المهارات المتوفرة في مخرجات التعليم العالي الأردني بما يتطلبه سوق العمل المحلي. وكذا بعض الرسائل الجامعية وخاصة رسالة عمور عمر تحت عنوان إسهامات بعض أساليب تدريس التربية البدنية والرياضية الحديثة في تنمية بعض المهارات الحديثة لدى طلبة المرحلة الجامعية 2008 / 2009 جامعة الجزائر 03. ورسالة نضال أحمد إسماعيل الغفري تحت عنوان تقويم منهاج التربية الرياضية في الجامعة الأردنية في ضوء المهارات الحياتية ودرجة اكتساب الطلبة لهذه المهارات جامعة العلوم الإسلامية العالمية كلية الآداب والعلوم الإنسانية والتربوية قسم العلوم التربوية.

بعد الإطلاع على أهم المراجع التي تم عرضها قمنا بدراسة تحليلية وترتيب لأهم المهارات الحياتية التي يجب أن تتوفر في الطالب الجامعي، تم عرض المحاور على مجموعة من المحكمين لإبداء الرأي في محاور الأداة وهذا لهدف:

- اختيار وتحديد المحاور المناسبة للدراسة الحالية.
- حذف المحاور غير مناسبة.
- تحديد عدد العبارات أو البنود الخاصة بكل محور.

ليتم تحديد محاور المهارات الحياتية للطالب الجامعي على النحو التالي:

- مهارات الاتصال و التواصل ، مهارات التفكير ، مهارات الاجتماعية و العمل مع الفريق، المهارات النفسية، مهارات الهوية ، المهارات العلمية و التكنولوجية ، مهارات الوعي الذاتي، مهارة التخطيط، مهارات التحكم في اللغات.

- الخصائص السيكومترية الأداة الدراسة:

تم تطبيق الأداة على عينة قدرت ب 120 طالب جامعي من اختصاص علم النفس والحقوق، طلبة جدد وطلبة مقبلين على التخرج (السنة الثالثة ليساناس والسنة الثانية ماستر) لكلا الاختصاصين.

- الصديق البنائي

الجدول رقم 01 التالي يمثل صديق أداة القياس ككل

الرقم	المحاور	معامل الارتباط	مستوى الدلالة	الدلالة
01	مهارات التخطيط و إدارة الوقت	,719**	0.01	ج
02	مهارات الاتصال والتواصل	,549**	0.01	ج
03	المهارات الاجتماعية و العمل مع الجماعة.	,749**	0.01	ج
04	المهارات النفسية و الوعي الذاتي	,839**	0.01	ج
05	مهارات التفكير وحل المشكلات	,812**	0.01	ج
06	المهارات العلمية و التكنولوجية	,841**	0.01	ج
07	مهارات الهوية و حب الوطن	,572**	0.01	ج
08	مهارات التحكم في اللغات	,320**	0.01	ج

-	-	1	الأداة ككل	-

بعد حساب اتساق البنود مع المحاور والمحاور مع أداة القياس تم حذف البنود غير المتسقة مع محاورها وبعد أن كان الاستبيان يضم 96 بنداً أصبح الأداة ككل: 84 بنداً موزعاً على الآتي:

الجدول رقم 02 يمثل المحاور وعدد البنود قبل وبعد دراسة الأسس العلمية

المحور	عدد الفقرات قبل الأسس العلمية	عدد الفقرات بعد الأسس العلمية
مهارة التخطيط وإدارة الوقت	(12) بند	(10) بنود
مهارات الاتصال والتواصل	(12) بند	(10) بنود
مهارات الاجتماعية والعمل مع الجماعة	(12) بند	(10) بنود
مهارات النفسية والوعي الذاتي	(12) بند	(12) بند
مهارات التفكير وحل المشكلات	(12) بند	(09) بنود
مهارات العلمية والتكنولوجية	(12) بند	(12) بند
مهارات الهوية وحب الوطن	(12) بند	(10) بنود
مهارات التحكم في اللغات	(12) بند	(11) بند
مجموع البنود	96 بنداً	84 بنداً

- ثبات أداة الدراسة:

تم حساب ثبات أداة القياس من خلال طريقتين هما:

أولاً- معامل ألفا كرونباخ: 0.93

ثانياً- طريق التجزئة النصفية: 0.82

وبعد معادلة التصحيح يصبح: 0.90

بعد الانتهاء من تقدير صدق وثبات تم الاحتفاظ بالبنود التي أظهرت اتساق داخلي جيد ،

بعد الانتهاء من الأسس العلمية تحصلنا على الأداة في شكلها النهائي تحتوي على ثمانية محاور 8، وأربعة وثمانون بند (84)، 1- مهارات التخطيط وإدارة الوقت 2- مهارات الاتصال والتواصل، 3- المهارات الاجتماعية والعمل مع الجماعة، 4- المهارات النفسية والوعي الذاتي، 5- مهارات التفكير وحل المشكلات 6- مهارات الهوية وحب الوطن، 7- المهارات العلمية والتكنولوجية - 8 مهارات التحكم في اللغات.

الجدول رقم 03 يمثل مفاتيح الإجابة للأسئلة الأداة

بدرجة كبيرة جداً	بدرجة كبيرة	بدرجة متوسطة	بدرجة قليلة	بدرجة قليلة جداً
05 قلا	04 قلا	03 قلا	02 قلا	01 قلا

- الأساليب الإحصائية المستعملة:

- بعد جمع النتائج ، قمنا بتفريغها ومعالجتها إحصائياً مستخدمين في ذلك:
- المتوسط الحسابي والانحراف المعياري ومعامل الارتباط البسيط بيرسون.
- اختبار (T TEST) لدلالة الفروق بين مجموعتين مستقلتين أكثر من 30 فرداً
- واختبار (ANOVA) أحادي الاتجاه لمعرفة والمقارنة بين أكثر من مجموعة أو أكثر من مستوى
- واختبار توكي لأقل فرق دال LSD لمعرفة الفروق الحقيقية بين المتوسطات.
- وهذا بالاعتماد على برنامج الرزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية SPSS (Statistical Package for Social Science) النسخة 17.0. لقد قمنا بتحليل الإحصائي للنتائج المتوصل إليها وهذا تبعاً لفرضيات البحث المطروحة على النحو التالي :
- من خلال فرضية الأولى: يؤثر التكوين ايجابيا في اختصاص علم النفس في تنمية بعض المهارات الحياتية قيد الدراسة عند الطالب الجامعي حسب متغير المستوي لصالح طلبة السنة الثانية ماستر. وللتحقق من هذه الفرضية قمنا باستخدام اختبار ANOVA أحادي الاتجاه للمقارنة بين نتائج المستويات الثلاثة، أي بين عدة مجموعات فكانت النتائج على النحو التالي:
- جدول رقم 04 يمثل اختبار ANOVA أحادي الاتجاه للمقارنة بين نتائج المستويات الثلاثة في مهارات التخطيط وإدارة الوقت

المهارة	نوع الفرق	مجموع المربعات	درجة حرية	متوسط المربعات	قيمة F محسوبة عند مستوى دلالة 0.05	الدلالة الفرق Signification
مهارات التخطيط وإدارة الوقت	بين المجموعات	10166,864	2	5083,432	124,748	دال إحصائيا
	داخلي	21189,713	520	40,749		
	المجموع	31356,577	522			

من خلال الجدول أعلاه الذي يظهر نتائج المقارنة بين المستويات الثلاثة لكل من علم النفس والحقوق (السنة الأولى جدد مشترك، السنة الثالثة، والسنة الثانية ماستر)، وبعد حساب قيمة F لاختبار أنوفا ANOVA أحادي الاتجاه، وهذا من خلال المقارنة بين المجموعات وداخل المجموعات في مهارات التخطيط وإدارة الوقت عند طلبة علم النفس وجدنا أن قيمة F بلغت 124.748 وهي أكبر من قيمته الجدولية عند مستوى الدلالة 0.05 مما يعني وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين قيم مختلف المستويات السنة الأولى جدد مشترك علوم اجتماعية والسنة الثالثة علم النفس، والسنة الثانية ماستر علم النفس.

جدول رقم 05 يمثل قيمة الأقل فرق دال اختبار توكي للمقارنات المتعددة في المستويات الثلاثة عند الاختصاصين في مهارات التخطيط وإدارة الوقت.

المتغير التابع Variable	المجموعة الأولى (I) groupe	المجموعة الثانية (J) groupe	فرق المتوسطات Différence de	دلالة Signification	الفرق

dépendante		moyennes (I-J)		
مهارات التخطيط وإدارة الوقت عند طلبة علم النفس	السنة الأولى	السنة الثالثة	-7,40004*	دال إحصائيا لصالح لثانية
	السنة الأولى	السنة الثانية ماستر	-10,67884*	دال إحصائيا لصالح لثانية
	السنة الثالثة	السنة الأولى	7,40004*	دال إحصائيا لصالح لأول
	السنة الثالثة	السنة الثانية ماستر	-3,27879*	دال إحصائيا لصالح لثانية
	السنة الثانية ماستر	السنة الأولى	10,67884*	دال إحصائيا لصالح لأول
	السنة الثانية ماستر	السنة الثالثة	3,27879*	دال إحصائيا لصالح لأول

* نجمة تعني فرق المتوسطات عند مستوي الدلالة 0.05 دال إحصائيا

جدول رقم 06 يمثل اختبار ANOVA أحادي الاتجاه للمقارنة بين نتائج المستويات الثلاثة في مهارات الاتصال والتواصل

المهارة	نوع الفرق	مجموع المرجعات Somme des carrés	درجة حرية ddl	متوسط المرجعات Moyenne des carrés	قيمة F محسوبة عند مستوى الدلالة 0.05	الدلالة الفرق Signification
مهارات الاتصال والتواصل	بين المجموعات	7862,624	2	3931,312	181,773	دال إحصائيا
	داخل المجموعات	11246,359	520	21,628		
	المجموع	19108,983	522			

من خلال المقارنة بين المجموعات وداخل المجموعات في مهارات الاتصال والتواصل عند طلبة علم النفس وجدنا أن قيمة ف بلغت 181.773 وهي أكبر من قيمته الجدولية عند مستوي الدلالة 0.05 مما يعني وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين قيم مختلف المستويات السنة الأولى جدد مشترك علوم اجتماعية والسنة الثالثة علم النفس، والسنة الثانية ماستر علم النفس. ولمعرفة لصالح أي مستوي هذه الفروق، قمنا بدراسة الأقل فرق دال والمتمثل في اختبار توكي Test de Tukey للمقارنات المتعددة Comparaisons multiples للمستويات الثلاثة عند الاختصاصين في مهارات الاتصال والتواصل ، فكانت النتائج على النحو التالي:

المتغير التابع	المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	فرق المتوسطات	دلالة الفرق

Signification	Différence de moyennes (I-J)	(J) groupe	(I) groupe	Variable dépendante
دال إحصائية لصالح الثانية	-6,85567*	السنة الثالثة	السنة الأولى	مهارات الاتصال والتواصل عند طلبة علم النفس
دال إحصائية لصالح الثانية	-9,20000*	السنة الثانية ملستر	السنة الأولى	
دال إحصائية لصالح الأولى	6,85567*	السنة الأولى	السنة الثالثة	
دال إحصائية لصالح الثانية	-2,34433*	السنة الثانية ملستر	السنة الثالثة	
دال إحصائية لصالح الأولى	9,20000*	السنة الأولى	السنة الثانية ماستر	
دال إحصائية لصالح الأولى	2,34433*	السنة الثالثة	السنة الثانية ماستر	

جدول رقم 07 يمثل قيمة الأقل فرق دال اختبار توكي للمقارنات المتعددة في المستويات الثلاثة عند الاختصاصين في مهارات الاتصال والتواصل.

جدول رقم 08 يمثل اختبار ANOVA أحادي الاتجاه للمقارنة بين نتائج المستويات الثلاثة في المهارات الاجتماعية والعمل مع الجماعة.

المهارة	نوع الفرق	مجموع المربعات	درجة حرية	متوسط المربعات	قيمة F المحسوبة عند مستوى دلالة 0.05	الدالة الفرق Signification
المهارات الاجتماعية والعمل مع الجماعة عند طلبة علم النفس	بين المجموعات	7434,010	2	3717,005	133,910	دال إحصائية
	داخل المجموعات	14433,913	520	27,758		
	المجموع	21867,924	522			

من خلال الجدول الذي يظهر نتائج المقارنة بين المستويات الثلاثة لكل من علم النفس والحقوق (السنة الأولى جدع مشترك، السنة الثالثة، والسنة الثانية ماستر)، وبعد حساب قيمة F لاختبار أنوفا ANOVA أحادي الاتجاه، وهذا من خلال المقارنة بين المجموعات وداخل المجموعات في المهارات الاجتماعية والعمل مع الجماعة.

المتغير التابع	المجموعة الأولى	المجموعة الثانية	فرق المتوسطات	دلالة الفرق Signification
Variable dépendante	(I) groupe	(J) groupe	Différence de moyennes (I-J)	

دال إحصائية لصالح الثانية	-6,12289*	السنة الثالثة	للسنة الأولى	المهارات الاجتماعية والعمل مع الجماعة عند طلب علم النفس
دال إحصائية لصالح الثانية	-9,22540*	السنة الثانية مليستر	للسنة الأولى	
دال إحصائية لصالح الأولى	6,12289*	للسنة الأولى	للسنة الثالثة	
دال إحصائية لصالح الثانية	-3,10250*	السنة الثانية مليستر	للسنة الثالثة	
دال إحصائية لصالح الأولى	9,22540*	للسنة الأولى	السنة الثانية ماستر	
دال إحصائية لصالح الأولى	3,10250*	للسنة الثالثة	السنة الثانية ماستر	

جدول رقم 09 يمثل قيمة الأقل فرق دال اختبار توكي للمقارنات المتعددة في المستويات الثلاثة عند

الاختصاصين في المهارات الاجتماعية والعمل مع الجماعة.

من خلال فرضية الثانية: تنمي المهارات الحياتية عند الطالب في اختصاص علم النفس كلما استمر في التكوين،

حيث يحتل المرتبة الأولى في جميع المهارات عند طلبة السنة الثانية ماستر.

جدول رقم 10 يمثل ترتيب مهارات التخطيط وإدارة الوقت عند للاختصاص علم النفس.

الترتيب	المتوسط الحسابي	المستوي	المتغير التابع Variable dépendante
3	33,8783	السنة الأولى علوم اجتماعية	مهارات التخطيط وإدارة الوقت
2	41,2784	للسنة الثالثة علم النفس	
1	44,5571	السنة الثانية ماستر علم النفس	
3	37,0000	السنة الأولى علوم اجتماعية	مهارات الاتصال والتواصل
2	43,8557	للسنة الثالثة علم النفس	
1	46,2000	السنة الثانية ماستر علم النفس	
3	37,0317	السنة الأولى علوم اجتماعية	المهارات الاجتماعية والعمل اجمعي
2	43,1546	للسنة الثالثة علم النفس	
1	46,2571	السنة الثانية ماستر علم النفس	
3	43,2487	السنة الأولى علوم اجتماعية	المهارات النفسية والوعي الذاتي
2	45,4536	للسنة الثالثة علم النفس	
1	46,9929	السنة الثانية ماستر علم النفس	
3	29,7302	السنة الأولى علوم اجتماعية	مهارات التفكير وحل المشكلات
2	37,6907	للسنة الثالثة علم النفس	
1	40,9000	السنة الثانية ماستر علم النفس	
3	40,2222	السنة الأولى علوم اجتماعية	المهارات العلمية والتكنولوجية
2	41,4072	للسنة الثالثة علم النفس	
1	45,2357	السنة الثانية ماستر علم النفس	

3	45,4815	السنة الأولى علوم اجتماعية	مهارات الهوية وحب الوطن
2	45,6701	السنة الثالثة علم النفس	
1	47,5357	السنة الثانية ماستر علم النفس	
3	35,3968	السنة الأولى علوم اجتماعية	مهارات التحكم في اللغات
2	39,6237	السنة الثالثة علم النفس	
1	45,0286	السنة الثانية ماستر علم النفس	

من خلال الجدول الذي يوضح لنا ترتيب المهارات الحياتية حسب متغير السنوات السنة الاولى جدع مشترك علوم انسانية والسنة الثالثة ليسانس علم النفس والسنة الثانية ماستر علم النفس ، ومن خلال المتوسطات الحسابية المقارنة يتضح لنا المنحى التصاعدي للمهارات الحياتية المدروسة ، مما يوحي بتأثير ايجابي للتكوين في علم النفس على تنمية المهارات الحياتية عند طلبة علم النفس.

مناقشة الفرضيات:

- فرضية البحث الاولى:

للتكوين في إختصاص علم النفس دور إيجابي في تنمية بعض المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي حسب متغير المستوى (سنة أولى جدع مشترك علوم اجتماعية، السنة الثالثة إختصاص علم النفس ليسانس، السنة الثانية ماستر) لصالح السنة الثانية ماستر.

من خلال الفرضية المطروحة التي تشير إلى: "للتكوين في إختصاص علم النفس دور إيجابي، في تنمية المهارات الحياتية عند الطالب الجامعي".

من خلال النتائج المتوصل إليها حول المهارات الحياتية قيد البحث ، والمنحى التصاعدي للنتائج من مستوى إلى آخر للمهارات الحياتية ، يمكننا أن نقول أن التكوين عمل على تنمية هذه المهارات عند الطالب في إختصاص علم النفس.

إن هذه النتيجة تظهر لنا الدور الكبير الذي يلعبه الاختصاص في تهيئة المتكون للحياة المهنية ، والاجتماعية بعد تخرجه ، وهذا من خلال تزويده بمجموعة من المهارات الضرورية التي تسمح لهم بمواجهة الحياة العملية ، وهذا هو الهدف من التكوين بصفة عامة ، حيث يقول عبید(2008) في تعريفه للمهارات الحياتية بأنه: " مجموعة من المهارات التي تمثل إطار العمل ، يركز خلال توظيفها على ما نريد من الحياة" (عبید ، 2008 : 21).

وقد وضحت وزارة التربية والتعليم الفلسطينية(2006) هذا الدور للمهارات الحياتية في حياة المتكون ، حيث تقول: " تعني مادة المهارات الحياتية بناء شخصية المتعلم من ناحية تحمل المسؤولية ، والتعامل مع الحياة اليومية" (وزارة التربية والتعليم ، 2006 : 53).

هذا يجعل المتعلم يستطيع مواجهة مشاكل الحياة ، والتأقلم معها بشكل إيجابي ، يساعده في حل كل المشكلات والتغلب على العراقيل التي تواجهه ، وهذا من بين أهداف المهارات الحياتية ، حيث يقول عادل السيد(2009) حول أهداف المهارات الحياتية ما يلي: " تكسب المتعلم الثقة في قدراته على التعامل بنجاح مع متغيرات الحياة ، وتتمى قدرته على حل المشكلات الحياتية في البيئة المحلية والعالمية" (عادل علي ، 2009 : 28).

إن ما يتلقاه الطالب في اختصاص علم النفس من مواد ومقررات وبرامج تدريب، تسمح له بتمية مهاراته الحياتية التي تهوئه ليكون قادرا على مواجهة صعاب الحياة. والعالم الذي نعيش فيه يتطلب أن يكون لدينا طالب قادر على الابتكار والخلق، ليكون مساهما فعالا في مجتمعه، حيث يقول عبد المعطي ودعاء محمد (2008): "إن تمكن الفرد من مهارة ما، على أي مستوى يشجعه على الارتقاء من مستوى المهارة، من أجل فتح آفاق جديدة للعالم". (عبد المعطي، 2008: 24).

ويضيف أنه: "بتعلم المهارات الحياتية، يكون الفرد قادرا على الحصول على وظيفة والاحتفاظ بها في مجالات مثيرة ومهمة، ويقدر على تغيير الوظائف والسعي وراء تدريب إضافي كلما تطلب الأمر ذلك" (عبد المعطي، 2008: 31). إن نتائج هذه الدراسة، جاءت لتوضح الأهمية الكبيرة للمهارات الحياتية، وهي تتفق مع دراسة وزارة التربية والتعليم الفلسطينية (2003)، ودراسة فاطمة عبد الرزاق عمر محمد (2004)، ودراسة جولييان ماي (2005)، ودراسة صادق الحايك (2008)، ودراسة عمور عمر (2009). والتي تؤكد كلها على الأهمية والحاجة إلى المهارات الحياتية في حياة الفرد.

من خلال ما تقدم، يمكن أن نستنتج أن فرضية البحث الأولى قد تحققت.

♦ فرضية البحث الثانية:

من خلال فرضية البحث التي تشير تنمي المهارات الحياتية عند الطالب في اختصاص علم النفس كلما استمر في التكوين، حيث يحتل المرتبة الأولى في جميع المهارات عند طلبة السنة الثانية ماستر. من خلال النتائج المشار إليها في الجدول والتي تظهر تفوق واحتلال طلبة السنة الثانية ماستر إختصاص علم النفس المرتبة الأولى، فإن فرضية البحث قد تحققت:

إن هذه النتائج، وإن أظهرت تفوق نتائج طلبة ماستر علم النفس في كل المهارات الحياتية قيد الدراسة، تعطينا فكرة على دور التكوين في إختصاص علم النفس، والذي يظهر من خلال التفوق والمنحى التصاعدي لهذه المهارات، منذ الدخول الأول أي السنة الأولى في الاختصاص لغاية التخرج، هذا يدل على أن التكوين أثر بشكل كبير في تنمية الطالب لهذه المهارات، مما يساعده على ولوج عالم الشغل.

وطبيعة علم النفس كتخصص، يدرس الإنسان ويتعامل معه في وسط البيئة يسمح له باكتساب وتنمية مهاراته الحياتية، وهناك عدة نظريات أكدت هذا التفاعل في عملية التعريف، ومنها نظرية التعلم الاجتماعي (تؤكد هذه النظرية على أن التعلم يتم من خلال الملاحظة والتفاعل الاجتماعي) (عبد المعطي، 2008: 87). كذلك نظرية السلوك المشكل التي تركز بأنه: "يمكن للسلوك أن يكون مصدره نتائج تفاعلات معقدة بين الأفراد وبيئتهم". (عبد المعطي، 2008: 87).

هذا يعطينا نظرة حول أهمية التفاعل الحادث خلال عملية التكوين، والتي تنتج عنها اكتساب مهارات تسمح للطلاب بأخذها من عملية الاحتكاك بالأستاذ، والمادة المدرسة، والزملاء، مما يتولد عنه سلوك يسمح له بالتكيف مع الظروف المختلفة للحياة.

إن هذه الدراسة، جاءت نتائجها مطابقة تماما لنتائج مصطفى بوتفنوشت(1988) حول التلازم بين التكوين الجامعي والعمل، ودراسة لحسن بوعبد الله ومحمد مقداد (1998) حول تقييم العملية التكوينية في الجامعة، ودراسة مريم صالح بوشارب(2001) حول التكوين الجامعي بين الأهداف والواقع، ودراسة يسمينه خدنة (2007) حول واقع التكوين لطلبة الدراسات العليا بالجامعة الجزائرية، ودراسة هارون اسماء(2009) حول دور التكوين الجامعي في ترقية المعرفة العلمية في ظل الإصلاح الجديد" ل.م.د". والتي تؤكد على نقل المعرفة العلمية للطلاب الجامعي من خلال البرامج والمقررات التي يأخذها الطالب في الاختصاصات المدروسة.

الاستنتاجات:

- من خلال العمل الميداني الذي قمنا به، وفي ضوء النتائج المتوصل إليها استنتجنا ما يلي:
- وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين قيم مختلف المستويات السنة الأولى جدع مشترك علوم اجتماعية والسنة الثالثة إختصاص علم النفس، والسنة الثانية ماستر إختصاص علم النفس في مهارات التخطيط وإدارة الوقت، ومهارات الاتصال والتواصل. وفي المهارات الاجتماعية والعمل الجماعي. وكذلك في المهارات النفسية والوعي الذاتي. ومهارات التفكير وحل المشكلات، وفي المهارات العلمية والتكنولوجية. ومهارات الهوية وحب الوطن. و التحكم في اللغات.
 - عند مقارنة بين طلبة السنة الأولى جدع مشترك علوم اجتماعية وطلبة السنة الثالثة ليسانس إختصاص علم النفس نلاحظ تفوق طلبة السنة الثالثة ليسانس علم النفس. مما يعني أن التكوين أثر بشكل ايجابي في اكتساب الطالب المهارات النفسية والوعي الذاتي. لكن عند مقارنة بين طلبة السنة الثالثة ليسانس إختصاص علم النفس، وطلبة السنة الثانية ماستر إختصاص علم النفس، لاحظنا عدم وجود فروق دالة إحصائية بين طلبة المستويين. مما يعني أن التكوين لم يؤثر في إكساب الطالب للمهارات النفسية والوعي الذاتي.
 - عند مقارنة بين طلبة السنة الأولى جدع مشترك علوم اجتماعية وطلبة السنة الثالثة ليسانس إختصاص علم النفس نلاحظ عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المستويين، مما يعني أن التكوين لم يؤثر بشكل ايجابي في إكساب الطالب للمهارات العلمية والتكنولوجية، وكذلك نفس الشيء بالنسبة لمهارات الهوية وحب الوطن، لكن عند مقارنة بين طلبة السنة الثالثة ليسانس إختصاص علم النفس، وطلبة السنة الثانية ماستر إختصاص علم النفس لاحظنا تفوق طلبة السنة الثانية ماستر إختصاص علم النفس. مما يعني أن التكوين في إختصاص علم النفس أثر بشكل ايجابي في إكساب الطالب للمهارات العلمية والتكنولوجية ولمهارات الهوية وحب الوطن.
 - نستنتج أن للتكوين في إختصاص علم النفس دور ايجابي في إكساب الطالب الجامعي لمهارات التخطيط وإدارة الوقت. وكذلك مهارات الاتصال والتواصل. وأيضا للمهارات الاجتماعية والعمل الجماعي. ومهارات التفكير وحل المشكلات، ومهارات التحكم في اللغات. وهذا من خلال المنحي التصاعدي لهذه المهارة من مستوي إلى آخر.

- الاقتراحات (التوصيات):

في ضوء أهداف البحث وتساؤلاته، وبعد مناقشة النتائج نقترح ما يلي:

- 1- تدعيم التكوين في إختصاص علم النفس لما له من أهمية في خدمة وإكساب الطالب للمهارات الحياتية المتمثلة في مهارات التخطيط وإدارة الوقت، ومهارات الاتصال والتواصل، المهارات الاجتماعية والعمل مع الجماعة وكذلك المهارات النفسية والوعي الذاتي، ومهارات التفكير وحل المشكلات، والمهارات العلمية والتكنولوجية، ومهارات الهوية وحب الوطن والتحكم في اللغات.
- 2- إدماج المهارات النفسية والوعي الذاتي في التكوين في مرحلة الماستر نظرا لعدم وجود فروق بين مستوى الليسانس والماستر في هذه المهارة، وفي مهارات التحكم في اللغات، لما له من أهمية في العملية التكوينية، وكذلك في مسار حياة الطالب بعد تخرجه.
- 3- ضرورة دمج المهارات العلمية والتكنولوجية في تكوين الليسانس حتى يتمكن الطالب من التحكم في الوسائل والأدوات التكنولوجية.
- 4- ضرورة دمج مهارات الهوية وحب الوطن في تكوين الليسانس حتى يتمكن الطالب من التعرف على الهوية الوطنية ويكتسبها للدفاع عن هذه الأخيرة.
- 5- التفكير في تصميم برنامج للمهارات الحياتية يراعي فيه حاجات الطلاب من جهة، وواقع المجتمع المحلي من جهة ثانية، وتحديات العصر من جهة ثالثة.
- 6- إجراء دراسات مشابهة على مراحل عمرية مختلفة تكون تتبعيه حتى نقف بشكل دقيق على أثر المهارات الحياتية، وعملية التكوين.

قائمة المراجع:

- (1) أحمد حسين عبد المعطي، دعاء محمد المصطفى (2008): المهارات الحياتية، ط1، القاهرة، دار السحاب للنشر والتوزيع.
- (2) أحمد حسين عبد المعطي (2007): دعاء محمد المصطفى، المهارات الحياتية.
- (3) أسامة عبيدات وسائدة سعاد (2010): المهارات المتوفرة في مخرجات التعليم العالي الأردني بما يتطلبه سوف عمل المحلي، المجلة العربية لضمان جودة التعليم العالي، العدد (5)، (المجلد الثالث).
- (4) أسماء هارون (2009-2010): دور التكوين الجامعي في ترقية المعرفة العلمية، تحليل نقدي لسياسة التعليم العالي في الجزائر نظام "LMD"، مذكرة ماجستير، تخصص تنمية الموارد البشرية.
- (5) بركات محمد، يحي باي، بن عجمية عزيز (2004-2005): الإرغام على التكوين وأثره على التوافق النفسي والجانب التحصيلي للطلاب الجامعي. مستغانم.
- (6) حايك صادق، زياد محمد أرملی، غادة خصاونة (2007-2008): المهارات القائمة على الاقتصاد المعرفي المكتسبة من تعلم مناهج الجميز في كلية التربية الرياضية بالجامعة الأردنية، الأردن.
- (7) على، ع. (2009): المهارات الحياتية استراتيجية منهجية، اسكندرية مصر، دار الجامعة الجديدة للنشر.
- (8) عبد العزيز الغريب صقر (2005): الجامعة والسلطة، الدار العالمية، مصر، ط1،
- (9) عمور عمر (2008-2009): إسهامات بعض أساليب التدريس الحديثة في التربية البدنية والرياضية على تنمية بعض المهارات الحياتية لدى طلبة المرحلة الجامعية.
- (10) فاطمة عبد الرازق عمر محمد (2003-2004): فاعلية برنامج في الاقتصاد المنزلي لتنمية الوعي الاستهلاكي وبعض المهارات الحياتية لغير المتخصصين من خلال الجامعة، في تخصص المنهج وطرق التدريس، جامعة جنوب الوادي بقنا.

- 11) لحسن بوعبد الله و محمد مقداد (1998) : تقويم العملية التكوينية في الجامعة ، دراسة ميدانية بجامعات الشرق الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية .
- 12) مريم السيد (2007) : حاجات طلبة جامعة الإسراء إلى المهارات الحياتية، جامعة إسراء الخاصة: مجلة إتحاد الجامعات العربية، العدد (49) .
- 13) مريم صالح بوشارب (2001) : التكوين الجامعي بين الاهداف و الواقع (دراسة ميدانية بجامعة ناجي بعنابة) ، مذكرة ماجستير ، جامعة منتوري ، قسنطينة .
- 14) مصطفى بوتفنوشت (1988) : التلائم بين التكوين الجامعي و العمل ، معهد علم الاجتماع .
- 15) معتز عبيد ، حسن شحاتة (2008) : مهارات الحياة للجميع نحو برنامج إرشادي للمراهق، ط.1.
- 16) وزارة التربية والتعليم (2006) : سلطنة عمان ، مجلة رسالة التربية، العدد 11، مارس.
- 17) وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية (2003) : أثر التدريب في توجيهات المتدربين على المهارات الحياتية ، الإدارة العامة للتدريب والإشراف التربوي.
- 18) يسمينه خدنة (2007 – 2009) : واقع تكوين طلبة الدراسات العليا في الجامعة الجزائرية، دراسة حالة جامعة منتوري، قسنطينة، مذكرة ماجستير.
- 19)- Julian may,(2005). the Impact of life skills educations on adolescent sescual risk behaviors in Kwatulu- natal, South Africa of adolesent health. N.(36), (4).

الرضا الوظيفي بين أساتذة الجامعة

دراسة تطبيقية بأقسام علم النفس وعلوم التربية في الجامعات الجزائرية

د/ بن موسى سمير، جامعة تيارت

الملخص :

إن للجامعات دور مهم و أساسي في تنمية البلد و في تحقيق أهدافها العلمية و تحقيق النهضة المنتظرة منها ، و يُعتبر الأساتذة الجامعيين العصب الحيوي في العملية التربوية و العلمية لذلك وجب الإهتمام بهم و تحسين ظروف عملهم . إن الكفاءات الجيدة تحتاج إلى مناخ جيد بما يوفر لها الظروف الملائمة للعمل و استثمار قدراتهم و تفعيل أدائهم . و هذا ما يُساهم في رفع مستوى الرضا الوظيفي ؛ و إنطلاقا مما تقدم فقد تم إجراء هذه الدراسة على عينة من أساتذة (22) قسماً من أقسام علم النفس و علوم التربية لمعرفة واقع الرضا الوظيفي لديهم عن أعمالهم و من ثم أثر هذا الواقع على أدائهم البيداغوجي و البحثي ، و لقد تم توزيع الاستبيان على عينة قوامها 320 أستاذ .

و بعد التحليل الإحصائي باستخدام معامل الارتباط بيرسون ، بينت النتائج وجود مستوى ضعيف من الرضا العام لدى الأساتذة وبنسب مختلفة حسب كل محتوى من محتويات الرضا لدى الأساتذة بحيث وجدنا رضا الأساتذة عن مهنة التدريس في حد ذاتها و عن الأجر ، و عن عدم رضاهم عن علاقاتهم المهنية خاصة مع إدارة القسم .

الكلمات المفتاحية : الرضا الوظيفي ، العلاقات المهنية ، الأستاذ الجامعي .

Abstract :

University have a very important roles in developing countries and achieving their scientific and educational goals . therefore , they should have a great deal of attention their superior to improve their work environment in order to achieve a high level of job satisfaction . Satisfaction leads to high moral spirit and then improving the level of performance .From this point of view the researchers choose in (22) departement of psychology and education in the universities . The sample contains teaching staff within the universities 320 questionnaires were choosing and analyzed by using Spss statistic programs and the result showed a bed of satisfaction for these staff this levels differ in according to the variables examined .

مقدمة

الجامعة مؤسسة مجتمعية يقع على عاتقها واجبات عظام في المجالات العلمية و التربوية و المهنية و التكنولوجية ، وللجامعة وظائف أساسية أهمها الإعداد الأكاديمي و المهني و الثقافي و البحث العلمي، و كذلك المشاركة في خدمة المجتمع و تطويره وحل مشاكله، و لا يتم ذلك إلا عبر الركيزة الرئيسية المتمثلة في الأستاذ الذي يُعتبر عقل الجامعة التي تعتمد عليه في تحقيق وظائفها ، ولهذا فإن مهنة أستاذ الجامعة تُعد من أرفع المهن و أرقاها في جميع المجتمعات. و نجاح أستاذ الجامعة يرتبط بعوامل كثيرة منها ما يرتبط

بطبيعة مهنته، و منها ما يتعلق بالظروف و بيئة العمل، و منها ما يتعلق بشخصيته و مستوى كفاءته المهنية، وجميع هذه العوامل تؤثر سلباً أو إيجاباً على مستوى رضا أستاذ الجامعة عن وظيفته، و الذي ينعكس على أدائه المهني والأكاديمي، و بناءً على ذلك فإن الدراسة الحالية تعرضت بالبحث في العوامل المرتبطة بمستوى الرضا الوظيفي لأساتذة أقسام علم النفس و علوم التربية في الجامعات الجزائرية من حيث كونهم راضين أو غير راضين عن طبيعة عملهم من ناحية و عن علاقاتهم المهنية من ناحية أخرى .

الإطار المنهجي للبحث :

1- مشكلة البحث:

رغم الإهتمام الكبير الذي حظيت به الظواهر السلوكية في المنظمات و منها الرضا الوظيفي من خلال الدراسات التي تناولتها إلا أنها لا تزال بحاجة إلى دراسة دقيقة بتحديد أبعادها، و من بين أهم الدراسات التي تناولت الرضا الوظيفي نذكر منها دراسة عمر حمداوي و أحمد بخوش (2011) حول دور الرضا الوظيفي لدى أساتذة الجامعة في تحقيق أهداف المؤسسة الجامعية بالمركز الجامعي بخنشلة على عينة قوامها 191 أستاذ، و التي كشفت عن عدم رضا الأساتذة عن الأجر الذي يتقاضاه و رضاهم على نمط الإشراف الإداري و عدم رضاهم عن نمط الإشراف البيداغوجي السائد بالمركز الجامعي، و عن عدم رضاهم عن مدى توفر وسائل إشباع الحاجات الفردية، و من هنا فإن مشكلة الدراسة تأتي في محاولة الباحث للتعرف على مستوى الرضا الوظيفي لدى عينة من أساتذة أقسام علم النفس و علوم التربية، كذلك البحث عن مدى تأثير طبيعة عمل الأستاذ من جهة و عاملي الأجر و العلاقات المهنية من جهة أخرى في معرفة مستوى الرضا لدى الأستاذ الجامعي، و عليه يمكن تحديد مشكلة أدق في ضوء طرح الأسئلة الرئيسية التالية:

- 1- ما مستوى الرضا الوظيفي لدى أساتذة أقسام علم النفس و علوم التربية ؟
- 2- هل الأستاذ الجامعي راضٍ عن الأجر ؟
- 3- هل توجد علاقة ارتباطية دالة إحصائياً بين العلاقات المهنية و الرضا الوظيفي ؟
- 4- هل الأستاذ الجامعي راضٍ عن ظروف عمله ؟
- 5- هل الأستاذ الجامعي راضٍ عن نمط الإشراف الإداري السائد في القسم ؟
- 6- ما التصور المقترح لتحسين الرضا الوظيفي لأستاذ الجامعة ؟

أهداف البحث:

تعالج الدراسة ظاهرة من أهم الظواهر السلوكية داخل التنظيمات و هي ظاهرة الرضا الوظيفي و ذلك بالتركيز على الأستاذ

الجامعي باعتباره المحرك في زيادة فعالية المؤسسة و رفع إنتاجيتها و تهدف الدراسة بصورة رئيسة إلى تحقيق

الأهداف التالية :

- 1- التعرف على مستوى الرضا الوظيفي لدى الأساتذة .
- 2- قياس مستوى الرضا الوظيفي لدى أساتذة أقسام علم النفس و علوم التربية .
- 3- تحديد درجة أهمية كل بعد من أبعاد الرضا الوظيفي (محتوى العمل، الأجر، العلاقات المهنية، نمط الإشراف، ظروف العمل المادية و الخدمات التي تقدمها الجامعة) في مستوى الرضا الوظيفي العام .

فرضيات الدراسة:

الفرضية الأولى: توجد درجة من الرضا أكثر من عدم الرضا لدى أساتذة أقسام علم النفس و علوم التربية.
الفرضية الثانية: توجد علاقة إرتباطية موجبة دالة إحصائيا بين العلاقات المهنية و رضا الوظيفي لدى الأساتذة.

الفرضية الثالثة : توجد علاقة إرتباطية موجبة دالة بين نمط إشراف إدارة القسم و رضا الأساتذة . و في الجانب التطبيقي من الدراسة حدّد الباحث مجتمع الدراسة بأساتذة جامعيين منتسبين لـ (22) قسماً من أقسام علم النفس و علوم التربية في الجامعات الجزائرية . و قد إستخدم الباحث أسلوب العينة العشوائي البسيطة و التي بلغ عدد الإستيبيانات الموزعة (320).

حدود الدراسة :

أ- الحدود النظرية : إقتصرت الدراسة على موضوع الرضا الوظيفي من حيث المفردات النظرية التالية:

- 1- مفهوم الرضا الوظيفي .
- 2- مفهوم الرضا الوظيفي لدى اساتذة الجامعة .
- 3- العلاقات المهنية في الوسط الجامعي .
- ب- الحدود المكانية : و تتمثل بالموقع الذي اختير لتطبيق الدراسة في (22) قسماً من أقسام علم النفس و علوم التربية بالجامعات الجزائرية ، و هي : جامعة وهران - مستغانم - تلمسان - معسكر - غليزان - سيدي بلعباس - تيارت - بشار- بجاية - البليدة - تيزي وزو- الشلف - قسنطينة - عنابة ، باتنة - جامعة- الجزائر 2- سطيف - قالمة - المسيلة - الطارف - المدية - ورقلة .
- ج - الحدود الزمانية : أجريت الدراسة الميدانية خلال السنة الجامعية 2011- 2012 .

صدق وثبات الاستبيان :

إستد الباحث في بناء إستبيان الرضا الوظيفي على مقياس منيسوتا للرضا الوظيفي ، و تم إقتباس(20) فقرة تخدم طبيعة الموضوع المدروس ، و للتأكد من صدق فقرات الإستبيان إستعان بطريقتين هما :
صدق المحكمين: تم عرض الإستبيان على مجموعة من تسعة المحكمين من أساتذة متخصصين في هذا الحقل المعرفي و في الإدارة و الإحصاء ، و قد إستجاب الباحث لإقتراحات المحكمين و قام بإجراء ما يلزم من حذف و تعديل و تصويب لغوي .

صدق المحتوى: و يتضمن إستخراج درجة الصدق من خلال معامل الثبات بناء على وجود إرتباط قوي بين صدق الاداء و ثباتها ، و للتحقق من ذلك فقد تم إستخراج معامل الثبات لفقرات الإستبانة و قد بلغ (0.868) على وفق معادلة الفا كرونباخ ، وهي تُعدّ معامل عالي و مُطمئن في الميزان العام لتقويم معاملات الصدق .
و تم إستخدام Spss المعالجات الاحصائية: لقد قام الباحث بتفريغ و تحليل الإستبيان من خلال الحزمة الاحصائية

الإختبارات الإحصائية التالية :

معامل الإرتباط بيرسون لتحديد مدى علاقة الإرتباط و نوعها بين متغيرات الدراسة ، و النسب المئوية و التكرارات إختبار الفا كرونباخ لمعرفة ثبات فقرات الإستبيان .

أولاً- مفهوم الرضا الوظيفي لدى الأستاذ الجامعي :

قبل البدء بتعريف الرضا الوظيفي يُشير الباحث إلى العوامل التي تُؤثر في الرضا الوظيفي ، ز ذلك من خلال وجهات نظر) ستة جوانب رئيسية للرضا الوظيفي مصدرها الراتب و العمل نفسه1992 (Luthans الباحثين بحيث حدّد لوثانس (2004) فقد صنّف أبعاد الرضا الوظيفي في Coberly ظروف العمل ؛ أما كوبرلي و الترقيات و الإشراف و الزملاء و ثلاثة مجالات رئيسية هي : خصائص العمل مثل التنوع في المهارة ، والإستقلالية في العمل ، و خصائص المنظمة كتماسك الجماعة ، و الولاء التنظيمي ، و الهيكل التنظيمي ، و المناخ التنظيمي، و خصائص القائد ؛ و أشار حميد و المعاني (1986) إلى أنّ عدم الرضا يُؤدّي إلى نتائج سلبية منها الإضراب و دوران العمل و الغياب و ضعف الأداء و الصّراعات و عدم الولاء التنظيمي (خليفات والملاحمة ، 2009: 294) .

كما قام بيومي (2000) في مجال التّخطيط التعليمي بتفسير مُكوّنات مفهوم الرضا الوظيفي التي تربط بين مُتغيّرات الوظيفة التي يُؤدّيها الفرد و التي تتضمّن الإستقلالية ، الأجور ، الحوافز ، الأهميّة ، التّحديّات، و التّنوع ، و المُكوّن الثاني المُتمثّل في خصائص تنظيم العمل الخاص بالمؤسسة و منها المركزية ، التّخصّص ، الإحتراف ، الإشراف ، التغذيةيّة الرجعية، و الثقافة. أمّا المُكوّن الثالث و الأخير فيشمل الخصائص الشخصية للفرد و منها السن ، الجنس ، التعليم ، الدافعية، الإقبال على الحياة و السعادة (بيومي ، 2000 : 18) .

2- تعريف الرضا الوظيفي لدى الأستاذ الجامعي :

إهتمّت مُعظم الأمم بالتعليم خاصة المتقدّمة منها و جعلته أهم قضاياها معرفتها بأنّ إستثمار رأس المال البشري هو الإستثمار الحقيقي للتنمية بجميع مجالاتها و الذي يُعود عليها بمردود إقتصادي كبير يمتدّ على طول الزمن . و من هذا المنظور إهتمّ مُعظم الباحثين بموضّوع الرضا الوظيفي للعاملين مُطلقاً من الإفتراض القائل بأنّ الشخص الراضٍ عن عمله أكثر إنتاجية من زميله غير راضٍ (فلبمان ، 2009: 52) ، و عليه أدرج الباحث مجموعة من التعاريف للرضا لدى الأستاذ الجامعي :

يُعرّف حكيم (1989) الرضا الوظيفي : على أنّه شعور الأستاذ بمدى إشباع الحاجات التي يرغب أن يُشبعها من خلال عمله في مهنة التعليم ، و تتوقف درجة الرضا على مقدار الحاجات التي يرغب المعلم أن يُشبعها و ذلك من خلال عمله في مهنة التعليم ، و ما تُشبع هذه المهنة من حاجات المعلم بالفعل (حكيم ، 1989 : 102) . أمّا التويجري (1995) فيعرّف الرضا الوظيفي : على أنّه درجة شعور الفرد بالإرتياح و القناعة و السعادة من وظيفته ، و مدى إشباع هذه الوظيفة ، كذلك ما تحويّه وظيفته من مهام و مسؤوليات ، و البيئة العامّة للعمل ، و غيرها من العوامل ذات علاقة (التويجري ، 1995: 482).

و يُعرّف الشيباني (1999) الرضا الوظيفي : شعور المعلم ، و عاطفته الإيجابية نحو وظيفته و ما يترتّب عليها من ظروف العمل بما يُحقّق له إشباع حاجاته النفسية و الذاتيّة و الإجتماعية و المادية، و يُساعده على النجاح و الإنجاز، و تحقيق رغباته و طموحاته، الأمر الذي ينعكس إيجابياً على تحقيق أهداف المؤسسة التي ينتمي إليها (الشيباني ، 1999 : 19) .

و يُعرّف عباس (2003) الرضا الوظيفي : أنّه تعبير عن مشاعر السعادة الناجمة عن تصوّر مُدرّكات إتّجاه الموقف الحالي للوظيفة التي يُؤديها (عباس ، 2003 : 175) .

(2005) فيعرّف الرضا بشكل عام هو إتّجاه الأفراد ناحية العمل الحالي و المنظمة ، و يشمل هذا Bitch (أمّا بيتش) ، bitch :24 2005 علاقة وثيقة بالأداء (الإتّجاه الشعور و النظرة التي يرى الفرد عمله ، و يؤمن بأنّ الرضا الوظيفي له من خلال ما تمّ تناوله من تعاريف حول الرضا يُمكن تعريف الرضا الوظيفي: على أنّها حالة نفسية تُعبّر عن درجة إحساس الأستاذ بالإرتياح النفسي إتّجاه عمله و بالتحديد في إطار علاقاته مع رئيس القسم من جهة و زملائه من جهة أخرى ، والتي تكون ناتجة عن الفرق بين ما يُقدّمه الأستاذ وفق طموحاته و حاجاته التي يرغب في تحقيقها ، و بين ما جلبته له وظيفته .

3- الدراسات التي تناولت الرضا الوظيفي لدى الأستاذ الجامعي:

إهتمّت العديد من الدراسات العربية و الأجنبية بدراسة الرضا الوظيفي لدى أساتذة الجامعة و هذا ما جعل الباحث من الأهمية أن يُقسّم تحليل تلك الدراسات حسب ثلاث (03) نقاط، و هي:

- 1- من حيث عدد الدراسات، نوعها و طبيعتها.
 - 2- من حيث حداثتها.
 - 3- من حيث النتائج المتوصل إليها .
- 1- فيما يخصّ عدد الدراسات، نوعها و طبيعتها : قدّم الباحث تسع دراسات عربية ، أغلبها دراسات أردنية و أخرى من السعودية و فلسطين ، و في المقابل قدّم تسع دراسات أجنبية ، أغلبها دراسات أمريكية، و أخرى من كندا و كينيا و إيران.
 - أمّا من حيث نوع و طبيعة تلك الدراسات ، نجد أنّ أغلبها دراسات تحليلية ، إتّخذت من المسح الاجتماعي منهجاً لها .
 - 2- و فيما يخصّ حداثتها: نجد عشرة دراسة أجريت في التسعينات (1990- 1999) و سبع دراسات أجريت في بداية الألفية الثانية (2000- 2010)، ممّا يُبيّن بأنّ الدراسات التي قدّمها الباحث أغلبها حديثة ، و يُمكن الإعتماد عليها في تفسير نتائج الدراسة الميدانية - الحالية .
 - 3- أمّا بالنسبة للنتائج المتوصل إليها : إستهدفت الدراسات السابقة قياس مستوى الرضا الوظيفي في المؤسسات الجامعية، إلا أنّها اختلفت في تحديد العوامل و الأبعاد المؤثرة في الرضا أو عدم الرضا .
- و قد دلت النتائج ان مستويات الرضا الوظيفي لدى أعضاء هيئة التدريس كانت متوسطة كما في نتائج دراسة (حكيم ، 1995) و (السعود ، 2001) و (ميلوشف ، 1990) و (منصور ، 2010) ، كما بيّنت النتائج أنّ درجة الرضا عن مجالي الراتب و فرص النمو و الترقية التي يُتيحها العمل كانت مُتدنية في معظم الدراسات التي تناولت هذا المجال منها دراسة نتائج دراسة (طناش ، 1990) و (حكيم ، 1995) و (شديفات ، 1999) و (خليفات ، 2000) ، و (منصور ، 2010) ، و كانت درجة الرضا في مجال الإشراف متوسطة كما أشارت نتائج دراسة (السعود ، 2001) و منخفضة في دراسة (حكيم ، 1995) و (ناغايا ، 1992) و مُرتفعة في دراسة (خليفات ، 2000) .
- و أشارت نتائج بعض الدراسات إلى تدني درجة الرضا في مجال العلاقة مع الزملاء الذكور و إرتفاعها لدى الإناث كما في دراسة (أوكبارا و زملائه ، 2005) و حصول هذا المجال على درجة متوسطة في دراسة (السعود ، 2001) و درجة مُرتفعة في دراسة (ناغايا ، 1992) . و بيّنت نتائج دراسة (كولوباندي ، 1993)

أنَّ الرضا لدى أعضاء هيئة التدريس كان متوسطا في مجال التدريس ، ووسائل الراحة ، و الدعم للبحوث العلمية .

كما تباينت نتائج الدراسة المستعرضة في العلاقة بين الرضا الوظيفي و المتغيرات الديمغرافية حيث أظهرت معظم الدراسات أنَّ هناك علاقة بين الرضا الوظيفي و كل من العمر و الرتبة و مُدة الخدمة ، مثل دراسة (طناش ، 1990) و (شديفات ، 1999) و (خليفات ، 2000) و في المقابل لم تظهر هذه العلاقة في نتائج دراسة (السعود ، 2001).

و على ضوء ما سبق تتفق دراستنا مع الدراسات السابقة التي تمَّ تناولها في قياس مستوى الرضا الوظيفي لدى أعضاء هيئة التدريس في مجال العلاقة مع رئيس القسم و العلاقة مع زملاءهم في الوسط الجامعي .

نتائج الدراسة:

الإجابة عن الفرضية التي مفادها تُوجد درجة من الرضا أكثر من عدم الرضا لدى أساتذة أقسام علم النفس و علوم التربية. الجدول المرفق أدناه يبيِّن إستجابات أساتذة الجامعة لمقياس الرضا الوظيفي :

رقم الفقرة	الفقرات	التكرارات	النسب المئوية
بُعد الرضا عن العمل في حدِّ ذاته			
1	عملي الحالي يُناسبني عن أي عمل آخر .	288	90%
4	الأجر الذي أحصل عليه يُناسب العمل الذي أقوم به .	248	77.5%
8	إنني أشعر بالإرتياح و أنا أمارس مهنة التعليم العالي .	29	9%
9	❖ لا أنصح المقربين إلي بمهنة التعليم العالي	61	19%
12	أرى أن مهنة التعليم الجامعي لها مكانتها في المجتمع .	253	79%
15	❖ لا أتردد لحظة في ترك هذه الجامعة إذا ما أُتيحت لي فرصة العمل في الخارج .	89	28%
16	❖ البرامج البيداغوجية تفتقر إلى الوضوح في الأهداف المتوخاة	268	83.5%
17	أرى أن العمل الذي أقوم به مُهم .	317	99%
19	❖ أفكر جدياً في ترك هذه الجامعة و التوجُّه إلى الخارج.	84	26.5%
20	أنا راض عن وظيفتي.	305	95%
بُعد الرضا عن علاقات العمل			
2	❖ يُزعجني عدم تعاون الأساتذة معي فيما يخص تحسين أوضاع القسم .	261	81.5%
3	❖ لا أرتاح لكثير من تصرفات أساتذة القسم .	218	68%
5	❖ لا أحصل على تقدير و إحترام إدارة الكلية على عملي المنجز.	154	48%
6	❖ لا أرتاح لكثير من تصرفات رئيس القسم.	141	44%
7	معي لا يحصل على إعتراف رئيس القسم.	144	45%

10	معي لا يحصل على إعراف عميد الكلية.	168	52.5%
11	لقسم على التغيرات التربوية و المهنية التي تحدث	144	45%
13	إدارة القسم توفر لي الوسائل اللازمة للقيام بمهامي البيداغوجية.	216	67.5%
14	لا توجد جامعة أخرى أستطيع العمل فيها أحسن من هذه الجامعة.	125	39%
18	❖ لا أحصل على تقدير و إحترام إدارة الجامعة على عملي .	168	52.5%

ملاحظة : الفقرات التي أمامها ❖ هي الفقرات التي في عكس إتجاه موضوع (الرضا الوظيفي)

الرضا عن العمل في حد ذاته و عن علاقات العمل داخل القسم .

عدم رضا الأستاذ عن العمل في حد ذاته و عن علاقات العمل داخل القسم .

و من ثم ، فإن نتائج هذه الدراسة و التي جاء جزء كبير منها مطابق للجانب النظري ، و للواقع المعاش للأستاذ الجامعي كشفت عن مجموعة من العوامل المؤثرة من حيث مستوى نوعية العلاقة بين اساتذة الجامعة و الهيئة الإدارية للقسم من جهة و مع زملائهم من جهة أخرى ، و في الرضا المهني عن عدمه ببعديه الرضا عن عمل الأستاذ في حد ذاته و الرضا عن علاقاته المهنية من الجانبين البيداغوجي و البحثي و أن الأستاذ الجامعي أصبح يتجه نحو البحث العلمي كميكانيزم دفاعي - نفسي ووقاية صحية نفسية - فيزيولوجية و تعبيراً سلوكياً عن عدم الرضا و إستراتيجية تكيّف و تجنّب المواقف الضاغطة في إطار علاقاته مع الهيئة الإدارية ، لأقسام علم النفس و علوم التربية ، و هذا ما توصّلت إليه دراسات كل بوسنة محمود (2002) ، ودراسة نعيمة نصيب (2004) بالجزائر إلى أن عملية التدريس تحمل حالة من عدم الرضا أكثر من العملية البحثية و يرجع ذلك إلى عدة أسباب و هي :

- المشاكل الإدارية و التركيز الدائم على الجانب الشكلي لسير العملية البيداغوجية ، و التأخر المستمر في الإنطلاقة الجامعية و ضعف الدافعية لدى الطلبة للتحصيل ، حيث يبذلون إلاّ الجهد القليل لتجاوز الإمتحان ، و تدني القيمة الاجتماعية للتعليم و تراجع قيمة الشهادات الجامعية بإعتبارها غير ضامنة لمكانة إجتماعية من ناحية و لمنصب عمل من ناحية أخرى ، وإنتشار اللامبالاة و عدم الإهتمام بنوعية التعليم المقدم ، و الجو المهني غير المشجّع و المثبط للعزائم و هو الأمر الذي أدّى إلى هجرة الكفاءات (نصيب ، 200 : 43) .
إلا أن واقع البحث العلمي في الجزائر يبقى دون المستوى رغم المحاولات الإنفرادية بسبب عدم تفعيل فرق البحث الجادة التي تُلبي الحاجات العلمية الحقيقية بهدف رفد المجتمع و نهضته بحيث لم تصل عدد ثلاثمئة و خمسة عشرين (325) مقالاً دولياً في تخصّص العلوم الإجتماعية من بين خمسة و عشرين (25) ألف مقال دولي في جميع التخصصات العلمية بجامعاتنا منذ الإستقلال إلى السنة الجامعية 2012- 2013 حسب ما أكّده عميد كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية بجامعة ابن خلدون تيارت تاج محمد خلال فعاليات الملتقى الوطني الأول حول دور العلوم الإجتماعية في تحقيق التنمية في الجزائر يومي 12 و 13 نوفمبر 2013 ، و في نفس السياق توصّلنا من خلال ملاحظتنا لإصدارات و منجزات علمية لأساتذة علم النفس و علوم التربية على

أنها قليلة جداً مقارنة بتعداد الأساتذة الخبراء و المختصين في التخصص مما يدل على إجحام الأساتذة على التدوين العلمي و هو ما يعكس صورة مبهمة تُثير التساؤل؟

و في نفس الاتجاه يلخص العضو السابق في الكناس و دكتور الوراثة الجزئية شاربل فريد وضعية التعليم العالي و البحث العلمي في الجزائر حيث يؤكد على أن الجزائر من البلدان القليلة في العالم التي لا يوجد فيها تسيير ديمقراطي للجامعات، وحسبما أورده الدكتور محمد بهلول على أن محدودية الحريات الأكاديمية ليس فقط من الناحية السياسية كما يظن البعض، بل من الناحية البيروقراطية في المحيط الجامعي و الأكاديمي فلا يمكن الحديث عن بحث علمي بالجزائر بدون حريات أكاديمية متطورة (سريز، 2011: 5).

و في نفس السياق تُشير راضية بوزيان (2010) على أن الجامعة الجزائرية تعيش منذ سنوات عديدة أزمة عميقة تمنعها من أداء وظيفتها فلا تكاد تمر سنة دون أن تكون مسرحاً لإضرابات الطلبة أو الأساتذة تعبيراً عن سخطهم و عدم رضاهم عن الوضع الراهن للجامعة التي أصبح لا يختلف إثنان على أنها لم تُعد قادرة على أداء مهمتها التقليدية في نشر المعرفة و نقلها عن طريق التعليم و التكوين، و أن هناك قناعة في الأوساط الاجتماعية و الأكاديمية في الوطن العربي مفادها أن إدارة الجامعات تفتقر إلى الكفاءة، وأن غالبية الجامعات و مؤسسات التعليم العالي في الوطن العربي تُعاني من انعدام الاستقلال الذاتي و ضخامة الأنظمة و التعليمات و غموضها و تناقضها. وتعدّ المستويات أو الحلقات الإدارية و الهرمية، وإهمال دور القيادات الإدارية الوسطى و التنفيذية، الأمر الذي ترثب عليه عجز في الإداريين المقتردين، وسيادة نمط إداري معروف باسم إدارة الطوارئ والأزمات (بوزيان، 2010: 34 و 42).

هذه النتيجة تعكس واقع العلاقات المهنية بأقسام علم النفس و علوم التربية بالجامعات الجزائرية وواقع المنظومة الجامعية ككل، بحيث لم ترق بعد إلى المستوى المطلوب من حيث الإتصال البيداغوجي و البحث العلمي و من مخرجاته عدم الرضا الوظيفي و الضغوط المهنية لدى أساتذة قسم علم النفس و علوم التربية بالجامعات الجزائرية فكيف لنا إصلاح الخطأ و إعادة تصحيح مسار المنظومة الجامعية و تجديدها وفق نظام الد. د و من ثم تحقيق أهداف التعليم العالي، و تطبيق مبادئ الجودة الشاملة في جامعتنا دون تحسين الوضعية الاجتماعية و المهنية لمصدر المعرفة و العلم المتمثل في الأستاذ الجامعي.

أمّا بالنسبة للرضا الوظيفي فقد أسفرت النتائج على مستوى مُرتفع من الرضا عن عمل الأستاذ في حد ذاته بحيث أنه من بين عشر (10) فقرات ستة فقرات (6) فقرات ذات اللون الأخضر بنسبة قدرها 60% المُفسّرة لجدول إستجابات أفراد العينة، و من العوامل المؤثرة في رفع مستوى الرضا عن عمل الأستاذ في هذه الدراسة عامل الأجر الشهري و ما يرتبط به من علاوات و منح و هي في مُقدمة العوامل المسؤولة عن رضا أساتذة القسم عن مهنتهم و المرتبطة بحيث عبّر 77% من الأساتذة أن الأجر الذي يحصلون عليه يُناسب ما يقومون به من مهام، و عبّر 84% بشعورهم بكفاية مهنة الأستاذية في حياتهم، و قد قالت لي أستاذة " حبي لمهنتي و تقديسي لها بحكم أنها حلم طفولتي يجعلني لا أهتم كثيراً للعامل المادي بل أهتمّ بعامل الإعتراف "، مع العلم أن 44% من أساتذة القسم مُتحصّلين على شهادة الدكتوراه (أساتذة محاضرين و أساتذة التعليم العالي) و أن المزايا المادية ترتبط بالشهادة و التأهيل العلمي بالدرجة الأولى، تليها سنوات الخدمة حيث يوجد نحو 66% من الأساتذة من زاولوا التدريس بالقسم لمدة تجاوزت العشر سنوات و هذه الشروط مُستوفاة في

أفراد العينة ، مع العلم أن تكوين و تأهيل أساتذة القسم في تخصص علم النفس يمكنهم و يساعدهم على التكيف و مواجهة مختلف مصادر الضغوط و مسببات عدم الرضا منها عامل الأجر ، بخلاف أساتذة يدرسون و يدرسون تخصصات أخرى ، و من ناحية تمثيلات و تصورات المجتمع لوظيفة الأستاذ الجامعي فقد عبر 85% من الأساتذة على أن المقربين منهم يحبذون مزاولة التدريس بالجامعة لقيمتها و مكانتها .

في حين أن بعد الرضا عن علاقات العمل فمن بين عشر (10) فقرات ثمانية (8) فقرات رمزت باللون الأحمر المُفسر لنتائج الجدول أعلاه الذي يُبين عدم الرضا عن العلاقات المهنية داخل القسم بين الأساتذة و إدارة قسم علم النفس و علوم التربية و الأساتذة فيما بينهم ، و هذا ما أكدته دراسة أجراها معمل البحوث المسحية بجامعة أوريغان (2002) في دراسة الرضا الوظيفي بين أعضاء هيئة التدريس على أن 17% فقط من أساتذة العلوم الإجتماعية راضيين عن عملهم و يرجع ذلك إلى عوامل مؤثرة ، و المتمثلة في الجامعة ، الروح المعنوية ، الإحساس بالالتزام ، و العلاقات مع الزملاء . (2006) بحيث أن 49% من الاطارات و من Cubiks و ما خلصت إليه دراسة مجلة العلوم الإجتماعية الأوروبية بينهم الأساتذة الجامعيين يشعرون بعدم الرضا .

و عليه أثبتت الدراسة رضا الأستاذ عن عمله في حد ذاته و عن عدم رضاه عن علاقاته المهنية خاصة مع إدارة القسم .

أما عن رضا أساتذة الجامعة عن علاقاتهم مع إدارة القسم من الناحية البحثية فقد كشفت مصفوفة الارتباطات عن وجود علاقة ارتباطية دالة إحصائية التي قُدّرت بـ 0.318 بين عملية الإتصال البحثي و عدم الرضا عن العمل بين الأساتذة و إدارة اقسام علم النفس و علوم التربية بالجامعات الجزائرية .

وهذا ما خلصت إليه عدة دراسات نذكر منها ، دراسة كل من شمسان (2001) و هيقان باليوم ، و كينمان ببريطانيا (2001)، و هينفارد بأستراليا (2002)، و تاريس بهولندا (2002) و دراسة القواسمي (1993) في فلسطين ، و محمد العدوان (1991) في الأردن ، و قادري حليلة (2010) في الجزائر ، و كانجي (2009) بالجامعات البريطانية ، و فوزية نور الدين (2009) بالجامعات الماليزية ، و دراسات قامت بها كل من جامعة ألدريد (2002) و جامعة منيسوتا (2002) حول المعاش النفسي - الإجتماعي و المهني للأستاذ الجامعي . و عليه لا يمكن تحقيق أهداف التعليم العالي، و تطبيق مبادئ الجودة الشاملة في جامعتنا دون تحسين الوضعية الإجتماعية و المهنية لمصدر المعرفة و العلم المتمثل في الأستاذ الجامعي، ألم يقل الفيلسوف الصيني لاوتسي منذ 26 قرناً : (المأخوذة عن بوعشة ، 2000: 123).

إن الخطأ أثناء العمل الطبي يمكن أن يؤدي بحياة إنسان ما أما الخطأ في العمل السياسي ، فيمكن أن يضع في خطر جيلاً بأكمله ، لكن الخطأ في العمل التربوي و الثقافي يمكن أن يجعل في خطر ألف و ألف جيل .»

قائمة المراجع :

- 1- أحمد سيد مصطفى (2005) : إدارة السلوك التنظيمي بنظرة معاصرة لسلوك الناس في العمل الناشر أحمد سيد مصطفى ، ص . ب : 14 المعادي الجديدة - القاهرة - مصر .
- 2- احمد ماهر (2003) : السلوك التنظيمي مدخل بناء المهارات ، الدار الجامعية للنشر - الإسكندرية.

- 3- العديلي ناصر محمد (1995) : السلوك الإنساني و التنظيمي ، منظور كلي مقارن ، الإدارة العامة للبحوث ، الرياض.
- 4- الرشدي هارون توفيق (1991) : الضغوط النفسية ، طبيعتها ، نظرياتها ، برنامج لمساعدة الذات في علاجها ، مكتبة الإنجلو مصرية ، القاهرة .
- 5- العمري بسام (1998) : اتجاهات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأردنية نحو أداء رؤساء الأقسام الأكاديمية، مجلة دراسات العلوم التربوية المجلد (25)، العدد (2)، عمان، الأردن.
- 6- الحمدي، فؤاد محمد (2000) : وضوح و صعوبة الأهداف و علاقتها بأداء رؤساء الأقسام العلمية في جامعة صنعاء رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الإدارة و الإقتصاد ، جامعة الكوفة ، العراق .
- 7- الرشدي ، فهد معتوق (2004) : الكفايات المهنية لدى رؤساء الأقسام الأكاديمية في جامعة الكويت ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة اليرموك ، إربد الأردن .
- 8- الوناس مزياني (2011) : من معوقات الإتصال التربوي في الجامعة الجزائرية دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، مجلة دراسات نفسية و تربوية مخبر تطوير الممارسات النفسية و التربوية ، العدد 7 ، ديسمبر 2011 ، جامعة ورقلة .
- 9- بارعة حمزة شقير (2009) : استخدام أساتذة جامعة دمشق للأنترنت و الإشباكات المحققة منها ، مجلة جامعة دمشق – المجلد 25- العدد الأول و الثاني .
- 10- اندرو دي سيزلاقي ومارك جي والاس ترجمة جعفر أبو القاسم احمد. راجع الترجمة علي محمد عبد الوهاب (1991) : السلوك التنظيمي و الأداء ، دار النشر الإدارة العامة للبحوث ، السعودية . بين أعضاء هيئة التدريس 11- حمدي إسماعيل أحمد و حمدان عبيد منصور (2011) : الرضا الوظيفي دراسة تطبيقية في جامعة الأنبار ، مجلة جامعة الأنبار العلوم الإقتصادية و الإدارية المجلد (4) العدد (7) ، العراق.
- 12- جمال علي الدهشان و جمال أحمد السيسى (2005) : أداء رؤساء الأقسام الأكاديمية لمسؤولياتهم المهنية وعلاقته برضا أعضاء هيئة التدريس عن عملهم ، عين شمس ، مصر .
- 13- عبد الفتاح صالح خليفات و منى خلف الملاحمة (2009) : الولاء التنظيمي و علاقته بالرضا الوظيفي لدى أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الخاصة الأردنية ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد 25 العدد 3 .
- 14- مصطفى حجازي (2000) : الإتصال الفعال في العلاقات الإنسانية و الإدارة ، المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع ، الطبعة الثالثة – مصر .
- 15- مصطفى منصوري (2004) : مصادر ضغوط العمل و علاقتها بالرضا الوظيفي و القلق و إرتفاع ضغط الدم الجوهري - دراسة تحليلية مقارنة بين المعلمين و أساتذة المرحلة الإكمالية - رسالة دكتوراه دولة تحت إشراف أ.د مباركي بوحفص ، جامعة وهران ، الجزائر .
- 16- مقدم عبد الحفيظ (1993) : الإحصاء و القياس النفسي و التربوي مع نماذج من المقاييس و الإختبارات ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون – الجزائر .
- 17 - Bechr,T . A , et Newman .J.D (1978) : Employer health and organizational effectiveness : a facet analysis , model and literature review , personal psychology winter pp 665-699.
- 18- Bergman Alexander et Uwamungu Bernard, (1999) : Encadrement et Comportement

édition ESKA , paris .

19- Beaudichon . Janin, (1999) : la Communication Processus, Formes et applications

Édition Armand colin , Paris , France .

20- Deslierres, Octobre (1986) : Pour la qualité de vie au travail : La communication ,
Ressources humaines .

الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها تلاميذ السنة الثالثة ثانوي – دراسة ميدانية ببعض ثانويات ولاية المسيلة –

أ/ براخية عبد الغنى جامعة تيارت

الملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى معرفة الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها تلاميذ السنة الثالثة ثانوي في ولاية المسيلة، ولتحقيق أهداف الدراسة قام الباحث بتطبيق اختبار يقيس الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها الأبناء، يتكون من ثمانية وأربعين (48) عبارة موزعة على خمسة (05) أبعاد هي الحماية الزائدة والتسلط والقسوة والتفرقة والتذبذب والإهمال، على عينة عشوائية مكونة من مائتين وأربعة (204) تلميذ موزعين على (خمس 05) ثانويات بولاية المسيلة، حيث تم التوصل من خلال النتائج إلى أنه لا يوجد اتجاه واحد سائد لدى الآباء والأمهات في التنشئة الاجتماعية كما يدركها أفراد العينة، فقد كانت اتجاهات الآباء تتسم بنوع من الإيجابية، من حيث الديمقراطية والاستقلالية وعدم التفرقة بين أبنائهم حسب الجنس أو الأكبر سناً، بالإضافة إلى تشجيع أبنائهم ودعمهم. لكن هناك اتجاه واحد سلبي سائد هو الحماية الزائدة من جانب الأمهات لأبنائهن، كما أشارت النتائج إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاهاتهم نحو التنشئة الاجتماعية في بعد الحماية الزائدة لصالح الأمهات وفي بعد الإهمال لصالح الآباء. (الكلمات المفتاحية: الاتجاهات الوالدية، التنشئة الاجتماعية).

Abstract:

This study aimed to find out parenting trends in socialization as perceived by students of third year high school in the state of gas, and to achieve the objectives of the study, the researcher applying the test measures the trends parental upbringing as perceived by children, consists of forty-eight (48) spread over five words (05) dimensions are extra protection and bullying and cruelty and discrimination and volatility and neglect, on a random sample of two hundred and four (204) pupil distributed (five 05) high schools liquefied state, where he was reached by the results that there is no one way to prevail upon the parents of socialization as perceived by the respondents, it was parents trends characterized by a kind of positive, in terms of democracy, independence and non-discrimination between their children by sex or older, as well as to encourage and support their children. But there is one negative trend is prevalent extra protection by mothers to their children, and the results indicated a statistically significant differences between fathers and mothers in their attitudes towards socializing in after extra protection for the benefit of mothers and in favor of neglect after parents differences.

(Keywords: Trends parenting, socialization).

1. إشكالية الدراسة:

يجمع المختصون في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي على أن الأسرة هي الوحدة البيولوجية والنفسية والاجتماعية الأولى التي ينمو فيها الفرد، ويتفاعل مع أعضائها ويكتسب منها معايير المجتمع وقيمه وعاداته

وتقاليد، فالطفل على حد تعبير " دوركايم " يولد صفحة بيضاء خالية من المعارف والخبرات والسلوكيات الاجتماعية، وتتولى الأسرة والوالدين على وجه الخصوص تحويله من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " (صحيح البخاري، حديث رقم 1358)، ولاشك أن هذا الحديث يؤكد أهمية التنشئة الاجتماعية في تكوين معتقدات الأفراد منذ مراحل الطفولة الأولى.

فالأسرة تؤدي دوراً هاماً وإيجابياً في صقل شخصية الفرد وتكوينها لبناء ذاتيته الداخلية فهي تمثل المدرسة الأولى التي تقوم بعملية التنشئة والتطبيع الاجتماعي للفرد، إذ تزوده بالأسس التي تبني عليها شخصيته، فيتعلم منها كيف ينظر إلى ذاته، وكيف يتعامل مع المشكلات التي تواجهه، وكيف يتعامل مع الناس المحيطين به، كما يتعلم المسؤولية وحرية الرأي، وديمقراطية القرار، وما له من حقوق وما عليه من واجبات، ويتعرف على الأساليب السلوكية التي عليه أن يمتثلها كأسلوب في حياته¹، وقد أكد علماء التحليل النفسي على أهمية الخبرات الأسرية الأولى في سلوك الفرد واتجاهاته، فيقول " فرويد " مثلاً أن الأبوين الذين يبالغان في حماية الطفل، ويفرقانه في الحب يوقظان فيه الاستعداد لأمراض العصاب².

وترى الحميدي (2004) أن الأسرة التي تتميز بالاستقرار والثبات في معاملة أبنائها تعمل جاهدة على إشباع حاجاتهم البيولوجية والنفسية لبناء شخصية أبنائهم البناء السليم في حين أن الأسرة المضطربة يعاني أبنائها من الانحرافات السلوكية والاضطرابات النفسية وتعد مسؤولة عن سماتهم الشخصية من قلق وعدوان وعناد³. إن التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة لا تقتصر فقط على مرحلة الطفولة، ولكنها تستمر في المراهقة والرشد وحتى سن الشيخوخة، وتعمل خلال ذلك على بناء شخصية الفرد المتوازنة، وتشكيل وعيه وإدراكه لذاته ومحيطه بما يتماثل مع قيم واتجاهات ومعايير مجتمعه وعاداته. ويتبنى الوالدان في تنشئة الطفل أساليب وأنماط واتجاهات مختلفة لها تأثير بالغ الأهمية في تكوينه النفسي والاجتماعي، وتزويده بالمعارف والخبرات الاجتماعية اللازمة من أجل تكيفه مع محيطه، فهناك فرق بين شخصية فرد نشأ في جو من التدليل والعطف والحنان المفرط، وشخصية فرد آخر نشأ في جو من الصرامة والقسوة، وآخر نشأ في جو من التشجيع والديمقراطية، هناك فرق بين هؤلاء الأفراد في سلوكياتهم وسماتهم الشخصية يرجع إلى نوعية العلاقة مع آبائهم وأمهاتهم، كما يرجع إلى اتجاهات الأبوين نحو الطفل ونحو أساليب تنشئته. وهذه الاتجاهات والأساليب تختلف ما بين اتجاهات سلبية في المعاملة، كالتمسك والتدليل والحماية الزائدة والقسوة والتذبذب والفرقة بين الأبناء، وإخضاعهم للكثير من القيود، واتجاهات إيجابية تتمثل في التعرف على قدرات الأبناء وتوجيههم توجيهاً سليماً بناءً على قدراتهم وإمكاناتهم، وإتاحة الفرصة أمامهم للتفاعل والتوافق مع البيئة الخارجية وتشجيعهم ومساندتهم اجتماعياً.

يتفق الباحثون والمختصون في علم النفس الاجتماعي على وجه الخصوص على أهمية الاتجاهات والأساليب التربوية في تكوين شخصية الفرد ونموه النفسي والاجتماعي، حيث يرى شفيق رضوان (2008) أن العلاقة والاتجاهات الوالدية المشبعة بالحب والقبول والثقة تساعد الطفل على أن ينمو ويحب غيره ويتقبل الآخرين ويثق فيهم، والاتجاهات السيئة والظروف غير المناسبة مثل الحماية الزائدة أو الإهمال والتسلط تؤثر تأثيراً سيئاً على النمو وعلى الصحة النفسية للطفل⁴، ويرى فؤاد حيدر (1994) أن الأساليب والاتجاهات التربوية القائمة على الديمقراطية والتسامح بين أهل والأولاد تعتبر من السبل الأساسية لإقامة علاقات أسرية صحيحة ومتماسكة،

مما يسمح للطفل أن يكون طرفاً فاعلاً فيها، وهذا ما يمكنه من النمو والنضج والتفتح، وتنمية قدراته واستقلالته، والتخلص من التبعية للأهل والإعتماد على الذات وتعزيز الثقة بالنفس، أما الأسر التي تتبع نهجاً تربوياً يقوم على الإستبداد والتسلط والقسوة والقمع، حيث أن الطفل يبدو منقاداً إلى رغبات الأهل، وهذا يؤدي إلى قتل روح المبادرة والإستقلالية عند الطفل، وجعله يعيش في حالة من التمرد والرفض لما يفرض عليه ومعارضته المستمرة للأهل، وهذا الأسلوب أيضاً يجعل الطفل يعيش في حالة من القلق والتوتر والإنفعال، إن الشعور بالإطمئنان في المراحل الأولى من حياة الفرد تكمن أهميته في تزويد الطفل بآليات دفاعية في المراحل اللاحقة من العمر للتعامل مع الصعاب التي تواجهه، فالتفاعل مع الطفل بإيجابية ومحبة والتفهم لقدراته واستعداداته والتدريب والتعليم بما يتناسب مع مرحلة النضج والبلوغ لجهازه العصبي والعضلي يساهم في تفتح شخصيته وتنمية قدراته الإبداعية⁵.

ويشير السروطي (2009) إلى أن التنشئة الأسرية التسلطية تضعف تحقيق الطفل لذاته، فلا تمكنه من إشباع حاجاته كما يحسها بنفسه، وتؤدي إلى تشكيل شخصية ضعيفة تخشى السلطة، وخجولة لا تثق بنفسها ولا بغيرها وعدوانية، وغير مستقلة تعتمد على غيرها⁶، بل ويذهب " هشام شرابي " إلى أبعد من هذا حين يقرر في إحدى دراساته بأن سبب ما يعانيه المجتمع العربي من السلبية والإتكالية والخضوع، يعود إلى نمط التنشئة الاجتماعية الذي يتسم بالإتجاه التسلطي السائد لدى الكثير من الأسر العربية⁷، وفي دراسة محمد المومني (2006) لأثر نمط التنشئة الأسرية في الأمن النفسي توصل إلى أن الأفراد الذين نشأوا في أسر متسامحة كانوا أكثر شعوراً بالأمن النفسي من الأفراد الذين نشأوا في أسر متسلطة، كما يرى هورني (Horney) أن أساليب التنشئة الأسرية السلبية كالتسلط وعدم احترام حاجات الطفل الفردية وحرمانه من الحنان أو الحماية الزائدة من أهم مصادر القلق وعدم الشعور بالأمن النفسي، وأن تقبل الطفل وتلبية حاجاته المختلفة قد يشبع الحاجة إلى الأمن لديه ويجعله ينمو ليصبح شخصاً سوياً ومتوافقاً نفسياً واجتماعياً⁸.

ويشير مصطفى فهمي (1967) إلى أهمية أسلوب المعاملة الوالدية في تشكيل شخصية الطفل وتكوين اتجاهاته وميوله ونظرته إلى الحياة، فالطفل الذي يعيش في جو يسوده العطف والحنان والطمأنينة يستطيع أن ينمو نمواً سليماً يتميز بالقدرة على التكيف مع نفسه ومع المجتمع الذي يعيش فيه⁹، كما يشير مجدي حبيب (1995) في دراسته حول أساليب المعاملة الوالدية وحجم الأسرة كمحددات مبكرة لتطرف الأبناء واستجاباتهم، إلى أن أساليب المعاملة الوالدية واتباع الأسر عدة تصرفات ومنهجيات في التعامل مع المراهق، كلها مؤثرات تنعكس على شخصية المراهق وتصرفاته في المجتمع¹⁰، كما يرى صالح ليري (2006) في دراسته حول العلاقة بين الأسرة وتصرفات المراهقين، أن أفضل سياسة تتبع مع المراهق هي سياسة احترام رغباته في التحرر والاستقلال دون إهمال رعايته وتوجيهه، حيث ستؤدي مثل هذه السياسة إلى خلق جو من الثقة بين الآباء وأبنائهم من جهة، كما ستؤدي من جهة أخرى إلى وضع خطة واضحة نحو تكيف سليم يساعد المراهق على النمو والنضج والإتزان¹¹. وأشارت دراسة عبد الله عويدات (1997) حول أثر أنماط التنشئة الأسرية على الإنحرافات السلوكية عند طلبة الصفوف الثامن والتاسع والعاشر، إلى أن المشكلات السلوكية تقل عند أبناء الوالدين الديمقراطيون وترتفع بشكل جوهري عندما يكون الأب متسلطاً والأم ديمقراطية¹²، وتوصل نبيل عتروس (2010) في دراسته لأساليب المعاملة الوالدية الخاطئة وعلاقتها ببعض المشكلات السلوكية إلى أن أساليب القسوة والتسلط والإهمال والنبذ واللامبالاة ارتبطت إيجابياً بمشكلكتي الغضب والعدوان، بينما ارتبط أسلوب

الحماية والتدليل والتساهل بمشكلة العناد¹³ ، وفي دراسة نبيلة خلال (2012) حول التذبذب كنمط جديد في المعاملة الوالدية وعلاقته ببعض متغيرات الصحة النفسية، توصلت إلى أنه كلما كانت ردود أفعال الآباء تميل إلى التذبذب كلما انخفضت درجة تقدير الذات بينما ترتفع درجة الإكتئاب لديهم¹⁴ ، وخلص الراجي (2011) في دراسته لأساليب المعاملة الوالدية والسلوك العدواني إلى وجود ارتباط دال إحصائياً بين إدراك الأبناء لمظاهر الرفض الوالدي ومستوى السلوك العدواني¹⁵.

كما تؤثر الأساليب والاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية على قدرة الأفراد على التوافق النفسي والاجتماعي، فقد خلصت دراسة يوسف عبد الفتاح (1992) إلى وجود علاقة بينة مكونات التنشئة الاجتماعية كما يدركها الأبناء وتوافقهم وقيمهم¹⁶ ، وفي دراسة سليمان ربحاني وآخرون (2009) حول أنماط المعاملة الوالدية وأثرها على التكيف النفسي، توصل إلى أن نمط المعاملة الإيجابي يساهم في رفع مستوى التكيف النفسي لدى المراهقين مقارنة بالنمط المتضارب والسلبي، من حيث تقدير الذات وإشباع الحاجات والعلاقات الأسرية والمعايير الاجتماعية والأعراض العصابية¹⁷ ، وخلص عبد الرحمن البليهي (2008) في دراسته لأساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بالتوافق النفسي لدى طلاب المرحلة الثانوية إلى أن كل محاور التوافق الأربعة (الصحي والمنزلي والاجتماعي والانفعالي) وكذلك التوافق بوجه عام لها علاقة موجبة بجميع أساليب المعاملة الوالدية الإيجابية وهي التسامح والتعاطف والوالدي والتوجيه نحو الأفضل والتشجيع، وأن جميعها لها علاقة سالبة بجميع أساليب المعاملة الوالدية السلبية وهي الإيذاء الجسدي والحرمان والقسوة والإذلال والرفض والحماية الزائدة والتفرقة والتدخل الزائد سواء كانت من جانب الآباء أو الأمهات¹⁸.

وللإلمام بجوانب الدراسة يمكن طرح التساؤلات التالية :

- ما هي الاتجاهات الوالدية السائدة في التنشئة الاجتماعية كما يدركها أفراد عينة الدراسة؟
 - هل توجد فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في التنشئة الاجتماعية كما يدركها عينة الدراسة؟
 - هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية في الاتجاهات الوالدية كما يدركها أفراد العينة تعزى إلى متغير الجنس؟
2. أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة الحالية إلى:

- التعرف على اتجاهات الوالدين في التنشئة الاجتماعية كما يدركها عينة من تلاميذ الثالثة الثانوي .
 - التعرف على الفروق الموجودة بين الآباء والأمهات في التنشئة الاجتماعية كما يدركها عينة من تلاميذ الثالثة ثانوي.
 - التعرف على الفروق الموجودة بين أفراد العينة في إدراكهم للاتجاهات الوالدية تعزى إلى متغير الجنس.
3. تحديد المفاهيم:

هي ما يقرره الأبناء من مفاهيم وانطباعات بالمدرجات التي تتكون لديهم عن اتجاهات الوالدين في تنشئتهم (محمد توفيق علي ، 1993).

إحرائيل : هي مجموع الدرجات التي يحصل عليها التلميذ في مقياس الاتجاهات الوالدية كما يدركها الأبناء، وتعتبر الدرجة المرتفعة عن الاتجاهات السلبية والدرجة المنخفضة تعبر عن الاتجاهات الإيجابية في التنشئة الاجتماعية.

وتتمثل أبعاد مقياس الاتجاهات الوالدية في:

- اتجاه الحماية الزائدة: يتمثل في قيام أحد الوالدين أو كلاهما بالإفراط في متابعة كل تحركات الابن خوفا من تعرضه للخطر وفرض نظاما معيناً عليه خاصة فيما يتعلق بعلاقاته الخارجية مع أقرانه، ويتم التعرف عليه في الدراسة من خلال الدرجة التي يحصل عليها الابن في بعد الحماية الزائدة.
- اتجاه التسلط والقسوة: ويتمثل في قيام أحد الوالدين أو كلاهما بفرض رأيه على الطفل واستعمال أسلوب العقاب البدني والتهديد، والحد من حريته بأي شكل من الأشكال، كما يتضمن هذا الإتجاه في التنشئة الوقوف ضد رغبات الطفل التلقائية حتى وإن كانت مشروعة أو منعه من القيام بسلوك معين، ويتم التعرف عليه في الدراسة من خلال الدرجة التي يحصل عليها الابن في بعد التسلط والقسوة.
- اتجاه التفرقة: ويتمثل تمييز أحد الوالدين أو كلاهما بين الأبناء في المعاملة على أساس الجنس (ذكر - أنثى) أو ترتيب الولادة (الابن الأكبر) بشكل يولد الغيرة والحقد والكراهية ويخلق الصراع بين الأبناء، ويتم التعرف عليه في الدراسة من خلال الدرجة التي يحصل عليها الابن في بعد التفرقة.
- اتجاه التذبذب: ويتمثل في عدم استقرار أحد الوالدين أو كلاهما على استخدام أساليب الثواب والعقاب، فيمكن أن يثاب الابن على سلوك ما مرة ويعاقب عليه مرة أخرى، ويتم التعرف عليه في الدراسة من خلال الدرجة التي يحصل عليها الابن في بعد التذبذب.
- اتجاه الإهمال: ويتمثل في اللامبالاة بإشباع حاجات الابن الفيزيولوجية والنفسية الضرورية، وعدم إثابته أو عقابه على سلوكياته، وعدم تشجيعه أو تحفيزه بشكل عام، ويتم التعرف عليه في الدراسة من خلال الدرجة التي يحصل عليها الابن في بعد الإهمال.

4. المنهج المعتمد في الدراسة:

اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي الذي يعرف بأنه: " طريقة من طرق التحليل والتفسير بشكل علمي منظم من اجل الوصول إلى أغراض محددة لوضعية اجتماعية أو مشكلة اجتماعية أو سكان معينين" ¹⁹.

وقد اختير هذا المنهج لتلائمه مع طبيعة الدراسة النظرية والميدانية وتساؤلاتها، حيث تم وصف وتصنيف وتحليل المعلومات والبيانات للوصول على إجابات على تساؤلات الإشكالية.

5. عينة الدراسة:

تم اختيار عينة عشوائية مكونة من 204 تلميذ (ذكورا وإناثا) من 05 ثانويات بولاية المسيلة، وموزعة على 04 تخصصات، كما هي مبينة في الجدول التالي:

جدول رقم (01): يبين توزيع أفراد العينة الأساسية حسب الجنس.

الجنس	العدد	النسبة المئوية
ذكر	72	35.3
أنثى	132	64.7
المجموع	204	100

نلاحظ من الجدول أعلاه أن نسبة الإناث في العينة الأساسية أيضا تفوق نسبة الذكور حيث تقدر بـ 35.3 % وهي أكبر من نسبة الذكور المقدرة بـ 64.7 %، وهذا راجع إلى ما لاحظناه في الأقسام حيث كانت عدد الإناث في الأقسام أكبر من الذكور.

جدول رقم (02) : يبين توزيع أفراد العينة الأساسية حسب التخصص.

التخصص	العدد	النسبة المئوية
علوم تجريبية	101	49.50%
آداب ولغات	79	38.72%
تقني رياضي	07	3.44%
تسيير واقتصاد	17	8.34%
المجموع	204	100%

نلاحظ من الجدول أن نسبة التلاميذ في تخصص العلوم التجريبية تعد الأكبر بمقدار 49.5 %، ثم نسبة التلاميذ في تخصص آداب وفلسفة ولغات بمقدار 38.72 %، وذلك بعد دمج تخصص آداب وفلسفة مع تخصص آداب ولغات، ويرجع هذا الاختلاف في النسب إلى التوجه السياسي للبلاد من حيث أنها تدعم التخصصات الطبيعية على حساب التخصصات الأدبية، بالإضافة إلى التوجه الموجود لدى المجتمع الجزائري نحو التخصصات العلمية بالمقارنة بالأدبية.

6. أداة الدراسة:

استخدم الباحث مقياس إمام 1975، والذي استعمله علي سعد آل محرز في دراسة الإتجاهات الوالدية كما يدركها الطلاب الصم بالمرحلة المتوسطة والثانوية وعلاقتها بمفهوم الذات، كما تم استخدامه أيضا من طرف سوسن رشاد (2009) في دراسة الذكاء الوجداني وعلاقته بالإتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما تدركها طالبات مرحلتى التعليم الثانوي والجامعي، يرجع سبب اعتمادنا على استخدام هذا المقياس نظرا لتناسب أبعاده مع التصنيف المعتمد في الجانب النظري، ولسهولة عباراته، ويتكون هذا المقياس من (41) عبارة موزعة على (04) أبعاد فرعية.

لكن وبعد عرض المقياس علة مجموعة من المحكمين ووفق اقتراحاتهم تم إضافة 08 عبارات للمقياس، وإجراء بعض التعديلات على المقاييس الفرعية، ليتكون المقياس في صورته الأولية من 48 عبارة موزعة على 05 أبعاد فرعية، وقد تم التأكد من الخصائص السيكومترية للمقياس من حيث صدقه وثباته.

1.6. صدق المقياس: تم عرض المقياس على عشرة (10) أساتذة من قسم علم النفس وعلوم التربية جامعة الجزائر 3، وجامعة فرحات عباس - سطيف، وجامعة المسيلة، ووفق واقتراحاتهم تم إضافة بعض العبارات للمقياس، حيث قام هؤلاء المحكمين بتحكيم العبارات من حيث الصياغة اللغوية ومدى تناسبها مع البعد، ومدى تناسبها لمقياس الإتجاهات الوالدية في التنشئة كما يدركها الأبناء، ليصبح المقياس في صورته النهائية مكونا من ثمان وأربعين (48) عبارة موزعة على خمس (05) أبعاد فرعية كالآتي:

جدول رقم (03): جدول يبين توزيع عبارات مقياس الإتجاهات الوالدية في التنشئة على الأبعاد الفرعية.

البعد	العبارات	عدد البنود

10	1، 5، 7، 10، 17، 22، 35، 40، 29، 38	اتجاه الحماية الزائدة / الاعتدال
13	2، 8، 12، 19، 33، 28، 34، 39، 25، 15، 48، 27، 42	اتجاه التسلط والقسوة / الديمقراطية
5	14، 3، 6، 9، 16	اتجاه التفرقة / المساواة
7	4، 18، 20، 26، 24، 36، 45	اتجاه التذبذب / الإتساق
13	11، 21، 23، 30، 31، 32، 37، 41، 43، 13، 47، 46، 44	اتجاه الإهمال / التدعيم والتشجيع

2.6. ثبات المقياس: تم حساب الثبات لكل بعد على حدة وللمقياس ككل باستعمال معامل ألفا كرونباخ، والجدول التالي يبين نتائج حساب الثبات:

جدول رقم (04) :

يبين نتائج معامل ألفا كرونباخ لمقياس الإتجاهات الوالدية في التشئة الإجتماعية كما يدركها الأبناء - صورة الأب.

البعد	معامل ألفا كرونباخ
اتجاه الحماية الزائدة / الاعتدال والسواء	0.32
اتجاه التسلط والقسوة / الديمقراطية	0.61
اتجاه التفرقة / المساواة	0.46
اتجاه التذبذب / الإتساق	0.54
اتجاه الإهمال / التدعيم والتشجيع	0.76
الدرجة الكلية	0.65

كما هو مبين في الجدول رقم (04) تم التأكد من ثبات مقياس الإتجاهات الوالدية في التشئة الإجتماعية كما يدركها الأبناء - صورة الأب باستعمال معامل ألفا كرونباخ، والملاحظ أن كل معاملات الأبعاد مرتفعة فيما عدا البعد الأول، والخاص باتجاه الحماية الزائدة في مقابل الاعتدال والسواء حيث كانت نتيجته 0.32، في حين كان معامل الثبات للمقياس ككل مرتفع حيث قدر بـ 0.65، مما يمكننا القول بأن المقياس يتمتع بدرجة مرضية من الثبات، وبالتالي يمكن الإعتماد عليه في الدراسة الأساسية.

جدول رقم (05) :

يبين نتائج معامل ألفا كرونباخ لمقياس الإتجاهات الوالدية في التشئة الإجتماعية كما يدركها الأبناء - صورة الأم.

البعد	معامل ألفا كرونباخ
اتجاه الحماية الزائدة / الاعتدال والسواء	0.25
اتجاه التسلط والقسوة / الديمقراطية	0.50
اتجاه التفرقة / المساواة	0.54
اتجاه التذبذب / الإتساق	0.47

0.62	اتجاه الإهمال / التدعيم والتشجيع
0.61	الدرجة الكلية

كما هو مبين في الجدول رقم (05) تم التأكد من ثبات مقياس الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها الأبناء - صورة الأم باستعمال معامل ألفا كرونباخ، والملاحظ أن كل معاملات الأبعاد تتميز بدرجة مرضية من الثبات، في حين كان معامل الثبات للمقياس ككل مرتفع حيث قدر بـ 0.61، مما يمكننا القول بأن المقياس يتمتع بدرجة مرضية من الثبات، وبالتالي يمكن الإعتماد عليه في الدراسة الأساسية.

7. عرض نتائج الدراسة ومناقشتها:

1.7. نتائج التساؤل الأول:

نص التساؤل:- ما هو الاتجاه الوالدي السائد في التنشئة الاجتماعية كما يدركه أفراد عينة الدراسة؟
للإجابة على هذا السؤال قام الباحث بمعرفة الاتجاه الوالدي لكل صورة على حدة، وفيما يأتي نوضح ذلك:

أ / صورة الأب: من أجل معرفة الاتجاه الوالدي السائد في صورة الأب، تم حساب المتوسط الحسابي لكل بعد من أبعاد مقياس الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية، واتضح من النتائج أن هناك عدة اتجاهات سائدة في تنشئة الآباء لأبنائهم، والجدول التالي يوضح النتائج:

جدول رقم (6):

يبين المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لاستجابات التلاميذ لكل بعد من أبعاد مقياس الاتجاهات

الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها الأبناء - صورة الأب.

البعد	الدرجة الدنيا	الدرجة القصوى	المتوسط النظري	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	اختبار "t"	مستوى الدلالة
اتجاه الحماية الزائدة / الإعتدال	20	00	10	11.06	3.04	0.29	غير دال
اتجاه التسلط / الديمقراطية	26	00	13	9.92	4.56	9.64 -	0.01
اتجاه التفرقة / المساواة	10	00	05	3.02	2.24	12.5 -5	0.01
اتجاه التذبذب / الإتساق	14	00	7	7.40	3.06	1.87	غير دال
اتجاه الإهمال / التدعيم والتشجيع	26	00	13	8.75	5.76	10.5 -1	0.01
الدرجة الكلية	96	00	48	40.16	9.59	11.6 -5	0.01

نلاحظ من الجدول (6) أنه لا يوجد اتجاه واحد سائد لدى الآباء في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء، وإنما هناك عدة اتجاهات تتميز بالإيجابية هي: الديمقراطية والمساواة والاتساق والتشجيع والتدعيم وهذا ما تؤكدته نتيجة اختبار t لعينة واحدة، حيث تبين وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المتوسط النظري والمتوسط الحسابي لهذه الأبعاد عند مستوى دلالة 0.01 لصالح المتوسط النظري وبالتالي فإن الآباء لديهم اتجاهات إيجابية

في التشئة الإجتماعية، كما أكدته أيضا نتيجة اختبار t بين المتوسط الحسابي للدرجة الكلية والمتوسط النظري.

ب/ صورة الأم: من أجل معرفة الإتجاه الوالدي السائد في صورة الأم، تم حساب المتوسط الحسابي لكل بعد من أبعاد مقياس الإتجاهات الوالدية في التشئة الإجتماعية، واتضح من النتائج أن هناك عدة اتجاهات سائدة في تشئة الأمهات لأبنائهم وهي تقريبا نفسها الإتجاهات السائدة لدى الآباء والجدول التالي يوضح النتائج:

جدول رقم (7):

يبين المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لاستجابات التلاميذ لكل بعد من أبعاد مقياس الاتجاهات الوالدية في التشئة الإجتماعية كما يدركها الأبناء - صورة الأم.

البعد	الدرجة الدنيا	الدرجة القصوى	المتوسط النظري	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	اختبار "t"	مستوى الدلالة
اتجاه الحماية الزائدة / الإعتدال	20	00	10	12.56	3.04	12.06	0.01
اتجاه التسلط / الديمقراطية	26	00	13	10.32	4.04	-5.92	0.01
اتجاه التفرقة / المساواة	10	00	05	2.87	2.13	-14.23	0.01
اتجاه التذبذب / الإتساق	14	00	07	7.24	3.07	1.14	غير دال
اتجاه الإهمال / التدعيم والتشجيع	26	00	13	7.11	4.30	-19.55	0.01
الدرجة الكلية	96	00	48	40.12	8.83	-12.74	0.01

نلاحظ من الجدول (07) أنه لا يوجد اتجاه واحد سائد لدى الأمهات في التشئة الإجتماعية كما يدركه الأبناء، وإنما هناك عدة اتجاهات تتميز بالإيجابية واتجاه واحد يتميز بالسلبية هي: الديمقراطية والمساواة والاتساق والتشجيع والتدعيم، والاتجاه السلبي هو الحماية الزائدة وهذا ما تؤكدته نتيجة اختبار t لعينة واحدة، حيث تبين وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المتوسط النظري والمتوسط الحسابي لهذه الأبعاد عند مستوى دلالة 0.01 لصالح المتوسط النظري وبالتالي فإن الأمهات لديهم اتجاهات إيجابية في التشئة الإجتماعية فيما عدا اتجاه واحد هو الحماية الزائدة، كما أكدته أيضا نتيجة اختبار t بين المتوسط الحسابي للدرجة الكلية والمتوسط النظري.

8- نتائج التساؤل الثاني:

نص التساؤل: هل توجد فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في الإتجاهات الوالدية للتشئة الإجتماعية كما يدركها أفراد عينة الدراسة؟ وللإجابة على هذا التساؤل تم استعمال اختبار " t " لعينتين متشابهتين لأن العينة نفسها، ويكمن اعتبار الصورتين قياسين مختلفين، ومنه معرفة الفروق بين درجات أفراد العينة في صورة الأب وصورة الأم لكل بعد على حدة ثم الدرجة الكلية كالآتي:

أ / اتجاه الحماية الزائدة:

جدول رقم (08): يبين نتائج اختبار " t " للفروق بين أفراد العينة في إدراكهم لاتجاه الحماية الزائدة للآباء والأمهات في التشبث الإجتماعية.

المتغير	الوالد	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة t	مستوى الدلالة
اتجاه الحماية الزائدة	أب	204	11.06	3.14	-7.83	0.01
	أم	204	12.56	3.04		

يبين الجدول رقم (08) الفرق بين أفراد عينة الدراسة في إدراكهم لاتجاه الحماية الزائدة في التشبث الإجتماعية لدى الآباء ولدى الأمهات، حيث تم استعمال اختبار " t " لعينتين متشابهتين على اعتبار أن العينة نفسها، ونلاحظ من الجدول وجود فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه الحماية الزائدة كما يدركه أفراد عينة الدراسة لصالح الأمهات، حيث أن قيمة " t " تساوي (-7.83) وهي دالة عند مستوى 0.01، كما أي أن الأمهات أكثر اتجاها للحماية الزائدة في التشبث الإجتماعية كما يدركه الأبناء من الآباء.

ب/ اتجاه التسلط والقسوة:

جدول رقم (09) يبين نتائج اختبار " t " للفروق بين أفراد العينة في إدراكهم لاتجاه التسلط والقسوة للآباء والأمهات في التشبث الإجتماعية.

المتغير	الوالد	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة t	مستوى الدلالة
اتجاه التسلط والقسوة	أب	204	9.92	4.56	-1.40	غير دالة
	أم	204	10.32	4.04		

يبين الجدول رقم (09) الفرق بين أفراد عينة الدراسة في إدراكهم لاتجاه التسلط والقسوة في التشبث الإجتماعية لدى الآباء ولدى الأمهات، ونلاحظ من الجدول عدم وجود فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه التسلط والقسوة كما يدركه أفراد عينة الدراسة، حيث قدرت قيمة " t " ب (-1.40)، وهي غير دالة إحصائياً.

ج/ اتجاه التفرقة:

جدول رقم (10) يبين نتائج اختبار " t " للفروق بين أفراد العينة في إدراكهم لاتجاه التفرقة للآباء والأمهات في التشبث الإجتماعية.

المتغير	الوالد	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة t	مستوى الدلالة
اتجاه التفرقة	أب	204	3.02	2.24	1.24	غير دالة
	أم	204	2.87	2.13		

يبين الجدول رقم (10) الفرق بين أفراد عينة الدراسة في إدراكهم لاتجاه التفرقة في التشئة الإجتماعية لدى الآباء ولدى الأمهات، ونلاحظ من الجدول عدم وجود فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه التفرقة كما يدركه أفراد عينة الدراسة، حيث قدرت قيمة "t" بـ (1.24)، وهي غير دالة إحصائية.

د / اتجاه التذبذب:

جدول رقم (11) يبين نتائج اختبار "t" للفرق بين أفراد العينة في إدراكهم لاتجاه التذبذب للآباء والأمهات في التشئة الإجتماعية.

المتغير	الوالد	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة t	مستوى الدلالة
اتجاه التذبذب	أب	204	7.40	3.06	0.89	غير دالة
	أم	204	7.24	3.07		

يبين الجدول رقم (11) الفرق بين أفراد عينة الدراسة في إدراكهم لاتجاه التذبذب في التشئة الإجتماعية لدى الآباء ولدى الأمهات، ونلاحظ من الجدول عدم وجود فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه التذبذب كما يدركه أفراد عينة الدراسة، حيث قدرت قيمة "t" بـ (0.89)، وهي غير دالة إحصائية.

هـ / اتجاه الإهمال:

جدول رقم (12) يبين نتائج اختبار "t" للفرق بين أفراد العينة في إدراكهم لاتجاه الإهمال للآباء والأمهات في التشئة الإجتماعية.

المتغير	الوالد	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة t	مستوى الدلالة
اتجاه الإهمال	أب	204	8.75	5.76	4.92	0.01
	أم	204	7.11	4.30		

يبين الجدول رقم (12) الفرق بين أفراد عينة الدراسة في إدراكهم لاتجاه الإهمال في التشئة الإجتماعية لدى الآباء ولدى الأمهات، ونلاحظ من الجدول وجود فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه الحماية الزائدة كما يدركه أفراد عينة الدراسة لصالح الأمهات، حيث أن قيمة "t" تساوي (4.92) وهي دالة عند مستوى 0.01، أي أن الآباء أكثر اتجاهًا للإهمال في التشئة الإجتماعية كما يدركه الأبناء من الأمهات.

و / الدرجة الكلية:

جدول رقم (13) يبين نتائج اختبار "t" للفرق بين أفراد العينة في إدراكهم لإتجاهات الآباء والأمهات في التشئة الإجتماعية.

المتغير	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة اختبارات t	مستوى الدلالة
الإتجاهات الوالدية	صورة الأب	204	40.16	0.08	غير دالة
	صورة الأم	204	40.12		

يتبين من الجدول رقم (13) عدم وجود فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاهات التنشئة الاجتماعية كما يدركها أفراد عينة الدراسة، حيث قدرت قيمة "t" بـ (0.08) وهي غير دالة إحصائياً، وكما نلاحظ من الجدول فالمتوسطين متقاربين جداً.

9. نتائج التساؤل الثالث:

نص التساؤل: هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية في الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها الأبناء تعزى لمتغير الجنس؟

وقد تم استخدام اختبار "t" لمعرفة الفروق بين الجنسين والجدول التالي تبين نتائج الفرق بين الذكور والإناث في كل بعد من أبعاد الاتجاهات الوالدية والدرجة الكلية لصورة الأب وصورة الأم والصورتين معاً:

1/ صورة الأب:

جدول رقم (14): يبين نتائج اختبار "t" للفروق بين الجنسين في أبعاد الاتجاهات الوالدية في التنشئة

الاجتماعية كما يدركها الأبناء صورة الأب.

الإحصائيات الأبعاد	الجنس	العينة N	المتوسط X	الانحراف المعياري S	اختبار "ت" t	مستوى الدلالة
الحماية الزائدة	ذكور	72	10.81	3.72	-0.75	غير دال القيمة
	إناث	132	11.19	2.78		
التسلط والقسوة	ذكور	72	10.29	4.54	0.85	غير دال القيمة
	إناث	132	9.71	4.57		
التفرقة	ذكور	72	3.73	2.50	3.21	0.001
	إناث	132	2.63	2.00		
التذبذب	ذكور	72	6.93	3.06	-1.63	غير دال القيمة
	إناث	132	7.65	3.04		
الإهمال	ذكور	72	9.84	6.32	2.01	0.05
	إناث	132	8.15	5.37		
الدرجة الكلية	ذكور	72	41.62	10.51	1.60	غير دال
	إناث	132	39.37	8.99		

يتبين من الجدول رقم () أنه:

- لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه الحماية الزائدة كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 10.81 بانحراف معياري 3.72، والمتوسط الحسابي للإناث بـ 11.19 بانحراف معياري 2.78، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي -0.75، وهي قيمة غير دالة إحصائية.

- لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه التسلط والقسوة كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 10.29 بانحراف معياري 4.54، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 9.71 بانحراف

معياري قدره 4.57، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي 0.85 ، وهي قيمة غير دالة إحصائياً.

- توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه التفرقة كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 3.73 بانحراف معياري قدره 2.50، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 2.63 بانحراف معياري قدره 2.00، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين وغير متجانستين تساوي 3.21، وهي قيمة دالة إحصائياً عند مستوى دلالة 0.001، والملاحظ هنا أن الفرق لصالح الذكور باعتباره المتوسط الأكبر، أي أن الذكور أكثر إدراكاً لاتجاه التفرقة لدى آبائهم من الإناث.

- لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه التذبذب كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 6.93 بانحراف معياري قدره 3.06، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 7.65 بانحراف معياري قدره 3.04، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي -1.63 ، وهي قيمة غير دالة إحصائياً.

- توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه الإهمال كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 9.84 بانحراف معياري قدره 6.32، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 8.15 بانحراف معياري قدره 5.37، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي 2.01، وهي قيمة دالة إحصائياً عند مستوى دلالة 0.05، والملاحظ هنا أن الفرق لصالح الذكور باعتباره المتوسط الأكبر، أي أن الذكور أكثر إدراكاً لاتجاه الإهمال لدى آبائهم من الإناث.

- لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في الدرجة الكلية على مقياس الاتجاهات الوالدية في التشئة الاجتماعية كما يدركها الأبناء - صورة الأب، حيث قدر متوسط الذكور بـ 41.62 بانحراف معياري قدره 10.51، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 39.37 بانحراف معياري قدره 8.99، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي 1.60 ، وهي قيمة غير دالة إحصائياً.

ب/ صورة الأم:

جدول رقم (15) : يبين نتائج اختبار "ت" t للفروق بين الجنسين في أبعاد الاتجاهات الوالدية في التشئة

الاجتماعية كما يدركها الأبناء صورة الأم.

الإحصائيات الأبعاد	الجنس	العينة n	المتوسط X	الانحراف المعياري S	اختبار "ت" t	مستوى الدلالة
الحماية الزائدة	ذكور	72	12.16	2.81	-1.39	غير دال
	إناث	132	12.78	3.14		
التسلط والقسوة	ذكور	72	10.00	4.19	-0.84	غير دال
	إناث	132	10.50	3.96		
التفرقة	ذكور	72	3.66	2.34	3.81	0.000
	إناث	132	2.43	1.87		
التذبذب	ذكور	72	6.76	3.02	-1.65	غير دال

		3.07	7.50	132	إناث	
غير دال	1.01	4.35	7.52	72	ذكور	الإهمال
		4.27	6.88	132	إناث	
غير دال	0.003	9.73	40.125	72	ذكور	الدرجة الكلية
		8.33	40.121	132	إناث	

يتبين من الجدول رقم (15) أنه:

. لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه الحماية الزائدة لدى الأمهات كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 12.16 بانحراف معياري قدره 2.81، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 12.78 بانحراف معياري قدره 3.14، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي -1.39، وهي قيمة غير دالة إحصائية.

. لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه التسلط والقسوة لدى الأمهات كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 10.00 بانحراف معياري قدره 4.19، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 10.50 بانحراف معياري قدره 3.96، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي -0.84، وهي قيمة غير دالة إحصائية.

. توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه التفرقة كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 3.66 بانحراف معياري قدره 2.34، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 2.43 بانحراف معياري قدره 1.87، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي 3.81، وهي قيمة دالة إحصائية عند مستوى دلالة 0.001، والملاحظ هنا أن الفرق لصالح الذكور باعتباره المتوسط الأكبر، أي أن الذكور أكثر إدراكا لاتجاه التفرقة لدى أمهاتهم من الإناث.

. لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه التذبذب كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 6.76 بانحراف معياري قدره 3.02، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 7.50 بانحراف معياري قدره 3.07، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي -1.65، وهي قيمة غير دالة إحصائية.

. لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه الإهمال لدى الأمهات كما يدركه الأبناء، حيث قدر متوسط الذكور بـ 7.52 بانحراف معياري قدره 4.35، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 6.88 بانحراف معياري قدره 4.27، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي 1.01، وهي قيمة غير دالة إحصائية.

. لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في الدرجة الكلية على مقياس الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها الأبناء - صورة الأم، حيث قدر متوسط الذكور بـ 40.125 بانحراف معياري قدره 9.73، وقدر المتوسط الحسابي للإناث بـ 40.121 بانحراف معياري قدره 8.33، بينما كانت نتيجة اختبار t للفروق بين مجموعتين مستقلتين ومتجانستين تساوي 0.003، وهي قيمة غير دالة إحصائية.

10. مناقشة النتائج في ضوء الدراسات السابقة:

سنعرض فيما يلي لنتائج التساؤلات محاولين مناقشتها في ضوء ما توصلت إليه الدراسات السابقة من حيث التشابه والاختلاف مع نتائج الدراسة الحالية، وسنحاول أن نقدم بعض التفسيرات في ضوء التغيرات الحديثة في الأسرة الجزائرية، وتبقى هذه التفسيرات محاولة من الباحث لإبداء رأيه وفق ما توفر لديه من معطيات عن الواقع الجزائري، ولا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال أحكام نهائية.

1.10. مناقشة نتائج التساؤل الأول:

نص التساؤل: ما هو الاتجاه الوالدي السائد في التنشئة الاجتماعية كما يدركه أفراد عينة الدراسة؟ نستنتج مما سبق ذكره أنه لا يوجد اتجاهاً واحداً سائداً لدى الآباء والأمهات في التنشئة الاجتماعية كما يدركها أفراد العينة، فقد كانت اتجاهات الآباء تتسم بنوع من الإيجابية، من حيث الديمقراطية والإستقلالية وعدم التفرقة بين أبنائهم حسب الجنس أو الأكبر سناً، بالإضافة إلى تشجيع أبنائهم ودعمهم. لكن هناك اتجاهاً واحداً سلبياً سائداً هو الحماية الزائدة من جانب الأمهات لأبنائهن.

وقد تشابهت نتائج الدراسة الحالية مع ما توصلت إليه كل من نوار شهرزاد وحساني سعاد (2013) في دراستهما لأساليب المعاملة الوالدية كما يدركها تلاميذ المرحلة الثانوية في مدينة ورقلة، حيث اتسمت معاملة الآباء لأبنائهم بالإنتران²⁰.

وفي دراسة زعيمية منى (2013) حول العلاقة ما بين خطاب الوالدين والتعلم المدرسية للأطفال توصلت إلى أن الخطاب الأسري للوالدين يقوم على الإهتمام والتشجيع والتحفيز والإنعظارات الإيجابية²¹.

كما توصل ناصر ميزاب (2007) في دراسته حول المعاملة الوالدية وعلاقتها بمفهوم الذات كما يدركها الجانح مقارنة بالسوي ارتفاع في إدراك نمط المعاملة الوالدية الصحيحة لدى الأب والأم مع اختلاف بسيط لصالح الأم وهذا إذا قارناه مع بقية الأنماط الأخرى، بينما يلاحظ اختلاف نسبي في المتوسطات الحسابية وانحرافات المعيارية في أنماط المعاملة الوالدية الخاطئة، حيث تميل أن تكون مرتفعة لدى الأب عكس الأم، مقارنة بالمعاملة الصحيحة²².

كما توصل ثراء الجروس (2013) في دراستها لأساليب التنشئة الأسرية وعلاقتها بالسلوك العدواني لدى المراهقين إلى أن أسلوب الإستقلال أكثر الأشكال سيادة من وجهة نظر أفراد العينة²³، وتوصل محمد عابدين (2010) في دراسته للإتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية للناشئين كما يدركها طلبة الصف الثاني الثانوي في جنوب الضفة الغربية / فلسطين، إلى أن الإتجاه الوالدي العام الشائع لدى الوالدين معاً هو الديمقراطية والحماية الزائدة، وأن اتجاهات التنشئة لدى الآباء أقرب إلى الديمقراطية وأيضاً الإهمال، وأن اتجاهات التنشئة لدى الأمهات تميل إلى الديمقراطية وأيضاً الحماية الزائدة²⁴.

وتوصل عيسى شوامرة (2008) في دراسته لأنماط التنشئة الأسرية وعلاقتها بالخجل إلى أن أنماط التنشئة للآباء تتسم بالإيجابية وساد فيها النمط الديمقراطي²⁵، وتوصل السعادات، 2003 ومسلم، 2003 في دراساتهم إلى أن معاملة الآباء لأبنائهم كانت إيجابية وساد فيها النمط الديمقراطي فيها²⁶.

وتشير دراسة نزيه الجندي (2010) إلى وجود اتجاه إيجابي بدرجة معتدلة نسبياً لدى الآباء والأمهات في المجتمع السوري في تنشئة أبنائهم ممثلاً في ممارسة أساليب الديمقراطية والتقبل والإهتمام والمساواة²⁷.

بينما اختلفت نتائج الدراسة الحالية مع دراسة نبيلة خليل (2012) حول التذبذب كنمط جديد في المعاملة الوالدية وعلاقته ببعض متغيرات الصحة النفسية لدى طلبة جامعة الجزائر، توصلت إلى أن ردود أفعال الآباء والأمهات تميل إلى العقاب والضبط أكثر من التسامح والتقبل²⁸. وأشار كل من الطراونة، 1997 وعبد الحفيظ، 2001 والسيوطي، 2009 إلى انتشار السلطوية والإهمال في التنشئة الأسرية العربية²⁹.

وحسب رأي الباحث يدل شيوع الاتجاهات الإيجابية لدى الآباء والأمهات في تنشئة أبنائهم على زيادة الوعي الثقافي لدى الأسرة الجزائرية، وعلى المرونة والانفتاح والنضج الفكري في اتجاهات الآباء نحو أبنائهم ونحو أساليب تنشئتهم، وهذا راجع إلى عدة عوامل نذكر منها:

- التغيير في نظام السلطة في العائلة الجزائرية: ونشير في هذا الصدد إلى التغيير الذي طرأ على الأسرة الجزائرية، بعدما كان الفرد يعيش في أسرة ممتدة تضم الأب والجد والعم، وهؤلاء يمارسون السلطة على الأبناء، أصبح الفرد يعيش في أسرة نووية نتيجة التغيرات الثقافية والاقتصادية والسياسية التي عرفها المجتمع الجزائري، وفي هذا الصدد يشير مصطفى بوتنفوشت، 1997 إلى أن الأسرة المستقلة شكلت 67 % من مجموع الأسر، بينما شكلت الأسرة التي تعيش مع الأب 22 %³⁰.

هذا التغيير الحاصل حسب رأي الباحث أدى إلى تمركز السلطة في الأب والأم بعدما كانت موزعة بين الجد والأب وفي الكثير من الأحيان الأعمام، وبالتالي تزايد دور الأمهات في بناء الأسرة الجزائرية، بعدما كان مغيبا بدور الجدات، فبعد أن كان التعليم والخروج للعمل مقتصرا فقط على الذكور، أصبحت المرأة المتعلمة تمثل اليوم تمثل نسبة مساوية أو تفوق نسبة الرجال، وهذا ما أكسبها خبرات ومهارات مكنتها من الخروج للعمل والحصول على دخل وظيفي مستقل ومشاركتها في الإنفاق على الأسرة، ما يعني مشاركتها في اتخاذ القرار داخل الأسرة.

- مؤسسات التنشئة الاجتماعية: حيث تغيرت وظائف ومؤسسات التنشئة الاجتماعية ولم تعد الأسرة فقط هي المنشئ الأول للأبناء، فقد أدى الانتشار الواسع لوسائل الإعلام والتكنولوجيا الحديثة (الأنترنت، الهاتف النقال، القنوات الفضائية) إلى زيادة الوعي الثقافي لدى الوالدين، وذلك من خلال برامج التوعية التي تحت على تكوين اتجاهات إيجابية نحو أبنائهم ونحو أساليب تنشئتهم، وما تخلفه هذه الاتجاهات أو الأساليب من آثار إيجابية على شخصية الأبناء وإكسابهم القيم والسلوكيات الاجتماعية الصحيحة، وما نلاحظه اليوم أيضا هو اهتمام الأسرة بتعليم أبنائهم وإيصالهم إلى أعلى الدرجات العلمية، وتشجيعهم وتحفيزهم.

- المستوى التعليمي للآباء والأمهات: خاصة وأن أغلب آباء وأمهات أفراد عينة الدراسة ينتمون إلى جيل الإستقلال، حيث بدأ انتشار التعليم ومحو الأمية، فالمستوى التعليمي المرتفع للوالدين يجعلهم مدركين لأهمية أساليب المعاملة الوالدية من حيث تأثيرها في تكوين شخصية أبنائهم، وبالتالي يدركون جيدا أهمية الأساليب الإيجابية في التنشئة الاجتماعية كالديمقراطية والتسامح والتقبل والتشجيع والمساواة بين الأبناء سواء من حيث السن (الابن الأكبر مقابل الأصغر) أو من حيث الجنس (ذكر مقابل أنثى)، كما أن الآباء والأمهات لا يريدون في الغالب إعادة النموذج الأبوي الذي تربوا عليه هم أنفسهم.

وما يفسر شيوع اتجاه الحماية الزائدة لدى الأمهات هو عاطفة الأمومة القوية والمتمثلة في الخوف الشديد على أبنائهم فعلاقة الأم بالطفل تشكل الموضوع الوجداني الأول (موضوع الحب) الذي يرتبط به الطفل وهو ما يحميه

من مشيرات العالم الخارجي، بالإضافة إلى تأمين الحاجيات البيولوجية والجسمية، وفي هذا يرى علماء النفس والأخصائيين في مجال الطب أن الأم هي الموضوع الأول الذي يميزه الطفل عن ذاته وأول علاقة للطفل بالآخرين هي علاقته بأمه، ويمكن لهذه العلاقة أن تحدد موقفا أساسيا وغير واع يتحكم في كل العلاقات المستقبلية، نتيجة الارتباط الذي ذكرناه سابقا.

2.10. مناقشة نتائج التساؤل الثاني:

نص التساؤل: هل توجد فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في الاتجاهات الوالدية للتنشئة الاجتماعية كما يدركها أفراد عينة الدراسة؟ وللإجابة على هذا التساؤل تم استعمال اختبار " t " لعينتين متشابهتين لأن العينة نفسها، ويمكن اعتبار الصورتين قياسين مختلفين، ومنه معرفة الفروق بين درجات أفراد العينة في صورة الأب وصورة الأم لكل بعد على حدة ثم الدرجة الكلية، وكانت النتائج كالآتي:

- توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه الحماية الزائدة كما يدركه أفراد عينة الدراسة، والفرق لصالح الأمهات، فهن أكثر ميلا للحماية الزائدة من الآباء.

- لا توجد فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه التسلط والقسوة كما يدركه أفراد عينة الدراسة.

- لا توجد فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه التفرقة كما يدركه أفراد عينة الدراسة.

- لا توجد فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه التذبذب كما يدركه أفراد عينة الدراسة.

- توجد فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في اتجاه الإهمال كما يدركه أفراد عينة الدراسة، حيث أن الآباء أكثر ميلا للإهمال من الأمهات.

- لا توجد فروق دالة إحصائية بين الآباء والأمهات في الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها أفراد عينة الدراسة.

وقد اتفقت هذه النتيجة مع ما توصل إليه عبد الرحمن البليهي (2008) في دراسته لأساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بالتوافق النفسي، حيث أشار إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الوالدين في أسلوب الحماية الزائدة³¹، وعدم وجود فروق في باقي الأساليب ونفس النتيجة أشار إليها عابدين (2010) في دراسته لإلتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها طلاب الصف الثانوي، حيث توصل إلى أن الأمهات أكثر ميلا للحماية الزائدة والآباء أكثر ميلا للإهمال³².

أما بالنسبة لاتجاه التذبذب فقد اختلفت النتيجة مع ما توصلت إليه نبيلة خلال (2012) في درستها لأسلوب التذبذب كنمط جديد في المعاملة الوالدية، حيث أشارت إلى وجود اختلاف في ردود أفعال الآباء والأمهات من حيث الثبات والتذبذب فالأمهات أكثر ثباتا وأقل تذبذبا من الآباء³³، كما اختلفت هذه النتيجة مع دراسة الحوامدة (1991) حيث أشار إلى أن الأمهات في الأردن يتفوقن على الآباء في كافة أبعاد التنشئة الاجتماعية، فكن أكثر تقبلا وتسامحا من الآباء، وأكثر منحا للإستقلال وأكثر رعاية لأبنائهم، بينما كان الآباء أكثر تشددا في تنشئتهم³⁴، وأشار ميرة كايد، 1989 في دراسته لأساليب المعاملة الوالدية الإتفاق والإختلاف فيها

كما يراها الأبناء، إلى أن هناك اختلافا بين الأبوين في معاملة الأبناء واكتشف بأن الأم أكثر إيجابية من الأب في النواحي الإيجابية وأقل سلبية من الأب في النواحي السلبية³⁵.

ويرجع ميل الأمهات للحماية الزائدة أكثر من الآباء هو عاطفة الأمومة القوية التي تتشكل في المراحل الأولى من حياة الإبن، وهذا ينتج عنه نوع من الخوف على الإبن سواء من المرض أو من الإختلاط بالآخرين، بينما نجد الأب أقل حماية وأكثر ميلا للإهمال واللامبالاة، وهذا ينتج عن أن الأب في معظم الأحيان يكون خارج المنزل سواء في العمل أو في المقهى، وأيضا تغير الأدوار داخل الأسرة بعدما كان المربي الأول ممثلا في الأب أو الجد أصبح التربية تقع على عاتق الأم في غالب الأحيان.

بينما عدم وجود فروق بين الآباء والأمهات في باقي الاتجاهات فيرجع إلى ما ذكرناه سابقا من إدراك الأبوين إلى أهمية منح الأبناء بعض الإستقلالية والديمقراطية والمساواة بينهم، وعدم التضارب والتناقض في تربيته.

3.10. مناقشة نتائج التساؤل الثالث:

نص التساؤل: هل توجد فروق دالة إحصائية في الإتجاهات الوالدية في التنشئة الإجتماعية كما يدركها التلاميذ تعزى للجنس؟

تمت الإجابة على هذا التساؤل أيضا على عدة مراحل، حيث تم استعمال اختبار (t) لمعرفة الفروق الموجودة بين أفراد العينة في أبعاد الإتجاهات الوالدية لكل صورة على حدة (صورة الأب، صورة الأم) ثم حساب الفرق بين أفراد العينة في الصورتين معا (أب+أم)، وقد كانت النتائج كالتالي:

1.3.10. صورة الأب

أ/ لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه الحماية الزائدة للآباء في التنشئة الإجتماعية كما يدركه الأبناء.

اتفقت نتائج هذه الفرضية مع نتائج دراسة محمد عابدين (2010) في دراسته للإتجاهات الوالدية كما يدركها تلاميذ المرحلة الثانوية، حيث توصل إلى عدم وجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في إدراكهم لاتجاه الحماية الزائدة للآباء³⁶.

بينما تختلف نتائج هذه الفرضية مع دراسة طالب (2006) حول أساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بالقلق الاجتماعي، وتوصلت فيها إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الجنسين في أسلوب الحماية الزائدة كما يدركه تلاميذ المرحلة الثانوية بولاية المسيلة³⁷، كما اختلفت عن نتائج دراسة سامية ابراهيم (2011) حول أساليب المعاملة الوالدية كما يدركها تلاميذ المرحلة الثانوية في ولاية تبسة، والتي توصلت إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في أسلوب الحماية الزائدة³⁸، بالإضافة إلى دراسة عبد الله الحربي (2009) حول أساليب التنشئة الأسرية لدى عينة من تلاميذ المرحلة المتوسطة والثانوية بالسعودية، والتي توصلت إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الجنسين في أسلوب الحماية الزائدة³⁹.

والملاحظ من النتائج أيضا أن متوسطي الذكور والإناث مساويين تقريبا للمتوسط النظري للبعد والمحدد سابقا بـ 10، وهذا يعني أن كلا الجنسين يدركان اتجاها معتدلا للحماية الزائدة.

ب/ لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه التسلط والقسوة للآباء في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء.

اتفقت نتائج هذه الفرضية مع نتائج دراسة سامية ابراهيم (2011) في دراستها لأساليب المعاملة الوالدية كما يدركها تلاميذ المرحلة الثانوية، حيث توصل إلى عدم وجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في إدراكهم أسلوب التحكم والسيطرة بالنسبة للآباء⁴⁰.

بينما تختلف نتائج هذه الفرضية مع دراسة طالبي (2006) حول أساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بالقلق الاجتماعي لدى تلاميذ المرحلة الثانوية، وقد توصلت فيها إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الجنسين في أسلوب التسلط والقسوة بالنسبة للآباء⁴¹، كما اختلفت عن نتائج التي تحصل عليها كل عبدالله الحربي (2009) حول أساليب التنشئة الأسرية لدى عينة من تلاميذ المرحلة المتوسطة والثانوية بالسعودية، والتي توصلت إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الجنسين في أسلوب القسوة والتدخل الزائد في شؤون الأبناء⁴²، وأظهرت دراسات كل من عطية، 1995 ومحمدي، 1998 أن الذكور أكثر إدراكا لأساليب التشدد والتحكم والتبعية من الإناث⁴³، وقد اختلفت أيضا عن نتائج دراسة محمد عابدين (2010) حيث توصل إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في إدراكهم لاتجاه الديمقراطية / التسلط للآباء لصالح الإناث، أي أن الآباء أكثر ديمقراطية ومنحاً للإستقلالية للإناث من الذكور⁴⁴، واختلفت أيضا مع نتائج دراسة إنعام شعبي (2011) حيث أن الذكور أكثر إدراكا للأساليب العقابية من الإناث⁴⁵.

ج/ توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه التفرقة للآباء في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء لصالح الذكور، أي أن الذكور أكثر إدراكا لاتجاه التفرقة لدى آبائهم من الإناث.

وقد اتفقت نتائج هذه الفرضية مع نتائج دراسة عبد الله الحربي (2009) حول أساليب التنشئة الأسرية لدى عينة من تلاميذ المرحلة المتوسطة والثانوية بالسعودية، والتي توصلت إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الجنسين في مجال تفضيل الإخوة⁴⁶، كما توصل المرسى (1996) إلى أن الذكور أكثر إدراكا للتفرقة من الإناث في محافظة المنوفية (مصر)⁴⁷.

بينما تختلف نتائج هذه الفرضية مع دراسة سامية ابراهيم (2011) في دراستها لأساليب المعاملة الوالدية كما يدركها تلاميذ المرحلة الثانوية، حيث توصلت إلى عدم وجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في إدراكهم لأسلوب التفرقة⁴⁸.

د/ لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه التذبذب للآباء في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء، واختلفت هذه النتيجة مع دراسة عشوي وآخرون (2010) الذين توصلوا إلى أن التذبذب في ردود أفعال الآباء كان مع الذكور أكثر من الإناث في كل من الجزائر والسعودية والكويت⁴⁹.

هـ/ توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في اتجاه الإهمال للآباء في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء لصالح الذكور أي أن الذكور أكثر إدراكا لاتجاه الإهمال لدى آبائهم من الإناث، وهذا ما أشار إليه محمدي (1998) في دراسته التي استهدفت الكشف عن الفروق في إدراك الذكور والإناث لأساليب المعاملة الوالدية، حيث كان الذكور أكثر إدراكا لإهمال الأب من الإناث.

و/ لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور الإناث في الدرجة الكلية على مقياس الإتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية - صورة الأب - كما يدركها الأبناء.

وقد اختلفت هذه النتيجة مع ما توصل إليه محمدي (1998) من وجود اختلاف بين الذكور والإناث في إدراكهم لأساليب معاملة الأب لصالح الذكور، حيث أن الذكور أكثر إدراكا للأساليب السلبية في المعاملة الوالدية من الإناث⁵⁰، كما اختلفت عن دراسة موسى رشاد (1991) لعينة من الطلبة بقطاع غزة تتراوح أعمارهم بين 20 - 24 سنة، حيث أشار في دراسته إلى وجود اختلاف بين الذكور والإناث في إدراكهم لأساليب معاملة الأب، حيث أن الذكور يدركون أن آباءهم أكثر رفضا لهم وتقييدا وإكراها وتطفلا وضبطا من خلال الشعور بالذنب وضبطا عدوانيا وتذبذبا وتباعدا، أما الإناث فيدركون أن آباءهم أكثر تقبلا وتساهلا واندماجا إيجابيا معهن⁵¹، كما أشار الحوامدة (1991) في دراسته لعينة من طلبة المرحلة الثانوية في الأردن إلى أن المعاملة الوالدية تختلف باختلاف جنس الأبناء، حيث يعتني الآباء بتنشئة الأبناء الذكور أكثر من الإناث⁵²، وتوصل عيسى الشوامرة (2008) إلى وجود فروق بين الذكور والإناث في أساليب معاملة الأب ممثلة في بعدين هما النمط التسلسلي يقابله الديمقراطي ونمط الإهمال يقابله الحماية الزائدة⁵³.

2.3.10 صورة الأم:

أ/ لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه الحماية الزائدة لدى الأمهات في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء.

اختلفت نتائج هذه الفرضية عن نتائج دراسة محمد عابدين (2010) حيث توصل إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في إدراكهم لاتجاه الحماية الزائدة للأمهات لصالح الإناث، أي أن الأمهات أكثر حماية للإناث من الذكور⁵⁴.

ب/ لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه التسلسل والقسوة لدى الأمهات في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء.

واتفقت هذه النتيجة مع نتيجة إنعام شعبي (2011) في عدم وجود فروق بين الجنسين في إدراكهم لأساليب معاملة الأم⁵⁵، بينما في دراسة عشوي وآخرون (2010) تبين أن الأمهات أكثر تشددا وتأكيدا على التبعة والتحكم في تنشئة الإناث من الذكور، وأكثر منحا للإستقلالية والمبالغة في رعاية الذكور من الإناث⁵⁶، واختلفت أيضا عن نتائج دراسة محمد عابدين (2010) حيث توصل إلى وجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في إدراكهم لاتجاه الديمقراطية / التسلسل للأمهات لصالح الإناث، أي أن الأمهات أكثر ديمقراطية ومنحا للإستقلالية للإناث من الذكور⁵⁷.

ج/ توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه التفرقة لدى الأمهات في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء لصالح الذكور أي أن الذكور أكثر إدراكا لاتجاه التفرقة لدى أمهاتهم من الإناث

د/ لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه التذبذب لدى الأمهات في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء كما يدركه الأبناء، وتختلف هذه النتيجة عما توصلت إليه دراسة نبيلة خلال (2012) من حيث وجود فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في ردود أفعال الأمهات لصالح الذكور، أي أن الأمهات أكثر تذبذبا مع الذكور من الإناث⁵⁸.

هـ/ لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في اتجاه الإهمال لدى الأمهات في التنشئة الاجتماعية كما يدركه الأبناء كما يدركه الأبناء. وهذا ما أشار إليه محمدي (1998) في دراسته التي استهدفت الكشف عن

الفروق في إدراك الذكور والإناث لأساليب المعاملة الوالدية، حيث كان الذكور أكثر إدراكا لإهمال الأم من الإناث⁵⁹.

و/ لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في الدرجة الكلية على مقياس الإتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية كما يدركها الأبناء - صورة الأم.

ويتفق هذا مع دراسة إنعام شعبي (2011) التي توصلت إلى عدم وجود فروق دالة إحصائية بين الجنسين في إدراكهم لأساليب معاملة الأم⁶⁰.

وتختلف هذه النتيجة عما توصلت إليه بعض الدراسات، مثل دراسة مصطفى الحوامدة (1991) من أن الأمهات تعتنى بتنشئة الأبناء الذكور والإناث بأنماط مختلفة، حيث كن أكثر تشددا وتأكيدا على التبعية والتحكم وأقل رعاية في تنشئة الإناث، بينما كن أكثر منحا للإستقلالية والمبالغة في رعاية الذكور⁶¹، كما اختلفت مع ما توصل إليه موسى رشاد (1991) من أن الذكور يدركون أن أمهاتهم أكثر ضبطا لهم وتلقينا للقلق الدائم وتباعدة سلبييا ورفضاً، أما الإناث فيدركن أن أمهاتهن أكثر تقبلا لهن واندماجا إيجابيا وتقبلا للفردية⁶².

خاتمة:

تعد التنشئة الاجتماعية عملية يتم من خلالها تحويل الفرد من كائن اجتماعي قادر على ضبط انفعالاته وإشباع حاجاته الأساسية، ومن خلال ما تم التوصل إليه في هذه الدراسة يمكن القول بأن هناك اعتقادات سائدة لدى الآباء والأمهات في كيفية تربية أبنائهم، تتميز هذه الإعتقادات بالإيجابية بالنسبة للآباء والأمهات، من حيث الديمقراطية والمساواة بين الأبناء، والثبات والإتساق في التنشئة والتشجيع والتدعيم، إلا أن الأمهات أكثر ميلا من الآباء للحماية الزائدة، وأن الآباء أكثر ميلا للإهمال من الأمهات.

الهوامش:

- 1- نزيه أحمد الجندي، التنشئة السوية للأبناء كما يدركها الوالدان في الأسرة العمانية - دراسة ميدانية، مجلة جامعة دمشق، المجلد 26، العدد الثالث، سوريا، 2010.
- 2- محمد بيومي خليل، سيكولوجية العلاقات الأسرية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.
- 3- ميساء بكر مهندس، أساليب المعاملة الوالدية والشعور بالأمن النفسي والقلق لدى عينة من طالبات المرحلة المتوسطة بمدينة جدة، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، السعودية، 2006.
- 4- شفيق رضوان، علم النفس الاجتماعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، 2008.
- 5- فؤاد حيدر، علم النفس الاجتماعي - دراسات نظرية وتطبيقية، دار الفكر العربي، ط1، بيروت، 1994.
- 6- يزيد عيسى السروطي، السلطوية في التربية العربية، عالم المعرفة 362، الكويت، 2004.
- 7- حنان عبد الحميد العناني، الطفل والأسرة والمجتمع، دار صفاء للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2000.
- 8- محمد المومني، أثر أنماط التنشئة الأسرية في الأمن النفسي لدى الأحداث الجانحين في الأردن، المجلد 7، العدد 2، تصدر عن كلية التربية - جامعة البحرين، مؤسسة الأيام للصحافة والنشر والتوزيع، الأردن، 2006.
- 9- ناصر ميزاب، المعاملة الوالدية وعلاقتها بمفهوم الذات كما يدركها الجانح مقارنة بالسوي، أطروحة دكتوراه الدولة غير منشورة، جامعة الجزائر 2، الجزائر، 2007.

- 10- مجدي عبد الكريم حبيب، أساليب المعاملة الوالدية وحجم الأسرة كمحددات مبكرة لتطرف الأبناء واستجاباتهم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1995.
- 11- صالح ليري، العلاقة بين الأسرة وتصرفات المراهقين " دراسة استطلاعية على عينة من الأسر الكويتية "، مجلة العلوم الاجتماعية، مجلد 34، عدد 1، 2006.
- 12- عبد الله عويدات، أثر أنماط التنشئة الأسرية على طبيعة الانحرافات السلوكية لدى طلبة الصف الثامن والتاسع والعاشر في الأردن، مجلة دراسات، المجلد 24، العدد 01، الأردن، 1997.
- 13- نبيل عتروس، أساليب المعاملة الوالدية الخاطئة وعلاقتها ببعض المشكلات السلوكية لدى أطفال ما قبل المدرسة، مجلة التواصل، العدد 26، جوان 2010.
- 14- نبيلة خلال، التذبذب كنمط جديد في المعاملة الوالدية وعلاقته ببعض متغيرات الصحة النفسية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر 2، الجزائر 2012.
- 15- محمد الراجي، المعاملة الوالدية والفضل الدراسي وعلاقة كل منهما بالسلوك العدواني لدى تلاميذ المستويين الخامس والسادس من التعليم الابتدائي، مذكرة ماجستير غير منشورة، الأكاديمية العربية البريطانية للتعليم العالي، المركز الاستشاري البريطاني، إنجلترا، 2011.
- 16- يوسف عبد الفتاح، العلاقة بين الرعاية الوالدية كما يدركها الأبناء وتوافقهم، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 20، العدد 3 و4، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، خريف/شتاء 1992.
- 17- سليمان ربحاني وآخرون، أنماط المعاملة الوالدية كما يدركها المراهقون وأثرها في تكيفهم النفسي، المجلة الأردنية في العلوم التربوية، مجلد 5، عدد 3، جامعة اليرموك، الأردن 2009.
- 18- عبد الرحمن بن محمد البليهي، أساليب المعاملة الوالدية كما يدركها الأبناء وعلاقتها بالتوافق النفسي - دراسة ميدانية على طلاب المرحلة الثانوية بمدينة بريدة، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية، 2008.
- 19- عمار بوحوش، مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
- 20- نوار شهرزاد، حساني سعاد، أساليب المعاملة الوالدية كما يدركها الأبناء، دراسة ميدانية على طلبة المرحلة الثانوية بمدينة ورقلة، الملتقى الوطني الأول حول الاتصال وجودة الحياة الأسرية، جامعة قاصدي مرباح - ورقلة، الجزائر، 2013.
- 21- زعيمية منى، العلاقة ما بين خطاب الوالدين والتعلم المدرسية للأطفال، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري - قسنطينة، الجزائر، 2012.
- 22- ناصر ميزاب، 2007، مرجع سابق
- 23- ثراء الجروس، أساليب التنشئة الأسرية وعلاقتها بالسلوك العدواني - دراسة ميدانية لدى عينة من طلاب الصف الثاني بمحافظة حمص، مجلة جامعة دمشق، المجلد 29، العدد 01، سوريا، 2013.
- 24- محمد عابدين، الإتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية للناشئين كما يدركها طلاب الصف الثاني الثانوي بجنوب الضفة الغربية/ فلسطين، المجلة الأردنية في العلوم التربوية، مجلد 6، عدد 2، 2010.
- 25- نادر عيسى شوامرة، أنماط التنشئة الأسرية وعلاقتها بالخلل لدى طلبة الصف الأول الثانوي في محافظة رام الله والبيرة، مذكرة ماجستير، جامعة القدس، عمادة الدراسات العليا، فلسطين، 2008.
- 26- محمد عابدين، 2010، مرجع سابق.
- 27- نزيه الجندي، 2010، مرجع سابق.
- 28- نبيلة خلال، 2012، مرجع سابق.

- 29- محمد عابدين، 2010، مرجع سابق.
- 30- مزوز بركو، التنشئة الاجتماعية في الأسرة الجزائرية الخصائص والسمات، مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، العدد 21 + 22 شتاء وربيع 2009.
- 31- عبد الرحمن بن محمد البليهي، أساليب المعاملة الوالدية كما يدركها الأبناء وعلاقتها بالتوافق النفسي - دراسة ميدانية على طلاب المرحلة الثانوية بمدينة بريدة، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية، 2008.
- 32- محمد عابدين، 2010، مرجع سابق.
- 33- نبيلة خلال، 2012، مرجع سابق.
- 34- مصطفى محمود الحوامدة، التنشئة الاجتماعية للأبناء وعلاقتها بأنسابهم القيمية، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، القاهرة، 1991.
- 35- عمار زغينة، التوجيه المدرسي والجامعي والتحصيل وعلاقته بأساليب المعاملة الوالدية، أطروحة دكتوراه، قسم علم النفس، جامعة منتوري - قسنطينة، الجزائر، 2005.
- 36- محمد عابدين، 2010، مرجع سابق.
- 37- طالبي الصادة، علاقة أساليب المعاملة الوالدية بالقلق الاجتماعي " دراسة ميدانية على عينة من تلاميذ المرحلة الثانوية في ولاية المسيلة "، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة محمد خيضر - بسكرة، الجزائر، 2006/2007.
- 38- سامية ابراهيم، أساليب معاملة الأب كما يدركها الأبناء وعلاقتها بالشعور بالأمن النفسي لدى عينة من طلاب المرحلة الثانوية في مدينة تبسة، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مجلد 25، عدد 7، الجزائر، 2011.
- 39- عبد الله الحربي، أساليب التنشئة الأسرية وعلاقتها بكل من التفاؤل والتشاؤم لدى عينة من تلاميذ المرحلة المتوسطة والثانوية بمنطقة جازان، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، السعودية، 2010.
- 40- سامية ابراهيم، 2011، مرجع سابق.
- 41- طالبي الصادة، 2007، مرجع سابق.
- 42- عبد الله الحربي، 2010، مرجع سابق.
- 43- حسين خازر المجالي، الاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية وعلاقتها بالتوافق الشخصي والاجتماعي لعينة من طلاب الصف العاشر الموهوبين والمتفوقين في عمان، مجلة كلية التربية جامعة عين شمس، العدد 35، الجزء الثاني، مصر، 2011.
- 44- محمد عابدين، 2010، مرجع سابق.
- 45- إنعام احمد شعبي، علاقة أساليب المعاملة الوالدية باتخاذ الأبناء لقراراتهم في المرحلة الثانوية، مجلة بحوث التربية النوعية، جامعة المنصورة، العدد 19، مصر، 2011.
- 46- عبد الله الحربي، 2010، مرجع سابق.
- 47- طارق محمد المرسى، أساليب التنشئة الاجتماعية كما يدركها الأبناء وعلاقتها بالولاء للوطن لدى المراهقين من الجنسين، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، القاهرة، 1996.
- 48- سامية ابراهيم، 2011، مرجع سابق.
- 49- مصطفى عشوي وآخرون، الثبات والتذبذب والتقبل والرفض في المعاملة الوالدية "دراسة مقارنة لثلاث بلدان عربية"، مجلة الطفولة العربية، مجلد 11، عدد 42، 2010.
- 50- محمدي، 1998، مرجع سابق.

-
- 51- موسى رشاد علي، سيكولوجية الفروق بين الجنسين " دراسات في علم النفس الاجتماعي " ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991.
- 52- الحوامدة، 1991، مرجع سابق.
- 53- نادر عيسى الشوامرة، 2008، مرجع سابق.
- 54- محمد عابدين، 2010، مرجع سابق.
- 55- إنعام شعبي، 2011، مرجع سابق.
- 56- عشوي وآخرون، 2010، مرجع سابق.
- 57- محمد عابدين، 2010، مرجع سابق.
- 58- نبيلة خلال، 2012، مرجع سابق.
- 59- محمدي، 1998، مرجع سابق.
- 60- إنعام شعبي، 2011، مرجع سابق.
- 61- الحوامدة، 1991، مرجع سابق.
- 62- موسى رشاد، 1991، مرجع سابق.

الشعور بالوحدة النفسية وعلاقته بتقدير الذات لدى عينة من الطلبة بجامعة الجزائر

أ/ بركات عبدالحق، جامعة المسيلة

Abstract:

The present study aims to identify the relationship between loneliness feeling and self-esteem, and to study the potential impact of each sex (male, female), and area of study (literary, scientific) on the variables of the study, with Sample of students Studying at the University of Algeria (02). The researcher used the descriptive analytical approach, as the study sample consisted of 250 students, was used measure of loneliness psychological preparation of Abraham smelts, as of self-esteem Cooper Smith . The results of the study revealed that there is a statistically significant relationship is negative -0.57 at the level of 0.01. Between Feeling of loneliness and self-esteem of the study sample, while the results revealed that there were no statistically significant differences between the scientific and literary Specialty in the Feeling of loneliness, as it turns out that there are also significant differences in Feeling of loneliness by the academic specialization variable. Where the values of (T) is equal to 2.02 which is significant at the 0.05 significance level, in addition to the results concluded that there are no statistically significant differences in self-esteem based on the variables of sex and specialization course.

- ملخص:

تهدف الدراسة الحالية إلى التعرف على علاقة الشعور بالوحدة النفسية بتقدير الذات، ودراسة الأثر المحتمل لكل من الجنس (ذكور، إناث)، و التخصص الدراسي (أدبي، علمي) على متغيري الدراسة، وذلك لدى عينة من الطلبة الذين يزاوون الدراسة بجامعة الجزائر (02). ولقد استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي، إذ تكونت عينة الدراسة من 250 طالب وطالبة، وتم استخدام مقياس الشعور بالوحدة النفسية من إعداد إبراهيم قشقوش، وكذا مقياس كوبر سميث لتقدير الذات. ولقد كشفت نتائج الدراسة على أنه توجد علاقة ذات دلالة إحصائية سالبة بمقدار -0.57 عند مستوى الدلالة 0.01. ما بين خبرة الشعور بالوحدة النفسية وتقدير الذات لدى عينة الدراسة، في حين كشف النتائج إلى أنه لا توجد فروق دالة إحصائية بين تخصصي العلمي والأدبي في الشعور بالوحدة النفسية، كما أضح أيضا أنه توجد فروق دالة إحصائية في الشعور بالوحدة النفسية حسب متغير التخصص الدراسي. حيث كانت قيم (ت) تساوي 2.02 وهي دالة عند مستوى الدلالة 0.05، بالإضافة إلى ذلك خلصت النتائج إلى أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في تقدير الذات على أساس متغيري الجنس والتخصص الدراسي.

- مشكلة الدراسة: لم تعد الجامعات في عصرنا الحاضر مجرد مراكز أكاديمية للبحث، بل يستشعر الطلاب فيها بأنهم قد انفصلوا عن الحياة العامة في المجتمع. والجامعة بصفة عامة يتم فيها تفاعل حيوي وضروري بين شتى الاتجاهات الفكرية، حيث تصبح الحياة الجامعية بالنسبة للطلاب أحد ضروب التفاعل الثقافي والفكري ويتم ذلك على أعلى المستويات، ومن أجل ذلك يجب أن يكون هدفها الأصيل موجهها نحو إعداد هؤلاء

الشباب وتهيئتهم لتحمل المسؤوليات ويواجه مشكلاته الحالية والمستقبلية وهذا يمثل الدور الإستراتيجي بعيد المدى المسند للجامعات، وهو الذي يميزها عن تلك المؤسسات التقليدية الأخرى.

يشكل الشعور بالوحدة النفسية مشكلة ملحة للشباب بصفة عامة، ولدى الشباب الجامعي بصفة خاصة، إذ أنه بدخول الشاب للجامعة يجد نفسه في بيئة جديدة تختلف عن بيئته السابقة.

إن الشعور بالوحدة النفسية هو شعور الفرد بفجوة نفسية تباعد بينه وبين أشخاص وموضوعات مجاله النفسي إلى درجة يشعر فيها الفرد بافتقار التقبل والحب من جانب الآخرين، بحيث يترتب على ذلك حرمان الفرد من أهلية الانخراط في علاقات مثمرة ومشبعة مع أي من الأشخاص وموضوعات الوسط الذي يعيش فيه ويمارس دوره من خلاله (قشقوش، 1988، ص09).

لقد نال موضوع الشعور بالوحدة كخبرة نفسية وانفعالية واجتماعية اهتماما كبيرا في الدراسات الغربية وخاصة فيما يتعلق بفئة شباب الجامعة حيث أوضحت نتائج كثير من الدراسات أن هذه الخبرة تمثل المشكلة الأكثر شيوعا بينهم، وقد بدأ الاهتمام بهذه الظاهرة في الغرب منذ فترة السبعينيات، في حين لم تزل نصيبها من الاهتمام في الدراسات العربية إلا في فترة الثمانينيات.

لقد أوضحت نتائج الكثير من الدراسات أن هناك تأثير واضح لخبرة الشعور بالوحدة النفسية في ظهور بعض المشكلات النفسية إذ تبين أن الذين يعانون من هذه الخبرة يكون لديهم تقدير ذات سلبي منخفض حول ذاتهم زيادة على ذلك نقص في احترام الذات ولوم وعدم تقبل الذات، إذ يرى هامشك Hamacheck أن تقدير الذات يشير إلى حكم الفرد على أهمية الشخصية، فالأشخاص الذين لديهم تقدير ذات مرتفع يعتقدون أنهم ذوو قيمة وأهمية أما الأشخاص الذين لديهم تقدير ذات منخفض فلا يرون قيمة أو أهمية في أنفسهم ويعتقدون أن الآخرين لا يقبلونهم ويشعرون بالضجر والملل. في حين وجد كل من راسيل، بيلوي، وكاترون Ressel, Peblou et Cutrona أن الوحدة النفسية عادة ما ترتبط بانخفاض تقدير الذات وتشير دراسة سليمان (1989) إلى أن الشخص الوحيد نفسيا يعاني من الحساسية الزائدة ويعاني من نقص الثقة في النفس ونقص تقدير الذات، وتجنب إقامة علاقات بسبب القلق والخوف من الحصول على تغذية راجعة سلبية.

ولقد أكدت دراسة كل من وارن (1982) Warren ودراسة كاترون (1986) Catrona على أن الذين يشعرون بالوحدة النفسية يعانون من نقص في المهارات الاجتماعية، ويتصفون بالسلبية مع انخفاض في تأكيد الذات وتقديرها وارتفاع الخجل وعدم الوعي بالذات، وصعوبة تكوين أصدقاء جدد، ومن خلال ما جاء في هذه الدراسات تتضح لنا الأهمية النظرية للموضوع. و حيث أن الجامعة تضم طلبة وطالبات ينتمون إلى بيئات اجتماعية وتخصصات دراسية مختلفة، فإنها تعد أرضية خصبة لدراسة خبرة الشعور بالوحدة النفسية لدى هؤلاء الطلبة. إذ تتحدد مشكلة الدراسة الحالية في الإجابة على التساؤل التالي:

- ما طبيعة العلاقة ما بين الشعور بالوحدة النفسية وتقدير الذات لدى عينة من الطلبة بجامعة الجزائر (02)؟
- **فرضيات الدراسة:** بناءً على ما سبق وجد الباحث عدة دراسات قد تناولت موضوع الشعور بالوحدة النفسية وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية و الشخصية. ومن هنا فإننا لا نستطيع التنبؤ باتجاه نتائج الفروض وبالتالي تلخص فروض الدراسة فيما يلي:
- توجد علاقة ذات دلالة إحصائية ما بين الدرجة الكلية للشعور بالوحدة النفسية والدرجة الكلية لتقدير الذات لدى عينة من طلبة جامعة الجزائر (2).

- توجد فروق ذات دلالة إحصائية ما بين درجات أفراد العينة الكلية على مقياس الشعور بالوحدة النفسية تبعاً لمتغير الجنس.
- توجد فروق ذات دلالة إحصائية ما بين درجات أفراد العينة الكلية على مقياس الشعور بالوحدة النفسية تبعاً لمتغير التخصص الدراسي.
- يوجد اختلاف بين درجات أفراد العينة الكلية على مقياس تقدير الذات تبعاً لمتغير التخصص الجنسي.
- يوجد اختلاف بين درجات أفراد العينة الكلية على مقياس تقدير الذات تبعاً لمتغير التخصص الدراسي.
- **أهداف الدراسة:**

تهدف الدراسة الحالية إلى التعرف على الشعور بالوحدة النفسية لدى عينة من الطلبة الذين يزاولون الدراسة بجامعة الجزائر (02)، وارتباط ذلك بتقديرهم لذواتهم باختلاف جنسهم وتخصصاتهم الدراسية، وبذلك نسعى إلى تحديد واستقصاء طبيعة التأثير المحتمل لكل من الجنس والتخصص على هذين المتغيرين (الوحدة النفسية، تقدير الذات).

- أهمية الدراسة:

يمكن أن نلمس أهمية الدراسة الحالية من خلال مفردات العنوان الذي تحمله، كما جاءت هذه الدراسة على أساس بعض النقاط سواء أكانت تأييداً أم تأكيداً لهذه الأهمية. وتمثلت هذه النقاط فيما يلي:

أ- الجانب النظري: إن أي دراسة علمية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية تستمد أهميتها من ارتكازها على محورين هما: مدى حيوية الموضوع، أو الظاهرة التي نتعامل معها. وكذا الشريحة، أو العينة الإنسانية التي تجري عليها الدراسة.

وينعكس هذان المحوران في الدراسة من خلال تطرقها لأحد الموضوعات البحثية الهامة وهو الوحدة النفسية وتقدير الذات، في حين يتجسد المحور الثاني في أنها ركزت على شريحة هامة من شرائح المجتمع، ألا وهي طلبة الجامعة. كما تبرز الأهمية النظرية للدراسة في رصدها ما قد يكون موجوداً من فروق وتباينات مرتبطة ببعض المتغيرات والأبعاد الثقافية والاجتماعية وهو ما ستحاول الدراسة الاقتراب منه بشكل نظري.

ب- الجانب التطبيقي: إن الأهمية التطبيقية للدراسة الحالية تكمن في إضافة دراسة جديدة إلى جانب الدراسات المختلفة التي تناولت مثل هذا الموضوع - الشعور بالوحدة النفسية وعلاقته بتقدير الذات - وذلك من أجل توفير قاعدة من البيانات العلمية الدقيقة عن مدى انتشار هذه الظاهرة بين طلبة الجامعة من شأنها أن تساعد القائمين على اتخاذ القرارات الصحيحة على أسس ميدانية، أو تقديم برامج وقائية، أو علاجية أو الاثنين معاً. كما تبرز أهمية الدراسة في أنها من أولى الدراسات في البيئة الجزائرية وذلك حسب علم الباحث والتي اهتمت بدراسة الشعور بالوحدة النفسية لدى الطلبة الجامعيين الجزائريين.

- تحديد مصطلحات الدراسة: لقد اشتمل موضوع الدراسة على المصطلحات التالية:

أولاً- الشعور بالوحدة النفسية felling of loneliness: هو استجابة انفعالية من قبل الفرد للتغير الذي يحدث في بيئته، تتصف هذه الخبرة بالشعور بالملل والضيق، وتنتج من غياب شبكة العلاقات الاجتماعية المألوفة، والتي كان يشعر بانتمائه لها وارتباطه باهتمامات وأنشطة متشابهة، حيث هي عزلة يعانيها الأشخاص الذين ينتقلون إلى بيئة اجتماعية وثقافية جديدة.

أما في الدراسة الحالية فمصطلح الشعور بالوحدة النفسية يتحدد إجرائياً بمجموع الدرجات التي يحصل عليها الفرد على فقرات مقياس الإحساس بالوحدة النفسية المستخدم في الدراسة الحالية (مقياس الإحساس بالوحدة- ابراهيم قشقوش).

- **تقدير الذات self-esteem**: يشير إلى وجود مشاعر ايجابية نحو الذات والى الشعور بالنجاح والقدرة والى قبول الذات، والى أن الذات مقبولة من الآخرين.

في حين أن تقدير الذات يتحدد إجرائياً في الدراسة الحالية بالدرجة التي يحصل عليها الطالب علي المقياس المستخدم في ذلك (مقياس تقدير الذات- كوبر سميث).

- **الطلبة الجامعيين**: يقصد بالطلبة الجامعيين في هذه الدراسة عينة من الطلبة والطالبات الذين يدرسون بجامعة الجزائر (02)، في جميع المستويات و التخصصات الدراسية.

- **الجانب النظري والدراسات السابقة**:

- **مفهوم الوحدة النفسية**:

نجد أن بعض معاجم اللغة ربطت بين مفهوم الوحدة والوحشة مثل ما ذهب إليه الفيروزي ابادي حيث الوحدة تعني الانفراد، و الوحد من التوحش (الفيروزي، د- ت، ص356).

ولم يقف العالم علي المقري الفيومي عند هذا المنحنى بل زيادة على الربط بين الوحدة والإحساس بالوحشة شرح هذا الأخير الإحساس بالوحدة ب: الانقطاع عن الناس وبعد القلوب عن الموادات (ابن منظور، د- ت، ص450).

تعرف سوزان جوردون (1979) Gordon Susan الشعور بالوحدة النفسية على أنه شعور بالحرمان الناتج عن نقص أنواع معينة من العلاقات الإنسانية. وان نقص هذه العلاقات شيء مؤلم، وينشأ ذلك الشعور عندما تختفي العلاقات المتوقعة من قبل الفرد (السيد، 1998، ص108).

بينما تعرف روكاتش (1988) Rokach الشعور بالوحدة النفسية على أنه عبارة عن شعور مؤلم ناتج عن تجربة ذاتية مخبرة ذاتيا وبشكل منفرد، وهو نتيجة الحساسية المفرطة وشعور الفرد بأنه وحيد وبعيد عن الناس، مع شعوره بأنه شخص غير مرغوب فيه ومنفصل عن الآخرين، ومقهور بالألم الشديد، كما ترى أن هذا الشعور نتاج عن الغياب المدرك في العلاقات الاجتماعية المشبعة وهو أيضا شعور مصحوب بأعراض الضغط النفسي (Rokach, 1988, p531).

وفي مجال الدراسات العربية نجد قشقوش (1979) يعرفها على أنها شعور الفرد بوجود فجوة نفسية تباعد بينه وبين الأشخاص وموضوعات مجاله النفسي إلى درجة يشعر معها بافتقار التقبل والتواد من جانب الآخرين (الدسوقي، 1998، ص08).

تعرف شقير (2000) الشعور بالوحدة النفسية بأنه الرغبة في الابتعاد عن الآخرين والاستمتاع في الجلوس منعزلا عنهم مع صعوبة التودد وصعوبة التمسك بهم بجانب الشعور بالنقص وعدم الثقة. كما تعتبر شقير الشعور بالوحدة حالة نفسية غير سوية يصاحبها أعراض من التوتر والضيق مع انخفاض تقدير الذات (شقير، 2002، ص279).

يتضح لنا من العرض السابق لتعاريف الوحدة النفسية أنها تنشأ من العزلة الانفعالية و كذلك من العزلة الاجتماعية ونقص المهارات الاجتماعية، وتتراوح من كونها عابرة وصولا إلى حد الأزمات النفسية والاجتماعية.

- أسباب الشعور بالوحدة النفسية: الوحدة النفسية لها أسباب متعددة بعضها يعود لطبيعة الأشخاص أنفسهم ويعود البعض الآخر إلى اضطرابات كمية أو كيفية في شكل العلاقات الاجتماعية.

يرى (Roy 1997) أن الوحدة النفسية هي نتيجة الحاجة للشعور بالانتماء فلكل فرد ثلاث حاجات نفسية أساسية هي:

- الحاجة للحب والمشاركة الوجدانية.
 - الحاجة إلى وجود طرف آخر يتفهم المشاعر والأحاسيس المختلفة.
 - الحاجة لوجود من يشعر المرء بالاحتياج إليه.
- يجمع كل من باباليا (Papalia و أولدنز (Olds 1988) على أن كل إنسان يوجد لديه شعور عابر بالوحدة النفسية، وأن هناك عوامل تساعد على هذا الشعور، كمكوث الفرد في منزله بمفرده دون أشخاص يكونون ذوي أهمية لديه، أو لتسلمه عملاً وسط مجموعة تتجاهل وجوده. أو فقدانه لحبيب من خلال طلاق، أو انفصال، أو موت، فكل هذه المواقف تشعر الفرد بالوحدة النفسية المؤلمة (Papalia, 1988, p648).

- صور وأشكال الوحدة النفسية:

توصل ويس (Weiss 1987) إلى إعطاء بعد للعلاقات الاجتماعية في تصنيفه للوحدة النفسية حيث حدد نوعين لها، وهما:

- الوحدة الانفعالية: تنشأ عن غياب العلاقات الحميمة والمودة والألفة مع الأشخاص المقربين للفرد، وغياب الارتباط الانفعالي. وتتسم بفقد رمزي ذي مغزى هام في حياة الفرد، أو نقص رابطة ودودة.
- الوحدة الاجتماعية: تنشأ من غياب شبكة العلاقات الاجتماعية المشبعة، أو كنتيجة ثانوية لفقدان شخص عزيز، مما يؤدي إلى عزلة وجدانية (عدم الانغماس مع زملاء العمل، أو الأقارب، أو الأصدقاء) (آل مشرف، 1998، ص173).

لقد ضمن يونج (Young 1979) بعدي الوقت والموقف في تصنيفه للوحدة النفسية و بذلك يحدد ثلاثة أنواع لهذه الخبرة :

- الوحدة النفسية العابرة **Transient**: التي تتضمن فترات من الوحدة على الرغم من أن حياة الفرد الاجتماعية تتسم بالتوافق والمواءمة.
- الوحدة النفسية التحولية **Transitional**: فيها يتمتع الفرد بعلاقات اجتماعية طيبة في الماضي القريب و لكنه يشعر بالوحدة النفسية حديثاً نتيجة لبعض الظروف المستجدة كالطلاق، أو وفاة شخص عزيز.
- الوحدة النفسية المزمنة **Chronic**: التي قد تستمر لفترات طويلة تصل إلى حد السنين، و فيها لا يشعر الفرد بأي نوع من أنواع الرضا فيما يتعلق بعلاقاته الاجتماعية. ومن هذا يتضح أن الوحدة النفسية هي عبارة عن نتائج العزلة الانفعالية كذا الاجتماعية، وتتراوح من كونها عابرة إلى أن تصل حد الديمومة أو الأزمنة (الدسوقي، 1998، ص14).

- النظريات المفسرة للوحدة النفسية:

إن المتتبع لموضوع الوحدة النفسية يجد أن هذا المفهوم يفتقر نوعاً ما إلى الجانب النظري، حيث ظهر هذا المفهوم أول مرة في الفلسفة ثم في علم الاجتماع، في حين نجد أنه في علم النفس كان يدرس بالموازاة مع

الاكتئاب والعزلة وبعض المفاهيم الأخرى المتقاربة والمتداخلة معه. مع العلم أن هذا المفهوم مستقل ومنفصل عما كان ينظر إليه، وفيما يلي أهم النظريات التي تناولت هذا المفهوم بالدراسة والتحليل:

- **وجهة النظر التحليلية:** يرى أصحاب هذه النظرية وعلى رأسهم فرويد Freud أن الوحدة النفسية ذات خصائص مرضية، ويرجعونها إلى التأثيرات المبكرة التي مر بها الفرد.

ويعتبر زيلبورج Zelboorg أول من قام بدراسة عن الوحدة النفسية وفرق بين الشخص الذي ينتابه شعور مؤقت بالوحدة النفسية والشخص الوحيد. فالشعور المؤقت بالوحدة النفسية أمر طبيعي وحالة عقلية عابرة تنتج عن فقدان شخص معين. أما الوحدة المزمنة فهي استجابة لفقدان الحب، أو شعور الفرد بأنه شخص غير مرغوب فيه ولا فائدة منه، مما يؤدي إلى الاكتئاب والانهيار العصبي. وتعود جذور الوحدة إلى المهد، حيث يتعلم الطفل الوظائف التي تجعله محبوباً ومرغوباً فيه.

في حين يرى سوليفان أنه يمكن اعتبار الشعور بالوحدة النفسية لدى المراهق متأثراً من إدراكه بأن ليس لديه مساندة من مصادر الإشباع والدفع والحب والحياة، حيث يشعر المراهق بالعجز فلا يجد من يلجأ إليه فيستجيب المراهق إلى ذلك الشعور بالوحدة المصحوب بالقلق والخوف. وبحسب سوليفان يمكن الربط بين الوحدة النفسية وبين الفشل في الحب وعدم القدرة على تكوين الصداقات في المراهقة (مرسي، 2002، ص117).

كما اتفق سوليفان مع زيلبورج في إرجاع أصل الوحدة النفسية إلى الآثار الضارة لموقف عطف الأمومة في مرحلة مبكرة. كما أن فروم يرى بأن الإنسان يشعر بالعزلة والوحدة لأنه فصل عن الطبيعة وعن الآخرين. حيث يزداد شعور الفرد بالعزلة والوحدة كنتيجة تضخم رصيده من الحرية، لذلك يعمد إلى ممارسة نشاطات مدمرة للذات (ميخائيل، 1996، ص196).

- **وجهة النظر الظواهرية للوحدة النفسية:** الشعور بالوحدة النفسية بحسب هذه النظرية ينشأ من التناقض بين حقيقة الذات الداخلية للفرد والذات الواضحة للآخرين.

لقد ذكر روجرز Rogers في نظريته بأن العلاج المتمركز حول العميل في الوحدة النفسية أن سبب هذه الوحدة هو ضغوط المجتمع الواقعة على عاتق الفرد، والتي تتطلب منه التصرف وفق خطوات محددة اجتماعياً، هذا ما يؤدي إلى اضطراب في الذات جراء التناقض بين هذين المتطلبين (ذات الفرد، والذات الواضحة للآخرين)، مما ينشأ عنه الشعور بالفراغ. فالوحدة النفسية بحسبه هي تمثيل للتوافق السيئ (العباسي، 1999، ص37).

ولقد اتفق موري Moore مع روجرز بأن التناقض بين ذات الفرد الحقيقية والمثالية ينتج عنه شعور الفرد بالوحدة النفسية. في حين يختلف روجرز مع أصحاب النظرية الدينامية في تأثير عامل الطفولة على الفرد على اكتسابه للشعور بالوحدة النفسية، ويعتبر أن العوامل الحاضرة تسهم إلى حد كبير في الشعور بالوحدة النفسية.

- **وجهة النظر الاجتماعية:** ترى أن السلوك يتأثر بوجه خاص وبصورة أساسية بالعوامل الثقافية والعلاقات الاجتماعية والبيئة، ككل لا يتجزأ، وأن الفرد لديه القدرة والسيطرة على توجيه سلوكه ونشاطاته السلوكية بطريقة شعورية ومقصودة (مرسي، 2002، ص116).

يرى كل من بومان Bomman و سلاتر Slater أن هناك ثلاث قوى اجتماعية تؤدي إلى الوحدة النفسية:

- ضعف في علاقات الفرد بالمجموعة الأولى وهي الأسرة.
- زيادة الحراك في الأسرة.
- زيادة الحراك الاجتماعي.

بنى سلاتر (1976) Slater تحليله من خلال دراسته للشخصية الأمريكية، وكيف أن المجتمع الأمريكي فشل في تلبية احتياجات أفراد، إذ أن هنالك من الأفراد من لديهم الرغبة في المشاركة الاجتماعية، ولكن هذه الرغبة أحبطت في المجتمع الأمريكي. ومن هنا استنتج سلاتر أن الوحدة النفسية هي نتاج عن التقدم العلمي.

يرى أدلر أن الافتقار للشعور بالحب والود نحو الآخرين يرجع إلى افتقار الفرد لعامل الشعور الاجتماعي السليم في حياته، كما يرى أن الميل الاجتماعي خاصية كامنة في الفرد ووجود الإنسان في الكيان الاجتماعي يستثير هذا الميل ويتضمن أموراً كالتعاون والعلاقات المتبادلة، والافتقار لهذه المهارات يدفع بالفرد إلى الشعور بالوحدة النفسية (مرسي، 2002، ص116).

- **وجهة النظر التفاعلية للوحدة النفسية:** يعزز هذا الاتجاه ويس Weiss حيث يُرجع الوحدة النفسية إلى محددين هما:

❖ أن الوحدة النفسية ليست بسبب العوامل الشخصية، أو العوامل الموقفية، بل هي بسبب التفاعل الحاصل بين هذه العوامل (العوامل الشخصية، العوامل الموقفية).

❖ أن الوحدة النفسية ما هي إلا نتاج تفاعلات الفرد الاجتماعية غير المكتملة، لكن نجد ويس يولي أو يعطي اهتماماً للعوامل الموقفية أكثر.

ولقد حدد ويس Weiss ست استعدادات اجتماعية تتدرج تحت مقدار العلاقات الاجتماعية المشبعة لدى الفرد، وإن أي نقص أو عدم الإشباع، أو نفي نوع منها يؤدي إلى شعور الفرد بالوحدة النفسية، وكذا الشعور بنوع من الضيق والأسى. وهذه الاستعدادات الاجتماعية هي:

- **الاتصال:** يستقى من العلاقات التي يربطها الفرد بالغير ويشعر فيها بالأمن والمودة.
- **التكامل الاجتماعي:** يتحقق من خلال الاهتمامات والعلاقات الاجتماعية المتبادلة.
- **فرصة العطاء:** تظهر خلال العلاقات الاجتماعية التي يحس الفرد فيها بأن لديه نوعاً من المسؤولية تجاه شخص آخر.
- **إعادة تأكيد القيمة:** يستخلص من علاقات الفرد التي يلقي فيها التقدير جراء اكتسابه لنوع معين من المهارات.

- **اقتران الثقة:** قدرة الفرد على مد يد المساعدة لأي شخص، وتحت أي ظرف.
- **التوجيه:** يستمد من علاقات بأفراد محل ثقة يسعون إلى تقديم النصيحة والمساعدة للآخرين.

ثانياً- تقدير الذات:

يعرف كوبر سميث (1967) Cooper Smith تقدير الذات بأنه الحكم الشخصي للفرد عن قيمته الذاتية، والتي يتم التعبير عنها من خلال اتجاهات الفرد عن نفسه، ويوضح إلى أي مدى يعتقد الفرد أن لديه القدرة والإمكانات، وكذلك الإحساس بالنجاح والقيمة في الحياة. وهو خبرة موضوعية يقدمها الفرد للآخرين من خلال التعليق اللفظي والسلوكيات الأخرى (عادل، 2000، ص60).

يعرفه روزنبرغ (1978) Rosenberg بأنه اتجاهات الفرد الشاملة - سالبة كانت أو موجبة - نحو نفسه. وهذا يعني أن تقدير الذات المرتفع يعني أن الفرد يعتبر نفسه ذو قيمة وأهمية، بينما يعني تقدير الذات

المنخفض عدم رضا الفرد عن ذاته، أو رفض الذات أو احتقار الذات. إذا تقدير الذات إنما يعني الفكرة التي يدركها الفرد عن كيفية رؤية الآخرين له وتقييمهم له (فيوليت، 2002، 192).

- **مستويات تقدير الذات:** يمكن أن نميز بين مستويين لتقدير الذات أحدهما مرتفع والآخر منخفض وسنتعرض لكل واحد منهما بالتفصيل فيما يلي:

أ- المستوى المرتفع لتقدير الذات:

إن تقدير الذات المرتفع هو أكثر الأدوات التي يمكن أن يستخدمها الفرد للحصول على حالة التوافق، فيستطيع أن يقتحم المواقف الجديدة والصعبة دون أن يفقد شجاعته، كما يمكنه مواجهة الفشل في الحب وفي العمل دون أن يشعر بالحزن أو الانهيار لمدة طويلة (الفجل، 2000، 10).

تجدر الإشارة إلى أن معظم الباحثين في مجال الصحة النفسية وعلم النفس يؤكدون على أن وجود تقدير ذات مرتفع لدى الفرد يعبر عن وجود تكيف نفسي واجتماعي سليم للفرد مع نفسه والآخرين والمحيط الذي يعيش فيه. ولقد حددوا الصفات التي يتميز بها ذوي التقدير المرتفع للذات بجملة من الصفات مثل: أنهم يستمتعون بالخبرات الجيدة، لديهم حب الاستطلاع بالإضافة إلى أنهم يتطوعون للقيام بالمهام والأنشطة وكذا يستجيبون للتحديات.

ب- المستوى المنخفض لتقدير الذات:

لقد كان فروم Froom أحد الأوائل الذين لاحظوا الارتباط الوثيق بين تقدير الشخص لنفسه ومشاعره نحو الآخرين. حيث أشار إلى أن الإحساس بيبغض الذات لا ينفصل عن الإحساس بيبغض الآخرين وأن تقدير الذات المنخفض يعتبر شكلاً من أشكال العصاب. وبعد سنوات لاحظ روجرز Rogers هذه العلاقة الوظيفية لدى العديد من مرضاه، حيث وجد أن الأشخاص الذين يبدون تقديراً مرتفعاً للذات يبدون تقبلاً كبيراً للآخرين، في حين أنه يحصل العكس لدى الأشخاص ذوي التقدير المنخفض للذات (الدريني، د- ت، 03).

نخلص إلى أن الشخص الذي لديه مستوى تقدير ذات منخفض يعاني من الافتقار إلى الأمن النفسي، مع شعوره بالعجز الذي يقف في وجهه ويدفعه إلى عدم تحقيق أهدافه، ومن جملة الأعراض، أو الأزمات التي تصاحب هذا التقدير الحساسية المفرطة والشعور بالخجل، مع قلة الثقة في النفس والميل إلى العزلة وكذا الشعور بالوحدة النفسية.

- النظريات المفسرة لتقدير الذات:

- نظرية روزنبرغ Rosenberg:

يرى روزنبرغ أن تقدير الذات مفهوم يعكس اتجاه الفرد نحو نفسه، وأن الفرد يُكون اتجاهاً نحو كل الموضوعات التي يتعامل معها. والذات إحدى هذه الموضوعات، إلا أن الاتجاه نحوها يختلف عن جميع الموضوعات الأخرى. ويرى أيضاً أن تقدير الذات العالي، أو المرتفع لدى الفرد يعني شعوره بأهمية نفسه و احترامه لذاته في صورتها التي هي عليها (أبو جادو، 2000، 153).

لقد اعتبر روزنبرغ تقدير الذات ظاهرة أحادية البعد بمعنى أنها اتجاه نحو موضوع النوع، ولكن نجد سميث يعتبرها أكثر تعقيداً لأنها تتضمن عمليات تقييم الذات، كما تتضمن ردود الأفعال أو الاستجابة الدفاعية، وباعتبار أن تقدير الذات هو عبارة عن اتجاه تقييمي نحو الذات فإن هذا الاتجاه يغلب عليه الطابع العاطفي.

- نظرية كوبر سميث Cooper smith:

يرى سميث أن ظاهرة تقدير الذات أكثر تعقيداً لأنها تتضمن اتجاهات تقييمية نحو الذات تتسم بالعاطفة، كما تتضمن اتجاهات دفاعية، وهو على هذا الأساس يعرف تقدير الذات على أنه ما يجربه الفرد من تقييم لذاته من حيث القدرة والأهمية، وقد اتسم هذا الاتجاه لدى الإنسان نحو ذاته بالاستحسان أو الرفض (جبريل، 1994، 198).

كما نجد أن سميث يميز بين نوعين من تقدير الذات، تقدير الذات الحقيقي ويوجد عند الأفراد الذين يشعرون بالفعل أنهم ذوي قيمة، وتقدير الذات الدفاعي ويوجد عند الأفراد الذين يشعرون أنهم دون قيمة، وهم لا يستطيعون الاعتراف بهذا الشعور والتعامل على أساسه مع أنفسهم ومع الآخرين.

- نظرية زيلر Ziller:

يرى زيلر أن تقدير الذات ما هو إلا البناء الاجتماعي للذات، فهو بذلك يمثل وجهة نظرية المجال في الشخصية، إذ ينفي أن يحدث تقدير الذات في معظم الحالات، إلا في الإطار المرجعي الاجتماعي. إن تأكيد زيلر على العامل الاجتماعي جعله يعطي اسم تقدير الذات الاجتماعي لمفهومه و يوافقه النقاد على ذلك، بأنه تقدير الذات الاجتماعي، وقد ادعى أن المناهج أو المداخل الأخرى في دراسة تقدير الذات لم تعط العوامل الاجتماعية حقها في نشأة ونمو تقدير الذات (أبو جادو، 2000، 155).

من خلال عرضنا النظريات المفسرة لتقدير الذات، نجد أن هذه النظريات تباينت فيما بينها، فنجد مثلاً روزنبرغ اعتبر تقدير الذات بأنه مفهوم يوضح اتجاه الفرد نحو نفسه، وركز على هذا المفهوم لدى فئة معينة وهي فئة المراهقين. أما سميث فيعتبر تقدير الذات بأنه الحكم الذي يصدره المرء على ذاته ويحوي الاتجاهات التي تصفه بوجه أكثر دقة. أما بالنسبة لـ زيلر فتقدير الذات هو البناء الاجتماعي للذات، وهو بذلك يجسد فكرة نظرية المجال في الشخصية.

بناءً عليه فإن الشعور السيئ تجاه النفس له تأثير كبير في تدمير الإيجابيات التي يملكها الشخص، فنجد أن المشاعر والأحاسيس التي نكونها تجاه أنفسنا هي التي تكسبنا الشخصية القوية المتميزة أو تجعلنا سلبين؛ حيث أن إنتاجنا يتأثر سلباً وإيجاباً بتقديرنا لذواتنا.

- الدراسات السابقة:

تعد الدراسات السابقة في البحوث العلمية ذات دور إيجابي لكل باحث حيث تعمل على تبصيره بالإيجابيات والسلبيات، وتدفعه إلى المضي قدماً في البحث عن الجديد، وعمل المقارنات العلمية. بناءً على ذلك فإن الباحث سيلقي الضوء على الدراسات الأجنبية والعربية للتعرف على أهم النتائج التي توصل إليها الباحثون في مجال الشعور بالوحدة النفسية.

قام يونغ (Yong 1979) بدراسة حول الإحساس بالوحدة النفسية لدى الطلاب الجامعيين، استخدم فيها النموذج المعرفي Cognitive Model، وأوضحت النتائج وجود علاقة بين الإحساس بالوحدة النفسية ومشاعر الإحساس بانعدام الحب والإقصاء عن عضوية الجماعة التي يود الشاب الجامعي أن ينتمي إليها والشعور بالتبعية، أو محدودية العلاقات الاجتماعية وانعدام الثقة في النفس والتشاؤم، كما أوضح ضرورة استخدام مفاهيم التعزيز الإيجابي والتعليم المعرفي في تفسير ظاهرة الإحساس بالوحدة النفسية (بار، 1998، ص226).

حاول فريمون وجوسويك (Frumon, & Goswick, 1980) إيجاد تفسير لاستمرار ظاهرة الشعور بالوحدة النفسية لدى الطلاب الجامعيين، وشملت العينة 489 من الطلاب والطالبات، طبقت عدة مقاييس مثل التقدير الذاتي، ومقياس تقدير الآخرين، وأشارت النتائج إلى وجود ارتباط بين الوحدة النفسية وعوامل معرفية وعاطفية قد تحبط أو تشوه العلاقات الاجتماعية مع ظهور بعض الأدلة على وجود فروق بين الجنسين (Frumon, Goswick, 1981, p682).

قام سميث وسيرمات (Schmidt & Sermet, 1981) بقياس الشعور بالوحدة النفسية في علاقات مختلفة باستخدام المقياس الفارق للشعور بالوحدة النفسية، وشملت العينة 306 من طلاب الجامعة و264 من غير الطلاب. أظهرت النتائج ارتباط الشعور بالوحدة بالقصور في أنماط العلاقات الاجتماعية كالعلاقة بين الجنسين، والعلاقة مع الأسرة ومع الجماعات الأكبر، كما تبين أن فقدان الصداقة، أو عدم الرضا عنها يكون مؤشراً للشعور بالوحدة النفسية ويرتبط مع قدرة الفرد على بناء علاقات مشبعة مع الآخرين (Shmidt, Sermat, 1983, p1038).

قام جونز وآخرون (Genes et al, 1983) بدراسة عن الإحساس بالوحدة النفسية، والتقييمات الشخصية المتبادلة ما بين الشباب الجامعي، تكونت العينة من 42 طالبا وطالبة، وأوضحت النتائج أن ما يصاحب الشاب الجامعي من خبرة الإحساس بالوحدة النفسية يعود أصلاً إلى القصور المدرك فيما لديهم من مهارات اجتماعية، كما أن الإحساس بالوحدة النفسية ينشأ عن افتقار الطلاب لمهارات الانخراط في علاقات مشبعة مع الآخرين، و يصاحبه شعور الفرد بالاكْتئاب، والضجر، واللامبالاة وفقدان وشعور بالاغتراب وانعدام الثقة في النفس (بار، 1998، ص228).

اتجه الباحثان هشت وبوم (Hecht & Boum, 1984) لدراسة أنماط الارتباط والتعلق المبكر على ظهور الشعور بالوحدة النفسية لاحقاً، وضمت الدراسة 47 من طلاب الجامعة 20 أنثى و 27 ذكراً، حيث أجابوا على عدة مقاييس من بينها مقياس UCAL المعدل للشعور بالوحدة النفسية، واستبيان لتاريخ التعلق أو الارتباط. وأظهرت النتائج أن الوقت المادي الحقيقي الذي يقضيه الفرد وحيداً يرتبط بالوحدة النفسية الشخصية أو التعلق، ويعني ذلك أن الوحدة الفيزيائية للإنسان لا تدل بالضرورة على وحدة نفسية، فقد يشعر كثير من الناس بالوحدة النفسية وهم داخل الجماعة (Hecht, Boum, 1984, p193).

اهتم شميت وكوردريك (Schmitt & Kurdick, 1985) بدراسة تأثير فروق الجنس والعمر وخصائص الشخصية على الشعور بالوحدة النفسية، شملت العينة على جامعيين 71 ذكراً و 85 أنثى، و 81 سيدة، من كبار السن، استخدم خلالها المقياس الفارق للشعور بالوحدة النفسية (OLS) Differentiation Loneliness Scale، وتلخصت النتائج في حصول الذكور على درجة أكبر من الشعور بعدم الرضا عن علاقاتهم مع الجماعات، كما ظهر وبشكل متكرر أن قلة الدعم المدرك من الأسرة والأصدقاء له ارتباط هام بالشعور بالوحدة النفسية في كل الجماعات خاصة الذكور منهم (خوج، 2002، ص47).

كما أن شولتز ومور (Schultz Moore, 1996) قاما ببحث قصداً منه دراسة الفروق الكمية والوصفية بين الجنسين من طلاب الجامعة في العوامل المرتبطة بالشعور بالوحدة النفسية والقلق والاكتئاب، وذلك من خلال تطبيق مقياس الشعور بالوحدة النفسية واختبار القلق كحالة وسمة ومقياس التقرير الذاتي للاكتئاب، وهذا على عينة مكونة من 53 طالبة، و 59 طالباً جامعياً. فأوضحت النتائج أن الذكور يظهرون شعوراً بالوحدة

أكثر من الإناث كما يرتبط الشعور بالوحدة بكل من القلق والاكتئاب لدى الذكور بمعاملات ارتباط أكثر مما لدى الإناث كما بينت النتائج أن الشعور بالوحدة لدى الذكور أكثر ميلاً للارتباط بالتقييم السلبي للنواحي الشخصية والعاطفية منه لدى الإناث (السيد، 1998، ص100).

هدفت دراسة ألين (Alan 1988) للتعرف إلى أثر العوامل الشخصية والاجتماعية في الوحدة النفسية لدى الطلاب الجامعيين، تكونت عينة الدراسة من 140 طالباً جامعياً، واستخدمت في الدراسة عدة اختبارات تهدف إلى الحصول على معلومات وبيانات عن الوحدة النفسية، وشبكة العلاقات الاجتماعية، وسمات الشخصية، وأوضحت النتائج ارتباط الوحدة النفسية بأشكال كمية وكيفية من شبكة العلاقات الاجتماعية وارتباطها بسمات الشخصية المعطلة لنمو العلاقات الاجتماعية (بار، 1998، ص228).

قامت روكاتش (Ami Rokach 1988) بدراسة تحت عنوان الشعور بالوحدة النفسية حيث طورت الباحثة نموذجاً ثلاثي المستوى لخبرة الشعور بالوحدة النفسية، على أساس تحليل التباين الأحادي (Anova)، للمساعدة في تبويب التصور الذهني للشعور بالوحدة النفسية ويصف الكتاب هذه التجربة بأنها حالة فريدة من الألم، وتمثل الخبرة الضاغطة. وأوضحت النتائج أن التحليل المقارن لم يكن ممكناً. وذلك لان الأشخاص لم يكونوا متكافئين من حيث العمر والجنس والحالة الزوجية (المزروع، 2001، ص642).

قام نيكولاس (Nickolas 1989) بدراسة عن نماذج الاتصال والصدقة لدى الطلاب المتصفين بالوحدة، تكونت عينة الدراسة من 72 طالباً جامعياً، نصفهم من الذكور والنصف الآخر من الإناث. هدفت الدراسة للتعرف على العلاقة بين الوحدة النفسية والفروق بين الجنسين، وشبكة العلاقات الاجتماعية، واثارت النتائج إلى أن الذكور كانوا أكثر شعوراً بالوحدة النفسية من الإناث (بار، 1998، ص229).

قام بيرل وآخرون (Pearl & al 1990) بدراسة لتقصي الفروق في الشعور بالوحدة بين الطلاب اليابانيين 100 طالب وطالبة، والأمريكيين 100 طالب وطالبة، يدرسون بالسنة الأولى جامعي بأمريكا والذين غادروا أسرهم لأول مرة في حياتهم، وتم تطبيق المقياس الفارق للشعور بالوحدة، حيث بينت النتائج أن الطلاب من الجنسيتين قد حصلوا على درجات عالية من الشعور بالوحدة، بينما كانت درجات اليابانيين أعلى من درجات نظرائهم الأمريكيين في جميع المجالات العلاقات الاجتماعية، الجنس الآخر، الأسرة، الجماعات الأكبر (Pearl, & al, 1990, p49).

قام ديفز (Davis 1990) بمراجعة الدراسات السابقة التي اهتمت بخبرة الشعور بالوحدة النفسية لدى الأطفال والكبار، وتوصل إلى أن الشعور بالوحدة النفسية يعتبر خبرة مؤلمة حزينة ولكنها عامة لدى الكبار والصغار، وحين تصبح هذه الخبرة ظاهرة متكررة الحدوث فيكون لها نتائج حاسمة على حياة الإنسان الانفعالية والعضوية، وأوضح أن مفهوم الشعور بالوحدة يرتبط بالنمو النفسي الاجتماعي للفرد (Davis, 1990, p59).

هذا فيما يخص الدراسات الأجنبية التي تناولت موضوع الوحدة النفسية وقد حاول الباحث انتقاء المناسب منها بما يخدم الدراسة الحالية بالرغم من وجود دراسات أخرى حول موضوع الوحدة النفسية. وفيما يلي بعض الدراسات العربية التي اهتمت هي أيضاً بدراسة موضوع الوحدة النفسية نوجزها كالآتي:

قام البحيري (1985) بتقنين مقياس الشعور بالوحدة النفسية UCAL Loneliness Scale الذي أعده راسل وآخرون (1980)، وطبق المقياس على عينة من 1010 شملت طلاب المرحلة الثانوية والجامعية، وتعدتها إلى

الدراسات العليا. وأوضحت النتائج أن الإناث يعانين من الشعور بالوحدة أكثر من الذكور في المراحل الثانوية، في حين لم تتضح تلك الفروق في المرحلة الجامعية (آل مشرف، 1998، ص177).

قام قشقوش (1988) بدراسة هدفت إلى تقنين مقياس الشعور بالوحدة النفسية الذي يتكون من 34 عبارة، مع مقياس متدرج من أربع نقاط، يتضمن أربعة استجابات. طُبّق المقياس على عينة قوامها 607 من الطلاب و الطالبات الجامعيين، وقد حصل المقياس على درجات صدق وثبات عالية (قسقوش، 1988، ص09).

قام كل من خضر والشناوي (1988) بإعداد وتقنين مقياس للشعور بالوحدة النفسية بناء على مقياس UCAL Loneliness Scale، ومقياس تبادل العلاقات العامة الاجتماعية وكذا مقياس بك للاكتئاب في البيئة السعودية، إضافة إلى دراسة العلاقة بين متغير الشعور بالوحدة النفسية والعلاقات الاجتماعية وسمات الشخصية الانبساطية و العصابية، تكونت عينة الدراسة من 500 طالب نصفهم من طلاب الجامعة والنصف الآخر من طلاب المرحلة الثانوية بالسعودية، واستخدمت مقياس بك للاكتئاب ومقياس الشعور بالوحدة النفسية ومقياس العلاقات الاجتماعية المتبادلة. وأوضحت النتائج وجود علاقة ارتباطية موجبة 0.36، ودالة عند 0.01 بين الشعور بالوحدة النفسية والاكتئاب، في حين توجد علاقة ارتباطية سالبة - 0.18 ودالة عند 0.05 بين درجات أفراد العينة الكلية على مقياس العلاقات الاجتماعية المتبادلة ودرجاتهم على مقياس بك للاكتئاب (خضر، الشناوي، 1988، ص639).

قام عطا (1993)، بإجراء دراسة هدفت إلى التعرف على العلاقة بين تقدير الذات وبين كل من الوحدة النفسية والاكتئاب لدى طلاب الجامعة، تكونت عينة الدراسة من 136 طالباً من كلية التربية جامعة الملك سعود، وكلية المعلمين بالرياض. حيث استخدم معها مقياس تقدير الذات، ومقياس الوحدة النفسية ومقياس بيك للاكتئاب، وأسفرت الدراسة عن وجود علاقة سالبة إحصائياً بين تقدير الذات وبين كل من الوحدة النفسية والاكتئاب، كما كانت هنالك علاقة موجبة بين الوحدة النفسية والاكتئاب (بار، 1998، ص232).

وفي دراسة شقير (1993)، بعنوان تقدير الذات والعلاقات الاجتماعية المتبادلة والشعور بالوحدة النفسية لدى عينة من تلميذات المرحلة الإعدادية في كل من مصر والمملكة العربية السعودية. هدفت الدراسة للكشف عن طبيعة العلاقة بين كل من تقدير الذات والعلاقات الاجتماعية وعن نوع الارتباط بين المجتمعين. اشتملت عينة الدراسة على 290 تلميذة بالمرحلة الإعدادية، استخدمت مقياس الوحدة النفسية وكذلك مقياس تقدير الذات والعلاقات الاجتماعية المتبادلة، حيث توصلت إلى وجود ارتباط سالب بين تقدير الذات والشعور بالوحدة النفسية لدى عيني الدراسة (شقير، 1993، ص139).

قام كل من حسين و الزباني (1994)، بإجراء دراسة هدفت لمعرفة الشعور بالوحدة النفسية لدى الشباب الجامعي، وتكونت عينة الدراسة من 238 طالباً جامعياً من أبناء دول مجلس الخليج العربي، يدرسون في التخصصات التالية: الطب والأدب والتربية والهندسة وإدارة الأعمال والعلوم. استخدموا خلالها مقياس الإحساس بالوحدة النفسية لطلاب الجامعات وقد أوضحت نتائج الدراسة أن درجة الإحساس بالوحدة النفسية ترتفع لدى الذكور عنها لدى الإناث، كما ترتفع لدى ذوي التخصصات العلمية منها عن ذوي التخصصات النظرية. كذلك كانت هناك فروق دالة في الشعور بالوحدة النفسية بين الطلاب والطالبات، وقد كانت الفروق لصالح الطالبات (بار، 1998، ص232).

قامت آل مشرف (1998)، بدراسة تهدف إلى تقصي واقع ظاهرة الشعور بالوحدة النفسية لدى عينة من الطلاب والطالبات الجامعيين البحرينيين الذين يدرسون في جامعة البحرين وجامعة الخليج العربي، واثرت كل من متغيرات النوع والتخصص الدراسي والجنسية على درجة المعاناة من هذه الخبرة. وأظهرت النتائج وجود خبرة الشعور بالوحدة بدرجة متوسطة لدى العينة الكلية وبدرجة مرتفعة نسبياً لدى العينة غير البحرينية ثم عينة الذكور. كما أظهرت أيضاً حصول الذكور على معدلات أعلى من الإناث وحصول طلاب التخصصات العلمية على درجة أكبر في الشعور بالوحدة النفسية مقارنة بنظرائهم في التخصصات النظرية (آل مشرف، 1998، ص183).

دراسة بار (1998)، حول الشعور بالوحدة النفسية لدى طلاب وطالبات مرحلة التعليم الجامعي، وتكونت عينة الدراسة من 824 طالباً جامعياً (474 ذكور، 350 إناث)، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، استخدم الباحث مقياس الإحساس بالوحدة النفسية لطلاب الجامعة، ومن جملة النتائج المتوصل إليها مدى إدراك طلاب الجامعة بالوحدة النفسية وما يصاحب هذا الإحساس من خبرة سلبية للذات كما أنه لا توجد فروق بين التخصصات العلمية والأدبية في الشعور بالوحدة النفسية، أيضاً لا توجد فروق بين المستويات الدراسية في الشعور بالوحدة النفسية (بار، 1998، ص234).

قامت شيببي (2005)، بدراسة العلاقة بين الشعور بالوحدة النفسية وبين سمات الشخصية، وذلك لدى عينة من طالبات جامعة أم القرى بمكة المكرمة وفقاً لبعض المتغيرات مثل: التخصص، المستوى الدراسي، العمر. استخدمت بالدراسة مقياس الشعور بالوحدة النفسية ومقياس سمات الشخصية لاريكسون بلغ عدد العينة 400 طالبة، ومن جملة النتائج أنه يوجد ارتباط سالب بين الوحدة النفسية وسمات الشخصية، وكذا وجود ارتباط سالب بين كل من الوحدة النفسية وسمات الشخصية (الإحساس بالثقة، الاستقلال، المبادأة، الانجاز الهوية، الألفة، التدفق). بالإضافة إلى وجود فروق تعود لعامل التخصص الدراسي (شيببي، 2005، ص90).

قام غزال و جرادات (2009) بدراسة هدفت الدراسة للكشف عن أنماط التعلق السائدة لدى الطلبة الجامعيين، كما هدفت لبحث العلاقة بين أنماط التعلق وكل من تقدير الذات والشعور بالوحدة. وكذا معرفة مدى مساهمة كل نمط من أنماط التعلق في التنبؤ بتقدير الذات والشعور بالوحدة. وتكونت عينة الدراسة من (526) طالباً وطالبة، وأشارت النتائج إلى وجود علاقة إيجابية دالة إحصائياً بين نمط التعلق الآمن وتقدير الذات، وعلاقة سلبية دالة إحصائياً بين نمط التعلق القلق وتقدير الذات تساوي، في حين تبين وجود ارتباط إيجابي ضعيف غير دال إحصائياً بين نمط التعلق التجنبي وتقدير الذات. كما بينت نتائج تحليل الانحدار أن نمطي التعلق القلق والآمن متنبئان جيدان لتقدير الذات. أما فيما يتعلق بالعلاقة بين أنماط التعلق والشعور بالوحدة، فقد أشارت النتائج إلى وجود علاقة سلبية دالة إحصائياً بين نمط التعلق الآمن والشعور بالوحدة تساوي (- 0.34) عند مستوى (0.01)، وعلاقة إيجابية دالة إحصائياً بين نمط التعلق القلق والشعور بالوحدة تساوي (0.41) عند مستوى (0.01)، وارتباطاً إيجابياً ضعيفاً وغير دال إحصائياً بين نمط التعلق التجنبي والشعور بالوحدة. إضافة إلى ذلك تبين أن نمط التعلق الآمن هو أكثر أنماط التعلق شيوعاً (غزال، جرادات، 2009، ص45).

- **التعليق على الدراسات السابقة:** هناك نوع من الدراسات السابقة التي ركزت على الوحدة النفسية العامة وأعطت نوعاً من التفصيل لهذه الخبرة وذلك مثل: دراسة يونغ (1979) جون، فريمون وجوسويك (1980)، سميث وسيرمات (1981)، روكاتش (1988)، ديفز (1990)، بيرل وآخرون (1990)، حسين و الزباني (1994)، آل

مشرف (1998)، بار(1998). وجل هذه الدراسات ناقشت الوحدة النفسية دون ربطها بمتغيرات أخرى. وقد أوضحت نتائج الدراسات السابقة علاقة الشعور بالوحدة النفسية بعدة عوامل كثيرة أو متغيرات، وكانت هذه العوامل مثل: التقديرات الشخصية المتبادلة جونز وآخرون (1983)، أنماط الارتباط والتعلق المبكر هشت ويوم (1984)، تأثير فروق الجنس والعمر وخصائص الشخصية شमित وكوردريك (1985)، ودراسة نيكولاس (1989) وأيضا دراسة شولتز ومور (1986)، في حين اثر العوامل الشخصية والاجتماعية بالنسبة لدراسة الين (1988)، سمات الشخصية بالنسبة لدراسة شيببي (2005)، و تقدير الذات بالنسبة لدراسة عطا (1993) وكذا دراسة شقير (1993) و غزال وجردات (2009)، ولقد كان محتوى دراسات أخرى حول تقنين وبناء مقياس الشعور بالوحدة النفسية مثل: دراسة قشقوش (1988)، خضر والشناوي (1988)، البجيري (1985). وتم هذا التقنين على البيئة العربية بطبيعة الحال.

كما أظهرت هذه الدراسات الأثر السلبي لخبرة الشعور بالوحدة النفسية على هذه الفئات التي تعاني منها، وارتباطها في زيادة أو نقص أحد المتغيرات المرتبطة بها. و خلصت بعض الدراسات إلى وجود فروق في الإحساس بالوحدة ارتبطت بالجنس والتخصص الدراسي، وكذا متغير الجنسية.

- إجراءات الدراسة:

- منهج الدراسة:

تهدف الدراسة الحالية إلى التعرف على العلاقة ما بين الشعور بالوحدة النفسية وتقدير الذات لدى عينة من الطلبة بجامعة الجزائر، وذلك وفقا لبعض المتغيرات وهي: الجنس، التخصص الدراسي، وفي ضوء هذا الهدف فقد اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي، و الذي يهدف إلى جمع الحقائق والبيانات عن الظاهرة ومحاولة تفسيرها تفسيراً علمياً.

- مجتمع وعينة الدراسة:

لقد كان مجتمع الدراسة يتكون من مجموعة الطلبة الذين يدرسون بجامعة الجزائر (02)، مع مراعاة جانب التخصصات العلمية والأدبية في اختيار العينة وبناءً على هذا فقد اختار الباحث عينة عشوائية من مجتمع الدراسة الأصلي وذلك بهدف تطبيق أدوات الدراسة (مقياس الشعور بالوحدة النفسية، مقياس تقدير الذات)، وتم اختيار عينة قدرها 250 طالبا وطالبة، من التخصصات العلمية والأدبية كانوا موزعين بحسب التخصص والمستوى الدراسي كما هو موضح في الجدول التالي.

جدول (01): توزيع أفراد العينة حسب متغيرات (الجنس، التخصص الدراسي).

المتغيرات	النتائج		العينة
الجنس.	ذكور	155	
	إناث	95	
التخصص الدراسي.	علمي	135	
	أدبي	115	

- أدوات الدراسة:

أ- مقياس الشعور بالوحدة النفسية:

استخدم في هذه الدراسة مقياس الإحساس بالوحدة النفسية لطلاب الجامعات والذي كلفه في البيئة العربية إبراهيم قشقوش (1988)، وقد أعدّه في الأصل راسيل و كاترونا (1980)، والذي يعرف بـ UCLA Loneliness Scale، و هو مكون من 34 عبارة أمام كل عبارة أربعة استجابات تقدير هي: معظم الأحيان، بعض الأحيان، نادراً، لا أشعر على الإطلاق، وتتراوح الدرجات التي يحصل عليها الفرد في المقياس بين 34 درجة كحد أدنى إلى 136 درجة كحد أقصى. وقد بينت نتائج التحليل العاملي لبنود المقياس أن إحساس الفرد بالوحدة النفسية يتضمن أربع مكونات أساسية هي:

- إحساس الفرد بالضجر نتيجة افتقاد التقبل والتواد والحب من جانب الآخرين.
- إحساس الفرد بوجود فجوة نفسية تباعد بينه وبين الأشخاص والوسط المحيط و يصاحبها أو يترتب عليها افتقاد إنسان يستطيع أن يثق به.
- معاناة الفرد لعدد من الأعراض العصائية كالإحساس بالملل والإجهاد وانعدام القدرة على تركيز الانتباه، والاستغراق في أحلام اليقظة.
- إحساس الفرد بافتقاد المهارات الاجتماعية اللازمة من أجل انخراطه في علاقات مشبعة أو مثمرة مع الآخرين.
- **ثبات المقياس:** استخدم معد المقياس لحساب الصدق طريقة إعادة التطبيق، وذلك بفاصل زمني قدره أسبوعان، ولقد طبق المقياس على عينة قوامها 115 طالبا وطالبة من طلاب كلية التربية بجامعة عين شمس، وتوصل إلى معامل ارتباط قدر بـ 0.81، وهو دال عند مستوى الدلالة 0.01.
- **صدق المقياس:** لقد استخدم معد الاختبار أربع طرق لحساب الصدق وهي: الصدق التكويني، الصدق العاملي، الصدق التلازمي، وكذا الصدق التمييزي، ولقد أكدت النتائج المحصل عليها صدق المقياس وقدرته العالية على التمييز بين مجموعات الطلبة العادية وغير العادية من حيث الشعور بالوحدة النفسية.
- **تصحيح المقياس:** يطلب من المستجيب إبداء الرأي بالنسبة لكل من هذه العبارات، وذلك على مقياس متدرج من أربع استجابات أشعر بما تنطوي عليه العبارة معظم الأحيان أشعر بما تنطوي عليه العبارة في بعض الأحيان، أشعر بما تنطوي عليه العبارة نادراً، لا أشعر على الإطلاق بما تنطوي عليه العبارة، وهذا مع تخصيص الأرقام 4-3-2-1، لكل من هذه الاستجابات على الترتيب.

ب- مقياس كوبر سميث لتقدير الذات Cooper Smith:

صمم هذا المقياس من طرف الباحث الأمريكي كوبر سميث سنة 1967 لقياس الاتجاه التقييمي نحو الذات في المجالات الاجتماعية، الأكاديمية، العائلية والشخصية، ويحتوي على نماذج مختلفة خاصة بالصغار وأخرى خاصة بالكبار حيث قام عبد الفتاح بترجمة وتكييف نموذج في البيئة العربية وهذا النموذج الأخير هو الذي سوف يتم اعتماده في الدراسة الحالية.

يطبق المقياس على الأفراد من 16 سنة فما فوق، ويمكن تطبيقه فردياً، أو جماعياً ومدة التطبيق لا تتجاوز عشرة دقائق، ويحتوي هذا المقياس على تعليمية يوضح فيها الباحث كيفية الإجابة عن عباراته، حيث يجب على الباحث أن يتحاشى استخدام كلمة تقدير الذات في التعليمات حتى يتجنب تحيز المفحوص في الإجابة. يتكون

مقياس كوبر سميث من عبارات سالبة عددها 17 عبارة، وتحمل الأرقام التالية: 2، 3، 6، 7، 10، 11، 12، 13، 15، 16، 17، 18، 21، 22، 23، 24، 25، كما يحتوي على عبارات موجبة عددها 08 عبارات، وتحمل الأرقام التالية: 1، 4، 5، 8، 9، 14، 19، 20. و يطلب من المفحوص أن يضع علامة (x)، في إحدى الخانتين المقابلتين للعبارة.

- **ثبات المقياس:** لقد خلصت نتائج الكثير من الدراسات في البيئات الاجتماعية المختلفة إلى أن معامل الثبات لمقياس تقدير الذات لكوبر سميث تتراوح بين 0.70 حتى 0.88، هذا ولقد تم حساب معامل الثبات للمقياس في البيئة العربية بتطبيق معادلة كودر ريتشاردسون Kudder Richardsen رقم 12، (K-R12)، على عينة مقدارها 526 فرداً منهم 370 ذكراً، و156 أنثى فوجد أن معامل الثبات يساوي 0.74 عند الذكور و0.77 عند الإناث. ولقد بلغ معامل الثبات لدى العينة الكلية 0.79.

- **صدق المقياس:** لقد تم حساب الصدق الذاتي لعبارات المقياس وذلك في البيئة الأجنبية فوجد أن نسبة 90%، من العبارات لها معاملات ارتباط دالة. في حين وجد أن ما نسبته 10% من العبارات لم تكن لها مستويات معاملات ارتباط دالة وخلص إلى أن عبارات المقياس فعلاً تقيس ما وضعت من أجله ألا وهو تقدير الذات. في حين تم التأكد من صدق المقياس في البيئة العربية عن طريق حساب معامل الارتباط بين درجات المقياس، وذلك على عينة قدرها 152 طالباً وطالبة. حيث بلغ الصدق 0.84 عند فئة الذكور في حين بلغ عند الإناث 0.94، ولدى العينة الكلية 0.88.

- **تصحيح المقياس:** نعطي الدرجة 1، في المقياس إذا أجاب المفحوص ب لا تنطبق على العبارات السالبة. في حين نعطي الدرجة 1، في المقياس إذا أجاب المفحوص ب تنطبق على العبارات الموجبة. و بحسب المقياس يصنف المستجوبون إلى فئتين، أولهما فئة مرتفعي تقدير الذات وثانيهما فئة منخفضي تقدير الذات، فالدرجة المرتفعة على المقياس تعكس مستوى مرتفع لتقدير الذات والعكس صحيح.

- **نتائج الدراسة ومناقشتها:**

- **الفرضية الأولى:** والتي تنص على ما يلي:

♦ توجد علاقة ذات دلالة إحصائية ما بين الدرجة الكلية للشعور بالوحدة النفسية والدرجة الكلية لتقدير الذات لدى عينة من طلبة جامعة الجزائر (02).

للتحقق من صحة هذه الفرضية قام الباحث باستخدام معامل الارتباط بيرسون لاختبار طبيعة العلاقة بين الدرجات التي تحصل عليها أفراد العينة على مقياس الشعور بالوحدة النفسية والدرجات التي حصلوا عليها على مقياس تقدير الذات وذلك لدى عينة من طلبة جامعة الجزائر وقبل ذلك نورد توزيع متغيري الدراسة في الجدول التالي:

جدول (02) يمثل نتائج معامل الارتباط بين متغيري الوحدة النفسية وتقدير الذات

النتائج المتغيرة	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	معامل الارتباط	مستوى الدلالة

الوحدة النفسية.	250	81.33	17.69	- 0.57	0.01
تقدير الذات.	250	15.34	04.20		

من الجدول اتضح أنه يوجد ارتباط سالب بين الشعور بالوحدة النفسية وتقدير الذات بمقدار - 0.57، وذلك عند مستوى الدلالة 0.01، وهي قيمة دالة إحصائياً وهذا يدل على أن ارتفاع درجة الشعور بالوحدة النفسية يقابله انخفاض في مستوى تقدير الذات، وحيث أن الانخفاض في درجة تقدير الذات على المقياس يعني بأن هناك تقديراً منخفضاً أو سلبياً للذات مع وجود شعور بالنقص والخط من قيمة هذه الذات وهذا ما يعبر عنه ارتفاع درجة الشعور بالوحدة النفسية. ويمكن تفسير ذلك في ضوء أن الوحدة النفسية هي عبارة عن خبرة ذاتية مؤلمة يمر بها أفراد المجتمع بصرف النظر عن نوع جنسهم أو فئاتهم العمرية، ويعزو هذا لتداخل مجموعة من العوامل لها الأثر البالغ في إحداث هذا النوع من الشعور مثل: نقص المهارات الاجتماعية وتقدير الذات السلبي، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الوحدة النفسية حالة واسعة الانتشار تجلب اليأس والحزن بشدة للأفراد ولا تعرف حدوداً. وهذا يتفق مع ما توصل إليه كل من عطا (1993)، والذي أقر بوجود علاقة بين تقدير الذات وبين كل من الوحدة النفسية والاكتئاب لدى طلاب الجامعة، وأيضاً شقير (1993)، بالإضافة إلى ذلك ما توصل إليه عابد (2002)، وكل هذه الدراسات في مجملها توصلت إلى اعتبار أن الارتفاع في درجة الشعور بالوحدة النفسية يقابله التقدير السلبي للذات والعكس صحيح.

- الفرضية الثانية: والتي تنص على أنه:

♦ توجد فروق ذات دلالة إحصائية ما بين درجات أفراد العينة الكلية على مقياس الشعور بالوحدة النفسية تبعاً لمتغير الجنس.

للتحقق من هذه الفرضية قام الباحث باستخدام اختبار ت (T.test)، لمعرفة دلالة الفروق في نتائج الشعور بالوحدة النفسية تبعاً لمتغير الجنس و ملخص نتائج اختبار (ت) في الجدول التالي:

جدول (03) يوضح الفروق في الشعور بالوحدة حسب متغير الجنس.

الجنس	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	ت المحسوبة	مستوى الدلالة
ذكور	155	82.19	17.18	248	0.98	غير دالة
إناث	115	79.92	18.58			

يتضح لنا من الجدول أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الذكور والإناث في الشعور بالوحدة النفسية، ويعزى ذلك إلى أن عامل الجنس ليس له تأثير في إحساس الطالب أو الطالبة بالوحدة. ويؤكد هذا أن الشعور بالوحدة النفسية مشكلة يعاني منها الطلبة الجامعيين والمراهقون والشباب بصفة عامة لكن ليس بنفس الدرجة، ومن هنا يتأكد أو تبرز لنا مدى حاجة الطالب الجامعي إلى نوع من الإشباع المرتبط بالحاجة للانتماء والأمان وتكوين الصداقات والعلاقات الاجتماعية داخل البيئة الجامعية. فضلاً عن حاجتهم الماسة إلى نوع من المساعدة والتوجيه والإرشاد للتخلص من مشاعر الوحدة وما يصاحبها من اضطرابات شخصية. كما يمكن أن نرجع سبب عدم وجود فروق دالة بين الجنسين إلى طبيعة الواقع الاجتماعي الذي يعيشه الجنسان، فإذا ما قمنا

بتحليل هذا الواقع الراهن نجده واقعا يدعو إلى المزيد من الوحدة و العزلة والاعتزاف واليأس والتشاؤم لأنه واقع مليء بالتناقضات و الأضداد. كما أنه واقع غير مستقر وكل هذا يجعل الفرد سواء أكان ذكرا أو أنثى عرضة أكثر لمشاعر الوحدة النفسية. و لقد جاءت نتائج هذه الفرضية عكس ما توصلت إليه دراسة جون فريمون (1980) و التي وجدت فروق بين الجنسين ودراسة سميث و سيرمات (1981) و دراسة سميث وكورديك (1985) التي أكدت حصول الذكور على درجة كبيرة في الشعور بالوحدة النفسية.

- الفرضية الثالثة: والتي كانت تنص على أنه:

♦ توجد فروق ذات دلالة احصائية ما بين درجات أفراد العينة الكلية على مقياس الشعور بالوحدة النفسية تعزى لمتغير التخصص الدراسي.

للتحقق من هذه الفرضية قام الباحث باستخدام اختبار ت (T.test)، لمعرفة دلالة الفروق في نتائج الشعور بالوحدة النفسية تبعاً لمتغير التخصص الدراسي و ملخص نتائج اختبار(ت) في الجدول التالي:

جدول(04) يوضح الفروق في الشعور بالوحدة حسب متغير التخصص.

التخصص	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	ت المحسوبة	مستوى الدلالة
علمي	135	83.40	17.29	248	02.02	0.05
أدبي	115	78.89	17.93			

يتضح لنا من نتائج الجدول السابق أنه توجد فروق دالة إحصائية بين تخصصي العلمي والأدبي في الشعور بالوحدة النفسية، ويفسر الباحث هذا بأن نوع التخصص يكون له تأثير واضح في إحساس الطلبة الجامعيين بالوحدة النفسية، وقد يكون الشعور بالوحدة ظاهرة عامة يعاني منها الشباب الجامعي بصفة عامة. وإن كانت بدرجات متفاوتة، ويرجع الباحث نتيجة هذا الفرض إلى عينة الدراسة بنوعيتها (الأدبي والعلمي)، فقد يمر طلبة هذين التخصصين بظروف متشابهة في إحساسهم بالوحدة. إلا أن التحصيل الدراسي والرغبة في التفوق والتفكير في الطموحات المستقبلية هي أهدافهم الأساسية من التحاقهم بالتعليم الجامعي. وربما يكمن هذا في كون علاقاتهم الاجتماعية محدودة مع الآخرين، وقد يكون البعض الآخر منهم يعاني من العجز في المهارات الاجتماعية وتكوين صداقات والتعبير والتواصل مع الآخرين. إن جميع هذه العوامل المتداخلة قد تجعلهم يركزون على الاستذكار والتحصيل الدراسي وهذا ما يؤثر على مشاركتهم في الأنشطة الاجتماعية والثقافية، الأمر الذي يؤدي إلى انطوائهم وشعورهم بالوحدة. وتختلف هذه النتيجة مع ما أسفرت عليه بعض نتائج الدراسات السابقة مثل دراسة بار(1998)، ودراسة آل مشرف (1998). في حين نجد دراسة شيببي (2005) جاءت مؤكدة بوجود هذه الفروق و ذلك حسب المتغيرات الجنس و التخصص الدراسي.

- الفرضية الرابعة: ولقد كانت تنص على أنه:

♦ يوجد اختلاف بين درجات أفراد العينة الكلية على مقياس تقدير الذات تبعاً لمتغير الجنس.

للتحقق من هذه الفرضية قام الباحث باستخدام اختبار ت (T.test)، لمعرفة دلالة الفروق في نتائج تقدير الذات تبعاً لمتغير الجنس و ملخص نتائج اختبار(ت) في الجدول التالي:

جدول(05) يوضح الفروق في تقدير الذات حسب متغير الجنس.

النتائج الجنس	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	ت المحسوبة	مستوى الدلالة
ذكور	155	14.98	04.24	248	- 1.72	غير دالة
إناث	95	15.92	04.10			

يتضح من الجدول السابق أنه لا توجد فروق دالة إحصائية بين الذكور والإناث في تقدير الذات. ويفسر الباحث هذه النتيجة كون أن أفراد العينة يعيشون في بيئة جامعية متشابهة تتسم بظروف معيشة و محيطية واحدة، وباعتبار أيضا أن أفراد العينة الحالية هم من الذين يعانون من شعور بالوحدة النفسية متوسط بالرغم من أن تقدير الذات يختلف من شخص لآخر، إذ يرجع هذا الاختلاف إلى التكوين الشخصي الخاص بكل فرد والذي على أساسه يتبنى الفرد فكرته عن نفسه. ويتفق هذا مع التعاريف التي تعتبر تقدير الذات بينية الفرد للحكم على نفسه، و بالإضافة إلى هذا فهو يعد أسلوب شخصي للحكم على الذات في مواقف حياتية عديدة. ويعتبر ذوي التقدير المنخفض للذات أنفسهم غير هامين وغير محبوبين ويعتقدون أن لا قيمة لهم وأنهم غير أكفاء كما لا يستطيعون فعل أشياء كثيرة يرغبون في القيام بها. وهذا اختلفت هذه النتيجة مع ما توصلت إليه دراسة عطا (1993)، وشقير (1993) والتي نصت على وجود فروق بين الجنسين لدرجة تقديرهم لذواتهم.

- الفرضية الخامسة: نصت على أن:

❖ يوجد اختلاف بين درجات أفراد العينة الكلية على مقياس تقدير الذات تبعاً لمتغير التخصص الدراسي.

للتحقق من هذه الفرضية قام الباحث باستخدام اختبار (T.test)، لمعرفة دلالة الفروق في درجات أفراد العينة الكلية تقدير الذات تبعاً لمتغير التخصص الدراسي، وملخص نتائج اختبار (ت) في الجدول التالي:

جدول (06) يوضح الفروق في تقدير الذات حسب متغير التخصص الدراسي .

النتائج التخصص	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	ت المحسوبة	مستوى الدلالة
أدبي	135	14.91	04.19	248	- 1.77	غير دالة
علمي	115	15.85	04.17			

يتضح لنا من الجدول أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في تقدير الذات على أساس متغير التخصص الدراسي، ويعزى ذلك إلى أن عامل التخصص ليس له تأثير في تقدير الطالب لذاته. و من هنا يتأكد أو تبرز لنا مدى حاجة الطالب الجامعي إلى نوع من الإشباع المرتبط بالحاجة للانتماء والأمان وتكوين الصداقات والعلاقات الاجتماعية داخل البيئة الجامعية يدفعه بشكل تلقائي لتعزيز مستوى تقديره لذاته. فضلا عن حاجته الماسة إلى نوع من المساندة والتوجيه من قبل الزملاء والأصدقاء مما يدفع به للتخلص من مشاعر مثل الوحدة و الاغتراب وما يصاحبهما من اضطرابات شخصية وكذا الشعور بالاكتئاب كل هذا بالطبع ينعكس إيجاباً على مستوى تقدير الطالب لذاته. وهذا يختلف مع ما خلصت إليه دراسة عطا (1993)، شقير (1993)، وغزال وجردات (2009) التي أشارت إلى وجود فروق بين التخصصات العلمية و النظرية.

- خاتمة:

تعتبر الوحدة النفسية ظاهرة مؤلة تعبر عن وجود فجوة في الشخصية الإنسانية، وهي واسعة الانتشار في جميع طبقات المجتمع، وكذا كافة المستويات الاجتماعية. وعلى الرغم من الاهتمام الشديد الذي أولاه علماء النفس والاجتماع لخبرة الشعور بالوحدة النفسية، بالإضافة إلى جملة البحوث التي تناولته إلا أن هذا الموضوع ما زال يحتاج إلى مزيد من الدراسات التي تهتم وتكشف لنا عن نتائج أخرى مختلفة عن سابقتها، ولقد هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن علاقة الشعور بالوحدة النفسية بتقدير الذات لدى عينة من الطلبة بجامعة الجزائر (02)، ومحاولة معرفة طبيعة التأثير المحتمل لكل من متغيرات الجنس والتخصص الدراسي على كلا المتغيرين، وذلك على عينة قوامها 250 طالب وطالبة، واختيرت هذه العينة بطريقة عشوائية. ولقد استخدمت في هذه الدراسة مقياسين أثبتا جدواهما على الصعيد العلمي، وهما مقياس الشعور بالوحدة النفسية والذي أعده قشموش، وكذا مقياس تقدير الذات من اعداد سميث. ومن هنا فقد توصلت الدراسة الحالية إلى وجود علاقة ما بين الوحدة النفسية وتقدير الذات، بالإضافة إلى عدم وجود فروق حسب الجنس بالنسبة لمتغيري الوحدة النفسية وتقدير الذات، في حين كانت هناك فروق دالة حسب التخصص الدراسي بالنسبة لمتغير الوحدة النفسية. لكن لم تكن دالة بالنسبة لمتغير تقدير الذات.

- **توصيات الدراسة:** لقد اتضح أن الشعور بالوحدة النفسية وليد عدة أسباب ومهما تختلف هذه الأسباب بين الذاتية والموقفية. أو تعداها إلى الاجتماعية، فإن الغالب على الشخص الذي يعاني منها هو قصوره وعدم قدرته على الاتصال وإقامة علاقات حميمة مع الآخرين، وبعد قيامنا بالدراسة بجانبها النظري والميداني، خلصنا إلى جملة المقترحات والتوصيات التالية:

- العمل على الكشف والاهتمام بالفئة التي تعاني من الشعور بالوحدة النفسية وتوفير الرعاية الخاصة بها.
- إنشاء مراكز الإرشاد النفسي تعنى بتقديم برامج علاجية بالنسبة للذين يعانون من الشعور بالوحدة النفسية، وبرامج وقائية بالنسبة للفئة التي يتوقع أن تعاني من هذه الخبرة.
- التوسع في تعيين أخصائيين نفسانيين ملحقين بكافة الأحياء الجامعية.
- التشجيع على إنشاء النوادي الخاصة للمساهمة في دمج الطلبة بسهولة في الوسط الجامعي.
- إعداد المزيد من البحوث الخاصة تعنى بالطلاب الذين يعانون من الشعور بالوحدة النفسية، وتجاوزهم لفئات عمرية وأوساط اجتماعية مختلفة.
- إنشاء لجنة لوضع استراتيجية شاملة لرعاية هذه الفئة وتفعيل أشغال وأعمال الورشات والمخابر الموجودة على مستوى الجامعة.
- ضرورة الاتصال الدائم بين الجامعة والأسرة ومتابعة شؤون أبنائهم وذلك عن طريق التنسيق من قبل المرشد النفسي.

- **المراجع:**

أ- **المراجع باللغة العربية:**

- 1- ابراهيم فيوليت، عبد الرحمن سيد سليمان، (2002)، بناء مقياس تقدير الذات لدى أطفال المرحلة الابتدائية، دراسة سيكومترية، دراسات في سيكولوجية النمو، مكتبة زهاء الشرق، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر.
- 2- ابن منظور، (د- ت)، لسان العرب، المجلد الثالث، الطبعة الأولى، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- 3- أبو جادو صالح، (2000)، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، دار المسيرة، عمان، الأردن.

- 4- أسعد ميخائيل، (1996)، السيكولوجيا المعاصرة، دار الجيل، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، بيروت لبنان.
- 5- آل مشرف فريدة عبد الوهاب، (1998)، تأثير متغيرات الجنس والجنسية والتخصص الدراسي في درجة الشعور بالوحدة لدى عينة من طلاب جامعة الخليج العربي، مجلة دراسات الخليج، السنة 23، العدد 88، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.
- 6- بار عبد المنان ملا معمر، (1998)، الشعور بالوحدة النفسية لدى طلاب وطالبات مرحلة التعليم الجامعي، مجلة جامعة أم القرى، السنة 11، العدد 17، المملكة العربية السعودية.
- 7- جبريل موسى، (1994)، تقدير الذات لدى الطلبة المتفوقين وغير المتفوقين دراسياً، مجلة دراسات، المجلد العشرون، العدد الثاني، الجامعة الأردنية، الأردن.
- 8- جرادات عبد الكريم وأبو غزال معاوية (2009)، أنماط تعلق الراشدين وعلاقتها بتقدير الذات والشعور بالوحدة، المجلة الأردنية في العلوم التربوية، مجلد (05)، عدد (01). الأردن.
- 9- خوج حنان بنت أسعد محمد، (2002)، الخلل وعلاقته بكل من الشعور بالوحدة النفسية وأساليب المعاملة الوالدية لدى عينة من طالبات المرحلة المتوسطة بمدينة مكة المكرمة، رسالة ماجستير غير منشورة، تخصص نمو، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية.
- 10- الدريني حسين عبد العزيز وآخران، (د- ت)، مقياس تقدير الذات، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
- 11- الدسوقي مجدي أحمد، (1988)، مقياس الشعور بالوحدة النفسية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، مصر.
- 12- السيد خضر علي ومحروس الشناوي، (1988)، الشعور بالوحدة والعلاقات الاجتماعية المتبادلة، مجلة دراسات الخليج، العدد 25، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.
- 13- السيد محمد عبد الرحمن، (1998)، نظريات الشخصية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.
- 14- شقير زينب محمود، (1993)، تقدير الذات والعلاقات الاجتماعية المتبادلة والشعور بالوحدة النفسية لدى عينة من تلميذات المرحلة الإعدادية في كل من مصر والمملكة العربية السعودية، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد الحادي والعشرون، العدد الأول والثاني، مجلس النشر العلمي، الكويت.
- 15- شقير زينب، (2002)، الشخصية السوية والمضطربة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر.
- 16- شيبى الجوهرة بنت عبد القادر بن طه، (2005)، الشعور بالوحدة النفسية وعلاقتها بسمات الشخصية لدى عينة من طالبات جامعة أم القرى بمكة المكرمة، رسالة ماجستير غير منشورة، تخصص الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية.
- 17- العباسي، عيلة بنت حسين، (1999)، الحرمان وعلاقته بالشعور بالوحدة النفسية لدى المراهقات المقيمات بدور الرعاية الاجتماعية بالمنطقة الغربية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، المدينة المنورة، السعودية.
- 18- الفحل نبيل محمد، (2000)، دراسة تقدير الذات ودافعية الانجاز، مجلة علم النفس، العدد 54، الهيئة المصرية للكتاب، أبريل، مايو، يونيو. مصر.
- 19- قشقوش إبراهيم، (1988)، مقياس الشعور بالوحدة النفسية لطلاب الجامعة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، مصر.
- 20- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الشيرازي، (د- ت)، القاموس المحيط، المطبعة الميمنية، مصر.
- 21- محمد عادل عبد الله، (2000)، دراسة مقارنة في تقدير الذات لدى الشباب الجامعي، دراسات في الصحة النفسية، دار الرشاد، الطبعة الأولى، مصر.
- 22- مرسي أبو بكر مرسي محمد، (2002)، أزمة الهوية والحاجة إلى الإرشاد النفسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.

23- المزروع ليلي بنت عبد الله سليمان، (2001)، الشعور بالوحدة النفسية، مراجعة نظرية، المؤتمر السنوي الثامن، مركز الإرشاد النفسي، المجلد الثاني، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر.

ب- المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Davis, B, (1990), Loneliness in Children and Adolescents, Issues in Comprehensive Pediatric Nursing, 13, 59-69.
- 2- Frumon,J,& Goswick ,R,A, Jones,W,H, (1981) ,The Persistence of Loneliness self and Other Determinates, Journal of Personality,49,(1), 27-
- 3- Hesht,D,T,& Baum,S,(1984) ,Loneliness and Attachment Patterns in Yong Adults, Journal of Clinical Psychology, 40, (1), 193- 197.
- 4-Papalia, D & Oids sally.(1988), Psychology, second Edition Mc Graw- Hill Book Company, London.
- 5- Pearl,T, Klope,, F, D, & Ishii, S, (1990), Loneliness Among Japanese and American College Students, Psychological Reports,67,49- 50.
- 6- Rokach, A,(1988),The Experience of Loneliness, Atri- Level Model, The journal of Psychology, Vol. 122,06.
- 7- Shmidt, N, & Sermat, V,(1983), Measuring, Loneliness in Different Relationships, Journal of Personality and Socail Psychology, 44(5), 1038- 1047.

دور القيادة التنظيمية كمدخل إستراتيجي لتنمية الموارد البشرية في المؤسسة الجزائرية

/أ/ بوخللة فريد، جامعة تيارت

ملخص:

تهدف هذه الدراسة الى التركيز على معرفة دور القيادة التنظيمية مدى مساهمتها في تنمية قدرات ومهارات الموارد البشرية من أجل الوصول الى الاداء المتميز و إدارة الجودة لكي تكون قادرة على المنافسة و مواجهة التحديات و التغيرات التي يشهده عصر التغيير. مما لاشك فيه أن المؤسسات تشهد العديد من التحولات فيما يخص الهيئة الادارية العليا التي تشرف عليها و يتجسد ذلك من خلال تغير السياسات و الاستراتيجيات التي تتبناها مختلف أنماط القيادة التنظيمية. نظرا لتعدد الرؤى و التوجهات و هذا ينعكس بدرجة أولى على طبيعة نشاطات و اتجاهات و قيم الموارد البشرية.

Abstract:

This study aims to focus on the knowledge of the role of organizational leadership over its contribution the development of capabilities and skills of human resources for access to the outstanding performance and quality management in order to be competitive and meet the challenges and changes that have witnessed an era of change. There is no doubt that the institutions experiencing many changes with respect to the Supreme Administrative Board, which oversees them and reflected through policies and strategies adopted by different organizational leadership styles change, given the multiplicity of visions and orientations, and this is reflected in the first degree on the nature of the activities and attitudes and values human resources

مقدمة: يشهد العالم اليوم تطورا غير مسبوق في جميع المجالات وعلى كل المستويات خاصة مع ظهور التكنولوجيا الجديدة والتطور الهائل في وسائل الاتصال الحديثة كالكمبيوتر، شبكة المعلومات الانترنت والهاتف النقال ، وتسعى المؤسسات الكبرى على اكتساب التكنولوجيا الحديثة ، وتعمل دائما على تنميتها وتطويرها لتبقى الرائدة أمام هذا التنافس الكبير والتحديات الناتجة عن العولمة وتدفق رؤوس الأموال وإلغاء الحواجز الجمركية.

ضمن هذا السياق تعد القيادة من أهم العوامل الفعالة والحاسمة لنجاح المؤسسات والشركات التي تتفق أموالا كبيرة للبحث عن المواهب القيادية، وتدريب المديرين على اكتساب الميزة التنافسية، فالحاجة إلى القيادة تزداد كلما زادت درجات نمو المنظمة وتعقدت أمور التسيير، وكذا كلما إتسمت البيئة الخارجية بالتغير المستمر.

ولقد استحوذت دراسات المنظمات والسلوك التنظيمي على اهتمام عدد كبير من الباحثين في علم النفس وعلم الاجتماع، وعلم الإدارة ولعل الباحث في هذا الميدان يلاحظ تعدد النظريات والاتجاهات التي حاولت طرح تصورات نظرية وبلورة نماذج علمية يمكن من خلالها دراسات المنظمات، وبالتالي فهم أسس ومبادئ السلوك التنظيمي، ولقد شكل موضوع القيادة الإدارية محور بحوث عديدة وتناولات مختلفة. وعليه فإن نجاح المؤسسات اليوم أصبح يتوقف على قدرة وكفاءة قياداتها على تنمية وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات من أجل تحقيق الأهداف المنشودة.

إن جزءاً كبيراً من الضعف الذي تعاني منه الدول النامية ومن بينها الجزائر في المجالات الإدارية والاقتصادية يرجع أساساً إلى ضعف القيادة في المؤسسات وغياب الرؤى الاستراتيجية المستقبلية على الرغم من وجود عدد هائل من المديرين والمسؤولين إلا أن ما يلاحظ هو ندرة القادة، ومن ضمن الدوافع والأسباب التي جعلتنا نخوض في هذا الموضوع ما يلي:

1- المؤسسات اليوم تعيش أزمة تخلف في غياب النماذج القيادية القادرة على اتخاذ قرارات عقلانية من أجل تحقيق الأهداف المنشودة.

2- فقدان الاستشعار لمسؤولية القيادة والتنافس على المناصب وأصبحنا نسير بمقولة: "الرجل الغير مناسب في المكان المناسب".

3- أزمة ضعف أداء القائد وهي مشكلة غياب مراكز لتكوين القادة، يجعله غير قادر على التأثير في الآخرين وبالتالي عدم القدرة على منافسة الآخر.

1 - مفهوم القيادة التنظيمية: إن مفهوم القيادة يختلف من باحث لآخر، حيث ارتبط ببعض المفاهيم كالرئاسة، الإشراف التوجيه لهذا فإن تحديده ضرورة منهجية يفرضها البحث العلمي، وسنعمل على التطرق إلى التعريفات المختلفة للقيادة فيما يلي:

يعرف أحد الباحثين القيادة على أساس فكرة السلطة الرسمية، فيرى أنصاره أن السلطة الرئاسية هي التي تمكن الرئيس الإداري من توجيه الجهد الجماعي لأتباعه من أعضاء المنظمة لتحقيق أهدافها. فهذه السلطة هي أساس القيادة وهي أساس خضوع أعضاء المنظمة لإدارة وتوجيه القائد خشية المسؤولية والعقاب¹. يرى البعض الآخر أن القيادة هي: "الجهد أو العمل للتأثير في الناس وجعلهم يتعاونون لتحقيق هدف يرغبون كلهم في تحقيقه، ويجدون صالحهم جميعاً وهم يرتبطون معاً في مجموعة واحدة ومتعاونة"². إن هذا التعريف يركز على فكرة التأثير في الغير ودفعهم نحو تحقيق الهدف المشترك كما يركز على قوة الارتباط بين أعضاء المجموعة المتعاونة.

ويركز تعريف آخر على إشباع الحاجات: "القيادة هي الركيزة التي يتم عليها التوازن بين حاجات كل من الفرد والمنظمة التي يعمل بها"³. وقد عرف "تانبينم" وآخرون: "القيادة أنها التأثير المتداخل بين الأفراد، والممارسين في المواقف المختلفة، والمواجهة من خلال القيادة وذلك لتحقيق الأهداف المرادة"⁴. ولقد عرفها طارق محمد السويدي: "القيادة هي عملية تحريك الناس نحو الهدف"⁵. ويوضح هذا التعريف ثلاثة عناصر أساسية وهي: وجود هدف يحرك الناس إليه، وجود مجموعة من الأفراد، وجود قائد يجعل ذلك في قالب عملية تؤثر في الناس. من خلال التعريفات التي سبقت يمكن القول أن هناك وجهات نظر مختلفة، فكل واحد ينظر إلى القيادة بطريقة الخاصة، وهذا نظراً لأن القيادة عملية صعبة ومعقدة وهذا نتيجة التداخل والتشابك بين مختلف العوامل المؤثرة فيها.

مما سبق يمكن القول أن القيادة هي عملية إثارة الأفراد باستخدام جميع الوسائل من توجيه، رقابة، تنسيق، عن طريق النفوذ والتأثير لتحريكهم في الاتجاه الصحيح للوصول إلى تحقيق الأهداف المنشودة.

2- مفهوم تنمية الموارد البشرية: تنمية الموارد البشرية هي زيادة المعرفة و القدرات و المهارات للقوى العاملة القادرة على العمل في جميع المجالات و التي يتم انتقاؤها و اختيارها في ضوء ما يجري من اختبارات مختلفة⁶.

كما أشار تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة سنة 1990: أن التنمية البشرية تعني بتوسيع نطاق الاختيار أمام الأفراد وذلك بزيادة فرصهم في التعليم و الرعاية الصحية و الدخل و العمالة.⁷

أما الكاتبان دون و ستيفن J.D.AUNN ELVISS STEPHENS يعرفان تنمية الموارد البشرية انها تراكم رأسمال بشري و استثمار فعال للتنمية الاقتصادية، و من الناحية الاجتماعية و الثقافية تساعد الانسان على أن يقدم حياة غنية بدون التقيد بالتقاليد.⁸

يمكننا القول أن تنمية الموارد البشرية هي إستراتيجية و نشاط مستمر تتبناها القيادة العليا في المؤسسة لتنمية المهارات و تطوير القدرات و الكفاءات من خلال عملية التدريب، أيضا هي استثمار في الرأسمال البشري لزيادة الأداء و القدرة الانتاجية للحصول على الميزة التنافسية و مواجهة التحديات و الازمات الطارئة.

3- الفرق بين القادة و المديرين: يستخدم مصطلح القائد و المدير في عالم الإدارة بمعنى واحد، لكن في الأصل أن اللفظين يختلفان لذا لابد من التمييز بينهما، " فالوظيفة الأساسية للمدير هي وضع الرؤية الإستراتيجية للقائد موضع التنفيذ بإستخدام الأدوات المساعدة على ذلك . فبينما تعمل الإدارة على التعامل مع الظروف المعقدة، فإن القيادة تتعامل مع التغيير، وبالتحديد فإن المديرين يضعون الخطط و يقيمون نتائجها، بينما يقوم القادة بتنمية الإتجاهات عن رؤيتهم الإستراتيجية للمستقبل، وعلى ذلك فإن القادة المؤثرين هم الذين يحصلون على إعتقاد تابعهم بصحة رؤيتهم الإستراتيجية وأن يسيروا وفقا لها "⁹.

إن الشكل التالي يوضح الاختلاف بين الأدوار التي يقوم بها كل من القادة و المديرين:

الشكل رقم 01: التمييز بين الأدوار التي يلعبها المديرين و القادة¹⁰



من خلال هذا الشكل يتضح دور القادة وهو تنمية رسالة المنظمة، بينما المديرين يقومون بتنفيذ هذه الرسالة بواسطة الآخرين، أما الوظائف الموجودة لهذين الدورين مثل: تكوين الإستراتيجية وتحقيق الإلتزام بين العاملين، فقد يقوم بها كل من المديرين أو القادة، لكن التمييز بين تنمية الهدف والعمل على تجسيده يؤدي إلى صعوبة

التفريق بينهما. وهذا مرده إلى أن القادة يعملون على تنمية المؤسسة الإستراتيجية بوضع خطة تساعد على تحقيقها في الواقع، مع زيادة التزام العاملين ببذل جهود لتنفيذ كل من رسالة و إستراتيجية المنظمة، أما المديرون نجدهم يشرفون على تنفيذ الإستراتيجية بالاعتماد على الآخرين، و كثيرا ما يساعدون في تكوين الإستراتيجية. كذلك "فإن بعض المديرون يعتبرون قادة، أما البعض الآخر فلا، و بالمثل فإن بعض القادة يقومون بكثير من أدوار المديرون أما البعض الآخر فلا يفعل ذلك"¹¹. مثلا قد نجد المدير غير قادر على القيام بدوره القيادي وهذا ما يجعل تأثيره على العمال غير فعال بدرجة كافية.

"والواقع العملي يشير إلى فشل كثير من المديرين، والنزاعات بين المدير ومروؤسيه، وعدم إذعان المرؤوسين لمديرهم وعدم إقتناعهم به، وعدم تنفيذ المرؤوسين لأوامر وتعليمات وتوجيهات المدير هي أمثلة على إمكانية وجود مديرين لا يتسموا بأي صفات أو سلوك قيادي"¹².

ويقدم الشكل التالي مقارنة بين مفهومي القيادة و الإدارة:

الشكل رقم 02 : يوضح الفرق بين القيادة و الإدارة¹³

القيادة	الإدارة
- تركيز على النفوذ و التأثير الإجتماعي و على قبول الأفراد لهذا النفوذ. - الجماعة هي مصدر السلطة. - السلطة غير رسمية. - وظيفة من وظائف المدير. - التفاعل بين الأفراد هم جوهر القيادة .	- تركيز على السلطة الرسمية وعلى إذعان وامتثال الأفراد لهذه السلطة. - التنظيم الرسمي هو مصدر السلطة. - السلطة رسمية و مقننة. - مفهوم أشمل من القيادة. - الوصف التنظيمي للعلاقات هي جوهر التصرفات الإدارية.

يوضح هذا الشكل أن القيادة تعتمد على التفاعل الموجود بين الجماعة التي تقوم بإعطاء سلطة غير رسمية للقائد المختار أما الإدارة فهي تعتمد في الأساس على علاقات تنظيمية مقننة التي تعطي سلطات رسمية لأحد الأفراد و على الآخرين تطبيق و تنفيذ الأوامر.

4- مصادر القوة و النفوذ القيادي:

" تقوم عملية التأثير التي ترتكز عليها القيادة الإدارية، على ما يستخدمه المدير من وسائل لإقناع مروؤسيه وإستمالتهم وحثهم على التعاون لتحقيق الأهداف المطلوبة وبقدر ما تكون درجة تأثير المدير فعالة في سلوك مروؤسيه وتصرفاتهم في ممارستهم لأنشطتهم تكون قياذته ناجحة و فعالة "¹⁴.

و يقدم كل من **فرينش و رافين** French and Raven أشهر تقسيم لمصادر النفوذ Power التي يتمتع بها القائد ، وهي كالتالي :

أ) **قوة الحافز Reward Power**: وهي القوة التي تعتمد على نظام الحوافز، حيث يعد عاملاً أساسياً في تشجيع العاملين على الأداء أكثر، والعمل بصورة فعالة من أجل تحقيق الأهداف المحددة.

ب) **قوة العقاب و القهر The power of punishment and oppression**: وهي الوسيلة التي يتبعها القائد باستخدام سلطة لدفع المرؤوسين إلى العمل بجدية وفعالية، عن طريق التهديد وتسييل العقوبات.

ج) **القوة الشرعية Legitimate Power**: "وذلك بأن يحاول المدير في إطار من المشروعية تغيير اتجاهات مرؤوسيه وميولهم وتقاليدهم من خلال ترشيد سلوكهم"¹⁵.

د) **قوة الإعجاب Refermet Power**: وهي تكمن في جاذبية القائد، وإعجاب العاملين به من حيث قوة الشخصية، لغة الخطاب، والمهارات القيادية.

هـ) **قوة الخبرة Expert Power**: تزداد درجة تأثير القائد على مرؤوسيه كلما كان على دراية و علم بكل العمليات و النشاطات في مجال عمله.

5 - أساليب تأثير القائد على الموارد البشرية:

تعد عملية التأثير أحد الركائز الأساسية التي تمكنا من التعرف على ظاهرة القيادة واكتشاف القائد الناجح، ويبرز هذا في النجاح من خلال كيفية تأثيره ونفوذه على سلوك مرؤوسيه، ولهذا يجب علينا أن نتعرف على : كيف يمكن للقائد أن يؤثر على المرؤوسين؟

"يلاحظ أنه كلما استطاع القائد ممارسة أكبر قدر ممكن من هذه الأساليب، كلما استطاع أن يضيف إلى مهارته القيادية رصيدا أكبر في التأثير على المرؤوسين"¹⁶. و من أهم هذه الأساليب التي يستخدمها القائد ما يلي:

1 - **استخدام المدعمات والعقاب**: ونعني بهذا أن القائد يعتمد على الحوافز المادية والمعنوية، كإعطاء المكافآت وتشجيع العمال من جهة، وإنتهاج طريقة العقاب إذا حدثت أية مشكلات على مستوى التنظيم من جهة أخرى، وهذا ما يزيد في توسيع نفوذه وقدرته على التأثير في سلوك المرؤوسين.

2 - **تحديد أهداف العمل**: يعمل القائد على تحديد أهداف العمل، التي تتصف بالموضوعية، والتحديد، وتكون قابلة للقياس، ويسعى إلى إقناعهم بها، وذلك من خلال تحقيق الربط بين هذه الأهداف، وبين تحقيق حاجات وطموحات وأهداف الجماعة.

3 - **جمع و تحليل و نشر المعلومات**: لكي يكون مستوى نفوذ القائد على قدر كبير من القوة، يجب عليه أن يقوم بجمع أكبر كم من المعلومات التي تخص جماعة العمل، ثم بعد ذلك يعمل على تحليلها و إختيار الأفضل منها والتي تساهم في عملية التأثير على مرؤوسيه، كما أن مصادر المعلومات تكون مختلفة في درجة الصدق والثبات، كما يستوجب عليه كذلك أن يوضح ويفتح قنوات إتصال بين مرؤوسيه وبين هذه المصادر أو أن يعزلهم ويمنعهم من الإتصال بشكل نهائي مع هذه المصادر.

4 - **تحديد أساليب العمل**: يقوم القائد على تدريب مرؤوسيه، وتحديد طرق تنفيذ الوظائف ووصف المهام وعملية التوجيه، وتوفير كل الإمكانيات المادية والمعنوية التي تمكن وتشجع على العمل بطريقة أفضل، وتسهل عملية ملاحظة سلوك عامله.

5 - **تهيئة ظروف العمل:** إن قيام القائد بالتأثير في الظروف المحيطة بأفراد الجماعة يمكنه أن يزيد من نفوذ القائد وتأثيره على مرؤوسيه، ويتحقق ذلك من خلال تأثير القائد في تصميم جماعات العمل، وتصميم أو إعادة تصميم مكان العمل من آلات مكاتب وستائر وأماكن أكل ونظافة وتهوية وإضاءة وغيرها من الطرق¹⁷.

6 - **تقديم النصح و الخبرة و المشورة:** تعترض المرؤوسين عدة مشكلات في ميدان العمل، وهذا ما يجعلهم يعتمدون على خبرة ومشورة غيرهم في هذا الاختصاص، وإن تقديم المسؤولين النصيحة و الحل في الوقت المناسب، يعطيه أكثر قوة و نفوذا و تأثيرا على مرؤوسيه من جهة، و تسود الثقة بينهما و الإحترام و قبول الخبرة و المشورة من جهة أخرى.

7 - **إشراك الآخرين في عملية اتخاذ القرارات:** القائد الناجح هو الذي يقوم بإشراك المرؤوسين في عملية اتخاذ القرارات، مما يحقق رضا مرؤوسيه والعمل بحرية وجدية، وبالتالي جعلهم يتحملون المسؤولية في كل الأعمال.

8 - **تحميس ورفع دافعية المرؤوسين:** يواجه القائد في ميدان العمل، عدة عقبات، مثل: إنخفاض مستوى الأداء عند المرؤوسين وقلة الحماس من وقت لآخر، وعلى القائد الناجح أن يجد الحل المناسب لذلك، حيث يعمل على مساعدة المرؤوسين على تحديد أهدافهم، ودراسة رغباتهم وحاجاتهم، والعمل على تحفيزهم وتشجيعهم للعمل أكثر.

6 - أنماط القيادة التنظيمية و انعكاساتها على تنمية الموارد البشرية:

إن التعدد في الوسائل التأثير التي يعتمد عليها القائد في عملية توجيه المرؤوسين، يعكس وجود إختلافا في أساليب وأنماط القيادة الإدارية وقد حاولت العديد من الدراسات التي قام بها باحثون في مجال الإدارة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، البحث عن أفضل أسلوب ونمط قيادي، يمكن أن ينتهجه القائد لتحقيق الأهداف العامة بشكل فعال وإيجابي، ومن أهم هذه التصنيفات التي توصلت إليها هذه الدراسات:

أولا: "تصنيف القادة من حيث طريقة إختيارهم إلى قادة يعينون من السلطة التنفيذية العليا، وآخرين يتم إختيارهم من بين صفوف الجماعة التي يقودونها لصفات خاصة بهم"¹⁸.

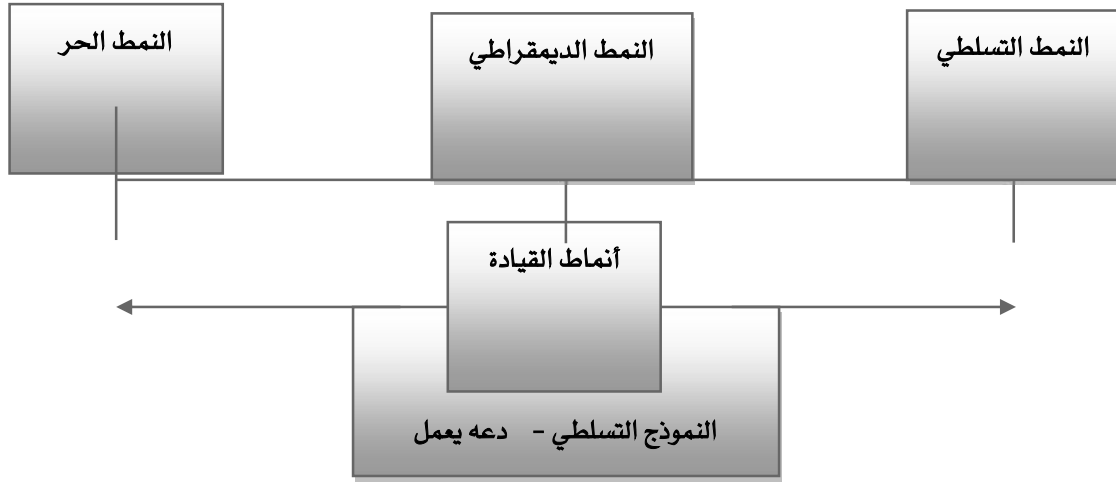
ثانيا: من حيث الإتجاهات والميولات الإجتماعية، يوجد قادة محافظين، وحساسين، وآخرين ذوي إتجاهات موضوعية.

ثالثا: تصنيفهم على أساس علاقاتهم مع مرؤوسيه، فنجد قادة ذوي ميول تحكمية وتعسفية، وآخرين أكثر إنسانية وتفهم.

"في مفهوم الإدارة فنمط القيادة يعني ذلك السلوك الذي ينتهجه المسير مع مرؤوسيه لتحقيق الأهداف، خاصة فيما يتعلق بتقويض السلطة، والأهمية التي يعطيها للعمال وللعنصر البشري، فكل مسير لديه قيم وكفاءات خاصة، ويتصرف بطرق مختلفة تبعا للظروف والمهام والأفراد والأهداف، ومن الصعب أن نحدد أسلوب القيادة التي ينتهجه المسير"¹⁹.

ويمكن تحديد الأنماط القيادية وفقا للشكل التالي:

الشكل رقم 05 : يوضح أنماط القيادة²⁰



وركز أيضا "رئيس ليكيرت R. likert" على وجود نمطين في القيادة هما:

- القيادة المهتمة بالموارد البشرية
- القيادة الموجهة للإنتاج

أ - نمط القيادة الموجه للموارد البشرية:

يعمل هذا النمط على إقامة علاقة جيدة مع العمال، كاحترامهم، والاستماع لهم، وحل مشاكلهم، وتحقيق حاجاتهم ورغباتهم، وتوفير مناخ تسوده الثقة المتبادلة، الحوار ومناقشة أمور العمل، والمشاركة في عملية اتخاذ القرارات وإيجاد الحلول المناسبة.

فالقادة الذين يهتمون بالعمال، يعملون دائماً على توجيههم وتحسين قدراتهم وكفاءاتهم عن طريق التدريب المستمر، والمحافظة على عمل الجماعة داخل التنظيم، وتفويض السلطة لهم، لتحمل المسؤولية والاعتماد عليهم في حالة غيابهم عن المؤسسة، وتشجيعهم باستمرار بتقديم الحوافز، كالشكر، التقدير، المكافآت، الترقية، أي من الناحية المادية وكذلك المعنوية، وهنا يشعر المورد البشري بأهميته، وهذا ما يجعله يعمل بكفاءة عالية، وبالتالي سيساعد في رفع العملية الإنتاجية، وتحقيق الأهداف المسطرة.

ب- نمط القيادة الموجه إلى الإنتاج:

يركز هذا النمط على الإهتمام بالإنتاج من حيث طرق وأساليب العمل التي تساعد على تحقيق الأهداف وزيادة الربح، وذلك بإستخدام نظام الرقابة الشديدة، والصرامة في العمل، وهو قليلا ما يراعي الجوانب الإنسانية لمروؤوسيه، فهو بذلك ينظر إلى العامل كمجرد آلة تزيد في إنتاجية المؤسسة وتحقيق أعلى ربح ممكن لصاحب العمل، وهذا هو هدف النظام الرأسمالي، وخير مثال ما تؤكد عليه مدرسة الإدارة العلمية بقيادة فريدريك تايلور F. Taylor التي جردت العامل من إنسانيته، وحرمته من الحرية والمبادرة.

و يرى بعض الباحثين أن لهذا النمط العديد من السلبيات وهي:

- ظهور الغيابات عن العمل بشكل كبير.

- إرتفاع معدل دوران العمل وهو ترك أو تغيير العمل.
- إرتفاع عدد شكاوي المرؤوسين في المؤسسة.
- ضعف الأداء في العمل نتيجة إنخفاض الروح المعنوية للمرؤوسين.
- عدم رضا العمال عن الأعمال التي يقومون بها وهذا في غياب علاقات التعاون والإنسجام بينهم وبين القائد.

"و قد يبدو لك للوهلة أن بين الإهتمام بالإنتاج والإهتمام بالعاملين علاقة، بمعنى أن القادة الذين يحتلون مكانة عالية على أحد البعدين يختلفون بطريقة أو توماتيكية مكانة منخفضة على البعد الآخر، ولكن ذلك ليس هو الواقع، ذلك أن من الواضح أن هذين البعدين مستقلين، ويعني ذلك أن القادة قد يهتمون بالإنتاج والعاملين معا، وقد يكون إهتمام بأحد البعدين متوسط وبالأخر ضعيفا"²¹.

لكن السؤال الذي يطرح : "هل يتفوق أحد النماذج على النماذج الأخرى ؟ هذه قضية معقدة، ذلك أن سلوك كل من القادة الذين يهتمون بالإنتاج، أولئك الذين يهتمون بالعاملين يتضمن مزيجا من المزايا والعيوب، وأهم مزايا سلوك الذين يهتمون بالعاملين هي تحسين مناخ وأخلاقيات العمل بالجماعة، ذلك أن القادة الذين يتبعون بقوة هذا النمط القيادي يترددون في إصدار توجيهات دقيقة لمرؤوسيههم، كما أنهم يبتعدون عن عرض النتائج السلبية لأداء مرؤوسيههم، ولذلك الإنتاجية تنخفض في بعض الأحيان، أما مزايا السلوك القيادي الذي يهتم بالإنتاج إنجاز الأعمال فأهمها تحسين مستوى الإنتاج وتخفيض تكاليفه

في بعض الأحيان. وإذا زاد تركيز القادة على الإنتاج فقد يستخلص العاملون بسرعة أن لا أحد يهتم بهم، وقد يؤثر هذا بالسلب علي اتجاهاتهم المرتبطة بالعمل مثل الرضا الوظيفي، والإلتزام بأهداف المنظمة"²².

ويمكننا القول أن هذه الأنماط قد يتفوق بعضها على البعض الآخر وهذا حسب الظروف، فالنمط الفعال هو الذي يهتم بالعمال وبالإنتاج في نفس الوقت، فالقادة الذين يجمعون بين هذين النمطين معا يحققون نتائج إيجابية أكثر من الذين يهتمون بأحدهما، وفي هذا الصدد يقول أحد كبار العسكريين الأمريكيين الفريق "وليام ج. باجنوس : "حتى تقود بنجاح فلا بد أن تظهر... خبرة بالعمل وإهتمام بالناس. ومن واقع خبرتي فإنه من الممكن تحسين قدراتك بالنسبة لهاتين الصفتين بإستمرار، وتعتبر تلك التنمية المرتبطة بالشخصية ولينة في بناء القدرات القيادية"²³.

فالدراسات المتعددة في هذا الموضوع لم تثبت أن هذا النمط أحسن من الآخر، لقد دلت دراسات أخرى على أن المشرفين الذين يوبخون و يهددون و يضعون طلبات كثيرة على العمل كانوا أقل المشرفين نجاحا"²⁴.

ويقول أحد الباحثين من الخطأ أن نقرر بأن القائد الديمقراطي يحصل على نتائج أفضل من القائد التسلطي، بل يمكن القول أن القائد الديمقراطي يؤدي إلي تكامل أفضل لجماعة العمل و خاصة إلى أعلى تقدير للجماعة من طرف أعضائها"²⁵.

7- الدور الجديد للقيادة التنظيمية في تنمية الرأسمال البشري:

تواجه المؤسسات اليوم أكثر من أي وقت مضى، العديد من التحديات مع تسارع المتغيرات الاقتصادية والتكنولوجية والسياسية ، في بيئة تتميز بالسرعة والتعقيد خاصة في ظل العولمة وما أفرزته من معطيات مغايرة وجديدة.

وفي إطار هذه المستجدات البيئية التي تشهدها المنظمات الحديثة ، وهي التحول من عصر الصناعة إلى عصر المعرفة ، أصبح من الضروري إجراء تعديلات أساسية في دور القادة والمديرون ، وهو التركيز على رعاية وتنمية الموارد البشرية لأنها تمثل العنصر الأهم في عصر المعرفة ، في هذا الصدد رفعت إحدى الشركات الأمريكية وهي²⁶ :

والتي حققت أرباحا كبيرة قدرت ب: 60 مليون دولار في سنة 2001 شعار يقول: Chestnut شركة
"We don't hire employees , we adopt them" نحن لا نعين موظفين بل نبتنهم" يقوم المشرف أو القائد بعدة أدوار داخل المنظمة لزيادة فاعلية الأداء وتحقيق الأهداف المطلوب وأهمها:

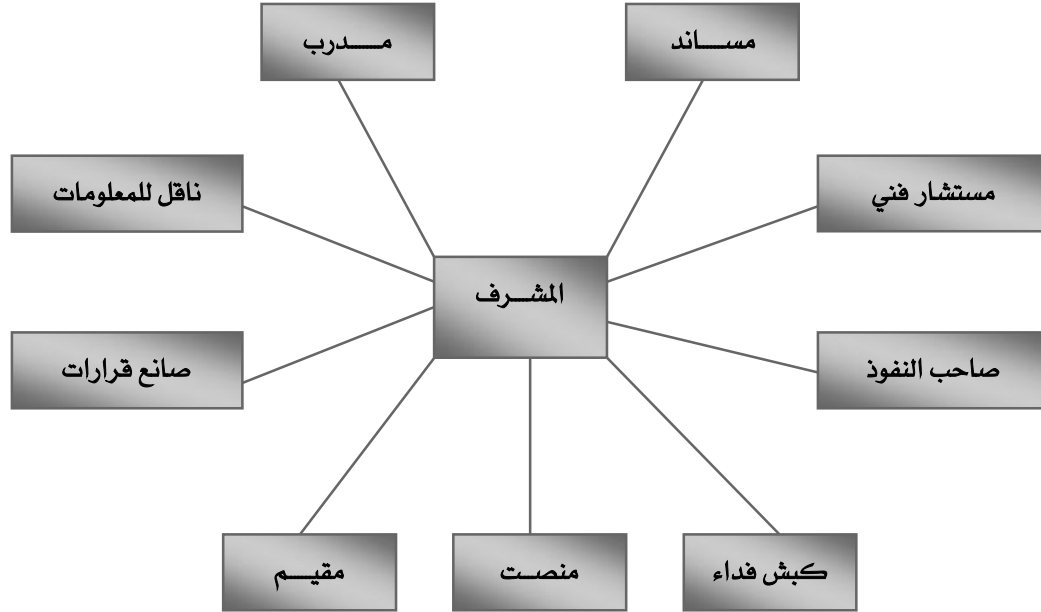
- **القائد كمساند** : "إن أهم أدوار المشرف أن يكون مؤيدا أو مساعدا لمؤوسيه ، هذا يعني أن المؤوسين يتوقعون من مشرفهم أن يقوم بأي نشاط ضروري لكي يساعدهم على القيام بمهامهم بشكل فعال ، أو بسرعة ، أو بسهولة²⁷ .

- **القائد كمستشار فني** : يتميز القائد بعدة خصائص كالمهارات الفنية ، الخبرة والكفاءة ، والإتقان الفني ، وتعتمد الإدارة على القائد كمستشارا فنيا.

- **القائد كمصاحب نفوذ** : يمثل النفوذ عامل مهم للقادة الذين يسيطرون على العاملين بشكل سهل جدا ، وفي إحدى الدراسات أجريت مقارنة بين المشرفين الفعالين وغير الفاعلين ، حيث توصلت إلى أن المشرفين الذين أعطوا قيمة عالية من طرف تابعيهم كانوا يقومون بثلاثة نشاطات وهي:

- 1- يتدخلون لصالح مؤوسيهم ويستخدمون تأثيرهم في المستويات العليا لتحسين الوحدة أو القسم.
 - 2- ناجحين في استخدام تأثيرهم ، أي أنهم كثيرا ما أوفوا بما وعدوا القيام به.
 - 3- يستخدمون تأثيرهم أساسا لصالح مؤوسيهم بدلا من مصلحتهم الخاصة.
- **القائد ككبش فداء**: إن القائد لا يستطيع دائما أن يدفع اللوم عن نفسه فيما يتعلق بالقرارات الغير صائبة أو السلوكيات غير مرغوب فيها ، والعاملين لا يحبذون القائد الساخط دائما على سلوك المؤوسين غير المقبول.
- **القائد كمنصت**: حيث أن القائد ينصت ويستمع إلى طلبات ورغبات المؤوسين ومحاولة تليبيتها .
- **القائد كمقيم**: يعمل القائد على تقييم مستوى أداء العاملين وقد يكون بصورة إيجابية أو سلبية.
- **القائد كصانع قرار**: يقوم القائد بصنع القرار ، وذلك من خلال جمع المعلومات اللازمة ، وقد ينفرد باتخاذ القرارات أو يشرك العاملين في عملية اتخاذ القرارات.
- **القائد كناقل للمعلومات**: وهذا باعتبار أن القائد يلعب دورا هاما في عملية الاتصال في جميع المستويات.
- **القائد كمدرّب**: يعمل القائد على تدريب العمال الجدد على الوظائف والمسؤوليات التي يتولونها .
- إن الشكل التالي يوضح أهم الأدوار القيادية:

الشكل رقم 03 : يوضح الأدوار المختلفة للقادة²⁸



8- صفات القائد الناجح:

تبلورت نظرة جديدة حول القيادة تلخص القيادة في مجموعة قليلة من الصفات المشتركة بين كل القادة المؤثرين. بغض النظر عن الموقف أو الطرف، فإذا أردنا إختيار شخص للقيادة فعلينا أن نبحث عن هذه الصفات، وإن أردنا تدريب شخص فما علينا سوى التركيز على هذه الصفات²⁹. وهناك عدة دراسات حديثة تشير إلى اقتناع معظم المنظمات بهذا الأمر، وممارستهم لإختيار القادة وتدريبهم بناء على هذه الصفات.

ويلخص Meshane في الفصل الرابع عشر من كتابه: **Behavior Organizational** الصادر سنة 1998 هذه الصفات و الجدول التالي يوضح ذلك :

الشكل رقم 04 : يوضح صفات القائد الناجح³⁰

الصفة	التحليل القيادي
التحفيز	الرغبة الداخلية لدى القائد لاستعمال قوته لتحريك الناس للوصول للأهداف بإستعمال العلاقات الاجتماعية والإنسانية.
الذاتية	المحرك الداخلي الذي يدفع القائد نحو الهدف.

المصادقية	الصدق والقدرة وتطابق القول مع الفعل، مما يولد الثقة لدى الأتباع (وأشارت عدة دراسات رئيسية إلى أن هذه أهم الصفات التي يبحث عنها الأتباع).
الثقة بالنفس	إيمان القائد بمهاراته وقدراته للوصول للأهداف، ويتصرف بطريقة تجعل الأتباع يقتنعون بذلك.
الذكاء	قدرة فوق المتوسط العام للبشر للتعامل مع حجم كبير من المعلومات وتحليلها للوصول إلى حلول بديلة واستغلال الفرص الغير ظاهرة (وليس بالضرورة أن يصل القائد إلى درجة العبقرية ولكنه يجب أن يكون أعلى من المتوسط في ذكائه).
معرفة الموضوع	القائد لديه تمكن من الموضوع الذي يديره، ومن المناخ والبيئة التي يعمل بها بحيث يصل إلى درجة من الفهم لطبيعة القرارات المناسبة وتبني أو رفض الاقتراحات المقدمة.
الرقابة الذاتية	القائد الفعال لديه رقابة ذاتية تمكنه من استشعار أي تغييرات حوله ولو كانت دقيقة، وتعديل تصرفاته لتناسب الحالة حوله (تشير دراسة صدرت في مجلة على النفس التطبيقي عام 1991 إلى أن من يملك هذه الصفة لديه صفة أكبر من غيره للبروز كقائد، ولو بشكل غير رسمي).

9- المداخل النظرية لدراسة القيادة التنظيمية:

" لقد أصبحت مشكلة اختيار القادة الإداريين وإعدادهم وتطويرهم، من أهم ما تعنى به الدول الحديثة على اختلاف أنظمتها... ولم يكن حل هذه المشكلة يسيرا، نظرا لصعوبة تحديد المتطلبات الجوهرية للقيادة الناجحة من ناحية، ولكون هذه المتطلبات تختلف من وظيفة إلى أخرى، ومن فترة زمنية إلى أخرى، ومن موقف لآخر في التنظيم الواحد"³¹.

ومن أهم النظريات التي تناولت القيادة التنظيمية نجد:

أ- المدخل الفردي "Individual approach" "نظرية السمات" Traits theory:

يعتبر المدخل الفردي من أولى المحاولات التي استهدفت تحديد خصائص القيادة الناجحة، ومؤداه أن القيادة تقوم على سمة أو مجموعة من السمات يتمتع بها فرد معين، وأن تتوافر فيها هذه السمات تكون لديه القدرة على القيادة، ويمكن أن يكون قائدا ناجحا في كل المواقف"³².

وإذا كانت الدراسات التي قام بها أصحاب هذه النظرية قد بدأت على نطاق ضيق في بداية هذا القرن، فإنها أصبحت أكثر انتشارا بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية. هذا بالإضافة "بأنه منذ الأبحاث من سنة 1950 لم تثبت النظر علميا نظرا لعجز الباحث في حصر هذه الصفات المميزة The right stuff للقائد، ولكن حديثا نظرا لأبحاث Kirk Patrick and Locke أثبتنا أنه يوجد بالفعل صفات مميزة للقائد الناجح"³³.

وتتلخص هذه الصفات في الآتي:

- **وجود الدافع Motive** : وهو الرغبة الشديدة في تحقيق الغايات والطموح والطاقة والإقدام.
 - **الصدق والاستقامة** : وتتمثل في الأمانة.
 - **الحافز إلى القيادة** : الرغبة في التأثير على الآخرين لتحقيق الأهداف.
 - **الثقة بالنفس** : الثقة في القدرة الشخصية على تحقيق الرغبات.
 - **القدرة العقلية** : الذكاء والقدرة على دمج وتفسير قدر كبير من المعلومات.
 - **المعرفة بإدارة الأعمال** : الدراية بالتقنية الحديثة.
 - **الابتكار والإبداع** :
 - **المرونة** : القدرة على التكيف مع احتياطات المرؤوسين والظروف المحيطة.
- على الرغم من تعدد الدراسات التي تبحث عن مجموعة من السمات التي تميز القادة عن غيرهم، إلا أنها فشلت في إيجاد أسلوباً منسجماً للسمات التي تميز القادة الاعتماد عليه وتطبيقه عملياً. "إن الكثير من السمات التي أفترض أنصار نظرية السمات أنها سمات لا توجد إلا في القادة، قد تتوافر في القادة وغير القادة، مثل سمات: الذكاء، والقدرات الجسمية، الحماسة، العزم، الاستقامة، الطموح، العدل وغيرها... الأمر الذي يمكن معه التسليم بأن توافر السمات الشخصية للقيادة في شخص ما تجعل منه بالضرورة قائداً ناجحاً"³⁴.
- كذلك لا يوجد هناك اتفاق بين أصحاب هذه النظرية حول مجموعة محددة من السمات، وتبدو أيضاً غير واقعية بحيث أن السمات القيادية التي وضعتها، لا يمكن تطبيقه ميدانياً، فلا يمكن من الناحية العلمية إيجاد الأشخاص الذين تتوفر فيهم كل هذه السمات أو أغلبها بالأعداد المطلوبة هذا حتى في الدول المتطورة، كما أنها تجاهلت طبيعة المواقف للقيادة، أي أنها لم تولي أي اهتمام بتأثير العوامل الموقفية، حيث أن السمات التي يجب توفرها في القادة تعتمد أساساً على المنصب القيادي وطبيعة الموقف الذي يعمل فيه القائد.

ب- نظرية المسار والهدف- القادة مرشدون إلى تحقيق أهداف يثمنها العاملون:

Pathé Goal leyasu- Leaders as Guides To Value Goals

تعتبر نظرية مسار الهدف من النظريات الحديثة نسبياً وهي تبنى على نظرية التوقع في الدافعية، وقد قام بوضع أساسها كل من **مارتن إيفانز** و **روبرت هوس**

(evames1970 ; house & Mitchell 1974). إن هذه النظرية قد سميت بهذا الاسم إسناداً للافتراض

المتعلق بأن القادة الذين يتمتعون بدرجة من الفعالية يستطيعون زيادة دافعية التابعين عن طريق:

- 1- توضيح أهداف العمل ومفهومها للتابعين.
- 2- ربط تحقيق الأهداف بمكافآت ذات مغزى.
- 3- شرح كيف يمكن تحقيق كل من الأهداف والحصول على المكافآت المرغوبة.

إن الفكرة الأساسية التي تقوم على أساسها هذه النظرية هي أن القائد له القدرة على دفع المرؤوسين للعمل وذلك من خلال تحديد لهم الأهداف ووضع نظاماً للحوافز يمكن من الوصول وتحقيق تلك الأهداف، ومن هنا فإن أصحاب هذه النظرية يرون أن الدافعية ضرورية للأسلوب القيادي الفعال.

" و بهذا يصبح المرؤوس مقتنع بأن العمل بجد سوف يؤدي إلى الوصول إلى الأهداف وأن هذا بدوره سوف يؤدي إلى مكافئته وتقديره، وبهذا يفترض house أن الرضا الوظيفي job satisfaction، الحماس motivation، والأداء performance سوف يحظوا بتحسين ملحوظ"³⁵.

والمجمل أن نظرية مسار الهدف في القيادة تبدو غير ثابتة وكاملة، حيث كان الهدف الرئيسي هو نظرية وفق شروط عامة، وهذا للحصول على علاقات متداخلة، وينبغي القول أنه لم يحدد سلوك القائد المتجه نحو الإنجاز في إطارها العام، في المقابل هناك عدة دراسات قامت باختبار صحة هذه النظرية وكانت النتائج التي توصلت إليها تتماشى وتوقعات هذه النظرية التي أعطت رؤية جديدة للقيادة والعوامل المختلفة التي تحدد مدى فعالية القادة في الأدوار القيادية المنوطة بهم"³⁶.

ج- نظرية القيادة البديلة : Substitues for leadership

عندما لا تكون حاجة للقادة : When leader are superfluous

"يفترض Kerr and Jerminer أنه في بعض الحالات من وجود درجة كبيرة من المهارات المكتسبة عند المرؤوسين على التعامل مع هذه الظروف، هنا يصبح دور القائد في التوجيه والتأثير غير موجود أو يعتبر دور زائد يمكن الاستغناء عنه وتبديله بتلك العوامل"³⁷.

فالقيادة هنا تبدو غير موضوعية وهذا لوجود عدة عوامل تجعل من تأثير القائد على المجموعة مستحيل، وبهذا يحيد مفعول القيادة Neutraliz. فعلى سبيل المثال فإن تأثير القيادة قد ينخفض إذا كان ولاء المرؤوسين لمهنتهم عالية، وكان حماسهم لإنجاز الأعمال قويا.

"ويوجد ثلاث حالات يكون فيها تأثير القادة على فعالية العمل محدود، وهناك عدد مختلف من العوامل يمكن أن يؤدي إلى مثل هذا التأثير، وبالتالي فإننا قد نتساءل: ما الظروف التي يكون تأثير القادة فيها محدودا ؟ والواقع أن إجابة هذا السؤال تتوزع على ثلاث مجموعات"³⁸:

الأولى: صفات المرؤوسين من كفاءة وخبرة والتزام للعمل.

الثانية: صفات العمل مثل: الروتين أو الحماس العالي تؤدي إلى عدم الحاجة إلى قيادة وتوجيه"³⁹.

الثالثة: خصائص المنظمة مثل: الشعور بالارتباط القوي بين جماعات العمل، قد يجعل القيادة غير ضرورية.

ويرى كل من **مندل وأريش** أننا نحمل أفكار رومانسية لموضوع القيادة، ونعطي لها أهمية كبيرة، ونعتبرها الأكثر تأثيرا على العاملين، حيث قاما بإعطاء مجموعة من طلبية الدراسات العليا، بعض الأرقام الحسابية كانت وهمية لإحدى الشركات معتمدة على أهم نقاط القوة لهذه الشركة، التي قدمت لأربع مجموعات من الطلاب، ويعتمد هذا النموذج على ربط نقاط القوة بأحد المجموعات وهي:

1. الإدارة العليا.

2. جودة العاملين.

3. اختلاف احتياجات المستهلك وطلباته.

4. القوانين الفيدرالية"⁴⁰.

وقد توصلنا إلى أن الطلبة الذين تحصلوا على النموذج الأول (الإدارة العليا)، أن القيادة هي التي أدت إلى تحقيق ربحية الشركة، وكانت أقل في نسبة الخطورة Risk إذا ما قورنوا بالطلبة الذين لم يحصلوا على هذا النموذج.

د- القيادة التحويلية Transformational Leadership :

"يعتبر مدخل القيادة التحويلية مدخلا جديدا للقيادة، مقابلا للقيادة التبادلية، ففي القيادة التبادلية يمارس القائد عملية تبادل بين المنظمة - كإدارة- وبين أعضائها، فالأعضاء أو العاملون يقدمون عملا وينجزون، والإدارة تقدم حوافز مثل التقدير، المكافآت، العلاوات، الترقية، ومن لا ينجزون يعاقبون. لكن في القيادة التحويلية يسعى القائد لإحداث تغييرات إيجابية في طريقة أو طرق أداء العمل، وليس لمجرد المكافأة أو العقاب بالنسبة لما يؤدي تقليديا من عمل، يأخذ القائد التحويلي بمبدأ الإدارة بالاستثناء، حيث لا يتدخل في العمل طالما سار بشكل طبيعي، وبدون أحداث استثنائية غير عادية تبرر تدخله، وهو هكذا يتابع أداء مرؤوسيه ويصحح ما يحدث من انحرافات في الأداء"⁴¹.

وتتضح خصائص كل من القيادة التحويلية والقيادة التبادلية من خلال الشكل التالي:

الشكل رقم 05: يوضح خصائص القيادة التبادلية والقيادة التحويلية⁴²

خصائص القائد التبادلي	خصائص القائد التحويلي
- الجاذبية: يقدم رؤية مستقبلية، ويستحوذ على الاهتمام والاحترام، ويزرع الفخر في التابعين. - التعاطف الفردي: يهتم بالتابعين، يعامل كل شخص بشكل منفرد وفقا لخصائصه، ويعلم ويدرب. - الإلهام: ينقل للآخرين توقعاته عن أداء عال، يستخدم الرموز والشعارات للتأكيد على بذل الجهد.	- يحدد أهدافا للمجموعة. - يصمم هيكل وإجراءات العمل ويكلف بمهام. - يتفاوض في مبادلة جهود العاملين بالحوافز. - يكافئ على الأداء ويقدر الإنجاز. - يبحث عن الانحرافات عن المعايير ويتخذ إجراءات تصحيحية.

1- خصائص القائد التحويلي:

يتميز القائد التحويلي عن غيره من القادة، بعدة خصائص وهي:

أ- **تحديد الرؤية المستقبلية:** "فهو يوضح للأتباع الحلم، ويحدده لهم في صورة جميلة للمستقبل المنشود في أداء المهام المطلوبة منهم، والأهداف المشتركة بينهم، وليس بالضرورة أن يكون القائد وحده القائم بتشكيل الرؤية بل قد يشاركه الأتباع كذلك، وقد تتشكل لهم من المنهج الذي يحملونه أو ورثوه ممن سبقهم"⁴³.

ب- **الاتصال الفعال:** "فهو يخاطب الناس على قدر عقولهم ووفقا لخصائص كل فرد وتركيبته النفسية، وخلفيته الثقافية، وكذلك يستخدم القائد التحويلي في حديثه رموزا مثيرة، وتشبيهات مجازية، وتعبيرات أو مصطلحات جديدة، ويمكن التمثيل لذلك بعبارة يقولها مدير شركة "كوكا كولا" الأمريكية لموظفي شركته: نحن نقدم للناس من أنحاء العالم لحظات من السعادة في حياتهم اليومية"⁴⁴.

ج- **القدرة والثقة بالنفس:** "فعادة يساعد القائد الجذاب أعضاء المجموعة على النجاح من خلال وضع مهام أو معايير أداء مناسبة أو في مستوى قدراتهم، وهكذا يزرع في تابعيه صورة مشرقة لإدراك الذات، وعندما ينجحون، يبدي تقديره ثم يعطيهم مهاماً أعلى صعوبة، وهكذا"⁴⁵.

د- **تطبيق الرؤية:** "فالقائد الفعال لا يكتفي بشرح الرؤية بل يعيشها، فهو لا يدير أتباعه من برج عاجي ويحدثهم من فوق عن المستقبل والآمال والأحلام، بل هو يعيش بينهم ويعلق على حادث صغير أو كبير من خلال علاقته بالرؤية المنشودة ويتأكد من تطابق كل الأعمال مع هذه الرؤية والقيم والمبادئ التي تشكلت عليها، والقائد الفعال صبور وذو تصميم وإدارة عالية في سيره وانطلاقاته نحو رؤية جماعته، وبإصراره وثباته تتماسك الجماعة وتزداد ثقتهم بهذه الرؤية، وبإخلاص قائدهم وصدقهم ووضوح الفهم لديه"⁴⁶.

لقد أثبتت الدراسات الحديثة نجاح القيادة التحويلية بشكل واسع في عدة مجالات:

- الأتباع أكثر حماساً وإرادة.
 - أكثر التزاماً بمبادئهم ورؤيتهم المنشودة .
 - يؤدون الأعمال بطريقة أفضل من غيرهم.
 - يعملون كفريق واحد منسجماً ومتماسكاً يبذلون كل جهودهم وطاقاتهم لأجل رؤية الجماعة.
- رغم أن هذه النظرية تعد من أكثر النظريات قبولاً في الوقت الراهن إلا أن البحوث والدراسات لم تجزم أن القائد التحويلي هو من صنع النجاح، وفي بعض الحالات يقوم المحللون بتفسير النجاح أن سببه القادة التحويلية ولا ينسبون الفضل إليها.
- "ولعل المنهجية الأكثر علمية هي أن تتم دراسة التجارب الناجحة وتقارن بالفاشلة ومن ثم دراسة مدى تطبيق القائد في الحالتين لهذه النظرية أو غيرها لنستطيع قياس مدى نجاحها"⁴⁷.
- أن التعميم بأن كل قائد تحويلي سينجح في كل الحالات، هذا يحتاج إلى إعادة النظر في هذا الأمر، فالقيادة التحويلية تكون أكثر فعالية عند:

- تأسيس المنظمات.
- فترات الانتقال والتغيير.
- المصائب والكوارث.

هـ – النظرية المفضلة في السلوك القيادي:

من أفضل النظريات في السلوك القيادي نظرية "Disc" وجاءت من عالين في الإدارة والنفس وهي كالتالي:

الشكل رقم 06 : يوضح النظرية المفضلة في السلوك القيادي DISC⁴⁸

القائد	السلوك	الرمز	التحليل القيادي
المسيطر Dominant مؤثر على المدى القصير	سريع يهتم بالعمل	D	- يصدر أوامر بطريقة مباشرة. - يحب البروز. - يمثل على الناس.

			- يهتم بالعمل أكثر من الناس. - ليس له مكتب. - سريع وكثير الإنتاج.
المؤثر Influential مؤثر على المدى البعيد	سريع يهتم بالناس	I	- لا يحب الروتين - محبوب جدا. - ليس لديه مكتب - علاقته واسعة. - قدرته على تحريك الناس كبيرة. - يصدر أوامره بطريقة غير مباشرة.
المستقل Steady	دقيق / حريص متدرج / حريص على الإنتاج	S	- لا يحب التغيير الكبير، ولا يحب التطوير - يتعامل مع العمل ببطء - دقيق - علاقاته الإنسانية غير واسعة.
المحافظ Caution	دقيق / حريص متدرج / حريص على العلاقات	C	- شخصية مميزة ويرى المسألة بموضوعية - شغله دقيق. - علاقاته جيدة. - لا يميل إلى التغييرات ويحرص على التدرج الشديد.

خلاصة:

على ضوء ما سبق يمكننا القول أن في ظل القيادة الديمقراطية والتي تهتم بتنمية الموارد البشرية. وتعتبرهم شركاء لها في النجاح فأنها بيئة خصبة لنمو قيادات المستقبل من الشباب العاملين. ان القيادة الرشيدة هي التي تسعى لتطوير الآخرين وتحقيق أحلامهم ودواتهم؛ من حيث المشاركة في صنع القرار، والتطوير والتدريب المستمر.

ويحاول الكثير من الأفراد ربط النجاح والفضل بالقائد فقط بدلاً من النظر إلى مجموعة العوامل المحيطة به والتي تؤدي بمجموعها إلى النجاح أو الفشل. فإننا نعتبر القائد ناجحاً عندما تنجح المؤسسة التي يقودها حتى لو كان النجاح سببه ظروف خارجية أو خطوات اتخذها من سبقه، وكذلك الحال بالنسبة للومه على الفشل. ويفعل الكثير عن دور وجهد الموارد البشرية مع هذا القائد وخبراتهم و كفاءتهم في سبيل تحقيق النجاح والوصول للهدف.

يبرز دور القيادة أنها تنظم ووضع استراتيجية الموارد البشرية لتتصب في إطار خطط المؤسسة بما يحقق الأهداف المستقبلية لها ويضمن نجاحها. كما يقوم القائد بشكل مستمر على تدعيم السلوك الإيجابي للأفراد والجماعات، وإنه يبذل قصارى جهده لتقليل الصراعات و حل النزاعات موجدا بذلك مناخا تنظيميا أفضل للعمل. كما يعمل القائد أيضا على استشراف المستقبل ووضع الخطط المستقبلية وتطويرها، وحل أي مشكلات متوقعة قد تواجهها المؤسسة.

الهوامش:

- 1 - إبراهيم عبد العزيز شيجا: الإدارة العامة، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية السنة ص. 197.
- 2 - إرداوي تيد: فن القيادة والتوجيه في إدارة الأعمال العامة، ترجمة عبد الفتاح إبراهيم، دار النهضة العربية، القاهرة 1965، ص 16.
- 3 - صالح الشبكشي: العلاقات الإنسانية في الإدارة، مكتبة القاهرة الحديثة 1969، ص 318.
- 4 - د. أحمد عرفة، وسمية شلبي: فاعلية التنظيم وتوجيه السلوك الإنساني، ص 254.
- 5 - طارق محمد السويديان: صناعة القائد، مجموعة الإبداع الكويت، الطبعة الثانية، سنة 2003، ص 40.
- 6 - بن الزاهي منصور، الشايب محمد الساسي، التدريب كأحد المقومات الأساسية لتنمية الكفاءات البشرية. ورقة مقدمة ضمن الملتقى الدولي حول التنمية البشرية وفرص الاندماج في اقتصاد المعرفة و الكفاءات البشرية. 2005. ورقة. الجزائر.
- 7 - لعل بوكيميش: ماهية تنمية الموارد البشرية و الواقع في العالم العربي و النامي. ورقة مقدمة ضمن الملتقى الدولي حول التنمية البشرية و فرص الاندماج في اقتصاد المعرفة و الكفاءات البشرية. 2005 ورقة. الجزائر.
- 8 - بارك نعيمة: تنمية الموارد البشرية و أهميتها في تحسين الانتاجية و تحقيق الميزة التنافسية. مجلة إقتصاديات شمال إفريقيا، العدد السابع، جامعة الشلف، الجزائر. ص 276.
- 9 - جيرالد جرينبرج وروبرت بارون: إدارة السلوك في المنظمات، تعريف ومراجعة: د. رفاعي محمد رفاعي و د. إسماعيل علي بسيوني، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية، 2004، ص 570.
- 10 - جيرالد جرينبرج وروبرت بارون مرجع سبق ذكره، ص 570.
- 11 - جيرالد جرينبرج وروبرت بارون: مرجع سبق ذكره، ص 571.
- 12 - أحمد ماهر: السلوك التنظيمي مدخل بناء المهارات، ط8، الدار الجامعية، الإسكندرية. 2002، ص 308.
- 13 - أحمد ماهر: مرجع سبق ذكره ص 309.
- 14 - صلاح الدين محمد عبد الباقي: السلوك الإنساني في المنظمات، الدار الجامعية، الإسكندرية 2000، ص 196.
- 15 - صلاح الدين محمد عبد الباقي، مرجع سبق ذكره ص 197.
- 16 - أحمد ماهر: مرجع سبق ذكره، ص 310.
- 17 - أحمد ماهر: مرجع سبق ذكره، ص 311.
- 18 - صلاح الدين محمد عبد الباقي، مرجع سبق ذكره ص 198.
- 19 - أ. عبد الفتاح بوخمخم: إدارة الموارد البشرية، مطبوعات جامعة قسنطينة، 2001، ص 126.
- 20 - نفس المرجع، ص 126.
- 21 - جيرالد جرينبرج وروبرت بارون: مرجع سبق ذكره، ص 581.
- 22 - جيرالد جرينبرج وروبرت بارون: مرجع سبق ذكره، ص 581.
- 23 - جيرالد جرينبرج وروبرت بارون: مرجع سبق ذكره، ص 582.
- 24 - حسين رشدي التاودي ومصطفى زيدان: الإشراف والإنتاجية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1974، ص 133.

Alain Touraine: Sociologie de l'action ; édition du seuil, Paris, 1967 P 275 - 25

- 26 - عادل زايد: الأداء التنظيمي المتميز الطريق إلى منظمة المستقبل، منشورات المنظمة العربية الإدارية. 2003 ص 25.
- 27 - جيري ل جراي: الإشراف مدخل علم السلوك التطبيقي لإدارة الناس، ترجمة وليد عبد اللطيف هوانة المكتبة العربية السورية، دمشق، 1984 ص 380.
- 28 - جيري ل جراي: مرجع سبق ذكره، ص 380 .
- 29 - طارق محمد السويدان: مرجع سبق ذكره، ص 129.
- 30 - طارق محمد السويدان: مرجع سبق ذكره، ص 130.
- 31 - صلاح الدين محمد عبد الباقي: مرجع سبق ذكره، ص 202 .
- 32 - صلاح الدين محمد عبد الباقي: مرجع سبق ذكره، ص 203.
- 33 - محمد سعيد أنور سلطان: السلوك التنظيمي، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية 2003، ص 337 - 338.
- 34 - صلاح الدين محمد عبد الباقي: مرجع سبق ذكره، ص 204.
- 35 - محمد سعيد أنور سلطان: مرجع سبق ذكره، ص 354.
- 36 - بونخلة فريد: تأثير القادة على عملية اتخاذ القرار في التنظيم الصناعي الجزائري، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة 2007. ص 108 .
- 37 - محمد سعيد أنور سلطان: مرجع سبق ذكره، ص 360 .
- 38 - جيرالد جيرينبرغ وروبرت بارون: مرجع سبق ذكره، ص 613 - 614 .
- 39 - محمد سعيد أنور سلطان: مرجع سبق ذكره، ص 360 .
- 40 - محمد سعيد أنور سلطان: مرجع سبق ذكره، ص 361 .
- 41 - أحمد سيد مصطفى: إدارة البشر الأصول والمهارات، دار الكتب القاهرة 2002 ص 240 .
- 42 - أحمد سيد مصطفى: مرجع سبق ذكره، ص 241 .
- 43 - طارق محمد السويدان: مرجع سبق ذكره، ص 108 .
- 44 - أحمد سيد مصطفى: مرجع سبق ذكره، ص 243 .
- 45 - أحمد سيد مصطفى: مرجع سبق ذكره، ص 244 .
- 46 - طارق محمد السويدان: مرجع سبق ذكره، ص 109 .
- 47 - طارق محمد السويدان: مرجع سبق ذكره، ص 111 .
- 48 - طارق محمد السويدان: مرجع سبق ذكره، ص 121 .

نحديده الاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات

أ/ جوهاري سمير ، جامعة برج بوعرييج

ملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على الاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات من وجهة نظرهم، وعلاقة ذلك بمتغيرات جنس المعلم (ذكور، إناث)، المؤهل العلمي (جامعي، خريج المعاهد التكنولوجية، توظيف مباشر)، والأقدمية في التدريس (أقل أو تساوي 23 سنة، أكبر من 23 سنة). تكونت عينة الدراسة من (130) معلما ومعلمة من معلمي المرحلة الابتدائية في بلدية سطيف، تم اختيارهم عشوائيا. ولتحقيق أهداف الدراسة استخدم الباحث استبيانته تكونت من (50) بند موزعة على أربعة (4) مجالات. بعد التأكد من صدقها وثباتها، وبلغ معامل الثبات لها (0.94). واستخدم الباحث الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية (spss) في تحليل البيانات. وقد أظهرت نتائج الدراسة ما يلي:

- أن الاحتياج إلى مجال المعارف والمفاهيم النظرية، مجال تخطيط الدروس، ومجال التقويم بالكفاءات بدرجة كبيرة، بينما كان الاحتياج إلى مجال تنفيذ الدروس بدرجة متوسطة حسب المحك المحدد في الدراسة (1.34).
- كشفت الدراسة أيضا تمركز تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية حول درجة الاحتياج التدريبي الكبيرة إذ بلغ المتوسط العام للمعلمين (1.44).

- كما أظهرت الدراسة عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.05α) و (0.01α) بين متوسطي درجات تقدير الاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات تعزى إلى متغير المؤهل العلمي (جامعي، خريج المعاهد التكنولوجية، توظيف مباشر)، والأقدمية في التدريس (أقل أو تساوي 23 سنة، أكثر من 23 سنة).

- وأظهرت الدراسة أيضا وجود فروق بين متوسطي درجات تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لاحتياجاتهم التدريبية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات عند مستوى الدلالة (0.01α) و (0.05α) تعزى إلى متغير الجنس (ذكور، إناث) في مجالات الدراسة والاستبيان ككل ولصالح الإناث، ما عدا مجال المعارف والمفاهيم النظرية فلا توجد فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى الدلالة (0.05α). وقد خلصت الدراسة إلى مجموعة من التوصيات في ضوء النتائج.
الكلمات المفتاحية: التدريب، التدريب أثناء الخدمة، الاحتياجات التدريبية، المعلم، المرحلة الابتدائية، التدريس وفق المقاربة بالكفاءات.

Abstract:

This study aimed to identifying the training needs of the primary school teachers to teach with approach competencies from their point of view, and how it relates to the variable of sex teacher (male, female), qualification (university, graduate of the technological institutes, direct recruitment), and experience in teaching (less than or equal to 23 years, more than 23 years old). The sample of the study consisted of (130) male and female teachers from primary school teachers in the municipality of setif, were chosen randomly.

The researcher developed a questionnaire to achieve the goals of the study, after its validity and reliability more established, the questionnaire consisted of (50) items divided in

to four (4) areas. And the instrument showed a reliability of (0.94), the spss was used to analyze the data.

The study showed the following results:

- There was a slight degree of lack in the following areas: theoretical knowledge and concepts, planning lessons, evaluation competencies.
- The study also revealed that there was a moderate need in the following area: implementation of lessons, by the test specified in the study (1.34).
- The study also revealed that primary school teachers estimations concentrated on the great degree of training needed. The average was (1.44).
- The study also showed no statistical difference at the level of significance ($\alpha 0.05$) and ($\alpha 0.01$) between the middle-levels estimate of the primary teachers training needs to teach with approach competencies attributed to the qualification variable (university, graduate of the technological institutes, direct recruitment), and experience in teaching (less than or equal to 23 years, more than 23 years old).
- The study also showed the existence of differences between the mean scores of the primary teachers estimate of their training needs to teach with the approach competencies at the significance level ($\alpha 0.01$) and ($\alpha 0.05$) attributed to sex (male, female) in the study areas and the questionnaire as a whole in favor of females, except the knowledge and theoretical concepts area, there are no statistical difference in the significance level ($\alpha 0.05$). The study presented some Recommendations in the light of the result.

Keywords : training, in-service training, training needs, the teacher, the primary school, teaching with the approach competencies .

1- مقدمة:

تعمل وزارة التربية الوطنية في إطار مخطط وطني متعدد السنوات، على منح المعلم تكويناً يكسبه المعارف التي هو في حاجة إليها لكي يتحكم في المضامين المعرفية التي تحتويها المناهج الجديدة. كما أنها تسعى أيضاً من خلال التعاون الدولي، ولاسيما في إطار برنامج دعم منظمة اليونسكو لإصلاح المنظومة التربوية الجزائرية (PARE)، إلى تزويد المعلم بالتأهيل البيداغوجي والمنهجي الضروري لتمكينه من تناول تلك المضامين في الأنشطة التعليمية بفعالية، وبهذا يتحسن مردوده التربوي في عملية التدريس. (إكزافيروجيرس. 2006، ص 08)، لأن نجاح عملية التدريس يتوقف بشكل رئيسي على المعلم (المدرس) المعد إعداداً جيداً والقادر على تنظيم الخبرات التعليمية والنشاطات العلمية، ولديه القدرة على توجيه طلبته والوصول بهم إلى التفكير العلمي البناء، أي المعلم الذي يمتلك المهارات التدريسية (المعرفية والأدائية) والتي تمكنه من ممارسة عملية التدريس بكفاءة عالية. (بن هوشيل عبد الله محمد. 2002، ص 09). وقد دلت بعض الإحصائيات الصادرة عن المجلس الأعلى للتربية سنة 1998 أن أكثر من (132000) معلماً يحتاجون إلى إعادة تأهيل، والجدير بالملاحظة أن نسبة كبيرة من هؤلاء المعلمين ستظل في المهنة وأن حوالي 60 % من المعلمين العاملين حالياً لا تتجاوز معدل سنهم 35 سنة وأن 75 % من المعلمين متوسط سنهم أقل من 40 سنة. (المجلس الأعلى للتربية. 1998، ص 80)

كما اعترف التقرير الوزاري 05/2580 الموافق لـ 31 جويلية 2005 بفشل كل الصيغ السابقة للتدريب (التكوين) وشخص الوضعية بطريقة موضوعية ووضع توصيات لكنها لم تؤخذ بعين الاعتبار، إلا منذ سنة 2005 التي شهدت تغيراً في فلسفة التدريب (التكوين) وأهدافه وصيغته ومناهجه، وأصبح يخضع لخطة طويلة

الأمد تستمر 10 سنوات من 2005 إلى 2015 لتدريب (تكوين) 136000 معلم ابتدائي.(غاوي جمال، 2008، ص03)

من خلال ما تم رصد من آراء حول أهمية تكوين المعلم، فإنه يمكننا القول أنا حاجتنا أصبحت ماسة إلى إعادة النظر في سياسة تكوين وتأهيل المعلم الجزائري للتخلص من الأساليب القائمة على التلقين واستبدالها بأساليب التعلم الجديدة. ولكي تكون عملية تدريب معلمي المرحلة الابتدائية في الجزائر ناجحة محققة لأهدافها، لابد من أن تقوم على أسس علمية تستند إلى الأخذ بنظرة المعلمين في المجالات التدريبية التي يحتاجونها. حيث أشار الباحثون إلى أهمية مشاركة المعلمين في تحديد احتياجاتهم التدريبية، لأن هذه المشاركة تعكس الحقيقة التي يواجهها المعلمون فعلا، ولأن مشاركتهم تتيح لهم الفرصة في تقييم احتياجاتهم التدريبية، وتحديد المواضيع التي تحتاج إلى تطوير وتحسين ما أمكن.(أديب حمادة، 2007، ص54)

والمتتبع لموضوع تكوين المعلمين في الجزائر يلاحظ أن أغلب الدراسات التي تناولت استجابات المعلمين (المدرسين) بخصوص الإصلاحات التربوية وبالتحديد المقاربة بالكفاءات. فقد أجمعت هذه الدراسات على أنه في إطار غياب واضح لمرجعية التعليم تعذر على المدرسين فهم طبيعة هذه المقاربة أسلوبا ومنهجية وحتى العمل بها. ومن هذه الدراسات التي أكدت على ضعف تكوين المعلمين للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات نذكر: دراسة الأخضر قويدري(2005)، دراسة حناش فضيلة(2007)، دراسة عميار سعيد(2008)، دراسة نورة بوعيشة(2008)، دراسة عواريب الأخضر(2009)، دراسة لكحل لخضر(2009)، والواقع أن هذه الدراسات أظهرت نقص التكوين التربوي لدى المدرسين، وأنهم لم يتلقوا أي تكوين بالمقاربة بالكفاءات ويجدون صعوبة في تطبيق هذه المقاربة(المقاربة بالكفاءات) في الميدان سواء كانت تدريسا أو تقويما، وسيبقى مطمحا رهينا بالمستوى الذي يصل إليه مستوى تكوين المعلمين والأساتذة.

وما دفعنا للقيام بالدراسة الحالية هو محاولة الكشف عن الاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، والتي باتت مطلبا تربويا جديدا قصد التحكم في المفاهيم النظرية والممارسة العملية لهذه المقاربة. ولما كان نجاح أي برنامج تدريبي يقاس بمدى التعرف إلى الاحتياجات التدريبية للفئات المستهدفة من التدريب، فإن تحديد هذه الاحتياجات تتم باستعمال أساليب ونماذج متنوعة ومتفاوتة الأهمية، لكن يمكن أن نشير إلى أن الكثير من الدراسات السابقة كدراسة طشوعة الويزة (2009)، دراسة غادة خالد عيد (2005)، دراسة محمد شحاتة ونوال الشيخ (2002)، دراسة رفاع سعيد (1993)، دراسة عبد الحفيظ حنفي (1992) أكدت أن استعمال نموذج المهمات (الأداء) هو أسلوب فعال لتحديد الاحتياجات التدريبية خاصة لدى المدرسين، والتقويم الذاتي هو من أكثر الأساليب فعالية في تحديد الاحتياجات التدريبية لأن المعلم هو أكثر الناس دراية بما يحتاجه. لذلك سيعتمد الباحث في هذه الدراسة على هذا الأسلوب لرصد الاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات بهدف الاستفادة منها في إعداد البرامج التدريبية من طرف الجهات المعنية.

2- اشكالية الدراسة: في ضوء العرض السابق تم صياغة اشكالية الدراسة في التساؤلات التالية:

- 1 - ما الاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات فيمحور(المعارف والمفاهيم النظرية، تخطيط الدروس، تنفيذ الدروس، التقويم بالكفاءات) من وجهة نظرهم؟

2. هل توجد فروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة(المعارف والمفاهيم النظرية، تخطيط الدرس، تنفيذ الدرس، التقويم بالكفاءات) باختلاف الجنس؟

3. هل توجد فروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة(المعارف والمفاهيم النظرية، تخطيط الدرس، تنفيذ الدرس، التقويم بالكفاءات) باختلاف المؤهل العلمي؟

4. هل توجد فروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة(المعارف والمفاهيم النظرية، تخطيط الدرس، تنفيذ الدرس، التقويم بالكفاءات) باختلاف أقدميتهم التدريسية ؟

3- **فرضيات الدراسة:** للإجابة على التساؤلات المطروحة صيغت فرضيات الدراسة على النحو التالي:

1. هناك احتياجات تدريبية لمعلم المرحلة الابتدائية في التدريس وفق المقاربة بالكفاءات في كل محور من محاور الدراسة.

2. لا توجد فروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة(المفاهيم النظرية، تخطيط الدرس، تنفيذ الدرس، التقويم)بحسب الجنس .

3. لا توجد فروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة(المفاهيم النظرية، تخطيط الدرس، تنفيذ الدرس، التقويم)بحسب المؤهل العلمي .

4. لا توجد فروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة(المفاهيم النظرية، تخطيط الدرس، تنفيذ الدرس، التقويم)بحسب الخبرة التدريسية .

4- **أهمية الدراسة:** تستمد هذه الدراسة أهميتها من طبيعة الموضوع الذي تناولته باعتباره من الموضوعات الحديثة، التي لقيت ولا تزال تلقى الاهتمام الكبير من الباحثين في هذا المجال باعتباره موضوع الساعة على كل المستويات بصفة عامة، وعلى مستوى المجال التربوي بصفة خاصة، حيث يطرح مشكلات ذات بعد بيداغوجي وبالتحديد من زاوية الصعوبات التي يواجهها معلمي المرحلة الابتدائية في ممارسة عملية التدريس في ظل الإصلاحات التي عرفتها المنظومة التربوية الجزائرية خلال السنة الدراسية 2003-2004. بتبني بيداغوجيا المقاربة بالكفاءات كاستراتيجية للتدريس والتقويم، فأغلبية إن لم نقل معظمهم يعانون صعوبات في التكيف مع هذه الوضعية الجديدة بسبب غموض الرؤية وظهور بعض المفاهيم والمصطلحات الجديدة في الممارسة البيداغوجية.

5- **الإطار النظري ومصطلحات الدراسة:**وردت في هذه الدراسة المفاهيم الرئيسية التالية:

5- 1- التدريب:

- تعريف جود (Good 1976)، بأنه: "الجهود المنظمة والمخطط لتطوير معارف، وخبرات واتجاهات المتدربين، وذلك يجعلهم أكثر فعالية في أداء مهامهم." (Good, 1976- p20)
 - تعرف جمعية التدريب والتنمية التدريبية الأمريكية: "أنه خطوات عملية محددة يتم صياغتها في شكل أنشطة وبرامج معينة يهدف تزويد المتدربين بالأساليب والخبرات اللازمة لتعديل اتجاهاتهم وتنمية مهاراتهم وزيادة معارفهم لبلوغ مستوى الأداء المستهدف." (غاوي جمال، 2008، ص47)
 - **التحديد الإجرائي للتدريب:** هو عملية تنمية معارف ومهارات واتجاهات معلم المرحلة الابتدائية وإحداث تغييرات عليها لتتماشى مع الإصلاحات التربوية والتغيرات التي تحدث على الأنظمة التربوية.
- 5- 2- **التدريب أثناء الخدمة:**

- تعريف جبرائيل بشارة: "هو نشاط مقصود يهدف إلى تجديد معلومات المعلم وتنمية مهاراته المهنية باستمرار." (جبرائيل بشارة. 1986، ص 93)

- تعريف ساراديفين: (sara divine) "هو كل الأنشطة التي تساعد المدرسين عن طريق التعلم الذاتي إلى رفع كفاءاتهم وإلى إيجاد حلول مرضية للمشكلات التي تتعلق بعملهم وإلى تحسين طرق الأداء." (البوهي والبيومي. د، س، ص312)

- **التحديد الإجرائي للتدريب أثناء الخدمة:** هي تلك العمليات الإنمائية التي يتلقاها المعلم أثناء الخدمة لضمان مساهمة التطور الذي يطرأ على المناهج وطرائق التدريس وأساليب التقويم نتيجة التطور المستمر.

5-3- الاحتياجات التدريبية:

يعرفها محمد عليان عليما بأنها "الفرق بين المستوى المعرفي أو المهارة المطلوبة لأداء عمل معين، وذلك المستوى الواجب توفيره عند الفرد، الذي يؤدي هذا العمل، وذلك في عنصر واحد أو أكثر من عناصر لأداء الوظيفة." (محمد عليما. 1991، ص08)

تعريف اللقاني والجمال (1996) بأنها: "مجموعة التغيرات والتطورات التي يجب إحداثها في معلومات المعلمين ومهاراتهم واتجاهاتهم، لجعلهم قادرين على أداء أعمالهم التربوية، وتعيين أدائهم المهني، الذي يسهم بدوره في تحسين نوعية التعليم." (اللقاني والجمال. 1996، ص09)

- **التحديد الإجرائي للاحتياجات التدريبية:** هي متغير يمثل استجابة معلم المرحلة الابتدائية لكل فقرة من فقرات الاستبيان المستخدمة في الدراسة، لتصوره للمهارات والكفاءات التي يفترض إليها في ممارسة عملية التدريس وفق المقاربة بالكفاءات، والتي يتم تسميتها من خلال تصميم برنامج تدريبي.

5-4- المعلم (المدرس):

تعريف رشيد لبيب جابر عبد الحميد: "المعلم هو الشخص الذي يعمل على إثارة دافعية المتعلم وحاجاته والظروف الأخرى التي تحيط به تؤثر عليه، والتي تدفعه إلى النشاط في الموقف التعليمي وتحديد الأغراض التي تشبع حاجات المتعلم ورغباته." (لبيب رشيد وجابر عبد الحميد. 1983، ص32)

5-5- **التحديد الإجرائي للمعلم:** هو ذلك الشخص الذي يدرس بجميع الأطوار التعليمية من السنة الأولى ابتدائي إلى السنة الخامسة ابتدائي، والمطالب بمتابعة تكوين أثناء الخدمة وفق برنامج محدد من أجل تحسين مستواه التعليمي والرفع من كفاءته التدريسية .

5-6- **التحديد الإجرائي للمرحلة الابتدائية:** هي أول مرحلة من مراحل التعليم الإلزامي في الجزائر، فعلى كل طفل بلغ سن التمدرس ستة سنوات، أن يلتحق بالمدرسة ليتلقى فيها تكوينا في شتى المجالات تربويا، نفسيا، أخلاقيا...لمدة خمسة سنوات. وهي مقسمة إلى طورين الأول ويتضمن السنوات الأولى والثانية والثالثة، والثاني يتضمن السنوات الرابعة والخامسة .

5-7- التدريس وفق المقاربة بالكفاءات :

هي إستراتيجية بيداغوجية مهمتها تنمية ملامح المتعلم ومواصفاته من خلال مرامي المنهاج التربوي، في طور من أطوار التعليم أو مرحلة من مراحله، تقوم على أساس وضع المتعلم في مواقف تستثيره للنشاط والملاحظة والتحليل وحل الإشكاليات المعقدة بهدف إكسابه الكفاءات والآليات التي تمكنه من التصرف بفعالية في وسطه." (حناش فضيلة. 2007، ص65)

ويعرفها كزاي في روجرز ROEGIERS المقاربة بالكفاءات هي: "إطار عمل تمكن التلاميذ من حل المشكلات ، وهي أيضا إطار واسع الذي يسمح بمعالجة كل أنواع الوضعيات - المشكلات ". (ROEGIERS ,X.2004,P122)

- **التحديد الإجرائي للمقاربة بالكفاءات:** نقصد بها في بحثنا احتياجات المعلمين التدريبية (التكوينية) في ضوء إستراتيجية المقاربة بالكفاءات التي تتبناها وزارة التربية الوطنية الجزائرية كمنهجية للتدريس في مرحلة التعليم الابتدائي بالخصوص.

6- الدراسات السابقة :

6-1- **دراسة أديب حمادنة (2007):** بعنوان: "الاحتياجات التدريبية لمعلمي اللغة العربية في المرحلة الأساسية كما يقدرها المعلمون في مديريات التربية والتعليم لمحافظة المفرق ". هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على الاحتياجات التدريبية لمعلمي اللغة العربية ومعلماتها في المرحلة الأساسية في محافظة المفرق من وجهة نظر المعلمين أنفسهم ، وتكونت عينة الدراسة من (135) معلما ومعلمة ، في حين تألفت أداة الدراسة من (60) فقرة موزعة على (08) مجالات ، واستخدمت الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية SPSS في تحليل البيانات ، وأشارت نتائج الدراسة إلى:

- أن الاحتياج إلى مجال التقويم، مجال التعمق اللغوي، مجال تكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا الحاسوب كان كبيرا جدا، بينما كان الاحتياج إلى مجال أساليب التدريس مجال إدارة الصف، مجال التخطيط الدراسي، مجال الاتصال بأولياء الأمور، ومجال تحليل المناهج في درجة متوسطة.

- كما أظهرت الدراسة عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى دلالة (0.05α) تعزى لأثر متغير المؤهل العلمي لصالح بكالوريوس آداب ، ومتغير مكان العمل لصالح البادية الشمالية الشرقية.

6-2- **دراسة نورة بوعيشة (2008):** حول: " الممارسات التدريسية للمعلمين في ضوء مقارنة التدريس بالكفاءات." دراسة ميدانية على عينة من المفتشين التربويين بالجنوب الجزائري. هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن واقع الممارسات التدريسية (التخطيط، التنفيذ، التقويم) لمعلمي المرحلة الابتدائية في ضوء التدريس بالكفاءات وذلك من وجهة نظر المفتشين التربويين، وقد تم تصميم استبيان لجمع معطيات الدراسة وزع على عينة الدراسة (67 مفتشا) في كل من: بسكرة، الوادي، غرداية، ورقلة، الأغواط، وإليزي. ولقد جاءت نتائج الدراسة كما يلي:

- معلم المرحلة الابتدائية سواء كان أستاذا مجازا أو معلم المدرسة الأساسية لا يمارس دائما التخطيط القائم على التدريس بالكفاءات.

- معلم المرحلة الابتدائية (أستاذ مجاز، معلم مدرسة أساسية) لا يمارس دائما تنفيذ دروسه وفق مقارنة التدريس بالكفاءات.

- معلم المرحلة الابتدائية (أستاذ مجاز، معلم مدرسة أساسية) لا يمارس دائما التقويم بالكفاءات.

- لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الأستاذ المجاز ومعلم المدرسة الأساسية في ممارستهما للتخطيط والتففيذ في ضوء مقارنة التدريس بالكفاءات، في حين توجد فروق ذات دلالة إحصائية في ممارستهما للتقويم بالكفاءات، وذلك من وجهة نظر المشرفين التربويين.
- 6-3- دراسة تيعشادين ، محمد (2009): بعنوان: " اتجاهات أساتذة التعليم المتوسط نحو أساليب التقويم في ظل المقاربة بالكفاءات." تهدف هذه الدراسة إلى تحديد ماهية اتجاهات أساتذة التعليم المتوسط حيال أساليب التقويم في ظل المقاربة بالكفاءات، مع تحديد الأسباب التي تكون قد أدت إلى الاتجاه الإيجابي أو السلبي حيال هذا الموضوع، وحصر الباحث إشكالية بحثه في التساؤلات التالية :
 - للأساتذة الجزائريين نظرة ايجابية نحو جوانب التقويم في ظل المقاربة بالكفاءات؟
 - يؤثر عامل الخبرة المهنية على اتجاه الأساتذة نحو أهداف التقويم في ظل المقاربة بالكفاءات وجوانبه التطبيقية ؟
- واعتمد الباحث في دراسته هذه على المنهج الوصفي، وكانت الأداة المستعملة في جمع البيانات الاستبيان. تكونت عينة الدراسة من (166) أستاذا وأستاذة تعليم متوسط من مجموع متوسطات الحسائية واختبار χ^2 واختبار ف (f) للفروق وبعد إجراء الدراسة توصل الباحث إلى النتائج التالية:
 - اتجاهات الأساتذة ايجابية نحو أهداف التقويم في ظل المقاربة بالكفاءات.
 - اتجاهات الأساتذة ايجابية نحو الجوانب التطبيقية للتقويم في ظل المقاربة بالكفاءات.
 - لا توجد فروق دالة بين اتجاهات فئة الخبرة المهنية نحو أهداف التقويم في ظل المقاربة بالكفاءات.
 - لا توجد فروق دالة بين اتجاهات فئة الخبرة المهنية نحو الجوانب التطبيقية لتقويم في ظل المقاربة بالكفاءات.
- وخلص الباحث في هذه الدراسة إلى التوصيات التالية:
 - تنظيم دورات تكوينية (تدريبية) للأساتذة تكون منصبة حول جانب التقويم التربوي .
 - إنشاء معاهد خاصة يتم فيها تكوين المعلمين والأساتذة.

7- إجراءات الدراسة:

7-1- الدراسة الاستطلاعية:

قبل الشروع في الدراسة النهائية قام الباحث بتوزيع استبيان استطلاعي على عينة مكونة من (20) معلما ومعلمة وضم هذا الاستبيان أربعة (04) أسئلة مفتوحة موجهة لأفراد العينة الاستطلاعية حول الاحتياجات التدريبية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، وذلك من أجل إزالة بعض الغموض عن الجوانب الخفية للموضوع، والوصول إلى تصور شامل عما يجب فعله في الدراسة النهائية، دون أن ننسى الهدف الأساسي من وراء الدراسة الاستطلاعية وهو محاولة الوصول إلى تصور حول كيفية بناء أداء جمع البيانات.

7-2- المنهج المستخدم:

اعتمدت الدراسة الحالية على المنهج الوصفي وهو المنهج المناسب لدراستنا المتمثلة في رصد الاحتياجات التدريبية (التكوينية) لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، و يستخدم المنهج الوصفي في دراسة الأوضاع الراهنة للظواهر من حيث خصائصها، وعلاقاتها، والعوامل المؤثرة في ذلك، كما أنه يشمل في كثير

من الأحيان على عمليات تنبؤ مستقبل الظواهر والأحداث التي يدرسها. (ربحي مصطفى، عثمان محمد، 2004، ص 43)

7-3- مجتمع الدراسة:

حسب طبيعة دراستنا فإن مجتمع الدراسة يتكون من جميع معلمي المرحلة الابتدائية من السنة الأولى ابتدائي إلى السنة الخامسة ابتدائي ببلدية سطيف للعام الدراسي 2010/2011، وقد بلغ المجتمع الأصلي للمعلمين (1151) معلما ومعلمة موزعين على (79) مدرسة ابتدائية، موزعة أيضا على (10) مقاطعات تعليمية.

7-4- العينة وكيفية اختيارها:

عينة هذه الدراسة هي عينة عشوائية عنقودية (متعددة المراحل) يتم اختبارها عندما تكون مفردات المجتمع على شكل تجمعات أو مجموعات أو عناقيد، بحيث يحتوي كل عنقود على الكثير من مفردات المجتمع. وإن اختيار العينة العشوائية العنقودية يتم إما على مرحلة واحدة، أو بأكثر من مرحلتين خاصة إذا كان مجتمع الدراسة يتصف بالتجانس، حيث قام الباحث في هذه الدراسة وعن طريق القرعة في المرحلة الأولى باختيار عينة عشوائية من المقاطعات التربوية، ومن المقاطعات المختارة نختار عينة عشوائية من المؤسسات التربوية الابتدائية في المرحلة الثانية، ومن ثم نختار عينة عشوائية من معلمي هذه المؤسسات في المرحلة الثالثة. حيث تم توزيع (170) نسخة من أداة الدراسة وتجدر الإشارة إلى أنه تم استغلال النسخ المسترجعة لـ (130) معلما ومعلمة من مجموع معلمي المؤسسات التربوية الابتدائية ببلدية سطيف (1151) لسنة 2010 / 2011. نظرا لعدم احترام هؤلاء تعليمات الأداة.

7-5- أداة جمع البيانات:

لتحديد الاحتياجات التدريبية (التكوينية) لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، قام الباحث بتصميم استبيان بتلك الاحتياجات من خلال إتباع الخطوات التالية:

- تحليل نتائج الدراسة الاستطلاعية.

- مراجعة الأدب التربوي السابق.

- الاطلاع على بعض المناشير والوثائق التربوية حول التدريس بالمقاربة بالكفاءات.

بعد الانتهاء من تصميم أداة جمع البيانات في صورتها الأولية، قام الباحث بعرضها على الأساتذة المحكمين من أعضاء هيئة التدريس الجامعي بجامعة الجزائر²، وبعض المفتشين والمختصين في المقاربة بالكفاءات.

7-6- الأساليب الإحصائية المستخدمة في الدراسة :

لقد تم معالجة بيانات الدراسة بواسطة برنامج الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية المعروف بـ (SPSS).

8- عرض نتائج الدراسة ومناقشتها:

8-1- عرض النتائج المتعلقة بسؤال الدراسة ومناقشته:

لإجابة عن السؤال العام للدراسة والذي ينص: "ما الاحتياجات التدريبية لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات على ضوء آرائهم؟". فقد قام الباحث باستخراج المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لكل محور من محاور الدراسة حسب تقديرات أفراد العينة لدرجة الاحتياج التدريبي، مرتبة ترتيبا تنازليا كما هي موضحة في الجدول الموالي.

جدول رقم (01): بين المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والرتبة لتقديرات أفراد العينة لكل محور من محاور الاستبيان.

رقم المحور	المحور	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الرتبة
1	الاحتياجات التدريبية المتعلقة بالمعارف والمفاهيم النظرية.	1.40	0.68	1
2	الاحتياجات التدريبية المتعلقة بتخطيط الدروس.	1.36	0.67	3
3	الاحتياجات التدريبية المتعلقة بتنفيذ الدروس.	1.33	0.69	4
4	الاحتياجات التدريبية المتعلقة بالتقويم بالكفاءات.	1.39	0.66	2

يبين الجدول (01) أن المتوسطات الحسابية لتقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لاحتياجاتهم التدريبية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات قد تراوحت بين (1.40) و(1.33) من أصل (2)، إذ احتل محور الاحتياجات التدريبية المتعلقة بالمعارف والمفاهيم النظرية المرتبة الأولى بمتوسط حسابي (1.40) وانحراف معياري (0.68)، وجاء في المرتبة الثانية محور الاحتياجات التدريبية المتعلقة بالتقويم بالكفاءات بمتوسط حسابي (1.39) وانحراف معياري (0.66)، بينما جاء في المرتبة الثالثة محور الاحتياجات التدريبية المتعلقة بتخطيط الدروس بمتوسط حسابي (1.36) وانحراف معياري (0.67)، واحتل محور الاحتياجات التدريبية المتعلقة بتنفيذ الدروس المرتبة الأخيرة بمتوسط حسابي (1.33) وانحراف معياري (0.69).

ويتضح أيضا من الجدول رقم (01) أن محور المعارف والمفاهيم النظرية، محور التقويم بالكفاءات، ومحور تخطيط الدروس قد نالت أعلى المتوسطات، إذ زادت عن النسبة المقبولة لدرجة الحاجة للتدريب (1.34). وكان الاحتياج إليها حسب وجهة نظر أفراد عينة الدراسة بدرجة كبيرة، وتراوحت متوسطاتها ما بين (1.40) و(1.36). بينما محور تنفيذ الدروس فكانت درجة الحاجة إلى التدريب عليه بدرجة متوسطة حسب المحك المحددة وكانت قريبة جدا من درجة الاحتياج الكبيرة، وتراوح متوسطها (1.33).

ويرجع الباحث سبب ذلك إلى حاجة معلمي المرحلة الابتدائية إلى التدريب على بنود الاستبيان المحددة في محاور الاستبيان، وإلى إدراك أهميتها في تنمية وتطوير المعارف النظرية هذا من جهة، ومن جهة أخرى تطوير كفاءاتهم وممارساتهم التدريسية مما يجعل معلمي المرحلة الابتدائية يشعرون بأنهم يحتاجون إلى مثل هذه الكفاءات.

كما تم استخراج المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لتقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لدرجة الاحتياج التدريسي لبنود كل محور من المحاور المتعلقة بالاحتياجات التدريبية، حيث جاءت على النحو التالي:

المحور الأول: محور الاحتياجات المتعلقة بالمعارف والمفاهيم النظرية: جاءت المتوسطات الحسابية والانحرافات

المعيارية لتقديرات أفراد العينة على بنود هذا المحور كما هي موضحة في الجدول (02)

جدول رقم (02): يوضح الحساسية والانحرافات المعيارية والرتبة لتقديرات معلمي المرحلة الابتدائية على محور المعارف

والمفاهيم النظرية .

الرتبة	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	البند	رقم البند
3	0.67	1.53	- التعرف على مفهوم الكفاءة وأنواعها ومستوياتها.	1
5	0.71	1.39	- التعرف على المقصود بالوضعية- المشكلة.	2
9	0.73	1.32	- التعرف على معنى الوضعية التعليمية.	3
11	0.74	1.24	- المقصود بوضعية الإدماج.	4
1	0.57	1.65	- التعرف على خصائص النموذج البنائي في عملية التعلم.	5
9	0.68	1.32	- التمييز بين وضعية الإدماج ووضعية التعلم.	6
10	0.73	1.27	- التمييز بين وضعية مشكلة وحل مشكلة.	7
4	0.67	1.44	- التمييز بين الكفاءة والمفاهيم المرتبطة به (كالقدرة، المهارة، الأداء، المعرفة، ...).	8
2	0.61	1.55	- التعرف على أساليب واستراتيجيات التدريس بالكفاءات.	9
6	0.60	1.36	- التمييز بين التقويم بالكفاءات وغيره (التقويم بالأهداف، التقويم بالمحتويات).	10
8	0.69	1.34	- التمييز بين المصطلحات المرتبطة بالتقويم بالكفاءات وغيره (التقويم بالأهداف، والتقويم بالمحتويات).	11
7	0.70	1.35	- التمييز بين وسائل التقويم الملائمة في تقويم الكفاءات وغيرها (التقويم بالأهداف، والتقويم بالمحتويات).	12
	0.68	1.40	الدرجة الكلية	

يتضح من الجدول رقم (02) أن المتوسطات الحسابية لتقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لبند المحور الأول (الاحتياجات التدريبية المتعلقة بالمعارف والمفاهيم النظرية). قد تراوحت بين (1.65) و(1.24) من أصل (2). وأن

كفاءة التعرف على خصائص النموذج البنائي في عملية التعلم كان ترتيبها الأول من حيث درجة الحاجة إلى التدريب عليها بمتوسط حسابي (1.65) وانحراف معياري (0.57)، يليها التعرف على أساليب واستراتيجيات التدريس بالكفاءات بمتوسط حسابي (1.55) وانحراف معياري (0.61)، ثم يأتي في المرتبة الثالثة التعرف على مفهوم الكفاءة وأنواعها ومستوياتها بمتوسط حسابي (1.53) وانحراف معياري (0.67)، وجاء البند رقم (8) التمييز بين الكفاءة والمفاهيم المرتبطة بها (كالقدرة، المهارة، الأداء، المعرفة،...) في المرتبة الرابعة بمتوسط حسابي (1.44) وانحراف معياري (0.67)، أما البند رقم (2) التعرف على المقصود بالوضعية - المشكلة فقد جاء في المرتبة الخامسة بمتوسط حسابي (1.39) وانحراف معياري (0.71)، واحتل البند (10) التمييز بين التقويم بالكفاءات وغيره (التقويم بالأهداف، التقويم بالمحتويات) المرتبة السادسة بمتوسط حسابي (1.36) وانحراف معياري (0.60)، بينما جاء في المرتبة السابعة البند (12) التمييز بين وسائل التقويم الملائمة في تقويم الكفاءات وغيرها (التقويم بالأهداف، التقويم بالمحتويات) بمتوسط حسابي (1.35) وانحراف معياري (0.70)، وجاء البند (11) التمييز بين المصطلحات المرتبطة بالتقويم بالكفاءات وغيره (التقويم بالأهداف، التقويم بالمحتويات) في المرتبة الثامنة بمتوسط حسابي (1.34) وانحراف معياري (0.69)، واحتل البند (3) التعرف على معنى الوضعية التعليمية، والبند (6) التمييز بين وضعية الإدماج ووضعية التعلم المرتبة التاسعة بمتوسط حسابي (1.32) وانحراف معياري (0.73) و (0.68)، وجاء في المرتبة العاشرة البند (7) التمييز بين وضعية مشكلة وحل مشكلة بمتوسط حسابي (1.27) وانحراف معياري (0.73)، أما البند (4) المقصود بوضعية الإدماج فاحتل المرتبة الأخيرة (11) بمتوسط حسابي (1.24) وانحراف معياري (0.74)

ويتضح من الجدول (02) أن الاحتياج إلى التعرف على بنود المحور الأول ووفقا للمحك المحدد لدرجة الحاجة إلى التدريب أن أغلب كفاءات محور المعارف والمفاهيم النظرية وقعت ضمن درجة الاحتياج التدريبي الكبيرة وهي البنود رقم (1، 2، 5، 8، 9، 10، 11، 12)، أما البنود (3، 4، 6، 7) كان الاحتياج إليها بدرجة متوسطة. وهذا يعني أن معلمي المرحلة الابتدائية بحاجة إلى التعرف على جميع المعارف والمفاهيم التي وردت في المحور رقم (1)، ويمكن تفسير هذه النتيجة بأنهم لم يتلقوا تكوينا كافيا يؤهلهم للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، ولذلك شعروا بحاجتهم إلى هذه المعارف والمفاهيم، وخاصة عندما يطلعون على دليل المعلم، والوثيقة المرفقة ويجدون معلوماته جديدة عليهم. وهذا ما أكدته نتائج دراسة عمياد سعيد (2008)، ودراسة الأخضر قويدري (2005)، والتي وجدت أن النسبة الغالبة من المدرسين تشكوا من صعوبة تطبيق هذه البيداغوجيا (المقاربة بالكفاءات) ميدانيا وإنهم يفضلون التدريس وفق ما تعودوا عليه، وأن غالبية المدرسين لم يتلقوا تكوينا كافيا للتدريس بالكفاءات.

المحور الثاني: محور الاحتياجات التدريبية المتعلقة بتخطيط الدروس: وتوضح نتائج هذا المحور في الجدول 3 جدول رقم (03): يبين المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والرتبة حسب تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لبنود محور التخطيط للدروس.

الرتبة	البنود	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الرتبة
13	- التدريب على كيفية تحليل المنهاج واستخراج الكفاءات المستهدفة.	1.52	0.62	1

14	- التدريب على صياغة الكفاءات المستهدفة.	1.40	0.62	5
15	- التدريب على صياغة وضعية مشكلة لبناء تعلم، إدماج موارد، تقويم مكتسبات.	1.45	0.63	2
16	- التدريب على كيفية اختيار الوسائل التعليمية وتوظيفها	1.16	0.79	9
17	- التدريب على كيفية تنوع أساليب التدريس لمواجهة استراتيجيات التعلم.	1.44	0.66	3
18	- التدريب على اختيار الأنشطة التعليمية التي تتناسب مع كفاءة التلاميذ.	1.32	0.74	7
19	- التدريب على اختيار أساليب التقويم المناسبة لوضعيات التعلم.	1.39	0.63	6
20	- التدريب على ربط وإدماج الكفاءات المكتسبة في مختلف المواد التعليمية.	1.43	0.60	4
21	- التدريب على توزيع الوقت على مختلف مراحل انجاز التعلم.	1.10	0.79	10
22	- التدريب على صياغة مؤشرات الكفاءة في شكل سلوك قابل للقياس.	1.44	0.57	3
23	- التدريب على اختيار أنشطة الدعم وعلاج الثغرات.	1.28	0.75	8
	الدرجة الكلية	1.36	0.67	

يتضح من الجدول (03) أن المتوسطات الحسابية لاستجابات أفراد عينة الدراسة لاحتياجاتهم التدريبية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات قد تراوحت بين (1.52) و(1.10) من أصل (2).

كما يظهر من الجدول أن الحاجة إلى التدريب على كيفية تحليل المنهاج واستخراج الكفاءات المستهدفة كان ترتيبها الأول من حيث درجة الحاجة إلى التدريب بمتوسط حسابي (1.52) وانحراف معياري (0.62)، يليها التدريب على صياغة وضعية، مشكلة لبناء تعلم، إدماج موارد، تقويم مكتسبات بمتوسط حسابي (1.45) وانحراف معياري (0.63)، وجاء البند (17) التدريب على كيفية تنوع أساليب التدريس لمواجهة استراتيجيات التعلم، والبند (22) التدريب على صياغة مؤشرات الكفاءة في شكل سلوك قابل للقياس في المرتبة الثالثة بمتوسط حسابي (1.44) وانحراف معياري (0.66)، و(0.57) على التوالي، بينما البند (20) التدريب على ربط وإدماج الكفاءات المكتسبة في مختلف المواد التعليمية جاء في المرتبة الرابعة بمتوسط حسابي (1.43) وانحراف معياري (0.60)، وجاء في المرتبة الخامسة البند (14) التدريب على صياغة الكفاءات المستهدفة بمتوسط حسابي (1.40) وانحراف معياري (0.62)، أما البند (19) التدريب على اختيار أساليب التقويم المناسبة لوضعيات التعلم فجاء في المرتبة السادسة من حيث درجة الحاجة إلى التدريب بمتوسط حسابي (1.39) وانحراف معياري (0.63)، واحتل البند (18) التدريب على اختيار الأنشطة التعليمية التي تتناسب مع كفاءة التلاميذ المرتبة السابعة بمتوسط حسابي (1.32) وانحراف معياري (0.74)، وجاء في المرتبة الثامنة البند (23) التدريب على اختيار

أنشطة الدعم وعلاج الثغرات بمتوسط حسابي (1.28) وانحراف معياري (0.75). أما البند (16) التدريب على كيفية اختيار الوسائل التعليمية وتوظيفها فقد جاء في المرتبة التاسعة بمتوسط حسابي (1.16) وانحراف معياري (0.79)، وجاء في المرتبة الأخيرة البند (21) التدريب على توزيع الوقت على مختلف مراحل انجاز التعلّيمات بمتوسط حسابي (1.10) وانحراف معياري (0.79).

ويتضح من الجدول (03) أن درجة الاحتياج إلى التدريب على البنود (13، 14، 15، 17، 19، 20، 22) حسب وجهة نظر أفراد عينة الدراسة كانت كبيرة، بينما باقي البنود (16، 18، 21، 23) كانت درجة الاحتياج إليها متوسطة، وهذا يعني أن معلمي المرحلة الابتدائية بحاجة إلى التدريب على جميع كفاءات محور الاحتياجات المتعلقة بتخطيط الدروس وفق المقاربة بالكفاءات، ويمكن تفسير هذه النتيجة إلى ضعف تكوين المعلمين، وأن غالبيتهم لم يتلقوا تكويناً يسهل لهم ممارسة عملية التخطيط وفق مقاربة التدريس بالكفاءات، وهذا ما أكدته دراسة عميار سعيد (2008) التي توصلت أن نسبة 100 % من المعلمين لم يتلقوا أي تكوين بالمقاربة بالكفاءات، وكان من بين التوصيات التي خلص إليها هو الحث على الرفع من مستوى تكوين المعلمين.

لأن التخطيط للدرس وفق المقاربة بالكفاءات يتطلب بالدرجة الأولى تحديد الكفاءات المراد إكسابها للتلاميذ، وصياغتها صياغة دقيقة، وهذا يصعب على المعلمين القيام به في ظل نقص تكوينهم، حيث أن معلم المرحلة الابتدائية غير قادر على تحديد الكفاءات المستهدفة التي يريد أن يصبوا إليها، بالإضافة إلى ذلك يصعب عليه أيضاً صياغة وضعية -مشكلة، وضعية إدماج، أو وضعية تقويمية من خلالها يستطيع التلميذ إدماج موارده وتوظيفها خلال انجاز نشاطه التعليمي، أو لتقويم مكتسباته. كما يجهل أيضاً الكفاءة المراد إكسابها له، حيث أكدت دراسة نورة بوعيشة (2009) التي توصلت إلى أن معلم المدرسة الأساسية مازال بعيداً عن التدريس بالكفاءات، وذلك ما أكدته النسبة المنخفضة لممارسة التخطيط القائم على مقاربة التدريس بالكفاءات حسب المفتشين، والتي لم تصل حتى إلى 50 %، كما تؤكد أيضاً دراسة فاطمة الزهراء بوكريمة أغلال (2006)، أن معلمي العلوم في المدرسة الجزائرية لازالوا لا يدركون الكفاءات المطلوب إكسابها للتلاميذ، فكيف يمكنهم التخطيط لها ؟ لذلك شعر معلم المرحلة الابتدائية بحاجته إلى التدريب على هذه الكفاءات.

المحور الثالث: محو الاحتياجات التدريبية المتعلقة بتنفيذ الدروس:وقد جاءت استجابات معلمي المرحلة الابتدائية على هذا المحور كما هو مبين بالجدول (04).

جدول رقم (04): المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والرتبة حسب تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية.

الرتبة	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	البنود	رقم البند
9	0.75	1.22	- التدريب على تهيئة البيئة الصفية المناسبة لعملية التعلم .	24
8	0.69	1.27	- التدريب على كيفية تقديم الوضعية- المشكلة في بداية الدرس.	25
1	0.66	1.46	- التدريب على استخدام أسلوب حل المشكلات لاكتساب الكفاءات.	26
8	0.69	1.27	- التدريب على استخدام أساليب استثارة دافعية المتعلم	27

			نحو الموقف التعليمي.	
28	- التدريب على استخدام تقنية التعلم التعاوني لتطوير كفاءات المتعلمين.	1.40	0.62	4
29	- التدريب على صياغة وضعيات مركبة تتوافق مع نوع الكفاءة المطلوبة.	1.40	0.62	4
30	- التدريب على استخدام التقويم التكويني للتحكم في مسار الفعل التعليمي اتجاه وضعية تعليمية معينة.	1.39	0.61	5
31	- التدريب على توزيع أنماط التفاعل الصفّي (اللفظي وغير اللفظي).	1.14	0.74	11
32	- التدريب على كيفية توجيه المتعلم وحل وضعية تعلم مركبة.	1.43	0.66	3
33	- التدريب على متابعة تنفيذ المشروع.	1.21	0.72	10
34	- التدريب على مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ.	1.28	0.78	7
35	- التدريب على استخدام أساليب الدعم والتعزيز لتعلم الأنشطة التعليمية.	1.31	0.74	6
36	- التدريب على كيفية التعامل مع المشكلات السلوكية والمعرفية للتلاميذ.	1.44	0.69	2
	الدرجة الكلية	1.33	0.69	

يتضح من الجدول رقم(04) أن المتوسطات الحسابية لتقديرات أفراد عينة الدراسة لاحتياجاتهم التدريبية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات تراوحت بين (1.46) و(1.14) من أصل (2).

كما يتضح من الجدول (04) أن نسبة (54%) من كفاءات المحور المذكور تقع في دائرة درجة الاحتياج الكبيرة لدى المعلمين، ونسبة(46%) من كفاءات محور تنفيذ الدروس تقع في دائرة الاحتياج المتوسط، هذا يدل على أن المعلمين بحاجة للتدريب على الكفاءات التي تتعلق بتنفيذ الدروس كلها. ويشير الترتيب التنازلي للكفاءات التي تحتاج إلى التدريب بغرض التنمية والتطوير إلى أن كفاءة استخدام أسلوب حل المشكلات لاكتساب الكفاءات كانت أكثر احتياجاً للتدريب بمتوسط حسابي(1.46) وانحراف معياري(0.66)، يليها التدريب على كيفية التعامل مع المشكلات السلوكية والمعرفية للتلاميذ بمتوسط حسابي(1.44) وانحراف معياري (0.69)، وجاء في المرتبة الثالثة البند(32) التدريب على كيفية توجيه المتعلم لمواجهة وحل وضعية تعلم مركبة بمتوسط حسابي(1.43) وانحراف معياري(0.66)، بينما احتل البند(28) التدريب على استخدام تقنية التعلم التعاوني لتطوير كفاءات المتعلمين والبند(29)التدريب على صياغة وضعيات مركبة تتوافق مع نوع الكفاءة المطلوبة المرتبة الرابعة بمتوسط حسابي (1.40) وانحراف معياري (0.62) أما البند (30) التدريب على استخدام التقويم التكويني للتحكم في مسار الفعل التعليمي اتجاه وضعية تعليمية معينة فقد جاء في المرتبة الخامسة بمتوسط حسابي(1.39) وانحراف معياري(0.61) بينما احتل البند (35) التدريب على استخدام أساليب الدعم

والتعزيز لتعلم الأنشطة التعليمية المرتبة السادسة بمتوسط حسابي (1.31) وانحراف معياري (0.74)، وجاء في المرتبة السابعة البند (34) التدريب على مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ بمتوسط حسابي (1.28) وانحراف معياري (0.78) يليها في المرتبة الثامنة البند (25) التدريب على كيفية تقديم الوضعية - المشكلة في بداية الدرس، والبند (27) التدريب على استخدام أساليب استثارة دافعية المتعلم نحو الموقف التعليمي بمتوسط حسابي (1.27) وانحراف معياري (0.69).

بينما احتل البند (24) التدريب على تهيئة البيئة الصفية المناسبة لعملية التعلم المرتبة التاسعة بمتوسط حسابي (1.22) وانحراف معياري (0.75)، وجاء في المرتبة العاشرة البند (33) التدريب على متابعة تنفيذ المشروع بمتوسط حسابي (1.21) وانحراف معياري (0.72)، أما المرتبة الأخيرة فعادت إلى البند (31) التدريب على تنويع أنماط التفاعل الصفّي (اللفظي و غير اللفظي) بمتوسط حسابي (1.14) وانحراف معياري (0.74).

وقد يكون مرّد ذلك عدم تلقي عينة الدراسة إل تدريب عملي ونوعي على هذه الكفاءات من جهة، وتقديرهم بأن هذه الكفاءات تشكل الأرضية الصلبة للارتقاء بمستوى التدريس بالمقاربة بالكفاءات في القرن الحادي والعشرين. من جهة ثانية، وهذا ما أكدت عليه دراسة الأخضر قويدري (2005)، ودراسة عميار سعيد (2008) أن غالبية المدرسين لم يتلقوا تكويناً كافياً للتدريس وفق بيداغوجيا التدريس بالكفاءات.

وتتفق هذه الدراسة مع دراسة نورة بوعيشة (2009) والتي توصلت إلى أن معلمي المرحلة الابتدائية لا يمارسون دائماً تنفيذ الدروس وفق مقاربة التدريس بالكفاءات، وأن الإعداد في مجال الكفاءات ينقص معلمي المرحلة الابتدائية وأن ممارسات المعلمين في تنفيذ الدروس لم ترق إلى مستوى الممارسات القائمة على التدريس بالكفاءات ولذلك شعروا بحاجتهم إلى التدريب على كفاءات محور تنفيذ الدروس المحددة في الاستبيان.

المحور الرابع: محور الاحتياجات التدريبية المتعلقة بالتقويم بالكفاءات: وجاءت نتائج استجابات معلمي المرحلة الابتدائية على بنود المحور الرابعة مبيّنة في الجدول رقم (05).

جدول رقم (05): يوضح المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والرتبة حسب تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لبنود محور التقويم بالكفاءات.

رقم البند	البند	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	الرتبة
37	- التدريب على بناء وضعيات التقويم .	1.48	0.60	3
38	- التدريب على تحديد واختيار معايير ومؤشرات التقويم.	1.49	0.56	2
39	- التدريب على استعمال مختلف أدوات التقويم.	1.43	0.61	5
40	- التدريب على كيفية بناء شبكات التقويم الفردية والجماعية.	1.47	0.60	4
41	- استغلال وضعيات الإدماج في الربط بين مكتسبات التلاميذ والتحقق منها.	1.50	0.67	1
42	- التدريب على كيفية شبكات التقويم (تصحيح الوضعيات التعليمية).	1.42	0.65	6

43	- التدريب على كيفية تحديد مؤشرات كل معيار من معايير شبكة التصحيح.	1.34	0.70	9
44	- التدريب على كيفية استعمال نتائج التقويم في اتخاذ القرارات المناسبة حول مسار العملية التعليمية.	1.40	0.72	7
45	- التدريب على استعمال وسائل التقويم المناسبة مع كل موقف تعليمي.	1.33	0.65	10
46	- التدريب على مهارة تقديم تغذية راجعة للمتعلمين .	1.31	0.65	11
47	- التدريب على توظيف التقويم التشخيصي لتوجيه التعلم.	1.35	0.70	8
48	- التدريب على كيفية بناء وإعداد سلاليم التقدير.	1.31	0.71	11
49	- التدريب على إعداد اختبارات التحصيل النهائية.	1.15	0.78	12
50	- التدريب على كيفية التعامل مع مستويات التحكم (تحكم أدنى، تحكم جزئي، تحكم أقصى، لا تحكم).	1.47	0.62	4
	الدرجة الكلية	1.39	0.66	

يتبين من الجدول رقم(05) أن المتوسطات الحسابية لتقديرات أفراد عينة الدراسة لاحتياجاتهم التدريبية للتقويم بالكفاءات قد تراوحت (1.50) و(1.15) من أصل (2).

كما يظهر من الجدول (05) أن الحاجة إلى التدريب على استغلال وضعيات الإدماج في الربط بين مكتسبات التلاميذ والتحقق منها كان ترتيبها الأول من حيث درجة الحاجة إلى التدريب عليها بمتوسط حسابي(1.50) وانحراف معياري(0.67)، يليها التدريب على تحديد واختيار معايير ومؤشرات التقويم في المرتبة الثانية بمتوسط حسابي(1.49) وانحراف معياري (0.56)، بينما احتل البند(37) التدريب على بناء وضعيات التقويم المرتبة الثالثة بمتوسط حسابي (1.48) وانحراف معياري (0.60)، وجاء في المرتبة الرابعة البند (40) التدريب على كيفية بناء شبكات التقويم الفردية والجماعية، والبند(50) التدريب على كيفية التعامل مع مستويات التحكم(تحكم أدنى، تحكم جزئي، تحكم أقصى، لا تحكم) بمتوسط حسابي (1.47) وانحراف معياري(0.62)، أما البند(39) التدريب على استعمال مختلف أدوات التقويم فجاء في المرتبة الخامسة بمتوسط حسابي(1.43) وانحراف معياري(0.61)، وجاء البند(42)التدريب على كيفية بناء شبكات تقويم(تصحيح الوضعيات التعليمية) في المرتبة السادسة بمتوسط حسابي(1.42) وانحراف معياري(0.65)، بينما البند (44) التدريب على كيفية استعمال نتائج التقويم في اتخاذ القرارات المناسبة حول مسار العملية التعليمية فاحتل المرتبة السابعة بمتوسط حسابي (1.40) وانحراف معياري (0.72)، واحتل البند(47) التدريب على توظيف التقويم التشخيصي لتوجيه التعلم المرتبة الثامنة بمتوسط حسابي(1.35) وانحراف معياري(0.70). وجاء البند(43) التدريب على كيفية تحديد مؤشرات كل معيار من معايير شبكة التصحيح في المرتبة التاسعة بمتوسط حسابي (1.34) وانحراف معياري(0.70)، أما البند(45) التدريب على استعمال وسائل التقويم المناسبة مع كل موقف تعليمي فاحتل المرتبة

العاشرة بمتوسط حسابي (1.33) وانحراف معياري (0.65)، وجاء في المرتبة الحادي عشرة البند (46) التدريب على مهارة تقديم تغذية راجعة للمتعلمين، والبند (48) التدريب على كيفية بناء وإعداد سلالمة التقدير بمتوسط حسابي (1.31) وانحراف معياري (0.71)، أما المرتبة الأخيرة فعادت إلى البند (49) التدريب على إعداد اختبارات التحصيل النهائية بمتوسط حسابي (1.15) وانحراف معياري (0.78).

ويتضح من الجدول (05) أن درجة الاحتياج إلى التدريب على كفاءات محور التقويم بالكفاءات كانت كبيرة لدى أفراد عينة الدراسة ونسبة (79%)، ونسبة (21%) من كفاءات هذا المحور تقع في درجة الاحتياج المتوسط، وهذا يعني أن معلمي المرحلة الابتدائية بحاجة إلى التدريب على الكفاءات المتعلقة بمحور التقويم بالكفاءات. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على غياب الثقافة التقييمية لدى معلمي المرحلة الابتدائية للتقويم بالكفاءات. وهذا ما أكدته دراسة نورة بوعيشة (2009)، إذ توصلت إلى أن معلمي المرحلة الابتدائية لازالت ممارساتهم في التقويم تقليدية، تعتمد على الاختبارات كوسيلة وحيدة للكشف عن مستوى التلاميذ وتعتبر الدرجات هي محك النجاح أو الفشل. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الممارسات التقييمية المعتمدة من طرف المعلمين لا تقيس إلا الجانب المعرفي للتلاميذ.

كما أن التقويم في المدرسة الجزائرية يركز على الحفظ والإستظهار، وحصر المعرفة في الجانب الذهني فقط، والتركيز على الاختبارات التحصيلية أثناء التقويم من طرف المعلمين، وأن ممارسات التقويم لدى معلم المرحلة الابتدائية لا ترقى إلى الممارسات القائمة على المقاربة بالكفاءات التي تهدف إلى تحسين وتعديل المسار التعليمي للتلميذ. وهذا ما أكدده فليب بيرنو "philippe pernaud" (1995)، حيث يعتبر التقويم مشكلة المشكلات في المقاربة بالكفاءات، لأن تقويم الكفاءات يتطلب معانيها ضمن وضعيات مركبة، وهو ما يفتح المجال في الاختلافات في الحكم. (فليب بيرنو. 2004، ص24)

8-2 عرض نتائج فرضيات الدراسة ومناقشتها:

تم وضع ثلاثة فرضيات للسؤال الرابع وفيما يلي عرض لنتائج هذه الفرضيات ومناقشتها.

1- عرض نتائج الفرضية الأولى ومناقشتها: والتي تنص على:

- لا توجد فروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة (المعارف والمفاهيم النظرية، تخطيط الدروس، تنفيذ الدروس، التقويم بالكفاءات) بحسب الجنس (ذكور، إناث).

ولا اختبار صحة الفرضية استخدم الباحث اختبار "ت" لعينتين مستقلتين وغير متساويتين في الحجم $n_1 \neq n_2$ ، حيث يبين الجدول (06) نتائج اختبار "ت".

جدول رقم (06) يبين نتائج اختبار "ت" لدلالة الفروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في كل محور من محاور الدراسة

لاحتياجاتهم التدريبية بحسب الجنس (ذكور، إناث)

الدلالة	الجنس	الجنس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	ت	قيمة "ت"	قيمة "ت"	الدلالة
	الذكور	الإناث	الحسابي	المعياري	الاحصائية	الجدولية	الاحصائية	الجدولية
الاحتياجات المتعلقة بمحور المعارف والمفاهيم النظرية.	16.06	17.38	5.04	4.84	1.96 -	1.52 -	1.96 -	1.52 -
	16.06	17.38	5.04	4.84	1.96 -	1.52 -	1.96 -	1.52 -

الاحتياجات المتعلقة بمحور تخطيط الدروس	ذكور	13.46	4.55	3.48 -	2.57 -	2.57- الفرق دال**
	إناث	16.20	4.36			
الاحتياجات المتعلقة بمحور تنفيذ الدروس	ذكور	15.73	5.89	2.98 -	2.57 -	2.57- الفرق دال
	إناث	18.70	5.33			
الاحتياجات المتعلقة بمحور التقويم بالكفاءات	ذكور	18.28	5.82	2.16 -	1.96 -	1.96- الفرق دال
	إناث	20.37	5.18			
الاستبيان ككل	ذكور	63.61	18.34	2.92 -	2.57 -	2.57- الفرق دال
	إناث	72.71	17.11			

* الفرق غير دال عند (0.05α) .

** الفرق دال عند (0.01α) ، (0.05α) .

يتضح من الجدول (06) أن الفروق بين تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لاحتياجاتهم التدريبية في محور (تخطيط الدروس، تنفيذ الدروس، التقويم بالكفاءات) والأداة ككل دالة عند مستوى الدلالة (0.05α) و (0.01α) ودرجة الحرية (128) ، والفرق غير دال عند مستوى الدلالة (0.05α) ودرجة الحرية (128) في محور (المعارف والمفاهيم النظرية). ويتضح كذلك من الجدول أن قيمة "ت" المحسوبة (-1.52) أكبر من قيمة "ت" (-1.96) المجدولة عند مستوى الدلالة (0.05α) ودرجة الحرية (ن=128) بالنسبة للمحور الأول، وهذا يعني أنه لا توجد فروق بين متوسطي درجات معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم للتدريب على المفاهيم النظرية للتدريس بالكفاءات حسب جنسهم (ذكور وإناث) على المحور الأول (الاحتياجات المتعلقة بالمعارف والمفاهيم النظرية). هذا يعني أن الجنس ليس له علاقة بالمعارف النظرية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، لأنهم يتلقون نفس التكوين الأكاديمي والبيداغوجي الذي يؤهلهم للتدريس. أما بالنسبة للمحاور الأخرى (تخطيط الدروس، تنفيذ الدروس، التقويم بالكفاءات) والاستبيان ككل، فوجدت قيمة "ت" المحسوبة أصغر من قيمة "ت" المجدولة عند مستوى الدلالة (0.01α) ودرجة الحرية (128)، وهذا يعني توجد فروق بين متوسطي درجات المعلمين والمعلمات للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات في هذه المحاور والاستبيان ككل ولصالح الإناث (المعلمات)، حيث أعطيت المحاور المذكورة أهمية كحاجات تدريبية ضرورية، وهذا يعني حاجة المعلمات إلى التدريب في هذه المحاور أكثر من المعلمين. وحسب رأي المعلمات تمثل الكفاءات المذكورة في الاستبيان من أهم الاحتياجات الضرورية للتدريب (التكوين) فيها، والتي من شأنها أن تنمي وتطور كفاءات ومهارات معلم المرحلة الابتدائية، ولأن أثر ذلك سينعكس على متعلميه الذين سيدرسهم هذا من جهة، وسيطور المنظومة التربوية من جهة أخرى. لذلك على المسؤولين والجهات المعنية الأخذ بهذه الاحتياجات (الكفاءات)، وإدخالها في بناء البرامج التدريبية لتطوير كفاءات المعلم الذي تم نسيانه باعتباره أحد الأطراف الفاعلة في تطوير المنظومة التربوية.

2- عرض نتائج الفرضية الثانية ومناقشتها:

تنص الفرضية على: عدم وجود فروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة (المعارف والمفاهيم النظرية، تخطيط الدروس، تنفيذ الدروس، التقويم بالكفاءات) بحسب المؤهل العلمي (جامعي، تكنولوجي، توظيف مباشر)، ولاختبار صحة هذه الفرضية تم استخدام تحليل التباين الأحادي

الاتجاه "Anova". والجدول رقم (07) يوضح نتائج تحليل التباين أحادي الاتجاه ANOVA لاختبار دلالة الفروق بين مستويات المؤهل العلمي في تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية للحاجات التدريبية في محاور الدراسة. جدول رقم (07): نتائج تحليل التباين الأحادي الاتجاه ANOVA لاختبار دلالة الفروق بين مستويات المؤهل العلمي في تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لاحتياجات التدريبية في محاور الدراسة والاستبيان ككل.

تقدير المعلمين على محاور		محاور	مصدر التباين	درجة الحرية	مجموع المربعات	متوسط المربعات	قيمة "ف" المحسوبة	قيمة "ف" الجدولة	الدلالة
الاحتياجات المتعلقة بمحور المعارف والمفاهيم النظرية.		محور	بين المجموعات داخل المجموعات	2 127 129	0.70 3219.48 3220.19	0.35 25.35	0.01	2.77	الفرق غير دال
الاحتياجات المتعلقة بمحور تخطيط الدروس		محور	بين المجموعات داخل المجموعات	2 127 129	18.79 2762.71 2781.50	9.39 21.75	0.43	2.77	الفرق غير دال
الاحتياجات المتعلقة بمحور تنفيذ الدروس		محور	بين المجموعات داخل المجموعات	2 127 129	133.59 4091.02 4224.62	66.79 32.21	2.07	2.77	الفرق غير دال
الاحتياجات المتعلقة بمحور التقويم بالكفاءات		محور	بين المجموعات داخل المجموعات	2 127 129	186 3916.37 4102.37	93 30.83	3.01	3.64	الفرق غير دال
الاستبيان ككل		محور	بين المجموعات داخل المجموعات	2 127 129	873.17 41877.29 42750.46	436.5 8 329.7 4	1.32	3.64	الفرق غير دال

يتضح من الجدول (07) أن قيمة "ف" المحسوبة في كل محاور الاستبيان و الاستبيان ككل أصغر من قيمة "ف" الجدولة عند مستوى الدلالة (0.05α) و (0.01α) ودرجات الحرية (2 . 127)، وعليه فإننا نقبل الفرضية الصفرية ونرفض الفرضية البديلة ومنه لا توجد فروق بين تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لاحتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة (المعارف والمفاهيم النظرية، تخطيط الدروس، تنفيذ الدروس، التقويم بالكفاءات) والاستبيان ككل للتدريس بالكفاءات حسب المؤهل العلمي (جامعي، خريج المعاهد التكنولوجية، توظيف مباشر)، وهذا يعني عدم وجود أثر لمتغير المؤهل العلمي في تقديرات المعلمين لحاجاتهم التدريبية في هذه

الدراسة . حيث كل أفراد عينة الدراسة بحاجة إلى التدريب على الكفاءات المحددة في الاستبيان سواء باختلاف مؤهلاتهم أو تكوينهم. وما توصلت إليه هذه الدراسة إلى عدم وجود فروق بين خريج الجامعة وخريج المعاهد التكنولوجية، والذين تم توظيفهم مباشرة، وهذا يرجع إلى عدم تلاقيهم تكويناً كافياً للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، وهذا ما أكدته دراسة عميار سعيد (2008) والتي توصلت إلى أن نسبة (100%) من أفراد العينة لم يتلقوا أي تكوين بالمقاربة بالكفاءات، وأن نسبة 100% تجدوا صعوبات في التقويم بالكفاءات .

ومن خلال ملاحظته في الدراسة الميدانية أن غالبية المعلمين سواء خريج الجامعة أو خريج المعاهد التكنولوجية والذي تم توظيفه مباشرة، لا يستطيعون تحديد الكفاءات المستهدفة وصياغة وضعية مشكلة لبناء تعلم، إدماج موارد، تقويم مكتسبات، بناء وضعية تقويمية، اختيار معايير مؤشرات التقويم، بناء وضعية إدماجية حيث أن هذه الكفاءات كانت درجة الاحتياج إليها كبيرة، وهذا ما أكدته دراسة فاطمة الزهراء بوكريمة أغلال (2006)، أن معلمي العلوم في المدرسة الجزائرية لازالوا لا يدركون الكفاءات المطلوب إكسابها للتلاميذ وأن معظمهم لم يكن متخصص في ميدان التدريس في المرحلة الابتدائية.

3- عرض نتائج الفرضية الثالثة ومناقشتها: تنص الفرضية الثالثة على:

- لا توجد فروق بين معلمي المرحلة الابتدائية في احتياجاتهم التدريبية في كل محور من محاور الدراسة (المعارف والمفاهيم النظرية، تخطيط الدروس، تنفيذ الدروس، التقويم بالكفاءات) بحسب الأقدمية في التدريس (أقل أو تساوي 23 سنة، أكثر من 23 سنة). لاختبار الفرضية استخدم الباحث اختبار "ت" لعينتين مستقلتين وغير متساويتين في الحجم $n_1 \neq n_2$. وجاءت النتائج كما هو موضح في الجدول (08)

جدول رقم (08): يوضح نتائج اختبار "ت" لدلالة الفروق بين معلمي المرحلة الابتدائية ذوي أقدمية (23 سنة فأقل)،

و(أكثر من 23 سنة) في محاور الدراسة والاستبيان ككل.

تقدير المعلمين على محاور الدراسة	الأقدمية في التدريس	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة "ت" المحسوبة	قيمة "ت" المجدولة	الدلالة
الاحتياجات المتعلقة بمحور المعارف والمفاهيم النظرية.	23 سنة فأقل 23 سنة فأكثر	17.50 16.32	4.92 4.96	1.32	2.57	الفرق غير دال
الاحتياجات المتعلقة بمحور تخطيط الدروس.	23 سنة فأقل 23 سنة فأكثر	15.94 14.31	4.31 4.75	1.96	2.57	الفرق غير دال
الاحتياجات المتعلقة بمحور تنفيذ الدروس.	23 سنة فأقل 23 سنة فأكثر	18.44 16.63	4.89 6.18	1.84	2.57	الفرق غير دال
الاحتياجات المتعلقة بمحور التقويم بالكفاءات	23 سنة فأقل 23 سنة فأكثر	20.66 18.71	5 5.90	2.01	2.57	الفرق غير دال
الاستبيان ككل.	23 سنة فأقل 23 سنة فأكثر	72.74 65.88	16.56 18.79	2.17	2.57	الفرق غير دال

* الفرق غير دال عند (0.01α) .

يتضح من الجدول (08) لا توجد فروق بين تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية ذوي الأقدمية (23 سنة فأقل) (وأكثر من 23 سنة) لاحتياجاتهم التدريبية في محاور الاستبيان الأربعة والاستبيان ككل. حيث أعطوا المحاور المذكورة في الاستبيان أهمية كحاجات تدريبية ضرورية.

ويلاحظ من خلال الجدول أن قيمة "ت" المحسوبة أصغر من قيمة "ت" الجدولة عند مستوى الدلالة (0.01α) ودرجات الحرية (ن=128)، لهذا فإننا نقبل الفرضية الصفرية، ومنه لا توجد فروق ذات دلالة بين تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية لاحتياجاتهم التدريبية في محاور الاستبيان والاستبيان ككل للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات حسب الأقدمية في التدريس (أقل أو تساوي 23 سنة)، أو (أكثر من 23 سنة).

ويمكن إرجاع ذلك إلى أن المعلمين سواء الذين لديهم أقدمية أقل أو تساوي 23 سنة، أو أكثر من 23 سنة لهم نفس النظرة في اعتبار تلك الكفاءات الواردة في الاستبيان من أهم الاحتياجات التدريبية التي يريدون التدريب فيها. ولكي يكون لعدد سنوات التدريس أثر في التدريس، وفي أداء المعلم ورفع كفاءته التدريسية، ينبغي تصويب خبرات المعلمين وتقويمها المستمر من قبل المفتشين والخبراء التربويين ذوي الكفاءة العالية، والعمل على تزويدهم بالخبرات التدريسية الجديدة اللازمة لتنمية كفاءاتهم المعرفية والأدائية، من خلال اطلاعهم على المستجدات الجديدة على الساحة التربوية بصفة عامة، وفي ميدان التدريس بصفة خاصة، ولا يكون ذلك إلا من خلال بناء برامج تدريبية خاصة بالمعلمين انطلاقاً من احتياجاتهم التدريبية، وبالرغم من تنظيم دورات تدريبية (تكوينية) لمعلم المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، إلا أنها غير كافية ولا ترقى إلى مستوى التدريس بالكفاءات. وهذا ما أكدته دراسة نورة بوعيشة (2008)، حيث توصلت إلى أن معلم المرحلة الابتدائية لا يمارس دائماً التدريس بالمقاربة بالكفاءات (التخطيط، التنفيذ، والتقييم)، ويمكن تفسير النتيجة المتوصل إليها وهي عدم وجود تأثير لعدد سنوات التدريس في أداء معلمي المرحلة الابتدائية. يمكن أن تعود إلى ضعف تكوينهم وإن أمكن أن نقول عدم تلقيهم تكويناً كافياً للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، كذلك إلى ضعف الاهتمام بالنمو الذاتي للمعلم، وقلة اهتمام المسؤولين التربويين على تطوير المعلم مهنيًا، وهذا ما لمسناه من خلال الدراسة الميدانية، حيث نجد حاجة المعلمين للتدرب على الكفاءات التي جاءت في الاستبيان. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن المحاضرات، الملتقيات، الترسّات، والندوات التي كانت تقدم لمعلمي المرحلة الابتدائية كانت بعيدة عن احتياجات المعلم، أو تدني دافعية المعلم للتدريس ورفضه للإصلاح، مما منع تحول عملية اكتساب المعلم للكفاءات التدريسية إلى ممارسة عملية.

9- استخلاص النتائج العامة للدراسة: يتضح من نتائج الدراسة الحالية ما يلي:

- الاحتياجات التدريبية الملحة بدرجة كبيرة من وجهة نظر المعلمين بلغت (31) حاجة تدريبية وهي تمثل (62%) تقريباً من الاحتياجات التدريبية موضوع الدراسة، والكفاءة الأكثر أهمية من وجهة نظر المعلمين "كفاءة التعرف على خصائص النموذج البنائي في عملية التعلم" والتي حصلت على نسبة (95.38%) من استجابات المعلمين.

- حظي المحور الأول (محور الاحتياجات التدريبية المتعلقة بالمعارف والمفاهيم النظرية) باهتمام بالغ من المعلمين، إذ كانت جميع كفاءاته محل اهتمام المعلمين كحاجات ضرورية لتدريب المعلمين، حيث جاء في المرتبة الأولى من حيث الترتيب بمتوسط حسابي (1.40) وانحراف معياري (0.68).

- تجمعت تقديرات معلمي المرحلة الابتدائية حول درجة الاحتياج التدريبي الكبيرة، إذ بلغ المتوسط العام للمعلمين (1.44).
- لا توجد فروق بين متوسطي درجات معلمي المرحلة الابتدائية على المحاور الأول الاحتياجات التدريبية المتعلقة بالمعارف والمفاهيم النظرية بحسب متغير الجنس (ذكور، إناث). وهذا يعني أن الجنس ليس له علاقة بالمعارف والمفاهيم النظرية المتعلقة بالتدريس بالكفاءات، لأن الذكور والإناث يتلقون نفس التكوين الأكاديمي والبيداغوجي.
- توجد فروق بين متوسطات درجات معلمي المرحلة الابتدائية تعزى إلى متغير الجنس لصالح الإناث في المحاور الآتية: الاحتياجات التدريبية المتعلقة بمحور تخطيط الدروس، تنفيذ الدروس، التقويم بالكفاءات، والاستبيان ككل. وهذا ما ظهر من خلال نتائج الفرضية الأولى.
- لا توجد فروق بين متوسطي درجات معلمي المرحلة الابتدائية على المحاور الأربعة للاستبيان، والاستبيان ككل تعزى إلى متغير المؤهل العلمي (خريج الجامعة، خريج المعاهد التكنولوجية، توظيف مباشر).
- لا توجد فروق بين متوسطي درجات معلمي المرحلة الابتدائية على المحاور الأربعة للاستبيان، والاستبيان ككل تعزى إلى متغير الأقدمية في التدريس (أقل أو تساوي 23 سنة، أكثر من 23 سنة).
- وفي ضوء نتائج الدراسة المتوصل إليها أوصى الباحث بضرورة الاهتمام بالبرامج التدريبية للمعلمين، باعتبارها عنصرا أساسيا في تنمية وتطوير قدراتهم المعرفية، وتحسين ممارساتهم التدريسية، وأن يتخذ المعنيون من الاحتياجات التدريبية التي تم التوصل إليها نقاط أو محاور مهمة في أي برنامج تدريبي لمعلمي المرحلة الابتدائية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات، وأن يركز المفتشون عند زيارتهم للمعلمين على جوانب الاحتياجات التي هم بحاجة إلى تنمية وتطوير كفاءاتهم المعرفية والتطبيقية فيها.

قائمة المراجع:

- 1- أديب حمادنة (2007)، الاحتياجات التدريبية اللازمة لمعلمي اللغة العربية في المرحلة الأساسية كما يقدرها المعلمون في مديريات التربية والتعليم لمحافظة المفرق، المجلة الأردنية للعلوم التربوية، المجلد الثالث، العدد الأول.
- 2- إكزافيروجيرس (2006)، المقاربة بالكفاءات في المدرسة الجزائرية، ترجمة أبو بكر بن بوزيد، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر.
- 3- اللقاني أحمد وعلي أحمد الجمل (1996)، معجم المصطلحات التربوية المعرفة في المناهج وطرق التدريس، ط1، عالم الكتب، القاهرة.
- 4- المجلس الأعلى للتربية (1998)، المبدأ العام للسياسة التربوية الجديدة في إصلاح التعليم الأساسي، الجزائر.
- 5- بن هوشيل لشعيل و عبد الله محمد خطايب (2002)، المهارات التدريسية لأعضاء هيئة التدريس لكلية التربية لجامعة السلطان قابوس وحاجتهم للتدريب عليها من وجهة نظر طلبة الدراسات العليا، مجلة العلوم الإنسانية، عدد 18، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر.
- 6- تيعشادين محمد (2009)، اتجاهات أساتذة التعليم المتوسط نحو أساليب التقويم في ظل المقاربة بالكفاءات، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم علم النفس وعلوم التربية، جامعة الجزائر.
- 7- جبرائيل بشارة (1986)، تكوين المعلم العربي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان.
- 8- حناش فضيلة (2007)، مدى وضوح المنظور البنائي في تقويم الكفاءات لدى مفتش التربية والتعليم الأساسي، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد (08) جامعة الجزائر.

- 9- ربحي مصطفى، عثمان محمد(2004)، أساليب البحث العلمي، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان.
- 10- فاروق البوهي، محمد البيومي(دس)، دراسات في إعداد المعلم، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر.
- 11- فليب بيرنو(2004)، بناء الكفايات إنطلاقاً من المدرسة، ترجمة لحسن بوتكلاي، ط1، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، المغرب.
- 12- غاوي جمال(2008)، تكوين المعلمين أثناء الخدمة عن طريق صيغة التكوين عن بعد، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر.
- 13- لبيب رشيد، جابر عبد الحميد (1983)، الأسس العامة للتدريس، دار النهضة العربية، بيروت.
- 14- محمد عليان عليما(1991)، الاتجاهات الحديثة في التعليم والتدريب والإدارة، ط1، دار الخوايا، عمان
- 15- نورة بوعيشة(2008)، الممارسة التدريسية في ضوء مقارنة التدريس بالكفاءات، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ورقلة.
- 16- Good, Carte, V. (1976), Dictionary of education, MC, Graw, HILL BOOK, New York
- 17- Roegiers, Xavier(2001), Une pédagogies de l'intégration (compétences et intégration des acquis dans l'enseignement), 2^{ème} éd deboeck université, Bruxelles.

ممارسة عملية المرافقة في الجامعة الجزائرية

د/ بن زيات إيمان- جامعة باتنة أ/ بوطبة نور الهدى- جامعة باتنة

ملخص

يصادف الطالب في انتقاله إلى الجامعة بيئة جديدة تختلف عن سابقتها في العديد من التفاصيل، لذا وجب على الجامعة توفير مرافقة الطالب قصد تعريفه بأهم القوانين التي تحكم حياته الجامعية وتذليل الصعاب التي تواجهه في سبيل تحسين أدائه وتجنب اخفاقه. وفي إطار إصلاح منظومة التعليم العالي وفق نظام ل.م.د تم اقتراح مشروع إنشاء نظام مرافقة في كل كلية/معهد، باشرت مختلف الجامعات العمل وفقه، رغم أنه لا يزال بحاجة إلى تفعيل نظير بعض الصعوبات التي يواجهها. الهدف من هذا العمل هو تسليط الضوء على أهم مرتكزات المرافقة، كيف يمكن تطبيقها بالصورة الملائمة في جامعاتنا، مهام المشرف، وكذا الأساليب التي يمكن أن يستخدمها بغرض إرشاد الطالب.

الكلمات المفتاحية: المرافقة، الإشراف، الجامعة الجزائرية، نظام ل.م.د.

Abstract

The student meets in moving to the university an environment different from its predecessor in many of the details. So the university must escort student and define them the most important laws that govern university life and overcome the difficulties in order to improve performance and avoid failure. In the context of the reform of higher education, a project to accompany students has been proposed in each College / Institute. Although, it still needs to match some of difficulties. The object of this paper is to highlight the most important pillars of supervision, how can it be applied appropriately in our universities, supervisor tasks, as well as the methods that can be used for the purpose of student guidance..

Keywords: accompaniment, supervision, Algerian university, LMD system

مقدمة

لقد شرعت الجزائر مطلع الدخول الجامعي 2004/2005 في تطبيق نظام تعليمي جديد يدعى ل.م.د (ليسانس، ماستر، دكتوراه)، والذي يعد من أحدث الأنظمة العالمية، إذ ظهر بالدول الأنجلوسكسونية ليعرف انتشارا واسعا بباقي دول العالم خاصة منها الأوربية والتي سعت إلى توحيد منظومة التعليم العالي بها من خلال تبني هذا النظام في إطار ما يسمى بـ "مسار بولونيا"، ليتم استقدامه من طرف الجامعات الجزائرية قصد مواكبة مختلف التطورات العالمية. ويلاحظ على هذا النظام تركيزه بصفة كبيرة على المجهود الفردي للطالب، إذ يخلق نوعا من الذاتية في بنائه لمساره التكويني، وبما أن الطالب في بداياته يجهل الكثير من التفاصيل عن الجامعة، كونه انتقل من بيئة تختلف نوعا ما عنها، وجب إرشاده وتوجيهه من طرف جهة مختصة والعمل على مساعدته لتخطي

مختلف الصعوبات التي قد تواجهه، وكذا اطلاعه على الفرص المهنية التي يمكن أن يلتحق بها مستقبلا. كل هذا يمكن أن يتم تنظيمه ضمن برنامج المرافقة المصاحب لهذا الإصلاح، والذي يقوم على إثراء الأستاذ وطلبة الدراسات العليا بمساعدة الطالب في مساره. لكن بما أن هذا المفهوم ما يزال يحتاج إلى دراسات توضيحية، ووضع خريطة طريق للعمل وفقه في ظل ما يواجهه من صعوبات، وعليه جاء هذا البحث للإجابة على نص الاشكالية التالية:

كيف يمكن تنظيم ممارسة عملية المرافقة بالجامعة الجزائرية؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب التعرّيج على هذه الأسئلة:

- ما هي أهم المفاهيم المتعلقة بالمرافقة؟
- هل تواجه هذه العملية صعوبات في التطبيق بالجامعة الجزائرية؟
- ما هي متطلبات بناء نظام مرافقة ناجح في الجامعة الجزائرية؟

أهمية البحث: نظرا لقلة الدراسات التي تناولت مفهوم المرافقة، وكذا غياب المخطط المناسب للقيام بهذه المهمة، تكمن أهمية هذا البحث في توضيحه لمرتكزات هذه العملية، وخطة العمل المناسبة لإنجاحها في الجامعة الجزائرية.

أهداف البحث: تكمن في:

- عرض أهم المفاهيم المتعلقة بالمرافقة من حيث: التعريف، الأهمية، ودور كل طرف فيها.
- رصد أهم الصعوبات التي واجهت تطبيقها في الجامعة الجزائرية.
- الخروج بمتطلبات بناء نظام مرافقة فعال.
- تحديد الخطوات التي يمكن للمرشد اتباعها قصد القيام بهذه المهمة.

المحور الأول: مفهوم المرافقة

1- تعريف المرافقة

يواجه الطلبة الجدد صعوبات كثيرة عند التحاقهم بالجامعة، إذ أن "الانتقال من مرحلة تعليمية تحكمها قواعد وقوانين ووتيرة معينة إلى مرحلة تعليمية أخرى تختلف جذريا عن الأولى، يسبب بلا شك نوعا من الارتباك والضغط لدى الطالب، ويكون دافعا إلى القلق والاضطراب"¹ والذي يعكسه²:

- استنزاف معتبر خلال السنتين الأولى والثانية من الدراسة.
- نسبة كبيرة من الاخفاقات في هذه السنوات.
- طلب عدد كبير من الطلبة تحويلهم فور بدء الدراسة لإدراكهم عدم تناسق شعب التوجيه مع خياراتهم الحقيقية ومهاراتهم.

وعليه سعت الكثير من الجامعات إلى محاولة إيجاد حلول تمكن الطلبة من التعرف على الحياة الجامعية أكثر لضمان التحصيل النوعي لاحقاً، إذ تم استحداث مهمة جديدة للجامعة ألا وهي المرافقة، حيث "يحق لكل طالب أن يحظى بالاستقبال، المتابعة والإعلام على مدى تكوينه الجامعي"³.

ويعد مصطلح المرافقة "مصطلح واسع يستخدم في المؤسسات الاقتصادية والمؤسسات الاجتماعية والقانونية، ومجالات أخرى كثيرة يترادف مع مصطلح الوصاية والإشراف، وهي ترجمة لمصطلح TUTORAT... وقد عُرِّفت الوصاية في المؤسسات الاقتصادية بمفهوم أوسع من المؤسسات التعليمية...إذ تتعلق بنقل المهنة والاندماج في الوسط المهني."⁴

أما في التعليم فقد ظهر مصطلح المرافقة بناءً على مبدأ التعليم التعاوني الذي يعود إلى "لانسستر Lancaster سنة 1801، وكان أساسه تبادل التعليم بين التلاميذ حيث الأكفأ بينهم يلعب دور المعلم للذي يكون أقل منه مستوى، ومع تطور البيداغوجية وظهور تطبيقات جديدة في التعليم والتكوين أصبح المعلم في المدرسة الفرنسية هو المرافق وليس التلميذ أو الطالب، وتم تعميم المرافقة في جميع الأطوار الأولى بالجامعات الفرنسية ابتداءً من الدخول الجامعي لسنة 1966.⁵ كما "تطور مفهوم المرافقة خلال التسعينيات من القرن الماضي في الدول الانجلوسكسونية، وطرح هذا المفهوم كأفضل موجه ضد الفشل الدراسي... وتطور المفهوم ليعني مساعدة الطالب، السير معه، الاتجاه نحو هدف محدد، وبذلك أصبح الشخص المسؤول عن هذه المهمة يحمل صفة المرافق، الدليل، الوصي، المرجع...الخ."⁶ وعليه فقد سعت الجامعة الجزائرية هي الأخرى إلى تطبيق هذا المفهوم على طلبتها بناءً على تبنيها لنظام لمد كإصلاح للتعليم العالي شرع في تطبيقه مطلع الدخول الجامعي 2005/2004. إذ يمكن تعريف المرافقة في التعليم على أنها:

"متابعة مؤطرة تساعد الطالب على تنظيم نفسه وعمله ووضع خطة بيداغوجية لتوجيه الطالب في اختيار تخصصه ومسلكه الدراسي وفقاً للإمكانيات والاستعدادات التي يملكها، ولها دور في مساعدة الطالب على مواجهة الصعوبات التي تعترضه."⁷ ويلاحظ أن هذا المفهوم يركز فقط على مساعدة الطالب على اختيار التخصص ومواجهة الصعوبات، مع إهمال باقي جوانب المرافقة.

وتعرف أيضاً على أنها عملية "التكفل المستمر والدائم بتسهيل الحصول على المعلومات والحلول المطلوبة في حينها التي تخص المحيط الجامعي من بداية التكوين إلى نهايته وتسهيل الاندماج في الحياة المهنية بعد حصول الطالب على الشهادة المرجوة"⁸. لكن هذا المفهوم ركز على كل من الجانب الاعلامي والمهني، واهمل باقي جوانب المرافقة.

ويعرفها مكتب التربية العربي لدول الخليج تحت مسمى الارشاد الأكاديمي على أنها: "الخدمات الإرشادية التي يقدمها الأستاذ الجامعي لطلابه، في اختيار نوع التخصص ومطلوبات التخرج، وتقديم المساعدة والنصح له، للتكيف مع البيئة الجامعية، والتغلب على الصعوبات التي تعترضه، وتوعيته بقدراته، وتمكينه من تحقيق ذاته، لاتخاذ القرارات المناسبة التي تتصل بحاجاته الدراسية والشخصية"⁹. وهنا نلاحظ بأن مصطلح الارشاد

الأكاديمي يتقاطع مع المرافقة في العديد من الجوانب عدى الجانب المهني، حيث يكون ارشاد مستقل عن الأكاديمي.

وتعرف حسب المرسوم التنفيذي رقم 09- 03 المؤرخ في 03 جانفي 2009 في الجريدة الرسمية الجزائرية بأنها: "مهمة متابعة ومرافقة دائمة للطالب بهدف تمكينه من الاندماج في الحياة الجامعية وتسهيل حصوله على المعلومات حول عالم الشغل"¹⁰. وتكون موجهة في الأساس لطلبة السنة الأولى حسب المادة (3) من نفس المرسوم، كونهم الأشد حاجة إليها، لكن هذا لا ينفي حاجة باقي المستويات إليها.

وعليه يمكن تعريف المرافقة في التعليم العالي على أنها: مهمة مساعدة الطالب على اكتشاف المحيط الجامعي، وارشاده لطرق تنظيم عمله الشخصي، اضافة لاكتساب منهجية العمل البحثي واستعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصال، مع تشجيعه نفسيا لتخطي العقبات التي قد تواجهه، وتعريفه بفرص العمل المتاحة في تخصصه، أو كيفية بناء مشروعه المهني، وهي مساندة يحتاج إليها كل الطلبة في مسارهم الدراسي.

2- أهمية المرافقة

تعتبر المرافقة "آلية فعالة لتحسين العرض التربوي والرفع من مستوى الطلبة وتيسير اندماجهم في الوسط الجامعي وتنمية قدراتهم الذاتية متوخيا تقليص نسبة التكرار والانقطاع المبكر عن الدراسة."¹¹ كما تكتسب المرافقة أهميتها من خلال¹²:

- تسهيل انتقال وعبور الطلاب الجدد من الثانوية إلى الجامعة.
- مساعدة الطالب على التوجيه وإعادة التوجيه متى دعت الضرورة.
- المساعدة على تنظيم العمل الشخصي.
- تحفيز الطالب على الانفتاح على المحيط الخارجي والعمل الجماعي.
- مساعدة الطالب على إعداد وبناء مشروعه المهني.
- تقليص نسبة الإخفاق والتسرب.¹³
- العمل على اكتشاف المواهب والقدرات الطلابية والاستفادة منها لتنمية مهارات الطالب وتدعيم ثقته بنفسه ومساعدته على التعرف على جوانب القوة والضعف في شخصيته.¹⁴

وعليه فعملية المرافقة أساسية لمساندة الطالب في مساره التعليمي وتذليل الصعوبات التي قد يواجهها مما ينعكس على نتائجه ويجنب الجامعة بصفة عامة العديد من المشاكل التي قد تترتب عن تعثره.

3- مبادئ المرافقة

- ان نجاح عملية المرافقة يتوقف على احترامها لمجموعة من المبادئ، ابرزها¹⁵:
- **الثقة والاحترام المتبادل**: ويقصد به ثقة الطالب بالمشرف واحترامه له من جهة وثقة المشرف بأن لهذه الآلية فائدة على الطالب وعلى التكوين في نفس الوقت، والاحترام له من حيث القدرات والإمكانات التي تنتظر أحسن الفرص لتتفتح وترتقي وتتطور.

- **التعاقد:** المرافقة التزام ووعد يقطعته المشرف على نفسه أولاً وعلى الطالب والمؤسسة وذلك باحترام مواعيد اللقاءات وجعلها ضمن أولويات الأستاذ وثانياً بأنه موجود لتقديم العون والتوجيه والإرشاد للوصول بالطالب إلى أكبر قدر ممكن من الاستقلالية وتنمية المبادرة والحد من الاحباطات التي تعتري الطالب في المواقف الضاغطة.
- **الواقعية والموضوعية:** ويعني هذا المبدأ ضرورة اعتماد النظرة الواقعية والموضوعية حيث ينظر إلى الصعوبة أو المشكلة برزاة للأحداث وبدون إهمال واقع الحياة الجامعية ومتطلباته وعدم التسرع في إصدار الأحكام والاستنتاجات قبل الحصول على كل المعطيات الشاملة المساعدة على مرافقة الطالب في وضع استراتيجيات مواجهة المتطلبات الجديدة للحياة الجامعية.
- **المرونة والديناميكية:** ونعني بها المرونة في العلاقة بين المشرف والطالب بالدرجة الأولى والمرونة في طرح الوسائل المعتمدة لتقديم الدعم بكل أشكاله للطالب لتنشيط لقاءات يستفيد منها الطالب ويرتاح فيها.
- **الاستشارة:** ويقصد هنا بأن اللقاءات والمواضيع ومحتوياتها تبرمج وتقدم بعد الاتفاق والتشاور مع الطالب، حيث تبرز من وراء هذا الاحتياجات الآنية والفعالية للطالب، حيث يعزز لدى الطالب الإحساس بأهميته لدى المشرف ومدى استعداده للتكفل الفعلي بمشكلاته.
- **الإصغاء:** وهي الاهتمام بكل الرسائل المرسله من الطالب بشكل لفظي أو غير لفظي ونرى في هذا المبدأ الفرصة لتحقيق الأهداف المتمثلة في تركيز كل الجهود حول الاحتياجات الإرشادية لطالب في المجال الإداري أو البيداغوجي أو المنهجي أو النفسي.

المحور الثاني: ميكائزات المرافقة

1. جوانب المرافقة

توجد سبعة جوانب أساسية تشملها المرافقة وهي: الجانب الإعلامي والإداري، الجانب البيداغوجي، الجانب المنهجي، الجانب التقني، الجانب النفسي، والجانب المهني (مذكورة في المادة (2) للمرسوم التنفيذي رقم 09-03 الموضوع لمهمة الإشراف في الجامعات الجزائرية)، إضافة إلى الجانب الأخلاقي:

أ. الجانب الإعلامي والإداري

- **الاستقبال:** يجد الطالب أستاذاً مشرفاً يكون دائماً معه يستمع إليه ويساعده على إيجاد الحلول للمشاكل التي يتعرض لها في الجامعة التي يكتشفها لأول مرة، يشرح المشرف: نظام التعليم، وحدات التعليم والمواد، الأرصدة والديون، التقدم، مسالك التكوين.

- **التوجيه:** هي أهم مرحلة للطالب الجديد المتحصل على شهادة البكالوريا، إذ يوصله إلى الجامعة من دون معرفة كافية بقواعد الحياة الجامعية، بالفضاءات البيداغوجية، بتنظيم التعليم والتكوين المتوفر، لذا ينبغي إرشاد وتوجيه الطالب في إندماجه في الحياة الجامعية.

- **الوساطة:** مساعدة الطالب للتقرب من الخدمات الجامعية المختلفة.

ب. **الجانب البيداغوجي:** ويتمثل في مساعدة الطالب في تنظيم أعماله الشخصية حيث يتعلم: تدوين الأفكار، مراجعة الدروس، إعداد الأعمال الموجهة والتطبيقية.¹⁶

ج. **الجانب المنهجي:** يتطلب تلقين الطالب لمناهج العمل الجامعي بصفة فردية أو جماعية تجعله يكتسب مهارات منهجية في أي عمل يقوم بإنجازه.

د. **الجانب التقني:** يتطلب توجيه الطالب إلى اكتساب قدرات وكفاءة في استعمال الأدوات والدعائم البيداغوجية ووسائل التكنولوجيا الحديثة كاستعمال الاعلام الآلي و Dataschow ، الأنترنت ومختلف البرامج: Word, Exel, Power Point...¹⁷

هـ. **الجانب النفسي:** يهدف إلى "تقديم المساعدة النفسية للطالب من خلال الرعاية النفسية المباشرة والتي تتركز على فهم شخصية الطالب وميوله واستعداداته"¹⁸.

و. **الجانب المهني:** ويأخذ شكل مساعدة الطلاب على إعداد مشروعاتهم المهني¹⁹ ، إذ على المرشد مشاركة الطالب في التفكير في الفرص الوظيفية المتوفرة لخريجي الكلية بالتنسيق مع الجهات ذات العلاقة ، وكذلك في تشجيع الطلبة المتفوقين على إكمال دراساتهم العليا.²⁰ فعند التحاق الطالب بالتكوين يكون لديه تصور لمشروع مهني غير مكتمل في البداية ، وعليه وجب مرافقته في هذا السياق وطوال مساره.²¹

ز. **الجانب الأخلاقي:** يهدف إلى تنمية القيم والمبادئ لدى الطلبة ، ويتولى المرشد هنا: ترسيخ أسس التعامل الأخلاقي لدى الطالب عند تعامله مع أستاذه من أعضاء هيئة التدريس أو مع زملائه أو مع أفراد المجتمع الخارجي ، والعمل على توظيف هذه القيم وترجمتها إلى ممارسات سلوكية تظهر في تصرفاته.²²

وتأخذ المرافقة في الجامعات الفرنسية صيغة التخصصية وفق الأشكال التالية:²³

- **مرافقة تكنولوجية:** تتمحور حول الاعلام الآلي والمكتبية.
- **مرافقة لغوية:** مبنية على اللغات والحوار.
- **مرافقة وثائقية:** تضم البحث الوثائقي ومعالجة المعلومات.
- **مرافقة منهجية:** مرتبطة بمنهجية العمل الجامعي ، المنهجية المفيدة والمساعدة على تخطي العقبات.

2. أساليب المرافقة

يمكن الاستعانة بالأساليب التالية لتحقيق جوانب المرافقة:²⁴

- اللقاءات المكتبية الفردية والجماعية في ساعات محددة سلفا كل أسبوع.
- المراسلات بين المشرفين والدارسين عبر الرسائل الهاتفية أو البريد الإلكتروني.
- أن يقوم الأستاذ بالخروج مع طلابه في رحلات علمية قصيرة.
- اللقاءات الأكاديمية المباشرة في شكل ندوات ومحاضرات وورش عمل.

3. مهام أطراف المرافقة

لكل طرف من اطراف المرافقة مهام معينة يتوجب عليه القيام بها قصد انجاح هذه العملية ، لعل أهمها يبرز في الآتي:

أ- **المرافق:** وتتلخص المهام التي يجب أن يقوم بها المرافق فيما يلي:

- تكوين ملف للطالب قصد متابعته، ويظم "تعليمات الإرشاد الأكاديمي وخطواته وتوقيته، إستمارة بيانات الطالب، البرنامج الدراسي، جدول التسجيل والدراسة، إستمارة ملاحظة سلوك الطالب أثناء الدراسة، الالتباسات/الجزاءات/المنح والمكافآت... السجل الدراسي للطالب"²⁵، كيفية الالتحاق بالمدن الجامعية.
- تسهيل توجيه الطالب خصوصا في بداية التحاقه، إذ يحتاج إلى مساعدة بشأن إعلامه بالمسارات الموجودة.
- ضمان توافق الطالب البيداغوجي مع مساره.²⁶
- تعريف الطلبة بالهيكل الإداري للكلية، لجان الكلية، أساليب التقييم ونظم الامتحانات.
- تعريف الطالب بمسؤولياته وواجباته داخل الحرم الجامعي والكلية وإعلامه بشكل مستمر بالتعليمات الجامعية الخاصة به.
- إعلام الطالب بالمواد الدراسية التي سيدرسها أثناء العام الدراسي ومتطلبات كل مادة وكيفية توزيع الدرجات على المواد.
- تعريف الطالب بمتطلبات سوق العمل.²⁷
- الامام بالموارد المتاحة بالكلية وإرشاد الطلاب لأفضل السبل للاستفادة منها.
- مراقبة معدلات الطلاب وإرشاد الطلاب ذوي المعدلات المنخفضة وتحفيزهم وتبنيهم للإجراءات المتبعة حيال ذلك.
- الكشف عن المهارات والمواهب الخاصة التي يتمتع بها الطلاب أملا في صقلها وتنميتها.²⁸
- وحسب المرسوم التنفيذي رقم 09-03 المؤرخ في 03 جانفي 2009، تنظم عملية اختيار المشرف وفق ما يلي:²⁹
 - ♦ يقترح فريق ميدان التكوين على رئيس القسم، قائمة المشرفين لإبداء الرأي فيها، ويعرض رئيس القسم القائمة على العميد أو مدير المعهد للموافقة عليها (المادة 05).
 - ♦ تضمن مهمة الاشراف في إطار التزام فردي بين المشرف ومسئول المؤسسة بحد أقصاه 9 أشهر في السنة، و4 ساعات في الأسبوع (المادة 06).
 - ♦ يخضع المشرف إلى تقييم دوري من فريق ميدان التكوين ورئيس القسم، ولهذا الغرض يلزم بتقديم تقرير عن نشاطاته كل 3 أشهر، ويراعى في تقييم نشاط المشرف تقدير مدى رضا الطلبة، ويترتب عن نتيجة التقييم تجديد الالتزام أو إلغاؤه (المادة 08).
 - ♦ يستفيد الأستاذ الباحث الذي يضمن فعليا مهمة الإشراف من مكافأة تحسب استنادا إلى السعر الساعي (المادة 10)، كما يستفيد المسجلون لنيل شهادة الماستر أو الدكتوراه، الذين يضمنون فعليا مهمة الإشراف من مكافأة تحسب على أساس الشهادة المحصل عليها (المادة 11).
- ويجب أن يخضع المرافقون في البداية إلى تكوين متخصص، فمثلا في الجامعات الفرنسية "يتم تكوين المرافق عن طريق متخصصين، تكون 30 ساعة من التبرص مخصصة للتكوين النظري: منها 15 ساعة للتكوين البيداغوجي المشترك بين جميع المرافق، و15 ساعة للتكوين الخاص للمرافق، أما التكوين الميداني فتخصص له 40 ساعة: حيث يوضع المرافق المتبرص تحت مسؤولية أستاذ خبير، ليصبح قادرا على مرافقة طلبة من الطور الأول بعد الساعة العاشرة من التبرص."³⁰
- ب- الطالب: يتوجب على الطالب ضرورة التفاعل مع برنامج المرافقة، وذلك وفق ما يلي:³¹

- قبل رؤية المرشد الأكاديمي: يجب على الطالب:
- تحديد الموعد مع المرشد الأكاديمي ويفضل أن تبدأ المقابلات قبل فصل دراسي وأن يجتهد في تحديد هذه المواعيد مبكرا.
- أن يكتب كل التساؤلات التي تشغله والخاصة بتوجهه الدراسي ويحضرها في المقابلة الأكاديمية.
- أن يراجع دليل الكلية الذي يشرح كل ما يحتاجه القسم والكلية والجامعة من متطلبات، ويضع علامة مميزة على أي بند يراه غير واضح ليسأل المرشد عنه.
- أن يعد ويحضر معلومات صحيحة وبيانات مرتبطة بما يحتاجه قبل اجتماعه مع المرشد الأكاديمي.
- أثناء مقابلة المرشد الأكاديمي: يجب على الطالب:
 - أن يعطي فكرة واضحة عن أهدافه الدراسية والمهنية ويشارك بشفافية وصراحة مرشده الأكاديمي فيها.
 - أن يعمل مع مرشده الأكاديمي لوضع برنامج دراسي تنفيذه لما يخطط أن يدرسه في الفصلين الدراسيين.
 - أن يطرح جميع الأسئلة التي تخطر بباله فالمرشد الأكاديمي يستطيع المساعدة عندما يكون لدى الطالب رؤية واضحة عما يريد.
- المتابعة: على الطالب:
 - التأكد من تنفيذ ما يوصي به المشرف الأكاديمي مرة كل أسبوعين أو ثلاثة حسب الإتفاق.
 - أن يتصل أو يرسل إلكترونيا لمرشده الأكاديمي أي أسئلة أو استفسارات إضافية.
 - أن يخبر مرشده بالتغيرات الهامة لبرنامج الدراسة الذي قد يؤثر على أدائه أو أهدافه الدراسية.
 - أن ينشأ الطالب لنفسه ملفا للإرشاد الأكاديمي يضع به نسخ من كل المستندات المرتبطة بحيث يجد لنفسه إجابة سريعة لتساؤلاته.
 - أن يتحمل مسؤولية تقدمه الدراسي حيث أن النصح والإرشاد أداة هامة للنجاح ولكن وقبل كل شيء فالطالب هو المسؤول الأول عن نجاحه.
- ج- الإدارة: للإدارة ممثلة في لجنة الإشراف* دور مهم في عملية المرافقة، يتلخص في:
 - تزويد المرشدين الأكاديميين بالمعلومات اللازمة التي تعينهم على أداء دورهم على أكمل وجه.
 - الإشراف على تطوير أداء المرشدين وتدريبهم المستمر.
 - تنظيم لقاءات دورية بين المرشدين لتبادل الخبرات.³²
 - الإشراف على دور المرشد في مراقبة سير أداء الطالب من خلال: متابعة تقدم الطالب واستكمال متطلبات التخرج، إعداد وتحديث ملف سجل الإرشاد الأكاديمي لكل طالب.
 - حث الطلبة على مراجعة مرشدهم، وطرح أسئلتهم ومشاكلهم عليه.

* : حسب القانون الجزائري تؤسس كل جامعة لجنة إشراف يرأسها مسؤول المؤسسة، وتعد اللجنة تقريرا سنويا تقويميا لعملية الإشراف وترفعه إلى وزير التعليم العالي، يتضمن تقييم الموارد المسخرة والنتائج المتحصل عليها، وتحدد تشكيلتها بناء على قرار من وزير التعليم العالي.

▪ توزيع طلبة الأقسام العلمية على المرشدين الأكاديميين من أعضاء هيئة التدريس وفق مجموعات الإرشاد وإعلان قائمة بأرقام وأسماء الطلبة المشمولين وقائمة بالمجموعات الإرشادية ووضع جدول زمني لمتابعتهم وإرشادهم.³³

▪ إعداد: دليل الإرشاد الأكاديمي (المرافقة)، دليل الطالب، نماذج البطاقات الإرشادية المختلفة، نماذج استمارات تقييم المرشدين الأكاديميين...

▪ ترشيح المرشد الأكاديمي المتميز بالكلية لجائزة أفضل مرشد.³⁴
وقد نصت المادة (7) من المرسوم التنفيذي 09-03 السابق الذكر على ضرورة توفير الإدارة للوسائل التالية قصد تسهيل عملية المرافقة:³⁵

- فضاء ملائم للاتصال بالطالب.
- النصوص التنظيمية التي تنظم السير البيداغوجي والإداري للمؤسسة.
- المعلومات المتعلقة بأشكال التكوين المقترحة من مؤسسات التكوين العالي الأخرى.
- كل معلومة مفيدة حول المحيط الاجتماعي-الاقتصادي لتوجيه الطالب في اختياره في مساره التكويني وفي مشروعه المهني.

المحور الثالث: ممارسة عملية المرافقة في الجامعات الجزائرية

باعتبار عملية المرافقة جديدة على الجامعة الجزائرية فقد واجهت مختلف الجامعات صعوبات كثيرة عند تطبيقها، إذ رغم أهمية هذه العملية (المرافقة) في فلسفة نظام ل.م.د إلا أنها تعرف ثغرات كبيرة نتيجة ضبابية المفهوم وعدم وضوح المهام الموكلة للأستاذ المرافق وشح مضامين برنامج المرافقة.³⁶ كما يلاحظ ميدانيا نفور الطلبة والأساتذة منها.³⁷ وهذا ما تعكسه الدراسات التالية:

1. بعض الدراسات لممارسة عملية المرافقة في الجامعات الجزائرية

أ. من خلال الدراسة التي قدمها كل من بودوح وقاضلي على عينة من طلبة كلية العلوم الاجتماعية والآداب بجامعة البليدة، اتضح أن: 87.9% من الطلبة لم يتلقوا متابعة ووصاية من طرف أستاذ وصي وهي نسبة تشكل أغلبية الطلبة رغم ما يكتسي هذا الجانب من أهمية بالغة في تكوين الطالب، مقابل 12.1% منهم تلقوا وصاية وهي نسبة ضعيفة جدا، وهذا ما يعكسه كون: 74.9% منهم لم يتلقوا أي معلومات عن سير نظام الجامعة بما في ذلك: حقوق وواجبات الطالب، المكافآت والعقوبات، طرق وقنوات التظلم والشكاوى، آليات التكوين وعمل اللجان البيداغوجية... الخ، كما صرح 63.6% منهم أنهم لم يتلقوا المعلومات والشروحات الكافية عن إجراءات التقويم والانتقال في نظام ل.م.د (الأرصدة، القروض، تغيير التخصص)، ونسبة 78.9% من الطلبة أكدوا أنهم لم يتلقوا أي استشارة بخصوص اختيار التخصص المناسب لهم ولمسارهم التكويني، كما أكد 84.6% أنه لم تقدم لهم أي إرشادات حول الشهادة عند التخرج (فرض العمل المتاحة)، هذا الانعدام الشبه كلي لدور الأستاذ الوصي يجعل هذا النظام لا يتوافق والطموحات المرجوة منه.³⁸

ب. وفي دراسة لأحمدي وصحراوي، عن المرافقة في جامعة الجزائر 2 من وجهة نظر الطلبة والأساتذة، تم التوصل إلى أن 89% من الطلبة غير راضين عن التخصص الدراسي الموجهين له، ونسبة 11% فقط راضين عنه، أما بالنسبة إلى إجابات الأساتذة حول فعالية نظام المرافقة من الناحية النظرية هي 63%، أما من الناحية التطبيقية

فبلغت 22%. وبالنسبة لإجابات الطلبة حول فعالية نظام المرافقة من ناحية توفر معلومات حول نظام ل.م.د هي 60%، أما إجابات الطلبة حول عدم فعالية نظام المرافقة من حيث توفر معلومات التخصصات الدراسية، وكيفية التقويم في نظام ل.م.د، وكذا معلومات في كيفية البحث الذاتي فكانت تتراوح بين 46% و93%، الأمر الذي يبين أن نظام المرافقة يشهد اختلالاً كبيراً في تجسيده على أرض الواقع الأمر الذي انعكس سلباً على بناء مسلك تكوين الطالب، وهذا يعود إلى أسباب عدة³⁹:

♦ عدم تكوين الأساتذة في كيفية تطبيق حصص المرافقة، حيث أكدت نتائج الدراسة على أن أغلب الأساتذة الذين يشرفون على تدريس حصص المرافقة لا يزودون بوثائق أو دليل لكيفية إجراء هذه الحصص أو حتى مضمونها والهدف من ورائها وأنهم يحددون مضمونها بناءً على اجتهاداتهم الخاصة مع غياب وجود التقويم من طرف المسؤولين على البيداغوجية على مدى صحة كيفية تسيير الحصص.

♦ غياب الطلبة عن حضور حصص المرافقة وذلك لعدم علمهم بوجود مثل هذه الحصص أصلاً وهذا لضعف إعلام الطلبة بضرورتها وكذا تحريضهم على حضورها.

♦ كما قد يعود عدم فعالية نظام المرافقة في بناء مسلك التكوين للطالب إلى عدم توفر الامكانيات المادية المساعدة على تجسيد هذا النظام وهذا ما عبر عنه أفراد العينة بعدم وجود الظروف المهيأة للاستفادة من وسائل التكنولوجيا الحديثة (الإنترنت) وكذا مخاطر البحث وهذا ما يعرقل عملية البحث الذاتي لديهم حسب تعبير أفراد العينة.

ج. وفي دراسة لكل من بعلي وبريشي حول المرافقة بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بورقلة تبين أن أكثر من نصف الطلبة المستجوبين 57.44% لم يكونوا يحضرون حصص المرافقة، ويمكن اعتبار هذا هدراً للطاقات المسخرة لمساعدة الطالب على التأقلم والتكيف مع محيطه لمحاربة الفشل، وقد برر الطلبة المتغيبين عن حصص المرافقة سلوكهم هذا بعدة أسباب أهمها: عدم ملائمة توقيت حصص المرافقة بـ51.85%، وغياب الأستاذ المرافق 40.74%، ولعل السبب الرئيسي يعود لاكتظاظ البرنامج الدراسي للطلبة وبالتالي استغلال الوقت المخصص للمرافقة لاسترجاع الأنفاس وخاصة أن أغلب حصص المرافقة تبرمج في الساعات الأخيرة من اليوم الدراسي مما يجد الطالب منهك القوى وبالتالي يفضل عدم حضور حصة المرافقة، إضافة إلى كون الأخيرة غير إجبارية... أما غياب الأستاذ المرافق فقد يعود إلى عدم تخصيص مكان مناسب له للمرافقة... كما أدرجت أسباب أخرى منها: غياب اسم الطالب في قائمة الأفواج، وكذا الجهل بأهداف المرافقة، وأنها غير قيّمة ومفيدة... كل هذه الأسباب يمكن تجاوزها إن كان الطالب يريد فعلاً أن يساعد نفسه⁴⁰.

د. وفي دراسة عاشوري عن المرافقة في الجذوع المشتركة وفق نظام ل.م.د بجامعة عنابة تبين أن نسبة 39.02% من الطلبة لا تعرف بنظام المرافقة البيداغوجية، كما أن الاطلاع على نظام المرافقة كان عن طريق الأساتذة بنسبة 64.45%، الأنترنت 35.26%، أما النسب الأخرى فكانت متقاربة بين الزملاء، الصدفة والجامعات الأخرى، كما أقر أفراد العينة أنه لم يتم تعريفهم بالنجاح وكيفية الانتقال بنسبة 65.03%، وكذا مفردات النظام (المعامل، الرصيد) بنسبة 70.53%، وأنهم لم يفهموا معنى وحدات التعليم بنسبة 95.37%، وأنهم لم يتلقوا شرحاً وافياً عن آليات المداولات والترتيب والتوجيه 80.05%، كما أكد 70.81% اهمال التكفل بالجانب النفسي للطلبة في المرافقة، أما الجانب المهني للمرافقة فقد أكد الطلبة بما نسبته 73.41% عن عدم تعريفهم بعروض

التكوين وعلاقتها بعالم الشغل، وأقر أفراد عينة البحث أنهم تم تعريفهم بالنظام وخاصة امكانية متابعة الدراسة وفق الماستر والدكتوراه ولكن عملية التعريف جاءت عامة ولم تتضمن مفاهيم أكثر عمق مثل الفرق بين ماستر وماجستير ودكتوراه ل.م.د. ودكتوراه النظام القديم⁴¹.

هـ. وفي دراسة لبلقاسم وأحميدة عن معوقات المرافقة من وجهة نظر أساتذة كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بجامعة ورقلة، تبين أن 60% من الأساتذة أكدوا عدم وجود فضاءات مخصصة لعملية المرافقة البيداغوجية، كما صرح 40% من الأساتذة بانعدام اقبال الطلبة على المرافقة بينما يرى 46.7% أنه إقبال ضعيف، كما صرح 66.7% من الأساتذة بعدم تنظيم أيام إعلامية ودراسية حول المرافقة، وقد أكد 53.3% عدم ملائمة القاعات المخصصة للمرافقة، كما أن 42.2% صرحوا بعدم مراعاة برنامج المشرف عند تحديد حصص المرافقة، أما بخصوص الامكانيات والوسائل المخصصة للمرافقة فقد أكد 44.4% من المستقيمين بمحدوديتها، كما صرحت نفس النسبة بصعوبة فهمهم للنصوص التنظيمية الخاصة بالمرافقة، كما صرح أكثر من نصف المستقيمين 57.8% بأن الحوافز المادية نظير المرافقة ضئيلة، ويرى 40% من أفراد العينة بأن الإدارة لا تدعمهم بتقديم التسهيلات الضرورية، وفي النهاية أكد 57.8% من الأساتذة أن الأعباء والمهام الموكلة إليهم كثيرة⁴².

و. وفي دراسة لكل من حليلو وعريف بنفس الكلية تم التوصل إلى أن هناك العديد من العقبات التي تعترض المرافقة البيداغوجية تنوعت بين الإدارية، التنظيمية، الإعلامية، وكذا غياب الوعي، هذا الأخير الذي تترجم في الغياب وعدم الالتزام بالحضور من طرف الطلبة، يضاف إليها نقص المستوى التكويني في هذا المجال من طرف الأساتذة المرافقين، وأيضا نقص الالتزام بوجه عام من قبل الأساتذة، وضعف التنسيق بين الجهاز الإداري والأساتذة من جهة والإدارة والطلبة من جهة أخرى، وكذا غياب وفي أحسن الأحوال محدودية الأماكن المخصصة لعملية المرافقة، هذه الأخيرة وإن توفرت فإنها لا توفر الظروف المناسبة للسير الحسن للعملية، عدم مراعاة الحجم الساعي للطلبة وهو ما تم التعبير عنه من طرفهم بكثافة البرامج في الجدع المشترك الذي لا يسمح بمتسع من الوقت يتسنى معه الاندماج في العمل المرافقاتي، كما خلصت الدراسة إلى أن المرافقة انحصرت بصفة كبيرة جدا في بعد واحد أو عتبة واحدة وهي البيداغوجية، فتحوّلت معها العملية برمتها إلى تلقين حول حساب الأرصدة والانتقال، مع أن فلسفتها الحقيقية أبعد من ذلك بكثير، فأكثر من ثلثي الأساتذة ركز على هذا البعد 65%، ونفس الشيء بالنسبة للطلبة الذين حذو حذوهم⁴³.

2. صعوبات ممارسة عملية المرافقة في الجامعات الجزائرية

يمكن تلخيص أهم الصعوبات التي يمكن أن تواجه المرافقة بالجامعة الجزائرية في النقاط التالية:

- نقص تكوين المرافقين، وعدم تزويدهم بمستلزمات المرافقة من: دليل المرافقة، مكان مناسب، وسائل تكنولوجية...
- نقص وعي الطلبة بأهمية المرافقة، وجهلهم بوجودها أحيانا.
- صعوبة فهم المرافقين للقوانين التنظيمية للمرافقة، بسبب ضبايبتها وعدم دقتها في الطرح.
- عدم إقبال الطلبة على الحضور، ونقص إلتزام المرافقين أحيانا.
- عدم تفعيل نظام تقييم أداء المرافقين، وضعف التنسيق بين الإدارة وبينهم.
- عدم ملائمة برمجة الحصص للطلبة، وحتى المرافقين أحيانا.

- اكتظاظ البرنامج الدراسي للطلبة وبالتالي إستغلال حصة المرافقة للراحة.
 - التركيز فقط على الجانب البيداغوجي للمرافقة مع إهمال باقي الجوانب رغم أهميتها.
 - عدم تنظيم أيام دراسية وإعلامية عن المرافقة، ونقص وعي الأسرة الجامعية بها.
 - قلة الحوافز المادية التي يتلقاها المرافقون، نظير الجهود الذي تتطلبه هذه المهمة.
 - كثرة الأعباء الموكلة للأستاذ، إذ لا يجد وقتا لممارسة هذه العملية، والتي تحتاج الى تفرغ كبير لنجاحها.
- وعليه يجب بناء خطة عمل تساهم في معالجة هذه العقبات وانجاح هذه العملية التي تعد احدى اهم ركائز إصلاح ل.م.د.

خاتمة

من خلال هذه الورقة تم توضيح أهمية المرافقة كعملية تُعنى برعاية الطالب خصوصا خلال المرحلة الأولى من دخوله للجامعة، والعمل على تذليل الصعاب التي قد يواجهها وكذا إحاطته بمختلف المعلومات سواء داخليا على مستوى الجامعة أو خارجيا على مستوى سوق العمل، وقد تم تحديد مختلف الأدوار المطلوب القيام بها من قبل كل طرف من إدارة، مرافق، وطالب، كما سلطت هذه الورقة الضوء على بعض المعوقات التي واجهت تطبيق هذه العملية، سواء من الناحية التنظيمية، إقبال الطلبة وتجاوبهم، اجتهاد المرافق وإلتزامه، وعلى ضوء ما سبق تم الخروج بتصور مقترح لتنظيم عملية المرافقة، يرتكز على مايلي:

- توعية جميع أفراد الأسرة الجامعية من طلبة، أساتذة، إداريين، بأهمية المرافقة وأهدافها بضمنان الفهم الجيد لها والإقبال عليها، وذلك عن طريق: الملتقيات، الأيام الدراسية، المنشورات...
- استحداث لجنة المرافقة على مستوى كل كلية/معهد، وتعيين أعضائها والمهام المنوطة بهم.
- تخصيص مقر مناسب لتسهيل عمل المرافقين، وتزويده بالتجهيزات المناسبة.
- توفير لجنة الاشراف لمختلف الوثائق الضرورية للمرافقة، خصوصا: دليل الطالب، النصوص التنظيمية للمرافقة، دليل الجامعة... إضافة إلى دليل المرافقة خاص بالمرافقين، وكذا دليل مصغر على شكل مطوية موجهة للطلبة قصد تعريفهم بعملية المرافقة وكيفية الاتصال بالمرافقين.
- برمجة دورة تكوينية للمرافقين قصد توضيح مرتكزات المرافقة (مفهومها، أهميتها، أهدافها، مهامهم، الوسائل المسخرة لها...) وكذا الاجابة على أهم استفساراتهم وانشغالاتهم.
- تحديد عدد الطلبة وتوزيعهم على المرافقين بمعدل 10- 20 طالب لكل مرافق.
- برمجة حصص المرافقة مع مراعاة البرنامج الدراسي لكل من المرافق والطالب، ومن المستحسن أن تبرمج في الساعات الصباحية (الحصة الثانية مثلا)، حتى نضمن إقبال الطلبة وتجاوبهم مع النشاط.
- الإعلان عن برنامج المرافقة وتوزيع الطلبة على المرافقين، والقاعة المخصصة لذلك.
- تقييم أداء المرافقين من خلال التقارير الصادرة عنهم وكذا تقييم الطلبة لهم.
- تنظيم اجتماعات دورية بين المرافقين برئاسة لجنة الإشراف، قصد تقييم العملية خصوصا في بداياتها، ومناقشة أنجع الأساليب قصد تعميمها.

- تثمين عملية المرافقة، ومنح المرافقين الحوافز المادية (مقابل جيد)، والمعنوية (تكريم أفضل مرافق) التي يستحقونها.

وعليه على الجامعة العمل على تفعيل هذه العملية من خلال السهر على الإيفاء بهذه المتطلباتها، ودعم هذه العملية ومتابعتها باستمرار.

الهوامش:

¹ زقاوة أحمد، بيداغوجية مرافقة الطالب في نظام ل.م.د، في: الملتقى الوطني الثاني حول إشكالية التقويم وأساليبه في منظومة التعليم الجامعي في ظل نظام ل.م.د، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 7- 8 ماي 2013، ص310.

² الإشراف، جامعة تبسة، أنظر: http://www.univ-tebessa.dz/ar/site_ar/، بتاريخ (3مارس 2013).

³ بودوح محمد وأحمد فاضلي، واقع التعليم العالي في ظل تطبيق نظام ل.م.د: دراسة وصفية لعينة من طلبة كلية العلوم الاجتماعية والآداب بجامعة البليدة، في: الملتقى الوطني الثاني حول إشكالية التقويم وأساليبه في منظومة التعليم الجامعي في ظل نظام ل.م.د، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 7- 8 ماي 2013، ص254.

⁴ الزهرة قريصات، الوصاية في الوسط الجامعي، في: الملتقى الوطني الثاني حول إشكالية التقويم وأساليبه في منظومة التعليم الجامعي في ظل نظام ل.م.د، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 7- 8 ماي 2013، ص273، 274.

⁵ زهية بعلي ومريامة بريشي، المرافقة البيداغوجية من وجهة نظر الطلبة والأساتذة: الواقع والتطلعات، في: الملتقى الوطني الثاني حول إشكالية التقويم وأساليبه في منظومة التعليم الجامعي في ظل نظام ل.م.د، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 7- 8 ماي 2013، ص287.

⁶ زقاوة أحمد، مرجع سابق، ص311.

⁷ بودوح محمد وأحمد فاضلي، مرجع سابق، ص254.

⁸ زقاوة أحمد، مرجع سابق، ص312.

⁹ آسيا عبد القادر محمد، الإرشاد الأكاديمي وعلاقته بالتوافق النفسي والتحصيل الدراسي لدى طلاب الجامعة السودانية، في: مجلة دراسات إفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، السودان، ع 45، 2011، ص116.

¹⁰ الجريدة الرسمية الجزائرية، المادة (2) من المرسوم التنفيذي رقم 09- 03 المؤرخ في 03 جانفي 2009.

¹¹ زهية بعلي ومريامة بريشي، مرجع سابق، ص285.

¹² زقاوة أحمد، مرجع سابق، ص312.

¹³ دليل الإشراف، التكوين المتواصل والشهادات، نيابة رئاسة الجامعة للتكوين العالي، جامعة 8 ماي 1945، قالمة، الجزائر، ص2.

¹⁴ أسامة حسن عبد المجيد وآخرون، دليل الإرشاد الأكاديمي، مشروع التطوير المستمر والتأهيل للاعتماد، وحدة ضمان الجودة، كلية الصيدلة، جامعة المنيا، مصر، 2010، ص1،2.

¹⁵ نادية بوضياف بن زعموش وحورية تارزولت عمروني، المرافقة البيداغوجية في نظام ل.م.د: خطوة نحو جودة التعليم العالي، في: الملتقى الوطني الثاني حول إشكالية التقويم وأساليبه في منظومة التعليم الجامعي في ظل نظام ل.م.د، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 7- 8 ماي 2013، ص461، 462.

¹⁶ الإشراف، جامعة تبسة، أنظر: http://www.univ-tebessa.dz/ar/site_ar/، بتاريخ (3مارس 2013).

¹⁷ زقاوة أحمد، مرجع سابق، ص313.

¹⁸ أسامة حسن عبد المجيد وآخرون، مرجع سابق، ص5.

¹⁹ الجريدة الرسمية الجزائرية، المادة (2) من المرسوم التنفيذي رقم 09- 03 المؤرخ في 03 جانفي 2009.

²⁰ دليل الإرشاد الأكاديمي، كلية النقل الدولي واللوجيستيات، الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيات والنقل البري، الاسكندرية، 2012- 2013، ص6.

²¹ Guide de formation du LMD, Association des universités Africaines, REESAO, Imprimé a Accra, Ghana, Septembre 2008, p70.

- ²² أسامة حسن عبد المجيد وآخرون، مرجع سابق، ص5.
- ²³ Jacqueline GUIBAL, Séminaire: La mise en place du LMD dans les universités Françaises, Amue: Agence de Mutualisation des Universités et Etablissements, Paris, 2 Juillet 2003, P34.
- ²⁴ آسيا عبد القادر محمد، مرجع سابق، ص130.
- ²⁵ لائحة الإرشاد الأكاديمي، قطاع شئون التعليم وضمنان الجودة، الأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا والنقل البحري، أنظر: eduaffairs.ast.edu
- ²⁶ Guide de formation du LMD, op-cit, p46.
- ²⁷ أسامة حسن عبد المجيد وآخرون، مرجع سابق، ص7، 8.
- ²⁸ دليل الإرشاد الأكاديمي، جامعة الملك سعود، مرجع سابق، ص1، 2.
- ²⁹ الجريدة الرسمية، المرسوم التنفيذي رقم 09- 03 المؤرخ في 03 جانفي 2009.
- ³⁰ Jacqueline GUIBAL, op-cit, P35.
- ³¹ دليل الإرشاد الأكاديمي، جامعة الدول العربية، مرجع سابق، ص8، 9.
- ³² دليل الإرشاد الأكاديمي، جامعة الدول العربية، مرجع سابق، ص5.
- ³³ دليل الإرشاد الأكاديمي، الدراسات العليا، كلية الفنون التطبيقية، جامعة حلوان، مصر، ص3.
- ³⁴ أسامة حسن عبد المجيد وآخرون، مرجع سابق، ص10.
- ³⁵ الجريدة الرسمية الجزائرية، المادة (7) من المرسوم التنفيذي رقم 09- 03 المؤرخ في 03 جانفي 2009.
- ³⁶ زقاوة أحمد، مرجع سابق، ص308.
- ³⁷ زهية بعلي ومريامة بريشي، مرجع سابق، ص286.
- ³⁸ بودوح محمد وأحمد فاضلي، مرجع سابق، ص255.
- ³⁹ أحمدي خولة وصحراوي نزيهة، فعالية نظام المرافقة في بناء مسلك التكوين المناسب كمؤشر على فعالية التقويم من خلال الرضا عن التخصص، في: الملتقى الوطني الثاني حول إشكالية التقويم وأساليبه في منظومة التعليم الجامعي في ظل نظام ل.م.د، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 7- 8 ماي 2013، ص169، 170.
- ⁴⁰ زهية بعلي ومريامة بريشي، مرجع سابق، ص293، 294.
- ⁴¹ عاشوري صونيا، واقع مرافقة الجذوح المشتركة وفق نظام ل.م.د: دراسة ميدانية بجامعة عنابة، في: الملتقى الوطني الثاني حول إشكالية التقويم وأساليبه في منظومة التعليم الجامعي في ظل نظام ل.م.د، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 7- 8 ماي 2013، ص323- 325.
- ⁴² دودو بلقاسم ونصير أحميدة، معوقات نجاح نظام المرافقة البيداغوجية من وجهة نظر الأساتذة: دراسة ميدانية لأساتذة كلية العلوم الانسانية والاجتماعية جامعة ورقلة، في: الملتقى الوطني الثاني حول إشكالية التقويم وأساليبه في منظومة التعليم الجامعي في ظل نظام ل.م.د، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 7- 8 ماي 2013، ص493- 501.
- ⁴³ حليلو نبيل وعريف عبد الرزاق، نظرة تقييمية لتجربة نظام المرافقة ففي نظام ل.م.د: دراسة ميدانية على عينة من الأساتذة والطلبة بجامعة ورقلة، في: الملتقى الوطني الثاني حول إشكالية التقويم وأساليبه في منظومة التعليم الجامعي في ظل نظام ل.م.د، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 7- 8 ماي 2013، ص532، 533.

تكوين المكونين ودوره في الكفاءة التدريسية لأسانذة المرحلة الثانوية

أ/شامي بن سادة، - جامعة تيارت

ملخص:

ارتبط مفهوم بيداغوجية المقاربة بالكفاءات في الوهلة الأولى بالتكوين المهني وعالم التشغيل . ومع التطور التكنولوجي والعلمي المتسارع اتسع هذا المفهوم ليشمل كافة التغيرات التي تحدث في عالم الموارد البشرية داخل المنظومة التربوية والتعليمية فأصبح وسيلة فعالة لتنظيم الممارسات التعليمية وإعداد المناهج والبرامج وطرق التقييم والتقويم.

والحقيقة ان مبررات هذه التقنية الكفائية التي اعتمدت في مجال المهن اسقطت على عالم المدرسة وعالم التدريس وخاصة أن بيداغوجية المقاربة بالأهداف أصبحت عاجزة الآن على حل العديد من الإشكاليات المستجدة في الحياة المدرسية .

فاذا كان المختصون في علم النفس والاجتماع والتربية يؤكدون على توفر سمات ومميزات خاصة لممارسي مختلف المهن . فان الامر يزداد اهمية في الوظائف التي تتعلق بتعليم وتربية الناشئة واعدادهم للتكيف والاندماج في الحياة المعاصرة ولما كان المعلم في النظام القديم هو محور العملية التعليمية التعلمية ، حيث تتوقف عليه نجاعة العوامل الاخرى من حيث الاستعمال الموضعي الصحيح كالمناهج والوسائل البيداغوجية و الجو الاجتماعي و النفسي السائد داخل المحيط المدرسي . فقد أولي عناية خاصة لمجال تكوينه واعادة رسكلة العنصر البشري ليواكب كل جديد في ميدان التربية والتعليم .

الا ان الثورة العلمية و التكنولوجية التي احدثت في القرن الحادي والعشرين اصبحت هذه النظرة القديمة لا تتناسب ومنطق العصر.

فأمسى لزاما على الدول والمجتمعات ان تتبنى انظمة تربوية تتطابق وعقلانية المرحلة التاريخية التي اصبح فيها المتعلم هو العمود الفقري في العملية التعليمية التعلمية وانحصر دور المعلم في التوجيه والارشاد والتعليم والتقويم وبالتالي أدخلت تقنية بيداغوجية الكفاءات في عملية الاصلاح التربوي الجارية في الجزائر .

وتاتي هذه الدراسة لتحديد الكفاءات التربوية لاسانذة التعليم الثانوي ليتم تكوينهم عليها اثناء الخدمة ضمانا للاداء الجيد في مهامهم ليتمكنوا من تحقيق الهدف التعليمي بشكل احسن واكثر نجاعة وفعالية واعداد الاطار الكفاء على اساس علمية ومنهجية سليمة ، ومن هذا المنطلق طرح الاشكال التالي :

1 - اشكالية الدراسة: اتضح جليا ان العالم المعاصر بكل تجلياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية خطط على اساس استشرافي استراتيجي يكون فيه عناصر المنافسة والجودة ومعياري النوعية

والفعالية التي جاءت على اثر الازمات المختلفة التي شهدتها مختلف الدول ابان القرنين التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

والعملية التربوية هي إحدى ركائز هذه الازمات واهمها ، ولذلك اصبحت المؤسسات التعليمية عبارة عن مؤسسة يسودها قانون الاقتصاد العالمي ، ومنظومة التكوين باعتبارها قاعدة نجاح اي اصلاح تربوي بحيث ترافقها وتدفعها الى السير قدما دون عقبات وتحقق لها التقدم و النجاح ولا يتأتى هذا الامر الا بتوافر جهود كل الاطراف المعنية بالعملية التربوية من وصايا وادارة واساتذة وتلاميذ وجمعيات اولياء التلاميذ والمحيط الاجتماعي .

ولذلك فان المنظومة التربوية بحاجة ماسة وضرورية الى تقنيات حديثة للتطور والتقدم من بينها اعادة النظر في تكوين فئة المكونين وخاصة أساتذة التعليم الثانوي لأنها أهم حلقة في الاصلاح التربوي بحيث ترتبط ارتباطا وثيقا بين قطاعين حساسين في المنظومة التكوينية ونقصد بها وزارة التعليم والتكوين المهنيين ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي لأن مخرجاتها تصب في هذين المنحيين . بالاضافة الى اندماج المدرسة الجزائرية في حركة الرقي العالمية وفي عالم يعرف تحولات سريعة وعميقة تمس خاصة التنظيم الاجتماعي وهياكله المعرفية ووسائل الاتصال وطرق العمل ووسائل الإنتاج وتقنياتها (1).

لهذا نجد ان الجزائر من بين الدول التي ادركت اهمية المنظومة التربوية في المجتمع ، فشرعت ومنذ حصولها على الاستقلال الوطني على تكوين المعلمين في كل اطوار التعليم تكوينا يتلائم ومرحلة السيورة التاريخية للمجتمع الجزائري حيث أنشأت لهذا الغرض عدة معاهد التي كان هدفها ضمان احسن تكوين معرفي وبيداغوجي ، وبالرغم من ذلك نجد ان المربين في الحقل التعليمي يشكون كثيرا من ضعف المنظومة التربوية رغم الاصلاحات المتعددة التي شهدتها القطاع منذ سنة 1962 . فهم يعتبرونها عاجزة عن تحقيق اهدافها رغم مخرجاتها الاجابية عبر الحكومات المتعاقبة .

ولما كان تاثير العملية التربوية على الناشئة من حيث تكوين شخصيتهم وتوجيه قيمهم ومثلهم وفق الثقافة الوطنية الجزائرية وثوابتها المعلنة في الدستور ، سارعت الجزائر الى الشروع في عملية الاصلاح التربوي منذ سنة 2003 وأولت عناية كبيرة لتكوين المكونين تكوينا شاملا ومتكاملا ، يكون فيه الاستاذ مطلعاً على الجوانب المعرفية منها والبيداغوجية ، لان التفاوضي على اي جانب منهما له الاثر السلبي في عملية التكوين.

وتفاديا لهذه السلبيات الملاحظة في عملية الاصلاح لابد من ضرورة الاستمرارية التحينية الثقافية التربوية لهذه الفئة بالتوازي ومزاولة مهنة التعليم مع ضرورة المتابعة البيداغوجية من طرف هيئة التفتيش التي تدعم عملية التكوين ميدانيا عن طريق الندوات والملتقيات المتخصصة في بيداغوجية المقاربة بالكفاءات الواجب توفرها في الاستاذ الكفاء او الفعال في تحقيق النواتج التعليمية .

2 - تساؤلات الدراسة : وبناء على ما ذكر سابقا نطرح التساؤل التالي :

❖ هل توجد علاقة ارتباطية بين تكوين الاساتذة اثناء الخدمة وكفاءات التدريس ؟

ليندرج تحت هذا التساؤل العام التساؤلات الثانوية أو الجزئية التالية :

- هل توجد علاقة ارتباطية بين محتوى البرامج التكوينية اثناء الخدمة والتحكم في الرسائل البيداغوجية من طرف الاستاذ ؟

- هل توجد علاقة ارتباطية بين الرسكلة اثناء الخدمة والتحكم في الوسائل البيداغوجية من طرف الاستاذ؟

- هل توجد علاقة ارتباطية بين التكوين اثناء الخدمة وبث جو تعاوني مدرسي فى القسم؟
وللكشف عن التساؤلات والاجابة عنها طرحت الدراسة الفرضيات الاتية.

3 - فرضيات الدراسة :

1 - الفرضية الاولى: توجد علاقة ارتباطية بين محتوى البرامج التكوينية وطريقة التدريس الجديدة .

2 - الفرضية الثانية : توجد علاقة ارتباطية بين الرسكلة اثناء الخدمة والتحكم فى الوسائل البيداغوجية من طرف الاستاذ .

3 - الفرضية الثالثة: توجد علاقة ارتباطية بين التكوين اثناء الخدمة وبث جو تعاوني مدرسي فى القسم .

4 - أهمية الدراسة : يمكن تحديد اهمية هذه الدراسة السوسيو تربوية فى النقاط التالي :

- ان اهتمام الوزارة الوصية باعادة تكوين اساتذة المرحلة الثانوية اثناء الخدمة مؤشر استراتيجي لواقع النظام التربوي الوطني وتلبية للنظرة الحديثة للمربي الذى يجب ان يواكب السيرورة العلمية والتكنولوجية المتزايدة فى العالم خاصة فى ميدان التربية والتعليم وفتيات البيداغوجيا .

- تزويد الطاقم التربوي للمؤسسات الثانوية بالتوثيق العلمى والتربوى المحين للسماح لهم من الاستفادة من المعرفة العلمية العالمية .

- المعرفة الميدانية لمدى توفر الكفاءات البيداغوجية لدى اساتذة التعليم الثانوى ومدى تباينها حسب المواد والتخصصات والتكوين الميداني الذى يتناسب والتأهيل التربوى مما يساعد القائمين على العملية التكوينية فى تحديد الاحتياجات الضرورية والهامة للاساتذة فى هذا المجال .

5 - أهداف الدراسة :- حصر اهم الكفاءات التربوية والمعرفية والبيداغوجية الضرورية التى يجب ان يمتلكها استاذ التعليم الثانوي فى العملية التعليمية التعلمية ليجعل منها ممارسة اكثر كفاءة وايجابية وفعالية .

- الاستقصاء والبحث عن العلاقة بين التكوين اثناء الخدمة والكفاءات التدريسية للاستاذ وهل تساهم فعلا فى تحسين مستواه الادائى فى التدريس .

6 - تعريف المفاهيم :

- مفهوم الكفاءة : ❖ لغة : يشير مصطلح كفاءة فى معاجم اللغة الى : " معاني القدرة والجودة والقيام بالامر وتحقيق المطلوب والقدرة عليه وفعلها كفى يكفي كفاية " (2) ، أي استغنى به عن غيره ويقال كفاه الشيء كفاية استغنى به عن غيره فهو كاف .

❖ إصطلاحا : فقد اشار جود الى الكفاءة بانها " القدرة على انجاز النتائج المرغوب فيها مع الاقتصاد فى الوقت والجهد والتفقات " (3)

ويرى بعض الباحثين في ميدان علوم التربية الى ان الكفاءة تعني: " القدرة على انتاج عملية مؤثرة وفعالة لتحقيق نتائج مرغوب فيها كما تقاس بالمقارنة الى التكلفة والوقت والطاقة والمال في مقابل كمية العمل المحقق " (4). بينما يرى فريق اخر منهم : " ان الكفاءة تتضمن في تحليلها النهائي بعدين هامين احدهما كمي احصائي وهو الذي يعبر عن النسبة بين المدخلات والمخرجات والآخر كيفي نوعي وهو ما يتصل بما تحتويه تلك النسبة من دلالات تحمل معاني الجودة والقدرة والاكتفاء " (5) ، وبالنظر الى التعريفات الآنفه الذكر نجد ان البعض منها يركز اساسا في الحصول على اكبر مردود من المخرجات باقل المدخلات ، ولذلك فالكفاءة تعني القدرة على تحقيق الغايات والوصول الى النتائج المرغوب فيها بأقل التكاليف الممكنة من وقت وجهد ومال ، كما تعني النسبة الاحصائية بين المخرجات إلى المدخلات.

"وكما ان الكفاءة هي مجموعة من الصفات او الامكانيات التي يطمح المربون والقائمون على الشأن التربوي ان تتوفر في المربي الكفؤ ، فهي قدرة مردها إلى إعداد واف من اجل القيام بمهنة احترافية ترتبط بشكل مباشر بمتطلبات المؤهل، ويمكن ملاحظتها وقياسها و تقييماها و تقويمها بيداغوجيا و تربويا ، فتجعله قادرا على نقلها الى التلاميذ ومحققا للاهداف التعليمية التعليمية التربوية على الوجه الافضل" (6) والتكوين القائم على الكفاءات اوسع واشمل من ذلك القائم على الاداء .

بحيث ان الأول يشمل "معارف المتكون واتجاهاته وسمات شخصيته، بالإضافة الى قدرته على اداء العمل نفسيا و جسديا ، فالأداء يشكل المظهر المنظور من الكفاءة " (7).

ومن اهم "الكفاءات التي يجب توفرها في الاستاذ المربي هي :

- 1- التمكن من المعلومات النظرية حول عملية التعلم .
- 2- الالام بفنون البيداغوجيا وتقنيات علوم التربية الحديثة .
- 3- الاطلاع على ميادين علم النفس و الاجتماع والتربية .
- 4- التمكن من المعارف العلمية الخاصة بمجال تخصصه.

ومن اهم المبادئ التي يقوم عليها التكوين اثناء الخدمة ما يلي :

- 1 - يمكن لأي متكون من اتقان مهام التدريس وذلك اذا ما وفر له الوقت الكافي للتعلم و نوعية التكوين الجيد .
- 2- يجب ارجاع الفروق الفردية في مستوى اتقان الطلاب المتكونين مهام التدريس الى اخطاء في نظام التكوين لا الى خصائص المتكونين .
- 3- ان توفير امكانيات مناسبة للمتكونين يجعل منهم متشابهين الى حد بعيد في معدلات التعلم.
- 4- يجب التركيز على الاختلافات في عملية التعلم اكثر من التركيز على الاختلافات في المتعلمين .
- 5- ان اكثر العناصر اهمية في عملية التدريس هي نوعية خبرات التعلم التي تتوافر للاستاذ المتكون(8) .

ابعاد الكفاءات التي ينبغي ان تتوافر في الاستاذ الماهر:

وضع كل من ريتشارد دين وتدارج في تسعة أبعاد تعبر عن الكفاءات التي ينبغي توافرها لدى الاستاذ الماهر وتتمثل فيما يلي :

❖ البعد الاول : " اخلاقيات يلتزم بها لمعلم : يولي اهتمامه بالتلاميذ ، يتفهم الفروق الفردية بينهم ، يشجع الاحترام المتبادل بين التلاميذ ، محادثتهم ، يشجع التقويم الذاتي وتوجيه المهارات وتقليص التحيز لادنى درجة مع الحد من

كراهية التلاميذ لبعضهم البعض ، يشجع النشاطات التعاونية وحث التلاميذ على المشاركة بآرائهم لعلمهم السلطة و المسؤولية ، التعامل مع التلاميذ باعتبارهم مشاركين في صياغة اهداف المنهج.

❖ البعد الثاني: التعليم المباشر : ان يقوم المعلم بجذب اهتمامات تلاميذه ويتعامل مع المواد التعليمية بتتابع ملائم وصولا للايضاح والوصف مع استخدام الوسائل البصرية المناسبة لجذب الانتباه و اثارة الاسئلة الحماسية مع اختيار الامثلة المناسبة لتوضيح الشرح بايجاز وكفاءة يختار المفاهيم المتصلة بالمادة الدراسية وباهتمامات التلاميذ في آن واحد .

❖ البعد الثالث : ادارة المواد : وتتمثل فيما يلي :

- أ- ان يكون المعلم لديه القدرة على انتقاء المادة المناسبة للتعامل معها .
- ب- التأكد من وجود المواد اللازمة وكيفية الاستخدام الأمثل لمشاركة التلاميذ .
- ج- ان يشجع التلاميذ في اختيار المواد و تنظيمها و ادارتها .
- د- ان يجرب المواد المبتكرة بغية تطويرها .

هـ- ان يصمم المواد الجديدة و ينتجها و يستخدمها بفعالية .

❖ البعد الرابع : الممارسة الموجهة : وتتمثل فيما يلي:

- أ - توزيع المادة المتاحة وفحص استجابات التلاميذ .
- ب- التعامل مع المادة واتاحة وقت معين للاستجابة مع التلاميذ خلال فترة العمل .
- ج- تقييم نتائجهم وتحديد مدى دقتها و صحتها .
- د - إثارة الاسئلة لتقييم مدى فعالية النشاط .
- هـ- تجهيز برنامج للممارسة الموجهة .
- و- تشجيع برامج النشاطات الخاصة و تعميمها على التلاميذ .
- ي- تشجيع التقويم الذاتي من خلال الممارسة لبناء المهارات و تعزيزها .

❖ البعد الخامس : المحادثة البناءة : وتتمثل فيما يلي :

- أ - الاستماع الجيد لما يقوله التلاميذ و تأييد استجاباتهم .
- ب- يستخلص الاستنتاجات منهم و يدفعهم الى الاستجابة و يذلل الصعوبات .
- ج- يركز على جذب انتباههم ويمدهم بالافكار التي تثير الجدل .
- د- اتباع التدريس المخطط القائم على المحادثة و الاستفسارات .

❖ البعد السادس : التوجيه والذي يتمثل فيما يلي :

- أ - ملاحظة عمل التلاميذ و التدخل لمراعاة تحركات النشاط .
- ب- يراعي النظام ويقدم التغذية الراجعة ويوجه تحركات تيار العمل .
- ج- التأكد من وجود المصادر .

ح- التأكد من الانتقاءات بكفاءة وتحديد الوقت المناسب .

هـ- اكتشاف مدى فهم الطلاب لمجموعات العمل ومحاولة استجابات التلاميذ .

و- استخدام الارشاد لمعرفة الصعوبات الاحتمالية التي تواجه التلاميذ .

❖ البعد السابع : ادارة التنظيم وتتمثل فيما يلي :

- أ- وضع اجراءات للنشاط المنظم .
 - ب- وضع اطار للعمل مستخدما الاجراءات والقواعد .
 - ج- التعرض لمشاكل النظام من خلال التدريس الواضح .
 - ❖ البعد الثامن : التخطيط والإعداد وتتمثل فيما يلي :
 - أ- تخطيط مناشط محددة تشتمل على تنمية المهارات و العمليات العقلية مثل الاستقصاء، التخيل الربط ، الاقتراض، التنظير .
 - ب- تخطيط لحسن استغلال الوقت .
 - ج- تخطيط برامج قصيرة المدى للنشاطات المدرسية .
 - ❖ البعد التاسع : التقويم المكتوب .
- يقوم عمل التلاميذ على نشاطات تقوم كتابيا ، بحيث يستطيع الرجوع اليها وقت الحاجة فيعطي لنا وصفا للاداء الخاص بفئة التلاميذ وردود لفعالهم وتقديم تحليل مبرهن عليه وذلك طبقا للمهارات والاتجاهات مع مراعاة الفروق الفردية في عملية التقييم والتقويم المرتبط بالمنهج و التخطيط " (9).
- إجرائيا : الكفاءة هي الكفاءة في التدريس التي تمثل المعارف والمهارات والخبرات الميدانية التي تنعكس ايجابا على سلوك الاستاذ المتكون فتظهر في انماط وتصرفات مهنية من خلال المهام التي يمارسها ومدى تفاعله مع جميع عناصر الموقف التربوي.
 - **التكوين : لغة :** مصدر كون ... هو إخراج الشيء من العدم الى الوجود ...أي اعطاء الشيء شكلا وهو مرادف لكلمة تدريب. **إصطلاحا :**مجموع العمليات والاجراءات العملية والبيداغوجية التي يخضع لها الاستاذ طيلة حياته المهنية من أجل اكسابه مجموعة من المعارف العلمية والسلوكات الاجتماعية التي تساعده على أداء عمله لتحقيق أهدافه وغايات المؤسسة التربوية .
 - إجرائيا :** هو نوع من الرسكلة تقوم به الوصاية منذ ترسيم الاستاذ والى غاية تقاعده ، بهدف تجديد خبرته وتزويده بكل جديد ذو علاقة بعالم التربية والتعليم والبيداغوجيا أو بميدان المعارف العلمية المختلفة المتصلة باختصاصه ليكون مطلعا وقادرا على تقديم دروسه بمهارة واتقان وفعالية .
- 1 - الاطار النظري :** يعرف عبد القادر يوسف التكوين اثناء الخدمة في المجال التعليمي"على انه كل نشاط تعليمي منظم ويقصد به زيادة كفاءة رجال التعليم اثناء عملهم اي بعد تخرجهم وانشغالهم بالمهنة " (10).
- يعني بان التكوين اثناء الخدمة في المجال التربوي والتعليمي يهدف الى زيادة كفاءة رجال التربية والتعليم وتزويدهم بكل ما هو جديد وآن والذي يخدمهم في مجال عملهم ولأهمية هذا التكوين المساهم في اصلاح التربوي اصبح له "وظائف عديدة نذكر منها :
- متابعة التطور التكنولوجي والذي هو اساس التطور الاجتماعي .
 - الانتقال من التكوين قبل الخدمة الى مرحلة الخدمة .
 - تطوير المحتوى والمهارات الخاصة .
 - النمو الشخصي والذاتي .

- استمرارية التربية على المستوى العالي .

- التنمية المهنية العامة .

- التقويم في الوظيفة . " (11)

2 - منهجية الدراسة :

1- المنهج : تم انتهاج المنهج الوصفي التحليلي في هذه الدراسة الخاصة بتكوين المكونين اثناء الخدمة في ضوء بيداغوجية الكفاءات لاساتذة التعليم الثانوي ، بحيث تم وصف وتحليل هذا التكوين المصاحب للاصلاح التربوي بالجزائر و الغرض هو محاولة كشف علاقة الكفاءة التعليمية لاساتذ التعليم الثانوي ، " حيث أن المنهج الوصفي التحليلي هو المنهج الذي يقدم لنا فرصة اكبر لتحليل المدلول الذي يضيفه الفرد على موقف سلوكي ما . إذ أن الدراسة الوصفية تعتمد على التحديد الدقيق للحالة الحاضرة . " (12) وقد استعان الباحث بهذا المنهج العلمي بغية التركيز على الوصف الدقيق للظاهرة وتحليلها وايجاد مختلف العلاقات التي تربط بين جانبيها ومن ثمة الوصول الى الاجابة على التساؤلات المطروحة في الدراسة ثم استخلاص النتائج العلمية .

2 - عينة الدراسة : قدر عدد الاساتذة بـ 960 استاذًا تلقوا تكوينًا اثناء الخدمة ويمارسون مهامهم التعليمية في الطور الثانوي بمؤسسات التعليم الثانوي بولاية المدية مراعين كافة التخصصات العلمية و الادبية والاجتماعية للتعليم الثانوي والتوزيع الجغرافي بين المناطق الحضرية والشبه حضرية والريفية حيث تم إختيار عينة البحث بطريقة عشوائية بنسبة 10 ٪ من مجموع أفراد العينة الممثلة بـ 96 أستاذًا من مجموع 960 أستاذ .

3 - أدوات جمع البيانات : لإجراء هذه الدراسة قام الباحث ببناء استبيان والذي يعتبر في مثل هذه الدراسات أكثر ملائمة لطبيعتها حيث يرى عبد الرحمان عدس : " الى ان البيانات الوصفية غالبا ما يتم جمعها من خلال الاستبيانات والملاحظات واساليب المشاهدة " (13).

4- تفسير وتحليل النتائج :

الجدول رقم 1 : مساهمة تكوين المكونين اثناء الخدمة في :

الرقم	العبارات	نعم	%	أحيانا	%	لا	%
01	التمكن من مضامين البرامج وادراك العلاقة بين اجزاء البرامج	78	81.25	18	18.75	0	/
02	انتهاج الطرق الحديثة في التعليم	60	62.50	29	30.20	7	7.29
03	اتباع التخطيط المنهجي للدروس	67	67.70	26	27.08	5	5.20
04	التمكن من الشرح الجيد للدروس	85	88.54	7	07.29	4	4.16
05	توجيه اسئلة هادفة مرتبطة لموضوع الدرس	77	80.20	17	17.70	2	2.08
06	تقديم الاجابات المناسبة للتلاميذ	76	79.16	14	14.58	6	6.25
07	امتلاك مدة القيادة والتوجيه للقسم	75	78.12	13	13.54	8	8.33
08	استخدام اساليب التقويم متنوعة لتحصيل	72	75	15	15.62	9	9.37

						التلاميذ	
09	ربط اسئلة التقويم باهداف الدرس	82	85.41	14	14.58	0	/
10	استعمال وسائل تعليمية مناسبة لموضوع الدرس	37	38.54	39	39.58	21	21.78
11	مسايرة التغيرات التي تحدث على الواقع الاجتماعي الجزائري	43	44.79	32	33.33	21	21.78
12	متابعة التطور العلمي الخاص بمادة التدريس	28	29.16	40	41.66	28	29.16
13	التحكم الجيد في القسم	73	76.04	19	19.79	4	4.16
14	انتقاء الانشطة البيداغوجية المناسبة للتلاميذ	65	67.70	20	20.83	11	11.45
15	تنفيذ خطة الدرس وفق بيداغوجية الكفاءات	74	77.08	15	15.62	7	7.29
16	ثقيهم انعكاس المؤثرات الاجتماعية على التلاميذ ومحاولة ارشادهم وتوجيههم	44	45.83	44	45.83	8	8.33
17	استخدام تكنولوجيا الاعلام والاتصال	6	6.25	10	10.41	80	83.33
18	اشاعة الجو التعاوني داخل القسم	65	67.70	26	27.08	5	5.20
19	اشاعة جوالنظام التربوي داخل الصف	67	69.79	18	18.75	11	11.45
20	تنظيم المادة العلمية المدرسية	64	66.66	22	22.91	10	10.41
21	اتصاف الاستاذ بالحيوية في القسم	75	78.12	14	14.58	7	7.29
22	اهتمام الاستاذ بادرارة الوقت	54	56.25	30	31.25	12	12.5
23	اكتساب مرونة تعاملية لحل مشكلات التلاميذ	47	48.95	35	36.45	14	14.58
24	توجيه التلاميذ الى تنظيم المعلومات وفق طبيعة المادة	72	75	22	22.91	2	2.08
25	متابعة التلاميذ باستمرار	50	52.08	29	30.20	17	17.70

يوضح الجدول رقم (01) إجابات المبحوثين حول تكوين المكونين اثناء الخدمة .

عرض ومناقشة نتائج الفرضة الاولى : ❖ الفرضية الاولى : توجد علاقة ارتباطية بين محتوى البرامج التكوينية وطريقة التدريس الجديدة .

العبارة الاولى : توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين في تمكين الاستاذ من فهم مضامين البرامج التكوينية في كل المستويات وادراك العلاقة بين اجزاء البرامج حيث ان نسبة 81.25 ٪ منهم اكدوا ذلك وقد ورد ما يفيد هذا في سجل مجالس التعليم لثانوية فخار عبد الكريم بالمدينة من خلال المداولات التي تجري في كل مادة ، أما نسبة 18.75

% ترى ان الامر نسبي فهذا راجع لكثافة البرامج التكوينية المسطرة للاستاذ التي لا تتناسب والحجم الساعي المخصص لذلك .

العبارة الثانية: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين اثناء الخدمة في تمكين الاساتذة من انتهاز الطرق الحديثة للتدريس وفق بيداغوجية الكفاءات حيث كانت نسبة 62.50% من الذين إختاروا الاجابة نعم ونسبة 30.20 % من الذين إختاروا الاجابة أحيانا و 7.29 % من الذين إختاروا الاجابة لا.

العبارة الثالثة: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين اثناء الخدمة من تمكين الاستاذ من اتباع التخطيط المنهجي لبناء الدروس حيث كانت نسبة 67.70 % من الذين إختاروا الاجابة نعم ونسبة 27.08 % إختاروا احيانا ، اما نسبة 5.20% إختاروا لا .

ومنه نستخلص ان هناك علاقة وطيدة بين التكوين و التحضير الجيد للدرس وفق اسس علمية منهجية وفي هذا العدد يقول بوترف في هذا الشأن: " التكوين عبارة عن عملية تعديل ايجابي ذي اتجاهات خاصة تتناول سلوك الفرد من الناحية المهنية او الوظيفية وهدف اكتساب المعارف والخبرات التي يحتاج اليها الفرد من اجل رفع مستوى كفاءته بحيث تحقق فيه الشروط المطلوبة لاتقان العمل " (14).

العبارة الرابعة: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين في تمكين الاستاذ من التوضيح الجيد والمطلوب للدرس فهناك نسبة 88.54 % منهم ترى ان الأمر ايجابي ، أما إختيار احيانا فكانت نسبته 7.29 % وإختيار لا نسبته 4.16 % .

العبارة الخامسة: توضح اجابات الاساتذة حول مساهمة هذا التكوين في تمكينهم من توجيه اسئلة ذات أهداف مرتبطة لموضوع الدرس وقد إتضحت في نسبة 80.20 % منهم يوجهون اسئلة للتلاميذ خلال الحصة المقررة وان نسبة 17.70 % كانت احيانا ، 2.08 % تمثل لا

العبارة السادسة: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين من تمكين الاستاذ المدرس من تقديم الاجابات المناسبة للتلاميذ وجاءت النسب على النحو التالي 79.16 % بنعم ، 14.58 احيانا ، 6.25 % لا وقد بينت المداولات التي قيدت بسجل مجالس التعليم لنفس الثانوية المذكورة آنفا على ان كل الاساتذة مطالبون بتحضير الدرس تحضيرا جيدا وعدم الاكتفاء بالكتاب المدرسي ليتمكن كل واحد منهم من التحكم الامثل في تسيير الدرس المبرمج .

العبارة السابعة: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين من تمكين استاذ الثانوية من امتلاك ميزات القيادة داخل القسم التربوي حيث كانت نسبة 78.12% نعم ونسبة 13.54 % إختاروا احيانا اما نسبة لا فقدت ب 8.33 % وهذه النسبة الاحصائية الدالة دعمت فكرة عبد الغني عبود: " ان المعلم بطبعه قيادة فكرية فهو يحكم عمله ومهنته وتخصصه واتصالاته وعلاقاته قائدا بالطبيعة ... لان رسالته لا تقف عند حد المعلم وتعليمه وانما تتعداها الى غيرها كالقيادة" (15)

العبارة الثامنة: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة هذا التكوين من تمكين الاستاذ من استخدام اساليب متعددة لتقييم وتقويم تحصيل التلاميذ وقد اوضحت لنا نسبة 75 % بنعم 15.62 % احيانا 9.37 % لا ومنه نستخلص ان الاستاذ قد تمكن من تطبيق تقنيات التقويم التربوي الحديثة المبرمجة في المناهج الجديدة للإصلاح التربوي .

العبارة التاسعة: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين اثناء الخدمة في تمكين الاستاذ من تحديد مواطن الضعف والقوة لدى التلاميذ ومعالجة السلبي منها اثناء التقويم التكويني المرحلي فكانت نسبة 85.41 % إختاروا نعم ونسبة 14.58 % أحيانا وانعدمت النسبة بالنسبة للذين إختاروا الاجابة لا في هذه العبارة .

العبارة العاشرة: توضح اجابات المبحوثين من الاساتذة حول مساهمة التكوين من تمكينهم من استعمال وسائل تعليمية ايضاحية جديدة تتناسب وتقنيات بيداغوجية الكفاءات فكانت نسبة 38.54 % بنعم ونسبة 39.58 % احيانا ونسبة 21.87 % ب لا ومنه نستخلص ان هذه النسب متقاربة الى حد بعيد ، حيث ان استعمال الوسائل التكنولوجية في البيداغوجيا نسبي ومتفاوت بين الاساتذة وهذا يدل على ان البعض غير متمكن من هذه التقنيات الاتصالية الحديثة .
عرض ومناقشة نتائج الفرضية الثانية :

❖ توجد علاقة إرتباطية بين الرسكلة أثناء الخدمة والتحكم في الوسائل البيداغوجية الحديثة من طرف الأستاذ
العبارة الحادية عشر: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين اثناء الخدمة من تمكين الأستاذ الثانوي من مسايرة التغيرات التي تطرأ على الواقع الاجتماعي الجزائري فكانت نسبة 44.79 % إختاروا نعم و 33.33 % احيانا و 21.87 % منهم ب لا ومنه نرى ان تقارب هذه النسب احصائيا يدل ان هذه الفئة اصبحت لا تهتم بما يحدث داخل الحركية الاجتماعية للمجتمع الجزائري نظرا للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها وما الاضرابات المتكررة لقطاع التربية الا خير دليل على ذلك مما يعود سلبا على العملية التعليمية داخل المؤسسة التربوية .

العبارة الثانية عشر: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة هذا التكوين من تمكين الاساتذ من متابعة التطور العلمي والتكنولوجي المتعلق بالاختصاص الذي يقوم بتدريسه وهذا طبقا للمرسوم 2000 - 36 المؤرخ في 07- فيفري سنة 2000 والذي ينص في مادته الخامسة "لمستخدمي التربية ومن بينهم المعلمين على تجديد معلوماتهم قصد تحسين معارفهم الاكاديمية وكفاءتهم المهنية وتعميقها..." (6) .

ولكن بعد القراءة السوسيولوجية لنسب الاجوبة الواردة على التوالي، 29.16 % بنعم 41.66 % احيانا 29.16 % بلا نستنتج ان عددا كبيرا منهم لا تساير المستجدات والتطورات التي تحدث في العالم والخاصة بميدان تخصصه لعدم امتلاكهم لوسائل الاتصال كالانترنيت والتوثيق الاعلامي كالمجلات والدوريات والكتب الحديثة في المؤسسات التربوية الثانوية.

العبارة الثالثة عشر: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين من تمكين الاساتذ في التحكم الجيد في القسم والكفاءة اللازمة لتوجيه روح المناقشة داخل القسم فكانت نسبة 76.04 % بنعم 19.79 % باحيانا 16 % ب لا ، حيث يمكن تفسير ذلك بما قاله فلاندرز في فكرته القائلة "... عن التفاعل اللفظي وغير اللفظي الذي يتلخص في بعض الكفاءات التي يقوم بها المدرس في اشاعة الحماسة للدرس المقرر وجلب الانتباه للمتعلم..." (7).

العبارة الرابعة عشر: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين اثناء الخدمة من تمكين المدرس من انتقاء الانشطة البيداغوجية والتربوية المناسبة للتلاميذ فكانت نسبة 67.70 % بنعم 20.83 % باحيانا 11.45 % ب لا ومنه نرى ان القراءة السوسيوتربوية لاجابات نعم تدل على ان الاساتذة ملتزمين بما جاء في تعليمات سجل مجالس التعليم التنسيقية لنفس الثانوية السالفة الذكر " ان كل الاساتذة مطالبين بالمساهمة الايجابية وفق قدراتهم في مختلف النوادي الثقافية والانشطة العلمية والخرجات الميدانية من اجل تنشيطها والمساهمة في انخراط التلاميذ ضمن فروع الاندية المختلفة..." (18). وفي هذا الاطار يرى نادر فهمي الزيود " المعلم يساهم في انتقاء الانشطة المناسبة التي تمكن التلاميذ من ترجمة المعلومات المعرفية النظرية الى سلوك ومهارات واقعية..." (19).

العبارة الخامسة عشر: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة هذا النمط التكويني من تمكين الاستاذ من تنفيذ الخطوات الاساسية للدرس وفق منهجية بيداغوجية الكفاءات فكانت نسبة 77.08 % بنعم و 15.62 % احيانا و 7.29 % ب لا وسبب ذلك راجع الى ان بعض الفئات من الاساتذة ما زالت متشبثة بتقنية بيداغوجية الاهداف وهذا الافتراض لوحظ من خلال الاقتراحات المسجلة في مختلف سجلات المجالس التي تعقد بالثانوية.

العبارة السادسة عشر: توضح اجابات الاساتذة المبحوثين حول مساهمة التكوين في تمكينهم من تفهم انعكاس المؤثرات الاجتماعية على التلاميذ ومحاولة توجيههم وارشادهم حتى يتكيفوا مع الحالات المختلفة والجو الدراسي فكانت نسبة 45.83 % بنعم و 45.83 % باحيانا و 8.33 % ب لا .

العبارة السابعة عشر: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين اثناء الخدمة من تمكين الاستاذ من استخدام تقنيات تكنولوجيا الاتصال والاعلام فكانت نسبة 6.25 % بنعم

و 10.41 % احيانا ونسبة 83.33 % ب لا وهذا بالرغم من تعميم هذه الوسائل البيداغوجية على مستوى الثانويات وبالرغم من التكوين السريع الذي انتهجه مديريات التربية عبر الوطن لتكوين الاساتذة في الإعلام الآلي حسبما يبينه مخطط التكوين بولاية المدية عبر مؤسسات التعليم بمختلف المراحل وفتح مراكز على مستوى كل مؤسسة لتدريس هذه التقنية التكنولوجية المتمثلة في الإعلام الآلي واستخدام شبكة الانترنت .

وحسب الملاحظات الميدانية والمقابلات الفردية والجماعية فان هذا التكوين احيانا يكون اثناء ساعات فراغ الاستاذ . كما نجد بعض أساتذة المواد الأدبية والاجتماعية لا تعطي اهتماما لهذا التكوين مقارنة بالمواد العلمية والتكنولوجية.

❖ عرض ومناقشة نتائج الفرضية الثالثة:

الفرضية الثالثة : توجد علاقة ارتباطية بين التكوين اثناء الخدمة وبث جو تعاوني مدرسي في القسم.

العبارة الثامنة عشر: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة التكوين من تمكينهم من بث وارساء جو تعاوني مدرسي تربوي داخل القسم فجاءت نسبة 67.20 % بنعم و 27.08 % احيانا و 5.20 % ب لا وهذا يبين ان هذا التكوين كان على العموم ايجابيا على السلوكات الشخصية والتنظيمية للاستاذ بحيث يتحول القسم التربوي الى مجتمع عائلي مصغر تسود فيه صور التكافل والتضامن الاجتماعيين.

العبارة التاسعة عشر: توضح اجابات الاساتذة المبحوثين حول مساهمة التكوين من تمكين الاساتذة من اشاعة جو النظام التربوي داخل حجرة الدراسة فكانت نسبة 69.79 % بنعم و 18.75 % احيانا و 11.45 % ب لا وما يدعم نسبة نعم هوان النظام داخل القسم من السلوكات الاتصالية للاستاذ وفي هذا الاطار يشير محمد عبد الرحيم عدس الى : "...لكي يسلك المعلم سلوكا تنظيميا يجب عليه ادارة صف دراسي يسوده الانضباط والمحافظة على النظام ثم مراقبة حضور الطلاب وغيابهم وكذلك توجيههم وارشادهم حيث ان الضبط يعد من اهم الشروط الاساسية التي يجب توفرها داخل القسم لانه لا يتم التعليم الفعال في جو الفوضى وعدم الانضباط الصفي". (20).

العبارة العشرون: توضح اجابات المبحوثين مدى مساهمة التكوين اثناء الخدمة في تنظيم المادة العلمية من طرف الاستاذ المعني حيث كانت نسبة 66.66 % بنعم و 22.91 % احيانا و 10.41 % ب لا وهذا ما يؤكد ان لهذا التكوين اثر على الاستاذ ويتجلى ذلك في اتباعه لمنهجية اعداد الدرس وفق خطوات اساسية وتنظيم المعلومات العلمية المعرفية بناء على بيداغوجية الكفاءات.

العبارة الواحد والعشرين: توضح اجابات المبحوثين المعنيين حول مساهمة هذا النمط من التكوين في بعث صفة الحيوية لدى الاستاذ اثناء حصة التدريس بحيث جاءت النسب على التوالي 78.12 % بنعم و 14.58 % باحيانا و 7.29 % ب لا.

العبارة الثانية والعشرين: توضح اجابات الاساتذة حول مساهمة التكوين اثناء الخدمة في تمكينهم من ادارة الوقت وادراك مفهومه وقيمه التعليمية حيث كانت نسبة 56.25 % بنعم 31.25 % احيانا 12.50 % ب لا

العبارة الثالثة والعشرين: توضح اجابات المبحوثين حول مساهمة هذا التكوين في اكتساب الاستاذ مرونة تعاملية مع التلاميذ وحل مشكلاتهم التي تؤثر سلبا على تدرسهم حسب الاستطاعة فكانت نسبة 48.95 % بنعم 36.45 % احيانا 14.58 % ب لا.

العبارة الرابعة والعشرين: توضح اجابات المبحوثين ان مساهمة التكوين في اكتسابهم مهارات توجيهية في تنظيم المعلومات العلمية والمعرفية الخاصة بالمادة المدرسة بما يتلاءم وطبيعتها فكانت النسب على التوالي 75 % بنعم 22.91 % احيانا 2.08 % ب لا.

العبارة الخامسة والعشرين: توضح اجابات الاساتذة مدى مساهمة التكوين اثناء الخدمة من تمكينهم من متابعة مستمرة لنشاطات التلاميذ داخل القسم فجاءت النسب على النحو التالي 52.08 % بنعم 30.20 % احيانا 17.70 % ب لا.

ملخص نتائج الفرضية الاولى:

توجد علاقة ارتباطية بين محتوى البرامج التكوينية اثناء الخدمة وطرق التدريس الحديثة وفق بيداغوجية الكفاءات فقد كانت نسب إختيار الاجابة نعم تتراوح ما بين 57.60%- 88.54% وقد اكدت النصوص التشريعية المدرسية في هذا الشأن على انه ” لا يكون للاصلاح المنشود اي معنى او اي تاثير يذكر على منظومة التربية والتكوين الا اذا عالجنا بعمق وفي آن واحد مضمون البرامج والمناهج البيداغوجية.”(21)

ملخص نتائج الفرضية الثانية :

توجد علاقة ارتباطية بين الرسكلة اثناء الخدمة و التحكم في الوسائل البيداغوجية من طرف الاستاذ .
توجد علاقة ارتباطية بين هذا التكوين اثناء الخدمة وتحكم الاستاذ الثانوي في الوسائل البيداغوجية حيث تضمنت هذه الفرضية ثمانية اسئلة كانت اجابة المبحوثين متقاربة كثيرا الا في الاسئلة (13- 14- 15- 20) وهذا يرجع اساسا الى الصعوبات الميدانية في التطبيق ونقص الوسائل البيداغوجية الحديثة عبر المؤسسات التعليمية بالاضافة الى ثقافة الفكرية التي يتميز بها بعض الاساتذة ونظرتهم السلبية للاصلاح التربوي .

ملخص نتائج الفرضية الثالثة :

توجد علاقة ارتباطية بين التكوين اثناء الخدمة وبث جو تعاوني مدرسي داخل القسم .
فكانت نسبة نعم هي الغالبة في اجابة الاساتذة المبحوثين وهذا دلالة واضحة على ان للتكوين اثناء الخدمة ميزات ايجابية رغم قصر مدته على تدرس التلاميذ في جو اسري تربوي تعليمي

اقتراحات الدراسة :

- ضرورة نشر الاعلام المدرسي داخل المؤسسات التربوية.
- ضرورة تحسيس وتوعية كل الاطراف المعنية بالفعل التربوي باهمية التكوين.
- انتقاء الكفاءات القادرة لتكوين المكونين .
- توفير الوسائل البيداغوجية الحديثة في عملية التكوين .

- اعطاء مصداقية للتكوين وذلك بتحفيز الاساتذة اثناء العملية التكوينية ماديا و معنويا .
- تشجيع الاساتذة على مواكبة التطورات العلمية و التكنولوجية اثناء الندوات التربوية والملتقيات والايام الدراسية.
- تعميم الانترنت و الانترنت على مستوى المؤسسات الثانوية.
- اعادة رسكلة المفتشين للاشراف الناجع والفعال ميدانيا .
- تفعيل جهاز التكوين الدائم والمستمر عند كل المستجدات التربوية
- اعتماد الدورات التكوينية المتخصصة
- تفعيل دور الجامعات الصيفية
- التاهيل المستمر للمفتشين من طرف الخبراء المحليين والدوليين
- إحياء وتفعيل الملتقيات الجهوية والوطنية

الهوامش :

- 1 - القانون التوجيهي للتربية الوطنية ص 17 .
- 2 - عبد القادر يوسف، (1972)، تدريب المعلمين أثناء الخدمة، القاهرة مصر ص 593
- 3 - كمال عبد الحميد زيتون : (2005) ، التدريس نماذجه ومهارته ، ط2 ، عالم الكتب الاسكندرية مصر ص 51 .
- 4 - توفيق مرعي : (1983) ، الكفايات التعليمية في ضوء النظم ، دار الفرقان ، عمان الاردن ص 156 .
- 5 - عبد الباسط محمد حسن ، (1971) ، أصول البحث الاجتماعي ، ط2 مكتبة الانجلومصرية القاهرة مصر ص 204 .
- 6 - عبد الرحمن عدس ، (1993) ، أساسيات البحث التربوي ، دار الفرقان عمان الاردن ص 110 .
- 7 - لحسن بوعبد الله مقداد (1998) ، تقييم العملية التكوينية في الجامعة ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ص 10 .
- 8 - عبد الغني عبود ، (1992) ، التربية ومشكلات المجتمع ، ط2 دار الفكر العربي القاهرة مصر ص 198 .
- 9 - حسن عمر مسني : (2000) ، ادارة الصفوف ، ط2 دار الكندي ، عمان الاردن ص 35 .
- 10 - محمد عبد الرحيم عدس (1996) المعلم الفاعل والتدريس الفعال ، دار الفكر ، عمان الاردن ص 213 .
- 11 - نادر فهمي الزيود وآخرون : (1999) ، التعليم والتعليم الصفي ، ط 4 دار الفكر عمان الاردن ص 81 - 82 .
- 12 - محمد عبد الرحيم عدس : (1999) ، الادارة الصفية والمدرسة المنفردة ، ط 2 مجداللاوي للنشر ، عمان الاردن ص 25 .

13 - محمد متولي غنيمه : (1992) ، سياسات وبرامج إعداد المعلم العربي ، ط 2 دار المصرية اللبنانية ، القاهرة مصر ص.ص 167 - 168 .

14 - ميلود زيان : (2001) ، استخدام تكنولوجيايات الاعلام والاتصال في التكوين ، المدرسة غدا ، وزارة التربية الوطنية ص.ص 4 - 7 .

15- Boubeker Ben Bouzid ,(2009) , la reforme de l'education en Algerie « » enjeux et realisation , casba edition , Algerie , p.p.176-177.

كروولوجيا الجهوية الاثنية في الجزائر

أ/ زهواني عمر، جامعة تيارت

ملخص:

محتوى هذا المقال يتمحور حول اشكالية تتفرع وتمتد تشعباتها الى تخصصات ،عدة خاصة اذا عرفنا ان الموضوع يتعلق بالجهوية الاثنية. حيث لا يمكن الاكتفاء بتناول الموضوع من جانب واحد .لكن منهجية البحث، ومحاولة الاقتراب ولو نسبيا من الموضوعية تفرض على الباحث حصر الموضوع في زاوية محددة. لتسهيل عملية البحث و الزاوية التي سنتناول من خلالها الظاهرة في هذا المقال هي البعد الثقافي من وجهة نظر علم الاجتماع للظاهرة.

يستعرض هذا المقال العوامل السوسيو ثقافية لظاهرة الجهوية الاثنية في المجتمع الجزائري و هذا لا يتجسد فقط في بعض الذهنيات و الممارسات التي تطفو الى السطح بين الحين والآخر ولكن في ارث تاريخي لم يفصل فيه يفرض نفسه على المجتمع الجزائري .انطلاقا من تركيبته الاثنية للمجتمع الجزائري التي تمتد الى مرحلة الفتح الاسلامي بحيث انقسمت بين الاسطورة و الحقيقة التاريخية للوقائع و الاحداث .بحيث يعيش المجتمع الجزائري في واقع يبقى دائما مرتبط ارتباط وثيق بتاريخه وذلك لأنه لا يمكن باي حال من الاحوال فصل الماضي عن الحاضر. و لا يمكن لأي مجتمع ان يتقدم خطوة واحدة الى الامام قبل ان يفصل في تاريخه ،ويتناوله ولو نسبيا بموضوعية .

هذا من جهة ومن جهة اخرى، عامل الاحتلال الذي يعتبر منعرج حاسم في تاريخ المجتمع الجزائري بصفة عامة خاصة ظاهرة الجهوية الاثنية التي اراد من خلالها ان يجسد "سياسة فرق تسد".ثم مرحلة الاستقلال حيث اخذت الظاهرة ابعاد اخرى و اقل ما يقال عن هذه المرحلة بدون تفصيل هو: غياب ما يسمى في علم الاجتماع بالمشروع المجتمعي يشمل كل مجالات الحياة منها الجانب الثقافي بصفة عامة ثم بقية المجالات الاخرى الاقتصادية، الاجتماعية و السياسية يتفق ويجتمع عليه غالبية افراد المجتمع دون اقضاء اي طرف شرط ان يكون الهدف هو المصلحة العامة وتحقيق التنمية .ذلك ما يجعل الكثير من الظواهر السلبية تختفي في ظل السعي الى التفكير في المستقبل واستخلاص التجارب من الماضي و ما هو سائد في الحاضر .

- 1- الكلمات المفتاحية باللغة العربية . الجهوية الاثنية - الهوية - الثقافة - الخصوصية الثقافية - المشروع المجتمعي - العوامل السوسيو- تاريخية - الدولة .

Abstract:

This article focuses on the problematic content forks and extends its ramifications to the majors, several particularly if we knew that the matter regional regard to ethnicity. Where you can not only to address the theme by unilateral. But research methodology, and try to get close to even relatively objective imposed on the researcher inventory subject in a specific angle, to facilitate the search process and the angle at which we will discuss in

which the phenomenon in this article are the cultural dimension from the stand point of .science Meeting of the phenomenon.

This article reviews the socio-factors for cultural phenomenon of regional ethnic in Algerian society and this is not reflected only in certain mentalities and practices that float to the surface from time to time, but in a historic legacy of not separating it imposes itself on the Algerian community from of composition ethnic Algerian community, which extends to the stage of the Islamic conquest, so split between myth and reality of historical facts and events . Algerian community living in the reality remains always linked closely linked to its history because it can not in any way be separated from the past present. And any society that cannot advance one step forward before separating in its history, which is dealt with .even relatively objectively

On the other hand, the occupation, which is crucial in the history of Algerian society in general, especially the phenomenon of regional ethnic wanted that which embodies the factor of "divide and rule" policy. Then the stage where independence took phenomenon dimensions and other less that is said about this stage without Detailing is: the absence of the so-called in sociology and community project covers all areas of life, including cultural aspect in general and then the rest of the economic and other fields, social and political conformity and meet the majority of the members of the society without exclusion of any party, provided that the goal is the public interest and development .In addition, What makes a lot of negative phenomena disappear under quest to think about the future and draw experiences from the past and what is prevalent in the present.

-Key words in English:

-Ethnic regionalism -the identity - culture - cultural specificity - the social project - socio-historical factors - the state

مقدمة:

يعتقد المؤرخ محمد حربي أن الصراعات الإثنية في الجزائر ظهرت إبان الفترة الاستعمارية، وبالتحديد في سنوات العشرينيات من القرن الماضي، حيث برز التمدد الامازيغي من جهة والتمذهب العربي الإسلامي من جهة أخرى، وقد مست هذه الظاهرة أغلبية الأحزاب المتواجدة على الساحة الوطنية إبان فترة الاحتلال.

كانت ظاهرة الجهوية الإثنية، قبل اندلاع حرب التحرير ظاهرة لم تخرج من إطار النخبة، حيث لم تكن موضوعاً مطروحاً عند العامة، حيث نجحت قيادات التنظيمات السياسية للحركة الوطنية تجنيد أفراد الشعب ضد سياسة الاحتلال، لكنها لم تستطع تجاوز الصراعات الجهوية. لأن الخوف من الانقسام وتفاقم الأوضاع خفف من حدة الصراع

نتيجة لغياب مشروع مجتمعي للدولة الجزائرية، ما أفرز ظواهر عدة في المجتمع منها ظاهرة الجهوية الإثنية، التي جاءت نتيجة مصادرة عناصر الهوية الوطنية، الأمر الذي جاء بمفارقات خطيرة، فكل الأزمات التي شهدتها الجزائر في العقود الماضية تتمثل في محاولة استعادة المجتمع لمقوماته الذاتية، من خلال هذا العرض المختصر لأهم محطات ومراحل الدراسة، فإن الجديد في هذا الموضوع ليس المعلومات الواردة فيه، وإنما هو الطرح المنهجي المتبع في عرض تلك المعلومات والمبني أساساً على وجهة النظر التدريجية التي نرى أنها طريقة مثلى

لتقريب الفهم وتبسيطه، إذ تبيننا هذا المنهج في الطرح من منطلق قناعتنا بدراسة ظواهرنا الاجتماعية بطريقة منهجية حديثة تساعد الباحثين على فهم الأحداث والظواهر في سياقها التاريخي والاجتماعي، وكل الجوانب الأخرى.

ومن خلال هذا المنطلق فإن ظاهرة الجهوية الإثنية تعد أحد الإشكاليات المطروحة على الساحة الوطنية بشكل ملفت للانتباه. "الجزائري في حياته اليومية يمارس الجهوية، لكنه علناً ورسمياً يعبر عن مواقف معادية لها خاصة إذا لم يكن متأكداً من الأصل الجغرافي لمحدثه، وتزول هذه التحفظات بعفوية، إذا كان المحدث من نفس الجهة"⁽¹⁾.

تمتد الجذور التاريخية لظاهرة الجهوية الإثنية إلى مرحلة الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا كمحطة أولى لما يسمى بالمواجهة بين العرب الفاتحين والأمازيغ.

والمحطة الثانية كانت إبان الاحتلال الفرنسي أين عملت المؤسسة الاستعمارية على الاستفادة من هذه المعطيات التي تتمثل أساساً في تركيبة المجتمع (أمازيغ وعرب) من أجل إثارة الصراع الجهوي الإثني للمحافظة على كيانه في الجزائر، وذلك بتجسيد سياسة فرق تسد، امتدت هذه الظاهرة إلى الحركة الوطنية، حيث عاشت تجربة هذا الصراع منذ بدأت تتأطر وتتهيكّل في أجزتها القيادية، وبعد الاستقلال ازدادت الأوضاع تأزماً، بسبب ما يعرف بقضية الصراع الجهوي على السلطة، أين أخذت الجهوية عدة أشكال أهمها الصراع الجهوي بين البعد الثقافي الأمازيغي والبعد الثقافي العربي "فجهوية أبناء الشرق تعتبر الجهوية المسيطرة بعد الاستقلال، بسيطرة أبناء هذه المنطقة على أهم مؤسسة - الجيش - وبالتالي الرئاسة والكثير من المؤسسات العليا، في حين نجد أن هناك جهوية معارضة كجهوية أبناء منطقة القبائل التي عبرت عن نفسها بعدة أشكال سياسية"⁽²⁾.

إن التناقضات السياسية الثقافية التي مست المجتمع أثناء فترة الاحتلال التي كانت نتيجة للانسداد السياسي للتنظيمات السياسية للحركة الوطنية، أتاح للمحتل الفرنسي فرصة طرح الظاهرة التي حاول من خلالها أن يرسخ بعض الأفكار من بينها الاحتلال العربي لشمال أفريقيا، الاختلاف في صلة الدم بين العرب والأمازيغ، وهذا طبعاً لم يكن وليدة الصدفة، إنما يعود إلى تخطيط مسبق وسياسة مدروسة لتكريس الهوية بين أفراد المجتمع وبالتالي سهولة السيطرة والتحكم فيه، وتركيز الاحتلال على هذه المسألة بالذات، إنما يعود إلى أهميتها في تحديد مصيره في الجزائر.

1- العروبة، الإسلام، الاشتراكية كبديل للموقف السياسي 1962-1965.

« نتيجة لتراكمات الاقتصاد والتهميش والقسر وفشل السلطة في حل مشاكل المجتمع »⁽³⁾ أدى إلى تفاقم الأزمة بسبب رفض الفكر الأحادي الاستماع لنداء بعض المثقفين والعرفين لخلفيات الأزمة الجزائرية الداعي إلى ضرورة رفع الحصار عن العناصر والمقومات الأساسية المشكّلة للهوية الوطنية احتراماً لمبادئ الثورة التحريرية التي قام بها الشعب وبيان أول نوفمبر الداعي إلى احترام كل الحريات الفردية دون تمييز عرقي أو ديني أو جهوي لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

ذلك ما جعل بعض العناصر المناضلة من أجل الثقافة الأمازيغية إلى ضرورة إحياء هذه الثقافة الشعبية والعمل على كتابتها لمواكبة المسيرة السياسية للمجتمع الجزائري إلا وهي الحصول على الاستقلال. لكن هذا

أدى إلى إعادة تحريك الأوضاع من جديد لتعرف الساحة الجزائرية تطورا من نوع خاص و بخصوصية جزائرية خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار خروج الاحتلال وبقاء طرفين لا ثالث لهما.

إن الوصول إلى الحكم بعد الاستقلال مباشرة كان أقل ما يقال عن ذلك أنه استلاء على السلطة بطريقة غير شرعية « فجّل الرؤساء الذين تداولوا على الحكم لم تفرزهم ثقافتهم السياسية ولا دورهم في المجتمع والدولة وكل ما في الأمر أنهم عينوا وفق منطق دائرة النفوذ والسلطة» (4).

ذلك ما جعل السلطة تجد نفسها وسط تناقضات ز مآزق يصعب الخروج منه فالمشاكل التي واجهتها من طرف أولئك الذين خانهم وأبعدهم عن السلطة من جهة و أولئك الذين ساعدوه على الوصول إلى هرم السلطة من جهة أخرى أدت إلى حدوث انقلاب عسكري عام 1965 وهكذا جاءت الأحداث مخالفة لكل التوقعات التي كلن بن بلة يطمح إلى تحقيقها ببناء دولة الاشتراكية في ظل اللغة العربية وتحت راية الإسلام ولكن لم يتحقق لا هذا ولا ذاك خلال المرحلة التي كان فيها بن بلة رئيسا للجزائر مباشرة بعد الاستقلال لان الوضعية التي كان فيها لم تسمح بذلك ففي الوقت الذي كان يبحث عن الوسائل التي من شأنها تقوية سلطته اتهم بتبنيه لسياسة فردية غير ديمقراطية وغير مسؤولة تهدد بضياع مكتسبات الثورة التحريرية الكبرى (5). حيث أن الشعب الذي طالما بدأت الخطب السياسية باسمه كان آنذاك غارقا في مشاكله وغير مهتم بما يجري في الساحة السياسية.

خلال هذه المرحلة المتوترة من تاريخ المجتمع الجزائري ظهر أول حزب سياسي بعد جبهة التحرير الوطني وهو حزب القوى الاشتراكية بزعامة "حسين آيت أحمد" ومجموعة من المناضلين من داخل المجلس التأسيسي الوطني نفسه وذلك بهدف الدفاع عن الديمقراطية كان "آيت أحمد" دائما يشكل معارضة علنية لتشكيله المكتب السياسي بحس التجاوزات التي لم يرضى بها وكان يراها خيانة للثورة.

وبهذا تأخذ معارضة آيت أحمد طابعها السياسي والإيديولوجي معا ذلك ما أدى إلى منع ممارسة نشاطاته في 28 سبتمبر 1963 الأمر الذي أدى بحسين آيت أحمد إلى عزمه على قلب النظام بمساعدة العقيد "محمّد أولحاج" أحد كبار معارضي بن بلة غير أن استمرار النزاع وانحصاره في منطقة القبائل أثار اعتصام جنود الولاية الثالثة في الجبال رافضين الانصياع للسلطات التي استولت على الحكم جعل المشكل يأخذ طابعا جهويا عرقيا وذلك على الرغم من أن الصراعات في البداية لم تأخذ الطابع الجهوي إذ أنها صراعات بين جيش الحدود الذي تحالف مع أحمد بن بلة والكتلة الثانية التي كانت تضم عناصر قيادية من الولاية الثالثة (منطقة القبائل) الولاية الرابعة (ولاية الجزائر) أسفرت هذه المحاولة باتهام حسين آيت أحمد ومحمّد أولحاج بمحاولة تقسيم الوحدة الوطنية وهذا يعود إلى عجز السلطة الحاكمة آنذاك على إيجاد البديل والقيام بمشروع مجتمعي يرضى كل الأطراف خاصة ذلك الذي يتعلق بالمسألة الثقافية وما يعيشه مجتمعنا اليوم ما هو في الحقيقة إلا نتيجة لأخطاء الأمس ورفض الفكر الأحادي الاستماع للأطراف الأخرى ساعد على بروز عدة ظواهر سلبية لم يستطع المجتمع الجزائري التغلص منها طيلة عقود من الزمن ولفهم ظاهرة الجهوية الإثنية في الجزائر لابد من فهم خلفيات هذه الإشكالية المتمثلة في نهج السياسة الثقافية الذي كان متبعا خاصة في السنوات الأولى من مرحلة الاستقلال « والمتتبع لتلك السياسة يلاحظ أنها بنيت على أرضية منقسمة إيديولوجيا ومتغايرة ثقافيا » (6).

والمسألة الأمازيغية كغيرها من المقومات الشخصية للشعب الجزائري تعرضت للعزلة والقهر أو بالأحرى تعرضت للمصادرة من طرف السلطة « بعدما صادرت الدولة كل مقومات الأمة (اللغة والدين) أصبحت ملكا لها وليس للشعب الذي حرم من بناء مشروعه التنموي من وحي مقوماته الذاتية» (7).

وبالتالي فإن إدراج مقومات الهوية الوطنية ضمن المجال العام (الدولة) أفضى إلى تسييس مسألة الهوية كونها تحتاج من المطالبين بها ضرورة إخراجها من الحيز العام القانوني الرسمي إلى الحيز الاجتماعي والخاص من هنا جاءت هذه المصادرة لعناصر الهوية الوطنية بمفارقات خطيرة ساعدت على بروز ظاهرة الجهوية الإثنية. « ذلك أن دوافعه لا تكمن في الأجهزة والأفكار وتناقضاتها وإنما في ارث تاريخي يفرض نفسه على الفاعل السياسي فيصبح الانتماء العرقي أو الجهوي محددًا لاختياراته ومواقفه وقراراته»⁽⁸⁾.

وكان موقف (بن بلة) واضحًا قبل وصوله إلى الحكم بحيث صرح في تونس بقوله « نحن عرب عرب، نحن عشرة ملايين عرب... »⁽⁹⁾ أما وهو رئيس فانه يرى أن الجزائر ليست بلدا عربيا عرقيا لكن الثقافة العربية متجذرة في المجتمع الجزائري يبدو أن أحدهم أخبره بذلك لأنه أثناء حرب التحرير لم يكن يعرف أن الجزائر بلد أقل ما يقال عنه أنه يختلف عن بلد المشرق العربي.

إن انتهاج سياسة التهميش والإقصاء لمناضلي منطقة القبائل كان في الغالب تحت حجة أن هؤلاء المناضلون يحملون أو متأثرين بالثقافة الفرنسية وهذا إنما لصرف النقاش حول الثقافة واللغة الأمازيغية كواقع يفرض نفسه على الفاعل السياسي والمجتمع ككل. و بعد أن منع (حسين آيت أحمد) من ممارسة نشاطه في 28 فيفري 1963 كما أسلفنا الذكر تم تأسيس خلية صغيرة بالجزائر العاصمة تضم ثلاثة جامعيين ذوي أصول قبايلية وهم "عمار عبودة، مولود معمري، مبارك رجالة" وتم إلقاء القبض على "مبارك رجالة" واعتقل من ماي إلى أوت 1965 بالإضافة إلى الاختلافات ذات الطابع السياسي والإيديولوجي التي برزت فيما بعد أدت إلى القضاء على هذه المجموعة الأولى التي بدأت تفكر في مستقبل اللغة البربرية في الجزائر بعد الاستقلال⁽¹⁰⁾.

2 – التطورات السياسية الجديدة للمسألة الأمازيغية (1965-1978)

إن الفشل الذريع الذي عرفه النظام بعد الاستقلال في ظل التناقضات بين البحث عن الذات من خلال مسألة الهوية وضرورة تحقيق طموحات الشعب الذي استثمر كل ما يملكه في حرب التحرير بتحقيق الاستقرار خاصة من الناحية الاقتصادية.

وكنتيجة لرغبة بعض المثقفين في إبراز ضرورة الاهتمام بالمسألة الثقافية وإعطاء المجتمع مقوماته التي صودرت منه طيلة عقود من الزمن (فترة الاحتلال) من جهة ومن جهة أخرى التهميش والتبسيطات التحليلية التي فرضها الاستعمال الميكانيكي للإيديولوجية العربية الإسلامية بغرض البقاء في الحكم وتغليظ الرأي العام بأن هذه المطالب مناقضة للوحدة الوطنية. « ويبدو أن عناصر النظام الجزائري تستعمل نفس هذه الاستراتيجية منذ الاستقلال بهدف عزلهم وإثارة المناطق الأخرى ضدهم ويدخل ذلك في إطار سياسة "فرق تسد" بهدف البقاء في الحكم »⁽¹¹⁾.

و كأن السياسة التي ينتهجها النظام الجزائري هي نفسها التي انتهجها الاحتلال الفرنسي « لذلك فان السياسة لا تهتم كثيرا للوسائل التي يستخدمها ولا لشرعية هذه الوسائل وأخلاقيتها بقدر ما تهتم للمنفعة وللغاية التي تحققها هذه الوسائل »⁽¹²⁾.

لم يستطع المشروع الاجتماعي بعد الاستقلال أن يجدد هذا الطرح بإنتاج إيديولوجية جديدة للإنسان المتحرر ذو خصوصية جزائرية تعيد صياغة ثوابت الهوية الثقافية وتعطي بالتالي المكانة اللائقة للبعد الأمازيغي في الشخصية الجزائرية وهذا راجع إلى عدة عوامل منها سياسة التصنيع التي انتهجها النظام بعد الاستقلال مباشرة وتجاهل

الجانب الأهم في هذا الإنسان أو الفرد الذي سوف يقوم بالتصنيع ألا وهي الثقافة والتي تتدرج ضمنها اللغة، العقيدة والتاريخ.

3 - تأسيس الأكاديمية البربرية في فرنسا :

يظل بقاء النظام الجزائري للسبعينيات سائرا على أسس وقوانين الجمهورية التي تضمنها الدستور الوطني لسنة 1963 وذلك إلى غاية دستور 1976 دليل واضح على أن إستراتيجية النظامين (بن بلة، بومدين) لا تختلف في مضمونها قائمة على أسس ثابتة (العروبة، الإسلام، الاشتراكية). وضعية دفعت بالعناصر البربرية النشيطة إلى البحث عن السبيل الذي يستطيع حمل مطالبها « فأنشأ دعاة البربرية قبل أحداث 1980 عدة جمعيات ومنظمات لنشر طروحاتهم ومنها تأسيس خلية للتفكير في مستقبل اللغة البربرية عام 1963 على يد كل من" مولود معمري وعمار عبادة ومبارك رجالة " إلا أنها توقفت عام 1965 بعد اعتقال نظام بومدين لمبارك رجالة أحد أعضائها البارزين »⁽¹³⁾.

فكانت أرض فرنسا الموطن الأكثر خصبة أسس بها مجموعة من المناضلين البربر الجمعية البربرية للتبادلات والأبحاث الثقافية A.B.C.R.C بباريس يتمثل هدفها الرئيسي في التعريف بالثقافة البربرية واللغة البربرية على يد "رحماني وهو ضابط سابق في الجيش الفرنسي قبل أن يلتحق بالثورة التحريرية ضمن صفوف جبهة التحرير الوطني السيد "حنوز" وهو ممول المشروع، "سليمان عازم" مغني وفنان للقضية "خيمسي" منشط إذاعي يتضح أن كل هذه الشخصيات هي عناصر من منطقة القبائل هذا ما دفع بالسلطة إلى العمل على عزل هذه المنطقة جهويا هذا بالإضافة إلى السيد "بسعود" أحد أوائل مناضلي جبهة القوى الاشتراكية الذي لعب دورا فعالا في إعادة تنظيم هذه المؤسسة التي تميزت بالطابع الفرانكفوني منذ نشأتها⁽¹⁴⁾.

لقد لعبت هذه الجمعية دورا هاما في إيقاظ الوعي الشعبي بالأهمية اللغوية الأمازيغية كجزء لا يتجزأ من هوية هذا المجتمع فكانت قبلة للعديد من الشباب والعمال المغتربين لحضور حصص في اللغة الثقافة والأدب الأمازيغي وكان رد الفعل عنيفا من طرف السلطة الجزائرية إذ توجهت نشاطات هذه الأكاديمية باليد الخفية الرجعية في اتجاهها وعنصرية في مبدئها تهدف إلى المساس بالسيادة الوطنية والشعب الجزائري واستطاعت أن تتحكم السلطة نسبيا في الموقف نظرا لتعزيز واستجابة أغلبية الشرائح الاجتماعية بما فيها القبائل لموقفها الصارم.

لهذا كان التفكير في البحث والكتابة عن اللغة والثقافة الأمازيغية أمرا صعبا جدا يعرض أصحابه لأحكام وأفكار مسبقة يتفق عليها الشعب ضدهم إلى جانب التعرض لكل وسائل القمع بما فيها الترغيب بمنح امتيازات للمثقفين والجمعيات والسياسيين من طرف السلطة مكافأة لهم والترهيب بقمع كل من يمنح الشرعية لهذا المطلب حتى ولو كان ذلك بأضعف تساؤل وطرق التعبير بالسجن أو القتل لما لا « إذ يتفق كل من مولود معمري، سالم شاكر، عمر وردان أن الطرح اللغوي الأمازيغي كان محور اهتمام العديد من المثقفين والجامعيين في البداية لكن القليل جدا منهم من استطاع الوصول إلى النهاية نتيجة العقبات والعراقيل المتعددة. وبالتالي نفهم تساؤل البعض منهم لماذا المواصلة في ميدان هذا البحث والتخصص فيه لأي منصب لأية آفاق في زمن تنعدم فيه حرية التعبير »⁽¹⁵⁾.

4 - النصوص القانونية وتكريسها للجهوية الإثنية:

كان النظام السياسي في الجزائر خلال هذه الفترة من التاريخ استنادا إلى ما حدث في المرحلة السابقة خاصة ذلك الذي يتعلق بأزمة الهوية الثقافية والطرف المعارض للأحادية التاريخية للمجتمع الجزائري، وضمنا لاستمراريته في الحكم اتسم بالحذر والحيطه لتفادي مواجهات أخرى من نفس النوع متحصنا بنصوص تشريعية وقوانين دستورية تحميه ومصالحه من جهة، وبمجموعة من الأجهزة الحزبية المؤطرة والمحيطه به والتي تكون معه النسق أو النظام للقدرة على المواجهة إن اقتضى الأمر، هذه الجمعيات والاتحادات هي تلك التي تمثلت في الاتحاد العام للعمال الجزائريين، الاتحاد الوطني للشبيبة الجزائرية، الاتحاد الوطني للفلاحين الجزائريين، وهي أجهزة إيديولوجية دخلت بيت الطاعة للنظام موضوعة تحت الرقابة الصارمة لحزب جبهة التحرير الوطني، مهامها بيروقراطية بحتة خاضعة في توجهاتها للسلطة الثورية التي تسعى في سبيل توحيد وتجنيد طاقاتها لبناء الدولة الجزائرية، وليحكم بذلك على كل تيار خارج هذه الذاكرة بالإعدام.

إن مثل هذا التفسير ليس بالجديد إذا أخذنا بعين الاعتبار النظام القائم في الجزائر منذ الاستقلال على أحادية الحزب، على ذكر أحادية الحزب فرغم التعددية الحزبية المفروضة على النظام الجزائري في أواخر الثمانينيات نتيجة عدة عوامل داخلية وخارجية إلا أنه تراجع عن الفكرة عندما سحب البساط من تحت أقدام الجبهة الإسلامية للإنقاذ واعتقال زعمائه، إذن الجزائر لم تعرف أبدا التعددية الحزبية، إذ تتولى قيادة الحزب الحاكم في الجزائر عملية تنظيم وتوجيه ومراقبة سياسة البلاد التي افتقرت خلال عقود من الزمن بعد الاستقلال إلى كل الممارسات الديمقراطية مهما كان نوعها أو شكلها، خاصة وأن حزب جبهة التحرير الوطني الذي يسمح له القانون فقط على مخاطبة الشعب وزرع أفكاره ويسط نفوذه دون غيره من الجمعيات التي كان وجودها من عدمه، فكانت الإيديولوجية السائدة آنذاك هي إيديولوجية حزب جبهة التحرير الوطني والشرعية الثورية التي ما تزال إلى يومنا هذا صالحة للاستعمال وسارية المفعول في النظام الجزائري رغم مرور قرابة النصف قرن من الاستقلال "المنظمات الجماهيرية بإشراف حزب جبهة التحرير الوطني وتحت رقابته، وهو مكلف بتعبئة واسعة لفئات الشعب إذ لم لتحقيق كبريات المهام السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تتوقف عليها تنمية البلاد والنجاح في بناء الاشتراكية، كما أن هذه المنظمات مكلفة دون غيرها بمهمة تنظيم الفلاحين والعمال والشباب والنساء، والعمل على تعميق وعيهم لمسؤوليتهم وللدور الكبير الذي يجب أن يقوموا به من أجل بناء الوطن" (16).

اعتمد النظام في السبعينيات على سياسة أخذت طابعا فلاحيا صناعيا من خلال مشروع الثورة الزراعية والثورة الصناعية التي كانت نتائجها ضئيلة جدا في ظل انعدام قاعدة اقتصادية حقيقية تحملها إطارا من الدولة خاصة بعد الفراغ الرهيب الذي تركه الاحتلال في مختلف القطاعات.

أما الثورة الثقافية فهي تلك التي كانت تهدف في شكلها ومضمونها وكذا بأسلوبها المقدم للأمة إلى صياغة عامة وثابتة لمفهوم وحدة الأمة الجزائرية التي حسب تقدير النظام لا يمكن أن تكون خارج الإطار العربي الإسلامي الوحيد الذي يمكن له أن يحوي مقومات الشخصية الوطنية لكل جزائري مهما كانت المنطقة التي يتواجد فيها.

وما كان يحكم به النظام آنذاك هو أن كل ثقافة من غير العربية الإسلامية تعتبر دخيلة تعمل على تفرقة عناصر المجتمع الجزائري، ولا يمكنها أن تخدم بأي شكل من الأشكال الوحدة التي يسعى النظام السياسي عن طريق الثورة الثقافية أن يحققها ليحكم بذلك أيضا على كل محاولة يكون مضمون مطلبها ذو

علاقة بهذا العامل المفرق بالعدو الذي أعلن صراحة عدوانه على مبادئ الثورة الجزائرية بما أنه يمس بوحدة الأمة المقدسة متأثراً بالنوايا الاستعمارية لفرنسا المعرقة دون شك لبناء الدولة الجزائرية الأمر الذي جعل السلطة تتمع هؤلاء ليكونوا عبءاً للآخرين وهذا يعود إلى غياب الوعي في المناطق الأخرى حيث انساق وراء الخطاب السياسي للسلطة ذو الانتشار الواسع عبر الوطن الذي يكرس النظرة الموحدة للحضارة والثقافة، هذا ما جعل الطرح الأمازيغي يتخذ إشكالية الأقلية القبائلية البعيدة كل البعد عن أية مرجعية اجتماعية واقعية لتعلن هذه التراكمات عن ميلاد ما يسمى بالجهوية الإثنية وكأن منطقة القبائل هي وحدها المنطقة التي تتميز بلسانها الأمازيغي، وهذا ما يزيد من خطورة وحساسية الظاهرة التي دخلت في دوامة أو في حلقة مفرغة حيث تعمل مؤسسات الدولة على إعادة إنتاجها ".... دون إهمال أن عملية القضاء على كل هذه الممارسات الجهوية المعقدة كما يتمنى ذلك الخطاب الرسمي للدولة علنا قضية صعبة من جراء عمليات إعادة الإنتاج التي تقوم بها جزئياً المؤسسات الرسمية والاجتماعية الأخرى" (17) وهذا بطبيعة الحال جاء نتيجة التخلف الاجتماعي والسياسي المحلي الذي تعيشه البلاد.

"ولتعزيز هذه الإيديولوجية (إيديولوجية السلطة) نجد أنه بعد الاستقلال لم تتعرض السلطة لأي طرح يتعلق بمستقبل السياسة اللغوية والثقافية بمفهومها الموضوعي، بالمقابل لعبت وسائل الإعلام دوراً أساسياً وفعالاً في خدمة النظرة الأحادية للسياسة الثقافية واللغوية الجزائرية، ونبد النظرة الجهوية العرقية والإمبريالية القبائلية لتصل هذه الأفكار وتتغلغل في عمق الوسط الشعبي الجزائري ليعاد إنتاجها عن طريق التشبث الاجتماعية وتتجسد في موقف عدائي لكل من عربي اللسان اتجاه أمازيغي اللسان والعكس صحيح" (18).

ولتطبيق سياستها الثورية الخاصة بالتعريب عملت السلطة استناداً على أجهزتها وإمكاناتها إلى شن حملة لبناء وتشبيد دور الثقافة عبر مختلف مناطق التراب الوطني وسائل يتم من خلالها تنظيم وتوجيه رسالتها بالإضافة إلى المدارس والإكماليات والثانويات والجامعات بحيث تحصل السلطة على مقابل نتيجة مجانية التعليم التي منحتها لأبناء الشعب وذلك من خلال المقررات والبرامج المدرسية التي غالباً ما تحمل في مضمونها الترويج لإيديولوجية السلطة وبالتالي إنشاء جيل يخدم النظام لكن يبدو أن النظام تناسى أو بالأحرى نسي شيئاً ما داخل المدرسة الجزائرية التي جمعت بين المغرب والمفرنس من المعلمين، فالمعربين ينطلقون من الأصالة وتعليمهم كان في الزوايا أو أن أصل بعضهم من البلدان العربية مصر- سوريا- تونس إلا أنهم وجدوا نسخة مطابقة للفرنسيين كطرف آخر في المدرسة الجزائرية لذا كان من الضروري على المعربين فرض قوة أو سلطة معادية وصدام بين هذين الفريقين وبالتالي انشطرت الرسالة التعليمية ووقع تبني ازدواجي وصراعي للرسالة وليس تكاملي كما كان في تصور الدولة وهو إنتاج إنسان جزائري يجمع بين الأصالة والمعاصرة .

ولأن الثقافة الجزائرية الأصل همشت فلا بد من دخول ثقافة أخرى مكانها فجمعت الدولة بين ثقافة المشرق العربي وغريمها الغربية من أوروبا وبالتحديد الثقافة الفرنسية، وكانت الجزائر الأرضية الخصبة لزرع الأفكار وبث الإيديولوجيات ما جعل البلد يعيش حالة من اللااستقرار منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، فأين هي هوية الشعب الجزائري الحقيقية وأين هي ثقافته وماذا فعل بها ؟ سؤال أكثر من مهم يحتاج إلى إجابة.

5- المطلب الثقافي الأمازيغي و ظاهرة الجهوية:

لم تخل فترة حكم الحزب الواحد في الجزائر من معارضة منطقة القبائل رغم الصرامة والقبضة الحديدية التي كان يحكم بها النظام خاصة فترة حكم "هوارى بومدين" حيث وجد جناح المعارضة في منطقة القبائل المتنفس

والمكان الذي يحتوي نشاطه في الخارج خاصة في فرنسا باعتبار أنها البلد الأوربي الذي يتواجد فيه أكبر عدد من المهاجرين الذين ينحدرون من منطقة القبائل.

« تشكلت هذه المعارضة "محندي علي يحي" أحد الشخصيات المفجرة للأزمة البربرية 1949م ومؤسس الجبهة الموحدة الجزائرية F.U.A.A معلنا من خلال هذا التنظيم معارضته لنظام هواري بومدين ومعدا عمله من أجل الهوية الوطنية والمسألة الثقافية »⁽¹⁹⁾ لكن سرعان ما تم القضاء على هذا التنظيم من طرف السلطات الجزائرية " وقد أُلقي القبض على أغلب عناصره أثناء أحداث تيزي وزو عام 1980م⁽²⁰⁾. إن أغلب النشاطات التي كانت تتم بالخارج كانت تتم في فرنسا نظرا للحرية التي تحضى بها هذه النشاطات فلا نكاد نجد أي نشاط خارج هذا البلد باستثناء إنشاء "عمار وردان" (الجمعية الاجتماعية للثقافة البربرية) في مونتريال بكندا في 1974م واتخذت المعارضة أيضا أشكالا أخرى تمثلت في رفع الشعارات المناهضة للسلطة كأسلوب اعتمده المناضلون الأمازيغ من منطقة القبائل، ويظهر ذلك جليا خلال المباراة النهائية لكرة القدم التي جمعت بين فريقي "شبيبة القبائل - نصر حسين داي" فقد استغلت جماهير الشباب الفريق لفضاء سياسي لرفع الشعارات المطالبة بالديمقراطية وبالثقافة الأمازيغية ولعل البعض يتذكر ما وقع في المباراة من أحداث ومما لاشك فيه أن تلك الحادثة كانت وراء اتخاذ الحكومة لقرار تغيير اسم الفريق من شبيبة القبائل إلى شبيبة الكوكب ثم جمعية إلكترونيك تيزي وزو⁽²¹⁾ وهذا طبعا محاولة من النظام لإبعاد المسألة الثقافية واللغوية الأمازيغية عن كل طرح سياسي قابل حتى للنقاش، وذلك باستعمال كل الطرق والوسائل " إلا طريقة الحوار والنقاش وهذا ربما يعود إلى تجنب الوقوع في التعددية اللغوية والثقافية التي يمكن أن تؤدي إلى الديمقراطية وبالتالي فإن النظام قد عمل على رفضها وعدم تقبلها بالنظر إلى أهداف وطبيعة الطرح"⁽²²⁾.

ارتبطت معارضة منطقة القبائل ب "حزب جبهة القوى الاشتراكية" المعارض التقليدي للسلطة خاصة عندما فرض وجوده رغم قمع نشاطه ومحدودية إمكانياته إلا أن التحاق عدد كبير من الشخصيات والطلبة الجامعيين منحه الصدارة كتنظيم سياسي في المنطقة لكن هذا الحزب كان يعاني من هاجس الجهوية رغم أن التسمية التي يحملها لا ترمز إلى هذه الصورة التي ألصقت به بأنه حزب يمثل فقط منطقة القبائل.

6- النخبة الفرنكوفونية ومسألة الهوية الإثنية .

إن الاحتلال الفرنسي فرض على الجزائريين العديد من التغيرات الجذرية التي كان يجب التأقلم والتكيف معها ومواجهتها في آن واحد، فتعمير الفرنسيين في الجزائر لمدة قدرها حوالي 132 سنة لم تكن بالهينة فهي بمثابة عمر دولة بأكملها.

هذه التغيرات مست الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية للجزائريين فألحقت أضرارا بليغة بالفرد الجزائري أينما كان فكانت تفرض على الفلاحين أثناء مواسم الجني والحصاد وبعد ذلك تم مصادرة أراضيهم وأصبح الجزائري يعمل عند "الكولون" دون توقف مقابل مبلغ زهيد، بالإضافة إلى التجنيد الإجباري للجزائريين سواء داخل الوطن أو خارجه خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية أين كان الجزائريين في الصفوف الأولى للجيش الفرنسي وحلفائه، فكانت الجزائر تمول فرنسا بالمال والرجال بالإضافة إلى ذلك كانت هناك سياسة ثقافية فرضت على الجزائريين بمنع التعليم في المدارس أو المساجد التي تحولت إلى كنائس والزوايا التي غلقت أبوابها وفتحت بالمقابل مدارس لتعليم اللغة الفرنسية التي كانت مفروضة على الفرد الجزائري لأنها لغة التعامل في حياته اليومية، من هنا بدأت تتكون النخبة الفرنكوفونية في الجزائر ليس داخل الوطن فحسب بل حتى خارج الوطن

كذلك وبالضبط في فرنسا وهذه النخبة في الخارج تتمثل في المهاجرين العمال في بلاد المهجر لكن الاحتلال الفرنسي كان بطبيعة الحال أذكى من أن يقدم تكويناً يؤهلهم لمنافسة الفرنسيين في مناصب الإدارة والتسيير وكذا لاكتساب الوعي اللازم والتفتح على العالم ومعرفة خاصة حقهم في تقرير مصير بلادهم، ولكن مع مرور الوقت يبدو أن الاحتلال فشل في سياسته لأن مدرسة الاحتلال هذه أنجبت أو بالأحرى درست "عبان رمضان" داخل الوطن و"فرحات عباس" خارجه وبهذا يكون الاحتلال الفرنسي قد زرع بذور خروجه من الجزائر "وباختصار شديد من الممكن القول بأن السياسة الاستعمارية في الجزائر قد خلقت شروط نشأة الحركة الوطنية" (23).

هذه النخبة الفرنكوفونية أصبحت متفتحة الفكر وعلى علم بما يجري في العالم وأن تقرير المصير من حق كل الشعوب، وملف القضية الجزائرية يجب أن يوضع على طاولة النقاش فأسس العمال الجزائريون في المهجر حركة سياسية أطلقت على نفسها اسم "نجم شمال إفريقيا" وذلك في سنة 1926 كانت هذه الحركة مكونة بنسبة كبيرة من النخبة الفرنكوفونية غالبية عناصرها من منطقة القبائل وعلى رأسهم "حاج علي عبد القادر".

"وحتى للحركة الوطنية التي شارك فيها أبناء هذه المنطقة ليس في الجزائر فقط وأثناء حرب التحرير بل في المهجر كذلك أين كون أبناء هذه الجهة القاعدة الأساسية للحركة العمالية وبالتالي الحركة الوطنية أو مدوها بالكثير من الإطارات ذات القيمة النضالية الكبيرة" (24)، إذن كان للنخبة الفرنكوفونية الجزائرية دور كبير في دعم الثورة المسلحة فكانت المفاوضات والممارسة السياسية لهذه النخبة للقادة المفجرين للثورة فعالة إلى حد كبير أبهرت الفرنسيين أنفسهم ولا يقل عنهم شئنا الجيل الجديد الذي جاء بعد قيام حرب التحرير.

"منطقة القبائل استفادت من عودة العديد من المهاجرين الذين يعتبرون من الأوائل المنخرطين في الحركة الوطنية والذين ساهموا في حياة نجم شمال إفريقيا وبذلك فإن المستوى السياسي والتنظيمي كان في منطقة القبائل أفضل من الجهات الأخرى" (25)، خلال هذه الفترة (أثناء حرب التحرير) لم تنهم النخبة الفرنكوفونية أو أنها لم تشن ضدها تلك الحملة الدعائية والمشككة في عمل ومقاومة هؤلاء الأشخاص للاحتلال الفرنسي خاصة بعد الانخراط في جبهة التحرير الوطني كتلك التي شنها النظام في عهد الاستقلال.

"فقد غدت أجهزة الدعاية والإعلام للنظام هذا الحقد من خلال نشر إشاعة أن القبائل انفصاليين وعملاء لفرنسا ومعادين للدين والوطن، وهي إشاعات واتهامات واهية هدفها إثارة المناطق الأخرى ضدهم، وبهذا تناسست أجهزة النظام التضحيات الكبيرة لأبناء هذه المنطقة وقوافل الشهداء التي بذلت في سبيل الدين والوطن كما تجاهلت هذه الدعاية أن هؤلاء القبائل هم الذين شكلوا النواة الأولى للتيار الثوري الاستقلالي الممثل في نجم شمال إفريقيا" (26).

وبالتالي فإنه نتيجة لسياسة النظام هذه ونقص الوعي للمناطق الأخرى من الوطن خاصة الأمازيغية اللسان منها بفعل الوقوع في فخ سياسة النظام جعل البعض من منطقة القبائل يتبنون نزعة الاستقلال الذاتي برعاية الأب الروحي "سالم شاكر" بمساعدة "فرحات مهني" صاحب كتاب "المسألة القبائلية" la question Kabyle الذي يقول في أحد فصوله "مع العلم أن نضال سكان المنطقة قد تمحور حول الأمازيغية بطابعها المغاربي باعتبار شمال إفريقيا هي أرض أمازيغية (دراسات مولود معمري) وقد فسر الكاتب ذلك النضال الأمازيغي الوطني بدافع الخوف من تهمة الجهوية التي كانت بمثابة لعنة تلاحق المناضلين النشطاء ليضيف قائلاً:

"إنه من السذاجة أن يتكفل الشعب القبائلي وحده وبمفرده بالقضية الأمازيغية لذلك أن الأوان برأيه تغيير الاستراتيجية لجعل النضال من أجل الهوية الأمازيغية جهويا" (27).

ومنه فإن الشيء الذي يعبر عن سلبية العلاقة تتمثل في أن التصور اللغوي الثقافي الذي تبنته السلطة من الواقع لا يعكس في كليته الحياة العامة لمختلف أفراد الشعب أما الحديث عن النخبة الفرنكوفونية على أنها تطالب بالثقافة الأمازيغية كتحرير وتشجيع من فرنسا فهذا راجع إلى أن اللغة الأمازيغية لم ينظر إليها كإنتاج تاريخي وكذاكرة لتراكم ثقافي وحضاري ساهم في تكوين شخصية الفرد الجزائري كما يتبادر إلى الذهن سؤال لو طرح على المسؤولين في الدولة من وزراء وولاة ... إلخ أي لغة تتقنون اللغة العربية أم الفرنسية ؟ لكل أولئك الذين تعاقبوا على هذه المناصب العليا في السلطة ونقوم بعها برصد النتائج فماذا نجد يا ترى ؟

7- سياسة النظام تجاه المناطق ذات الخصوصية الأمازيغية:

"اعتقد سكان منطقة القبائل مثل غيرها من مناطق البلاد أن الاستقلال الذي ضحوا من أجله بالنفس والنفيس سيكون نقطة انطلاق لحياة الرفاهية والحرية، إلا أن هذه الآمال تبخرت منذ البداية، حيث همشت المنطقة اقتصادياً وسياسياً بسبب موقف قادتها المناهض لتحالف (بومدين) - (بن بلة) أثناء أزمة صيف 1962، والتي انتهت بانتصار مجموعة تلمسان التي يغلب عليها الناطقون بالعربية والشاوية على مجموعة (تيزي وزو) التي يغلب عليها القبائل (28)".

إن السنوات الأولى لعهد الاستقلال كانت بمثابة مسرح لعرض الإيديولوجيات استيقظت أو بالأحرى تكسرت أمام جدار الوحدة والنضال من أجل تحرير البلاد، لكن في عهد الاستقلال سرعان ما تغيرت الأمور وأصبحت تتفاقم سنة بعد أخرى. فبعد معارضة الألفافاس بقيادة (حسين آيت أحمد) في عام 1963، صاحبه أساليب القمع من طرف السلطة ضد سكان منطقة القبائل، ليتفاجأ سكان المنطقة أنه لا فرق بين ممارسات جيش الاحتلال وجيش جزائر الاستقلال، وحجة النظام في ذلك أن سكان هذه المنطقة عملاء وانفصاليون ومعادون للدين والوطن، صاحب هذه الدعاية ضد القبائل إصرار نظام (بن بلة وبومدين) على الحديث صباح مساء عن عروبة الجزائر.

إن الثقافة الأمازيغية بكل ما تحتويه من عادات وتقاليد وتاريخ ولغة "حسب سالم شاكر تعتبر في وجودها الموضوعي كواقع ونموذج اجتماعية قد تشكل جزءاً أساسياً من حرية الشعب الجزائري لاعتبارات إيديولوجية وسياسية، ورثت من عهد الاستعمار تتخذ السلطة موقفاً سلبياً في طرحها اللغوي الثقافي، ونفعي في تعاملها مع التاريخ وانطلاقاً من منظور أحادي التحليل في اقترابها الاجتماعي تنتقي هذه الأخيرة مرحلة من مراحل تاريخها الحضاري وتحدد بصفة نهائية انتماءها للثقافة العربية الإسلامية كموروث ثقافي إنساني وكجزء لا يتجزأ من كيان المجتمع الجزائري (29)".

فما فتأ النظام الجزائري يبالغ في الحديث عن الجزائري العربية الإسلامية، هذه الفكرة التي تحمل في طياتها بذور التشييت وضرب الوحدة بدل تمتينها، فكان على هذا النظام أن أراد الضير للبلاد التركيز مثلاً على الجزائر إسلامية لأن الإسلام هو العنصر الذي يمحو كل الفوارق والحساسيات والانتماءات العرقية، والغريب في الأمر أن هذا النظام الذي كان يرفع شعار (الجزائر العربية الإسلامية) لأسباب خفية كان في الوقت نفسه يحارب بالأفعال والممارسات الإسلام واللغة العربية. "... بعدما صادرت الدولة كل مقومات الأمة (اللغة الدين) وأصبحت ملكاً لها، وليس للشعب الذي حرم من بناء مشروعه التنموي من وحي مقوماته الذاتية" (30).

وهكذا اعتبر النظام إبعاد منطقة القبائل عن الإسلام هو الحل في استراتيجيتها لأن ذلك يسمح لها بعزل المنطقة ثم محاصرتها بالمناطق الأخرى وضربها عند أي تحرك ضد السلطة المركزية، وهذه الاستراتيجية لا تبدو بالبعيدة عن تلك الاستراتيجية الاستعمارية، التي تجعل الصراع بين أفراد الشعب لتبقى السلطة والنظام في وضعية المتفرجين أو بقراءة أخرى تقاسموا هذه الروحيات من عقائد وطقوس وممارسات واتركوا لنا الماديات من بنوك وعائدات النفط...الخ.

تشكلت ظاهرة في تاريخ الجزائر المعاصر تتمثل في أنه كلما تحرك القبائل ضد النظام تبنت المناطق الأخرى موقف العداء لمنطقة القبائل، وكأنها النظام نفسه مثلما حدث أثناء "تمرد الأفافاس في عام 1963م، وأحداث تيزي وزو 1980 ثم أحداث 2001. ويمكن القول أن الريبة والشك بين منطقة القبائل والمناطق الأخرى من الوطن هي أحد العوامل التي أمدت في عمر النظام الجزائري"³¹. فغياب الوحدة بين أفراد الشعب تعود إلى سياسة محكمة وضعت منذ الاستقلال تستند على مبدأ "فرق تسد".

كان نظام الحزب الواحد منذ الاستقلال يصير على قمع أي تظاهرة ثقافية في منطقة القبائل بحجة الخوف على الوحدة الوطنية. ويتجلى ذلك على سبيل المثال: طرد (سعيد سعدي) وآخرين من ثانوية عميروش في عام 1967، نظراً لإسراهم على مسرحية بالقبائلية في إحدى الحفلات بالمؤسسة التربوية، كما منعت (طاوس عمروش) وفنانين قبائل آخرين من المشاركة في المهرجان الثقافي الإفريقي بالجزائر في صيف 1969. "فضلاً عن تضيق الخناق لعدة حفلات أخرى في عمق منطقة القبائل مثلما حدث في مدينة (الأربعاء ناث ايراثن) بولاية تيزي وزو) أثناء الاحتفال بعيد الكرز في جوان 1974، الأمر الذي أدى إلى اصطدامات دموية خطيرة زيادة على إقصاء الأمازيغية مكن التلفزة ومن المشاركة في الوفود الثقافية المسافرة إلى الخارج، اللهم إلا من تمثيل فلكلوري محتشم لا يرقى إلى مستوى تمثيل البعد الأمازيغي في الهوية الجزائرية"³².

كما مارس بعض المسؤولين في جهاز العدالة والمؤسسات التربوية ومختلف أسلاك الإدارة سلوكيات استفزازية إزاء المواطنين، فكم من مرة أهينت كرامة البعض في المحاكم بسبب جهلهم للعربية. إن هذه بعض الأمثلة عن ممارسات الغير مسؤولة وكان لها انعكاس سلبي على الوحدة الوطنية. لأنها دعمت أكثر وأعطت الشرعية والمصادقية للعنف الذي انجر عنها فيما بعد، الذي راح ضحيته العديد من الشباب سواء من شباب المنطقة، أفراد من الشرطة ومختلف أجهزة الدولة.

8- المعارضة التقليدية للمنطقة بين المسألة الثقافية وهاجس الجهورية:

إن عودة المطلب الأمازيغي إلى الساحة الوطنية، خاصة سنة 2001 حين نظمت منطقة القبائل مظاهرات حاشدة في الجزائر العاصمة، إلا نتيجة لتطور بطيء وخفي لطرح يعود أصله بشكل خاص إلى أزمة (1949) أين حاول قبائل الحركة الوطنية الأخذ بعين الاعتبار البنات السياسية والاقتصادية الأمازيغية، واثقين أن هذا الطرح قد يعطي للمؤسسات الجزائرية المستقبلية، الطابع الاجتماعي الديمقراطي، غير أن تناقض هذه النظرة مع التيار العربي الإسلامي ذات الانتشار الواسع عبر الوطن العربي عامة والجزائر خاصة. وذات النظرة الموحدة للحضارة واللغة والثقافة، أدت إلى خلق شروط تجمع فيها بين الموضوعية والذاتية، جعلت من الطرح الأمازيغي يتخذ إشكالية الجهورية القبائلية، بعيدة كل البعد عن أية مرجعية اجتماعية واقعية.

هذه العلاقة غير الواضحة في اقترابها الاجتماعي بالتركيبة الثقافية القبائلية لتحديد هوية الشعب الجزائري، جعلها تتخذ شكلاً من أشكال الصراع الجهوي الإيديولوجي، كانت فرصة للتيار العربي الإسلامي

للاتهام والإشارة للقبائل بالرجعيين المتعاونين مع السياسة الاستعمارية، لذ يعتقد المؤرخ الجزائري محمد حربي أن الصراعات الإثنية في الجزائر ظهرت إبان الفترة الاستعمارية، وبالتحديد في السنوات العشرين من هذا القرن، حيث برز التمدد البربري من جهة والتمذهب العربي الإسلامي من جهة أخرى... وقد مست أغلبية الأحزاب المتواجدة على الساحة. كما أنها لم تخرج من إطار النخبة، فلم تكن موضوعاً مطروحاً عند العامة". خاصة أثناء فترة الاحتلال والسنوات الأولى من عهد الاستقلال، أما فيما بعد فبفضل انتشار وسائل الإعلام، وما حدث من مواجهات في منطقة القبائل بين المواطنين، وعناصر الشرطة حتى أجهزة الأمن الأخرى مثل الدرك الوطني والشرطة القضائية... الخ. جعل القضية معروفة على المستوى الوطني حتى الدولي، كان الصراع في البداية إذا مطروح على مستوى النخبة، من مثقفين وقادة الحركة الوطنية والأحزاب السياسية فيما بعد. فكان أغلب قيادات المعارضة آنذاك سياسيون من منطقة القبائل "في حين نجد أن هناك جهويات معارضة كجهوية أبناء منطقة القبائل التي عبرت عن نفسها بعدة أشكال سياسية"⁽³³⁾.

ومن هؤلاء يمكن لنا ذكر (آيت أحمد) الذي أسس الأفافاس عام 1963 وكريم بلقاسم الذي شكل "الحركة الوطنية الديمقراطية من أجل التجديد الجزائري mdra" عام 1967، أما محمد بوضياف فبالرغم من أنه ليس قبائلي إلا أن (حزب الثورة الاشتراكية PRS) يضم في صفوفه نسبة كبيرة من القبائل تصل الى حوالي 70% حسب رمضان رجالة الذي كان عضواً بارزاً فيه.

"وكرد على إصرار ميثاق 1976، على عروبة الجزائر، يقول حزب PRS أن "اللغة البربرية حقيقية فهي اللغة الأم لفئة من الجزائريين، فيجب الاعتراف بها والمحافظة عليها وترقيتها كجزء لا يتجزأ من تراثنا الوطني. فإن إثراءها تحويلها إلى شكل مكتوب وتعليمها ونشرها يجب أن يكون مضموناً"⁽³⁴⁾. لكن الحزب سرعان ما دفع الثمن باهضاً بطرحه للمسألة الأمازيغية، لأن ذلك أدى إلى انشقاق خطير بين العرب أو بالأحرى الناطقين بالعربية والناطقين بالأمازيغية، مما يدل على أن النزعة العرقية والجهوية التي كانت أقوى من الأيديولوجية الماركسية التي تبناها الحزب.

ونتيجة لهذه المعارضة التقليدية لمنطقة القبائل، والغيوبة التي تعيشها بعض المناطق وتواطؤ البعض الآخر منها مع النظام بجعل منطقة القبائل تقع رهينة الجهورية، ذلك ما جعل بعض المثقفين مثل سالم شاكر، رغم مكانته العلمية ووزانته البارزة ورفضه للعنف كوسيلة عمل، إلا أنه مال كل الميل إلى مشروع الاستقلال الذاتي بطريقة عاطفية، موضوعية في أن واحد فقد تحدث في كتابه الأمازيغ وقضيتهم في بلاد المغرب المعاصر عن نزعة الانعزالية بوضوح كما تطرق إلى الجهورية التي حاصرت منطقة القبائل حينها "اعتبر اغتيال عبان رمضان، واحتمال موت العقيد عميروش نتيجة للصراع بين العرب والقبائل". كما أنه رفض إعطاء البعد الوطني للأمازيغية، حتى الشعار المتداول بين صفوف الحركة الثقافية الأمازيغية (MCB) الأمازيغية لغة وطنية، المستعمل حالياً من طرف الأحزاب السياسية القبائلية يبدو غير مرغوب فيه مقابل تحمسه لإعطاء الطابع الجهوي لها بحصرها في منطقة القبائل خدمة لمشروع الاستقلال الذاتي.

9- الربيع الأمازيغي 1980 :

إن المطلب اللغوي الأمازيغي أو الثقافة الأمازيغية ككل هي طموح يعبر عن مدى وعي الوسط الشعبي القبائلي بخصوصيته الثقافية واللغوية التي تعتبر جزءاً أساسياً من هويته التي تعبر عن وجود يعود أصله إلى ماضي حضاري قديم.

"بحيث يرى (سالم شاكر) أن الوعي الاجتماعي الثقافي الأمازيغي ظاهرة قديمة توجد بضمائر القبائل، وأحداث 1980 ما هي إلا تمثيل لإرادة ورغبة القبائل في استعادتهم لهذا الماضي بأنفسهم الذي يرمز لأصالتهم⁽³⁵⁾.

وكانت هذه الأحداث امتداداً لجملة من المحطات في تاريخ النضال من أجل الهوية الجزائرية انطلاقاً من أزمة (1942) أين حاول قبائل الحركة الوطنية الأخذ بعين الاعتبار الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري، ورفضهم للطرح العربي الإسلامي كمرجع تاريخي وحيد للهوية الثقافية، إلا أن فكرة الاستقلال أخفت هذا الصراع إلى حين... لكن سرعان ما ظهر إلى الوجود بعد الاستقلال، وكان ذلك في أزمة جبهة القوى الاشتراكية (FFS)، حيث تحولت إلى انشقاق مسلح بقيادة آيت أحمد، والتي دامت من سبتمبر 1963 إلى جوان 1965، خاصة في منطقة القبائل، هذه الحلقة تظل غامضة من ناحية المتتبع للفكرة والبربرية... وعلى مستوى الحركة الشعبية، مع ذلك فإن الأكد أن الخصوصية البربرية التي لعبت دوراً محدداً في الانفجار الأول... فهذه الأزمة البربرية 1963 يمكن أن تعتبر جزئياً محاولة بربرية غير معلنة أو خجولة⁽³⁶⁾.

إن هذه المحاولة وإن لم يفصح عنها بتوجهها البربري الأمازيغي بصفة معلنة، أخذت أبعاداً وأشكالاً أخرى للتبلور في مطالبة ثقافية في 1967 عندما أنشأت في باريس الأكاديمية البربرية.

وفي عام 1973 يضيف النظام إلى رصيده خطوة أخرى نحو القمع الثقافي، بإلغاء كرسي البربرية الذي يديره الكاتب (مولود معمري). "وفي ماي 1977 في ملعب الجزائر تعلوا الهتافات بالمطالب الثقافية، البربرية أمام المسؤولين الرسميين والرئيس هواري بومدين لتصبح معلقة بعد ذلك، وتطبع بخاتمها كل سخط أو احتجاج ضد الحصر الذي خنق المجتمع⁽³⁷⁾".

كل هذه المحطات التي رصدناها أدت إلى انفجار الربيع الأمازيغي الذي تحول من احتفال سنوي إلى مواجهات دامية في (تيزي وزو) سنة 1980، عندما منعت السلطة الكاتب والمتخصص في التراث والثقافة الأمازيغية "مولود معمري" من إلقاء محاضرة حول الشعر الأمازيغي بجامعة تيزي وزو، وذلك بحجة أن هذه المحاضرة ليست السبب، وإنما وراء ذلك عملية مقصودة. فهذه الأحداث يمكن أن تقع باختراع سبب آخر. وأن شخصية معمري ما هي إلا ذريعة لتحقيق أغراض استعمارية، بدليل أنه لم تتم دعوته إلى المركز الجامعي منذ تأسيسه، وأن وراء الأحداث مؤامرة خارجية تهدف إلى النيل من الوحدة الوطنية تحت غطاء الثقافة الأمازيغية.

حاول النظام القائم معالجة المسألة من جذورها وراح يستعمل نفس الايديولوجية المتمثلة خاصة في التهميش والإقصاء واحتواء، ذلك من خلال بعض وسائل الإعلام، ففي أول مقال لها بعد عشرة (10) أيام من الأحداث تذكر جريدة المجاهد باللسان الرسمي لجبهة التحرير الوطني تحت عنوان، ملقنو الدروس (les donneurs de leçons)، ما يلي: "لا يمكن أن نربط مصير الشباب الجزائري، وأن الثقافة العربية الإسلامية دخلت عادات وتقاليد شعوب شمال أفريقيا بصفة عامة⁽³⁸⁾". وفي عدد آخر نشرت نفس الجريدة برقية لوكالة الأنباء الجزائري (A.P.S) تحت عنوان: محاولات التظاهر في باريس والجزائر، تقول فيه: "حاول بعض الشباب تنظيم مظاهرات في العاصمة وأكد هؤلاء على طابعها الثقافي، وذكرى البرقية أن بعض الجهات، حاولت استغلال الشعور الصريح البربري للشباب، وقالت أن التمسك بالميثاق الوطني هو ضمان لسد الطريق أمام محاولات التفرقة والاستعمار الجديد".

من خلال هذا تتجلى لنا المفارقة الواضحة بين الخطاب الرسمي والواقع، فيما يخص المسألة الثقافية، فالمطالب أعلنت وبصراحة عن مسألة جوهرية ألا وهي قضية الهوية الثقافية للمجتمع والشعب الجزائري، وقد أعلنت عن نفسها في تشكل حركة ثقافية سياسية، تجاهلها النظام وخطابه الرسمي من خلال المواثيق والنصوص الرسمية.

ولأن المشكلة لم تحل والمسألة بقيت عالقة قرابة عقدين من الزمن أي منذ الاستقلال، فإن الأحداث عرفت عدة تشعبات لأن تدخل مختلف قوات الأمن زاد الطين بلة عندما باشرت عملية الاعتقالات للطلبة والعديد من الشباب الذين كانوا رفقة الطلبة داخل الحرم الجامعي.

كما أن المظاهرات انتقلت من منطقة القبائل نحو شوارع العاصمة لتحتضن ساحة أول ماي تجمعاً غفيراً للشباب وجموع المتظاهرين الذين حوصروا من طرف قوات الأمن، كما قد مست المظاهرات سفارة الجزائر بفرنسا، وامتدت مباشرة إلى ولاية بجاية لتمس كل من القصر آقبو وأميزور.

رغم ذلك فقد صرح رئيس الجمهورية الشاذلي بن جديد أثناء اختتام أشغال الملتقى الجهوي لسادس للتخطيط، أن الجزائر دولة عربية مسلمة، وأن اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد، نفس الأسلوب الذي اتسم به تدخل وزير التعليم العالي إثر زيارته لولاية تيزي وزو السيد (عبد الحق برارحي). وأضاف رئيس الجمهورية قائلاً: "إننا تحدثنا عن اللغة الوطنية وضرورة إعطائها مكانتها من جديد في ظل الدولة الجزائرية العربية المسلمة، لكن لا يمكن أبداً التساؤل حول هويتنا"⁽³⁹⁾.

على الرغم من أسلوب الشدة هذا الذي تميز به الخطاب السياسي خاصة بعد التهديدات التي قام بها وزير التعليم العالي، القاضية بفصل كل الطلبة والأساتذة الذين لم يلتحقوا بمناصبهم، إلا أن الإضراب تواصل، حيث شكل المضربون ثلاث لجان عمل: لجنة وحدة الطلبة والعمال، ولجنة الديمقراطية، ولجنة تطور الحركة، الأمر الذي فاقم من حدة الأزمة خاصة في ظل عدم الاكتراث بالسلطة، والمصالح التي جندتها ضد المتظاهرين، الأمر الذي أدى إلى نشوب مشادات جديدة بين الطرفين لعدة أيام انتهت بجرح واعتقال العديد من المتظاهرين من طلبة والعمال التابعين لمستشفى محمد نادير ومصنعي سونيلاك وسنيتاكس. وهكذا كانت الأحداث أليمة والخسائر كبيرة، وكأن "العنف ينطوي على قيمة الفضيلة في المخيال السياسي لهذا البلد"⁽⁴⁰⁾. بدليل عدم أخذ الأحداث على محمل الجد ومعالجة المسألة بحل يرضي كل الأطراف، وأمام هذا الانسداد السياسي عانت الجزائر أشواطاً أخرى من العنف نتيجة أزمة أطبقت جناحيها على البلاد، من كل النواحي وعلى جميع الأصعدة مست كل شرائح المجتمع. وأكثر هذه الأشواط أهمية في تاريخ المجتمع الجزائري "الهبهان الجماهيري الواسع للشارع الجزائري في أكتوبر 1988، يعبر عن أزمة خطيرة بلغت أوجها من النضج حتى انفجرت بذلك الشكل المدهش، إن هذا الانفجار الشعبي العام قد سبقته انفجارات شعبية محلية بتيزي وزو وبجاية في ربيع 1980، وفي قسنطينة، سطيف بعد ستة أعوام، وفي وهران بالغرب الجزائري، وفي ورقلة بالجنوب و برج بوعريج وغيرها من المدن، وقد رفعت جميعها شعارات إما الدعوة إلى الاهتمام بالأمازيغية كثقافة وطنية، وإما التنديد بالمظالم الاجتماعية كالمحسوبية واللامساواة، وإما التعبير عن التذمر من مشاكل التموين والبطالة"⁽⁴¹⁾.

ما يمكن ملاحظته من خلال تحليلنا، نجد أن مشاريع السلطة فيما يخص الجهود المبذولة من أجل الترقية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، لم تكن متوازية مع الحياة الثقافية أي لم تكن نفس درجة الاهتمام للجانب الثقافي كنقطة تغيير مركزي لكل تقدم اجتماعي. ما حدث في الجزائر هو العكس تماماً فكان

الاهتمام بسياسة التصنيع وتهميش المسائل الثقافية، وكذا ذهنية الفرد التي أتت على الأخضر واليابس فيما يخص ممتلكات الدولة، حيث اعتمدت سياسة النهب والسرقة في كل مكان، من مصانع وشركات ومؤسسات، إلى درجة (تحليل) السرقة إذا كانت في القطاع العمومي، هكذا كانت ذهنية المواطن الجزائري، وربما مازالت كذلك، وهذا يعود ربما إلى غياب ثقافة يسير عليها المجتمع أو غياب الوعي القومي بضرورة الحفاظ على هذه الممتلكات التي هي من المفروض مصدر حياة ومصالح مشتركة بالنسبة للمواطن.

"فالأجيال الشابة باتت بلا وازع أخلاقي لأنها لم تتلق التنشئة الجادة والمدرسة، وباتت بلا غايات، إلا غاية الارتزاق الأمر الذي هون عليها أن تكون مسحوقة في أعماقها، مهينة دائماً للتدمير والتنازع والعنف" (42). فالنظام الجزائري كتب ما أراد على ذهنية الفرد الجزائري، باعتباره أمام عهد جديد وهو عهد الاستقلال الذي كان ينتظر منه الكثير نظراً للطريق الشاق الذي سلكه لتحرير البلاد.

وهذا له دلالة ثقافية سياسية، تعكس أزمة الهوية الثقافية التي تتمثل في غياب إجماع حول تحديد ثوابت هذه الهوية ومحاورها الكبرى كنتيجة لإعادة الإنتاج التي يعيشها المجتمع منذ الاستقلال: "فالأزمة التي يعاني منها المجتمع الجزائري هي أزمة الايديولوجيات المتحجرة في أوساط الأفراد العاديين، أو المواطنين البسطاء الذين أصبحوا لعبة في أيدي أطراف يلغون إليهم سوى ما يثير التصادم والبقاء في حلقة مفرغة وتبادل التهم... وإنكار الذات" (43).

وقد اعتمد النظام على عدة ركائز منها ركيزتين أساسيتين:

1. "تعرف الأنظمة السياسية في العالم الثالث ظاهرة تميز الرئيس بجاذبية خاصة "كارزمية"، حيث تسمح الظروف بانفراد شخص واحد بميزات خاصة تجعله في مركز الصدارة في النظام السياسي... أين يجمع الرئيس بين يديه مناصب عدة، رئيس الدولة، ورئيس الحكومة، والأمين العام للحزب الحاكم فضلاً عن وزارة الداخلية والمالية والإعلام" (44). وقد كان هذا مكرساً في عهد الرئيس بومدين وبن جديد وهنا تكون العلاقة بين الرئيس والشعب من أقوى وسائل الاتصال والتوحد الجماهيري من ناحية وأهم أدوات التعبئة من ناحية أخرى، وهذا يعود إلى الوعي السياسي والقوانين العامة لحركة المجتمع لدى أفراد المجتمع.
2. الحزب الواحد المتمثل في حزب جبهة التحرير الوطني، الذي استمد كل شرعيته من الثورة أو بالأحرى من انتصار جهوي عقب الثورة مباشرة، تنصهر بقية المؤسسات، بل هي الدولة بعينها. ولم تكن الأزمات والأحداث التي مرت بها الجزائر إلا محصلة وتعبيراً عن أزمات عانى تبعاتها النظام السياسي، منها أحداث الربيع الأمازيغي 1980.

فإن ضخامة الأحداث وتواليها فيما بعد في منطقة القبائل أو خارجها أثبتت عجز النظام عن القيام باحتواء الأزمة، والكف عن توجيه التهم للآخرين متناسياً دوره، وبحجة أن هناك أطرافاً خارجية توظف منطقة القبائل لصالحها.

ولأن ظاهرة الاحتفال بالربيع الأمازيغي تحمل في طياتها وأبعادها ومضامينها ما لا يحبه النظم إطلاقاً، فإن السماح بقيام مثل هذه الاحتفالات وإلقاء مثل هذه المحاضرات، يعني التعددية الثقافية وبالتالي في يوم ما الحزبية، والنظام كان يدرك جيداً الوعي السياسي الذي يميز هذه الجهة أو المنطقة، هذا ما جعله (النظام) "يعيش هاجس الأمن، فيترقب اختراق مهما قل شأنه يחדش جدار الأمن لديه، أساس الطلاق بين المواطنين والنظام أو السلطة وحدها المنبع" (45).

10- تقييم الأحداث وانعكاساتها:

هي أحداث أفرزتها التجربة التاريخية التي اكتسبها سكان المنطقة، وعلى رأسها أزمة 1949، وحتى لا نعود إلى أبعد من ذلك تاريخياً من حيث المنهج لابد من التحديد هنا والقول أن هذه الأحداث لا تقي كل شيء ولا تفسر الأزمة التي يعاني منها المجتمع الجزائري بصفة عامة ومنطقة القبائل بصفة خاصة من الناحية الثقافية، وحتى نكون أكثر توضيحاً إن هذه الأحداث كانت بداية للإعلان الصريح في منطقة القبائل بضرورة إعادة النظر ورد الاعتبار لهوية الإنسان الجزائري، خاصة في مرحلة التعددية الحزبية.

بعد أحداث الربيع الأمازيغي مباشرة وبالصيقل وبالصبر إثرا انعقاد ملتقى بمنطقة اعكوران بولاية تيزي وزو، من 1 إلى 30 أوت 1980، تم تأسيس الحركة الثقافية البربرية لتقييم الأحداث والخروج ببرنامج عمل مستقبلي، أساسه مراجعة التاريخ، مناقشين فيه مختلف الجوانب الثقافية والسياسية، وذلك بطرح إشكالية الهوية الأمازيغية معارضين بذلك ثقافة النخبة التي فصلت تماماً معظم الشرائح الاجتماعية عن واقعها الاجتماعي والثقافي.

"ويعد هذا الملتقى أول مؤتمر للحركات البربرية في جزائر الاستقلال فقد شارك فيه العديد من الشخصيات كـ"مولود معمري" وتلميذه "سالم شاكر"، "كاتب ياسين"، وبعض الفنانين كذلك نجد منهم "آيت منقلات"، "فرحات مهني"، بالإضافة إلى نشطاء سياسيين كـ"سعيد سعدي"، "سعيد خليل"، "أرزقي آيت العربي" الذين كانوا مناضلين في حزب الأفافاس، بالإضافة إلى مناضلين في الباكس الستاليني، والمرحوم محمد راشدي مسؤول الحزب الاشتراكي للعمال التروتسكي، ولؤيزة حنون مسؤولة الحزب الاشتراكي للعمال التروتسكي، الذي تحول إلى حزب العمال" (6 4).

وقد انبثق عن الملتقى وثيقة ايعكوران 1980 التي تعد أساسية ذات أهمية للحركات البربرية، وأصبحت تشكل أرضية وقاعدة لنضالاتها ومطالبها في هذه المرحلة الأولى أي قبل عام 1988، وطرحت هذه الوثيقة المشكل الثقافي في الجزائر انطلاقاً من مسألة الهوية حيث ترى أن الجزائر ليست عربية كما يصرح النظام الذي قام بعملية "المرج وإدخال الالتباس بين العربية التي تعتبر أحد حقائق البلاد والنزعة العربية التي تعتبر ايدولوجية القوميين العرب" (7 4).

اشتدت المواجهات بين دعاة البربرية والنظام بعد رفض السلطات لكل المطالب التي حملتها وثيقة ايعكوران، فقد اندلعت مظاهرات في بجاية وأقبو في 19 ماي 1981. كما احتلت قوات الأمن جامعة تيزي وزو من 13 أوت إلى 6 سبتمبر، لمنع إقامة الجامعة الصيفية التي تبحث في الثقافة واللغة والأمازيغية، وإعداد التنظيم اللازم لمواجهة سياسة النظام، الذي يبدو أنه ندم كثيراً على فتح مركز جامعي بتيزي وزو، الذي أصبح مصدر قلق وإزعاج، فحاول توجيه الكثير من الطلبة الناطقين بالعربية إليه كي لا يبقى حكرًا على الطلبة القبائل، وتحت سيطرة ذوي الثقافة الأمازيغية.

كما عمل النظام كذلك على إحداث تغيير في البنية الشكلية للمنطقة بإعطاء مساكن ومناصب عمل للكثير من المواطنين الناطقين بالعربية، بالإضافة إلى التقسيم الإداري الجديد في عام 1981، عندما أعاد النظام رسم خريطة الولايات التي يتواجد بها القبائل وتوزيعهم على سبع منها، وهي: تيزي وزو، الجزائر العاصمة، بجاية، بومرداس، البويرة، سطيف وبرج بوعريج.

انتقل دعاة البربرية من الاصطدام المباشر مع النظام إلى منافسته على الفضاء الثقافي، فركزوا عملهم على النشاطات الثقافية بإنشاء مجلات سرية TAFSUTH منذ 1983، وظهور كل من مجلتي Awal، كما أنشأت فرقاً مسرحية ونشرت كتباً وأدباً مثل رواية Askuti، أي الكشاف لسعيد سعدي وFafa لرشي عليش وIddwers لعمار مزداد وغيرها من الكتب التي تكفلت دار Fredrop الفرنسية بنشرها.

إلا أن الأهم في هذه الاستراتيجية الجديدة في منافسة النظام نقطتين أساسيتين، هما:

الشرعية الثورية والتاريخية ورفع مطالب وحقوق الإنسان كما سنرى فيما بعد، هاتين النقطتين تتدرجان ضمن المساعي والأهداف الرامية إلى استعادة المقومات الشخصية، "جاءت المصادرة لعناصر الهوية الوطنية بمفارقات خطيرة فكل الأزمات التي شهدتها الجزائر في العقود الماضية تتمثل في محاولة استعادة المجتمع لمقوماته الذاتية: أحداث ربيع 1980 المتعلقة بالمطلب الأمازيغي" (48).

تشكلت لجان في القرى والمؤسسات هدفها تدريس الأمازيغية بعد الأحداث مباشرة، وربط ذلك بتقديم خدمات اجتماعية، والمساعدة على حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي عجز النظام أو بالأحرى لم يرد النظام حلها. لكن سيطرت الشيوعيين على الحركة فإن هذه اللجان أوكلت إليها مهمات أخرى ألا وهي: محاربة الدين الإسلامي، وكانت عناصر من النظام وراء هذا التخطيط "وتشجيع هذا التوجه المعادي للدين الذي يقوده الشيوعيون، لأن من شأن ذلك توسيع هوة التناقض بين أكبر قوتين معارضتين للنظام، وهما التيارات الإسلامية والبربرية، كما يسمح ذلك للنظام بعزل منطقة القبائل عن المناطق الأخرى وضرب هذا بذاك لدى كل خطر يهدده". يمثل هذه الاستراتيجيات للنظام تجد منطقة القبائل نفسها منعزلة جهوياً تحت وطأة سياسة النظام الرامية إلى "جعل منطقة القبائل جزيرة معزولة معادية للمحيط الوطني" (49).

أما فيما يخص توظيف دعاة البربرية لمسألة حقوق الإنسان ضد النظام فقد بدأ هؤلاء يفكرون منذ عام 1984 في إنشاء "منظمة بربرية للدفاع عن حقوق الإنسان" لمواجهة القمع الممارس ضدهم، والعمل على الانضمام إلى الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان بهدف إعطاء بعد دولي للمسألة البربرية.

لكن يبدو أن شبخ الجهوية يطارد منطقة القبائل ونشاطاتها خاصة، في كل قضية وفي كل عمل يباشرونه، خشي المناضلون إعطاء الصبغة الجهوية لمنظمتهم مما يعطي الفرصة للنظام بإمكانية توظيف ذلك لعزلهم عن باقي جهات الوطن، "فشرع المحامي حسين زهوان في التحرك والاتصال بالعديد من الحقوقيين والمناضلين التروتسكيين الناطقين بالعربية لإقناعهم بتأسيس منظمة وطنية للدفاع عن حقوق الإنسان، لكن نشب خلاف بين القبائل والناطقين بالعربية عشية الإعلان عن ميلاد هذه المنظمة" (50)، ويعود سبب الخلاف إلى رغبة كل طرف في قيادة المنظمة، فأراد الناطقون بالعربية تنصيب المحامي (عمر منور) الأمر الذي رفضه الناطقون بالأمازيغية، فأرادوا تنصيب علي يحي عبد النور، أدى هذا الانشقاق إلى انفصال المناضلين القبائل، وأنشأوا "الرابطة الجزائرية لحقوق الإنسان LADH" في 30 جوان 1985 برئاسة علي يحي عبد النور الذي كان نقابياً ثم وزيراً في بدايات الاستقلال، ثم بعد ذلك انضمت الرابطة إلى الفيدرالية لحقوق الإنسان في 1985/11/2.

لقد دافعت هذه المنظمة عن كل إنسان تعرض للقمع والاضطهاد بغض النظر عن انتمائه الإيديولوجي. فكما دافعت عن المناضلين القبائل دافعت عن الشيوعيين والإسلاميين ذلك ما أعطاه المصادقية لتصبح عرضة لعراقيل وضغوطات النظام، لأنها كانت أول منظمة تعبر وتؤدي بصدق واجبها.

أما فيما يخص منافسة النظام حول الشرعية الثورية، فقد تحركت مجموعة من المناضلين فأسسوا الجمعية الثقافية "Thighri" التي تعني "الصرخة" أو النداء، هدفها الاهتمام بتاريخ الثورة والحركة الوطنية لمواجهة التاريخ الجزائري المكتوب بالمحاة، لكنه تم رفض إعطاء الاعتماد لهذه الجمعية، مما أدى إلى تحويل هذه الجمعية الثقافية والتاريخية إلى فيدرالية لأبناء الشهداء، لكن النظام أجاب بالرفض مرة أخرى بل أكثر من ذلك، ألقي القبض على بعض أعضاء الفيدرالية عندما حاولوا أخذ الكلمة بصفتهم أبناء الشهداء في ملتقى الولاية الثالثة حول تاريخ الثورة. وكان على رأس هؤلاء المعتقلين نور الدين آيت حمودة، ابن العقيد عميروش والفنان فرحات مهني، والمحامي مقران آيت العربي عضو مجلس الأمة السابق، ورايح شيخون. رئيس هذه الفيدرالية وأمين ولائي للجمع الوطني الديمقراطي RND بتيزي وزو عند تأسيسه.

ونفس السيناريو تكرر أثناء الاحتفال بعيد الاستقلال في 5 جويلية 1985 عندما حاول بعض أعضاء هذه الفيدرالية وضع باقات الورد على مقابر الشهداء في كل من تيزي وزو، بومرداس، خنشلة ومناطق أخرى من البلاد.

أمام الخرق والانتهاك لحقوق الإنسان بسبب قضية تبدو عادية وبسيطة لكنها كبيرة وخطيرة بالنسبة للنظام، ولذلك تم نقل المعتقلين إلى سجن البروقية، وكان من بينهم نور الدين آيت حمودة، رابح شيخون، أرزقي آيت العربي وعلي فوزي رباعين، ونصر الدين بابوش وبلقاسم عجرود، مما دفع الرابطة إلى التنديد بهذه الممارسات والدفاع عن المعتقلين بمحكمة المدينة، إلا أنه تم اعتقال المسؤول الأول عن الرابطة على يحي عبد النور، ثم سعيد سعدي أحد أعضائها البارزين، لحاجة في نفس النظام. لتصدر أحكاماً تتراوح ما بين ثلاث سنوات وستة أشهر على المعتقلين، إذن: لقد كان انفجار 20 أفريل 1980 دليل واضح على الخصوصية الجزائرية وذلك انطلاقاً من واقع التجربة السياسية والخصوصية التاريخية، لذا كانت الأحداث بمثابة انطلاقة صريحة لمسلسل العنف بمختلف أشكاله، وإن كانت أحداث 20 أفريل غير متفق عليها أيديولوجياً وجوياً إلا أنه ومع مرور الوقت جاء الجواب بالانفجار الشامل في تشرين الأول / أكتوبر 1988.

لتجد نفسها في أزمة متعددة الأوجه والأبعاد يطفئ عليها العنف المتبادل الذي قد تحول إلى قانون فاعل في الحياة السياسية وأسلوب عمل الدول والمجتمع... ولأن العنف ظاهرة عميقة وممتدة تاريخياً فإننا نستبعد عنها أي طابع عفوي وتلقائي مؤكدين في الآن نفسه الطابع النبوي للظاهرة⁽⁵¹⁾.

خاتمة:

المشروع الاجتماعي الجزائري بعد الاستقلال لم يستطع أن يجدد الطرح الذي يقتضي إنتاج أيديولوجية جديدة للإنسان "المحرر" ذو خصوصية جزائرية تعيد صياغة ثوابت الهوية الوطنية وتعطي المكانة اللازمة للبعد الأمازيغي في الشخصية الجزائرية، وهذا يعود إلى عدة عوامل منها:

سياسة التصنيع التي انتهجها النظام السياسي بعد الاستقلال مباشرة وتجاهل الجانب الأهم في الإنسان، والفرد الذي سيقوم بهذا التصنيع ألا وهو: هويته الثقافية، هذا الاقتصاد للجانب الثقافي في الجزائر أثار ذوي النزعة الأمازيغية إلى البحث عن منافذ جديدة للتعبير عن آراءهم وأفكارهم التي سيواجهون بها استراتيجية النظام القائم، فكانت وجهتهم الدول الأجنبية بالتجديد فرنسا أين تم تأسيس الأكاديمية البربرية.

لقد كان النظام الجزائري للسبعينيات يسير على أسس وقوانين الجمهورية التي تضمنها الدستور الوطني لسنة 1963.

إلى غاية إنشاء دستور 1976، الذي لا يختلف عن سابقه، وهذا دليل على أن النظام لا يتغير بتغير الأشخاص واستراتيجية النظامين (بن بلة، وبومدين) لا تختلف في مضمونها، وقائمة على أسس ثابتة، العروبة، الاشتراكية، الإسلام، فكانت جل النصوص الرسمية بمثابة تكريس فعلي لظاهرة الجمهورية الإثنية في الجزائر.

الانسداد السياسي الذي طبع المرحلة الممتدة بين (1962- 1988) و للإفلاس الاقتصادي والانهيار الذي عرفته منظومة القيم يعكس القطيعة بين مبادئ الثورة كمشروع و الجزائر المستقلة. جوهر الخاتمة التي يمكن استنتاجها في هذا المقال هو ان ظاهرة الهوية الاثنية في المجتمع الجزائري اخذت ابعادا واشكال اخرى باعتبار انها ابحت تمارس على اساس أيديولوجي ديماغوجي تعصبي جعل منها سلطة احادية كانت وما تزال في الكثير من الاحيان السبب المباشر في الصراعات ومختلف الازمات التي عرفها المجتمع الجزائري بين الاتجاهين الرئيسيين وفي مستويات ادنى بين الجهات والمناطق والمدن والاحياء والعائلات .

- قائمة المراجع:

1. جابي (عبد الناصر): الانتخابات، الدولة والمجتمع، دار القصة للنشر، الجزائر.
2. الرياشي (سليمان) وآخرون: الأزمة الجزائرية، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.
3. شرابي (هشام): النقد الحضري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، ط1، لبنان، بيروت، 1990.
4. عشراتي (سليمان): الشخصية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص 2002.
5. فراد محمد (أرزقي): إطالة على منطقة القبائل، دار الأمل للطباعة والنشر، الجزائر، 2006.
6. القمودي (سالم): سيكولوجية السلطة، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر: 1999.
7. بلعيد (فتيحة): المطلب الأمازيغي والنخبة القبائلية المثقفة، دراسة تحليلية مقارنة بين النخبة وأفراد المجتمع القبائلي، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2000.
8. لونيسي (راج): دعاة البربرية في مواجهة السلطة، دار المعرفة للنشر، بولوغين، الجزائر، 2002.
9. حسن بهلول (محمد بلقاسم): الجزائريون، الأزمة الاقتصادية والسياسية، الجزائر، مطبعة دحلب، 1994/93.
10. مارتيناز (لويس): الحرب الأهلية في الجزائر، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات موري، 1998.
- 11-Boudiaf (Mohammed) : Ou va l'Algérie ?, Librairie de l'étoile, France, 1964
- 12-Guenoun (Ali) : Chronologie du mouvement berbère, Alger, Casbah Edition, 1999.
- 13-HARBI (Mohamed): le F.L.N. mirage et réalité 1945-1962, éd. ENAL, Alger, 1993.
- 14-Chaker (Salem) : Berbers aujourd'hui, éd. L'Harmattan, Paris, 1989.

الهوامش:

- ¹ عبد الناصر جابي: **الانتخابات، الدولة والمجتمع**، دار القصة للنشر، الجزائر، ص، 24
- ² نفس المرجع ، ص 25
- ³ محمد أرزقي فراد، مرجع سابق، ص 161.
- ⁴ سليمان الرياشي وآخرون، مرجع سابق، ص 188.
- ⁵ - Mohammed Boudiaf : **Ou va l'Algérie ?**. Librairie de l'étoile, France, 1964, P 127.
- ⁶ سليمان الرياشي وآخرون، مرجع سابق، ص 443.
- ⁷ نفس المرجع، ص 190.
- ⁸ رياض صيداوي، مرجع سابق، ص 83.
- ⁹ نفس المرجع، ص 89. نقلاً عن:
- ¹⁰ - Ali Guenoun : **Chronologie du mouvement berbère**, Alger, Casbah Edition, 1999, P 29.
- ¹¹ رابح لونيسي، مرجع سابق، ص 32.
- ¹² سالم القمودي، مرجع سابق، ص 12.
- ¹³ رابح لونيسي، مرجع سابق، ص 105.
- ¹⁴ سليمان الرياشي وآخرون، مرجع سابق، ص 405.
- ¹⁵ بلعيد فتيحة، رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص 160.
- ¹⁶ - Ali Genoune, OP.CIT, P 34.
- ¹⁷ عبد الناصر جابي، مرجع سابق، ص 33.
- ¹⁸ بلعيد فتيحة، رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص 166.
- ¹⁹ - Ali Genoune, OP.CIT, P 38.
- ²⁰ رابح لونيسي، مرجع سابق، ص 106.
- ²¹ محمد أرزقي فراد، مرجع سابق، ص 170.
- ²² - Ali Genoune, OP.CIT, P 409.
- ²³ سليمان الرياشي وآخرون، مرجع سابق، ص 19.
- ²⁴ عبد الناصر جابي، مرجع سابق، ص 30.
- ²⁵ - Mohammed Harbi, OP.CIT, P 60.
- ²⁶ رابح لونيسي، مرجع سابق، ص 89.
- ²⁷ محمد أرزقي فراد، مرجع سابق، ص 134.
- ²⁸ رابح لونيس، مرجع سابق، ص 88.
- ²⁹ فتيحة بلعيد، رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص 166، 167.
- ³⁰ سليمان الرياشي وآخرون، مرجع سابق، ص 190.
- ³¹ رابح لونيسي، مرجع سابق، ص 91.
- ³² محمد أرزقي فراد، مرجع سابق، ص 161.
- ³³ عبد الناصر جابي، مرجع سابق، ص 30.
- ³⁴ رابح لونيسي، مرجع سابق، ص 96.
- ³⁵ بلعيد فتيحة، رسالة ماجستير، مرجع سابق، ص 165.
- ³⁶ - Salem Chaker, OP.CIT, P 482.

³⁷ - Mohammed Harbi, OP.CIT, P 168.

³⁸ - El Moudjahed. N° 4579 du 20/03/1980.

³⁹ - Ali Gennoune, OP.CIT, P 48.

⁴⁰ - لويس مارتيناز : **الحرب الأهلية في الجزائر**، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات موري، 1998، ص 09.

⁴¹ - محمد بلقاسم حسن يهلول: **الجزائريون، الأزمة الاقتصادية والسياسية**، الجزائر، مطبعة دحلب، 1994/93، ص 14.

⁴² - عشارتي سليمان، مرجع سابق، ص 4.

⁴³ - هشام شرابي، **النقد الحضاري للمجتمع الجزائري في نهاية القرن العشرين**، ط1 لبنان بيروت، 1990، ص 15.

⁴⁴ - سليمان الرياشي وآخرون، مرجع سابق، ص 46.

⁴⁵ - سالم القمودي، مرجع سابق، ص 10.

⁴⁶ - رابح لونيسي، مرجع سابق، ص 114.

⁴⁷ - نفس المرجع، ص 115.

⁴⁸ - سليمان الرياشي وآخرون، مرجع سابق، ص 191.

⁴⁹ - محمد أرزقي فراد، مرجع سابق، ص 8.

⁵⁰ - رابح لونيسي، مرجع سابق، ص 120 - 121.

⁵¹ - سليمان الرياشي وآخرون، مرجع سابق، ص 241.

النظير بين الحتمية التكنولوجية والنموذج الثقافي في الإدارة والنسب

أ/ حليس سمير، جامعة جيجل

ملخص:

لقد اعتبرت التكنولوجيا منذ القديم على أنها ظاهرة طبيعية لها الأولوية في توجيه التطور والتقدم الاجتماعي، وبالتالي فإن آثار التغير التكنولوجي كانت آثارا حتمية لا يمكن تجنبها، وقد تأثرت النظرية التنظيمية في بداياتها الأولى بهذا الموقف، حيث عالج روادها الأوائل التنظيم بمنطق الحتمية التكنولوجية، واعتقدوا أنه لا يوجد سوى نموذج واحد لعملية التنظيم. لكن التناقضات التي تضمنتها أفكار الرواد سرعان ما أحدثت العديد من ردود الأفعال تلخصت في أنه يوجد إلى جانب النسق التكنولوجي داخل التنظيم نسق آخر اجتماعي ذو أبعاد ثقافية، وهذا النسق يمكنه احتلال مرتبة متقدمة مقارنة بالنسق الفني.

في هذا الإطار يهتم الباحث بتحديد العلاقات المعقدة التي تربط النسق التكنولوجي بالنسق الثقافي داخل التنظيم، محاولا إبراز المزايا التي يوفرها النموذج الثقافي في الإدارة والتسيير للمؤسسات الحديثة، والفشل الذي يمكن أن يترتب عن إهمال الأبعاد الثقافية تماما كما حدث في التجربة الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: التنظيم، الحتمية التكنولوجية، التغير التكنولوجي، الثقافة التنظيمية، نموذج التسيير.

Abstract:

Technology has long been regarded as natural phenomena that determine the evolution of societies, whose social consequences are inevitable. In this context, the pioneers of the theory of organizations have treated organizations according to the logic of technological determinism, so there is only one model of business management. But the oppositions of the classical theory of organizations quickly provoked reactions because there is no single technical system governing all relations within the company, but there is beside this technical system another system, a social one with its cultural dimensions, and this last can influence and guide the technology.

In the context of this article, the focus is on the role of cultural management for the success of technological projects, and the failure that can result from the negligence of the interrelationships between the elements of technology and that of culture just as what happens in the experience of Algeria.

Keywords: organization, technological determinism, technological change, organizational culture, management model.

مقدمة:

تعتبر الأنساق التكنولوجية بمثابة العمود الفقري للمؤسسات الحديثة خاصة الصناعية منها بالنظر إلى البعد التنافسي الذي تضيفه هذه الأنساق للعملية الإنتاجية، لذلك فقد اهتم علماء الاجتماع منذ ظهور النظرية التنظيمية بمسألة التكنولوجيا وبمدى تأثيرها في تحديد الخصائص البنائية والتنظيمية للمشروعات الاقتصادية، وكان الافتراض في البداية يقوم على إهمال البعد الإنساني على اعتبار أن الفرد جزء من الآلة التي يعمل عليها، وبالتالي فإن عملية اختيار العمل تأتي وفقا لمتطلبات التكنولوجيا المستخدمة، أو بمعنى آخر فإن تصميم العمل يركز على الاختيار الأمثل للتكنولوجيا الملائمة للإنتاج ثم تجميع الأفراد حولها فيما بعد، إلا أن هذا الافتراض قد سقط تدريجيا مع تطور النظرية التنظيمية، ومناداة البعض بضرورة أن ينهض تصميم العمل على الربط المتوازي في الوقت ذاته بين عمليتي اختيار كل من الأفراد ككائنات ثقافية والتكنولوجيا في آن واحد.

1. الثقافة والتقنية ونظرية التنظيم:

لقد ظهر الاهتمام بدراسة التنظيم في أعقاب الثورة الصناعية الثانية كنتيجة للتطور الحاصل على مستوى وسائل الإنتاج المادية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وما نتج عن هذا التطور من مشكلات تتعلق بفعالية الوحدات الإنتاجية، فكان اهتمام الرواد الأوائل في النظرية التنظيمية من أمثال "ماكس فير Max Weber" و "فريدريك وانسلو تايلور Frederick Winslow Taylor" منصبا على دراسة العنصر البشري باعتباره عنصرا ثانويا داخل المؤسسة، وفي المقابل اعتبرت التكنولوجيا على أنها العنصر الرئيسي من بين عناصر الإنتاج الأخرى.

وقد انطلق أولئك الرواد في دراساتهم النظرية والميدانية من مسلمتين أساسيتين، الأولى تعتبر المؤسسة كآلة ميكانيكية ضخمة الإنسان فيها مجرد ترس صغير، أما الثانية فتري أن هذه المؤسسة هي مجرد عدد من الأفراد والآلات يمكن التنسيق بينها والسيطرة عليها فقط بالاعتماد على العلم في عملية التنظيم¹، وقد خرجوا بنتائج تدعو في معظمها إلى ضرورة تكيف الفرد مع الوظيفة التي يمارسها، وبالتالي مع التطور الحاصل على مستوى وسائل الإنتاج وما فرضه هذا التطور من أنظمة بيروقراطية لتنظيم شؤون العمل داخل المؤسسة باعتبارها وحدة اقتصادية بالدرجة الأولى هدفها الأساسي تحقيق الفعالية في الإنتاج لزيادة الأرباح.

فمع تبلور المعالم الأولى لنظرية التنظيم برزت فلسفة صارمة في تنظيم شؤون المؤسسات ركزت كل اهتمامها على دراسة التنظيم الرسمي بهدف ترشيد السلوك الإنساني في العمل، وعقلنة العمليات الإنتاجية بالاعتماد أكثر على الأنظمة البيروقراطية التي تضمن التزام العمال وتقديس العمل وفقا للإجراءات والقوانين الرسمية، بالإضافة إلى عمليات التدريب المهني التي اقتصر على الجوانب الفنية كاحتلال الأماكن المناسبة في العمل والحركات الأساسية التي تتطلبها الآلات الميكانيكية، وحتى الحوافز اقتصر على الأجور والترقيات والمكافآت المادية الأخرى التي يجنيها العامل من التزامه المطلق بالتعليمات الصادرة عن الهيئات الإدارية العليا في السلم التنظيمي. أما فيما يتعلق بالثقافة داخل التنظيم فلم تزد عن مجرد كونها ثقافة تقنية يمكن تلقينها للأفراد عن طريق التدريب بمجرد انضمامهم إلى المؤسسة، وكأن هذه المؤسسة تعيش في فراغ، ولا يربطها أي شيء

بالبيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تنشط في إطارها، حيث اختزلت جميع القيم التي يتطلبها العمل في القيم المادية الخالصة، وفي الوقت نفسه همشت الجوانب الاجتماعية والثقافية.

وبالرغم من بعض النتائج الإيجابية التي حققتها المؤسسات الاقتصادية في تلك الفترة باعتمادها على أفكار المدرسة الكلاسيكية في دراسة التنظيم، إلا أن الكثير من المشاكل سرعان ما بدأت في الظهور والتفاقم، وبدأ البعض يقتنع أن النجاح الاقتصادية لا يكفي لوحده لتحقيق الاستقرار في النتائج الإيجابية وبالتالي الحكم على كفاءة المؤسسات، لأن هذا النجاح غالبا ما يكون على المدى القصير، وعليه كان لابد من الانفتاح على تخصصات علمية أخرى، "فعندما يتعلق الأمر بتنظيم العمل فإن علماء الاقتصاد لا يعطوننا الصورة الكاملة، والواقع أن كثير من علماء الاقتصاد يتجاهلون عمدا ما يعتقد البعض أنه أهم عنصر في تنظيم العمل: تأثير القوى الاجتماعية كقواعد الأخلاق والمعايير والقيم، إن هذه الأبعاد تشكل الإطار الذي يستطيع الأفراد داخله أن يسعوا وراء تنظيم العمل"².

وقد انعكس هذا الاقتناع في ظهور بعض الدراسات التي اهتمت بالجوانب الإنسانية والاجتماعية في العمل وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي توصلت إلى نتائج هامة بهذا الصدد، ذلك أن الأفراد داخل التنظيم لا يكفي لكي يحققوا النجاح في أعمالهم أن تمنحهم الحوافز المادية، كما أن التركيز فقط على الجوانب الفيزيقية للفرد لا يحقق الاستغلال الأمثل لإمكاناته وقدراته في العمل، وبالتالي فإنه أكبر وأهم من مجرد اعتباره كتابع للآلة التي يعمل عليها، بل بالعكس من ذلك تماما فإن له من العواطف والأحاسيس ما يدفعه للارتباط مع الآخرين في إطار البيئة الاجتماعية التي يعمل فيها، فهو بحاجة إلى التعاون مع غيره لأداء الأعمال الموكلة إليه بأكثر كفاءة وفعالية، كما أنه يميل إلى الالتزام بأداء الأعمال التي يشارك في تخطيطها واتخاذ القرارات بشأنها أكثر من ميله لتطبيق الأوامر التي تصدر إليه من المستويات التنظيمية العليا. ومع هذا الاكتشاف -والذي ظهر بعد دراسات "إلتون مايو" بمصانع هاثورن في الولايات المتحدة الأمريكية- تحولت الدراسات من الاهتمام بالتنظيم الرسمي إلى الاهتمام بما يسمى في اللغة التنظيمية بالتنظيم غير الرسمي، أي بالعلاقات الاجتماعية التي تنسج بين الأفراد داخل المؤسسة بعيدا عن الإجراءات والقوانين الرسمية.

وتعتبر أعمال "إلتون مايو" وأتباعه من أنصار نظرية العلاقات الإنسانية بمثابة تحول جذري في دراسة أوضاع الموارد البشرية داخل المؤسسات بالنظر إلى التغيرات التي أحدثتها على مستوى متطلبات العمل وأخلاقياته، فقد صاحب هذا التحول "ظهور فلسفة جديدة تعتبر العمل عنصرا أساسيا من عناصر التحول الإنساني وليس مجرد وسيلة لكسب المعيشة"³، كما أن هناك العديد من الجوانب التي تميز الأفراد باعتبارهم كائنات إنسانية عن عناصر الإنتاج الأخرى، وهنا بدأ العنصر البشري يأخذ قيمته الحقيقية داخل التنظيم، وازدادت هذه القيمة شيئا فشيئا موازاة مع زيادة المنتقدين للنظريات الكلاسيكية والمؤيدين لمدرسة العلاقات الإنسانية. وقد تجسد هذا النقد بالخصوص في الستينيات من القرن الماضي في نظرية "دوغلاس ماكريغور Douglas Mac Gregor" المعروفة باسم نظرية X و Y، حيث تشير X إلى مجموعة الافتراضات المتعلقة بالنظرة التشاؤمية إلى العنصر البشري التي ميزت مواقف النظريات الكلاسيكية، والتي اعتبرت الإنسان كسول بطبعه لا يحب العمل ويحتاج في القيام بمهامه إلى رقابة شديدة من قبل الهيئات الإدارية العليا لمنع الانحرافات، بمعنى أن نشاطه مشروط

بمنبه خارجي، بينما تشير Y إلى الفرضيات التفاضلية في نظرتها للإنسان، فهو خير ومحب للعمل بطبعه، يحتاج في القيام بأعماله إلى الاستقلالية النسبية في التفكير بالإضافة إلى التقدير والاحترام، ولذلك فإن طاقاته وقدراته في العمل لا يمكن أن تظهر إلا بتوفير البيئة المناسبة للمشاركة والإبداع. كما أنه قابل لأن يتعلم أشياء جديدة تتعلق بعمله بسهولة عندما تتوفر له الظروف المناسبة لذلك⁴.

ومع نمو هذه الأفكار وانتشارها بدأ العنصر التكنولوجي يتراجع تدريجياً أمام العنصر البشري باعتبارهما عنصرين أساسيين من عناصر الإنتاج، حيث زاد اهتمام المشرفين على مختلف المشاريع الاقتصادية بقضية توافق التكنولوجيات المعتمدة مع الإمكانيات الفنية للعاملين، وبمدى إمكانية اندماج الأفراد في البيئات التنظيمية ذات الاعتماد المتزايد على التقنية العالية، وقد كان هذا الاهتمام مبرراً خاصة مع زيادة درجات الاعتماد المتبادل بين المؤسسات ذات الطابع الاقتصادي التي تنشط في بيئات اجتماعية مختلفة من حيث مكوناتها الثقافية، بالإضافة إلى ظهور ونمو المنظمات متعددة الجنسية مع التطور الذي حققه النظام الرأسمالي على حساب تراجع الإيديولوجيا الاشتراكية، ومعروف أن هذا النوع من المنظمات تنشأ إلى جانب مقرها الرئيسي فروعاً لها تنتشر في أكثر من منطقة من مناطق العالم، حيث تبين أن اعتماد الفروع على نفس التكنولوجيات ونفس الإجراءات التنظيمية المعتمدة في المقر الرئيسي لا يحقق نفس النجاح، بل قد يزيد من تفاقم المشاكل.

وقد كان ذلك بمثابة ضربة إضافية موجعة تتلقاها النظريات الكلاسيكية، حيث ظهرت العديد من الأعمال التي تدعو إلى ضرورة أن يحظى الفرد داخل التنظيم بمزيد من الاهتمام باعتباره عنصراً أساسياً يمكن من خلاله قياس معدلات النجاح والفشل، ولعل من بين أهم تلك الأعمال ما يسمى بنظرية "Z" لصاحبها "وليام أوشي William Ouchi" والتي تعتبر كامتداد لنظرية X و Y⁵. حيث تدعو هذه النظرية إلى ضرورة "إعادة توجيه الاهتمام إلى العلاقات الإنسانية في عالم المؤسسات في مختلف المستويات التنظيمية"⁶، وذلك بالاعتماد على الثقافة التنظيمية التي غالباً ما تكون "ميلاً إلى الجو غير الرسمي.... إذ تساعد في النهاية على المحافظة على جو من الشعور القوي بالمساواة، فالمنظمة التي تحتفظ بنظرة شمولية للأمور التنظيمية وتحمل مؤهليها من جميع المستويات التنظيمية على التعامل فيما بينهم على أسس إنسانية متكاملة، تخلق حالة يستحيل معها الحط من البعد الإنساني لشخصية الأفراد العاملين"⁷.

وتعد نظرية الثقافة التنظيمية لصاحبها "وليام أوشي" بمثابة ثورة جديدة داخل النظرية التنظيمية عموماً، حيث زلزلت المبادئ الأساسية التي قامت عليها النظريات الكلاسيكية، وذلك بفرضها لنفسها كنموذج جديد ومختلف جذرياً، يقوم بالأساس على إعطاء الأولوية في التنظيم والإدارة للقيم الثقافية المستمدة من البعد التاريخي والاجتماعي للمجتمع الذي تنشط المؤسسة في إطاره. وهو نموذج مختلف بالنظر إلى ما يميزه عن اتجاه الحتمية التكنولوجية في دراسة التنظيم من حيث ترتيبه للعلاقة بين المتغيرات التنظيمية، فبعد أن كانت التكنولوجيا تحتل مرتبة محترمة في تلك العلاقة كمتغير مستقل، فقدت لدى أنصار النموذج الثقافي في الإدارة والتسيير تلك المرتبة، وأصبح ينظر إلى النسق الفني داخل المؤسسة على أنه نسق فرعي يتفاعل مع الأنساق الأخرى فيؤثر فيها ويتأثر بها ولا يتمتع بأية أولوية، بل أنه في كثير من الأحيان يخضع للمنطق الثقافي والاجتماعي السائد داخل المؤسسة. حيث أعطى النموذج الثقافي في الإدارة والتسيير معنى جديداً للنسق التقني داخل المؤسسة، ونظر إليه

على أنه "عبارة عن تفاعل لعوامل إنتاجية، يكون فيها العامل الإنساني عاملا حاسما وليس مجرد عنصر هامشي..."⁸، والعامل الإنساني لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نختصره في الجوانب المادية والفسولوجية كما فعلت ذلك نظريات التنظيم الكلاسيكية.

إن النظر إلى العلاقة بين التكنولوجيا والثقافة من هذه الزاوية يمكن أن يحل الكثير من المشاكل التنظيمية المتعلقة بالتغير التكنولوجي خاصة بالنسبة للدول النامية، وذلك لاعتماد هذه الأخيرة في الغالب على التكنولوجيات المستوردة من الدول الأكثر تقدما، فإذا كانت التكنولوجيا تنتج عن البيئة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمجتمع من المجتمعات، فإن الاعتماد عليها في مجتمع مختلف "يعتبر أمرا في غاية الخطورة لأنها تشكل جزءا لا يتجزأ من الإطار الحضاري الذي تنشأ فيه، وتتحول إلى جزر معزولة إذا نقلت إلى بيئات حضارية مختلفة جذريا"⁹.

وبالتالي فإن للجانب الثقافي دورا كبيرا في تحديد أي من التكنولوجيات يمكن الاعتماد عليها بنجاح، وهي في هذا الإطار تشير إلى تلك التكنولوجيات التي تقوم على معارف ومهارات قابلة للنمو ذاتيا تستعمل موارد متوافرة محليا وتحافظ على التوازن بين موارد الطبيعة وحاجات التنمية، كما تطرح أسئلة عمن يحق لهم المشاركة في اختيار البدائل، إنها أكثر من معدات وأجهزة وأدوات، بل هي فوق ذلك منهج خاص في التنمية له مرتكزاته في العلم والإدارة وتنظيم العمل¹⁰، بالإضافة إلى أنها ترتبط بالثقافة وتتداخل معها من حيث أنها تتشكل ضمن إطار ثقافي خاص له مكوناته وأبعاده المتميزة، كما أنها تساهم بعد ذلك في تطوير وتنمية ذلك الإطار بإضافة العديد من العناصر الجديدة ليتوافق مع التغيرات المتسارعة التي تعرفها البيئة المحيطة. وبالتالي يمكن القول أن هناك علاقة تفاعل وتكامل بين كل من التكنولوجيا والثقافة في المجال التنظيمي، حيث يساهم كل منهما في إثراء الآخر شرط توفر عدد من الشروط الضرورية لذلك، لأن غياب تلك الشروط قد يعكس تلك العلاقة لتصبح علاقة تضاد وتناقض، فتصبح بذلك الثقافة معرقة للتغير التكنولوجي أو العكس، أي يصبح تأثير التكنولوجيا على النسق الثقافي تأثيرا سلبيا. لكن السؤال الذي يطرح نفسه بهذا الصدد هو: كيف تساهم التكنولوجيا في تطوير وتنمية الثقافة داخل التنظيم؟ وكيف تساعد الثقافة على خلق البيئة المناسبة للتغير التكنولوجي، بحيث يمكن تبني التكنولوجيات الأكثر حداثة دون حدوث اضطرابات يمكن أن تؤثر على استقرار المورد البشري؟

2. التغير التكنولوجي ودوره في تنمية الثقافة التنظيمية:

يعتبر مفهوم الحتمية من المفاهيم الأكثر التصاقا بمصطلح التكنولوجيا، وقد تسلسل هذا المفهوم إلى الحقل التكنولوجي بعد أن اعتمد عليه العديد من الباحثين والفلاسفة والمفكرين في مختلف التخصصات العلمية في تفسيرهم للظواهر الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة بالإنسان، والحتمية تتضمن فيما تتضمنه تحديد ما يفترض للعقل عدم تجاوزه، أو تعليل وربما تأجيل ما يصعب تفسيره¹¹، وهي في المجال التكنولوجي تعني التسليم بأسبقية التقدم التكنولوجي باعتباره متغيرا مستقلا لا شأن للمجتمع في توجيهه أو إبطائه أو توقيفه، والمجتمع بمكوناته ومضامينه متغيرا تابعا ما عليه إلا أن يتكيف مع المتغيرات التكنولوجية التي تفرضها آليات

المجتمع بصورة طبيعية لا إرادية¹²، والأسبقية التي تتمتع بها التكنولوجيا شاملة لكل المجالات بما في ذلك المجال الثقافي وما يرتبط بهذا المجال من عادات وقيم ورموز...إلخ.

ويعتبر "وليام أوغبرن" William OGBURN من المفكرين الأوائل الذين اهتموا بالحمية التكنولوجية ودافعوا عنها، حيث يرجع كل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالدرجة الأولى إلى التغيرات التكنولوجية، فالعادات والتقاليد والقيم القديمة التي كانت تعبر على الطبيعة الأساسية للإنسان كما كانت بمثابة الحصن الذي يحتمي من ورائه المجتمع التقليدي قد زالت تدريجيا مع التحول شيئا فشيئا نحو المكنة، وأدى ذلك إلى ظهور أنظمة اجتماعية جديدة كلياً لها قيم وعادات تتناسب والنظام الاجتماعي الجديد، حيث سيطرت الأساليب الحضارية وظهرت أشكال جديدة للسلطة والضبط والتحكم داخل المنظمات العمالية¹³، وقد كانت نظرتة إلى التكنولوجيا وحميتها نظرة تفاؤلية للغاية، حيث عكف في جميع أعماله حول هذا الموضوع على إبراز فوائد التقدم التكنولوجي ودوره في نشر القيم الحديثة.

كما تحدث "أوغبرن" عن الفارق بين التطور والتقدم الذي تحققه الآلات والوسائل والمعدات التكنولوجية (الجانب المادي للثقافة)، والتأخر الذي يميز القيم والعادات والأخلاق والمعايير والقانون... (الجانب اللامادي للثقافة)، وقد وصف هذا الفارق بالفجوة، وهي فجوة ثقافية ناتجة بالأساس عن تشبث الأفراد بالعادات والتقاليد وتخوفهم من التحديات التي تطرحها باستمرار التكنولوجيات المتجددة. وبالتالي فإن التكنولوجيا والتغير التكنولوجي تسبق الثقافة وتؤدي بالضرورة إلى تغييرها وتطويرها، ولو كان ذلك يحدث بطريقة تدريجية وببطء بسبب صعوبة تخلي الأفراد في المجتمع عن العناصر الثقافية التقليدية بالرغم من سلبيتها في كثير من الأحيان وعدم تماشيها مع التغيرات المادية، وفي المقابل عزوفهم النسبي عن تبني القيم الحديثة بالرغم من إيجابيتها وفعاليتها في حل المشكلات المحيطة بهم.

لقد تحولت التكنولوجيا لدى أنصار الحتمية إلى نسق عام وشامل ينبغي التسليم بقدرته على فرض منطقته والسيطرة على كل العناصر المحيطة به، أو أنها في الحقيقة تدخل ضمن نطاقه باعتبارها عناصر ثانوية، والتسليم بقدرته النسق التكنولوجي إنما ينبع من خصائص التكنولوجيا في حد ذاتها. حيث تعتبر الاستقلالية أهم تلك الخصائص، بما أنها تعني في نهاية المطاف أن التكنولوجيا لا تقوم إلا على ذاتها، وتشق طريقها الخاص باعتبارها العامل الأول أو المستقل¹⁴، كما أن عناصرها مرتبطة بعضها ببعض، ويؤثر بعضها في البعض الآخر، وبالتالي فإن أي تحول في أحد مجالاتها يستلزم تحول المجالات الأخرى، وهو ما ينعكس على الحياة الاجتماعية بما أنها تدخل ضمن المتغيرات التابعة. بالإضافة إلى كل ما سبق فإن التكنولوجيا تتضمن فيما تتضمنه البحث عن المنهجية الأكثر فعالية في حل المشكلات التي يعاني منها الإنسان الحديث، وتلك الفعالية تدفع مختلف الشعوب والحضارات إلى تبني النمط نفسه في الحياة، فتستبدل بذلك طقوس ورموز متماثلة بطقوسها ورموزها المحلية، أو بمعنى آخر أنها تستبدل نمطها الثقافي المتميز بنمط آخر يميل إلى أن يصبح نمطاً عالمياً.

وبالرغم مما لاقاه اتجاه الحتمية التكنولوجية من انتقادات، والمتمثلة بالأساس في نفيه لتعدد العوامل المشكلة للبناء الاجتماعي، بالإضافة إلى تناقض نتائجه مع العديد من الوقائع التاريخية التي أثبتت أن الإبداع

والإبتكار التكنولوجي غالبا ما كان يرتبط بتوفر البيئة الثقافية المساعدة على التفكير العلمي الموضوعي، إلا أن أفكار هذا الإتجاه قد امتدت إلى المجال التنظيمي، ولا يزال العديد من المتخصصين في هذا المجال يلحون على أن التكنولوجيا الحديثة والتغير التكنولوجي عموما غالبا ما يساعدان على خلق القيم الثقافية العقلانية التي تتطلبها التنظيم الحديث، كما يؤيدان إلى التخلي عن القيم التقليدية البالية التي غالبا ما اعتبرت بمثابة العائق الأساسي الذي يعرقل تطور المؤسسة واندماجها في المحيط الاقتصادي العالمي خاصة بالنسبة لمؤسسات البلدان النامية، حيث يرى البعض أن تغيير ذهنية العامل في هذه البلدان يرتبط إلى حد بعيد بالاعتماد على التكنولوجيات المتطورة المستوردة من الخارج، والتي تدفع إلى مراجعة المهام والعمليات اللازمة لتحقيق العمل، كما أن اعتماد المؤسسة على التكنولوجيات الحديثة سيسمح لها بتعديل جوهري للعمليات التنظيمية لتحقيق تحسينات أساسية في مجموعة من العوامل مثل الوقت، التكلفة، الجودة، الخدمة...إلخ، وبالتالي إخضاع هذه العوامل للدراسة العلمية الموضوعية بدلا من الإعتماد على الطرق التقليدية، وفي هذه الحالة فإن المؤسسة تعمل على تعديل العمل ليتناسب مع التكنولوجيات المعتمدة بدلا من جعل هذه الأخيرة تتناسب مع الوظائف الحالية.

وفيما يتعلق بالعلاقة بين التكنولوجيا والإنسان داخل التنظيم، يرى أصحاب الحتمية أن التكنولوجيا قد تجاوزت حدودها تدريجيا من طرق العمل وفتياته وزيادة الإنتاج إلى خلق تفاعلات مختلفة بين العمال في أماكن العمل، وبالتالي علاقات وسلوكيات جديدة تتماشى والنظام التكنولوجي الحديث، وتحد من قوة السلطة وهيمنتها، وذلك بتغيير الوظائف والمراكز وتسليمها لذوي الخبرة والمعرفة العلمية بعد أن كانت تسلم في ظل الأنظمة التقليدية للمعارف ودوي القربى بغض النظر عن ما يمتلكونه من خبرات مهنية، حيث يكتسب العامل من خلال احتكاكه المستمر مع الآلة ثقافة تنظيمية "عقلانية" تمكنه من تطوير المعلومات والمهارات التي تتطلبها العمل، وتجبره على التفكير الجدي في التكوين والتدريب والاستيعاب للاستعداد للتغيرات التكنولوجية المستقبلية من جهة، ولفرض مكانته داخل التنظيم الذي ينتمي إليه بناء على مهاراته من جهة أخرى¹⁵.

وبناء على هذا الدور الكبير الذي تؤديه التكنولوجيا داخل التنظيم رأى البعض أن الاهتمام الحقيقي يجب أن يوجه لدراسة النسق الفني باعتباره مسؤولا عن جميع التفاعلات التنظيمية وحتى الاجتماعية التي تحدث داخل المؤسسة، فالبناء التنظيمي يتحدد حسب "وود وورد جوان Woodward Joan" بنوعية التكنولوجيا المستخدمة لحد اعتقادها بإمكانية القياس الكمي لدرجة تأثير التكنولوجيا على البناء التنظيمي. كما أن أشكال الجماعات الاجتماعية ونوعيتها داخل التنظيم تتحدد حسب نوعية التكنولوجيا المستخدمة وهو ما أكد عليه "سايلز SAYLES" في دراسة له، حيث كتب يقول: "لقد تحول التأكيد في هذه الدراسة من التركيز على الجماعة غير الرسمية إلى فحص العلاقة بين سلوك جماعات العمل والتكنولوجيا والظروف التنظيمية السائدة...، إن ما يعرف بالعنصر الإنساني هو نتاج لقرارات متصلة بالعملية التكنولوجية ومن الممكن التنبؤ به على أساس هذه القرارات"¹⁶.

إن التغير التكنولوجي هو نوع من أنواع التغير التنظيمي وفي نفس الوقت سبب من أسبابه الرئيسية، وبالتالي فإن أي عملية من عمليات التغيير التكنولوجي ستؤدي بالضرورة إلى إحداث تغييرات واسعة في نماذج السلوك التنظيمي الفردية والجماعية، كما تؤثر في طرق التسيير واتخاذ القرارات في المستويات التنظيمية العليا

وبالتالي في ردود أفعال الأفراد اتجاه الإدارة واتجاه المحيط الخارجي بصفة عامة، ومن أجل احتواء آثار التغير التكنولوجي لابد أن تلعب الثقافة التنظيمية للمؤسسة دورها في إحداث التكيف السريع والغير مشروط لجميع الأطراف الذين يمسهم التغيير، وذلك بتبنيها للقيم الجديدة وتشجيع الفاعلين داخل التنظيم على الاندماج بسرعة في حركة التغيير لتخفيف حركة المقاومة التي تبديها بعض الجهات داخل التنظيم.

والداعين إلى مثل هذه المواقف إنما ينظرون إلى النماذج الثقافية التي تتضمنها التكنولوجيا على أنها نماذج عقلانية عامة وثابتة، وبالتالي فإنها قادرة على تفعيل جميع الأنساق التنظيمية الحديثة بغض النظر عن البيئة الاجتماعية والثقافية التي تتواجد بها، وفي نفس الوقت نجدهم يقللون من أهمية الأنساق الثقافية التقليدية (أو المحلية في البلدان النامية)، فهذه الأخيرة بنظرهم متخلفة ولا تصلح لإدارة وتسيير شؤون المؤسسات الحديثة، والقضية إذن هي قضية حتمية لا تترك أي مجال للاختيار أو المفاضلة، ومن ثمة كان لزاما على جميع المؤسسات أن تتبنى القيم المتضمنة في التكنولوجيا باعتبار ذلك شرطا أساسيا لا يقبل النقاش إذا ما تحدثنا على الفعلية التنظيمية للمؤسسات الحديثة خاصة الصناعية منها. حيث لم تعد التكنولوجيا داخل المؤسسات الحديثة تكتفي بأن تكون عاملاً أساسياً أو حاسماً، لقد أصبحت عبارة عن نسق شامل يتضمن كل أشكال الثقافة، مكونة عالماً أحادياً ومنغلقاً غريباً عن الإنسان من حيث تطوره، بل أن وظيفة هذا الإنسان قد تغيرت لتتخصص تدريجياً في خدمة النسق التقني والاستجابة بطريقة ميكانيكية لمطالبه.

3. النموذج الثقافي كبديل للحتمية التكنولوجية في الإدارة والتسيير:

لا يمكن لأي أحد أن ينكر الأهمية الكبيرة التي يحظى بها التغير التكنولوجي عندما يتعلق الأمر بالحديث عن التغير الاجتماعي، لكن جعل هذا الأخير دائماً في مرتبة متأخرة قد يتنافى مع قوانين التطور في المجال الاجتماعي في حد ذاته، ومع حقيقة الإنسان والحياة. وإن كان البعض يبالغ في التأكيد على الحتمية التكنولوجية، فإن التسليم بهذه الحتمية قد يوجه مسار التغير في اتجاه سلبي ومدمر لا يخدم الغاية من وجود الإنسان على سطح الأرض. لذلك فقد تعرضت الحتمية التكنولوجية للعديد من الانتقادات خاصة من قبل أصحاب المدرسة الإنسانية في علم الاجتماع، فالتغير الاجتماعي عند هؤلاء يبدأ من الإنسان، من النفس الإنسانية، وذلك بتغيير أنماطه العقائدية والمعيارية والقيمية والفكرية والسلوكية، حيث يكون هذا التغيير بمثابة القاعدة، ثم ينعكس على السلوك الخارجي للفرد والمجتمع، وبالتالي على النظم والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية والبيئية...إلخ.

لقد قلبت المدرسة الإنسانية ثنائية المدرسة المادية التي جعلت من التكنولوجيا متغيراً مستقلاً والمجتمع متغيراً تابعاً، حيث ترى أن العكس هو الصحيح تماماً، وبالتالي فإن الإنسان أو المجتمع هو المتغير المستقل والتكنولوجيا هي المتغير التابع¹⁷، فالتكنولوجيا يجب أن تكون وليدة للتغير الاجتماعي الذي يوفر لها شروط نشأتها. وهي في الواقع يجب أن تكون تلبية لمطالب المجتمع الذي تتنوع أهداف أفراد، وغايات جماعاته، وتتعدد نظمته ومؤسساته، وتتكاثر مشكلاته التي تحتاج إلى حلول سريعة وناجحة.... ومن ثم تكون التكنولوجيا المناسبة لهذه المطالب¹⁸، وبمعنى آخر فإن كل الابتكارات والاختراعات التكنولوجية إنما هي استجابة لحاجات الإنسان المتعددة، وإلا كيف نفسر اختلاف الوسائل والمعدات التكنولوجية من مجتمع إلى مجتمع آخر ومن ثقافة

إلى ثقافة أخرى، حيث يعبر هذا الاختلاف تعبيرا صريحا على تمايز البناء الاجتماعي والتركيبية الثقافية لكل مجتمع.

إن ربط التكنولوجيا والتغير التكنولوجي بالحاجة الإنسانية هو تكذيب صريح ونفي مطلق لمسألة الحتمية، لتستقل بعد ذلك علاقة الإنسان بالتكنولوجيا من علاقة انقياد وخضوع مطلق إلى علاقة اختيار ومفاضلة، ذلك أن هذا الإنسان هو الذي يحدد الوسائل المناسبة لتلبية حاجاته، كما أنه يتميز بنعمة العقل التي تمكنه من التمييز بين ما ينفعه وما يضره، ويتوفر حرية الاختيار تصبح التكنولوجيا خيارا يقوم به الإنسان والمجتمع تبعاً لحاجاته ومطالب أفراد ومؤسساته، ووفقاً لتصوره العام والمتميز للحياة والتقدم.

وكما تسلل مفهوم الحتمية من قبل إلى المجال التكنولوجي، ومن ثمة إلى الدراسات التنظيمية للمؤسسات الصناعية التي تركز عملياتها الإنتاجية على نوعية التكنولوجيا المستخدمة فقد تسللت كذلك النزعة الإنسانية إلى تلك الدراسات، وكان ذلك -كما قلنا من قبل- انطلاقاً من دراسات "إلتون مايو" في الولايات المتحدة الأمريكية. حيث تحول الاهتمام من البحث عن الفعالية التقنية والاقتصادية للمؤسسة بالاعتماد على التنظيم البيروقراطي الجامد والمتشدد الذي يعتبر الفرد كتابع للآلة (الميكانيكية أو البيروقراطية) إلى الاهتمام بالتوافق الاجتماعي، وبتحفيز الأفراد العاملين باعتبارهم كائنات اجتماعية، وبالتالي البحث عن الفعالية التقنية والاقتصادية مع الأخذ بعين الاعتبار للبعد الإنساني¹⁹. أو بمعنى آخر ضرورة التوجه نحو تحقيق التوازن العادل في دراستنا للتنظيم بين وسائل وأدوات الإنتاج المادية من جهة، والعوامل الإنسانية المرتبطة بالعملية الإنتاجية من جهة أخرى، لأن المشكلة الحقيقية في الصناعة أنها ليست تنظيم مادي معقد فحسب، ولكنها تتضمن تنظيم إنسانياً بالضرورة طالما أنها تعتمد على الطاقة الإنسانية في أدائها لوظائفها المختلفة²⁰.

إن أهم ما ميز المدرسة الإنسانية هو تأكيدها على الجوانب الاجتماعية والسلوكية في التنظيم، فالسلوك التنظيمي لا يتأثر فقط بالإجراءات والقوانين الرسمية، كما أن علاقات الأفراد لا تتحدد وفقاً لمتطلبات التكنولوجيا المستخدمة، ولا تنحصر في الحركات الميكانيكية التي تربط الفرد بالآلة التي يعمل من خلالها في موقع العمل، وبالتالي وجب النظر إلى الفرد لا بوصفه عضواً في التنظيم العقلي الرشيد فحسب، بل باعتباره ينتمي إلى جماعة اجتماعية ظهرت تلقائياً، تتمتع بقيمها ومعاييرها الخاصة، وترتبط بجماعات أخرى من المحيط الخارجي للمؤسسة كالأُسرة والطبقة الاجتماعية، ولهذه الأخيرة دوراً كبيراً في تحديد اتجاهات الأفراد ومواقفهم من العمل. وعليه فإن دور الإنسان داخل التنظيم لا يقتصر على تنفيذ التعليمات التي تأتيه من الأعلى، ولا على الانصياع التام لمتطلبات البيئة المادية التي تعتبر التكنولوجيا أهم عناصرها، بل يتعدى ذلك إلى المشاركة والمساهمة في اتخاذ مختلف القرارات التي يمكن أن تمسه بما فيها تلك المتعلقة بالتكنولوجيات المستخدمة في العمليات الإنتاجية عندما يتعلق الأمر بالتغير التكنولوجي.

وبالرغم من المساهمات التي قدمتها المدرسة الإنسانية للدراسات التنظيمية، إلا أن اهتمامها بالجوانب الإنسانية والاجتماعية قد ميزه الشك والغموض، لذلك فقد تعرضت في بدايتها (مدرسة العلاقات الإنسانية) للعديد من الانتقادات، حيث أنها لم تحرر الإنسان من القيود البيروقراطية التي كثيراً ما اعتبرته كعمال للآلة

التكنولوجية، والذي قامت به في الحقيقة هو مجرد "تزييت لآلة الإنتاج بطريقة انتقلت من خلالها السيطرة من طابع مادي مدعم بسلطة تدرجية صارمة ومطلقة إلى طابع أخلاقي يظهر من خلال التماثل بالمؤسسة، بالإضافة إلى أن هذا التيار الفكري يستبعد الجانب الاقتصادي للعمل، فيضعه في الواجهة الخلفية وهي طريقة جد ذكية للتقليل من قيمة العمل والرفع منها في نفسية العامل، فيكون ذلك كأننا ندعوه إلى المساهمة في استغلال نفسه وإخضاعه للتنظيم العلمي للعمل عن طريق ارتباطه بالمؤسسة"²¹.

ومن هذا المنطلق أعاب كل من "ميشال كروزيه M. Crozier" و "فرايرغ E. Friedberg" على مدرسة العلاقات الإنسانية محاولتها إخضاع الإنسان داخل التنظيم باللعب على وتر الجانب الإنساني حيث يقولان: "لا يمكن أن نعتبر الإنسان على أنه يد فحسب كما تعتقد التaylorية ضمناً، كما لا يمكن اعتباره كيد وقلب فقط وهو ما نادت به حركة العلاقات الإنسانية، ونحن نؤكد بدورنا أن كلاهما قد نسي أن هذا الإنسان هو أيضاً وقبل كل شيء رأس، بمعنى أنه يتمتع بالحرية، وبالتالي فإنه فاعل مستقل يمكنه القيام بإجراءات واختيارات حتى يتكيف ويبدع على حسب الظروف ووفقاً لتحركات الفاعلين الآخرين"²². لكن السؤال المطروح بهذا الصدد هو من أين يستمد الفرد داخل التنظيم الإجراءات الموجهة لسلوكه إذا لم يكن مصدرها القوانين الرسمية للمؤسسة، وكيف يجري اختياراته إذا لم تكن من ضمن البدائل التي تطرحها المؤسسة كبدايات رسمية معترف بها؟

يحاول "كروزيه" الإجابة على مثل هذه الأسئلة بتمييزه بين نظرة النظرية التنظيمية في بدايتها (بداية القرن العشرين) لعملية الإدارة والتسيير، والنظرة لتلك العملية في زماننا، حيث يعتقد أن الأمر قد أصبح يتعلق بحقائق أخرى لا تتحدد في مجرد التكنولوجيا والمناهج فحسب، بل تتعدى ذلك إلى مفهوم جديد للسلوك البشري، وتصور مختلف للفاعل الاجتماعي²³، فإذا ما أردنا فهم السلوك البشري داخل التنظيم علينا الاعتماد على أسلوب جديد في الإدارة والتسيير يرتكز على الثقافة بدلاً من ارتكازه على القوانين والإجراءات الإدارية الصارمة، باعتبار ذلك حلاً مثالياً للمحافظة على حد أدنى من الإكراه في العمل²⁴. وبالتالي فإن الفرد في النموذج الثقافي للإدارة والتسيير يستمد الإجراءات المحددة لسلوكه من البيئة الثقافية التي يعيش فيها، أو لنقل من الثقافة التنظيمية للمؤسسة التي يعمل بها، والثقافة التنظيمية لا يمكننا فهمها بأي حال من الأحوال على أنها نسق مغلق لأنها في نهاية الأمر انعكاس لثقافة المحيط مما يجعل منها ثقافة غير متجانسة، حيث يمكننا أن نميز داخلها بين مجموعة من الثقافات الفرعية، وهو ما ينعكس على السلوك الإنساني داخل التنظيم.

إن عدم التجانس الذي يميز الثقافة التنظيمية للمؤسسة، ووجود العديد من الثقافات الفرعية داخلها هو ما يفسر حديث "كروزيه" عن ما يسميهم بالفاعلين "les acteurs" الاجتماعيين، حيث يتخذ كل فاعل من الثقافة الفرعية التي ينتمي إليها منطلقاً لتصرفاته وسلوكياته داخل المؤسسة، ويدخل بالتالي في صراع مع الفاعلين الآخرين في عملية اجتماعية تفاعلية يحاول فيها كل طرف تحقيق الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها بالاشتراك مع أولئك الذين ينتمون إلى نفس المرجعية الثقافية، فيتحول بذلك الفاعلين العقلانيين لدى أنصار الحتمية التكنولوجية (النظريات الكلاسيكية في التنظيم) إلى فاعلين اجتماعيين، والفرق بين الفئة الأولى والفئة الثانية هو أن الأولى تكون مقيدة بالقوانين والإجراءات البيروقراطية التي تحددها إدارة المؤسسة، أما الفئة

الثانية فلا تنقيد بتلك القوانين والإجراءات إلا في حدود ضيقة جدا ، وتستبدلها بمرجعية أخرى تتسع إلى المحيط الخارجي للمؤسسة.

وينتقل وفقا لما سبق دور الفرد من الانقياد للإجراءات والقوانين البيروقراطية التي تعتمد عليها المؤسسة في إخضاعها لعمالها لمتطلبات النسق الفني إلى المشاركة في كل القرارات التي يتطلبها العمل، بما فيها تلك المتعلقة بطبيعة التكنولوجيا الواجب الإعتماد عليها، فالنسق الفني لا بد أن يخضع هو الآخر لمنطق التفاوض بين الجماعات المختلفة داخل المؤسسة، وبالتالي إلى اختلاف الأنماط الثقافية التي تميز كل جماعة من تلك الجماعات باعتبارها القاعدة الأساسية التي تتحدد في إطارها مصالح وطموحات الأفراد كأطراف فاعلة في عملية التفاوض.

لكن يبقى الأهم بالنسبة لأصحاب هذا الإتجاه هو المرتبة المتقدمة التي تحتلها الأنساق الثقافية للمؤسسات الحديثة باعتبارها أنساقا مفتوحة مقارنة بالمرتبة المتأخرة التي تحتلها الأنساق التكنولوجية، فالثقافة تسبق التكنولوجيا وتوجه التغير التكنولوجي بما أن هذا الأخير يخضع لعمليات التفاعل الاجتماعي بين مختلف الفاعلين ضمن الإطار التنظيمي، وبالتالي يمكن القول أن نوعية التكنولوجيا المستخدمة هي في الحقيقة نتاج لعملية اختيار تنبثق عن عملية معقدة للصراع الخفي بين العديد من الأنساق الفرعية للثقافة داخل المؤسسة.

4. السياسة التكنولوجية للجزائر والبعد السوسيوقلاني في المفقود:

إن الصراع الفكري الذي عرضنا له منذ البداية بين أنصار الحتمية التكنولوجية وأنصار المدرسة الإنسانية هو دليل كافٍ للحكم على طبيعة العملية التفاعلية المعقدة بين المتغيرين (التكنولوجيا والثقافة) داخل التنظيم، بحيث لا يمكننا التسليم بأسبقية أحدهما على الآخر، والحقيقة أنهما مترابطان أشد الارتباط ومتكاملان لدرجة استحالة الحديث عن تطور أحدهما بمعزل عن الآخر، فالتكنولوجيا بحكم طبيعتها المتغيرة تعمل باستمرار على تطوير العناصر الثقافية لتتماشى مع متطلبات البيئة الاقتصادية، وفي نفس الوقت تستبدل القيم التقليدية الفاقدة للفعالية بقيم أكثر حداثة لتزويد المؤسسة بالأبعاد التنافسية الضرورية للبقاء في الوجود والاستمرار في تحقيق الأهداف، والثقافة بدورها توجه عملية التغير التكنولوجي وتتحكم فيها، ذلك أن تقدير الاحتياجات المتعلقة بالآلات والمعدات التكنولوجية يجب أن يخضع لعملية تحليلية للعناصر الثقافية بهدف تقريب وجهات النظر بين مختلف الفاعلين من ذوي المرجعيات الثقافية المختلفة داخل المؤسسة، وبالتالي التقليل من احتمالات المقاومة التي يمكن أن تواجهها المشاريع التكنولوجية المستهدفة، ومن جهة أخرى فإن تحليل الثقافة من شأنه أن يحدد نوع التكنولوجيا التي يمكن أن تتناسب مع طبيعة العمل داخل المؤسسة باعتبارها نسقا اجتماعيا مفتوحا مشبعا بالقيم الثقافية للمجتمع الذي تنشط المؤسسة في إطاره.

إلا أن الإقرار بعمليات الإعتماد المتبادل بين كل من التكنولوجيا والثقافة داخل التنظيم لا يعني على الإطلاق أن التفاعل بين الجانبين بسيط ويمكن إدراكه والتحكم فيه بسهولة، بل على العكس من ذلك تماما، فالحديث عن التوازن بينهما وإيجاد التوليفة المناسبة لتعايشهما مع بعضهما أمر صعب يتطلب الكثير من الحذر والتحليل لمضمون كل منهما لتفادي احتمالات التناقض بينهما في المستقبل، حيث يمكن أن يؤدي هذا

التناقض إلى تقليل فعالية كل منهما في حل المشكلات التنظيمية التي تواجهها المؤسسة. ولمعرفة الآثار التي يمكن أن تترتب عن التناقض بين كل من التكنولوجيا والثقافة داخل التنظيم يمكننا العرض وباختصار شديد للتجربة الجزائرية في هذا المجال.

فمباشرة بعد الاستقلال، ومن أجل تغطية الفراغ الكبير الذي خلفته الدولة الاستعمارية، شرعت الجزائر في بناء قاعدتها الصناعية المنشودة، وبما أن الدولة الفتية كانت تفتقد لوسائل الإنتاج المحلية الضرورية لتلبية كافة الاحتياجات الوطنية، فقد اعتمدت على الاستيراد المكثف للتكنولوجيا من الدول الأجنبية، متأثرة في ذلك ببعض الدول النامية التي سبقتها في عملية التصنيع، ومجسدة لقناعات بعض المنظرين البارزين والسياسيين المؤثرين الذين كانوا مقتنعين أن "التطور الصناعي وبناء القاعدة الإنتاجية اللازمة لانطلاق تنمية حقيقية مرهون بالتطور التكنولوجي أو التقني باعتباره عنصرا فعالا وحيويا لأية تنمية صناعية دائمة"²⁵.

وكانت البداية بوضع الاستراتيجية المناسبة لذلك وهي استراتيجية الصناعات المصنعة، التي يتطلب تجسيدها توفير تكنولوجيا كثيفة من حيث رأس المال ولو كان ذلك على حساب العمل، كما عملت الدولة على إرفاق هذه الاستراتيجية بمجموعة من الاستثمارات الجانبية المصاحبة، تمثلت بالخصوص في تكوين الإطارات القادرة على التعامل مع التكنولوجيات الحديثة، حيث بدلت جهودا جبارة في سبيل ذلك، فقد "لجأت الجزائر إلى التعاون التقني مع العديد من الدول والهيئات العالمية الكبرى، باستقدام خبراء ومهندسين أجانب أكفاء للإشراف على تكوين الطلبة والمسيرين والإداريين والمكونين، رغبة منها في جعل كل المؤسسات وخاصة الصناعية منها في يد هؤلاء المكونين، بالإضافة إلى البعثات والمساعدات المالية للطلبة الجزائريين للتكوين بالدول الأجنبية وخاصة التي استوردت منها التكنولوجيا"²⁶، وكانت الدولة تهدف من وراء ذلك إلى رفع المستوى المهني والثقافي لدى العمال الجزائريين وخاصة الإطارات منهم من أجل أن تتوافق "مهاراتهم الفنية وإمكانياتهم التقنية" مع متطلبات التكنولوجيات المستوردة.

وقد تمكنت الجزائر باعتمادها على هذه الاستراتيجية من بناء العديد من المصانع الضخمة على غرار مصنع الحجار للحديد والصلب بعنابة، ومصنع قسنطينة لتركيب الجرارات الفلاحية والآليات الصناعية.... والتي تعتبر من أكبر المصانع التي عرفت الجزائر حتى وقتنا الحاضر، إلا أن الكثير منها قد عرف العديد من المشاكل في ظل جل مراحل التسيير التي مررنا بها انطلاقا من التسيير الاشتراكي وصولا إلى اعتماد نظام السوق. فقد تحول الكثير من تلك المصانع مع مرور السنوات إلى أماكن لتكديس الآلات والمعدات التكنولوجية، وبدا الأمر وكأن عملية الاستيراد قد ميزتها العشوائية بسبب غياب التخطيط والدراسات التي ينبغي أن تسبق تلك العملية، حيث لم تحقق التكنولوجيات المستوردة بالرغم من حداثة وتطورها الأهداف التي كانت الدولة تصبوا إلى تحقيقها وفقدت فعاليتها الإنتاجية تماما، مما طرح العديد من التساؤلات المشككة في مدى صلاحية السياسة التكنولوجية المعتمدة من أساسها.

وقد أكدت العديد من الدراسات الوطنية التي اهتمت بهذا المجال أن المشكلة لا تتعلق فقط بالتكنولوجيات المستوردة، ولا بالتغير التكنولوجي بشكل عام، وإنما كذلك بالجوانب الثقافية والاجتماعية

التي يتميز بها المجتمع الجزائري، فصحيح أن المستوى الفني للتكنولوجيات المستوردة قد كان عال مقارنة بالإمكانيات الفنية للعامل الجزائري كما أن مضامينها الثقافية لم تكن تتطابق مع عناصر الثقافة الجزائرية، إلا أن العامل الجزائري لم يكن يمتلك مباشرة بعد الاستقلال أية ثقافة صناعية ناهيك عن الثقافة التنظيمية للمؤسسات الصناعية التي لم يكن لها هي الأخرى أي وجود إذا ما طبقنا عليها المفهوم الحديث للمؤسسة، فهو مجتمع ريفي لا تمتلك أياديه العاملة "أية معرفة فنية، أو مؤهلات أو ثقافة تنظيمية صناعية تمكنها من اقتحام ميادين التصنيع بدون أية عراقيل"²⁷. ولكن، ألم نقل أن الدولة قد بدلت جهودا جبارة في سبيل تكوينها للإطارات اللازمة للعمل على التكنولوجيات المستوردة؟

نعم لقد فعلت الدولة ذلك وحققت بعض النتائج الإيجابية، ولكن التكوين الذي تلقاه العامل الجزائري قد اقتصر في الحقيقة على العوامل الفنية والتقنية، حيث وقعت الجزائر في الخطأ الذي أشرنا إليه منذ البداية، والمتمثل في النظر إلى الإنسان كتابع للألة التي يؤدي عمله من خلالها، مع إهمال شبه تام للجوانب الثقافية سواء منها المتعلقة بالثقافة المحلية أو المتعلقة بالتكنولوجيا المستوردة في حد ذاتها، لذلك فقد عجزت عن "إطلاق حركية اجتماعية وثقافية تسمح باستيعاب الخبرات والمهارات المرتبطة بنقل التكنولوجيا الحديثة، وتحقيق عملية تراكم معرفي ومهاري من شأنه ليس المحافظة على تلك التجهيزات واستغلالها بطريقة مثلى فحسب، بل إدماجها بذكاء في المحيط الاجتماعي الثقافي، ومن ثم تطويرها من خلال توفير الشروط الضرورية التي تسمح بتعبئة الخبرات والمعارف المرتبطة بإنتاج التقانة بعد توطئتها، وصولا إلى تحقيق استقلال نسبي للقاعدة الاقتصادية الوطنية"²⁸.

إن فشل التجربة الجزائرية في مجال النقل التكنولوجي، وبالتالي في إحداث عمليات إيجابية للتغيير التكنولوجي يكشف لنا بوضوح عن الخطأ الذي يمكن أن نقع فيه "باتخاذ المهارات المستوردة والمعارف المستعارة كمجرد تقنيات لا تاريخية ولا سوسيوثقافية، مجردة من كل دلالة وتصور اجتماعي. بل هي نتاج ظروف اجتماعية خاصة، تحتفظ بأدق تفاصيلها، والتي يتوجب على المدير إدراجها ضمن التبادلات الاجتماعية التي تربط بين أعضاء المؤسسة وجعلهم يستبطلونها إلى حد التكيف، وإلا اشتبك كل فرد وتورط في علاقة التباسية، تترجح بين الإسهام والصراع، بين الاستيعاب والرفض، وذلك لمعايشته وضعيات اجتماعية وتنظيمية غريبة عن المحيط الثقافي المحلي"²⁹.

الخاتمة:

من خلال ما سبق تتجلى المكانة الكبيرة التي تحتلها الثقافة داخل التنظيم إلى الحد الذي يبرر الأهمية التي يحظى بها النموذج الثقافي في الإدارة والتسيير كنموذج بديل للنموذج الكلاسيكي الذي اهتم بالتكنولوجيا على حساب البعد الإنساني، فالمؤسسة وباعتمادها على هذا النموذج تكون قد انتقلت من المفهوم الضيق التقليدي الذي اعتبرها مجرد نظام مغلق على نفسه، لا يؤثر ولا يتأثر بالبيئة المحيطة به إلا في حدود ضيقة، إلى مفهوم أوسع وأشمل، فهي اليوم لا تقف عند حدود مجموعة من الشركاء والمساهمين ووسائل الإنتاج فقط، بل على العكس من ذلك فإنها جزء لا يتجزأ من نظام شامل هي فيه نظام فرعي، وبالتالي لا يمكن عزلها

عن المحيط الثقافي والاقتصادي والجغرافي الذي تتواجد فيه، وتقييم العديد من العلاقات مع العناصر المشكلة له. والقول بأهمية النموذج الثقافي في التسيير لا يلغي على الإطلاق أهمية التكنولوجيا بالنسبة للمؤسسة ودورها في تنمية الثقافة التنظيمية في حد ذاتها، فالعلاقة بين النسق الثقافي ونظيره التكنولوجي داخل التنظيم هي علاقة تكاملية حيث يعتمد كل منهما على الآخر ويوجهه بالرغم من الأسبقية النسبية التي يتمتع بها النسق الثقافي في الوقت الحالي بالنظر لتوفر مجموعة من الشروط الموضوعية.

الهوامش:

- ¹ - Roger aim : l'essentiel de la théorie des organisations, Gualino éditeur, Paris, 2006, p 25.
- ² - بريجيب بيرجر: **ثقافة تنظيم العمل**، ترجمة محمد مصطفى غنيم، الدار الدولية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1995، ص 07.
- ³ - وليام روث: تطور نظرية الإدارة منذ ما قبل اختراع وايت للآلة البخارية إلى ما بعد تكنولوجيا الربوت وعصر المعلومات، ترجمة عبد الحميد الخزامي، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص 66.
- ⁴ - Roger aim, op.cit, pp 46-47.
- ⁵ - Ibid, pp 74-75
- ⁶ - عشوي مصطفى و لوصيف سعيد: الخلفية الثقافية للقيادة في المؤسسة الاقتصادية، أعمال المنتدى الدولي المنعقد بالجزائر من 28 إلى 30 نوفمبر 1992، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 276.
- ⁷ - نفس المرجع، ص 277.
- ⁸ - ناجي سفير: محاولات في التحليل الاجتماعي-التشغيل، الصناعة والتنمية -، الجزء الثاني، ترجمة: الأزهر بوغنبوز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، ص 17.
- ⁹ - أنطونيوس كرم: العرب أمام تحديات التكنولوجيا، عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر 1982، ص 58.
- ¹⁰ - صعب نجيب: التكنولوجيا الملائمة والتنمية، مركز الشرق الأوسط للتكنولوجيا الملائمة، بيروت، 1994، ص 16.
- ¹¹ - نبيل علي: العرب وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1994، ص ص 228 - 229.
- ¹² - نفس المرجع: ص 229.
- ¹³ - بيدجماكيفر: المجتمع، الجزء الثالث، ترجمة: سميرنعيم أحمد، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1961، ص 1001.
- ¹⁴ - Ellul J. : le système technicien, éd. Calmann-Lévy, Paris 1977, p 137.
- ¹⁵ - علي غربي، يمينه نزار: التكنولوجيا المستوردة وتنمية الثقافة العمالية بالمؤسسة الصناعية، مخبر علم اجتماع الاتصال-جامعة منتوري قسنطينة-، 2002، ص ص 112 - 113.
- ¹⁶ - محمد علي محمد: علم اجتماع التنظيم، الطبعة الثالثة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2003، ص 353.
- ¹⁷ - علي أحمد مذكور: العولة وحتمياتها التكنولوجية والحصانة الثقافية، ورقة مقدمة لندوة العولة وآليات التربية المنعقدة بكلية التربية، جامعة الملك سعود، 17 - 18 أبريل 2004، ص 11.
- ¹⁸ - نفس المرجع، ص 11.
- ¹⁹ - Roger aim, op.cit, p 21.

-
- ²⁰ - بوقرة كمال: المسألة الثقافية وعلاقتها بالمشكلات التنظيمية في المؤسسة الجزائرية -دراسة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علم الاجتماع، تخصص تنظيم وعمل، قسم علم الاجتماع والديمقراطية، جامعة باتنة، غير منشورة، 2007- 2008، ص ص 128- 129.
- ²¹ - سومر نعيمة منى: الإدارة ما بين الثقافية بين تكييف النموذج وتكيف العمال، رسالة لنيل شهادة الماجستير تخصص علم الاجتماع الثقافي، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، غير منشورة، 2003- 2004، ص 27.
- ²² - Crozier (M) : Friedberg (E), l'acteur et le système, ed du seuil, 2^o éditions, Paris, 1992, p.p 44-45.
- ²³ - Crozier (M) : L'entreprise à l'écoute ; Apprendre le management post-industriel, Ed. Seuil, 1994, p 33.
- ²⁴ - Ibid, p 52.
- ²⁵ - علي غربي، يمينه نزار: مرجع سبق ذكره ص 63.
- ²⁶ - نفس المرجع، ص 76.
- ²⁷ - نفس المرجع، ص 64.
- ²⁸ - العياشي عنصر: سوسيولوجيا الأزمة الراهنة في الجزائر، مجلة المستقبل العربي، العدد 191، جانفي 1995، ص ص 83- 94.
- ²⁹ - سومر نعيمة منى، مرجع سبق ذكره، ص 74.

أثر اضطرابات النصور الجسدي على الديسغرافيا

أ/ سعد الحجاج، جامعة تيارت

ملخص:

عاجت الدراسة الحالية اشكالية علاقة اضطرابات النصور الجسدي بظهور عسر الكتابة عند التلاميذ ، وقد إختار الباحث لذلك المقاربة النفس حركية ، فبعد صياغته لإشكالية دراسته انتقل الباحث الى صياغة مجموعة من الاهداف كان اهمها ابراز امكانية وجود فروق بين التلاميذ المعسرين والعاديين على مستوى النصور الجسدي بمختلف أبعاده، وقد شكلت هذه الاخيرة اضافة الى المصادر الثلاثة للدخال الكتابي مختلف مؤشرات فرضيات الدراسة البالغ عددها 16 فرضية فرعية وفرضيتان رئيسيتان، تدور أغلبها على تأكيد وجود علاقة قوية بين متغيرات الدراسة ووجود فروق معنوية بين مجموعتي الدراسة على مستوى النصور الجسدي بمختلف أبعاده؛ وقد انطلق الباحث في هذه الدراسة بعد ان قام باستخراج عينة مكونة من 222 تلميذ نصفهم عادي ونصفهم يعاني من عسر الكتابة، وقد استخدم في استخراج هذه العينة وغربلتها من الحالات الدخيلة العديد من الاختبارات الاستيعادية الخاصة بالقدرات الحسية والعقلية والجانبية، وبعد ذلك استعمل اختبارات اخرى بحثية كان اهمها اختبار تقييم عسر الكتابة لبوزيد صليحة واختبار النصور الجسدي، واختبار التعرف على مختلف أجزاء الجسم واختبار ماكوفر لرسم الذات، وقد أسفر به استعمال هذه الاختبارات الى مجموعة من النتائج تلخصت كلها في نتيجة الفرضيتين الرئيسيتين، حيث تمكن الباحث من التحقق من قبول هذين الفرضيتين ومنه إستنتج أن هناك علاقة قوية خطية بين كل من عسر الكتابة واضطرابات النصور الجسدي، اضافة الى وجود فروق ذات دلالة احصائية بين التلاميذ العاديين والمعسرين على مستوى النصور الجسدي لصالح العاديين، حيث اظهر هؤلاء تصورا جسديا أفضل من المعسرين، بعد هذه النتيجة التي تأسست أضافة الى الفرضيات الرئيسية على قبول 11 فرضية من أصل 16 فرضية فرعية.

Summary

this research try to study the problematic of the relation between body schema disorders and dysgraphia among pupils as these two variants belong to the same cathegory of growth.

We formulated some aims and targets about differences between pupils (with and without difficulties) also all the hypothesis turn arroud the strong relation between the variants.

The researcher has studied a sample of 222 pupils (with and without difficulties).

At the end of the study we formulated a set proposals, and the mots important one is to follow a therapy for the cathegory of those who present difficulties in writing.

تمهيد:

لقد جاءت الدراسة الحالية لتهتم بتحليل مختلف الصعوبات التي تواجهها عملية الكتابة ، وذلك من خلال ربطها بالمستوى الذي يظهره التلاميذ - المتدرسين بالطور الثاني من التعليم الابتدائي - على مستوى النصور الجسدي إن قوة أو ضعفا ، مستثمرة ما قد وجد من دراسات سابقة حول هذه العلاقة الكلاسيكية بين مفهومين

نفس- حركيين قاعديين يؤسسان لمهارات نمائية لاحقة يقع عليها تحديد المسار التعليمي لهذه الفئة الحدية من التلاميذ؛ وقد كان هذا مبررا إجرائيا تقرر على ضوء منه وسم الدراسة بعنوان شمولي تمثل في (أثر اضطرابات التصور الجسدي على الديسغرافيا) فشمّل بذلك التحليل كل من صعوبات الكتابة، والعلاقة التي يفترض أن تربطها بمستوى التصور الجسدي.

1. إشكالية

تُكوّن الكتابة جانبا مهما من جوانب الكفاية اللغوية، فالفرد الذي يتحدث لغة ما ولا يكتب فيها؛ لا يعتبر قد اكتسب هذه اللغة بشكل كامل [1] ص 494.

كما أن الكتابة نشاط دقيق ومعقد وصعب التعلم، يحتاج إلى شروط معينة لتعلمه، ولا يصل كل الأطفال إلى اكتساب هذه المهارة بمختلف خصائصها؛ حيث يعاني الكثير من التلاميذ من صعوبات في الكتابة تعطل تحصيلهم الدراسي، وتؤكد الباحثة جانو (Jeannot, 1973) ذلك بقولها: «تبقى الكتابة وسيلة تواصل ضرورية؛ وإن عدم الوصول إلى السهولة الخطية يعطل التعبير الكتابي، ويجعل التحصيلات الدراسية الأخرى ضعيفة» [2] ص 15.

وقد ظهرت في هذا السبيل عدة دراسات حول صعوبات تعلم الكتابة؛ فنجد مثلا الأبحاث التي أجراها كل من اجيوريا جيرا (Ajuriaguerra) و ميزوني (Maisony) و مالمقيست (Malmquist) و هالجرين (Halgren) ... وغيرهم، وقد بينت هذه الأبحاث أن صعوبات تعلم الكتابة ظاهرة موجودة لدى حوالي 8 إلى 10% من تلاميذ المجتمع المدرسي، وتنخفض هذه النسبة كلما ارتقى الأطفال في السلم التعليمي؛ إلا أن هناك نسبة منهم تبقى تعاني من هذه الصعوبات مدى الحياة؛ بسبب وجود بعض الاضطرابات التي لا تسمح لهم باكتساب المدركات اكتسابا طبيعيا مثل زملائهم؛ مما يجعلهم لا يستطيعون إدراك الرموز التي تتكون منها اللغة المكتوبة [3] ص 6.

وكرغبة في تحديد هذه الاضطرابات السابقة، وبحكم أن الكتابة عبارة عن نشاط نفس حركي بالدرجة الأولى؛ فقد حاولت العديد من الدراسات بحث العلاقة الموجودة بين اضطراب المفاهيم النفس حركية الأدائية (Les troubles instrumentaux) والصعوبات التي تظهر على مستوى الكتابة؛ وذلك من خلال تركيزها على أهم هذه المفاهيم النفس حركية والتي يأتي على رأسها مفهوم التصور الجسدي، الذي يعبر عن تلك الصورة الذهنية التي يمتلكها الطفل عن جسده وعلاقته بالمحيط الفيزيقي الذي يحيط به، بما في ذلك القلم والورقة اللذان يستعملها أثناء عملية الكتابة.

وبذلك شكلت العلاقة بين التصور الجسدي وعسر الكتابة محور نقاش كلاسيكي بين العديد من المقاربات العلمية، وقد برزت في هذا المحور كتابات كل من اجوريا جيرا (Ajuriaguerra) و هينري فالون (H.Wallon) بوصفها المصادر الأولى لمقاربة نفس حركية تحاول الربط بين مختلف عناصر التكوين النمائي للتصور الجسدي، جاعلة إياها مصدرا تفسيريا لاضطراب عسر الكتابة.

وبعد قراءة معمقة في مختلف الدراسات المتعلقة بموضوع الكتابة والتصور الجسدي استقر الباحث في هذه الدراسة على صياغة مجموعة من التساؤلات معتمدا اثنان منها كسؤالين رئيسيين وهما كالآتي:

- ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى التصور الجسدي ومستوى عسر الكتابة؟
- هل هناك فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والعاديين على مستوى التصور الجسدي؟

وتحت هذين التساؤلين الرئيسيين- وعلى منوال من طبيعتهما المتمثلة في بحث العلاقة وبحث الفروق- جرى صياغة مجموعة من التساؤلات الفرعية وتحت الفرعية (مؤشرات) جاءت كالآتي:

1. هل هناك فروق معنوية في تفاعل مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة (الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري) مع فئتي التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والعاديين في مستوى الكتابة؟
 - هل هناك فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة؛ الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند مجموعة التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة؟
 - هل هناك فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة؛ الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند مجموعة التلاميذ العاديين؟
 - هل هناك فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة؛ الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند عينة الدراسة ككل؟

2. ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة ومستوى عسر الكتابة؟
 - ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة؟
 - ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة و انخفاض مستوى الكتابة عند التلاميذ العاديين؟
 - هل هناك فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والتلاميذ العاديين على مستوى إدراك الجسم كوحدة متكاملة؟

3. ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى تعرف الطفل على مختلف أجزاء جسمه ومستوى عسر الكتابة؟
 - ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى تعرف الطفل على مختلف أجزاء جسمه ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة؟
 - ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى تعرف الطفل على مختلف أجزاء جسمه و انخفاض مستوى الكتابة عند التلاميذ العاديين؟
 - هل هناك فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والتلاميذ العاديين على مستوى التعرف على مختلف أجزاء الجسم؟

4. ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي ومستوى عسر الكتابة؟
 - ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة؟
 - ما طبيعة العلاقة القائمة بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي و انخفاض مستوى الكتابة عند التلاميذ العاديين؟
 - هل هناك فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والتلاميذ العاديين على مستوى التنظيم الفضاوي- جسدي؟

2. الفرضيات

الفرضيات الرئيسية:

1. هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى التصور الجسدي ومستوى عسر الكتابة؛ حيث انه كلما انخفض مستوى التصور الجسدي ارتفع مستوى عسر الكتابة والعكس.
2. توجد فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والعاديين على مستوى التصور الجسدي.

الفرضيات الفرعية:

1. توجد فروق معنوية في تفاعل مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة (الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري) مع فئتي التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والعاديين في مستوى الكتابة.
 - توجد فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة: الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند مجموعة التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة.
 - توجد فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة: الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند مجموعة التلاميذ العاديين.
 - توجد فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة: الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند عينة الدراسة ككل.
2. هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة ومستوى عسر الكتابة.
 - هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة.
 - هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة و انخفاض مستوى الكتابة عند التلاميذ العاديين.
 - توجد فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والتلاميذ العاديين على مستوى إدراك الجسم كوحدة متكاملة.
3. هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تعرف الطفل على مختلف أجزاء جسمه ومستوى عسر الكتابة.
 - هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تعرف الطفل على مختلف أجزاء جسمه ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة.
 - هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تعرف الطفل على مختلف أجزاء جسمه و انخفاض مستوى الكتابة عند التلاميذ العاديين.
 - توجد فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والتلاميذ العاديين على مستوى التعرف على مختلف أجزاء الجسم.
4. هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي ومستوى عسر الكتابة.
 - هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة.

- هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي و انخفاض مستوى الكتابة عند التلاميذ العاديين.

- توجد فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والتلاميذ العاديين على مستوى التنظيم الفضائي - جسدي.

3. أهمية و دواعي الدراسة

1. أهمية الكتابة كمتغير أصيل: قد يسأل السائل: ما أهمية أن ندرس عملية الكتابة وصعوباتها، في عالم صارت تحكمه تكنولوجيات الاتصال الحديثة (كالحواسيب، والهواتف النقالة...) فلا حديث إلا على رسائل الاميل أو رسائل SMS..

لكننا نجيب السائل بقول كاتب كتاب (Le degré zéro de l'écriture) حين يقول واصفا الكتابة «إن اللغة هي أبدا ليست ذلك الكائن الوديع؛ فالكلمات هي ذاكرتنا الثانية التي تتمدد خفية ويهدوء عبر تعبيراتها المتجددة، والكتابة هي ضبط لتلك التسوية بين الحرية والذكريات، هي تلك الحرية المذكرنة (souvenant) هي ليس حرية إلى بالقدر الذي نختار، لكنها حرة في دوامها وبقائها، فأنا بدون أدنى شك حر في أن اختار كتابة هذا أو ذاك، فبالكتابة أؤكد حريتي، طامحا لجديد أو متعلق بتقليد؛ فانا لست حرا إلا بالقدر الذي استطاع فيه سجن كلمات الآخرين وكلماتي في نفس الامتداد... كالحرية الكتابة هي ليست لحظة هي امتداد[1]». «.

2. الامتداد النفسي للكتابة: هي امتداد يتعدى مجرد إخراج نص إلى الوجود إلى اعتبارها صورة عن ذات الفرد، وهي أكثر من مجرد إكسسوار لغوي، فالأطفال الذين يعانون من عسر فيها، تظهر كرايسهم كأنها مسودات، لا يستطيعون أمامها تجاهل نظرات الآخرين إليها، فيرون بذلك الكتابة وكأنها عقاب لهم من الكبار، فتعدوا الكتابة بذلك مصدرا لمعاناتهم، بدل أن كانت مصدرا لتحررهم وتفرغهم لطاقتهم الزائدة..

3. قاعدية متغيرات الدراسة: إن كل من متغيري الكتابة والتصور الجسدي؛ يعتبران مكتسبات أولية قاعدية تحدد مسار نمو العديد من المكتسبات اللاحقة، فهما يشكلان خلفية نمائية، تنعكس وضعيتها على النجاح المدرسي فيما بعد؛ ومن هنا تبرز أهمية فهم العلاقة التي تربطهما، ليتمكن فيما بعد علاج أي خلل قد يعرقلهما، مما قد ينجر عنه إنقاذ العديد من القدرات الأخرى المرتبطة بهما كالقراءة والحساب..

4. خصوصية الفئة المدروسة: أن دراستنا الحالية تتعامل مع فئة من اشد الفئات غموضا في ميدان ذوي صعوبات التعلم، ذلك لما تخلقه خصوصيتها من عقبات أمام الباحثين، فهي تبدو للوهلة الأولى أنها فئة جد عادية لذلك لا تستثير أولئك الذين يجرون وراء الفئات النادرة، الأمر الذي جعل اغلب هذه الدراسات تبتعد عن دراسة هذه الفئة، كل هذا أعطانا دفعا ايجابيا لمجابهة هذا التحدي عسانا نفلك بعض الغموض الذي يلف أصحاب هذه الصعوبات.

5. الشراء السيكمومتري: تستعمل الدراسة الحالية أكثر من 8 اختبارات كأدوات سيكمومتري، وذلك في سبيل الوصول بنتائجها للصدق والموضوعية، من خلال إخضاع عينة الدراسة إلى الغريفة الدقيقة بحثا عن أي

متغير دخيل قد يشوش على مصداقية العمل وسلامة سيره، وعلى هذا الأساس تبدو دراستنا ذات أهمية سيكومترية واضحة.

4. مصطلحات ومفاهيم الدراسة

1. الكتابة

الكتابة «هي عبارة عن نشاط نفس- حركي يقوم على عملية ترك أثر قابل للمشاهدة على مساحة محددة الأبعاد وفق معايير خطية محددة لمجموعة من الرموز تؤدي معنى ما؛ وباستخدام وسيلة كتابية تسمح بترك هذا الأثر، من خلال الاستقاء من واحدة أو أكثر من مستويات الإدخال الكتابي» مستويات الإدخال الكتابية «يقصد بمستويات الإدخال الكتابي، مختلف المصادر التي يتلقى منها الطفل النماذج التي سيقوم بكتابتها؛ وهي ثلاث مستويات: الإدخال الإملائي (عن طريق السمع) الإدخال التصويري (عن طرق المشاهدة) الإدخال الذاكري (من ذاكرة الطفل)»

2. صعوبات الكتابة/عسر الكتابة

عسر الكتابة: «عبارة عن تشوه يمس شكل الحروف التي تؤلف مقاطع الكتابة، أو تناسب هذه الحروف والمقاطع بالنسبة لبعضها البعض أو بالنسبة للمساحة المخصصة للكتابة، أو من خلال الضغط الغير مناسب على أداة الكتابة؛ أو السرعة غير الملائمة لنسخ هذه المقاطع.

وتشمل هذه الاختلالات السابقة كل من: الكتابة من خلال الإدخال الإملائي (السمع) أو من خلال الإدخال التصويري (البصر) أو من خلال الإدخال الذاكري (الذاكرة) هذا ويستثنى من هذا الوصف كل الأطفال الذين يعانون من إعاقة حسية، و أولئك الذين يظهرون مستوى ذهني اقل من المتوسط، و أولئك الذين يعانون من حرمان تعليمي أو ثقافي واضح»

3. اضطرابات التصور الجسدي

التصور الجسدي: «إن التصور الجسدي هو تلك الصورة الذهنية التي يكونها أي فرد منا عن جسمه الخاص من خلال ما يرد من حواس السمع، البصر، و اللمس؛ ولا يمكن لهذه المعلومات أن تأخذ دلالتها إلا بالرجوع إلى المرجعيات التالية: الآخر، الزمان، المكان. ينتج عن تفاعل هذه المرجعيات من جهة و المعطيات الحسية من جهة أخرى؛ تكوين مجموعة مفاهيم عن هذا الجسد هذه المفاهيم هي:

- إدراك الجسد كوحدة متكاملة (الجسم المعاش)
 - التعرف على مختلف أجزاء هذا الجسم.
 - التنظيم الفضاء- جسدي؛ أي إدراك الجسم ضمن مرجعية الفضاء، سواء كان الجسم فيها دينامي أو ستاتيستيكي.
- هذه الأبعاد الثلاثة تشكل في مجموعها مفهوم التصور الجسدي».

1- اضطراب التصور الجسدي: «يعبر اضطراب التصور الجسدي عن خلل وظيفي يمس قدرة الطفل على الإدراك السليم لجسمه، وذلك من خلال المظاهر التالية:

- انخفاض مستوى الإدراك السليم للجسم كوحدة متكاملة.
- انخفاض مستوى التعرف على مختلف أجزاء الجسم.

- انخفاض مستوى التنظيم الفضاء- جسدي

5. منهج الدراسة:

إن خصوصية موضوع الكتابة، إضافة إلى طبيعة الدراسة العلائقية الارتباطين بين مختلف متغيرات البحث الحالي، دفعنا إلى اختيار المنهج الوصفي التحليلي كمنهج وظيفي شمولي؛ وفي هذا الصدد يرى العساف أن إلحاحية تطبيق هذا المنهج تبرز أكثر «إذا كان الغرض من البحث معرفة ما إذا كان هناك علاقة أم لا بين متغيرين أو أكثر»[4].

وعليه ونظرا لطبيعة موضوع الدراسة الحالية التي تتخذ شكلا وصفيا ذو طبيعة تحليلية علائقية تتمثل في كل من وصف مستوى التصور الجسدي عند الطفل من جهة وفي تحليل محتوى كتابته من جهة ثانية، وفي ربط هذين البعدين الأخيرين مع بعضهما من جهة ثالثة؛ فقد غدا بذلك المنهج الوصفي التحليلي المنهج الأكثر ملائمة لدراستنا.

6. حدود الدراسة

1. الحدود المكانية والبشرية

لقد تم إجراء الدراسة على مستوى المقاطعة التربوية رقم 46 التابعة جغرافيا للإقليم الترابي لبلدية سيدي عامر، والواقعة بولاية المسيلة، وقد استقلت هذه المقاطعة برقمها الحالي حديثا عن المقاطعة السابقة رقم 13 والتي كانت تابعة لبلدية بوسعادة. وتضم هذه المقاطعة 18 مدرسة، تتوزع عبر الريف والمدينة حيث منها 11 مدرسة ريفية و7 في المدينة، بتعداد إجمالي للمتمدرسين بلغ حتى نهاية جانفي 2010 عدد 3155 تلميذ منهم 1662 ذكور و1493 إناث. ونظرا لصعوبة التنقل إلى المدارس الريفية، فقد تم تقليص عدد المدارس المعنية بالدراسة لتشمل دراستنا مدارس مدينة سيدي عامر فقط، وعليه فقد بلغ عدد هذه المدارس المعنية 7 مدارس هي:

الجدول رقم (01): يمثل أسماء وعناوين المدارس التي أجريت فيها الدراسة الحالية [5].

1. مدرسة حديبي عبد القادر (حي العقيد لطفي)
2. مدرسة سيدي عامر القديمة (حي العتيق)
3. مدرسة الهواري (حي الدائرة)
4. مدرسة حديبي فرحات (حي العائدين)
5. مدرسة حي رحمون (حي رحمون)
6. مدرسة البناء الذاتي (حي البناء الذاتي)
7. مدرسة المركزية (حي 05 جويلية)

ونظرا لاقصار الدراسة على الطور الثاني من التعليم الابتدائي، فقد انحصر مكان إجراء الدراسة في الأقسام الخاصة بأفواج الخوامس والروابع في مدارس المدينة، حيث بلغ عدد أفواج الخوامس في المدارس المعنية (12) فوجا تربويا يتمدرس بهذه الأفواج 390 تلميذ منهم 193 ذكور و197 إناث، أما الروابع فقد بلغ عدد أفواجها 12 فوجا تضم هذه الأفواج 444 تلميذ منهم 224 ذكور و220 إناث[5].

2. الحدود العمرية والزمنية

إن الطبيعة النمائية لكل من متغيري الدراسة التصور الجسدي والكتابة، جعلت من الدراسة تقتصر على التلاميذ المتمدرسين في الطور الثاني من التعليم الابتدائي، أي على الفئة العمرية الممتدة من 9 سنوات حتى 12

سنة ذلك أن هذا العمر هو الأنسب لملاحظة متغيري الكتابة والتصور الجسدي، فحسب المقاربة النفس-حركية التي تشغل ضمنها الدراسة الحالية يصل الطفل إلى اكتساب مهارة الكتابة في الفترة الممتدة من 9 إلى 12 سنة، كما ويصل حسب نفس المقاربة التصور الجسدي إلى النماء الكامل في حدود التسعة سنوات من عمر الطفل (انظر الجانب النظري)

وعليه فقد تم تحديد الفترة من 9 إلى 12 سنة كحد عمري للمجتمع المراد دراسته.

أما بالنسبة للحدود الزمنية التي تم فيها إجراء هذه الدراسة فقد قسمت كالتالي:

الجدول رقم (02): يمثل مختلف المراحل الزمنية التي مرت بها الدراسة الحالية

مرحلة الدراسة	فترة إجرائها
1. الجزء الأول من الدراسة الاستطلاعية.	من 13 إلى 14 ماي 2009.
2. مرحلة الاطلاع النظري (إجراء الترجمة والتحرير النظريين).	من 05 أكتوبر إلى 20 ديسمبر 2009.
3. الجزء الثاني من الدراسة الاستطلاعية.	من 10 جانفي إلى 21 فيفري 2010.
4. مرحلة المعاينة (L'échantillonnage) والاستبعاد (L'élimination).	من 18 فيفري إلى 12 مارس 2010.
5. مرحلة الدراسة الفعلية	من 15 إلى 15 أفريل 2010.

7. عينة الدراسة

1. طريقة وخطوات اختيار العينة

إن سعي الباحث في هذه الدراسة إلى الوصول إلى تعميمات حقيقية، وإلى صدق في تمثيل دراسته للمجتمع البحثي ككل، إضافة إلى محاولة تمرده على التحيز والذاتية في استخراج النتائج، واستجابة لمختلف الشروط السابقة الذكر، كل هذا دفعه دفعا إلى استعمال طريقتين أساسيتين في إجراء عملية المعاينة هما:

- المعاينة بالغربة (L'échantillonnage par Sassage)
- والمعاينة العشوائية الطبقية (L'échantillonnage aléatoire stratifié)

وفي هذا الصدد يمكن أن نلخص مختلف خطوات المعاينة وفقا للآتي:

1. بعد ضبط الحدود البشرية للدراسة، والتي أسست مجتمع دراسيا مكون من 834 تلميذا منهم 417 ذكور و 417 إناث يشكلون في مجموعهم أقسام الخوامس والروابع، تم على اثر ذلك إعداد قائمة اسمية لمختلف هؤلاء التلاميذ وقد تضمنت هذه القائمة إلى جانب أسماء التلاميذ أماكن تدرّسهم وأسماء معلميهم وذلك لتسهيل مهمة الوصول إليهم.
2. بعد إعداد القائمة السابقة انتقل الباحث إلى مختلف المدارس المشكلة لحدود دراسته، حيث قام بتطبيق الاختبار الخاص بالتقييم السريع للكتابة (BHK) على المجتمع الدراسي المكون من 834 تلميذ، وبعد تحليل نتائج هذا الاختبار وجد أن 213 تلميذ قد أظهروا مؤشرات على إمكانية معاناتهم من عسر كتابي منهم 102 ذكور و 111 إناث، وفي المقابل لم تعاني بقية المجتمع والمكونة من 621 تلميذ من أي عسر كتابي.
3. بعد أن تم استخراج 213 تلميذ يملكون مؤشرات العسر الكتابي، أعيد ضبط القائمة بالأسماء الجديدة وأماكن تدرّسهم، ومن ثم جرت إعادة الانتقال إليهم، قصد استبعاد الحالات الدخيلة على هذه المجموعة

واستبقاء الحالات ذات العسر الكتابي الحقيقي، وقد تم ذلك من خلال غربلة المجتمع، اين تبقى في النهاية 111 تلميذ منهم 52 ذكر و59 أنثى وقد اعتبروا بذلك المجموعة الأولى المكونة لعينة الدراسة.

4. بعد الحصول على المجموعة الأولى من عينة الدراسة والخاصة بحالات العسر الكتابي، تم الرجوع إلى بقية المجتمع الذي لم يثبت تعرضها لاضطراب عسر الكتابة وهي مكونة من 621 تلميذ عادي، حيث استعمل هؤلاء التلاميذ لاستخراج عينة التلاميذ العاديين وكان ذلك من خلال المعاينة العشوائية التطبيقية والتي اسفرت في الختام الى تشكيل مجموعة خاصة بالعاديين متضمنة 111 تلميذ موزعة على الجنسين 59 أنثى و52 ذكر.

5. بعد الحصول على المجموعة الثانية من عينة الدراسة، تم ضبط قائمة اسمية لمختلف أفراد المجموعتين المشكلتين لعينة الدراسة مع ضبط خصائصهم وأماكن تدرسهم، لتسهيل العمل معهم فيما بعد.

8. أدوات الدراسة

لقد اعتمدنا في دراستنا على مجموعة من الأدوات تنوعت حسب تنوع الهدف المرجو من كل واحدة منها؛ وقد كانت هذه الأدوات كالآتي :

1. اختبار المصفوفات المتتابعة الملون لرافن

تعتبر اختبارات رافن (Raven) من الاختبارات العبر حضارية (Cross-Cultural Test) الصالحة للتطبيق في مختلف البيئات والثقافات، لا تؤثر فيه العوامل الحضارية، وهو اختبار لقياس القدرة على إدراك العلاقات المكانية؛ أي التقييم العقلي.

اختبار المصفوفات المتتابعة الملون لرافن يتكون من (36) بنداً موزعة على ثلاثة أقسام هي: (أ)، (ب)، (ب-)، وتناسب المصفوفات الملونة الأعمار من (5.6 إلى 11.6) والمتأخرين عقلياً وكبار السن، وقد ظهر هذا الاختبار لأول مرة سنة 1947 وتم تعديله سنة 1956 [6].

2. اختبار المتابعة البصري

هذا الاختبار هو عبارة عن اختبار فرعي من الاختبارات الجزئية المشكّلة لمقياس بورودو للقدرات الإدراكية الحركية الذي أعده العالم الأمريكي كيفارت و روتش، والذي أعده باللغة العربية أحمد عمر سليمان روبي وقد وضع بهدف تحديد جوانب القصور في التحكم البصري للعين، ويتناسب هذا الاختبار مع المرحلة العمرية الممتدة من (05 سنوات حتى 12 سنة) وقد صمم ليطبق بطريقة فردية [7] ص 148.

3. اختبار ويبمان للتمييز السمعي

لقد ظهر هذا الاختبار عام 1958 من طرف جوزيف ويبمان (Joseph M. Wepman) وتمت مراجعته عام 1978 وهو يهدف إلى تقييم المفحوص على التمييز السمعي وخاصة بين الأصوات المتجانسة، مستهدفاً بذلك فئة الطفولة الوسطى والمتأخرة، وهو اختبار ذو طبيعة فردية.

ويعتبر هذا الاختبار من المقاييس المعروفة في مجال قياس وتشخيص المشاكل السمعية، توفرت فيه دلالات، صدق وثبات ومعايير تبرر استخدامه للأغراض التي وجد من أجلها، ويعتبر من الاختبارات التي يسهل تطبيقها وتصحيحها وتفسيرها من قبل مدرب التربية الخاصة، فهو يتطلب عدداً قليلاً جداً من الأدوات وبالتالي فهو غير مكلف إطلاقاً [8].

4. اختبار الجانبيّة: هذا الاختبار هو عبارة عن أداة لتقييم الجانبيّة المسيطرة وهو معد في الأصل من طرف كل من زازو و غرانجون (Galfret-Granjon .N et Zazzo. R) وهو يقيس الجانبيّة المسيطرة عند الطفل

من خلال الكشف عن الجانب المفضل عند هذا الطفل في استخداماته اليومية ، وقد قام زازو (Zazzo.R) بتقسيمه إلى ثلاث جوانب رئيسية هي:

الجانب اليدوي: وهو يتكون من اختبارين لتمييز الجانبية اليدوية.

الجانب العيني: وهو يتكون أيضا من اختبارين لتمييز الجانبية العينية

جانب الأعضاء السفلية: وهو كذلك يتكون من اختبارين لتمييز جانبية الأعضاء السفلى [9] ص 200.

5. اختبار رسم الذات

إن استعمالات الرسم الإنساني في اختبار القدرات المختلفة ذات أهمية كبيرة ، والاختبار الذي أمامنا ينتسب لهذا النوع من أساليب القياس ، فهو يقوم بالأساس على رسم المفحوص لنموذج عن جسمه أي كيف يتصوره وكيف ينتج هذا التصور.

لقد قام ماكوفر (Machover) بتقديم مقياس للتصور الجسدي ببعد إدراك الجسد كوحدة متكاملة (الجسد المعاش) اعتمادا على مقياس رسم الرجل لغودانوف (F. Goodenough) حيث قام بقياس دلالة على قياس هذا البعد من التصور الجسدي ، واثبت بدرجة عالية صدق هذا الاختبار في قياس هذه القدرة ، لكن مع تعليمية غير تعليمية اختبار رسم الرجل وهي (قم برسم ذاتك أنت) بدلا من تعليمية (Goodenough) التي تقول (قم برسم رجل) لأنه في الحالة الثانية سوف يقوم الطفل بتذكر حالة لرسم سابق ثم يقلدها ذهنيا مما قد يتأثر بعملية التعلم أو المهارة الفنية ، أما بالتعليمية الأولى فنحن من الإمكانيات السابقة ، ونضع الطفل أمام تصور حقيقي لجسده فيبدأ في إحداث إسقاطات من جسده على الورقة التي أمامه.

كما اثبت كل من أجيريا غيرا و أبرهام (Abraham et J. De Ajeriaguerra) مصداقية هذا الاختبار في قياس الصورة الكلية للفرد عن جسمه ، وطبعا ضمن التعليمية التي اقترحها ماكوفر (Machover) [10] ص 9.

6. اختبار معرفة أجزاء الجسم

إن اختبار معرفة أجزاء الجسم اختبار اقترحه كل من دي مور وستايز (L. Staes et De Meur) والذي بدوره تم اقتباسه عن اختبار تقليد التصرفات (Test d'Imitation de Gestes) لبيرجي وليزين (Bergès et Lèzine) هذا الأخير تم إعداده للتعرف على ثلاثة أمور في وظيفة الممارسة التعريفية (practo-gnosiques):

- التعرف الإصبعي.

- الإحساس بالتوجه والفضاء.

- التعرف على الأصابع المشاركة في تركيب نموذج.

أما الجانب المقتبس فقد كان لقياس التعرف على مختلف أجزاء الجسم وتسميتها والإشارة إلى أسمائها المكتوبة على أوراق أمام المفحوص [11] ص 29.

7. اختبار التصور الجسدي

إن اختبار التصور الجسدي (Test de schéma corporel) من بين أكثر الاختبارات توفرا في المراكز التربوية المنتشرة عبر الوطن ، وهو اختبار رغم تعقد استعماله إلا انه يتمتع بمصداقية عالية على قياس قدرة الطفل

على تنظيم التناسب الفضائي لمختلف مفاهيمه عن الأجزاء المكونة لجسده، وقد أعد هذا الاختبار من طرف كل من دورث و ستامباك و بارجي (Daurath et H. Stamebak et Bergès, 1966) هذا الاختبار يتكون من جزأين أساسيين هما اختبار الواجهة (Epreuve de Face) والذي يتكون بدوره من قسمين قسم الوجه وقسم الجسم، والجزء الثاني هو اختبار الجانب (Epreuve de Profil) وهو أيضا مكون من قسم خاص بالوجه وآخر بالجسم، وفي كلا الجزأين السابقين يمر الاختبار بثلاثة مراحل أساسية هي:

التركيب بنموذج Construction//التركيب Evocation التعرف -

Reproduction.

في اختبار الواجهة يتكون جزء الوجه من 11 قطعة أما جزء الجسم فيتكون من 9 قطع، وفي اختبار الجانب يتكون جزء الوجه من 6 قطع أما جزء الجسم فيتكون من 3 قطع، تحتوي هذه القطع في أسفلها نقاط استدلالية (Points des repères) هذه القطع يقوم الطفل بوضعها على بطاقة تحتوي على شكل مرسوم مسبقا لشخص (أي نموذج فارغ لكل من الوجه والجسم) هذا النموذج مرفق بورقة شفافة قابلة للطّي على النموذج وعليها مجموعة نقاط وشبكة من المربعات لتحديد مدى نجاح الطفل في وضع القطعة في مكانها المناسب على النموذج (10) ص. 10.

8. سلم التقييم السريع للكتابة (BHK)

لقد ظهر هذا السلم في (1987) تحت مسمى الـ (BHK) أو سلم التقييم السريع لكتابة الطفل (Concise Evaluation Scale For Children Handwriting) على يد كل من (Lisa Hamstra-Bletz, Hans De Bie et Berry P.L.M den Brinker) وهو سلم خاص بالكشف المبكر والسريع لعسر الكتابة، تم تطويره في البيئة الهولندية (12)، لكنه ولفعاليتته تم إعادة تكييفه على عدة بيئات، منها البيئة الفرنسية من طرف كل من (Regis Soppelsa, Jean Michel Albaret, Maet Charles, 2004) والبيئة الجزائرية من طرف الباحث صابر احمد صابر 2009.

ومادة هذا الاختبار هي عبارة عن نص مقدم للطفل قصد كتابته في مدة 5 دقائق، ثم خضع هذا النص لسلم تقييمي يتكون في النسخة الفرنسية من 13 معيار أساسي، وفي النسخة العربية من 11 معيار، ويتميز هذا الاختبار بكونه اختبار جماعي، سريع وفعال (13).

9. سلم تقييم عسر الكتابة

إن سلم تقييم عسر الكتابة هو عبارة عن اختبار تشخيصي لاضطراب عسر الكتابة، وهو من إعداد الباحثة بوزيد صليحة 1992 وهو موجه لتلاميذ الطور الأول من التعليم الابتدائي، حيث يحتوي هذا الاختبار على ثلاث نصوص تتميز بالبساطة و السهولة و الوضوح و كل نص موجه إلى مستوى من المستويات الثلاثة، وهو يعتمد على مدخلين من مداخل الكتابة هما الإملاء والنقل المباشر، كما ويتكون من جزئين رئيسيين: الأول يتضمن إحدى عشر معيارا الأولى وهي تخص الشكل العام للنص و تنظيمه على الورقة (الجانب التنظيمي) أما المعايير المتبقية من 12 إلى 25 فهي تشكل الجزء الثاني الخاص بالتشوهات التي تظهر في كتابة الحروف المكونة للنصوص (تشوه الكتابة)

وقد اعتمدت الباحثة في تصميمها لبنود اختبارها على دراسات كل من بوجو (Peugot,1979) و أجيريا غيرا (Ajuriagurra.J,1979) و يعتبر هذا السلم الأداة الوحيدة المعدة وفقا للخصائص البيئية الجزائرية وتجليات الكتابة العربية.

وفي هذا الاختبار يعطى كل بند علامة من الثلاثة (2/1/0) وذلك حسب درجة ظهوره، حيث تعبر العلامة (2) على ظهور هذا البند وبالتالي وجود مشكل، أما علامة الصفر فهي لغياب المشكل. و قد أعيد تقنين بنود هذا الاختبار على تلاميذ الطور الثاني من التعليم الابتدائي (السنة الرابعة والسنة الخامسة والسنة السادسة) من طرف الباحثة صدقاوي أمينة 2007 حيث قامت هذه الباحثة بإعادة تقنين بنود النص الثالث الموجه لتلاميذ السنة الثالثة لعدم تضمن الاختبار السابق لهذا المستوى التعليمي، و قد أحدثت الباحثة بعض التغييرات على بنود الاختبار مما استلزم منها إعادة تقنين هذا الاختبار. ونحن بدورنا سنقوم بإجراء بعض التغييرات على هذا الاختبار وسوف تكون كالآتي:

1. إعادة تقسيم بنود الاختبار وفق ثلاث جوانب بدل الجانبين السابقين (الجانب التنظيمي، وتشوه الكتابة) وتعدوا بذلك الجوانب الجديدة كالآتي:

- فضاء الكتابة (البند: 7/6/4/3/2/1)

- شكل الكتابة (البند: 23/22/21/20/19/18/17/16/15/14/13/12/)

- سرعة وضغط الكتابة (البند: 24/11/10/9/8/5)

2. استعمال نظام المعاملات، إذا لا يعقل أن تعامل كل البنود السابقة بنفس الدرجة، حيث أن هناك بنود ذات أهمية في كتابة الفرد أكثر من أخرى، وسيتم هذا الإجراء بعد قياس القدرة التمييزية لهذه البنود.

3. استعمال مستويات الإدخال الكتابي الثلاث، بدل مستويين فقد كما في السابق (الإملاء، النقل المباشر) حيث يضاف إليهما الإدخال الذاكري (أي من ذاكرة الطفل) وبالتالي يجب أن يكون هناك ثلاث نصوص يعبر كل واحد منها على مستوى إدخال محدد، وقد اكتفينا في الإدخال الإملائي بالنص الأصلي للاختبار وهو بعنوان (اليوم عيد ميلاد مصطفى) أما النص الخاص بالإدخال التصويري فقد استعملنا أحد نصوص الكتاب المدرسي بعنوان (يوم حاسم) أما النص الخاص بالإدخال الذاكري فقد كان (المقطع الأول من النشيط الوطني) بحيث تجمع في الأخير نقطة النصوص الثلاثة وتقسم على ثلاثة لنحصل على التقييم الكلي للكتابة.

4. تعيين البند رقم 26 والخاص بسرعة الكتابة، حيث كان في السابق مجرد حُكم كفي (بطيء/معتدل/سريع) لا يتضمن أي تقييم كمي، وهنا سوف نقوم بتعيين هذا البند لنخرج بقيم رقمية تستند إلى قياس وقت الانجاز للحكم في الأخير على كتابة الطفل بالأوصاف الثلاثة السابقة.

9. نتائج الدراسة: بعد جمع البيانات بالادوات السابقة وباعتماد على برنامج SPSS تم في ختام هذه العروض

استخلاص مختلف النتائج المتعلقة بتحقيق فروض الدراسة وفقا للآتي:

الفرضيات الرئيسية:

أولاً: الفرضية الرئيسية الأولى: «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى التصور الجسدي ومستوى عسر الكتابة؛ حيث أنه كلما انخفض مستوى التصور الجسدي ارتفع مستوى عسر الكتابة والعكس»

ومن أجل التأكد من هذه الفرضية قام الباحث - كما في الفرضيات السابقة - بإتباع الخطوات التالية:

1- قام الباحث بدايةً باختيار المعامل الإحصائي المناسب للتحقق من فرضيته وقد تمثل هذا الاختبار في (معامل الارتباط لبيرسون/Coefficient de corrélation linéaire de Bravais-Pearson) وهو المعامل الذي يعرف بمعامل ارتباط ناتج العزوم وهو يمثل قوة العلاقة الخطية بين المتغيرين. إضافة إلى هذا المعامل قام الباحث باختيار معامل (إتا"/ η^2) الذي يعرف بأنه معامل حساب خطية العلاقة أو هو الذي يقيس مقدار انتشار مختلف النقاط في مخطط الانتشار حول خط خيالي يمر بوسط هذه النقاط.

2- وكخطوة ثانية بعد تحديد نوع المعامل قام الباحث باستعمال برنامج SPSS لاستخراج قيمة بيرسون وقد توصل إلى النتيجة التالية:

الجدول رقم (03): مخرج SPSS يمثل كل من القيم الوصفية وقيمة الارتباط بين متغيري الفرضية

الرئيسية الأولى:

Descriptive Statistics

	Mean	Std. Deviation	N
ECRITURE	40.8709	15.8297	222
SCHEMA	85.7252	15.9260	222

Correlations

		ECRITURE	SCHEMA
ECRITURE	Pearson Correlation	1.000	-.952**
	Sig. (1-tailed)	.	.000
	N	222	222
SCHEMA	Pearson Correlation	-.952**	1.000
	Sig. (1-tailed)	.000	.
	N	222	222

** . Correlation is significant at the 0.01 level (1-tailed).

من خلال الجدول السابق ندرك بأن هناك علاقة قوية سالبة بين كل من متغيري مستوى عسر الكتابة ومستوى التصور الجسدي عند عينة الدراسة المتكونة من 222 تلميذ، كما يلاحظ أن هذا الارتباط دال عند مستوى 0.01 مع اعتبار أن الفرضية اختبرت من اختبار طرف واحد (1-tailed) وذلك لأنها فرضية موجهة.

3- بعد أن تأكد الباحث من وجود علاقة عكسية قوية بقي له التأكد من خطية هذه العلاقة ورسم مخطط انتشارها، وقد استعمل في ذلك برنامج SPSS ليتحصل على النتائج التالية:

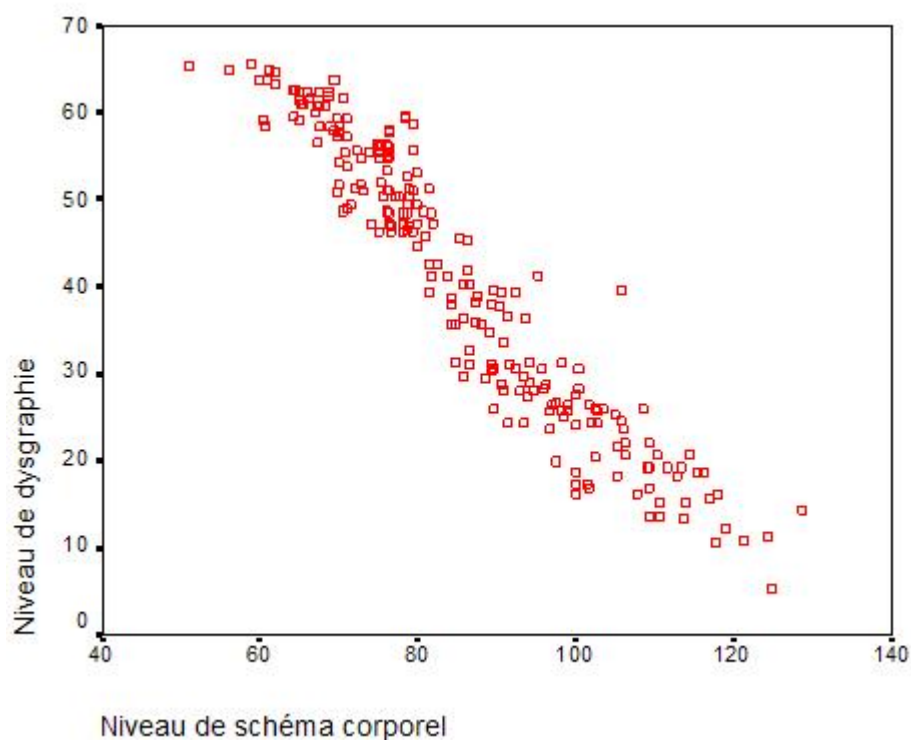
الجدول رقم (04): مخرج SPSS يمثل كل من قيمة الارتباط وقيمة معامل إتا η^2 لتغيري الفرضية

الرئيسية الأولى:

Measures of Association

	R	R Squared	Eta	Eta Squared
SCHEMA * ECRITURE	-.952	.906	.982	.963

من خلال الجدول السابق نستوضح أن العلاقة بين مستوى عسر الكتابة ومستوى التصور الجسدي هي علاقة خطية سالبة قوية وذلك لأن معامل η^2 جاء مرتفعاً 0.98 في مقابل ارتفاع معامل الارتباط أيضاً والذي بلغ - 0.95 ويبقى أن نوضح هذه الخطية في العلاقة بمخطط الانتشار التالي:



الشكل رقم (01): مخرج SPSS يمثل مخطط الانتشار قيم متغيري الفرضية الرئيسية الأولى:

4- بعد الحصول على قيمة معامل الارتباط بين كل من عسر الكتابة والتصور الجسدي بقي حساب نسبة التغير التي يحدثها عامل التصور الجسدي في عسر الكتابة، وقد اختار الباحث لذلك حساب معامل التحديد الخاص بالارتباط، والذي هو مربع قيمة R أي R^2 والذي يقدر بـ $(R/Squared) = (-0.95)^2 = 0.90$

يمكننا القول أن ما نسبته (90%) من التغير في عسر الكتابة يفسر بعامل التصور الجسدي، بينما تتوزع نسبة (10%) من التغير في عسر الكتابة - وهي النسبة غير المفسرة - على عوامل أخرى.

وعليه وبناء على كل ما جاء سابقا يمكننا القول أن الفرضية الرئيسية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى التصور الجسدي ومستوى عسر الكتابة؛ حيث انه كلما انخفض مستوى التصور الجسدي ارتفع مستوى عسر الكتابة والعكس» قد تحققت

ثانيا: الفرضية الرئيسية الثانية:

«توجد فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والعاديين على مستوى التصور الجسدي»
ومن اجل التأكد من هذه الفرضية قام الباحث بإتباع الخطوات التالية:

1- لقد انطلق الباحث من الفرضية البحثية الإثباتية التي تنص على الآتي:

$$H1: \mu_1 \neq \mu_2$$

في مقابل الفرضية الصفرية التي تنص على التالي:

$$H0: \mu_1 = \mu_2$$

2- قام الباحث بعدها باختيار المعامل الإحصائي المناسب للتحقق من فرضيته وقد تمثل هذا الاختبار في (اختبار T للفرق بين مجموعتين مستقلتين/Independent Samples T-Test) وهذا الاختبار خاص بالكشف عن الفروق الموجودة بين المتغيرات وتقديرها في شكل قيمة وحيدة تسمح - بعد استخراج درجة الحرية- بمقارنتها مع القيم المجدولة للتوزيع التائي من اجل التأكد من معنوية هذه الفروق.

3- وكخطوة ثانية بعد تحديد نوع المعامل قام الباحث باستعمال برنامج الـSPSS لاستخراج قيمة t-test وقد توصل إلى النتيجة التالية:

الجدول رقم (05): مخرج SPSS يمثل معامل التجانس ومعامل الفروق (T-test) لقيم متغيري الفرضية

الرئيسية الثانية.

Group Statistics

ENFANTS	N	Mean	Std. Deviation	Std. Error Mean
SCHEMA dysgraph	111	72.6216	6.5007	.6170
normaux	111	98.8288	10.9903	1.0432

Independent Samples Test

		Levene's Test for Equality of Variances		t-test for Equality of Means		
		F	Sig.	t	df	Sig. (2-tailed)
SCHEMA	Equal variances assumed	29.450	.000	-21.623	220	.000
	Equal variances not assumed			-21.623	178.576	.000

إن من بين الفرضيات الأساسية لتطبيق T-Test كما قلنا سابقا هو تحديد تجانس المجموعتين (أي تساوي تباين المجتمعين المأخوذ منهما المجموعتين) وذلك انطلاقا من الفرضية الصفرية التالية:

$$H_0: \sigma_1^2 = \sigma_2^2$$

ومن خلال الجدول السابق في الخانة الخاصة باختبار التجانس (Levene's Test for Equality of Variances) نلاحظ أن: $P\text{-value}=0.00<0.05$ وبالتالي نرفض فرضية التجانس الصفرية، فالمجموعتين غير متجانستين.

رغم أن الجدول السابق يعرض الاحتمالين التجانس وعدم التجانس إلا أننا نتقيد بجهة عدم التجانس فقط والتي يظهر فيها أن قيمة t قد قدرة بـ 21.62 ومن خلال الخانة (Sig) نحدد التالي:

$$P\text{-value}=0.00<0.05$$

ومنه نرفض فرضية العدم بمستوى دلالة 0.05 أي توجد فروق معنوية بين التلاميذ العاديين والمعانين من عسر الكتابة على مستوى تصورهم الجسدي؛ وبما أن إشارة t سالبة فهذه الفروق موجهة لصالح العاديين الذين اظهروا مستوى في هذه القدرة أعلى من التلاميذ المعسرين كتابيا حيث بلغ متوسط نتائجهم 98.82 في مقابل 72.62 لصالح المعسرين كتابيا.

وعليه وبناء على كل ما جاء سابقا يمكننا القول أن الفرضية التي تقول «توجد فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والعاديين على مستوى التصور الجسدي» قد تحققت.

الفرضيات الفرعية:

1.3.2 إن الفرضية التي تقول «توجد فروق معنوية في تفاعل مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة (الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري) مع فئتي التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والعاديين في مستوى الكتابة» لم تتحقق.

وفي المقابل تم تبني الفرضية الصفرية التي تقول «لا توجد فروق معنوية في تفاعل مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة (الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري) مع فئتي التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والعاديين في مستوى الكتابة»

1.1.3.2 إن الفرضية التي تقول «توجد فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة: الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند مجموعة التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة» لم تتحقق وفي المقابل تم تبني الفرضية الصفرية التي تقول «لا توجد فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة: الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند مجموعة التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة»

2.1.3.2 إن الفرضية التي تقول «توجد فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة: الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند مجموعة التلاميذ العاديين» قد تحققت

2.1.3.2 إن الفرضية التي تقول «توجد فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة: الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند عينة الدراسة ككل» لم تتحقق

ومنه فقد تم تبني الفرضية الصفرية التي تقول «لا توجد فروق معنوية بين مستويات الإدخال الكتابي الثلاثة؛ الإدخال الإملائي، الإدخال التصويري، الإدخال الذاكري، عند عينة الدراسة ككل»

2.3.2 إن الفرضية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة ومستوى عسر الكتابة» قد تحققت

1.2.3.2 إن الفرضية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة» لم تحقق.

وبالتالي تم في المقابل تبني الفرضية الصفرية التي تقول «ليس هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة»

2.2.3.2 إن الفرضية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى إدراك الطفل لجسمه كوحدة متكاملة و انخفاض مستوى الكتابة عند التلاميذ العاديين» قد تحققت.

3.2.3.2 إن الفرضية التي تقول «توجد فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والتلاميذ العاديين على مستوى إدراك الجسم كوحدة متكاملة» قد تحققت

3.3.2 إن الفرضية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تعرف الطفل على مختلف أجزاء جسمه ومستوى عسر الكتابة» قد تحققت

1.3.3.2 إن الفرضية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تعرف الطفل على مختلف أجزاء جسمه ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة» قد تحققت.

2.3.3.2 إن الفرضية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تعرف الطفل على مختلف أجزاء جسمه و انخفاض مستوى الكتابة عند التلاميذ العاديين» قد تحققت.

3.3.3.2 إن الفرضية التي تقول «توجد فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والتلاميذ العاديين على مستوى التعرف على مختلف أجزاء الجسم» قد تحققت

4.3.2 إن الفرضية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي ومستوى عسر الكتابة» قد تحققت

1.4.3.2 إن الفرضية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة» لم تحقق.

وفي المقابل تم تبني الفرضية الصفرية التي تقول «ليس هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي ومستوى عسر الكتابة عند التلاميذ الذين يعانون من عسر كتابة»

2.4.3.2 إن الفرضية التي تقول «هناك علاقة خطية عكسية قوية بين مستوى تنظيم الطفل لفضائه الجسدي و انخفاض مستوى الكتابة عند التلاميذ العاديين» قد تحققت

3.4.3.2 إن الفرضية التي تقول «توجد فروق معنوية بين التلاميذ الذين يعانون من عسر الكتابة والتلاميذ العاديين على مستوى التنظيم الفضاء - جسدي» قد تحققت

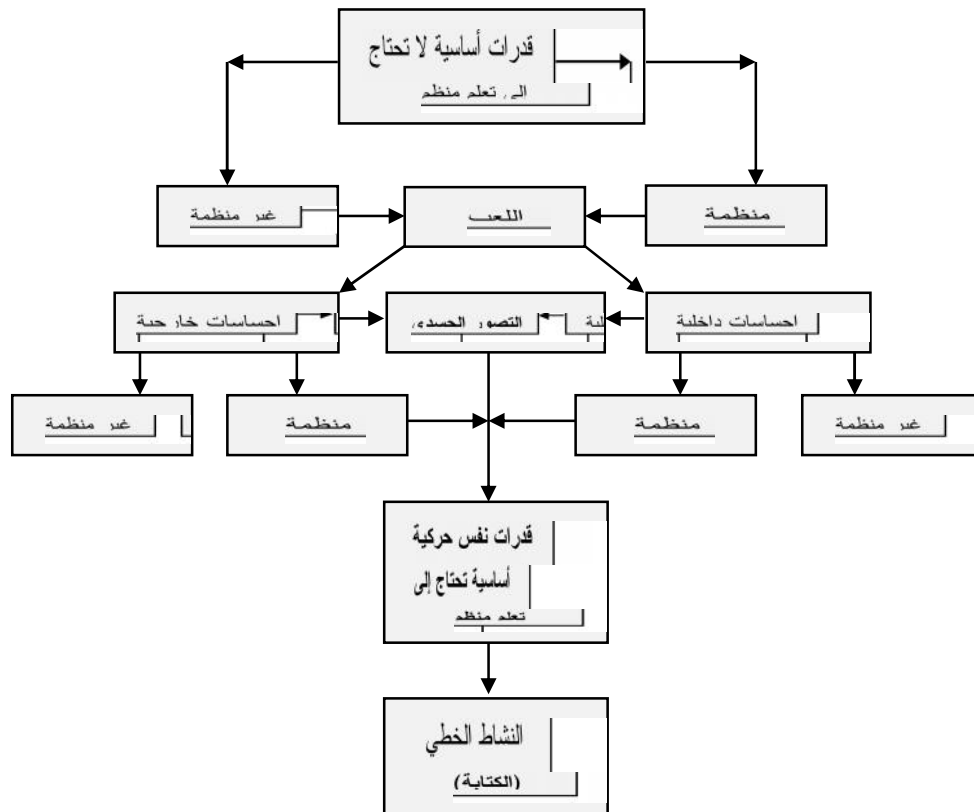
وعليه وبناء على كل ما تم عرضه سابقا، يمكننا استخلاص تحقق 11 فرضية جزئية من أصل 16 فرضية، بينما تم رفض الخمس الباقية، ليتم تبني أخرى كبديل عنها، أما فيما يخص الفرضيتين الرئيسيتين فقد تم قبولهما نظرا لتحققهما إحصائيا.

تحليل وتفسير النتائج:

لقد تمكن الباحث من استيضاح مدى قوة وخطية العلاقة الموجودة بين مستوى التصور الجسدي ومستوى الكتابة، لكن رغم ذلك يبقى أن هذه العلاقة قد تكون مجرد علاقة اقتران لا أكثر، وليست علاقة سببية بل قد تكون الكتابة هي عامل التصور الجسدي وليس العكس، وهنا يمكن أن نؤكد على أن مفهوم التصور الجسدي مفهوم قاعدي يؤسس لمختلف المفاهيم النفسية الحركية الأخرى وليس مجرد مظهر نمائي لذلك يعتبره الكثير من العلماء على غرار بياجيه (Piaget) الذي ركز في مسألة التصور الجسدي على التعلم، والذي عرفه على أنه «عملية تنظيم ذاتية، تؤدي إلى فهم العلاقات بين عناصر المفهوم الواحد المحدد، وفهم كيف يربط هذا المفهوم المحدد بالمفاهيم التي سبق تعلمها» [14] ص 6.

وبناء عليه فقد أكد على أن التصور الجسدي ينبنى بالتدرج، بفضل المعلومات المتعاقبة والتي تأتينا من الإحساسات ذات المصدر الخارجي و الإحساسات ذات التلقي الذاتي، وكذا من النشاط الحس حركي الذي نجده في اللعب، وأخيرا من التمثيلات البصرية، فمفهوم التصور الجسدي لا يتأثر إلا بالنشاطات الأساسية الطبيعية كاللعب وفي المقابل يؤثر هو في النشاطات التعليمية النفس حركية الثانوية في تكوين الإنسان والتي تحتاج إلى تعلم منظم [15] ص 62. كنشاط الكتابة في دراستنا الحالية.

وهنا يمكننا أن نقدم الشكل التالي الذي يوضح هذه العلاقة:



الشكل رقم (02): يمثل نمو وتطور النشاط الخطي باعتباره نشاط نفس حركي يحتاج إلى تعلم منظم.

المراجع:

- 1- Perera. K ;Langage acquisition, studies in first langage développement; Paul Flither and Michel Garman, Cambridge University Press, London, 2ed, (1986).
- 2- Zimmermann. D ;Méthode Jeannot, face...a l'écriture; ESF, Paris XVIIe, (1973).
- 3- علي تعوينات، صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذ الطور الثاني من التعليم الأساسي، رسالة دكتوراه منشورة، جامعة الجزائر، (1997).
- 4- العساف صالح محمد، مناهج البحث في العلوم السلوكية، مكتبة لعبيكان، الرياض، (1416هـ).
- 5- مفتشية المقاطعة التربوية رقم 46 مدينة سيدي عامر، ولاية المسيلة.
- 6- القرشي عبد الفتاح، تقنين اختبار رافن للمصفوفات المتتابعة الملون، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، (1987).
- 7- بومسجد عبد القادر، تعزيز نمو القدرات الإدراكية الحركية باستخدام برنامج مقترح لنشاط التربية النفس-حركية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر، (2005).
- 8- فاروق الروسان، أساليب القياس والتشخيص في التربية الخاصة، دار الفكر، الأردن، (1996).
- 9- خذر احمد لرشد، علاقة الفشل الدراسي بمستوى القدرات النفس-حركية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة سفاقس، (1999).
- 10- Daurat Hmeljak. C et coll ;test de schéma corporel; édition SARP, Alger-Algérie, (2004).
- 11- De Meur. A et Staes. L ;La psychomotricité, éducation, rééducation; Edition A .de Boeck, Bruxelles France, 2ème édition, (1983).
- 12- Maet Charles & Régis Soppelsa ;BHK, du nouveau dans l'évaluation de l'écriture; Un conférence non publée, 4ème Journée Toulousaine de Psychomotricité, Faculté de médecine Toulouse-Rangueil, (4 mai 2002).
- 13- صابر احمد صابر، دراسة علاقة اضطراب عسر الخط بالذاكرة العاملة ، ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، (2009).
- 14- حشاشي عبد الوهاب، إدراك صورة الجسم وعلاقتها بتكوين الاتجاهات النفسية نحو النشاط البدني لدى تلاميذ المرحلة الثانوية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، (1999).
- 15- مهدي مبارك، اثر الإيقاعات الحركية العفوية في تقويم اضطرابات التصور الجسدي عند الطفل المتخلف عقليا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المسيلة، (2007).

النحضر والأسرة الجزائرية

أ/ هاشمي بريقل، جامعة تيارت

الملخص:

لقد أثر التحضر على الأسرة الجزائرية، حيث أدى بها ذلك إلى ظهور مجموعة من الظواهر في محيطها، فقد مست حركة التحضر هذه التحولات الاجتماعية والاقتصادية، و ضمت مجموعة من المتغيرات المستقلة التي أثرت على بناء الأسرة ووظائفها، ومن الطبيعي أن نتصدى خلال هذه الدراسة لتوضيح معالجة مثل هذه القضية التي تتطلب التعرف على طبيعة هذه المتغيرات وكيف أثر على بناء الأسرة وعملياتها ووظائفها الأساسية، كما تتطلب رصد التفاعلات و استكشاف الحالة التي عليها الأسرة في المجتمع الجزائري الآن، ولعل أهم ملامح التحضر في مفهوم الأسرة في العالم الحديث، سيادة مفهوم الأسرة النووية على شكل التفاعل الأسري، و اضمحلال الأسرة الممتدة بفعل عوامل التحديث والتطور الاجتماعي والاقتصادي، و التبرير الفكري والمعرفي لتأثير هذه العوامل في مفهوم الأسرة ووظائفها، مما أدى إلى شيوع مظاهر التفكك في البناء الأسري، واختفاء مظاهر التكافل والتعاون وبروز الفردانية والانعزالية. على هذا النحو تعالج هذه الدراسة أهم التغيرات التي أحدثها التحضر في بناء الأسرة الجزائرية ووظائفها ومدى استطاعة الأسرة الجزائرية المحافظة على قيمها ومعاييرها وعاداتها في ظل التحضر القائم.

ABSTRACT

The urbanization has effect on the Algerian family where the led her to the emergence of a group of phenomena in their surroundings. Also, it has touched the urbanization of these social and economic transformations, and included a set of independent variables that affected the family building and functions. In addition, it is natural that we address in this study to clarify the treatment such an issue that requires to identify the nature of these variables and how they impact on family building, operations and core functions. Also, requires monitoring of interactions and explore the situation in which the family in Algerian society now, and perhaps the most important features of urbanization in the concept of the family in the modern world, the rule of the concept of the nuclear family on the form of the interaction of domestic and decay of the extended family by factors of modernization and social and economic development, and the justification of intellectual and cognitive impact of these factors on the concept of family and functions, resulting in widespread manifestations of disintegration in the construction of family, and the disappearance of the manifestations of solidarity and cooperation and the rise of individualism and isolationism. As such this study deals with the most important changes brought about by urbanization in the construction of the Algerian family functions and the extent to which the Algerian family to maintain its values and norms and customs in the existing urbanization.

مقدمة:

كانت المدن ولا تزال عبر الزمن تمثل مهد الحضارات الإنسانية الأولى، حيث لعبت دورا كبيرا في تأدية وظائف عديدة ومتنوعة لجميع المجتمعات الإنسانية، ولقد تعرضت المدن إلى عدة تغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية هامة كان لها تأثير على مسار الإنسانية في العالم، وهذا من جراء انتشار الصناعة وتطور وسائل الاتصالات والمواصلات، وقد انعكس ذلك على العالم المعاصر في ازدياد ظاهرة التحضر في العديد من مدنه، واحتوائها على أهم النشاطات والخدمات الاجتماعية المتنوعة، منذ ظهور حركة التحضر فيها، غير أن مدن العالم الثالث لم

تحض بظهور مدينة كبرى يفوق تعدادها 2.5 مليون نسمة إلا في عام 1920، إلا أنه في عام 1960 بدأ ارتفاع عدد مدنها ليصل إلى 165 مدينة عام 1980(1)

ولم تعف دول العالم الثالث من حركة التحضر هذه، إلا أنها لم تتمكن من التحكم في نموها الحضري السريع، والذي يرجع سببه في المقام الأول إلى الهجرة الوافدة من المناطق الريفية إلى المراكز الحضرية، نتيجة للأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية السيئة السائدة في ريف العالم الثالث.

للتحضر بعدا اجتماعيا هاما، يشتمل على الحراك والتوزيع السكاني والجغرافي وسلوك ومواقف للفرد الذي يعيش في الحضر ومدى ملائمتها للحياة الجمعية الحضرية ولتنظيمها ووظائفها.

و يمكن القول أن عملية التحضر التي تمر بها البلاد صاحبها بعض التغيرات التي مست الأسرة في بنائها وأنماطها، فانتشرت روح الفردية، الاستقلالية المادية وحرية التصرف، حيث أصبحت النظرة إلى الحياة متغيرة تمر من الجمعية إلى الفردية، أي من القيم التي كانت مرتبطة بالأسرة الكبيرة إلى القيم التي ترتبط بالأسرة الزوجية.

كما شهدت كثير من المجتمعات - بسبب التحضر - وجود تحولات في البنى الاجتماعية و الاقتصادية، وزيادة معدلات تغيراتها الاجتماعية والتكنولوجية مما أدى كل ذلك إلى تطور المجتمعات و إلى حدوث تغيرات في أنساقها، وكانت الأسرة من أهم الأنساق الاجتماعية تأثراً بهذه التغيرات حيث أثر على بنائها ووظائفها، فتغير هيكلها وتقلصت مهامها.

والأسرة الجزائرية كغيرها من الأسر شهدت تغيرات جوهرية، مست في الأساس تركيبها البنائية، أو علاقاتها الداخلية أو قيمها الاجتماعية، وتدرج في إطار حركة التغير الثقافي - الاجتماعي والانتقال من المجتمع الزراعي التقليدي إلى المجتمع الصناعي الحضري الحديث ، أي ضمن مسيرة التحديث التي يشهدها المجتمع الجزائري منذ دخول الاحتلال الفرنسي عام 1830 ، وهذا ما يدفعنا إلى التفكير والحديث عن ظاهرة التحضر وتغير الأسرة الجزائرية.

فالتحضر كعملية اجتماعية - ديمغرافية ايكولوجية، والعائلة كمؤسسة اجتماعية إنما مرا بفترات من التوافق والتقاطع تأثرت بما يسود أوساطها من استمرارية أو انقطاعية تتمثل في تحولات حضرية مفاجئة أو حادة، تركا آثارهما على الأسرة - التحضر والتصنيع - حيث طرأت تغيرات في بنائها ووظائفها الأمر الذي أثر على طبيعة العلاقات الداخلية للأسرة وعلى طبيعة علاقاتها مع أقرانها .

فهل يمكن القول أن التحضر أثر على الأسرة الجزائرية وأدى إلى إحداث تغيرات في بنائها ووظائفها وطبيعة علاقاتها ؟

بمعنى آخر : هل أدى التحضر إلى تغيير وإضعاف العلاقات الأسرية والتحرر من القيم التقليدية ؟

ويمكن في ضوء هذه الصياغة العامة أن نشق بعض التساؤلات التي تسعى الدراسة إلى الكشف عنها :

❖ - ما هي أهم التغيرات التي أحدثها التحضر في بناء الأسرة الجزائرية ؟

❖ - ما هي أهم التغيرات التي أحدثها التحضر في وظائف الأسرة الجزائرية ؟

❖ - هل استطاعت الأسرة الجزائرية المحافظة على قيمها ومعاييرها وعاداتها في ظل التحضر القائم ؟

❖ - ما ملامح التحضر في المجتمع الجزائري ؟

أهمية الدراسة وأهدافها

يرى ماركس أن الإنسان واع وغرضي ، فهو يعتمد في قيامه بالسلوك على القصدية لا على العشوائية ، حيث أن كل فعل يقوم به الإنسان مهما كان بسيطاً فإنه يدرك أبعاده والهدف المقصود منه ، إذن فكل بحث أو دراسة أهمية كبرى وأهداف أكبر يحاول الباحث الوصول إليها أو التطرق إلى أهم تأثيراتها على الواقع الاجتماعي، فمن خلال دراستنا أردنا التوصل إلى بعض أشكال الأسرة في الحضر، وذلك بهدف إلقاء الضوء على بعض القضايا النظرية والوظائف التي تضطلع بها ، كما تسعى إلى فهم دينامية العلاقات بين أفرادها من الأجيال المختلفة سواء كانت علاقات إيجابية أو سلبية، في حين تسعى هذه الدراسة إلى استكشاف الأوضاع الحالية والمعاصرة للأسرة الجزائرية، في محاولة للتعرف على قضاياها ومشكلاتها، كما تبحث عن طبيعة علاقات الأسرة الجزائرية ومدى تأثر وظائفها وأبنيتها بمستوى التحضر الذي وصلت إليه المدينة محل الدراسة، وإبراز الدور الاجتماعي الذي يجب أن تضطلع به الأسرة الجزائرية المعاصرة، وأهم مشكلاتها وأساليب معالجتها، وتشخيص التحديات التي تواجه الأسرة الجزائرية في الوقت المعاصر ، وضرورة مواجهة هذه التحديات ، والحد من تأثير الاستلاب والاختراق الثقافي لها .

عوامل التحضر

أ- العوامل الجغرافية " الايكولوجية"

تعتبر العلاقات المكانية المتغيرة للكائنات والأنشطة الإنسانية نتيجة تفاعل العديد من القرى والعوامل ، سواء في تحديد هذه العوامل أو تغييرها، فقد يكون لبعضها أهمية عامة في المنطقة كل، وقد يكون للبعض الآخر دور محدد بحيث يؤثر فقط في منطقة دون أخرى ، لقد لعب اكتشاف الصلب وتطور وسائل النقل دورا كبيرا في التأثير على درجة ومدى التركيز السكاني والنظامي للمجتمع الجديد بوجه عام في الوقت الذي كانت فيه العوامل الجغرافية كالبحار والسهول والجبال .. على درجات متفاوتة من الأهمية فيما يتعلق بتحديد الأنماط الايكولوجية للمجتمعات المحلية بوجه عام.

ويمكن تحديد الأنماط الايكولوجية للمجتمعات المحلية بوجه عام في العوامل الجغرافية التي تشتمل على ظروف المناخ والطبوغرافية والموارد البيئية والطبيعية ، غير أنه مع التطور الهائل الذي أحرزه الإنسان بفضل تراكم المعرفة العلمية والاختراعات التكنولوجية في مجال التوافق والسيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان(2). وفي هذا الصدد استخدم محمود الكردي في دراسته عن "النمو الحضري ومصطلح الاستقطاب الحضري" ويعني به مجموع الظواهر التي تنشأ في منطقة معينة، تتمتع بميزات جغرافية، اقتصادية، اجتماعية وإدارية بشكل يكسبها خاصيتي الجذب والتأثير في المناطق المحيطة بها ، حيث تجعلها تتجه إليها دائماً وتعاني مثل هذه المنطقة من تركيز في السكان وتكدس في الأنشطة الإنتاجية والخدمية وينجم عن ذلك تأثيرات اجتماعية واقتصادية وجغرافية إدارية في كل من مركز الاستقطاب والمناطق المستقطبة. (3)

II-العامل الاقتصادي

تشير كلمة العوامل الاقتصادية إلى مجموعة من الظواهر التي تتعلق بالحياة المادية للمجتمع ووسائل تنمية موارد ثروته وإنتاج هذه الثروات وتداولها وتوزيعها واستهلاكها ، وهي تضم العناصر التي تنتج السلع والخدمات مثل

الأرض والموارد الطبيعية والقيم الثقافية والمعرفة الفنية ورأس المال " الموارد المتاحة، تنظيم العمل الذي يتمثل في مهارات الأفراد(4)

1- الثورة الزراعية

يتمثل انتقال الإنسان في العصر الحجري من كهفه إلى مخبئه، الذي يشيده من أفرع الأشجار أول خطوة نحو التحضر، حيث كان الإنسان يعتمد على مساحة لزراعتها معتمداً على الجهد المبذول وكفاءة متوفرة لاستغلالها و هذا ليوثر غذاءه(5)، كذلك مظاهر التحضر في مجال الزراعة حيث تم استخدام التكنولوجيا في ضبط المياه واستخدام المحراث وري الأراضي وصناعة المعادن أدت إلى ظهور فائض(6).

2- الثورة الصناعية

يتميز العصر الحديث بزيادة عدد المدن الصناعية ونموها وهذا نتيجة الارتباط النمو الحضري بحركة التصنيع، وعند ظهور الصناعة اتجه الآلاف من الريفيين إلى المدن حيث مراكز الصناعة، وكذلك ظهور الصناعة قد شجع أصحاب رؤوس الأموال على استثمار أموالهم في مختلف الصناعات(7).

التصنيع ركيزة أساسية يبنى عليها النشاط الحضري بصفة عامة، وترتبط على ذلك فان الظواهر الحضرية تتأثر مباشرة بالتصنيع من حيث نوعيته، درجته ومجاليه، والتصنيع أيضا مرتبط بالتحضر كونه سببا أساسيا من أسباب عمران المدينة ونموها، و ينعكس التصنيع أيضا في ارتفاع مستوى معيشة الفرد في المدينة الأمر الذي يجعلها مركز جذب للمهاجرين، الذين ييغون الحصول على الأعمال المنظمة في مصانعها وبالتالي تصبح مراكز عامل جذب للعديد من المهاجرين (8) ويرفع التصنيع الكفاية المالية والإدارية للمناطق الحضرية وبالتالي تغير الحياة الاجتماعية فيها فتصبح مركبة وذات علاقة معقدة ومتشابكة النطاق.

وبالتالي للثورة الصناعية إسهام في نشوء الثورة الحضرية التي أصبحت في أحد جوانبها موطنا للتفكك والعزلة. إن الأنماط المكانية للمدينة تعتبر إلى حد ما من خلق التكنولوجيا وحيث تحدث التغيرات التكنولوجية فتان ايكولوجية المدينة تمر بتغيرات مصاحبة.

لقد كانت المصانع في الأيام الأولى للنهضة الصناعية تتوطن في المناطق الداخلية للمدينة بل ربما كانت المدينة تميل إلى النمو حول هذه المصانع ويميل العمال إلى الإقامة بالقرب من مناطق عملهم، مما يؤدي إلى ارتفاع الكثافة السكانية، غير انه مع تغير التكنولوجيا والنقل والمواصلات ومع تزايد استمرار التطور التكنولوجي لنا أن نتوقع حدوث المزيد من التغير في التركيبات الايكولوجية للأفراد والمؤسسات والنظم بل وحتى في العلاقات الإنسانية بوجه عام.

III- العامل الاجتماعي والثقافي

إلى جانب الزيادة الطبيعية للسكان، ساهمت الهجرة في عملية التحضر والنمو الحضري، وقد أدت دورا هاما في عملية التحضر التي تعرضت لها مدن العالم.

والهجرة ظاهرة اجتماعية وجدت وما زالت توجد في كل زمان ومكان، وهي تعني الارتحال من موطن وتركه إلى غيره مدة قد تقصر أو تطول، وتضم الهجرة مهاجرين قادمين إلى أنماط جديدة من العلاقات ليسو مجرد خدم كما كان الأمر في العصور القديمة، والهجرة نوعين : دائمة ومؤقتة، الهجرة الدائمة تنقسم إلى هجرة داخلية وأخرى خارجية، ومن الهجرة الداخلية نشأت المدن وهي أيضا أنواع(9).

ومن هنا يجب أن ننظر إلى الهجرة على أساس كونها ذات دلالة واضحة على التغير الاجتماعي فطالما كانت عملية التصنيع تخلق حركات سكانية ذاتية من الريف إلى الحضر، ومن مدينة لأخرى في نفس البلد ومن مجتمع لآخر، وهو الأمر الذي يجعلنا نؤكد على أن المدينة قد أصبحت منطقة لجذب السكان في حين أصبح الريف منطقة لطرد السكان(11)، وغالبا ما تكون الفئة المهاجرين من الريف إلى المدينة هي فئة القوى البشرية العاملة، بحيث تهجر فئة الشباب المكافح والطموح مما يؤثر على الخصائص الديموغرافية للريف والحضر وكذلك مدى توازن التوزيع السكاني خاصة درجة التخلخل بين المدن والقرى(12).

والهجرة هي زيادة غير طبيعية "نمو حضاريا" تؤدي إلى زيادة بشرية إقليمية وايكولوجية مما يضيف للمدينة إضافة مستمرة من المرافق والخدمات.

وعلى الرغم من أهمية الهجرة في نمو المدن بصورة عامة سواء في الدول الصناعية أو النامية إلا أن هذا العامل يقوم بدور أساسي في الانفجار الحضري في دول العالم النامي الناتج عن التغير الجذري الذي لحق بتقسيم العمل في ظل خطط التنمية التي أخذت بها العديد من الدول والتي كان ولا يزال الصدى لها في النزوح من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، ومن المسلم به أن نمو المدن السريع في الدول النامية يعكس الهجرات الواسعة لسكان الريف نتيجة التخلف الاقتصادي والبطالة التي يعيشها هؤلاء السكان ويسعون إلى المدينة بحثا عن فرص العمل(13).

وتميل الدراسات الايكولوجية الحضرية إلى تأكيد الدور الذي تلعبه الهجرة في وضع اليد على أرض المدينة، وما يترتب عن ذلك من نمو للأحياء المتخلفة في كثير من مدن العالم، خاصة مدن العالم الثالث.

وتتجه الهجرة إلى هذه الأحياء نتيجة عدد من العوامل الاضطرابية المرتبطة بالصراعات والاضطهاد والحروب وفي نفس الوقت تعد هذه الأحياء بمثابة محطات وصول الأقارب والمهاجرين الذين سبق لهم التوافق والتماثل في هذه الأحياء واستطاع البعض منهم تحقيق حراك اجتماعي واقتصادي.

وتبدو في الأحياء المتخلفة نماذج متنوعة من أشكال الهجرات ذات خصائص إقليمية وعرقية ودينية متعددة الثقافات وهي في كل الأحوال أحياء متخلفة تساعد المهاجرين وتهيئهم لثقافة المجتمع الحضري، وفضلا عن ذلك فإن بعض المهاجرين استطاعوا من خلال جهود نشطة تحقيق مكانة وحراك اجتماعي صاعد دفع البعض الآخر من أقاربهم وسكان بلدياتهم إلى محاولة تقليدهم والانتقال إلى المدينة واتخذوا من الأحياء المتخلفة أماكن سكنية ومجالا لأنشطتهم الاقتصادية(14).

وتؤدي الهجرات إلى إحداث اختلالات شديدة في توازن توزيع السكان الحضر أو الريف وحدوث تضخم حضري في المدن(15).

مشكلات المجتمع الحضري

تختلف هذه المشكلات من بيئة إلى أخرى ومن دولة إلى دولة، وهذا راجع إلى ظروف البيئة الاجتماعية والقيم التي تسودها والعوامل المختلفة والمؤثرة فيها، هي التي تحدد نوع المشكلات التي تسود بيئة معينة دون غيرها، وبناء على هذا فإن خصوصية المجتمع الحضري تفرض بعض المشكلات أهمها:

أ- تفكك المجتمع الحضري

إن التحضر يؤدي عادة إلى ضعف في العلاقات بين المجتمع، فنجد أن الأفراد داخل العمارة الواحدة مثلا قد تمر عليهم سنوات دون أن يعرف الجار جاره، وهذا عكس ما نجده في المجتمع الريفي من اتحاد الأفراد.

ويرى بعض الاجتماعيين أن التفكك الحاصل في المجتمعات الحضرية يؤدي إلى ضعف الضبط الاجتماعي ، فتقل بذلك سلطة المجتمع على أفرادها ، ويصبح الإنسان داخل المجتمع الحضري لا يراعي العادات و التقاليد و لا يضع اعتباراً للآخرين مما يؤدي إلى ظهور مشكلات مختلفة مثل تشرد الأحداث والبيغاء وشرب الخمر..(16).

II- الفقر

يرجع الفقر في المدينة إلى ضعف التكافل داخل المجتمع ، حيث يقل ترابط المجتمع والأسرة ، وتقل أيضاً مسؤولية الأفراد عن أقاربهم ، مما يؤدي إلى وجود فئة من الناس لا مورد لها إلا سؤال الآخرين ، كما أن انشغال الناس في المدينة بأنفسهم يؤدي إلى تفشي ظاهرة الفردية وعدم معرفة الناس لبعضهم البعض مما يؤدي إلى انتشار ظاهرة التسول .

III- مشكلة محو الأمية

لعل من أهم المشكلات التي يواجهها المجتمع الحضري هي مشكلة محو الأمية التي أصبحت محاربتها جد ضرورية في عصر العلم والتكنولوجيا ، إذا أصبحت الحاجة إلى ملحة إلى المعرفة والثقافة واكتساب المهارات المختلفة ، حتى يتكيف الإنسان مع التطورات المجتمعية الحاصلة ، وتعتبر مشكلة محو الأمية من أهم المشكلات في الواقع الاجتماعي في كل دولة نامية من دول العالم الثالث . وقد أثبتت دراسات علوم التنمية والتربية والاقتصاد التربوي أن رأس المال البشري والأيدي العاملة المدربة مطلوبة ، وأن الإنسان المثقف هو أعلى إنتاجية من غير المثقف ، كما أن الأمم التي اهتمت بتثقيف أبنائها من الكبار كان عائد التنمية الاقتصادية لديها أكبر(17).

ومن أجل مواكبة التطورات الحاصلة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، فإن الدول العربية تعمل جاهدة للتقليل من نسبة الأمية في بلدها ، ومن أمثلة ذلك نجد أن الجزائر أولت اهتماماً متزايداً بهذه المشكلة ، حيث أنشأت في الآونة الأخيرة ما يسمى " بالديوان الوطني لمحو الأمية وتعليم الكبار " وذلك بالتنسيق مع مختلف الجمعيات الوطنية مثل " جمعية اقرأ الوطنية " التي تعمل على تعميم التعليم في مختلف الفئات العمرية .

المدخل النظرية في دراسة المجتمع الحضري

إن المتصفح للتراث النظري الضخم ، والكتابات الخاصة بالنظريات السوسيولوجية الحضرية في كتب علم الاجتماع الحضري ، يجد أن جميع النظريات والتفسيرات النظرية للظواهر الحضرية تصب في عدة اتجاهات نظرية أساسية أهمها :

أ- **الاتجاه النفسي - الاجتماعي** : يمثل هذا الاتجاه المدرسة الألمانية في علم الاجتماع وتعرف من الناحية الزمنية بالمدرسة الكلاسيكية ، كما تعرف بالاتجاه السلوكي أو الاتجاه التنظيمي(18).

وبؤرة اهتمام أصحاب هذا المدرسة هو السلوك أو الفعل والعلاقات الاجتماعية والأشكال التنظيمية للحياة الحضرية ، فلا نطلق على الفرد صفة الحضرية انطلاقاً من مكان إقامته فحسب ، ولكن المعيار الأساسي والذي على ضوءه نخصه بهذه السمة هو نمط السلوك ، كالفعل العقلاني والابتعاد عن الاستجابة العاطفية نتيجة لتعقد الحياة الحضرية .

وتبرز معالم هذا الاتجاه في نظريات وأفكار كل من " ماكس فيبر - جورج زيمل - شبنجلر " الذين يرون أن السلوك الحضري ينتج من التعقيد النظامي غير المحدد للمدن الذي يتميز بكثافة الحجم مما يدفع ساكني

الحضر إلى التكيف مع أنماط معينة من السلوك والاستجابات لكي يتوافق مع الشخصية الحضرية مثل سيطرة الروح العقلانية والعلاقات اللاشخصية والإحساس بالكم والوقت والاتجاه نحو الرشادة في التعامل ... وهكذا فإن الطبيعة المعقدة لنمط الحياة الحضرية يطبع سلوك الساكن الحضري بمميزات خاصة وهذه السلوكيات ما تلبث أن تنعكس على المدينة في حد ذاتها (المؤسسات والتنظيمات ...) وذلك انطلاقا مما يحمله سكان المدن من تصور وأفكار وعقلانية ورشادة في حياتهم الخاصة وفي تعاملاتهم وهكذا فالعقلانية والمدينة شيان متلازمان .

• ماكس فيبر

يعتبر كتاب "المدينة" لمؤلفه ماكس فيبر سنة 1905 بمثابة الجهد الحديث وأول عمل علمي لدراسة الحياة الحضرية، ولقد كان " فيبر" على حد تعبير "ريتشارد سنت" : " انه رجل علم وسياسة إلى جانب كونه من بين علماء الاجتماع القلائل الذين تميزوا بعقلية خاصة .. فقد أدرك ضرورة إيجاد نظرية أكثر شمولاً وتميزاً للحياة الحضرية، ولتحقيق ذلك حاول أن يوضح الظروف التي تجعل دور المدينة ايجابيا للحياة العامة للناس مستعينا في ذلك بدراسته للمدن القديمة، معتمدا في نفس الوقت على تصور خاص في تعريفه للمدينة(19)". حيث أن تعريف " فيبر" للمدينة كان قائما على أساس التأكيد على طبيعتها، ونظرا إليها على أنها بيئة اجتماعية ذات خصوصية اقتصادية وسياسية ومجتمعا محليا.

1- المدينة كوحدة اقتصادية

أكد " فيبر" على الطابع الاقتصادي للمدينة ، فهي مكان لسوق دائم يتوخى منها توفير الضروريات والحاجيات اليومية من المواد المنتجة سواء من طرف سكان المدينة أنفسهم والمناطق المجاورة لها أو عن طريق التبادل التجاري ، وعلى هذا استنتج " فيبر" نمطين من المدن، النمط الأول المدينة الاستهلاكية والتي تقوم على وجود عدد كبير من المستهلكين، ويتمثل هذا النمط في المدن التجارية ، أما النمط الثاني فهو المدينة المنتجة ذات النمط الحديث حيث توطن المصانع خاصة منها تلك التي تكون منتجاتها موجهة للتصدير(20).

2- المدينة كوحدة سياسية

إذا كانت المدينة رابطة اقتصادية ذات ملكية عقارية وتسير ميزانية للإدارات والنفقات ، انطلاقا من نسق متكامل من التنظيم حسب مقتضيات السوق والتكنولوجيا ، فإن تحليل الحضرية ينبغي أن يتجاوز النظرة الاقتصادية الضيقة ، وذلك بإدخال المفاهيم السياسية التي تسمح للمدينة لان تلعب دورها في استقرار الظروف الاقتصادية الحضرية ، عن طريق التنظيم والتقنين ، وبشكل يؤمن حاجيات الجماهير بصورة دائمة وفعالة.

3- مجتمع محلي

لقد وجد " فيبر" في حديثه عن المجتمع المحلي الحضري أن المدينة بالمعنى الاقتصادي أو كحامية عسكرية أو كجهاز إداري سياسي، لا تكون بالضرورة مجتمعا محليا حضريا، حيث لا يمكن أن يمثل مجتمعا حضريا كاملا إلا إذا كان يمثل نوعا من سيطرة العلاقات التجارية.

ففي كتاب " رايمون لدروت" تحت عنوان " علم الاجتماع الحضري" ورد تعريف "ماكس فيبر" للمدينة حيث يقول: "أنه لا مجال للشك أن المدينة بمعناها الكامل تعرف بخصائص محددة بدقة، فإذا كانت المؤسسات التي تحصيلها لا توجد بالمدينة ، فمن المستحيل أن نتكلم عن مدينة ، وكذلك النموذج المثالي للمدينة يجب أن

يحتوي على العناصر التالية : السوق ، مكان القوة ، محكمة خاصة وقوانين مستقلة على الأقل جزئيا ، وشكل رابطة خاصة وإدارة نسبيا مستقلة بسلطات بالانتخاب يشارك فيها سكان المدينة(21). هذا المعنى للمدينة محدود جدا ، حيث استثنى أغلبية مدن المجتمعات الشرقية وتعرض فقط لنموذج التجمع الخاص بالغرب والذي لا يمثل أيضا حال جميع المدن الغربية ، فالعواصم الكبرى الحديثة كونها مركز الحكومة الوطنية وفقدانها استقلالها الذاتي ، فهي ليست مدن. وسوف نقف عند عناصر هذا التعريف بقليل من التفصيل والشرح كما يلي:

- أن المجتمع الحضري الكامل يجب أن يقوم على علاقات تجارية ، فالمدينة كما يعترف "فيبر" بيئة فيزيقية ولكنها تنظيم منذ البداية حول نمط يزيد من التبادل الاقتصادي ، إذ أنه من المستحيل على سكان المدينة أن يحققوا اكتفاء ذاتيا ، فالإقامة في المدن تتطلب الاعتماد الاقتصادي المتبادل بينهم ، فالجوانب الاقتصادية لحياة المدينة تبلغ أهميتها إلى درجة تحتم تطوير ميكانيزم متميز لتسهيل هذا التبادل الاقتصادي ألا وهو السوق .
- ينبغي أن يتحقق للمجتمع الحضري الكامل صفة الاستقلال الذاتي الذي يتمثل في وجود محكمة وقانون خاص به واستقلال ذاتي من الناحية السياسية واكتفاء ذاتي من الناحية العسكرية يتضمن أنساق خاصة للتحضيرات والجيش للدفاع.
- كما يعتقد " فيبر " أن شرط الاستقلال الذاتي مطلب ضروري إذا أراد سكان المدينة أن يوحدا ما بين المدينة و ذواتهم وكذلك ضرورة الولاء للمكان.
- يعتبر تطوير الشكل الملائم للروابط الاجتماعية بين سكان المجتمع الحضري من شروط وجوده ، وهذا يعني حسب " فيبر " أن المعاشية في المدن تقتضي تطوير علاقات وتنظيمات اجتماعية يستطيع سكانها المشاركة الهادفة في حياة مدينتهم.
- من هذا المنطلق يعتبر " فيبر " المجتمع الحضري كاملا إذا توفرت فيه الشروط التي ضمها تعريفه لهذا النموذج المثالي للمجتمع الحضري الكامل ، وكان دليله في ذلك أن ذروة الثقافة الحضرية قد تحققت من قبل في فترات تاريخية سابقة.

• جورج زيمل

انطلق في عملية تحليله للمدينة على خصائص اجتماعية ليلقي الضوء على أهم صور التفاعل الاجتماعي المميز للحياة الإنسانية في البيئة الحضرية وانتهى زيمل إلى أن ساكني الحضر بحاجة إلى مزيد من الدقة والتوقيت ، ليتمكنوا من الوفاء بالتزامهم وسط هذه الشبكة المعقدة لوظائف الحضرية ، من أهم نتائج هذا التعقيد تطوير اقتصاد السوق والتنظيمات البيروقراطية الكبرى وسيطرة روح العقلانية والعلاقات اللاشخصية ، وهذا ينعكس بدوره على شخصية الحضري ، و لكي يتوافق الحضري مع هذا التعقيد النظامي عليه أن يكون أكثر عقلانية وإحساسا بالكم والوقت أن " المال " و " العقل " وليس " الروح " أو " القلب " يصبحان من أهم المقومات التي تضمن بقاء واستمرار وتوافق الشخصية الحضرية ، الأمر الذي أصبح معه العلاقات بين الإنسان وأقرانه وبينه وبين البيئة عموما علاقات جزئية(22).

- وهكذا فإن المدينة تطبع عقلية أفرادها (شخصية أفرادها) التي بدورها تطبع المدينة بطابع خاص من خلال التنظيمات ، و ذلك وفق ثلاث مستويات أساسية هي :
- المستوى المادي الهيكلي التخطيطي للمدينة الذي يلاحظ في المسكن أو الشارع أو الحي أو المدينة ككل .
- المستوى الاقتصادي القائم على الصناعة والتبادل ، وعلاقات المصلحة والمنفعة والتعاقد.
- مستوى المؤسسات الرسمية التي تنظم الحياة في المدينة ، مثل مؤسسات الضبط وحفظ الأمن والسهر على مصالح السكان .

II- اتجاه الثقافة الحضرية

هو احد المداخل النظرية الذي يحاول بصفة خاصة تقديم صورة لنموذج المجتمع الحضري ، وما يميزه من خصائص من خلال منظور ثقافي باعتبار الحضرية ناتجة عن الحياة في المدينة نظرا لما تتمتع به من سمات وخصائص اجتماعية تميزها عن الحياة الاجتماعية الريفية .

ويتفق علماء الاجتماع الحضري على أن هذا الاتجاه من تطوير **لويس ويرث** وهو من مدرسة **شيكاغو** وتتضمن مقالة **ويرث** الشهيرة - الحضرية كطريقة للحياة - الدعائم الأساسية لهذا الاتجاه .

• لويس ويرث

قدم **"ويرث"** تحديدا واضحا للنظرية السوسيو- ثقافية في مقال نشر له بعنوان "الحضرية كأسلوب في الحياة" سنة 1938 ، قدم فيها مدخلا حول المدينة والحضارة المعاصرة ثم نظرية الظاهرة الحضرية ، وختمها بمناقشة العلاقة بين النظرية الحضرية والبحث الاجتماعي ، ومن بين مواضيعه في هذا المجال ما يلي :

1- المدينة والحضارة المعاصرة

أشار **"ويرث"** في تعرضه إلى المدينة والحضارة المعاصرة إلى أن العالم لم يعد هذا العالم الذي يتكون من جماعات صغيرة من الناس منعزلين ، وينتشرون على رقعة واسعة من الأرض ، وهذا ما أكدته **"سمنر"** أثناء وصفه للمجتمع البدائي ، إلا أن المظهر المميز لأسلوب حياة الإنسان في العصر الحديث هو تركزه في تجمعات كبيرة تقام فيها مراكز محددة تعمل على إشعاع الأفكار والممارسات التي نطلق عليها اسم حضارة(23).

إن إطلاق مصطلح الحضري على العالم المعاصر لا يقاس بنسبة السكان الذين يعيشون في المدن ، ولا يتميز المجتمع المحلي كمجتمع حضري بناء على الحجم فقط ، وينطبق ذلك على بعض المقاييس الأخرى مثل الكيان الفيزيقي للمدينة ، وعدد السكان وكثافتهم ، ومهتهم والإمكانات المادية المتاحة لهم والنظم وأشكال التنظيم السياسي.. في نظر **"ويرث"** أن الأهمية لا تكمن في مدى وجود هذه المظاهر المميزة للمدينة ولكن في قدرتها على تشكيل وصياغة طابع للحياة الاجتماعية في شكلها الحضري المميز ، بالرغم من الاختلافات بين المدن ، وعليه فإن التعريف الذي يمكن استخدامه للظاهرة الحضرية ليس هو التعريف الذي يركز على الخصائص والمتغيرات المشتركة بين كل المدن ، والذي يمكنه اكتشاف عناصر اختلافها ، فمدينة صناعية تختلف من حيث خصائصها الاجتماعية عن مدينة تجارية ، أو منجمية أو مدينة جامعية..

ويضيف **"ويرث"** بأن التعريف السوسولوجي للمدينة ينبغي أن يشتمل على كل الخصائص الأساسية المشتركة لأنماط المدن ككيانات اجتماعية.

وانطلاقاً من ذلك يمكن تعريف المدينة للأغراض السوسيوولوجية على أنها وحدة عمرانية كبيرة سكنيا ، وذات كثافة سكانية عالية ومحل سكن دائم لأفراد غير متجانسين اجتماعيا.

2- النظرية الحضرية

لقد أشار "ويرث" أن المشكل الأساسي عند علماء الاجتماع المدينة هو الكشف عن صور الفعل والتنظيم الاجتماعي، والتي يمكن أن يرجع سببها المنطقي إلى الحجم المتزايد للسكان وإلى الكثافة العالية وعدم التجانس، وأن هذه المتغيرات تؤدي إلى مجموعة من القضايا يمكن أن تنسب إلى الحياة الحضرية في التحليل السوسيوولوجي .

2-1- حجم السكان

أشار "ويرث" إلى أن عدد السكان الكبير يؤثر على التفاعل والتباين بين الأفراد ، بحيث تصبح الخصائص الشخصية مثل المهن، الحياة الثقافية وأفكار المجتمع الحضري موزعة أكثر مما هو عليه . إن التباين القائم على أساس اللون، السلالة أو المكانة والمنزلة الاجتماعية والاقتصادية ، يؤدي إلى العزلة المكانية الشيء الذي يؤدي إلى اختفاء روابط القرابة والجيرة والمشاعر التي نشأت نتيجة الحياة المشتركة للأجيال التي تعاقبت في ظل التقاليد نفسها على الأقل ضعفت أو نقصت أهميتها، مما ينتج إحلال المنافسة وميكانيزمات الضبط الرسمي محل التعاون والتضامن الذي يعمل على تماسك المجتمع التقليدي. وعلاوة على ما سبق فإن حجم السكان الكبير يلعب دورا هاما في التحديد من إمكانية معرفة سكان المدينة معرفة شخصية ، مما يترتب عن ذلك انتشار علاقات اجتماعية ذات طابع انقسامي، وأن هذا لا يعني أن الحضريين يتعرفون على الآخرين أقل من الريفيين بل أن ذلك يعود لكون الحضري يعيش ضمن مجتمع يتميز بالحجم الكبير ولا يعرف منه إلا عددا قليلا من الأفراد وبدرجة أقل من المودة ، وهذا مما جعل "ويرث" يعتبر المدينة بأنها مجتمع ذو علاقات ثانوية أكثر منها أولية تتميز بعدم التعمق ومؤقتة وانقسامية، أن هذه العلاقات تفسر الفكر العقلاني والمنفعي الذي يتميز به أغلب سكان المدينة، ويضيف "ويرث" أن معرفة الآخرين أغلبها تعتبر وسائل لتحقيق الأهداف الخاصة. ففي الوقت الذي يستطيع فيه الفرد أن يحقق أعلى درجات التحرر من الضوابط الذاتية والعاطفية التي تمارسها الجماعات القرابية، يفتقد من جهة أخرى التعبير الذاتي والتلقائي والروح المعنوية والإحساس بالمشاركة . ولذا فإن الطابع الانقسامي والمنفعي للعلاقات بين الأفراد في المدينة يعبر عنها بتعدد المهام المتخصصة ، فزيادة نمو السوق يصاحبه زيادة كبيرة في تقسيم العمل مما يزيد من الاعتماد المتبادل والذي بدوره يؤدي إلى اختلال التوازن في المدينة مما يؤدي إلى تخصص كل مدينة فيما يميزها عن غيرها من المدن ، وأشار "ويرث" في الأخير إلى أن صعوبة الاتصال الشخصي والمباشر بين الأفراد تتطلب توكيل أمر الدفاع عن مصالح الأفراد إلى أجهزة وهيئات مختصة بذلك ، يتم من خلالها عمليات الإنابة والتفويض(24).

2-2- الكثافة:

استخلص "ويرث" مجموعة من الأفكار والآراء الناتجة في حالة ارتفاع الكثافة السكانية للمدينة منها :
- الاختلاف بين الاتصال الفيزيقي والاتصال الاجتماعي حيث يتميز الأول بالشدة، بينما يتميز الثاني بالسطحية.

- ازدياد درجة التخصص والتباين بين الأفراد ، فالجماعات المتشابهة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، تقطن بمناطق سكنية أو أحياء واحدة ، مما يزيد في عزلتها المكانية ، كما أن المناطق بالمدينة موزعة حسب وظائفها.
- يتحدد نمط استخدام الأرض واستغلالها على ضوء المنافسة ووفق الموارد المحدودة ويتوقف ذلك على مكانة الأفراد الاجتماعية وخصائصهم وأنواع الأعمال المتاحة لهم، وغيرها من العوامل التي يحددها اختيارات الناس للإقامة في منطقة معينة.
- الحاجة إلى ضوابط رسمية لمواجهة احتمالات الفوضى والتفكك.

2-3- اللاتجانس:

- إن أهم المصاحبات الاجتماعية التي يؤدي إليها اللاتجانس هي :
- تعقد البناء الطبقي وظهور التدرج الاجتماعي المتفرع والمتميز في المجتمعات المتكاملة بالإضافة إلى زيادة معدل الحراك بأشكاله الفيزيكية والاجتماعية .
- بروز الحراك المكاني والاجتماعي وتعدد الجماعات التي ينتمي إليها الفرد الأمر الذي يؤدي إلى ضعف الولاء العاطفي لأي مجموعة من المجموعات التي ينتمي إليها ، وذلك نتيجة تعدد المصالح الناشئة عن الأبعاد المختلفة للحياة الاجتماعية ، ويدعم هذا العمل عدم الاستقرار المكاني والحراك الاجتماعي.
- تصبح مكانة الشخص الاجتماعية مقننة لما لها من فائدة واضحة من الناحية الاقتصادية ، فالفردية تعوض بالفئة ، وذلك لتدعيم المتطلبات المشتركة للمجتمع سواء كانت مادية أو خدمية ، عامة أو خاصة كما هو الحال في المدارس والمستشفيات والجرائد....

الوظائف الحديثة للأسرة

تختلف وظائف الأسرة من مجتمع لآخر وحتى داخل المجتمع الواحد ، ولذلك اختلف الكثير من علماء الاجتماع والعائلة في تصنيف وظائف الأسرة بين القديم والحديث ، وذلك ناتجا لتغير بناء الأسرة وظيفتها ، حيث كانت الأسرة قديما هي المسؤولة عن عملية تعليم الأبناء وتعديل سلوكهم ، بحيث توكل إلى الجد أو الكبار في السن ، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان أفراد الأسرة هم المسؤولون عن تأمين المأكل والملبس والمأوى ، فقد كان الأب وأبنائه يعملون في الحقول والمزارع والورشات ، أما الأم فكانت تجلب الماء وتقوم على شؤون المنزل وتصنع حاجاتها وحاجات أبنائها بنفسها كالنسيج والفخار ... وبذلك توفر اللباس والفراش وغيرها ، أما حاليا فالأسرة لم تعد وحدة اقتصادية متكاملة بل أصبحت النزعة الفردية هي التي تسودها ، حيث فقدت الأسرة الحديثة الكثير من الوظائف نتيجة عدة عوامل من أهمها خروج المرأة للعمل ، ظهور مؤسسات بديلة تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية كدور الحضانة والمدرسة والمسجد ودور الثقافة والنوادي ووسائل الإعلام ، حيث يقول "ويليام أوجبرن" : " أنه نتيجة لفقدان الأسرة هذه الوظائف أصبحت أسرة متفككة" (25) ، وبالتالي اختلفت وظائف الأسرة بين الأسرة التقليدية والحديثة ، ويجمع الكثير من أن من وظائف الأسرة الحديثة ما يلي :

أ- الوظيفة البيولوجية

فالأسرة تقوم بحفظ النوع البشري من خلال إشباع الحاجات الجنسية على أسس منطقية وقانونية وشرعية ، إلى جانب تقديم الإشباع العاطفي للأفراد ، أي تنظيم الأنشطة الجنسية والإنجاب ، والمحافظة على

استمرار المجتمع وتربية وتنشئة الطفل على عادات وتقاليد المجتمع ، كما أنها تقوم بتوفير الحاجات الأساسية للأفراد من مأكّل ومأمن ولباس وحب ورعاية ، فهو إذن التفاعل المتعمق بين جميع أفراد الأسرة في المشاعر العاطفية(26).

II - الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية

تعتبر التنشئة الاجتماعية من أولى العمليات الاجتماعية ومن أكثرها شأنا في حياة الطفل، لأنها الدعامة الأولى التي ترتكز عليها مقومات الشخصية الإنسانية ، فوظيفة التنشئة الاجتماعية من أهم وظائف الأسرة حديثا أو قديما حيث تعمل على ترويض الطفل واستئناسه وتدريبه على كيفية التعامل مع الآخرين ، وتكوين علاقات طيبة معهم ، ومنه يتكون لديه الشعور بالمسؤولية نحو أسرته ومجتمعه ، وغرس عوامل الضبط الداخلي للسلوك، وتحقيق النضج الاجتماعي والنفسي ، ومن خلال مختلف أنشطتها تعمل الأسرة على نقل الثقافة من جيل إلى آخر عن طريق التربية ، كما أنها تعمل على تنقية وغرلة الثقافة من الأنماط السلوكية والفكرية التي لا تتماشى مع مبادئها وأهدافها إلى جانب ممارسة عملية الضبط الاجتماعي وتهذيب السلوك ومحاولة تكييفه مع القواعد المجتمعية، كما أنها تعتبر الوحدة الاقتصادية الأساسية والعائل الرئيسي للأفراد ، حيث يتولى الأب مهمة إعالة أفراد أسرته.

III - الوظيفة التعليمية

يتمثل دور الأسرة في الإشراف ومتابعة أطفالها في الواجبات المدرسية المنزلية وفهم الدروس، ويمكن القول أن الوالدين هما الذين يحددان مدى تقدم أو تأخر الطفل في المدرسة ، وذلك عن طريق مساعدة أبنائهم في استذكار الدروس ، حيث أن درجة تعليم الوالدين هنا لها تأثير كبير على مستوى التحصيل ، ويمكن إجمال بعض الحقائق الخاصة بالوظيفة التعليمية، كون دور الأم المتعلمة يتعاظم أكثر من دور الأب في الإشراف على تعليم الأبناء وأداء واجباتهم المدرسية وتهذيب سلوكياتهم وحمايتهم من الانحراف في نمط المجتمع الحضري أكثر من المرأة الأمية ، إلى جانب قيام الأخوة الكبار بمهمة الإشراف ومتابعة إخوتهم الصغار خصوصا في الطبقات الفقيرة (27).

الأسرة الجزائرية في ظل التغيرات الاجتماعية والحضرية

لقد عرفت البناءات الاجتماعية و الأسرية تطورات تاريخية خلال أهم مرحلة من مراحل عدم استقرارها، والتي كانت في مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر، و فقدان السيادة الوطنية، و تعرض الجزائريين للتشريد والاضطهاد، لذا لم يجد المجتمع الجزائري نفسه أمام مستوى من التنظيم الاجتماعي أثري حصوله على الاستقلال، كما حدث في مجتمعات كثيرة حديثة الاستقلال، و الظروف الاجتماعية و الاقتصادية التي تتميز بها في تلك الفترة جعلت ظهور حركة نزوح غير منتظمة من الريف نحو المدن التي كانت تفتقر لأدنى شروط الاستقبال للكم الهائل من السكان النازحون من الأرياف، كما وجد الريف الجزائري كذلك بمختلف تنظيماته عاجزا أمام هذه الأحداث التي تجاوزت قواعده و أدواره، فالأسر الجديدة النازحة إلى المدن أصبحت تطمح و تتطلع إلى حياة أفضل من التي كانوا يحيونها في الريف، و إلى نمط أسري حضري.

"فالأسرة الجزائرية وحدت نفسها في مرحلة الاستقلال، بصفة محسوسة مختلفة عن تلك التي كانت في بداية القرن، و مختلفة مقارنة مع وضعيتها أثناء الاستعمار الفرنسي و أهم خصائص ذلك التحول الأسري

والاجتماعي في نفس الوقت، من جهة اختفاء وحدة التنظيم و فقدان الانقسام الاقتصادي الأسري، هذه الخصائص من شأنها أن تؤثر على وحدة التنظيم الأسري و على مضاعفة الموارد الاقتصادية الأسرية" (28). و لقد اعتبرت العائلة الجزائرية عائلة موسعة ممتدة من حيث عدد الأسر، إذ يعيش بين أحضانها عدة أسر نووية (زواجية)، لكن ما نلاحظه اليوم أن هذه الخاصية أصبحت تتم بدرجات متفاوتة، أي أنها تحدث بصورة نسبية، نتيجة لتقدم و تغير الظروف الاجتماعية و الحضارية المتعلقة بالمجتمع الجزائري، و قد أشارت بعض الدراسات إلى أن حركة النزوح الريفي بعد الاستقلال من الريف إلى الحضر و في ظل التغيرات الاجتماعية بدأت الأسرة الممتدة تفقد شكلها بتحولها إلى شكل الأسرة الزواجية و ضمن العلاقة بين تطور المجتمع و المؤسسة الأسرية نجد بارسونز يؤكد أنه " بالموازاة مع مرور المجتمع الريفي التقليدي إلى نمط المجتمع الصناعي الحضري، تحضر إلى فقدان حتمي للأسرة الممتدة التي تحل محلها الأسرة النووية".

وقد بقيت الأسرة الجزائرية منذ عهد يعود فيها نظام السلطة أبويا، فالأب في الأسرة هو صاحب السلطة العليا، و الجد هو القائد الروحي لكل جماعة عائلية بحيث تُستجاب كل أوامره و له الحق في أن ينظم و يسير التراث الجماعي حفاظا على تماسك الجماعة، أما بورديو فقد " اعتبر الأسرة الممتدة الخلية الأساسية في المجتمع الجزائري و هي تجمع الأقارب و تتوحد تحت سلطة واحدة تضم أجيال متعددة في تجمع حميمي، فالأسرة الممتدة هي الوحدة الأساسية فهي تضم مجموعة من الأسر النووية".

فالعائلة الجزائرية هي عائلة مركبة تمتاز بالانقسام، تتكون من عدة أسر نووية تعيش مع بعضها البعض لتصبح بعدها العائلة مشكلة من عدة أسر بسيطة نتيجة عملها المشترك خاصة المجتمع الريفي الجزائري الذي يعتمد على النشاط الفلاحي المشترك.

فالأسرة الجزائرية ظلت لمدة طويلة موسعة و كثيرة العدد و هي تتكون في غالب الأحيان من الأب و زوجته وأولاده العزاب و المتزوجين و زوجاتهم و أبنائهم، يقيمون تحت سقف واحد في منزل كبير للعائلة، هذا والأسرة أحيانا تضم الجد و الجدة الذين على قيد الحياة و الأخوات و العمات الغير متزوجات، لهذا وصفت بالامتداد، لأنها عرفت امتدادات كثيرة باتجاه السلف و الخلق، حافظت من خلالها على نفس الاسم و نفس البنية". فمن خلال بعض الإحصائيات التي أجريت سابقا حول حجم الأسرة فقد سجلت سنة 1966 تقريبا 5.9 و في سنة 1977 ما يقارب 6.6 و في سنة 1987 بلغ متوسط عدد أفراد الأسرة الجزائرية 7 ، لكن من الضروري التأكيد على الدور الذي سيلعبه التحضر الذي شهده المجتمع في مراحل لاحقة في تقلص انتشار الأسرة الممتدة" (29).

لقد كان التماسك الداخلي من أهم السمات التي تتسم بها الأسرة الجزائرية و يظهر رضا كل فرد من خلال قيامه بالمهام و الأعمال الموكلة إليه و هذا في سبيل الأفراد الآخرين من أبناء الأسرة الواحدة ، و هذا كتعبير عن الرابط القوي الذي يوحد بينهم و يجعل تماسكهم الداخلي حقيقة غير مصطنعة فكل واحد يشعر أنه عنصر ضروري لا بد من وجوده في حياة الأسرة وانتظامها واستمرارها، دون أن ننسى كذلك تركيز القدرة الإنتاجية في يد رب الأسرة الممتدة يجعلها أكثر صلابة وقوة، فهو المرجع الأساسي لكل العمليات الاقتصادية و المالية، وتأمين لوازم البيت من مأكول وملبس وكل ما يحتاج إليه أفراد أسرته في البيت، كما يقوم هو بكل الترتيبات اللازمة لزواج أحد أبنائه". ولقد وجدت الأسرة الجزائرية متكيفة مع

نظام المجتمع الجزائري بعد الاستقلال والذي تميز بمجموعة من المركبات التي تعتبر متغيرات هامة، و هي التحضر المكثف و السريع ، العمل المأجور كنمط اقتصادي جديد، التعليم المهم كقاعدة ثقافية جديدة والتمايز الاجتماعي من خلال انتشار قوى اجتماعية متميزة(30).

فطبيعة العلاقات الاجتماعية أصبحت مبنية على المصلحة المادية التي يحكمها العمل المأجور المحدد بالزمان والمكان دون أي اعتبار للجنس و الاختلاط أو السلالة أو القرابة وغيرها ، لذا أثرت هذه الوضعية الجديدة على النمط الأسري و العلاقات القائمة بين أفرادها ولكن المتيج تطورات المجتمع الجزائري وتحولاته بصفة عامة، يلاحظ أن هذا التأثير يختلف من منطقة إلى أخرى و من مرحلة إلى أخرى.

فسيطرة الفئة المتعلمة وتوسعها بشكل كبير عكست التغيير الاجتماعي و الاقتصادي والثقافي الذي عرفه المجتمع الجزائري والأسرة، حيث مكنها المستوى التعليمي المرتفع من شغل عدة وظائف ومناصب جديدة جعلتها تستقل اقتصاديا عن الأسرة الكبيرة و التنظيم الاقتصادي الجماعي ، لذا أصبحت الفئة المتعلمة مؤهلة لتحقيق الاستقلال الاقتصادي عن الأسرة الممتدة وأصبحت قادرة على الاعتماد على نفسها وتكوين نفسها بنفسها دون الرجوع إلى مسؤولية الوالدين.

هذا ما جعل هذه الفئة ترغب في الزواج و الاستقلال و الانتقال إلى مسكن جديد، رغم استمرار الوالدين في مراقبة وحماية أبنائهم المتزوجين في مسكنهم العائلي، لكن في الأعماق فإن هذا الاستقلال يوفر فرص التواصل بين الأجيال.

فالتقاليد الجزائرية تعطي للزوجين الجديدين الحق في الاشتراك في المسكن مع والدي الزوج ، لكن هذا النمط يعرف معارضة كبيرة من طرف فئة المثقفين خاصة من جهة الفتيات اللواتي يشترطن أكثر سكنا مستقلا لتفادي الصراعات و المشاكل بين أفراد الأسرة، ومن جهة هناك ضعف في الإمكانيات المادية بالنسبة للشباب مما يفرض على بقائهم مع العائلة في المنزل المشترك بعد زواجهم ، رغم حصول بعضهم من المتعلمين على مناصب عمل في قطاعات مختلفة كالمؤسسات الاقتصادية والتعليمية وقطاع الخدمات .

ونعود للقول كذا لك بأن الاستقلال الاقتصادي الذي تتميز به الأسرة الزوجية الجديدة ساعد على ظهور بنية جديدة لشبكة العلاقات التي لم تعد مفروضة كالقرابة، أو التواصل العائلي أو المساعدة المادية بل تقوم على الاختيار الحر الذي توجهه الخصائص و الميول الذاتية ، فالمسكن المستقل لا يوفر فرص لقاء والاحتكاك المستمرين بالأهل ، وقد أخذت تنمو علاقات تفاعل خارج إطار العائلة و القرابة مع الأصدقاء ، ومع زملاء العمل، فالانتقال من العائلة الممتدة التي اعتبرها البعض ظاهرة عامة تتضمن الوظائف التربوية ، التنشئة الاجتماعية، الإنتاجية ، الجمالية ، الروحية ، الدينية وغيرها إلى عائلة نووية أو زوجية كما يسميها البعض أصبح مقبولا اليوم، على أنه شكل موجود في العديد من المجتمعات و منها المجتمع الجزائري " فعلى غرار العديد من المجتمعات عرفت فئة من العائلات الجزائرية الكبيرة مبدأ التجزئة لتتشكل عنها أسر نووية سواء تحت ضغط العدد أو انطلاقا من مبدأ التطلع إلى حياة خاصة أكثر استقلالا، فتجتمع الجزء الأكبر من السكان في وحدات تتراوح بين 6، 11 فرد يجعلنا نجزم بوجود نوع من الميل نحو تجمع عائلي قليل العدد(31).

ففي مجتمعنا تبقى الأسرة الصغيرة رغم البعد المجالي بينها وبين الأسرة الأصلية الممتدة إلا أنه يبقى التواصل بينهما اجتماعيا و يظهر هذا في المناسبات السعيدة كالأعياد الدينية و الأفراح (كالأعراس) أين يجتمع و يتم لمّ شمل كل أفراد العائلة، و دون أن ننس المناسبات الحزينة كالمرض و المأتم كذلك، أما اقتصاديا يظهر في الدعم المالي خاصة إذا كان الزوجين يعملان و هذا يحقق الرفاهية مما يؤدي إلى تدعيم الأسرة الممتدة خاصة عند كبر و عجز الوالدين.

خاتمة:

سعت هذه الدراسة - كخطوة أولى - إلى بيان خصائص الأسرة الجزائرية التقليدية أو العائلة، ثم بيان خصائص المجتمع الجزائري التقليدي، وطبيعة التحديات والتحويلات التي عاشها، سواء في ظل الاحتلال أو في إطار الدولة الوطنية، كتجلي لنا مظاهر التغير الأسري سواء الخاصة بعمل المرأة وكذلك اقتناء مساكن مستقلة للأبناء وبروز حالات دالة على ضعف أو اصر الصلة بين أفراد العائلة كما ظهرت هناك أنواع أخرى من العلاقات مبنية على المساواة والتشاور داخل الأسرة ومع المؤسسات المحيطة، لتنتقل بعد هذا العرض إلى بيان انعكاسات هذه التحويلات على بنية الأسرة وحجمها، وعلى علاقاتها الداخلية، ثم على قيمها الاجتماعية - الأخلاقية، ولقد كانت لهذه التغيرات التي طرأت على المجتمع، انعكاسات على بنية وحجم الأسرة الجزائرية، وعلى منظومة العلاقات بداخلها، وعلى قيمها الاجتماعية، أما على صعيد القيم الاجتماعية، فساهمت تلك التغيرات في إدخال بعض التعديلات عليها، سيما فيما يخص تصور هذه القيم، ودرجة تجسيدها واقعيًا، أن الأسرة الجزائرية اليوم، وإن تأثرت بعوامل التحديث، سواء في بنيتها وفي علاقاتها الداخلية، وفي قيمها الاجتماعية، فإنها لا تزال تتمسك ببعض عناصر ثقافتها التقليدية في جميع هذه المجالات.

المراجع:

- 1- تماضر حسون، حسين الرفاعي، المشكلات الأرضية المصاحبة لنمو المدن والهجرة إليها، د ط ب.
- 2- مريم أحمد مصطفى وآخرون، التغير ودراسة المستقبل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002.
- 3- محمود الكردي، النمو الحضري، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1980.
- 4- محمد الجوهري وآخرون، دراسات في علم الاجتماع الريفي والحضري، ط2، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، 1975.
- 5- عبد المنعم شوقي، مجتمع المدينة - الاجتماع الحضري - دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981.
- 6- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضري، مكتبة الجامعي الحديث، الأزاريطة، مصر، 1998.
- 7- عزت عبد الكريم وآخرون، المجتمع العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- 8- احمد النكلاوي، دراسة في علم الاجتماع الحضري، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1973.
- 9- عبد المنعم بدر، دراسات في التنمية الريفية، (د ط) دار المعارف، مصر، 1979.
- 10- السيد الحسيني، المدينة - دراسة في علم الاجتماع الحضري - المرجع السابق.
- 11- صلاح العبد، التوطين والتنمية والمجتمع بالوطن العربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، مصر، 1973.

- 12- عبد الله خليفة، اثر العوامل الاجتماعية في توزيع السكان على احياء مدينة الرياض، (د ط) ، الرياض ، السعودية، 1980.
- 13- عبد المجيد عبد الرحيم ، علم الاجتماع الحضري ، المكتبة الانجلو- مصرية، القاهرة مصر ، 1986.
- 14- فتحي محمد أبو عيانة، دراسات في علم السكان ، ط2، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، 2000.
- 15- محمد عبد الفتاح محمد ، الخدمة الاجتماعية في مجال تنمية المجتمع المحلي ، المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع ، ط02 ، 1996.
- 16- قباري محمد إسماعيل ، علم الاجتماع الحضري ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر.
- 17- محمد بومخلوف ، التوطن الصناعي وقضايا المعاصرة، المرجع السابق.
- 18- السيد عبد العاطي السيد ، علم الاجتماع الحضري بين النظرية والتطبيق ، المرجع السابق.
- 19- J.Remy et Voye ، La ville et l'urbanisation ، modalités d'analyses sociologiques ، Cabay-Jewierski ، 1982
- 20- هالة منصور، المرجع السابق.
- 21- إبراهيم الموسوي ، المدينة الإسلامية في ضوء علم الاجتماع الحضري مقال بالانترنت ، www.darislam.com 2012/08/22 ، 14,00.
- 22- Louis Wirth yves (G) et Issac (J) L'école de Chicago Le Phenomene Urbain comme Mode de vie .
- 23- Louis Wirth ,ibid.
- 24- Louis Wirth ,ibid.
- 25- سناء الخولي ، الزواج والعلاقات الأسرية ، المرجع السابق.
- 26- خيرى خليل الجميلي و بدر الدين عبده ، المرجع السابق.
- 27- سناء الخولي ، الزواج والعلاقات الأسرية ، المرجع السابق.
- 28- Kouaouci Ali ، Famille ، Femme et Contraception ، C E N E A P ، Alger 1992.
- 29- Kouaouci Ali ، OP Cit.
- 30- Boutefenouchet Mostafa ، Systeme Social et Changement ، Social En Algerie. O P U ، Alger ، sans date.
- 31- La Coste du Jardin Camille ، Un Village Algerien ، Structure et Evolution ، SNEP ، Alger 1976.